عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

المجلد الأول

الجزءان : الأول والثاني

من مباحث هذا المجلد :

١ ـ الجن .. الشيطان .. إبليس .

٢ ـ النسخ .. ولا نسخ فى القرآن!

٣ ـ آدم .. مادة خلقه . . .

* الشجرة التى أكل منها . . .

* الجنة التى كان فيها . . .

٤ ـ الوصية للمتوفى عنها زوجها .

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد .. خاتم النبيين .. السراج المنير
والرحمة المهداة للعالمين .. وعلى آله وصحبه وسلم .

مطبعة السنة المحمدية
١٧ شارع شريف باشا الكبير - عابدين
ت ٩٠٦٠١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله ربّ العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدّين * إياك نعْبد وإياك نستعين * إهدنا الصّراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين *

بسم الله نستفتح خزائن علمه ، ونطرق أبواب حكمته ، وبحمد الله نستقبل مواطر فضله ، ونرجو المزيد من غيوث رحمته . . وبالصلاة والسلام على رسول الله ؛ نتزود بخير زاد ، فى صحبتنا لـكتاب الله،الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، هدى ورحمة للعالمين !

فسبحانك اللهمّ وبحمدك ، وتبارك اسمك وتعالى جدُّك ، والصلاة والسلام على النبى الأمى ، الذى بعثته فى الأميين رسولا يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الـكتاب والحكمة ، فحمل الأمانة ، وأدى الرسالة ، وجاهد فى الله حقّ جهاده ، حتى أجلى غواشى الشرك من القلوب ،وقشع ضلالات الجهل عن العقول ، وغزا بالقرآن أمة ركبها الضلال ، واستبد بها العمَى ، فصابها بصوب حكمته ، وأدبها بأدب نبوته ، وصاغها صياغة جديدة ، فإذا هى أمة غير الأمة، وناس غير الناس ، حتى لقد استأهلت أن تلبس هذا الوصف الـكريم الذى وصفها الله به فى كتابه الـكريم إذ قال سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجتْ للناس » !

* * *

فالأمة الإسلامية هى أمة القرآن ، إليه يُرَدّ أصلها ، وبه يُعرف نَسبها ، ومنه نسجت وتنسج مالبست وتلبس من حلل العزة والـكرامة والسيادة ،

ولن يُمسك عليها وجودها فى هذا المقام الكريم إلا رعايتُها للقرآن ، وتمسكها به ، واجتماعها عليه ، . ويوم تفتر عزيمتها عن المضى معه ، أو تسترخى يدها عن الشدّ عليه والتعلق به ، يوم يكون ـ ولا كان ـ رِدّتها إلى الجاهلية ، ورِكسها فى الضلال ، ورعيها فى الهَمَل مع السائمة والهائمة ، من حواشى الأمم ، ونفايات الشعوب !

وتاريخ المسلمين مع القرآن الكريم يشهد لذلك شهادة قائمة على هذا الحساب ، مقدرة بهذا التقدير ، جارية معه . . طرداً وعكساً ! !

فإنه على قدر ما كان يقترب المسلمون من كتابهم الكريم ، وبقدْر ما كانوا يَرْعَوْنَ حقَّه ، ويؤدون أمانته ـ كان نصيبهم من الخير ، وكان حظهم من السلامة فى أنفسهم ، وأموالهم ، وأوطانهم !

والعكس صحيح . . فإنه على قدر ما كان يبعد المسلمون عن كتابهم ، وبقدْر مايفرّطون فى حقه ، ويستخفّون بشأنه ـ بقدْر ما كان بعدهم عن الخير ، وكان دنوّهم من الخطر ، وتعرّضهم لآفات التفكك والانحلال !

وليس هذا شأن المسلمين وحدهم . . بل هو شأن كل من يُدْعى إلى الخير فيلقاه مُعْرِضاً ، أو يصحبه على دَخَل وجفاء !

وفى واقع الحياة ، وعلى مسرح أحداثها كثير من المَثُلات والعِبَر !

بنو إسرائيل مثلا . .

أطعمهم الله خيرَ طعام ، تشتهيه النفس ، وتطيب معه الحياة ، فأنزل عليهم المَنَّ والسلوى .. مائدة من السماء . . يجدونها حيث يشاءون ، حاضرة عتيدة بين أيديهم ، لايتكلفون لها جهداً ، ولا يبذلون من أجلها دانقاً أو درهماً ! !

ومع هذا ، فقد عافت نفوسهم هذا الطعام السماوى . . الطيب الكريم ،

المحفوف بالرحمات والبركات ، وأبت عليهم نفوسهم اللئيمة الخبيثة إلا أن تضع فمها فى التراب ، وأن ترعى مع الأنعام ، وتأكل مما يأكل الحيوان . . !

وقد كشف القرآن عن هذا الموقف اللئيم ، الذى وقفوه إزاء هذه النعمة الكريمة ، فقال تعالى :

« وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ . وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ . . . » (٦١ : البقرة) .

فهذه مائدة كانت ممدودة لهم من السماء ، وكان جديراً بالقوم أن يعيشوا فيها ، وأن يهنئوا بها . . ولو أنهم فعلوا مازايلهم هذا الخير أبداً ، ولعاشت فيه أجيالهم جيلا بعد جيل ، يطعمون من هذا الطعام الطيب الكريم ، الذى تصفو عليه النفوس ، وتنتعش الأرواح ، كما تصح عليه الأبدان ! !

ومن يدرى ؟ فلعله لو ذهب بنو إسرائيل بهذه التجربة إلى غايتها ، لتغير وجه الحياة الإنسانية بهم ، ولظهرت فى الحياة سلالات بشرية لا تحمل معدة الحيوان ، ولا بهيمية البهائم . . ولكن الله بالغ أمره !

« قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا » (٣ : الطلاق) .

فبدّل الله نعمة القوم نقمة ، وضربهم بالذلة والمسكنة ، فما استقام لهم بعدها وجه فى الحياة ، ولا كان لهم فيها من زاد إلا السحت الخبيث من الطعام ، يختلسونه اختلاساً ، مما يأكل الناس والأنعام !

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ

فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاه بِهَا ولَكِنَّه أَخْلَدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحمِلْ عَلَيْه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ » (١٧٥ ـ ١٧٦ : الأعراف) .

ونحن ـ المسلمين ـ ماذا كان منا اليوم فى شأن هذا الكتاب الكريم الذى بين أيدينا ؟

لقد أنزله الله علينا مائدة من السماء ، حافلةً بالطيبات من الرزق ، محملة بالكريم الغَدَق من النعم !

فذالكم هو « القرآن الكريم » الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : « وَنُنَزِّلُ من القرآن ماهُوَ شفَاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين » (٨٢ : الإسراء) . . والذى يقول فيه النبيّ صلوات الله وسلامه عليه : « القرآن مأدُبة الله ، فتعلموا من مأدبته » .

ففى مأدبة الله هذه . . الشفاء والرحمة . . وإن المائدة التى أعدّها الله للمسلمين ، ووضعها بين أيديهم ليست على شاكلة تلك المائدة التى أنزلها على بنى إسرائيل . طعاماً يُغذّى الأجسام ، ويشبع البطون .

إن المائدة الممدودة للمسلمين ، مائدة يتغذى منها العقل والروح ، فتتخلق منها ملكات علوية ، ووجدانات ربانية . بها يسمو الإنسان ويعلو ، وبها ينتصر على هذا الضعف الإنسانى ، وينتصر على تلك النزعات الحيوانية ، المندسّة فى كيانه .

ولهذا يقول الرسول الكريم عن تلك المأدبة : « فتعلموا من مأدُبته » ولم يقل : « فكلوا من مأدبته » . . ذلك أن القرآن مأدُبة علم وحكمة وخلق ، وليس مأدبة معدة ، ولاطعام بطون ! !

وانظر كيف رفع الله قدر هذه الأمة ، وأعلى شأنها ، وكيف جعل غذاءها السماوىّ الذى أنزله عليها غذاء يتصل بالروح ، ولم يجعله فيما يقدم إلى البطن والمعدة ، وفى ذلك مافيه من كرامة وتكريم لهذه الأمة ، التى تتلو القرآن وتدين بالإسلام ، وتتعبد بقول الحق جل وعلا فى شأنها : « كنتم خيرَ أمّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتَنْهَوْن عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (١١١ : آل عمران) .

فمن شأن القرآن أن يقيم المتصلين به على طريق الحق ، فيأمرون بالمعروف ويَنْهَوْنَ عن المنكر ، ويؤمنون بالله !

إن الذى يستقيم على دعوة القرآن ، لهو إنسان سليم فى كيانه ، مُعافًى فى نفسه ، ثم هو مع ذلك قادر على أن يحمل الهدى إلى غيره ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويكون خليفة الله فى الأرض ، وخليفة الرسول فى الدعوة إلى الله ، وهداية الناس إليه .

ولكن صحبة المسلمين للقرآن لم تكن قائمة على العدل والإحسان فى جميع الأحوال .. فكثيراً ما أساء المسلمون تلك الصحبة ، وأوسعوها جفاء وعقوقاً ، حيث يعيش القرآن فيهم غريباً . . لايقفون عنده ، ولا يلتفتون إليه ، ولا يتدبرون آياته ، ولا يتلقوْن بعض مافيه من خير وهدى !

* * *

والجفوة التى بين المسلمين وبين القرآن الكريم جفوة غليظة مستحكمة ، قد تداعت عليها دواع كثيرة ، أحكمت بنيانها ، وثبتت دعائمها ، فلم يعد بين المسلمين وبين القرآن طريق يصلهم به إلا تلك الطرق الدارسة الطامسة ، التى تتصاعد منها أتربة وأدخنة ، تعمّى على الناظر منهم فى كتاب الله ، وجوهَ الحق والخير التى فيه .

وإن كل حظ المسلمين اليوم من القرآن هو حظهم من مخلّفات الآباء والأجداد ، مما تضمه المتاحف ودور الآثار ، يزورونها لِماماً ، ويطرقونها حيناً بعد حين . . قد تثير فيهم تلك الزّورة نشوة عارضة ، أو تبعث فيهم عزّة كاذبة ، ينفضونها عن نفوسهم قبل أن يجاوزوا المزارة ، كما ينفضون ماقد يكون علق على ثيابهم من التراب ، وهم يجوسون خلال الديار !

فنحن نُلِمّ بالقرآن إلماماً ، ونلقاه حيناً بعد حين ، وقد نذكر به فى تلك اللقاءات ، وهذه الإلمامات ، مانذكر من مواعظ وعظات ، ثم لانلبث حتى ننخلع عن هذه المشاعر قبل أن نضع المصحف من أيدينا ، لنلقَى الحياة ونختلط بها ، كما نحن ، على الوجه الذى كنا نصحبها به ، ونعيش معها عليه !

فما يحدّث به القرآن شىء ، وحياتنا التى نحياها ونتقلب فيها شىء آخر ، بعيد كل البعد عن القرآن ، وما يحدثنا به القرآن !

إن المسلم ـ منا ـ يعيش فى هذه الحياة بشخصية « مزدوجة » ويلقاها بنفس منقسمة على نفسها ، ولهذا كان مسيره فيها مضطرباً مختلجاً ، تتماوج أبعاضه بين مشرق ومغرب ، وشمال وجنوب ، فهو يتحرك فى مكانه ، حركة متماوجة مضطربة ، فلا يتقدم خطوة إلى الأمام ، على كثرة هذا الضرب المضطرب فى الأرض !

والسبب فى هذا يرجع ـ فى تقديرنا ـ إلى « تميّع » العقيدة الدينية فى نفس المسلم ، وإلى اختلاط كثير من مسائلها فى تفكيره ، وعدم وضوح المعالم والحدود لـكثير من أمور الدين عنده !

وذلك ـ فى تقديرنا أيضاً ـ يرجع إلى أمور كثيرة . . منها :

أولا : هذه الخلافات السياسية والمذهبية التى وقعت بين المسلمين منذ أعقاب الخلافة الراشدة ، فانعكست آثار هذه الخلافات السياسية والمذهبية

على المسائل الدينية ، فجاءت تلك المسائل على وجوه كثيرة متناقضة متضاربة ، يلطم بعضها وجه بعض ، بحجج تسندها آية من كتاب الله ، متأولة على غير وجهها ، أو حديث ضعيف ، أو أثر مكذوب . . فتجد كل هذه الأقوال منطقاً يقيمها ، أو ذكاء يدارى عُوارها ، بما دخل المسلمين من مذاهب الجدل والسفسطة ، منذ قيام الدولة العباسية ، واتصال العرب والمسلمين بالثقافات والديانات الأخرى ، التى كانت تصبّ روافدها المتدفقة فى كيان الأمة العربية ، وفى محيط العقل الإسلامى .

وكان من هذا أن تشعبت مسائل الدين بين الطوائف المختلفة ، اختلافاً دينياً سياسياً ، والتى انقسمت كل طائفة منها على نفسها ، فكانت فرقا تبلغ المئات عداً . . وقد ذهبت كل فرقة فى الدين مذهباً ، وأقامت لمذهبها حجته من كتاب الله ، وسنة رسول الله . . وهذا هو أفدح مافى الأمر ، وأشنع مافى هذا الخلاف !

فالمسألة الواحدة من مسائل الدين ، تأخذ دورة طويلة لاتكاد تنتهى أبداً ، فلا يكاد المسلم يمسك منها بطرف حتى تجره جراً إلى مسائل كثيرة ، تتولد منها وتتفرع ، وتبيض وتفرخ ، وإذا هو أمام عشرات من الصور « المهزوزة » للأمر الواحد ، والمسألة الواحدة . . تتراقص فى محيط تفكيره ، كما يتراقص الشبح فى ضوء مصباح ، عبثت بذبالته الريح .. فى يوم عاصف !

وهذا مانجده فى كل أمر من أمر ديننا ؛ نرجع فيه إلى الفقه الإسلامى ، الذى صادف تدوينه ، تلك الفترة التى تمزقت فيها الوحدة الإسلامية ، وتمزق معها العقل الإسلامى !

وثانياً : التعويل على هذا الفقه تعويلا كاملا ، وربط المسلمين به ربطاً محكما ، حتى لقد أصبح عند كثير من علماء المسلمين ، وفقهائهم ــ على امتداد العصور

التى تلت هذا العصر ـ أصبح دستورَ الشريعة الإسلامية ، وتَرْجمانَ كتابها الكريم . . وكان من هذا أن أصبح تعلّقُ أكثر العلماء والفقهاء بهذا الفقه أكثرَ من تعلقهم بكتاب الله نفسه . . فهم يرجعون فى كل أمر يعرض لهم إلى مقولات المذهب أو المذاهب الفقهية ، فى هذا الأمر أو ذاك ، وفى كل داعية من دواعى الحياة ، يُراد للدين أن يزنها بميزانه ، ويقيسها بأحكامه !

وطبيعى أنه إذا جاء رأى دينى من محصّل هذا النظر القائم على مقولات المذاهب الفقهية المتضاربة المتخالفة — جاء مذعوراً قلقاً ، يموج فى أخلاط من الآراء المتناقضة ، والأقوال المتخالفة ، لايكاد المرء يعرف منها وجهاً من ظهر .

من أجل هذا « تميّعت » مسائل الدين ، وغامت فى أنظار المسلمين ، فهم إنما يطوفون بها فى إجلال وتقديس ، أشبه بإجلال المجهول وتقديسه ، لا يقوم فى النفس مقاماً ثابتاً مطمئناً أبداً ، بل سرعان مايذهب ذلك الشبح الباهت إذا طلع عليه بصيص من نور ، أو لمعة من سراب !

* * *

والقرآن — من غير شك أو جدال — هو مصدر الشريعة الإسلامية ، وهو دستورها القائم أبدَ الدهر . .

وقد استغنى به المسلمون فى الصدر الأول للإسلام ، فأغناهم عن كل شىء . . لايمدون أبصارهم إلى غيره ، ولا يأخذون لدينهم ودنياهم إلا بما توحى به إليهم كلماته ، وتومىء به إليهم آياته !

وطبيعى أن هذا الذى نقوله عن كتاب الله ، نقوله كذلك فيما ثبت من سنة رسول الله ، القولية والفعلية ، إذ كانت السنة المطهرة تطبيقاً شارحاً لكتاب الله ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » (٧ : الحشر) .

ولا يستقيم هذا القول ، الذى نقوله فى القرآن ـ بأنه مصدر التشريع الإسلامى ـ إلا بفهم سليم صحيح لكتاب الله ، ولا يكون هذا الفهم السليم الصحيح إلا عن طول تأمل وتدبر لكتاب الله ، وتذوق لأساليب بيانه ، ووقوف على بعض أسراره .

وبهذا الفهم لكتاب الله ، يتحقق لنا أمران :

أولهما : اتصالنا بكتاب الله اتصالا وثيقا ، قائما على معرفة به ، وتذوقٍ لجنَى طعومه الطيبة ، وهذا مما يجعل لتلاوتنا للقرآن ، أو استماعنا لتلاوته أثراً فى نفوسنا ، ووقعًا على قلوبنا ، وتجاوباً معُ آدابه ، واستجابة لنداءاته .. فيما يدعو إليه ، من أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر !

وثانيهما : تصور مسائل الدين تصوراً واضحاً محدداً ، بلا ذيول ، ولا معلقات.. وبهذا يعرف المسلم الحكم قاطعا ، فيما أحل الله ، وفيما حرم ، فيكون على بينة من أمره ، فيما يأخذ أو يدع من أمر دينه !

ومن أجل هذا كانت صحبتنا هذه لكتاب الله،على هذا الوجه ، الذى لا ننظر فيه إلى غير كتاب الله ، وإلى تدبر آياته ، بعيداً عن طنين المقولات الكثيرة التى جاءت إلى القرآن من كل صوب ، وكادت تخفت صوته ، وتَغيم على الأضواء السماوية المنبعثة منه ! إننا فى صحبتنا هذه للقرآن ، لا نقيم نظرنا على غير كلماته وآياته ، ولا نخط على هذه الصفحات غير مايسمح لنا به النظر فى كلماته وآياته .

إننا لا نفسر القرآن بالمعنى المعروف للتفسير ، فى هذه الصحبة التى نصحب فيها كتاب الله . . وإنما نحن نرتل آيات الله ترتيلا . . آية آية ، أو آيات آيات . . ثم نقف لحظاتٍ نلتقط فيها أنفاسنا المبهورة ، لما تطالعنا به الآية أو الآيات ، من عجب ودَهَش وروعة ، ثم نمسك القلم ، لنمسك به على الورق بعض

ماوقع في مشاعرنا من صور العجب والدهش والروعة . . وإنها لصور باهتة بالنسبة للواقع الذي حملته تلك المشاعر . . فما أبعد الفرق بين الشعور المشتمل علينا ونحن بين يدي كلمات الله ، وبين الكلمة التي تنقل هذا الشعور ! ! ولكنها — على أي حال — مَعْلم من معالم الطريق إلى كتاب الله ، يمكن أن يجد فيه السالك نوراً ، ويزداد به المهتدي هدى . . « والذين اهتدوْا زادهم هدًى وآتاهم تقواهم » « والله يهدي من يشَاء إلى صراط مستقيم » . . وسلام على المرسلين ، والحمد لله ربّ العالمين ؟

المؤلف

القاهرة { في الثاني والعشرين من ذي القعدة ١٣٨٦ هـ
في الثالث من مارس ١٩٦٧ م

دراسات حول القرآن

أولا : ٱلْمكِيّ وَٱلْمَدَنيّ

المكيّ من القرآن مانزل بمكة ، والمدنيّ مانزل بالمدينة .

وعدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة باتفاق .

السُّور المكية .

١) اقرأ باسم ربك	١٦) الماعون	٣١) الهمزة
٢) ن	١٧) الكافرون	٣٢) المرسلات
٣) المزمل	١٨) الفيل	٣٣) ق
٤) المدثر	١٩) الفلق	٣٤) البلد
٥) المسد	٢٠) الناس	٣٥) الطارق
٦) التكوير	٢١) الإخلاص	٣٦) القمر
٧) الأعلى	٢٢) النجم	٣٧) ص
٨) الليل	٢٣) عبس	٣٨) الأعراف
٩) الفجر	٢٤) القدر	٣٩) الجن
١٠) الضحى	٢٥) الشمس	٤٠) يس
١١) الشرح	٢٦) البروج	٤١) الفرقان
١٢) العصر	٢٧) التين	٤٢) المعارج
١٣) العاديات	٢٨) قريش	٤٣) مريم
١٤) الكوثر	٢٩) القارعة	٤٤) طه
١٥) التكاثر	٣٠) القيامة	٤٥) الواقعة

٤٦) الشعراء ٦٠) حم (السجدة) ٧٤) آلم : السجدة
٤٧) النمل ٦١) حم عسق ٧٥) الطور
٤٨) القصص ٦٢) الزخرف ٧٦) الملك
٤٩) الإسراء ٦٣) الدخان ٧٧) الحاقة
٥٠) يونس ٦٤) الجاثية ٧٨) المعارج
٥١) هود ٦٥) الأحقاف ٧٩) النبأ
٥٢) يوسف ٦٦) الذاريات ٨٠) النازعات
٥٣) الحجر ٦٧) الغاشية ٨١) الانفطار
٥٤) الأنعام ٦٨) الكهف ٨٢) الانشقاق
٥٥) الصافات ٦٩) النحل ٨٣) الروم
٥٦) لقمان ٧٠) نوح ٨٤) العنكبوت
٥٧) سبأ ٧١) إبراهيم ٨٥) المطففون
٥٨) الزمر ٧٢) الأنبياء
٥٩) المؤمن ٧٣) المؤمنون

السور المدنية :

٨٦) البقرة (أول ما نزل بالمدينة) ٩٣) الحديد ١٠٠) الحشر
٨٧) الأنفال ٩٤) محمد صلى الله عليه وسلم ١٠١) النصر
٨٨) آل عمران ٩٥) الرعد ١٠٢) النور
٨٩) الأحزاب ٩٦) الرحمن ١٠٣) الحج
٩٠) الممتحنة ٩٧) الإنسان ١٠٤) المنافقون
٩١) النساء ٩٨) الطلاق ١٠٥) المجادلة
٩٢) الزلزلة ٩٩) البينة ١٠٦) الحجرات

١٠٧) التحريم
١٠٨) الجمعة
١٠٩) التغابن
١١٠) الصف
١١١) الفتح
١١٢) التوبة
١١٣) المائدة
١١٤) فاتحة الكتاب . . اختلف في نزولها بمكة أو بالمدينة .

وقيل إنها نزلت مرتين ـ مرة بمكة ومرة بالمدينة . .

ثانياً : عدد آياته ، وكلماته ، وحروفه

وكان من اهتمام المسلمين بالقرآن ، وحرصهم عليه أن أحصوه آية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً . . ونسجل هنا هذا الجهد المشكور لعلماء القرآن رضي الله عنهم .

عدد آيات القرآن :

اختلف الدارسون للقرآن في إحصاء آياته . .

فقال بعضهم : هي ستة آلاف آية .

وقال آخرون : ستة آلاف آية ومئتان وأربع آيات .

وقيل : ستة آلاف ومئتان وأربع عشرة آية .

وقيل : ستة آلاف ومئتان وتسع عشرة آية .

وقيل ستة آلاف ومئتان وخمس وعشرون أو ست وعشرون أو ست وثلاثون . .

عدد كلماته :

أجمع العلماء على أن عدد كلمات القرآن سبع وسبعون ألفاً وأربع مئة وسبع وثلاثون كلمة .

عدد حروفه :

وأما عدد حروفه فهي ثلاثمئة وواحد وعشرون ألف حرف .

وقيل إن الحجاج بن يوسف جمع القراء والحفاظ والكتّاب ، فقال لهم : أخبرونى عن القرآن كله ، كم من حرف هو ؟ فأجمعوا على أنه ثلاثمئة وأربعون ألفاً وسبع مئة وأربعون حرفاً .

قال : فأخبرونى عن نصفه . .

قالوا : عند الفاء من قوله تعالى فى سورة الكهف : « ولْيَتَلَطفْ » (١٩ : الكهف) .

فَاتِحَة الـكِتَاب

* نزولها : مكية ، وقيل إنها نزلت بمكة ، ثم نزلت مرة أخرى بالمدينــة . ولا وجه لهذا القول .

* عدد آياتها : سبع .

* عدد كلماتها : خمس وعشرون كلمة .

* عدد حروفها : مائة وثلاث وعشرون حرفاً .

* من أسمائها : سميت بأسماء كثيرة ، جاوزت المائة ، وذلك حسب مايقع فى الخاطر منها .

ومن أسمائها : الفاتحة ، وفاتحة الـكتاب ، والحمد ، وسورة الحمد ، والشافية ، والشفاء ، وأم القرآن ، وأم الـكتاب : والسبع المثانى (لأنها تثنى ـ أى تـكرر ـ فى كل صلاة) .

آية : (١)

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحيم »

التفسير : باسم الألوهية يقوم الوجود ، وإليه يركن كل موجود . فـكل عوالم الـكون مألوهة لله ، خاضعة لمشيئته ، محفوفة برحمته .

ووصف الألوهية بهاتين الصفتين : « الرحمن الرحيم » يدل على أن هذا الوجود إنما هو فيض من رحمانية الله ورحمته . إذ الوجود ـ على أية صورة من صوره ـ نعمة وخير ، إذا هو قيس بالعدم ، الذى هو فناء مطلق ، وتيه وضياع .

آية : (٢)

« الحمدُ لله ربِّ العالمين(٢) »

التفسير : بهذا الحمد لله تنطق المخلوقات كلها ، فهو سبحانه الذى أوجدها من العدم وأعطاها خَلْقَها بين المخلوقات ، وقام عليها مدبراً ، وحافظاً ، « الذى أعطى كل شىء خَلْقه ثم هدى » (٥٠ : طه) ، فحق عليها أن تحمده ، وتشكر له ، وقد لزمها هذا الحق الذى لا انفكاك لها منه ، إن لم تؤده اختياراً أدته اضطراراً ، وإن لم يفصح عنه ظاهرها نمّ عليه باطنها : « تُسبّح له السّموات السّبعُ والأرضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وإنْ مِن شىء إلاَّ يُسبح بِحَمْدِه ، وَلَكِنْ لاَ تفقهون تَسْبِيحَهم » (٤٤ : الإسراء)

آية : (٣)

« الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ »

التفسير : استفاضةُ رحمانية الله ، وشمول رحمته ، يجدها كل موجود فى نفسه ، وفيما حوله ، ولهذا كان حمد الله واقعاً بين هاتين الصفتين ، كأنه تعقيب عليهما أولا ، وكأنهما تعليل له ثانياً .

آية : (٤)

« مَالِكِ يوم الدِّين »

التفسير : يوم الدين : هو يوم الدينونة ، أى الحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة : « وَمَآ أدْرَاكَ مايومُ الدِّين * ثم مآ أدراكَ مايومُ الدِّين *

يومَ لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله » (١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ : الانفطار) .

ومجيء « مالك يوم الدين » معطوفاً عطف بيان على « الرحمن الرحيم » للإشعار بأن هذه الملكية ملكية رحمانية ورحمة ، تضع موازين القسط للفصل بين الناس ، حيث يثاب المحسنون ، ويعاقب المسيئون ، وهو عقاب فيه رحمة لهم ، حيث يطهرهم من أدران الآثام التي علقت بهم ، ليكونوا أهلاً لمساكنة الملأ الأعلى .

آية : (٥)

« إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نستعين »

التفسير : مِن مقتضى حمد لله الذى استوجبه على عباده بربوبيته ، ورحمته ، أن يُفَرد بالعبودية ، وأن يختص بالعبادة ، فلا متوجَّه إلا إليه ، ولا لجوء إلا له ، ولا معول إلا عليه . «إن الذين تدعون من دونِ الله عباد أمثالكم ، فادعوهم ، فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » (١٩٤ : الأعراف) .

آية : (٦)

« اهْدِنَا الصِراطَ الْمُسْتَقيم » .

التفسير : الصّراط المستقيم : هو الطريق القائم على الحق والعدل ، الموصّل إلى الخير والفلاح ، لايضل سالكه ، ولاتتعثر له قدم فيه .

آية : (٧)

« صِراطَ الذين أنعَمْتَ عَليهم غيرِ الْمَغضوب عَلْيهم ولا الضالين »

التفسير : هذا بيان للصراط المستقيم ولأهله ، الذين أنعم الله عليهم ، فهداهم إليه ، وأقامهم عليه ، ثم بيان آخر للصراط المستقيم ، وهو صراط لا يسلكه المغضوب عليهم ، الذين مكروا بآيات الله، وكفروا بنعمه، فضربهم بغضبه ، وصبّ عليهم لعنته ، وهو صراط لا يستقيم عليه من اتبع هواه، وعمى عن الحق الذى بين يديه !

والمغضوب عليهم هم اليهود ، وقد صرّح القرآن فى غير موضع وفى أكثر من آية ، بأنهم مغضوب عليهم من الله ، فقال تعالى : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبةً عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجَعَل مِنهمُ القردة والخنازير وعبدَ الطاغُوتِ » (٦٠ : المائدة) وليس وصف اليهود بالمغضوب عليهم مانعاً من إطلاق الوصف على كل من غضب الله عليه ، فحاد عن الطريق المستقيم ، وكذلك الشأن فى « الضالين » باعتبـاره وصفاً لكل من ضل طريق الحق والهدى .

وفى دعاء المؤمنين بأن يهديهم الله الصراط المستقيم ، ويجنبهم صراط المغضوب عليهم ، والضالين عن الطريق القويم ـ فى هذا الدعاء غاية فى تحرّى الطريق إلى الله ، والتماسه مستقيما خالص الاستقامة ، بعيداً عن مزالق المفتونين فى دينهم ، والمنحرفين عن سواء السبيل .

و « آمين » دعاء تختم به السورة ، وهو اسم فعل أمر ، بمعنى استجب يا الله مادعوناك به . وهذا اللفظ ليس من القرآن . .

* * *

وهذا ، وتلك السورة الكريمة ، فوق أنها قرآن كريم ، هى مفتتح هذا القرآن ، وهى أم الكتاب الكريم ، لاشتمالها على أصول الشريعة الإسلامية ، من توحيد ، وعبادات ، وآداب ، ومعاملات . .

ولهذا كانت مِلاَك الصلاة ، التى هى بدورها ملاك الإسـلام كله ،

إذ لاصلاة لمن لا يصلى بها ، ومن أجل هذا سميت آياتها السبعُ ، السبعَ المثانى ، إذ يثنّى بها فى كل صلاة ، أى تقرأ مَثْنى فى الصلاة ذات الركعتين ، ومثنى مثنى فى الصلاة ذات الأربع ركعات !

* * *

واستمع إلى هذا الدعاء أو الصّلاَة .

« أبانا الذى فى السموات .. ليتقدّس اسْمُك ، ليأت ملكوتك ، لتكن مشيئتُك كما فى السّماء كذلك على الأرض . . خبزَنا كفَافَنا أعطنا اليوم ، واغفرْ لنَا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا . . ولا تُدْخِلنا فى تجربة .. لكن نجّنا من الشّرِّير . . لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد . . آمين »

أندرى ماهذا الكلام ؟

إنّه الصّلاة التى كان يصلّى بها السيّد المسيح ، والتى علّم أتباعه أن يصلوا بها . . إذ يقول لهم :

« وحينما تصلّون لاتكرروا الكلام باطلا كالأمم ، فإنهم يظنون أنهم بكثرة كلامهم يستجاب لهم . . فلا تتشبهوا بهم . . لأن أباكم يعلم ماتحتاجون إليه قبل أن تسألوه . .

فصلّوا أنتم هكذا »[1] .

ثم يذكر لهم هذه الصلاة على النحو السابق . .

وأنت ترى مابين هذه الصلاة التى كان يصلى بها السيد المسيح ، ويعلمها أتباعه ، وبين فاتحة الكتاب التى هى قرآن المسلمين فى صلاتهم ـ أنت ترى مابين هذه وتلك من تشابه كبير فى الروح التى تستولى على الإنسان وهو

---

(١) إنجيل متى : الإصحاح السادس .

يتلوها ، خاشعاً متعبداً .. أليس ذلك دليلاً على أنهما من معدن واحد ، وأن متنزلهما السماء ، وحيا من رب العالمين ؟ ثم أليس ذلك دليلا على ما بين الديانات السماوية من صِلات وثيقة قائمة على الحق العدل ؟ بلى ! وإنه لو سلمت الكتب السماوية السابقة من التحريف ، لالتقت مع القرآن فى كل ماجاء به ، ولكن التحريف والتبديل باعد بين تلك الكتب وبين القرآن فى أصول الدعوة وفروعها على السواء . !



سورة البقرة

نزولها : نزلت بالمدينة ، وهى أول سورة نزلت بعد هجرة النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

عدد آياتها : مائتان وست وثمانون آية .

عدد كلماتها : ستة آلاف ومائة وإحدى وعشرون كلمة .

عدد حروفها : خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف .

آية : (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

« آلمٓ » :

التفسير : فى القرآن الكريم تسع وعشرون سورة ، بدأت بحرف أو أكثر من حروف الهجاء ، وكل حرف يُنْطَق به نطقا مستقلا مرتلا، هكذا : ألف . . لام . . ميم . . أو : طا ، ها ، أو : ياسين . وعلى هذا النحو تنطق جميع الحروف التى جاءت مُفْتَتَحًا لسور القرآن .

وقد شغلت هذه الحروف علماء التفسير ، فأطالوا النظر فيها ، وأكثروا القول فى تأويلها وتفسيرها ، حتى لقد تجاوزت وجوه الرأى فيها أربعين وجهاً !

والمفهوم الذى نستريح إليه لهذه الأحرف ، أنها مجرد حروف هجاء ، مما بنيت منه كلمات القرآن الكريم ، وآياته ، وسوره ، وأنها حين يُبدأ بها فى التلاوة هكذا .. حرفاً حرفاً، آخذاً كل حرف نغماً مستقلا على لسان القارىء ـ ترسم لمرتل القرآن أسلوباً خاصًّا فى التلاوة ، فيقرأ الكلمات قراءة مستأنية ، يأخذ فيها كل حرف مكانه على لسان القــارىء ، كما أخذت حروف هذه المفتتحات وضعها المستقل على لسانه ! فى أناة وتقطيع .. حرفاً حرفاً !

وبهذا يتحقق الأداء السليم لتلاوة القرآن ، كما يقول الله تعالى : « وَرَتِّلِ القرآنَ تَرْتِيلاً » (٤ : المزمل) .

إن العرب الذين نزل القرآن بلسانهم ، هم قوم أميون ، تَلَقَّوْا لغتهم سماعاً ، وحفظوا كلماتها وأساليبها ، أصواتاً تحمل من المعانى ما تحمل أنغام الموسيقى إلى أربابها !

فالعربى كان يعرف الكلمة جملةً ، كما كان يعرف مدلولها الذى تدل عليه جملة أيضاً ، بل إنه يعرف مدلول الكلمة أكثر مما يعرف الكلمة ذاتها ، فإذا نطق بكلمة « سيف » أو « درع » أو « جمل » أو « ليلى » أو نحو هذا ، ارتسم فى الحال لعينيه مدلول الاسم الذى نطق به ، دون أن يلتفت كثيراً إلى الصوت الذى انطلق من فمه !

وإذ كان حساب الكلمات عند العرب الجاهليين على هذا النحو ، الذى تبدو فيه الكلمات وكأنها مجرد أصوات !

وإذ كان ذلك كذلك ، وإذ كان القرآن الكريم كلاماً معجزاً ، فإن وجه الإعجاز لا ينكشف فى كلماته وآياته ؛ إلا إذا تحقق للكلمة وجود ذاتى ، وَعَرَف لها ناطقها وسامعها أنها كائن له مشخصاته ، التى تحقِّق له وجوداً مستقلا عن غيره ، مباينًا له ، كما يستقل الإنسان عن الإنسان بذاته ومشخصاته .

وعلى هذا التقدير ، تحدث القرآن الكريم إلى هؤلاء الأميّين بما يكشف لهم عن شخصية الكلمة ، وأنها بناء يقوم على أسس ، ويُبنى على أصول ، وأن لَبِنَاتِ هذا البناء هى حروف : ألف ، لام ، ميم ، نون ، قاف .. وهكذا .

وبهذا النظر إلى الكلمات ، ينطق العربىّ بكلمات القرآن الكريم متأنيا ، متأملا ، حتى لكأن الحرف كلمة ! وبهذا يتصل قارىء القرآن بكلمات القرآن اتصالاً وثيقاً ، يخلص إليه منه كثير من أضوائه ونفحاته ، وذلك هو

بعض الحكمة من ترتيل القرآن ، وقراءته على هذا الوجه الذى ينفرد به عن قراءة أى كلام ، حيث يقول الله تعالى : « ورتّل القرآن ترتيلا »(٤ : المزمل) ويقول سبحانه : « وقرآنا فرَقْناه لتقرأه على الناس على مُكْثٍ ونزّلناه تنزيلا » ! (١٠٦ : الإسراء) وقد امتثل النبى الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - أمر ربّه ، فكانت قراءته ترتيلا منغما ، يأخذ فيه كل حرف مكانه فى الكلمة ، وتأخذ كل كلمة مكانها فى الآية ، دون أن يختفى حرف ، أو تضيع كلمة .

رَوى البخارى عن أنس ، أنه سئل عن قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كانت مَدًّا » ثم قرأ - أى أنس - « بسم الله الرحمن الرحيم » يمدُّ الله ، ويمدُّ الرحمن ، ويمد الرحيم » أى أنه يمثّل بهذا الأسلوب القراءةَ التى كان يقرأ بها النبى الكريم .

وعلى هذا ، فإن مجىء هذه الأحرف المقطعة فى بعض سور القرآن ، وفى مفتتح السور التى جاءت فيها - إن هذا أشبه « بالوحدة » التى يقوم عليها اللحن الموسيقى ، والتى يسرى صداها فى اللحن كله ، من أوله إلى آخره ، وإن تعددت أنغامه ، وخفتت أو علت أصداؤه . !

فليس من الضرورى إذن أن يُجتهد فى البحث عن معنًى لهذه الأحرف المقطعة ، ولنا أن نحسبها مطالعاً موسقياً ، تقوم عليه وحدة النغم فى ترتيل آيات السور التى بدئت بحرف أو حرفين أو أكثر .

آية (٢)

« ذلكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيه هُدًى للمتَّقين (٢) »

التفسير : « الكتاب » هو القرآن ، وتسمية القرآن كتاباً إشارة إلى أن

من شأن هذا الكلام أن يُكتَبَ ويُوثق، حتى يحفظ من التبديل والتحريف، وهذا ما فعله الرسول الكريم ، فى كل ما تلقاه وحياً من القرآن ، إذ كان صلوات الله وسلامه عليه لا يكاد يفرغ من تلقّى ما أوحى إليه من ربه ، حتى يمليه على جماعة عُرفوا بأنهم كتاب الوحى .

وأول ما أوحى إلى الرسول من كلمات الله قوله تعالى :

« اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان من عَلَق * اقرأْ وربُّك الأَكْرمُ * الذى علّم بالقلم * علّمَ الإنسانَ مالمْ يَعْلم »(١) .

وانظر إلى تلك المفارقات العجيبة البعيدة بين إنسان أمى ، لا يقرأ ولا يكتب ، يصطفيه الله للنبوة ، ويختاره لرسالة دستورها القرآن الكريم ، الذى يتلقاه وحياً من السماء على مدى نيف وعشرين سنة . . ثم تكون « اقرأ » أولَ كلمة تُفتتح بها هذه الرسالة . . ثم تُتْبع بكلمتى « علّم بالقلم » .

وفى هذا ما يُؤْذِنُ النبىّ بمحتوًى جديد من محتويات رسالته ، وهو الدعوة إلى القلم والقراءة والكتابة ، فذلك من النعم التى أنعم الله بها على عباده ، إذ سَرْعان ما أقبل العرب الأميون على القراءة والكتابة ، على أنها دعوة من دعوة الدين ، ولفتة من لفتات الشريعة ، فتعلّموا وعلِموا ما لم يكونوا يعلمون .

(الآيات : ٣ ـ ٤ ـ ٥)

« الذينَ يؤمنونَ بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) .

« والذين يُؤْمِنون بِمَآ أُنزِلَ إليكَ وَمَا أُنزِلَ من قَبْلِك وبالآخرةِ

« هم يُوقِنُون (٤) . أُولَئك عَلَى هدًى من رَبِّهم وَأُلئِكَ هُمُ المفلحون (٥) .

---

(١) الآيات الأولى من سورة العلق .

التفسير : تلك هى صفات المتقين .

يؤمنون بالغيب ..والغيب ما خرج عن متناول الحواس ، وإدراك العقل . والإيمان بما يجىء من عالم الغيب ، لا معتبَر له إلا إذا كان مستنده إلى جهة لا يتطرق الكذب إليها ، وإلا كان التصديق بما يخبر به العرافون والكهنة وغيرهم ممن يدَّعون علم الغيب . إيمانًا ، وهو ليس من الإيمان فى شىء ، وإنما المراد بالإيمان هنا ما يخبر به رسلُ الله وأنبياؤه أقوامَهم ،من أمر البعث ، والحساب ، والجنة ، والنار، ونحو هذا ،مما هو من أنباء الغيب ، التى لاتقع لعلم الناس ، ولا تستجيب لمدركاتهم .

فأول صفة من صفات المتقين ، هى الإيمان بتلك الغيبيات ، على الصورة التى يُخبر بها الرسل ، حيث تَلقَّوا الأخبار عن تلك الغيبيات ، وحيًا من الله ، وهم الأمناء على ما أُوحى إليهم من ربّهم .

فلا إيمان لمن لا يؤمن بالله ، ولا إيمان بالله لمن لا يؤمن برسل الله ، ولا إيمانَ برسل الله لمن لا يؤمن بما يحمل رسل الله من رسالات ، وما يبلغون من أوامر ونواهٍ ، وما يُلْقون من أخبار .

ومِلاك التقوى هو الإيمان ، فلا تقوى لمن لا إيمان له ، فإذا جاء الإيمان على تلك الصورة ، كان داعيةً لأن يقيم الإنسانَ على طريق التقوى ، وأن يؤهّله لتلك الصفات التى وصف الله سبحانه بها المتقين : الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم الله ، ويؤمنون بما نزل على محمد ، إيمانًا مفصلاً ، وبما أنزل على الرسل من قبله ، إيمانا مجملاً ، ثم ينتهى بهم ذلك الإيمان إلى الإيمان باليوم الآخر ، وما فيه من حساب ، وثواب ، وعقاب وجنة ونار . . وعندئذ يصبح المؤمن المستكمل لتلك الصفات مؤهلًا لأن يحسب من المتقين ، ويدخل فى عدادهم .

الآيتان (٦ - ٧)

« إنَّ الذين كفَرُوا سَوَاءٌ عليهِمْ أأنذرْتَهمْ أم لم تُنْذِرْهمْ لا يؤمنونَ (٦) خَتَمَ اللهُ عَلَى قلوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أبصارهم غِشاوةٌ ولَهُمْ عذابٌ عظيمٌ (٧) »

التفسير : الناس ثلاثة : مؤمنون، وقد بدأت السورة بذكرهم . وكافرون، وهم المذكورون فى هاتين الآيتين . ومنافقون مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، سيجىء ذكرهم بعد هذا .

ويلاحظ أن القرآن ذكر هنا كلمة « المتقين » فى مقابل الكافرين ، ولم يقل « المؤمنين » ، وذلك أن من شأن الإيمان الصحيح أن يَبْلُغ بصاحبه منازلَ المتقين .

والذين كفروا المذكورون فى هذه الآية ، ليسوا مطلق الكافرين ، بل هم كفار مكة ، الذين حادّوا الله ورسوله ، وأُشربوا فى قلوبهم الكفر ، وعلم الله أنهم لن يستجيبوا للرسول ، كأبى جهل ، وعتبة بن ربيعة ؛ وغيرهما ممن مات على الكفر فى غزوة بدر وأحد ، من قتلى قريش . . فهؤلاء قد حكم الله عليهم هذا الحكم : « سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهم . . لا يؤمنون » . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى سورة يس :« يس والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيلَ العزيز الرحيم * لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فَهُمْ غافلون * لقد حقَّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » فهؤلاء الذين حق عليهم القول بألا يؤمنوا هم الذين تعنيهم هذه الآية : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » .

وإلا فلو كان المراد بالذين كفروا فى هذه الآية مطلقَ الكافرين ، لَمَا كان

لدعوة الرسل حكمة ، ولما كان لعرض رسالاتهم على الناس معنًى ، لأنهم إنما يُبعثون إلى قوم كافرين ، فيستجيب لهم من يستجيب ، ويقيم على كفره من حَقّ عليه القول منهم . . أما تيئيس الكافرين مطلقًا ، والحكم عليهم بألا يؤمنوا أبداً ، فذلك بعيد عن حكمة الله فى ابتلاء الناس واختبارهم ، وإقامة الحجة عليهم ، بإرسال الرسل إليهم . . « لِيَهْلِكَ مَن هلك عن بيّنة ويحيا من حىَّ عن بيّنة »(٤٢ : الأنفال) .

وقوله تعالى : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَى سَمْعِهِم ، وَعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوة ، ولهم عذابٌ عظيم » هو كشف لما اشتمل عليه كيان هؤلاء الكافرين الذين لا يتحولون عن كفرهم أبدًا ، بما قام فى كيانهم من حواجز تعزلهم عن التجاوب مع دعوة الإيمان ، ولا تسمح لشعاعة من شعاعات الحق أن تخترق تلك الحواجز ، فقد« ختم الله على قلوبهم » .. والختم على الشىء وضع خاتم عليه ، أشبه بالقفل المحكم ، بحيث لا ينفذ إليه شىء . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى فى آية أخرى : « أفلا يتدبّرون القرآنَ أمْ عَلَى قلوبٍ أقفالُها » .
(٢٤ : محمد)

*« وعلى سمعهم » أى وختم على سمعهم ، فالواو هنا للعطف على قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » والختم على السمع : الضرب عليه بحجاب ، فلا تنفذ منه دعوة الحق إلى موطن الإدراك من العقل ، فهم أشبه بالنائم المستغرق فى نومه ، حواسه كلها سليمة ، ولكنها معطلة لاتعمل فى تلك الحال . . كما يقول سبحانه وتعالى فى أصحاب الكهف : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنينَ عددا» .
(١١ : الكهف) .

*«وعلى أبصارهم غشاوة» . . أي أن أبصارهم لا ترى الأشياء رؤية واضحة ، بل تبدو المرئيات لها مهزوزة غائمة ، تضطرب فى مجال الرؤية ، فلا يعرف الرائى حقيقة ما رأى .

وهذه الصورة الحسية التي صورت بها حال أولئك الكافرين ، إنما هي تجسيم لطبائعهم النكدة ، وعقولهم المظلمة ! وإلا فإن آذانهم مرهفة ، وأبصارهم حديدة ، ولكنهم لا يحصّلون بها خيراً ، ولا يهتدون بها إلى سبيل الرشاد والهدى .

ويثار هنا قول ، هو : ما لهؤلاء الكافرين إذ لم يهتدوا إلى الإيمان ؟ وقد عطل الله مداخل الإيمان إلى كيانهم ؟ .

وهذه مسألة كثر فيها الرأى ، واختلف عليها العلماء ، حتى صار المسلمون فيها فرقاً ، من سنية ، ومعتزلة ، وشيعة ، وخوارج .

والرأى فى هذا أن يفوض الأمر كله لله .. فالخلق خلقه ، والناس عبيده ، يقضى فيهم بحكمه كيف اقتضت إرادته . . كما فى قوله تعالى : « هو الذى خلقكم ،فمنكم كافرٌ ومنكم مؤمن »(٢ : التغابن) وكما يروى فى الحديث الشريف : «عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ سئل عن معنى قوله تعالى : « وَإذ أخذ ربُّك مِن بنى آدم من ظُهورِهم ذُرِّيَّتَهم وأشهدهم علَى أنفسهم ألَسْتُ بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يومَ القيامةِ إنّا كُنّا عن هذا غافلين »(١٧٢:الأعراف) فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : « إن الله عزوجل لمّا خلق آدم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته ، فقال : خَلَقْتُ هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره بشماله، فاستخرج منه ذريته،فقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون ، فقام رجل فقال : يارسول الله : ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل أهل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت وهو على عمل أهل النار فيدخله به النار » . . هكذا قضى الله فى عباده ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ..ومن حكمة الله ولطفه بعباده أنه لم يكشف

الأمر لأىٍّ من الفريقين ، فلا أحدَ من أصحاب الجنة يعلم أنه من أصحاب الجنة ، ولا أحد من أهل النار يعرف أنه من أهل النار ، بل الجميع مَدعُوُّون من عند الله إلى أن يعملوا على مرضاته ، ليفوزوا بالجنة . . وهنا يبدو مجال العمل للجنة فسيحاً يسع الناس جميعاً ، فيسعى كلٌّ سعيَه ، فمن كان من أهل الجنة عمِل عَمَل أهل الجنة حتى يبلغها ، ومن كان من أهل النار عمل عمل أهل النار حتى يدخلها « وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلق له . » ! !

الآيات : (٨ – ٩ – ١٠)

« وَمِنَ النَّاسِ من يَقُولُ آمَنَّا بالله وباليوم الآخِرِ وماهم بمُؤمِنين (٨) يُخَادِعون اللهَ والّذين آمنوا ، وما يَخدعون إلاّ أنفُسَهم وما يَشعُرون (٩) فى قلوبِهم مَرَضٌ فزادَهُمُ الله مَرضاً وَلَهمْ عَذابٌ أليم بما كانوا يَكذِبون (١٠) .

التفسير : هؤلاء هم الصنف الثالث من الناس ، وهم المنافقون ، الذين ليسوا بالمؤمنين ولا بالكافرين .

والنفاق شر من الكفر الصُّراح ، لأن الكافر على بينة من أمره مع نفسه ، وعلى حال يَعرف الناسُ منها وجهه . . وليس الكافر بالميئوس منه أن يتحول فى أية لحظة من الكفر إلى الإيمان . .

أما المنافق فأمره مختلط ، وشأنه مضطرب ، يدور حول نفسه التى تحمل الكفر والإيمان معاً ، فلا هو فى الكافرين ، ولا فى المؤمنين . .

ولهذا توعد الله سبحانه المنافقين بما لم يتوعد به الكافرين ، من عذاب ونكال ، حيث يقول سبحانه : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » (١٤٥ : النساء) .

وقد توعد الله سبحانه المنافقين هنا بالعذاب الأليم ، فقال :
« ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون » على حين توعد الـكافرين فى الآية قبلها بالعذاب العظيم ، فقال سبحانه : « ولهم عذاب عظيم » والأليم أشد هولا ونكالا من العظيم ، فقد يكون العظيم عظيما فى شخصه وهيئته ، وليس عظيما فى أفاعيله وسطوته . . أما الأليم فهو البالغ الغاية فى الإيلام ، ولو ضؤل شخصه !

* « فى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ » .

آفة الـكافرين فى كفرهم موزعة بين أجهزة ثلاثة فى كيانهم ، هى القلب ، والسمع ، والبصر . . فقلوبهم مغلقة عن الخير ، وأسماعهم نابية عن الحق ، وأبصارهم كليلة عن الهدى . .

أما المنافقون فإن آفة نفاقهم فى القلوب وحدها ، حيث قد سمعوا الحق ووعوْه ، وأبصروا الهدى واستيقنوه ، ولـكن حين ينفذ هذا كله إلى موطن الإيمان من قلوبهم ، يصادف قلوبا مريضة ، لا تقبل الحق والخير ، وإن قبلتهما فإنها سرعان ما تلفظهما ، كما يلفظ المحموم طيب الطعام .

* « فزادهم الله مرضاً »

يمكن أن تـكون الفاء هنا للسببية ، ويكون المعنى أن ما أرسل الله من هدًى على يد النبيّ قد استقبلوه بتلك القلوب المريضة فهيج علّتها ، وأيقظ نائم دائها .

كما يمكن أن تـكون « الفاء » للتفريع ، وتـكون الجملة بعدها دعائية ، والمعنى أن هؤلاء المنافقين ـ بما استبطنوا من نفاق لا يرجى شفاؤه ـ استحقوا أن يُدْعَى عليهم بما يزيد مرض قلوبهم مرضاً .

آية : (١١)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوآ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ » آية (١١) .

التفسير : هكذا ينافق المنافق حتى مع نفسه ، فيرى أنه على طريق الحق، على حين أنه غارق فى الضلال.. والله سبحانه وتعالى يقول : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » . (٨ : فاطر) فلقد غلبت عليهم شقوتهم ، ونظروا إلى أنفسهم فى مرايا النفاق ، فرأوا أنهم أحسن الناس حالا ، وأكملهم كمالا ! !

(آية ١٢)

« أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ » (١٢) .

التفسير : إنهم هم المنافقون !

لقد فضح الله باطنهم الخبيث ، وما انطوى عليه من سوء ، فدمغهم بهذا الحكم القاطع المؤكد أوثق التوكيد « بجملة أدوات » : ألا (الاستفتاحية) وإنّ (المؤكدة) وهم (ضمير الفصل) وال (المعرّفة للخبر بما يدل على قصر الفساد عليهم وحدهم) .

آية (١٣)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَآ آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَآ آمَنَ السُّفَهَاءُ ، أَلآ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَـٰكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ » (١٣) .

التفسير: فى إسناد مقول القول « آمنوا » إلى المبنى للمجهول ،ما يشعر بأن ضلالهم ـ قد أصبح من الانكشاف والوضوح بحيث أنطق كل موجود فى محيطهم ، بدعوتهم إلى الاستقامة ، والانتظام فى موكب « الناس »، الذين صانوا إنسانيتهم عن هذا الانحراف السفيه ، الذى يعيش فيه المنافقون .

ولهذا جاء قول الله تعالى : « كما آمن الناس » ولم يجىء : « كما آمن المؤمنون » وفيه ما يدل على أن الإيمان أقرب شىء إلى الفطرة التى فُطر الناس عليها ، وأن من شأن الناس أن يستجيبوا لدعوة الإيمان ، وأن من استجاب للرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هم الناس ، ولا اعتبار لغيرهم .

وجاءت فاصلة الآية هنا : « لا يعلمون » على حين أنها جاءت فى الآية السابقة عليها : « لا يشعرون » وذلك لاختلاف المقام هنا وهناك .

« هم المفسدون . . ولـكن لا يشعرون »

« هم السفهاء . . ولـكن لا يعلمون »

الإفساد فى الأرض ـ مع أنه مما يجابه الحواس ، ويقع فى محيط إحساسها ـ لا يشعر به أولئك المنافقون ، لـكثرة ما ألحّوا على هذه الحواس من خداع وتضليل ، ولـكثرة ما تعاملوا معها بالتعمية والتّمويه : « ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون » .

والسّفه ـ مع أنه انحراف حاد عن طريق الحق والخير ـ لا يقع فى علم هؤلاء السفهاء ، ولا يرون فيه ما يرى الراشدون من الناس من حماقة ومنقصة ! : « ألاَ إنهم هُمُ السّفهاء ولـكن لا يعلمون » .

الآيات (١٤ ـ ١٥ ـ ١٦)

« وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُو قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) ، اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ » (١٦) .

التفسير : هذه حال المنافقين دائماً .. يلقون الناس بوجهين، وجه يظهر الحب والمودة ، ووجه يضمر السوء والشر . . إنهم مع أهوائهم الضالة ، ونفوسهم المريضة ، بحيث كان لهذه الأهواء منتجع ، وكان لتلك النفوس مستراح ـ فهم هناك . . يتقلبون مع كل ريح ، ويطعمون من كل مائدة !

و « شياطينهم » هم رءوس النفاق فيهم ، وأصحاب الأمر والتدبير عندهم .

وفى قوله تعالى : « وما كانوا مهتدين » بعد قوله سبحانه « فما ربحت تجارتهم » توكيد لخسرانهم وضلالهم ، إذ قد لايربح التاجر فى تجارته ،ولكن ذلك لاينقص من ميزانه الخلقى مثقال ذرة ، إذ قد يكون عدم ربحه ، أو خسارته ، لأسباب لايَدَ له فيها . ولكن هؤلاء الذين اشتروا الضلالة بالهدى إنهم مغبونون فى تلك الصفقة التى عقدوها ، ولوجرّت عليهم كثيراً من حطام الدنيا ، لأنهم خسروا أنفسهم ، وذلك هو الخسران المبين ، فهو خسران محقق ، وغبن فاحش ، يملأ النفس حسرة وندماً . عند من وعى وعقل !

الآيتان : (١٧ ـ ١٨)

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨).

التفسير: أكثرُ المفسرين على أن الكاف في «كمثلهم» زائدة، باعتبار أن كلمة «مثل» أداة للتشبيه، والكاف أداة للتشبيه، ولا تجتمع الأداتان على مشبَّه به واحد، وعلى هذا تكون الصورة هكذا: «مثلهم مثل الذى استوقد ناراً» أو «مثلهم كالذى استوقد ناراً».

وبلاغة القرآن أعظم وأسمى من أن تخضع لمقاييس النحو وتخريج النحاة!

فليس فى كلمات الله مايحتاج إلى علل النحاة، ومما حكاتهم، ليستقيم على علمهم، ولينضبط مع قواعدهم ـ وحسب القرآن أن يقول قولا، أو ينهج أسلوباً، فيكون قوله الحق، وأسلوبه الفصل، ولا عليه أن تضطرب قواعد النحو، وتتبلبل عقول النحاة!

والأمر هنا ـ فيما يتعلق بالكاف فى «كمثل» ـ يجرى على أسلوب القرآن كله، فى إعجازه، واستيلائه على أعنّة البلاغة وأزمّتها.

فقوله تعالى: «مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً» هو تشبيه حال بحال، وشأن بشأن.. بمعنى أن شأن هؤلاء المنافقين وحالم، كشأن أو حال من استوقد ناراً.

فهؤلاء المنافقون مَثَل، وذاك الذى استوقد ناراً مَثَل.. وبين المثلين تشابه وتطابق، فصح أن يكون كل منهما طرفاً فى تشبيه واحد، وكاف التشبيه أداته.. فكأنه قيل: هذا المثل كهذا المثل!

وننظر فيما بين المثلين من وجه شبه، فنرى:

فى المشبه ، وهم المنافقون .. كانوا فى زمرة الكافرين ، ثم إنهم أعلنوا إيمانهم ، واتخذوا هذا الإيمان جُنّة يتقون بها يد المؤمنين ، إذا هى عَلَت على الكافرين ، وأنزلتهم على حكمهم ، وذريعةً يتوصلون بها إلى ماقد يفىء الله على المؤمنين من خير !. . فكان أن فضح الله نفاقهم ، وجاءت آياته تنزع عنهم هذا الثوب الذى ستروا به هذا النفاق ، فأصبحوا عراة لايستطيعون أن يظهروا فى الناس ، إلا كما تظهر الحيات برءوسها من وراء أجحارها !

وفى المشبه به ، وهو هذا الذى استوقد ناراً . .

هذا الإنسان ، كان فى ظلمة الليل ، وفى لفح زمهريره القارس ، فاستوقد ناراً ، كى يجد فيها الدفء والنور ! ثم جاء هؤلاء المنافقون فيمن جاء إلى هذا الضوء ، ليجدوا عنده الأمن ، والدفء . .

ولكنّ هؤلاء المنافقين ، وإن اختلطوا بالمجتمعين على هذا الضوء ، وحُسبوا ــ فى ظاهر الأمر ــ على ما عليه القوم ، فإن الله سبحانه حجز عنهم النور ، وأخذ على أبصارهم ، فلم يروا ما حولهم ، ولم يعرفوا وجه الطريق الذى يسلكون ، فركبتهم الحيرة ، وقيدهم العمى والضلال . .!

ونقرأ الآية الكريمة : « مثلهم كمثل الذى استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون » ، فنجد لمحة من لمحات الإعجاز القرآنى ، فى هذا التخالف بين أجزاء الصورة فى المشبه به ، حيث كان الظاهر أن يقال : « ذهب الله بنوره وتُرِكَ فى ظلمات لايبصر » .

ولكن هذا يفسد المعنى ، حيث يَقضى بهذا الحكم على مُوقد النار ، فيذهب بنوره الذى رفعه لهداية الناس ، وحيث يقع هذا الحكم على غير المنافقين ، من طالبي الهدى عنده .

والصورة التى رسمتها الآية الكريمة ـ على ما جاءت عليه ـ تأخذ المنافقين وحدهم بجرمهم ، فتحرمهم الإفادة من هذا النور الذى يملأ الوجود من حولهم .. ثم لا تحرم المهتدين ما أفادوا من هدى .

ولقد جاء القرآن بمثل آخر لهؤلاء المنافقين فى الآيتين التاليتين :

الآيتان (١٩ ـ ٢٠)

« أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ، وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢٠) .

التفسير : الصيّبُ هو المطر . وقد شبّه به هَدْى السماء ، الذى تلقاه الرسول من ربّه ، ليحيي به موات القلوب ، كما يحيى المطر جديب الأرض .

وفى القرآن وعد ووعيد ، وتكاليف وأعباء ، كالعبادات ، والجهاد فى سبيل الله ، ومجاهدة النفس فى اجتناب المحرمات.. ثم هو مع هذا رحمة وشفاء !

وفى الغيث الذى ينزل من السماء ظلمات من السحب المتراكمة ، ورعد وبرق . . ثم هو مع هذا نعمة وحياة !

كذلك كانت آيات القرآن حين تتنزل ، تنخلع لها قلوب المنافقين ، وتنفطر منها أفئدتهم ، لِما يتوقعون فيها من صواعق تدمدم عليهم ، وتفضح

مكنون صدورهم ، بما يبيتون ما لا يرضى من القول ، وما لا يحمد من العمل . فإذا تلقى الرسول وحياً من ربّه ، وأعلنه فى أصحابه ، اصطكت به أسماع المنافقين ،ووجَفَتْ قلوبهم هلعًا وفزعاً !

هذا هو حظهم من كتاب الله ، وذلك مبلغ ما ينالهم من هذا الخير العظيم . . اضطراب ، وذعر ، وهمٌّ مقيم . . حذَرَ الخزى والفضيحة !

وذلك شأنهم تماماً مع الغيث . . الناس ، والحيوان ، والنبات ، وحتى الجماد .. يحيوْن بهذا الغيث ، ويترقبون فى شوق ولهف مواقيت نزوله ، دون أن يتأدّى إليهم خوف أو قلق ، مما يصحبه من ظلام ورعود ! لأنهم يعلمون ما وراءهذه الرعود والبروق من رى وحياة !!

أما المنافقون ، فشأنهم مع هذا الغيث كشأنهم مع كل خير . . يلتوون به ، ويستقبلونه بنفوسهم المريضة ، فلا يصيبهم منه إلا الشرّ ، الذى يكمن فى كل خير تستقبله النفوس المريضة ، وفى كل نعمة تقع فى يد السفهاء من الناس ! .

الرعود والصواعق ، هى التى يستقبلها أولئك المنافقون من كل ما تحمل هذه الظاهرة الطبيعية ، من خير ورحمة ! .

وفى قوله تعالى : « وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ » إشارة إلى دورة من دورات المنافقين ، حيث انتهى بهم ترددهم بين الإيمان والكفر ، إلى الكفر الغليظ . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا ، لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً » (١٣٧: النساء) . فالمنافقون هم كفار ، وأكثر من كفار . . كفار ومنافقون معًا ! .

وفريق آخر من المنافقين ما يزال أمرهم مرددا بين النفاق والكفر ـ

هؤلاء وإن ذهب الله بالنور الذى دخل عليهم من القرآن ، حين خادعوا الله ورسوله ـ فإنهم لا يزالون على صلة بالإسلام والمسلمين ، لم يتحولوا إلى الكفر تحولًا صريحًا ، ولهذا فإن لمعاتٍ من ضوء الإسلام تطلع عليهم بين الحين والحين فتمسك بهم على طريق الإسلام وفى جماعة المسلمين ، ثم تهجم عليهم ضلالاتهم ، فتعمى عليهم السبل ، وتنقطع بينهم وبين الإسلام المسالك ، فإذاهم فى حيرة واضطراب .. وهكذا تتردد أحوالهم بين الإيمان والكفر ، إلى أن يموتوا على هذا النفاق .. « يكاد البرق يخطَف أبصارَهم كلّما أضاء لهم مَشَوْا فيه ، وإذا أظلَم عليهم قاموا » .

الآيتان : (٢١ ـ ٢٢)

« يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) ، الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٢٢) .

التفسير : دعوة عامة شاملة إلى الناس ، من ربّ الناس ، بعد أن عرضهم هذا العرض الكاشف ، من مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين . . فالطريق إلى الله مفتوح للناس جميعاً ، يسع برّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ، وبين يديْ كل إنسان شواهد قائمة ، وأعلام منصوبة ؛ على الطريق ، تدعوه إلى الله ، وإلى الإقرار بوحدانيته ، إذا هو نظر فى هذا الوجود ، نظرة بعيدة عن الهوى ، خالصة من الضلال والزيغ .

آية (٢٣)

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٢٣) .

التفسير : وهذا الكتاب الذى نزل على محمد ،هو آية من آيات الله،وعلَم من أعلامه الدالة عليه ، وعلى قدرته ووحدانيته . . فمن قصرت بصيرته عن تناول الآيات الكونية ، وعن فهم ماتحدّث به عن الله ، وعن قدرته ووحدانيته، فهذا هو كتاب الله ، ترجمان هذه الآيات ، بلسان عربى مبين ، يفهم عنه كل عربى مايقول . . فليستمع إليه ، ولْيأخذ بما يقول ، ولْيؤمن به . . لأنه لايقول إلا صدقاً ، ولاينطق إلا حقًّا وعدلا ، إذ هو كلام ربّ العالمين . . لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وليس الكشف عن صدق هذا الكتاب ، وعن علوّ متنزله ، بالأمر الذى يعجز عنه العربى ، إذ هو ناطق بلسانه متحدث باللغة التى يعرف دقائق أسرارها ، وروائع أساليبها . . وما عليه إلا أن يستمع إلى آيات من هذا الكتاب ، ثم إلى مايتخير من فنون الكلام عند قومه : من شعر ، وخطابة ، وأمثال ، وسجع كهان . . ثم يزن كلا القولين ، بأى ميزان من موازين القول عنده .. وفى غير عَناء سيبدو له أنه يقابل الدر بالحصى ، ويفاضل بين الجواهر والأصداف ، وأن كلام الله هو كلام الله ، وأن كلام الناس هو كلام الناس ! فإن شكّ شاك فى هذا؛ فليضع الأمر موضع الامتحان العملى..فهذه كلمات الله ، فى جلالها ، وسموها ، تقف فى الميدان ، متحدية أرباب الفصاحة والبيان ، بكل صور التحدى : أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ، وأن يجمعوا إليهم كل

ما استطاعوا جمعه من قوى مادية ومعنوية ، بشرية أو غير بشرية . . وهيهات أن يبلغوا من ذلك إلا العجز ، والاستخزاء .

آية : (٢٤)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » (٢٤) .

التفسير : فإذا كشفت هذه التجربة عن العجز الفاضح ، وظهر منها أن هذا الكلام هو كلام الله ، وأن هذا الرسول هو رسول الله ، لم يكن بد من تصديقه ، وتصديق ما جاء به ، من الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والامتثال لما يأمر به ، وينهى عنه ، وإلا فهو العناد الآثم ، والكبر الوقاح ، المفضى بصاحبه إلى هذا المصير المشئوم : « النار التى وقودها الناس والحجارة أعدّت للكافرين » .

آية : (٢٥)

« وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٥) .

التفسير : وهذه الصورة الكريمة التى تعرضها الآية للمؤمنين ، وما يلقون من كرامة ونعيم ، فى مواجهه الصورة الكئيبة التى تعرض فيها الآيات السابقة

جهنم وما يلقى الكافرون من أهوالها — هى دعوة أخرى إلى الإيمان بالله ، وإغراء بهذا النعيم ، وتحذير من جهنم ، وما يلقى أهلها من عذاب ونكال .

وفى قوله تعالى : « كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِى رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » تبيان لطيب ثمر الجنة ، وأنه على درجة واحدة من طيب الطعم وحسن المنظر ، وأنه فى اختلاف أصنافه وألوانه ، هو واحد فيما يجد الطاعم له من لذة ومتعة ونعيم !

وهذا شأن آيات الله فى كمالها ، وجلالها ، وتشابهها فى الكمال والجلال ؛ وبهذا وصف الله ـ سبحانه ـ القرآن الكريم بقوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتاباً متشابهاً ». ولعل سائلا يسأل : ألا تملّ النفس هذا المستوى الواحد من الطعوم التى تكاد تكون لوناً واحداً من ألوان الطعام ؟ أفلا كان من تمام النعيم أن تتجدد طعومه ، وتختلف مذاقاته ، فيكون نعيما فوق نعيم ، تتضاعف به اللذة ، وتتجدد فيه الرغبة ؟

ونقول : إن نعيم الجنة لايقاس بنعيم الدنيا ، وأحوال أهل الجنة لاتقابل بأحوال أهل الدنيا ، فهم إنما ينعمون نعيما كاملا لانقص فيه ، ولا يقبل مزيداً عليه . . نعيما متصلا لاينقطع أبداً . . فكل ماينالون من ثمار الجنة يحقق لهم هذا النعيم الذى ليس فوقه نعيم ، دون سأم أو ملل ، لأن النفس إنما تسأم الشىء الذى يُلحّ عليها ، بعد أن تتشبع به ، وتستوفى حظها منه ، فتزهد فيه ، لأنه إن أرضاها فى حال ، فلن يرضيها فى جميع الأحوال . . وليس كذلك نعيم الجنة ، الذى يرضى أهله إرضاء كاملا متصلا .

هذا ، مع أن نجعل فى تقديرنا ، تلك الفروق الشاسعة بين أحوال الآخرة وأحوال الدنيا ، وبين إنسان الجنة الخالد ، وإنسان الدنيا الزائل .

هذا ،وللآية الكريمة وجه آخر يمكن أن تفهم عليه ، وهو أن مايتلقاه

أهل الجنة من ثمارها ليس هو كل طعام أهل الجنة ، فهنالك ألوان من النعيم لاعدد لها ولا حصر ، والثمار لون واحدٌ من ألوان النعيم ، وهى وإن جاءت إليهم متشابهة فى صورها ، حتى ليحسب اللاحق منها أنه من صنف السابق .. فإنها عند الطعم والمذاق تكشف عن أنها من جنس غير جنس ماسبقها ، وفى هذا مافيه من لذة المفاجأة ، وإثارة الواقع غير المتوقع !

الآيات : (٢٦ ـ ٢٧ ـ ٢٨)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا (٢٦) يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (٢٧) الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » (٢٨) .

التفسير : الكائنات كلها — صغيرها وكبيرها — صنعة الله ، خلقها بحكمته ، وأبدعها بقدرته .. فهى فى معرض ملكه سواء فى الإعلان عن تلك الحكمة وهذه القدرة ، ففى كل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم آية تحدّث عن جلال الله وعظمته !

فلله — سبحانه — أن يضرب المثل بأىٍّ من مخلوقاته ، وأن يقيم منه شاهداً لما يريد . . فأما الذين آمنوا ، فيجدون فى هذا المثل هدى إلى هدى ، ونوراً إلى نور ، وأما الذين كفروا فلا تزيدهم الأمثال الكاشفة إلا ضلالا إلى ضلال ، وإلا عمًى إلى عمى .

وفى قوله تعالى : « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » نظرتان :

النظرة الأولى : إلى العدول عن الكافرين ، والتعبير عنهم بالفاسقين ، إذ سياق الكلام يقضى بأن يكون الإضلال للكافرين الذين وقفوا من المثل هذا الموقف اللئيم ، فقالوا فى استهزاء واستنكار : « مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً ؟ » فكان المتوقع أن يكون الجواب هكذا : « يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا ، وَيَهْدِى بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْكَافِرِينَ » . . ولكن لكلام الله حساب غير هذا الحساب ، وتقدير فوق هذا التقدير ، فجاءت فاصلة الآية هكذا : « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » .

والفسق معناه فى اللغة : الخروج ، يقال : فَسَق ، وفَسُقَ أى خرج عن طريق الهدى والصلاح ، وانفسق الرُّطَب عن قِشْره : أى خرج .

والكافر فاسق ، لأنه خرج عن طريق الهدى والإيمان ، وركب طريق الضّلال والكفر ، خرج عن فطرته التى فطره الله عليها ، ونقض الميثاق الذى واثقه الله عليه ، فى قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » (١٧٢ الأعراف)

والنظر الثانية : إلى قوله تعالى : « يُضِلُّ بِهِ كثيراً . . الآية » فهى جواب عن سؤال أولئك الذين فى قلوبهم مرض ، الذين استخفوا بالأمثال التى يضربها الله ، ويتخذ مادتها من مخلوقات ضئيلة من خلقه . . فيقولون فى عَجَب واستنكار : مَاذَا أراد الله بهذا مثلاً ؟ فكان جواب الحق جلّ وعلا : « يُضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يُضل به إلا الفاسقين » ! والنظرة هنا إلى نسبة الإضلال إلى الله سبحانه وتعالى ، بضرب

مِثْل هذا المثل . . فكيف يفتح الله لعباده باباً إلى الضلال ، ويسوقهم إليه . ثم يحاسبهم عن هذا الضلال ، ويأخذهم بالعذاب الأليم ؟ .

والجواب على هذا ، قد كثر حوله الخلاف ، وتعددت فيه المذاهب . . هل الإنسان حرٌّ مختار فيما يأتى من خير وشر ، فيكون حسابه جزاءًا وفاقاً لما عمل بحريته واختياره ، أم هو مُجْبَرٌ مضطر ، مسُوق إلى قَدَرِه المقدور ، فيكون عمله غير محسوب عليه ، ويكون حسابه على ما عمل، ظلم له ، وعدوان عليه ؟ أم أن الإنسان مزيج من الجبر والاختيار ، له إرادة ، وله قدرة على فعل ما يريد ، ولكِنّ إرادته وقدرته مرتبطتان بإرادة فوق إرادته وبقدرة فوق قدرته ؟ فهو يريد ، ولكن وَفق ما تريد تلك الإرادة العليا ، ويفعل ، ولكن داخل فعل تلك القدرة المهيمنة على قدرته . . فالإنسان فى هذا التصور أشبه بترس فى آلة (مكانيكية) . . يتحرك بحركة تلك الآلة ،ويسكن بسكونها . فهو متحرك ، وغير متحرك معاً ! .

والرأى ـ عندنا ـ أن الإنسان صنعة اللهِ ، ولله سبحانه أن يضعه حيث يشاء ، ليأخذ مكانه واتجاهه فى هذا الوجود . ومع هذا فإن الإنسان ـ بما أودع الله فيه من عقل ـ مطالب بأن يستعمل هذا العقل وما فيه من قوى ، فى وزن الأمور وتقديرها . . فيتقدم أو يتأخر ، ويُقدم أو يُحجم ؛ ويؤمن أو يكفر ، ويهتدى أو يَضل . . وهو فى كل هذا سائر فى الطريق المرسوم له ، والذى هو مستور فى الغيب عنه ، إلى أن يستوى عليه ، وذلك هو قَدَره المقدور ، يُرى وكأنه من صنعة يده ، وهو فى الحقيقة صنعةُ يدٍ فوق يده . . يد القدرة القادرة الباهرة : « بل للهِ الأمر جميعاً » (٣١ : الرعد)

« كذلك يُضلُّ الله من يشاء ويهدى من يشاء » (٣١ : المدثر) . . « هو الذى خَلقـكمُ فمنـكم كافر ومنـكم مؤمن » (٢ : التغابن)[1].

آية (٢٩)

« كَيْفَ تَـكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُـكُمْ ثُم يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢٩) .

التفسير : وهذه مواجهة فاضحة مخزية ، لأولئك الذين اجّ بهم العناد والضلال ، فاستحبُّوا العمى على الهدى ، وَجَعلوا لله أنداداً ، يعبدونهم من دونه . . وهذا أمر لا يقيم عليه إلا سفيه ، ولا يرضى به إلا سقيم القلب ، أعمى البصر والبصيرة .

فالله وحده هو الذى خلق الإنسان من الموات ، ثم سوّاه بشراً سوياً ، ثم يردّه إلى الموات ، ثم يعيده مرة أخرى إلى الحياة . . للحساب والجزاء . . فـكيف يكون لإنسانٍ أن ينـكر لخالقه ، ويعدل وجهه عنه إلى عبادة المخلوقين . . من جماد وغير جماد ؟ ذلك ضلال بعيد ، وخسران مبين !

آية (٣٠)

« هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَـكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَهُوَ بِـكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (٣٠) .

---

(١) انظر فى هذا كتابنا « القضاء والقدر » ففيه دراسة مستفيضة لهذه القضية .

التفسير: ومن ألطاف الخالق العظيم ورحمته بالناس ، أن أقام الإنسان على هذه الأرض ، ومكّن له من أسباب الحياة فيها ، والسيادة ، عليها فجعل يده مبسوطة على كل شيء شيء فيها ، بما وهبه الله من قوة عاقلة ، انفرد بها من بين ما على الأرض من مخلوقات . . وذلك من شأنه ألاّ يجعل سبيلاً لعاقل أن يُعطى ولاءه لغير الله رب العالمين .

وقد يفهم من قوله تعالى : « ثم استوى إلى السَّمَاء فسواهُنَّ سَبْعَ سموات » بعد قوله سبحانه : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » ـ قد يفهم من هذا أن خلق السموات ، جاء تاليا لخلق الأرض .

ولكن ، مع قليل من النظر ، يتضح أن ذلك كان بعد خلق السموات والأرض . . فالأرض كانت مخلوقة ، ثم خلق الله بعد ذلك ، ما فيها من مخلوقات . . وكذلك السماء ، كانت قائمة ، فجعلها الله سبحانه سبع سموات . وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة ، فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى إلى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ » (١١ : فصلت) .

وهذا لا يصادم ما يقول به العلم الحديث ، من أن الأرض وليدة انفجار فى الشمس ، تسبب عنه انفصال أجرام منها ، وكانت الأرض واحدة من تلك الأجرام ! فعوالم السماء مخلوقة قبل الأرض ، والأرض مولود من مواليدها !

وأمر آخر نحب أن نشير إليه هنا ، وهو أن ما جاء فى القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، لا مدخل له فى تكييف قدرة الله سبحانه وتعالى ، وأن ذلك الخالق قد احتاج إلى عمل هذه القدرة ستة أيام ، فذلك تحديد لقدرة الله ، التى لا يحدّها شيء ، ولا يعلق بها قيد من قيود الزمان والمكان « إنما أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

وأما الأيام الستة التي ذكرها القرآن الكريم في أكثر من موضع زمناً لخلق السموات والأرض ، فهي الوعاء الزمني الذي استكملت فيه السموات والأرض تمام خلقهما ، شأنهما في ذلك شأن كل مخلوق .. من حيوان أو نبات أو جماد .. الإنسان « حمله وفصاله ثلاثون شهراً » وبعض الحيوانات يتخلق في ساعة أو مادون الساعة ، وبعضها يتخلق في عام أو أكثر من عام ، والحبة تكون نبتة في كذا ، وشجرة في كذا من الزمن ، وهكذا . . .

فقوله تعالى : « خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام » يشير إلى أن الوعاء الزمني الذي تم فيه خلق السموات والأرض هو ستة أيام ، فقد تخلقا في هذه الأيام الستة كما تتخلق الكائنات ، وتستكمل وجودها ، في زمن مقدور لها ، تعيش فيه ، منتقلة من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، حتى تأخذ الوضع الذي تبلغ به تمامها .

آية (٣٠)

« وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٣٠) .

التفسير : حين أصبحت الأرض صالحة لاستقبال الكائن البشري ، أعلن الله تعالى في الملأ الأعلى هذا الخبر ، وآذن الملائكة بأن كائناً بشريا سوف يظهر في الكوكب الأرضي ، وسيتولى قيادة هذا الكوكب ، ويكون خليفة الله فيه !

والآية صريحة في أن هذا الكائن البشري أرضيُّ المولد ، والنشأة ، والموطن ، وأنه من طينة الأرض نشأ ، وفي الأرض يتقلب ، وفي شئونها

يتصرف . . « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفةً » . . هكذا من أول الأمر . . فلم يكن آدم ابنَ السماء فلما عصى ربه طرد منها ليكون خليفة الله على الأرض . ولو كان ذلك كذلك لما كان للملائكة أن ينفَسُوا عَلى آدم هذه الخلافة ، التى تَبدو فى هذا التصور عُقوبةً وتجريما ، أكثر منها حِباء وتكريماً .

ولكن آدم ـ وهو ابن الماء والطين ـ لا يُتوقع منه إلا أن ينضح بما فى الماء والطين ، وبما يتخلّق من الماء والطين ، من طبائع بهيمية ، تُغرى بالعدوان والفساد . . وهذا ما جعل الملائكة يقولون هذا القول بين يدى الله ، فى آدم وما يتوقع منه ، فما هو إلا إنسان فى مِسْلاخ حيوان ذى مخالب وأنياب ! وذلك قبل أن يكشف الله لهم عن ملكات أخرى لهذا الكائن الترابى ، لا يملكها الملائكة ، فى عالمهم العلوى ، عالم النور والصفاء ! وتلك آيات بينات ، تشهد لقدرة الخالق العظيم .

الآيات ٣١ ـ ٣٢ ـ ٣٣

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) »

التفسير : وهذا الامتحان الذى يعقد فى المــلأ الأعلى ، يكشف عن الاستعداد الفطرى لتفوق آدم على الملائكة فى العلم الذاتى ، الذى يكتسبه بالنظر والملاحظة والتجربة ، وبالمعاناة والمجاهدة ، الأمر الذى ليس من طبيعة الملائكة أن تعالجه وتعانيه .

فى آدم — بما أودع الله فيه من قوى — قدرة على الترقى والاستزاده من المعارف ، بتوجيه ملكاته إلى النظر فى هذا الوجود ، وملاحظة الأسباب والمسببات ، وربط العلل بالمعلولات ، وبهذا ينتقل الإنسان من طور الطفولة إلى الصّبا والشباب والاكتهال والشيخوخة ، وفى كل طور يحمل معارف جديدة إلى الطور الذى يليه ، تعينه على اكتساب معارف أخرى ، ينتقل بها إلى طور آخر ، وهكذا . . ثم هذا التطور الخلاّق الذى يقع فى حياة الإنسان الواحد ، يقع فى الجنس البشرى كله ، حيث يتلقى كل جيل من الجيل الذى قبله جميع معارفه ، وتجاربه ، ويضيف إليها معارف جديدة وتجارب جديدة ، يتركها ميراثاً للجيل الذى بعده . . وهكذا .

أما الملائكة . . فهم على حال واحدة ، لا يطرأ عليها تحول ولا تبدل . . فليس لهم طفولة وصبا وشباب وشيخوخة ، كما أنه ليس لهم مع الزمن زيادة فى علم أو معرفة عن طريق الكسب الذاتى ، وإنما يجىء علمهم ومعرفتهم بما يتلقّونه من الله تلقياً مباشراً : « لاَ عِلْمَ لنا إلا مَا عَلّمْتَنَا » .. وبهذا اختلف الناس ، فكان كلّ إنسان عالماً وحده ، له وجوده الذاتى ، وله تفكيره ، وإرادته ، ومنزعه . . فكان فيهم المؤمن والكافر ، والمهتدى والضال ، والعالم والجاهل ..

أما الملائكة فهم نمط واحد ، من الصفاء ، والبهاء ، والطاعة المطلقة ، المستسلمة ، التى لا تنزع عن إرادة ، ولا ترجع إلى نظر وتقدير .

« لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُم ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ! .

وعلى هذا ، فالملائكة — وإن شَرُفوا قدراً ، وعلوّا منزلة — ليسوا أهلا للخلافة على هذا الكوكب الأرضى .. لأن منصب الخليفة يقتضى إستقلالاً فى تصريف الشئون فيما هو خليفة فيه ، ومتسلط عليه ، كما يقتضى

تفكيراً وتقديراً للأمور ، ثم إرادة تمضى ما انعقد عليه الرأى . شأنه فى هذا شأن الوكيل ، الذى يتولى عن الأصيل التصرف فيما وكل فيه ، دون الرجوع إلى موكله .

والإنسان ، بما له من عقل ، وإرادة ، هو المستأهل لهذه الخلافة على الأرض ، يتولاها عن الله ، ويتولى ضبط أمورها وسياسة شئونها .

● « وعلّم آدم الأسماء كلّها » .

اختُلِف فى هذه الأسماء التى علمها الله سبحانه آدم — أعنى الإنسان — والرأى فى هذا ، أن الله سبحانه أودع فى الإنسان القدرة على البحث والنظر فى الكشف عن خصائص الأشياء ، وعللها ، وأسبابها ، والوقوف على أسرارها المودعة فيها ، وحلّها وتركيبها .. وبهذه القدرة عرف حقائق كثير من الأشياء ، وهو جادٌّ أبداً فى الكشف عن المزيد منها ، يوماً بعد يوم ، وجيلا بعد جيل ، وعصراً إثر عصر ! وكلما عرف حقيقة وضع لها اسماً تعرف به .

فالمراد بالأسماء هنا هو مسميات تلك الأسماء ، والمراد بالمسميات ، خصائص هذه المسميات ، وحقائقها .

والأسماء كلها ، لا يراد بها أسماء جميع الموجودات فى هذا الوجود ، إذ أن آدم لا يمكن أن يحيط علمه بكل موجود ، ظاهر أو خفى ، قريب أو بعيد .. وإنما المراد — والله أعلم — المسميات التى تكشفت حقائقها لآدم وذريته ، واهتدوا إلى التعرف عليها ، وتحديد موقفهم منها ، إيجاباً أو سلباً ..

فى دائرة هذه المعرفة كان امتحان الملائكة ، وكان عجزهم ، وكان إعلام آدم إياهم بما عجزوا عن معرفته ! فكان ذلك أبلغ ردّ على اعتراض الملائكة ، وجلاء الموقف الذى وقفوه من آدم .

فالمراد بآدم هنا هو الإنسانية كلها ، وكان امتحان الملائكة فيما عرف أبناء آدم من أسرار هذا الوجود.

● « ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

أى عرض الله مسميات هذه الأسماء ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ » .

فالمعروض لنظر الملائكة ذوات مشخصة ، يراد من الملائكة أن يضعوا لها أسماء ، تدلّ عليها ، وتكشف عن حقيقة كل واحد منها .

والأشياء المعروضة هنا عاقلة ، أو فى حكم العاقلة ، لأنها من صنعة العقلاء حيث خوطبت خطاب العقلاء ، وحيث أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله : « عرضهم » .. « هؤلاء » .

ذلك هو الوجه الأقرب لمفهوم الآية ، وليكن فى تقديرنا أن الزمن الذى احتوى هذا الحدث ليس ابن لحظة أو ساعة ، فقد يمتد إلى مئات السنين وآلافها . .

فإذا آذن الله الملائكة بأنه جاعل فى الأرض خليفة ، فقد تمضى مئات السنين وآلافها قبل أن يظهر هذا الخليفة .. ثم إذا ظهر فقد تمضى مئات السنين وآلافها قبل أن يتحدث الملائكة إلى الله بهذا الحديث عن آدم : «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » وذلك بعد أن عاش الإنسان على هذه الأرض ، وأحدث ما أحدث فيها من خير وشر !

وآدم الذى واجه الملائكة ، قد لايكون أول السلالة الإنسانية ، بل لعله فى حلقة متأخرة شيئاً ما عن الحلقة الأولى لهذه السلالة .

إن لآدم — فى نظرنا — مفهوماً غير هذا المفهوم الذى تحدث عنه روايات

المفسرين التي تعتمد في هذا على الإسرائيليات ، وعلى مابقي من أساطير الأقدمين من قصة « الخلق » ومكان آدم فيها .

وسنعرض لهذا بعد قليل .

آية (٣٤)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) » .

التفسير : أما وقد نجح آدم في هذا الامتحان ، وأظهر من العلم ماقصر علم الملائكة عنه ، فقد استحق أن يكرم ، وأن يكون هذا التكريم من الملائكة أنفسهم ، لأنهم هم الذين أنكروا عليه تلك « الخلافة » التي جعلها الله له ، ليكون ذلك بمثابة ردّ اعتبار لآدم عند من نقصوه ، وثمنا يقتضيه منهم لقاء انتقاصهم له ! !

وقد تلقى الملائكة أمر الله بالقبول والرضا ، فسجدوا لآدم سجود تعظيم وتكريم ، لاسجود عبادة وتأليه ، فلا عبادة إلا لله ، ولا مألوه غير الله !

[الجن .. إبليس .. الشيطان]

سجد الملائكة كلهم أجمعون .. إلا إبليس !

ومن إبليس هذا ؟

ورَدَ في القرآن الكريم وفي أكثر من موضع ذكر إبليس ، والشيطان ، والجن ، على أنها قوّى خفية ، تتحرك في المجال الإنساني ، وتراه دون أن يراها .

وإبليس والشيطان ، يذكران دائما في معرض التحذير منهما ، والتخويف

من إغرائهما وإغوائهما ، إذ كان من شأنهما العـــداوة للإنسان ، والنقمة عليه .

ويُذكر « إبليس » وحده فى مقام دعوة الملائكة للسجود لآدم وامتناعه هو عن السجود ، استكباراً لذاته ، وعلواً على آدم الذى خلق من طين ، على حين أنه خلق من نار .

وفى هذا يقول الله تعالى فى الآية السابقة : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » .

ويقول سبحانه فى سورة الأعراف : « ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ » (١١ : الأعراف) .

ويقول سبحانه فى سورة الإسراء : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا) . (٦١ : الإسراء)

ويقول جل شأنه فى سورة الكهف : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » (٥٠ : الكهف) . ويقول فى سورة طه : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى » (١١٦ : طه) وفى سورة ص : « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » (٧٣ ـ ٧٤ ص)

ويلاحظ أنه لم يُذكر فى هذا الموقف « الشيطان » أو « الجن » . وهذا مايشعر بأن « إبليس » على صفة خاصة ، غير صفة الشيطان ، والجن ، وإلا لما

التزم القرآن ذكر إبليس فى هذه الصور المتعددة لموقف واحد ، الأمر الذى لا يلتزمه القرآن إلا حيث لم يكن من التزامه بد .

وننظر من جهة أخرى فنجد القرآن الكريم يتحدث عن « إبليس » بأنه كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه .. كما جاء ذلك فى الآية الواردة فى سورة الكهف .. فإبليس ـ على هذا ـ من عالم الجن ، وأنه وحده الذى خرج عن أمر ربه ، وأعلن هذا العصيان الوقاح !.

ويتحدث القرآن فى ثمانية وستين موضعاً عن الشيطان ، بلفظ المفرد « الشيطان » وفى أحد عشر موضعاً بلفظ الجمع : « الشياطين » .

وفى جميع هذه المواضع يجىء الحديث عن الشيطان أو الشياطين فى مقام التحذير من الضلال والغواية للإنسان من كيد الشيطان ..

« إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً » . (٥٣ : الإسراء) .

« إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » (٦ : فاطر)

وهذه العداوة التى بين الشيطان وآدم ، وذرية آدم ، هى امتداد لتلك العداوة التى حملها إبليس لآدم ، حين امتنع عن السجود له مع الملائكة ، كما أمره الله ، وكان ذلك سبباً فى أن لعنه الله وطرده من الجنة .

وفى هذا يقول الله تعالى : « يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ » (٢٧ : الأعراف) ، ويقول سبحانه عن الشيطان وهو يوسوس لآدم ويغريه بالخروج عن أمر ربه : « فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى » .
(١٢٠ : طه)

ويقول سبحانه : « فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ

عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ » .

(٢٠ ، ٢١ : الأعراف)

وهنا يبدو الشيطان وإبليس وكأنهما اسمان لذات واحدة ، فما عُرف إبليس إلا بهذا الوجه المنكر الملعون ، وما عرض الشيطان إلا في هذه الصورة الكريهة المخيفة ..

ومن جهة أخرى فقد كان إبليس من عالم الجن ، ففسق عن أمر ربه . .
« فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ » (٥ : الكهف)

ومن جهة ثالثة تُحدِّثُ آيات القرآن عن إبليس وكأنه من عالم الملائكة ، حيث توجّه الأمر الملائكة بالسجود ، فامتثلوا جميعاً أمر ربهم إلا إبليسَ . . فهو استثناء متصل . . « فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاَّ إِبْلِيسَ ، أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ » (٣١ : الحجر)

« وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ، فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ (٥ : الكهف)

وعلى هذا نستطيع أن نقول :

أولا : إن إبليس كان من الملائكة ..

ثانياً : أنه كان فى درجة دنيا ، فى هذا العالم الروحى ، هى درجة الجنّ الذين وإن أشبهوا عالم الملائكة فى أنهم خُلقوا من شعلة مقدسة ، إلا أن الملائكة كانوا من نور هذه الشعلة ، على حين كان الجن من نارها ، كما يقول تعالى : « والجانَّ خلقناه من قبلُ من نار السَّموم » .

ولهذا كان الملائكة صفاء خالصاً ، بينما كان الجن صفاء مشوبا بكدر ..

ناراً مختلطة بدخان ! ، ولهذا أيضاً كان الجن فيهم الخير والشر ، وكان منهم الأخيار والأشرار ، كما يقول الله تعالى على لسانهم :

« وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ[1] فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » (١٤ ، ١٥ الجن) .

ثالثاً : لم يظل « إبليس » فى جماعة الجنّ ، بل أخرجه الله من بينهم ، حين أبى أن يسجد لآدم مع الساجدين ، فلعنه الله ، وطرده ، وجعل له اسم « إبليس » سمةً يعرف بها ، فى هذا الموقف الذى حلّت عليه فيه اللعنة والإبلاس .

رابعا : بدأ إبليس منذ اللعنة التى حلّت به يتحول خلقا آخر ، فإذا هو « شيطان » مريد ، وشيطان رجيم ، وإذا هو قوة شر منطلقة ، يتطاير منها شرر ، يصيب من يتعامل معه ، ويتبع خطاه ، وتلك الشرارات المنطلقة منه هى ذريته التى يتحدث عنها القرآن فى قوله تعالى : « أفتتخذونه وذرِّيته أولياء من دونى ، وهم لكم عدوّ ؟ » .. وهى شياطين أخرى ، تنطلق منها شرارات شيطانية . . وهكذا .

فإبليس كان من عالم الجنّ ، ثم نزل إلى « إبليس » ثم تحول من إبليس إلى شيطان . . !

الآيات : (٣٥ — ٣٩)

« وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ، وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ، فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ

(١) القاسطون : أى الظالمون .

لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى
آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) . قُلْنَا
اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٣٩) .

[آدم وجنته]

أشرنا فيما سبق ، إلى أن آدم أرضى المولد ، والنشأة ، والموطن ، وأنه من طينة الأرض نشأ ، وفى الأرض يتقلب ، وفى شئونها يتصرف ، وفى هذا يقول الله تعالى : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » (٥٥ : طه)

ونريد هنا أن نقف قليلا مع قصة الخلق — خلق آدم — كما تحدث عنها القرآن ، لاعلى ماجاءت به التفاسير من إسرائيليات وأساطير عن خلق آدم ، فألقت بذلك ظلالا على آيات الله ، وأخرجت منها مفهوما لخلق آدم ، يبعد كثيراً عمّا صرح به منطوق الآيات ومفهومها ، ويصادم أيضا بعض حقائق العلم الحديث فيما كشف عنه علم الحياة وأصل الأنواع ، بل ويصادر العقل الإسلامى الذى يفهم القرآن على ضوء هذه التفاسير ، فلا يجد له سبيلا إلى النظر والبحث عن أصل الإنسان ، ومكانه فى سلسلة التطور .

والحق أن القرآن الكريم يعرض قصة خلق آدم عرضا محكما ، يقف أمامه العلم — فى جميع مستوياته — خاشعا مستسلما ، ويستقبله العقل — فى مختلف أطواره — راضيا مسلّما ، لايستطيع أن يجد فيه ثغرة للطعن ، أو النقض .

ومع أن القرآن ليس كتابَ علم ، وليس من همّه أن يقرر حقائق علمية ، فإنه في قضية خلق آدم ، قد أمسك بها من أطرافها ، وجاء بها على الوضع الذى يلتقى مع الحقائق العلمية فى أصدق وجوهها وأضوئها .

فمن شاء أن يلتقى القرآن هنا بكل ماتكشف من العلم ، وما ثبت من حقائقه فى قضية الخلق ، فليأت بما معه ، وليذلِ بحجته بين يدى كتاب الله ، وسيجد أنه كمن يحمل الماء إلى البحر ، أو يرسل الضوء إلى الشمس .

استمع إلى مايحدث به القرآن عن خلق الإنسان :

١ – يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ » (١٠٥ : الحج) .

٢ – « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » . (٢٦ : الحجر)

٣ – « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ » (١٤ : الرحمن)

٤ – « وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » (٧١ : ص)

٥ – « إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ » (١١ : الصافات)

٦ – « الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » (٧ : السجدة)

٧ – « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » (١٢ : المؤمنون)

٨ – « مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » (١٣ – ١٤ نوح)

٩ — « وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » (١٧ : نوح)

فالطين كما تصرح به الآيات هنا ، هو الأصل الذى خُلق منه الإنسان ، وأن هذا الطين قد تقلب فى أطوار عديدة ، حتى ظهر منه هذا الإنسان .. فهناك : التراب ، وهناك الطين ، والطين اللازب ، ثم الصلصال ، ثم الحمأ المسنون . . فالتراب هو المادة الأولى فى خلق الإنسان ، ثم يلبس التراب طوراً آخر ، هو الطين ، وينتقل الطين إلى طور جديد هو الصلصال ، ثم الصلصال إلى حمأ مسنون .. وهكذا ينتقل التراب فى أطوار حتى يكون إنسانا .

والحمأ المسنون ، هو الطين بعد أن يتخمر ويتعفّن ، وبين طور الطين والحمأ المسنون طور آخر هو الصلصال ، الذى يتحول فيه الطين إلى مادة من الزبد تشبه الفخّار .

وبلغة العلم : يكون التراب فالطين ، فالصلصال ، فالحمأ المسنون ، أربعة أطوار تتنقل فيها بذرة الحياة ، وإن هذا التخمر والتعفّن الذى أصاب الطين فجعله (الحمأ المسنون) لهو بشائر الحياة ، إذ هو « البكتريا » التى تولدت منها خمائر الحياة ، وظهرت منها جرثومتها الأولى .

« مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا »
(١٣ — ١٤ نوح)

ومقررات العلم الحديث تقول : إن الحياة ظهرت على هذه الأرض أول ماظهرت ، على شواطىء البحار ، حين يتكون الطين ، فالزبد ، فالحمأ المسنون ، فالطحالب ، فالنبات ، فالحيوان ، فالإنسان ..

هكذا يقرر العلم الحديث فى نشوء الحياة وتطورها ، وهو — أى العلم — يرى أن هذه الأطوار قد سارت عبر ملايين السنين حتى أثمرت شجرتها الأولى أكملَ وأكرم ثمرة .. هى الإنسان .

والقرآن الكريم، وإن لم يتعرض لهذه الشجرة التى كانت منها أصول الحياة وفروعها، والتى كان الإنسان — فيما نرى — فروعاً من فروعها وثمرة من ثمارها — لم يجىء بما ينفى هذه الصلة، وتلك القرابة، التى بين الإنسان وبين عوالم الأحياء .. بل إنه — على عكس هذا — قد أشار فى أكثر من موضع إلى مايمكن أن يستقيم منه فهم واضح لتلك الصلة الوثيقة، بين الإنسان وعالم الحياة كله .

ففى قوله تعالى « وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِنْ ماَء » (٤٥ : النور)

وقوله سبحانه : « وجَعَلْنَا مِنَ الماَءِ كلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » (٣٠ : الأنبياء)

دلالة قوية على أن الأحياء كلها — ومنها الإنسان — مخلّقة من مادة واحدة .. هى الماء .. والماء هو المادة التى يتكون منها الطين، إذ لا وجود للطين إلا مع الماء، وبالماء .

وقد نجد عند بعض المفسرين لمحات ذكية، تشير إلى شىء من هذا الذى أصبح من مقررات العلم الحديث .

« فالبيضاوى » يقول فى تفسيره لقوله تعالى : « من حمأ مسنون » : أى من طين تغير واسودّ من طول مجاورة الماء .[1]

فالقول بانتماء الإنسان فى أصل نشأته إلى شجرة الحياة العامة النابتة فى الأرض، من الأرض، لا يعارض نصاً من نصوص القرآن، بل إنه ليلتقى معها فى يسر ووضوح .. فإذا كان الإنسان — آدم — خُلق من طين، فالأحياء كلها — نباتاً وحيواناً — مخلوقة من طين !

فالإنسان إذن هو ابن هذه الأرض : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى» (٥٥ : طه)

(١) تفسير البيضاوى « سورة الحجر » .

وأكثر من هذا ، يُحدّث القرآن فى صراحة ، أن الإنسان — أى أصله — نبتة من نبات الأرض : « والله أَنبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » (١٧ : نوح)

ولو كان الإنسان من طينة غير طينة هذه الأرض ، لما كان له سبيل إلى الحياة على هذه الأرض والقَرار فيها ، والانتفاع بموجوداتها ، من جماد ، ونبات ، وحيوان !

وليس ذلك بالذى يُزرى بالإنسان ، أو يحط من قدره ، فمن هذا الطين تتخلق أكرم الجواهر ، وأنفس المعادن .. من لؤلؤ ومرجان ، وذهب ، وفضة ، وغيرها .!. والإنسان هو الذى يضع نفسه حيث يشاء .. إن شاء كان جوهراً كريماً ، وإن أراد كان طينا لازبا أو حمأ مسنونا أو حجراً صَلْدًا ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . . »

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية ، خيارهم فى الإسلام » .. فى هذه الكلمة النبوية الجامعة ، مايشير إلى مدلول الآيات القرآنية ، التى تتحدث عن خلق آدم ، والمادة التى خلق منها ، على الوجه الذى فهمناها عليه !

يقول الفيلسوف المسلم محمد إقبال فى معرض حديثه عن قصة آدم ، كما جاءت فى القرآن الكريم ، وفى التوراة .. يقول :

« وهكذا نرى أن قصة هبوط آدم كما جاءت فى القرآن لاصلة بها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها — بالأحرى — بيانُ ارتقاء الإنسان ، من بدائية الشهوة الغريزية ، إلى الشعور بأن له نفسًا حرة قادرة على الشك والعصيان » .

« وليس يعنى الهبوط[1] . أى فساد أخلاق ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة من بوارق الشعور بالنفس ، هو نوع من اليقظة فى حلم الطبيعة ، أحدثتها خفقة من الشعور بأن للإنسان صِلَة عِلِّيَّة شخصية بوجوده »[2] .

وهذا الفهم الذى فهمه « إقبال » لآيات القرآن الكريم فى خلق آدم ، هو ـ كما ترى ـ أقرب فهم إلى منطوق كلمات القرآن ، ودلالتها اللغوية ، كما أن هذا الفهمَ الذى يقف بآيات القرآن عند هذه الحدود ، يحمى ينابيع القرآن الصافية ، من هذا الغُثَاء الذى يُلقَى به فى ساحتها ، من تلقيات الأوهام والخرافات التى تتناقلها أجيال الناس ، وتلونها بألوان وأصباغ ، تكاد تغطى سماء آيات الكتاب الكريم ، وتحجب أضواءها .

ثم إنه بمثل هذا الفهم الملتزم لحدود المعنى اللغوى لآيات الكتاب الكريم ؛ يظل الطريق مفتوحاً بين آيات الكتاب وأنظار الناظرين فيها ، كلما جدّ للناس فهم فى الحياة ، وكلما انكشف لهم سر من أسرارها .. حيث يمكن عرض كل جديد ، على القرآن ، فى حدود منطوق كلماته ومفهومها ، فيقبل من هذا الجديد مايقبل ، ويرفض مايرفض ، دون أن يكون عليه من ذلك شىء .. بل يظل فى عَليائه ، مشرقا مشرقا ، تأخذ العيون من ضوئه ، على قدر استعدادها وقوتهـا .

فمثلا نظرية « دارون » فى أصل الأنواع ، وفى النشوء والارتقاء ..

هذه النظرية ، كانت ولا تزال عند كثير ممن أخذوا فهم الآيات القرآنية فى خلق آدم ، عن هذه النقول الخرافية ، وهذه المقولات الأسطورية التى جمعها

---

(١) يعنى الهبوط المشار إليه فى قوله تعالى « اهبطوا منها جميعا » .

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام لإقبال ، ص ٩٩ .

المفسرون والقُصّاص ، من كل ساقطة ولاقطة — كانت ولا تزال هذه النظرية عند كثير من هؤلاء ، من الكفريات ، والإلحاديات ، التى إن جرت على لسان ، كان مجرد جريانها عليه كفراً وإلحاداً ! ! ولهم عذرهم فى هذا ! !

فالذين قرءوا فى كتب التفاسير والقصص ، أن آدم خُلق فى الملأ الأعلى ، وأن طينته غرست فى جنة عدن ، أو جنة الخلد ، أو غيرهما من الجنان — على اختلاف روايات المفسرين فى هذا — هؤلاء الذين قرءوا هذه المقولات فى نشأة آدم ، يرون أن كل قول يخالف هذا ، هو خروج على الدّين ، بل خروج من الدين ا فى حين أن هذا الأمر كلّه ليس فيه شىء من الدين ، ولهذا أباح المفسرون أن يترخصوا فى الحديث عنه ، وألا يلتزموا فيه حدًّا ، فكان لكل منهم مقولاته ، التى قرأها أو سمعها ، أو توهمها ، لأن هذا الأمر ليس من باب التشريع والأحكام ، فتُتَحرّى له الصحة والضبط .

على أن مقولات « دارون » التى أنكرها علماء الدين ، وهاجوا وماجوا من أجلها ، إنما تقوم على علم وتجربة ، وقد يكون فيها قليل أو كثير من الخطأ فى الاستنتاج ، ولكن الذى ينبغى أن يكون عليه موقف العقل إزاءها ، هو الاحترام لها ، والتقدير للجهد الذى بذل فيها ، ومادامت ترجع إلى التجربة ، وتحتكم إلى العقل ، فإن كل عقل مدعوّ إلى الوقوف عندها ، والنظر فيها ، وأخذ مايطمئن إليه منها .. أما صدّ العقل عنها ، وفراره من بين يديها ، فذلك إزراء بالعقل ، وامتهان له ، وتعطيل للوظيفة التى خلق لها ، وخروج على دعوة القرآن التى دعاه إليها .

ثم إن « داروين » الذى أثار هذا الإعصار العاصف ، فى عقول رجال الدين — من كل دين — لم يكن منكراً لله ، ولا كافرا به ، بل إنه — فيما يُروى عنه — كان من أشد الناس إيمانا بالله ، وشهوداً له فى آياته ، التى رآها رأى

العين ، فيما أبدع الخالق وصوّر ، من مخلوقات متطورة ، تتحرك فى مسار الحياة ، من الطين ، إلى أن تكون إنساناً عاقلا ، حكيما عالماً ، نبيًّا .. يطاول السماء فيتناول بيديه كتاب الله ، ويسمع بأذنيه كلمات الله !

يقول « داروين » فى حديثه عن أصل مذهبه : « إن المشابهة ، وأسباباً أخرى ، تدعونا ضرورة إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلها واحد ، وألاّ فاصلَ جوهريا بين العالَمْين : عالم النبات ، وعالم الحيوان . .

ثم يقول : « إنى أرى ، فيما يظهر لى ، أن الأحياء عاشت على هذه الأرض من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة »(١) !

وإذا كان لأحد أن يقف من « داروين » موقف الهلع والخوف ، على معتقده الدينى ، فليس هو المسلم ، الذى يعترف دينه بالعقل ، وبحقه فى البحث والنظر ، وفى احترام مؤدّى هذا البحث والنظر ، الذى لايقوم على هوى ، ولايستند إلى سلطان غير سلطان الحجة والبرهان !

ثم إنه إذا كان لأى دين أن يجافى مقولات « داروين » أو أن يضيق بها فليس هو الدين الإسلامى ، الذى تكاد تنطق آياته بما أعيا « داروين » والعلم الحديث ، الوقوفُ عليه ، من أسرار الخلْق وعظمته !

ومع مانعرف من أن القرآن الكريم ليس كتابَ علم ، وأن الرسالة الإسلامية لم تجىء لتقرير حقائق علمية(٢) — فإن فى عرضه لمشاهد الكون وفى كشفه عن مظاهر الوجود ، لمحات مضيئة ، وإشارات مشرقة ، يجد فيها العلم الحديث مستنداً لمقولاته ، ومجازاً لمقرراته .

---

(١) مذهب النشوء والارتقاء ـ الكتاب الأول ، الجزء الأول ، للمرحوم إسماعيل مظهر ص ٤٧ .

(٢) انظر فى هذا كتابنا — إعجاز القرآن — الجزء الثانى .

وسنرى فى قصة آدم ، التى نحن بصددها ، أنها تسبق مايقرره « داروين » فى نظرياته ، عن التطور وأصل الأنواع !

ونعود إلى تلك القصة ، فنقول :

ربما رأى بعض علمائنا أن فى قوله تعالى : « وإذ قال ربُّك للملائكة إنى خالق بَشَراً من طين ، فإذا سَوّيْتُهُ ونفخت فيه من رُوحِي فقعُوا له ساجدين » ، وفيما جاء من الآيات التى تحدّث عن دعوة الله سبحانه وتعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم ، عندما ينفخ فيه الحق جل وعلا من روحه — قد يرى بعض علمائنا أن فى هذا مايدل على أن آدم قد انفرد بخلق خاص ، دون سائر المخلوقات الأرضية ، وأنه لهذا استحق التكريم والاحتفاء !

ونقول : إن ماورد فى الآية السابقة وأمثالها ، إن دلّ على خِصِّيصَة لآدم ، فإنه لاينفى أن يكون ذلك قد كان حين وصل تطور الحياة بالأحياء إلى هذه المرحلة، التى بلغ فيها التطور غايته ، بظهور هذه السلالة الناضجة من ثمرات الحياة ، وبزوغ أول مواليد النوع الإنسانى .. ويكون معنى قوله تعالى : « إنى خالق بشراً من طين، فإذا سوّيته ونفختُ فيه من روحى فقعوا له ساجدين » أنه إذا بلغ الكتاب أجله بهذا الطين ، الذى سرت فيه الحياة ، وتوالدت منه الأحياء ، إلى أن آذنت فى تطورها بظهور النوع البشرى الذى تهيأ لقبول النفخة الإلهية فيه — « فقعوا له ساجدين » إذا هو تلقى النفخة من روح الحق جلّ وعلا ، وتكون تلك النفخة هى منحة السماء للأرض ، فى يوم ميلادها لمولودها الذى يدبّر أمرها ، ويكون خليفة الله عليها .

ولعل فى قوله تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ » لعل فى هذا مايشعر بالمعنى الذى ذهبنا إليه ، وهو أن آدم لم يجىء من الطين مباشرة ، وإنما كان ذلك بعد سلسلة طويلة من التطورات ، وبعد عمليات

معقدة من التصفية والانتخاب ، استمرت ملايين السنين ، حتى انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التى علا بها جميع أبناء سلالاته ، وكان أهلا لتلقى النفخة الإلهية يوم مولده ، وكأنها التاج الذى تُوِّج به مَلِكا على العالم الأرضى كله . وهذا ماتشير إليه أيضا الآية الكريمة : « مالكم لاترجُون لله وَقَاراً ، وقد خَلقكم أطوارا » .

ثم إن النظر العابر فى عالم الأحياء يعطى دلالة قاطعة على أن الإنسان هو من طينة الأسرة الحيوانية .. فهذا التشابه الكبير فى تركيب الأعضاء ، والحواس، وعملية الهضم ،والتنفس، ومجرى الدم فى العروق ، ثم فى عملية التناسل فى مراحلها المختلفة .. كل هذا التشابه يقطع بأن الإنسان حيوان قبل أن يكون إنسانا ! وإنك لتجد الإنسان كله فى أدنى المخلوقات ، وفى أرقاها .. من الدودة والحشرة ، إلى القرد والغوريلا .

وعلى هذا ، فإننا لانستطيع أن نقبل أقوال المفسرين فى خلق آدم ، على تلك الصورة التى يرسمونها للأسلوب الذى وُلد به . .

فمثلا ، « القرطبى » يقول فى تفسيره عن خلق آدم : « فخلقه الله بيده ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة[1] ، فمرت به الملائكة ، ففزعُوا منه لمّا رأوه ، وكان أشدهم فزعاً إبليس ، فكان يمر به ، فيضربه ، فيصوّت الجسد ، كما يصوّت الفخار تكون له صلصلة ، ويقول إبليس : « لأمرٍ ماخُلِقْتَ ! ! »[2] .

---

(١) تبعا للمقولات الإسرائيلية التى تقول إن الله خلق الأحياء فى يوم الجمعة . . وقد اقتطع القرطبى من هذا اليوم أربعين سنة لخلق آدم ، على اعتبار أن اليوم عند الله كألف سنة من أيامنا .

(٢) تفسير القرطبى .

وهذا القول وأمثاله إن هو إلا من موارد قصص الأولين وأساطيرهم، وليس فى آيات القرآن الكريم دلالة عليه، من قريب أو بعيد.

* * *

وننتهى من هذا إلى قول واحد فى هذه القضية، وهو الاحتفاظ بها فى الإطار القرآنى، الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

فآدم مخلوق من «تراب» أو من «طين» أو «حمأ مسنون» أو من «طين لازب» أو من «سلالة من طين» أو من «صلصال كالفخار» أو نبت من الأرض نباتا..

فهذا هو الذى يقوله القرآن فى خلق آدم!

ثم ليقل العلم مايشاء من مقولات، فإن مصير العلم وما يقع له من حقائق ثابتة فى هذا الشأن؛ لابد أن ينتهى إلى تلك الصورة التى رسمتها الآيات القرآنية الكريمة، لهذه القضية!

الشجرة التى أكل منها آدم

نهى الله سبحانه وتعالى آدم عن أن يقرب شجرة من أشجار تلك الجنة التى أسكنه فيها، وأباح له الأكل رغداً من ثمارها.

وهذه الشجرة لم يعرض القرآن لبيان نوعها، ولهذا فهى — في محيط القرآن — غير معروفة النوع ولا الصفة، وإن كانت معروفة لآدم، حيث أشار إليها الحق سبحانه وتعالى، إشارة كاشفة، حين نهاه وزوجه عنها، بقوله سبحانه: «ولا تَقْرَبا هذه الشجرة».

وقد وصف إبليس هذه الشجرة لآدم وحواء، وصفا كاشفا لها، وللمعطيات التى ضُمّت عليها، وفى هذا يقول الله تعالى:

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ يَا آدَمُ : هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى » (١٢٠ : طـه) ويقول سبحانه :

« فوسوسَ لهمَا الشيطانُ ، لِيُبْدِيَ لهما ما وُرِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وقال مَا نهاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ » (٢٠ : الأعراف)

وهذه الأوصاف التى خلعها إبليس على تلك الشجرة لاتلتقى مع الواقع ، ولا تحدّث عن الحق ، وإنما هى من تلفيقات إبليس وأكاذيبه ، ليخدع بها ويُغرى .

ومع ذلك فإن المفسِّرين والقصاص ، قد ذهبوا فى الحديث عن الشجرة ونوعها كل مذهب ، مستندين فى هذا إلى بعض الروايات المعزوّة إلى بعض الصحابة والتابعين ، لتكتسب شيئاً من الاحترام والقبول ، وهى فى حقيقتها إسرائيليات ، وأساطير ، وخرافات .

فالشجرة ، هى « السنبلة » فيما يروى عن ابن عباس .

وهى « الكرمة » فيما يروى عن ابن مسعود ، والسُّدِّىّ .

وهى « التينة » عن ابن جريج .

وهى شجرة « الكافور » .. عن علىّ بن أبى طالب .

وهى شجرة « العلم » — [علم الخير والشر .] . عن الكلبى .

وهى شجرة « الخلد » التى كانت تأكل منها الملائكة . . عن ابن جُدعان »(١) .

وبعيد أن يكون لهذه المقولات مستند صحيح من كتاب أوسنة ، وإلا لَمَا كان بينها هذا الاختلاف البعيد ، فى حقيقة واحدة !

(١) انظر مجمع البيان فى علوم القرآن للطبرسى — الجزء الأول .

والقرآن الكريم ، إذ وقف بالشجرة دون أن يحدّد نوعها ، فإنما ذلك لأنها معروفة معهودة لآدم ولزوجه — كما قلنا — ثم إن عدم تحديد نوعها فى الحديث عنها إلينا ، لايمنع أن يكون للشجرة مفهوم خاص عندنا ، وإن لم يدخل فيه نوعها .. أيًّا كان !

فلنحاول فهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ، ليس لها صفة خاصة تمتاز بها ، عن الأشجار التى معها ، إلا فى تحديد ذاتها بالإشارة إليها !

فلتكن هذه الشجرة ما تكون .. شجرة كرم ، أو تين ، أو كافور ، بين العديد من مثيلاتها ، إلاّ أن النهى والتحريم وقع عليها ، دون غيرها .

وهذا التحريم لشجرة بعينها ، إنما هو امتحان لآدم وابتلاء لعزيمته ، أمام الإغراء ، وحبّ الاستطلاع ، الذى هو غريزة قوية عاملة فيه .. وهذا ما أُحبّ أن أفهم عليه قوله تعالى : « وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » (١١٥ : طه)

وننظر ، فنجد غريزة حب الاستطلاع أقوى غريزة متمكنة فى طفولة الإنسانية بنوع خاص ، كما هى متحكمة فى طفولة الأطفال !

وطفولة الإنسانية كلها مندسة فى كيان « آدم ».. أول تباشير النوع البشرى فى هذا الوجود !

ولهذا ، فإن هذا النهى الذى تلقاه آدم من ربّه ، عن الاقتراب من تلك الشجرة خاصة دون مثيلاتها ، قد وقع من نفس آدم موقعين :

١ — موقعَ الخوف من الجهة التى ألقت إليه بهذا النهى ، والحذر من أن يخالف ما نُهِى عنه .

٢ — الرغبة الصارخة فى مداناة هذه الشجرة ، والتعرف عليها ، وعلى

مايكمن فيها ، استجابة لغريزة حبّ الاستطلاع التى ألهبها هذا النهى ، وأيقظها فى كيانه .

ثم إلى جانب هذه الرغبة الصارخة إلى مقاربة الشجرة ، كانت وسوسة إبليس لآدم، وإغراؤه له ، الأمر الذى عجّل بخطوات آدم إلى الشجرة ، وسيره حثيثاً إليها ..

ولولم يقم إبليس من وراء آدم ، يغريه بالشجرة ، ويدفعه إليها ، لسار إليها وحده ، وابلغها ، ولأكل منها ! ولكن لايكون هذا إلا ببعد زمن متراخ عن هذا الوقت الذى اقترب فيه بالفعل من الشجرة ، وأكل منها ! !

هكذا الإنسان ، وهكذا الناس ، يتحدّون كل سلطان يقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان ذلك لخيرهم وإسعادهم .

ولهذا فإنى أحب أن أذكرهنا قوله تعالى : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » (٣٧ : الأنبياء)

وقوله جل شأنه : « وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً » (٢٨ : النساء) كما أحب أن أفهم هاتين الآيتين الكريمتين على أنهما تكملان الصورة التى خلق عليها آدم ، وأن إغراء إبليس له قد عجل بظهور الإنسان فى آدم ، وفى إنضاج ثمرته قبل أوانها ! !

فمنذ انتهى آدم إلى الشجرة ، وذاق من ثمرها ، بعد هذا الصراع العنيف بينه وبين نفسه ـ أدرك أنه جنى جناية غليظة ، كما أدرك أنه سيلقى جزاء ما اقترف .. وهنا يتنبه إلى وجوده ، فيرى أنه مخلوق ذو إرادة ، يستطيع بها أن يزن أموره ، وأن يتقدم أو يتأخر ، بوحى من ذاته ، وأنه لم يعد شيئاً من أشياء الوجود التى لاتشارك فى نسج حياتها ، وفى صنع قدَرها ، وهنا يتنبه إلى أنه عار مكشوف العورة كالحيوانات السائمة ، الأمر الذى لم يكن يراه من

قبل ، أو ينكره ، ثم لم يكن فى مقدور عقله وحيلته — بعـد أن عرف أنه عريان — أن يسعفاه بأكثر من ورق الشجر ، ليستر به سوأته .. تماماً كما يفعل الآدميون من سكان الأدغال ، حين ينتقلون من طور العرى الخالص إلى طور التستر بأوراق الشجر .. إنهم هم «آدم» وإن تأخر بهم الزمن آلاف السنين أو ملايينها ! !

يقول الفيلسوف المسلم « محمد إقبال » :

« فالمعصية الأولى للإنسان ، كانت أولَ فعــل له ، تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، كما جاء فى القرآن ، وغفر له .

« وعمل الخير لايمكن أن يكون قسراً ، بل هو خضوع عن طواعية للمَثَل الأخلاق الأعلى ، خضوعاً ينشأ عن تعاون النظرات الحرة المختارة ، عن رغبة ورضى !

«والـكائن الذى قُدّرت عليه حركاته كلها ، كما قُدّرت حركات الآلة ، لايقدر على فعل الخير !

ثم يمضى قائلا :

« وعلى هذا ، فإن الحرية شرط فى عمل الخير .

« ولـكن السَّماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ماتفعل ، بعد تقدير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها — هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حرية اختيار الخير ، تتضمن كذلك اختيار عكسه !

ثم يُنْهى إقبال هذا الموقف بقوله :

« ربما كانت مغامرة كهذه هى وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلْق : « على أحسن تقويم » ثم رَددْناه : « أســفل

سافلين »[1] وكما يقول القرآن : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » .

وهذا كلام واضح مشرق ، لايحتاج إلى تعليق ، أو توضيح .

الجنة التى أهبط منها آدم

يكاد يجمع المفسرون على أن الجنة التى كان فيها آدم ، قبل المعصية ، هى جنة واقعة وراء الحس ، أى أنها من تلك الجنات السماوية ، التى وُعد المتقون بها فى الآخرة .

وقد أعان على هذا الفهم للجنة ، أمور . . منها :

١ — ماوقع فى التفكير الإسلامى من اختصاص آدم بهذا الخلق الذى انفرد به عن سائر المخلوقات .. مادة، وصفة ! !

٢ — ما ورد فى القرآن الكريم من وصف تلك الجنة ، وما كان يلقاه فيها من راحة ونعيم : « إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلاَ تَعْرَى ، وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى » (١١٧ - ١١٨طه) .

٣ — كثرة ذكر الجنة فى القرآن الكريم ، مراداً بها الجنة السماوية .

ومع هذا ، فإن هذه الأمور لاتعطى حكما قاطعاً بأن جنة آدم كانت جنة سماوية ، ولاتدفع القول بأنها كانت جنة أرضية ، من تلك الحدائق والغابات المبثوثة فى بقاع شتى من الأرض ، التى تخرج بطبيعتها من غير صنعة إنسان .

أما تلك العناصر التى مهدت للقول بأنها جنة سماوية ، فيمكن فهمها فهماً آخر .

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة التين : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين . . »

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، لإقبال .. ص ٩٦ .

فأولا : مايقال من اختصاص آدم بخَلْق تفرّد به من بين المخلوقات — هذا القول لم تشهد له آيات القران الكريم ، وقد تحدثنا عن ذلك فيما مضى ، وانتهينا إلى القول بأن آدم مخلوق أرضى ، نبت فى الأرض ، كما نبتت سائر المخلوقات التى دبّت عليها .

ثانياً : الوصف الذى وصفت به جنة آدم بأن ساكنها لا يجوع فيها ولا يعرى ، ولا يظمأ ولا يضحى — هذا الوصف يمكن أن يتحقق فى كثير من جنات الأرض ، حيث يجد من يعيش فيها ما يكفى مطالب الحياة وضروراتها ، خاصة وأن آدم — فى هذا الطور من حياته — لم يكن قد عرف نفسه ، ولم يكن قد تعرف على مافيه من إرادة ، وأنه لم يكتمل فيه الإنسانُ الذى ظهر بعد أن أكل من الشجرة — فمطالبه ، والحال كذلك ، لاتَعْدو مطالبَ الرجل البدائى من سكان الأدغال .. وكل هذا حاضر عتيد بين يديه ، لا يتكلف له جهداً .

وثالثاً : إذا كانت الجنة السماوية قد ذُكرت كثيراً فى القرآن الكريم ، فى معرض الجزاء الأخروى للمتقين ، فإن الجنة الأرضية قد ذكرت أيضاً بهذا الاسم .. « جنّة » فقال تعالى : « أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ . » (١٦٦ : البقرة) .. وقال سبحانه وتعالى : « وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا » (٣٢ ، ٣٣ : الكهف) .. إلى آيات كثيرة ، ورد فيها ذكر الجنة على هذا المعنى .

والقرائن التى قدمناها فى هذا البحث تميل بجنة آدم إلى الجانب الأرضى وتقيمها على أى مكان من الأرض .

وقد سبق بعض قدماء المفسرين إلى القول بهذا الرأى ، الذى ربما أنكره ، وفزع منه كثير من علماء القرن العشرين !

فهذا أبو مسلم الأصفهانى ، صاحب التفسير ، الذى كان عمدة كثير من علماء المسلمين وفقهائهم — يقول عن جنة آدم : « هى جنة من جنات الدنيا فى الأرض .. »

ثم هو يجيب على الإشكال الذى يعترض به المعترضون فى قوله تعالى لآدم وإبليس : « اهبطوا منها جميعاً » من أن هذا الهبوط يعنى نزولا من السماء إلى الأرض ـ يجيب على هذا الإشكال بقوله : « إن قوله تعالى : « اهبطوا منها » لا يقتضى كونها السماء ، لأنه مثل قوله تعالى : « اهبطوا مصراً »[1].

ويقول محمد إقبال عن تلك الجنة أيضاً : « ليس هناك من سبب لافتراض أن كلة جنة أى (حديقة) استعملت فى هذا السياق — سياق قصة آدم — للدلالة على جنة وراء الحسّ ، يُفترض أن الإنسان هبط منها إلى هذه الأرض .

ثم يقول :

« وطبقاً للقران — وليس الإنسان غريباً عن هذه الأرض ، إذ يقول الله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » — فالجنة التى ورد ذكرها فى القصة لا يمكن أن يُقصد بها الجنة التى جعلها الله مُقاماً خالداً للمتقين .

ثم يقول :

« وعلى هذا ، فأنا أميل إلى اعتبار الجنة التى جاء ذكرها فى القرآن تصويراً لحالة بدائية ، يكاد يكون الإنسان فيها مقطوعَ الصلة بالبيئة التى يعيش

(١) من تفسير أبى مسلم ، نقلا عن مجمع البيان فى علوم القرآن للطبرسى : جزء — ١ ص ١٦٧ .

فيها ، ومن ثمّ فإنه لايحسّ بلذعة المطالب البشرية ، التى تحدد نشأتها — دون سواها من العوامل — بدايةُ الثقافة الإنسانية »[1] .

الآيات (٤٠ — ٤٣)

« يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (٤١) ، وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) .

التفسير : بعد أن دعا الله عباده جميعاً إلى الإيمان به ، وأنكر على الكافرين كفرهم مع قيام الآيات الشاهدة على قدرة الله ، وعلى سوابغ نعمه على الناس ، وعلى خلقهم من تراب ، وإخراجهم على تلك الصورة الكريمة من بين المخلوقات — بعد هذا خصّ بنى إسرائيل بالذكر مرة أخرى ، لأنهم أهل كتاب ، ولأنهم شهود بأن مانزل على محمد هو من عند الله ، وأن محمداً هو النبىّ العربى المنتظر ، كمايعرفون ذلك من التوراة ، عن يقين .

ولكن اليهود مكروا بآيات الله ، وكتموا الحق الذى يعلمونه ، كما أخبر الله سبحانه وتعالى عنهم بقوله : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١٤٦ : البقرة)

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام .. لمحمد إقبال ص ٩٨ .

والنعمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، هي بعث الرسل إليهم، يحملون الهدى والنور، ولكن القوم في عمّى وضلال، وفي شغل بالدنيا لإشباع أطماع قاتلة مسلطة عليهم، فكتموا ما أنزل الله، لقاء عرض زائل مَنَّتْهُم به أنفسهم، من وراء تلك الشهادات المزوّرة التي يدفعون بها إلى كفار قريش، فيما يسألونهم عنه من أمر « محمد » باعتبار أنهم أهل كتاب، وأهل علم، كما قال الله تعالى عنهم « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً » (٥١ ـ ٥٢ النساء)

والعهد الذي دعا الله بني إسرائيل إلى الوفاء به، هو ما أخذه الله على أهل الكتاب، وأهل العلم منهم خاصة — وهو أن يؤدوا هذه الأمانة — أمانة العلم — التي حملوها إلى الناس، وألا يكتموا منها شيئاً، أو يحرفوها على غير الوجه الذي جاءت عليه .. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى :

« وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » (١٨٧ : آلَ عِمْرَانَ)

وكما يشير إليه أيضاً قوله سبحانه : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ » لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ » (٨١ : آل عمران)

والمراد بالنبيين هنا النبيون وأتباعهم، فقد أخذ الله هذا الميثاق على النبيين ثم أخذه النبيّون على أتباعهم، وبذلك يتناصر المؤمنون، ويجتمعون على كلمة

الحق ، وتحت راية الحق ، وإن تباعدت أوطانهم ، واختلفت أجناسهم .

الآية : (٤٤)

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٤٤)

التفسير : والخطاب هنا خاص لبنى إسرائيل ، ولا تمنع خصوصيته من عموميته ، وبهذا يكون الخطاب لكل من يحسن القول ، ولا يحسن العمل ، ويندب الناس إلى الخير ، ويأمرهم به ، ولا ينظر إلى نفسه ، ولا يحملها على أخذ حظها من هذا الخير الذى يدعو إليه .. وفى ذلك ظلم للنفس ، وخسران مبين .

وقد ذمَّ الله سبحانه من يسلك هذا المسلك المتناقض ، من الناس ، فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » * والقول المراد هنا هو ما كان على طريق الحق والخير ، أما ما كان على غير هذا الطريق فالنكول عنه هو الخير والبر .

الآيتان : (٤٥ ـ ٤٦)

« وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (٤٦)

التفسير : وهذه دعوة إلى المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول ، من أهل الكتاب وغيرهم ـ أن يستعينوا على التزام الصراط المستقيم بالصبر والصلاة ، إذ أن هذين الأمرين ـ الصبر والصلاة ـ يمدّان المؤمن بالقوة التى تعينه على احتمال تكاليف العبادة ، ومشقة الجهاد ومدافعة شهوات النفس وأهوائها .

وقُدِّم الصبر على الصلاة ، لأنه مطلوبها الذى يعين عليها ، وعلى أدائها فى أوقاتها . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً النبى الكريم : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ

بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » (٣٢ : طه)

وخُصَّت الصلاة وحدها هنا بالذكر ، من بين العبادات ، لأنها رأس العبادات جميعها ، وملاك الطاعات كلها ، فمن أداها كاملة ، فى جلالها وخشوعها، سلكت به مسالك الخير والهدى ، وحادت به عن طرق الضلال والآثام ، إذ يقول الحق سبحانه : « « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ، إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » (٤٤ : العنكبوت)

وقوله تعالى : « وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ » الضمير هنا يعود على الصلاة ، وإنها لكبيرة — أى ثقيلة — إلا على ذوى القلوب المتفتحة للخير ، المتقبلة له ، أما ذوو القلوب القاسية المتحجرة ، التى لاتنضح بخير ، فأمرها ثقيل عليهم ، لايأتونها — إن أتوها — إلا فى تكاسل ، وفتور ، أوفى تكرّه وتبرّم !

والذى يُفيض على القلب الخشية والخشوع ، هو الإيمان بالله ، وبلقاء الله يوم الجزاء فى الآخرة ، فذلك هو الذى يثبّت خطو المؤمن على طريق الإيمان، ويعينه على أداء الطاعات والعبادات !

وفى قوله تعالى : « يظنون أنهم ملاقوا ربّهم » — فى هذا التعبير بالظن هنا ، إشارة دقيقة إلى أن الإيمان بالبعث وبلقاء الله إنما هو إيمان بالغيب ، لايستند إلى مدرَك حسّىّ ، ومن ثَمَّ كان الإيمان به واقعاً فى دائرة الظن المستيقن ، أو اليقين المحفوف بالظن — ذلك هو أول درجات الإيمان — فإذا مادرج المؤمن فى طريق الإيمان ، مستعيناً بالصبر والصلاة اطمأن قلبه ، وجلتْ عنه وساوس الظنون ، كما يقول سبحانه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » (٢٨ : الرعد)

والعطف بالواو بين الإيمان بالله واطمئنان القلوب ، يبدو هنا وكأنه عطف بثمّ ، كما يبدو ذلك من نظم الآية ، ومن النّبرة الموسيقية لواو العطف بعد الواو فى الفعل « آمنوا » .. حيث يقوم فاصل زمنى بين النطق بواو العطف ، والتاء فى الفعل « تطمئن » .. هكذا : « آمنوا و .. تطمئن قلوبهم بذكر الله » .

الآيتان : (٤٧ — ٤٨)

« يَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (٤٧) وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » (٤٨)

التفسير : هذه النداءات المكررة من ربّ العزة إلى هذا القطيع الشارد ، من بنى إسرائيل ـ إنما تشير إلى ما فى نفوس هؤلاء القوم من كنود ، وما فى طباعهم من جفاء وجماح ، وما ضُمّ عليه كيانهم من جحود للإحسان ، وكفران بالنعم ؛ وليست هذه النداءات المتكررة إلا لإقامة الحجة عليهم ، ومظاهرة النذر لهم ، حتى إذا أُخذوا بعنادهم وجماحهم كان أخذهم شديداً أليما .. ومن أجل هذا أخذهم الله بالبأساء والضراء ، وأوقع عليهم اللعنة ، وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، فقال تعالى فى بنى إسرائيل : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ » (١٣ : المائدة) ويقول سبحانه : « ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ ، وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » (١١٢ : آل عمران)

وأما قوله تعالى : « وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ » فالمراد بالعالمين هم أهل زمانهم المعروفون لهم من الأمم المجاورة ، إذ كانوا هُمْ أَهْلَ كتابٍ ، وفيهم الرسل والأنبياء ، على حين كان جيرانهم وثنيين، على كفرٍ وشركٍ وضلال .

ومّما يشهد لهذا أن موسى عليه السلام وهو رأس بنى إسرائيل فى الكرامة والفضل عند الله — كان بمنزلة تلميذ ، يتلقى العلم والمعرفة على يد عبد من عباد الله ، كما فى قوله تعالى : « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً * قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا » . (٦٥ـ ٦٦ : الكهف)

ويشهد لهذا أيضاً شهادةً قاطعة ، قوله تعالى عن أمة الإسلام :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » (١١٠ : آل عمران) .. فهذا حكم قاطع بالخيرية المطلقة لهذه الأمة — فى مقام الهداية ، وصدق الإيمان بالله — على سائر الأديان ، وجميع الملل !

الآيات : (٤٩ — ٦١)

« وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ

تَهْتَدُونَ (٥٣) وإذ قال مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ
بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ
لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤)
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ
الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ
خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا
يَفْسُقُونَ (٥٩) وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ،
فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا
وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٦٠) ، وَإِذْ قُلْتُمْ
يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ
الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي
هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ
عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا
يَعْتَدُونَ » (٦١) .

فى هذه الآيات الكريمات تفصيل لتلك النعم ، التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، والتى جاء إجمالها فى قوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأنى فضلتكم عَلَى العالمين » .

ومع تتابع هذه النعم السابغة ، وتوالى هذه الآلاء الكريمة ، فإن القوم لم يلقوْا هذا الإحسان إلا بالكفران ، واللجاج فى العناد ، والمحادّة لله ورسوله .

ينجيهم الله من فرعون ، وما رهقهم به من محن ، وما رماهم به من بلاء ، حيث كان يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم بما يَدخُل عليهم من جنده من استخفاف بحرماتهن ، وهتك لأستارهن ، مما يجرح حياء المرأة ، ويغرق وجه الحرة بماء الخجل !

ويكرم الله نبيهم موسى ، فينزله فى رحاب ضيافته أربعين ليلة ، يناجيه فيها ، ويوحى إليه بآياته وكلماته .. « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون » والكتاب هو التوراة ، والفرقان من عطف الصفات ، فهو كتاب وهو فرقان ، يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، وما الله وما لخلق الله !

ولكن تأبى طباعهم النكدة أن تعلو إلى مشارف هذا النور ، بل هى رابضة على التراب ، ترعى مع البهائم ، وتهيم فى أودية الضلال ..فيتخذون من العجل إلهاً معبوداً من دون الله !

ويتلقى هؤلاء المناكيد العقاب الطبيعى من الله ، فيأمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، فتلك نفوس لاحرمة لها ، بعد أن نزلت إلى هذا المستوى الحيوانى ، بل ونزلت عن هذا المستوى ، فوضعت جباهها تحت أقدام الحيوان ، تعفّر جبينها بالتراب؛ عابدة ساجدة له .

ويتسلط القوم بعضهم على بعض ، ويضرب بعضهم رءوس بعض ، كما تتناطح الوعول ، أو كما تتناهش العقارب والحيات !

ولا تنفع فى القوم هذه المَثُلات ، ولا تقوم لهم منها شواهد العـــبر والعظات ، وإذا الذين رحمهم الله منهم من هذه المحنة ونجاه من القتل ؛ لايزالون فى ريبة من ربّهم ، وفى شك من معبودهم ، فيجيئون إلى موسى بهذا الطلب العجيب : « لن نؤمِنَ لك حتى نَرَى الله جهرة » وهم بهذا يكشفون عن بلادة حسّهم ، وطفولة مداركهم ، بحيث لايتعاملون مع الحيـاة إلا بما يلامس حواسّهم، ويَحْبه أبصارهم ، أمّا مايستشفه الوجدان ، ويتمثله الحدْس والخيال؛ فليس لهم حظ منه ، ولاتجاوب معه .. إنهم لم يستطيعوا أن يروْا الله فى آياته التى تبدو فى ظاهر الموجودات وباطنها ، أو أن يشهدوه فيما يجريه الله تعالى على يد موسى عليه السلام ، من معجزات ناطقة بقدرة الله ، وبسلطانه المتمكن فى كل ذرة من ذرات الوجود ، حتى لقد آمن سحرة فرعون بين يدى موسى من غير دعوة إلى الإيمان ، وهم منه فى وجه خصومة بادية وعداوة متحدية ، بل لقد اضطر فرعون إزاء سطوة المعجزة أن يقول : « آمنتُ أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » . . ولـكن القوم رجال فى مساليخ أطفال ، لا يكادون يخطون على طريق الهدى خطوة أو بضع خطوات ؛ حتى يتعثروا ويسقطوا فى التراب والوحْل !

وكان من إعناتهم لنبيهم موسى ، وإلحاحهم عليه ، فى ثرثرة كثرثرة الصبيان ، ولهفة كلهفة الأطفال ـ أن طلب موسى من ربّه أن يراه حتى يراه معه هؤلاء الأغبياء ، كما جاء فى قوله تعالى على لسان موسى :

« وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَنْ تَرَانِي ، وَلَـكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَـكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَـلِ جَعَلَهُ دَكًّا ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا »

(١٤٣ : الأعراف)

وكذلك صُعِقَ القوم الّذين كانوا معه ، وكانت عدتهم سبعين ، وقع عليهم الاختيار ، ليكونوا شهوداً عند القوم بأنهم رأوا الله جهرة ! وفى هذا يقول الله تعالى : « واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ »
(١٥٥ : الأعراف)

وقد كاد يكون إجماع المفسرين على أن البعث فى قوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » ـ هو إحياؤهم بعد أن أخذتهم الصاعقة ، وأنَّ كلمتى البعث والموت هنا مجازيتان فى مقابل اليقظة والنوم ، كما فى قوله تعالى « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ، فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » (٤٢ : الزمر)

والأولى ـ عندى ـ أن يُحمل المعنى على ظاهر اللفظ ، فيكون الموت موتاً حقيقياً ، والبعث بعثاً حقيقياً أيضاً ، أى بعث الآخرة ! ويشهد لهذا الوجه ، العطفُ بثم ، فى هذه الآية « ثم بعثناكم من بعد موتكم » كما يقوّيه أيضاً ما جاء لسان موسى فى قوله تعالى مخاطباً ربّه : « لو شئتَ أهلكتهم من قبلُ وإيّاى » ! فلو أنهم عادوا إلى الحياة مرة أخرى ، لما كان لموسى أن يسأل ربه ما سأل .

وأحسب أن الذى حمل المفسّرين على القول بإحياء القوم بعد أن أخذتهم الرجفة ، حتى أعيدوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ـ هو قوله تعالى فى خاتمة الآية : « لعلكم تشكرن » كأنّ استحقاق الشكر لا يكون إلا عن البعث الدنيوى ، وكأن البعث الأخروى ليس بالنعمة المستأهلة للحمد

والشكر ، وهذا غير صحيح ، فالحياة على أية حال من الأحوال خير من العدم والله سبحانه وتعالى يقول : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ » (٥٢ : الإسراء) والمراد بالدعوة هنا الدعوة إلى الحشر ، التى يستجيب لها الأموات جميعاً بالحمد لله رب العالمين .

ثم إن مجىء الآيات بعد هذا خطاباً عاماً لبنى إسرائيل ، معدّدة النعم التى أنعم الله بها عليهم ، مذكرةً بالبعث بين عرض هذا النعم ـ فيه إيقاظ للشعور بيوم الجزاء ، والعمل له ، وتغليظ للمنكرات التى يقترفها القوم ، فى مواجهة هذه النعم الجليلة المتتابعة عليهم .

وفى قوله تعالى : « وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ، وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا ، وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » . .

عرض لبعض هذه النعم . . ففى التّيه الذى رماهم الله به فى الصحراء ، وكتبه عليهم أربعين سنة ، لم تتخلّ عنهم رحمة الله ، فساق إليهم الغمام ليظلّهم من وقدة الشمس ، ولفح الهجير ، وأرسل عليهم المنّ والسلوى ، طعاماً لا يتكلفون له عملاً ، فالمنّ مادة عسلية تفرزها بعض الأشجار ، والسلوى طيور طيبة الطعام هى السّمانىّ .

ولكن هذه الألطاف الرحمانية ، وهذا الطعام الطيب المسوق بقدرة الله ، المحفوف برحمته ، لم تستسغه هذه النفوس الحيوانية ، فعافته وتنكرت له ، وطلبت ما يملأ معدة الحيوان . . من بقل وقثاء ، وحنطة وعدس وبصل ! ، فكان أن أجابهم الله إلى ما طلبوا ، وساقهم سوق الحيوان إلى المرعى الذى يجدون فيه الطعام الذى اشتهوا ! !

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ، فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ، وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ، وَقُولُوا حِطَّةٌ ، نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ » .

والقرية التي دُعوا إلى دخولها ، ليأكلوا منها حيث شاءت لهم أنفسهم ، هي قرية لم يذكر القرآن اسمها ، وإنما أشار إليها بقوله : « هذه القرية » فهي معروفة للقوم ، ولعلها بيت المقدس ، كما يرى ذلك أكثر المفسرين ، ولعل مما يقوّى هذا الرأى أنهم أُمروا بدخولها على صفة خاصة ، وبمراسيم محددة تؤدَّى لها . . « ادخلوا البابَ سجداً ، وقولوا حِطّةٌ » . . هكذا ينبغى أن يكون دخولهم هذه القرية . . أن يدخلوا الباب ساجدين ، وأن يقولوا عند دخولهم : حطة لذنوبنا ، أى مغفرة لها . .

ومما يقوى الرأى بأن القرية المشار إليها هنا هى بيت المقدس ، أن بابها المأمورَ بدخوله فى هذه الآية قد ورد فى قوله تعالى : « قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ » (٢٣ : المائدة) .

وفى قوله تعالى : « فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ، فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » .

ما يكشف عما فى طبيعة القوم من عناد ، وإنه عناد الأطفال . . يأبون إلا ركوب رءوسهم ، والاتجاه إلى غيرما يوجَّهون إليه ، ولو كان فى ذلك تَلَفُهم وهلاكهم .

فهذه كلمات علوية سماوية من رب العزة ، جاءتهم على لسان نبي كريم : « وقولوا حطة » .

ومع هذا فقد سوّلت لهم أنفسهم الخبيثة أن يغيّروا ويبدلوا من صور هذه الكلمات ، لا لشيء إلا لإرضاء نزعة العناد الصبيانى فيهم ، وإشباع غريزة التخريب الطفلى عندهم . . « فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذى قيل لهم » إنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أمانة الكلمة ، فكيف بأمانة العمل ؟ ولهذا كانت الصفة الغالبة عليهم : نقض المواثيق ، والتحلل من العهود والعقود . . وكان ذلك هو الوصف الملازم لهم فى القرآن الكريم : « يحرِّفونَ الكلم عن مواضعه » (١٢ المائدة) « يَنْقضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بعد مِيثَاقِهِ ، وَيَقطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ، وَيُفْسِدُونَ فى الْأَرْضِ » : (٢٧ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » .

تلك آية من آيات الله البينة ، ونعمة من نعمه الجليلة ، على هؤلاء القوم الشاردين عن موارد الحق والهدى . . تتحرق أكبادهم عطشاً فى هجير الصحراء ، فتطلع عليهم رحمة الله ، فيما يتلقى موسى من أمر ربه : « اضربْ بعصاك الحجر » فيتدفق الماء عذباً زلالاً ، من اثنتى عشرة عيناً ، بعدد قبائلهم .

وانظر كيف أبت عليهم نفوسهم المتبلدة الضيقة أن تتآلف جماعاتهم فى وجه تلك المحن التى يلاقونها فى هذا التيه ، فتعيش كل جماعة منهم فى محيطها . . اثنتى عشرة جماعة !!

هكذا قُطِّعُوا أمماً وهم فى هذا التيه ، وهكذا هم يقطَّعون أمماً فى الأرض ، ويتيهون فى الأمم والشعوب إلى يوم الدين .

وفى قوله تعالى : « فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً » إشارة إلى تدفق الماء بقوة وغزارة أكثر مما فى قوله تعالى فى سورة الأعراف « فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً » . . فالانبجاس دون الانفجار ، قوةً وأثرا .

وهذا الاختلاف فى التعبير إنما هو لاختلاف الحال ، فحين ضرب موسى الحجر كان الانبجاس أولاً ، ثم تلاه الانفجار . . فكل من الانبجاس والانفجار وصف لحال من أحوال ضربة العصا ، وأثر من آثارها . . وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز ، فى التكرار الوارد على الأحداث ، فى القصص القرآنى ، كما سنعرض له ، بعد ، إن شاء الله .

وفى قوله تعالى : « وَضُرِبتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآءوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ » .

حكم قاطع على هذه الجماعة الشاردة المعربدة ، بأن تشتمل عليها الذلة والمسكنة باطناً وظاهراً ، أى فى كيانها الذاتى ، وفى واقع الحياة المسلطة عليها ، فقد كان العقاب الطبيعى لهذا الغرور المستولى عليهم أن يقتل الله فيهم معانى الإنسانية الكريمة ، وأن يميت فى نفوسهم كل معالم القوة والرجولة ، ثم يسلّط عليهم — مع هذا — من خارج أنفسهم قوًى تُسيمهم الخسف والهوان، كما يقول تعالى: « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عليهمْ إلى يومِ القيامَةِ من يَسُومُهُمْ سُوءَ العذاب» (١٦٧ : الأعراف) .. وهذا هو معنى ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، فالضرب بالشىء على الشىء ، هو إحاطته به واشتماله عليه ، كما تضرب الخيمة على من تحتها !

وفى قوله تعالى : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النَّبِيِّينَ

بغير الحق ذلك بما عَصَوْا وكانوا يعتدون » بيان لجرائمهم التي استحقوا عليها هذا العقاب الأليم .. فقد كفروا بآيات الله ، وجحدوا النعم التي غمرهم الله بها ، وغيّروا وبدّلوا فى كلمات الله ، حسب ما أملت عليهم أهواؤهم ، وسوّلت لهم أنفسهم ، ثم تمادَوْا فى كفرهم وضلالهم فمدوا أيديهم بالأذى إلى رسل الله ، الذين حملوا إليهم ما حملوا من نعم الله ، وبلغ بهم الأمر فى هذا إلى أن استباحوا دم بعض هؤلاء الأنبياء ! .

وفى قوله تعالى : « ويقتلون النَّبِيِّينَ بغير الحق » ما يكشف عن طبعهم اللئيم ، الذى يرى الحق رأْىَ العين ، فيكتمه وينكره ، ويقيم الباطل مقامه .. فهم إذ يقتلون من قتلوا من الأنبياء ، يعلمون عن يقين أنّ هؤلاء الذين مدّوا إليهم أيديهم بالقتل ، هم أنبياء الله ، ولكن جاءوهم بما لا تشتهى أنفسهم ، وعلى غير ما كانت تراودهم به أحلامهم .. فالمسيح ـ مثلا ـ الذى وقفوا منه هذا الموقف اللئيم ، والذى دبروا له القتل صلباً ، إنّما أنكروه وأنكروا آياته المشرقة إشراق الشمس فى يوم صحو ، لأنه جاءهم بغير ما كانوا يحلمون به ، من مسيح يعيد إليهم مُلك سليمان ، ودولته ، ويمكّن لهم فى الأرض على رقاب النّاس ، إذ جاءهم بالدعوة إلى التخلص من هذا الداء المتمكن فيهم ، وهو حبّ الحياة ، والاستكثار من متاعها .. فرفضوه ، ثم أنكروه ، ثم مكروا به ليصلبوه ، ولم تسترح أنفسهم إلا بعد أن أيقنوا أنهم صلبوه .. وفى هذا يقول الله تعالى : « أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ استكبرتم ، فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وفريقاً تقتلون » (٨٧ : البقرة) .

والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ » (٣٣ : الإسراء) أى إلا بما يوجب قتلها ، كأنْ تَقْتُلَ نفساً عمداً ، أو تحادَّ الله ورسوله والمؤمنين .. ورسل الله لا يكون ذلك منهم أبداً ،

وأنهم إذا أنكر عليهم أحدٌ أنّهمْ أنبياء، فذلك أمره إليه، ووزره واقع عليه، ولكن إذا ذهب به هذا الإنكار إلى حدّ الاعتداء على النبيّ وقتله، فإنه حينئذ يكون معتدياً، إذ قتل نفساً بغير الحق، لأنها لم ترتكب ما يوجب القتل!.

آية (٦٢)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ».

التفسير: فى تعداد هذه النعم التى تفضل الله بها على بنى إسرائيل ما يوحى بأن فضل الله مقصور على جماعة بعينها من خلقه، بل ربما أثار ذلك فى بنى إسرائيل شعوراً بالتعالى على الناس، كما سوّلت لهم بذلك أنفسهم، وانطبع به سلوكهم فى الحياة!.

وتلك ضلالة وافتراء عظيم على الله، فالخلق جميعاً خلق الله، والناس كلهم عباده، خَلَقهم جميعاً من نفس واحدة، فكيف يكون بينهم تفاضل عنده، بغير ما يستوجب الفضل، ولا فضلَ إلا بالعمل الذى تختلف به موازين الناس. وتتباين به منازلهم عند الله؟

فالذين آمنوا، أى الذين سبقوا بالإيمان ليس لهم أن يستأثروا برحمة الله، وأن يحجبوها عن عباده الذين لم يؤمنوا بعدُ — بل رحمة الله واسعة، وسعت كل شىء، وباب القبول للدخول فى رحابه مفتوح لكل قاصد!.

فأى إنسان ـ على أية مِلة، وعلى أى دين — هو مدعوٌّ إلى رحاب الله،

فإن استجاب ، وآمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فله أجره عند الله ، يُوفّاه كاملاً ، كما يوفّاه المؤمنون جميعاً ، من كل أمة ، ومن كل جنس ! وهؤلاء المؤمنون جميعاً ـ سابقهم ولاحقهم ـ لا خوف عليهم مما ينتظرهم من جزاء فى الآخرة ، ولا حزن لما فاتهم من طاعات حين لم يسبقوا إلى الإيمان ، فالإيمانُ يَجُبّ ما قبله ! . وفى هذا ما فيه من رحمة واسعة من الله على عباده ، واستنقاذٍ لمن قصّروا وفرطوا ، ثم أرادوا أن يلحقوا أو يسبقوا .

(الآيات ٦٣ ـ ٦٦)

« وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٦٦) .

التفسير : نِعَمٌ ما أعظمها ، وما أولاها بالتلقى بالشكر والولاء للمنعم . . ولكن أنّى لِلعُمْى أن يبصروا ، وللصمّ أن يسمعوا ؟ .

طلبوا إلى موسى آيةً يرون الله فيها ، فجاءتهم الآية منذرة مفزعة . . رأوا الجبل الذى بين أيديهم يتحول إلى سقف مرفوع فوق رءوسهم ، لا يمسكه شىء وظنوا أنه واقع عليهم ، ففزعوا إلى موسى يطلبون الخلاص والرجوع إلى الله ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ » (١٧ : الأعراف) .

وفى قوله تعالى بعد ذلك: « خُذُوا مَآ آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » دعوة مجدَّدة ، بعد هذه الآية المجدَّدة ، إلى أن يُقبلوا على الله ، وأن يَشدّوا قلوبَهم إلى الكتاب الذى أُنزل إليهم ، وأن يذكروا ما فيه ، فلعلّ ذلك يَحيد بهم عن طريق الضلال الهائمين فيه ، ويقيمهم على طريق الهدى الذى طالت غربتهم عنه .

و « لعل » هنا الدالة على الترجّى ، إنما يتوجه بها إلى المخاطَبين ، وإلى ما عندهم من استعداد لهذا الخطاب ، فهم على رَجاء من القبول ، أو التوقف ، أو النكوص على الأعقاب . . وهكذا كل صيغة رجاء واردة فى القرآن الكريم ، إنما هى للمخاطبين ولموقفهم من فَحوى ما خُوطبوا به ؛ وليس لهذا الترجّى مُتوجَّه إلى الله ، الذى يُرجَى ولا يرجُو .

والقوم هنا لم يستجيبوا لتلك الدعوة ، بل تولّوا ونكصوا على أعقابهم ، ولكن الله أمهلهم ، ولم يعجّل لهم العقاب ، كما وقع لأسلافٍ لهم من قبل . . خالفوا أمر الله واعتدوْا فى السّبت ، فمسخهم الله قردة ، وأنزلهم من مرتبة الإنسان إلى مرتبة الحيوان ، فما أبشع تلك صورةً وأخسّها ، يعيشون فى صور القرود بمشاعر الإنسان ، وإدراك الإنسان ، وذلك هو العذاب ، ولعذاب الآخرة أخزى وأوجع ! .

ولنا أن نذكر هنا ، أن تحوّل هؤلاء الممسوخين من الإنسان إلى القرد يمكن أن يُستأنس به فى بحثنا الذى عرضناه من قبل ، فى خَلق الإنسان وفى تطوره فى الخلق ، وأن الإنسان كما انتقل صاعداً من قردٍ إلى إنسان ، كذلك رُدَّ نازلاً من إنسان إلى قردٍ ! .

ولعلّ فى قوله تعالى : « خاسئين » ما يقوّى هذا الرأى الذى ذهبنا إليه . . إذ يقال فى اللغة : خَسَأَ الكَلْبَ يَخْسَأُهُ خَسْأً : طرده ، وخَسَأَ البصرُ

يخسأ خُسُوءا : كَلّ وأعيا ، وخَسِئَ الكلبُ يخسأ وانخسأ : انزجر وبعُد ، والخاسىء من الخنازير والكلاب : المبعد المطرود .

ومعنى « خاسئين » مبعدين ، مطرودين من عالم الإنسان ، مردودين إلى عالم الحيوان ، وإلى فصيلة القردة منه ، التى هى أعلى مراتب الحيوان وأول مراتب الإنسان الحيوان ! .

الآيات (٦٧ ـ ٧٤)

« وَإِذْ قَالَ موسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً ، قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ باللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)

التفسير : وهذا موقف آخر من مواقف العَنَت والعناد ، من هؤلاء القوم مع الله ، ومع آيات الله ، حيث لا تزيدهم الآيات إلا كفراً ، ولا يزيدهم النور إلا عمًى .

لقد قُتل فى القوم قتيل فادّارءوا فيه : أى اختلفوا فى التعرف على قاتله ، إذ رمى بعضهم بعضًا به ، ودفع بعضهم بعضاً إلى موقف الاتهام فيه .

ولجأ القوم إلى موسى يسألونه آيةً تُنطق القتيل باسم قاتله ، وهم يريدون بهذا أولاً وقبل كل شىء ، امتحاناً لموسى ، واستيقاناً من دعواه أنه رسول الله ، وكليم الله ! .

وتجىء آية الله من وراء ما يقدّر القوم ، فتدور لها رءوسهم ، وتضطرب لها عقولهم .

يقول لهم موسى ما أمره الله به : « إنَّ اللهَ يأمُرُكم أن تذبحوا بقرة » !

ويَذهل القوم ويدهشون ! ما لِلقتيل والتعرف على قاتله وهذه البقرة التى يؤمرون بذبحها ؟ المسافة كما تبدو فى ظاهر الأمر . . بعيدة جداً ، بين السؤال وجوابه ، وبين المطلوب والأسباب الموصلة إليه ! ثم إنهم طلبوا آية ، فهل فى أن تُذبح بقرة من البقر آية ؟ .

ويرى القوم كأن موسى يعبث بهم ، فيقولون له : « أتتخذنا هُزُوًا » ؟ فيجيبهم : « أَعُوذُ باللهِ أن أكون من الجَاهِلِين » - إن العبث لا يكون إلا عن جهل ، ولا يقع إلا من جهّال ، وهو نبى معصوم ، توجهه السماء ، فلا يضل ولا يهزل ! !

ولا يجد القوم فى هذا مَقْنعاً ، ويذهب بهم جهلهم وحمقهم إلى أن البقرة المطلوبة ليست مجرد بقرة ، وإنما هى على أوصاف نادرة لا تتحقق إلا فيها ، حتى يمكن أن تتخلّق منها الآية التى طلبوها . . هكذا فكروا وقدّروا .

« قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ » لقد جمعوا بين الجهل والسفاهة ، فأبوا أن يقولوا « ادع لنَا ربنا » وقالوا : « ادع لنا ربك » وكأنه ربّ موسى وليس رباً لهم ! ومع هذا فقد أجابهم الله إلى ماطلبوا : « قال إنه يقول إنها بقرة لا فارضٌ ولا بكر ،عَوان بين ذلك » أى هى من أواسط البقر فى سنها ، ليست كبيرة ولا صغيرة .. والفارض هى التى ولدت مرات كثيرة ، والبكر التى لم تلد بعد .. فهى وسط بين هذين الطرفين .

وفى قوله تعالى : « فَافعَلُوا مَاتُؤمَرُونَ » تنبيه لهم .. إن كانوا يعقلون .. أن يَنْتهُوا عند هذا ، وألا يطلبوا وراء هذه الصفات صفات أخرى .. ولـكن يأبى القوم إلا أن يُلبسوا بقرتهم أثواباً لا ترى على كثير من البقر .. فعادوا إلى موسى يسألونه : « ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا » وفى كل مرة يقولون « رَبّكَ » ولا يقولون « رَبّنَا » ويجيبهم الرحمٰن الرحيم إلى ما طلبوا : « إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِـعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِين » ولم يَدعُهُم فى هذه المرة إلى أن يفعلوا ما يؤمرون ، بل تركهم وما تختار لهم أنفسهم من ركوب هذا المركب الخشن ، حتى تحفى أقدامهم وتنهدّ قوامم !

ويعودون إلى موسى مَرة أخرى : « ادْعُ لنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنَا مَا هِيَ ، إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا » ! !

والبقر هو البقر .. يشبه بعضه بعضاً ، ولـكنهم يريدونها بقرة لا شبيه لها .. بقرة خلقها الخالق لهذا المطلب ، ولم يخلق مثلها .. !

ويجيئهم أمر الله : « إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ، ولا تسقى الحرث ، مُسَلَّمَةٌ لاشية فيها » أى إنها بقرة لم يذللها العمل ، بل هى بقرة بريّة مرسلة ، لم تستخدم فى حرث الأرض ، ولا فى سقى مايحرث من الأرض ، ثم هى بريئة

من كل عيب يدخل عليها فى أعضائها ، أو فى لونها : « مُسَلَّمة لا شِيَةَ فِيها » .

وهنا يجد القوم أن بقرتهم قد لبست أوصافاً لا تكاد تقع إلا فى القليل النادر ، فيجدّون فى البحث عنها ، وهم سعداء بهذا الجرى اللاهث وراءها .. ويُلقون إلى موسى بتلك الفرحة التى ملأت صدورهم ، قبل أن يعثروا عليها « الآن جئت بالحق » ! ! الآن فقط ! كأنه إنما كان فى كل ما جاءهم به من قبلُ عن هذه البقرة وغيرها ، ليس مما هو حق ، بل باطل وعبث !

« فذبحوها ، وما كادوا يفعلون » أى أنهم لم يكادوا يجدون بقرة على تلك الصفة ، أو أنهم حين وجدوها صغرت فى أعينهم ، فكادوا ينصرفون عنها ، ويطلبون أوصافاً أخرى لبقرة غيرها !

فانظر كيف يستبدّ بهم اللجاج والعناد ، وكيف يُوردهم لجاجهم وعنادهم موارد التّيه والضلال ، ولو أنهم امتثلوا ما أمروا به من أول الأمر ، وعمدوا إلى أية بقرة من البقر لكانوا قد أدوا ما أمروا به ، وكفَوْا أنفسهم مئونة هذا العَنَاء .

وإذ يذبحون البقرة يفتحون أعينهم وأفواههم إلى موسى قائلين له : ماذا بعد ذلك ؟ ويجيئهم الجواب :

« فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيِي الله الموتى ، ويريكم آياتِه لعلكم تعقلون » .

ويُضرب الميت ببعض لحم البقرة ، فتعود إليه الحياة ، وينطق باسم قاتله ، ثم يعود إلى عالم الموتى ، إلى يوم يبعثون !

بقدرة الله قام هذا الميت ، وليس للبقرة ولا لذبحها وضربه ببعض لحمها علاقة بهذه الحياة التى عادت إليه ، فقدرة الله فوق الأسباب جميعها ، ولكن مطلوب من الناس أن يعملوا ، وأن يتحركوا إلى الغايات التى ينشدونها ،

وأن يعلموا أن الأسباب الظاهرة التى يتخذونها طريقا إلى المسببات ، ليست هى العاملة فى النتائج التى يحصلون عليها ، فقد يقدّر المرء أسباباً يراها منتجة لثمرة بعينها ، فيقع الأمر على خلاف ماقدر .. فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله ، وبقدرة الله .

والملاحظ فى هذه القصة — قصة البقرة — أن النظم القرآنى لها ، قد قلب أحداثها ، فقدّم ماحقه التأخير ، وأخر مامن شأنه أن يُقدم .. إذ أمر القوم بذبح البقرة بعد أن وقع حادث القتل ، وبعد أن تراموْا بالتهم فيه ، ولكن — وكما يبدو من سياق النظم — أُمروا بذبح البقرة أمراً يبدو كأنه لا لغاية يقصد لها ، ثم أخذوا فى اللجاج والتخبط إلى أن عثروا على البقرة التى استكثروا من أوصافها ، وذبحوها .. وهنا ، ولأول مرة ـ تتضح الصلة بين ذبح البقرة وهذا القتيل الذى يؤمرون بضربه ببعضها !

وهذا لون من ألوان النكال بالقوم ، عقاباً لعنادهم وكفرهم بآيات الله ، إذ يُرْمون بهذا التيه ، حتى وهم فى آية من آيات الله ، لأنهم سيمكرون بها كما مكروا بغيرها مما سبقها ، أو مما سيلحق بها ، وهذا ما أخبر الله سبحانه وتعالى عنه ، بعد تلك القصة مباشرة : « ثم قستْ قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشدُّ قسوة » إنها قلوب لاتلتقى مع الخير أبداً ، ولا تنتفع به إذا هو طاف بها وطرق بابها ! !

الآيات : (٧٥ ـ ٧٧)

« أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإذا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ

بمَا فتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٧٦)
أَوَ لاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ » (٧٧) .

التفسير : فيما عرض الله سبحانه وتعالى من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، ماقد يدخل منه على الشعور بأن القوم أهل لهذه النعم ، وأن الله قد اصطفاهم دون عباده ، إذ ساق إليهم تلك النعم وغمرهم بها ، ولكن الأمر على خلاف هذا ، فإنه ماذكر القرآن نعمة أنعمها الله على بنى إسرائيل إلاّ جاء بعدها التنديد بهم والوعيد لهم ، واللعنة عليهم ، بسبب مكرهم بآيات الله ، وكفرهم بنعمه ، ومازالت نعم الله تتوالى عليهم ، ومازالت نقمه تنصبّ عليهم ، حتى خرجوا من عالم الإنسان إلى عالم القردة والخنازير .. وهكذا ، على قدر النعم يكون الابتلاء ، فمن حفظها حفظه الله ، ومن ضيعها ضيعه الله ! !

وفى أعقاب قصة البقرة ذكر الله مافى قلوبهم من قسوة دونها قسوة الحجارة وبلادتها ، وإنها لقسوة وبلادة أصبحت جبلّة وطبيعة فيهم ، بحيث تنقلت فى أجيالهم إلى أن التقت بعضُ ذراريهم بالدعوة الإسلامية ، وبصاحب الدعوة ، النبيّ الأميّ ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل .. وإذا هؤلاء الأبناء ليسوا خيراً من آبائهم ، وإنه لامطمع فى استجابتهم للدعوة الإسلامية ، ولا رجاء فى انتفاعهم بها .. إنهم يمكرون بآيات الله كما مكر آباؤهم بها .. يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ، أى إنهم يحرفون عن عمد ويضلون عَلَى علم ، وتلك هى قاصمة الظهر ، فلو أنهم حرّفوا عن سهو أو أخطأوا عن جهل ، لكان لهم وجه من العذر ، ولكنهم عن عمد حرفوا ، وعلى علم ضلّوا وأضلوا ..

ثم إن لهم مكراً آخر مع الدعوة الإسلامية ، عدا التحريف فيها ،

والتشويش عليها .. إنهم يَلقَوْن المؤمنين بوجه المنافقين ، يقولون لهم آمنا بما تؤمنون به،وذلك منهم على سبيل الاستهزاء المتستر وراء نفاقهم المفضوح ، ثم إن لهم مكراً غير هذا المكر أيضاً ، حين يخيل إليهم جهلهم أن دعوة الإسلام قائمة على خَواء ، وأنها تتلمس من خارج محيطها القُوَى التى تسندها وتشدّها ، ولهذا فهم يتناجوْن ويتناصحون : ألا يتحدثوا إلى المسلمين بما عندهم من علم التوراة وأخبارها ، حتى لا يتخذ المسلمون من ذلك حججاً يقيمونها فى وجه اليهود ! وكذبوا وضلوا ، فما قامت الدعوة الإسلامية إلا على الحق ، فمن الحق منزلها ، وبالحق نزلت ، رحمة وهدى للناس !

الآيتان (٧٩ ـ ٨٠)

« وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (٨٠)

التفسير : والقوم فريقان : عامة،وخاصة ،أو أميون ، وعلماء ..والأميون ـ شأنهم فى كل أمة ـــ مقودون لمقولات العلماء وأصحاب الفُتيا فيهم ، فإن ضلّ العلماء أو انحرف المفتيون ، عظم البلاء ، وعمّ الخطب ، فشمل الأمة كلها ، ولهذا أخذ الله الميثاق على العلماء أن يؤدّوا أمانة ما حملوا من علم ، فيفتحوا للناس طرق الهداية ، ويكشفوا لهم سبل الرشاد : « وإذا أخذ الله ميثاقَ الّذين أوتوا الكتاب لتبيّنُنّه للناس ولا تكتمونه (٨٧ آل عمران)

وعلماء بنى إسرائيل هم دعاة غواية وضلال فيهم ، لا يؤدّون أمانة العلماء بينهم ، بل يجيئون إليهم بالحق متلبسًا بالباطل ، وبالهدى مختلطًا

بالضلال . «يحرّفون الكَلِم عن مواضعه» .. «فويلٌ لهم مما كتبتْ أيديهم وويلٌ لهمْ مِمّا يَكْسِبُون»

الآيات (٨٠ ـ ٨٢)

« وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيّامًا مَعْدُودَاتٍ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٨٠) بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٨١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٨٢)

التفسير : ولا يقف سَفَه اليهود عند حدّ ، فهم يفترون على الله الكذب ، إذ يتخذون لأنفسهم مكاناً عنده ، تمليه عليهم أهواؤهم، حتى لكأنهم بحيث لهم سلطان على الله ، ومشيئة فوق مشيئته .

قالوا : نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . فكان قول الحق لهم : « فَلِمَ يُعَذِّبكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَق » (١٨ : المائدة)

« وَقَالُوا : لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاّ أيَّامًا مَعْدُودَات » فكان إنكار الحق عليهم بقوله : « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ . . أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ؟ »

وهذا القول من اليهود ليس بلسان المذنبين منهم ، ليهوّنوا على أنفسهم اقتراف المنكر ، واستساغة تعاطيه وإدمانه ، وإنما هو على لسان الشريعة التي افتروْها على الله ، وخصّوا بها أنفسهم..إن أشرارهم وعصاتهم لن يعاقبوا كما يعاقب سائر الناس ، وإنما ـ إذ كانوا يهوداً ـ لهم حكم خاص ، فلا تنالهم

النار إلا مسًّا ، ولأيام معدودة . . هذا هو حكم العصاة والمجرمين والملحدين منهم ، الذين غرقوا إلى أذقانهم فى الإثم والضلال ! ! وبهذا التفكير الآثم ، الذى أدخلوه مدخل الشريعة . استطاعوا أن يترضّوا أهواءهم ، وأن يشبعوا أطماعهم ، وأن يركبوا كل منكر ، ويأتوا كل قبيح ، فى جانب الله ، وفى حق الناس !

وكلاًّ ، فإن المحسنين منهم — وقليل ماهم — يلقوْن جزاء الإحسان بالإحسان ، وإن المسيئين منهم — وما أكثرهم — فالنار مثوًى لهم : « من كَسَبَ سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النّار هُمْ فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

هذا هو حكم الله ، يقضى به بين عباده : يهوداً كانوا أو غير يهود ، والخطيئة التى تحيط بالإنسان وتحبط عمله هى الكفر بالله ، نعوذ بالله منه ، ولكن اليهود لايروْن فى اليهودىّ إذا كفر بالله أن يلقى مصير الكافرين . . لالشىء إلاّ لأنه يهودى ! وهذا هو الذى جعل اليهود يعزلون أنفسهم عن الناس ، ويحجزون أنفسهم عن الاختلاط بهم ، حتى يحتفظوا بهذا الامتياز المفترَى ، الذى يرجع أولا وآخراً إلى النسب ، لا إلى الإيمان والتقوى ! « ومن يُردِ الله فتنته فلن تملكَ له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة)

آية : (٨٣)

« وَ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » (٨٣)

التفسير : هذا هو ميثاق الله الذى أخذه على عباده ، كما حملته شرائعه ، وبلغه رسله ، وهو الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل . ولكن للقوم دون عباد الله جميعاً موقف لئيم ماكر ، يكشفه قوله تعالى : « ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » . فهم جميعاً يَلْقَوْن آيات الله معرضين عنها ، يلقونها غير آبهين لها ، ولا ملتفين بوجودهم كله إليها .. ثم إذا هم بعد ذلك فريقان : الفريق الأكثر الذى يكاد ينتظم الجماعة كلها ، لايحتمل حتى هذا الموقف المنحرف مع آيات الله ، بل يولّى عنها ، معطياً ظهره إياها ..وفئة قليلة هى التى تستطيع أن تمسك نفسها على هذا الموقف المنحرف !

إن أحسن اليهود حالا ، وأقربهم إلى الله ، لايسكن الإيمان قلوبهم ، ولا تجد الخشية مكان الطمأنينة فى كيانهم ، إنهم على طريق معوج منحرف ، لايستقيم بهم أبداً .

ومن إعجاز القرآن هنا أنه وصف اليهود الوصف الكاشف الملازم لهم ، فما وُصفوا فى القرآن بوصف ينقض هذا الوصف فى أى حال ، وفى أى موقف .. علماؤهم يبدّلون ويحرفون ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، وجميعهم ــ عامةً وعلماء ــ يحملون قلوباً قاسية ، هى كالحجارة أو أشد قسوةً .. فسبحان من هذا كلامه .. « ولو كانَ من عِنْدغير الله لوجدوا فيه اختلافاً كبيراً » .

الآيات : (٨٤ ــ ٨٦)

« وإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ

مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٨٦)

التفسير : وهذا ميثاق آخر أخذه الله على بنى إسرائيل : أن يحترموا حرمات الدماء والأموال ، فلا يسفك بعضهم دم بعض ، ولا يعتدى بعضهم على ما بيد بعض من أموال وديار .. وإذ كان هذا الميثاق عاملا ماديا يحرس أمنهم وسلامتهم ، فقد أقروا به ، وشهدوا آثاره حين استجابوا له ، وعملوا به ، فهو قانون يعطى ثماره عاجلة غير موجّلة .

وانظر كيف جاءت فاصلة الآية هنا : « ثم أقررتم وأنتم تشهدون » حيث يقتضى الأمر تسليما ورضى به من كل إنسان ، إذ فيه أمنه وسلامته .. على حين جاءت الفاصلة فى الآية التى قبلها ، وهى التى تحمل الميثاق بالإيمان بالله واليوم الآخر ، والإحسان إلى الوالدين وذوى القربى والمساكين وابن السبيل ، والإحسان إلى الناس بالقول مع الإحسان إليهم بالعمل ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ــ جاءت الفاصلة هناك هكذا : « ثم توليتم وأنتم معرضون » حيث لا تلقى هذه الدعوة استجابة ورضًى إلا من قلوب متفتحة للحق ، ونفوس متقبلة للخير. وحظ القوم ــ أعنى اليهود ــ من هذا وذاك قليل ، فلا يهشّون لمثل هذه الدعوة ، التى لا تضع بين أيديهم كسبا عاجلا ، وثمرا ناضجا ! !

ومع أن القوم أقروا بهذا الميثاق الذى يضمن لهم صيانة دمائهم وأموالهم ، وشهدوا آثاره الطيبة العاجلة فيهم ــ مع هذا ، فإنهم سرعان ما تغلب عليهم

شقوتهم ، وتقهرهم نزواتهم الشريرة الكامنة فيهم ، فينقضون هذا الميثاق : « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » .

ومن عجب هؤلاء القوم أنهم إذ يخرجون فريقاً منهم من ديارهم ظلماً وعدواناً ، فإنهم إذا وقع إخوانهم هؤلاء ليد أعدائهم وعُرض عليهم فداؤهم من الأسر ، قبلوا ذلك ، وبذلوا لهم من أموالهم .. فكيف يلتقى هذا العمل الطيب ، مع العمل الردىء الذى سبقه ؟ كيف يضربون إخوانهم بأيديهم ويخرجونهم من ديارهم وأموالهم ، ثم يعودون فيحررونهم من الرق ، إذا أُسِرُوا ؟

والأمر وإن بدا متناقضاً ، إلا أنه مستقيم مع طبيعة هؤلاء القوم ، التى تتحكم فيها الأنانية وحب الذات ..

فالأخوّة عندهم ليست أخوةً على إطلاقها ، فى السرّاء والضراء ، وإنما هى أخوّة ماجلبت نفعاً ذاتياً ، وحققت مصلحة خاصة ، أما إذا لم يكن ذلك من معطياتها فهى أخوّة ذئاب ، إذا جرح ذئب فيها لم يَحملوه ، بل أكلوه !

هذا شأنهم مع وصايا الرسل والأنبياء ، ومع كل مايُحمل إليهم من أمر أو نهى .. يتخيرون مايرضيهم،ويعرضون عما لايقع منهم موقع الرضا والقبول ، على المستوى المادى ، وفى حدود الدائرة الذاتية ، التى يعيش كل منهم فيها بنفسه ولنفسه ! ولهذا أنكر الله عليهم هذا الموقف اللئيم ، وتوعدهم عليه بقوله : « أفتؤمنون ببعض الكتابِ ، وتكفرون ببعض ؟ فما جَزَاء من يفعل ذلك منكم إلا خِزْى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . »

والخزى الذى ينالهم فى هذه الدنيا. هو من تبدل مواقفهم فى الأمر الواحد ،

حسب ما تمليه أحوالهم ، وتقتضيه ظروفهم .. يأخذ أحدهم بالأمر اليوم ، ثم إذا هو يَردّه غداً ، ثم يعود إليه ، ثم يرده ، وهكذا .. وليس من ضابط لهذا إلا المصلحة الخاصّة ، والهوى الذاتى .. وهذا من شأنه أن يخزى الإنسان أمام نفسه ، إن كان على شيء من الإحساس والشعور ، وإلا فهو الخزى الذى ترميه به العيون الراصدة ، لتقلّبه مع كل ريح .. وهذا هو أصل النفاق ، ذلك الداء المتمكّن فى اليهود ، إنهم يتحركون دائماً مع الريح المواتية لأهوائهم ، المشبعة لنهمهم ، دون التزام بمبدأ أو خلق ، ودون رعاية لشريعة أو دين !

(الآيات : ٨٧ ـ ٩٠)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ (٨٧) وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٩٠)

التفسير : قصة بنى إسرائيل مع رسل الله ، تكشف عن العناد الصبيانى الذى تنطوى عليه طبيعة القوم ، فهم مع كل رسول مَكَرَةٌ معاندون ،

لا يجمعهم إليه رَحم ، ولا يمسك بهم معه إيمان . . فما لقى منهم أنبياؤهم إلا البَهت والتكذيب ، أو التطاول بالأذى والقتل . .

ومن أساليبهم الخبيثة فى قطع الوسائل بينهم وبين حَملة الهدى إليهم من أنبيائهم ، أنهم إذا أعيتهم الحيل فيهم ، وفضحتهم الحجج معهم ، وضاقت عليهم سبل الإفلات من الآيات المشرقة التى تطلع عليهم من كل أفق ـ لا يتحرجون من أن يلصقوا بأنفسهم التُّهم ويقولون فيما يقولون : « قلوبنا غلفٌ » ! ! .

هكذا هم حقًّا ، ولكن القوم يقولونها بألسنتهم لا عن اعتراف بالحق ، ولا عن شجاعة فى كشف عيوب النفس بغيةَ إصلاحها ، ولكن يقولون ذلك تخابثاً واحتيالاً ، ليتخلصوا من يد الحق المستولية عليهم . ولهذا كان رَدّ الله زاجراً قاتلاً : « بل لعنهم الله بكفرِهم فقليلاً مَا يؤمنون » أى أنهم واقعون تحت لعنة الله ، فإذا آمن أحدهم فلا يخالط الإيمان كيانه ، وإنما يُلِمّ به إلماماً ، وقد أشرنا إلى هذا فى تفسير قوله تعالى : « ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون » ! .

إن الحق عند القوم ليس حقًّا لأنه حق فى ذاته ، وإنما يكون حقًّا يأخذون به ، ويلتزمونه ، إذا هو حقق لهم نفعاً عاجلاً ، وكسباً ذاتياً ، وإلا فهو باطل الأباطيل ، يَتلقونه بألسنتهم ، ويرمونه بأيديهم . . هكذا هم فى قديمهم ، وكذلك هم فى حديثهم ! .

كان علمهم من التوراة يُحدثهم بأن نبياً سيظهر فى العرب ، وأن الله قد أخذ على الأنبياء ، وعلى أتباع الأنبياء ، الميثاقَ ؛ أن يكونوا مع هذا النبىّ إذا ظهر ، وجاءهم بكتاب مصدقٍ لِمَا معهم . . وقد تَحدّث اليهود إلى العرب بهذا ، وبأنهم سينتصرون لهذا النبىّ ويكونون معه وبه قوةً على العرب

المشركين . . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وبدأ دعوته بعشيرته الأقربين أمتثالاً لقوله تعالى« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ »(٢١٤ : الشعراء)

وحين سبق إلى الإيمان به نفر من قومه ، تردد اليهود وتوقفوا ، ثم لما أن سبقهم الأنصار من الأوس والخزرج إلى الإيمان ، تنمروا وتنكروا ، وأخذوا يمكرون بالدعوة الإسلامية ، ويظاهرون مُشركى قريش عليها ، إذ أن سَبْق من سَبَق من المهاجرين والأنصار قد فوّت عليهم الاستيلاء على الدّعوة وحجزها فى محيطهم وحدهم دون الناس ، لأنهم يريدون أن يستولُوا على كل شىء ، ويستأثروا بكل شىء ، فإن كان أمرٌ لأحد معهم فيه نصيب أعلنوا الحرب عليه ، وحاولوا إفساده بكل سبيل ، حتى لا يُنْتَفع به ! .

ولهذا تَشُوه دعوة الإسلام فى أعينهم ويتحول الحق الذى عرفوه إلى باطل ، يأتمرون به ويحاربونه ، سراً وجهراً .

وقد سجّل الله سبحانه وتعالى عليهم هذا الموقف اللئيم فى قوله سبحانه : « وَلَمَّا جآءهم كتابٌ من عند الله مصدق لِمَا معهم ، وكانوا مِنْ قبلُ يستفتحونَ على الّذين كَفَرُوا ، فلمّا جآءَهُمْ ما عَرفُوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . بِئْسَمَا اشْتَرَوا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن يُنزّل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضبٍ على غضب وللكافرين عذاب مهين » . .

إن الحسد ليأكل صدورهم ، وإن الشّرَهَ ليُعمى أبصارهم ، حتى إنهم ليُهلِكُون أنفسهم ، ويحرمونها موارد الخير ، لأن غيرهم قد سبقهم إلى هذا الخير ونال منه . وهو خير لا ينفد أبداً ، يَسَع الناس جميعاً ، ومع هذا فهم يُريدونه خالصاً لهم من دون الناس ، لاينال أحد شيئاً منه . . وقد غضب الله عليهم غضباً بعد غضب ، غضب عليهم أولاً ، لأنهم عرفوا الحق ولم ينصروه ، بل خذلوه ومكروا به وحاربوه . . وغضب عليهم ثانياً ، لأنهم نَقَضُوا الميثاق

الذى أخذه الله عليهم فى الكتاب الذى بين أيديهم ، ثم حرّفوا فى كتابهم هذا وبدلوا ، واستباحوا حرمته ، وهذا كفر بكتابهم بعد كفرهم بمحمد وبما نزل عليه . وهذا ماجعلهم بمعرض من غضب الله ، حالاً بعد حال ، ومرة بعد مرة ! .

الآيات : (٩١ ـ ٩٣)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٩٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٩٣)

التفسير : كل حجّة كانت تقطع على القوم سبيل الإفلات منها ، كانوا يلقونها بوجه وَقاح ، لاحياء فيه .. فمع علمهم بأن دين الله واحد ، ورسالات رسله تَصْدر جميعها عن هذا الدين ، فإنهم إذا دُعوا إلى الإيمان بما أنزل الله على رُسله لوّوْا رءوسهم ، وقالوا : « نؤمن بما أنزل علينا » ! ! كأنما يحسبون أن ما أنزل عليهم هو شرع شرعه الله لهم ، وخصهم به من دون الناس ، وجعل لهم به سلطاناً على العباد .. وكذبوا وضلوا ! فالكتاب الذى نزل على محمد يحوى مضامين ما أنزل على موسى وعيسى وما أنزل على النبيين جميعا ، ولهذا أُمر أتباع محمد أن يؤمنوا بما أنزل على أنبياء الله ، كما يقول القرآن الكريم ، متوجهاً بهذا الأمر إليهم : « قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ

إلى إبراهيم وإسماعيلَ وإسحٰقَ ويعقوبَ والأسباطِ وَمآ أُوتى موسى وعيسىَ وَمَآ أُوتى النبيونَ مِن رَبِّهم لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » :
(١٢٣ : البقرة)

ومع هذا فهل آمن بنو إسرائيل بما أُنزل عليهم حقًّا ؟ إذن فلم قتلوا أنبياءهم ؟ ولم حَادُّوا الله ورسله مع الآيات البينات التى جاءتهم على يد الأنبياء ؟ ولم عبدوا العجل بعد أن أراهم موسى من آيات ربّه ما تلين له الصُمّ الجلاد ! أفهذا هو الإيمان ، وما يأمر به الإيمان ؟ .

وفى قوله تعالى : « قالوا سمعنا وَعَصَيْنا » وفى الجمع بين السمع والعصيان ما يشير إلى تلك الطبيعة اللئيمة المستقرة فى كيان القوم ، وهى أنهم لا يتقبلون الخير ولا يستقيمون عليه ، وأنه إذا نفذت إلى آذانهم دعوة الخير استقبلها من قلوبهم عُواء مخيف ، يردّها عن أفقه ، ويصدُّها عن مورده : « سَمِعْنا وعصينا » ! سمعنا بآذاننا وعصينا بقلوبنا ! .

وفى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » وتكرار هذا القول مرتين فى موقف واحد ـ فى هذا ما يكشف عن حقيقة هذا الإيمان الذى يدّعونه . . فهو إيمان على دَخَل ، تختلط به خمائر الشك ، والنفاق . . وهذا إيمان لا يقبله الله ، ولا يُدخل أهله فى زمرة المؤمنين به ! .

الآيات (٩٤ ـ ٩٦)

« قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٩٥) وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ

النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » (٩٦)

التفسير: إن الدعوى التى يدعيها بنو إسرائيل، ليتخذوا منها مقنعاً لهم وللناس، من أنّهم أبناء الله، وأنهم موضع رعايته واختصاصه إيام بالرحمة والرضوان ـ هذه الدعوى مفتراة على الله، أوردوا بها أنفسهم موارد الضلال والهلكة . .

وليس أدل على بطلان هذه الدعوى وفساد هذا المتَعَلَّق الذى يتعلقون به، من أنهم لو كانوا يؤمنون حقًّا بصدق هذه الدعوى لكان تعلقهم بالدار الآخرة أكثر من تعلقهم بالحياة الدنيا، ففى الآخرة نعيم لا ينفد أبداً، وسعادة شاملة لا تدخل عليها شائبة من شقاء أو نَصَب .. ولكن القوم يتعلقون بالحياة الدنيا أشد التعلق، وينفرون من كل أمرٍ يقطعهم عن هذه الحياة ويصلهم بالآخرة، أشدّ النفور . . « ولتجدنهم أحرصَ الناس على حياةٍ ومن الذين أشركوا» .. فهم أحرص الناس جميعاً بلا استثناء على الحياة، حتى إنّ المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة، ولا يرجون حياة بعد هذه الحياة ليس فيهم هذا الحرص على التمسك بالحياة التى يحرص اليهود عليها بهذا الحرص العجيب .. « يَوَدُّ أحدُهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ » ليستوفى حظّه من الجمع والاقتناء . . « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يُعمَّر » فليس له من هذا المصير مهرب، وإن امتد عمره إلى آلاف السنين ! .

الآيات (٩٧ ـ ٩٩)

« قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا

لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (٩٨)
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ (٩٩)

التفسير : الحسد الذى أدّى ببنى إسرائيل إلى الكفر ، وأوردهم موارد الهلاك ـ هذا الحسد قد جعلهم يحادّون الله علناً ، ويجهرون بالتطاول على ملائكته ، الذين يصدعون بأمره ، ويحملون رحمته إلى عباده .. فهم يعلمون أن جبريل ـ عليه السلام ـ هو حامل كلمات الله إلى الرسول الكريم ، وهم ـ مع علمهم هذا ـ يضمرون البغضة والعداوة لهذا المَلَك الكريم ، لأنه حمل رحمة الله إلى عبد من عباد الله ، وهم يرون أنهم أحق بهذه الرحمة وأهلها ، وأن الله هو إلههم وحدهم ، ورحمته مقصورة عليهم ! ! فكيف يحمل جبريل رحمة السماء إلى أرض غير أرضهم ، وإلى جنس غير جنسهم ؟

وانظر إلى قوله تعالى : « من كان عدوّاً لجبريل » حيث الشرط الذى يفيد العموم ، وهو يراد به بنو إسرائيل خاصة . . وفى هذا ما ينادى بأن هؤلاء القوم لا يحتاجون فى هذا المقام إلى وصف أو تخصيص ، فإذا ذُكرت فَعْلة شنعاء دون مُتعلّق لها ، فإنها لا تعلّق إلا بهم ، ولا تأخذ إلا بمخانقهم ، من دون الناس جميعاً ، وإذا أُطلقت صفة ذميمة على عمومها ، فإنها تحوّم وتحوّم ، ثم لا تسقط إلا على رءوسهم هم أولاً .

وفى قوله تعالى : « فإنّه نزّله على قَلبك بإذن الله » توكيد لتمكن القرآن الكريم من كيان الرسول ، وأنه تلقاه سماعاً من الوحى ، فإن هذا السماع ينفذ إلى القلب ، ويستقر فيه ، وحتى لكأن القلب هو الأذن التى تلقّت كلمات الله ! أو لكأن الأذن هى قلب ، فى الحفظ والوعى لما تسمع !

هذا، وقد تعلق بعض المفسرين بظاهر اللفظ فى قوله تعالى: « نَزَّله » ففهم أن الوحي لم يكن من لفظ مسموع يلقيه جبريل إلى النبيّ الكريم، وإنما كان إلهاماً يجده الرسول فى قلبه، فيتحدث به لسانه، واستند أصحاب هذا الرأى إلى قوله تعالى للنبي الكريم، فى آية أخرى: «لا تحرّكْ به لسانَك لِتَعجَل به» فقالوا: إن النبيّ كان حين يُلقَى إليه الوحى على هيئة خواطر فى قلبه، يبادر فيشكلّها كلمات يجريها على لسانه فى عَجَلة، مخافةَ أن تفلت منه، أو تتغير هيئتها!

وهذا الرأى قد فتح للمستشرقين وغيرهم باباً للقول، بأن القرآن فى هيئته اللفظية، ليس كلام الله، وإنما هو من صياغة « محمد »، حيث كان يصوغ الخواطر التى يتلقاها من الوحى، فى الصورة اللفظية المناسبة.

ولهذا ـ كما يقولون ـ جاء القرآن أنماطاً مختلفة من الأساليب، بعضها ممتد النَفَس، هادىء، ليّن، وبعضها متقطع الأنفاس، صارخ عنيف.. وذلك حسب حال النبيّ، وما تثيره الخواطر المتنزلة عليه.. وعلى عكس هذا لو كان القرآن لفظاً ومعنى من عند الله، فإنه يكون نمطاً واحداً، لا يتأثر بالعوامل النفسية الإنسانية، التى يكون عليها النبيّ حين يتصل بالوحى.. وهذا جهل أو تجاهل بالحق الواضح، إذ أن كلام الله الذى يخاطب به عباده، إنما يبلغ آثاره فيهم، إذا جاء على أنماط كلامهم، وجرى على أساليب بيانهم، فَلَانَ فى مواضع اللّين، واشتدّ فى أحوال الشدة، وهذا ماعبر عنه علماء البلاغة فى وصفهم للكلام البليغ، بأنه: المطابق لمقتضَى الحال.

وهذا القول إنما يقوله من المستشرقين من يسلّمون لمحمد بالنبوة والرسالة. أما من لا يؤمنون بالوحى، ولا يعتقدون فى الرسالات السماوية؛ فيقولون: إن القرآن ـ لفظاً ومعنى ـ هو من عمل محمد!

وفى قوله تعالى : « ولقد أنزلنا إليك آيات بينات » توكيد لما نزل على النبيّ من قرآن ، وآيات بينات ، منزلة من الله . .

وفى قوله سبحانه : « وما يكفر بها إلا الفاسقون » تهديد لليهود ، ووعيد لهم ، على كفرهم وفسقهم .. فهم الكافرون الفاسقون .. كفروا بمحمد ، وفسقوا عن دينهم الذى كانوا عليه ، أى خرجوا عن دينهم ، حين أنكروا مافيه من أمر محمد ورسالته .

الآيات : (١٠٠ ـ ١٠٣)

« أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (١٠٠) وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (١٠١) وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٣)

التفسير : نبْذ العهود ونقض المواثيق ، هو الطبيعة الغالبة على بنى إسرائيل ، لافرق فى موقفهم هذا مع الناس ، أو مع الله ! ذلك لأنهم لا يؤمنون بالمبادىء

والقيم ، ولايتقيدون بقيد الفضيلة والشرف ، لِمَا يغلب عليهم من أَثَرة قاتلة ، وأنانية متحكمة ، يستبيحون بها كل شيء ، وينزلون بها عن كل شيء ، من خلق أو دين .

وفى قوله تعالى : « نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكتاب .. » حيث عدل عن التعميم إلى التخصيص، فى قوله « الذين أوتوا الكتاب » بدلا من « منهم » — فى هذا مايشير بأن عُلماء القوم وأهل الذكر فيهم ، هم الذين يتولّون هذا الإثم العظيم ، وينبذون كتاب الله وراء ظهورهم ، بالخلاف عليه ، والتحريف فيه ، عن علم ، و « كأنهم لايعلمون » !

ولو أن هؤلاء العلماء من بنى إسرائيل قد انتهت جريمتهم عند هذا المكر بكتاب الله والخلاف عليه ، مع مافى هذا العمل الآثم من شناعة وفظاعة ؛ لكانت مصيبتهم مصيبةً واحدة ، وإن غلظت وعظمت ، ولكنهم إذ وقفوا من كتاب الله الذى بين أيديهم هذا الموقف ، راحوا يتعاملون مع الأباطيل والتُّرهات ، مما كانت تلقيه الشياطين على ملك سليمان ، وهى خاضعة لسلطانه ، من صور الأعمال الخارجة عن قوة البشر .. فلقد تعلق القوم بها ، وتمسّحوا بما يُرجف به المرجفون عنها ، من شَعْوذات ، ابتغاء الوصول إلى شىء من تلك القوى التى تملكها الشياطين ، ليتسلطوا بها على العباد ، وليجنوا من ورائها الربح المادىّ الذى يحلمون به ! ولهذا كثر فى بنى إسرائيل الأنبياء الكَذَبة ، الذين طلعوا فيهم من كل ناحية ، والذين حدّثت التوراة عنهم ، وحذّرت منهم ، ولكن القوم اتبعوا هؤلاء المتنبئين الأدعياء ، وكفروا بأنبياء الله وبَهَتوهم .

وفى قوله تعالى : « وما كَفَر سُلَيمانُ ولكن الشياطين كَفرُوا » احتراز عن فهم خاطىء لاستخدام الشياطين ، التى لايحمد لها قول أو عمل ، وذلك أن سليمان كان يضبط أعمالها على الوجه المحمود ، الذى لايخرج بها عن طريق الحق

والخير !! أما هؤلاء القوم فإنما يبتغون من وراء تسخيرها التسلط على الناس، ووضع مقدّراتهم تحت أيديهم، حيث يتعلمون منهم أبواباً من الحيل، وأشتاتاً من المكايد.

والقوم إنما يلتمسون الباطل من كل وجه، ويصيدون الضلال من كل أفق، فهناك غير ما ألقت به الشياطين على ملك سليمان، وما تركته من آثار أفعالها ـ هناك كان لملَكيين أو ملِكيين ـ بكسر اللام ـ اسمهما هاروت وماروت، حديثٌ إلى الناس فى بابل، وفى هذا الحديث ضروب من السحر والحيل، كانا يكشفان أمرها للناس، على سبيل الابتلاء والاختبار، حيث يقولان لكل من يستمع إليهما: «إنما نحن فتنة فلا تكفر»! ولله سبحانه وتعالى أن يبتلى عباده بما يشاء من الشر والخير، كما يقول سبحانه. «ونبلوكم بالشرِّ والخير فتنة»: (٣٥ : الأنبياء)، ولقد ابتلى الله سليمان عليه السلام بتلك القوى القاهرة التى وضعها بين يديه، لينظر كيف يكون أمره معها، وفى هذا يقول الله سبحانه على لسان سليمان: «هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ» (٤٠ : النمل)

فهذا الذى كان من فعل الملكين ـ بفتح اللام أو بكسرها ـ إنما هو من قَبيل الابتلاء. وقد عمد القوم إلى تلك الآثار التى خلّفها الملكين من ضروب السحر والحيل فجعلوها أسلحة فتك ودمار، وأدوات تهديد وتبديد للناس، لم يتعلموا منها إلاّ ماهو بلاء ونقمة، كما يقول تعالى: «ويتعلمون منهما مايفرّقون به بين المرء وزوجه» أى مايشيع الفرقة والتفكك فى المجتمع، وما يفصم أواصر المودة والأخوة بين الناس! حتى بين ألصق الناس بعضهم ببعض.. المرء وزوجه!

وهذا الذى يتلقاه هؤلاء العلماء من بنى إسرائيل، من قوى السحر،

ليس بالذى يؤثر أثره تلقائياً ، وإنما شأنه شأن كل قوة فى الوجود .. هو خاضع لأمر الله ، ماض بحكمه وتقديره : « وماهم بضارّين به من أحد إلا بإذن الله » فماهم إلا أدوات كأدوات السحر التى فى أيديهم ، وما تلك الأدوات وأفعالها إلا محنة وبلاء عليهم ، حيث تَعْلَق آثامها بهم ، وينسب شرها إليهم ، وفى هذا يقول سبحانه : « ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم » فذلك هو محصّل القوم من هذا العلم الذى تعلموه : الشرّ المحض الذى لانفع معه : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق » فهم وإن حققوا نفعاً عاجلا فى هذه الدنيا بهذا السّحر الذى تعلموه ، فإنهم لايمسكون من هذا السحر فى الآخرة إلا بما يُحزن ويَسُوء ! « ولبئس ماشَرَوا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

الآيتان (١٠٤ ـ ١٠٥)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وِلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (١٠٥)

التفسير : الكلمة المنافقة على ألسنة المنافقين ، هى سلاح من أسلحة العمل فى سبيل الغايات الخسيسة التى يعملون لها ، ولهذا كان اليهود أبرع الناس فى هذه التجارة الخاسرة ، تجارة النفاق ، بالكلمة ، وبالعمل .. معاً .

سمعوا المسلمين يهتفون برسول الله، تقرّباً : « راعنَا يا رسول الله » ، أى ضمّنا إليك ، واجعلنا تحت رعايتك .. فحرفوا الكلم عن مواضعه ، شأنهم فى ذلك مع كلام الله ، ومع كل طيب من الكلم ، تأبى نفوسهم إلا أن تمجّه ،

وتأبى ألسنتهم إلا أن تلتوى به ـ فجعلوا «راعناً » «راعناً» بالتنوين ، يريدون بها صفة ذم ، من الرعونة والطيش ، ينطقون بها فى خبث تلتوى به ألسنتهم ، حتى لا ينفضح أمرهم ، ولا يجد من يعلم خبيئة أنفسهم ، وسوء مكرهم ، السبيلَ إلى مؤاخذتهم .. هكذا المنافق ، حريص حِرْصَ الغراب ، حَذِرٌ حذر الضبّ ، ناعم نعومة الحية ! .

ولإبطال هذا المكر السيء ، نبّه الله المؤمنين إلى أن يستبدلوا بكلمة « راعنَا » كلمة « انظرنا » ، حيث لا يجد اليهود سبيلاً إلى هذه الكلمة ، بالتحريف الماكر !

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف اللئيمْ الذى يقفه اليهود من الحديث مع رسول الله ، وتعاملهم بالكلمة المنافقة معه ، فقال تعالى : « مِنَ الّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيقولونَ سَمِعْنَا وعَصينَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنونَ إلاّ قَلِيلاً » (٤٦ : النساء) .

وانظر كيف نفاقهم . . تصرح ألسنتهم بالكلمة الطيبة ، ثم تخطفها قلوبهم ، بالكلمة الخبيثة .. فإذا قالوا جهراً : « سمعنا » قالوا سراً : « وعصينا » ! وإذا قالوا وأسمعوا : « اسمعْ » قالوا ولم يُسْمِعوا : « غيرَ مُسمَع » ! يدْعون على النبيّ بالصمم . . وإذا قالوا « راعنا » نطقوا بحروفها الأولى نطقاً سليما ، حتى إذا بلغوا مقطعها الأخير ، اضطربت ألسنتهم بالنون فجاءت بين المدّ والتنوين !

وقد كان الأوْلى باليهود ، أهل الكتاب ، أن يدعوا الناس إلى الله ، وأن يَسْعدوا بهداية الناس إلى طريق الحق والهدى ، ولكن الأثَرَة التى تملك

عليهم وجودهم ، تجعلهم يتمنّون لعباد الله الضلال والكفر بالله ، حتى لا يدخل إلى رحاب الله أحد غيرهم ، حسبما يقدّرون ويزعمون !

ولهذا فقد جمعهم الله مع المشركين من كفار قريش فى هذا الموقف ، إذ يقول سبحانه : « ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن يُنزَّلَ عليكم من خير ربكم » وأول هذا الخير وأعظمه ، هو هذا القرآن الكريم ، وما يحمل من صنوف الخير وألوان النعم .

الآيات (١٠٦ ـ ١١٠)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ منها أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٠٧) أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) »

النسخ : معناه ومتعلقه

مسألة النسخ فى القرآن الكريم من الأمور التى كانت ولا تزال مثار جدل وخلاف بين علماء المسلمين ، كما أنها كانت ولا تزال داعية تخرّص وتقوّل على القرآن . . من أعداء الإسلام .

وبكلمة واحدة نخرس أولئك الذين يتربّصون بالقرآن وأهله ، ثم نتركهم في غيظهم وكيدهم ، لننظر في هذا الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ .

والكلمة التى نقولها لأعداء هذا الدين هى قوله تعالى فى كتابه الكريم : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (٩ : الحجر) .

فهذا التحدّى القائم عليهم بحفظ الله تعالى للقرآن ، هو مقطع القول فيما بينهم وبين القرآن . . فإذا استطاعوا أن يبدلوا حرفاً أو يغيروا كلمة ، أو يزيلوا آية من كتاب الله ـ كان لهم أن يقولوا فى هذا الكتاب ما يحلو لهم ، من تشنيع عليه ، واستهزاء به . . وهيهات هيهات . . فقد ذهبت سُدى جميع المحاولات التى بذلها أعداء الإسلام ، منذ قام الإسلام إلى اليوم ، ليشوهوا وجه هذا الدين ، بالتشويش على كتابه ، والتشكيك فى صحته ! .

أما الخلاف الذى بين المسلمين فى أمر النسخ ؛ فقد وقع نتيجة للاختلاف فى فهم الآية الكريمة : « ما ننسخْ من آية أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها » .

فالذين قالوا بوجود « النسخ » فى القرآن ، وأخذوا بمنطوق هذه الآية ، دارت أعينهم فى كتاب الله ، يلتمسون مصداق هذه الآية ، ويستخرجون لها الشواهد لآيات منسوخة بآيات ناسخة .. وقد وقعت أنظارهم على آيات يمكن أن تفسّر عليها تلك الآية الكريمة . . فكان النسخ عندهم أمراً لابد من وقوعه فى القرآن ، إذ نطقت به آية كريمة من آياته .

والذين لم يفهموا الآية على هذا الوجه ، فلم يروا فى القرآن ناسخاً ولا منسوخاً ـ هؤلاء جعلوا للآيات التى قيل إنها منسوخة ، وجهاً من التأويل ، بحيث يبقى حكمها كما بقيت تلاوتها . .

وهذا إجمال يحتاج إلى شىء من التفصيل .

فأولاً : ما هو النسخ ؟

يجىء النسخ بمعنى المحو والإزالة ، وذلك كما فى قوله تعالى :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيٍّ إلاَّ إذا تمنَّى ألقى الشيطان فى أُمْنِيَّتِهِ فينسخ الله ما يُلقى الشيطانُ ثم يُحكم الله آياتهِ والله عليم حكيم » (٥٢ : الحج) .

ويأتى النسخ بمعنى النقل من موضع إلى موضع ، ومنه نسخْتُ الكتابَ أى نقلت ما فيه إلى كتاب آخر . . قالوا : ولا يقع هذا المعنى من النسخ فى القرآن .. إذ نَقْل الآية أو الآيات من كتاب إلى كتاب لا يسمّى نسخاً بالمعنى الذى يُفهم منه إزالة حكم الآية أو تلاوتها . .

ويأتى بمعنى التبديل ، كما فى قوله سبحانه :

« وإذا بدّلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزِّلُ قالُوا إنَّما أنت مُفْتَرٍ » (١٠١ : النحل) .

هذا هو النسخ فى لسان الشرع ، وهو فى اللغة قريب من هذا ، فيقال : تناسخ الشيئان : إذا حلّ أحدهما محل الآخر ، كما يتناسخ الليل والنهار ، ويقال تناسخت الأزمنة : أى تبع بعضها بعضا ، ومنه تناسخ الأرواح ، بمعنى انتقال الروح من بدن إلى بدن ، عند من يعتقد هذا المذهب .

وثانياً : ما هو المنسوخ ؟

اختلف العلماء فى المنسوخ ، فقيل هو ما رُفع تلاوةُ تنزيله ، كما رفع العمل به . ورُدَّ هذا القول بأن الله نسخ التوراة والإنجيل ، وهما متلوّان .

وقيل لا يقع النسخ بمعنى الرفع فى قرآن نُزّل ، وتُلى ، ذلك أن القول بأن من القرآن ما نزّل وتلى ثم رفع بالنسخ ـ فيه تعسّف شديد ، ومدخل إلى الفتنة والتخرص .

فإذا ساغ أن ينزل قرآن ، ويتلى على المسلمين ، ثم يُرفع ، ساغ لكل مُبطل أن يقول أى قول ، ثم يدّعى له أنه كان قرآنا ثم نسخ .. وهكذا تتداعى على القرآن المفتريات ، والتلبيسات ، ويكون لذلك ما يكون من فتنة وابتلاء .

ثم من جهة أخرى . ماحكمة هذا القرآن الذى ينزل لأيام أو لشهور ، ثم يرفع ، فلا يتلى ، ولا يعرف له وجه بعد هذا ؟ أيكون ذلك الرفع بقرآن يقول للناس : إن آية كذا رفعت تلاوتها ، فلا تجعلوها قرآنا يتلى ؟ أم أن هذا النوع من النسخ يقع بمعجزة ترفع من صدور الناس ما قد حفظوا من هذا القرآن المنسوخ ؟ وإذا رفع بتلك المعجزة ، فهل تكون معجزة أخرى يرفع بها ما كتب بأيدى كتاب الوحى بين يدى النبىّ ؟ وإذا رفع من الصدور أو من الصحف المكتوبة بمعجزة من المعجزات ، فما الذى يدلّ على أن قرآناً كان ثم رفع ؟ إن هذا القول مسرف فى البعد عن مجال المنطق والعقل !

وثالثاً : هل فى القرآن نسخ ؟

كثر علماء المسلمين على أن فى القرآن نسخاً ، وأن هناك آيات ناسخة وأخرى منسوخة بها .

ومعرفة الناسخ والمنسوخ ودراستهما ، مما اهتم له العلماء والفقهاء ، وجعلوه أصلا من أصول الدراسات القرآنية ، ومجازاً من المجازات التى يدخل بها العالم أو الفقيه فى جماعة العلماء والفقهاء . فمن لم يعرف ناسخَ القرآن ومنسوخه ، فلا مدخل له فى باب العلماء والفقهاء .

وقد استند القائلون بالنسخ فى القرآن إلى قوله تعالى : « ماننسخ من آية أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها » .

وقد أسعفهم النظر فى آيات القرآن الكريم بشواهد تؤيد ماذهبوا إليه من القول بالنسخ .

ومن أمثلة هذا آية الوصية ، وهى قوله تعالى : « كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » (١٨٠ : البقرة) .

فهذه الآية ، قيل إنها منسوخة بآية المواريث ، وقيل بحديث : « ألَا لا وصيَّةَ لوارث » عند من يقول بنسخ القرآن بالسنّة ، وقيل منسوخة بالإجماع .

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى :

« والذين يُتوفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً وصيّةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج » (٢٤٠ : البقرة) .

قيل : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى :

« والذين يُتَوفَّوْن منكم ويذرون أزواجاً يتربصنَ بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » (٢٣٤ : البقرة) .

فقد كانت المرأة إذا مات عنها زوجها لزمت التربص بعد انقضاء العدة حولاً كاملا ، ونفقتها فى مال زوجها ، وهذا هو معنى قوله تعالى : « متاعاً إلى الحول غير إخراج » فنُسخ ذلك بالآية المشار إليها ، وصار تربصها أربعة أشهر وعشرة أيام ، ولها نصيبها المعروف فى الميراث .

وهكذا يعدّون الآيات المنسوخة والناسخة فى إحدى وسبعين سورة من القرآن الكريم[١] .

أما الذين يقولون بألا نسخ فى القرآن ، فيتأولون هذه الآيات ، ويعطونها الحكم الذى تضمنته .. كما سنرى ذلك بعد قليل .

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى جزء ٢ ص ٢١ .

رابعاً :

القول بألا نسخ فى القرآن :

يرى عدد غير قليل من العلماء أن النسخ فى القرآن ليس نسخاً بمعنى إزالة الحكم ، كما ذهب إلى ذلك القائلون بالنسخ .. وإنما هو نَسْأ وتأخير ، أو مجمل أخّر بيانه ، أو خطاب قد حال بينه وبين أوله خطاب غيره ، أو مخصوص من عموم ، أو حكم عام لخاص ، أو لمداخلة معنى فى معنى . وأنواع الخطاب كثيرة ، فظنوا ـ أى القائلون بالنسخ ـ أن هذا نسخاً ، وليس به ، وإنه ـ أى القرآن ـ الكتاب المهيمن على غيره ، وهو نفسه متعاضد »[١] .

وبهذا التحقيق يتبين ضعف مالهج به كثير من المفسِّرين فى الآيات الآمرة بالتخفيف من أنها منسوخة بآية السيف .

والواقع أنها ليست كذلك ، بل هى من النّسْأ ، بمعنى أن كل أمر يجب امتثاله فى وقت ما ، لعلّة توجب ذلك الحكم ، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر ، وليس بنسخ ، إذ النسخ معناه الإزالة .

وتطبيقاً لهذا الرأى ، نجد ألا تعارض ، ولا تناسخ بين الآيات التى تختلف أحكامها فى الأمر الواحد ، إذ أن كل حكم محكوم بحال خاصة به ، مقدرة له ، وعلة تدور معه وجوداً وعدماً .

فمثلا .. قوله تعالى :

« يا أيها النبىّ حَرّضِ المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون » (٦٥ : الأنفال) .

---

(١) انظر البرهان فى علوم القرآن للزركشى : جزء ٢ ص ٤٤ .

وقوله تعالى بعد هذا :

« الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » (٦٦ : الأنفال) .

وليس بين الآيتين تعارض ، أو تناسخ ، وإن عرضا لأمر واحد ، واختلف منطوق الحكم فيهما .

فالآية الأولى تفرض على المؤمنين حكماً فى فيها حال هم أهل للوفاء بهذا الحكم ، لِما فيهم من قوة إيمان و ثبات يقين .. فإذا كانوا فى تلك الحالة كان واجباً عليهم إذا التقوا فى ميدان الحرب بأعدائهم من الكافرين ـ أن يثبت العشرون منهم لمئتين من أعدائهم ، وأن تثبت المئة للألف .

فلما أن وقع الضعف فى المسلمين ، حين كثر عددهم ، ودخل فيهم من دخل ، وليس فيهم ما فى هؤلاء النفر القليل الكرام ، الذين سبقوا إلى الإسلام ، من كرم المعدن ، وصفاء الجوهر ، والتعرّف على الحق، والبِدار إليه ـ لمّا أن كان هذا من أمر المسلمين ، خفف الله عنهم ، وجعل أمرهم يُسراً ، ففرض عليهم ألّا تفرّ المئة من المئتين ، ولا الألف من الألفين .

وانظر كيف كانت أعداد المسلمين فى الآية الأولى . « عشرون » و « مئة » ثم أصبحت فى الآية الثانية هكذا : « مئة » و « ألفاً » .. وإن ذلك ليكشف عن المعنى الذى أشرت إليه من قبل ، وهو أن الضعف الذى عرض للمسلمين فى هذا الوقت المبكر من الدعوة الإسلامية ، وفى عهد النبوة ، لم يكن من جهة المسلمين السابقين إلى الإسلام ، فهؤلاء كانوا كلما مرّت بهم الأيام فى الإسلام ، وفى صحبة الرسول ، ازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، ولكن الضعف الذى وقع ، كان على مجموع المسلمين ، حين كثر عدد الداخلين فى الإسلام،

ولاشك أن هذه الأعداد الكثيرة التى دخلت فى دين الله أفواجا ، لم يكن لها جميعها من وَثاقة الإيمان ، وقوة اليقين ما كان فى هذه الصفوة التى سبقت إلى الإسلام .

وطبيعى أنه إذا عادت حال المسلمين إلى الحال الأولى التى كانوا عليها قبل هذا الضعف ، عاد الحكم الأول ، فإذا ضعفوا لزمهم حكم الآية الثانية ، الذى لاينبغى أن ينزلوا عنه أبداً ، حتى فى أضعف أحوالهم . . المئة تغلب المئتين ، والألف تغلب الألفين .

وفى هذا مافيه من تكريم الإسلام والمسلمين ، ورفع درجة الجماعة الإسلامية بهذا الدّين ، حتى فى أنزل منازلها ، وأسوأ أحوالها .

* * *

« مانسخ من آية » :

ونعود إلى الآية الكريمة ، التى فتحت على المسلمين باباً فسيحاً للتأويل ، ثم الخلاف فى هذا التأويل ، ثم الانتقال به إلى دائرة فسيحة فى القرآن ذاته . حيث يقال عن آيات كثيرة إنها منسوخة حكما ، وإن بقيت تلاوتها .

وإذ ننظر فى الآية الكريمة نسأل أولاً :

هل إذا جاء شرط فى القرآن الكريم .. أيجب أن يقع هذا الشرط ، وأن يتحقق تبعاً لذلك جوابه ؟

والجواب على هذا : أن ليس من الحتم اللازم أنه إذا ورد فى القرآن أسلوب شرطى أن يقع هذا الشرط ، وإنما الحتم اللازم هو ، أنه إذا وقع الشرط فلابد أن يقع ويتحقق الجواب المعلق على وقوع هذا الشرط .

فما أكثر ماوردت أساليب شرطية فى القرآن غير مراد وقوعها ، وتحقيق جوابها .. ومن ذلك قوله تعالى ، لنبيه الكريم :

« وإن تُطعْ أكثر من فى الأرض يُضلّوك عن سبيل الله » (١١٦ : الأنعام)
وقوله تعالى عن نبيه الكريم أيضاً :

« ولو تقوّل علينا بعضَ الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين » (٤٤ ـ ٤٦ الحاقة) وقوله تعالى خطاباً له : « لئن أشركت ليحبطنّ عملُك » (٦٥ : الزمر) .

فلم يقع شرط أى آية من هذه الآيات ، ولم يقع جوابها كذلك .

وعلى هذا ، يجوز فى الآية الكريمة « ماننسخ من آية أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها » ـ يجوز ألا يقع شرطها وجوابها ، وتكون من قبيل القضايا الفرضية ، التى يراد بها العبرة والعظة .

والذى نأخذه من هذا ، أن النسخ الذى أشارت إليه الآية الكريمة ، ليس لازماً أن يقع ، وإنما وقوعه أمر احتمالى ، يشهد له الواقع أو لايشهد ، فإن شهد له اعتُبر ، وإلا فلا .

وإذن فلا نستصحب معنا هذا الحكم ، الذى تقضى به الآية لو وقع شرطها وجوابها ـ لانستصحب هذا الحكم ، ونحن ننظر فى الآيات التى يقال إنها ناسخة أو منسوخة .. بل ننظر فى تلك الآيات نظراً منقطعاً عن كل تأثير لهذا المفهوم الذى فهمت الآية الكريمة عليه .

* * *

والآن ننظر فى آية النسخ نفسها ..

« ما ننسخْ من آيةٍ أو نُنْسِها نأت بخيرٍ منها أو مثلها . . ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير » .. هذه الآية قد جاءت مع آيات كثيرة غيرها ، دفاعاً عن أمر أراده الله للمسلمين ، وهو تحويل قِبلتهم التى كانوا عليها ، من بيت المقدس إلى البيت الحرام .

وهذا التحول كان حدثاً كبيراً من أحداث الإسلام فى حينه ، كما كان فتنة وابتلاء لكثير من المسلمين ، ومدخلاً كبيراً للطعن فى الدين ، والتشويش على المسلمين .

وكان من تدبير القرآن الكريم لهذا الأمر ، أن قدّم له هذه الآيات الكريمة ، قبل أن يقع ، لتكون إرهاصاً به من جهة ، وقوة يستند إليها المسلمون فى دفع كيد اليهود ، ووسوسة الشيطان . . من جهة أخرى !

واستمع لتلك الآيات الكريمات ، ثم استمع للأمر الذى جاء بعدها :

الآيات : (١٠٦ ـ ١٠٨)

« مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ له ملك السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ من وَلِىٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٠٧) أم تريدُون أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى من قَبْلُ ومن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٠٨) »

فهذا الاستفهام الإنكارى : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ » والذى يتوجه به القرآن إلى المسلمين ـ فيه تحذير لهم من أن يكونوا مع النبىّ ، كما كان اليهود مع موسى ، كلما جاء بأمر لم يتلقوه بالامتثال والطاعة ، بل قابلوه بالحذر والريب ، وواجهوه بالأسئلة الكثيرة ، التى تنبىء عن خبث طوية ، وفساد سريرة .

وتحويل القبلة إذاك كان أمراً وشيك الوقوع ، وقد كان المسلمون يصلّون إلى بيت المقدس منذ سبعة عشر شهراً ، فإذا وقع هذا التحويل ، نزعت بهم نوازع كثيرة تدعوهم إلى التساؤل : فيم كنا ؟ ولم هذا ؟ وهل سنتحول عن القبلة الجديدة فيما بعد أم سنظل عليها ؟ . . وهكذا .

ثم إن من وراء ذلك ، اليهود ، يُلقون إلى المسلمين بما يفتح للشيطان طرقاً كثيرة إلى قلوب لم يتوثّق فيها الإيمان بعد . . فكان هذا التحذير من قبل أن يقع هذا الأمر الذى من شأنه أن يثير شكاً وتساؤلاً ـ كان تدبيراً حكيما من حكيم ، ووقاية للمسلمين من داء أصيب به اليهود من قبل ، فعزّ شفاؤهم منه ، وطال شقاؤهم به . ثم يقول سبحانه بعد هذا :

الآيات (١٠٩ ـ ١١٠)

« وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ من بعدِ ما تَبَيَّنَ لَهمُ الْحَقُّ فاعفوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وأقيموا الصلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إن الله بما تعملون بصيرٌ » (١١٠)

وهذا تحذير آخر من الله سبحانه ، من أن يستمع المسلمون إلى ما يلقاهم به اليهود عند وقوع هذا الأمر ، وهو تحويل القبلة إلى المسجد الحرام ـ من تلبيسات وتلفيقات وأكاذيب .

ثم هو تنبيه للمسلمين أن يمضوا إلى ما أمرهم الله به ، وأن يستقيموا على قبلتهم التى وجههم الله إليها ، غير ملتفتين إلى تخرصات المتخرصين ، وضلالات الضالين .

ثم يقول تعالى :

الآيات : (١١١ ـ ١١٣)

« وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ من كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى[١] مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١١٢) وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١١٣)

التفسير : هذا موقف من مواقف أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ إزاء المسلمين . . فاليهود يقولون : لا يدخل الجنة إلا من كان على اليهودية ، والنصارى يقولون : لا يدخل الجنة إلا من كان على النصرانية . . أى أن كل فريق منهما يرى أن دينه الذى يَدين به هو الحق ، ولا دينَ حق غيره . وأن قبلته التى يصلّى عليها هى القبلة الحق ، ولا قِبلةَ حق غيرها ! . . وتلك أمانىّ وأحلام ، لا بُرهَان عَلَيْها . .

إن دين الله واحد .. يلتقى عنده المؤمنون جميعاً ، وتترجم عنه رسالات الرسل ودعوات الأنبياء جميعاً ، فمن آمن بالله وأسلم وجهه له ، دون التفات إلى سواه ، ثم استقام على طريق الحق ، فامتثل أوامر الله ، واجتنب نواهيه ـ مَنْ فعل ذلك فهو المؤمن حقًّا ، الموعود من الله بالجزاء الحسن والجنة التى عرضها السموات والأرض ، أُعدت للمتقين .

---

(١) بلى : جواب بالإيجاب عن النفى قبلها ، ولا تقع إلا بعد نفى ، ويكون ما بعدها مخالفا لما قبلها فى الحكم ، « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » فكان الجواب : بلى يدخلها « من أسلم وجهه لله وهو محسن » .

واليهود يقولون إن ما يدين به النصارى هو الباطل ، والنصارى يقولون فى اليهود مثل هذا القول . . وكل منهما يرجع إلى كتاب الله . . كما يقول الله تعالى : « وهم يتلون الكتاب » .

وهذا يعنى أن الفريقين قد حرّفوا وبدلوا فيما بين أيديهم من التوراة والإنجيل ، وإلاّ لما كان بين الفريقين هذا الترامى بتهمة الكفر ، إذ التوراة والإنجيل فى حقيقتهما على سواء ، فى الحق الذى نزلا به من عند الله ، ولهذا عبّر القرآن عنهما معاً بالكتاب « وهم يتلون الكتاب » فكأن التوراة والإنجيل كتاب واحد ، وإن اختلفا لغةً ، وتباعدا زمناً .

ومن قبيل ما يقوله كل من اليهود والنصارى فى رمى كل فريق منهما الآخرَ بالكفر ، ما يقوله المشركون عن كل ذى دين غير دينهم ، وقد وصفهم الله بأنهم « لا يعلمون » أى لا علم لهم من كتاب سماوى : « كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » وإذا كان للمشركين عذر فى اتهام أهل الكتاب ورميهم بالكفر ، فإنه لا عُذْر لأهل الكتاب ؛ لأن المشركين يقولون ما يقولون عن غير علم ، على حين يقول أهل الكتاب ما يقولون عن علم ، أو ما ينبغى أن يكون عن علم ! .

ثم يقول تعالى :

الآيتان : (١١٤ ـ ١١٥)

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ (١١٤) لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٥)

التفسير : فى هاتين الآيتين تهـديد ووعيد، لأولئك الذين يحولون أن يحتجزوا رحمة الله فى دائرة مغلقة عليهم دون الناس جميعاً ، والذين يتصورون أن ما بأيديهم وحدهم هو الحق الذى يسعهم وليس لغيرهم مكان فيه ـ هؤلاء يظلمون الحق ، ويظلمون أنفسهم ، ويظلمون الناس . . ذلك أن هذا القصور الخاطىء للحق يقيم فى كيانهم عصبيةً عمياء، لا يرون معها إلا ذواتهم، ولا يحسبون لأحد حساباً معهم ، ولا يرعْون حرمة دين غير مايدينون به ، ولو كان هو الحق من عند الله . . ولهذا فهم ـ مع هذا الشعور ـ لا يجدون حرجاً فى أن يصدّوا الناس عن عبادة الله ، وأن يحولوا بينهم وبين مساجده ، بل وأن يعطلوا هذه المساجد ويخربوها ! !

واليهود يقومون بدور خطير فى هذا المجال ، بما يسوقون إلى المؤمنين من فتن ، ومايدخلون به عليهم من تلبيسات وضلالات ، تثير الحيرة ، والبلبلة ، وقد فعل اليهود هذا عندما أمر الله النبي والمسلمين أن يتحولوا بقبلتهم إلى المسجد الحرام ، بعد أن كان المسجد الأقصى هو قبلتهم فى الصلاة ، فاتخذ اليهود من هذا الحَدَثِ مدخلاً إلى الفتنة ، يُلقُون بها بين جماعة المسلمين ، وقد وصف الله اليهود بهذا الوصف الكاشف ، فسماهم السفهاء فى قوله تعالى : « سيقول السفهاءمن الناس ما ولاّهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ؟.

وفى قوله : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين » إشارة إلى أن هذا الجرم الذى يرتكبه المنافقون فى الكيد لبيوت الله ؛ لا يخليهم أبداً من شعور الخوف من افتضاح أمرهم ، وخاصة إذا دخلوا هذه المساجد ليستروا موقفهم منها ، وليرى الناس منهم أنهم من أهلها ، شأن المجرم يحوم حول جريمته، وقلبه يرجُف خوفاً وفزعاً .

وفى قوله تعالى : « ولله المشرقُ والمغرب فأينما تُوَلُّوا فثَمّ وجه الله » ردٌّ مفحم على هؤلاء المنافقين الذين يحاولون أن يردوا المسلمين عن قبلتهم الجديدة ،

وأن يعملوا على خراب هذا المسجد والمساجد التى ستقام على سَمْته وتدور فى فلكه .

وفى قوله تعالى : « إن الله واسعٌ عليم » ردٌّ أيضاً على أولئك الذى أعمتهم الأنانية ، فحاربوا الناس فى كل موقع من مواقع رحمة الله التى لا حدود لها ، يصيب بها من يشاء من عباده ، حسب علمه وحكمته .

ثم يقول سبحانه :

الآيتان : (١١٦ ـ ١١٧)

« وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧)

التفسير : وهذه مقولة من مقولات أهلِ الكتابِ ، تكشف عن زيغهم ، وتُرى أنهم ليسوا على الحقّ الذى يدّعون أنهم أهْلُه دون الناس جميعاً ، فاليهود يقولون : عُزيْرٌ ابن الله ، النصارى يقولون المسيح : ابن الله .. وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ، له ما فى السموات والأرض ، كل ما فيهما مستعبد له :

« إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا »
(٩٣ : مريم)

ثم يقول جل شأنه :

الآيتان : (١١٨ ـ ١١٩)

« وقال الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ

قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (١١٩)

التفسير : وهذه مقولة أخرى لغير أهل الكتاب ، من مشركى قريش ، قالوا : « لولا يكلمنا اللهُ أو تأتينا آيةٌ » إنهم يأبون أن يعترفوا بوجود الله حتى يروه رأى العين ، كما قال بنو إسرائيل لموسى : « لن نؤمِنَ لك حتَّى ترى الله جهرةً » (٥٥ : البقرة) . . فهكذا وساوس الشيطان تعبث بقلوب الناس وعقولهم ، فتفسد عليهم الرؤية الصحيحة للحق ، إلاّ من عصم الله .

وفى قوله تعالى : « إنَّا أرسلناك بالحقِّ بشيراً ونذيراً ولا تُسأل عن أصحاب الجحيم » مواساة للنبىّ الكريم ، وتخفيف عليه ، مما يلقى من عَنَتِ قومه ، فما هو إلا رسول ، يبلغ ما أُنزل إليه من ربّه ، فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِىَ فعليها .

ثم يقول سبحانه :

الآيتان : (١٢٠ ـ ١٢١)

« وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (١٢٠) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٢١)

التفسير : هذا هو مقطع الفصل فيما تحدثت به الآيات السابقة ، عن الكيد الذى يكيد به أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ للنبىّ ولرسالته ، فى صدّ الناس عنه ، وإلقاء الشبه والضلالات بين يدى المسلمين .. إنهم لن يرضوْا عن النبىّ ولن يهادنوه ، حتى يترك دعوته ، ويطوى رسالته ، ويدخل فيما هم فيه !

« قل إن هُدَى الله هو الهدى » أى إن الهدى الذى بين يديك هو هدى الله ، وهو الهدى الذى لاهدًى إلا به .

« ولئن اتبعت أهواءهم بعدَ الذى جآءك من العلم مالك من الله من ولىٍّ ولانصيرٍ » وهذا توكيد بأن مامع النبى هو الهدى، وأن العدول عنه إلى مايدعو إليه أهل الكتاب من مخلقات أهوائهم ، هو البوار والهلاك .

وليس هذا مما ينتقص من الكتب السّماوية التى بين يدى أهل الكتاب ، فهى والكتاب الذى نزل على محمد ، سواء فيما تحمل إلى الناس من الحق والخير ، ولكنّ الأهواء هى التى أفسدت على أهل الكتاب أمرهم ، حين زاغت أبصارهم عن الحق ، فمكروا بآيات الله .. ولهذا فإن الذين يتلون منهم كتاب الله الذى بين أيديهم حقّ تلاوته ، لايحرفون كَلِمَه ، ولا يبغونها عوجا ـ هؤلاء يجدون أنهم والكتاب الذى نزل على محمدٍ على طريق واحد ، وأنهم ملزمون بالإيمان به ، وأن من يكفر به فإنما يكفر عن عنادٍ ، وعن علم ، وذلك هو الفسوق الذى يورد صاحبه موارد الضلال والهلاك .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

الآيتان : (١٢٢ ـ ١٢٣)

« يَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِىَ الَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ

شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (١٢٣)

التفسير : وهذا تذكير لبنى إسرائيل بالنعم التى ساقها الله إليهم ، وأنه على قدر هذه النعم سيكون البلاء ، ويكون الحساب ، وقد مكر القوم بآيات الله ، وكفروا بنعمته ، فهم فى معرض النقمة ، إن لم يرعوا حقّ الله فيما آتاهم من فضله .

وفى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » (١٢٣)

وفى قوله سبحانه فى آية سابقة : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » (٤٨ : البقرة)

فى هاتين الآيتين نظر ، حيث اختلف نظمهما على حين كان ينتظر ـ فى ظاهر الأمر ـ أن يجيئا على نسق واحد !

ولكن للنظم القرآنى ، ولإعجاز هذا النظم ـ جاء هذا الاختلاف ، تقريراً للواقع ، ومراعاة لمقتضى الحال ، وتحقيقاً للإعجاز الذى هو أمر لا انفكاك له ، فى كل آية من آيات الكتاب الكريم ، بل وفى كل كلمة من كلماته ، وحرف من حروفه .

ففى الآية (٤٨) يتوجه الخطاب إلى أصحاب الرِّيب والشناعات من بنى إسرائيل ، الذين يلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، والذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، فكان من مقتضى الحال أن يحذروا من هذا اليوم الذى يعرضون فيه على الحساب ، حيث لا تجزى نفس عن نفسٍ شيئاً ، وحيث يتلفت المفلسون فى هذا اليوم إلى من يجيرهم ، ويمدّون أبصارهم إلى

من أخذ بيدهم ، فلا يجدون من يجير أو يغيث : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » (٣٧ : عبس) حيث لاتدفع نفس عن نفس مكروهاً ، وحيث لا يُقبل منها شفاعة فى أحدٍ ، وحيث لا يؤخذ منها فديةٌ لأحدٍ .

وقد جاء البذل فى هذه الآية معبراً عنه بقوله تعالى : « يقبل » و « يُؤخذ » لأنه مجلوب على سبيل الإحسان للمفلس المحتاج فى هذا اليوم ، فهى مجابهة للأشقياء ، فى مواجهة من يرجون عندهم العون والنصرة .

أما مافى الآية : (١٢٣) فهو مواجهة صريحة للأشقياء بمعزل عمن يرجون نصرهم ، وبمنقطع عمن يطمعون فى الوقوف إلى جانبهم ، فإذا تعلق هؤلاء الأشقياء بالآمال الكاذبة وطمعوا فى أن يقع لأيديهم مايفتدون به أنفسهم فلا فدية تقبل منهم ، وإذا تمنّوا أن يطلع عليهم من يشفع لهم فشفاعته غير مقبولة فيهم « فما تنفعهم شفاعة الشافعين » : (٤٨ : المدثر) .

وبهذه الصورة من صور التيئيس ، والصورة التى قبلها يتم إغلاق دائرة اليأس عليهم ، فلا ينفذ إليهم بصيص من أمل ، ولو كان كاذباً !

ثم يقول سبحانه :

آية : (١٢٤)

« وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ » (١٢٤)

التفسير : اختُلف فى معنى الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بها ، وتشعبت مذاهب المفسرين لها .

ولعل أعدل طريق وأقومه فى مثل هذا المقام ؛ أن نقف عند حدود اللفظ

القرآنى ، ولا نتجاوزه إلى مقولات يناقض بعضها بعضاً ، إن أخذ بأحدها كان ترك غيرها مجازفة لا يؤمن معها الخطأ ، وإن أخذ بها جميعاً لم يكن للجمع بينها سبيل .

وهنا فى هذه الآية تجد أن بعضها يفسر بعضاً ، وأن قوله تعالى : « قال إنى جاعلك للناس إماماً » هو التفسير المناسب للكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم .. فالكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم هى قوله تعالى : « إنى جاعلك للناس إماماً » والإمامة وإن تكن نعمة وفضلا من الله ، فهى ابتلاء ، لما لها من أعباء ، لا يقدر على حملها والوفاء بها على وجهها إلا أولو العزم من النّاس ، وقد كان إبراهيم قدوة للناس فى قيامه على هذه الإمامة ، فنوّه الله به فى أكثر من موضع فى القرآن الكريم ، فقال : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » (٣٧ : النجم) أى وفّى الأمانة التى أداها على وجهها كاملة ، ويَعْضِدُ هذا المعنى الذى نراه ، ارتباطه بما سبقه من الحديث عن أهل الكتاب ، وأنهم حُمِّلوا أمانات فضيعوها ، وخانوا الله وخانوا أنفسهم فيها .

وقوله تعالى : « قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي » يمكن أن يكون هذا استفهاماً أو دعاء من إبراهيم ، بمعنى : أهذه الإمامة له وحده أم هى ممتدة فى ذريته من بعده ؟ . أو بمعنى : اجعلْ هذه الإمامة فى بعضٍ من ذريتى . فكان جواب الحق جلّ وعلا : « لا ينال عهدى الظالمين » .. أى هذا عهد لا يمتد إلى الظالمين ، فمن سلم من ذريته من الظلم ، كان أهلا لأن ينضوى تحت هذا العهد ، ويأخذ ميراثه منه .

ثم يقول جل وعلا :

آية (١٢٥)

« وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ

مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (١٢٥)

وهذا فضل من الله اختصّ به مكاناً مباركاً ، فجعله حرماً آمناً، يأوى إليه الناس ، فيجدون فى ظله السكن والاطمئنان ! .

والمثابة : المرجع ، يثوب إليه الناسُ ويرجعون .

والبيت . هو البيت الحرام بمكة ،وقد ذُكر مُعَرَّفاً هكذا : « البيت » إشارة إلى أنه واحدُ البيوت كلّها،وأنه إذا ذُكر «البيت »كان هو هذا البيت ! .. البيت الحرام .

وفى قوله تعالى : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » التفات من غيبة إلى حضور ، ومن خبر إلى أمر ، للتنويه بشأن هذا البيت ، وبالأمر المتعلق به .

وفى قوله تعالى : « وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » التفات من أمر إلى خبر ، ليقوّى من شأن الأمر ، وليزيد فى ظهوره ، والعهد هنا ، معناه : التكليف والأمر .. وتطهير البيت : إعداده وتخصيصه للمؤمنين بالله ،فلا يقربه مشرك ، ولا يطوف به ، ولا يعكف فيه إلا مؤمن خالص الإيمان .

ثم يقول سبحانه :

آية : (١٢٦)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ

مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦)

التفسير : وإذ جعل الله البيت الحرام مثابة للناس وأمنا ، وإذ جعله الله مقاماً لإبراهيم ومصلّى للمؤمنين ، وإذ عهد إلى إبراهيم وإسماعيل بالقيام على هذا البيت وتطهيره من أن يلمّ به رجس ـ إذاك توجه إبراهيم إلى ربّه أن يبارك البيت وما حوله ، وأن يصيب البلد الذى يقوم حول هذا البيت ببعض نفحاته وبركاته . . هكذا الطيب يعبق ريحه، فيطيّب الأجواء من حوله .. ومن شأن هذا البيت الطهور القُدُس أن يجد ريحه الطيب كلُّ شىء يدنو منه ، من إنسان وحيوان ونبات .. فأما كنه آمنة ،والناس فيها آمنون ، وحيوانها ونباتها آمن ، فلا يصاد حيوانها ولا يُعْضَد شجرها ، « ربّ اجعل هذا بلداً آمناً » أمناً مطلقاً يصيب كل شىء . . « وارزق أهله من الثمرات » فهذا الرزق هو مما يكفل الأمن لأهله . . « مَن آمن منهم بالله واليوم الآخر » .. وفى قول إبراهيم : « بلداً آمناً » ، وقوله فى آية أخرى فى سورة إبراهيم :« رب اجعل هذا البلد آمناً » ما يشعر بأن بين « البلد » و « بلداً » فرقاً . . وهذا ما يحدّث عنه التاريخ ، من أن إبراهيم كانت له عودة إلى البلد الحرام بعد أن ترك إسماعيل وأمه فيها . . فحين تركهما لأول مرة كانت غير معمورة ، فهى « بلد » لم يكتمل بعدُ ، فلما عاد إليها بعد مدة كانت قد أخذت تعمر فهى « البلد » ! وقد تأدب إبراهيم مع ربّه ، ونظر إلى قوله تعالى « لا ينال عهدى الظالمين » فخصّ بدعائه هذا من آمن بالله واليوم الآخر ، حيث لا مكان فى هذا البيت القُدُس لمن كفر بالله ، ولكن رحمة الله تسع البّر والفاجر ، ومن طبيعة الحياة ألا يستقيم فيها الناس جميعاً على صراط الله : فكان ردّ الله على إبراهيم أن سمع دعاءه فى المؤمنين ، وأما من كفر فلا يحرم هذا الرزق المساق إلى البيت

الحرام ، متاعاً له فى هذه الدنيا،ثم يوفّ حسابه فى الآخرة ، بما أعد للكافرين من عذاب أليم .

ثم يقول سبحانه :

الآيات : (١٢٧ — ١٢٩)

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩)

التفسير : فى هذه الآيات خبرُ بناء البيت الحرام بيد إبراهيم وإسماعيل ، وقد ذُكر البيت قبل هذه الآيات وهو مستكملٌ وجودَه ، ومهيأ للعبادة ، وهذا ما يشعر بجلاله وقدسيته ، وأنه كان معداً من قبل بيد القدرة ،وأن يدى إبراهيم وإسماعيل اللتين جَرَتا عليه بعد هذا ، إنما لإظهار هذا السرّ المضمر ، والقدَر المقدور .

وفى قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل » هو ظرف حاوٍ للحال التى كان عليها إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، ويدعوان الله بما دعواه به ، فى قولهما : « ربّنا واجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك » وقد استجاب الله لهما ، فجعل منهما أمة محمد ، ثم كان من دعائهما قولهما : « ربّنا وابعثْ فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيّهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمة » . وقد استجاب الله لهما فبعث

النبيّ العربيّ ، محمدّ بن عبدالله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفى هذا يقول النبيّ الكريم : « أنا دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى أخي عيسى » ، والكتاب هو القرآن ، والحكمة هي السنّة ، وبهما يتزكى المؤمن ويتطهر .

ثم يقول سبحانه تعالى :

الآيات : (١٣٠ — ١٣٢)

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِين (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون (١٣٢)

التفسير : الدّين الذى اصطفاه الله سبحانه لإبراهيم واصطفى إبراهيم له ، هو الإسلام ، وهو دينُ الله ، كما يقول سبحانه : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلاَمُ » (١٩ : آل عمران) .

وتلك هى مِلة إبراهيم ، فمن رغب عنها فقد رغب عن الحق ، وتنكّب عن الهدى ، ولا يفعل ذلك إلا سفيه أحمق ، اشترى الضلالة بالهدى .

وقوله تعالى : « إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » هو مما ابتلى الله به إبراهيم من كلماته ، وقد استجاب إبراهيم لله ، وخرج من الابتلاء سليمًا معافًى ، مستأهلًا لرضى الله ورضوانه .

وفى قوله تعالى : « ووصَّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبُ » يعود الضمير فى « بها » إلى الكلمات التى ابتلى الله بها إبراهيم ، والتى وصّى بها إبراهيم يعقوب ، ثم وصّى بها يعقوب بنيه من بعده .

ثم يقول جل شأنه :

الآيتان : (١٣٣ — ١٣٤)

« أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٣٤)

التفسير : الخطاب هنا لبنى إسرائيل ، ليذكروا تلك الوصية التى وصّى بها يعقوبُ بنيه حين حضرته الوفاة ، وأنه أقامهم على دين الله ، دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق ، وهو دين الإسلام .

وإذن فهذا الدين الذى جاء به « محمد » ليس بِدْعاً من الدين ، وإنما هو امتداد لدين إبراهيم ، الذى وصّى به بنيه : إسماعيل وإسحق ، والذى وصّى به اسحق يعقوبَ ، كما وصى به يعقوب بنيه ! وإذن فَلِمَ يدّعى بنوا إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ أنهم على الحقّ وحدهم ؟ وكيف ودينهم هو فرع من أصل هو دين إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ؟ .

إن دعوى أنهم المصطفون وحدهم لدين الله دعوى باطلة ، إذ ليس إبراهيم لهم وحدهم ،وليس دينهم ميراثاً من إبراهيم ، مقصوراً على إسرائيل « يعقوب » وحده فإن يكن هذا الدين ميراثاً ، فقد ذهب إسماعيل بشطره ، على حين ذهب اسحق بالشطر الآخر ! .

ويقول سبحانه :

الآيتان : (١٣٥ — ١٣٦)

« وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ » (١٣٦)

التفسير : وقال اليهود للمسلمين: كونوا هوداً تهتدوا ، وقال لهم النصارى: كونوا نصارى تهتدوا ، حيث حسب اليهود أن اليهودية وحدها هى الدين الحق ، وحيث حسب النصارى أن النصرانية وحدها هى الدين الحق ، فردّ الله سبحانه وتعالى على الفريقين هذا الردّ الذى لقّنه المسلمين ، وأمرهم أن يكون هو المعتقد الذى يعتقدونه ، والدّين الذى يدينون به ، والقول الذى يلقوْن به اليهود والنصارى على السواء : « بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين . . قولوا آمنّا بالله ، وما أُنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أُوتى النبيّون من ربّهم لا نُفرّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » فهذا هو دين الله ، الذى حمله الأنبياء والرسل إلى عباد الله . . فمن آمن برسول من رسل الله ولم يؤمن بجميع الرسل ، فليس من المؤمنين ، ومن تمسك بكتاب وكفر بمـا سواه من كتب الله ، فهو من الـكافرين . . وقد ذمّ الله أهل الـكتاب ــ من اليهود والنصارى ــ الذين فرّقوا دين الله وتوعدهم بالعذاب الأليم .

فقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً »(١٥٠ ـ ١٥١ : النساء)

على حين الله مدح المؤمنين الذين يؤمنون برسله جميعاً ، ولم يفرقوا بين أحد منهم ، وأنزلهم منازل رضوان ، وأوسع لهم فى جناب رحمته ومغفرته ، فقال تعالى: « والذين آمنوا بالله ورسُلِه ولم يُفرِّقوا بين أحدٍ مِنْهم أولئك سَوْفَ يُؤْتِيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً » : (١٥٢ : النساء)

ويقول جل شأنه :

الآيات : (١٣٧ ـ ١٣٩)

« فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » (١٣٩)

التفسير : الإيمان بالله وكتبه ورسله من غير تفرقة بين الله ورسله ، هو الإيمان الذى قامت عليه دعوة الإسلام ، واستقام عليه المسلمون ، فإن آمن أهل الكتاب مثل هذا الإيمان فقد اهتدوا ، وصح إيمانهم ، وإن تولّوا فقد ضلّوا سواء السبيل ، وصار أمرهم إلى خلاف وشقاق بينهم وبين المؤمنين ، ثم بينهم وبين أنفسهم ، وليس على النبىّ والمسلمين من بأس فى مخالفة

أهل الكتاب لهم ، واتباعهم سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، فالله سبحانه ، سيكفى النبىّ شرّهم ، ويبطل كيدهم .

وقوله تعالى : صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ » داخل فى مقول القول ، فى قوله تعالى : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ » أى قولوا آمنا بالله وصُبغنا صبغةَ الله ، أو رضينا صبغةَ الله ، والصبغة هنا هى السِّمة واللون الذى يظهر به المسلمون فى الناس ، وهو الإسلام .

وقوله تعالى : « قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ » إنكار من المسلمين على أهل الكتاب أن يجادلوهم فى الله ، إذ الأمر لا يتسع لجدال فى حقيقة واحدة ، فإمَّا إيمانٌ ، وإما كفر .

ثم يقول سبحانه :

آية : (١٤٠)

« أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١٤٠)

التفسير : وهذا إنكار أعلى هل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ أن يقول اليهود إن إبراهيم وإسماعيل : وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهوداً ، وأن يقول عنهم النصارى إنهم كانوا نصارى ، وقد أخبر الله أنهم لم يكونوا يهوداً ، أو نصارى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً

مسلماً وما كان من المشركين » : (٦٧ : آل عمران) وأهل الكتاب يعلمون من التوراة والإنجيل هذه الحقيقة ، ولكنهم يكتمونها ، ويشهدون زوراً وبهتاناً على خلافها ، وذلك ظلم مبين للحقيقة ، ولأنفسهم ، التى حجبوها عن الحق ، وأوردها موارد الضلال والخسران .

ثم يختم الله هذا الموقف بقوله سبحانه :

آية : (١٤١)

« تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » (١٤١)

التفسير : الأمة هى الجماعة ، ويراد بها هنا إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وأتباعهم ، وقد صار أمرهم إلى الله ، والخلاف فيهم لا ثمرة له ، وإنما يؤخذ كل إنسان بعمله ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

* * *

فانظر كيف كان دفاع القرآن عن هذا الأمر الذى جاء به ، ودعا المسلمين إليه ؟ إنه إلى الآن لم يجىء الأمر المرتقب ، وهو دعوة المسلمين إلى أن يحوّلوا قبلتهم إلى البيت الحرام .. ومع هذا كانت تلك المواقف التى كشف فيها القرآن عن طوايا النفوس ، وما يحمل أهل الكتاب فى نفوسهم ـ وخاصة اليهود ـ من ضغينة وحقد على الإسلام ! كانت إعجازاً من إعجاز القرآن .

وأنت ترى أن الأمر بتحويل القبلة لم يُذكر بعد ، ولهذا لم يكن لأهل الكتاب ولا لغيرهم حديث عنه ، وإنما سبق القرآن إلى الكشف عن المستقبل ، وأطلع المسلمين على ماسيَلْقَى به أهل الكتاب هذا الأمر . !

وأول آية تَلَقّانا بعد هذا هى قوله تعالى : « سيقول السفهاء من النّاس

ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » (الآية : ١٤٢) .. إنهم لم يقولوا بعدُ شيئاً ، ولـكنهم سيقولون ، حين يجيء الأمر الذى قدره الله وأراده !

وسنرى فى الآيات الآتية كيف كان دفاع القرآن ، وكيف كان ردّه وردعه لهؤلاء السفهاء ، المتطاولين على الحق ، المتربصين به وبأهله السوء !

* * *

وإنك لترى من هذا كلّه أن آية النسخ كانت مقدمةَ الدفاع ، فى قضية التحوّل بالقبلة إلى المسجد الحرام .. وكأنها تقول المسلمين ولأهل الـكتاب : إن الله سبحانه وتعالى إذا نسخ آية من آياته ، أو بدل حكما من أحكامه بحكم آخر ، فذلك بمقتضى حكمته ورحمته بعباده .

وقد نسخ الله كثيراً من الشرائع التى تقدمت شريعة الإسلام ، وأنساها فلم يَعُدْ أحد يذكر عنها شيئاً .. فأين رسالة نوح ؟ وأين صحف إبراهيم التى ذكرها القرآن فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » ؟ وأين رسالات الأنبياء : صالح ، وهود ، وشعيب ، ولوط ؟

يقول ابن كثير فى تفسيره :

« والذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ هو الـكفر والعناد ، فإنه ليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى . لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل ما يريد . . كما أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة ، وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرّم ذلك ، كما أحلّ لنوح عليه السلام بعد خروجه من السفينة ، جميع الحيوانات ، ثم نسخ حِلّ بعضها ، وكان نـكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حرّم فى شريعة التوراة وما بعدها . وأمَرَ إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ، ثم نسخه قبل الفعل . . . »[1]

(١) تفسير ابن كثير . الجزء الأول .

وعلى هذا ، فإن أقرب مفهوم إلى النسخ الذى تشير إليه الآية : « ما ننسخ من آية » هو نسخ الأمر بالتوجّه بالصلاة إلى البيت المقدس ، وجعله إلى المسجد الحرام . . وكلا المسجدين آية من آيات الله ، إذ قاما بأمره ، وأفاض عليهما من فضله ، فإذا نَسَخَ المسجدُ الحرام المسجدَ الأقصى ، فإنما هو نسخ آية بآية ، وتبديل نعمة بنعمة ! . . « ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربُّ العالمين » .

أما قوله تعالى : « أو نُنْسِها » ففيه قراءتان : نُنْسِها ، أو نَنْسأها .

فعلى القراءة الأولى ، يكون من النسيان ، بمعنى أنه تعالى يُعَفِّى آثار بعض شرائعه التى شرعها ، وأحكامه التى قد فرضها فى أجيال الماضين . . قال أبو بكر الرازى :

« إنما يكون بأن ينسيهم الله إياه ، ويرفعه من أوهامهم ، ويأمرهم بالإعراض عنه وكتْبه فى الصحف ، فيندرس على الأيام ، كسائر كتب الله القديمة ، التى ذكرها الله فى كتابه ، فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » . . ولا يُعرف اليومَ منها شىء » .

وعلى القراءة الثانية ، يكون من النَّسْأ ، وهو التأخير ، ومعنى هذا أن الله سبحانه قد يؤخر نسخ آية إلى أجل معلوم ، كما أخر نسخ التوجه إلى بيت المقدس ، منذ وجّه المسلمون وجوههم إليه فى الصلاة ، إلى أن أمروا بالتحول إلى المسجد الحرام . . بعد سبعة عشر شهراً ! .

ونخلص من هذا كله ، إلى القول ، بأن آية النسخ ليست موجهة إلى نسخ آيات من القرآن الكريم ، بآيات أخرى ، وإنما إلى نسخ قِبلة وإحلال أخرى مكانها . . وأن النّسْأ هو تأخير الحكم الذى دُعى به المسلمون إلى التحول إلى البيت الحرام ــ مدّةً بلغت سبعة عشر شهراً ، كانوا يتجهون خلالها

نحو بيت المقدس ، وذلك لحكمة أرادها الله تعالى ، فيها امتحان وابتلاء لعباده ، من مؤمنين ، وكافرين ، ومنافقين . .

تأويل بعض ما يبدو فيه النسخ :

من آيات الأحكام ما يبدو فيها النسخ ، إذ كانت القضية واحدة ، والأحكام فيها مختلفة ، وأوضح مثل لهذا ، الآيات التى جاءت فى «الخمر» ومثلها الآيات التى جاءت فى « الربا ».

فقد جاء فى « الخمر » آيات فى عدة مواضع من القرآن ، وفى كل موضع حديث عن الخمر ، يختلف عما تضمنته الآيات الأخرى ، وذلك فى صدد تحريمها ، ومثل ذلك ما ورد فى الربا .

ويرى العلماء القائلون بالتناسخ بين هذه الآيات أن ذلك لحكمة تربوية ، قُصد بها التلطّف فى الدخول على النفوس دخولاً مترفقاً ، فى تحريم أمور كانت ذات ارتباط وثيق بها ، وسلطان قاهر لها .. وفى انخلاع النفس عنها جملةً ، ما لا يؤمن معه سلامة النفس ، أو تقبلها لهذه الأوامر إذا هى حُملت عليها دفعة واحدة ، على هذا الوجه المفاجىء ، فقد تخور كثير من النفوس ، وقد تتصدع وتنحلّ ، إذا هى واجهت الأمر مرة واحدة دون إعداد وتمهيد .

* * *

ففى الخمر . . حين أراد الله أن يحرمها ، سلك ذلك المسلك التربويّ الحكيم ، الذى لا يُرى ألطف ، ولا أحكم ، ولا أعدل مدخلاً منه إلى النفس .

(١) : كان أول إشارة إلى الخمر تلك الإشارة التى تضعها وضعاً غير كريم بين النعم التى أنعم الله بها على عباده ، فقال تعالى :

« ومن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورزقا حسناً » (٦٧ : النحل) .

فالرزق الحسن الذى يتخذ من ثمرات النخيل والأعناب ، ليس منه السَّكَر الذى يُتخذ من هذه الثمرات .. وإلا لكان قد وصف بأنه سَكَرٌ حسن ، كما وُصف الرزق بأنه رزق حسن .

وفى هذا مايفتح للكثير من ذوى البصائر ؛ سبيلاً إلى العُزوف عن هذا السَّكَر وتجنبه ، إذ كان رزقاً غير حسن !

(٢) : ثم تجىء الآية الثانية بعد هذا ، وفيها تشنيع على الخمر ، وتقبيح لها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « يسألونك عن الخمرِ والمَيْسر قل فيهما إثم كبيرٌ ومنافِعُ للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (٢١٩ : البقرة) .

فقد قَرَنت الآية الخمر إلى الميسر ، وجعلتهما فى مِقود واحد ، إذ كانا من فصيلة الشر والفساد على السواء ..

ومن تدبير القرآن الكريم فى هذا أنه لم يُغفِل الوجه الآخر لهذه المنكرات . فكل شىء وإن بلغ مابلغ من السوء ، له جانب آخر غير سيىء .. إذ ليس هناك شر خالص ، أو خير محض ، فيما يدور فى دنيـــا الناس ، وفيما يتقلبون فيه .

فلم ينكر القرآن هذه الحقيقة الواقعة ، وهى أن للخمر والميسر منافعَ من بعض الوجوه ، وعند بعض الناس ، ولكن هذه المنافع ليست شيئاً إذا هى قيست إلى جانب الإثم والشرّ اللّذان ينجمان منهما .

فإذا ربح إنسان من الميسر مرة ، فإن خسائره المحققة آخر الأمر أضعاف ماربح ، وإذا كان للخمر عند شاربها لذة أو نشوة فى أول عهده بها ، فإنها تنتهى به إلى تدمير كامل ، لقواه العقلية والجسدية والنفسية ، إن لم يكن فى جميع الأحوال ففى غير قليل منها .

(٣) : ثم تجىء بعد ذلك إشارة أوضح وأصرح من سابقتها فى التحذير من الخمر .. إذ يقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتىّ تعلموا ماتقولون » (٤٣ : النساء) فقد حرمت هذه الآية على المسلم أن يدخل فى الصلاة وهو فى حال سكر ، لايعلم معها مايقول .

والصلاة تتكرر فى اليوم خمس مرات ، فى أوقات متفاوتة ، تكاد تجعل الليل والنهار قسمة بينها ، وهيهات أن يشرب شارب الخمر عقب صلاة من الصلوات ، ثم تدركه الصلاة التالية ، وقد صحا من خُماره ، أو أفاق من سكره .

ولقد دعت هذه الإشـــارة كثيراً من المسلمين إلى أن يتجنبوا الخمر ، وألا يقربوها بحال ، على حين ظل بعضهم يلقاها بين الحين والحين ، وفى حذر وإشفاق ..

(٤) : ثم كانت الحاسمة .. فجاء قوله تعالى :

« إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريدُ الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (٩١ ـ ٩٢ المائدة) .

وبهذا يجىء الحكم القاطع فى تحريم الخمر ، فتصبح منذ اليوم الذى نزلت فيه هاتان الآيتان الكريمتان ، محرمةً على المسلم !

والسؤال الوارد بعد هذا : هو : ماذا يقال عن تلك الآيات التى تحدثت عن الخمر ، قبل هاتين الآيتين اللتين جاءتا صريحتين قاطعتين بتحريم الخمر ؟

أهى منسوخة بهاتين الآيتين ؟ وهل هناك سلسلة من التناسخ بينها ، بحيث ينسخ بعضها بعضاً .. اللاحق منها ينسخ السابق ؟

والجواب على هذا ليس جواباً واحداً .. فإذا قلنا بوجود النسخ فى القرآن

كان واضحاً أن هذه الآيات جميعها منسوخة بالآيتين الأخيرتين ، وكانت مراحل النسخ بينها متتابعة .. اللاحق منها ينسخ السابق !

أما إذا قلنا بألاَّ نسخ فى القران ، كان الجواب ، بأن هذه الآيات جميعها عاملة ، تلاوةً وحكما ، وأن اللاحق منها هو مُنْسأ تأخر نزوله، ووجب امتثاله، كلٌّ فى وقته ، لحكمة توجب ذلك الحكم الذى تضمنته الآية .

وهنا يلقانا هذا السؤال : كيف يمكن التوفيق بين هذه الأحكام المختلفة ، فى أمر واحد هو الخمر ؟

فالخمر : رزق غير حسن . .

وهى إثم ونفع ، وإثمها أكبر من نفعها ..

وهى محرمة .. إذا دخل بها شاربها الصلاة وقد سكر منها .

ثم هى محرمة حرمة مطلقة من كل قيد !

هذه سلسلة من الأحكام ، واقعة على أمر واحد هو الخمر .

فأى هذه الآيات ، أو بمعنى آخر ، أى أحكام هذه الآيات يلزم المسلمين العملُ ، والوقوف عنده ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، نسأل سؤالا آخر ونجيب عليه ، وهو : هل من شأن النهى القاطع الملزم الذى جاءت به آخر آية فى تحريم الخمر - هل من شأن هذا النهى أن يحول بين المسلم وبين أن يشرب الخمر ؟ أو بمعنى آخر هل فى هذا النهى من القوى الذاتية مايعصم المسلمين جميعاً من شرب الخمر أو يحميهم جميعاً - فرداً فرداً - من الضعف النفسى إزاءها ؟

والجواب على هذا إنما نأخذه من الواقع التطبيقى فى الحياة ، للأوامر والنواهى ، التى جاءت بها الأديان ، وهى أن أى أمر أو نهى لايستقيم الناس جميعاً عليه ، ولن يلتزموه التزاماً كاملا ، فما أكثر الذين يخرجون عن تلك

الأوامر والنواهى، فلا يأتون منها ما أمر الله به، ولا ينتهون عما نهى الله عنه .

فالأديان تنهى عن الكذب، وكثير من أتباع هذه الأديان يكذبون ، والأديان تنهى عن الظلم ، وكثير من أتباع هذه الأديان يظلمون ، والأديان تنهى عن السرقة وكثير من أتباع هذه الأديان يسرقون .. وهكذا الشأن فى كل ما تأمر به الأديان أو تنهى عنه ، لايستقيم الناس أبداً على أوامرها ونواهيها .، استقامة مطلقة ، تحوى الناس جميعاً !

والأديان تعلم هذا مقدماً ، ولهذا تفرض عقوبات دنيوية وأخروية ، المخالفات التى تقع من أتباعها .

والخمر التى نهى الإسلام عنها، قد رصد الشارع العقوبة الرادعة لمن يشربها ، ولا ينتهى عما نهى الله عنه منها .

والسؤال هنا : إذا شرب مسلم الخمر .. فما موقف الإسلام منه ؟ وماموقفه هو من الإسلام ؟

أما الإسلام هنا ، فإنه يراه آثماً ، يستحق العقوبة الرادعة فى الدنيا ، وهى الجلد ، وأمره إلى الله فى الآخرة .. إن شاء غفر ، وإن شاء أخذه بما ارتكب . وأما هو ـ أى شارب الخمر ـ فهو على مابه من إثم ـ مسلم . . آثم ، عاق .

ولا تلتفتْ هنا إلى قول من يقول بتكفيره .. فقد شرب الخمرَ من شربها من المسلمين فى عهد النبوة ، وفى عهد خلفائه الراشدين ، وقامت البينة القاطعة التى أوجبت الحدّ عليهم .. ومع هذا فقد بقى معهم إسلامهم ، وكانوا يشهدون مشاهد المسلمين فى الصلاة وغيرها .

وإذن ، فقد يشرب المسلم الخمر ، يشربها ويُدمغ بالإثم والعصيان ، ولكن على أى حالٍ هو مسلم ، لاتسقط عنه الواجبات المفروضة على المسلم ، ومن بينها الصلاة .. وليس من حائل يحول بينه وبين الصلاة فى هذه الحال ، إلا أن

يكون فى حال سُكر ، لا يدرى معها ما يقول . . وهنا نجد الآية الكريمة :
« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون »
نجدها عاملة غير معطلة ، فهى تفرض حكمها على من خالف ما نهى الله عنه ــ من أمر الخمر فشربها حتى سكر ، وهو ألا يقرب الصلاة حتى يصحوَ من سكره ، ويعلم ما يقول .

وتبقى بعد هذا الآيتان : الأولى والثانية ، وهى قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً » وقوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قُلْ فيهما إثم كبيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » .

وهاتان الآيتان تعرّضان بالخمر ، وتشنّعان عليها ، وتضعانها موضعاً غير كريم ، وتزنانها بميزان يقلّ فيه خيرها ويكثر فيه شرها .

فهى رزق . . ولكنها رزق غير حسن .

وهى نفع . . ولكن إثمها أكبر من نفعها .

وهى رجس . . ولكن بعض الناس يلطخ نفسه بهذا الرجس ! .

فجميع هذه الأوصاف هى للخمر ، وهى أوصاف خسيسة كلها ، ولكنها درجات فى الخسّة من حيث النظرة التى ينظر بها إليها ، وهى على جميع مواقع النظر موسومة بسمة القبح والإثم والرجس ، وتلك الأوصاف ملازمة لها ، لا تنفصل عنها أبداً .

وإذن فالآيات الأربع الواردة فى شأن الخمر ، لا تعارُض بينها ، ولا تناسخ ، بل كلها عاملة ، تعطى الوصف المناسب لها ، كما تعطى الحكم المناسب أيضاً .

وما قيل فى آيات الخمر ، يقال فى آيات الربا كذلك :

فالآيات التى نزلت فى شأن الربا ، جاءت متدرجة على مراحل ، على نحو ما جاءت عليه آيات الخمر فى الخمر .

فأول ما نزل فى شأن الربا قوله تعالى : « وَمَآ آتَيْتُم من ربًا ليَرْبُوَ فِى أمْوَالِ النّاس فَلَا يَرْبُو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدُون وَجْهُ الله فأولئك هُمُ المضعِفون » (٣٩ : الروم) .

وفى هذا تحريم للرّبا ، وتشنيع عليه ، وكشفٌ لوجه كريه من وجوهه .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى فى شأن اليهود المتعاملين بالربا ، المستحلّين له : « وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وقد نُهُوا عَنْه وَأَكْلِهِمْ أموال النّاسِ بالباطل » (١٦١ : النساء) .

وهذه الإشارة والإشارة التى قبلها تدعوان كثيراً من المسلمين إلى أن يحذروا هذا النوع من المعاملات ، وأن ينفروا منه ، وإن لم يكن قد حُرِّم عليهم بعد .

ثم نزل بعد هذا قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » (١٣٠ : آل عمران) .

« والنهى هنا ليس نهياً قاطعاً فى تحريم الربا تحريماً مطلقاً ، وإنما وقع تحريمه فى صورة خاصة ، وهى أن يكون أضعافاً مضاعفة . وهذه الصورة تقابل فى تحريم الخمر قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » .

ثم كانت الكلمة الأخيرة فى الرّبا ، فنزل قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقى من الرّبا إنْ كُنتُمْ مؤمنين فإن لم تفعلوا فأْذنوا بحربٍ من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون » (٢٧٨ ـ ٢٧٩ : البقرة) .

وبهذا كان الحسْم والقطع فى تحريم الرِّبا ! .

هذا ، ويرى كثير من العلماء أن ما جاء فى الربا والخمر ، ليس من قبيل النسخ ، لأن النسخ هو إزالة حكم شرعى بحكم آخر شرعى . والخمر والربا لم يكن قد جاء فيهما حكم شرعىّ بحلّهما ، ثم جاء حكم شرعىّ

آخر بتحريمهما، فيكون الحكم الثانى ناسخاً للحكم الأول، وإنما هما مما كانا للعرب فى الجاهلية، ثم جاء الإسلام فوجدهما على ماهما عليه فحرّمهما.. وقد ظلّت الخمر غير محرّمة إلى صلح الحديبية، حيث جاء القرآن إذاك بتحريمها. وكذلك الرّبا، لم يحرم تحريماً قاطعاً إلا قُبيل وفاة النبىّ الكريم.

ولكن إذا قيل فى القرآن نسخ ـ ألا تعتبر هذه المراحل التشريعية للأمر الواحد واختلاف الحكم فى كل مرحلة منها ـ ألا تعتبر هذه المراحل مما يقيم للقائلين بالنسخ فى القرآن، الشرطَ الذى يطلبونه له، وهو إزالة حكم شرعى، بحكم شرعى آخر؟.

ثم ألا تُعتبر كل مرحلة من هذه المراحل مظروفةً بحكم يخصّها.. ثم تجىء المرحلة التالية فتنسخ حكمها؟.

وعلى أىٍّ فإن رأينا فى الآيات التى نزلت فى الخمر والرّبا ألاّ تناسخ بينها، وأنها جميعاً محكمة، عاملة، تلاوةً وحكما.

* * *

وندع هذه الآيات التى يلتقى معنا فى الرأى فيها بعض الذين يقولون بالنسخ، وإن كان هذا اللقاء على وجه مختلف بيننا وبينهم!.

وننظر فى آيات أخرى يقطعون بالقول بنسخها، ونقطع نحن بالقول بأنها غير منسوخة.

فمن ذلك قوله تعالى:

« وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً » (٨: النساء).

فالقائلون بالنسخ مجمعون ـ قولاً واحداً ـ على أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث.

والقول ينسخ هذه الآية يسدّ على الفقراء والمساكين واليتامى باباً من أبواب الرحمة ، أراد الله سبحانه أن يفتحه عليهم ، كما أنه يقطع آصرة المودة بين ذوى القربى ، التى أمر الله بها أن توصل ! .

وما أعدل الإسلام ، وما أحكم أحكامه التى تتجلّى فى كل آية من آياته !

وهنا فى هذه الآية الكريمة ، التى يريد القائلون بالنسخ ، عزلَ المسلمين عنها ـ تدبير حكيم من الإسلام ، وآية من آيات خلود هذا الدين .

فالميراث الذى يتركه الميت لورثته هو خير غير مرتقب ، قد شمل أعداداً من الناس بحكم قرابتهم لهذا الوارث . .

وهناك عيون كثيرة تتطلع إلى هذا الخير ، وتتبع مواقعه التى وقع فيها ، وخاصة ذوى القربى الذين لا نصيب لهم بين الورثة ، وكذلك من يشهد قسمة هذا الميراث من فقراء ومساكين ، لهم بالمورّث صلة جوار أو معرفة .

إن هؤلاء وأولئك يرون مائدة ممدودة حافلة بأنواع الطعام ، وهم جياع يسيل لعابهم إلى القمة مما عليها .

هذا هو الموقف ، كما يراه القرآن ، وكما تشهده الحياة . .

فماذا لو ذهب الورثة بكل هذا الميراث ؟ ثم لم يكن لذوى قرابتهم المحرومين منه ، نصيب ؟ ولم يكن للفقراء والمساكين الذين تتلمظ شفاههم إلى نفحة منه شىء ؟ ماذا يكون ؟ .

أحقاد وأضغان ، وعداوات ، تثير السخط والنقمة ، وتذهب بالإخاء والمودة بين الناس والناس ! .

وتأمل قوله تعالى : « إذا حضر القسمة » . أى إذا كانت القسمة بمحضر منهم ، وبمشهد وعلم .

فهذا الحضور هو شرط فى أن يُرزَق هؤلاء الحاضرون من هذا الخير الذى شهدوه، ورأوا الأيدى تمتد إليه وتنال منه !

وأنت ترى ما فى هذا التوجيه السماوى، تلك الحكمة الحكيمة التى تقوم عليها شريعة الإسلام فى تربية الأمم، ودعم بنائها، وإقامة أسسها على دعائم وطيدة من التضامن الاجتماعى، وحراسة المجتمع الإنسانى من أن تدخل عليه آفات التباغض والتحاسد، التى هى أفتك الأدواء فى تقويض الجماعات والأمم !.

إن ضريبة «الزكاة» التى تفرضها كثير من الدول على ما ترك المورِّث ليس إلا تطبيقاً إجبارياً، لهذا المبدأ الكريم السمح، وإلا وحياً من وحيه، وإن كان البون شاسعاً، والمدى بعيداً، بينها وبين ما جاء به القرآن وشرعه الإسلام.

فالإسلام لم يجعل هذا الأمر على وجه ملزِم، بل جعله دعوة مطلقة للخير وللبر، فى مقام يحضره داعيان من دواعى الخير والبر، وهما: الوجْد والموت.. إذ المال موجود عتيد بين يدى من سيصير إليهم من الورثة، وهو مال لم يقع فى أيديهم بعد.. ومن أجل هذا فإن النفس ـ فى تلك الحال ـ لا يغلبها الحرصُ عليه، والضنّ به كما لو وقع فى اليد، وصار فى حوزة صاحبه.. خاصة وأنه لم يبذل له جهداً، ولم يتكلف له عملاً، بل جاءه هكذا عفواً من غير سعى.. ثم الموت المشهود المذكور فى هذا الوقت، حيث كل شىء من هذا المال يذكر بالميت والموت معاً.. ومن أجل هذا فإن النفس لا يغلبها الشح، ولا يمسك بها عن البذل والإنفاق فى سبيل الله، داعى الحرص على الحياة فى هذا الوقت، الذى يطلّ عليها فيه شبح الموت، ويذكرها بأن كل شىء إلى زوال «والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا» !.

هذه الآية من الآيات الكثيرة التى قيل ـ على سبيل القطع ـ إنها منسوخة، وهى ـ كما رأيت ـ دعوة كريمة من دعوات الإسلام إلى البّر والإحسان،

وقوة عاملة فى حراسة المجتمع وحمايته من عوادى العداوة والبغضاء ! .

فإذا كان هذا ما يُنسخ من آداب القرآن وأحكامه . . فماذا يبقى من آدابه وأحكامه ؟ بل ولم يُبقَ — بعد هذا — على شىء من آدابه وأحكامه ! ؟

إننا لانسيغ القول أبداً بأن شيئاً منسوخاً من هذا القرآن الذى نقرؤه ، ونَتعبّد به ! إذ لاحكمة ـ مع هذا ـ لآيات كريمة نتلوها ونتعبّد بتلاوتها ، ثم لانعمل بها ، ولانأخذها مأخذ الجدّ ، فى تحصيل الخير المشتمل عليه كيانها !

إن النسخ معناه عزل الآيات المنسوخة عن الحياة ، وإحالتها إلى « المعاش » . . وما الاحتفاظ بها فى القرآن إلا كالاحتفاظ بجثث الأموات محنطة فى توابيت !! وذلك مقام تنزّه عنه كلام الله رب العالمين !

ولانستكثر من عرض الآيات التى قيل إنها منسوخة ـ وهى كما يقول القائلون بالنسخ ـ كثيرة ، تبلغ نحو ثلث القرآن عند بعضهم .. وسنلتقى أثناء نظرنا فى كتاب الله مع بعض تلك الآيات ، التى قيل إنها منسوخة ، وسنكشف إن شاء الله عن وجه الحق فيها ! والله المستعان ، ومنه السداد والتوفيق .



الجزء الثاني

الآية : (١٤٢)

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١٤٢)

* * *

كان تحوّل النبى والمسلمين بقبلتهم فى الصلاة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، حَدَثاً اتخذه اليهود ذريعةً للتشويش على المسلمين ، وإدخال البلبلة والاضطراب على معتقدهم ، فكانوا يرصدون كل حدث يقع فى محيط المسلمين ، ليقعوا منه على سلاح مسموم، يُعملونه فى المعركة التى يخضونها ضد الإسلام والمسلمين .

وحين أمر الله نبيه أن يتحول بالمسلمين إلى المسجد الحرام فى الصلاة وجدها اليهود فرصة سانحة للعمل ، فأذاعوا أن محمداً إنما فعل ذلك على حساب عقيدته ، للخلاف الذى بينه وبينهم ، وأن بيت المقدس هو قِبلة الأنبياء جميعاً ، فكيف استباح محمد لنفسه أن يخرج على شريعة الأنبياء وهو الذى يدعو إلى الإيمان بهم جميعاً ؟ فإذا كان دينه من عند الله ، فهذا الذى فعله هو إبطال لهذا الدين ، ومعاندة صريحة بالخروج على أحكامه ، وأما إذا كان مايدعو إليه من دين هو من عمله ، فإن له أن يغيّر فيه ويبدّل كيف يشاء ، لكن على ألا يتحكك بالأديان السماوية ، وألا يعقد صلة بينه وبين الأنبياء . !

بمثل هذه التخرصات كان يَلْقَى اليهود المسلمين ، على ألسنة المنافقين ومن فى قلوبهم مرض ، وقد أثاروا بهذه المقولات بلبلة واضطرابا ، حتى لقد وقع عند بعض المسلمين أن صلاتهم التى اتجهوا بها إلى بيت المقدس لم تكن قائمة على وجهها الصحيح ، ولهذا أمرهم الله بالتحول إلى البيت الحرام !

هذا ، وفى قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس » إخبار بما سيكون من هؤلاء السفهاء من سفاهة ، قبل أن يقع منهم هذا السّفه عن تلك الواقعة ، وفى هذا مايكشف عن لؤم القوم وخبث طويتهم ، وأنهم — بحكم ماهم عليه من خبث ولؤم — لن يتركوا هذا الحدث من غير أن يثيروا الغبار حوله ، وأن يشعلوها فتنة عمياء ، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً !

وفى قوله تعالى : « قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ردٌّ مفحم على تلك السفاهة المضللة ، فإذا كانت العبادة لله وحده ، وإذا كانت وجوه العابدين إنما قبلتها لله وحده ، فإن أى متجه يتجه إليه المؤمن هو وجه قاصد إلى الله : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ » . .

« قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . . .

وقد وجّه الله المسلمين وجهتهم الأولى ، وهو الذى وجههم وجهتهم الثانية ، وهم فى وجهتيهم على صراط مستقيم ، إذ كانوا ملتزمين أمر الله ، آخذين بهديه ، عابدين له وحده !

آية : (١٤٣)

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » (١٤٣)

التفسير :

قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً » عطف على قوله سبحانه :

« والله يهدى من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم » أى قد هديناكم إلى صراط مستقيم « وكذلك جعلناكم أمّةً وسَطا » أى أمة قائمة على صراط مستقيم ، هو الوسط بين التقصير والغلوّ . وهذا هو أعدل المناهج وأقومها ، حيث أن التقصير يقعد بصاحبه عن اللحاق بالركب ، كما أن الغلوّ يقطع صاحبه عن مواصلة الرحلة ، بعد أن يكلّ حَدّه، ويفتر عزمه .

وقوله تعالى : « لتكونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عَليكم شهيداً » تعليل شارح للأمة الوسط ومكانها المحمود بين الأمم ، فأهل هذه الأمة ، هم بموقفهم الوسط ، شهادة قائمة على الناس جميعاً ، إذ كان سيرهم على خط الحياة سيراً يحتمله جهد الأقوياء والضعفاء جميعاً . . . إنه سير يحفز همّة الضعيف ويشحذ عزمه ، على حين أنه يمسك زمام الشارد ، ويردّ أنفاسه المبهورة .

وقوله تعالى : « ويكونَ الرَّسُول عليكم شهيداً » هو الميزان الذى يضبط الأمة الوسط ، ويحكم قيامها على هذا الطريق السّوىّ ، حيث كان الرسول الكريم هو المثل الأمثل لأمته ، فهو فى الأمة الوسط شهادة قائمة عليها ، يأخذ بقوله وعمله خطَّ الوسط فيها ، فيمسك بالضعاف أن ينزلوا عن المستوى الجامع للأمة الوسط ، ويهتف بالمغالين ألّا يتفلتوا من خط هذه الأمة وينقطعوا عنه .

والوسط من كل شىء هو مركز الاعتدال منه ، ونقطة التوازن فيه .

وطبيعى أن فوق الوسط منزلة أعلى منه ، وأنه ليس غاية الكمال ، ومع هذا ، فإنه — فى مجموعه — خير مما فوقه ، لأنه أثبت وأدوم ، ولأنه أقرب إلى متناول الناس ، إن لم يكن الناس جميعاً ، فالأغلب الأعم منهم .

إن الاعتدال فى أى شىء وفى كل شىء ، هو مما يحتمله الناس ويقدرون

على الوفاء به ، ويصبرون على ما يكرهون منه ، أما مافوق الوسط فهو أمر لاتحتمله أكثر النفوس ، ولا تصبر عليه .. وقد يرتفع الإنسان إلى أكثر مما يحتمل ، فيختل توازنه ويسقط . . ولا تكون السلامة والعافية إلا حيث الاعتدال ، الذى يجد الإنسان فى مجاله القدرة على التحرك إلى فوق ، وإلى تحت ، وهو فى تلك الحركة ـ بحكم الوسط ـ لا يخرج عن المقام الكريم اللائق به ، حيث يظل ـ بالوضع الذى هو فيه ـ مشرفاً على الأرض ، مستشرفا للسماء !

وقد يقول بعض القائلين : إن الوسط لاطعم له ، ولا ذاتية لوجوده . . إنه أشبه بالخط الوهمى بين شيئين .. إنه ليس شيئاً ، ولا ضد شىء .

إن القسمة فى الأمور ، هى الشىء ومايقابله . . الخير والشر . . الأبيض والأسود .. الحلو والمر . . الجميل والقبيح . . اليمين والشمال . .

أما الوسط الذى يفصل بين هذه المتقابلات فليس إلا خطا وهميا . .

ونقول : إننا لاننكر أن الوسط ليس هو الكمال كله ، وأن فوق الوسط منازل كثيرة للفضل ، وأنه غير محجور على الناس أن يرتفعوا إليها ، وأن يتنافسوا فيها .. بل إن ذلك مندوب محمود . .

ولكن هذا شىء ، والتشريع العام شىء آخر .

التشريع إلزام لاانفكاك منه . . التشريع عقد بين صاحب الشريعة وأتباع هذه الشريعة . . فهم مطالبون بالوفاء بما شرع لهم ، وهم ملومون مأخذون بالعقاب إذا قصروا . . وليس الأمر كذلك فيما كان عن تطوع واختيار . . إذ للإنسان أن يُمضيه أو يُعفى نفسه منه . . ولا لوم عليه !

والتشريع حين يكون عاماً . . لأمة ،أو للإنسانية كلها — تقتضى الحكمة

فيه أن يكون قائما على معيار يسع الناس جميعاً .. الأقوياء والضعفاء .. فى جميع الأزمان والأوطان .

لذلك اقتضت رحمة الخالق بعباده ، فى دعوتهم إلى الإسلام ، الذى أريد له أن يكون دين الإنسانية ، ويختتم رسالات السماء — اقتضت هذه الرحمة الراحمة أن تكون شريعة هذا الدين مقـــدرة على قدرِ مايحتمل الضعفاء لا الأقوياء ، وأن يكون ماف الأقوياء من قدرة على احتمال مافوق هذا التشريع هو فضل من فضل الله عليهم ، يزدادون به كمالاً فوق الكمال الذى بلغوه بأداء ما كُلفوا .. فإنه ماعلى المحسنين من سبيل .

وقوله تعالى: «وماجَعَلْنا القِبلة التى كنتَ عليها إلا لِنعْلَمَ من يتّبعُ الرّسول مِمّن ينقَلبُ عَلَى عقبيْه » بيان للحكمة التى أرادها الله من وراء هذا الامتحان الذى امتحن المسلمين به ، حين وجههم إلى بيت المقدس ، ثم عَدَل وجههم عنه إلى البيت الحرام . ففى هذا الامتحان يُختبر إيمان المؤمنين ، وتظهر حقيقة ماعندهم من طاعة وامتثال لله ولرسوله ، من غير أن تدور فى رءوسهم أسئلة التوقف ، فيقول قائلهم : ما هذا ؟ ولم ؟ وكيف ؟ إذ أن من شأن المؤمن أن يتلقى أمر الرسول بالقبول والتسليم، امتثالاً لقوله تعالى : « وَمَا آتاكُمُ الرّسُولُ فخذوه وَمَا نَهاكم عَنْه فانتهوا » : (٧ : الحشر)

وفى قوله تعالى : « وإن كانتْ لـكبيرةً إلّا عَلَى الّذينَ هَدَى الله » إشارة إلى أن هذه المحنة التى امتحن بها المؤمنون كبيرة، لايجوزها بقلب سليم ، ونفسٍ مطمئنة إلاّ الذين هداهم الله وثبت أقدامهم على طريق الحق واليقين : « والله يَهدى من يشاء إلى صراطٍ مستقيم » : (٢١٣ : البقرة) .

وقوله تعالى : « وما كانَ اللهُ ليُضيعَ إيمانَـكم » تطمين لقلوب المؤمنين الذين وقع فى نفوسهم شىء من صَلاتهم التى كانوا يصلّونها إلى بيت المقدس ،

فهى صلاة كاملة، مقبولة عند الله . . ذلك أن المسلمين كانوا يصلون إلى بيت المقدس، فلما هاجر النبىّ وتحولت القبلة إلى البيت الحرام اهتزت مشاعرهم، وساورهم القلق فى شأن تلك الصلاة التى صلّوها إلى بيت المقدس، فكان أن تداركهم الله برحمته، وأنزل عليهم قوله: «وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم».

آية : (١٤٤)

« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ » (١٤٤)

التفسير : يخبر الله سبحانه فى هذه الآية عن الحال التى كان يعانيها النبىّ الكريم، حين هاجر إلى المدينة وقلبه معلّق بمكة والبيت الحرام، ووجهه يتردد فى السماء بين مطالع المسجدين : المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وهما على سمت واحد، فقطع الله عليه طريق التردد، وأمسك وجهه على القبلة التى تهفو إليها نفسه : « فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره » .

ويلاحظ أن هنا تقديماً وتأخيراً فى عرض الأحداث، إذ جاء ذكر الآثار التى ترتبت على هذه الواقعة، قبل وقوعها، فكشفت الآيات عن موقف اليهود من تحول القبلة إلى المسجد الحرام أولاً، ثم عرضت الأمر بهذا التحول بعد ذلك، وفى هذا ما يشعر بأن هذا التحول فى ذاته ما كان ليكون موضع تساؤل وجدل، فهو أمر من أمر الله، ووجه من الوجوه إليه : « ولله المشرق

والمغرب » . . ولكن النفوس المريضة لا تجد طعما لحلو ، ولا مساغاً لطيب ، وهذا هو الذى ينظر فيه ، ويُهتم له ، خاصة إذا كان المراء فيه عن علم : « وإنّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنّه الحقّ من ربّهم » .

آية : (١٤٥)

« وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ » (١٤٥)

التفسير : المراد بالقبلة هنا الدين والملّة ، وموقف أهل الكتاب من النبيّ وما جاء به موقف عنادىّ ، فهم منه على خلافٍ ، لا يردّم عنه أى برهان ، ولا تنفعهم معه أية حجة ، ولو جاءهم النبيّ بكل آية قاهرة ما آمنوا له ، ولا اجتمعوا إليه . . وإذن فهم أبداً على ما هم عليه من هذا الخلاف . . هم مع باطلهم فى جانب ، والنبي مع الحق الذى معه فى جانب ، ثم هم فيما بينهم مختلفون ، لا يلتقى بعضهم ببعض ، ولا يستقيم بعضهم على طريق بعض ! .

وفى قوله تعالى : « ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذن لمن الظالمين » استبعاد من أن يميل النبيّ إلى جانبهم ، لأنهم إنما يتبعون أهواء ، ويميلون مع مفتريات !

الآيتان : (١٤٦ ـ ١٤٧)

« الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا

مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧)

التفسير : هؤلاء الذين يجادلون النبيّ ويكذّبون به وبرسالته ، من أهل الكتاب ـ وخاصة علماؤهم ـ يعرفون صدق هذا النبيّ ، إذ يجدون صفته فى التوراة والإنجيل ، بحيث لا يلتبس عليهم من أمره شيء ، ولكنهم ينكرون هذا الحق الذى يعلمونه علم اليقين ، حسداً وبغياً ، وذلك ضلال ما بعده من ضلال ، والله سبحانه وتعالى يقول : « أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللّٰهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللّٰهِ » (٢٣ : الجاثية)

وقوله تعالى : « الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » تطمين للنبيّ الكريم ، وتثبيت له على ما عنده من آيات الله ، فهى الحق من عند الله ، فلا جدال فيها ولا امتراء ، كما يجادل ويمارى الذين بأيديهم مثل هذا الحق من أهل الكتاب .

آية : (١٤٨)

« وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ جَمِيعاً إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١٤٨)

التفسير : أى دَعْ مِراء هؤلاء القوم ، فلهم وجهتهم ، ولك وجهتك ، واستبق الخيرات أنت ومن معك من المؤمنين ، فذلك هو الذى ينفع يوم الجزاء ، يوم يقوم الناس لربّ العالمين .

آية : (١٤٩)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (١٤٩)

التفسير : لا مراء مع أهل الكتاب ، ولا التفات إلى ما يرجف به المنافقون فى شأن القبلة وتحول المسلمين إلى البيت الحرام ، وإذن فالمسجد الحرام هو قبلتك أيها النبىّ ، تتجه إليه أينما كنت ، فى الحضر أو فى السفر ، فذلك الأمر هو الحق المنزل إليك من ربّك ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

آية : (١٥٠)

« وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)

التفسير : أعيد الأمر مرة ثانية بأن يوجّه النبىّ وجهه شطر المسجد الحرام ، ولكن فى هذه المرة دخل المسلمون معه فى هذا الأمر ، وإن كان دخول المسلمين مع النبى لازما فى الأمر الأول ، وذلك ليتقرر فى نفوس المسلمين أنه أمر لازم لا رجوع فيه ، ولا تحول بعده .

وفى قوله تعالى : « لئلا يكون للناس عليكم حجة » ما يقطع بأنه لا تحول عن البيت الحرام بحال أبداً ، فذلك مما يعطى اليهود حجة على المسلمين إذا هم رجعوا

فتحولوا بقبلتهم إلى بيت المقدس، استجابة لما يوسوس لهم به اليهود، إذ أن الحق طريق واحد، والتردد فيه يعمى السبل إليه .

وقد عبّر القرآن عن اليهود هنا بكلمة « الناس » ليدخل معهم غيرهم، ممن تأثر بوسوستهم واستمع لضلالاتهم .

الآيتان : (١٥١ — ١٥٢)

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١) فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » (١٥٢)

التفسير : من تمام النعمة على المسلمين، أن الله سبحانه أرسل فيهم رسولاً من أنفسهم، يتلو عليهم آيات الله، ويطهرهم بالإيمان من أرجاس الوثنية والشرك، ويعلمهم ما فى كتاب الله من شرائع وآداب، وما فى سنة الرسول من أدب وحكمة، ويفتح لهم بذلك آفاق العلم والمعرفة . . وحُقّ على المسلمين من أجل هذا أن يذكروا فضل الله عليهم، وأن يحمدوه ويمجدوه، ليزيدهم الله من فضله : « فاذكرونى أذكركم » أى اذكرونى بالحمد والشكران، أذكركم بالمزيد من الفضل والإحسان .

الآيتان : (١٥٣ — ١٥٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (١٥٣) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ » (١٥٤)

التفسير : الطاعات والاستقامة عليها ، لما أعباؤها التى تحتاج إلى قوة احتمال ومجاهدة ، ولكى يقوى الإنسان على حمل هذه الأعباء ، كان لا بد له من زاد يعينه ، ويمسك عليه عزمه ومَضاءه . .

والصبر والصلاة هما خير ما يتزود الإنسان به ، لكى يجد من نفسه القدرة على الوفاء ببعض حق الله عليه .

والصبر قوة معنوية لا يحصل عليها الإنسان إلا بعد رياضة ومعاناة ، وتلك الرياضة وهذه المعاناة يحتاجان إلى الصبر ، والصبر يحتاج إليهما . .

وإذن فالدعوة إلى الصبر دعوة إلى التمرس بالطاعات أولاً ، والتعود على أداء الواجبات ، فذلك هو الذى يخلق فى الإنسان خلق الصبر . . وفى هذا يقول الله سبحانه للنبى الكريم : « وأْمُرْ أهلك بالصّلاة واصطبر عليها » . . فأداء الصلاة والمداومة عليها يحتاج إلى الصبر والمصابرة ، وبذلك توضع الخمائر الأولى للصبر فى كيان الإنسان ، ومع الزمن ينمو الصبر ، ويصبح قوة عاملة فى الإنسان .

هذا ويذهب بعض المفسّرين إلى أن معنى الصّبر فى قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة » هو « الصوم » إذ كان الصوم فى صميمه تجربة حية مباشرة لغرس بذرة الصبر وإرواء نبتته ، ولهذا سمّى رمضان شهر الصبر .

ونحن نأخذ بهذا المعنى للصبر ، ونرى فى التعبير القرآنى عن الصوم بالصبر إعجازاً من إعجاز القرآن ، حيث كان الصبر والصوم متلازمين ، لا وجود لأحدهما بغير الآخر ، فلا صوم إلا مع الصبر ، ولاصبر إلا ومعه صوم وحرمان . . صوم عن مكروه ، وحرمان من محبوب ! .

ولأن الصوم لا يكون إلا ومن ورائه الصبر ، كان التعبير عنه بالصبر أولى من التعبير عن الصبر بالصوم ، إذ قد يكون الصبر ولاصوم ، ولكن لا يكون

الصوم بغير الصبر !.

والجهاد فى سبيل الله ، والانتظام فى صفوف المجاهدين ، والإقدام على ملاقاة الأعداء ، والتعرض لمواجهة الموت ـ ذلك كله يحتاج إلى رصيد عظيم من الصبر والإيمان .. ولهذا جاءت دعوة الله إلى الجهاد فى سبيل الله، بعد دعوته إلى الاستعانة بالصبر والصلاة ، على المحن والشدائد .

والجهاد فى سبيل الله، محفوف دائماً بالبذل والتضحية .. ببذل المال ، وتضحية النفس ، والأهل والولد .

والابتلاء بفقد الأحباب ـ ولو كان فى سبيل الله ـ شاق على النفس ، أليم وقعه على الأحياء ، ولهذا لم يكن الفىء إلى الصبر والصلاة ـ مهما كان شأنهما ـ بالذى يقهر نوازع الحزن ، ويذهب بلواعج الأسى فى هذا المقام .. ولهذا جاءت تلك المواساة الكريمة الرحيمة من رب العالمين ، لتمسح بيد الرحمة على ما بقلوب المبتلَيْن بفقد أحبابهم ، والمصابين باستشهاد أهليهم ، من آلام وأحزان ، . فهؤلاء الشهداء ـ كما يخبر رب العالمين ـ ليسوا بالأموات، وإنما هم أحياء . فى أطيب منزل ، وعند أرحب جناب : « عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » (١٧٩ ـ ١٧٠: آل عمران)

إن لهؤلاء الشهداء شأناً آخر عند الله غير شأن غيرهم ممن ينقلون من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة .. فهم أحياء عند ربهم وإن كنا لا نشعر بحياتهم ، هم فى عالم ونحن فى عالم ، وبين العالمين حجاز .. وحسب المؤمن أن يتلقى هذا الخبر عن الله تعالى فيعلم ، عن يقين أن الشهداء أحياء ، يلبسون صورة للحياة أكرم وأبقى من الحياة التى كانوا عليها .. وهم فى نعيم لا يقاس به أى نعيم ينعم به المنعمون فى هذه الدنيا .

الآيات : (١٥٥ — ١٥٦ — ١٥٧)

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » (١٥٧)

التفسير : الناس جميعاً مبتلَوْن فى هذه الحياة ـ سواء أكانوا أفراداً أو جماعات أو أمماً ـ بشىء من الخوف والجوع ـ يختلف قلة وكثرة ـ وبنقص فى الأموال والأنفس والثمرات . . فليس أحد فى هذه الدنيا بمأمنٍ أبداً من أن تنزل به هذه النوازل ، متفرقة أو مجتمعة . .

والجزع فى هذه المواطن هو الذى يثقّل المصيبة ، ويولّد منها مصائب ، فيُضاعَف معها البلاء ، ويعظم الألم ، ويطبق اليأس ، ويغلق كل باب للأمل والرجاء ! .

أما الذى يلقى أحداث الحياة ومصائبها بالصبر ، ويواجهها بالتسليم والرضا ، عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء الله وقدره ـ فإن ذلك يهوّن عليه من وقع المصائب وإن عظمت ، ويُمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال ، ويفتح له باباً واسعاً من الأمـــل والرجاء فيما هو خير عند الله وأبقى : « وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » فحين يذكر المؤمن أنه ـ ذاتاً ومالاً وأهلاً وولداً ـ ملك لله ، لا يملك مثقال ذرة مما فى ملك الله ، وأن مصائر الأمور كلها إلى الله ، ومردّها جميعاً إليه ـ حين يذكر المؤمن هذا لا يأسَى على فائت ، ولا يحزن على مفقود ،

وتلك هى أولى بشريات المؤمنين فى هذه الدنيا ، لا ينزل الحزن ساحتهم ، ولا يرهق الهمّ والكرب قلوبهم : « أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ » .

آية : (١٥٨)

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » (١٨٥)

التفسير : الصفا والمروة جبلان صغيران قرب مكة ، وهما منسكان من مناسك الحج ، والسعى فيهما واجب فى الحج والعمرة عند بعض المذاهب ، ونافلة عند البعض الآخر .

وفى قوله تعالى : « فَلَا جُنَاحَ عليه أن يَطّوّفَ بهما » ما يشعر بأن الأصل فى الطواف بهما هو الحظر ، وأن رفع الحظر والجناح وارد استثناء على هذا الحظر ، وهذا يعنى أن هذا الطواف تركه أبرّ من فعله . .

ولكن كيف يكونان ـ الصفا والمروة ـ من شعائر الله ، ثم يكون الطواف بهما أو السعى بينهما داخلاً فى باب الحرج ؟ .

هذا ما دعا أكثر المفسرين إلى البحث عن وجه يوفّقون به بين هذين الأمرين ! وقد كثرت فى هذا المقولات واختلفت المرويات ، كما هو الشأن دائماً فى مثل هذا الموقف ! .

ومما قيل هنا : إنه كان هناك صنمان فى الجاهلية ، أحدهما اسمه أساف ، على الصّفا ، والآخر اسمه نائلة ، على المروة ، وأن العرب فى الجاهلية كانوا يترددون

عليهما ، ويطوفون بهما ، فلما جاء الإسلام ، ودخل النبىّ - صلى الله عليه وسلم - مكة معتمراً وأراد أن يسعى بين الصفا والمروة ، وقع فى بعض نفوس المسلمين شىء من الكراهية ، فنزل قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله ، فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما » أى حيث أن الصفا والمروة من شعائر الله ومناسك عبادته ، ولأن السعى بينهما منسك من مناسك الحج ، يجب أو أن يندب أداؤه عند الحج أو العمرة ، فليسعَ الحاجّ أو المعتمر بينهما ، ولا عليه من بأس أو جناح من وجود هذين الوثنين !

فرفع الحرج هو عن السعى مع وجود الصنمين ، لا عن ذات السعى .

ولكن هذا التعليل إن ساغ فى تلك الحال العارضة يوم نزول الآية - كما يقال - فإنه بعد ذلك يجعل الآية معلقة بوقت نزولها ، منقطعة عن الحياة بعد هذا الوقت ، فإن نظر إليها ناظر اليوم على أنها حكمٌ من أحكام الحج ، وجد فيها هذا الحرج قائماً ، يجده فى قلبه من يطُوف أو يسعى بين الصفا والمروة ! ! .

إن كلمات الله فوق هذا النظر المتهافت الكليل ، وإن آيات الله لا يقطعها الحادث العارض لنزولها ، عن أن تظل عاملة فى الحياة ، ومصدر هدًى ونور للناس إلى يوم الدين .

وبنظرة أكثر عمقاً وأبعد مدًى ، نرى فى تلك الآية - بما أرانا الله - مايطمئن إليه القلب ، وتستريح له النفس ، وينشرح به الصدر . . والحمد لله رب العالمين .

ففى قوله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله » حكم قاطع بأن هذين المكانين من أماكن الله ، التى اختصها بأن يتعبّد له فيها العابدون ، ويتقرب إليه عندها المتقربون !

وقد جعل الله السعى بينهما منسكا من مناسك الحج ، وفعلا من الأفعال التى تتم بها هذه الفريضة ! وليس يعقل بحالٍ أن يُلِمّ بمن يؤدى هذا المنسك — حاجًّا أو معتمراً — غير نفحات الرحمة والرضوان . .

وإذن فينبغى أن يكون معنى قوله تعالى : « فمن حجّ البيت أو اعتَمر فلاجناح عليه أن يطوّف بهما » كاشفاً عن هذه الحقيقة ، وعن نفحات الرضا والرحمة التى تحفّ بمن يطّوّف بهما !

وننظر فنرى أن كلمة « يطّوّف » بالتشديد غير كلمة « يَطُوف » بالتخفيف، ومعنى هذا أنها تعنى كثرة الطواف ، لامجرد الطواف !

ومن جهة أخرى ، فإن الطواف معناه الدوران ، ومنه الطواف حول الكعبة ، ومنه الطائفة وهى الجماعة المتحلّقة ، وعلى هذا يكون المراد بالتطوف بالصفا والمروة : الدوران حولهما لا السعى بينهما.. والطواف بهما أمكن وأشق من السعى .

وعلى هذا يكون معنى التطوف : إما الإكثار من السعى بين الصفا والمروة ، أو التطوف حولهما مع السعى بينهما .

وعلى هذا أيضاً ، يكون رفع الحرج والجناح لاعن السعى ، بل عن الاستزادة من السعى، أو الجمع بين الطواف والسعى، حيث يُظن أن أداء الشعيرة موقوف به عند السعى بعدد من المرات ، لايتجاوزه الحاج أو المعتمر ، أو أن الجمع بين الطواف والسعى غير مستحب ، فكان رفع الحرج بإطلاق قيد العدد فى السعى ، إلى ما يمكن أن يحتمله الجهد والطاقة ، أو بالجمع بين السعى والطواف — كان الرفع للحرج إغراء بالإكثار من السعى ، أو بالسعى الذى يجعل الطواف بالصفا والمروة جزءاً منه . . فذلك زيادة فى العمل فى باب الخير ،

يزداد به الثواب ، ويتضاعف به الجزاء ، ولهذا جاء قوله تعالى : « ومن تطوّع خيراً فإن الله شاكر عليم » عقب قوله سبحانه : « فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما » بيانا لهذه الاستزادة من التطوف التى هى زيادة فى خير ، ومضاعفة لأجر ، فمن استزاد خيراً فهو خير له .

والفاصلة التى تختم بها الآية : « إن الله شاكر عليم » إقرار لهذا التطوع بالخير ، الذى يجىء عن تبرع بما هو فوق المطلوب ، وتقبّل له بالحمد والرضا من رب العالمين : « إن الله شاكر عليم » .

ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى فى صوم رمضان : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

فالذين يجدون جُهداً أو مَشَقَّةً فى صوم رمضان ، مباح لهم أن يفطروا وأن يطعموا مسكيناً عن كل يوم ، وإطعام المسكين هو القدر المطلوب الذى يُجزى كفدية عن إفطار يوم ، لمن يفطرون رمضان حين يجدون مشقة فى صومه : « فمن تطوّع خيراً فهو خيرٌ له » أى من زاد عن المطلوب ، فأطعم مسكينين أو ثلاثة ، أو عشرة ، أو مائة ، أو أكثر ، فذلك زيادة فى عمل الخير ، وعلى قدر هذه الزيادة يزاد فى الثواب .

ومثل آية الطواف بالصفا والمروة ما جاء فى قوله تعالى فيما هو من أعمال الحج : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » .

فبالإفاضة من عرفات تتم أعمال الحج ، ولكن الحاج لا يزال فى تلك المواطن

المقدسة ، ونفسه معلقة بها ، وأشواقه نازعة إليها . وعزيز عليه أن تنقطع الصلة بينه وبينها .. إلا أنه من جهة أخرى يرى أنه أدّى الفريضة وقضى مناسكها ، وربما لو أتى عملاً آخر ولو كان بِرًا لم يقع عند الله موقع القبول ، لأنه جاء على غير شرع الله ، فكان قوله تعالى : « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم » إذناً بالدخول فى باب جديد من أبواب الخير ، فيه طلب المزيد من فضل الله : « فإذا أفضتُم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المشعرِ الحرام » .

الآيتان : (١٥٩ – ١٦٠)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)

التفسير : مناسبة هذه الآية للآية التى قبلها – على مايبدو فى ظاهر الأمر من بُعد الصلة بينهما – هو أن الله سبحانه وتعالى يرسل رسله بالبينات والهدى ليكشفوا للناس طريقهم إلى الله ، ومايتقربون به إليه ، من عبادات ومعاملات ، وقد بينت الآية السابقة منسكا من مناسك الحج ، وفتحت للناس بابا من أبواب التقرب والزُّلفى إلى الله .

وآيات الله هذه هى ميراث المؤمنين عن أنبيائه ، والعلماء هم الأمناء على هذا الميراث الكريم . . وقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يبينوه للناس ولا يكتموا شيئاً منه . . كما قال تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه » .

وإذا كان أهل الكتاب ـ وخاصة علماءهم ـ قد نقضوا هذا الميثاق ، فكتموا ما أنزل الله عليهم . وشوهوا معالم الحق فيه ، فكان من المناسب أن يُذكّروا فى تلك الحال بما هم متلبسون به ، وأن يُحذَّروا ، حتى ينتزعوا أنفسهم مما هم فيه ، من خلال ، إن كان لهم إلى أنفسهم عودة وإلى استنقاذها رغبة!

والضمير فى قوله تعالى « من بعد مابيّناه » يعود إلى الإسم الموصول فى قوله تعالى « ما أنزلنا » أى من بعد ما بيّنا هذ المُنزل ، وجعلناه فى كتاب ، وهو التوراة والإنجيل .

وقوله تعالى : « أولئك يلعنهم الله » وعيد شديد لهؤلاء الذين يكتمون ما يعرفون من الحق ، الذى بيَّنه الله لهم فى كتبه ، واللعنة معناها المقت والطرد من رحمة الله .

وأما قوله سبحانه : « ويلعنهم اللاّعنون » فهو تشنيع عليهم ، وتغليظ لجرمهم ، وفضح لهم بعرضهم فى وجه كل مسبّة يتسَابّ بها الناس ، ورميهم بكل سوء يُرمى به الناس فى دنيا الناس . . هكذا بكل لسان ، وفى كل مكان وزمان ! !

وقوله تعالى : « إلاّ الذينَ تابوا وَأصْلَحُوا وبيّنوا » هو يَدٌ رحيمة منعمة ، يمدها الله سبحانه لهؤلاء الذين غرقَتْ سفينتهم ، وتدافعت بهم أمواج الضلال والفتنة ، لتُلقى بهم إلى حيث البلاء المبين ، والعذاب الأليم ، وتلك فرصتهم إن اهتبلوها ومدوا أيديهم إلى الله ، وأخلصوا له القول والعمل ، كان فى ذلك خلاصهم ونجاتهم ، ففى رحمة الله متسع لهم ، فعلى هؤلاء الذين مكروا بكتاب الله أن يتوبُوا ، وأن يعدلوا عن طريقهم المعوج الذين ركبوه ، وأن يصلحوا ما أفسدوا وما أدخلوا على كتاب الله من تحريف وتبديل ، وأن يبينوا ما فى كتاب الله من حق ، فى شأن النبى ورسالته . . هنالك يستقيم طريقهم ، وتقبل توبتهم : « فأولئك أتُوبُ عَليهمْ وأنا التوابُ الرحيم » .

وانظر فى قوله تعالى : « وأنا التواب الرحيم » كم تجـد فى قول الحق جل وعلا : « أنا » من معطيات الأمل والرجاء لمن يلفتهم الله إليه ، ويتجلى عليهم بذاته ؟ وكم تجد فى « واو » العطف فى قوله سبحانه : «وأنا » من قوى الجذب إلى الله لهؤلاء الضالين الظالمين ؟

« فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ » فهم الراجعون إلىّ ، الطامعون فى رحمتى « وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » . الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويرحمهم .

الآيتان : (١٦١ ـ ١٦٢)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَهُمْ يُنْظَرُونَ » (١٦٢)

التفسير : أما الذين أصروا على الـكفر وماتوا عليه ، دون أن يتطهروا منه بالتوبة والإيمان ، فقد ضلّ سعيهم ، وساء مصيرهم ، ووقع عليهم من ربهم رجس وغضب ، ومن الوجود كلّه — أرضه وسمائه — المقت واللعنة . .

والضمير فى قوله تعالى : « خالدين فيها » يعود إلى اللعنة فى قوله تعالى : «أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » أى هم واقعون تحت هذه اللعنة ، خالدين فيها أبدا ، لايخفف عنهم عذابهـا ، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة أبدا .

الآيتـان : (١٦٣ ـ ١٦٤)

« وَإِلَهُـكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي

خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » (١٦٤)

التفسير: هذه دعوة إلى كل مخلوق: أن يشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين، لاشريك له، رحمن السموات والأرض ورحيمهما.

وبين يدى هذه الدعوة، معارض مختلفة الصور والألوان لما أبدعت يد الخالق، وما أودعت قدرته وحكمته فى هذا الوجود من آيات وشواهد، تحدّث بجلال الله وعظمته ووحدانيته.

وفى كلّ شىء له آية تدلّ على أنه الواحد

فنظرة مستبصرة فى هذا الوجود تفتح للناظر أكثر من طريق إلى الله، إن هو احترم عقله، واستفتى قلبه!

آية: (١٦٥)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ » (١٦٥)

التفسير: وإنه لضلال مابعده من ضلال، وسفه ليس وراءه من سفه؛ أن تكون دلائل القدرة، وشواهد الوحدانية مبثوثة فى كل أفق، ناجمة فى كل مكان، ثم يكون مع ذلك فى الناس من لايعرف طريقه المستقيم إلى الله

فتتفرق به السبل إليه ، فيرى الله بعين مريضة ، وبقلب سقيم ، وإذا الله عنده ربّ مع أرباب ، وإله بين آلهة ، فولاؤه لله قسمة بينه وبين ما أشرك معه من آلهة وأرباب ، وحبه لله مُوزع مشاع بينه وبين الشركاء الذين جعلهم معه ، وليس كذلك حبّ الذين آمنوا وأخلصوا إيمانهم لله ، فهو الحبّ كل الحبّ لله وحده ، لا شريك له فيه .

وقوله تعالى : « وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب » وعيد مزلزل لكيان أولئك الذين أشركوا بالله وجعلوا له أنداداً ، وانتقال خاطف بهم إلى يوم القيامة وأهوالها ، والنار الجاحمة المعدة لهم ، وعندئذ يرون أن الملك لله وحده ، وأن القوة كلها بيده ، لا يملك أحد منها مع الله شيئاً ، يدفع عنهم هذا العذاب المحيط بهم .

الآيتان : (١٦٦ - ١٦٧)

« إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » (١٦٧)

التفسير : هنالك فى هذا الموقف المتأزم الخانق ، وبين يدى هذا الجحيم الآخذ بالنواصى والأقدام ، يكثر التلفت إلى الوراء ، وترتفع صيحات الحسرة والندم من الآثمين الضالين !

وفى مشهد من تلك المشاهد تقع الملاحاة بين الأتباع والمتبوعين ، ويتبرأ

المتبوعون من الأتباع ، وتتقطع بينهم أسباب التقارب والتواصل ، ويترامون بالعداوة والبغضاء !

والأتباع والمتبوعون هنا هم جميعاً من أهل الضلال .. أما الأتباع فهم العامة ، وأما المتبوعون فهم العلماء وأصحاب القيادة الدينية فيهم ، إذ هم الذين زينوا للعامة هذا الضلال ، وهم الذين حرّفوا لهم الكلم عن مواضعه ، فأهلكوهم وهلكوا معهم جميعاً .

فالمشهد هنا بين الأتباع والمتبوعين قائم على شفير جهنم التى يساق إليها الأتباع والمتبوعون معاً .

ولما كان هؤلاء المتبوعون هم الذين زينوا لأتباعهم هذا الضلال الذى أوردهم موارد الهلاك ، فقد وقع فى أنفسهم حين رأوا العذاب الذى ينتظرهم ، أن أتباعهم سوف يتعلقون بهم ، ويسوقونهم للقصاص منهم ، بتهمة التحريض والغواية لهم ، إذّاك بادر هؤلاء المتبوعون وتبرءوا من أتباعهم ، ونفضوا أيديهم من كل صلة بهم !

وحين يجد الأتباع أنهم وقادتهم حصب جهنم ، كما يقول الله تعالى : « فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون » : (٣٣ : الصافات) يتضاعف حزنهم وتشتد حسرتهم ، ويقطّع اليأس نياط قلوبهم ، حين لم ينالوا منالا من هؤلاء الذين غرروا بهم ، وأوردوهم هذا المورد الوبيل !

وإذ ذاك تنطلق ألسنتهم بكلمات تتميز غيظاً ويأساً : « لو أنَّ لنا كَرَّةً ! فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ؟ » فهم إنما يتمنون ـ فى يأس مُغْلَق ـ أن يُردُّوا هم ورؤساؤهم إلى هذه الدنيا ، ليراجعوا حسابهم معهم على ضوء ما تكشّف لهم فى هذا الموقف ، وليصموا آذانهم عن كل دعوة باطلة يدعونهم إليها . .

أما تبرؤهم منهم فى الآخرة فإنه لا يجدى نفعاً .. فقد دُعوا إلى الضلال وأجابوا ،

وهاهم أولاء يجنون ثمرة مازرعوا من شرّ ، وماتمروا من إثم ! « كَذٰلِكَ يُرِيهِم اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » .

الآيتان : (١٦٨ ـ ١٦٩)

« يٰأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » (١٦٩)

التفسير : تكشف هاتان الآيتان عن وجه آخر من وجوه الضلال ، فكما يفسد بعض الناس على الناس تفكيرهم ، ويفتنونهم فى دينهم ، كذلك تفسد نفس الإنسان على الإنسان تفكيره وتفتنه عن دينه ، حين يُسلم المرء زمامه لنفسه فلا يراجعها ، ويتبع هواها حيث يميل به ، والإنسان بما فيه من عقل وإدراك مسئول عن نفسه مسئولية لايدفعها عنه إغواء المغوين ولا إضلال المضلين ، حتى ولو كان وارد هذا الإغواء ، ومهب ذلك الضلال نابعاً منه ، ومن نفسه التى بين جنبيه . وهومايعبر عنه القرآن الكريم بالشيطان .. فسواءاً كان الشيطان هنا أو هناك ، بعيداً أو قريباً ، فإنه لايبدو للإنسان ، ولايجد له وجوداً قائماً فى كيانه ، وإنما هى وسوساته وخطراته ، التى يقذفها فى النفس ، فتتحرك أهواؤها ، وتتناغى بلابل شهواتها ، فإذا لم يتنبه الإنسان لها ، ويأخذ السبيل عليها ، مَلَكَته ، وأسَرَته ، وألقت به ليد الشيطان !

فالشيطان ، هو دعوة الضلال التى تساق إلى النفس ، على لسان إنسان ضال مُضِلّ ، وذلك هو شيطان الإنس ، أو التى تتحرك من داخل كيان الإنسان فيجد مسّها فى صدره ووقعها على نفسه ، من وارد خفى ، لايدرى من

أين جاء ، وذلك هو شيطان الجن : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَٰهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ».

الآيتان (١٧٠ ـ ١٧١)

« وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ » (١٧١)

التفسير : هؤلاء الذين لم يستمعوا لنداء الحق، ولم يستجيبوا لدعوة العقل ، فاتبعوا خطوات الشيطان ، وأسلموا زمامهم ليده ـ هؤلاء قد ألغوا عقولهم ، وباعوها بيع المفلسين .. بلا ثمن ..

فإذا دعاهم داعى الحق : أن آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : « بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا » هكذا يريحون أنفسهم من عناء التفكير والنظر ، وحسبهم أن يَقْفُوا آثار آبائهم ، وأن يرثوا عنهم عقيدتهم ، ويتلقوا منهم دينهم ، كما يرثون ماخلفوا من متاع ، وكما يتلقون ما استقر فيهم من تقاليد وعادات ! !

والمجتمع الذى يحيا هذه الحياة ، مجتمع مصيره إلى الضياع والبوار ، لأنه أشبه بالبِرْكَةِ الراكدة ، التى لايلبث ماؤها طويلا حتى يفسد ويتعفّن !

أما المجتمعات التى يكتب لها النماء والازدهار فهى المجتمعات التى يتجدد شبابها بالعمل المادى والعقلى ، فتفيد من تجارب أسلافها ، وتضيف إلى تلك التجارب جديداً يجلو صدأها ، وينمّى ذاتها ، ويستولد الجديد الكريم منها .

وماذا على هؤلاء الذين يُدعوْن إلى الإيمان بما أنزل الله، لو نظروا بعقولهم فى هذا الذى يُدعَوْن إليه، فإن صحّ فى عقولهم، واستقام مع الحق البعيد عن الهوى، اتبعوه عن علم، ولا عليهم أن يكون موافقا أو مخالفا لما عليه آباؤهم.. فإن كان موافقا له، زاد إيمانهم إيمانا، ويقينهم يقينا، وإن كان مخالفاً وقوْا أنفسهم شرّ الهاوية التى كانوا سيهوون إليها، لو أنهم اقتفوا آثار آبائهم، وسلكوا مسلكهم!

وفى قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً» تصوير كاشف لحال هؤلاء الذى لبسوا الكفر تقليداً ومتابعة وإرثا، فجمدوا على ماهم فيه، وأبوْا أن يتحولوا عنه، ولو زلزلت الأرض بهم.. إنهم ـ وهذا شأنهم ـ لا يستمعون لداعٍ، ولا يستجيبون لمنادٍ، فلا تختلف حالهم كثيراً عن حال الحيوان الأعجم الهائم على وجهه، يُهتف به: أن أقبلْ، أو اتجه يمينا أو يسارا، أو ما أشبه ذلك.. فلا تُترْجَم هذه المعانى فى سمعه إلا على أنها أصوات هائمة، لا معقول لها عنده، فتسقط الكلمات على أذنه كما تسقط الحجارة على الحجر! «صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» فلقد سُدّت عليهم منافذ العلم، وأغلقت دون عقولهم أبواب المعرفة.

وفى قوله تعالى: «ينعق» إشارة إلى أن الكلمات التى يهتف بها الهاتف إلى هذا الحيوان هى بالنسبة إليه نعيق، ولهذا عبرّ عنها بما هى صائرة إليه، لا بما كانت عليه عند منطلقها من فم قائلها!

الآيتان: (١٧٢ ـ ١٧٣)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ

وَلَحْمَ الخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلآَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٧٣)

التفسير : هذا نداء إلى الذين آمنوا ، والتفات إليهم بعد الانصراف عن أولئك الذين أصمّوا آذانهم عن دعوة الحق ، وأغلقوا قلوبهم على ما أشربوا من التعلق بما كان عليه أسلافهم من ضلال .

وطيبات الرزق ، هى الصفو الخالص من كل شائبة ، وقد أبيح للمؤمنين كل طيب ، وحرم عليهم كل خبيث ، حتى لا يدخل على أجسامهم من الطعام إلا الطيب ، كما لم يدخل على عقولهم من الدين إلا الحق .

وما أُهلّ به لغير الله ، هو مالم يذكر اسم الله عليه ، وذُبح قرباناً لمعبود غير الله .

وفى قوله تعالى « غير باغ ولا عاد » ضبط للقدْر الذى يقف عنده المضطر حين يدعوه الاضطرار إلى تناول شىء من هذه المحرّمات ، فلا يفتعل الاضطرار ، ولا يركب الأمور التى يعلم أنها ستدخله مداخل الاضطرار وهو قادر على ركوب غيرها ؛ فإذا دخل منطقة الاضطرار من غير بغى ، فلا ينال من هذه المحرمات إلا القدر الذى يمسك عليه حياته ، ولا يلقى به فى التهلكة .. من غير عدوان ومجاوزة الحدّ ، الذى يحفظ النفس من التلف .

الآيات : (١٧٤ ـ ١٧٥ ـ ١٧٦)

« إِنَّ الذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٤) أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ

اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ (١٧٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » (١٧٦)

التفسير: من الذين يأكلون السحت ويملئون بطونهم بالحرام، أولئك الذين عندهم علم الكتاب من أهل الكتاب، ثم يكتمون علمهم هذا، ولا يؤدون الشهادة على وجهها إذا دعوا ليُدْلوا بما عندهم من علم، فى أمر ما، بل يحرّفون ويبدلون، لقاء الاحتفاظ برياسة دينية لهم على الناس، أو انتصاراً للمشركين على المؤمنين فى مقابل ثمن معلوم.

فهؤلاء إنما يأكلون فى بطونهم النّار فى هذه الحياة الدنيا، لأن هذا الطعام الذى يأكلونه إنما هو مما باعوا به دينهم، وبهذا صاروا أهلاً للنّار، وقد أعدت أجسامهم التى نمت من هذا الطعام الحرام لتكون وقوداً لتلك النار!

وفى قوله تعالى: « فما أصبرهم على النار » صوت يتردد من خارج النار التى تلتهم أولئك الذين مكروا بما أنزل الله، فاشتروا الضلاله بالهدى والعذاب بالمغفرة، إنه صوت أولئك الذين نجاهم الله من هذا البلاء، يعبرّون به ـ فى دهشة واستغراب ـ عن صبر هؤلاء الأشقياء الذين تأكلهم النار وهم يتقلبون على جمرها.. إن كل من يطلع عليهم لا يملك إلا أن يستهول هذا الهول الذى هم فيه، ويتعجب من احتمالهم له، وصبرهم عليه!

واستحضار هذه الصورة فى الدنيا، فيه تنفير من هذا الموقف الأليم، وتحذير من هذا المصير المشئوم!

والإشارة فى قوله تعالى: « ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق » واردة على هذا المصير البغيض، الذى صار إليه أولئك الذين كتموا ما أنزل الله من

الكتاب واشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وأنهم إنما استحقوا هذا الجزاء السيء لانحرافهم عن الحق عن علم . . ذلك بأن الله نزل الكتاب ناطقاً بالحق ، وقد عرفوه ، فلا عذر لهم إذا هم تنكبوا طريق الحق ، وركبوا شعاب الباطل والضلال ! .

الآية : (١٧٧)

« لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧) »

التفسير : يحسب علماء أهل الكتاب أن مراسيم العبادات وصورها وأشكالها التى يقفون عندها ، بحيث لا تنفذ آثارها إلى باطنهم ، ولا تؤثر فى سلوكهم ـ يحسبون أن ذلك هو غاية الدين ، ومقصد الشرع ، فنعى الله عليهم ذلك ، وكشف سوء فهمهم للدين ، وقصر نظرهم إلى الشرع . . فالدين معتقد وعمل ، وعبادة وسلوك ، وغرس وثمر !

وفى الآية الكريمة أكثر من نظر :

ففى قوله تعالى : « وفى الرقاب » وهو معطوف على ما قبله .. وكان سياق النظم يقضى أن يكون : و« الأرقاء » أو نحو هذا ، حيث أن المال المدعو إلى بذله ، إنما يبذل لذوى القربى واليتامى ، والمساكين وابن السبيل والسائلين ،

أى أنه يُقدم لأيدٍ محتاجة إليه ، ولأشخاص يسدون به حاجاتهم ، وهو مع الأرقاء لفك رقابهم ، ولكن لما كان الرقيق يمكن أن تفك رقبته من غير أن يأخذ هو المال فى يده ، بأن يُشْتَرَى من مالكه ثم يُعتق بيد شاريه ، أو يكون مِلكا بشراء أو بغير شراء ثم يعتقه مالكه ـ فعتقه هنا إنما هو بذل المال ، وإن لم يكن مقبوضاً . ولهذا كان لفظ القرآن هو اللفظ الذى لا لفظ غيره فى هذا المقام : « وفى الرقاب » أى وإنفاق المال فى فك الرقاب ، وتخليص الأرقاء وتحريرهم .

وفى قوله تعالى : « وأقام الصلاة وآتى الزكاة » عطف جملة على جملة ، حيث عطف الفعل « أقام الصلاة» على قوله تعالى : « من آمن بالله » أى البرّ : من آمن بالله . . . وأقام الصلاة وآتى الزكاة ! .

وإيتاء الزكاة ، بعد بذل المال على ذوى القربى واليتامى والمساكين والسائلين وفى الرقاب ـ هو فرض واجب ، على حين أن البذل المدعوّ إليه قبل ذلك ، هو من قبيل التطوع الذى لا تسقط به فريضة الزكاة ! .

قوله تعالى : « والموفون بعهدهم » معطوف على « من آمن » أى البر هو آمن بالله واليوم الآخر ، و . . . و . . . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا أى والذين أوفوا بعهدهم إذا عاهدوا .

قوله تعالى : « والصابرين فى البأساء والضَّراء وحين البأس» قطعٌ للصابرين عما قبلها ، منصوبةً على الاختصاص ، إظهاراً لفضل الصبر ، وأنه مِلاك كل أمر ، كما بينا ذلك من قبل . . إذ لا وفاء بتكليفٍ إلا مع عزيمة ، ولا عزيمةَ إلا مع الصبر ، وبالصبر .

والبأساء : الحاجة والفقر ، والضراء : ما يصيب الإنسان فى ماله أو نفسه ، أو أهله ، وحين البأس : أى حين الحرب والقتال .

الآيتان : (١٧٨ ـ ١٧٩)

« يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » (١٧٩)

التفسير : ممّا هو من البر الذى ذكر فى الآية السابقة على هذه الآية ، أن يأخذ المسلمون أنفسهم بالتطبيق العملى لما فُرض عليهم فى جرائم القتل ، وهو القصاص ، وهو قتل القاتل بمن قَتَل ! .

وفى قوله تعالى : « الحرّ بالحرّ والعبد والعبد والأنثى بالأنثى » بيان لتكافؤ المسلمين . . فليس حرّ أحسنَ من حرّ ، أو عبد أكرمَ من عبد ، أو أنثى أفضلَ من أنثى ! .

وقد رأى بعض الأئمة الفقهاء أن القصاص هنا إنما يقع بين المتماثلين : الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى . . فلا يقتل الحرّ بالعبد ، ولا الرجل بالمرأة ! .

وهذا تخريج غير سليم للآية الكريمة . . إذ ليس هذا التقسيم التنويعى للناس ، بالذى يوجب التفاضل بين نوع ونوع ! ولو كان موجباً لذلك لما كان قتل المرأة بالرجل ، ولا العبد بالحرّ قصاصاً . . إذ لا يفى دم المرأة ـ على هذا التقدير ـ بدم الرجل ، وكذلك دم العبد ودم الحرّ ! .

وأولى من هذا أن تفهم الآية على وجه آخر .. وهو أن التنويع الذى جاءت به الآية ، ليس مقصوداً به التفاضل بين نوع ونوع ، وإنما المقصود به أولاً هو :

ألاّ تفاضل بين أفراد الأنواع . . فالحر لا يفضل الحرّ ، سواء أكان قرشياً ، أو غير قرشى . . وهكذا سائر الأنواع . .

فإذا استقام ذلك ، وزالت الفوارق بين الناس ، فى النسب ، والدم ، والجاه ، والسلطان ، جمعهم جميعاً ـ أحراراً وعبيداً ، ذكوراً وإناثاً ـ نسب واحد . . هو الإسلام ، الذى اصطبغوا بصبغته وحدها ، وتعرّوا من كل نسبة إلا نسبته ، وهنا تتكافأ دماؤهم . . الحر ، والعبد ، والأنثى . . سواء ، كما فى الحديث الشريف : « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .

وعلى هذا تقتل النفس بالنفس ، أيًّا كان جنسها ، أو مكانها الاجتماعى . . إنسان بإنسان ، وروح بروح .

الآيتان : (١٨٠ ـ ١٨١)

« كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (١٨٠) فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (١٨١)

التفسير : ومما هو من البر أيضاً ، التزام هذا التشريع الذى كتب على المؤمنين ، وهو الوصية للوالدين والأقربين . . وقد ذكر فى الآية (١٧٧) أن مما يقوم عليه البر هو إيتاء ذوى القربى ، وإذ جاء ذلك مطلقاً من غير أن يبيّن ، أهُوَ على سبيل الوجوب ، أو التطوع ، فقد جاء فى هذه الآية مبيناً بأنه على سبيل الوجوب ، إذ كان مما كتبه الله وفرضه على المؤمنين .

وقد اختُلف فى وصف « الخير » الذى يتركه الذين يحضرهم الموت ، من حيث الكثرة والقلة . . والرأى أنه يكون شيئاً له وزنه واعتباره ، بحيث يكون مما تطمح إليه الأنظار ، وترصد مساره النفوس . .

وقوله تعالى « الوصيةُ » هو نائب فاعل للفعل : كُتب عليكم ، أى فرض عليكم الوصيةُ للوالدين والأقربين إذا حضر أحدَكمُ الموت .

وقوله تعالى «بالمعروف» هو ضبط للمعيار الذى تقوم عليه الوصية ، فلا يتحكم فيها هوًى ، فتميل بجانب ، وتخف بجانب ، أو أن يراد بها الكيد لا البرّ . .

وهذه الآية مما قيل إنها من المنسوخ ، وأنها نسخت بآية المواريث !

ونحن لا نقول بالنسْخ ، ولا نراه فى تلك الآية الكريمة ..

فهى برٌّ خاصٌ بالوالدين ، اللّذين قد لا يقوم الميراث بحاجتهما ، وخاصة إذا كانا قد تقدمت بهما السنّ ، وخلا ظهرهما من الابن الذى كانا يأملانه لكفالة شيخوختهما !

وإذا كان ما فرضه الله سبحانه وتعالى لهما من ميراث فيما ترك ابنهما هو القدر الذى قضت به الشريعة ، كنصيب مفروض لهما ، فإن ذلك لا يقضى بحرمانهما من برٍّ خاص يجىء من قبل الابن ، أو الابنة ، وهما فى حال الحياة ، ومن قبل أن يصير ما فى أيديهما خارجًا عن سلطانهما ، ملكا لغيرهما .. وليس تأخير الوصية والبر الذى تحمله إلى ما بعد الوفاة ـ بالذى يخرجها عن كونها برًّا خاصًّا ، جاء من عمل ابنهما أو ابنتهما ، وعن إرادتهما . . فإذا عرفنا ـ مع هذا ـ أن الوصية محددة القَدْر ، وأنّها ، لا تتجاوز بحال ثلث التركة ـ كان القول بنسخها قطعاً لآصرة المودة والبر بالوالدين ، هذا البرّ الذى يرى فيه الولد ـ وقد أحسّ دنوّ أجله ـ شيئاً من العوض عما فاته من برّ والديه ، وقد قضى الموت قضاءه فيه قبلهما ، ثم إن هذا البرَّ قد يكون شيئاً رمزياً ، لا يراد به إلا التعبير عمّا للوالدين من حقٍّ قِبَلَ ولدهما ، إذ لم يكن ما يوصى به مقدوراً بقدر معيّن من المال !

هذا فى الوصية للوالدين . .

أما الأقربون ، فإن كانوا ورثة كالزوجة والابن وغيرهما ، فشأنهم شأن الوالدين ، فى إطلاق إرادة المورث ، المشرف على الموت ، أن يوصى لمن شاء منهم ـ فى حدود الثلث ـ بما يراه ، ليسدّ حاجةً يراها المورث فى ورثته ، كأن تكون الزوجة مريضة ، أو يكون أحد الأبناء ذا عاهة أو نحو هذا . .

فإن كان الأقربون غير ورثة ، فإطلاق إرادة المورث بالوصية لهما بشىء مما سيترك ، أوجب وألزم . . إذ يرى أنهم ـ وهم ذوو رحمة ـ محرومون مما ترك للورثة من أقاربه !

فالوصية ـ على هذا التقدير ـ ليست إلا استثناء من حكم عام هو الميراث ، وبهذا الاستثناء تعالج الثغرات التى تظهر فى الحكم العام عند تطبيقه ، الأمر الذى لا يخلو منه حكم عام !

وفى قوله تعالى : « بالمعروف حقًّا على المتقين » حراسة مؤكدة على هذا الاستثناء من أن يجور على الحكم العام أو يعطّله . . ! وبهذه الحراسة المؤكدة تكون الوصية دعامة قوية يقوم عليها الميراث ، وتكمل بها جوانب النقص الذى قد يكون فيه ، فى أحوال وظروف خاصة ، يُترك تقديرها للمورث ، ولِما فى قلبه من تقوى ، خاصة وهو على مشارف الطريق إلى الله .

وقوله تعالى : « فمن بدّلَه بعد ما سَمِعه فإنما إثمه على الذين يبدّلونه » الضمير فى « بدّله » يعود إلى قوله تعالى « خيراً » أى فمن بدّل فى هذا الخير المسوق إلى الموصَى إليهم من الموصِى ، بأن زاد أو نقص فيما سمع من الموصِى ، فإن إثم ذلك التحريف والتبديل واقع عليه . . فليحذر شاهد الوصية أن يشهد بغير ما سمع : « إن الله سميع عليم » قد سمع ما نطق به الموصى ، وعلمه وشهد عليه . . ومخالفة شاهد الوصية لما أوصى به الموصى ، هو مخالفة لما سمعه الله وعلمه ، وشهد به .

والحديث المروىّ : « لا وصية لوارث » حديث غير متواتر ، لا ينسخ به حكم من أحكام القرآن .

آية : (١٨٢)

« فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٨٢)

التفسير : بعد أن أثّم الله سبحانه وتعالى الذين يحرّفون الوصية على غير ما أراده الموصِى ونطق به ، كان مما قضت به حكمة الحكيم العليم أن يقيم الوصية على العدل ، وأن يحمى هذا البر من أن يدخل عليه ما يجعل منه أداةً للظلم ، وطريقاً إلى الإثم .

فقد يركب الموصِى رأسه ، فيتخذ من الوصية سلاحاً يضرب به فى عصبية وعمًى ، فيعمل على حرمان بعض أصوله أو فروعه ، على حين يعطِى بغير حساب من تقع عليه مشيئته منهم .. وفى هذا ما فيه من تقطيع أواصر المودة والرحمة بين ذوى القربى .

ولهذا جعل الله لشاهد الوصية جانباً من المسئولية فيها ، وفى إقامتها على العدل والخير والمعروف . فهو ـ أى الشاهد ـ مطالب بأن يؤدى الشهادة فى الوصية على وجهها ، إذا كانت محققة للعدل والخير والمعروف ، فإن حرّف أو بدل ، اتباعاً لهوًى ، أو ميلاً إلى ذى قرابة أو صداقة، فهو آثم ، يلقى من الله جزاء الآثمين ، فإن كان التحريف أو التبديل لسدّ خلل فى الوصية ولإقامة ميزان العدل فيها فإنه لا بأس حينئذ منه .

ولما كان هذا التبديل خروجاً على الأصل ، فهو فى حكم ما أبيح للاضطرار ، ينبغى الأخذ منه بالقدر الضرورى ، وبحذر وحرج معاً ، إنه

أشبه بعملية جراحية، لا تتعدى العضو الفاسد، وإلا كان الخطأ والخطر، وكان اللوم والمؤاخذة! .

وفى قوله تعالى: « فأصلح بينهم » إشارة صريحة إلى الطريق الذى يلتزمه شاهد الوصية، إذا رأى أن يعدّل من صورتها، وهو الصلح بين ورثة المُوصِى وقرابته، بحيث يكون حظهم مما ترك مادةَ خير لهم، لا مصدر شقاق وفرقة.

وفى قوله سبحانه: « فلا إثم عليه » إشارة رفيقة إلى أن ما يفعله شاهد الوصية من تبديل، فى الحال التى يعالج مابها من عوج، ليس من باب اكتساب الثواب، وحسبه إن هو أحسن ووفق أن يخرج معافًى، لا له ولا عليه! . .
« فلا إثم عليه ! »

وفى قوله تعالى: « إن الله غفور رحيم » إشارة ثالثة إلى أن ما فعله شاهد الوصية فى هذا الموقف أمر تُرجى له المغفرة والرحمة من رب غفور رحيم، إذ كان داعيته البر والخير، وكانت النية القائمة وراءه الإصلاح بين الناس، فهو والأمر كذلك أشبه بمعصية، ترجى لها الرحمة والمغفرة، فإنّ الكذب هو الكذب، حتى ولو كان فى سبيل البرّ والخير. . ولكنه فى هذا المقام متسامَح فيه بالقدر الضرورى، كما يتسامح فى أكل الميتة ولحم الخنزير وغيرها من المحرمات عند الاضطرار!

الآيتان: (١٨٣ ـ ١٨٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ

فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١٨٤)

التفسير : فى آية البر (١٧٧) لم يذكر الصوم فيما ذكر من شعائر البر ، ولكن قد أشير إليه ضمنا فى قوله تعالى : «والصّابرين فى البأساء والضرّاء وحين البأس » إذ كان الصوم مما يدخل فى دائرة الصبر . . بل هو « الصبر » نفسه .

وفى هذه الآية بيان لفريضة الصوم ووقتها وأحكامها ، كما ذكر ، فى الآيات التى قبلها من أعمال البر : القصاص فى القتلى ، والوصية عند الموت ، وهما أمران يستندان إلى الصبر ، وكما سيذكر بعد ذلك الجهاد فى سبيل ، وهو أمر لا يقوم إلا على الصبر .

وفى قوله تعالى : « وعَلَى الّذِين يطيقونه فديةٌ » بيان لمن أبيح لهم الخروج من هذا الحكم العام الذى دخل فيه المسلمون جميعاً ، وهو وجوب الصوم . .
ويقال : طاق الشيء يطوقه طوقاً وطاقة ، وأطاقه إطاقة إذا قوى عليه ، وطوّقه تطويقاً ألبسه الطوق ، يقول الله تعالى : «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يوم القيامة » : (١٨٠ آل عمران) ومعنى هذا أن الذى يطيق شيئاً إنما يعطيه طاقته ، أى كل قوته ،وهذا لا يكون إلا مع الأمر الشاق ،الذى لا يقدر علية إلا بجهد ومشقة .

والذين يطيقونه هم الذين يرهقهم الصوم ، ويبلغ بهم المشقة والجهد ، كالمريض مرضاً ملازماً ، وكمن دخل مرحلة الشيخوخة ، وكبعض الحوامل اللائى يعانين من حملهن ما يُلزمهن نظاماً خاصًّا فى التغذية . . وهكذا كلّ من خرج بناؤه الجسدى عن حد الاعتدال ، فلا يستطيع الصوم ، وإن استطاعه وجد المشقة والحرج ، فلهؤلاء أن يفطروا ، فقد رفع الله عنهم الحرج بقوله تعالى : « وما جَعَل عليكمُ فى الدين من حرج » (٧٨ : الحج) وبقوله سبحانه : « لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا » : (٢٨٦ : البقرة) .

والفدية هى ما يفتدى به المفطر الذى أباحت له حاله الجسدية الإفطار ، وهو ما يقدمه كفارةعن إفطاره ، كما بينه الله تعالى فى قوله : « طَعَامُ مِسْكِينٍ » أى عن كل يوم .

وقوله تعالى : « فمن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ له » ترغيب فى عمل البر والاستزاده منه ، فإذا جعل الله سبحانه الفدية الواجبة هى طعام مسكين ، فإنما ذلك رحمة بعباده ورفقاً بالمعسرين منهم ، وتمكيناً للفقراء أن يلحقوا بالأغنياء ، بتقديم هذا القربان إلى الله ، وبالمشاركة فى البر والمواساة ، ثم إن باب التطوع متسع مع هذا لمن تسخو نفسه بالبذل ، وتسمح يده بالعطاء : «فمن تطوع خيراً فهو خير له » ! .

وفى قوله تعالى : « وأن تصوموا خيرٌ لكم » ما يضبط ميزان الاتجاه إلى الإفطار عند ذوى الأعذار . فلا يميل بهم إلى التفلّت من الصوم ، مع الجهد المحتمل ، ومع المشقة الممكنة ، فالصوم تكليف ، ولكل تكليف أعباؤه ومشقاته ، وإلا لما كان ثواب وجزاء . . فترجيح جانب الصوم على جانب الإفطار مع الفدية ومع قيام العذر ـ من شانه ألا يجعل للأعذار الواهية مدخلا للترخص فى هذه العبادة ، والتحلل منها لأقل مشقة وأقل جهد .

الآية : (١٨٥)

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِىَ أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (١٨٥)

التفسير : اقتضت حكمة الله تعالى ، إذ فرض على المسلمين الصوم أن يتـ له خيرَ وقت بالنسبة لهم ، وهو شهر رمضان ، ذلك الشهر الذى بدأ فيه نز القرآن ، وافتُتحت فيه طريق الرسالة الإسلامية بين السماء والأرض ، تتنزل أنوار الهداية والرحمة ، فكان اتصال المسلمين بالله فى هذا الشهر ، والتقرب بالصوم فيه ، أنسبَ وقت وأعدله ، لإفاضة المشاعر الكريمة ، وإيقاظ الأحاسيـ السامية فى الإنسان ، ليخلص وجهه لله ، وليصفّى روحه من دخان المادة وغبار

وفى قوله تعالى : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » إشارة إلى معنيير أولها مشاهدة الشهر ورؤيته ، واقعاً أو حُكما ، وثانيهما الحضور ، من غير مر أو سفر . .

وقوله تعالى : « ولتكملوا العدّة ولتكبروا الله مع ما هداكم » معطو على مقدر محذوف بعد قوله تعالى : « يُريد الله بكم اليُسر ولا يريد بكم العُسْر أى أن الله يسّر لكم هذه الفريضة ، وقرنها بما يدفع المشقة والحرج عنكم لتؤدوها ولتكملوا عدتها ، ولتكبروا الله وتشكروه على أن هداكم ووفقـ لأداء هذه الفريضة ، وتعرضكم لما أعدّ الله من ثواب عليها .

الآية : (١٨٦)

« وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعْ إِذ دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » (١٨٦)

التفسير : جاءت هذه الآية بين الآيات الشارحة للصوم وأحكامه لتلفت الصائمين إلى ما هم عليه فى تلك الحال من صفاء روحى يدنيهم من الله ويجعلهم أكثر استعداداً للاتصال به . .

فالله سبحانه وتعالى دائماً أبداً أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، ولكن الإنسان هو الذى تختلف أحواله ، مع الله ، فيدنو أو يبعد ، ويتصل أو ينقطع حسب إيمانه به ، وطاعته له ، ورجائه فيه . . والإنسان فى شهر الصوم مهيأ للقرب من الله ، مستيقظ المشاعر والأحاسيس لمناجاته .

الآية : (١٨٧)

« أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » (١٨٧)

التفسير : نجد عند المفسرين أقوالاً كثيرة فى هذه الآية ، وفى نسخها بآية ونسخها لآية ، وغير ذلك من الوجوه التى لم نرض عنها ، وقد أدلينا بما أرانا الله فيها ، والله هو الموفق والمعين .

الرفث : ضرب من اللهو والعبث ، والمراد به هنا مخالطة النساء والخلوة بهن . ولما كان الصوم فى صميمه حرماناً من شهوات النفس ولذاذاتها ، وانقطاعاً بها عن كل ما من شأنه أن يشبع هوى النفس ويرخى لها الزمام فيما تحب ـ لما كان هذا هو شأن الصوم ، فقد أحس المسلمون عندما فرض عليهم الصوم وبدءوا يؤدون هذه الفريضة ، أن اتصالهم بنسائهم ، وإطلاق أنفسهم

على طبيعتها معهنّ ، هو مما يجرح صيامهم ، ويلقى ظلالاً من العبث على هذا ، الجِدّ الجادّ الذى هم فيه ، الأمر الذى لا يتفق أوله مع آخره ، ولا يلتقى فيه ليله مع نهاره .. وقد امتدّ هذا الشعور إلى الطعام والشراب كذلك ، فتحرّج كثير منهم أن يستبيح لنفسه الطعام والشراب على امتداد الليل كله ، وإنما الذى له هو أن يفطر فيما بين المغرب والعشاء ، ثم يمسك بعد ذلك حتى مغرب اليوم التالى، بل إن كثيراً منهم كان لا يفطر ، اليومين، والثلاثة ، بل يواصل الصوم .

وعلى هذا فإن الموقف لم يكن واضحاً أول عهد المسلمين بالصوم ، بين الإنسان ونفسه ، أو بين عزيمته وواقع أمره، ومعطيات تجربته، وخاصة فيما يتصل بالاتصال بالمرأة ، إذ كيف يكون اتصال ولا يكون شىء من المداعبة والملاعبة ؟ وكيف يكون فيها الجدّ وهى الغريزة الحيوانية التى لم يستطع الإنسان أن يستعلى عليها من غرائز الحيوان الكامن فيه ؟ فإذا غُلِبَ الإنسان على أمره فى هذا الموقف ووقع منه مالابد أن يقع من عَبَث فى سَكْرة من سكرات نفسه ، عاد فانتزعها من هذا الذى هى فيه من عبث ، وحاول أن يردّها إلى الجدّ ، وهذا فى الواقع خيانة للنفس ، وسلب لحق من حقوقها الطبيعية ، وهذا ما تشير إليه الآية الكريمة فى قول الحق جلّ وعلاَ : « عَلِمَ اللهُ أنكم كنتم تختانون أنفسكم ، فتاب عليكم وَعفَا عنكم » .

ولهذا جاء قول الله تعالى : « أُحِلَّ لكُمْ لَيْلَةَ الصيام الرَّفَثُ إلى نِسَائكمُ » حاسماً لهذا الموقف ، رافعاً عن الصائمين الحرج ، فيما يقع بينهم وبين نسائهم من رَفَث .

وانظر فى قوله تعالى : « أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إلَى نِسآئِكُمْ » وفى قوله بعد ذلك : « هُنَّ لِبَاسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهن » تجد كيف ألقى سبحانه وتعالى على هذا الرفث ستاراً جميلاً رفيقاً ، يستر به ما يكون بين الزوجين

فى حال اتصالهما ، فلا يطلع أحد على ما يكون بينهما ، « هُنَّ لباسٌ لكم » أى ستر لكم كما يستر الثوب لابسه ، « وأنتم لباس لهنّ » تسترون ما يكون منهن من رفث !

وفى قوله تعالى : « عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أنفسكم » بيان لتلك الحال التى كان يعانيها الصائمون من صراع بين الطبيعة النفسية الغالبة ، وبين السموّ الروحى ، الذى يريد أن يبلغه الصائمون بصيامهم ، وأنْ يتجنَّبوا الرفث الذى يقع بين الزوجين .

وفى قوله تعالى : « فتَابَ عَلَيكمُ وعَفَا عَنكمُ » إظهار لرحمة الله بهم وفضله عليهم : إذ عاد عليهم برحمته ، حين أطلق نفوسهم من هذا الحرج الذى كانوا يعيشون معه ، فى همّ وقلق .

وفى قوله تعالى : « فالآنَ بَاشِرُوهُن » إشارة إلى إباحة اتصال الصائمين بنسائهم على الوجه الذى يكون بينهم فى غير أيام الصوم .

وإنك لتجد فى قوله سبحانه « فالآن باشروهن » ما يشير إلى إيذان بصورة جديدة للصوم ، على غير الوجه الذى كان قائماً عليه . .

وفى قوله تعالى : « بَاشِرُوهُن » معنًى غير الذى يعطيه « ارفثوا معهن » إذ المباشرة هى الاتصال المطلق الذى تُحَدَّد صفتُه حسب تصرف الإنسان ، وحسب الحال الذى يكون عليه ، وليس كذلك الرفث الذى يَحمل معه عند المباشرة شيئاً من اللهو والعبث . . فالأمر بالمباشرة إذ يعنى رفع الحرج ، يعنى مع ذلك أن يلتزم الإنسان القصد والاعتدال ، وأن يتألف هذا الحيوان الذى يكمن فيه ، وأن يذكر فى تلك الحال أنه إنسان !

وأما قوله سبحانه : « وابتغوا ما كَتَبَ اللهُ لَكُمْ » فيشير إلى ما ينبغى أن يكون مقصِداً فى المباشرة بين الرجل والمرأة وهو طلب الولد ، والأخذ

بالأسباب المفضية إلى ما قدر الله للزوجين من ذرية . . فليست المباشرة ، قضاء الشهوة وإشباع الغريزة ، وإنما هى مطلب كريم ، ورسالة سامية ، ينظر إليها الإنسان من خلال المشاركة فى عمران الحياة ، ونماء الإنسا وحمل المسئولية فى تقديم الإنسـان الصالح فى بنـاء المجتمع ! وهذا ما للمباشرة معنًى يرتفع بها عن الرفث الحيوانى ، والعبث الماجن .

وأما قوله تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » صيانة لتلك الفترة التى نوى فيها المسلم الاعتكاف[1] فى بيت من بيوت ا والانقطاع للعبادة الخالصة لله ، من أن يدخل عليها شىء من لهو النفس ا يذهب بثمرة هذه الرياضة ، التى أخذ الإنسان بها نفسه لفترة محدودة الزمن ، فهى أشبه بيوم من أيام الصوم ـ فرضاً أو تطوعاً ـ لا يحلّ لل فيه أن يتحلل من صومه . فللعبادات حرمتها . فإذا أوجب الإنسان على ن شيئاً منها ، وجب أن يؤديه على الوجه الأكمل له ، وإلا أثِم من حيث يط الأجر والمثوبة .

وفى قوله تعالى : « تلك حدود الله فلا تقربوها » تحذير من اختر الحدود التى أقامها الله سبحانه وتعالى لحرماته ، وجعلها حمًى لتلك الحرمات والهاء فى قوله « فلا تقربوها » ضمير يرجع إلى تلك الحدود ، بمعنى أن يَحْ الإنسان الإلمام بالحدود المطيفة بالحرمات ، أو يدنو منها ، مخافةَ أن تزلّ قد فيقع فيما حرم الله ، وفى الحديث : « من حام حول الحِمَى يوشك يواقعه » ! .

---

(١) اختلف الأئمة فى مدة الاعتـكاف بين يوم وعشرة أيام .. فى أقل مدة ا ولا حد لأكثره .

هذا وحدود الله قد تُضرب على أشياء فَرَض تحريمها ، أو تقام على أمور أباحها وأجاز الأخذ بها .

وسبحان من أحكم آياته ، وتفرد بكلماته ، فجاء بها معجزةً قاهرة ، تعنو لجلالها وجوه العالمين ، وتخرس لبيانها ألسنة المخلوقين !

ففي الحدود التي تحتوى في داخلها المحرمات كما في قوله تعالى : « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد » جاء النهى هكذا : « تلك حدود الله فلا تقربوها » أى بالتزام الوقوف خارج تلك الدائرة ، حيث أن ما وراءها من مقابل هذا المنهىّ عنه هو المطلق المباح ، والاقتراب من تلك الدائرة اقتراب من خطر !

وفى الحدود التي تضمّ المباحات ، حيث يكون الناس معها في داخل الدائرة ، يجىء النهى هكذا : « تلك حدود الله . . فَلَا تعتدوها » أى ألزموا هذه الدائرة ولا تخرجوا عنها إلى ما يقابل هذه المباحات ، مما هو خارج تلك الحدود ! فإن الخروج عن تلك الدائرة وقوع في محظور !

استمع إلى قوله تعالى : « الطّلاق مَرّتَان فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أوتسريحٌ بإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لكم أن تأخُذُوا مِمَّا آتيتموهُنَّ شَيْئًا إلاّ أن يَخَافَا ألاَّ يُقِيمَا حُدُود الله فإنْ خِفْتُمْ ألاّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهما فيما افْتَدَتْ به تِلْك حُـدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوها ومن يَتَعَدَّ حُدودَ الله فأولئك هُمُ الظالمون » : (٢٢٩ : البقرة) ! .

فالآية هنا تشريع لإباحة الطلاق ، ولكن هذه الإباحة ليست على إطلاقها ، بل هى داخل حدود مرسومة ، فمن تجاوز هذه الحدود ، وخرج عنها فهو معتدٍ ظالم ! .

وانظر قوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » (الطلاق : ١)

تجد أنها على سمت الآية السابقة . . إنها تقيم حدود الله على أمر مباح ، ولكنه قائم على وصف خاص داخل هذه الحدود ، فمن تجاوز به هذا الحد ، وخرج به عن تلك الصفة فقد ظلم نفسه ! .

الآية : (١٨٨)

« وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (١٨٨)

التفسير : فى الآية السابقة على تلك الآية أقام الله سبحانه وتعالى حدًّا على حرمة من حرماته ، وهى مباشرة المعتكف فى المسجد زوجه مدة اعتكافه ، ونهى سبحانه عن الاقتراب من هذا الحدّ .

وفى هذه الآية أدخل فى تلك الحدود حرمة أخرى ، هى حرمة المال ، ونهى عن العدوان على هذه الحرمة .

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » وهذه صورة من صور العدوان على المال ، بما يجرى بين الناس من تسلط ، أو نهب ، أو سرقة ، أو غش ، أو احتيال ، إلى غير ذلك مما لا بَدَ للحاكم فيه .

وهناك صورة أخرى للعدوان ، وهى أن يستعان بالحاكم على هذا العدوان بأن يُستمال إلى أحد الخصمين بالرشوة ، وفى هذا يقول الله تعالى : «وتدلوا بها

إلى الحكام » أى تلقوا بها إلى الحكام « لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » والحكام هنا هم من يكون إليهم أمر الفصل فيما يقع بين الناس من خصومات ، وبيدهم ردّ المظالم ، ودفع العدوان .

الآية : (١٨٩)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١٨٩)

التفسير : الذين لا يأخذون الأمور مأخذ الجدّ ، يصرفون أكثر جهدهم فى اللغو ، ويقطعون أكثر حياتهم فى المماحكة والجدل والعبث .

والمنافقون هم دائماً أبداً على تلك الصفة .. ينظرون إلى الأمور نظرة لاهية ، ليقعوا منها على وجه من وجوه الخداع ، يلبسونه فى تلك الحال ، ثم يلقونه ليلبسوا غيره فى حالة أخرى .. وهكذا

وفى موكب الدعوة الإسلامية كان المنافقون يعترضون سير هذا الموكب ، ويقطعون عليه الطريق بتلك الأسئلة التى لا يراد بها كسب معرفة ، ولا تعرف على حق ، وإنما يقصد بها أولاً وآخراً ، التشويش على الدعوة ، وشغلها بالجدل ، والالتحام معها فى معركة من اللغو ، الذى لا محصّل له إلا صداع وضلال .

وقد حَمَى الله الدعوة الإسلامية من أن تنزلق إلى هذا المنزلق ، فكانت إجابة القرآن الكريم على تلك التساؤلات الخبيثة والمماراة المضللة ـ كانت إجابة مفحمة مفحمة رادعة فاضحة .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ » ما بالها تظهر ثم تختفى ؟ وما شأنها تتجدد

كل عدد معلوم من الأيام ؟ ثم لم تلبس كل يوم صورة جديدة ؟ وتولد كل يوم ميلاداً جديداً ؟ .

ولو شاء القرآن أن يجيب على تلك الأسئلة الجواب المناسب لها ، لأعطى الـكلمة الحاسمة الفاصلة ، ولـكن هذا يفتح المجال للمناظرة والأخذ والرد ، والقبول والرفض .. ثم أنّى للعقول ـ فى كل عصر وفى كل مجتمع ـ أن تستوعب الحقيقة العلمية ، وتقتنع بها ؟ إن غير هذا أولى بالقرآن ، وأنفع للناس فى مجال دعوته إلى الحق والخير ! .

« قُلْ هى مواقيتُ للنّاسِ والحج » ذلك هو الجواب الذى كان ينبغى أن يكون سؤال السائلين متجهاً إليه ، باحثاً عنه . . : « هى مواقيتُ للناسِ والحج » فهذا هو بعض معطيات الأهلة للناسِ ، يُضبط بها رءوس الشهور ، ويوقف منها على أشهر الحج التى يقول الله عنها : « الحج أشهر معلومات » .

وفى قوله تعالى : « وليس البِرَّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولـكنَّ البِرَّ من اتَّقىَ وَأْتُوا البيوت من أبْوابِها » تعقيب يستخلص الحـكمة والعبرة من ثنايا الحدث والواقعة ، وذلك من تمام الهدى الذى جاء القرآن الـكريم به ، وقامت الرسالة الإسلامية عليه .

فليس من التزكية للنفس ، والهداية للعقل ، والاطمئنان للقلب ، أن يلقى الإنسان الأمور من ظهورها ، وأن ينظر إليها من ورائها ، فذلك لا يطلعه منها إلا على ظلال وأشباح ، أما إذا أراد أن يتعرف إليها ، ويعرف وجه الحق منها ، فليلقها مواجهة ، ولينظر إليها نظراً قاصداً ، فذلك هو الذى يدنيه من الحق ، إن كان طالباً له ، عن نية خالصة وقلب سليم . . وليس كذلك شأن المنافقين الذين لا يأتون الأمور إلا مواربة ، ولا ينظرون إليها إلا بأبصار زائغة منحرفة !

الآيات : (١٩٠ - ١٩١ - ١٩٢ - ١٩٣)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذٰلِكَ جَزَآءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ » (١٩٣)

التفسير : نحن على رأينا من أنه ليس فى القرآن نسخ ، وأن كتاب الله الذى فى أيدينا لا نسخ فيه ، وأن آياته كلها عاملة أبدَ الدّهر .

وآيات القتال من الآيات التى أكثر المفسرون من القول بتوارد النسخ عليها ! وهذا رأى — كما قلنا — لا نأخذ به ولا نقيم نظرنا عليه !

فقوله تعالى : « وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُم » ليس بالمنسوخ بالآية التى بعدها ، كما يقول المفسِّرون ، ولا وجه لنسخه .. فالأمر بالقتال فى سبيل الله قائم ما قامت الحياة . وإذا كان القتال يقوم بين الناس فى وجوه كثيرة فى سبل غير سبيل الله ، فالقتال فى سبيل الله أوجب القتال وأبرّه ، وأعدله ، وأكرمه ، إذ كان ولا غاية له إلا الانتصار للحق ، والتمكين له . . ثم إذا كان هذا القتال لم يكن مبادأة ولا هجوماً ، بل كان دفاعاً وقصاصاً ، فهو القتال الذى لا بد منه ، ولا بديل له ، إن لم يطلبه الدين طلبته الدنيا . . ثم أيضاً ، إذا كان هذا القتال - مع مشروعيته دنيا وديانة ، ومع حجزه عن المبادأة بالعدوان - غير متلبس بمجاوزة الحدّ فى القصاص ، فهو القتال الذى لا يحسم الشر غيره ، ولا يقيم الأمن والسلام سواه . .

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يُقاتلونَـكمْ ولا تعتَدُوا إن الله لا يحبُّ المعتدين » .

فهذه ثلاث دعائم من العدل ، يقوم عليها هذا القتال : قتال فى سبيل الله ، بين الإيمان والشرك ، ودفع لعدوان المشركين على المؤمنين ، ووقوف بالقتال عن مجاوزةٍ إلى اعتداء المؤمنين على المشركين !

تلك هى الدعائم التى يقوم عليها قتال المسلمين أبداً مع مقاتليهم على أية ملة ، وفى أى زمان ومكان .. فماذا ينسخ من تلك الدعائم ، وما داعية نسخها ؟ لا نجد جواباً مقنعا .

وقوله تعالى : « واقتلوهم حَيثُ ثَقِفتموهُم وأَخرجوهم من حيثُ أخرجوكمْ والفِتْنَةُ أَشَدُّ من القَتْلِ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتَّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزآء الـكافرين » .

هو من تمام البيان لهذه القضية ، قضية القتال بين المسلمين ومشركى قريش ، فحين يلتقى بهم المسلمون فى ميدان القتال ، فلا يتحرج المسلمون من قتلهم حيث التقوا بهم ، من غير أن تعطفهم عليهم عاطفة قرابة أو نسب ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، فلقد بدءوا هم المسلمين بالعدوان ، وأخرجوهم من ديارهم ، وفتنوا بعضهم عن دينهم ، ولا يزالون يفتنون من قدروا عليه منهم ، بما يسلطون عليه من عذاب ونـكال « والفتنة أشد من القتل » إذ المُفْتَتَن فى دينه قد أصيب بما هو أشد وأنـكى من القتل ، قد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ! .

فإذا كان القتال فى المسجد الحرام ، أى فى البلد الحرام مكة ، فلا يبدؤهم المسلمون بقتال فيه حتى يكون المشركون هم الذين بدءوه ، وعندئذ تحل حرمة الحرَم ، اقتصاصاً ممن أحلوا حرمته : « والحرمات قصاص » .

وقوله تعالى : « فإن انتهَوْا فإن الله غفورٌ رحيم » حسم لما بين هؤلاء المشركين وبين المسلمين من خلاف ، وتصفية للشر الذى وقع بينهم ، وذلك إذا انتهى هؤلاء المشركون عن شركهم ، وأسلموا وجوههم لله . . عندئذ تنقطع أسباب القتال ، وتزول آثاره ، فلا ثارات ، ولا ديات ، ولا عداوة ، بل يصبح الجميع إخوة ، تجمعهم كلمة الإسلام ، وتظللهم راية الإسلام ! .

وفى قوله تعالى : « فإن الله غفورٌ رحيم » تطييب لخاطر الفريقين جميعاً ، فليغفر بعضهم لبعض ، وليرحم بعضهم بعضاً من حمل البغضة والعداوة ، ولهم عند الله المغفرة الواسعة والرحمة الشاملة ، فإن الله غفورٌ رحيم .

هذا وقد نظرنا فى تفسير قوله تعالى : « فإن انتَهَوْا » وحملناه على الانتهاء مما كانوا عليه من شرك ـ نظرنا فى هذا إلى قوله تعالى « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ » (٢٧٥ : البقرة) .

وهذا المعنى هو الذى يلتقى مع قوله تعالى : « فإن الله غفور رحيم » حيث يغتسل المشركون الذين دخلوا فى الإسلام من أدران شركهم بما يفضل الله عليهم به من مغفرته ورحمته .

وقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » أمر بمقاتلة من بقى على شركه من مشركى مكة الذين يفتنون المؤمنين والمؤمنات ، لأنه ما دام المشركون قائمين فالفتنة قائمة ، والفتنة هى قتل للمسلمين، وعلى هذا فلا مهادنة مع المشركين « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله » .. « فإنِ انْتهوْا فلاعُدْوانَ إلاَّ عَلَى الظّالمين » أى فإن انتهوْا عماهم فيه من شرك ودخلوا فى

دين الله ، فقد دخلوا فى السلم ، لا ينالهم أحد بسوء إلاّ من نكص على عقبه أو دخل الإسلام ليكيد له ولأهله .

(الآيتان : (١٩٤ - ١٩٥)

« الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (١٩٥)

التفسير : كان أهل الجاهلية يعظمون أربعة أشهر ، هى : ذو القعدة ، وذو الحجة ومحرم ورجب ، فكانوا لا يطلبون فيها ثاراً ، ولا يوقعون بينهم فيها قتالاً ، فهيئوا بذلك لأنفسهم فترة أمن وسلام ، يستروحون فيها ريح الطمأنينة والعافية خلال هذا الشر المحتدم بينهم ، وتلك الحروب المتقدة فى كل أفق من آفاقهم ، معظم حياتهم .

وجاء الإسلام فزكّى هذا الشعور الذى يودّ الإسلام لو استقام عليه الناس أبدَ الدهر ، لو كان ذلك مما تحتمله النفوس البشرية ، وتتقبله طبيعة الناس !

ولكن ماذا يكون موقف الإسلام لو تخلّى المشركون عن هذا الشعور وأباحوا حرمة هذه الأشهر الحرم ، وأعلنوها حربا على المسلمين ؟ وماذا يكون موقف المسلمين لو عرف العدوّ من أمر دينهم هذا المعتقد ، فانتهزها فرصةً فيهم ، وساق إليهم جيوشه ، وأعمل فيهم أسلحته ؟

أيمسك المسلمون عن القتال ويَدَعون العدو يُمضى فيهم حكمه بالهلاك والفناء ؟ ذلك أمر لا يقبله عقل ، ولا يرتضيه دين ، إلا أن يكون عذابا من عذاب الله ، ونقمة من نقمه ، كما دان الله به اليهود وشرعه لهم ، حيث حرّم عليهم

أن يباشروا عملاً فى يوم السبت ، فلا يقاتلوا من قاتلهم ، ولا يدفعوا من اعتدى عليهم ، وإلا كانوا عصاة آثمين !

وهذا لاشك ضرب من البلاء ، ساقه الله إلى هذا القطيع المعربد ـ كما يقول فيهم السيد المسيح ـ ليَـذلّوا ، ويستكينوا ، ويكونوا صيدًا لكل صائد !

وإنه لمحال أن بنى اليهود بهذا الأمر السماوى ، وأن يمتثلوه ، وإلا هلكوا وضاعوا . .

ولكن الله سبحانه أمرهم بهذه المحال ، وحمّلهم هذا الحمل الثقيل ، ليُلقوه وراءهم ظِهريًا ، وبهذا لا يكون أمامهم فرصة أبداً لامتثال أمر الله ، بل يكون أمرهم دائما على معصية وخلاف ، حتى لو أجهدوا أنفسهم فى البرّ والطاعة . . لأن أى بارّ وأى مطيع منهم لابد له ـ كى يعيش ـ أن يدفع العدوان ويردّ المعتدين ، وإلا أصبح فى الهالكين !

وهكذا . . كل يهودى محمول حملاً على أن يعصى الله ، ويخرج عن أمره فى حرمة يوم السبت . . وتلك هى اللعنة التى ألقاها الله عليهم . . تتناول بَرّهم وفاجرهم جميعاً . .

تقول التوراة : « فتحفظون السبت لأنه مقدس لكم . . من دنّسه يقتل قتلا . . إن كل من صنع فيه عملاً تقطع تلك النفس من بين شعبها . . كل من صنع عملاً فى يوم السبت يقتل قتلا » (الإصحاح الحادى والثلاثون . . سفر الخروج)

وقد جاءهم السيد المسيح بأمر كهذا الأمر ، إذ فرض عليهم الاستسلام لكل يد تضربهم ، إذا لطمهم أحد لم يكن لهم أن يردوا اللطمة . . وفى هذا

يقول السيد المسيح لهم : «من ضربك على خدك الأيمن فأدِرْ له خدك الأيسر» وفى هذا ما فيه من إذلال لهم ، وقتل لمعانى الإنسانية فيهم ، إن هم استقاموا على هذا الأمر ، فإن خرجوا عليه فهم عصاة خارجون على أمر الله ، يستحقون اللعنة وسوء المصير . . وليس هذا مما يكلف الله به عباده ، ولكنه من نقمه التى ينزلها على أهل البغى والعدوان .

ولهذا أمر الله المسلمين بما أمرهم به من هذا الخير ، بترك القتال فى الأشهر الحرم ، ثم حرس هذا الخير من أن يستبد به الأشرار ، ويجنى ثمرته المبطلون . .

فهى أشهر حرم لا يبدأ فيها المسلمون بقتال ، فإن بدأهم أحدٌ فيها بقتال فلا حرمة عندئذ لهذه الأشهر الحرم، التى ما شرعت إلا لخير الإنسان وصيانة دمه ، وأما وقد جعلها العدوّ ظرفا يستبيح بهّ دماءهم ، فصيانة دمائهم والدفاع عنها أكثر قداسة وحرمة من كل حرمة وقداسة .. لزمان أو مكان ! هذا ما يقرره قوله تعالى :

« الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم » فى أى مكان وفى أى زمان « فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

وفى قوله تعالى : « واتقوا اللهَ واعلَموا أنّ اللهَ مَعَ المتّقين » تذكير المسلمين بما وصاهم به الإسلام من آداب القتال ، وهى ألا يعتدوا ، فإن اعتُدى عليهم ردّوا الاعتداء . . ولكن لما كان عدوان المعتدى باعثا على النقمة منه ، جاء قوله تعالى : « واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ضابطا لمشاعر الانتقام من العدو المعتدى ، مذكراً المسلمين بالتقوى فى هذا الموطن ، فلا يأخذون أكثر من حقهم فى تأديب العدوّ ، وكسر شوكته ، فإذا تخلّى المسلمون عن التقوى فى هذا الموطن تخلّى عنهم عون الله ونصره.

وقوله تعالى : « وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُم إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » . دعوة إلى البذل فى وجوه الحق والخير، وأولى هذه الوجوه ما كان فى الجهاد فى سبيل الله ، فهذا بابٌ أجزل الله فيه الثواب لأهله ، وخصهم بالمزيد من فضله ورضوانه ، ولهذا اقتضت حكمة الله سبحانه أن يشارك المجتمع الإسلامى كله فى الجهاد ، كل بحسب جهده وقدرته ، وذلك حتى لا يحرم أحد منه هذا الخير الكثير ، بالقليل من الجهد . . فمن جهز غازيا فقد غزا ، ومن أعان فى إعداد أدوات الحرب ، ومئونة الجيش فقد غزا ، ومن قام على خدمة من خلّف المجاهدون وراءهم من أهل وولد ، فهو فى المجاهدين . . وهكذا كل عمل يقوّى من جبهة المجاهدين هو من الجهاد المبرور المقبول عند الله .

هذا ، وقد يعمل المجاهد فى أكثر من ميدان ، فيجهز المجاهدين بماله ، وينفق فى كل ما تحتاج إليه الحرب من سلاح ومتاع ، ثم يكون هو مع المجاهدين فى ميدان القتال ، وإنه على قدر العمل يكون الثواب .

وفى قوله تعالى : « ولا تُلقُوا بأيدِيكم إلى التهلكة » تنبيه وتحذير من هذا الشعور الحماسى الذى قد يغلب على المجاهد وهو فى ميدان المعركة ، فيتحدى الموت الذى يتخطف النفوس من حوله ، فيندفع متهورا يلقى الموت فى غير مبالاة .

والإسلام حريص على أهله ؛ ضنين بهم ، فلا يبيع حياتهم إلا بالثمن الكريم الغالى ، ولا يقتضيها هذا البيعَ إلا حيث تجب التضحية والفداء فى سبيل الله ، ولا سبيل آخر غير هذا السبيل تقدم فيه النفوس قرباناً لله وفى سبيل الله .

وعلى هذا فإن واجباً على المسلم إذ يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ،

وإذ يدفع بها فى مزدحم المنايا ، أن يتقاضى الثمن المجزى لها ، وأن يأخذ لها حقها الكامل فى القتال ، بالنكاية فى العدو ، فإن قُتل بعدها فقد كَتب بدمه الطهور حرفا من حروف النصر للجبهة المقاتل فيها ، وللجماعة المحارب معها .

وفى قوله تعالى : « وأَحْسِنوا إنَّ اللهَ يُحِبّ المحسنين » دعوة إلى الإحسان المطلق ، الإحسان فى كل أمر يقوم عليه الإنسان ويؤديه ، لله أو لنفسه أو للناس . . وعن هذه الدعوة إلى الإحسان المطلق تتجه دعوة خاصة إلى الإحسان فى مواطن القتال ، فيقاتل المسلمُ على بصيرة ، ولا يكن من همّه الأول أن يُقتل ويُستشْهَد فى سبيل الله ، بل أن يكون مقصده النيل من العدو ، والنكاية به ، إذ يقتل فرسانه وشجعانه ، فذلك هو المطلوب أولاً ، فإن قتل وهو يسعى لتحقيق هذه الغاية لم يكن مجرد شهيد ، بل كان بطلاً يحمل شهادة أعدادٍ من الشهداء .

آية : (١٩٦)

« وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (١٩٦)

التفسير : فى هذه الآية بعض أحكام الحج وأعماله ، التى تولت السنّة النبوية القولية والعملية تفصيلها وترتيبها .. وهى مبسوطة فى كتب الفقه ، وحسبنا هنا الوقوف على معنى الآية الكريمة فى حدود ماتنطق به ألفاظها .

هذا ، ولأن أعمال الحج كثيرة ، مختلفة الصور ، متعددة المواقف ، ولأنها من جهة أخرى تضم ألوفاً مؤلفة من المسلمين ، يجتمعون إليها من كل أفق ، ويلتقون عندها من كل جنس — لهذا فقد اقتضت حكمة الحكيم الرحيم التوسعة على الناس فى هذه الفريضة ، وتقبّل كل مايؤدونه فيها من أعمال ، مادامت تلك الأعمال صادرة عن نية خالصة ،وقلب سليم ، فقد أثِرَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وقف فى حجة الوداع ، على ناقة بِمِنًى ، والناس يسألونه..فجاء رجل فقال : لم أشعر ،فحلقت قبل أنحر ، فقال : « انحرولاحرج » ثم جاء آخر فقــال : نحرت قبل أن أرمى ، فقال : « ارم ولاحرج » ،ثم أتاه ثالث ، فقال : أفضت إلى البيت قبل أن أرمى ، فقال : « ارم ولا حرج » . . قالوا .: فماسئل النبى عن شىء مما ينسى المرء أو يجهل من تقديم بعض الأمور على بعض ، إلا قال :« افعلوا ولاحرج ! »

هذا ، وقد توجه الأمر فى قوله تعالى : « وأتموا الحج والعمرة لله » إلى الحج والعمرة معاً ، ولهذا رأى بعض الفقهاء أن العمرة واجبة ، على حين رآها بعضهم سنة ، حيث انفرد الحج وحده بالوجوب فى قوله تعالى « ولله على الناس حِجُّ البيت من استطاع إليه سَبيلا » .

وقوله تعالى : « فإن أُحْصِرتم » إشارة إلى ماقد يعترض الحاج من معوقات وهو فى طريقه إلى الحج ، فيحال بينه وبين أن يمضى فى طريقه إلى غايته ، وذلك كأن يقطع الطريقَ على الحجيج عدو ، أو ينزل بالحاج مرض مقعِد ، ونحو هذا .. والحصر معناه : الحبس والمنع .

وقوله سبحانه : « فما استيسر من الهدى » أى فقدموا وانحروا ماوقع لأيديكم من الهدى ، مما قدرتم عليه من غير مشقة .

وقوله جلّ شأنه : « ولاَ تحلِقوا رُءوسَكُمْ حتى يبلغ الهدى محله » إشارة إلى التحلل من الإحرام ، فحلق الرأس للحاج لايكون إلا بعد أن يؤدى أعمال الحج ، ثم ينحر ، ويحلق !

ومحلّ الهدى مكانه الذى ينحر فيه ، وهو بالنسبة لمن أُحصر وحبس — المكانُ الذى حصِر فيه ، أما من لم يحصر فمحل هديه هو البيت الحرام .
أما قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو به أذى مِن رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك » فهو فى حكم الحاج الذى عرض له فى حجه عارض فى رأسه أو فى جسده ، فحلق ، أو خلع ملابس الإحرام ولبس المخيط .. فمثل هذا الحاج قد أبيح له ذلك،على أن يَفدى الحرمة التى أحله الله منها بما يقدر عليه من ألوان الطاعات ، من صيام يوم أو أكثر ، أو من صدقة قليلة أو كثيرة ، أو من فداء بشاة أو نحوها .. وقيدبعضهم الصوم بثلاثة أيام والصدقة باطعام ستة مساكين ، والنسك بشاة .. ونحن لانرى هذا القيد وارداً على الآية ، وقد يسّر الله بهذا الإطلاق ، والقيد تضييق لما وسع الله فيه .

وقوله تعالى : « فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ » فيه بيان حكم الحاج الذى لم يُحصر ، ولم يُصَب بأذى فى رأسه أو بدنه ، فإن مما يسر الله به على الحاج فى هذه الحال أن يحج معتمراً ، أى يُدخل الحج فى العمرة ، ويؤدى أعمال الحج محلاً بعد طواف العمرة وسعيها ، وعليه فى تلك الحال أن يقدم فدية ، هى ماتيسر من الهدى ، من بدنةٍ إلى شاة .

وقوله تعالى : « فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ » هو بيان لمن لم يتيسر له تقديم الهدى ، فيجزى عنه فى تلك الحالة أن يصوم عشرة أيام .. ثلاثة منها فى أيام الحج ، تنتهى بانتهاء يوم عرفة ، وسبعة بعد أن يعود الحاج إلى بلده وأهله .

وهذا الحكم خاص بمن كان من غير أهل البلد الحرام .

الآية : (١٩٧)

« الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَآ أُولِي الْأَلْبَابِ » (١٩٧)

التفسير : قررت الآية السابقة الحج والعمرة ، وبينت بعض الأحكام والأعمال المتعلقة بهما .. وفى هذه الآية بيان لميقات الحج وظرفه وما ينبغى أن يأخذ به الحاج نفسه من آداب ، خلال تلك الأيام المباركة التى تؤدى فيها تلك الفريضة .

وأشهر الحج هى شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، وهى ليست كلها لأعمال الحج ، وإنما الثلاثة الأيام الأخيرة من عشر ذى الحجة ، هى التى تضم كل أعمال الحج .. ولكن الحجيج إذ يأتون من آفاق مختلفة ، فإن كثيراً منهم يهيىء نفسه ، ويخرج من بلده قبل الوقوف بعرفة ببضعة أشهر ، وبعضهم قبل ذلك ببضعة أيام ، والمدة التى ذكرها القرآن هى المتوسط الزمنى بين من يأتون من أقصى الأرض وبين من هم أهل البلد الحرام . . وهذه الأشهر لا يصح الإحرام بالحج إلا فيها .

وقوله تعالى : « فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ

وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِ » بيان للآداب التى يجب على الحاج أن يلتزمها فى هذه الأشهر ، فيصون نفسه فيها عن كل لَغْو ، ويجنبها كلَّ معصية ، وينأى بها عن الجدال المفضى إلى الخصام والخلاف .

فالحج مدخل إلى طاعة الله ، وسعى إلى التقرب منه ، والتعرض لمغفرته ورضوانه . . ومن أجل هذا خرج الحاج من أهله ، وأعماله ، واتجه إلى ربّه ، وبيت ربّه ، ومن أجل ذلك أيضاً نزع كلَّ ماعلى جسده من ملابس عاش فيها قبل هذه الرحلة إلى الله ، وأصابها ما أصابها مما اقترف من سيئات ، واستبدل بها ملابس الإحرام،التى ينبغى أن يصونها ويصون نفسه فيها عن كل حرام، فلا يتندس بملابسة رفث أو فسوق أو جدال ، وبهذا يكون أهلا لأن يدنوَ من الله ، وينال من رحمته مايناله المتقون .

وقوله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى » دعوة إلى أن يحمل الحاج معه من المال أو الطعام مايكفيه ، حتى لايكون عالة على غيره فى هذا البلد غير ذى الزرع ، ثم لكى لا يكون التزود بالمال والطعام هو كل همِّ الحاج ، فقد نبه الله سبحانه إلى أن هذا الزادوإن كان مطلوباً لسدّ الحاجة ،فإن هناك زاداً خيراً من هذا الزاد يجب على الحاج أن يحرص عليه ، وأن يسعى ما استطاع إلى تحصيله ، وهو التقوى ، فهى الزاد الطيب الباقى،الذى يعين على الوصول إلى الله، والتعرض لمواطل رحمته ، وغيوث رضوانه .

وقوله تعالى : « وَاتقونِ يا أولى الألباب » تنويه بشأن العقل ، وتكريم للعقلاء الذين يحترمون عقولهم ، ويستجيبون لما تدعوهم إليه ، من إيثار مايبقى على مايفنى ، وشراء الآجل بالعاجل .

فالعقلاء الراشدون هم أولى الناس بأن يرجى عندهم الخير ، ويؤمل فيهم الاستقامة والهدى . . وفى هذا يقول الله تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العُلماءُ » : (٢٨ : فاطر) .

الآية : (١٩٨)

« لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » (١٩٨)

التفسير : أشرنا إلى هذه الآية عند قوله تعالى : « إن الصَّفَا والمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللهِ فَمَن حجَّ الْبَيْتَ أو اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عليه أن يطَّوَّف بهما » وقلنا إن معنى قوله تعالى «فلا جُنَاحَ عليه » أى لا حرج عليه ، وهو رفع لشبهة فى فعل أمر يبدو أنه محظور ، وهو فى الواقع مندوب محبوب :

وهنا فى هذه الآية رفع الحرج عن ذكر الله ، والاستزادة من فضله ورحمته بعد الإفاضة من عرفات ، وانتهاء أعمال الحج ، إذ بانتهاء هذه الأعمال قد يقع فى حساب بعض الناس ، أنه وقد أدى فريضة الحج فقد فرغ من أعمال البرّ ، وأنه قد أنهى رحلته التى قطعها إلى الله ، وليس عليه من بأس أن يعود كما بدا ، إذا ليس أمامه طريق مرسوم للعمل فى هذا المجال ، وأنه إذا أدخل شيئاً من عنده على أعمال الحج ، ولو كان من قبيل البر والخير ، فربما يكون قد خرج عن الطريق المرسوم ــ لهذا جاء قوله تعالى : ليس عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغوا فَضْلاً من ربكم » رافعاً لهذا الحرج ، مُزيلا لذلك اللبس ، واصلاً الحاج بالخير .

وفى قوله تعالى : « فإذا أَفَضْتُم مِن عَرَفاتٍ فاذكروا اللهَ عند المَشْعَر الحرام » فتح لطريق جديد من طرق التقرب إلى الله ، وذلك أنه بعد أن يُفيض الناس من عرفات ، تتدفق جموعهم منها إلى المشعر الحرام ، وهو المزدلفة ،

هنالك يكون لهم ذكر لله ، ولَهَجٌ بالثناء عليه ، بما علّمهم من صيغ حمده وتمجيده ، وإن كانوا من قبل هذا العلم لا يعرفون كيف يتصلون بالله ، وكيف يجدونه فى قلوبهم ، ويرطبون ألسنتهم بحمده وذكره .

الآيتان : (١٩٩ - ٢٠٠)

« ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢)

التفسير : ومن المزدلفة تكون الإفاضة والانتشار فى وجوه الأرض ، حيث تتم أعمال الحج ، وحيث يتوجه الحاج إلى الله أن يتقبل حجّه ، ويغفر ذنبه ، ويتجاوز عما كان قد وقع منه ، مما نهى الله عنه من رفث أو فسوق أو جدال « إن الله غفور رحيم » .

فإذا ختم الحاج حجّه باللّجأ إلى الله ، والابتهال إليه أن يتجاوز عن سيئاته ، ويتقبل حجّه ، لم يكن له — وقد ذاق لذة الطاعة ، ووجد ريح الرضوان — أن يتحول عن هذا الطريق الذى سلكه ، وأن ينشىء له طرقاً أخرى ، تقْطعه عن هذا الطريق ، وتباعد بينه وبين الله .

لهذا جاء قول الله تعالى : « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أوْ أشدَّ ذكراً » ملفتاً إلى تلك المشاعر التى تترصد الإنسان على نهاية

الطريق ، بعد التحلل من الإحرام، واسترداد الجسد ملابس الحِلّ ، وعندها يجد الإنسان ذاته التى كان عليها قبل أن يحج ، فكان قوله تعالى هذا تنبيها إلى هذا الخطر الذى يقدم عليه الحاج ، وأنه لن تنقطع صلته بالله بعد أداء هذه الفريضة، بل إن هذه الفريضة ستزيد تلك الصلة قوة وعمقاً : « فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً » أى ليكن ذكركم الله ، والتفاتكم إليه ، ورجاؤكم فيه كذكر الابن أبويه ، والتفاته إليهما ورجائه فيهما ، بل وأكثر من هذا ذكراً والتفاتاً ورجاء .. فالله سبحانه هو الذى يرعى الولد والوالدين جميعاً !

ثم إن الناس فى لَجَئِهم إلى الله ، وضَرَعهم إليه ، فريقان : فريق يطلب الدنيا ، ويقيم علاقته مع الله على طلب المزيد من أشياء الحياة الدنيا ، دون أن يقيم وزناً للحياة الآخرة ، وما ينبغى أن يعدّه لها من صالح الأعمال ! فهذا فريق شغلته دنياه عن آخرته ، إذ غلبت عليه شهوة المال وزينة الحياة ، فلم تتسع نفسه لشىء غيرهما .. وفريق آخر . هُدِىَ إلى الحق ، وإلى طريق مستقيم . . فأخذ من الدنيا بنصيب ، ومن الآخرة بنصيب ، يقول : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » .

وفى قوله تعالى : « أولئك لهم نصيب مما كسبوا » إشارة إلى هؤلاء الذين هُدوُا إلى الحق ، وأن ما كسبت أيديهم ليس لهم منه إلا هذا الذى كان لحساب الآخرة ، فهو الباقى الذى يجدونه عند الله ، وماسواه مما كان للدنيا فهو إلى زوال وإلى عدم ، فإن قوله تعالى : « مما كسبوا » يدل على أن ما كسبوه للدنيا لا معتبر له ، وأن لهم بعضَ ما كسبوا ، وهو ما كان للآخرة ، لا كل ما كسبوا مما هو للدنيا وللآخرة ، قال الله تعالى : « والباقياتُ الصالحاتُ خَيْرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ أملاً » (٤٦ : الكهف) .

الآية : (٢٠٣)

« وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ » (٢٠٣)

التفسير : بعد أن نبّه الله سبحانه إلى ذكر الله ذكراً دائماً متصلا بعد أداء مناسك الحجْ ، حتى يظل المؤمن على هذا الطريق الذى استقام عليه وهو يؤدى هذه المناسك ـ بعد هذا نبّه سبحانه إلى ذكره ذكراً خاصًّا فى أيام معدودات موصولة بأيام الحج مباشرة ، وهى أيام التشريق الثلاثة .

وفى قوله تعالى : « فى أيام معدودات » إشارة إلى أنها أيام محصورة بالعدد ، على خلاف قوله تعالى : « الحجّ أشهر معلومات » وقوله سبحانه : « لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اللهَ فى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى ما رزقهم من بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ » : (٢٨ : الحج) فالأشهر والأيام هنا معلومة ، هى أشهر الحجّ ، وأيام الحجّ المحصورة فى شوال وذى القعدة وعشر من ذى الحجة .

والحكمة فى الأمر بذكر الله هنا فى أيام معدودات لامعلومات علماً محددا ، هى السماح بشىء من الحرية فى تقديم وقتها أو تأخيره ، حسب ظروف الحاجّ ، التى تتحكم فيها كثير من الأمور ، فى غربته تلك عن وطنه وفى انقطاعه عن أهله وولده ، وفى ارتباطاته بالجماعة التى صحبها فى مجيئه ، وسيصحبها فى عودته .. فكل هذه وكثير غيرها أمور تفرض على الحاج ألا يتقيد بزمن، قيداً ملزماً ، لا يستطيع التصرف فيه ..

والأيام المعدودات هى أيام التشريق . ثلاثة أيام العيد ..

الآيات (٢٠٤ - ٢٠٥ - ٢٠٦)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ » (٢٠٦)

التفسير : الكلمة لها معتبرها ولها حسابها فى سلوك الشخص ، وفى توجيهه إلى الخير أو الشر ، سواء أكانت تلك الكلمة مسموعة أو مقروءة، تدخل على الإنسان من العالم الخارجى .. أو ملفوظة ، تتولد فى عالمه الداخلى ، ثم تتصور كائنا مكتملا ، يتحرك بها لسانه ، وينطق بها فمه .

فالكلمة الواردة على الإنسان ، لا تذهب هكذا صوتا ضائعا فى الهواء ، بل إنها تتردد أصداؤها فى كيانه ، وتثير فيه مشاعر بقدر ما تحمل من طاقات الحسن أو القبح ، والحق أو الباطل ، ثم سرعان ما تتحول تلك المشاعر إلى نزوع يتبعه عمل ، ويلتزم به سلوك .

والكلمة الصادرة من الإنسان ليست مجرد صوت منطلق منه ، بل هى مدركات تحولت إلى مشاعر ، ومشاعر تصورت فى كلمات ، وكلمات تشير إلى أعمال ، وتهتف بمنجزات ! .

لهذا كان ذلك الاهتمام العظيم من الإسلام ، للكلمة ، ينطق بها المسلم أو يستمع إليها . . وكان منهجه التربوى فى هذا أعدل منهج وأحكمه . . فهو من جهة ، حَرَسَ سمع المسلم من أن يستمع إلى اللغو من القول ، أو الزور من الكلام ، وأعلى مقام أولئك الذين لا يشهدون الزور وإذا مرُّوا باللغو

مرّوا كراماً ، ثم هو من جهة أخرى أقام على منطق المسلم حارساً لا يدع لـكلمة السوء مُنطَلقا تنطلق منه ، بل وأكثر من هذا ، فإنه نبّه إلى وساوس السوء التى تتحرك فى صدر الإنسان ليميتها قبل أن تتخلّق منها المشـاعر والـكلمات ، فقال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (١٦ ـ ١٨ قٓ) .

وفى قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ من يُعْجِبُكَ قوله فى الحيـاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَـام » فَضْحٌ للـكلمة المنافقة تنطلق من فم المنافق ، منمقة ، مزَوقة ، مموهة ببريق لامع يضلل ويخدع .

فهناك طوائف من الناس تتخذ من الـكلمة الخادعة المنـافقة طريقاً لترويج الباطل ، فيضعون على ألسنتهم كلمات معسولة ، تفيض رقة وتتناغم حناناً ومودة ، ولو ذهبتَ تفتش فى ثناياها ، وتنظر فى أطوائها لوجدتها تَتَنَزَّ قيحاً وصديداً ، وتفور زفيراً وفحيحاً ، بما تحمل فى كيانها من حسد وبغضاء .

هكذا كان موقف المنافقين من رسول الله ، إذا لقوا الرسول هَشُّوا له وتخاضعوا بين يديه ، وألانُوا القول وزينوه ، وأشهدوا الله أن علانيتهم مثل سرهم ، وأن ما يجرى على ألسنتهم منطلق من صميم قلوبهم . . فالمنافق يستر نفاقه بهذا الدهان ، ويغطى كذبه بالحلف بالله وبكل مايحلف به ، وفى هذا يقول الله تعالى لنبيه الـكريم : « فَلَا تُطِـعِ الْمُـكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِـعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ » (٨ ـ ١٠ : ن)

وقوله تعالى : « وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِـدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ » بيان للوجه الآخر من وجهى المنافق ،

فهو كان يلقى النبيّ بهذا الوجه المدهون بالرياء والنفاق ، ثم لا يلبث أن يُلقِى هذا النقاب عن وجهه حين يزايل مكانه ويولّى ظهره ، وهنا يطلق نفسه على سجيتها ، فينفث سموم حقده ، ويرمى بشرر عداوته ، فى كل موقع من مواقع الخير !

وقوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثمِ » يكشف عن الإمعان فى الضلال ، والإغراق فى الخداع والتمويه ، من هذا المنافق الذى يعيش فى ضلاله ونفاقه ، حتى ليكاد ينسى أنه يلبس ثوب النفاق ، ويتزيا بزى الباطل . . فإذا قال له قائل : « اتق الله » فى نفسك وفى الناس ، واقتصد من هذا الشرّ الذى تزرعه فى كل مكان ، وتخفف من هذا الفساد الذى توزعه فى كل أفق ـ إذا قيل له هذا أو نحوه أنكر على قائله هذا القول ، ونظر إليه من علٍ نظرة ساخطة هازئة تقول فى غير حياء : وماذا من تقوى الله غير هذا ؟ وماذا على طريق الصالحين والمتقين غير الذى أنا فاعله ؟ » . والله سبحانه وتعالى يقول: « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهم فَلاَ نقِيمُ لَهمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً » * (١٠٣ ـ ١٠٥ : الكهف) . ذلك هو تقدير المنافق ، وتلك هى عاقبة أمره « فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وبئس المهاد » .

الآية : (٢٠٧)

« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءوفٌ بِالْعِبَادِ » (٢٠٧)

التفسير : والناس ـ مع هذا ـ فى خير . . فإذا كان فيهم من يبيع نفسه للشيطان ، ويتزود من دنياه بما يثمر له الباطل والضلال ، فإن فى الناس من يبيع بيعَ السّماح نفسه فى سبيل الله ، حيث ينال الشهادة مع الشهداء ، أو يقيمها على جادة الطريق ، فيكظمها عن كل محرّم ، ويذودها عن كل مأثم ! ولَواحدٌ من هؤلاء الذين سكنوا إلى الله خيرٌ للإنسانية من ملء طِلاع الأرض من أمثال هذا الإنسان المشئوم ، الذى استهواه الشيطان ، فملك زمامه ، واستبدّ بأمره .

وفى قوله تعالى : « واللهُ رءوفٌ بِالعِبادِ » توجيه كريم من أرحم الراحمين لعباده ، الذين يشتدون على أنفسهم ، ولا يَرفقُون بها فيما ينبغى الرفق فيه ، ولا يعطونها حقّها فيما أحل الله من طيبات ، فلمثل هؤلاء يتوجه هذا التوجيه الحكيم الكريم « ولا تقتلُوا أنفسَكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحيماً » (٢٩ : النساء)

الآيتان : (٢٠٨ ـ ٢٠٩)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٠٩)

التفسير : هذه عِدَة كريمة للذين استجابوا لله وللرسول ، فدخلوا فى دين الله ، وأصبحوا فى أمة المؤمنين .. وتحمل هذه الدعوة إليهم أن يدخلوا فى السِّلم كافةً ، والسّلم هو الإسلام والسلام والأمن ، وقد دخل المسلمون فى الإسلام ، وبقى عليهم أن يحصّلوا السّلام والأمن ، وذلك بالتطبيق العملى لدعوة الإسلام ، والرعاية الكاملة لأوامره ونواهيه ، فهذا هو الذى يحقق للمسلم ثمرة الإسلام ، فيجد فى ظلّها السلام مع نفسه ومع الناس ، ويستشعر فى كيانه طمأنينة الرضا ، وثَلَج الرضوان ، بما رعى من حقوق الناس ، وبما أدّى من حقوق الله !

وفى قوله تعالى : « فَإِن زَلَلْتُمْ من بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أن الله عزيز حكيم » تحذير من وساوس الشيطان ، الذى يعمل بكل حوله وحيلته ، على أن يُغوى المستقيم ، ويضل المهتدى ، فليس لهجماته على الإنسان موعد ، بل إنه هو الذى يتخيرّ الفرصة المواتية ، ويتفقد أضعف المواقع فى الإنسان لينفذ إليه منها ، ويُعمل أسلحته فيها .

وليس مثل زلّة من عرف الحق ، وارتفعت لعينيه أمارات الهداية ، وأعلام الهدى . . إنّها زَلّة مزلزلة ، وسقطة قاتلة ، قلّ أن يسلم منها الإنسان إلا إذا استجمع كل قوته وإرادته ، وإلا إذا استدعى غائب رشده ، وعازب حكمته ، وإلا إذا ذكر أنّه إنسان مهيأ للسموّ ، بما فيه من نفحات علوية من عزيز حكيم ، منه تستمد العزة والحكمة .. فليطلبهما الإنسان فى هذا الموطن ، الذى إن استسلم فيه للهزيمة هوى إلى مرتبة الحيوان ، وإن جاهد وانتصر ارتفع إلى ما فوق الإنسان ! .

الآية : (٢١٠)

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (٢١٠)

التفسير : الاستفهام هنا إنكارى ، يجرى مجرى النفى ، أى ما ينظرون إلاّ أن يروْا بأعينهم اليوم الموعود ، أى يوم القيامة ، حيث يتحقق لهم ما هم فى شك منه ، ويومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يُسْتَعْتَبون ، فقد جاءتهم البينات على يد رسل الله الكرام ، تبدد كل ضلال ، وتفضح كل باطل ، ولكنهم أصمّوا عنها آذانهم ، وأغلقوا دونها قلوبهم ! .

والملاحظ هنا أن الإنكار موجه إلى غير معلوم ، فلم يجر لهم قبل هذا ذكر يعود إليه الضمير فى قوله « ينظرون »..وهذا التجهيل إنما هو نداء يصك آذان أولئك الضالين فى متاهات الكفر والنفاق ، والبغى ، والسفه ، ويهتف بهم أن يجيئوا من كل أفق ، ليكونوا هذا الفاعل المطلوب للحساب فى هذا اليوم الذى أنكروه ولم يعملوا له حسابا ! وهؤلاء هم اليهود الذين تجاهلوا يوم الحساب وجروْا على أهوائهم ، لا يرجون لله وقاراً ، فقام الاتهام عليهم من غير أن يُذكروا ، وذلك للتشنيع عليهم بأن كل تهمة لا يُعرف فاعلها عالقة بهم ، حيث كانوا هم أحقّ الناس بها وأهلَها .

قوله تعالى : « وقضى الأمر » الواو هنا للحال ، والجملة بعدها حالية ، أى ما ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَل من الغمام والملائكةُ وقد مضى الأمر .

ويمكن أن تكون الواو للعطف على محذوف دل عليه الكلام ، والتقدير : ما ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة ، ويومئذ يرون الحق الذى جحدوه ، ولكن لا سبيل لهم إلى إصلاح ما أفسدوا ، فقد وقعت الواقعة وقضى الأمر : « وإلى الله ترجع الأمور » .

الآية : (٢١١)

« سَلْ بَنِى إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » (٢١١)

التفسير : فى الآية السابقة انتقل اليهود المنكرون للبعث نُقلة سريعة مفاجئة إلى يوم القيامة ، فى مسيرة مجهدة مرعبة . . انتقلوا من عالم الأحياء إلى عالم الأموات . . فُضمّت عليهم القبور وأكلتهم الأرض . . ثم بعثوا أحياء

من جديد . . ثم سيقوا إلى الموقف . . ثم أحضروا للحساب بين يدى الله . . ثم أخذ بهم إلى مصيرهم المشئوم ! .

وإذا هم على مشارف الهاوية فى هذه الرحلة المثيرة ، قد أوقظوا من هذا الـكابوس المزعج الخانق ، وما كادوا يفتحون أعينهم ، ويستشعرون وجودهم حتى رأوا أنفسهم أمام هذه المواجهة بهذا الاتهام : « سَلْ بَنِى إِسْرَائِيل كَمْ آتيناهم من آيةٍ بَيِّنَةٍ ؟ » والسؤال وإن كان مطلوباً من النبيّ أن يوجهه إلى بنى إسرائيل فى هذا الإعلان العام ، فإنه سؤال مطلوب من كل إسرائيلى أن يوجهه إلى نفسه ، وأن يعطى الجواب عليه فيما بينه وبين نفسه ! .

وقد يسأل بنو إسرائيل أنفسهم هذا السؤال ، وقد يجيبون عليه ، ولـكنهم لا يقعون على الحق ، ولا يهتدون إليه ، وخاصة فيما بيّنه الله تعالى لهم من دلائل النبوة المحمديّة ، الناطقة به ، الـكاشفة عنه ، لأنهم بدّلوا آيات الله وحرّفوا كلماته ، فـكان انحرافهم عن الحق ، وتخبطهم فى الضلال ، هو مما صنعته أيديهم ، والتوت به ألسنتهم : « ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » فإنه ليس نعمة أتم وأعظم من نعمة العلم الذى يهدى إلى الحق ، ويكشف الطريق إلى الله ، فمن جحد هذه النعمة ، ومكر بها ، فقد وقع تحت غضب الله واستحق شديد عذابه .

الآية : (٢١٢)

« زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢١٢)

التفسير : هذا معرِض آخر للذين كفروا من اليهود ومن على شاكلتهم . . فقد زُيّن لهم سوء عملهم فرأوه حسناً ، وبدا لهم أنهم فى صفقة رابحة مع

ما فى أيديهم من هذه الدنيا التى آثروها على كل شىء ، وباعوا لها أنفسهم ، ولبسوا من أجلها أثواب الرياء والنفاق ، ثم هم مع هذا ينظرون إلى الذين آمنوا نظراً ساخراً هازئاً ، إذ يرونهم على غير ماهم فيه من حرص على الدنيا ، ومن استجلاب شَرِهٍ لما فيها من لذات وشهوات ، فتلك هى نظرة أصحاب الدنيا إلى أهل الإيمان والتقوى ، وذلك هو الميزان الذى يضعون أنفسهم فيه مع المؤمنين ، فيرون أنهم أرجح ميزاناً ، وأعلى مقاماً ! .

ولكن هذه النظرة ستتغير ، وهذا الميزان سوف يتبدل ، وذلك يوم الحساب الأكبر ، يوم يوضع الميزان الحق بين الناس ، فإذا أهل الدنيا فى بلاء وضنك ، وإذا المؤمنون فى نعيم مقيم ورضوان دائم . . « فاليومَ الذين آمنوا من الكفّار يضحكون » .

وقوله تعالى : « والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة » معدول به عن أن يقال : « والذين آمنوا فوقهم يوم القيامة » الذى كان يقتضيه سياق النظم ، حيث كان الموقف بين الذين كفروا والذين آمنوا .

وفى وضع الذين اتقوا مكان الذين آمنوا إشارة إلى أن الإيمان مجرداً من العمل الذى يَلْبس به صاحبه ملابس التقوى ـ هذا الإيمان لا يؤهل صاحبه لرضوان الله ، ولا يرفعه إلى تلك المنزلة الرفيعة ، وهذا المقام المحمود .

الآية : (٢٧٣)

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً

بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٢١٣)

التفسير : قوله تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدةً » أى أصلًا واحداً من طبيعة واحدة . . هى الفطرة التى فطر الله الناس عليها . . ثم تناسلوا ، وكثروا وتفرقوا فى وجوه الأرض ، وخضعوا لمؤثرات الحياة ، ووقعت بينهم منازعات ومشاحنات ، وجرى بينهم البغى والعدوان ، وولدت لهم مدركاتهم مواليد من الضلال ، والبهتان ، ففسدت طبيعتهم ، وعطبت فطرتهم ، فغاثهم الله برحمته ، وبعث فيهم رسله ، بكلماته الشافيات ، وآياته البينات ، ليصححوا معتقداتهم ، ويسلكوا بهم مسالك الحق ، ويقيموهم على الطريق السوى ، كما يقول سبحانه : « فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وأنزلَ معهمُ الْكِتَابَ بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه » أى ليكون هذا الكتاب ميزان قسط بين الناس ، يرجعون إليه فى ضبط أقوالهم وأفعالهم ، وليسوّوا عليه حسابهم فيما يقع بينهم من خلاف .

والكتاب هنا هو مجمع كتب الله التى نزلت على رسله ، لأن تلك الكتب فى مضامينها هى كتاب واحد ، ينطق بالحق ويهدى للحق !

وقوله تعالى : « وما اختلفَ فيهِ إلاَّ الَّذينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جاءتهم البيِّنَاتُ بغياً بينهم » تشنيع على أهل الكتاب ، وتنديدٌ بهم ، إذ بعد أن جاءهم الحق من ربّهم ، ووضحت لهم معالم الطريق بما حمل الكتاب إليهم من آيات الله البينات ـ وقع بينهم الخلاف ، وعادوا إلى ما كانوا عليه من فساد عقيدة ، وضلالِ سعى . . فإذا كان لخلافهم وشرودهم عن الحق وجهٌ قبل أن يأتيهم هدى الله ، فإنه لا وجه لهذا الخلاف بعد أن جاءهم الهدى واستنارت أمامهم معالم الطريق !

وهذا الحصر للخلاف فى الحقّ ، والشرود عنه ، وجعله فى أهل الكتاب وحدهم ـ إنما هو لانقطاع العذر عندهم لهذا الخلاف ، بما وضع الله بين أيديهم من آياته ، التي لو انتهوا عندها، ووقفوا على حدودها ، لما ضلوا ولما اختلفوا . . أما غير أهل الكتاب ممن اختلفوا فى الحق ، وضلوا عن سبيله فلهم عذرهم ، إذ لم يكن بين أيديهم من حق وهدى مثل ما بأيدى أهل الكتاب الذين لا عذر لهم ، إذ كان خلافهم وضلالهم عن بغى وعدوان .

وقوله تعالى : « فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لما اختلفوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ واللهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مستقيم » يحدّد موقف الذين استجابوا لله وللرسول ، واتبعوا ما أنزل على « محمد » ، واستقاموا على الحق الذى ضلّ عنه أهل الكتاب واختلفوا فيه . وكان ذلك توفيقاً من الله وفضلاً ورحمة بالمؤمنين ، إذ استنقذهم من الضلال والعمَى . « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

الآية : (٢١٤)

« أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ » (٢١٤)

التفسير : أمّا وقد استنقذ الله سبحانه المؤمنين برحمته ، وهداهم الصراط المستقيم بفضله ، فقد وجب عليهم أداء أمانة هذا الدين الذى هداهم الله إليه ، فالدّين ليس مجرد مفاهيم أو تصورات يتلقاها المؤمن من نصوص الشريعة ، وإنما هو مع ذلك سلوك قائم فى ظل هذه المفاهيم وتلك التصورات ، فالطريق إلى الجنة محفوف بالمكاره ، والمؤمنون مُبْتَلَون فى أموالهم وأنفسهم ، ممتحنون

فى إيمانهم وصبرهم ، كما يقول الله تعالى : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ » (٣١ : سورة محمد) ويقول سبحانه « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ » (١٥٥ : سورة البقرة) .

فالذين آمنوا بالله واتبعوا رسول الله ، مُعرّضون لهذا الامتحان الذى يمتحن به المؤمنون ، أتباع رسل الله ، فكم حمل هؤلاء الرسل وأتباعهم من أعباء ، وكم لاقوا من أهوال ، وكم تجرعوا من غصص ، مما رهقهم به سفهاء أقوامهم من جهالات وسفاهات : « مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا » أى اضطربت مشاعرهم وتبلبلت خواطرهم ، واستيأسوا وظنّوا أنهم أُحيط بهم ، فاستعجلوا النصر الذى وعدهم الله ، كما يقول سبحانه : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ » (٢٨ : المجادلة) وقالوا : « متى نصر الله ؟ » وكأنهم يقولون فيما يقولون : أين نصر الله الذى وُعِدْنا به ؟ .

ومن آفاق الحق ومن قلوب أولياء الله الراسخين فى الإيمان ، يجىء هذا المدد الكريم ، يسوق بين يديه بشريات الفرج المرتقب والنصر الموعود : « أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ » .

إن راية الحق لا تنكس أبداً ، إذا هى شُدّت إلى أيد مؤمنة مستمسكة بالحق ، معتصمة بالصبر ، مستعدة للبذل والتضحية ، فإن المجاهدين تحت هذه الراية ، إنما يجاهدون تحت راية الله ، وحسبهم بالله معيناً وناصراً « أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (٣٢ المجادلة)

وقوله تعالى : « ولمّا يأتِكُمْ مثلُ الذين خَلوا من قبلكم » أى ولما تُصابوا بما أصيب به من سبقكم من المؤمنين فى الأمم الماضية من شدائد ومحن ، فالمَثَلُ هنا هو الواقعة المادية ، وليس الصورة اللفظية الحاكية لتلك الواقعة .

الآية : (٢١٥)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » (٢١٥)

التفسير : مما يُبتلى به المؤمن أن يمتحن فى ماله بقضاء الحقوق الواجبة عليه فيه ، فالإنسان بطبعه ضنين بماله ، حريص عليه ، لما المال من سلطان فى هذه الحياة ، يملك به كل شىء ، ويطول به صاحبه أى شىء ! .

وقد فرض الله على المؤمنين حقوقاً فى أموالهم : للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، فإذا واجه المؤمن حاجة محتاجٍ ثم ضَنَّ بماله عن أن يسعفه ويسدّ حاجته : فقد قصر وأثِم ، وتحلل من عقد وثّقه الله معه ! .

الآية : (٢١٦)

« كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٢١٦)

التفسير : ومما ابتلى به المؤمنون أيضاً أن كُتب عليهم القتال . فذلك أمر لا محيص لهم عنه ، ولا مفرّ لهم منه . . إذ أنهم فى وجه عداوة مستعرة بينهم وبين أرباب الضلال ، وأهل السوء . فالأخيار مبتلون دائماً بأهل السوء ، ومن هنا كان هذا الصراع المتلاحم بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال .

فالقتال فرض لازم على المؤمنين، إن أرادوا أن يكون لهم وجود وأن تكون للحق راية!.

والقتال أيًّا كان، وفى أى وجه يكون، هو مكروه، لا تقدم عليه النفوس إلا متكرهة له، ضائقة به. ولهذا كان قوله تعالى. «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم» عزاء للنفوس ومواساة فى لها فى حمل هذا المكروه، وإساغة ما فيه من مرارة، إذ ليس كل ما تستقبل النفوس من مكروه شراً لا خير فيه، وليس كل ما تستقبل من محبوب خيراً لا شرّ معه. فقد يركب المرء المكروه فيحمله إلى مواقع الخير، ويركب المحبوب فيسوقه إلى مهاوى الرّدى!. والأمور دائماً بخواتيمها، المحجبة وراء الغيب، والكائنة فى علم الله، والمحكومة بقضائه وقدره.. وما فرضه الله علينا فالخير كلّه فيه، وإن اقتضانا جهداً، وحمّلنا أعباء، فإنه لا أجر بلا عمل، ولا عمل إلا ببذل، وعلى قدر المشقة يكون الجزاء: «والله يعلمُ وأنتم لا تعلمون».

* * *

الآية: (٢١٧)

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٢١٧)

التفسير : شنّع المشركون على المسلمين لأن قاتلوهم فى الشهر الحرام ، ووقع فى نفس المسلمين شيء من الحرج من القتال فى الأشهر الحرم ، وجالت فى أنفسهم خواطر التساؤلات ، فجاءت آيات الله تجلو هذا الموقف ، وتكشف هذا الحرج .

وقد بيّن القرآن الكريم فى قوله تعالى : « الشّهرُ الحرامُ بالشّهرِ الحرامِ والحراماتُ قصاصٌ » موقفَ المسلمين من حرمة الأشهر الحرم إذا بدأ هم العدو بقتال فيها ، وأنه لا حرمة لهذه الأشهر حينئذٍ ، إذ كانت حرمة دمائهم فوق كل حرمة ! .

وهنا جاء قوله تعالى : « يسألونك عن الشهر الحرام ، قِتالٍ فيه » تحريراً للسؤال الدائر فى شعور المسلمين وعلى ألسنتهم . . وقوله تعالى : « قتالٍ فيه » بدل من الشهر الحرام . . أى يسألونك عن الشهر الحرام . . أى يسألونك عن الشهر الحرام ، عن قتال فيه .

وكان قوله تعالى : « قُل قتال فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيل الله كفرٌ به والمسجدِ الحرام ، وَإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله والفتنة أكبر من القتل » ـ جواباً شافياً لهذا السؤال الحائر .

ومفهوم هذا الجواب : أن القتال فى الشهر الحرام إثم كبيرٌ . . ولكن الصدّ عن سبيل ، والكفر بالله وبالمسجد الحرام بما استباح المعتدون من حرمته ، وإخراج أهله المؤمنين به من جواره . . كل هذه الحرمات المستباحة أكبرُ فى استباحتها إثماً من استباحة القتال فى الشهر الحرام . . إذ الفتنة أكبر من القتل ، والمشركون يعرضون المؤمنين للفتنة فى دينهم بصدّهم عن سبيل الله ، وإخراجهم من ديارهم بالبلد الحرام . .

وفى قوله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يَرُدّوكم ، عِنْ دِينكِمُ إن استطاعوا ومن يَرْتَدِدْ منكم عن دِينهِ فَيمُتْ وهو كافِرٌ فأولئك حَبِطتَ أعمالهم

فى الدُّنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ما يكشف للمسلمين عن نوايا العدوان التى يبيتها لهم المشركون ، وأنهم مصرّون على قتالهم حتى يبلغوا منهم ما يريدون ، وهو ارتدادهم عن دينهم ، وعودتهم إلى ما كانوا عليه من شرك ، ماوجدوا إلى ذلك سبيلا ، وما مكّن لهم ضعاف الإيمان من تحقيق ما أرادوا .

ثم يتوعد الله سبحانه وتعالى أولئك الذين دخلوا فى الإسلام ، ثم لما أن مسّتهم شىء من البأساء والضراء ، ارتدوا على أدبارهم ، وارتدَوْا لباس الشرك من جديد ـ توعدهم سبحانه بالبوار والخسران فى الدنيا ، والعذاب الأليم فى الآخرة : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

وقوله تعالى « فَيَمُتْ وهو كافِر » هو قيد وارد على الشرط فى قوله سبحانه : « ومن يرتد منكم عن دينه » فالحكم الواقع على المرتد هنا ـ وهو خسران أعماله فى الدنيا وعذابه فى الآخرة ـ ليس على إطلاقه ، وإنما هو لمن ارتد ثم ثبت على رِدته إلى أن مات . . أما من نظر إلى نفسه ، واستنقذها من الشرك ، وعاد إلى الإيمان بقلب سليم ، ونفسٍ لوّامة ، فقد غسل حوبته بتوبته ، ومسح بنور إيمانه على ظلام شركه : « وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أو يظلم نَفْسَهُ ثم يستغْفِرِ الله يجد الله غفوراً رحيماً » (١١٠ : النساء) .

وأما قوله سبحانه : « فأولئك حَبِطتْ أعمَالُهمْ فى الدُّنيَا والآخِرةِ . . » فهو حكم على حياتهم وهم فى لباس الشرك ، بالبوار والخسران فى الدنيا والآخرة . . أما فى الدنيا فلأنهم يعملون فى تجارة خاسرة ، وإن خيّل إليهم أنهم قد ملئوا أيديهم من دنياهم ، وضمنوا السلامة فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، فذلك كله إلى زوال . وأما فى الآخرة فلأنهم يساقون إليها وقد صفرت أيديهم من كل شىء يعود عليهم نفعه فى هذا اليوم ، فضلا عما يثقل ظهورهم من أوزار الشرك والضلال . .

الآية : (٢١٨)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢١٨)

هذه الآية تُفرد الذين آمنوا وثبتوا على إيمانهم ، واجتازوا المحنة ، ونجَوْا من الفتنة ـ تفردهم بذكر خاص ، وتنوّه بهم ، وتدنيهم من رحمة الله ورضوانه، وذلك فى مواجهة أولئك الذين واجهوا المحنة فلم يصبروا ولم يُصابِروا ، ففروا من ميدان المعركة تاركين دينهم الذى ارتضوْه سَلَباً ماقى فى ساحة الحرب !

هذا وفى الآية الكريمة :

أولاً :قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والَّذِينَ هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله» فَصَلَ بين الذين آمنوا وبين الذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ، فلم يجعلهم نسقاً واحداً داخلاً فى صلة الموصول الأول ، بل أفردهم بذكرٍ خاص ، فكأن الذين آمنوا صنف ، والذين هاجروا وجاهدوا صنف آخر . ولو كانوا صنفاً واحداً لجاء النظم هكذا : « إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدو . ولكن هكذاَ جاء نظم القرآن بجلاله وروعته وإعجازه ، ليضع موازين الحق فيما يقول . . فالمؤمنون ـ مطلقَ الإيمان ، بلا هجرة ولا جهاد ـ هم صنف وحدهم فى المؤمنين .

والمؤمنون المهاجرون المجاهدون ، هم صنف آخر يختلف عن الصنف الأول بميزات وفضائل . . ويحق لهم بهذه الميزات وتلك الفضائل أن ينوه بهم ، ويرفع شأنهم بين المؤمنين . إذ الإيمان بلا عمل نبات لا ظل له ، ولا ثمر فيه .

ثانياً : قوله تعالى : « أولئك يرجون رحمة الله » وَضَع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله ، ولم يعطهم الثواب المغفرة والرضوان على القطع والتحقيق ، وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء

على عمل دائم ، وجهاد متصل ، وهذا على خلاف ما إذا سوّى حسابهم بعد الهجرة وبعد كل موقف من مواقف الجهاد ، فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديداً ، أو يخِفّوا للجهاد ، مرة بعد مرّة .

ثم إنه من جهة أخرى يُرِى الذين آمنوا ـ مجرد إيمان ـ ولم يهاجروا ولم يجاهدوا ـ يريهم شناعة موقفهم ومغبّة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين ، ويرفع لأعينهم بُعْدَ ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه ، إذ يروْن المهاجرين المجاهدين ولمّا يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان ، وأنهم ما زالوا على رجاء ! فكيف بالذين آمنوا ، ولم يهاجروا ولم يجاهدوا ؟ إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسّلامة ، وإن عليهم أن يحثّوا المطىّ إلى ميدان الهجرة والجهاد ، ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين ، وليكونوا بمعرض من رحمة الله ورضوانه ! .

الآيتان : (٢١٩ ـ ٢٢٠)

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٢٠)

التفسير : هنا عدة قضايا عَرَضت لها هذه الآيات ، وقضت فيها بأحكام إلهية ، كانت سَكَناً لوساوس السائلين ، وطمأنينة لحيرة الحائرين . .

فهنا قضية الخمر والميسر ، وقضية القَدْر الواجب إنفاقه من مال ذوى المال ، ثم قضية اليتامى وحقهم فى المجتمع ومكانهم فيه .

ويلاحظ أن هناك قضيةً كانت مثارةً من قبل ، وهى قضية الأشهر الحرم وما يقع فيها من قتال ، وأن هذه القضايا قد انعزلت عنها ، فلم تُعطف عليها ، ولم تدرج معها فى سجل واحد ، ولهذا جاءت منقطعة عنها ، فلم يقع بينهما حرف عطف .

وفيما يبدو لنا ـ والله أعلم ـ أن هذه القضايا الثلاث تختلف فى موضوعها عن قضيه الأشهر الحرم . ولهذا كان لها هذا الوضع الخاص الذى سمح لها بأن تنحاز جانباً ، وتُنظر فى غير مواجهه سابقتها .

فموضوع الأشهر الحرم يتناول رفع الحرج والحظر عن أمر كان محرماً محظوراً ، ولكنه رفع مؤقت ، جاء نتيجة لعارض عرض ، فإذا زال هذا العارض زال رفع الحرج ، وعادت الحرمة والحظر .

أما موضوع الخمر والميسر فعلى عكس هذا ، إذ هو يعرِض لأمرٍ كان مباحاً ديانة وعرفاً فى حياة الجاهلية ، فيؤثمّه ويجرُّمه . فالخمر والميسر مما كانت الجاهلية تعيش فيهما ، وتشتغل بهما فى غير تحرج أو تأثم من أمر دين أو ناموس مجتمع .

وأما قضية النفقة الواجبة فى مال ذوى المال فهى فى المباح المطلق ، ويراد له هنا أن تحدد حدوده ، وتوضح معالمه .. وكذلك الشأن فى اليتامى وحقهم فى المجتمع . . إذ كان هذا الحق مجهّلا ، فرفعت جهالته وعرف وجهه . فهناك ـ فى حرمة الأشهر الحرم ـ حرام ترفع حرمته ، وهنا ـ فى القضايا الثلاث ـ حلال يحرّم ، أو تقام حدوده ، أو ترفع جهالته . . ولهذا كان القطع ، وعدم التعاطف بين الأمرين .

وننظر فى هذه القضايا الثلاث فنجد :

قوله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخمرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ للنّاسِ وإثمهما أكبَرُ من نفْعِهما ». هذه إشارة حادّة من إشارات السماء ، إلى أمرين من أمور الجاهلية ، كانت حياتهم متلبسة بهما ، دائرة فى فلكهما ، وهما الخمر والميسر ، وقد كان هذان المنكران متلازمين ، لا يكاد يفترق أحدهما عن الآخر . . فحيث كان خمر كان معه ميسر ، وحيث كان قمار ومقامرة دارت كئوس الخمر ودارت معها رءوس النّدمان . . ولهذا قرنهما الله سبحانه فى هذا المقام . . الخمر والميسر ، ودمغهما بالإثم .

والحكم ـ كما ترى ـ أنهما يحملان فى كيانهما قدراً كبيراً من الإثم ، إلى جانب ما يحملان من نفع . . وإن كفة الإثم فيهما ترجح عن كفة النفع .

ويلاحظ أن التعبير بالإثم جاء فى مقابله لفظ النفع ، والنفع لا يقابل الإثم ، وإنما يقابل الضرّ . . وهذا يعنى أن الإثم ليس مجرد ذنب ومعصية ، يضاف حسابهما إلى الحياة الآخرة ، بحيث لا يجد من يقترفهما ممن لا يؤمن بهذه الحياة ما يضيمه أو يضيره ، بل إن هذا الإثم هو ذنب ومعصية يترصد صاحبه فى الآخرة ، ثم هو ضرر وشر يصيب مقترفه فى الدنيا .. ومعنى هذا أن صاحب الخمر والميسر إن كان لا يؤمن بالحياة الآخرة ولا يخاف مأثماً منهما ، فإنّ ما فيهما من ضرر يصيبه فى حياته الدنيا .. فى جسده وماله ، جدير به أن يخيفه ويزعجه ، ويقيمه منهما على حذر وتخوف ، فكيف بصاحب الدِّين الذى ينظر إلى هذين المنكرَيْن وقد أصاباه فى دينه وفى دنياه جميعاً ؟ .

هذا ، وليس جمع « المنافع » بالذى يرجّح كفة الشر على الخير ، فى جانب الخمر والميسر ، فإن هذا الجمع لا يتجه إلى النفع فى ذاته وقدره ، وإنما هو لتعدد وجوه الناس فى التماس الكسب منهما . . فمن صانع للخمر ، إلى جالب لها ، إلى بائع ، إلى ساق ، إلى مغنٍّ فى حانها . . إلى غير ذلك ممن يعملون للخمر

وفى طريقها .. وكذلك الميسر وأصناف الناس الذين يجتمعون عليه ، ويعملون فى ميدانه ! .

أما الإثم فهو الإثم ، وإن تعددت مصادره ، واختلفت موارده ، والوصف الذى يلحقه هو الذى يفرق بين إثم وإثم ، فيقال إثم كبير ، أو عظيم ، أو غليظ ، أو يُسكت عنه فلا يوصف بوصف ما . . ويكفى فى وصفه فى هذه الآية أن يقال : « إثم كبير » فيكون وصفاً جامعاً لكل منكر .

ويتفق المفسرون على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنْصَابُ والأزلامُ رجسٌ مِنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحُون » (٩٠ : المائدة) .

ونحن . . على رأينا فى موضوع النسخ . . لا نرى فى هذا نسخاً للآية الكريمة ، بل هى محكمة عاملة ، وكذلك كل الآيات التى جاء فيها للخمر ذكر أو حكم ، كما أوضحنا ذلك من قبل فى مبحث « النسخ » .

قوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ » .. العفو : ما زاد عن حاجة الإنسان ، فى قصد واعتدال ، بلا سرف ولا تقتير .

وحيث كُفِىَ الإنسان حاجته فإن واجباً عليه ـ ديانةً وإنسانية ومروءة ـ أن يسمح بما زاد عن هذه الحاجة ، فيدفع به حاجة المحتاجين .. إذ كيف يكون الإنسان إنساناً بارًّا بإنسانيته ، وفى يده فضل مال أو متاع ، وفى الناس من أهله وجيرانه ، وقومه ، من هو فى حاجة إلى بعض هذا المال أو المتاع ؟ .

لهذا جاءت شريعة الإسلام بهذا التوجيه الإنسانى الكريم ، الذى يصل الناس بالناس ، بصلات المودة والرحمة ، ويجعل منهم كياناً واحداً

متكافلاً تتوزع فيهم خيرات الأرض وأرزاق السماء بحكمة وعدل ، كما يتوزع الدم من القلب على سائر أعضاء الجسد عضواً عضواً ! .

وإنفاق العفو الذى لا يضر الإنسان ولا يجور على مطالبه ، هو من البرّ بالمنفِق والرحمة له ، حتى لا يحمله الدافع الإنسانى على أن يجاوز الحد فيتحَيّف حقّه فى ماله ، ويجور على نفسه فيما آتاه الله ، فيخرج مما فى يده جملة ، ويصبح فى جبهة المحتاجين بعد أن كان فى جماعة المنفقين ، وتلك حال لا يرضاها الإسلام من المسلم ، إذ الإسلام يريد بهذه المواساة الكريمة أن يستنقذ بعض ذوى الحاجات ليقلّ عددهم ، وتضمر أعدادهم . . وصاحبنا بفعلته هذه ، قد أضاف إلى المحتاجين محتاجاً ، وربما لم يكن بما فعل قد استنقذ واحداً منهم ، وإن كان قد أعطى الدواء المسكن لآلام الكثيرين .

قوله تعالى : « كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياته لعلكم تتفكرون (٢١٩) فى الدنيا والآخرة » أى بمثل هذا البيان الواضح الشافى يبين الله لكم أحكامه فى آياته المحكمة ، لتكونوا على رجاء من التعرف على مواقع الخير والشر ، فتُقبلوا على الخير وأهله ، وتجتنبوا الشر ودواعيه ، ولتفرقوا بين ما هو للدنيا وما هو للآخرة ، فذلك هو الذى يقيمكم على الصراط المستقيم .

وفى الانتهاء بفاصلة الآية عند قوله تعالى : « تتفكرون » ثم بدء الآية بعدها بقوله سبحانه : « فى الدنيا والآخرة » ـ فى هذا تحريض على استحضار العقل دائماً ، ودعوته إلى النظر المطلق فى رحاب هذا الكون ، وفى كل ما يدور فى فلك الحياة . . ثم يجىء بعد هذا ، النظر إلى أمور الدنيا فى مواجهة الآخرة ، وما يدّخر منها لهذا اليوم العظيم ، وعندئذ يجىء النظر صائباً ، ويقع متمكناً ، بعد أن يكون العقل قد دار دورته الشاملة فى هذا الكون الرحيب!!

قوله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى قُلْ إصْلَاحٌ لهم خَيْر » ..خيرُ ما يؤدَّى

لليتيم من إحسان إليه وبِرٍّ به ، هو أن يربّى تربية طيبة ، تبلغ به مبلغ الكمال والرشد ، حتى يستقل بشئون نفسه ، ويتولى رعاية أموره ، وتلك هى الأمانة التى جعلها الله فى عنق من يقومون على اليتامى ، من أولياء وأوصياء ، فإذا قصروا فيها كان حسابهم عليها بين يدى الله على قدر ما قصروا .

قوله تعالى : « وإن تخالطوهم فإخوانكم » أى وإن تضموهم إليكم وتتولوا عنهم رعاية أمورهم فهم إخوانكم ، لهم مكان الأخوة بينكم ، وما لهذه الأخوة من حقوق .

وفى التعبير عن الإشراف على اليتامى بالمخالطة ، إشارة إلى أن هذا الإشراف ينبغى أن يقوم على صلات روحية ونفسية ، تمتزج فيها مشاعر الأوصياء على اليتامى بمشاعر هؤلاء اليتامى ، ويختلط إحساسهم بإحساسهم ، حتى لكأنهم كيان واحدٌ ، وذلك هو الذى يعطى اليتيم مكاناً متمكناً فى قلب الوصىّ وفى أهله الذين يعيش معهم ، مختلطاً وممتزجاً ، لا منفصلاً ومعتزلا .

وفى التعبير عن اليتامى بقوله تعالى : « فإخوانكم » بدلا من « فأولادكم » كما يقتضيه ظاهر الأمر ، إذ اليتيم لا يكون يتيما إلا فى حال صغره ، الأمر الذى يجعله من الوصىّ بصفة الابن لا الأخ — فى هذا التعبير تنويه بما ينبغى أن تكون عليه نظرية الوصىّ على اليتيم إلى اليتيم ، وهو أن ينظر إليه على أنه مثله وفى درجته ، وإن كان فى مدارج الصِّبا . فهذه النظرة جدير بها أن تقيم الوصىّ دائماً على شعور يقظ ، بأنه إنما يتعامل مع إنسانٍ رشيد ، يرقب أعماله ، ويرصد تصرفاته فى شئونه ، وهذا الشعور يجعل الوصىّ حذِراً فى تصرفاته ، حريصاً على أن يظهر بمظهر الأمين الحريص على مصلحة اليتيم . .
ثم إنه من جهة أخرى ، سيعمل هذا الشعور عمله عند الوصىّ فى الوصول باليتيم إلى مرحلة الرشد فى أقصر زمن ممكن ، بحكم هذه الأخوة الملازمة له ،

والمستقرة فى شعوره ، وهذا شعور معاكس تماماً لما يشعر به الأوصياء نحو اليتامى من أنهم لن يكبروا أبداً ، حتى يظلوا أكبر زمن ممكن تحت أيديهم ! !

فانظر كم أعطت هاتان الكلمتان المباركتان : « وإن تخالطوهم فإخوانكم » من ثمرات طيبة ، وكم تعطيان هكذا أبداً من ثمر طيب مبارك لكل طالب ومريد ؟

وفى قوله تعالى : « والله يعلم المفسِدَ من المصلح » حماية لهذا الشعور الذى أثاره قوله سبحانه : « وإن تخالطوهم فإخوانكم » وتغذية دائمة له من أن يضعف ، إذ يجد الوصى على اليتيم عينَ الله ترقبه ، وعلمه يحيط بكل ما يعمل لليتيم الذى فى يده ، من خير أو شر ، ومن إصلاح لأمره ، ليرشد ويستقلّ بشؤنه ، أو ليفسد ويظل هكذا تحت يده ! .

وفى قوله سبحانه : « وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ » إشارة إلى أن ما قضت به حكمة الله من تكاليف فى شريعة الإسلام ، هو مما لا إعنات فيه ولا إرهاق ، بل هو مما تحتمله النفوس فى متوسط مستوياتها . .

فأوامر الشريعة الإسلامية ونواهيها ملتزمة هذا الموقف الوسط ، الذى جمع أطراف الناس جميعاً ، من أقوياء وضعفاء .

ولو أراد الله سبحانه وتعالى أن يكلف بما هو فوق احتمال الناس ، أو بما يصيبها بالجهد والإعياء لما كان لأحد أن يعترض ، ولكان ذلك شريعة ملزمة ، يحلّ العقاب بمن خرج عليها ، كما فعل الله سبحانه وتعالى ذلك باليهود ، وذلك من باب الابتلاء والفتنة ، التى عافى الله سبحانه وتعالى منها هذه الأمة الإسلامية ، ورحمها من هذا البلاء .

الآية : (٢٢١)

« وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » (٢٢١)

التفسير : فى الآيات السابقة بيّن الله سبحانه حدوداً وأحكاماً ، جلَا بها وجه الحق فيما التبس على النّاسِ من أمر القتال فى الشهر الحرام ، ومن شأن الخمر والميسر . ومن النفقة المطلوبة من مال أصحاب المال ، ومن حق اليتيم على الوصىّ .

وفى هذه الآية بيّن الله تعالى حكم التزاوج بين المؤمنين والمشركين ، فيقضى سبحانه بتحريم التزاوج بينهما ، فلا يحلّ للمؤمن أن يتزوج مشركة ، ولا لمشرك أن يتزوج مؤمنة .

ذلك أن العلاقة الزوجية من شأنها أن تربط بين الزوجين بروابط روحية ونفسية وعقلية ، وقيام تلك الروابط بين مؤمن ومشركة ، أو مشرك ومؤمنة ، يؤدى غالباً إلى إفساد الطبيعتين معاً ، فلا يكون المؤمن مؤمناً ، ولا المشركة مشركة ، كما لا يكون المشرك مشركا ولا المؤمنة مؤمنة . إذ أن كلاً من الزوجين ينضح على الآخر من روحه ونفسه وتفكيره ، فيقيمه على منزلة بين المنزلتين : بين الإيمان والشرك . . وفى هذا ما يدخل الضيم على المؤمن فى دينه ، وربما خرج منه جملة ، فباء بالخسران المبين . أما المشرك فلا خسران عليه ، إذ هو ـ عند الله ـ من الخاسرين ، من قبلُ ومن بعد .

وقد يخطر بالبال هنا أن فى التزاوج بين المؤمنين والمشركين ، ربما يكون من نتائجه تحول المشرك أو المشركة إلى الإيمان ، وفى هذا تعويض للخسارة التى قد تنجم من تحول المؤمن أو المؤمنة إلى الشرك ، وبهذا لا تكون هناك خسارة بالنسبة للمجتمع المسلم ، الذى إن خسر هنا ربح ما يعوض الخسارة هناك !

وهذا التقدير غير سليم ، وغير عادل !

أما أنه غير سليم ، فإن الشرّ غالباً يغلب الخير ، وتتسرب عدواه إلى الخير بالمخالطة أكثر من تسرب الخير إليه ، إذ كان الشر يعمل وأهواء النفوس معه ، وشهواتها مائلة إليه ، جاذبة له !

وأما أنه غير عادل ، فإن فيه مخاطرة بنفس مؤمنة فى مقابل نفسٍ مشركة ، وشتان ما بين نفس ونفس !

وقد أباح الإسلام أن يتزوج المؤمن الكتابية ، ولم يُبح أن يتزوج الكتابى المؤمنة ، وذلك فى قوله تعالى : « وَطَعَامُ الّذِين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكم وطعَامُكُمْ حِلٌّ لهم والمحصنَاتُ من المؤمِناتِ والمحصناتُ من الّذين أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُمْ » : (٥ : المائدة) .

وذلك أن الرجل أقوى من المرأة ، وأقدر على التحكم فى عواطفه ، وأن تأثيره على المرأة أكثر من تأثيرها عليه ، وأنه أحرص على دينه من حرصها على دينها ، وذلك فى الأعم الأغلب .. والحكم للعام الغالب . وعلى هذا كان تقدير الإسلام ، فأباح للمؤمن أن يتزوج الكتابية ، ولم يبح للمؤمنة أن تتزوج الكتابى .

ويَرِدُ على هذا خاطر أيضاً ، وهو أنه إذا كان الأمر على هذا التقدير ، فلم

لايبيح الإسلام للمؤمن أن يتزوج المشركة . . وهو الرجل ، وهى المرأة ، على ما عرفنامن فوارق بين الرجل والمرأة ؟

والرد على هذا فيما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن ذلك من قبيل المخاطرة بنفس مؤمنة فى مقابل نفس مشركة ، وأن الاحتمال وإن كان هنا قويا فى أن يشدّ الرجل المرأة إليه ، إلا أنه معارَض باحتمال آخر ، وإن كان أضعف . وهو أن المرأة قد تغلب الرجل الذى يضعف لها ، وليس بقليل أولئك الرجال الذين يخضعون لسطان النساء . . فكان تدبير الإسلام بالمنع المطلق ، هو التدبير الحكيم ، الحريص على سلامة المؤمن ، وحياطة دينه من أن يتعرض لسوء ، أو يحوم حول فتنة !

الآية : (٢٢٢)

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » (٢٢٢)

التفسير : مما يسأل السائلون عنه ، فيما بين الرجال والنساء هو : هل يحل مباشرة النساء وهن فى المحيض ؟ وقد جاء حكم الله فيه : « هو أذًى ، فاعتزلوا النِّساء فى المحيض » أى هو أذًى تستقذره النفس وتتأذى منه . . وقد تغلب الشهوة على بعض الناس فيحتمل هذا الأذى فى سبيل إرضاء شهوته ، ولكنه ـ مع ذلك وبعد قضاء شهوته ـ يظل وفى نفسه شىء من آثار هذا الأذى ، قد تنضح آثاره على ما بين الزوج وزوجه من السَّكَن الروحى ، الذى بغيره لا تطيب الحياة الزوجية ولا تدوم

ويلاحظ أننا لم ننظر فى قوله تعالى : « هو أذًى » إلا من جانب واحد ، هو جانب الأذى النفسى ، ومع أنّ التعبير القرآنى جعله أذًى مطلقاً ، عاماً شاملاً ، فى جانب الرجل والمرأة معاً ، وفى النفس والجسد جميعاً ـ فإنه حسبنا هنا ما وقع عليه نظرنا ، أما ما يقول به العلم ، وما يكشفه الطب من هذا الأذى ، فلا نريد أن نعرض له ، إذ كان ما يقول به العلم ويكشفه الطب فى هذا الأمر مما لا يقع على حقيقته إلا أهل الذكر من العلماء !

قوله تعالى : « وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ » المراد بالقرب هنا قرب المباشرة لا قرب الحياة من مؤاكلة ، ومجالسة ، وحديث ، وغيرها . . إذ ليس الحيض مما يمسّ طهارة المرأة فى ذاتها كإنسان ، كما ترى ذلك بعض الديانات التى ترى أن المرأة أيام حيضها نجسة فى ذاتها ، وفى كل ما يمسّها اوذلك هو معتقد اليهود !

ومن جهة أخرى فإنا نرى قوله تعالى : « فاعتزلوا النساء فى المحيض » وإن كان يراد به الاعتزال عن المباشرة إلا أنه يشير من بعيد إلى شىء من الإمساك عن المخالطة الدائمة ، التى تكون بين الزوجين فى غير أوقات الحيض . . إذ أن المرأة فى أيام حيضها تكون فى أحوال غير طبيعية ، سواء فى حالتها الجسدية ، أو النفسية ، والإقلال من لقائها فى تلك الحال آمن وأسلم من أن يجد منها زوجها ما لا يرضاه !

قوله تعالى : « فَإِذَا تطهرن فأتوهن مِن حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ » التطهر طهر وزيادة . . فالطهر هو انقطاع دم الحيض ، والتطهّر الاغتسال . أى فإذا اغتسلن فأتوهن من حيث أمركم الله ، أى فأتوهن من حيث ينبغى أن تؤتَى المرأة . . وكان بعضهم يأتى المرأة من دبرها ، وهو انحراف خارج على طبيعة الحياة بين الأحياء ، من حيث كان اتصال الذكر بالأنثى فى عالم الحيوان لا يعدو الموضع الذى يجىء منه النسل ! فكيف لا يعفّ الإنسان عما عفّ عنه الحيوان ؟

وقوله تعالى : « إن الله يحبّ التوابين ويحب المتطهرين » دعوة إلى التزام الطريق القويم لمن كان قد انحرف عنه ، وأتى المرأة من غير المأتى الطبيعى لها ، فباب التوبة مفتوح لمن أناب إلى الله والتزم حدوده : «إن الله يحبّ التوابين» فالتوبة تغسل الحوبة . . وليس مصيبة الإنسان فى أن يخطىء ويزل، فالإنسان بحكم أنه بشر عرضة للخطأ والزلل ، ولكن المصيبة ألاّ يتأثمّ من الإثم ، ولا يتحرج من الانحراف ، فيقيم على إثمه ، ويصر على انحرافه .. وليس يستنقذ الإنسان من أن يحيط به ذنبه إلاّ أن يرجع إلى الله من قريب ، وأن يلقاه نادماً تائباً . . هنالك يجد من ربه رحمة ومغفرة ، ورضى ورضواناً « إن الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهرين » أى المتطهرين من كل أذًى يمسّ أجسادهم وأرواحهم . . !

الآية : (٢٢٣)

« نِسَآءُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » (٢٢٣)

التفسير : قوله تعالى : « نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ » أى محترث ومزدرع ، تبتغون منهن ما يبتغى الحارث والزارع مما يحرثه ويزرعه ، وهو الثمرة التى يجتنيها من زرعه . . وفى هذا دعوة إلى أمور ، منها : رعاية المرأة ، وتدبير أمرها ، وإصلاح شأنها ، وتوفير وسائل الحياة الطبيعية لها ، شأن الزارع الذى يقوم على رعاية زرعه ، وحمايته من كل ما يعرض له من سوء .. ومنها غرس ما يُرجى ثمره ، وما يُنتفع به من ثمر ، وذلك لا يكون إلا بمباشرة المرأة من حيث يؤتى بالولد الذى هو الثمرة المرجوة من هذا الغرس .

وقوله تعالى: « فَأْتُوا حَرْثَـكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ » إطلاق لأى قيد فى اتصال الرجل بزوجه، بعد أن يلتزم الحدود التى بينها الله، وهو ألا يباشرها إلا بعد أن تطهر من الحيض، ثم أن تكون المباشرة فيما ينفع ويثمر..

قوله سبحانه: « وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِـكُمْ » دعوة إلى ألا يكون همّ الرجل كلّه فى مباشر المرأة هو اللذة المجرّدة من كل قصد، إلا إشباع شهوته وإرواء ظمئه.. فذلك عمل مستهلَك لا يبقى للإنسان منه شىء بعد ساعته.. والأولى بالإنسان هنا أن يطلب فى مباشرته المرأة النّسل، وأن يقوم على رعاية هذا النسل، وإعداده إعداداً صالحاً للحياة، ليشارك فى بنائها وعمرانها، وبهذا يكون قد استجاب لأمر الله تعالى فى قوله: « وقدّموا لأنفسكم » فقدم لنفسه عملاً صالحاً يلقاه يوم القيامه: « مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَه فى حَرْثِهِ ومن كان يريد حرث الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وما له فى الْآخِرَةِ من نَصِيبٍ » (٢٠ : الشورى).

قوله تعالى: « واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّـكُمْ ملاقوه » تعقيب على تلك المحظورات التى بينها الله سبحانه وتعالى فى هذه الآيات، وتنبيه إلى أنها من حرمات الله، وأن اتقاءها ومجانبتها هو الذى يُرضى الله، ويحقق المؤمن إيمانه، فيلقى الله آمناً يوم القيامة « وبَشِّرِ المؤمنين » بما أعدّ الله سبحانه وتعالى لهم يوم القيامة من مغفرة ورضوان.

الآية: (٢٢٤)

« وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِـكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٢٢٤)

التفسير: ذات الله سبحانه وتعالى، فى جلالها وبهائها وعظمتها، ينبغى

أن تكون فى قلب المؤمن بمكانتها المكينة من الإجلال والتعظيم ، وأن تصان من كل ما يمسّ هذه المكانة من اهتزاز أو إزعاج ! .

وأسماؤه تعالى ، لها مالذاته سبحانه ، من هذا الإجلال والتوقير والإعظام ، فلا يتلفظ المؤمن باسم من أسمائه جلّ وعلا إلاّ فى مقام العبادة والتسبيح ، وإلا فى حال الضراعة والابتهال .

فليس بالذى يَقْدُر الله حقّ قدره من يتخذ اسم الله يميناً يحلف به ، ويقدّمه بين يدى كل أمر يعرض له ، ويتخذ من جلال الاسم الكريم وعظمته وسيلةً يتوسل بها إلى نفاذ مايحلف عليه إلى مشاعر من يحلف له ، فيحترم حرمة اليمين ، ويصدقه .

فقوله تعالى : « ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم » أى لا تعرّضوا اسم الله تعالى للحلف به فى كل ما يعترضكم من أمور دنياكم ، تريدون لها التوثيق والتوكيد .

وقوله سبحانه : « أن تَبَرُّوا وتتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بين الناسِ » أى لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ولو كان الحلف من أجل أمر تلتزمون فيه قول الحق ، وترعون فيه تقوى الله ، وتصلحون به بين الناس . . لأن الإكثار من الحلف بالله مقام الصدق والتقوى والإصلاح بين الناس ، يفتح للإنسان الطريق إلى الحلف بالله فى مجال الكذب والفجور والإفساد بين الناس ! .

فالنهى عن الحلف بالله فى مقام الصدق والتقوى والإصلاح بين الناس ، ليس نهياً مطلقاً ، وإنما هو نهى عن الإكثار واللا مبالاة ، حيث لا يتحرج المرء من الحلف فى هذا المقام ، وهو يلتزم حدود الصدق والتقوى . . فإن هذا الإكثار فى الصدق ـ كما قلنا ـ يفتح الطريق إلى الحلف بالكذب والفجور ! .

آية : (٢٢٥)

« لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ » (٢٢٥)

التفسير : من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن تجاوز عنهم فيما يقع منهم من أيْمان يجرى بها اللسان من غير قصد ، فلا يراد بها إبطال حق ، ولا إحقاق باطل .. فهذه الأيمان قد تجاوز الله عنها . ولكن ما انعقد عليه القلب منها ، واحتوته النية ، وصحبته العزيمة هو الذى تقع المؤاخذة عليه ، فمن برّ وصدق فلا إثم عليه ، ومن كذب وفجَرَ فعليه وزر ما اكتسب ، « واللهُ غَفُورٌ » يتجاوز عن سيئات المسيئين إذا أنابوا إليه ، ومدُّوا يد الرجاء إلى أبواب رحمته ، « حليم » لا يعجل بأخذ المذنب بذنبه ، بل يمهله الأيام والشهور والسنين ، ليراجع نفسه ، ويستغفر لذنبه ، ويصطلح مع ربه .

الآيتان : (٢٢٦ ـ ٢٢٧)

« لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٢٢٧)

تبين هاتان الآيتان الكريمتان ، حكما من أحكام الله فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، حين تتأزم بينهما الأمور ، وتتصادم النفوس !

ومما يأخذ الرجلُ به المرأةَ من أدب أن يهجرها ، أى لا يتصل بها اتصال الرجل بالمرأة ، وذلك ماتشير إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : واللاتى تخافون نشوزهن

فعظوهن واهجروهُنَّ فى المضاَجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تَبغُوا عَليهن سبيلا إن الله كان عَلياً كبيرا (٣٤ : النساء) وليس لهذا الهجر زمن محدد ، إذ هو مقدور بالقدر الذى يُعدّ كافياً للتأديب والإصلاح !

هذا ، إذا لم يكن الهجر محكوماً بيمين آلَى بها الرجل على نفسه ألا يقرب زوجه ، فإذا كان ذلك عن يمين ، وهو مايسمى « بالإيلاء » لم يكن الزوج أن يهجر زوجه أكثر من أربعة أشهر ، فإن رجع خلال هذه الأشهر ، وقبلَ انتهائها إلى زوجه وأعاد الحياة الزوجية إلى ما كانت عليه قبل هذا الإيلاء ، فزوجه حِل له ، وعليه كفارة يمينه : « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » يقابل سيئاتكم بالغفران والرحمة ، فليذكر الزوجان ذلك ، ولْيَلْقَ كل منهما صاحبه بالغفران والرحمة ، فذلك هو الذى يمسك الحياة الزوجية بينهما ، ويقيمها على طريق السلامة والأمن .

وإن أصر الرجل على موقفه طَوَالَ هذه الأشهر الأربعة ـ فإن إمساك المرأة بعدها فى عصمته هو إضرار بها، والطلاق فى تلك الحال خير لها، إذ بهذا يتحدد موقفها وتتعرف إلى مكانها فى الحياة ، وذلك على ما فيه من أذى ، خير من إمساكها بهذا القيد الثقيل الذى يحول بينها وبين أن تتحرك إلى أى اتجاه . « وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم » والدلالة على عزيمة الطلاق هنا هو عدم مراجعة الزوجة خلال أربعة الأشهر ، فإن طلق الزوج عند انتهاء هذه الأشهر انتهى الأمر ، وإلا طلق عليه القاضى ، وأخلى سبيل المرأة من هذا المقام الذى أقامها فيه الزوج ، والذى لايراد منه غير الإضرار ، لا الإصلاح ، كما دَلَّ على ذلك هذا الزمن المتطاول .. أربعة أشهر ، لم يرَ فيها الزوج باباً يدخل منه ليصالح مابينه وبين زوجه . . فلم يبق إلا التفرقة بينهما : « وإن يتفرّقا يغنِ الله كلاًّ من سَعَتِه » .

الآية : (٢٢٨)

« وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٢٨)

التفسير: من أحكام المطلقة المدخول بها ، غير المتوفَّى عنها زوجها ، وغير الحامل ، وغير اليائسة من الحيض ـ أن تعتد ثلاثة قروء .

والقرء يجيء لغةً بمعنى الطهر ، وبمعنى الحيض أيضاً ، فهو ضد .

والمراد بالعدة هنا هو استبراء الرحم ، ولا يتحقق الاستبراء ويقع موقع اليقين إلا بأن ترى المرأة الدم ثلاث مرات .. أى تحيض وتطهر ، ثم تحيض وتطهر ، ثم تحيض وتطهر ، فإذا كان ذلك فقد استبرأت رحمها ، وتم انفصام العلاقة الزوجية بينها وبين زوجها ، وحل لها أن تتزوج .

والطلاق الشرعى هو أن يطلق من انتهى موقفه إلى الطلاق — إمرأته فى طهر لم يمسسها فيه ، فإذا جاءها الحيض طلقها طلقة أولى رجعية ، ثم إذا طهرت وجاءها الحيض طلقها طلقة ثانية ، ثم إذا طهرت وجاءها الحيض طلقها الطلقة الثالثة .

قوله تعالى : « ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ماخَلَق الله فى أرحامهن » أى يَحْرُم على المرأة المطلقة المعتدة بالقروء أن تكتم ماخلق الله فى رحمها من الولد ، فتُقِر بالواقع ، إذ القول هنا قولها ، وما تعلمه هو أمانة حمّلتْها ، فإذا لم تؤد الأمانة على وجهها فقد أصبحت فى الخائنات الآثمات .

وقوله تعالى : « إنْ كن يؤمنّ بالله واليوم الآخر » تذكير لهن بالله وبالإيمان به ، فإن مَن شأن من يؤمن بالله أن يتقيه وأن يستقيم على طريقه القويم ، وأن يقول قولة الحق ، له أو عليه .

قوله تعالى : « وبُعولَتهُنّ أحقُّ بردِّهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً » ذلك إشارة إلى الوقت الذى تكون المرأة فيه حِلاً لزوجها لم تحرم عليه ، بأن كانت فى العدّة بعد طلاقها للمرة الثانية . . فهو أحق بها من غيره ، إن أراد أن يصلح ما أفسد ، ويقيم البيت الذى تهدم .

وفى قوله تعالى : « أحق بردهن » إشارة إلى أن هذا الحق ليس خالصاً للأزواج فى ذلك الوقت . فللمرأة هنا أن تتزوج من تشاء ، وزوجها لايعدو أن تكون واحداً ممن يتقدمون لها ، وأحقيته بها ليست حقاً شرعياً ، وإنما هى حق أدبىّ ، لسالف العشرة بينها وبين زوجها .

قوله تعالى : « ولهُن مثلُ الذى عليهن بالمعروف » أى للنساء من الحقوق على أزواجهن مثل ما للأزواج على النساء من حقوق .. فهذا مايقتضيه العدل ، وما تقوم عليه الحياة بين شريكين ، أراد الله لهما أن يكون كل منهما سَكَناً لصاحبه .

وليست هذه الحقوق التى للرجل على المرأة ، والتى للمرأة على الرجل من قبيل الحقوق التى يقتضيها الغريم من غريمه ، ويأخذها بيد السلطان والقانون إن ماطله الغريم والتوى بحقه .

وإنما هى حقوق تفيض بها النفس فى سماحة ورضى ، وتنبع من عاطفة إنسانية لايملك الإنسان دفعها ، أشبه بتلك العاطفة التى بين الآباء والأبناء ، بل ربما كانت أكثر من هذا . . إنها عاطفة الأليف إلى أليفه ، والعاشق إلى معشوقه .

هذا ماينبغي أن يكون عليه مابين الزوجين من تواد وتعاطف ، وحبّ ، وتراحم ، وتعاون .. طواعية واختياراً ، لاقهراً ولا قسراً .. وإلا فقدت الحياة الزوجية روحها ، وصارت جسداً بارداً ، لايلبث أن يذبل ويموت !

قوله تعالى : « وللرجال عليهن درجة » أى درجة فى التفاوت بينهما فى الحقوق والواجبات ، بمعنى أن للرجل على المرأة حقوقاً أكثر درجةً مما لها عليه من حقوق ، وأن عليه لها من الواجبات أكثر مما لها عليه .. وصاحب الحق أولى بالفضل ممن لزمه الواجب المقابل لهذا الحق !

والتعبير بدرجة يعنى أن هذا التفاوت لايمسّ جوهر الاعتبارات الإنسانية فيهما ، فهما إنسانان متساويان فى الإنسانية ، ولكن اختلافهما النوعى أدى إلى الاختلاف الوظيفى فى الحياة بينهما : فكما كانا رجلا وامرأة .. فى الجنس ، كانا أولاً وثانياً ، فى الرتبة .. وليس هذا بالذى يُدخل الضيم على أى منهما ، ما دام يحيا حياته على النحو الذى يلائم طبيعته .

هذا ، والدرجة التى للرجل على المرأة ليست بالتى تجىء عن طريق القهر والقسر ، وإنما تستدعيها تصرفات الرجل وآثاره فى الحياة الزوجية ، وفى مدّها بأسباب الحياة والنماء والاستقرار . . فهذا هو الذى يعطى الرجل ـ من غير أن يطلب ـ مكانَ الصدارة والقيادة ، وإلا كان متخلياً عن هذا المكان لمن هو أولى به منه ، من زوجة أو ولد !

قوله تعالى : « والله عزيز حكيم » إشارة إلى أن العزة التى تقوم إلى جانبها الحكمة هى العزة الرشيدة البارة بأهلها وبالناس حولها . . فالمكانة التى منحتها الحياة للرجال ، فجعلت لهم على النساء درجة ، وأقامت لهم سلطانا عليهن ـ هذه المكانة إن لم تلتزم جانب الحكمة والاعتدال كانت أداة سفه وطيش ،

تدمر حياة صاحبها، وتفسد الحياة على من يصحبه، وسنعرض لقضية المرأة والرجل عند تفسير قوله تعالى: «الرجال قوامون على النساء» (٣٤:النساء) إن شاء الله.

الآية : (٢٢٩)

«الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (٢٢٩)

[الطـــلاق وحكمته]

فى هذه الآية يبين الله سبحانه وتعالى الأسلوب الذى يتم به الانفصال بين الزوجين، وإنهاء الحياة الزوجية بينهما!

إنه كان لابد أن يشرّع الإسلام لهذه العلاقة التى كانت قائمة بين الزوجين، ثم طرأ عليها ما يجعل بقاءها غير ممكن، لسبب أو لأكثر من سبب! وذلك ما تسميه الشريعة الإسلامية «الطلاق».

«والطلاق» مشتق من الإطلاق، وهو ضد الإمساك والحبس..!

وهذا يعنى أنه عمل فيه خلاص وفكاك من ضيق، ونجاة وعافية من بلاء.. وذلك حين تصبح الحياة الزوجية ـ لسبب أو لأكثر، من جهة الزوج أو الزوجة أو منهما معاً ـ ثقيلةً ثِقَل العــلة القاتلة، بغيضة بغض العدو المقيم!

وعجيب أن ينكر بعض السفهاء على شريعة الإسلام هذا التدبير الحكيم ، ويرميها ـ زوراً بهتانا ـ أنها تحمل للناس هذا السلاح الذى يفصم عُرَى الزوجية ، ويقطع أوصالها . . وذلك قطع لما أمر الله به أن يوصل !

وبمفهوم هذا السفه الجهول علا صراخ بعض المتهوسين من الرجال والنساء ـ فى المجتمع الإسلامى ـ ممن يحملون ـ كذبا وادعاء ـ رايات الإصلاح ، ويَدَّعون ـ زورا وبهتانا ـ أنهم صوت العصر ، ووجه المدنية والحضارة !

نعم ، علا صراخ هؤلاء المتهوسين من الرجال والنساء ، يتهمون الشريعة الإسلامية ، بأنها تفرض على المرأة فى القرن العشرين ، أسلوبَ الحياة البادية فى عصر الجاهلية الأولى ، إذ تعطىَ الرجل هذا الحق الذى يتحكم به فى حياة المرأة بكلمة واحدة ، يرسلها من فمه ؛ فإذا هى بالعراء ، منبوذة نَبْذَ النواة ، وإذا هذا العش الذى كانت تأوى إليه ، وتجد فيه السكن والاستقرار قد عصفت به عاصفة مدمرة ، فذهبت به ، وبددت شَمْلَه الجميع !

وكذبوا وضلّوا !

فما جاءت شريعة الإسلام هنا إلا بالدواء الناجع ، والرحمة الراحمة لحياة مريضة ، وداء عضال ، لا يجد أصحابه للحياة طعماً ، ولا للراحة سبيلاً . . !

إن الشريعة الإسلامية لم تفرض الطلاق فرضاً ، ولم تجعله واجباً يؤديه الرجال ابتغاء المثوبة والرضوان . . بل هو فى شريعة الإسلام أمر كريه مُبَغَّض ، لا يجيئه المرء إلا مكرها ، ولا يلجأ إليه إلا مضطرا . . وحسبه شناعة وضلالاً أن يقول فيه النبى الكريم : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

فالأصل فى شريعة الإسلام أن تقوم الحياة الزوجية بين الزوجين على

أساس الاستمرار والدوام إلى آخر العمر المقدَّر لها . . ما دامت الحياة تجرى بهما فى مجراها الطبيعى ، وما دام الوِفاق والإلف بينهما قائماً . . وليس يُعقل - والأمر كذلك - أن تجىء شريعة - سماوية أو وضعية - فتدعو إلى الفرقة بين الزوجين ، ولو فعلت - ولن تفعل - لما وجدت من يسمع أو يجيب !

ولكن هل من طبيعة الحياة أن تُلزم الأزواج - فى جميع الأحوال ، وعلى امتداد الأزمان - أن يجمعهما الوفاق وألا يقع بينهما خلاف، وألا يتحول هذا الخلاف إلى عداوة ، ثم لا تكون هذه العداوة جحيما يحترق به الزوج والزوجة معاً ؟

وإذا كانت الحياة بين الأزواج والزوجات - فى غالبيتها وعمومها - تسير فى مجرى طبيعى من مبدئها إلى نهايتها ، فهل يمنع هذا من أن تكون هناك - وفى أعداد غير قليلة - علاقات زوجية مفككة الأوصال ، واهية العُرى ، تنعقد على سمائها سحابات ممطرة دائماً بشتى الآلام وصنوف العذاب ؟

إن ذلك أمر واقع لا ينكره أحدٌ ، حتى أولئك الذين يَصْرُخون فى وجه الشريعة الإسلامية ، من غير المسلمين أو المحسوبين على الإسلام ، ويندِّدون بأحكام الطلاق فيها .. وإن كثيراً منهم - من رجال ونساء - عاشوا فى هذه التجربة ، أو هم يعيشون فيها ، ولكنهم مع هذا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم !

ونسأل : ماذا يكون الرأى والتدبير فى أمر هذا الخلاف الذى يقع بين زوجين ، فيحيل حياتهما على هذا النحو الذى رأيناه ؟ أيتركان هكذا يكيد كل منهما كيده لصاحبه ؟ أيقطعان الحياة معاً فى هذا الصراع الظاهر والخفى ، حتى يقضى أحدهما على صاحبه ؟ وماذا يظن بأخوين استحكم بينهما الشر

فالتقيا بسيفيهما ، يريد كل منهما أن يقتل الآخر ، وهما فى مكان مطبق عليهما وليس لهما من منفذ ينفذان منه ؟ إنه لابد أن تقع الجريمة ، وتزهق روح أو روحان !

وشواهد هذا كثيرة فى محيط الجماعات التى حرّمت الطلاق . . فما أكثر المآسى والفواجع ، وما أكثر الويلات والمصائب التى امتدت آثارها فجاوزت الأزواج إلى المجتمع كله ، وأشاعت فيه الفساد والانحلال ، وأقامت الحياة الزوجية على دَخل وفسادٍ ونفاقٍ ! !

وما كان لشريعة الإسلام ـ وقد جاءت لتسع الحياة الإنسانية كلها ، فى امتداد أزمانها ـ ما كان لشريعة الإسلام ـ وتلك رسالتها ـ أن تُغمض العين عن هذا الواقع من الحياة ، وأن تدع داء كهذ الداء يأكل الناس فى غير مرحمة ، ويقيم فى المجتمع صداعاً حاداً تتصدع به الأخلاق ، وتفسد معه الضمائر ، وتروج به سوق الكذب والنفاق !

فكان عن تدبير الشريعة الإسلامية الحكيم أن رصدت لهذا الداء الذى يدخل على الحياة الزوجية ويفسد المشاعر التى بين الزوجين ـ الدواء الناجع ، وهو فصم تلك الحياة بالطلاق ، وإطلاق كل من الزوجين من هذا الوثاق الذى يشدُّهما ، والذى كان يوما ما داعية بهجة ومسرة ، فأصبح سبب عذاب وبلاء !

إن « الطلاق » شرّ . . ولكنه شر لابد منه ، إذ يُدفع به ما هو أكثر منه شراً . . والشرّ حين يُدفع به شر أعظم منه يكون رحمة ، ونعمة !

وبعض السمِّ تِرياقٌ لبعضٍ ... وقد يَشفى المُضال من العُضَالِ

هكذا ينظر الإسلام إلى الطلاق . . إنه أمر مكروه ، ولكنه مع كراهيته قد يركبه المرء مضطراً ليسلم ، ولو بفقد عضو عزيز عليه من أعضائه !

يقول نبيّ الإسلام صلوات الله وسلامه عليه : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » فهو — مع أنه رخصة — بغيض كريه ، لا يقدم عليه المرء إلا مضطراً ، ولا يتناوله إلا مكرهاً ، شأنه فى هذا شأن المحرمات التى أباحتها الشريعة فى أحوال الاضطرار ، كالخمر ، والميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وغير ذلك مما تتقذره النفس وتعافه ـ فإنه عند المخمصة ، وتعرض الإنسان للهلاك ، قد أبيح أكلها ، والأخذ منها بالقدر الذى يحفظ الحياة ، ويدفع التلف . . والله سبحانه وتعالى يقول : « فمن اضطرّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

ذلك هو « الطلاق » فى شريعة الإسلام ، دواء مرٌّ ، يُطبّ به لداء موجع ، وطعام خبيث ، يُدفع به جوعٌ قاتل !

وإذا كان بعض الجاهلين والحمقى ، وذوى الجرأة على دين الله ، قد ترخّصوا فى هذه الرخصة ، واستخفوا بأمر الله فيها ، فجاوزوا الحدود ، واستباحوا الحرام فى غير اضطرار ، فليس ذلك بالذى يُحسب على الإسلام ولا بالذى يشوّه من جلال أحكامه ، وينال من حكمة شريعته . . فالتشريع شىء ، والمشرّع له شىء آخر . إذ ليس هناك من قوة تحجز الناس عن مخالفة الشرع ، ومجاوزة حدوده ! « وَقُلِ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ومن شَاءَ فَلْيَكْفُر » (٢٩ : الكهف)

إنّ أكثر الذين ينظرون إلى « الطلاق » وتعلوا صيحاتهم فى وجهه ، لا ينظرون إليه فى الشريعة التى حملته وحددت حدوده ، ورسمت معالمه ، وإنما ينظرون إلى مَن جهلوه ، أو تجاهلوه ، فعبثوا به ، واتخذوا دينهم لهواً

ولعباً ، فطلقوا فى غير حرج أو تأثم ، وفى غير اضطرار لدفع بلاء ، والتماس نجاة وعافية ! .

وقد نبهت الشريعة فى أكثر من موضع إلى قداسة الحياة الزوجية وحُرمتها ، وعملت على تُغذية المشاعر الإنسانية بين الزوجين ، بآدابها وأحكامها ، وجعلت من الزوجين كياناً واحداً ، يغتذى من نبع واحد ، هو المودة والرحمة . . فقال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » (٢١ : الروم)

وقال سبحانه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا » (١ : النساء) .

ويتجه الإسلام إلى الأزواج الذين فى أيديهم عقدة النكاح فيدعوهم إلى الصبر والأناة ، واحتمال ما يقع من مكروه فى الحياة الزوجية ، رجاء أن ينجلى هذا المكروه ، وتنقشع سحبه ، ويعود إلى الحياة الزوجية صفاؤها ، وجمالها ، بل ربما كان هذا المكروه هو ضرورة لازمة لتلك الحياة ، حيث تنصهر فيه الآلام ، وتشتد العزائم ، وينكشف لكلا الزوجين معدن صاحبه ، وربما تكشف عن جوهر نفيس ، كان خافياً فى ظلال هذه الحياة الساكنة ، فلما ماجت أمواجها بين مد وجزر ، ظهر ما كان يكمن فى أطواء النفس من خير كثير . . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً الأزواج فى شأن النساء : « وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » (١٩ : النساء) .

فأى عدل بعد هذا العدل ؟ وأى رحمة بعد تلك الرحمة ؟ فى هذا التشريع السماوى الذى لا تقوم الحياة الزوجية على دعائم سليمة إلا إذا كانت تلك

الشريعة شأناً من شئونها ، وحالاً من أحوالها ، ودواء عتيداً ، يستطبّ به عند الحاجة ، ويؤخذ منه بالقدر المطلوب . . جرعة ، جرعة ، فإن ذهب هذا الدواء بالداء فى المرة الأولى ، لزم التوقف والإمساك ، وإلا كانت الجرعة الثانية ، فإن كان فيها الشفاء ، وإلا فالثالثة ، ولا بعدها ! فقد عظم الداء ولا أمل فى الشفاء !

وقوله تعالى : « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » بيان لإجراء عملية الطلاق .

وكلمة الطلاق : لفظ ينطق به الزوج فى مواجهة الزوجة أو بعلمها به علماً متيقناً نافياً للظن ، مراداً به فصم عُرَا الزوجية . . وكل لفظ يؤدى هذا المعنى هو طلاق . . أما إذا وقع على غير تلك الصورة فلا يعتدّ به ، ولا يُحمل على محمل الجدّ فى فصم علاقة أراد الله لها الاستقرار والتمكين .

ثم هو « مرّتان » أى عمليتان ، أو عملية على مرحلتين . . ومن هذا كان القول بالطلاق جملةً فى لفظة واحدة ، قولاً بعيداً عن منطوق الآية ، مجانباً الصواب والحكمة اللذين هما مناط كل حكم من أحكام الشريعة .

ولفظ « مرّتان » دال دلالة صريحة فى منطوقه ومفهومه على التكرار ، مرّة ثم مرة . . وإذا طلق الرجل المرّة الأولى ، فإنه يدخل فى تجربة نفسية وروحية وجسدية لأول مرة فى حياته مع المرأة التى اتخذ هذا القرار بشأنها . وفى هذه التجربة تعرض له خواطر وصور ، وربما امتد نظره فرأى طريقه موحشاً مقفراً بغير هذا الرفيق الذى كان يصحبه ، وهنا كان من حكمة التشريع أن أعفاه من مغبة هذه التجربة ، فجعلها له ، يتعرف بها على ما هو مقدم عليه ، فيقدم أو يحجم ، بعد اختبار وتجربة . .

وللمرأة ما للرجل فى هذه التجربة ، إذ تعرف حالها بعد هذا الموقف ، وتدبر أمرها على ضوئه ، وربما كان فى سلوكها وعنادها ما حمل الزوج على أن يُقدم على هـذا الذى أقدم عليه ، فتُراجِـع نفسَها ، وتصلح من أمرها ، وتسترضى زوجها . . فيكون الوفاق والوئام !.

وللمرأة والرجل معاً خير كثير فى هذه المهلة . ذلك أنه إذا لم يكن عندهما من الرأى والحـكمة ما يجمعهما على الوفاق ، كان فى نصح النـاصحين لهما من الأهل والأقارب والأصدقاء ، ما يبصرهما بالخير ، ويكشف لهما ما غاب عنهما من رشد ، وما عَزَب من رأى .

هذه مرحلة أولى ، من مراحل الطلاق ، وللرجل أن يراجع زوجه خلال فترة العدة ، فإذا انتهت العدة دون مراجعة بانت منه زوجه بينونة صغرى ، وصارت المرأة أجنبية عنه ، لا تحلّ له إلا بعقد ومهر جديدين ، برضاها أو رضى وليّها .

وسواء أعاد الرجل زوجه إليه بالمراجعة ، أو بعقد ومهر جديدين ، فقد حسبت عليه تطليقة . . فإذا عاد الرجل وطلق هذه الزوجة مرة أخرى . . كان له أن يراجعها ما دامت فى العدة ، فإذا انتهت العدة دون مراجعة صارت المرأة أجنبية عنه ، وكان له أن يعيدها إليه بعقد ومهر جديدين ، وبرضاها أو رضا وليها أيضا .. وحسبت عليه تطليقة أخرى . . أى أنه يكون فى تلك الحال قد أوقع على زوجه تلك ، تطليقتين !

وهنا تصبح الحياة الزوجية بينهما واقعة تحت الحـكم الوارد فى قوله تعالى : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . . حيث كان ما جرى بين الزوجين غاية ما يمكن أن يُصلَح به شأنهما ، إن كان هناك سبيل للإصلاح والاستقرار ! بمعنى أنه إذا طلق الزوج زوجه هذه ، بعد ذلك ، كان هذا الطلاق خاتمةَ المطاف فى تلك الدورة للحياة الزوجية بينهما ، وتصبح المرأة بمجرد وقوع هذا الطلاق

محرّمة عليه ، بائنة بينونة كبرى ، فلا تحل له ، حتى تنكح زوجاً غيره ثم يطلقها ذلك الزوج ، أو بموت عنها ، وتنتهى عدتها وهذا مايقرره قوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحلّ له مِن بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره .. الآية » والمراد بالطلقة هنا ، الطلقة الثالثة .

وقوله سبحانه : « ولا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إلاّ أن يَخافَا ألاّ يُقِيماَ حُدُودَ اللهِ فإنْ خِفْتُمْ ألاّ يُقِيماَ حُدُودَ الله فَلاَ جناحَ عَلَيهِماَ فيما افتَدت به » .

بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى الطريق الذى يسلكه أولئك الذين تنتهى حياتهم الزوجية بالطلاق ـ بيّن أسلوبَ العمل فى تسوية ما بين الزوجين من علاقات مادية ، كانت قائمة بحكم الرابطة الزوجية بينهما .

فهناك المهر الذى قدّمه الرجل للمرأة ، وهو ملك خالص للمرأة للدخول بها ، ولا يحق للرجل أن يسألها شيئاً منه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً »

ولكن قد تكون المرأة متضررة بالحياة الزوجية ، كارهة لها ، غير محتملة أعباءها ، والرجل حريص عليها ، محبّ لها . . هو يريدها وهى لا تريده .

وأمّا وقد أصبحت الحياة الزوجية على هذا الوضع المضطرب القلق ، وأمّا والمرأة هى صاحبة المصلحة المحققة فى قطع هذه الحياة الزوجية ، فإنه لا بأس من أن تفتدى نفسها بشىء مما فى يدها من المهر الذى قدمه الزوج لها . . وفى هذا الذى يأخذه الرجل منها ، تعويض له عن بعض ما ذهب منه ، على حين تنال المرأة خلاصَها ، وتدير وجهها على الوجه الذى تحب . . وهذا ما يشير إليه الاستثناء الوارد على الحكم فى قوله تعالى : « ولا تأخذوا مما آتيتموهُنَّ شيئاً . . إلا أن يخافَا ألاّ يُقيما حدودَ الله ، فإن خِفتُمْ ألاّ يُقيما حدودَ الله فَلاَ جُناح عليهما فيما افتدتْ به » .

والحياة الزوجية المضطربة لا يمكن أن تظل هكذا وتقام فيها حدود الله .

وإنه لا جناح على كل من الرجل والمرأة أن يتصالحا على فدية تقدمها المرأة ليفصما بها علائق الزوجية وهذا ما يسمّى بالخُلْع .

وعلى هذا فإنه يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق ، وأن تجاب إلى هذا الطلب إذا نزلت للزوج عن مهرها .

وقد طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم « جميلة » امرأة الصحابي الجليل « قيس بن ثابت » .. ففي الحديث أن جميلة امرأة قيس بن ثابت جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، لا أجد في قيس بن ثابت عيباً من خلق أو إيمان ، ولكني لا أجد في طوق مجاراته[1] ، فسألها النبيّ صلى الله عليه وسلم : « هل تعيدين إليه حائطه ؟[2] » فقالت : نعم .. فأمر النبي بردّ الحائط إلى قيس بن ثابت ، وتطليقها !

وقوله تعالى « تِلْكَ حدودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدوها ومن يَتَعَدَّ حُدُود الله فأولئك هم الظَّالمون »

تنبيه إلى أن هذه الأحكام قائمة داخل حدود الله ، وأن التزامها واجب ، وأن مجاوزتها هو عدوان عليها .. «ومن يتعدَّ حُدُود الله فأولئك هُمُ الظالمون»

آية : (٢٣٠)

« فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَنْ يَتَرَاجَعَآ إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » (٢٣٠)

(١) أى فى انقطاعه عن الدنيا

(٢) الحائط : البستان الذى أقيم حوله سور « حائط » وكان قيس قد أصدقها هذا البستان .

بينت الآية السابقة حدود الطلاق ، وأنه مرتان تنتهى بعدهما علاقة الزوجية بين الزوجين ، ويصبح كل منهما أجنبياً عن الآخر ، وقد أشارت الآية السابقة أيضاً إلى ما انتهى إليه الموقف بعد هذا ، فقال تعالى « فإمْسَاكٌ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان » أى رجعة بعقد ومهر جديدين ، أو التطليقة الثالثة .

وفى هذه الآية يبين الله تعالى الموقف بين الزوجين بعد أن ينتهى الأمر بينهما إلى التطليقة الثالثة ، حيث يقول سبحانه : « فإن طلقها » أى الطلقة الثالثة - لفظاً أو حكماً - « فلا تحلّ له من بعدُ حتى تنكح زوجاً غيره » أى تصبح هذه المرأة أكثر من أجنبية عنه ، فليس له أن يتقدم إلى خطبتها إلا بعد أن تتزوج غيره ثم يطلقها ذلك الغير ، ثم تنقضى عدتها من ذلك الغير ، وعندئذ فقط يحلّ له أن يخطبها ، بعقد ومهر جديدين .

وقوله تعالى : « فإن طلقها » أى الزوج الآخر « فلا جناح عليهما أن يتراجعا » أى يراجع كل منهما الآخر فى الزواج وإعادة الأمور بينهما إلى ما كانت عليه . . « إن ظَنَّا أن يقيما حدود الله » أى إن غَلَب على ظنهما أنهما سيعودان إلى الحياة الزوجية السليمة ، بعد أن يعزلا عنها ما كان سبباً فى الخلاف الذى نجم عنه الانفصال بينهما ، فتقوم الحياة الزوجية بينهما على الحدود التى رسمها الله للزوجين . . « وتلك حدودُ الله يُبَيِّنُها لقوم يعلمون » فيفيدهم العلم ويعملون به ، ويقيمون سلوكهم عليه .

وفى قوله تعالى : « حتى تنكح زوجاً غيره » فوق أنه تأديب للزوج ، فيه إثارة لحميته ، وبعث لغيرته أن تصبح هذه التى كانت زوجاً له وحرماً غير مباح من حرماته - أن تصبح ليد غيره ، حمًى مستباحاً له ، محرّماً على غيره ، وعلى هذا الذى كانت له من قبل . . وفى هذا ما يبعث فى الزوج رغبة فى إمساكها قبل

أن تخرج من يده فيراجعها قبل الطلقة الثالثة . . ولاشك أن هذا الموقف له أثر كبير فى الحرص على الحياة الزوجية ، وفى حمل الأزواج على مراجعة زوجاتهن ، إن لم يكن ذلك فى كل الأحوال ، فهو فى كثير منها .

الآية : (٢٣١)

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٣١)

* * *

أشار سبحانه وتعالى فى الآية (٢٢٩) فى قوله سبحانه : « الطلاق مرّتانِ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان » إلى الموقف الذى ينبغى أن يلتزمه الرجل من زوجه إن طلقها المرة الثانية ، وهو إما أن يمسكها على نية خالصة وقلب سليم ، ورغبة صادقة فى أن يقيم الحياة الزوجية معها كما أمر الله ، من إحسان ومودة ، وإما أن يُرسلها ويخلى سبيلها ، لتستقبل حياتها الجديدة كما تريد .

وفى هذه الآية تحذير آخر للأزواج ، وما تنعقد عليه قلوبهم تجاه الزوجات اللاتى طلقن الطلقة الثانية . . إذ الزوجة فى تلك الحال صالحة لأن يراجعها زوجها ، وأن يعيدها إليه بعقد ومهر جديدين ، وقد تستجيب الزوجة لهذا وفى ظنها أن رجلها قد عاودته الرغبة فيها وفى السّكن إليها ، وقد يكون الرجل على نية غير هذا ، إذ يعيدها إليه للمضارّة بهـا ، وليخضعها لضروب من الضرّ

والأذى .. وهذا مما لا يعلمه إلا الرجل وحده .. فجاء قول الله سبحانه : « فإذا طَلَّقْتمُ النساَء فبلغْنَ أجلهن فأمسكوهن بمعروفٍ أو سَرِّحُوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا » خطاباً موجهاً إلى ضمائر الرجال ، وما انطوت عليه ، وما بيتته من خير أو شر فى إمساك زوجاتهن ، فالله سبحانه وتعالى مطلع على السرائر ، لا تخفى عليه خافية ، فمن بيَّت الشرَّ ، ورمى بالضرّ والأذى ، فقد ظلم نفسه ، ووضعها موضع الحساب والعقاب : « ومن يفْعَل ذلك فقد ظلم نفسه » لأنه عبث بآيات الله ، واتخذ الرخصة التى جعلها الله له فى مراجعة زوجه والتى من شأنها أن تصلح ما أفسد — اتخذها وسيلة لمزيد من الإفساد .

قوله تعالى : « واذكروا نعمة الله » ونعمة الله هنا هى المرأة التى جعلها الله سكَنًا لزوجها ، ومن تمام هذه النعمة أن أتاح الله للزوج فرصة مراجعتها وإمساكها بعد أن قطع حبل الزوجية مرة ومرة ، فإذا أعادها إليه فليذكر أنها نعمة فى يده ، فلا يطلقها من يده مرة أخرى ! !

الآية : (٢٣٢)

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٢٣٢)

فى الآية السابقة (٢٣٠) نبه الله سبحانه وتعالى الأزواج الذين طلقوا المرة الثانية وأرادوا مراجعة زوجاتهن — أن يكونوا جادّين فى مراجعتهنّ ، يريدون منها الخير والإصلاح ، وإلا فقد تعرضوا لغضب الله وباءوا بسخطه .

وفى هذه الآية يحذر الله سبحانه أولياء هؤلاء المطلقات من أن يكونوا

حَجَر عثرة فى طريق المراجعة بين المطلقة ومطلقها ، وأن يمسكوا المطلقات عن أن يَعْضُلنَ إلى أزواجهن مرة ثانية بعقد جديد ومهر جديد ، فإن فى هذا إضراراً بالزوجة من حيث يُقَدِّر وليُّها أنه إضرار بالزوج وحده . . فإذا تراضى الزوجان وقدرا أنهما قادران على بناء الحياة الزوجية من جديد ، كان على وليّها أن يستجيب لهذه الرغبة . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فى ذٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا » .

وقوله تعـالى . . « ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر » تنبيه لأولياء الزوجات إلى ما قضى الله به فى هذا الموقف . وهو قوله : « وبعولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا » وقوله : « فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْـكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بينهم بالمعروف » فمن آمن بالله واليوم الآخر لم يكن له أن يعطل حكماً من أحكام الله ، وأن يقيم لذلك المعاذير الواهية والعلل الـكاذبة .

وقوله سبحانه : « ذٰلِـكُمْ أَزْكَى لَـكُمْ وَأَطْهَرُ » إشارة إلى الوقوف عند حدود الله وأحكامه فى موقف الأولياء من المطلقات اللآتى يرغب أزواجهن فى مراجعتهن ، ثم هو من جهة أخرى لفت لهؤلاء الأولياء إلى أن مراجعة الزوج لزوجه وإمسا كها فى بيت الزوجية خير لها من أن تعيش من غير زوج أو أن تتزوج رجلاً آخر ، ففى الحالة الأولى لا تـكون المرأة بمأمن من أن تزلّ وتنحرف ، وفى الحالة الثانية تنـكشف المرأة لرجل آخر ، وهو وإن كان حلالاً مباحاً إلاّ أن فيه شيئاً ما يُخدش به حياء المرأة الحرة ، ويتأذى منه وليّها الرجل ! وخير من هذا كلّه أن تعود المرأة إلى زوجها الذى عرفها وعرفته ! « ذَلِـكُمْ أزكى لـكُمْ وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون » أى أن الله سبحانه يعلم من عواقب الأمور ما لا تعلمون ، وأن عَضْل المطلقة التى ترغب فى العودة إلى زوجها يخفى وراءه أضراراً ومآثم لا يعلمها إلاّ علام الغيوب .

الآية : (٢٣٣)

« وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢٣٣)

التفسير : بيّن الله فى الآيات السابقة أحكام الطلاق وحدوده، والأخلاقيات التى ينبغى رعايتها فيه .

وفى هـذه الآية يبيّن الله أحكام الرضاع ،لمن كان ثمرة الحياة الزوجية من بنين وبنات .

والوالدة هى التى تتولى إرضاع ولدها ، إذ هى أولى به ، رعايةً للمولود ، وصيانة لحياته ، إذ كان لبن الأم وحنانها ورعايتها فى تلك المرحلة من حياته مما لم يكن ممكناً أن يعوض من امرأة أخرى غيرها .

وقد جاء هـذا الحـكم : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حولين كاملين » فى صورة الخبر ولـكنه يحمل فى طياته الأمر والإلزام ، فهو خبر وأمر معاً ، حتى لا يكون على سبيل الواجب الذى لا فـكاك للمرأة عنه من جهة ، وحتى لا تتحلّل منه المرأة من غير ضرورة ، من جهة أخرى . . وبين هذين الموقفين يقع الحـكم .

ثم إنه لم يجىء الأمر على سبيل الوجوب والإلزام ، لأن عاطفة الأم فى غنًى عن أن يعطفها على وليدها أمر ، وإنها لن تتخلّى عن هذا الواجب الطبيعى إلا إذا كانت تحت ظروف أكبر من عاطفتها ، فكان من تدبير الحكيم العليم أن جعل ذلك حقًّا لها فى الجانب الخبرى من الحكم ، وجعله أمراً متوجهاً إلى الآباء فى الجانب الأمرى منه ! !

وقوله تعالى : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لمن أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعة » بيان للمدة اللازمة لفطام الصبىّ ، وليس هذا التحديد على سبيل الوجوب ، بل هو محكوم بتقدير حال الرضيع وحاجته ، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى : لمن أراد أن يتم الرضاعة » . . وفائدة هذا التحديد ليضمن للأم حقًّا فى مدة الرضاع وهى سنتان ، وقد لا تكون كلها لإرضاع الوليد ، ولكن لمعالجة حاله بعد فطامه ، وأخذه بالحياة المناسبة له بعد الفطام ، وجعلها عادة له ، حتى إذا بَعُد عن أمّه كان من الممكن تدبير شئون حياته .

قوله تعالى : « وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ » حكم على الآباء بالنفقة الواجبة للأم المرضع ، فى مدة إرضاعها ، وهذه النفقة هى مما يكفل للأم الحياة المناسبة من مسكن ومطعم وملبس . . على اختلافٍ فى النوع والقدر ، حسب يسر الوالد وإعساره .

وقوله تعالى « لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا » رفع للحرج عن الآباء فى النفقة الواجبة للأم ، فلا يتكلف لها الأب ما لا يطيق ، ولا يُحمَل منها على ما يَكرَه . . بل يطلب منه ما يقدر عليه ، حسب يسره وإعساره ، وفى هذا يقول الله تعالى : « لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا » (٧ : الطلاق)

وقوله سبحانه : « لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ » بيان لقوله سبحانه « لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا » فكما لا يجوز أن يُرْهَق الأب من أمره عُسْرًا فى النفقة على المولود ، كذلك لا يُجَارُ على حق الأم فى النفقة المطلوبة لها من والده . . فلا يكون الولد وهو نعمة من نعم الله على الوالدين ، سبباً فى شقاء أحدهما وتعاسته .

وقوله تعالى : « وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ » أى وعلى وارث الأب أن يتكفّل فى مال مُوَرِّثه ما يكفى حاجة الأم من مسكن وملبس وطعام ، بالقدر الذى يتحمله ما ورث المولود من والده ، فإن يكن المتوفى لم يترك شيئاً ، أو ترك مالا يكفل حاجة الأم ، كان على وارثه القيام بهذا من مالهم ، حسب درجتهم فى القرابة ، وحسب يسرهم وعسرهم .

وقوله تعالى : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا » أى إن أراد الوالدان فطام الصبىّ قبل عامين فلا جناح عليهما بعد أن يتشاورا ويتراضيا على ما فيه من مصلحة المولود .

قوله تعالى : « وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ » أى وإن أردتم أن تطيلوا مدة الرضاعة بعد العامين ، وذلك لما يبدو من حال الطفل ومن حاجته إلى التغذية بيد أمه ، كما كان يتغذى من ثديها . . فلا حرج فى هذا .

فكلمة استرضاع تشير إلى مدّ فترة الرضاع ، وذلك بكثرة حروفها ، وامتداد جرسها . . ثم إنها تفيد لوناً آخر غير الرضاعة المعروفة ، وإن كان من جنسها ، وطبيعتها !

وقوله تعالى : « إذا سَلَّمْتُم ما آتيتم بالمعروف » أى لا جناح عليكم أيها

الوالدون أن تطيلوا مدة الاسترضاع إذا أديتم ما وجب عليكم من كفالة حاجة الأم ، أداء لا حيف فيه ، ولا مطل معه .

وقوله سبحانه : « واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير » تذكير بالله فى هذه المقامات ، لرعاية أحكامه ، وتوقيرها ، والوفاء بها ، فإن عين الله لا تغفل ، وعلمه لا يعزب عنه شىء !

الآية : (٢٣٤)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (٢٣٤)

التفسير : هذا حكم المرأة المتوفى عنها زوجها فى عدتها ، فتعتد أربعة أشهر وعشر ليال . . هذا إذا لم تكن حاملا وامتد حملها إلى ما بعد هذا الأجل ، فعدتها حينئذ وضع حملها .

والخطاب هنا موجه للأزواج الذين يتوفون ويتركون زوجات لهم . . فكيف يخاطب الأموات ؟

والسر فى هذا هو بعض إعجاز القرآن الكريم ، ذلك الإعجاز الذى تحمله كل كلمة من كلماته ، بل وكل حرف من حروفه .

فهذه العدة التى تعتدها المتوفَّى عنها زوجها إنما هى رعاية للحياة الزوجية التى انقطعت بموت الزوج ، وهى توقير لقداستها وحرمتها . . ومن حق هذه الحياة أن تظل حية فى نفس الزوجة ، وأن يظل الزوج المتوفى ماثلاً فى خيالها ، حاضراً فى خاطرها ! ثم إنها ــ أى العدة ــ من جهة أخرى مجاوبة لمشاعر أهل الزوج ، ومشاركة عملية فى الأسى على فراقه .

من أجل هذا كان حكم العدة هنا موجهاً إلى المرأة فى مواجهة الزوج ، وكأنه حاضر يشهد مدى رعايتها للعلاقة التى كانت بينه وبينها .

ولهذا ينبغى للمرأة خلال هذه العدة ألاّ تتزين زينتها للزوج ، وألا يبدوَ منها ما ينم عن نسيانها لهذه الذكرى ، فذلك أقل ما يجب أن يكون منها !

وللزوجة على الزوج مثل هذا الحق ، وإن لم توجبه الشريعة حكماً ، فقد أشارت إليه من طرف خفى ، فى هذا الحكم الذى فرضته على الزوجة فى مواجهة زوجها ، إذ حين يرى الزوج أن زوجه سوف تلتزم بنوع من الأسى عليه والحزن لفراقه ، يجد فى نفسه مثل هذا الشعور نحوها حين تسبقه هى إلى الدار الآخرة .

والأمر فى ذاته ليس فى حاجة إلى تشريع ، ولكن لما كان بعض المتوفَّى عنهن أزواجهن يذهب بهن النزق والطيش إلى قطع علائق الزوجية وآثارها من أول يوم يغيب فيه الزوج عن شخصها ، وفى ذلك مافيه من اعتداء على حرمة تلك الرابطة المقدسة ، واستخفاف بشأنها ، الأمر الذى إن ترك هكذا سرت عدواه فى المجتمع ، وصار تقليداً سيئاً ، يُدخل الضيم على العلاقات الزوجية ، ويذهب بجلالها ! فكان لابد من وضع حد لهذا الاستهتار ، حمايةً الحياة الزوجية منه ، حتى بعد انقطاعها .

وقوله تعالى : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بالمعروف » بيان للجانب الآخر من جانبى المرأة وموقفها من الرجل بعد موته ـ فإنه كما تكون هناك بعض الزوجات غير آبهاتٍ إلى فقد الزوج ، ضائقات بهذه العدّة التى فرضتها الشريعة عليهن ، فإن بعضهن الأخريات قد يذهب بهن الأسى والوحشة ، إلى زمن أبعد من هذا الزمن ، الذى حددته العدة لهن ، فتظل

عاماً أو أعواماً تحيافى ذكرى زوجها الذى ذهب ، وإنه لا حرج عليها فى هذا إذا هى وقفت فى ذلك الحزن والأسى عند الحد الذى لا يخرج عن المعروف المعقول .

وفى قوله تعالى : « فلا جناح عليكم » قد يكون الخطاب للأزواج الغائبين ليذكّر الزوجات اللاتى يخرجن بهن الأسى والحزن عن حد الاعتدال أنّ فى هذا أذى للزوج ، تتأذى به رُوحه التى تدرك الزوجة أنها قريبة منها ، وقد يكون خطابا لأولياء الزوجات على نحو ما هو خطاب للأزواج المتوفّين !

وفى قوله تعالى « بالمعروف » ضبط لمشاعر المرأة التى قد يستبد بها الحزن على زوجها إلى حد التلف .. وهذا شعور غير محمود ، بل الشعور المحمود هو القائم على حدود المعروف من الطبائع البشرية فى مثل تلك الحال !

الآية : (٢٣٥)

« وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِى أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفاً وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِى أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » (٢٣٥)

التفسير : أباح الله سبحانه وتعالى للرجال الذين يرغبون فى زواج النساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن وهنّ فى العدة — إن يعرِّضن بخطبتهن تعريضاً لا تصريحاً ، وهذا من الرحمة واللطف بالمرأة ، فهى وإن كانت فى فترة العدة إلا أنها مُطلَقَة إطلاقاً تاماً من عقدة النكاح ، ليس لزوجها المتوفى عنها

متعلّق بها ، إلا هذه العدة التى تمتدها رعاية للرابطة الزوجية التى بينها وبينه ، واستبراء لرحمها منه . . وهذا لا يمنع من أن تكون موضع نظر من يريد الزواج منها . . فقد يكون من العزاء لها أن تجد فى فترة الحزن والوحشة أملاً يجىء إليها فى صورة زوج منتظر ، بعد انقضاء عدتها !

وإنه لكى لايدخل على هذه العدة ما يجرحها ويذهب بحكمتها ، فقد أبيح للرجل أن يعرّض بخطبة المعتدة لوفاة . ولا يصرح بهذه الخطبة ، فهذا التصريح يقضى على كل أثر لهذه العدة .

وإنه لخير من هذا أن يضمر الرجل فى نفسه خطبة المعتدة لوفاة . . فذلك ما لا حرج فيه ، ولا إثم فيه !

وقوله تعالى : « عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا » أى علم الله أنكم لا تقدرون على كتمان ما فى أنفسكم ، وسيجرى ذكرهن على ألسنتكم ، وقد تجاوز سبحانه وتعالى لكم عن ذلك ، ولم يبح لكم لقاءهن والتحدث إليهن فى تكتم وخفاء ، فذلك مما يثير الشكوك والريب ، ويجعل لألسنة السوء مقالا ، فإذا كان لكم معهن حديث فليكن حديثاً مشهوداً ممن يؤتمن عليه ، فيعرف ما يقال ، ولا يدع سبيلا إلى قالة سوء .

وقوله تعالى « وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ » المراد بالكتاب هنا ما كُتب على المرأة من عدّة ، وأجل الكتاب عمره ومدته . . والآية تنهى عن المعالنة الصريحة ، واتخاذ ما يدل على القطع بالرابطة الزوجية التى ستكون بين المعتدة المتوفي عنها زوجها وبين من يرغب فى الزواج منها ، فذلك من شأنه ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل ـ أن يفسد الحكمة من هذه العدة ، ويقضى على مظهر الرعاية لحرمة المتوفَّى ولمشاعر أهله !

وقوله تعالى : « وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ » رصدٌ لما فى النفوس من وساوس وخواطر ، ونيات منعقدة على الخير أو الشر ، ومبيتة الإخلاص أو الخداع . . فالله سبحانه وتعالى مطلع على كل شيء ، مجازٍ على كل شيء . . فليحذره أولئك الذين يدبرون السوء ، وينوون الغدر . .

وفى قوله سبحانه : « واعلموا أن الله غفورٌ حليم » دعوة إلى التسامح والمغفرة فى تلك الهنات التى تبدو من الزوجة ، ووصاة بحمل هذه الهنات على محمل حسن ، وألا يبادر المطلمون على هذه الهنات بإصدار أحكام الاتهام . . ولينظروا إلى مغفرة الله التى وسعت ذنوبهم . وإلى حلمه الذى أمهلهم فلم يعجل بأخذهم بها !

الآية : (٢٣٦)

« لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ » (٢٣٦)

التفسير : تبين الآية الكريمة هنا حكم المرأة غير المدخول بها ، وغير المسمى لها مهر ، إذا أريد طلاقها . وأن شأنها فى الطلاق شأن المرأة المدخول بها والمسمي لها مهراً ، فللزوج أن يطلق إذا لم يكن له بد من الطلاق !

والمرأة المطلقة هنا نصف مهر مثلها ، منظوراً فيه إلى يسار الرجل وإعساره ، فذلك مما يخفف عن المرأة من تلك الصدمة ، ويضمد جراحها .

وفى قوله تعالى : « متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين » مايشير إلى تلك

المواساة ، التى ينبغى أن يسمح بها الرجل فى كرم ورضى ، وأن يستدعى لها مروءته ، ورجولته ، ودينه ، فلا يَطعن المرأة هذه الطعنة ، ثم لا يمد لها يد الرحمة والمواساة ! إذ ليس ذلك من الإحسان فى شىء ، والنبىّ الكريم يقول فى قتل الحيوان المؤذى : « إذا قتلتم فأحسنوا القِتلة » ! فكيف بإنسان ؟

الآية : (٢٣٧)

« وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢٣٧)

التفسير : إنّها المتعة المفروضة للمرأة المطلقة قبل الدُّخول بها ولكن قد سمّى لها مهر ! فلها نصف المهر المسمّى ، للاعتبارات التى أشرنا إليها فى الآية السابقة .

وقوله تعالى : « إلا أن يعفُونَ أو يعفُوَ الذى بيده عُقْدة النكاح » إشارة إلى أن هذا الحكم لا يمنع التراضِى بين الزوجين ، فإنه — مع هذا — يجوز المرأة أن تنزل عن حقِّها فى نصف المهر ، فقد تكون فى سعة ، ويكون الزوج فى حال يضيره فيه المهر الذى قدمه ، فتعيده إليه ، واضعة فى اعتبارها ـ إلى هذا الاعتبار ـ أن الزوج لم ينل شيئاً منهـا ، وأنه ربما اضطر إلى الطلاق لظروف خارجة عن إرادته .. فكان هذا الفضل منها داعية إلى الحفاظ على الروابط الإنسانية بينه وبينها ، وبين أهله وأهلها ، وربما كان ذلك داعياً إلى حسن الأحدوثة عنها والرغبة فيها من زوج آخر .. ولولىّ المرأة مثل هذا الحق الذى لها فى التنازل

عن نصف المهر المسمّى . « أو يَعْفُوَ الذى بيده عقدة النكاح » .

وقوله تعالى : « وأن تعفوا أقرب للتقوى » خطاب للأزواج ، وتحريض لهم على التنازل عن نصف المهر من جهتهم ، فتذهب المرأة بالمهر كلّه ، وذلك على سبيل التسامح والتفضل .

وبين التسامح من جهة الزوجة أو وليها ، والتسامح من جهة الزوج ، يلتقى الطرفان على طريق سواء ، لامشاحّة فيه ، ولا كيد ، ولاعداوة ، فيفترقان من غير أن تتصدع زوابط الإنسانية فى مجتمعهما الأُسَرِىّ ، الذى هو أساس البناء المجتمع كله .

وقوله تعالى : « وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُم » دعوة للطرفين معاً أن يُيسِّرا ولا يعسِّرا ، وأن يحسنا ولا يسيئا ، فذلك هو الأقرب إلى التقوى ، والأليق بالمتقين : « والله بما تعملون بصير » فيجازى الفضل بالفضل والإحسان بالإحسان ، أضعافاً مضاعفة : « والله ذو الفضل العظيم »

الآية : (٢٣٨)

« حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ » (٢٣٨)

التفسير : الدعوة إلى الصّلاة فى هذا المقام استحضار للدعوة الإسلامية كلها ، وتذكير بالله ، وبجلاله وعظمته ورحمته ، وبما يبعث هذا التذكير فى نفس المؤمن من استجابة لأوامره ، وامتثالٍ لأحكامه ، إذ كانت الصلاة عمادَ الدين ، وأكثر العبادات أثراً فى تثبيت مغارس الإيمان، وفى النهى عن الفحشاء والمنكر ، كما يقول سبحانه : « إن الصّلاة تَنْهَىَ عن الفحشاء والمنكر » (٤٥ العنكبوت)

وقد اختلف فى الصلاة الوسطى على وجوه شملت الصلوات الخمس المفروضة كلها ، حيث لم تحددها الآية .. فالصلوات المفروضة خمس ، وأى صلاة منها هى وسط بين اثنتين واثنتين !

وقالوا فى تعليل إشاعة الصلاة الوسطى بين الصلوات الخمس : إن ذلك من أجل أن يحرص المصلّى على الصلوات جميعها ، وأن يؤدى كل صلاة منها على أنها الصلاة الوسطى ، فيحرص على أدائها جميعها فى وقتها ، ويستحضر لها مشاعره كلها .

وأقول - والله أعلم — إن الصلاة الوسطى هى الصلوات الخمس جميعها ، وهى صلاة المسلمين ، التى هى وسط بين الصلوات المفروضة على أهل الكتاب ، كما أن الشريعة الاسلامية هى الشريعة الوسطى بين الشرائع السماوية ، والأمة الإسلامية هى الأمة الوسط بين الأمم .

والعطف على الصلوات بقوله تعالى « والصلاة الوسطى » هو عطف بيان ، والتقدير حافظوا على الصّلوات وهى الصلاة الوسطى ، أى الصلاة المحمودة التى رضيها الله لكم على الوجه المفروض عليكم من عدد الركعات ، والركوع والسجود .

قوله تعالى : « وقوموا لله قانتين » أى استحضروا وجودكم كله عند الصلاة ، وأدوها قياماً فى خشوع ، وخضوع ، وسكون !

الآية (٢٣٩)

« فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » (٢٣٩)

التفسير : هذا بيان لصلاة الخوف ، أو الصلاة فى غير حال السكن والاستقرار ، كأن يصلى الإنسان فى طائرة ، أو على ظهر دابة ، أو فى مواجهة عدو . .

والرِّجال : هم المشاة ، والركبان : هم الراكبون . .

فليصلِّ المصلِّى فى مثل هذه الأحوال ماشياً أو راكباً . . وذلك حتى لاتفوته الصلاة على أى حال كان عليها ! وفى هذا مافيه من تعظيم شأن الصلاة ، والحرص على أدائها فى أى ظرف ، وفى أى حال .. حيث لارخصة تدخل عليها بالإسقاط أبداً ، إلا فى حال المرأة مدة الحيض .

الآيات : (٢٤٠ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٢)

« وَالَّذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١) كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » (٢٤٢)

التفسير : جاء فى الآية الكريمة (٢٣٤) قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » وقد قلنا إن توجيه الخطاب هنا للأزواج المتوفين يحمل دلالة على وثاقة الرابطة بين الزوجين ، وقداستها ، وأنها لا تنقطع بموت أحدهما . .

وفى هذه الآية (٢٤٠) يجىء الخطاب أيضاً إلى الأزواج المتوفّين ، ليقيم

بينهم وبين زوجاتهن صلة ممتدة إلى ما بعد الموت أيضاً ، ولكنها فى هذه المرة محمولة على الرجال ، كما حمل الحكم فى الآية السابقة (٢٣٤) على النساء ، وهو أن يتربصن أربعة أشهر وعشرة أيام ، حداداً على أزواجهن .

والحكم المحمول على الرجال هنا هو أن يكون للمرأة المُقام فى بيت الزوجية مكفولةَ النفقة عاماً كاملا بعد وفاة الزوج ، لا يعرض لها أحد بإزعاج من بيت الزوجية ، مادامت راغبة فى السكن إليه .

وفى قوله تعالى : « وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج » إشارة إلى أن هذه الوصية مفروضة بأمر الله ، سواء أوصى بها الزوج قبل وفاته أم لم يوصِ ، وعلى هذا نُصب لفظ الوصية بهذا الأمر ، على تقدير : فرضنا « وصيةً لأزواجهم ، متاعاً إلى الحول ، غير إخراج » « ومتاعاً » بدل من « وصية » و « غير إخراج » صفة لمتاع .

النفقة للمتوفّى عنها ، زوجها

وللمفسرين رأى فى هذه الآية ، وأنها منسوخة بآية المواريث ، وما فرض للزوجة فيها من فريضة الربع أو الثمن .

ونقول ـ والله أعلم ـ : إنه لا نسخ فى هذه الآية الكريمة ، ولا تعطيل لحكمها ، وحكمتها !

ونسأل : لماذا هذا النسخ وما حكمته ؟ ولماذا يحمل القرآن الكريم آية كريمة ، متلوة ، متعبداً بها ، وتحمل حكماً صريحاً مؤكداً موثقاً . ثم تجىء آية أخرى بحكم آخر يعطل هذا الحكم ، ويبقيه هكذا ، يعلن فى وجه المرأة سلب حكم كان فيه خيراً لها وبرًّا بها ؟ أهذا مما تقتضيه حكمة الحكيم العليم ، فى حال كحال تلك المرأة التى ذهب عنها زوجها ، وتركها تعانى الوحدة والوحشة ، وربما الفاقة ،

من بعده ؟ وإذا كان من تقدير الله ألا يكون المرأة مثل هذا الحق ، أفـكان من التدبير الحكيم أن يلوّحَ لها بهذا البر وتلك المواساة فى آية كريمة ، ثم تحرَمه وتُذاد عنه بآية أخرى من آيات الكتاب الكريم ؟

وإذا أقمنا الآية الكريمة على تلك الموازين التى يزن بها علماء التفسير ضوابط الناسخ والمنسوخ ، نجد أن أهمّ الاعتبارات التى جاء من أجلها النسخ عندهم هى :

١ — التدرج فى الأحكام ، رحمةً بالناس ، وتخفيفاً عليهم ، وذلك حين يكون الحكم متعلقاً بعادة متأصله فى النفوس ، ثم تقضى الشريعة بتحريمه ، فإنها حينئذ لاتفجأ الناس بهذا الحكم مرة واحدة ، بل تدخل عليهم به على عدة مراحل ، فى رفق وأناة ، وفى تدرج .. من الخفيف ، إلى الثقيل ، إلى ماهو أثقل منه ، كما حدث ذلك فى تحريم الخمر والربا ، على مايقولون فى الآيات الناسخة والمنسوخة فيها ، وهو مالا نقول به ، كما عرضنا له من قبل .

٢ — التخفيف على الناس ، مراعاة لتغير الظروف .. كما كان الأمر فى قتال المسلم عشرة من المشركين ، وذلك فى أول الإسلام ، فلما كثرت أعداد المسلمين ، خفف الله عنهم ، هذا فكان على المسلم قتال مشركَيْن اثنين بدلا من عشرة .

٣ — تغليظ الحكم لاتخفيفه ، وذلك لتغير الظروف أيضاً .. فلم يكن على المسلمين قتال فى أول الدعوة الإسلامية ، ثم لما دخل فى الإسلام الأنصار واجتمع إليهم المهاجرون أذِن الله لهم فى قتال من قاتلهم .. ثم لما قويت شوكة الاسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً جاء الأمر بقتال المشركين متى طالتهم يد المسلمين .

تلك هى أهم الضوابط التى رآها علماء التفسير داعية إلى نسخ مانسخ من آيات الكتاب الكريم .

وإذا أقمنا الآية الكريمة ـ كما قلنا ـ على تلك الضوابط لم نجدها تستقيم عليها، أو تستجيب لها . .

فما جاءت الشريعة السمحاء فى كتابها الكريم ولا فى السنّة المطهرة، بمباح ثم حظرته، ولا حملت إلى الناس خيراً ثم عادت فسلبته، ولا بسطت يدها الكريمة بإحسان ثم قبضتها . . بل العكس هو الصحيح، وهو الواقع . . ولا نسوق الشواهد لهذا . . فأمر الشريعة كله قائم على اليسر والخير والرحمة . . فما كان على غير هذه السبيل فهو مدخول على الشريعة، مفترًى عليها .

وننظر فى الآية الكريمة : « والّذين يُتَوَفَّوْن مِنْكُمْ وَيَذَرُون أزواجاً وَصِيَّةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول » فنرى المرأة الموصَى لها ـ بأمر الله ـ بهذه الوصية، قد كانت فى ظل زوج كَفَلَ لها الاستقرار والسَّكَن، وأنها قد اطمأنت إلى تلك الحياة، وأنست بها، وقرت فيها . . ثم إذا هى تمسى أو تصبح فتجد الرجل الذى كان يظلها بجناحيه قد طواه الموت، وذهب به بعيداً عنها إلى غير رجعة ! !

فانظر ماذا يكون حالها وهى تستقبل هذا الوجه الجديد من الحياة ؟ ثم ضع فى تقديرك أنها ربما تكون قد استهلكت شبابها، وصحتها، وقواها، فى هذا البيت الذى دخلته فتاة ملء إهابها الشباب والصحة والقوة . . . ثم ضع فى تقديرك أيضاً أن هذه المرأة ـ مع ذهاب شبابها واستهلاك صحتها ـ قد لا تكون أمًّا لولد يؤنس وحشتها، ويحمى حماها، ويرعى شيخوختها .

انظر ماذا يكون من شأن هذه المرأة وقد جاءها من ورثة زوجها، عَشيَّةَ موته أو ضحاها ـ جاءها من يمسك بيدها لينتزعها من عشها الذى عاشت فيه، ويقودها إلى مابعد الباب، ثم يقول لها : « مع السلامة » ! إنْ رَفَق وتلطف،

أو « بلا رجعة » ! إن اشتدّ وعنف ! ؟ وفاعل هذه الفعلة ، وقائل هذا القول لايتأثم أو يتحرج ، لأنه يستعمل حقًّا له ، ولم ينتقص المرأة حقًّا من حقوقها ، لأنه يعلم ـ كما يقول المفسرون ـ أن الآية التى تعطى المرأة حق السكن والمتعة حولاً كاملاً ، هى آية منسوخة ، غير عاملة ! ! .

وكلاَّ ، فإن شريعة الإسلام أبرُّ وأرحم من أن تعرّض تلك المرأة الجريحة لمثل هذه التجربة القاسية ، وتلقى بها بين متلاطم أمواج الحياة قبل أن تندمل جراحها ، وتجفّ دموعها ، وتعتاد النظر إلى الحياة فى وضعها الجديد !

ولقد كان من تدبير الشريعة الحكيم أن قدمت المرأة فى هذا الحدث الأليم ، جميلَ العزاء ، ووضعت فى يدها حق القرار فى بيت الزوجية عاماً كاملاً ، وكَفَلت لها من مال زوجها نفقة هذا العام على نحو ما كانت تعيش فيه مع زوجها ، إن كان فيما ترك الزوج مايسع تلك النفقة ، فذلك هو الذى يمسك المرأة فى محنتها تلك . وذلك هو البِرُّ من جهة الورثة بمورثهم ، إذ حفظوا أهله ، وصانوا عرضه !

وأكثر من هذا . . فإنه إذا لم يكن فيما ترك المتوفى ما يقوم بنفقة المرأة خلال هذا العام فإن ورثة الزوج ، ورحِمَهُم الماسّة به توجب على الموسر منهم أن يكفل للزوجة حاجتها من ماله . . فكما أنه كان سيَرِثه إذا ترك مالاً ، فإن عليه أن يؤدى عنه ديناً هو فى عنقه لزوجته !

ذلك مانراه أقرب إلى شرع الله ، وأنسب لدينه الذى ارتضاه .

ولابد لنا من قولة فى هذا المقام .

فلقد أعطى الإسلام المرأة كثيراً ، وأضفى عليها حماية ورعاية ، وجاءت

آيات القرآن الكريم توصى بالنساء فى كل دور من أدوار حياتهن ، وفى كل موقف من موقفهن فى الحياة : أوصت بهن متزوجات ، وأمهات ، ورعتهن يتيمات ، ومطلقات ، وأيَامَى . وأعطتهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات كما يقول الله تعالى : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » وكانت آخر وصاة للرسول الكريم ، ختم بها رسالته العظيمة الرحيمة قوله : « اتقُوا الله فى الضعيفين : المرأة والمملوك » .

إن الإسلام إنما جاءت رسالته لاستنقاذ المجتمع البشرى من عوامل التصدع والهدم التى كانت عاملة فيه ، وهو من أجل هذا قد نفذ إلى الصميم من كيان هذا المجتمع . وهو الفرد الذى يتكون من وحداته المجتمع كله ، فأخذ الفرد بآدابه وتعاليمه وأحكامه كى ينقّى جوهره ، ويصفّى عناصره من الشوائب والأدران ، حتى إذا أصبح الفرد صالحاً ليكون لبنة فى بناء المجتمع ، كان أول تلاحم له فى هذا المجتمع هو وصله بالمرأة ، ليكونا معاً حجر الزاوية فى هذا البناء ، وعلى قدر التحامهما وتماسكهما تكون قدرته على الصمود والاحتمال !

فكيف يعقل والأمر على ماترى أن يقيم الإسلام بناء يقوم على دعامتين ، هما : الرجل والمرأة ، ثم يجعل من إحدى هاتين الدعامتين قوة تتسلط على الأخرى ، وتفتِّت كيانها ، وتغتال وجودها ، وتأتى على عناصر التفاعل والالتحام المهيأة لتوليد القوة وبعث النشاط فى المجتمع البشرى كله ؟ أهذا يكون من تدبير حكيم أو من عمل عاقل ؟ يريد البناء فيهدم ؟ ويغزل وينسج ثم ينقض ما غزل ونسج ؟ وإذا جاز هذا على أحد المخلوقين فهل يجوز هذا على رب العالمين وأحكم الحاكمين ؟

وتعالت حكمة الله عن هذا علوّاً كبيراً . .

وفى القرآن الكريم ، وفى السنة المطهرة ـ كما قلنا ـ منهاج متكامل حكيم لإقامة هذا البناء . وإحكام هذا النسج المتلاحم بين الرجل والمرأة ، إذا استقام المجتمع الإنسانى عليه ، ونسج على منواله .

ولكن الذى حدث كان على غير هذا الاتجاه ، إذ أنّ تفسير القرآن بدأ فى عصر كانت فيه المرأة قد أخذت وضعاً جائراً فى المجتمع ، لكثرة ما ازدحم فى عصور الخلفاء والأمراء والوزراء وأصحاب الجاه والثراء ـ من الإماء ، اللائى غلبن على الحرائر ، واستأثرن بالنصيب الأوفر عند الرجال ، وبهذا صرن الوجه البارز للمرأة فى هذا العصر ، فى حين أصبحت المرأة الحرة فى بيت الرجل شيئاً كمالياً ، لا يراد منه غير أن يكون للرجل امرأة ، يكون له منها الولد أو الأولاد !

وحين أخذ المفسرون ينظرون فى كتاب الله ، وفى الآيات التى تمسّ المرأة ، وتقرر الأحكام التى تربط بينها وبين الرجل ، وتحدد مالها من حقوق وما عليها من واجبات — حينئذ كانت نظرة المفسرين إلى المرأة واقعة على هذه الصورة الشائهة لها ، المعزولة عن الوضع الصحيح الذى أقامتها الشريعة عليه .. ومن هنا كان تأويل آيات الكتاب الكريم واقعاً تحت هذا المفهوم الجديد للمرأة ، متأثراً به ، مقدوراً بِقَدَره !

وقد جاء الفقهاء على آثار المفسِّرين فنظروا من وراء نظرتهم ، وبنوا أحكامهم على أساس تلك النظرة ، فبخسوا المرأة حقّها وأزالوها عن تلك المنزلة التى رفعها الإسلام إليها ، وأعادوها إلى أنزل من الوضع الذى كانت عليه فى الجاهلية :

والشىء الذى يُلفت النظر فى هذا هو أن كلمة المفسِّرين الأولى فى تأويل كتاب الله ؛ كانت طريقاً سلكه كل من جاءه بعدهم ، فنظر بنظرهم ، وأخذ

مأخذهم ، إذ وجد من الحرج أن يعيد نظاره فيما نظر فيه السلف ، الذين كانوا أقربَ إلى عصر النبوة وإلى تنسّم أنسامها الطيبة .

والحقّ أن هذا الشعور قد حجز كثيراً من العقول عن أن تتصل بكتاب الله وبالسنة المطهرة اتصالا مباشراً ، غير واقع تحت تأثير هؤلاء السّلف الذين اجتهدوا فأخلصوا الاجتهاد ، ولكن لاعليهم أن يجتهد غيرهم ، بل لم يكن فى تقديرهم أن يقولوا ثم لا يكون لغيرهم مقالا فيما قالوا !

والسبب فى جمود التشريع الإسلامى ، يرجع فى الواقع إلى هذا الشعور الذى دخل على العلماء والفقهاء من التزام الخطوة الأولى التى خطاها السلف فى طريق هذا التشريع ، الذى كان من طبيعة الأمور ومن معطيات الأصول التشريعية له ــ أن تَتْبَع هذه الخطوة بخطوات ، ممتدةً امتداد الزمن ، متفتحةً على مسالك الحياة ، مسايرة لسيرها ! !

وأحسب أنه لو تخففنا من هذا الشعور إلى الحدّ الذى يسمح لنا بحرية الحركة ، واستقلال النظرة لوجدنا بين أيدينا التشريعَ الإسلامى الذى يقيمنا على أوضاع سليمة مستقرة فى حياتنا المادية والروحية ، وفى نظمنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ولكانت صحبتنا للدين صحبة نأنس بها ، ونطمئن إليها ، ونثق فيها ، ولذهب ما بيننا وبين الدين من جفوة ، ولتحولت نظرتنا تلك الفاترة الضائعة فى اتصالنا به ، إلى نظرة حيّة واثقة من أنها إنما تنظر إلى الحياة كلها ، وإلى أجمل ما فى هذه الحياة ، حين تنظر فى هذا الدين ، وتقيم حياتها عليه !

وأكثر من هذا ــ فإننا لو ذهبنا نأخذ شريعتنا من مصدرها الأول ــ الكتاب والسنة ــ لوجدنا أن كثيراً من القضايا الهامة فى حياتنا التى جاءت إلينا باسم الدين ، وصارت وجهاً من وجوهه ، ومادة من مواد دستوره ،

لم تكن من الدين ، وإنما وقعت من تأويلات، تحكّم فيها يومئذ واقع الحياة ، وتحيف فيها المتأولون ! إننا لو فعلنا هذا لأخرسنا تلك الألسنة التي ترمى الإسلام بالجمود والتخلف ، وتحكم عليه بأنه دين الحياة القَبَلية ، الذى لا يصلح لحياة المجتمع المتحضر ، ولا يتفق والزىّ الذى يتزيا به إنسان القرن العشرين !

الطلاق مثلا

هو عند من يفهمون الإسلام هذا الفهم السقيم ـ لا يعدو أن يكون كلمة يتلفظ بها فى جد أو هزل ، وفى صحو أو سكر ، فإذا هى سيف قاطع يصيب المرأة فى مقتلها ، وإذا هى جثة هامدة لا حياة فيها !

وليس الطلاق هكذا فى شريعة الإسلام ، ولا هو على تلك الصورة الهزيلة الباردة !

الطلاق قضية :

ونعم قضية . . مثيرة . . خطيرة . . لها شأنها ووزنها فى حساب الحياة ، وفى بناء المجتمع الإنسانى ! وبهذا الاعتبار ، وعلى هذا التقدير ، فإن أى انحراف يقع فى النظر إليها ، أو أى سوء فهم يَرِدُ على تصورها ، لا يصيب المرأة وحدها ، وإنما تمتد آثاره السيئة إلى المجتمع كله ، وتصيب الصميمَ من مركز القوة والحياة فيه .

بهذا التقدير الحكيم كانت نظرة الإسلام إلى الطلاق . . إنه فى نظر الإسلام قضية من أهم قضايا المجتمع البشرى ، بل هى عملية جراحية خطيرة يقتطع بها الإنسان بضعة منه ، على تكره واضطرار .

وقد رأينا فيما نظرنا فيه من آيات الكتاب الكريم فى شأن الطلاق كيف كانت نظرة الإسلام إلى الطلاق ، وكيف كان تقديره له . فى كل مرحلة ، وفى كل خطوة يخطوها الرجل نحوه . .

وقد رأينا كذلك مفهوم قوله تعالى « الطَّلاق مَرَّتان فَإِمْسَاكٌ بِمَعروفٍ أو تسريح بإحسان » وأشرنا إلى ما تشير إليه لفظة « مرتان » من أن الطلاق ليس مجردَ تلفظ بكلمة الطلاق ، بل هو عمليّة قاسية ، وأنه ليس عملية واحدة ، بل هو عمليتان موجعتان .. قلنا هذا أو نحوه وهو شيء قليل مما يمكن أن يقال !

ولكن انظر كيف وقع مفهوم هذه الآية الكريمة فى العصر الذى أشرنا إليه ، عصر تدوين التفسير ، والفقه ، وما كان لأحداث العصر من أثر فى إعطاء الآية الكريمة هذا المفهوم !

كان الخلفاء يأخذون البيعة من الناس لأولياء العهد من بعدهم ، لمن يختارونه من أبنائهم ، وإنهم لكى يسدُّوا على المبايعين منافذ التحلل من تلك البيعة ، كانوا يوثقونهم بأيمان مغلظة لا يستطيعون الفكاك منها . . ومن هذه الأيمان يمين الطلاق ! فكان فيما يحلف به المبايع أنه إن تحلل من هذه البيعة التى بايعها فكل نسائه طالق ثلاثا ! على اعتبار أن التلفظ بأعداد الطلاق الثلاث مرة واحدة هو الطلاق البات الذى لا رجوع فيه . . وبهذا تصبح المرأة طالقاً بمجرد الحنث فى هذا اليمين . .

وعلى هذا أصبح الحكم الشرعىّ للطلاق عموماً هو أن يحسب الطلاق بالعدد الملفوظ به ، طلقة واحدة ، أو اثنتين ، أو ثلاثة ، وبهذا يمكن أن يقع الطلاق البات ، وتنفصم عرا الحياة الزوجية فى لحظة واحدة بكلمة واحدة !

وأغرب ما فى هذا المفهوم الخاطىء للطلاق ، أنه يحتسب « الطلاق » يميناً يُحلف به ، مع أنه إجراء أو عملية ، يتم بها الانفصال بين الزوجين ، كما تم الاتصال بينهما بعملية مماثلة فى الزواج ، وإن كانت عملية الاتصال بين طرفين ، وعملية الانفصال من طرف واحد . . فذلك لا يعدو أن يكون فسخاً من جانب واحد لعقد تم بين طرفين . وهذا أمر جائز فى بعض العقود ، كعقد الهبة ، وعقد الوصية .

ولاشك أن هذا المفهوم للطلاق بعيد غاية البعد عن ملفوظ الآية ومفهومها، مضاد كل التضاد للنظرة التي نظرت بها الشريعة إليه كدواء مر، لايتجرعه الرجل إلا عندما تعتلّ الحياة الزوجية، ويهدد الداء حياتها، عندئذ يجاء إلى هذا الدواء المر، ولـكن لايؤخذ منه إلا جرعة واحدة، فإن ذهبت بالداء، وإلا فالثانية، فإن لم يكن ثمة أمل فالثالثة.. ولاشيء بعدها!

أرأيت إذن كيف كان أثر العصر الذي دُوّن فيه تفسير القرآن في تلوين هذا التفسير بلون الحياة الغالبة على الناس يومئذ، وفي تخريجه على نحوٍ يستجيب لمنازع هذه الحياة، ولا يتصادم مع أحداثها!

ولك أن تنظر بعد هذا فيما يقال من أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الذي أفتى بهذه الصورة الـكريهة التي يقع بها الطلاق مرة واحدة بلفظ واحد، وأنه ألزم المتلفظ بكلمة الطلاق أن يقع طلاقه بائنا بينونة كبرى إذا حملت اللفظة معها مايدل على عدد الثلاث، كأن يقول: هي طالق ـ طالق، طالق، أو هي طالق ثلاثاً.. أو يقع يميني ثلاث طلقات إذا حدث كذا أو كذا ثم لم يحدث هذا أو ذاك!

لك أن تنظر في هذا الذي يقال عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في أمر هذا الطلاق، وما يقام له من تعليل ينسب إلى عمر أيضاً، وهو أن النـاس استعجلوا أمراً كان لهم فيه أناة، فـكان ذلك عقاباً لهم!

ياسبحان الله! أهذا عمر بن الخطاب، وهذا توقيره لدين الله، وحياطته له، وحرصه عليه؟

ومعاذ الله أن يستحلّ ابن الخطاب حرمة من حرمات الله، فيحل حراماً أو يحرم حلالاً!! أَفَلأَنْ خرج بعض الناس على منهج الدين يلقاهم ابن الخطاب

بهذا الدين وقد غير لهم وجهه ، وأدار لهم ظهره ؟ وماذا لو رأى ابن الخطاب أن المسلمين قد أكثروا فى عهـده من التزوج بالكتابيات ، ورغبوا فيهن عن المسلمات ؟ أكان عليه — حسب هذا المنطق — أن يجىء إلى المسلمين بفتوى تحرم عليهم التزوج بهن ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء !

إننا نلغى عقولنا ونبيعها بأبخس ثمن إذا قبلنا مثل هذه الروايات التاريخية المتهافتة ، التى تُدين الإسلام ، وتدين رجلا من رجالات الإسلام كعمر بن الخطاب ، رضى الله عنه وأرضاه .

ندع هذا ، ونسير فى طريقنا مع كتاب الله ، ومع آياته البينات .

قوله تعالى : « فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ من معروف » .

بعد أن قضى الله سبحانه وتعالى للمرأة المتوفى عنها زوجها بالمقام فى بيت الزوجية حولاً كاملاً ، مكفولة النفقة ، غير متوجه إليها بكيد يفسد عليها المقام فيه ، ويحملها على الخروج منه — بعد أن بين الله سبحانه هذا ، أباح للمرأة أن تخرج من هذا البيت متى شاءت خـلال هذا الحول ، حسب تقديرها وتدبيرها لشئون نفسها ، فهذا الحق مِلكٌ لها تستعمله أو لا تستعمله ، كله ، أو بعضه ، ولا سبيل لأحد عليها ، ولا حَرَج على أهل الزوج إن هى خرجت راغبة غير مكرهة ، ولا ضائقة !

وقوله تعالى : « والله عزيز حكيم » تذكير لأهل الزوج وورثته بعزة الله وقوته ، حتى لا يعتزوا بعزتهم ، أو يغـتروا بقوتهم ، إزاء ضعف المرأة واستكانتها فى الحال التى هى فيها ، فيجوروا على حقها ، ويمتدوا على ما وضع الله فى يدها .. فما قضى الله به هو حكم الحكيم العليم ، وليس لأحد أن يعترض على هذا الحكم أو يقف فى سبيل إمضائه ، وإلا كان معتدياً آثماً .

وفى قوله تعالى : « وللمطلقاتِ متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين » تأكيد لهذا البرّ الإنسانى بالمرأة المتوفَّى عنها زوجها، إذ جعله الله حقًّا للمطلقات عموما، فالمتوفَّى عنها زوجها أحق وأولى بهذا البر منهن .

وإذ جعل الإسلام هذا البرّ حقاً واجباً للمرأة المطلقة أو المتوفى عنها زوجها ، على الزوج المطلّق ، أو على ورثة المتوفى ، فإنه لم يكتف بهذا الأمر الملزم ، بل استدعى له إنسانية الإنسان كلها ، وخاطب فيه جانب المروءة والرجولة ، ليكون من ذوى الفضل والإحسان ، وذلك ليشد الأمر الدينى إلى ضمير الإنسان ، وليوقظ له المشاعر الطيبة الرحيمة فيه ، حتى يستقبل الأمر الدينى ، طيب النفس ، منشرح الصدر ، فيخف عليه أداؤه ، والوفاء به على أكمل وجه وأتمه .. فسبحان الحكيم العليم المستولى بحكمته وبعلمه على ما تكن الضمائر وما تخفى الصدور !

قوله تعالى : « كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ » أى بمثل هذا البيان المبين ، يخاطبكم الله بآياته ، ويعلمكم آدابه وأحكامه ، حتى تكونوا على هدًى وبصيرة، لما التقى بعقولكم من هذا العلم الرّبّانى الوضيء .

آية (٢٤٣)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ » (٢٤٣)

التفسير : من هم هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ؟

تختلف أقوال المفسرين اختلافاً كبيراً فى هؤلاء القوم .. وفى الأمة التى ينتسبون إليها ، وفى العصر الذى كانوا فيه ، وفى الحدث الذى خرجوا من

أجله ، وفى المعتقد الذى كانوا يعتقدونه .. إلى غير ذلك من وجوه الأقوال فيهم ، والتى لايجد المرء فيهـا — مجتمعة أو متفرقة — شيئاً يستريح له ، ويقف عنده !

وندع هذه الأقوال جميعها ، لنأخذ بما يقع فى وجداننا ، ونحن نتلو الآية الـكريمة ، وما بعدها من آيات .

فنقول — والله أعلم — إن كلمة « الذين » تجىء أكثر ماتجىء فى القرآن الـكريم مرادًا بها جنساً خاصاً من الناس ، مثل : الذين آمنوا ، والذين كفروا والذين جاهدوا ، والذين صبروا ..

١ — فهؤلاء الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف لابد أن يكونوا على صفة واحدة ، اجتمعوا عليها ، وعاشوا فيها .

٢ — ثم إنهم من جهة أخرى — قد شملتهم حال واحدة ، أحاطت بهم وعرضتهم للموت ، فخرجوا من ديارهم طلباً للنجاة من وجه هذا الخطر الجاثم عليهم : « خرجوا من ديارهم .. حَذَرَ الموت .

٣ — ثم إنهم - من جهة ثالثة - خرجُوا بتدبير من عند أنفسهم ، وأنهم تركوا ديارهم خِفية دون أن يشعر بهم العدو المتربّص بهم ، وأنه لو كان هذا الخروج من عمل عدوهم لـكان التعبير عن هذا الخروج بلفظ « أُخرجوا » لابلفظ خَرجُوا كما جاء به الخبر القرآنى !

هذه دلالات ثلاث نجدها فى الآية الـكريمة .

ونتفرس فى وجوه الأحداث التى كانت تستدعيها الدعوة الإسلامية ، وتقيم منها العبرة والعظة للمؤمنين ، وفى الجماعة التى كانت مضرب المثـــل للمؤمنين — فى الخير والشر — فنجد هذه الجماعة هى جماعة بنى إسرائيل

والحدث الذى يعطى هذه الدلالات ، هو خروجهم من مصر على يد نبي الله موسى عليه السلام !

فالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف إذن ، على هذا التفسير — هم بنو إسرائيل .

١ — فهم الذين كانوا جماعة مستقلة بذاتها ، متميزة بعاداتها وأوضاعها فى المجتمع المصرى .

٢ — وهم « الذين » أخذهم فرعون بالبأساء والضراء ، وأنزلهم منازل الهون والذلة : « يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم » (٤ : القصص) .

٣ — وهم « الذين » خرجوا بليل مستخْفين تحت جنح الظلام ، دون أن يشعر بهم فرعون وجنوده ، إلا بعد أن قطعوا معظم الطريق ، جادّين فى الهرب : « فأَسْرِ بعبادى ليلاً إنكم متبعون : (٢٣ : الدخان) .

والآية القرآنية تقول : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ » .. ولا تحتاج الآية بعد هذا إلى شرح أو تأويل !

وتقول الآية بعد ذلك : « فقال لهم الله مُوتُوا . . ثم أحياهم » .

والسؤال هنا : هل كتب الله سبحانه وتعالى على هؤلاء القوم ، الموتَ ، بعد أن خرجوا من ديارهم ، وهم ألوف ، حذر الموت ؟

نعم . . !

فإنه بعد أن خرج بنو إسرائيل من مصر ، وبعد أن رأوا من آيات الله ما رأوا عادوا فكفروا بآيات الله وعبدوا العجل ، واتخذوه إلٰها من دون الله. فكان أن عاقبهم الله بأن كتب عليهم التيه فى الصحراء أربعين سنة ، كما قال الله تعالى : « قَالَ فإِنَّها محرَّمة عَلَيهم أربعِينَ سَنَةً يَتِيهونَ فى الأرض »

(٢٦ : المائدة) . . وهذا موت أدبى ومادىّ معاً . . فقد عزلهم الله بهذا التّيه عن الحياة ، وعن المجتمع البشرى كله ، لا يدرون أين هم فى هذا القبر الكبير الذى أطبق عليهم ، وسدّ دونهم منافذ الخروج منه !

ثم تقول الآية الكريمة بعد هذا : « ثم أحياهم » أى قال لهم الله موتوا ، فماتوا . . ثم أحياهم أى أخرجهم من هذا التيه ، وبعثهم من هذا القبر المشتمل عليهم ، بعد أن قضوا الأربعين سنة المحكوم عليهم بها .

وتقول الآية فى خاتمتها : « إن الله لذو فَضْلٍ عَلَى النَّاس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون » تنبيها لأولئك الغافلين عن نعم الله وأفضاله ، ليقوموا بحق شكرها ، بالإخبات لله والحمد له ، ولكن أكثر الناس يجحدون بآيات الله ويكفرون بنعمه !

وفى قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يشكرون » تشنيع على بنى إسرائيل وإدانة لهم بأنهم استقبلوا نعم الله بالجحد والكفران . . كانوا فى قبضة فرعون أمواتاً أو كالأموات فأحياهم الله ، إذ خلصهم من عدوهم ، ولكنهم كفروا النعمة وجحدوا المِنّة فأماتهم الله بالتيه فى الصحراء أربعين سنة ، ثم أحياهم إذ أخرجهم من هذا التّيه ، فلم يكن منهم إلا الجحود والكفران .

هذا ، ومورد الآية الكريمة هنا ، أنها تمثل للمسلمين موقفاً أشبه بالموقف الذى كانوا يقفونه يومئذ ، وأنه إذا كان بنو إسرائيل قد مكروا بآيات الله وجحدوا فضله فليكن المسلمون على حذر من أن يضلوا كما ضل القوم ، وأن يقعوا فيما وقعوا فيه !

والآية الكريمة نزلت فى سورة البقرة التى كانت أول القرآن نزولاً بعد الهجرة . . فهى تذكّر الرسول والمسلمين بأن قوماً قبلهم قد خرجوا من ديارهم فراراً بأنفسهم من وجه الظلم والقهر والإذلال ، كما خرج النبىّ

والمهاجرون معه من ديارهم فراراً بدينهم ، وأن يفتنهم المشركون فيه « والفتنة أشدّ من القتل » . .

وأن الله ـ سبحانه ـ الذى نجّى بنى إسرائيل من عدوهم سينجّى النبى وأصحابه من عدوّهم ، وأنه كما أحيا هؤلاء القوم وحفظ عليهم حياتهم سيحيي المسلمين ويحفظ عليهم دينهم !

ثم إنه سبحانه ـ وقد جحد بنو إسرائيل نعمته فرماهم فى التيه ـ يرصد عقابه لكل من لا يشكر له ، ويستقيم على طريقه القويم .

فليأخذ المسلمون العظة من هذا الحدث . وإلا صاروا إلى ما صار إليه هؤلاء القوم من فتنة وضلال !

آية : (٢٤٤)

« وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٢٤٤)

التفسير : لقد نجّى الله المسلمين من عدوّهم ، كما نجّى بنى إسرائيل من عدوّهم ، ولكن بنى إسرائيل كفروا وجحدوا ، وضنّوا أن يعطوا شيئاً من أنفسهم لله الذى استنقذها وخلّصها . وهذه دعوة للمسلمين الذين خلصهم الله من البلاء ، وعافاهم من السوء الذى كانت ترميهم به قريش ـ دعوة لهم أن يقاتلوا فى سبيل الله ، وأن يدفعوا يد الضُلاَّل والمفسدين عن طريق الحق والخير والسلام ، فتلك هى الزكاة التى يؤدونها عن هذه النعمة التى ألبسهم الله إياها ، وبذلك تضعف قوى البطش والطغيان ، فلا تتسلط على عباد الله كما كانت متسلطة عليهم هم ، من قبل أن يمنّ الله عليهم ، وينجّيهم مما كانوا فيه من بلاء !

آية : (٢٤٥)

« مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » (٢٤٥)

التفسير : إن مجال الجهاد فى سبيل الله متعدد الميادين ، مختلف الوسائل. فمن جهادٍ بالنفس وبيع لها فى سبيل الله ، إلى جهاد بالمال ، وبذل له فى وجوه الخير والنفع ، إلى جهاد بالكلمة الطيبة الصادقة فى دعوة الحق والخير . . كل أولئك وما شابهه جهاد مبرور فى سبيل الله .

ومن لطف الله بعباده ورحمته لهم أنه يمنحهم الحياة ، ويفضل عليهم بالمال ، ثم يجعل ذلك ملكاً خالصاً لهم ، ثم يعود بفضله عليهم فيشترى منهم تلك الأنفس ، ويقترض منهم هذا المال ، ثم يعود بفضله وكرمه فيؤدى إليهم ثمن ما اشترى ، وقيمة ما اقترض أضعافاً مضاعفة . . وكان له ــ سبحانه ــ أن يأخذ ما منح ، ويسلب ما أعطى ، بلا عوض ، ودون مقابل ، ولكنه ذو رحمة واسعة وفضل عميم ! « إن الله لذو فضلٍ على الناسِ ولكن أكثر النّاسِ لا يشكرون »

آية : (٢٤٦)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ » (٢٤٦)

التفسير : مثل آخر من بنى إسرائيل تعرضه الآية الكريمة لأنظار المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلاَّ أن يقولوا ربنا الله . . وفى هذا المثل يرى المسلمون صورة كريهة للمهانة والذلة تركب القوم ، فإذا هم جبناء أذلاَّء ، لا يدفعون عن حرماتهم ، ولا يردّون يد العدوّ المتسلط عليهم !

إن هؤلاء الملأ من بنى إسرائيل ـ وهم سادة القوم وأشرافهم ـ هم أبناء أولئك الذين أماتهم الله ثم أحياهم ، بأن أدخلهم الأرض المقدسة ، وجعل لهم مقاماً فيها ، فلما ركبهم البغى والعدوان سلط الله عليهم من بدّدَ شملهم ، وخرب ديارهم ، وأزال ملكهم ، ونبذهم بالعراء فى تيه أشبه بالتيه الذى عاش فيه سلفهم . . وإذ دبّ فى القوم دبيب الحياة ، وتحركت فيهم أثارة من نخوة ورجولة قالوا لنبيهم : اخترلنا ملكاً نجتمع إليه ، ونقاتل تحت رايته ، لنستعيد ملكنا ، ونجتمع إلى ديارنا !

ونبيهم يعلم من أمرهم مالا يعلمون ، ويرى من أنفسهم مالا يرون . . إنهم أكثر الناس أقوالاً وأقلّهم أفعالا .. يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم !

«وقالوا لنبيٍّ لهم ابعث لنا ملِكا نقاتلْ فى سبيل الله . »

فيلقاهم النبىّ بما يتوقع أن يكون منهم ..

« قال هل عَسَيْتُم إنْ كُتب عليكم القتال ألاَّ تقاتلوا ؟ » .

وتأخذهم الحميّة ، وتغلب عليهم شهوة القول .. فيقولون :

« وَمالَنَا ألاَّ نُقَاتِلَ فى سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ » . .

إنهم يجدون أكثر من دافع يدفعهم إلى القتال .. لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، وشُرّدُوا هم وأبناؤهم .. فهل يصبر على هذا الضيم أحرار الرجال ؟ ولكن أين هم الرجال ؟

«فلما كُتب عَلَيْهِمُ القِتال تولَّوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين» .

لقد فضحوا أنفسهم حين دخلوا فى هذه التجربة ، وكانوا من قبل أن يطلبوا الدخول فيها ، فى ستر من أمرهم ، ولكن أبوا إلا أن يركبوا مراكب الرجال ، فزلت أقدامهم ، وعُفرت وجوههم فى تراب الخزى والمهانة .. إلا قليلا ممن أراد الله له السلامة والأمن ، فثبت قدمه ، وربط على قلبه .

الآية : (٢٤٧)

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٢٤٧)

التفسير : وتشرح هذه الآية والآيات التى بعدها ما أجملته الآية السابقة ، من هذا الموقف المتخاذل الذى كان من هؤلاء القوم ، الذين يمكرون بآيات الله ، ويستخفّون بأوامره وأحكامه .

لقد اختار لهم الله ملكا يقاتلون معه ، وذلك إجابة لمقترحهم الذين اقترحوه .. فجعلوا يفتشون فى هذا الملك المختار من قِبَل الله ، ويفندون الأسس التى قام عليها اختياره ، وفى ذلك مافيه من جرأة على الله ، وعدوان على مايقضى به ويحكم فيه . .

وليتهم إذ نظروا ، وقعت أنظارهم على مافى الإنسان من فضائل نفسية وروحية ، هى التى يكون بها التفاضل والتمايز بين إنسان وإنسان .. ولكنهم لم ينظروا إلا إلى ما أُشربته قلوبهم من حبّ المال ، الذى هو ميزان المفاضلة

والفضل عندهم .. فحين رأوا أن الملك المختار لم يكن أكثرهم مالاً ، وأوسعهم ثراء ، أنكروا أن يكون ملكا عليهم ، وقالوا : « أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه ولم يؤت سَعَةً من المال ؟ » .

وتَلَقَّوا الإجابة من نبيهم مُسكِتة مفحمة : « إن الله اصطفاه عليكم » ! فهل لهم أن يحتكموا على الله ؟ لقد اصطفاه الله عليهم .. « والله يؤتى ملكه من يشآء » ثم إن هذا الذى اصطفاه عليهم قد زاده الله بسطة فى العلم والجسم ، فإذا كان فيهم من يفضله فى المال ، فهو يفضلهم فى كمال الجسم وتمام العقل ، وذلك مما يكمل به المُلك ويَجْمل به الملوك ! جمال وروعة فى المظهر ، وفى المخبر .. معاً ..

« والله واسع عليم » يصطفى من يشاء لما يشاء ، وسع فضله كل شىء ، وأحاط علمه بكل شىء ، فلامعقب لحكمه ، ولا منازع له فى سلطانه . « فما لهؤلاء القوم لايكادُون يفقهونَ حديثاً » ؟

الآية : (٢٤٨)

« وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢٤٨)

التفسير : لم يطمئن القوم إلى ما أخبرهم به نبيّهم عن طالوت ، وأن الله قد اصطفاه لهذه المهمة ،وأن عنده من مستلزمات الملك ماليس لأحد منهم .. بسطةً فى العلم والجسم .. ولكنهم أبوا أن يخفّوا للانضواء إليه والقتال تحت رايته .. فجاءهم نبيهم بآية محسوسة ، يجدونها بين أيديهم ، أمارة على اصطفاء الله له ، وهو أن يعود إليهم التابوت الذى افتقدوه من زمن بعيد ، وفى هذا التابوت سكينة

واطمئنان لهم ، إذ كانوا يجدون فى وجوده بينهم دلالة على رضى الله عنهم وتأييده لهم فى القتال . وفى هذا الصندوق أيضاً بعض من مخلفات موسى وهرون . .
وفى هذا شاهد واقعى يشهد لصدق النبىّ ، ويؤيد ما بلّغ به عن ربّه فى شأن طالوت !

والتابوت هو « صندوق » يقال إنه هو الذى كان قد وُضع فيه موسى حين ألقته أمه فى اليمّ ، ويمكن أن يكون صندوقاً من صنع موسى كان يضع فيه الألواح والعصا ، وغير ذلك من آثاره وآثار هارون ، وكانوا يصحبون التابوت معهم فى حروبهم ، تبركا به ، فلما كان القوم فى بعض حروبهم مع عدوّهم ، وغُلبوا على أمرهم ، واستبيحت ديارهم وأموالهم ، حمل أعداؤهم هذا التابوت ، فيما حملوا من مال ومتاع ! فكانوا بعد ذلك لا يجرءون على ملاقاة عدو !

وجاءهم التابوت وما كان فيه من آثار ، وعنـــدها وجدوا السكينة ، والإطمئنان . . فآمنوا وصدّقوا ، ورضوا بطالوت ملكا وقائداً . . وهكذا يقاد القوم قسراً ، بيد الآيات المعجزة القاهرة ، التى تسدّ عليهم منافذ ، المعاذير والعلل ، التى يقيمونها بين يدى كل أمر يُدْعون إليه من الله !

الآية : (٢٤٩)

« فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٢٤٩)

التفسير : أمَا والقوم قد أبوْا أن يُصدِّقوا إلا أن يرَوْا بأعينهم ، فقد ابتلاهم الله ، ووضعهم أمام تجربة حسيّة يدعوهم إليها « طالوت » الذى جاءهم بالآيات ليحملهم على التصديق به .. وليس لهم بعد ذلك أن يخرجوا عن طاعته ، بعد أن استيقنوا أن الله قد اصطفاه عليهم .. وهاهوذا يدعوهم إلى محنة قاسية ، لم يكن لهم أن يتحللوا منها بحال أبداً .. إنها من طالوت ، وإن طالوت من الله ، وشاهده فى يده ! !

« قال إن الله مُبْتليكم بِنَهَرٍ فمن شرب منه فليسَ مِنىّ ولم يطعمه فإنَّهُ منى إلا من اغترفَ غُرْفَة بِيَدِهِ » .

هذه هى التجربة ، وهذا هو الابتلاء . ! فالقوم عطشى والماء بين أيديهم ، وكلمة الله إليهم : « ألاَّ يشربوا من هذا الماء وألا يرْوُوا ظمأَهم » . وفى هذا :

أولا : امتحان لإيمانهم ، واستجابتهم لما يُدْعَون إليه ، وهم فى وجه تجربة أقسى وأمر ، هى لقاء العدوّ الذى عرفوه وعرفوا بأسه وجبروته وبطشه بهم ، وبآبائهم من قبل !

وثانياً : أن ذلك رياضة لهم وتدريب على احتمال مكاره الحرب وأهوالها ، وربما كان الظمأ أهون شىء فيها .

هذا بعض ماتنطوى عليه التجربة فى كيانهـــا ، ولـكن القوم لايرون إلا مايطفو على ظاهرها ، وأنها ليست إلا تحكما من طالوت ، لايمليه عليه إلا حبّ التسلط والاستبداد ، وهذا مايضاعف من كمدهم وحقدهم .. ليجعل الله ذلك حسرةً فى قلوبهم . . إنهم يحومون حول الماء ولا يردونه ، وتحترق أكبادهم ظمأ ويحرُم عليهم أن يشربوا منه .. « كذلك العذاب ، وَلَعذَاب الآخرة أخزى وهم لايُنْصَرون » (١٦ : فصلت) .

وإن القوم لعلى ماهم عليه من فساد طوية واعتلال نية .. فخرجوا عن أمر نبيهم ، وشربوا من النهر وعبُّوا ، إلا قليلا منهم ممن عافاه الله من هذه المحنة ، فتجنّب النهر ولم يشرب منه !

وقد اعتزل طالوت أولئك الذين شربوا ، وخلص بالذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم .. وحين رأى القوم عدوّهم يقودهم قائدهم الجبـــار « جالوت » فزعوا واضطربوا وقالوا : « لاطَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ » ولـكن قلة قليلة منهم ممن آمن بالله ، ووثق بما أعده فى الآخرة لعباده المؤمنين ، فآثروا الآخرة على الدنيا ، وزهدوا بما فى أيديهم طمعاً بما فى يد الله — هؤلاء لم يلتفوا إلى ماوراءهم من أهل وولد ومال ، ولم يخفهم الموت الراصد لهم فى يد أعدائهم ، فلم يهابوا العدوّ وكثرته وقوته ، وأطمعهم هذا الشعور فى عدوّهم ، ورأوا أنهم فى قلتهم المؤمنة الصابرة أقوى من عدوّهم الذى لا يؤمن بالله ولا يصبر على المـكروه ، إلا طمعاً فى مغانم الدنيا ومتاعها .. وإذ قال غيرهم : « لاطاقةَ لنا اليومَ بجالوت وجنوده » قالواهم : « كم من فِئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » .

الآيتان : (٢٥٠ ـ ٢٥١)

« وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْـكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِـكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ » (٢٥١)

التفسير : تلك عاقبة الصابرين فى مواقع الحق ، المجاهدين فى سبيل الله ، على بصيرة وهدى ، لايخطئهم النصر أبداً .

وواضح من الآية الكريمة أن داود عليه السلام كان فى هذه الحرب جندياً من جنود طالوت، وأنه ببسالته وشجاعته قد تولى قتل قائد العدو جالوت ، وبفعله هذا كان النصر والغلب .. ثم كان من فضل الله على داود بعد هذا أن أتاه الله الملك والحكمة ، وعلمه مما يشاء من علمه ، فألانَ له الحديد ، وعلمه صنعة الدروع للحرب ، وجعل لصوته من حسن النغم ماجعل الحياة كلها من حوله تنسجم معه ، وتستجيب له ، وإذا هى معه صوت واحد ، يسبح بحمد الله رب العالمين ! !

وقوله تعالى : « وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرض ولكنّ الله ذُو فضْلٍ على العالمين » .

يتبين أن هذا التدافع بين الناس .. بين الخير والشر .. بين الحق والباطل .. بين الأقوياء والضعفاء .. بين الأغنياء والفقراء .. بين الأفراد والأفراد .. وبين الجماعات والجماعات .. وبين الأمم والأمم ـ هذا التدافع فى كل موقع من مواقع الحياة ، وفى كل متجه فيها، وعلى كل مورد مواردها ـ هو الذى يحرك دولاب العمل على هذه الأرض ، ويبعث الحياة فى كل جانب منها .. ولو كان النّاس متجهاً واحداً ، ومذهباً واحداً ، وشعوراً واحداً ، وتفكيراً واحداً ، ومنزعا واحداً ـ لكانوا شيئاً واحداً . . كانوا كتلة باردة متضخمة ، أشبه بجبل من الجليد ، لا تطلع عليه الشمس أبداً ! ! فسبحان من خالف بين النّاس فجعل من هذا التخالف مادة الحياة والبناء والعمران ، ولولا ذلك لفسدت الأرض وضاع الناس : « ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين » .

الآية : (٢٥٢)

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » (٢٥٢)

التفسير : هذه الآيات التى يتلقاها النبىّ الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إنما هى كلمات الله ، يتلوها عليه رسول كريم من رسل الله ، وإنها لحقّ من ربّ العالمين ، تقرر الحق بأنه من المرسلين الذين أنعم الله عليهم. واصطفاهم للسفارة بينه بين خلقه ، يحملون بين أيديهم وعلى ألسنتهم النور والهدى .



عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الثاني

الجزءان: الثالث والرابع

من مباحث هذا الكتاب

- الرّبا .. أنواعه .. حكمة تحريمه
- الدَّيْن .. توثيقه والإشهاد عليه
- المحكم والمتشابه فى القرآن
- كلام المسيح فى المهد .. على أى صورة وقع
- المسلمون واليهود .. فى مسيرة الحياة
- تعدّد الزوجات .. ضوابطه وحكمته

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى



الآية : (٢٥٣)

« تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » (٢٥٣)

التفسير : لله سبحانه وتعالى أن يصطفى من يشآء من عباده.. والرسل عليهم الصلاة والسلام هم ممن اصطفاهم الله ، لحمل رسالته إلى عباده ، فجعلهم سفراءه إلى الناس بالرحمة والهُدى . . وهؤلاء الرسل ــ على علوّ مقامهم وشرف منزلتهم ــ هم درجات عند الله فى الفضل .. بعضهم أفضل من بعض ، فكما اصطفى سبحانه وتعالى هؤلاء الرسل من بين خلقه ، اصطفى منهم صفوة جعلها فى الدرجة العليا من هؤلاء المصطفيْن الأخيار . . والإشارة إلى الرسل بالمؤنث ، إنما هى إشارة إلى جماعتهم ، أو جماعاتهم ، باعتبارهم كيانا واحداً ، يحملون شعلة الهدى ، ويتجهون بها إلى غاية واحدة ، هى هداية الناس واستنقاذهم من الضلال .

وقد نوّه سبحانه بالنبييْن الكريميْن : موسى ، وعيسى ، بهذا الفضل الذى فَضَل به عليهما ، إذ شرّف الله موسى بأن أسمعه كلامه سبحانه ، من غير واسطة ، وأكرم عيسى بأن جعل على لسانه الحكمة ، وفى قلبه روح القدس ، حيث كان نفخة من روح الله ، فكان فى قلبه شعاعة من نور الحق لا تخبو أبداً ، ولا يستملى لسانُه منها غير الحق أبداً ! .

واختصاص هذين النبيّين الكريمين بهذا الذكر هنا دون سائر الأنبياء والمرسلين ؛ لايحصر الفضلَ فيهما وحدهما، ولايعطيهما المنزلة العليا فى الأنبياء جميعاً ،

وإنما كان ذلك الذكر لاستحضار أتباعهما من اليهود والنصارى، وتذكيرهم بما حمل إليهم موسى وعيسى من الهدى والرحمة، وما كان من أتباعهما من خلاف وشقاق، ذهب بهم فى الفرقة والعداوة كل مذهب.

وهذا الخلاف بين أتباع موسى وعيسى ـ فيما بين كل فريق منهم، ثم فيما بين الفريقين، ثم فيما بينهم وبين المسلمين ـ هذا الخلاف هو مما تقتضية طبيعة الحياة، وهو بعضٌ مما أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله فى الآية السابقة: « ولولا دفع اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَفَسَدت الأرض » .. فهناك حقّ وباطل، وهناك محقّون ومُبطلون، وإنه لابد أن يصطدم هؤلاء وهؤلاء، ويقتتل هؤلاء وهؤلاء، ولولا ذلك لتسلط الشر على الخير، وغلب الباطل على الحق، وكان فى ذلك فساد كل شىء، وضياعُ كل شىء.

وفى قوله تعالى: « ولو شآء الله ماقتتل الذين من بعدهم من بعد ماجآءتهم البينات » إشارة إلى أن هذا الخلاف الذى وقع بين أتباع الأنبياء، وأوقع القتال بينهم، إنما هو بتقدير الله وحكمته، ليكون فى ذلك ابتلاء واختبار، وليميز الله به الخبيث من الطيب .. فالضمير فى « من بعدهم » يرجع إلى أتباع الأنبياء الذين اختلفوا بعد أنبيائهم، الذين هم جميعاً على دين واحد، هو دين الله، وهو الإسلام.

قوله تعالى: « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » أى وقع الاختلاف بين أتباع الرسل، فكان منهم المؤمنون وكان منهم الكافرون، وكان من ذلك أن اقتتل المؤمنون والكافرون .. « ولو شاء الله ما اقتتلوا » أى ولو شاء الله ما اقتتلوا مع وجود هذا الخلاف بينهم .. « ولكنّ الله يفعل ما يريد » أى فوقع القتال بينهم لما أراد الله من حكمة يعلمها، ولما قضى به من خير وراء هذا الذى يحسبه الناس شراً. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الآية : (٢٥٤)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٢٥٤)

التفسير : الناس فريقان : مؤمن وكافر . . والمؤمنون هم الذين يتقبلون دعوة الحق ، ويستجيبون لها . . والنداء هنا موجه للمؤمنين ، إذ يحمل إليهم أمرَ الله بأن ينفقوا فى سبيل الله مما رزقهم الله .. فمن هذا الذى ينفقونه فى هذه الدنيا يكون رصيدهم من الخير الذى يجدونه يوم القيامة ، يوم لا يلقى الإنسان شيئاً إلا ما أعده من قبل لهذا اليوم . . حيث انقطع الإنسان من كل شىء ، وانقطع عنه كل شىء ، فلا بيعَ ولا شراء ، ولا ربح ولا خسارة .. فقد انفضّت السوق من قبل ، فربح من ربح وخسر من خسر . . وليس هناك من صديق أو معين يمد يده إلى غيره بشىء مما عنده ، فلكل امرىء يومئذ شأن يغنيه ، وليس لأحد شفاعة من أحد أو فى أحد ، فقد صار الأمر كله إلى يد غير يد الأصدقاء والشفعاء . . إنه فى يد الله رب العالمين .

وقوله تعالى : « والكافرون هم الظالمون » تنديد بالكافرين ، وإثارة لمشاعر الحسرة والندامة فيهم ، إذ ظلموا أنفسهم ، ولم يعملوا لها حساباً لهذا اليوم العظيم .. وحصْر الظلم فيهم إشارة إلى أن كل ظلم هو تبع لظلمهم ، وفرع من أصل .

الآية : (٢٥٥)

« اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ » (٢٥٥)

تستعرض هذه الآية الكريمة أمجاد الله وعظمته وقدرته ، ليكون من هذا العرض الكاشف مَجلًى لأبصار المستبصرين ، ونورٌ لبصائر الراشدين ، حتى يتعرفوا على الله ، ويؤمنوا به ، ويُخبتوا له ، ليرشُدوا ويسعدوا .

فالله هو الذى لا إله إلا هو . . وكل ما يعرف الضالون من أرباب وآلهة غيره ، ضلال فى ضلال .

والله ـ سبحانه ـ هو الحىّ حياة أبدية سرمدية . لم يسبقه عدم ، ولا يلحقه فناء .

والله ـ سبحانه ـ هو القيوم ، المالك لكل شىء ، والقائم على كل شىء ، والمهيمن على كل شىء .

والله ـ سبحانه ـ منزه عن العوارض التى تعرض للمخلوقات ، فلا يعرض له تعب أو كلال ، ولا يلحقه سهو أو نسيان ، ولا تأخذه سِنَة ولا نوم .. مما يأخذ الناس من جَهد العمل .

والله ـ سبحانه ـ له ملك السموات والأرض وما فيهن ، يدبرها بحكمته ، ويسعها بعلمه .

والله ـ سبحانه ـ قد بسط سلطانه على السموات والأرض ، ووسع كرسيه السموات والأرض .

والله ـ سبحانه ـ هو العلى العظيم ، الذى لا يطاوله فى علوه أحد ، ولا يشاركه فى عظمته أحد .. هكذا يتجلّى الله سبحانه فى عظمته وجلاله ، وفى حكمته وعلمه ، وفى قدرته وحِياطته ، وفى ملكه وسلطانه ـ هكذا يتجلّى لمن نظر فى هذا الوجود ، وهكذا يتجلّى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وفى قوله سبحانه : « من ذا الّذِى يشفعُ عِندَه إلا بإذنِهِ » استحضار لنتيجة

لازمة من هذا العرض المبسوط لسلطان الله وقدرته ، يشهد منه أولئك الذين يتخذون من الله أرباباً يقولون عنهم إنهم شفعاؤنا عند الله ، ويقولون فيهم : «ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى» (٣ :الزمر) ـ يشهد منه هؤلاء ألاّ سلطان لأحد مع سلطان الله ، ولا شفاعة لأحد فى أحد عند الله ، إلا لمن يأذن له الله ، ويرضى له الشفاعة ، فضلا منه وكرماً وإحساناً !

وفى قوله تعالى : «وسع كرسيّه السموات والأرضَ» إشارة إلى امتداد سلطانه ، وسعته ، ونفوذه إلى كل شىء فى هذا الوجود ، وامتلاكه ناصية كل شىء فيه ! .

فالكرسى عادةً يحتوى السلطانَ الجالس عليه ، وهو فى حقيقته ليس إلاّ شيئاً صغيراً ، لا يشغل إلا حيّزاً محدوداً مما يقع تحت يد السلطان من مُلك .

ولكن كرسىّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الوجود كلّه ، بل إن الوجود كله ـ فى أرضه وسمائه ، وماتحوى أرضه وسماؤه ـ هو مما يحويه هذا الكرسىّ ، ويشتمل عليه . .

فانظر إلى هذا الكرسى ، الذى يضم فى كيانه الوجود كلّه ، ثم انظر إلى عظمة الله سبحانه وتعالى ، الذى لا يمثل كرسيّه إلا حيزاً محدوداً من سلطانه ، على نحو ما يمثل كرسىّ صاحب الملك من ملكه . . ولله سبحانه وتعالى المثلُ الأعلى ، وهو العزيز الحكيم .

الآية : (٢٥٦)

«لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِٱلطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَى لَا ٱنْفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٢٥٦)

الدين فى صميمه جذوة من الحق ، تسكن ضمير المؤمن ، فتكون النورَ الهادى له ، والقوة الموجهة لأفعاله وتصرفاته .

ومن هنا كان الدّين عقيدة ينعقد عليها الضمير ، فلا يعرف أحد كُنْه ما انطوى عليه الضمير من الدين . . إنه سرّ بين الدّين وصاحبه . . لا سبيل لأحد إليه ، ولا سلطان لمخلوق عليه .

ومن هنا أيضاً لم يكن ديناً ذلك الدين ـ إن سمّى ديناً ـ الذى يجىء إلى الإنسان أو يجىء إليه الإنسان قسراً من غير اقتناع أو رضَى .

ولهذا كانت دعوات الرسل إلى دين الله محملة بالشواهد والآيات التى تشهد بصدقها ، وتحدِّث بخبرها وما تحمل إلى الناس من هدى ونور . ، حتى يكون الإيمان عن نظر واقتناع .

وإذا كانت الرسالات السماوية التى سبقت الإسلام قد جاءت إلى الناس بالآيات القاهرة ، وبالمعجزات المذهلة ، التى تقهر العقل وتتعامل مع الحواس ، حيث كان العقل يومئذ غيرَ أهلٍ لأن يفكر ويقدر ـ فإن رسالة الإسلام ، وقد التقت بالإنسانية فى رشدها ، وبالعقل فى نضجه واكتماله ـ قد جاءت بآياتها ومعجزاتها فى مواجهة العقل ، تحاجّه بالمنطق ، وتجادله بالحكمة ، وتأخذه بالموعظة الحسنة ، حتى إذا اطمأن الإنسان ووجد برد السكينة فى صدره آمن عن يقين ، ودان لله عن رضى ! وهذا هو الدين الذى يعيش مع الإنسان ، ما عاش معه عقله ، وسلم له تفكيره .

وقوله تعالى : « لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ » تقرير لحقيقة من أهم الحقائق العاملة فى الحياة ، ومن أبرز السِّمات التى قامت عليها دعوة الإسلام . . « لا إكراه فى الدِّين » . . فهو نفى مطلق لكل صور الإكراه ، المادية والمعنوية ، التى تَخْتِلُ النَّاس عن الحق ، وتحملهم حملاً على معتقد لم يعتقدوه ، ولم يجدوا من جهته مقنعاً ! .

وليس هذا شأن الدين وحده ، بل هو الشأن أو ماينبغى أن يكون الشأن

فى حياة الإنسان كلها ، لا يتلبّس بأمرٍ إلا بعد أن ينظر فيه ، ويطمئن إليه ، ويرضى عنه ، فيُقدِم أو يحجم عن هدى وبصيرة ، وهذا هو مِلاك النجاح فى كل أمر ، ومُنطَلق الملكات الإنسانية كلّها فى وِثابٍ وقوة ، إلى أنبل الغايات وأعظمها .

إن تحرير ضمير الفرد من الضلال والعمى ، وفك عقله من الضّيق والإظلام ، لا يكون إلا بتحرير إرادة الإنسان وإطلاقها من كل قهر أو قسر . . وإنه لن تصحّ إنسانية الإنسان ، ولن يكتمل وجوده ، إلا بالضمير الحر ، والعقل المتحرر . . وإنه لا فرق بين الأحرار والعبيد وبين الإنسان وغير الإنسان إلا فى تلك المشاعر التى يجدها الإنسان فى كيانه من طاقات الحرية والتحرر ، فيمتلك بها أمر نفسه ، ويكتب بها خطّ مسيره ومصيره ، كيف شاء ، وعلى أى وجه أراد . .

وفى الواقع أن ركوب الخطأ عن رأى الإنسان وتقديره ، غير المدخول عليه بإكراه أو خداع ، أو تضليل ــ هو خير من الانقياد للصواب عن قهر وقسر ، وعن تمويه وتلبيس . إذ الأول يسير ومعه عقله ، وتفكيره ، وليس ببعيد أن يلتقى يوماً بالصواب الذى ضل عنه . . أما الآخر ، فإنه يسير بلا عقل ولا تفكير . . يسير بعقل غيره ، وبتفكير غيره ، وليس ببعيد أن يلتفت يوماً فلا يجد مَن أعاره عقله وتفكيره ، فإذا هو كتلة جامدة ، أو تمثال من لحم ودم ، لا حياة فيه ، ولا معقول له ! . . إن الأول مبصر يتخبط فى الظلام ، ولكنه إذا رأى النور ، أبصر ، واهتدى واستقام على سواء السبيل . .

أما الآخر . . فهو أعمى يُقاد لكل يد تمتد إليه . . وكما انقاد ليد من ينصح له ويهديه ، فإنه لن يمتنع عن الانقياد لمن يمكر به ، ويضلّه . . وهل يملك الأعمى أن يأخذ طريقاً غير طريق من يقوده ، ويمسك بيده ؟

وقوله تعالى : « قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغيّ » هو ليس قيداً وارداً على إطلاق الحرية فى الدّين ، وإنما هو تقرير لبيان الحال من أمر الدعوة الإسلامية ، وهو أنه يجب ألا يطوف حول دعوتها طائف من القهر والقسر ، إذ قد استبانت معالمها ، ووضحت حدودها ، وإن الذى ينظر فى مقرراتها ، وفى شواهدها وآياتها ثم لا يجد الهُدى ، ولا يُقْبل عليه ، فلا سبيل إلى هُداه ، ولا جَدْوى من إيمانه ! إنه فى حساب الناس . . لا شىء ! .

قوله تعالى : « فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا » .

« الطاغوت » شىء مخيف ، مفزع ، أشبه بالشيطان . . لا تقع عليه العين ، وإنما يصوره الوهم من هذا الاسم الذى يطلق عليه « الطاغوت » ، ويشكّله من هذه الأحرف المتنافرة التى يتشكل منها اسمه: . . الطاء ، والغين ، والتاء ، يجمعها كيان واحد .

وإن الذى يحترم عقله ، ويُكرم إنسانيته ليأبى أن ينقاد للوهم ، ويتعبّد لآلهة من مواليد الباطل والضلال ، إنه يجرى وراء سراب ، ويتعلق بما هو أوهى من خيوط العنا كب ! .

والموقف الصحيح الذى ينبغى أن يأخذه الإنسان العاقل الرشيد ، هو أن يعلو بعقله فوق هذه الأوهام ، ويرتفع بإنسانيته عن هذا الهوان ، وأن يجعل ولاءه وخضوعه لمن بيده ملكوت السموات والأرض ، رب كل شىء ، وخالق كل شىء . . وبهذا يمسك الإنسان بالسبب الأقوى ، ويَعْلَقُ بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، وبهذا تكتب له النجاة والسلامة .

الآية : (٢٥٧)

« اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ

كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٥٧)

التفسير : منذ يدخل الإنسان ساحة الإيمان ويُسلم وجهه لله وحده ، وهو فى ضمانة الله ، يتولاه برحمته وهدايته وتوفيقه ، ويخرجه من ظلمة الضلال إلى نور الحق ، وإذا هو على نور من ربّه « ومن لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَالَهُ مِن نور » (٤٠ : النور) .

أما حين يُعطى المرء وجوده للطاغوت ، ويُسلم إليه زمامه ، فهو فى ضمانة هذا الطاغوت . . أعنى فى ضمانة الباطل والضلال . . فانظر إلى أين يقاد مَن كان قائده الباطل وحاديه الضلال ؟ إنه يخرجه من النور إلى الظلمات ، إذ يفسد عليه تلك الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فيطمس عليها فى كيانه ، فإذا هو أعمى يتخبط فى ظلام ، ، ويقاد بيد الضلال إلى كل مضلّة وكل مهلكة .

وانظر إلى كلمة « الطاغوت » مرة أخرى ، وقد جاءت مسنَدة إلى الفرد فى الآية السابقة : « فمن يكفر بالطاغوت » ، ثم جاءت مسندة إلى الجمع فى هذه الآية : «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» دون أن تتغير صورتها فى الحالتين، بل ظلت هكذا : « الطاغوت » . . وهذا ما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنه لا مشخّص لهذه الكلمة ، وإنما هى اسم جامع لكل باطل ، وكل ضلال ، وكل غواية ، وهو قادر على أن يحمل فى كيانه الضخم كل هذه المخازى والضلالات . . إنه « الطاغوت » ! ! . بناء ضخم شامخ من الوهم والضلال .

الآية : (٢٥٨)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ » (٢٥٨)

التفسير : هنا نجد المثل لمن آمن بالله فكان الله وليّه ، يخرجه من الظلمات إلى النور ، ومن كفر فكان الطاغوت وليَّه ، يخرجه من النور إلى الظلمات !

ومَثَل الأول نجده على أكمل صورة وأتمها ، فى إبراهيم عليه السلام ، كما نجد مَثَل الثانى فى هذا الذى آتاه الله الملك ، وغمره بالنعم ، فاستقبلها بالجحود والكفران ، والإغراق فى البهت والضلال .. ولم يذكر القرآن اسم هذا الإنسان المتمرد على الله ، ولم يدل عليه ، لأنه ساقط من حساب الإنسانية ، إذ باع إنسانيته للشيطان، وأسلمها للطاغوت.. ثم إنه لاضرورة لذكره ، حتى لا يتعرف عليه أحد ، فتصيبه عدواه ولو من بعيد ، كما تصيب الرائحة الخبيثة بالأذى كلَّ من يمر به حاملُ الجيف .. ثم لمن أراد أن يعرف وجه هذا الشر ، وحامل هذا المنكر فإن التاريخ يقول إنه « النمرود » ملك كنعان . . وكم فى الناس من نمرود ؟

والذى تعرضه الآية الكريمة هنا ، وتحرص على كشفه وتجليته ، هو هذا الصّدام الفكرى بين منطق الحق وسفاهة الباطل ، بين نور الإيمان وهداه ، وظلام الشرك وضلاله !

يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ » فهذا الإنسان الذى فَضل الله عليه وأوسع له فى فضله ، ومكّن له فى الأرض ، قد غرّه مابيده من سلطان ، فكفر بأنعم الله ، ثم لجّ به الكفر فحادَّ الله ورسوله ، وادعى لنفسه الألوهية ، وقال قولة فرعون : « أنا ربُّكم الأعلى » !

فلما جاءه نبىّ الله ، إبراهيم ، يدعوه إلى الله ، أنكر هذه الدعوة ، وجحد أن يكون فى الأرض إله معه ، وجعل يُلْقِى إلى إبراهيم بالحجج الدالة على ألوهيته ، وأهليته لتلك الألوهية ، بما فى يده من سلطان يتصرف به كيف يشاء ..

وكثرت بينه وبين إبراهيم المحاجّة والمناظرة .. وتخير القرآن الكريم من هذه المواقف مشهدين ، يلخصان القضية كلها ، ويضبطان محتواها ومضمونها .

« قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ » !

هذا هو ربّ إبراهيم ، الذى يَدِين له ، ويدعو إليه .. هو الذى بيده الحياة والموت ، وهو الذى أمات وأحيا .. فذلك أمر لا يشاركه فيه أحد ، ولا يدّعيه لنفسه مخلوق ، إلا أن يركب الحماقة والسّفه .

وقد ركب هذا الجهول الحماقة والسفه وانطلق بلا عِنان .. « قال : أنا أحْيِى وأميتُ ! ! » هكذا يقولها بملء فيه ! ولم يذكر من أين هو جاء ، ولا إلى أين هو يصير ؟ « أوَلاَ يذكر الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يك شيئاً » ؟ (٦٧ : مريم) .

ولم ير إبراهيم — إزاء هذا السّفه الوَقَاح — أن يقف عند هذا الجواب ، وأن يكشف باطل هذا الأحمق الجهول .. فقد يذهب بالرجل الحمق والجهل فيقول لإبراهيم : ألا تصدق ما أقول ؟ أتريد شاهداً ؟ أنت نفسُك أنا الذى أحييه ، لأنى لا أريد قتلك ! وأنا أميتك لو أردت ! فهل تريد مصداق ذلك ؟ وقد يفعلها الرجل ولا معقّب عليه ! !

وتحاشى إبراهيم أن يدخل مع النمرود فى هذا الجدل ، وأن يمدّ له فى حبال السفسطة ، بل جاء إليه إبراهيم بما يخرسه ويفحمه !

« قال إبراهيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ » .

فهذا النظام الذى ينتظم حركة الشمس قبل أن يولد هذا الانسان المغرور بآلاف السنين وملايينها ، ليس من صنع إنسان من الناس ، إنه من عمل قدرة غير قدرة الناس .. فإذا كان النمرود إلٰها يناظر إله إبراهيم ، فليجبْ على هذا التحدّى ، ولينقض على إله إبراهيم عملا من عمله ، وتدبيراً من تدبيره ! « فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فَأْتِ بها من المغرب !! » .

وأُسقط فى يد الرجل ، وخرس لسانه وشُلّ تفكيره ، وسقط من عليائه مبللا فى ثيابه ، بعرق الخزى والخذلان ! « فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

وهكذا يصابُ الرجل فى مقاتله ، بطعنة نافذة من يد الحق : « وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » .

الآية : (٢٥٩)

« أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (٢٥٩)

التفسير : لمّا ذكر الله فى الآية (٢٥٧) أنه ولىّ الذين آمنوا ، وأنه بهذه الولاية لهم يخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن الذين كفروا أولياؤهم

الطاغوت ، وأنهم بهذه الولاية للطواغيت يخرجونهم من النور إلى الظلمات - لما ذكر الله هذا الحكم ، لفت النبيّ الكريم إليه سبحانه ، ليريه له الأمثال والشواهد في الناس ، ثم قدم له سبحانه شاهدين من التاريخ ، ليكونا مثلين المؤمنين والكافرين . . أولياء ، الله وأولياء الطاغوت .. والمثل البارز لأولياء الطاغوت هو ذلك الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أما المثل الآخر لأولياء الله فهو ذلك الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها .

فهذا العطف فى قوله تعالى : « أو كالذى » هو عطف لهذا المَثل على المَثل السابق.. والتقدير : أتريد يامحمد شاهداً لهذا الحكم الذى حكمتُ به ، وهو أنى ولىّ الذين آمنوا أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ؟ أتريد لهذا شاهداً ؟ إليك شاهدين أو مَثلين . .

أما المثل الأول فتجده فى هذا الذى حاجّ إبراهيم فى ربه ، وقد كان ولياً للطاغوت ، فأخرجه من النور إلى الظلمات .

وأما المَثلَ الثانى فتجده فى ذلك الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها .. فهو رجل مؤمن بالله ، وهو يريد أن يستوثق لإيمانه ، ويطلب له المزيد من الأدلة والشواهد،وليس هذا بالذى يضير المؤمن أو يجور على إيمانه، مادام حريصاً على طلب الحق ، مجتهداً فى السعى إليه ، والبحث عنه ، فإنه بهذه النية المخلصة سيجد العون والتوفيق من الله : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

وفى قوله تعالى : « أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ » ما يكشف عن مشاعر هذا المؤمن بالله ، حين مرّ بقرية قد اندثرت معالمها ، وخمدت الحياة فيها ، فتمثل له

منها ما كانت عليه فى سالف الزمن، وما كانت تزخر به من عمران ، وما كان يموج فيه أهلها من ألوان الحياة ، ومذاهب العمل .. لقد صار كل ذلك ترابا فى تراب !

واهتاجت مشاعر الرجل ، وتمثل له من هذا الهمود الموحش صور من الماضى البعيد ، وإذا القرية وأهلها حاضرة فى خياله ، تنبض بالحيـاة ، وتفور بالنشاط ، كإحدى القرى الحية الماثلة لعينيه هنا أو هناك .. وفتح الرجل عينيه فطار حلم اليقظة الذى ارتسم فى خياله .. وتساءل : أهذا الحلم يمكن أن يصبح حقيقة ؟ وهل تعود هذه الأجساد التى بلاها البلى وأكلها التراب ؟ هل تعود مرة أخرى إلى الحياة ؟ أذلك ممكن ؟ ويهتف به هاتف الإيمان : أهذا امتحان لقدرة الله ؟ أأنت فى شك من تلك القدرة القادرة على كل شىء ؟ ويجيب على نفسه : معاذ الله أن أمتحن أو أشك . . ولـكن ! ! وتموت الـكلمات بعد ذلك فى صدره ، ويمضى فى طريقه فى صمت ووجوم ! !

وهنا تجىء نجدة السماء فى أطواء قوله تعالى : « الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ».. وكانت تجربة حية وجدهـا الرجل فى نفسه ، وفى الأشياء التى بين يديه .. الرجل ، وحماره ، وطعامه ، وشرابه . . وذلك يمثل الإنسان ، والحيوان ، والطعام ، والماء . . إنها صورة مصغرة للقرية بكل مشخصاتها ، مما يدخل عليه الفساد والانحلال مع الزمن .. الرجل وأشياؤه التى يضمها إليه .. فى رحلة إلى غاية يقصدها ، ومنزلة يحط عندها رحاله .. والقرية وأشياؤها التى تضمها إليها .. فى رحلة إلى غاية هى سائرة إليها ، ومنزلة هى منتهية عندها .. يوم يقوم الناس لربّ العالمين !

وما يكاد الرجل يعطى القرية ظهره ، حتى تتردد فى أذنيه من جنباتهـا أصداء تلك الـكلمات التى همس بها إلى نفسه :

« أنىّ يحيى هذه الله بعد مَوْتها » ؟ فلا يلبث أن يخرّ صَعِقاً ! .. « فأماته اللهُ مئةَ عامٍ ثم بعثَه »

إنها رحلة طويلة فى عالم ما بعد الحياة ، استغرقت مئة عام قطعها الرجل وأشياؤه مع القرية فى مسيرتها . . وصحا الرجل بعدها ، فوجد من يسأله مِن قِبَل الله ، على لسان هاتف يهتف به : « كم لبثتَ » فى نومتك تلك ؟ وما حسب أنه طوى هذا الزمن الطويل فى هذا النوم الثقيل ، فقال : « لبثتُ يوماً أو بعضَ يوم ! » ذلك ما وقع فى تقديره ، قبل أن يفتح عينيه على الحياة من حوله ، ويرى سير الزمن بها ، وأثره فيها . . فلما قيل له : « بل لبثت مئة عام » فزع ، وكرب ، وجهد أن يستحضر وجوده كله ، ويقظته كلها ، ليعلم أهو فى يقظة أم منام . . وصحا الرجل صحوة مشرقة ، فرأى الأمر على ما أُخبر به . . لقد تغيرت وجوه الأرض من حوله ، فأنكرها وأنكرته ، بل لقد أنكر نفسه بما طرأ عليه خلال نومه الطويل ، من تغيّر فى هيئته . . ووقع فى يقينه أنه نام نومة استغرقت مئة عام ، وهتف به هاتف الحق : أن انظر إلى طعامك وشرابك . . إنه على ما هو عليه لم يدخل عليه فساد ، بل ما زال طيباً هنيئاً « لم يتسنّه » أى لم تغيّره السنون ــ وأصله لم يتسَنَّ ، والهاء للسكت !! « وانظر إلى حمارك » إنه ما زال قائماً إلى جوارك على عهدك به !! ففيك وفى أشيائك التى بين يديك آية لك وللناس ، يرون فيها قدرة الله التى لا يعجزها شىء ، ويستيقنون منها إمكانية البعث الذى يرتاب فيه المرتابون .

وحين استبان للرجل كل شىء حوله ، وأشرق قلبه بنور الحق ، واستنارت بصيرته بهدى الله ، دُعِى إلى أن ينظر نظراً أعمق وأشمل، إذ قيل له: « وانظر إلى العظام كيف نُنْشِزها ثم نكسوها لحماً » ونشز العظام هو بروزها من بين أخلاط الجنين . . وفى النظر تتكشف عملية الخلق ، وبعث الإنسان من عدم ، كما يقول الله تعالى : « أَوَلاَ يَذْكُرُ الإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً » (٦٧ : مريم) . فالذى أوجد الحياة من موات ، قادر على أن يرد هذه الحياة إلى موات ، كما أنه قادر على أن يعيد الحياة إلى هذا

الموات .. « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » (١٠٤ : الأنبياء) .

وتنجلى هذه التجربة المثيرة عن إيمان عميق بقدرة الله ، يملأ كيان الرجل كله ، وتندفع به غيوم الشك من صدره ، ويزول دخان الريب من قلبه . « فلما تبيّن له قال أَعْلَمُ أَنَّ الله على كل شيء قدير » فهذا تصديق لما كان يعلمه من قبل ، وليس إنشاء لعلم جديد . ولكن شتان بين علم وعلم ، وإيمان وإيمان . . « ويزيد الله الذين اهتدوا هدًى » (٧٦ : مريم) .

وهنا أسئلة :

فأولاً : هل هذه حادثة وقعت ، أم هى مثل مضروب للعبرة والعظة ؟ .

والذى نقول به هو أن كل قصص القرآن وأمثاله، وما ورد فى هذا القصص والأمثال من أشخاص وأحداث ، هو من الواقع الذى لا شك فيه ، وإذا كان لنا نحن البشر أن نلجأ إلى الخيال والوهم لننسج منهما قصصاً ، وذلك حين يعجز الواقع عن أن يسعفنا بما نتصوره ونتمناه ، فإن قدرة الخالق جلّ وعَلَا لا يعجزها شيء .. تريد فيقع ما تريد ، كما أرادته ، دون قصور أو مهل ، إنها إرادة لا يخالطها وهْم ، ولا يطوف بها خيال ، ولا تعللها الأمانىّ . . تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

فالذين يَرَوْن أن من قصص القرآن ومن أمثاله ما لا يقع ، إنما يتهمون قدرة الله ، وينسبون إليه ما ينسبون إلى البشر من عجز وقصور .

وثانياً : هل كان الذى حدث للرجل موتاً حقيقياً ، أم كان سُباتاً ونوماً طويلاً ، كما حدث لأصحاب الكهف ؟ .

وكِلاَ الأمرين يمكن أن يكون ، ما دام ذلك متعلقاً بقدرة الله . .

وكذلك الشأن فى حماره الذى كان معه ! .

على أننا ــ مع هذا ــ نميل إلى القول بأن ما حدث للرجل كان نوماً ثقيلا

عميقاً ، فى مكان منعزل عن الناس والحياة ، وليكن كهفاً ، وذلك على نحو ما حدث لأصحاب الكهف ، ولكلبهم ، الذى صحبهم فى نومهم الطويل .

وفى قوله تعالى : « فأماته الله مِئَةَ عام ثم بعثه » مَشابِه كثيرة من قوله سبحانه فى أصحاب الكهف : « فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا »

(١١ : ١٢ الكهف)

وثالثاً : ماذا أفادت هذه التجربة فى واقع الحياة ؟ ولم كانت مئة عام ولم تكن عاماً ، أو بعض عام . . فإن امتداد الزمن وقصره سواء ، بعد أن يجاوز المدى الذى يمكن أن يحتمله الإنسان فى الحياة بلا طعام أو شراب ؟ .

والجواب عن الشق الأول من السؤال ، هو أن التجربة قد رفعت عن هذا الرجل المؤمن بالله غشاوة كانت تظلل إيمانه ، وتزعج طمأنينة قلبه ، وفى هذا رحمة من رحمة الله بعبد من عباده ، إذ استنقذه من الضلال ، وأدخله فى عباده الصالحين . . وليس هذا بالشىء القليل من معطيات هذه التجربة ، كما أن هذه التجربة ليست بالشىء الكثير على قدرة الله ـ إنها لا تعدو أن تكون استيلاداً لمولود جديد من مواليد الحياة ! فإذا نظرنا إليها من هذه الزاوية هانت وصغرت بالنسبة لبابها الذى جاءت منه ، وإذا نظرنا إليها من جهة دلالتها كانت شيئاً رائعاً عظيماً مثيراً ، للدلالة على قدرة الله وحكمته، وسعة رحمته !

والجواب عن الشق الآخر من السؤال هو أن امتداد رحلة النوم أو الموت إلى مئة عام ، إنما هو إخبار عن الحدث الذى وقع ، ولو كانت هذه الرحلة عاماً أو بعض عام أو عشرة أعوام أو ألف عام، لكان هذا السؤال وارداً على أى زمن منها ! وإذن فلا محلّ لهذا السؤال عن المئة عام ! ولنؤمنْ بما أخبر الله به عنها ، وأنها مئة عام . . ولنترك حِكمة هذا الزمن الطويل لله وحده . .

على أنه ـ مع هذا ـ يمكن أن يقال إن المئة عام هى الزمن المناسب لتلك التجربة ، إذ أن هذه المدة كافية لتغير وجه الحياة تغيراً واضحاً ، وخاصة فى الوجه البشرى منها ، فمئة عام يمكن أن تأتى فى نهايتها على كل من كان حيًّا من الناس فى أولها .. وبهذا يكون هذا الرجل الواقع تحت التجربة فى الأموات حكماً ، بعد أن كان فيهم فعلاً وقد أماته الله .. وبهذا أيضاً يكون كل من كان على ظهر الأرض من الناس حين قال الرجل قولته : « أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها » قد مات فى نهاية المئة عام ، فلما بعثه الله من بينهم وحده، كان بعثه شاهداً على إمكان بعثهم جميعاً ، وشاهداً على إمكان بعث من سبقهم ، ومن سيلحق بهم ..

الآية : (٢٦٠)

« وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٦٠)

التفسير : فى هذه الآية صورة أخرى ، تمثل المؤمن الذى يطلب المزيد من الإيمان ، ليقتل فى نفسه كل وَسواس ، وليخمد فى صدره كل همسة من همسات الشيطان ! .. ثم هى مثل آخر لمن كان وليًّا لله .. يخرجه من الظلمات إلى النور .

وهذا الموقف ـ كما قلنا ـ لا ينتقص من إيمان المؤمن ، إذ كانت غايته طلبَ المزيد من النور ، والجديد من العلم . فذلك طريق لانهاية له ، ولا ضلالة فيه !

وقضية الموت والبعث هى القضية الأولى فى باب الإيمان ، وهى الثغرة التى تنفذ منها رميات الشيطان إلى قلوب المؤمنين !

وإبراهيم — عليه السلام — فى وَثاقة إيمانه ، وقوة يقينه — لا عليه إذا هو وجد طريقاً إلى مزيد من الإيمان ، حتى يمتلىء به قلبه ، فلا يبقى فيه مكان لم يغمره نور اليقين ، ولم تعمره الطمأنينة — لا عليه أن يطلب المزيد حتى يرتوى رِيًّا لاظمأ بعده !

وقد وجد أن ألطاف الله تحف به ، ونفحاته ورحماته لا تنقطع عنه ، فهفَتْ نفسه إلى أن يسأل الله هذا السؤال الذى يشهد به جلالَ الله وعظمته من قريب :

« رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ؟ » وقد سأل موسى عليه السلام سؤالاً أعظم من هذا ، فقال : « رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ » (١٤٣ الأعراف). والسؤال « بكيف » لا يكون جوابه إلا بأن يشهد إبراهيم عملية الإحياء وكيف تتم هذه العملية ، والعناصر التى تعمل فيها .. وأمر كهذا هو فوق مستوى الإدراك البشرى ، إنه سِرٌّ من أسرار الألوهية ، لا يستطيع أحد أن يحتمله ، أو يعرف السبيل إليه .

ومن أجل هذا كان الجواب آخذاً اتجاهاً آخر غير متجه السؤال .. فيه عرضٌ لقدرة الله ، دون كشفٍ عن سِرّ هذه القدرة . . وذلك بما رأى إبراهيم بين يديه من تجليات هذه القدرة وآثارها .

وفى قوله تعالى لإبراهيم : « أو لم تؤمن ؟ » إثارة لمشاعر إبراهيم ، واستحضار للإيمان الذى يعقد عليه قلبه . . ولهذا كان جواب إبراهيم : « بَلَىٰ » أى أنا مؤمن كل الإيمان « ولكن ليطمئن قلبى » وتلك درجة فوق درجة الإيمان . . إذ لا سلطان للإنسان على قلبه ، وليس من شأن القلب

أن يستقر على حال واحدة فى جميع الأحوال ، لما يموج فيه من شتى المشاعر ، ومختلف العواطف والنزعات.. واطمئنان القلب اطمئناناً مطلقاً أمر يكاد يكون مستحيلاً ، لا يبلغه إلاّ المصطفَيْن من عباد الله ! ، بعد إبتلاء ومجاهد ..

وقوله تعالى : « قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا » .

هو كشف عن تجربة يجريها إبراهيم بنفسه ، ويصنعها بيده ، ويشهد آثارها بعينه .

وتمر التجربة فى مراحل :

١ — أن يأخذ إبراهيم أربعة من الطير .

٢ — أن يضمها إليه ، ويتعرّف عليها ، ويجعل لكل منها سِمة خاصة يدعوها بها ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فصرهن إليك » أى تألفهن إليك.

٣ — أن يقطعهنّ قطعاً ، ويمزقهنّ أشلاء .

٤ — أن يوزع أشلاءها على رءوس الجبال .

٥ — ثم يدعوها إليه بأسمائها ، كما يدعو أهله ومعارفه بأسمائهم ! .

وبهذا تتم التجربة ، وتجىء الطيور الأربعة مسرعة ! .

وقد كان . . فتمت التجربة على هذا التدبير والتقدير ! .

هذا ، وفى الحديث عن الطير بنون النسوة ومعاملتها معاملة المؤنث العاقل ، مايدل على أنها كانت فى خضوعها لإبراهيم ، واستجابتها لندائه ، تفعل فعل العقلاء ، وتتصرف تصرف من يعى ويعقل ! وهذا يعنى أنها عند ما دُعيت استجابت للدعوة فى غير توقف أو تردد ! لأنها تعرف وجه الذى دعاها ، وتفهم مدلول كلماته .

آية : (٢٦١)

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٢٦١)

التفسير : المشاهد التى عرضتها الآيات السابقة ، لقدرة الله وحكمته ، من شأنها أن تُذْكى وَقدةَ الإيمان فى النفوس ، وتفتح القلوب إلى الخير ، وتهيئها لاستقبال دعوات الحق وتقبلها . . وإن النصح فى تلك الحال لأشبه بالضرب على الحديد وهو ساخن !

وهذا ما نجده فى تلك الآية الكريمة من الدعوة إلى البر والإحسان ، بعد تلك الآيات الكريمة ، التى كانت معرضاً مثيراً لجلال الله وقدرته وحكمته ، حيث تهتاج لها المشاعر ، وتخفق القلوب ! .

وهنا يقول الله تعالى : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ » .

فهذا مثل للخير يربو وينمو فى مغارس الحق والخير ، كما يربو العمل وينمو فى مناهج الحق والخير ، وكما يربو الإيمان وينمو فى طريق الهداية والعلم!

فالذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، أى فى كل وجه من وجوه الخير والحق ، إذ سبيل الله كلها حق ، وكلها خير ـ هؤلاء إنما يجنون ثمرة هذا الغرس الذى غرسوه فى سبيل الله . . أضعافاً مضاعفة ، كما يزرع الزارع حبة فى أرض طيبة فتُنبِتُ سبعَ سنابل ، تحمل كل سنبلة مئة حبة ! هكذا الحبة تعطى سبع مئة حبة ، والحسنة تجازَى بسبع مئة حسنة « والله يضاعف لمن

يشآء» أى يضاعف هذه الحسنات، فلا تكون الحسنة بسبع مئة حسنة، بل بأضعاف هذه السّبع مئة «والله واسع عليم» لا حدّ لفضله، ولا نفاد لرزقه، يضع ذلك حيث شاء علمه، الذى يحيط بكل شيء ويعلم كل شيء!.

ولعلّ سائلا يسأل: أهذا تمثيل وتخييل، أم أنه حقيقة واقعة؟ وهل هناك حبة تنبت سبعَ سنابل؟ وإذا صح هذا، فهل هناك سنبلة تحمل سبع مئة حبة؟.

وقد قلنا من قبل إن أمثال القرآن الكريم، وأحداث قصصه، كلها من واقع الحياة، ليس فيها شيء على سبيل الفرض المستحيل أو الممكن، بل هى الواقع المخبَر عنه بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. إن الذى يلجأ إلى الفرض هو العاجز الذى لا يقدر على تحقيق ما افترضه، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وفى هذا المثل.. ليس ببعيد أن تكون هناك الحبة التى تنبت سبع سنابل، وأن تحمل كل سنبلة منها مئة حبة، فما أكثر غرائب الطبيعة وعجائبها، وكم من امرأة ولدت ثلاثة توائم أو أربعة أو خمسة أو ستّة؟ كذلك الله يخلق ما يشاء!.. ولقد اهتدى العلم الحديث إلى معجزات فى عالم النبات بحيث تلد الحبة أكثر من سبع مئة حبة.

الآية: (٢٦٢)

«ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢٦٢)

التفسير: الإنفاق فى سبيل، الله لا يكون إنفاقاً فى سبيل الله حقًّا، حتى يكون خالصاً لله، صافياً من كلّ كدر، ليصل إلى جهته طيبًا، نافعًا، لا يصيبها منه ضر أو أذى.. فإن الخير إذا شِيبَ بالمكروه، واتصل بالضرّ

شَاهَ وجهُه ، وفسدت طبيعته ، ولم يكن إحسانًا بقدر ما هو إساءة . . وبهذا تضيع الحكمة منه ، ويذهب الأثر المعلق عليه .

فالذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ، طيبةً بها نفوسهم ، سخية بها أيديهم ، محسنةً بها ألسنتهم ، يتقبّل الله سبحانه منهم عملهم ، ويجزيهم به الجزاء الحسن الذى وعدهم : « لهم أجرُهم عند ربّهم ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزَنُونَ » إذا خاف الناس يوم القيامة ، لِما بين أيديهم من هول ، وإذا حزن الناس يوم القيامة لِما فاتهم من عمل صالح يقدمونه لهذا اليوم . فهؤلاء قد آمنهم الله من الخوف لما يرون من بشريات الجزاء الحسن لأعمالهم الصالحة ، وقد أخلى قلوبهم من الحزن على أن لم يكونوا قدموا لهذا اليوم العظيم .

الآية : (٢٦٣)

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » (٢٦٣)

التفسير : الكلمة الطيبة صدقة . .

والصدقة التى تحمل وراءها الأذى ، فى كلمة جارحة للمتصدَّق عليه ، تخدش حياءه ، أو تمس إنسانيته وكرامته ـ هذه الصدقة منعها خير من إعطائها . . فإن كرامة الإنسان فوق شِبَع البطن أو كسوة الجسد !

بهذا الأدب الربانىّ يؤدب الله عباده ، ويحفظ عليهم إنسانيتهم ، ويصون كرامتهم ، ويعليهم فوق حاجة الجسد ومطالبه.. فليستعفِفْ الإنسان عن أن يمدّ يده ما استطاع ، ثم ليتأدب المحسن ، وليقدم إحسانه فى لطف ويسر وستر ، حتى يتقبّل الله منه إحسانه ، وحتى يكون محسنًا حقًّا ! ، وليمسك المحتاج ،

وليتجمل بالصبر ، حتى لا يكون بالمكان الذى قد يتعرض فيه لكلمة جارحة من أحمق أو سفيه ، يمدّ إليه يده بشىء من الإحسان ، محمّلاً بالمن والأذى !

قوله تعالى : « ومغفرةٌ » هى مغفرة مطلوبة من المتصدِّق ، فهو الجانب القوى الذى يملك العفو والمغفرة ، وذلك كأن يُساء إليه ممن أحسن هو إليه ، فلا يَلْقى هذه الإساءة بالمنّ عليه وفضحه بين الناس ، حين يمنّ عليه بما كان من سابق إحسانه إليه . . وليذكر أنه إنما وضع إحسانه فى سبيل الله ، وقدمه خالصاً لوجه الله . .

وقوله تعالى : « والله غنىٌّ حليم » تذكير للمحسنين بأنهم إنما يحسنون بما أحسن الله به إليهم ، وأن غناهم مستمد من غنى الله ، والله الذى أعطاهم هذا العطاء يغفر لهم الكثير ، ويتجاوز لهم عن الكثير ، حلماً منه وفضلاً وكرماً ، فليغفروا هم لمن أحسنوا إليهم ، ثم قابلوا الإحسان بالإساءة . .

الآية : (٢٦٤)

« يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَى كَٱلَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ » (٢٦٤)

قوله تعالى : « يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَى » تنبيه للمؤمنين الذين يغرسون فى مغارس الخير ، من أن تسطو على هذا الغرس آفة فتذهبَ به ، ويضيع أجرهم الذى كانوا يرجونه عند الله .

والمنّ . . هو إزعاج المحسَن إليه من المحسِن بما يذكر ــ بمناسبة أو بغير مناسبة ــ من إحسانه إليه وفضله عليه ، يريد بذلك استصغاره وامتهانه ، على حين يبتغى لنفسه تفاخراً وتعالياً .

فالمنّ أذًى جارح قد يصيب الإنسانَ فى مقاتله .. ولهذا كان هو الآفة التى تأكل الصدقة كما تأكل النار الحطب ، إذ قد استوفى بها صاحبها حقّه من المتصدق عليه ، حين أحسن أولاً ، ثم أساء ثانياً . . فذهبت إساءته بإحسانه .

وقوله تعالى : « كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَآءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »

هو مثل رفعه الله لأعين المؤمنين الذين يتصدقون ، فيذهب بصدقتهم ما سلطوه عليها من مَنٍّ وأذى ، وفى هذا المثل يرون صورة واضحة ناطقة ، للإحسان الذى يذهب هباء ويضيع هَدَراً .

فالكافر الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ، لا يتقبل الله منه صالحاً أبداً ، لأنه أبطل كل صالح بهذا الكفر الذى انعقد عليه قلبه ، وفسد به كيانه كلّه .

وقد يتصدق هذا الكافر لا لوجه الله ، ولا فى سبيل الله ، ولكن ليرى الناس إحسانه ، أو ليملك وجودهم بإحسانه إليهم ، أو ليحتل منزلة فى قلوبهم.. فهذه الصدقة وغيرها مما يُحسب فى وجوه البر والإحسان مما تجود به يد الكافر ، لا يتقبلها الله ، ولا يجزى الجزاء الحسن عليها ، والله سبحانه وتعالى يقول : « مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ » (١٨ : إبراهيم) .

وإنها لصورة كريهة مفزعة المؤمن الذى يتصدق فيبطل صدقته بيده : كما يبطل الكافر إحسانه بكفره ! وهنا يتمثل المنّ والأذى كأنه الكفر .. وإذ تجنب المؤمن الكفر حتى حُسب فى المؤمنين ، فليتجنبْ المنّ والأذى حتى يكون فى المحسنين ، وإلا فهو والكافر فى هذا الموقف سواء بسواء .. لا يقبل الله من أىٍّ منهما عمله الذى عمل .

ثم ضرب الله سبحانه مثلاً للكافر ولأعماله التى تدخل فى باب الإحسان ، وما لهذه الأعمال من وزن عند الله !.

فالكافر فى ذاته حجر صَلْد ، أصمّ ، لا يمسك خيراً ، ولا يجود بخير !.

وأما ما يكون منه من أعمال حسنة فى ظاهرها ، فهى أشبه بما يعلو هذا الحجر الصلدَ الأصم من تراب . . والتراب عادة من شأنها أن تنبت الزرع ، وتخرج الثمر ، إذا رواها الماء واختلط بها .

والصورة تبدو هكذا : الكافر وأعماله التى يُرجَى خيرها ، والحجر الصلد وما عليه من تراب ، يُرجى منه أن يكون يوماً أرضا معشبة ، أو حبة مثمرة !

وينجلى الأمر عن هذا الموقف هكذا :

الكافر يوم القيامة ، وقد جاء عريانا مجرداً من كل عملٍ ينفعه فى هذا اليوم . . والحجر الصلد وقد أصابه الغيث فجرف بتياره العنيف كل ما عليه من تراب ، فانكشف وتعرّى ، وأصبح ولا موضع فيه لنبْتٍ يطلع منه !

وفى هذا يقول الله تعالى : « فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » والصفوان : الحجر الأصم . والوابل : المطر الغزير ، والصلد : الأصم الأملس .

وقوله تعالى : « لا يقدرون على شىء مما كسبوا » استحضار للكافرين جميعًا ليشهدوا هذا الموقف الذى يتعرّى فيه الكافر من كل شىء ، كما أنه استحضار للمحسنين الذين أبطلوا إحسانهم بالمن والأذى .

الآية : (٢٦٥)

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ

أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » (٢٦٥)

التفسير : بعد أن ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للذين ينفقون ولا يتقبل الله ما ينفقون ، لأنهم إما كانوا كافرين بالله ، وإما كانوا مؤمنين ولكن يُتْبِعون ما أنفقوا المنّ والأذى ـ بعد أن ضرب الله مثلاً لهؤلاء وأولئك ، ضرب ـ سبحانه ـ مثلاً للمؤمنين الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ابتغاء مرضاته .

فمثل ما ينفق هؤلاء المؤمنون كمثل من غرس جنةً بربوة عالية ، وهى المكان المرتفع ، تستقبل أشعة الشمس صافية مطلقة ، وتتنفس أرواح النسيم عليلاً بليلاً ، وتمتص أنداء الليل نقية معطرة ، وترتضع أخلافَ السحاب عذبة صافية ، وهذا ما يجعل ثمرها مباركا ، وعطاءها جزلاً مضاعفاً ، بما اجتمع لها من طيب المكان ، والماء الرويّ ، وسلامة المغترس من الآفات . . وهكذا يُرْبى الله للمؤمنين المتصدقين صدقاتهم ، إذا غرسوها بعيداً عن متناول الآفات التى تأكلها وتأتى عليها ، وهى المنّ والأذى .

وقوله تعالى : « فإن لم يُصبْها وابل فَطَلّ » أى أن هذه الجنة التى قامت فوق الربوات العالية ، لا تنقطع عنها أمداد السماء ، فإن لم يسقها المطر الغزير فى بعض الأوقات ، سقتها أنداء الطل التى لا تنقطع أبداً فى تلك المواطن .. وكذلك إحسان المحسن المؤمن ، ينمو ويزدهر مثل تلك الجنّة ، فإن فضل الله دائماً متصل بهذا الإحسان ، يغذيه وينميه لصاحبه ، حتى يجده شيئاً عظيما يسر العين ، ويشرح الصدر ! .

آية : (٢٦٦)

« أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى

مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ » (٢٦٦)

التفسير : وفى مواجهة هذه الجنة المونقة المعجبة ، على صدر تلك الربوة الشامخة ، جنة من نخيل وأعناب ، ومن كل الثمرات . . قد آتت أكلها ، ونضجت ثمارها . . يملكها رجل أصابه الكبر ، ودنا منه شبح الموت ، وبين يدى الرجل ذرية ضعفاء ، لم يقدروا بعدُ على العمل والكسب ، فهم فى حاجة إلى من يعولهم ، ويدبر لهم وسائل العيش ، وهو ينظر إليهم فى حالهم تلك ، وقلبه يخفق إشفاقاً عليهم ، وخوفاً من أن تقسو عليهم الحياة من بعده ، ويمسّهم الضر والأذى بفقده ، ولكنه ينظر من جهة أخرى إلى تلك الجنة التى بين يديه ، وما فيها من خير كثير ، ورزق موفور ، فيطيب خاطره ، ويطمئن قلبه ، أن ترك لصغاره هذه الجنة ، يسرحون فيها ويمرحون ..

وفيما الرجل يردد النظر بين صغاره وبين جنته ، وفيما هو بين نوازع الألم والحزن ، وبارقات الرجاء والرضى ، يطلع عليه من وراء الأفق عاصف مجنون ، يسوق بين يديه شواظاً من سموم ، فيرمى به تلك الجنة ، فإذا هى رماد تذروه الرياح ! .

إنها القيامة . . ولقد وجد الرجل نفسه عارياً من كل شىء ، لم يترك لصغاره شيئاً بعده ، ولم يجد بين يديه شيئاً لمصيره ! فما أشأم هذا الموقف وما أنكده وأقساه . . وحزن مرير على ما فات ، وخوف شديد مما هو آت ! . وإنها لحسرة تأكل الإنسان ظهراً لبطن . . !

وفى هذه الصورة المفزعة ، فى هذا الرجل الفانى ، وصغاره ، وجنته المزهرة المعجبة المثمرة ، عبرة لمعتبر ! .

فلقد أضاع الرجل جنته بيده ، وحرقها بسموم أنفاسه ! إنه كان من المحسنين ، الذين غرسوا فى مغارس الخير ، وكان يُرْجَى لغراسه هذا أن يكون منه زاد لصغاره بعد مماته ، كما يكون منه الزاد الطيب العتيد له يوم حسابه ، فإن المحسن فى الدنيا تعود نفحات من إحسانه على ذريته من بعده ، كما يقول الله سبحانه وتعالى فى الغلامين صاحبى الجدار ، فى قصة موسى والعبد الصالح : « وكان أبوهما صالحاً » . ٨٢ : الكهف)

ولكن الرّجل أفسد كلّ شىء ، وأتلف ما غرس بيده ، إما لأنه كان كافراً لم يتقبل الله منه عملا أصلاً ، وإما لأنه كان مؤمناً محسناً ، ولكنه يبطل إحسانه بالمنّ والأذى ! .

فلينظر الإنسان أين يكون مكانه فى المحسنين : أيكون محسناً مؤمناً ، لايبطل إحسانه بالمنّ والأذى . . أم محسناً مؤمناً ، يسلّط على إحسانه منّه وأذاه فلا يُبقى على شىء منه .. أم يكون كافراً يمحق كفرُه كل شىء ، ويأتى على كل صالح ؟ « كذلك يُبَيِّن اللهُ لكُمْ آياته لعلكُمْ تتفكرون » .

الآية : (٢٦٧)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » (٢٦٧)

التفسير : آفة أخرى من الآفات التى تتسلط على إحسان المحسنين ،

وإن لم تكن من تلك الآفات التى تأتى على كل إحسان ، ولكنها تغيّر وجهه ، وتهزل كيانه ، وهى أن يمدّ المحسن يده إلى مالا تطيب نفسه به ، ولا يشتد حرصه عليه ، من ماله أو متاعه، أو طعامه ، فينفقه فى سبيل الله ، ونفسه مستغنية عنه ، زاهدة فيه . . والله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، فكيف يقدَّم إليه ما عافته النفس ، أو استثقلته أو زهدت فيه ؟ والله سبحانه وتعالى يقول : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٩٢ : آل عمران)

فقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » دعوةٌ إلى الإنفاق من الطيب الذى تحبهُ النفس وتتعلق به ، وفى ذلك تغلُّب على نوازع النفس ، واستعلاء على حرصها على هذا الطيب وتعلقها به ، الأمر الذى لا يكون إلا عن مجاهدة وإيثار وتضحية . . فإنه على قدر المشقة يكون الثواب !

وقوله تعالى : « وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » تنبيه وتحذير من نوازع النفس التى تغلبها الأثرة ، عن أن تنفق ـ حين تنفق ـ إلا من خبيث ما معها . . وتسمية الشىء المكروه أو المزهود فيه أو المستغنى عنه ـ خبيثاً ، للتنفير منه ، ولاستبعاده فى مجال الإحسان ، والإنفاق فى سبيل الله . . والتيمم هو القصد ، فما كان عن غفلة فليس تيمما .

وقوله تعالى : « وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ » الإغماض غمض الطرف تكرها ، وتقززاً . . ومعنى هذا أن الإنسان لا يرضى أن يأخذ الشىء المزهود فيه أو المستغنَى عنه ، أو المشوب المعيب بأية شائبة أو عيب ـ ـ إلا متكرها ، فكيف يعطى الإنسان ما هو معطوب مَعيب ، وهو لا يقبل أن يأخذ مثل هذا المعطوب المعيب ؟ إن ذلك ليس عدلا ، وليس إحساناً !

قوله تعالى « والله غَنِىّ حميد » دعوة إلى البذل والإنفاق فى سخاء ، وعلى يقين بأن الله سبحانه هو الغنى الذى لا تنفد خزائنه ، يُرْبِى صدقة

المتصدقين ، ويضاعف إحسان المحسنين حيث يقول سبحانه : « وَمَآ أَنفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ » (٣٩ ، سبأ) ومع هذا السخاء فى البذل والإحسان ينبغى أن يكون المبذول والمحسَن به مما هو طيب كريم محمود حتى يقبله الله ويحمده ، ويجزى الجزاء الحسن عليه .

آية (٢٦٨)

« الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٢٦٨) .

التفسير : (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوّفكم منه ، وينذركم به ، إذا أنتم أنفقتم فى سبيل الله ، والأصل فى الوعد أن يكون بالخير ، والإيعاد بالشرّ ، ووعد الشيطان هنا لمن يوسوس له بالشحّ والإمساك مخافة الفقر ــ وعده له بالفقر ، إنما هو فى صورة الخير ، إذ يحذره ويريه عاقبة أمره ، فهو وعد الناصح الأمين الحريص على مصلحة من ينصحه . . هكذا يزين الشيطان للناس الشر ويُلبسه وجه النفع والخير .

(وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَآءِ) . والفحشاء كل شيء مكروه ، وكل رذيلة مستقبحة . . هذا ما يأمر به الشيطان ، وهو لا يأمر على الحقيقة ، ولكنه يزين ، ويوسوس ، ويخدع ، فإذا المنخدع له ؛ مستجيب لما يدعوه إليه ، ويوسوس له به ، فكأنه ــ والحال كذلك ــ ينفذ مشيئة من ، لا يرد له أمراً .

(وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) هــذا ما يجيء من قِبَــلِ الله ، وما تحمله إلى الناس دعوات رسله . . المغفرة لمن تاب وأناب إلى الله ، وأصم أذنيه عن دعوة الشيطان ، والفضل وسَعة العطاء ووفرته لمن أعطى

وبذل وأنفق فى سبيل الله .. (والله واسع) أى فى عطائه ومغفرته ، فلا حدود ولا قيود (عليم) بما تعملون من خير أو شر فيجازيكم بما تعملون .

فهاتان دعوتان : إحداهما من الشيطان ، والثانية من الله . . والأولى تسلك بمتبعها مسالك الهلاك والبوار ، على حين تسلك الثانية بسالكها إلى موارد الرحمة والرضوان . . فلينظر المرء إلى نفسه ، وليستقم على أى طريق شاء « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ » . (٢٩ : الكهف)

الآية : (٢٦٩)

« يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَآءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (٢٦٩) .

التفسير : « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » (١٨ : الزمر) . فهؤلاء هم الذين رزقهم الله بعض ما يرزق عباده من السداد والتوفيق ، والاستماع إلى دعوة العقل ، والاتهام لداعى الهوى ووساوس الشيطان . . وهذا من موارد الحكمة ، ومن ثمرات الحكماء « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا » إذ يكون أمره إلى عقل يهديه ، وبصر يقيمه على سواء السبيل ، فلا يفعل إلا خيراً ، ولا يجنى إلا خيراً « وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا الْأَلْبَابِ » « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ » .

والحكمة : هى البصيرة النافذة ، التى تَقْدِر الأمور قدرها ، وتضع كل شىء موضعه .

الآية : (٢٧٠)

« وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ » (٢٧٠)

التفسير : الذين ينفقون فى سبيل الله نفقة صغيرة أو كبيرة ، أو يعقدون أنفسهم على نذر لله ويوفون به ، فإن ذلك كلّه محسوب لهم عند الله ، لا يضيع منه شىء ، وسيجازيهم عليه ، ويدفع عنهم أهوال يوم كان شره مستطيراً ، على حين يتلفت الظالمون يومئذ فلا يجدون لهم فى هذا اليوم ولياً ولا نصيراً ، فقد ظلموا أنفسهم ، فلم يعملوا لها حساباً لاستنقاذها من شر ذلك اليوم وأهواله .

الآية : (٢٧١)

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (٢٧١)

التفسير : الصّدقات هى ما يتطوع نه الإنسان من خير ، غير المفروض عليه من زكاة . وقد تدخل الزكاة فى باب الصّدَقات .

وصدقة التطوع ، من الخير أن تقع ايد مستحقها من الفقراء فى ستر وخفية ، حتى لا يُخدش حياؤه ، ولا يظهر للناس فى موقف يجرحه ويحرجه .

وفى هذا التدبير تبرز وجوه من الحكمة :

فأولاً : حفظ الكرامة الإنسانية ، وصونها .

ثانياً : قهر مشاعر التعالى والتعاظم فى نفس من يتصدق .

ثالثاً : إشعار المتصدق عليه أنه بسؤاله واستجدائه ومدّ يده إلى الغير ، إنما يأتى عملاً شائناً ، ومن الحكمة أن يفعله الإنسان ـ إذا اضطر إليه ـ فى ستر وخفاء ، وفى هذا تحريض له على التحول من هذا الموقف ، والتماس وجه للعمل ، حتى يكفّ يده عن السؤال ! .

وكذلك الشأن فى الزكاة حين يضعها المزكىّ فى يد مستحقيها . . فإنه من خير أن تحمل إليهم فى ستر وخفاء . . أما إذا كانت تقدم لجهة برٍّ عامة ، أو ليد ولىّ الأمر فإن إبداءها خيرٌ من إخفائها ، لما فى ذلك من تحريض للغير على أدائها .

وفى قوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّـدَقَاتِ فَنِعِمَّاهِى » بيان لفضل الإحسان ومنزلته عند الله ، وأنه مقبول على أى حال ، سواء كان فى سر أو فى جهر ، ما دامت النيّة الخالصة من ورائه ، غير متبوع بمن ولا أذى ! .

(الآية : ٢٧٢)

« لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ » (٢٧٢)

التفسير : بعد أن دعا الله سبحانه وتعالى إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وبيّن وجوه هذا الإنفاق وأسلوبه ، والعوارض التى تعرِض له ، وما ينبغى على العاقل من تجنبها ، حتى يكون هذا الإحسان مقبولاً عند الله ـ بعد أن بين سبحانه وتعالى كل هذا أوضح بيان ، لم يبق إلا أن ينظر الإنسان لنفسه ، وأن يتخير طريقه ، فإما أن يستمع إلى ما أمر الله به ويسير عليه ، فيسلم

ويسعد ، وإمّا أن يسلم يده للشيطان ، ويتبع سبيله فيضل ويشقى ، فليحمل الإنسان إذن مسئولية هداه أو ضلاله « بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ » (١٤ ـ ١٥ القيامة) .

وليس على النبيّ إذن حَملُ النّاسِ حملاً على الإيمان ، وإكراههم إكراهاً على الْهُدَى ، فما على الرسول إلاّ البلاغ ، فمن أراد الله له الخير شرح الله صدره ، وشدّ عزمه ، وثبت قدمه على طريق الحق والخير . « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَآء » .

قوله تعالى : « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ » أى هو لـكم ثوابه ، وإليكم عائدة ثمرته ، وذلك إذا كان هذا الإنفاق ابتغاء وجه الله ، خالصاً له ، بعيداً عن الرياء والمنّ والأذى « وما تُنْفِقُونَ إلاّ ابْتِغَاء وَجْهِ الله » فهو الوجه المقبول عند الله ، وهو الوجه الذى يجب أن يتوجه إليه الإنفاق « وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْـكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ » أى أن ما أنفقتموه على هذا الوجه فهو مقبول عند الله ، يجزيكم به أضعافاً مضاعفة « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَآء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (٥٦ : يوسف) .

الآية : (٢٧٣)

« لِلْفُقَرَآءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ » (٢٧٣)

التفسير : فى قوله تعالى : « للفقراء الذين أُحصروا فى سبيل الله » الجار والمجرور « للفقراء » متعلق بمحذوف تقديره النفقة مطلوبة للفقراء الذين

أُحصروا فى سبيل الله والحذف هنا أبلغ من الذكر ، حيث يشعر بأنّ أمر هؤلاء الفقراء فى غنًى عن أن يُحرّض عليه ، فحقّهم على المحسنين واجب لا يحتاج إلى بيان .

وقوله تعالى : « أُحصروا فى سبيل الله » أى حُبسوا عن الكسب ، بسبب اشتغالهم بما هو أهم ، وهو أنهم يعملون فى سبيل الله ، كالمجاهدين أو الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم لإيمانهم بالله ، ولم تتهيأ لهم أسباب الرزق ، أو قعد بهم المرض أو الكبر ، وهم يعملون فى سبيل الله . . أو غيرهم ممن افتقروا وهم قائمون فى سبيل الله . . « لا يستطيعون ضَرْباً فى الأرض » .

وقوله : « يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » أى أنّ هؤلاء الفقراء ليسوا من الطفيليين الذين يعيشون عالة على كسب غيرهم ، وإنما هم أزهد الناس فيما فى يد الناس ، وقد بذلوا أنفسهم وخرجوا عن ديارهم وأموالهم فى سبيل المبدأ والعقيدة ، ومن أجل هذا فهم ـ على فقرهم وحاجتهم ـ متجملون بالتعفف والقناعة والصبر ، حتى ليحسبهم من لا نفاذ لبصره فى حقائق الأمور ، أنهم أغنياء لا حاجة بهم إلى شىء من مال أو متاع ، وقد يكون أحدهم طاوياً لأيام لم يذق طعاماً .

ولكن البصير الذى يتفرس فى وجوههم ، فينفذ إلى دخيلة أمرهم يجد منهم ما يُخفيه تعففهم وتجملهم من ضُرّ الجوع ، وأذى المسغبة . .

ومن هنا كان واجباً على المحسن أن يتحسّس حاجة المحتاجين ، وأن يتعرفَ على ذوى الحاجة المتسترين الذى يمنعهم الحياء والتعفف عن أن يسألوا . . فهؤلاء هم أحق الناس بالعون والإحسان ! .

وقوله تعالى : « لا يسألون الناس إلحافاً » هو سمة من سمات المتعففين من ذوى الحاجة ، وأنهم إذا سألوا سألوا فى رفق ، وعلى استحياء . . وذلك

أنهم لم يعتادوا السؤال ، ولم يقفوا هذا الموقف من قبل ، وإلا لذهب حياؤهم ، وانحلّت عقدة ألسنتهم ، وأصبح السؤال عادة عندهم .. ومثل هؤلاء لا يكونون على سبيل الله ، ولا فى سبيله !

الآية : (٢٧٤)

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢٧٤)

التفسير : الإنفاق فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، مقبول فى كل وقتٍ ، بالليل والنهار ، وعلى أى أسلوب .. سرًّا وعلانية ، والمنفقون على هذا الوجه مقبولون عند الله ، مكفول لهم أجرهم ، فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، يوم يخاف الناس ، ويحزن الناس !

الآية : (٢٧٥)

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٧٥)

التفسير : لم تعطف هذه الآية على ما قبلها ، وإن كان سياق النظم يقضى بهذا ، على نحو ما نجرى عليه فى أسلوبنا ، بل وعلى ما جرى عليه نظم القرآن فى كثير من المواقف المشابهة لهذا ، حيث يعطف الليل على النهار ، والمحسن على المسيء والمؤمن على الكافر ، وهكذا .

لم يقع العطف هنا بين الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، والذين يأكلون الربا — على غير المألوف — وذلك للبعد البعيد الذى بين هؤلاء وأولئك ، حيث لا يمكن أن يلتقيا على أى وجه من الوجوه . . فهما أكثر من متناقضين . وأبعد من متضادّين ، وفى هـذا تشنيع على الرِّبا وآكليه ، وعلى عزلهم عن المجتمع الإنسانى كلّه ، حتى مجتمع الـكافرين والمنافقين ، لأن كلا من المنافق والـكافر يأكل نفسه على حين أن آكل الربا يأكل نفسه ويأكل ضحاياه المتعاملين معه !

وقوله تعالى : « الذين يأكلون الرِّبا » الرِّبا فى الأصل الزيادة والنماء ، وفى عملية الرّبا زيادة فى مال المرابى ونماء له ، ثم أطلق على عملية الرّبا المعروفة ، شاملاً جميع أطرافها ؛ المال المتعامل به ، وصاحب المال ، وآخذه .

فالذين يأكلون الربا هما الطرفان المتعاملان به . . المُقْرِض ، والمقترِض ، حيث لا تتم العملية إلا بهما معاً . . والأظهر هنا أن المراد بهم ، هم المقترضون حيث يأخذون المال « الربا » ويأكلونه ، أى يستهلـكونه فيما اقترضوا .

وفى قوله تعالى : « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطانُ مِنَ المسّ » .

أكثر المفسِّرون من التأويل والتخريج لهذا المقطع من الآية الـكريمة ، واستهلـكوا كثيراً من الجهد فى البحث عن معنى التخبط ، والشيطان ، والمسّ ، وفى الصورة المركبة من هذه الجزئيات ، وكلهم ناظر إلى أن المراد بآكل الربا هو المُقْرِض دون المقترض .

غير أن جميع هذه الآراء ، وتلك التخريجات لم نجد منها ما نطمئن إليه ، ونقتنع به .

وقد أوردنا النظر إلى الآية الـكريمة على وجه غير الوجه الذى التفتوا إليه ، ووقفوا عنده ، فظهر لنا منها ما وجدنا له مفهوماً ، وفيه مقنعا !

فنقول — والله أعلم — إن الضمير فى قوله تعالى : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » يراد به المقترضون بالربا ، وهم — كما قلنا — الذين يأكلون هذا المال المقترض ، ويستهلكونه فى الأمر أو الأمور التى اقترضوا من أجلها .

ويسند هذا الرأى أن المقرض — وهو المرابى — لا يأكل المال الذى أقرضه بالرِّبا ، ولا يستهلكه ، وهذا ما ينطق به ظاهر اللفظ « يأكلون » والحمل على الظاهر أولى ، ولا يصار إلى غيره إلا عندما يكون للظاهر وجه مقبول !

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإننا لو نظرنا فى الصورة كلها على هذا الوجه ، لبدا لنا أن أكلى الرِّبا ، وهم المقرضون — على ما ذهبنا إليه — قد رهقهم الدَّيْن ، وأثقلهم حمله ، وأنهم أصبحوا فى يد المرابى كالسمكة فى شبكة الصياد ، كلّما ضربت برأسها وذنبها فى الشبكة لتجد طريقاً إلى الخلاص كلما اشتد ضغط الشبكة عليها وإمساكها بها . . فالمقترض بالربا قد علقت به حبائل المرابى ، وكلما أراد أن يفلت من يده ، ويتخفف من الدين الذى أثقله به كلما ازداد إحكام يده عليه ، وتضاعف الدين الذى كان ينوء به !

والصورة التى رسمها القرآن الكريم لآكلى الربا من المقترضين أحكم إحكاماً ، وأردع روعة ، من كل صورة تكشف عن حال هؤلاء المقترضين وسوء المصير الذى يتخبطون فيه !

« الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » .

إنهم كلما أرادوا أن يقوموا من هذا الهمّ الثقيل الذى أقعدهم وأعجزهم عن السير فى ركب الحياة مع الناس ، تخبطوا واضطربوا ، فقاموا ثم قعدوا ،

وقاموا ثم قعدوا . . ثم لا يكاد أحدهم يهم بالقيام حتى يسقط ، ثم يهم ويسقط ، ثم يختلج جسده كله ، ويضطرب كيانه كله ، فيخر صريعاً ، ويضطرب على الأرض اضطراب الجمل المذبوح !

والممسوس الذى أصابه الصَّرَع هو الذى يمثل تلك الحال أدق تمثيل . . فى اضطرابه وتخبطه ، وقيامه ، وسقوطه ، ثم ارتماؤه أخيراً على الأرض يرتعش رعشة المحموم ، ويضطرب اضطراب الحيوان الذبيح !

وسواء أكان للشيطان مسٌّ أم لم يكن ، فإن النَّـاس يشهدون المصروعين ، ويرون النوبات التى ينتابهم فيها الصرع ، على هـذا النحو الذى ذكرناه .

على أنه ليس بالمستبعد أن يتسلط الشيطان على بعض الأجساد ، فيصيبها بهذا الداء . . وقد ورد فى الإنجيل أن المسيح عليه السلام كان يشفى الممسوسين والمصروعين — وأنه كان يخرج الشياطين الحالة بأجسادهم فيبرءون .

ففى إنجيل متى : « ولما جاءوا إلى الجمع تقدم إليه رجل جاثياً له ، وقائلاً : ياسيد ارحم ابنى ، فإنه يُصرعُ ويتألم شديداً ، ويقع كثيراً فى النار ، وكثيراً فى الماء . . فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان ، فشفى الغلام من تلك الساعة » (الإصحاح ١٧)

وإذا فهمنا الآية على هذا الوجه بدا لنا أنها تتجه إلى المقترضين بالرِّبا والمقرضين ، وأنها تمثل لهم المصير الذى سيصيرون إليه إذاهم تعاملوا بالربا ، ووقعوا فى شباك المرابين . . وبهذا يظهر حرص الإسلام على حماية هؤلاء المقترضين ، وهم من ذوى الحاجات وتحذيرهم من أن يغريهم المطمع فى هذا الفخ المنصوب لهم .

إن المقترض بالرِّبا لا يكون غالباً إلا من ذوى الحاجة والمعسرة ، وأن يده

أعجز من أن تسعفه بحاجاته التى تمسك عليه حياته . . فهو يلجأ إلى المقرضين بالرِّبا ، تحت هذا الظرف القاسى ، فيُقدِم على القرض بالرِّبا مضطراً ، ويحمل هذا العبء الثقيل مكرهاً ، ليدفع بذلك خطراً داهماً ، يتهدده ويتهدد أهله بالموت جوعاً . .

ثم إذا جاء الوقت المعلوم لأداء هذا الدَّيْن وما زِيد عليه من رباً ، وجَد نفسه عاجزاً عن الوفاء بالأداء ، فيضطر تحت الحاجة إلى المادّة فى الأجل ، ومضاعفة الدين . .

وهكذا تمضى الأيام ، ويدَ المَدين عاجزة عن الوفاء ، والدين يتضاعف عاماً بعد عام ، حتى يبدو وكأنه جبل يجثم على صدر المدين ، فلا يقدر على الحركة إلى أى اتجاه .

فهذه هى صورة المقترض بالرِّبا ، يمشى فى الناس وكأنه يحمل ثقلا من الأحجار ينوء به كاهله ، وينحنى منه ظهره ، ويضطرب معه خطوه .

وفى هذا ما فيه من تبغيض فى الرِّبا ، وتنفير من التعامل به .

والحق أنه لو امتنع المقترضون بالرِّبا عن طَرْق أبواب المرابين لما وجد هؤلاء المرابون من يتعاملون معه ، ولما تمت هذه الجريمة المنكرة !

وفى قوله تعالى : « لا يقومون إلا كما يَقوم الّذى يتخبطه الشيطان من المس » تشبيه المرابى بالشيطان ، إذ كان مصدرَ شر يتهدد حياة من يتعامل معه ، ويذهب بمقومات حياته ، ويغتال ثمرة جهده . . وكما أن الشيطان يزيِّن للإنسان الشرّ ، ويغريه به ، حتى ليسيل لعابه إلى تلك المنكرات التى يوسوس له بها ، ويرفعها لعينيه فى صورة رائعة معجبة ـ كذلك يفعل المرابى ، بما فى يديه من مال أعدّه للمراباة ، ولوّح به لذوى الحاجات ، فجاءوا إليه ،

ووقعوا فى شباكه ، كما يقع الفراش فى النار ، وهو يرقص على ضوئها الذى خيل إليه أنه مطلع فجر جديد .

فالمرابى شيطان يتسلط على المتعامل معه ، فيصاب منه بالخبل والاضطراب ، كما يصاب الممسوس من الشيطان بالتخالج والتخبط .

من هذا كله نرى أن ما ذهبنا إليه من أن « الذين يأكلون الرِّبا » هم الذين يقترضون بالرِّبا من المرابين ، وليسوا هم المرابين ، كما ذهب إلى ذلك المفسرون .

وهذا المعنى الذى ذهبنا إليه يجعل الآية الكريمة غير منسوخة ، كما يقول ذلك المفسرون بإجماع ، وإنما هى لتقرير حكم خاص بطرف من أطراف العملية الربوية ، وهو الطرف المقترض ، لا المقرض . . أما المقرضون بالرِّبا فسيجىء بعد ذلك الحكم الخاص بهم ، فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذرُوا ما بقى من الرِّبا إن كنتم مؤمنين » .

وأما تقديم المقترضين بالربا على المقرضين به فى مجال التشنيع على الرِّبا ، والتهديد للمتعاملين به ، فذلك لأن المقترِض — كما قلنا — هو الذى بيده مفتاح هذه العملية ، وأنه هو الذى يطرق باب المرابى . وبتلك الطرقات يُفتح الباب ، وتتم الجريمة .. ولو أمسك المقترضون عن التعامل بالرِّبا لما وجد المرابون سُوقاً رائجة يتعاملون معها . فكان تقديم الحديث إليهم فى هذا الموقف هو من مقتضيات الحكمة والبلاغة معاً .

قوله تعالى « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا » القول هو قول آكلى الرِّبا ، وهم المقترضون ، والإشارة ب « ذلك » إشارة إلى تلك الحال التى لبست آكلى الرِّبا ، وما صار إليه أمرهم بعد أكله ، حتى أصبحوا كمن يتخبطه الشيطان من المسّ .

والمعنى : أن هؤلاء الذين أكلوا الرِّبا إنما صار حالهم إلى ما هو عليه من السوء والبلاء بسبب غفلتهم ، وسوء تقديرهم ، واغترارهم بظاهر الأمور ، حتى خيّل إليهم أن التعامل بالرِّبا لا يعدوا أن يكون من باب البيع ، وأنه كما يشترى المشترى السلعة بالثمن الذى يتفق عليه بالتراضى مع البائع ، كذلك يشترى المقترض بالرِّبا المالَ الذى اقترضه بالثمن الذى يتفق عليه بالتراضى مع المقرِض . ! !

هكذا يركب الإنسان طرق الشرّ ويأكل ما يلقاه فيها من خبيث الطعام ، وهو يحسبه الطيب الهنىء المرىء ، ثم لا يقف عند هذا ، بل يتكلّف له المبرّرات والمسوّغات .

وقولهم : « إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا » جاء على غير المألوف المتوقع ، وهو أن يقولوا : « إنما الرِّبا مثل البيع » إذ أنهم إنّما قبلوا الرِّبا ، ورضوا بالتعامل به ، قياساً على أصل قاسوه عليه ، وهو البيع ، فكان عليهم أن يقولوا لأنفسهم ، أو لمن يسفّه عملهم هذا : إنما الربا الذى نلام عليه ، أو نُحذّر عاقبتَه ، هو مثل البيع الذى لا ينكره أحد ، ولا يُحذّر منه أحد » .

وقولهم هذا الذى حكاه القرآن عنهم يكشف عن مدى ما يفعل السوء بأهله حين يستبد بهم ، ويفسد عليهم أمرهم ، حتى تنقلب عندهم أوضاع الأمور ، وتختل موازينها فى تفكيرهم ، فيبدو الشر حسناً ، والقبيح جميلاً . . فهم هنا يَرَوْن الرِّبا الذي يتعاملون به أصلا يقاس عليه البيع ، على حين أنهما من واديين مختلفين ، وإن يكن ثمة قياس ، فالبيع هو الأصل الذى تقاس عليه الصور المشابهة له !

وقد ردّ الله عليهم هذا القول ، وأبطل هذا الادعاء الذى ادّعوه ، فقال تعالى : « وأحلّ الله البيع وحرّم الرِّبا » فإنه إذا كان ثمة تقابل بين البيع والربا فى ظاهر الأمر ، فإنهما فى الحقيقة ضدان لا يلتقيان أبداً ..

هذا حلال ، وذاك حرام ، ويابُعْدَ ما بين الحلال والحرام .

وليس يمنع من تشابه الشيئين فى الصورة أن يكونا على بعد بعيد من الخلاف حتى يبلغ حد التناقض والتضاد فى الحكم الواقع على كل منهما .

فالحيوان الذى أُحلّ أكله .. إذا ذُبح كان لحمه حلالاً ، وإذا مات حتف أنفه مثلاً .. كان لحمه حراماً خبيثاً ، وهو هو الحيوان فى حِلّه وفى حرمته .

قوله تعالى :

« فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

الموعظة ما يوعظ به ، من توجيه إلى الخير ، وتحذير من الشر .

وإذا كانت الموعظة من الله فهى حكم ملزِم ، لا اجتهاد لأحد فيه برأى أو تقدير .. بل هو هكذا .. يؤخذ به ، أو يترك .. فمن أخذ به رشد ونجا ، ومن تركه أثِم ، وهلك ..

وهذه الموعظة التى حملتها الآية الكريمة فى التشنيع على الرّبا ، وتحريمه إنما هى لآكلى الربا وهم المقترضون خاصة .

وفى قوله تعالى : « فله مَا سَلَف » أى فقد تجاوز الله عما سَلَف أى ما أكله من الرّبا قبل أن يُبيَّن له هذا البيان ، ومجيئه هذا الحكم ، فى تلك الآية الكريمة .

وفى قوله تعالى « وأمره إلى الله » إشارة إلى رحمة الله ومغفرته التى تمحو سيئات المسيئين ، إذا هم تابوا إلى الله وأنابوا .. فمن كان أمره إلى الله فإنه فى ضمان من كل سوء .

قوله تعالى : « ومن عاد فينتقم الله منه » أى ومن عاد إلى أكل الرّبا ، مستحلا له بعد أن حرّمه ، الله فقد تعرض لغضب الله وانتقامه ، ونعوذ بالله من غضبه وانتقامه.

قوله سبحانه : « والله عزيز ذو انتقام » ، وصْف الله سبحانه بالعزة هنا، هو عرض لسلطان الله ، وقوته،وأن حرماته فى حمى عزيز، ولكنه ـ سبحانه ـ لا يعجل بأخذ الذين يعتدون على حرماته ، كرماً منه ورحمة ، بل يمهلهم حتى يراجعوا أنفسهم ، ويفيئوا إليه ، فإن فاءوا وجدوا المغفرة والرضوان، وإن عادوا ولم يتوبوا فقد وقعوا تحت نقمة الله ، الذى يغار على حرماته أن تستباح بلا قيود ولا حدود.. فمع عزة الله ، وقوته ، وبسطة سلطانه ، تقوم نقمته تتعقب بالعقاب أولئك الذين استخفوا بعزة العزيز ، واستباحوا حرمات المنتقم .. بلا حساب !

هذا ، ويؤيد ما ذهبنا إليه من أن المراد فى قوله تعالى « الذين يأكلون الربا » هم المقترضون ما جاء فى الحديث الشريف : « لعن الربا . . آكلَه ، ومؤكّله ، وشاهديه ، وكاتبه » .

الآية : (٢٧٦)

« يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّـدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ » (٢٧٦)

التفسير : بعد أن حرّم الله أكل الرِّبا فى الآية السابقة ، وكشف هذا الطرف من أطراف الربا ــ وهو طرف ــ المقترضين على تلك الصورة الكريهة ـــ جاءت هذه الآية لتكشف وجهاً آخر من وجوهه ، وطرفاً ثانياًمن أطرافه ، وهو المال المتعامَل به !

فصاحب هذا المال ، وهو المرابى ، يوجه ماله إلى هذا الوجه ، يريد له النماء والكثرة ، ويبغى منه الثروة والغنى .

وقد أخبر الله سبحانه أنه لا يبارك هذا المال ، ولا يزكّى الوجه الذى اتجه إليه . . « يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا » والمحق هو المحو والإزالة ، بحيث لا يبقى أثر لما يُمحق .

والمراد هنا بمحق الرّبا ، أن هذا المال الذى يُجمع من وجوه الرِّبا مصيره الزوال ، وأنه إذا كان له مع صاحبه شأن فى هذه الدنيا ، فإنه لا يجد منه شيئاً بين يديه فى الآخرة ، على حين أن المال المتصدّق به ، وإن كان قليلاً ، فإنه ينمو النماء الحقيق ، الذى لا يفنى بفناء صاحبه ، ولا يذهب بذهاب الدنيا كلها ، بل يظل هكذا فى ازدهار ونماء ، حتى يستقبلَ صاحبَه يوم القيامة ، فيكون له زاداً طيباً فى هذا اليوم العظيم ، كما قال تعالى :

« مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ »

وكما يقول الرسول الكريم :

« إنَّ اللهَ ليُرَبِّى لِأَحَدِكُم التمرة كما يربِّى أحدُكم فُلُوَّه وفصيله حتى يكون مثل أُحد » . والفلوّ : ولد الفرس ، والفصيل : ولد الناقة .

قوله تعالى : « والله لا يحب كل كفار أثيم » تعريض بالمرابين ، وهم الطرف الثالث فى عملية الربا ، وتمهيد لما سيأتى من حديث عنهم . فالمرابى كافر بنعمة الله ، إذ وسّع الله له فى الرزق ، حتى فَضَل المال عن حاجته ، وكان من شأن هذا الفضل أن يعود به على ذوى الحاجة ، صدقةً أو قرضاً حسناً ، فلم يفعل ، بل جعله سلاحاً حاداً مرهفاً ، لا يسلط إلا على رقاب المحتاجين والبائسين خاصة ، فهو بفعله هذا قد حرم الفقراء وذوى الحاجة حقاً لهم وضعه الله فى يده ، ثم لم يقف عند هذا ، بل صنع من هذا الحق شباكاً يصطاد بها الفقراء وذوى الحاجة ثم يلقى بهم ليد الهلاك والضياع . . فهو كافر . . كافر بنعمة الله ، ثم هو آثم

آثم ، بهذا الموقف اللئيم الذى يتخذ فيه من نعمة الله نقمة يسلطها على عباد الله .

الآية : (٢٧٧)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٢٧٧)

التفسير : بعد أن توعد الله سبحانه وتعالى المرابين بمحق أموالهم ، ووصمهم بالكفر الشديد لنعمه ، بما ارتكبوا من هذا الإثم الغليظ الذى يعرضهم لسخط الله وعذابه — وعد سبحانه — الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة بالأجر العظيم ، والرحمة والرضوان ، والأمن يوم الفزع الأكبر .. ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم ، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها ، وامتثلوا لها ، وانتهوا عما نُهُوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون .

و « إيتاء الزكاة » هنا له آثاره فى التحريض على البذل والإنفاق على ذوى الحاجات ، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى التعامل بالربا ..

الآية : (٢٧٨)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢٧٨)

التفسير : هُنا تعرض الآية الكريمة الطرفَ الثالث من أطراف العملية الربوية ، وهم المقرِضون بالرِّبا ، بعد أن عرضت الآيات السابقة الطرفين الآخرين وهما : المقترِضون ، والمالُ المقترض ..

وإذ وعد الله سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر

العظيم ، والجزاء الحسن فى الآخرة ، وإذ كان ذلك موقظاً لأشواق النفس نحو هذا المقام الكريم ، حافزاً الهمم والعزائم إلى بلوغ هذه الغاية المسعدة ـ فقد جاءت دعوة الذين آمنوا إلى ترك هذا المنكر ، فى وقتها المناسب ، لتتلقاها النفوس ، وهى فى نشوة أشواقها إلى رضوان الله ، وإلى الطمع فيما أعدّ للمتقين من جنات فيها نعيم مقيم .

فمن واجب الذين آمنوا ، وصافحت قلوبهم أضواء الهدى ؛ أن يتقوا الله ، وأن يَقْدُروه حق قدره ، فلا ينتهكوا حرماته ، ولا يحوموا حول حماه . . وقد حرّم الله الرّبا ، ومن تقوى الله اجتناب هذا المحرم ، إن أراد المؤمن أن يكون فى المؤمنين حقاً . . إذ لا يجتمع الإيمان بالله ، والمحادّة لله ، ومحاربته .

وقوله تعالى : « وَذَرُوا ما بقى من الربا » أى اتركوا ما تعاملتم به من رباً قبل أن يأتيكم الله حكم فيه ؛ بالتحريم ، فليس لكم بعد هذا إلا رءوس أموالكم ، لا تَظلِمون ولا تُظلَمون .

الآية : (٢٧٩)

« فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ » (٢٧٩)

التفسير : أى فإن أنتم أيها المقرضون بالرِّبا لم تنتهوا عما نُهيتم عنه من أخذ الربا، فأعدّوا أنفسكم لحرب معلنة عليكم من الله ورسوله .. فهل لكم على هذه الحرب صبر ؟ وأين لكم القوة التى تقف لقوة الله ، وتحول بينكم وبين ما يرسل عليكم من صواعق سخطه ، ووابل عذابه ؟

وفى قوله تعالى « فأذنوا بحرب من الله ورسوله » ما يُسأل عنه ، وهو : إذا كان لحرب الله للمصرّين على أخذ الربا . . مفهوم ، وهو وقوعهم تحت سلطان

سخطه ونقمته وعذابه . . فما مفهوم حرب رسول الله لهم ؟

والجواب على هذا من وجهين :

الوجه الأول : أن مخالفتهم لأمر الله وخروجهم عن طاعته هو مخالفة لأمر الرسول ، وخروج طاعته ، إذ كان الرسول — عليه السلام — هو حامل أمر الله ومبلغه . فعقاب الله الذى يأخذهم به هو عقابٌ من رسول الله أيضاً ، وحرب الله لهم ، هى حرب لحساب رسول الله كذلك . . وذلك ما يدل عليه قوله تعالى :

« وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خالدينَ فيها أبدًا » (٢٣ : سورة الجن)

الوجه الثانى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منفّذ أمر الله فيهم ، بما مكّن الله من سلطان ، يقيم به حدود الله على الخارجين عليها . . وإذ لم يكن للرِّبا حدٌّ مفروض يعاقب به المرابون ، كحدّ السرقة والزنا مثلا ، وذلك لشناعة الربا ، وغلظَ جريمته التى لا حدّ لها إلا عذاب جهنم أو مغفرة الله — إذ كان ذلك كذلك ، فإن لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا عُرض عليه نزاع فى معاملة ربوية أن يُسقط الربا ، وأن يجعل للمرابى رأس ماله دون ما أربى به . . كما فعل صلوات الله وسلامه عليه . فوضع ربا الجاهلية كلّه ، وذلك فى قوله فى خطبة الوداع : « كلّ رباً الجاهلية موضوع ، وأول رباً أبدأ به ربَا العباس بن عبد المطلب » .

وهذا الذى لرسول الله من تسلط على الرّبا ، هو حق من بعده لولىّ الأمر ، إذا عرض له نزاع فى معاملة ربوية ، وضع الربا عن المقترِض ، وجعل للمقرِض رأسَ ماله .

الآية : (٢٨٠)

« وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٢٨٠)

التفسير : وحين يستجيب المؤمن لأمر الله بترك الرّبا ، وأخذ ما أقرضه دون زيادة ، فإن عليه أن ينظر فى حال المدين ، فإن كانَ مُعسِراً — وهو ما يكون غالباً — ترفّق به ، ومدّ له فى الأجل إلى أن يتدبر أمره ، ويتهيأ له الظرف المناسب لأداء ما عليه من دين . . فذلك ما تُمليه عاطفة الرحمة والمودّة ، وما تقتضيه المروءة فى مثل هذه الحال . . ثم هو فوق ذلك عمل مبرور ، له ثوابه وجزاؤه عند الله .. وخير من هذا وأعظم ثواباً وأحسن جزاء عند الله ، هو أن يتصدق الدائن بدينه على المدين . . كله ، أو بعضه ، حسب ما يرى الدائن من حال المدين .

وفى الدعوة إلى التصدق بالدَّين على المدين هنا مايشير إلى أن هؤلاء الذين تضطرهم أحوالهم إلى الدين إنما هم — فى الغالب الأعم — الفقراء ، الذين لا يجدون من مالهم مايستجيب لحاجتهم من ضرورات الحياة ، فيمدّون أيديهم إلى ذوى اليسار ممن يتوسمون فيهم المروءة ، ليمينوهم بشىء من مالهم ، على أن يكون ذلك ديناً يرد إليهم فى أجل معلوم !

فإذا سَخَتْ نفس الإنسان أن يقدم هذا العوْن للمحتاج فى صورة دين، فإنه لأجل وأكمل أن يحتسبه صدقةً عند الله ، على ألا يجرح بذلك مشاعر المدين ، وألاّ يمنّ عليه ، ويفضحه ، بأن يقول له على سبيل المباهاة ، أو الإيذاء والانتقام : تصدقت عليك بما لى عليك من دَيْن . . فذلك مما يذهب بصدقته ويمحقها ، والطريق الأمثل فى هذا — إن رأى أن يتصدق بدينه ـ أن يترك

المدين ، فلا يطالبه بالدين ، تصريحاً أو تلميحاً . . فإن أيسر المدين أدى إليه دينه ، وإن ظل على إعساره أمسك عنه ، ولم يطالبه .

و « كان » فى قوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة » تامة ، بمعنى وُجد ، أى وإن وُجِد فى المدينين ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ، إذ ليس كلّ المدينين على حال واحدة من الإعسار !

الآية : (٢٨١)

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » (٢٨١)

التفسير : الخطاب هنا للمقرِضين بالرِّبا خاصة وللمؤمنين عامة — وهو دعوة إلى تقوى الله ، والإعداد ليوم يرجع فيه الناس إلى الله ، فيوفيهم حسابهم حسب أعمالهم ، وما كسبت أيديهم من خير أو شر ، ولا يظلم ربك أحدا .

مبحث فى الربا

أنواعه وأحكامه

معناه فى اللغة : النَّماء والزيادة ، يقال : ربا الشىء يربو رَبَاوة ورباً ، إذا نما وزاد ، ومنه الرَّبوة ، وهى الأرض المرتفعة على ماحولها .

وفى لسان الشريعة ، وفى لغة المعاملات : هو عملية دين ، يؤدَّى عنه مال زيادة على أصل الدين ، فى المدة التى يظل فيها الدين فى ذمة المدين .

ذلك هو أصل الرّبا الذى أدركه الإسلام عند عرب الجاهلية ؛ وشهد آثاره السيئة فى المجتمع العربى .

الإســـلام والربا

وكان طبيعياً أن يتدخل الإسلام فى هذا الضرب من المعاملات الجائرة ، التى تغتال الضعفاء ، وتمتص عصارة الحياة فيهم ، وتقطع أواصر الرحمة والأخوّة بين الناس والناس .

وقد جاء الإسلام بالحـكم القاطع فى تحريم الربا فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذَروا مابقى من الرِّبا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وَإن تُبْتُمْ فلـكم رءوس أموالِـكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُون » .

والربا . . الذى جاء القرآن بتحريمه هو ربا النّسيئة ، وهو الذى أشرنا إليه من قبل ، والذى يقع بين الدائن والمدين بفرض زيادة على أصل الدين ، فى مقابل تأجيل دفع الدّين مدة معينة.. إذ النسيئة هى التأخير ، يقال نسأ الله فى أجل فلان : أى مدّه وأطاله .

ولاشك أن فى هذه العملية ظلماً محققاً وقع على المدين من الدائن . . وذلك أن الدائن — وهو صاحب المال الذى هو نعمة من نعم الله فى يده ، وفضل من أفضاله عليه ، لم يَرْعَ فيه حق الله ، وحق الفقراء فيه ، بالصدقة والإحسان . . وهو إذ لم يفعل هذا ، كان من الواجب عليه— ديانةً ومروءة — أن يمسكه فى يده ، ولايجعل منه أداة يمتص بها البقية الباقية من حياة الفقراء !

يقول ابن قيّم الجوزية : « إن الله لم يدع الأغنياء حتىأوجب عليهم إعطاء الفقراء ، فإذا أربى الغنىّ مع الفقير فهو بمنزلة من له على رجل دَيْن فمنعه دينه وظَلَمه زيادةً أخرى — أى زيادة على أصـل الدين بالربا — والغريم — أى الفقير — محتاج إلى دينه ، الذى أوجبه الله له فى مال الغنى — وهذا من أشد أنواع الظلم . .

« فهذا هو أصل الرّبا المستكمل لجميع سيئاته .. ولهذا روى عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الرّبا فى النسيئة »[1] أى فى تأخير دفع الدَّيْن نظير الزيادة عليه .

مداخـــل إلى الربا

ومن تمام الحكمة فى الشريعة الإسلامية ، أنهـا لاتحفل كثيراً بالصور والأشكال ، وإنما تلتفت دائماً إلى ماوراء الصور والأشكال من آثار .. وعلى هذه الآثار يكون حكمها على الشيء .. من الحظر ، أو الإباحة ، أو الوجوب . وغير هذا من الأحكام .

فالخمر — مثلا — مُسكر .. فهو حرام لهذه العلة ، وهى الإسكار .. وقليل الخمر لا يسكر ، ومع هذا فقد تساوى القليل من الخمر مع الكثير ، فى التحريم .. ونطق لسان الشرع الحكيم فيه : « ما أسكر كثيره فقليله حرام » .

ولو أَخَذْنا بمنطق الصورة والشكل ، لكان قليل الخمر غير حرام ، مادام لم يبلغ بالإنسان مَبْلغ السكر .

وربما يكون هذا مقبولا فى عمليات المنطق ، ولكن هل يقبل الواقع هذا ؟ وهل تصدقه التجربة ؟

التجربة والواقع ينكران أن يقوم حِجَاز يفصل بين قليل الخمر وكثيره ، لتقع جريمة السكر أو لاتقع .. فقد يسكر بعض الناس بهذا القليل ، ولايسكر آخرون بأضعافه .. ثم من ذا الذى يضمن نفسه إذا ألقى فى جوفه بقليل الخمر ، الذى لايسكر به ، ألاّ تمتد يده إلى غير هذا القليل حتى يسكر ؟ وإذا استطاع هذا الإنسان أن يردّ نفسه مرة ومئة مرة عن أن يتجاوز حد الإسكار ، فهل من الممكن أن يطول به الوقوف عند هذا الحدّ إلى غير حدّ ؟ وإذا

---

(١) القواعد النورانية . . لابن قيم الجوزية . . ص ١١٧ .

استطاع إنسان أن يمر بهذه التجربة سالماً ، فهل ذلك فى مقدور الناس جميعاً ؟ الواقع والتجربة ينقضان هذا ، ويؤكدان أن كثيراً من الناس شربوا قليل الخمر مداواةً، أو لعباً ، فتجاوزوا المداواة واللعب إلى الإدمان ، ثم الإغراق فى الإدمان !

هذا صنيع الإسلام فى كل محرم .. إنه يحرّمه ويحرّم الذرائع المؤدية إليه .

وفى الربا . . حرم القرآن الكريم الرِّبا ، على الصورة التى كانت معروفة له فى الجاهلية ، وهو ربا النسيئة ، ثم جاءت السنّة المطهرة ، فحرمت الذرائع المفضية إليه ، حتى لا يتخذ الناس من تلك الذرائع مطايا ـ تنقلهم بقصد أو غير قَصد ـ إلى الربا الصريح ! .

ومن الذرائع التى حرّمها الإسلام ، وعدّها من الرّبا ، إذ كانت باباً يؤدى إليه ـ هذه الصور من المعاملات :

١ ــ ربا الفضل

وهو بيع المتماثلين . . من ذهب أو فضة أو بُرّ أو تمر أو غير هذا . . بزيادة أحد المِثْلَيْن على الآخر . . كمن يبيع درهماً من الذهب بدرهم وبضعة قراريط من الذهب ، وكمن يبيع قَدَحاً من التمر ، بقدح ونصف منه . . فهذا بيع متلبس بالحرمة والإثم .

يقول ابن قيّم الجوزية : « ثم إن النبى صلى الله عليه وسلم حرّم أشياء ، مما يخفى فيها الفساد ، لإفضائها إلى الفساد ، كما حرم قليل الخمر ، لأنه يدعو إلى كثيرها ، ومثل ربا الفضل ، فإن الحكمة فيه ـ أى فى تحريمه ـ قد تخفى . . إذ العاقل لا يبيع درهماً بدرهمين إلا لاختلاف الصفات ، مثل كون الدرهم صحيحاً والدرهمين مكسورين ، أو الدرهم مصوغاً ، أو من نقد نافق (أى رائج) ، ونحو ذلك . . ولهذا خفيت حكمته على ابن عباس ومعاوية ، حتى أخبرهما الصحابة الأكابر ، كعبادة بن الصامت وأبى سعيد الخُدْرىّ وغيرهما ـ بتحريم

النبيّ - صلى الله عليه وسلم - لربا الفضل[١] » .

وقد ألحق الرسول الكريم هذا الضرب من المعاملات بالربا .. إلّا أن يكون مِثلاً بمثل ، ويداً بيد . . يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا تبيعوا الذهب بالذهب إلاّ مِثلاً بمثل وَلاَ تُشِفّوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورِق إلا مثلاً بمثل ولا تُشِفّوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا منها غائباً بناجز[٢] وفى لفظ : « إلاّ وزناً بوزن ، مِثْلاً بمثل ، سواء بسواء[٣] » .

وعن أبي سعيد الخُدرى ، رضى الله عنه قال : جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر بُرْنِيّ[٤] .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من أين هذا ؟ » قال بلال : كان عندنا تمر ردىء ، فبعت منه صاعين بصاع لمَطْعَم النبي ، فقال النبي عند ذلك : « أوْهِ !! عَيْنُ الرّبا . . لا تفعلْ ، ولكن إذا أردت أن تشترى فبِع التمر ببيع آخر ، ثم اشترِ به[٥] » .

ولا شك أن مثل هذه المعاملات لا يقصد منها الربا على الوجه المعروف ، المراد منه استغلال الفقير المحتاج ، وفرض إرادة صاحب المال - الدائن - عليه . . ولكن يمكن أن تجرّ هذه المعاملات إلى ما يجرّ إليه الربا من ضغينة وعداوة .

أما الضغينة والعداوة فتنشآن مما يتكشف عنه الحال بعد عملية بيع المتماثلين مع تفضيل أحدهما عن الآخر ، حين يرى أحد المتبايعين - بعد الرجوع إلى ذوى

(١) القواعد النورانية . . لابن القيم ص ١١٧ .

(٢) الورق . الفضة ، والشف الزيادة أو النقصان ، والناجز : الحاضر

(٣) صحيح مسلم جزء / ٤ ص ٢٤ .

(٤) التمر البرنى : من أحسن أنواع التمر عند العرب .

(٥) صحيح مسلم : جزء / ٤ ص ٤٨ .

الخبرة ـ أنه غُبن ، ولا سبيل إلى الرجوع فى عملية البيع . فالمتماثلان ، لا يفضل أحدهما الآخر إلا فى أمور لا يتعرف عليها إلا أهل النظر والخبرة فى هذا الشأن ، ومن هنا يقع الغبن ، الذى تنتج عنه العداوة والبغضاء ، كما ينتج الظلم بأكل أموال الناس بالباطل ، عن طريق الربا المعروف ، وهو ربا النسيئة .

وقد يقال : إن هذا الذى يقع فى بيع المتماثلْين مع زيادة أحدهما عن الآخر ـ يقع أيضاً فى بيع المتماثلْين مِثلاً بمثل ..إذ لا شك أن المتماثلين لا يتماثلان فى جميع الوجوه ، وإلا لما كان هناك داع يدعو إلى استبدال هذا بذاك .

ونعم . إنه لا بد من فروق بين المتماثلْين ، حيث يرى كلٌ من صاحبيهما الرغبةَ فيما فى يد الآخر .. ولكن الغالب فى المماثلة أن تكون الفروق طفيفة، يمكن أن يحتملها الطرفان بالزيادة أو النقص ، ولكن لو فتح باب المفاضلة بين المتماثلْين لا تسع مجال الغبن ، وتضاعفت مقاديره . . فكان فى إباحة بيع المتماثلين مِثلاً بمثل رفعٌ للحرج على الناس فى تبادل المنافع ، التى لا غنى لهم عنها ، كما كان فى تقييد هذه الإباحة بألاّ يفضُلَ أحد المثلين الآخر ، وزناً أو كيْلاً ـ كان فى هذا ما يحرس هذه العملية من الغبن الفاحش،لو فتح فيهاباب التفاضل! .

٢ — بيوع الغَرَر

ومن الأمور المفضية إلى الربا ، بيع الغَرَر ، والغرر فى اللغة ، معناه التغرير والخداع .. يقال . غرّر فلان بفلان أى ساقه إلى سوء ، أو أوقعه فى مكروه عن طريق الحيلة والخديعة والغش .

ويقع الغَرر أو التغرير فى بعض صور هذا البيع . . وذلك كبيع المعدوم . . مثل حَبَل الحُبلَى ، وبيع السمك فى الماء ، وبيع المعجوز عن تسليمه ، كالحيوان الشارد عن صاحبه ، أو بيع المجهول المطلق .. مثل قولك : بِعتُك منزلاً ، أو المجهول العين ، مثل قولك : بِعتُك ما فى جيبى .

ولا شك أن مثل هذه المبايعات لاتنتهى ـ غالباً ـ إلاباخلاف بين المتابعين إن لم يكن متخذاً صورة مادية ظاهرة ، اتخذ مشاعر محملة بالبغضة والعداوة ، لأن البيع الذى حدث على تلك الصورة هو فى الواقع ضرب من المقامرة والمخاطرة . . إذ لا يدرى أحد متى تحمل هذه الناقة أو النعجة ، التى وقع البيع على ما قد تحمل فى المستقبل ، ولا أحد يدرى ما سيكون عليه نتاجها . . أهو سليم أو معطوب ، أو هو واحد أو اثنين أو ثلاثة . . ويقال مثل هذا فى بيع الحيوان الشارد ، أو المجهول جهالة مطلقة ، كالبيع الواقع على كلمة « منزل » أو ما فى « الجيب » .

رُوِى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نهىعن بيع الثمار حتى تُزْهَى ، قيل : وما تُزْهى ؟ قال : تحمَرّ أو تصفَر .. قال : أرأيتَ إذا منع الله الثمرة ، بم يستحلّ أحدكم مال أخيك ؟ .

ورَوى أحمد فى مسنده ، قال : قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ونحن نتبايع الثمار قبل أن يبدوَ صلاحها ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خصومة ، فقال : ما هذا ؟ فقيل : إن هؤلاء ابتاعوا الثمار .. يقولون : أصابها الدَّمَان والقُشَام[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا تَبَايعوها حتى يبدوَ صلاحها » .

فالرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم ينْهَ عن هذا البيع إلا بعد أن تكشفت آثاره السيئة ، وتكشفت عن مشاحنة وبغضاء . . ولو جرى هذا البيع دون أن يثير مثل هذه المشاحنات أو لو كان بين أيدى الناس من وسائل العلم ما يضبط الحال التى سيكون عليها الثمر وقت نُضجه ، لَمَا وقع حظر على هذا البيع ، وما ماثله .

(١) الدمان والقشام : من الآفات التى تعرض للثمر قبل أن ينضج ، فيعطب أو يفسد .

حكم الربا

هل الربا كبيرة من الكبائر ؟ .

هذا سؤال يبدو غريباً ، بعد أن قالت الشريعة قولها فيه ، فى الكتاب الكريم ، وفى السُّنّة المطهرة .

فالقرآن الكريم يصور . . آكل الربا فى صورة من أصابه مسٌّ من الشيطان ، فاختبل عقله ، واضطرب كيانه ، وبدا للناس فى أسوأ حال يبدو فيه إنسان : « الذين يأكلون الرِّبا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المسّ » .

والقرآن الكريم يعلن الحرب من الله ورسول الله على مُوَكّلى الرِّبا إن لم يتوبوا ، ويرجعوا إلى الله . . «فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله» .

والرسول الكريم يلعن جميع الأطراف المشتركة فى عملية الربا : آكله ، ومؤكّله ، وشاهديه ، وكاتبه[١] . . ثم أفلا يكون الرّبا بعد هذا كبيرة ؟ .

وبلى ، إنه لكبيرة الكبائر عند الله ! .

يقول الرسول الكريم : « الرِّبَا ثلاثة وسبعون باباً . . أيسرها مثلُ أن ينكح الرجل أمه ، وإنّ أرْبى الرّبا عِرْض الرجل المسلم[٢] » .

وفى هذا ما فيه من تغليظ لجريمة الرِّبا ، وتشنيع عليها ، وأنه لو صوّر الرِّبا درجات بعضها فوق بعض ، لكان أهون درجاته ، وأقلها إثماً ، مماثلا للإثم الواقع من نكاح الرجل أمه ! ! .

فكيف الحال بما فوق ذلك من درجات فى الكيان الربوىّ ؟ . . لقد وضع الرسول الكريم على قمة الرِّبا . . إباحة عرض المسلم . . وهو الزنا ! ! .

---

(١) صحيح مسلم : جزء / ٥ ص ٥٠ .
(٢) بلوغ المرام من أدلة الأحكام ص ١٤٢ .

وكل درجات الرّبا الثلاثِ والسبعين ـ من أدناها إلى أعلاها ـ سلسلة متشابكة الحلقات من الظلم والعدوان .. ظلم النفس، وظلم الغير، وعدوان على حرمة النفس، وحرمة الغير .

والسؤال هنا هو : إذا كان هذا هو شأن الرّبا، وتلك هى جنايته، وآثاره السيئة فى الحياة، فلماذا لم يضع الإسلام عقوبة مادية له، كما وضع للجرائم الأخرى، كالقتل والسرقة، والزنا، وشرب الخمر، والقذف ؟ فلكل جريمة من هذه الجرائم حدّ مقرر، وعقوبة راصدة، فرضها الإسلام، وأوجب على المجتمع الإسلامى إقامتها على من وجبت عليه ؟ .

هذا سؤال، لم أجد فى كتب الفقه التى وقعت ليدى من سأله من الفقهاء ..

وإذن فلا سبيل إلى جواب على هذا السؤال من كتب الفقه . .

ومع هذا، فقد وقع فى نفسى أن أسأل هذا السؤال، وأن أتولّى الإجابة عليه ! ! .

ولكن ..

لماذا لم يسأل الفقهاء هذا السؤال ؟ ولماذا لم يكشفوا عن السبب فى عزل هذا المنكر عن الكبائر الأخرى، فلم تُفرض له عقوبة ؟ ولقد سأل الفقهاء عن أمور فرضية أو وهمية، قد لاتقع فى الحياة أصلاً، ووضعوا أجوبة لها . . فكيف بهذا الأمر الواقع فى الحياة ؟

وأكبر الظن عندى، أنه ربما كان ذلك، لأنهم عدّوا مسألة الرّبا من المسائل التعبديّة التى تخفى حكمتها، ولايُسأل عنها، كما خفيت حكمة ربا الفضل على ابن عباس ومعاوية، وكما خفيت الحكمة فى ألوانٍ أخرى من المعاملات . التى دخلت مدخل الرّبا !

ولهذا روى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — أنه كان يقول :

« ثلاث وَددْت أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عَهِد إلينا فيهن عهد ، ننتهى إليه : « الجدّ[(١)] ، والكلالة[(٢)] ، وأبواب من الرّبا » . . وقول عمر : « وأبواب من الرّبا » أى صور منه ، وهى كما قال الرسول الكريم : « الربا ثلاثة وسبعون باباً » .. أما الرّبا الذى قطع الإسلام بحرمته ـ وهو ربا النسيئة ـ فقد جاء البيان فيه واضحاً قاطعاً . . وبقيت الصور الأخرى ، وهي التي ليست فى حقيقتها رباً ، ولكنها مداخل إلى الربا ، فقد تركها الإسلام خاضعة للنظر والتقدير ، حسب الظروف والأحوال . فما قد يكون مدخلاً منها إلى الربا اليوم ، لوقوعه تحت احتمالات شتى ـ قد يوجد فى المستقبل من العلم ما يرفع هذه الاحتمالات كلها ، ويقيمه على أمر واحد محقق ، فيصبح ـ والأمر كذلك ـ على حقيقة واحدة ، لا مجال فيها لمفاجآت الاحتمالات ، وتوقعاتها !

وأما الحكمة فى تحريم الرّبا ـ بمعناه المعروف ـ فهى ظاهرة لمن طلبها . . يقول النبيّ الكريم : « الربا ثلاثة وسبعون باباً ، أيسرها أن ينكح الرجل أمّه ، وإن أربى الرّبا عرض الرجل المسلم » .

وواضح أن الاعتداء على عرض الرجل المسلم ، ليس من الربا المعروف ، بل المراد بالربا هنا هو المعنى الملازم له ، وهو الظلم .

وإذن فنستطيع أن نفهم الحديث الشريف ، على هذا الوجه ، وهو أن المراد بالربا ، وأنه ثلاثة وسبعون بابا — أنه الظلم ، وأن أبواب الظلم ودرجاته هى هذه الثلاثة والسبعون بابا . .

ولما كان الرّبا — بمعناه المعروف — على رأس أبواب الظلم جميعها ، فقد جعله الرسول الكريم ، العنوانَ لجميع أنواع الظلم . . تشنيعاً عليه ، وتنبيهاً إلى مكانه المشئوم بين الكبائر . .

---

(١) أى ميراث الجد .

(٢) أى ومعنى الكلالة .

ويقول النبي الكريم : « من شَفَعَ لأخيه شفاعة ، فأهدى له عليها هدية فقبلها ، فقد أتى باباً عظيما من أبواب الربا »[١] .

وهذا بيان صريح فى أن الرِّبا يقابل الظلم مقابلة واضحة صريحة .

وعلى هذا ، فإنه مهما تعددت أنواع الرّبا واختلفت صوره ، فإن الأصل الذى تفرع عنه الربا واضح معروف ، والحكمة فى تحريمه واضحة لاتخفى . . وأن أكل أموال الناس بالباطل وظلمهم ، هو العلة فى تحريم الرّبا . . وفى هذا يقول الله تعالى : « فإن تُبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولاتُظلمُون » . . وليس بعد هذا بيان فى النصّ على تحريم الرّبا ، وفى الكشف عن الحكمة فى تحريمه ، والنهى عن التعامل به .

ونعود إلى سؤالنا :

لماذا لم يضع الإسلام عقوبة مادية للربا ، مثل الجرائم التى فرض عليها عقوبة ؟

والجواب الذى يمكن أن نستلهمه من روح الشريعة . . هو :

أولا : أن الحدود التى فرضها الإسلام عقوبةً للقتل والسرقة والزنا . . وغيرها . . هى تطهير لمرتكبيها من آثار ما ارتكبوا . . فإذا أقيم الحد على مرتكب جريمة من هذه الجرائم طَهُر . . كما ورد فى الحديث عن عُبادة بن الصامت ، قال : أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى العهد) كما أخذ على النساء : « ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادَنا ، ولا يَعْضَهُ[٢] بعضنا بعضا ، فمن وفَى منكم فأجره على الله ، ومن أتى منكم حدًّا فأقيم عليه ، فهو كفّارته . . الحديث »[٣] .

---

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٢١ .
(٢) يعضه : أى يقذف ، ويفضح .
(٣) صحيح مسلم : جزء : ٥ ص ١١٩ .

ذلك شأن الذنوب التى يقام فيها الحدّ . . يتطهر منها مرتكبوها بإقامة حدود الله عليهم . .

أما « الربا » فهو باب وحده من أبواب الشر والفساد ، وخطيئته تحيط بصاحبه ، وتخالط كيانه الروحى والجسدى ، فلا ينجو منه إلا بالتوبة الخالصة ونفض يديه من هذا الوزر . . إلى غير رجعة . . وإلا فهو حَصَبُ جهنم . . « وَلَعَذابُ الآخرةِ أكبر لو كانوا يعلمون » .

ثانيا : الربا محاربة سافرة لله ولرسوله ، إذ كان بَغْيا على عباد الله الفقراء ، وتحكّماً فى أرزاقهم ، وإفساداً لحياتهم ، وتضييعاً لهم . . إنه قتل خفىّ جماعىّ للفقراء المستضعفين فى المجتمع ، ولهذا تولّى الله ـ سبحانه وتعالى ـ الدفاعَ عنهم ، والانتقام لهم ، ممن ظلموهم ، وأوردوهم هذا المورد المهلك . . « فإن لم تَفْعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » . . فالله سبحانه هو الذى أعلن هذه الحرب على المرابين ، وكَفَى بحرب يعلنها الله ، وكَفَى بجرم يعلن الله الحرب على مرتكبيه ! !

إن الله ـ سبحانه ـ لم يعلن الحرب على غير هذا الصنف من المفسدين . . وهم المتعاملون بالربا ! حتى أولئك الذين أعلنوا الحرب على الله وعلى رسوله ، لم يؤذنهم الله بحرب ، كما يقول سبحانه وتعالى : « إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » . (٣٣ : المائدة)

فلم يعلن سبحانه وتعالى الحرب على هؤلاء العصاة المتمردين ، الذين سعوْا فى الأرض فساداً ، وأعلنوا الحرب على الله وعلى رسوله . . ولكنه أعلنها

سافرة صريحة على المرابين : « فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله » وليس وراء هذه الحرب إلا خراب شامل ، وضياع وفساد لما جمعوا ، وعذاب شديد فى نار جهنم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

هذا هو الحدّ الذى وضعه الله سبحانه — عقوبة للربا ، وتولّى ـ سبحانه ـ تنفيذه ، دون أن يعهد بذلك إلى أحد .

ثالثا : تتم عملية الربا بين آكل الربا ـ المقترض ، وبين صاحب المال ـ المقرِض ـ والشاهدين ، والكاتب .

إنها عملية واحدة ، ولكل من هؤلاء دوره فيها .

فهل يكون الحد واحداً لجميع أطرافها ، إنْ وُضع لهذه الجريمة حد ؟ أم أن يكون لكل طرف من الأطراف الأربعة الحدُّ الذى يناسب دورَه فيها ؟

إن قيل بأن تكون العقوبة واحدة لهؤلاء جميعاً ، تكون قد سوّت بين الظالم والمظلوم ، وبين من أغواه الجشع وحب المال ، ومن دفعه الفقر وألجأته الحاجة ، حتى صار كالمضطر !

ثم إن الشاهدين والكاتب لم يأكلوا الرِّبا ولم يُؤَكّلوا ، فهل يسوّون بمن أَكَلَ أو أكّل ؟ لامحل للمساواة إذن فى العقوبة هنا .

وإن قيل : تقع العقوبة على قدر الجرم الذى تلبس به كل من المشتركين فيه . . قيل إن فى هذا تهويناً من شناعة الجريمة ، لأنها جريمة أعلن الله فيها الحرب ، على أطرافها جميعاً وإن أدنى عقوبة لمن اشتبك فى حربٍ مع الله ينبغى أن يكون أقصى عقوبة عرفت فى الحدود ، وهى القتل ، أو الرجم . . فبم يعاقب من هم أكثر التصاقا بهذه الجريمة ، وأشد وزراً فيها ؟ وهل بعد القتل

أو الرجم عقوبة ؟ إذن فلا سبيل إلى المساواة ! وإذن فلا مكان لوضع عقوبة عادلة تأخذ هذه الأطراف .. كلاً بحسب ذنبه !

رابعاً : إذا قيل إن هذه الجريمة ، وقد بلغت مابلغت من الشناعة والظلم . . لم لايكون القتل حدًّا من حدودها . . يقال على الأقل صاحبَ المال ، وهو المرابي ؟ ثم يكون التعزير لآكل الربا (المدين) ثم للشاهدين والكاتب .

إذا قيل هذا . . قيل : إن الجريمة أكبر من القتل ، وأكبر من أن ينال مقترفها شرفَ التطهير بإقامة حدٍّ من حدود الله عليه .. ولكن عذاب السعير هو العقاب الذى يُنزِل كل واحد من هؤلاء المشتركين فى هذه الجريمة — منزله من النار ، وفى النار منازل ، ودركات !

خامساً : إن معركة المال بين الأغنياء والفقراء ، هى معركة الحياة الدائمة المتصلة .. وهذه المعركة لا ينفع فيها عقاب مادى ، ولا يخفف من طغيانها . . لأن المال شهوة قائمة فى النفس لاينطفىء سُعارها إلا إذا بللتها قطرات من ينابيع العطف والرحمة والمحبة ، ينضح بها ضمير حىّ ، ووجدان سليم .

إن الضمير وحده هو الذى يمكن أن يُفاء إليه فى تسكين هذه الشهوة الصارخة لحب المال .. ومن هذه الجهة يجىء الأمل فى القضاء على جريمة الرّبا ، أو الحد من نشاطها .

ولهذا ترك الإسلام العقاب المادى لهذه الجريمة الغليظة ، واتجه إلى الضمير الإنسانى ، يخاطبه ، ويبعث فيه مشاعر الخير والرحمة والمودة . . فإذا لم يكن ثَمّةَ ضمير يَنْدَى به قلب الغنىّ عطفاً ورحمة على الفقير ، فيقرضه قرضاً حسناً ، أو ثمة ضمير يعفّ به الفقير عن هذا المورد الوبيل — إن لم يكن ثمة هذا الضمير أو ذاك ، فلا قيمة لوازع السلطان أمام سلطان المال وطغيانه ، وإزاء ضراوة الحاجة وقسوتها .

ولهذا ختم الله سبحانه وتعالى آية الربا ، بالحث على مراجعة النفس فيما هى مقدمة عليه بارتكاب هذا المنكر ، ومايتنظرها من حساب يوم القيامة . . وفى هذا يقول الله تعالى : « واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفّى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون » .

فهذه المراجعة إن صادفت قلباً سليما ، ونفساً مهيأة للخير ، عدَلت بها عن هذا المورد الوبيل ، وساقتها إلى موارد البر والخير ، والتعفف والصبر[1] وإلاَّ فلا دواء لهذا الداء إلاَّ ما أعد الله لأهله من عذاب السعير .

مبحث فى الدَّيْن

توثيقه والإشهاد عليه

الآية : (٢٨٢)

« يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ... (٢٨٢)

حرّم الله سبحانه القرض بالرِّبا ، ورغّب فى القرض الحسن ، المراد به وجه الله ، وفك ضائقة ذوى الحاجة ، فذلك عمل مبرور يجزى الله عليه الجزاء الحسن .

(١) انظر هذا البحث فى كتابنا : « السياسة المالية فى الإسلام » ص ٢٤ وما بعدها تجد بحثاً وافياً فى هذا الموضوع .

ولأن عملية القرض عملية إنسانية ، تنبع من عاطفة كريمة رحيمة ، فقد حرص الإسلام على أن يثبّت دعائمها ، وأن يحرسها من الآفات التى تشوّه معالمها ، وتفسد الجوّ الذى تتنفس فيه .

ففى النفوس ضعف ، وفى القلوب مرض ، وفى الناس نكران للمعروف ، وجحود للإحسان .. وقد تتوارد هذه الآفات جميعها على عملية القرض ، فتجعله مصدر عداوة وبغضاء ، بعد أن كان باب تواصل وتراحم وتوادّ . . فقد يجحد المَدين أصل الدَّين ،أو يجحدَ بعضه ، أو يقع سهو أو نسيان فى أصل الدين .. عند كل من الدائن والمدين .. وكل هذا يوجد شقاقاً ، ويوقع عداوة !

لهذا أمر الإسلام على وجه الإرشاد والنصح أن يُكتب الدَّيْن ، وأن يُشهد عليه .. فقال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ » فكما تُعرف قيمة الدين ، كذلك ينبغى أن يُعرف الأجل الذى يؤدَّى فيه إلى صاحبه ، إذ أن تجهيل الوقت الذى يُردّ فيه الدين ، وتركه مفتوحاً لتقدير المدين ــ يفتح باباً واسعاً للمماطلة والتسويف ، مما يدعو إلى المشاحنة والعداوة ، فى أمرٍ ينبغى أن يُصان عما يدعو إلى المشاحنة والعداوة ، وأن يخلص للبر والإحسان !

وقوله تعالى : وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ » أى ليقم بين الدائن والمدين من يكتب لهما الدين وأجَلَه ، وليشهد عليه .. وذلك إذا لم يكن الدائن والمدين معاً ممن يحسنون القراءة والكتابة ، فإذا كان أحدهما يحسنهما أو كانا معاً لا يحسنانهما فليقم بينهما كاتب عدل ، يكون منهما بمنزلة الحَكم .

وهو أمر موجه إلى من يحسنون الكتابة أن يقوموا بهذه المهمة إذا دُعوا إليها .. والأمر لا يكون إلا حضورياً ، يخاطب به من يراد منه الأمر ، وقد

وُجّه الأمر هنا إلى غائب ، وذلك أنه لاغائب عن علم الله وقدرته ، فكل غائب هنا حاضرٌ فى علم الله .. فكل كاتب موجود أو سيوجد ، ماثل بين يدى الله ، ومخاطب بهذا الأمر .

وقوله تعالى : « وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ » هو نَهْى لمن يعرف الكتابة أن يمتنع عن كتابة الدين إذا دُعى إلى كتابته ، فقد أنعم الله عليه بأن علّمه مالم يكن يعلم ، فلينفق من هذا الرزق الذى رزقه الله إياه ، فى سبيل الخير ، فذلك من زكاة هذه النعمة .

وكما أن الأمر لايتجه إلى غائب ، كذلك النهى لا يكون لغير حاضر .. وكما قلنا ، فإنه لاغائب فى علم الله ، فالله سبحانه وتعالى يأمر وينهى الحاضرين والغائبين .. فى نظرنا ، والجميع حاضر بين يدى الله ، واقع تحت علمه .

قوله تعالى : « فليكتبْ » أمر آخر ، بالكتابة ، يتوجه إلى من يحسنها ، ويؤكد الواجب المدعوّ إليه فى تلك الحال ، فإن تخلّى عنه كان ذلك منه عصيانا عن عمد ، وتحدّ صريح لأمر الله ، الذى بلّغه فى أبلغ بيان وآكده .. بالأمر به ، ثم بالنهى عن مخالفته ، ثم بالأمر به مرة أخرى ..

وقوله تعالى : « وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ » ، هذا بيان لحق المدين فى توثيق الدين .. فبعد أن دعا الله سبحانه وتعالى كلاًّ من الدائن والمدين أن يكتبوا الدين ، ثم دعا إليهما من يكتب لهما — أمر المدين أن يُملل أى يملى على الكاتب المال الذى استدانه ، والأجل المتفق على أدائه فيه ، ليكون ذلك بإقراره ، الذى يتعلق بذمته ، وذلك بحضور الدائن ، ومصادقته على مايمليه المدين ، أو يستمليه منه الكاتب .

وقوله تعالى « وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً » هو أمر توجيهى المدين

بأن يتقى الله ربّه فى هذا المال الذى صار وديعة فى يديه ، وأمانة فى ذمته ، إلى أن يؤديه ، كما أخذه ، محمولا إلى الدائن بيد الشكر وعرفان الجميل ، وألا يبخس من هذا المال شيئاً ، إذ ليس ذلك من صنيع الكرام إلى من أكرمهم وأحسن إليهم ، وذكر الاسم الكريم « ربّه » بعد ذكر لفظ الجلالة « الله » تذكير المدين بربوبية الله له بعد تذكيره بألوهيته ، فيستحضر بذلك عظمة الله وجلاله كما يذكر نعمه وآلاءه ، ويذكر مع هذا أن من نعم الله على المدين أن يسر له أمره العسر ، وفرج كربه على يد عبد من عباده ، هو الدائن ، وتلك نعمة من نعم الله ، يجب على المدين أن يرعاها ، وأن يحرص على شكرها ، بأدائها إلى أهلها ، فى سماحة ويسر وشكر .

قوله تعالى « فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ » (٢٨٢) أى فإن عرض للمدين مايمنعه من أن يتولّى بنفسه إملاء الدين والإقرار به ، بأن كان سفيهاً محجوراً عليه ، أو صغيراً ، أو أبكم أو أصم ، أو نحو هذا مما ينقص من أهليته وقدرته ، فليتولّ ذلك عنه وليّه ، أو وصيّه ، فيستدين له ، ويقرّ بالدين الذى استدانه ، متوخياً فى ذلك العدل ، فلا يقر بأكثر أو أقل مما استدانه .

قوله تعالى : « وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى » (٢٨٢)

أى فإذا كُتب الدين بحضور المتداينيْن ، وأقر المدين أو وليه بما كتب الكاتب ، فليَشْهد على ذلك شاهدين عدلين من الرجال ، أو رجل وامرأتان .

وفى قوله تعالى : « واستشهدوا شهيدين » إشارة إلى تخيّر الشاهدين ، والتماس الصفات الطيبة فيهما ، فليس كل من حضر مجلس العقد كان صالحاً للشهادة ، قادراً على تحملها ، بل يجب أن يكون ذلك بعد طلب ، وبحث ، فقوله تعالى : « واستشهدوا » أى اطلبوا شاهدين ، وفى قوله تعالى : « ممن ترضون من الشهداء » أى ممن رأيتم فيهما ، الاستقامة والسلامة ، من بين أهل الاستقامة والسلامة .

وقوله تعالى : « أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى » معدول به عن أن يقال : « أن تَضلَّ إحداهما فتذكرها الأخرى » حيث يبدو معناهما واحداً ، وهو أنه إذا ضلّت إحدى المرأتين عن الحقيقة التى شهدت عليها ، ذكرتها الأخرى بهذه الحقيقة ، وأعادتها إلى الصواب .

واللفظ القرآنى — فى ظاهره — فيه إطناب وتكرار ، ولا يكون ذلك إلا لمعنى زائد ، وإلا لغرض مُراد ، لايحققه غير هذا اللفظ القرآنى على صورته تلك . . فماذا هناك ؟

لم يعرض القرآن الكريم للرجلين ، إذا ضل أحدهما وأنكر ما شهد عليه ، كما لم يعرض للرجل مع المرأتين . . إذا ضل عما شهد عليه . وإنما عرض للمرأتين فقط ، وماقد يقع من إحداهما . . فما وجه هذا ؟

نقول — والله أعلم — : إن الشهادة أمانة تحمّلها الشاهد ، وقَبِلَها طائعاً مختاراً ، حِسْبةً لوجه الله . . فإذا غيّر الشاهد وبدل فيما شهد عليه ، فليس لأحد عليه من سبيل ، وحسابه عند ربّه ! سواء أكان الشاهد رجلا أو امرأة .

ولكن لما كانت المرأة أقرب إلى السهو والنسيان من الرجل بسبب مايعرض لها من أحوال جسدية ، من حمل وولادة ، ومن هزّات عاطفية ، فى

قيامها على شئون صغارها وما يعرض لهم ـ لما كانت المرأة على تلك الصفة هذا فإن استشهادها لم يكن إلا لضرورة ، وذلك حين لم يكن ثمة أكثر من رجل واحد يصلح للشهادة ! وهنا تقوم المرأتان مقام الرجل الآخر المطلوب للشهادة .

ولما كان الضلال عن طريق الحق فى جانب المرأتين ليس مقصوراً على إحداهما دون الأخرى ، بل هو قدر مشترك بينهما ، فقد تَذْكُرُ إحداهما بعضَ ماشهدت عليه وتنسى بعضاً ، كأن تذكر أن الدين قدره كذا وتنسى الأجل المضروب له ، أو تذكر أين كان مجلس العقد وتنسى زمانه ، أو يختلط عليها الأمر فى من هو الدائن أو المدين .. على حين تذكر الأخرى مانسيته الأولى ، وتنسى ماتذكره صاحبتها . . وهكذا تكمل إحداهما الأخرى ، فيأتيان بالشهادة على وجهها الصحيح ، أو على ماهو أقرب إلى الصحيح !

فالمراد بالضلال هنا الحَيْدَة عن الواقع ، بسبب سهو أو نسيان ، كما يضلّ السائر طريقه إلى الغاية التى يقصدها .

وقوله تعالى : « وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا » (٢٨٢) أمر موجه إلى الشهود بأداء الشهادة إذا ما دعوا إلى أدائها عند الحاجة إلى شهادتهم ، وبهذا يتحقق الغرض المقصود من توثيق الدين ، والإشهاد عليه .

وفى التعبير عن الشهود بلفظ « الشهداء » الدال على علو القدر وشرف المنزلة — احتفاء بالشهادة وتكريم عظيم للشاهد ، إذا كان أهلا لحمل الأمانة ، وموضعَ ثقة بين الناس ، حيث ائتمنوه ، ورضوا به حَكَمَ عدلٍ بينهما ، ففى كلمته التى يشهد بها مقطع الحق .

وقوله تعالى : « وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا » (٢٨٢) .

هو تحذير من التهاون فى توثيق الدين أيًّا كان قدره ، فقد يستخف بعض الناس بشأن الدين ، حين يكون قليلا ، فلا يكتبه ، ولا يحدد له أجلا ، وهذا من شأنه أن يفتح باباً للخلاف ، ثم الشقاق والعداوة .

وكتابة الدين أيًّا كان قدره هو العمل المبرور عند الله ، لأنه قائم على العدل والإحسان ، ولأنه هو الذى يضبط الشهادة ويقيمها على وجهها الصحيح ، إذا اختلف الشهداء فيها ، ولأنه من جهة ثالثة يبعد الريب والشبهات ، حيث يرجع المتداينين إلى ما كُتب ، وضبط .

وقوله تعالى : « إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ » (٢٨٢)

استثناء من الحكم العام المأمور به فى كتابة الدين .

ففى عملية البيع والشراء ، حيث تكون البضاعة حاضرة ، والثمن حاضراً معجلاً ، وحيث تسلّم البضاعة ويُقبض الثمن فى مجلس البيع ــ فى هذه العملية لا تكون الكتابة ضرورية ، إذ لا غَناء لها ، ولا معوّل عليها بعد أن يتم تسليم البضاعة وقبض الثمن .

وقوله تعالى : « تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ » إشارة إلى فورية التسليم والقبض ، وتبادل البضاعة وثمنها بين البائع والمشترى .

وقوله تعالى : « وأشهدوا إذا تبايعتم » أمر توجيهى بأن يكون البيع والشراء بحضور شاهدين ، ذلك أنه إذا لم يكن للكتابة أثر فى عمليه البيع الحاضر ، فإن للشهود أثرهم فى حسم ما قد يقع بين البائع والمشترى من خلاف ، فى مجلس البيع . كأن يختلفا فى الشىء المباع ، كميةً ، أو عدداً ، ونحو هذا ، أو أن يختلفا فى الثمن الذى تراضى به كل منهما ، فيكون للشاهدين الكلمة الحاسمة فى هذا الخلاف .

وقوله تعالى : « وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ » (٢٨٢)

حماية للكاتب ، وللشاهدين من أن يلحقهما أذًى فى هذا العمل الذى أدّياه حسبة لوجه الله .

فالكاتب والشاهد فى العقود المبرمة بين المتعاقدين يؤديان عملاً إنسانياً ، حسبةً لوجه الله ، ومن الظلم أن يمسَّهما سوء أو ينالهما أذى من أجل هذا العمل الذى يقومان به ، وإلاّ زهد الناس فى هذا العمل المبرور ، إذا لم تُيسر سبله ، ولم يُمط عنه كل أذى .

لهذا جاء قول الله تعالى : « وَلاَ يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلاَ شَهِيدٌ » حمايةً للإحسان والمحسنين من أن يكدر صفو الإحسان ، وأن يساء إلى أهله بأى لون من ألوان الأذى المادىّ أو الأدبىّ .

وقوله تعالى : « وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم » تحذير للدائنين والمدينين ، والبائعين والمشترين ، ولكل طرف من الطرفين المتعاقدين فى أية عملية يضبطها عقد ويشهد عليها شهود ـ تحذير لهؤلاء جميعاً من أن ينال الكاتب أو الشاهد أذى منهم ، فإن فعلوا كان ذلك فسقاً منهم ، وخروجاً على سنة العدل والإحسان ، وتعدياً على حدود الله .

وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (٢٨٢)

هذا أمر عام بتقوى الله ، ومراقبته ، والوفاء بأوامره ونواهيه على الوجه الأتم الأكمل .. وتقوى الله مطلوبة هنا فيما بيّنه الله تعالى من أحكام ، وأوضحه من معالم ، ورسمه من حدود فى عملية الدين ، وفى البيع والشراء ، فإنه إذا كانت

تقوى الله بمحضر من قلوب المتعاملين هنا ، استقام أمرهم ، وسلم لهم دينهم ودنياهم جميعاً .

آية : (٢٨٣)

قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ » (٢٨٣)

التفسير : تبين هذه الآية حكماً من أحكام الدين ، وذلك حين يكون المتداينين على سفر ، وليس هناك من كاتب يكتب لهما ، كما أمر الله فى الآية السابقة ، والحكم التعليمى هنا هو أن يقدّم المدين ليد الدائن رهناً يضمن دينه ، وبذلك لايكون هناك سبيل للمدين أن يماطل أو ينكر ، فإن ماطل أو أنكر كان فى يد الدائن مايفى بدينه ، وهو الرهن المقبوض .

قوله تعالى : « فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ » وذلك حين لايكون فى يد طالب الدين مايقدمه لمن يطلب الاستدانة منه كرهينة لما يستدينه .. فى هذه الحال يترك الأمر لتقدير الدائن ، فإن أمِن المدينَ ، واطمأن إلى سلامة دينه ، واستشعر الوفاء بدينه ، داينه ، وجعل هذا الدين أمانة فى ذمته ، يؤديه إليه فى الأجل المحدد له ، على أن يُشهد على هذا الدين .

وقوله تعالى : « فليؤدِّ الذى اؤتمن أمانته » أمر إلزامى للمدين الذى ائتمنه الدائن ، ولم يكتب دينه ، ولم يكن فى يده رهن مقبوض فى مقابله — أمر إلزاى له أن يؤدى ما ائتمن عليه ، فإن خيان الأمانة هنا جرم غليظ ، إذ حكم

الدائن على نفسه،أنه غير أهل للثقة ولا مستأهل للجميل ، الأمر الذى يجور على انسانيته ، ويذهب بمروءته .

وقوله تعالى : « وليتق الله ربّه » تذكير للمدين أن يفىء إلى تقوى الله إذا حدثته نفسه بجحْد الدين أو المماطلة فيه ، فإن الله له بالمرصاد ، إن أحسن أحسن الله إليه،وإن أساء أخذه بذنبه . « إن أخذه أليم شديد» (١٠٢ : هود) .

وقوله تعالى : « ولا تـكتموا الشهادة ومن يكتُمْها فإنه آثمٌ قلبُه » تحذير للشهود — فى جميع الأحوال — أن يكتموا ما استُشهدوا عليه ، فإن الشهادة أمانة ، وجحودها ، خيانة للأمانة .

وقوله تعالى : « فإنه آثم قلبه » إشارة إلى أن الإثم قد استولى على قلبه الذى كان مستودَع الشهادة ، وإذ كتمها صاحبها فى قلبه ، وأبى أن يرسلها حين طلب إليه أداؤها إلى أهلها ، فقد علقت بقلبه ، ورانت عليه ، وتغير وجهها ، واصطبغ بصبغة الخيانة والإثم .

وقوله تعالى : « والله بكل شىء عليم » أى مطلع على ماضُمّت عليه القلوب ، وما أعلنته أو أخفته .

الآية : (٢٨٤)

« لِلّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَآءُ واللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٢٨٤)

فى الآية استعراض لقدرة الله،وبَسْطة سلطانه،وعظمة قدرته ، وسعة علمه . . وفى كل هذا يرى المؤمنون بالله ؛ أنهم إنما يتحركون ويعملون فى مجال القدرة

الإلـهية ، وتحت سلطانها ،لايخفى على الله منهم شيء . . .

وقوله تعالى : « وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله . » هو خطاب للشهود ، وتحذير لهم من أن يكتموا الشهادة ، فإن أبدوا مافى أنفسهم مما استشهدوا عليه ، أو أخفوه وكتموه ، فإن الله بهم عليم ، وهو محاسبهم على خيانتهم الأمانة ، وكتمانهم الشهادة .

وقوله تعالى : « فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » بَسطٌ من الله تعالى ليده ، التى تنال برحمتها ومغفرتها أولئك العصاة ، الذين كتموا الشهادة ، فيغفر الله لمن شاء منهم ، ويعذب من يشاء ، يغفر لمن يشاء كرماً وفضلا ، ويعذب من يشاء حقاً وعدلا . . وذلك مايشهد له قوله تعالى : « نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » (٥٦ : يوسف) فرحمة الله عامة شاملة ، تنال المحسن والمسيء ، والبرّ والفاجر .. كما يقول سبحانه : « رحمتى وسعت كل شيء ..» (١٥٦ : الأعراف ..) أما إحسان المحسنين فهو فى ضمان الله ، لن يضيع أبداً !

الآية : (٢٨٥)

« آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » (٢٨٥)

التفسير : يخبر الله سبحانه وتعالى بإيمان الرسول بما أُنزل إليه من ربّه ، أى بالقرآن الذى أنزل عليه ، وبما حمل هذا القرآن من أحكام وآداب ، كما

يخبر سبحانه بإيمان المؤمنين الذى اتبعوا النبى ، على نحو الإيمان الذى آمن به النبىّ .

وليس الإخبار بإيمان النبىّ والمؤمنين لمجرد الإعلام بمضمون هذا الخبر ، وإنما لمـا ينكشف وراء هذا الخبر من الصورة التى كان عليها إيمانهم ، فهذا الإيمان قائم على دعائم ، هى : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، دون تفرقة بين أحد من رسله ، فهم جميعاً حَمَلة رسالة الله إلى عباده ، يعملون لغاية واحدة ، هى هداية الناس إلى الله ، وإقامتهم على صراط الله ، ودين الله.. والتفرقة بينهم تفرقة للحق الذى جاءوا به ، والحق وجه واحد ، وطريق واحد ، لا تختلف مناهجه ، ولا تتفرق سبله .

ومن تمام هذا الإيمان أيضاً ، السمع والطاعة لله ولرسوله ، والإنابة إلى الله فى العثرات والزلات .

وقوله تعالى : « لا نفرق بين أحد من رسله » هو مقول لقول محذوف يدل عليه القول فى قوله تعالى : « وقالوا سمعنا وأطعنا » أى قائلين لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا . »

وفى هذا كله تعريض بأهل الـكتاب ، وخاصة اليهود ، الذين فرّقوا دين الله ، فآمنوا ببعض الـكتاب وكفروا ببعضه ، وعزلوا رسل الله بعضهم عن بعض ؛ كما عزلوا هم أنفسهم عن المجتمع الإنسانى كله .

الآية : (٢٨٦)

« لَا يُـكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْـكَافِرِينَ » (٢٨٦)

التفسير : التكاليف التى حملها رسل الله إلى الناس ، إنما هى لإصلاح معاشهم ومعادهم ، وإقامتهم على طريق مستقيم ، تطيب لهم فيه الحياة ، حيث تجمعهم الأخوة والمودة ، ويؤلف بينهم العدل والإحسان .

وهذه التكاليف ليس فيها إعنات ولا تحدٍّ لقدرة الإنسان وقوة احتماله ، وإلا كانت ضرباً من النكال ، ولوناً من العقاب ، الأمر الذى جاءت رسالات السماء على خلافه .. فما هى إلا رحمة من رحمات الله ، وفضل من أفضاله على عباده ، تفتح لهم مغالق الخير ، والحق ، والهدى .

وقوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » هو البيان المبين لحقيقة الشرائع السماوية ، وأنها المنهج التربوى السليم ، لإصلاح أمر الفرد والمجتمع ، وهى الغذاء الروحى والنفسى والعقلى للإنسان .. وإذ كان هذا شأنها فإنها لم تجىء إلا بما تتقبله النفوس السليمة ، وتستجيب له ، وتتفاعل معه ، وتسعد به .

وإذ كانت أحكام الشريعة عامة للناس كلهم ، عامتهم وخاصتهم على السواء ، وإذ كان الناس على درجات متفاوتة ، فى القوة والضعف ، وفى الصحة والمرض ــ فإن مما قضت به الحكمة فى ذلك أن جاءت الشرائع السماوية ــ وخاصة شريعة الإسلام ــ على مستوى الوسط للقدرة الإنسانية ، بمعنى أن مَن فوق هذا المستوى تتسع قدراتهم لأكثر من تكاليف الشريعة ، على حين أن من دون هذا المستوى لاتضيق نفوسهم به ، وإن وجدوا فيه شيئاً من العَناء والجهد .

هذا فى مجال الإنسانية كلها . أما فى خاصة حياة الفرد من الناس ،

فإن الشريعة قد راعت الظروف الخاصة التي تعرض للإنسان ، والضرورات التي تتحدّى قدرته ، فوضعت لتلك الظروف وهذه الضرورات أحكاما خاصة ، موقوتة بوقتها ، ومقدورة بقدْرها ، فأباحت المحظورات عند الضرورات ، ودفعت الحرج عن الضعفاء ، والمرضى ، والمسافرين ، فرفعت عنهم بعض الأحكام ، رفعاً جزئياً أو كلياً ، بصفة مؤقته أو دائمة ، وبهذه الأحكام الاستثنائية الواردة على الأحكام العامة ، يُرفع الحرج عن المؤمنين بالله ، الحريصين على الوفاء بأحكام شريعته . . وهذا من رحمة الله بالناس ، ولطفه بعباده : « وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٢٠ : البقرة) .

ثم إن في قوله تعالى : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » . ما يجعل إلى الإنسان نفسه عند التطبيق العمليّ لأحكام الشريعة ، أن يردّها إلى قدرته واحتماله ، فما خرج منها عن قدرته ، وجاوز احتماله ، فقد تجاوز الله عنه ، ورفع عنه الحرج فيه ، شريطةَ أن يكون ذلك عن نية صادقة في الامتثال لأمر الله ، ورغبة خالصة في مرضاته ، بمعنى أن يحاول الإنسان أداء المطلوب صادقاً مخلصاً ، فإن عجز أو قصّر فرحمة الله ان تضيق به ، ولن تقيمه على الضر والأذى : « لا يكلّف الله نفساً إلا وسْعها » .

وقوله تعالى : « لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ » الكسب هنا غير الاكتساب . . فالكسب للحسنات والأعمال الصّالحة ، والاكتساب للسيئات والأعمال السيئة . . وفي لفظ الكسب خفة ، ولطف ، واستقامة على اللسان ، على خلاف لفظ الاكتساب وما فيه من ثقل ، وقلق واضطراب . . « كسبت » و « اكتسبت » !

ولفظ « لها ما كسبت » يفيد الملكية ، التي تقضي المالك بالانتفاع بما ملك ، والتصرف فيه بما ينفعه ، وذلك واقع فيما يكسبه الإنسان من حسنات ،

وما يعمله من صالحات .. إنها له ، وملك يمينه ، أما لفظ « عليها ما اكتسبت » فهو يدل على إلقاء أعمال وأعباء على كاهل المكتسب ، تنقض ظهره ، وتقيد خطوه ، فلا يبلغ غاية ، ولا يحقق أملاً .

قوله تعالى « رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » . من رحمة الله بنا وألطافه علينا — أتباعَ هذه الملة السمحاء — أن دعانا إلى أن ندعوه بهذا الدعاء ، الذى صاغه سبحانه من كلماته، وجعله سبحانه للملائكته ولعباده الصالحين ، يسبّحون له ، ويدعون لنا به . . بل إنه سبحانه وتعالى يأتمنا بهذا الدُّعاء ، ويصلى علينا به ، ونحن نقول بما يقول ، ونصلّي بما يصلّي . . فما أكثر رحمة الله بنا ، وما أوسع فضله علينا .. إذ تقبّل دعاءنا قبل أن ندعو ، واستجاب لنا قبل أن نكون ! فقد رفع الله عنا الخطأ والنسيان ، كما أخبر الرسول الكريم فى قوله : « رُفِعَ عن أمّتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » كذلك عافانا مما ابتلى به أمماً قبلنا .. كأمة اليهود ، الذين ابتلاهم الله بضروب شتى من البلوى ، وحمّلهم من التكاليف ما أعنتهم وأرهقهم ، عقاباً لهم ، ونكالاً ، جزاء كفرهم بآيات الله ، ومكرهم بنعمه ، وفى هذا يقول سبحانه : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » (١٦٠ : النساء) ويقول سبحانه : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » (١٤٦ : الأنعام) .. لقد عافانا الله من هذا الامتحان

القاسى ، فلم يأخذنا بذنوبنا ، ولم يحملنا من التكاليف مالا نطيق ، وجعل لنا باب التوبة مدخلا نثوب به إليه ، ونقترب منه ، بعد أن بعدنا بذنوبنا عنه ، إذ نضرع إليه قائلين : « رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ » .

وإنى لأحبّ أن أفهم قوله تعالى : « رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ » . على أنه — مع كونه دعاء مطلقا يدعو به المسلم فى كل وقت — هو تعويذة يلوذ بها المذنبون الذى تغلبهم أنفسهم ، وتقهرهم أهواؤهم فيقترفون ما اقترفوا وهم فى هذا الضعف النفسى المستولى عليهم ، فهم — والحال كذلك — قد وُجدوا أمام أمر لا طاقة لهم به ، وهم لذلك فى استخزاء ، وفى حسرة وندم ، لا يجدون إلا وجه الله يبسطون أيديهم إليه أن يعينهم على أنفسهم ، فيقوّى من إيمانهم ، ويشد من عزائمهم ، فى هذا الصراع الدائر فى كيانهم ، بين الإقدام على المعصية والإحجام عن مواقعتها ، حتى ينتصروا على أنفسهم وينتهوا عمّا نُهوا عنه ..

وفى ختم هذا الدعاء العظيم الشامل بقوله تعالى : « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » إلفات للمسلمين بأن غايتهم من هذا التضرع إلى الله ، بإصلاح أمرهم واستقامة طريقهم — هو أن يكونوا آخر الأمر أهلاً لهداية الناس إلى الله ، وأن يصبحوا جبهة عاملة لنصرة الحق ، وجنداً مقاتلا فى سبيل الله ، وبهذا تقوى جبهة الإيمان ، وتضمر أو تزول دولة الكفر . . وإذ كان المؤمنون أولياء الله ، ونصراء كلمته ، فإن الله وليهم وناصرهم على عدوهم . . « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

* * *

سُورَةَ آلَ عِمْرانَ

اسمها : سورة آل عمران ، ومن أسمائها : « الزهراء » . وتسمى هى والبقرة : الزهراوَيْن .

نزولها : نزلت بالمدينة .. بعد البقرة ، والأنفال .

عدد آياتها : مائتا آية .

عـدد كلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون كلمة .

عدد حروفها : أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرون حرفاً .

* * *

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الآية : (١)

« الۤمۤ » ذكرنا فى أول سورة البقرة مايقال عن المراد من الحروف التى بدئت بها بعض السور فى القرآن الكريم .

الآيات : (٢ — ٤)

اللهُ لَآ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)

التفسير : جملة « لآ إلٰه إلاهو » صفة لله ، « والحى » صفة ثانية ، « والقيوم » صفة ثالثة .

فالله سبحانه وتعالى الموصوف بالتفرّد بالألوهية ، السرمدية الأبدية ، التى لم

يسبقها ولا يلحقها عدم،وبالقيومية المبسوط سلطانها على كل شىء ، القائم أمرها على كل شىء — هذا الإلٰه هو الذى نزل الكتاب على محمد — صلوات الله وسلامه عليه — فمن هذا المقام الكريم الذى لايُطاوَل ولا يُسامَى كان متنَزَّل هذا الكتابُ الكريمُ، الذى يقول فيه المشركون والمنافقون — زوراًوبهتاناً — إنه من معطيات محمد، تلقاه من أصحاب العلم من أهل الكتاب ، ولَقِنَه من مدارسة الدارسين .. كما حكى القرآن الكريم ذلك عنهم فى قوله تعالى : « إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ » (١٠٣ : النحل) وقوله سبحانه : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فهى تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً » (٥ : الفرقان)

وقد جاء هذا القرآن بالحقّ الذى لا مِرية فيه ، لأنه من ربّ العالمين ، جاء مُصدقاً لما سبقه من الكتب السماوية ، لأنها جميعها من مصدر واحد ، جاءت من الحق بالحق كما يقول سبحانه : « وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ » (١٠٥ : الإسراء)

والله سبحانه الذى أنزل القرآن بالحق ، هو الذى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدًى للناس ، وأنزل الفرقان أى القرآن كذلك هدًى للناس .

فالذين يكفرون بآيات الله التى أنزلها الله على رسله ، وأودعها كتبه ، لهم عذابٌ شديد ، أعده الله لهم يوم القيامة ، ولن يعصمهم من الله عاصم — ولن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، «والله عزيزٌ » عزّ سلطانه ، وقد اعتز هؤلاء السفهاء بسفههم ، فتطاولوا على حماه ، وكفروا بآياته ، واستخفوا بها . « ذوانتقام » يأخذ بنقمته من استخف بعزته !

وفى الآيتين الكريمتين مسائل ، منها :

أولاً : قوله تعالى : « نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ » فيه إشارة إلى أن القرآن

الكريم نَزَّل منجماً أى مفرقاً ، يدل على هذا شاهد التاريخ ، كما يدل عليه هذا اللفظ « نَزَّل » الذى يفيد الحركة والتفرق ، بخلاف « أنزل » الذى يدل على الثبوت والوحدة .

ثانياً : قوله تعالى : « مُصَدِّقاً لِمَا بين يديه » لم تُذكر الكتب التى بين يدى القرآن ، وإن كان المراد بها التوراة والإنجيل ، وذلك الإطلاق إنما ليشمل جميع الكتب والصحف المنزلة على الأنبياء جميعاً . ما بقى منها وما لم يبق ، وما ذكر وما لم يذكر ، لأنها جميعها من مورد الحق، يصدّق بعضها بعضاً .

وإذا نظرنا إلى الكتب المنزلة ، حسب واقعها التاريخىّ نجد أن القرآن الكريم هو الذى بين يدى الكتب السماوية ، وليست هى التى بين يديه ،لأنه جاء إلى هذا الوجود تالياً لها ، لا سابقاً عليها .

ولكن الكتب السماوية ليست أحداثاً حادثة ، وإنما هى وقائع فى علم الله ، موجودة من الأزل ، شأنها شأن جميع ما فى علم الله،وظهورها وانكشافها لنا يجىء موقوتاً بإرادة الله مقدوراً بحكمته .. ففى سير الأحداث من سجل الغيب وظهورها على مسرح حياتنا ، نجد أن الكتب السماوية جميعها تقدمت القرآن الكريم ، واحداً واحداً ، والسابق منها بين يدى اللاحق ، وبهذا التقدير تقع جميعها بين يدى القرآن ! وليس الأمر كذلك فى حركة التاريخ ، حيث تطوى الأحداث التى تجدّ ، فكل حدث جديد فى هذه الحركة يمشى على آثار الحدث الذى مضى ، ويخلّفه وراءه . .

وحركة الزمن ليست على تلك الصورة ، إنها حركة واحدة ، أشبه بحركة القطار . . والأحداث محمولة على جزئيات هذا الامتداد الزمنى ، كما يُحمل الأشخاص والأشياء فى عربات القطار ، والمتقدم منها يظل دائماً متقدماً بين يدى المتأخر !

وننظر إلى القرآن الكريم فى هذا الوضع فنجده وقد أخذ مكانه من الكتب السماوية ، كمصدر إشعاع لها ، ومركز انطلاق لكلمات الله منها ، يرسل كل حين شعاعات من نور الله ، إلى عباد الله على يد رسل الله ، ويقدمها بين يديه ، وكأنها تمهد له الطريق ، وتهيء له الأفق الذى يستقبله ، حين يطلع على الناس بشملته المقدسة ، ويملأ الوجود بنوره القدسىّ . .

وعلى ضوء هذا التصوّر يمكن أن نفهم قول الله تعالى :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عليه » (٤٨ : المائدة) .

فهذه الهيمنة إنما تكون لقوة هى مصدر لتلك القوى النابعة منها ، المستندة إليها ، فيكون لها بهذا الوضع مكان الرقابة عليها ، والضبط لخط سيرها . .

ثالثاً : ومن الهيمنة التى للقرآن على الكتب السماوية التى بين يديه أنه هو المصدِّقُ لها ، الشاهد الذى تُرى فى أضوائه وفى أحكامه ، وأخباره وآدابه — آياتُ صدقها ، وأنها من مورد هذا الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إذ ليس بعد شهادة القرآن شهادة ، ولا وراء الحق الذى يقوله حق ، وإنه سيظل قائماً هكذا إلى يوم القيامة ، معجزةً تتحدى الناس جميعاً ، أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله ، . .

« وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (٢٣ : البقرة)

ومن كان هذا شأنه ، وذلك إعجازه فله أن يقول ، وعلى الناس أن يسمعوا ، وله أن يحكم ، وعلى الناس أن ينزلوا على حكمه ، طوعاً أو كرهاً . .

رابعاً : قوله تعالى : « وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ » بعد قوله تعالى : « نَزَّلَ

عَلَيْكَ الْكِتَابَ » . وذلك لاختلاف المقامين ، فالله سبحانه هو الذى أنزل الفرقان، ونسبة هذا الخبر إلى الله سبحانه وتعالى هنا هي نسبة مجردة ، لا يراد بها غير إثبات الحكم الذى تضمنه الخبر ، وهو أنه تعالى هو الذى أنزل القرآن .. أما الخبر فى قوله تعالى « نزل عليك الكتاب » فليس مرادًا به مجرد النسبة إلى الله تعالى ، بل وبيان الصورة التى نزل عليها الكتاب الكريم ، وأنه نزل على النبى مفرقًا ولم ينزل جملة واحدة .

الآيتان : (٥ ، ٦)

« إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (٦)

التفسير : هنا استعراض لقدرة الله ، وكشف لمظاهر هذه القدرة ، فيما أبدعت وصورت ، من آيات مبثوثة فى ملكوت السموات والأرض !

فهذه القدرة محيطة بكل شىء ، عالمة بكل شىء ، وهو سبحانه خالق كل شىء ، فما من شىء إلاّ وهو من فيض صنعه وتدبيره ، فكيف لا يعلم ما خلق ؟ « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » (١٤ : الملك)

ومن شواهد قدرة الله ، وسلطان علمه ، تلك العملية التى تتخلق منها الكائنات الحية ، والتى من بعض كائناتها الجنس البشرى !

فهذا الإنسان ، الذى يفور كيانه عظمةً وكبرياء . حتى ليكاد يطاول الإله فى عظمته وكبريائه — هذا الإنسان نشأ على يد القدرة ، وتنقّل فى أطوار الخلق ، من عدم إلى وجود .. وفيما بين العدم والوجود قطع مراحل طويلة ، وتقلب فى صور شتى .. من نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ، إلى عظام عارية ، إلى عظام يكسوها اللحم ، إلى كائن له سمع وبصر وشم وذوق . . كل هذا وهو فى عالم

مطبق عليه .. « فى ظلمات ثلاث » فى بطن أمه ، فإذا خرج من هذا العالم إلى عالم الناس . . تنقل فى أطوار . . من الطفولة ، إلى الصبا ، إلى الشباب ، إلى الاكتهال ، والشيخوخة ..

فأين أول الإنسان من آخره ؟ وأين النطفة من الطفل ؟ وأين الطفل من الشاب ؟ « « أَوَ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا » (٦٧ : مريم) .

وقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ » يشير إلى ما لله سبحانه من شأن ، فى تقدير خلقنا ، وتحديد أرزاقنا ، وأوضاعنا فى الحياة ، حيث اختلفت صور الناس ، وتباينت حظوظهم ، حسب إرادة الله وتقديره . . فكل إنسان منا هو عالم مستقل بذاته ، دائر فى الفلك المقدور له .

الآية : (٧)

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » (٧)

التفسير : اختلف الأئمة المفسرون فى هذه الآية ، وتضاربت آراؤهم فى مواضع كثيرة منها .. فى الآيات المتشابهة .. ماهى ؟ وما مدلول التشابه هذا ؟ ومن هم المقصودون بقوله تعالى : « الذين فى قلوبهم زيغ ؟ وهل الوقف على

لفظ الجلالة فى قوله تعالى : « ومايعلم تأويله إلا الله»؟ أم يعطف عليه قوله سبحانه « والراسخون فى العلم » ؟ وهل الواو هنا للعطف أم للاستئناف ؟

وفى الإجابة على أى سؤال من هذه الأسئلة ، عشرات من الأجوبة التى يذهب كل منها مذهباً غير مذهب صاحبه !

وندع كل هذا ، وننظر فى الآية الكريمة نظراً مباشراً ، يصافح وجهها المشرق ، ويتملّى بيانها المبين . .

ونقف قليلا عند قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله » ونطلب المعنى اللغوى لكلمة « التأويل » .

وإذ ننظر فى معاجم اللغة .. لانجد فيها مايشفى . . إذ لاتبعُد كثيراً عن معنى التفسير ، أو التخريج ، وقد يراها بعضهم هى والتفسير سواء ، فلا فرق عندهم بين التفسير والتأويل .

والقرآن الكريم — وهو الحجة على اللغة ، وليست اللغة حجةً عليه — يفرق بين التأويل والتفسير ، ويجعل لكل منهما مجالا لايعمل فيه الآخر .

يستعمل القرآن الكريم « التأويل » للأمور الخفيّة الغامضة ، التى يُخفى ظاهرُها ماضمّ عليه باطنها ، من أمور محجبة وراء هذا الظاهر .. وبين الظاهر غير المراد والباطن المراد بون شاسع ، وبعد بعيد ، لايبلغه إلا بصر ذوى البصائر ، ممن رضى الله عنهم ، ورفعهم إلى هذا المقام الكريم ، الذى يطلعون منه على ماوراء الحجب من علم الله .

ذكر القرآن الكريم أن هذا المقام الكريم — مقام التأويل — كان ليوسف عليه السلام ، فقال تعالى : « وَكَذٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » (٢١ يوسف . وقال تعالى :

« وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ » (٦ : يوسف) وقال سبحانه على لسان يوسف : « رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ (١٠١ : يوسف) وقال سبحانه على لسانه أيضاً : « يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ » (١٠٠ : يوسف) وقال تعالى على لسان صاحبي السجن « نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ » (٣٦ : يوسف) وقال سبحانه على لسان يوسف : « لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي » (٣٧ : يوسف) وقال تعالى على لسان أصحاب فرعون : « وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ » (٤٤ : يوسف) . وقال تعالى على لسان أحد صاحبي السجن ، وهو الذى نجا : « أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ » (٤٥ : يوسف) .

وكما كان ليوسف هذا العلم الذى فضل الله عليه به ، فكشف بهذا العلم ماوراء تلك الحجب من الأزمنة والأمكنة .. كان ذلك العلم أيضاً للعبد الصالح صاحب موسى عليهما السلام — والذى يقول الله تعالى فيه : « فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا » (٦٥ : الكهف) .

وفى صحبة موسى للعبد الصالح ، رأى موسى العجب فى أمور كان يأتيها العبد الصالح بين يديه ، فتجرى فى وضع مقلوب ، كما يبدو ذلك فى مستوى النظر الطبيعى للناس ، بينما هى — فى حقيقة أمرها — تسير فى أعدل وجه وأحسنه ! كما ظهر ذلك منها ، حين كشف العبد الصالح لموسى ، عما وراء هذا الظاهر غير المستقيم ، أو بمعنى أوضح ، حين كشف له عن حجاب الزمن ، وأراه مسيرتها ، والنهاية التى تنتهى إليها ، وما تؤول إليه عاقبة أمرها .

وفى هذا يقول العبد الصالح لموسى — بعد أن حجز موسى عن السير معه فى هذا الطريق — فى هذا يقول ، كما قال القرآن على لسانه : « هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » (٧٨ : الكهف)

هذا ماورد فى القرآن الكريم من لفظ « التأويل » وهو فى جميع موارده لم يُستعمل إلا فى الكشف عن أمور غامضة ، متخفية وراء سُتُر ، تحول بين الناظر إليها وبينها . . وهى — كما نرى فى سورة يوسف — أحلام .. هى رموز إلى أشياء وأحداث ، لم يستطع قراءتها وفك رموزها إلا يوسف عليه السلام .. أو هى كما نرى فى مسيرة العبد الصالح مع موسى ، أضغاث أحلامٍ من أحلام اليقظة .. لايكاد المرء يصحو ، حتى ينكرها ، وينفض أطيافها المحومة أمام عينيه .

فالتأويل على هذا هو فك طلاسم ورموز ، يقف الناس جميعاً أمامها حائرين ، ويقول فيها كل إنسان بقول ، وينظر كل ناظر إليها بنظر .. وهيهات أن يلتقى قول بقول ، أو يقع نظر على نظر ! فكل مايقال فيها هو رجم بالغيب ، إلا من علّمه الله تأويل الأحاديث !

وقد آن لنا بعد هذا أن ننظر فى الآية الكريمة :

فقوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » .

يُبيّن الأسلوبَ الذى جاءت عليه آيات القرآن .. فمنه الآيات المحكمة ، وهى التى تنطق بدلالتها نطقاً واضحاً محدداً لايقبل التخريج أو التأويل . . وهذه الآيات هى التى تحمل أحكام الشريعة.. من صلاة وصيام ، وزكاة ، وحج ، كقوله

تعالى : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » وقوله سبحانه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » وقوله : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً » . وكذلك الآيات التى تتعلق بالإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة والنار .. لأن هذه أمور إن حملها نصٌ غير واضح الدلالة محدد المفهوم ـ أوقع الناس فى لَبْس وخلاف ، وذهب كلٌّ فيها مذهباً ، ففرقوا دين الله ، وتفرقوا فيه ، وهو الذى من شأنه أن يجمعهم عليه ، وأن يجتمعوا هم على كلمة سواء فيه .

فهذا المحكم من آيات الكتاب الكريم ، يعطى دلالته ، محددة واضحة ، لأول نظرة فيه .

وهناك آيات متشابهة ، تحتمل وجوهاً من التأويل والتخريج . . وسنعرض لها بعد قليل .

وبين الآيات المحكمة والآيات المتشابهة آيات ليست من هذه أو تلك ، ليست محدّدة الدلالة ، ولا مغلقة المفهوم .. بل يمكن ـ مع النظر السليم ـ أن ينكشف مداولها ، ويتحدد مفهومها ، وذلك هو معظم القرآن ، فيما جاء فى الأخلاقيات وفى الأحكام الجزئية . ذلك أن القرآن الكريم لم يجىء على الأسلوب العلمى ، الذى يصبّ قواعد العلم ومقرراته فى قوالب لفظية جامدة ، لا تنفتح إلا على حكم واحد لا شىء بعده ، بل جاء القرآن على أسلوب أدبى رفيع ، استولى على قمة الفن الأدبى ، بلا منازع ، وهذا الأسلوب مهما كان من الدّقة والإحكام لا يمكن أن ينضبط على القالب العلمى ، ولا أن تحمل ألفاظه أحكاماً صامتة — مغلقة — مثل ما تحمل ألفاظ الأسلوب العلمى ، بل تجىء الأحكام فى هذا الأسلوب مغلّفة فى غلائف رقيقة مُشِعّة ، تومىء إلى المعنى

ولا تكشفه ، وتتخافت به ولا تجهر ! وهذا ما يجعل للقرآن الكريم حياة متجددة فى العقول وفى القلوب ، لا يمل مرتله الترتيل أبداً ، إذ يجد لِما يعاود ترتيلَه رُوحًا فى كل مَرَّةٍ ، ووجهاً جديداً فى كل ترتيلة . .

ونعود إلى المتشابه . . ما هو ؟ وأين هو فى القرآن ؟ وما الحكمة منه ؟

المتشابه — كما قلنا — هو المغلق ، الذى لا ينكشف للنظر ، بل يتراءى لمعطيات الحدْس والرجم بالغيب ، أشبه بالأحلام وأضغاث الأحلام التى يتأولها المتأولون ، ويقول فيها القائلون ! وليس يعلم قولة الحق فيها إلا علاَّم الغيوب . . ذلك هو المتشابه .

أما أين هو فى القرآن . . فإنا إذا نظرنا فى كتاب الله ، فيما بين أوله وآخره نجد أن قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاَّ اللهُ » يلفتنا لفتًا قويًا إلى هذا المتشابه ، وهو تلك الأحرف المتقطعة التى تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، مثل « الٓمٓ ، الٓرٓ ، الٓمٓرٓ ، كٓهيٓعٓصٓ ، طٓسٓ ، طٓسٓمٓ . . . » فهذه الأحرف هى التى يقف أمامها دارس القرآن حائراً ، لا يدرى لها مفهوماً ، إلا أن يكون ذلك بضرب من الحدْس والتخمين ، ولهذا كثُرت فيها تأويلات المتأولين ، إلى أن جاوزت السبعين قولا فيها ، بل ويمكن أن تزاد هذه الأقوال إلى مئات ، بل وتتسع لألوف ، دون أن يكون قول أحق فيها من قول ، أو أولى بالقبول والتسليم . . إذ كل الأقوال هى اجتهاد شخصى ، كالحدْس عن شىء داخل صندوق مغلق ، ولهذا كان أعدل قول فيها وأصدقه هو القول : « الله أعلم بمراده » فما يعلم تأويلها إلا الله !

وقد عرفنا معنى التأويل ، وأنه ـ كما جاء فى القرآن ـ لا يكون إلا فى مواجهة الأمور المغلقة ، كالأحلام وأضغاث الأحلام !

قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » .

أى إن الذين فى قلوبهم مرض ، بما عَشَّشَ فيها من نفاق ، وضلال . . هؤلاء لا ينظرون فى كتاب الله ، ولا يقفون عند محكم آياته ، لأنهم لا يؤمنون به ، بل يجعلون همهم كله فى صيد ما يمكن صيده من كتاب الله ، من هـذا المتشابه من كلماته ، التى أشرنا إليها ، والتى يمكن ألا يقال فيها أىّ شىء ، كما يمكن أن يقال فيها كل شىء ! لأنها ـ كما قلنا ـ كتاب مغلق .. إذا سئل الإنسان عما فيه ، فإن احترم عقله ، قال : « لا علم لى » ، وإن سَفِه وحمق ، قال ، وأكثر القول ، وتحدث وأطال الأحاديث بما هو أكثر مما فى الـكتاب امتداداً وطولا ، وربما كان الـكتاب فى علم الحسـاب ، على حين يحسبه المتخرصون كتاباً فى الفقه ، أو الحديث ، أو الأدب ، أو الموسيقى مثلا ! !

وهؤلاء من مرضى القلوب ، إنما وقفوا عند هذه المتشابهات ، لأنها تفتح لهم أبواباً واسعة إلى أن يقولوا فيها ما يشاءون ، وأن يُحمّلوها من المعانى مايريدون من مقولات ، تفتن وتُضِلّ ، دون أن يقف لهم أحد ، أو يفنّد مقولاتهم مفنّد ، فإذا واجههم أحد ، أو حاجّهم محتاجّ سألوه رأيَه فيها ، وقولَه عنها ، وقد عرفنا أنها تتسع لـكل رأى ، وتتقبل كل قول ، وليس فيها إلا قول واحد ، علمه عند علام الغيوب . « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » ! . .

ولو كان هؤلاء الزائغون المنافقون يؤمنون بالقرآن ، وبأنه من عند الله ، لـكان لهم أن يقولوا فى المتشابه ما يقولون ، مما يؤدى إليه نظرهم واجتهادهم ، ولـكان لهم من إيمانهم ما يعصمهم من أن يَزِلّوا ويضلّوا ، ولـكنهم ـ كما عرفنا ـ لا يمسكون من القرآن إلا بتلك الـكلمات المتشابهة ، التى رَصَدَها الله ابتلاء وفتنة ، تزداد بها قلوب المنافقين مرضًا إلى مرض ، ورجسًا إلى رجس ،

أما المؤمنون فقد عافاهم الله من هذا البلاء ، وعصمهم من تلك الفتنة ، لأنهم يتقبلون هذا المتشابه كما يتقبلون المحكم وغير المتشابه من كتاب الله ، ويقولون فيها جميعًا : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » .

وقوله تعالى : « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ » .

هو بيان لموقف المؤمنين من متشابه القرآن ، إزاء موقف المنافقين منه ، وهو أنهم ـ أى المؤمنون ـ يؤمنون بالمتشابه إيمانَهم بالمحكم وبغير المتشابه ، إيمانَ تسليم وامتثال ، لأن كتاب الله ـ المتشابه ، وغير المتشابه والمحكم ـ كله من عند الله ، فليس فى المتشابه ـ والأمر كذلك ـ ما ليس فى كتاب الله ، لأنه بعضُ كتاب الله ، ولا يخرج البعض الكلّ ، وإلاّ كان غريباً عنه ! فإذا كان لقائل أن يقول فى هذا المتشابه فليقل ما يشاء ، شريطةَ أمر واحد ، وهو ألا يخرج فى قول من أقواله عمّا فى كتاب الله من أحكام ومقررات .

ولهذا لم يكن ثمّة حرج عند علماء التفسير أن يقولوا فى هذه المتشابهات ما قالوه من مختلف الآراء . لأنهم يقولون مايقولون ، وهم مؤمنون بكتاب الله ، كله ، مُحكَمِه ومتشابهه .

وفى قوله تعالى : « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » إشارة إلى أن الراسخين فى العلم ـ وهم ما هم فى العلم والحكمة والعقل ـ إذا كان موقفهم من هذا المتشابه موقفَ عجز وتسليم ، فلا ينطقون إزاء هذا المتشابه ـ إذا نطقوا ـ إلاّ كان قولهم : « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » ـ إذا كان هذا هو موقف الراسخين فى العلم ، فإن من السفاهة والحمق والجهل جميعًا أن يقول غيرهم مما لا رسوخ له فى العلم ـ غيرَ هذا القول ، وألاّ يؤمن إيمان عجز وتسليم ، كما آمن الراسخون فى العلم إيمان عجز وتسليم ، بهذا المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

وعلى هذا ، فإنا نرى أن الوقوف على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ » هو وقوف لازم ، حتى يكون العلم بتأويل هذا المتشابه مقصوراً على الله وحده ، أما الراسخون فى العلم فهم والجاهلون سواء فى هذا المتشابه ، لا يملكون إزاءه إلا التسليم بالعجز ، وإلا أن يقولوا : « آمَنَّا بِهِ » على ما هو عليه ، لأنه هو والمحكم على سواء .. « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » .

وهذا موقف يجب أن يتملاّه العقلاء ، وينتفع به أولو الألباب ، وذلك بقياس الغائب على الشاهد ، والبعيد على القريب ، وإحالة المتشابه على المحكم !

الآية : (٨)

« رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » (٨)

التفسير : مما يَقْضِى به العقل ، وينزل على حكمه العقلاء ، أن تكون الأحداث والمواقف دروساً نافعة ، وعبراً مثمرة ، يُجْتَنَى من ثمرها الخير ، ويُدفع بها البلاء .

وقد كان فى الموقف الذى وقفه أهل الزيغ والضلال والنفاق ، من المنكر بآيات الله ، ما أركسهم فى الفتنة ، وأغرقهم فى الضلال ، حيث طرحوا كتاب الله وراء ظهورهم ، وتعلقوا بالمتشابه من آياته ، ليفتنوا الناس ويضلوهم ، بما يتأولون لهم من مقولات عمياء . . فزادهم الله عمًى إلى عمًى ، وضلالاً إلى ضلال .

وإذ يرى المؤمنون هـذا الموقف الذى اتخذه الزائغون ، فتقطعت بهم الأسباب ، التى كانت تصلهم بالإيمان ، والتى كان جديراً بهم — لو عقلوا —

أن يستعصموا بها ، وأن يُحكموا فَتْلَها ، بتوجيه قلوبهم إلى الله ، وإخلاص نياتهم للإيمان به - إذ رأى المؤمنون هذا فزعوا إلى الله وضرعوا بين يديه ، ألاّ يصير أمرهم إلى ما صار إليه أمر هؤلاء السفهاء الحمقى ، الذين غلبت عليهم شِقوتُهم . فضلوا سواء السبيل . . فبيْن يدى الله يضرع المؤمنون بهذا النداء الذى ساقه الله إليهم ، ليكون سفينة النجاة لهم « رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ » .

آية : (٩)

« رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

التفسير : ومن تمام الإيمان بالله ، وجلاء القلوب من الشرك والزيغ ، الإيمانُ بالبعث والجزاء ، فبهذا الإيمان تقوى صلة المؤمن بربه ، وتشتدّ مراقبته له ، وحرصه على مرضاته ، لينجو من شر هـذا اليوم « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ » ويفوزَ بمرضاته ورضوانه . . وإنه لو لم يكن هناك بعث ، ولا حساب ، ولا جزاء ، لـكان الإيمان بالله مجرد تصور عقلى ، لا يكاد يؤثّر فى سلوك الإنسان ، أو يمسك زمام هواه !

وإذ يذكر المؤمن هذا اليوم - يوم البعث والجزاء - ويستحضر أهواله ، وما يلقى فيه العصاة من عذاب - يخشع لله ويخضع ، ويفـكر أكثر من مرة ، قبل أن يركب منكراً ، أو يواقع معصية . . ولو استحضر المؤمن هذا اليومَ ، وتمثله فى خاطره ، وأشهده كل موقف تراوده فيه نفسه على منكر ، ويؤامره فيه هواه على معصية - لـكان له من ذلك قوة تعينه على الخلاص من دوافع شهواته ، ونزوات أهوائه ، ولهذا كان مما فَضَل الله به على المؤمنين ، أن جعل

ذكر هذا اليوم عبادة يتعبدون بها فيما يتلون من كلماته . . « رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ » . . وبهذا تظل أنظارهم شاخصة إلى هـذا اليوم ، يرجون رحمة الله ، ويخشون عذابه « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَ يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » .

الآية : (١٠)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ » (١٠)

التفسير : وهذا عرض لبعض ما يقع فى يوم البعث ، وما يلقى فيه الذين كفروا بالله وباليوم الآخر من نكال وبلاء ، حيث يدَعُّونَ إِلَى نار جَهَنَّمَ دَعًّا ، فلا يغنى عنهم فى ردّ هـذا البلاء ما كان لهم من مال وبنين ، ومن أهل وصديق ، فلقد أُفردوا من كل شىء ، وصفرت أيديهم من كل شىء ، ومنادى الحق يناديهم « لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا » (٤٨ : الكهف) . . وفى هذا ما يفتح أنظار الغافلين عن هذا اليوم ، إلى ما فيه من أهوال ونكال ، لأهل الزيغ والضلال ، فيحذرون هذا المصير المشئوم .

الآية : (١١)

« كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » (١١)

التفسير : الدأب : السعى ، والعمل ، والحال الذى يبلغه المرء بسعيه وعمله .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى للكافرين مثلاً بآل فرعون ـ وهم جماعة الفراعين ـ الذين استكثروا من الدنيا ، وبلغوا من السلطان والقوة ما بلغوا ، حيث استطالوا بما فى أيديهم من سلطان وقوة ، وقال قائلهم للناس ما حكاه القرآن عنه : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى * فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى » (٢٤ ـ ٢٥) : النازعات .

هكذا يُغرِى السلطان ويُغوى ، إلاَّ من عصم الله ، وقد كان فرعون مثلاً بارزاً للكفران بنعمة الله ، والاغترار بما مكّن الله له فى الأرض . فقال تعالى : « وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ[1] * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ » (١٠ — ١٤ : الفجر) .

وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ » أى الذين سبقوا هؤلاء الفراعين فى الضلال والعتوّ ، إذ ليس هؤلاء الفراعينُ هم أول من حادَّ الله وكفر به ، فالكفر قديم فى الناس ، لا يسلم منه جيل من أجيالهم « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ » (٣٤ : إبراهيم) .

وهؤلاء الكفرة جميعاً ـ قريبهم وبعيدهم ، سابقهم ولاحقهم ـ لن يفلتوا من قبضة الله ، ولن ينجوا من عذابه . « فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ » إذ انقطع عملهم من الدنيا ، وصاروا إلى الله بما اقترفوا من

---

(١) المراد بالأوتاد هنا تلك الأهرامات التى رفعها فراعين مصر على وجه الأرض ، فكانت جبالاً كالجبال ، التى هى أوتاد الأرض : « ألم نجعلِ الأرضَ مهادًا * والجبال أوتادًا » (٦ ، ٧ : النبأ)

أوزار ، يحملونها على كواهلهم إلى يوم الجزاء ، حيث ينزل بهم العذاب الأليم بما حملوا من كفر غليظ !

وفى هذه المُثُل ، وتلك النذُر ، عبرة لهؤلاء الكفار الذين أعنتوا رسول الله ، واستطالوا بقوتهم على ضعاف المسلمين بمكة ، وسلطوا عليهم ألواناً من العذاب والنّكال . . فلينظروا إلى ما نزل بمن كانوا أشدّ منهم قوة وأكثر بأساً ، وأوسع سلطاناً . . كيف أخذهم الله ، فلم يُغْنِ عنهم ما كسبوا من الله شيئا .

الآية : (١٢)

« قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

التفسير : فى سَكْرَة السلطان ، يفقد كثير من الناس صوابهم ، ويضل عنهم رشدهم ، فتمرّ بهم العبر وهم عنها غافلون . .

وفيما ذكر الله سبحانه ـ مما أخذ به الطغاة والظلمة ، ما فيه عبرة ومُزدَجَر للطغاة والظلمة ، من كفار مكة . . ولكنهم فى سكرتهم يعمهون .

وإنه لكى تنقطع أعذارهم ولا يكون لهم على الله حجة ، فقد أمر الله نبيّه عليه السلام ، أن يلقاهم صراحة بهذا النذير ، وأن يقرع آذانهم بما ينتظرهم من مصير مشئوم ، إن هم ظلّوا على ما هم عليه من عمًى وضلال . . « سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » فلا حظّ لهم فى الدنيا ولا فى الآخرة . . إذ لا يعصمهم سلطانهم ، ولا تمنعهم كثرتهم وقوتهم ، من أن يلقوا الهزيمة فى هذه الدنيا على يد هؤلاء الذين استضعفوهم واستبدّوا بهم ، وهذا من أنباء

الغيب التي حملها القرآن عزاء وبشرى للمؤمنين ، إذ تلقّوا هذا الوعد الصادق الذى لا يُخالف أبداً ، فهوّن عليهم البلاء الذى هم فيه ، وربط على قلوبهم بالصبر ، انتظاراً ليوم النصر ، وقد جاء تأويل هذا فى تلك الخاتمة التى خُتمت بها حياة الكفر والكافرين ، يوم فتح مكة ، يوم جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

هذا ما كان ينتظر الكافرين فى الدنيا ، التى ظنوا أنهم يمسكون منها بالسبب القوىّ الذى لا ينقطع . . أما فى الآخرة فالأمر أدهى وأمرّ . . حيث تنتظرهم جهنم بسعيرها المتسعر ، وعذابها الأليم . . « وبئس المهاد » .

الآية : (١٣)

« قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ » (١٣)

التفسير : إن يكن ثمّة شكّ عِند أحدٍ فيما سيلحق هؤلاء الكافرين المغترّين بكثرتهم وقوتهم على أيدى هذه القلّة المستضعفة من المؤمنين ـ فالشاهد حاضر بين أيديهم ، والآثار ماثلة لهم فى أنفسهم .

فهذا يوم بدر ـ وما زال غبار المعركة منعقداً فى سمائه ، وجثث قتلى المشركين وأشلاؤهم متناثرة على أرضه ، وما زالت فلول الجيش المنهزم تحبو حبواً نحو مكة ، مثخنة الجراح ، متقطعة الأنفاس ، مُوقَرةً بالخزى والعار ـ هذا يوم بدر يمثل لهؤلاء المشركين ما ينتظرهم فى مستقبل الأيام ، من خزى وهزيمة على أيدى المسلمين ، وإن قلّ عددهم وعدتهم ، فليس الأمر أمرَ عَدد

وعُدة ، وإنما هو أمر إيمان بالحق . وثبات عليه ، واستشهاد فى سبيله ، ولقد رأى المشركون ذلك بأعينهم ، إذ جاءوا بعددهم وعدّتهم ، والمسلمون بين أيديهم قلة فى العدد والعدة « يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ » . . فانتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة : « كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ » (٢٤٩ : البقرة)

فليستيقن المؤمنون ، ولينتظر المشركون ، فإن ماوعد الله به واقع لاشك فيه .

هذا والظاهر ـ والله أعلم ـ أن هذه الآية وما قبلها كان نزولها عقب موقعة بدر ، بل ربّما والمشركون فى طريقهم بعد الهزيمة ، لم يبلغوا مكة بعد ، وفى هذا ما يضاعف من حسرتهم ، ويملأ قلوبهم يأساً ، من كل أمل يتعزّون به فى مستقبل الأيام . . فأيامهم المقبلة أشد سواداً وأكثر شؤماً من يومهم هذا الذى هم فيه .

الآية : (١٤)

« زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » (١٤)

التفسير : هذا جواب عن سؤال يعرض فى كل موقف يتصارع فيه الحق والباطل ، وهذا السؤال هو : لم هذا الضلال من الناس ؟ ولم هذا الباطل الذى يمسكون به ويحرصون عليه ؟

وفى الآية الكريمة الجواب على هذا . .

فالناس — كل الناس — مفطورون على حبّ الاقتناء ، والاستزادة مما

يقتنون ، من الأشياء التي تغذّى عواطفهم ، وتشبع حاجاتهم الجسدية ، والنفسية ، وتنزلهم في الحياة منزلاً عالياً رفيعاً ، يبسط لهم سلطاناً يستجيب لكلّ ما يدّعون وما يشتهون !

هذه طبيعة في الناس ، غير منكَرة ، ولا مُتكَرّهة ، لأنها قوة عاملة في الحياة ، بها يخِفّ الناس إلى السعى والجد ، والمغامرة والمخاطرة ، ، ولولاها لما خطت الإنسانية هذه الخطوات الواسعة ، إلى العمران والمدنية ! وهذا في ذاته خير للإنسانية وكسب للناس .

ولكن الشيء إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضدّه — كما يقولون .

وهذا ما يحدُث لغريزة حبّ الاقتناء ، إذا جاوزت حدّها ، وخرجت عن سَنَن القصد والاعتدال !

إنها تتحول حينئذ إلى شرٍّ قاتل ، يصير به الإنسان حيواناً ضارياً ، يشتبك في صراع دائم مع كل من يلقاه !

وقوله تعالى : « زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ »

عرض لصور مما تشتهيه النفس ، وتحرص عليه ، وتستكثر منه . . النساء والبنين ، والذهب والفضة ، والخيل المعلّمة ، والأنعام ، والحرث والزرع . . ولم يتحدث القرآن عن الدُّور والقصور والأثاث والرياش ، ولا عن ألوان الطعام ، ولا عن الخدم والأتباع ، وكلها مما تشتهيه النفوس ، وترغب فيه . . لم يذكر القرآن الكريم هذا ، ولا كثيراً غيره من مطالب النفس — لأنه ذَكَرَ

الأصلَ الذى ترجع إليه كل هذه الأشياء ، وهو المال ، من الذهب والفضة والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، فبهذا المال يُنال كل هذا وأكثر من هذا ، فحيث كان المال كان معه الجاه والسلطان ، وكل متع الحياة ، لمن أرادها من أصحاب المال .

وقد ذكر القرآن النساء والبنين والذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، لأنها أصول قائمة فى النفوس ، لا تتغير بتغير الأزمان واختلاف الأمم !

النساء رغيبة الرّجال من جميع الشعوب .. الأغنياء والفقراء .

والبنون قرة عين الوالدين ، فى كل زمان ومكان .. أغنياء وفقراء .

والذهب والفضة .. لهما حب مستقل لذاتهما ، حيث يجد الإنسان القوة والعزة ، بامتلاكهما ، ولو لم يُسخرها لمأرب من مآربه . .

والخيل المسوّمة ، (أى المعلّمة) نموذج للمراكب الطيبة ، التى تجمع بين البهجة والمتعة .

والأنعام والحرث ، نموذج آخر لمتعة العين وبهجتها لهذا المال المتحرك فى الإنعام ، والمزدهر الثمر فى الزروع والجنات .

وقوله تعالى « ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » إشارة إلى أن هذا الذى يرغب فيه الناس ويشتهونه فى حياتهم ، إنما هو متاع وزاد للحياة الدنيا ، يزول بزوال هذه الحياة ، ويفنى بفناء الطاعمين له . .

وقوله تعالى : « وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ » إلفات إلى حياة أخرى غير هذه الحياة ، لا يزول نعيمها ، ولا تفنى لذاذاتها . تلك هى الحياة الآخرة ، التى أعدّ الله فيها لعباده المتقين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

الآية : (١٥)

« قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ

تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » (١٥)

التفسير : ذلك هو حُسنُ المآب الذى أعده الله لعباده المتقين .. جاءت هذه الآية الكريمة شارحة له ، بهذا الإعلان لذى أمر الله نبيه الكريم أن يؤذن به فى الناس ، وأن يلفت إليه أولئك الذين غلبتهم شهواتهم، فأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ، ولم يستبقوا شيئاً للآخرة .

وفى قوله سبحانه : « بخيرٍ من ذلكم » إشارة إلى أن تلك الشهوات التى زُينت للناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ـ ليست شراً فى ذاتها ، وإنما فيها خير لمن أخذ منها باعتدال وقصد ـ كما قلنا ـ ولكن مع هذا فهناك ما هو خير من هذا الخير ، وهو ما أعدّه الله للمتقين فى الدار الآخرة من جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأزواج مطهرة .. وفوق هذا كله رضوان الله ، الذى يفيض الخير كله على أهل الرضا .. جعلنا الله سبحانه وتعالى منهم ، بفضله وكرمه . .

هذا ، والملاحظ أن الله سبحانه عوّض المتقين فى الآخرة عن متع الدنيا وشهواتها ، جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ، وأزواجاً مطهرة .. ولم يكن فيما عوضهم به الذهب والفضة ، ولا الخيل المسوّمة والأنعام ، ولا البنين .. فكيف هذا ؟

والجواب : أنه لا حاجة إلى ذهب وفضة فى الدار الآخرة ، وفى جنات النعيم ، حيث كل شىء حاضر عتيد لأهل الجنة « لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » . فلا بيع ولا شراء هناك .

وكذلك المراكب من الخيل المسومة والأنعام .. إن شاء الإنسان وجدها

ولكن هناك ما يشغله عن كل هذا ، الذى هو إلى جانب نعيم الآخرة هباء وهُراء !

والشأن كذلك فى البنين ، إذ يقوم حبهم فى النفس ، على غريزة حب البقاء ، حيث يرى الإنسان الفانى امتداد حياته فى بنيه الذين يخلفونه فيما ترك ، ويأخذون مكانه من بعده .. أما والإنسان قد وجد الخلود وضمنه فى الحياة الآخرة فإنه لا حاجة به إلى ذرية من بعده .

ثم إن رضوان الله الذى أفاضه على أهل الجنة ، هو الغنى كله ، وهو السعادة كلها . . فلا مطلب بعده ، ولا سعادة وراءه .

الآيتان : (١٦ ، ١٧)

« ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٦) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ » (١٧)

التفسير : هاتان الآيتان الكريمتان تبينان المنهج الذى يستقيم عليه الإنسان ، ليكون فى عداد أولئك المتقين الذين وعدهم الله بجنات تجرى من تحتها الأنهار وأزواج مطهرة ورضوان من الله .

فالتقوى لا يكسبها الإنسان إلا بمجاهدة ، ولا يبلغها إلا بعد أن يقطع إليها طريقاً شاقاً من الجهد المتصل والعمل الدائب ، فى طاعة الله وابتغاء مرضاته .

وأول هذا الطريق . الإيمان بالله ، الذى هو مِلاك التقوى ، وبغيره لا يُقبل عمل ، ولا يؤذن لإنسان بالدخول مع المتقين . . « ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ آمَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ » .

ثم إن الإيمان بلا عمل زرع بلا ماء . . لا يزهر ولا يثمر .

والصَّبر هو عُدة المؤمنين ، وزادهم العتيد فى الطريق الشاق الذى يصحبون به الإيمان ، ليصل بهم إلى التقوى ، فبالصبر يغلب الإنسان شهواته ، ويقهر أهواءه ، ويحتمل تكاليف الشريعة ، ويؤديها على الوجه الأكمل لها . . « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصّبر والصــــلاة إن الله مع الصابرين (٥٢ : البقرة)

والصّبر مِلاك أمره الصِّدق . . الصدق فى القول والعمل .. والصدق مع النفس ، ومع الناس ، ومع الله — فإذا لم يكن ذلك كان الصّبر بلادة ، وموانًا ، وموقفًا سلبيًا من الحياة . ولكن إذا واجه الإنسان الحياة ومعه الصبر وجد فى كل موقف شاق طريقين : طريق الكذب والهروب ، وطريق الصدق والثبات . . وهنا تظهر فضيلة الصبر ، ويتجلى أثره . . « وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) » .

والولاء لله ، والإنفاق فى سبيله ، وقيام الليل واستقبال الأسحار بالتوبة والاستغفار . . كل هذه مواقف يمتحن فيها إيمان المؤمنين ، وصبرهم ، واستمساكهم بالحق الذى أمر الله به .

فبهذه المجاهدات — مع الإيمان — يبلغ الإنسان منازل المتقين ، وينال رضوان الله ، وينعم بجنات النعيم .

(الآية : ١٨)

« شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١٨)

التفسير : الذين يؤمنون بالله ، يجدون فى كل لمحة من لمحات الوجود آيات تشهد بوحدانيته المطلقة ، وتفرّده بالوجود المطلق ، فإن لم يكن لهم نظر يؤديهم إلى التحقق من هذه الحقيقة ، فقد حملتها إليهم ثلاث شهادات قاطعة :

أولا : شهادة الله ، فقد شهد الحق لنفسه : أنه لا إلهَ إلا هو . . وهى عند المؤمنين شهادة صدق مطلق ، لاتعلق بها شائبة أو تشوبها شبهة .

ثانياً : شهادة الملائكة ، وهم خلق جَبَله الله على الحق والصدق المطلقيْن . . وقد يقول جَهول : كيف يشهد الله لنفسه ؟ وكيف السبيل إلى سماع هذه الشهادة والتحقق منها ؟

أما شهادة الله لنفسه ، فقد نطق بها هذا الوجود الذى هو صنعةُ يديه ، والذى يشهد كل موجود فيه ، بقدرته ، وعلمه ، وحكمته ووحدانيته ، وإن لم تشهد بها الموجودات لساناً ، فقد شهدت بها عِياناً واعتباراً ، لمن نظر واعتبر .. أمّا من لم يكن له نظر واعتبار ، فليأخذ بشهادة أهل النظر والاعتبار . . ليأخذ بشهادة الملائكة ، وهم بعض هذا الخلق الذى خلق الله ، وهم الذين لايَفْتُرون عن عبادته ، ولا ينقطعون عن ذكره .. فإن لم يجد لشهادة الملائكة أذناً تسمع ، فليستمع إلى شهادة بشرٍ مثله ، خُلقوا من طينته ، ونطقوا بلسانه ، وهم :

ثالثا : أولو العِلْم ، الذين نظروا فى هذا الوجود ، فعرفوا الله ، وعاينوا آثار قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، ووحدانيته . وهذه شهادة لايردّها عاقل ، مهما كان حظه من العقل .. فإن الأعمى الذى لايُسلم يده للمبصر الذى يقيمه على الطريق ، هو لامحالة مُلقٍ بنفسه إلى التهلكة .. والمُقعد الذى لايستسلم لمن يحمله ، لايزال هكذا ملتصقا بالأرض إلى أن يهلك ، غير مأسوف عليه .

أما شهادة الله وشهادة الملائكة ، فقد أخذ بهما أولو العلم فكانت مع

شهادتهم نوراً إلى نور ويقيناً إلى يقين . . « وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » (١٦٦ : النساء) .

وقوله تعالى : « قائماً بالقسط » صفة للإله المتفرد بألوهيته ، كما شهد بذلك الله سبحانه ،والملائكة ، وأولو العلم . . والمعنى شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط ،أى إلهاً قائماً على الوجود بالعدل المطلق ، فيما خلق وفيما نوّع وفرق من مخلوقات ، وفيما قدر لكل مخلوق من صورة ، ورزق ، وأجل . . إذ ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

وقوله : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » قد يكون توكيداً لما شهد الله به والملائكة وأولو العلم ، أو يكون إقراراً بلسان الوجود كله بعد أن سمع تلك الشهادة فصدّقها ، معترفاً بوحدانية الله ، مقراً بقيامه على ملكه بالعدل ، مذعنا لعزته ، راضياً بحكمه ، فهو « لا إله إلا هو العزيز الحكيم ».

الآية : (١٩)

« إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » (١٩)

التفسير : بعد أن بين الله صفته التى ينبغى أن يؤمن عليها المؤمنون ، وهو أنه لا إله إلا هو المتفرد بالألوهية ، القائم على مُلكه بالعدل ، فإلى جانب سلطانه المطلق،عدله المطلق ، وهو العزيز الذى تقوم إلى جانب عزته،حكمته ، فلا يخاف أحد بغياً أو عدواناً من جهة العزيز الحكيم !

ـ بعد أن بيّن الله صفته على هذا الوجه ، بيّن دينه الذى يَدين عبادَه به ،

ويتعبدهم بشريعته ، ذلكم الدين هو « الإسلام » الذى حمله رسل الله ، إلى عباد الله ، من آدم إلى محمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه الكريم : « إِنَّا أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهٰرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا » (١٦٣ : النساء) .

فالذى أوحاه الله إلى رُسُله ، هو دينه الذى ارتضاه لعباده ، وهو الإسلام .

وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » (١٣ : الشورى)

وفى قوله تعالى : « وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ » إشارة إلى ماوقع بين أصحاب الكتب السماوية من خلاف ، وأنه خلاف لم يقم على عقل ، ولم يستند إلى منطق ، لأن الكتب التى يختلفون فيها تجىء من مصدر واحد ، وتتجه نحو غاية واحدة ، فيلتقى بعضها ببعض ، ويصدّق بعضها بعضا ، فكيف يقع بينها خلاف أو يدور عليها اختلاف ؟ وكيف يؤمن الإنسان ببعض الشىء ثم يكفر ببعضه الآخر ؟ إن ذلك لم يكن إلا عن بغى وعدوان بين أصحاب هذه الكتب .. فاختلاف مَن اختلف من أهل الكتاب ، وزيغ من زاغ منهم ، إنما هو عن علم ، وذلك هو البغى على الحق ، والعدوان على العقل !

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » تهديد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ونذير لهم إذا اختلفوا ، وكفر

بعضهم بعضا ، ثم هو تحذير لهم من أن يكون شأنهم مع الكتاب الذى نزل على محمد كشأنهم فيما كان منهم مع الكتب التى نزلت على الأنبياء من قبله ، وخاصة النبيين الكريمين ، موسى وعيسى عليهما السلام .. إن يفعلوا « فان الله سريع الحساب » .. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

الآية : (٢٠)

« فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » (٢٠)

التفسير : ذلك هو الموقف الذى يتخذه النبى من أهل الكتاب ، ألا يدخل معهم فى جدل ومحاجّة .. وإنما يلقى لجاجهم ومحاجتهم بما أمره الله به ، إذ يكون قوله لهم : « أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ » أى إنى أسلمت وجهى لله حنيفا ، لا أشرك به أحداً .. هذا هو دينى ، ودين من اتبعنى من المؤمنين .

وقوله تعالى : « وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ؟ » هو مايعقّب به النبىّ فى ردّه على المجادلين من أهل الكتاب ومن مشركى مكة ، وهم الأميون . فبعد أن يلقى جدلهم بقوله : أسلمت وجهى لله .. يعقبّ على ذلك بدعوتهم إلى أن يُسلموا وجوههم إلى الله كما أسلم هو وجهه إلى الله ، فلا يدْعون مع الله أحداً ، وذلك هو الدّين الخالص .. دين الله .. دين الإسلام. « فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » . أى إن لم يستجيبوا لك ويؤمنوا كما آمنت ، فسيظل أمرهم هكذا فى شقاق واختلاف ، وليس عليك من أمرهم من شىء ، إنما عليك البلاغ « والله

بصير بالعباد » يهدى من يشاء ويضلّ من يشاء.. « مَنْ يَشَإِ اللّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (٣٩ : الأنعام) .

« الآيتان : (٢١ ، ٢٢)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » (٢٢)

التفسير : هاتان الآيتان لتقرير أمر واقع .. ففيهما كشفٌ عن جرائم أهل الكتاب من اليهود ، الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه ، وأشياع أنبيائه ، ولهذا أحصت الآيتان الكريمتان ، تلك الجرائم الغليظة التي ارتكبوها، وهى الكفر بآيات الله التى حمّلها إليهم رسل الله ، وهى آيات لا يكذّب بها إلا كل معتد أثيم .. كفلق البحر بالعصا ، وتفجير الماء من الصخر بها ، على يد موسى عليه السلام . . فكفروا بتلك الآيات وعبدوا العجل من دون الله ، وكذلك فعلوا مع الآيات التي أجراها الله سبحانه على يد عيسى — عليه السلام — من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص . . فكفروا بتلك الآيات ، ورموا عيسى بالبهت والشعوذة ، حتى دفعهم ذلك إلى السعى فى قتله ، وتقديمه للمحاكمة والصلب ، ولكن الله أبطل كيدهم ، وأفسد تدبيرهم ، وهم يحسبون أنهم صلبوه : « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ » (١٥٧ : النساء) .

فهؤلاء هم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا أنبياءه ، ومنهم زكريا عليه

السلام ، وقتلوا كثيراً من صلحائهم ودعاة الخير فيهم.. وقد توعدهم الله سبحانه وتعالى بالعذاب الأليم ..

على أن واحدة من هذه الجرائم المنكرة تكفى فى تجريم صاحبها ، وفى سَوْقه إلى العذاب الأليم ، فالكفر وحده ، يحبط كل عمل : « وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١٠٤ : البقرة) .

والقتل العمد وحده ، يوجب الخلود فى النار : « وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » (٩٣ : النساء) فكيف بقتل أنبياء الله ورسله ؟.

ولكن ماذكر من هذه الجرائم هو تسجيل للواقع الذى حدث — كما ذكرنا من قبل — وهو تشنيع على أولئك اليهود الذين وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحادّة والخلاف ، كما وقف أسلافهم من قبل ، مع أنبياء الله فيهم ، ورسله إليهم . فما أشبه الأبناء بالآباء ، والخلف بالسّلف ، فى المكر بآيات الله والزيغ عن الهدى ، والإعنات للأنبياء .. وقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا الموقف الذى يصل حاضرهم بماضيهم ، على طريق الكفر والضلال ، فقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (٩١ : البقرة) .. فهل يلتقى الإيمان وقتل المؤمنين ؟ بل وقتل حملة الإيمان ودعاته ، من الأنبياء والرسل ؟

وفى قوله تعالى : « وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ » هو تقرير لما حدث ، وإعلان لما تكشف من تلك الجرائم الشنعاء ، التى أريقت فيها دماء الأنبياء ،

إذ قد ثبت لهؤلاء اليهود أنفسهم أن آباءهم الذين ارتكبوا هذا الاثم العظيم إنما قتلوا أنبياء حقيقيين ، لم يكونوا من الأنبياء الكذبة كما ادّعوا عليهم ، وهذا ما كان فى قتل يحيى عليه السلام ، قتله اليهود بأيديهم ، وآمن به اليهود وبعد ذلك ، نبياً صادقاً ، ورسولا كريماً فى كتابهم المقدس التوراة . فشهدوا بذلك على أنفسهم وبلسان أبنائهم أنهم قتلوا هذا النبىّ الكريم ظلماً وعدواناً .. بغير حق .

فقوله تعالى « بغير حق » هو من اعتراف القتلة أنفسهم ، بما شهد به عليهم بعضهم ، وهم أبناؤهم من بعدهم .

وقوله تعالى : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » هو غاية فى التيئيس من كل أمل فى نفحة من خير ، أو عافية ، من هذا البلاء المطبق عليهم .. إذ كان ما تحمله البشرى إليهم هو العذاب الأليم ، فكيف بما يساق إليهم بين يدى النُّذُر والفواجع ؟ ذلك شىء لا يمكن تصوره من الأهوال والشدائد ، التى أخفها وأهونها ، هو العذاب الأليم ! !

الآية : (٢٣)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ » (٢٣)

التفسير : الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، هم اليهود ، وعلماء اليهود خاصة ، والنصيب من الكتاب هو جزء وبعض منه ، وذلك أن الكتاب الذى فى أيديهم ، وهو التوراة ، ليس هو كل كتاب الله ، إذ حرّفوا فيه ، وبدّلوا وحذفوا ، وأضافوا ، فما بقى من كتاب الله فى أيديهم هو بعضٌ من كلٍّ ..

وفى قوله تعالى : « يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ » تنويه بشأن القرآن الكريم ، وأنه كتاب الله ، الذى يستحق أن يضاف إلى اسمه الكريم ، حيث ظل — وسيظل أبداً — محتفظاً بالصورة التى نزل عليها دون أن يمسه تبديل أو تحريف .. مصداقاً لقوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

وهؤلاء الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، وحظاً من العلم ، حين يُدْعون إلى القرآن الكريم ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه ، وليريهم الوجه الصحيح من الكتاب الذى بين أيديهم ، - يأبَوْن أن يسمعوا ، « ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ » (١٢٧ : التوبة) .

وفى قوله تعالى : « تولّى فريق منهم وهم معرضون » تصوير لحالهم التى استقبلوا بها دعوة داعيهم إلى كتاب الله ، وأنهم على خلاف مبيّت على الإعراض عن القرآن ، والاستماع إليه ، والنزول على حكمه ، فإذا سمعوا هذه الدعوة الكريمة الموجهة إليهم أعطوْها ظهورهم ، منصرفين عنها ، حاملين معهم عقدة الإعراض والخلاف التى انعقدت عليها قلوبهم .

الآية : (٢٤)

« ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » (٢٤)

التفسير : هذا التمادى فى الضلال ، والإعراض عن آيات الله ، وعدم التوقف للتثبت من الحق ، هو مما دخل على القوم من غرور ، بسبب ما بدلوا وغيروا فى دين الله ، حتى أخذوا عن هذا الدين المحرّف أنهم شعب مختار ، لم

عند الله فضل ومنزلة ، وأن من يدخل النار من عصاتهم لن تمسَّه النار إلا أياماً معدودة ، على حين يخلد غيره فى النار ممن ليس منهم !

وبهذا اجترأوا على الله ، واستباحوا حرماته ، لأنهم كما صوَّر لهم دينهم الذى لعبوا فيه بأهوائهم — لاينالهم الله بعذابه ! وأن العصاة الفارقين منهم فى العصيان لن يمسّهم عذاب الله إلا مسًّا رفيقاً ..

وكذبوا وافتروا . . وقد فضحهم الله تعالى فى قوله : « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »

(٨٠ ـ ٨١ : البقرة)

وفى قوله تعالى فى هذه الآية : « أياماً معدودات » وفى آية البقرة « أياماً معدودة » هو حكاية لأقوالهم التى تختلف فى أسلوبها ، وإن لم تختلف فى مضمونها ، فكل واحد منهم له أسلوبه فى التعبير عن هذا المعنى الذى تتوارد عليه ضلالاتهم . . ففريق يقول « أياماً معدودة » ، وفريق آخر يقول « أياماً معدودات » وذلك بلسانهم العبرىّ ، وتلك ترجمته الصادقة الأمينة .

الآية : (٢٥)

« فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » (٢٥)

التفسير : تنتقل هذه الآية بهؤلاء المفتونين فى دين الله ، والمتألين على الله

ألا تمسّهم النار إلا أياماً معدودات ـ تنتقل بهم فى لمحة خاطفة إلى الدار الآخرة، حيث الحساب والجزاء ، وحيث تُوفَّى كل نفسٍ ما كسبت من خير أو شر .. وفى هذا المشهد يرون سوء المصير الذى ينتظرهم ، وأنهم قد مكروا بآيات الله ، وخانوا أنفسهم ، ووجدوا أعمالهم السيئة بين أيديهم، تُوزن بميزان العدل المطلق، حيث لامحاباة لأحدٍ .. عندئذ يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، وعندئذ يمضغون الندم ، ويبتلعون الحسرة ، ثم يساقون إلى عذاب جهنم ، وبئس المصير ! .

الآيتان : (٢٦ — ٢٧)

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٢٧)

التفسير : الحسد هو الذى يفسد على كثير من الناس أمورهم، فلا يرونها على وجهها الصحيح ، وإنما تبدو لهم على الوجه الذى تصوره أوهامهم وأهواؤهم .

وقد استشرى هذا الداء فى بنى إسرائيل ، فحسدوا أنبياءهم ، الذين اصطفاهم الله للسفارة بينه وبين عباده ، ورموهم بالكذب والبهتان ، وبلغ بهم الأمر فى كثير من الأحيان إلى قتلهم ، شفاءً لما فى صدورهم من نار الحسد لهم .

وموقفهم من رسول الله ، وخلافهم عليه ، وبَهتهم له ، لم يكن إلا عن حسدٍ، أعمى قلوبهم عن الحق الذى كانوا على علم به وانتظار له .

ونسى هؤلاء القوم أن نعم الله ونقمه إنما هى بيد مالك الملك ، الحكم العدل ، وأن الحسد لنعمة يُلبسها الله عبداً من عباده،أو الشماتة فى نقمه يُنزلها على عبد من عباده كذلك ـ هو اعتراض على الله ، ومشاركة له فى تدبيره وتقديره .

أما طريق المؤمنين فهو قائم على التسليم لحكم الله ، والرضا بقضاء الله

« قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ »

وفى قوله تعالى « بيدك الخير » إشارة إلى أن كل ما يأتى من عند الله هو خير ، وإن بدا لنا فى صورة الشر الخالص ..

« وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُم وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » (٢١٦ : البقرة)

وفى قوله تعالى : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ » استعراض لقدرة الله ، وعجائب تصريفه فى ملكه،إذ يؤلف بين المتناقضات.. يولج الليل فى النهار، ويولج النهار فى الليل ، ويستخرج من الشىء نقيضه ، فيخرج الحىّ من الميت ويخرج الميت من الحىّ . . وذلك من تمام القدرة ، التى لا تكون إلا لله رب العالمين .

وفى الآية إشارة إلى ما فى الآية التى قبلها من قوله تعالى « بيدك الخير » وأنه سبحانه قادر على أن يجعل من الخير شراً ، ومن الشر خيراً . .

« فعسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .
(١٩ : النساء)

فالذى يخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحىّ ، قادر على أن يجعل من الخير شراً ، ومن الشر خيراً .

الآية : (٢٨)

« لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ » (٢٨)

التفسير : الصلة التى ينبغى أن تقوم بين المؤمنين، هى صلة أخوة ومودة، دون نظر إلى لون أو جنس أو وطن . . فقد جمعهم الإسلام فى نسب يعلو على نسب الدّم والجنس والوطن . .

« إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (١٠ : الحجرات)

وإنه لَمِن قلب الأوضاع أن ينعزل المؤمن بشعوره هذا من المودة والأخوة عن إخوانه المؤمنين ، وينحاز إلى الكفار ، يعطيهم ولاءه ومودته وأخوته .

والإسلام الذى يدعو إلى الحبّ والسلام .. إذ يدعو أتباعه إلى التراحم والتواد والتآخى فيما بينهم ، لا يجعل ذلك على حساب الصلات الأخوية التى ينبغى أن تكون بين المسلم وبين سائر الناس .. وفى هذا يقول الله تعالى فى وصايته للمسلمين ، فى تحديد صلتهم بغير المسلمين:

« لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ

دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٨ ، ٩ : الممتحنة)

فما بين المسلم وغير المسلم هى صلات إنسانية ،فيها المودة والألفة والإحسان، إلاَّ أن يقع بين المسلم وغير المسلم قتال فى سبيل الدين ، ومن أجل الدين .. عندئذ ينبغى ألا يعطى المسلم ولاءه لمن قاتله فى دينه ، فذلك خيانة لدينه ، فوق أنه خيانة لنفسه ولجماعة المسلمين معه .

وفى قوله تعالى : « لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » نهى عن أن يكون ولاء المؤمن كلّه للكافرين فى الوقت الذى لا ولاء بينه وبين إخوانه المؤمنين ، فذلك يقطع صلته بأهل الإيمان والتقوى، على حين يدعم صلته بأهل الإلحاد والكفر ، وليس يأمن مع هذا أن تنضح عليه آثار الإلحاد والكفر ، وأنه كلما مضى الزمن به كلما ازداد من الإيمان بعداً ، وازداد من الكفر قرباً .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ » أى بعُد عن الله ، وقطع صلته به ، إذ بعد عن المؤمنين وقطع صلته بهم ، وقرب من الكفر ووثق صلته بالكافرين .

وقوله تعالى : « إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » استثناء وارد على النهى عن موالاة الكافرين ، وهو أنه لا بأس ـ فى ظروف خاصة قد يضطر فيها الإنسان إلى أن يُوالىَ غيرَ المؤمنين ـ لا بأس أن يفعل الإنسان ذلك ، ولكن شريطةَ أن يكون ذلك لدفع مكروه محقق ، عنه أو عن جماعة المسلمين ، على أن يكون ذلك موقوتاً بوقته ، محكوماً بظروفه ، ينتهى متى مضى الوقت ، وتغيرت الظروف ، فيعود إلى ولائه الكامل للمؤمنين .

فإذا قامت بينه وبين غير المؤمنين صلة ، فلتكن بحساب وحذر !

الآيتان : (٢٩ — ٣٠)

« قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » (٣٠)

التفسير : بعد أن ذكر القرآن الكريم التحذير من موالاة الكافرين ، وأباح ذلك فى أحوال وظروف خاصة ـ أشار هنا إلى أن المعتبر فى هذا الموقف هو ما انعقد عليه قلب المؤمن من إيمان ، وهو فى تلك التجربة التى اضطرته الظروف فيها إلى موالاة الكافرين . . فقد أباح الإسلام « التقيّة » وهى أن يتقى المسلم أذى المشركين بكلمة أو فعل ، ليدفع عنه أذاهم ، دون أن يدخل من ذلك شىء على قلبه وما انعقد عليه من إيمان ، وفى هذا يقول الله تعالى : « من كَفَرَ بالله من بعد إيمانه إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فعليهم غضبٌ من ربِّهم ولهم عذاب عظيم » (١٠٦ : النحل)

وقوله تعالى : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا . . » الظرف هنا « يومَ » منصوب بفعل محذوف تقديره : اذكروا ، واحذروا . . فذكر هذا اليوم ، وما يلقى فيه الناس جزاء أعمالهم من خير أو شر ـ يخفف عن الإنسان كثيراً من ضواغط الحياة ومغرياتها ، التى تحمله على التضحية بشىء من دينه فى مقابل كسب مادى عاجل ، أو قضاء شهوة عارضة زائلة . .

وفى قوله تعالى : « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » تنبيه لأولئك الذين يتألّون

على الله ، ويمنّون أنفسهم الأمانىّ بالطمع فى رحمته وغفرانه ، وهم قائمون على عصيانه ، ومحاربته ، واستباحة حرماته ، والاستخفاف بأوامره . . فهذا من الضلال الذى يفسد على المرء دينه ودنياه جميعاً . . إذ لا يتفق عصيان الله ، والتمرد على شريعته ، مع موالاته والطمع فى رضاه . .

ونعم . . إن رحمة الله واسعة ، ومغفرته شاملة ، ولـكن لأهل طاعته ، والمتجهين إليه . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » (١٥٦ : الأعراف)

وفى قوله تعالى : « وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ » بعد قوله سبحانه « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » استصحاب لرحمة الله ولطفه بعباده الواقعين تحت بأسه وعذابه ، وذلك مما يُطمع المذنبين فى عفو الله ومغفرته ، فيرجعون إليه ويمدون أيديهم بالتوبة له ، فيجدونه ربًّا رحيماً غفوراً ، أما الطمع فى رحمة الله دون استصحاب العمل على مرضاته ، بالنزوع عن مقاربة المنكرات ـ فذلك مكر بالله « وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » (٥٤ : آل عمران)

الآيتان : (٣١ ـ ٣٢)

« قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » (٣٢)

التفسير : ومما هو مكرٌ بالله ما يدّعيه المدّعون على اللهِ من اليهود أنّهم أبناء اللهِ وأحبّاؤه ، وهم فى الوقت نفسه يُعادون أولياء اللهِ ، ويشاقّونَ رسلَه ،

ويقتلون أنبياءه . . فكيف تصح لهم هذه الدعوى ، وآخرها ينقض أولها ؟ فإن المحبّ الحقيقى يحبّ كل من أحبَّ من يحبّ ، وإلاَّ فحبّه لمن أحبّ نزوة طارئة ، أو دعوى باطلة .

والعداوة التى يضمرها اليهود للنبىّ ، والتى تستعلن فى كيدهم له ومكرهم به ، لا تستقيم مع دعواهم بأنهم أحباء الله ، فإن كانوا أحباءَ الله حقًّا فليتّبعوا رسولَه ، وليستجيبوا لما يدعوهم إليه من كلمات ربّه . . إنهم لو فعلوا ذلك لصدقت دعواهم ، ولأحبّهم الله حقًّا ، ولغفر لهم ذنوبهم ، وما قطعوا من عمر طويل مع الشقاق والنفاق « وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » . . فإن أبَوْا إلا شقاقاً ونفاقاً ، فهم على دعوى باطلة . . إنهم ليسوا أحباباً لله ، بل هم أعداء محاربون له ، كافرون بآياته وبرسله « وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْـكَافِرِينَ » وإنما حبّه للمؤمنين ، فمن لبس الإيمان ظاهراً وباطناً ، فهو من أولياء الله وأحبائه ، ومن استبطن الـكفر والنّفاق فهو عدوّ لله ، لا يكون محبًّا ولا محبوباً .

* * *

الآيتان : (٣٣ ، ٣٤)

« إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (٣٤)

التفسير : من تصريف الله فى ملكه ؛ أنه يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذل من يشاء !

وقد اقتضت حكمته ـ سبحانه ـ أن يصطفى من يشاء من عباده لتلقى هِباتِهِ

وعطاياه..وإن من عباده الذين اصطفاهم لأفضاله ومِنَحِه.. آدم ، ونوحاً . وآل إبراهيم ، وآل عمران . .

فآدم ، هو أبو البشر .. وقد اصطفاه الله فجعله خليفته فى الأرض .

ونوح ، هو الأب الثانى للبشرية ، بعد أن هلك البشر بالطوفان .

وإبراهيم ، هو أبو الأنبياء . . وآلهُ هم هؤلاء الأنبياء من ذريته .

وعمران ، هو الفرع الزاكِى من شجرة إبراهيم ، ومن ذريته موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى .

وفى قوله تعالى : « وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ » إشارة إلى امتداد الاصطفاء من الأصول إلى الفروع . . ولهذا قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا » لا آل آدم ، ولا آل نوح .. لأن ذلك يشمل الإنسانية كلَّها ، من حيث كان آدم ونوح أبوىْ البشرية كلها ، فلا يكون ـ والأمر كذلك ـ مكان للاصطفاء من بين الذرية المصطفاة كلها . .

وفى قوله تعالى : « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » أى أن هؤلاء المصطفْين من آل إبراهيم وآل عمران، هم وآباؤهم من معدن واحد، خَلَص من شوائب الفساد والكدر ، فجاء الفرع مشابهاً للأصل ، طِيباً وكرماً ، وكمالاً وحسناً . .

الآيتان : (٣٥ ، ٣٦)

« إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّى أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » (٣٦)

التفسير : لقد سمع الله مريم إذ تناجى نفسَها ، وعلم ـ سبحانه ـ ما أخفاه عنها من ألطافه ونعمه إذ ناجته بنذرها الذى نذرته ، وهو هذ الجنين الذى حملت به .

« إِذْ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا » .

فإنها ما كادت تتحقق من أن جنيناً يتحرك فى أحشائها ، حتى أقبلت على الله بكيانها كله ، وإيمانها كلِّه ، جاعلةً هذا الذى وهبها الله إياه خادمًا لله ، محرّرًا من كل رباط يربطه بالحياة ، ليكون كلّه فى خدمة بيت الله : « إنى نذرت لك ما فى بطنى محرّرًا » وَضَرعتْ إلى الله تعالى أن يقبل هذا النذر ، وأن يرضاه لها ، تحيةَ شكر له ، على ما أنعم عليها من ولد بعد يأس كاد يدخل عليها ، ويخرجها من الدنيا عقيما بين النساء : « فَتَقَبَّلْ مِنِّى إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ »

وجاءها المخاض ، ووُلد المولود الذى كانت تنتظره ، فإذا هو أنثى ! ! ونظرت فى وجه مولودتها فحزنت أن جاءت على غير ما كانت تنتظر . إنها كانت ترجو أن يكون وليدُها ذكرا ، فهو الذى ترى فيه الوفاء بنذرها ، حيث هو الذى يصلح للخدمة فى بيت الله ، أما الأنثى فمكانها هناك قَلِق حرج ، بين المنذورين الذين يخدمون فى بيت الله ، وكلهم من الذكور .

ومع هذا ، فقد نذرت ما فى بطنها محررا لخدمة الله ، وقد جاء ما فى بطنها أنثى ، فهى ـ والأمر كذلك ـ لا تملك غير هذه التى أعطاها الله ، فلتقدمها لله وفاء بما نذرت : « فلما وضعتها قالت ربّ إنى وضعتها أنثى » ! !

وفى قوله تعالى : « فلما وضعتها » إشارة إلى ما تقرر فى علم الله من أنها لا تضع إلا أنثى ، فالضمير المؤنث فى « وضعتها » يشير إلى معهود معلوم من قَبْل الوضع . وذلك ما كان فى علم الله وتقديره !

وفى قوله تعالى على لسان امرأة عمران : « قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنْثَى » ما يكشف عن استحيائها وخجلها من أن تقدم لله أنثى تخدم فى بيته ، وكأن الله ـ سبحانه ـ لم يجعلها أهلاً لأن تجىء بالذكر الذى هو أهل لتلك الخدمة .

وقول الله تعالى : « والله أعلم بما وضعت » ردٌّ على هذا الشعور الحزين الآسف الذى كان يعتمل فى نفسها ، وعزاء لها من أن تتحسر أو تحزن أو تعتذر لله ، فالله سبحانه « أعلم بما وضعت » وهو الذى قدّر هذا ، وأراد الوليدة لأمرٍ عظيم ، ستكشف عنه الأيام ، بعد قليل . . وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله : « وليس الذكر كالأنثى » أى أن الذكر الذى كانت تتمناه امرأة عمران وترجوه ، لايتحقق به هذا الأمر العظيم ، الذى جعل الله إظهاره على يد هذه الأنثى ، التى ستلد مولود البشرية البكر : « عيسى عليه السلام » ! فهل لو وَلَدت امرأةُ عمران ذكرًا أكان لهذا الذكر أن يلد « عيسى » على الأسلوب الذى وُلد به ؟ ولهذا جاء أسلوب التشبيه على وجه عجيب : « وليس الذكر كالأنثى » وهذا ما جعل المفسرين يتأولون مختلف التأويلات له ، مع أن الأمر لا يحتاج إلى أكثر من نظرة ، حتى تنحلّ عقدة هذا التشبيه ، فإذا هو فى أعلى درجات البيان والوضوح .. إنه ليس قائما على مطلق المفاضلة بين الذكر والأنثى ، ولكنه قائم على مفاضلة بين الذكر الذى كانت ترجوه امرأة عمران والأنثى التى وضعتها .. فإذا كان ذلك كذلك فهل لأحد قول فى أن هذا الذكر ليس كهذه الأنثى ؟ محال ! ليس الذكر كالأنثى لتحقيق هذا الأمر العظيم الذى أراده الله ، واختص هذه الأنثى به . وهى أن تلد مولوداً من غير أب ، هو المسيح .

« وعمران » هذا الذى تحدّث الآية بأنه أبو هذه الأنثى وزوج أمّها « امرأة عمران » ليس المراد به ـ والله أعلم ـ أنه زوجها ، وإنما هو رجل من آل « عمران » الذين اصطفاهم الله فيما اصطفى من عباده ، كما قال تعالى فى

الآية السابقة « إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ » .

وقد وُصفت أم مريم هنا بأنها امرأة عمران ، إشارة إلى اتصال نسبها بهذا النسب الكريم المصطفى ، وكذلك اتصال نسلها بهذا النسب الكريم المصطفى أيضاً . . فهى امرأة عمران أى من نسل « عمران » وابنتها ابنة عمران أى أن ذريتهـا من نسل عمران كذلك ، فهى مصطفاة من مصطفين أخيار ، من جهة الأم والأب جميعاً !

الآية : (٣٧)

« فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (٣٧)

التفسير : قوله تعالى : « وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا » أى أن الله سبحانه وتعالى جعل كفالة مريم ورعايتها وتنشئتها إلى يد كريمة طاهرة ، هى يد النبىّ الكريم ، زكريا عليه السلام .

وقوله تعالى : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا » أى رزقاً متجدداً ، مايراه اليوم غير مارآه أمس ، وغير ماسيراه غداً . . وهذا ماجعله يرى نفسه أمام ظاهرة غريبة ، تطالع عينه فيها نفحات الله وأفضاله فيجد بين يديها كل طيب كريم ، من الطعام ، لم يقدمه لها أحدٌ . . ويسألها زكريا . فتجيب : « هو من عند الله . . إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » وليس من جواب غير هذا الجواب ، يحبس تساؤل المتسائلين ، ويذهب بما

ملأ صدورهم عجبا ودهشا، من هذه الآيات التي تتنزل بين يدى مريم، رزقا من السماء بلا انقطاع .. إنه من عند الله! وما كان من عند الله فلا مثار منه لعجب أو دهش!!

الآيتان: (٣٨، ٣٩)

« هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » (٣٩)

التفسير: « هُنَالِكَ » أى هذا المقام الكريم، الذى شهد فيه زكريا ماشهد من آيات ربّه المتنزلة على مريم بالنفحات والرحمات .. وفى هذا الموقف الذى اشتعل فيه كيان زكريا كلّه بأشواق التطلعات إلى السماء، وأحاسيس التدانى والقُرب . . هنالك استشعر زكريا قُربه من ربّه، ودنوه من رحمته، فضرع بين يديه داعيا بطلب الولد، الذى حُرمه حتى بلغ من الكبرَ عتيا، وكانت امرأته — مع ذلك — عاقراً .

كان زكريا فيما شهد من أفضال الله على « مريم » أمام معجزات خارقات لمألوف الحياة، وما يخضع له الناس من سُننها، فاهتبلها فرصة يأخذ فيها بنصيبه من هواطل غيوث رحمة الله، فطلب هذا المطلب الجارى على غير المألوف!

وقد استجاب الله لزكريا ماطلب، فوهب له « يحي » مصدقا بكلمة من الله، وسيِّداً، وحصوراً، ونبيا، من الصالحين .

ومن هذا نعلم أنه بقدر ما يكون فى كيان الإنسان من إيمان بالله، وثقة به، وطمع فى رحمته، بقدر ما يكون حظه من القبول والاستجابة لما يدعو به ربه..

ومن هنا كان للحال الذى يشتمل على الإنسان الأثرُ الأول فى قبوله واستجابة دعائه .

وإن الذى يدعو وهو منقطع الصلة بالله ، أو هو خامد الشعور بقدرة الله ، أو متشكك فى سماع الله لما يدعو به ، وإجابته له ـ إن مثل هذا قلّ أن يُستجاب له .

أما من يدعو وهو على يقين من أن الله قريب منه ، مطلع على سرّه ونجواه ، وأن بيده الخير كله ، وأنه على كل شىء قدير ـ إن من يدعو وهو على تلك الحال ، فهو فى معرض القبول والإجابة لا محالة . . ولهذا يقول الرسول الكريم : « ادعُو الله وأنتم موقنون بالإجابة »

قوله تعالى : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ » كلمة الله هنا هى المسيح عيسى ابن مريم ، وبهذه الكلمة بشّر الله مريم ، فقال تعالى : « يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ » وذلك فى الآيات التالية بعد هذه الآية . . وقد كان يحيى ـ عليه السلام ـ هو الذى عمّد عيسى ، وهو الذى بشّر به ، وصدّق برسالته ، كما تحدث بذلك الأناجيل .

قوله تعالى : « وسيِّدًا » أى سيِّدًا على نفسه ، متحكما فى شهواته ؛ غالباً لها . .

وقوله تعالى « وحصوراً » أى مجانباً الشهوات ، حتى لكأنه عاجز عن إتيانها لضعف أو مرض ، وما به ضعف أو مرض ، ولكن قوة روحه قهرت نداء شهواته ، ودعوة جسده .

وفى قوله تعالى : « وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » ما يُسأل عنه ، وهو : هل فى الأنبياء صالح وغير صالح ، أم أن الأنبياء جميعاً من الصالحين ؟

لا شك أن الأنبياء جميعاً من الصالحين ، لأنهم صفوة خلق الله ، وقد اختارهم الله ، واصطفاهم للسفارة بينه وبين عباده ، وليس يُختار لهذه المهمة الكريمة إلا أكرم الخلق ، وأفضل الناس فى كل أمة يُبعث فيها رسول .. فكلمة « نبيّ » تحمل معها كل معانى الحياة للصلاح والتقوى ! فما الحكمة فى أن وصف النبيّ بالصلاح هنا ؟

ونقول ـ والله أعلم ـ إن وصف النبوة الذى وصف به يحيى فيما وُصف به من صفات ، هو وصف شرَفىّ ، لشرف الوظيفة التى هى النبوة ، وهى مع هذا لا تستغنى عن الأوصاف الشخصية التى تكون للنبيّ ، قبل النبوة ، ومع النبوة . .

والصَّلاح على إطلاقه هو أكمل صفة وأتمها يمكن أن يظفر بها إنسان حتى الأنبياء . . فهى الكمال الإنسانىّ فى أعلى مراتبه وأشرف منازله ، ولهذا كان من دعوات الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا من عباد الله الصالحين كما قال الله تعالى على لسان سليمان : « وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ » . (١٩ : النمل)

وقال تعالى على لسان إبراهيم ، وهو يطلب الولد الصالح : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » (١٠٠ : الصافات)

وقال سبحانه فى وصف عيسى عليه السلام : « وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ » (٤٦ : آل عمران)

ومعنى هذا أن الصلاح صفة ملازمة له ، قبل النبوة ومع النبوّة ، فلو لم يكن نبيّاً من الأنبياء لكان صالحاً من عباد الله الصالحين .

الآيتان : (٤٠ ، ٤١)

« قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » (٤١)

التفسير : أمام الخوارق المذهلة التى تخرج عن مألوف الحياة ، وتجىء على غير حساب الناس وتقديرهم — يقف العقل مشدوهاً مضطرباً ، إذ يفقد توازنه ، ويُفلت من بين يديه كل حساب وتقدير ، ويضل عنه ما كان له من علم ومعرفة . .

لقد رأى موسى عليه السلام — العصا يُلقِى بها من بين يديه فتتحوّل إلى حيّة تسعى ، فتأخذه الرهبة ، ويستولى عليه الفزع ، وينطلق مسرعاً . . ولا يمسكه أنه بين يدى الله ، يناجيه ويُسمعه كلماته !

وهذا زكريا — عليه السلام — يسمع الحق ـ جلّ وعَلاَ ـ يستجيب دعاءه ، ويبشره بالولد الذى طلب ، فتعتريه حال كتلك الحال التى اعترت موسى حين انقلبت العصا إلى حية تسعى ! فلا يملك أن يسأل ربّه : أنَّى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ ، إنها صَدْمة المفاجأة بهذا الأمر الخارق العجيب ، ولو جاء هذا الأمر متلبساً بمقدمات تومىء إليه ، وتكون إرهاصاً به ـ لَمَا كان من هذا النبى الكريم هذا الموقف المثير لعجبه ودهشته ، لأنه على يقين من قدرة الله التى لا حدود لها ، والتى لا يُسأل أمام عجائبها ومُبْدَعاتها .. بكيف ؟ ولكنها — كما قلنا — صدمة المفاجأة ، ودهشة المستقبِل

لأمر غير متوقع !

وقد أجاب الله زكريا بما لا يخفى عليه ، ولا يعتقد فى الله غيره « قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .. ويجوز أن يُوقف على قوله تعالى « كذلك » فيكون اسم الإشارة والمحذوف الذى يكمله هو مقول القول ، والتقدير : كذلك قضى ربك ، أو نحو هذا ، ويكون قوله تعالى « الله يفعل مايشاء » جملة تفسيرية لمقول القول .. وهذا هو الوجه الأظهر للآية الكريمة .

ويجوز أن يكون الوقف عند لفظ الجلالة : « قال كَذَٰلِكَ اللهُ » ويكون المعنى كذلك هو الله سبحانه فى قدرته وحكمته ، ثم يجىء بعدها قوله تعالى : « يفعل مايشاء » جملة مستأنفة ، شارحة موضحة .

وقوله تعالى : « قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً » ليس عن شكٍّ فى تصديق زكريا بما أخبره به ربُّه ، وإنما هو استعجال لهذا الخير المنتظر ، وائتناس بالبشريات التى تحدِّث به ، وتنتصب شاهدةً عليه ..

فالآية التى تعرض لزكريا فى هذا الوقت الذى لا زال فيه الولد فى عالم الغيب ، لم تظهر له فى عالم الوجود إشارة أو علامة تنبئُ عنه ـ الآية التى يراها زكريا فى هذا الوقت ، هى فى الواقع شىء مجسّد يجده زكريا ، ويجد ريح الولد فيه ! وفى هذا ما فيه من تمام الفرحة وكمال المسرة !

وكما استجاب الله لزكريا فيما طلب من ولد ، استجاب له كذلك فيما طلب من آية على هذا الولد ..

« قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا »

هذه هى الآية التى تملأ قلب زكريا طمأنينة وأنساً بالولد المنتظر .. ألاّ يكلّم الناس ثلاثة أيامٍ ، بمعنى أن يجد لسانه عاجزاً عن الكلام ،

محبوساً عن النطق ، فلا يكون بينه وبين الناس تفاهم إلا بالإشارة بيده ، أو الإماءة برأسه ، أو ببعض الحركات بعضو أو بأكثر من عضو من جسده .. وفى هذا صوم إجبارى عن الكلام ، وهو ضرب من ضروب العبادة العالية ، وقد أمر الله تعالى به مريم فى قوله سبحانه : « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ».

ويصح أن يكون قوله تعالى لزكريا : « قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا » يصح أن يكون هذا أمرًا لزكريا بالصَّوْمِ عن الكلام ثلاثة أيام بلياليها ، كما قال تعالى لزكريا فى آية أخرى : « قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا » (١٠ : مريم) وعلى هذا المعنى يكون صوم زكريا عن الكلام صَوْمًا إراديًّا ، استجابة لأمر الله .

والسؤال هنا : لم كانت الآية على هذا الوجه ، وهو أن يصمت زكريا عن الكلام — إجبارياً أو اختيارياً ـ ثلاثة أيام ؟

يجيب أكثر المفسرين على هذا بأن ذلك كان عقاباً لزكريا فى موقفه هذا القلق ، الذى وقفه من الخبر الذى جاءه عن ربّه .. فقال أولا :« أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ؟ » ثم قال ثانياً : « رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً » !

والذى نراه — والله أعلم — ن هذا الصمت الذى فرضه الله تعالى على زكريا مدة ثلاثة أيام ، هو الدواء الذى تسكن به النفس المضطربة المهتاجة بهذا الخبر العجيب .. وهو طب بليغ ، لا يغنى غيره غَناءه فى مثل تلك الحال .. ذلك أنه ليس أحسن من الصمت علاجاً لجمع النفس المشتتة ، وتسكين القلب المهتاج ! .

ولو كان ذلك الصمت عقوبة لكان تكديراً لتلك النعمة التى كانت فى

ذاتها آية من آيات الله .. وتعالت آيات الله أن تُشَاب بسوء ، وجلّت نِعَمُه أن تختلط بكدر !

فالصوم عن الكلام هنا هو من تمام تلك النعمة ، التى تستأهل عظيم الحمد ، وجزيل الثناء ، ولهذا جاء توجيه الله تعالى لزكريا بقوله : « وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ » بعد أن جَعَلَ الصومَ عن الكلام آية له ، شكراً على تلك العطية العظيمة ، وعلى الآية المصاحبة لها .

هذا ، ويمكن أن يُعطِىَ النظر فى الآية الكريمة معنى آخر ، وهو أن قوله تعالى لزكريا : « آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا » هو إيحاء لزكريا بأنه — وهو مما خلق الله — يستطيع إذا تعطلت الأداة الطبيعية للتفاهم بينه وبين الناس ، وهى الكلام ، فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يتفاهم بها ، ويجد منها مايعوضه عن بعض مافقد ، فيتخذ الرمز والإشارة عوضاً عن الكلمة باللسان .. فإذا كان ذلك شأن الإنسان ، حيث يستطيع أن يَخرج عن الأسباب المألوفة ، ويحقق بأسباب غيرها ما كان يحققه بها ، فإن قدرة الله — التى هى فوق نطاق الأسباب أبداً — أحق وأولى بألا تحتجزها الأسباب التى نراها مصاحبة المسببات ! وأنه إذا كان من مألوف الحياة الواقعة تحت حواسنا ألا تلد العقيم ، وألا يُولَد للشيخ الفانى ، فإن قدرة الله — إذا قضت حكمته — تجعل العقيم وَلوداً ، وتخلق من الشيخ الفانى بنين وبنات . . « ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم » .

الآيتان : (٤٢ ، ٤٣)

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ

عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » (٤٣)

التفسير : العطف هنا فى قوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » هو عطف على قوله تعالى : « إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ » ، فهو عطف حَدَث على حَدَث .

ولقد أصبحت « مريم » خادمة بيت الله أهلاً لأن تتصل بالسماء ، وأن تتلقَى فيوضَ رحماتها وبركاتها ، فنادتها الملائكة مبشرة لها بما فضل الله به عليها : « يامريم . . إن الله اصطفَاكِ » بأن جعلك فى عباده المصطفيْن ، القائمين على عبادته وطاعته . . « وطهّركِ » من الشِّرك به ، أو التدنّس بالكبائر من الآثام . . « واصطفاك على نساء العالمين » أى جعل منك الولد الذى لم يولد لإنسان من الناس على ، صورة مثل صورته ، وهو « المسيح » الذى سيولد من غير أب . . نفخةً من روح الله ، وكلمة من كلماته !

إنها صورة فريدة لامثيل لها فيا تلد الأمهات . . فلقد اصطفى الله — سبحانه — هذه الأنثى المباركة ، لتكون معرضاً من معارض قدرته ، ومجلًى من مجالى صنعته فيا يصنع ، وشاهداً من شهود تلك القدرة التى إن أقامت هذا الوجود على سُنن ، وربطت بين المسببات والأسباب ، فإنها فوق السنن ، وفوق الأسباب ، . . تخرج الحىّ من الميت ، وتخرج الميت من الحىّ . . وتخلق أصل الإنسانية كلها ابتداء من غير ذكر أو أنثى — هوآدم — وتخلق أنثى — هى حواء — من ذكر ، دون اتصال بأنثى ، وتخلق ذكراً — هو المسيح — من أنثى دون اتصال بذكر !

فهذا هو الاصطفاء الذى اصطفى به الله سبحانه وتعالى « مريم » على نساء

العالمين ، إذ كانت منها هذه الآية العجيبة ، وتلك المعجزة الفريدة بين المعجزات !

ومن حقّ هذا الاصطفاء الذى أضفاه الله على « مريم » أن تتلقاه بالشكران والحمد لله ربّ العالمين ، فكان أن وجهها الله سبحانه ، إلى هذا بقوله : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » والقنوت هو الخضوع لله ، والولاء المطلق لعزته وجلاله ، والسّكن إلى نعمه وأفضاله .. والسجود والركوع عملان من عمل الجوارح لعبادة الله ، والولاء له .

فالقنوت عبادة صامتة مكانها القلب .. والسجود والركوع عبادة ظاهرة ، مظهرها الجوارح .. وبالقنوت ، والسجود ، والركوع ، يصبح باطن الإنسان وظاهره جميعاً مشتغلا بعبادة الله ، متجهاً إليه ، قائماً على الولاء له .. وهذا هو أكمل العبادة وأتمها .

الآية : (٤٤)

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ » (٤٤)

التفسير : الإشارة هنا ، إلى ما ذكره الله سبحانه وتعالى من أخبار امرأة عمران ، وزكريا ، ومريم ابنة عمران .. وهى مما غاب أمره عن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — ولم يكن عنده من أخبارها شيئاً .. فهى غيب بالنسبة للرسول ، وإن كان عند أهل الكتاب شىء منها !

وقوله تعالى : « وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » تأكيد لما بين الرسول ، وبين هذه الأحداث من بُعْد ، ومن

غيــاب أمرها عنه ، لأنه — أولا — لم يكن من أهل الـكتاب ، ولا من القارئين الدارسين لما فى أيدى أهل الـكتاب من علم ، ولأنه — ثانياً — لم يكن معاصراً لهذه الأحداث ، ومشاهداً لها ..

ومن جهة أخرى ، فإن من هذه الأنباء مالم يكن عند أهل الـكتاب — وخاصة معاصرى النبوة — شىء منها ، مثل ما أخبر به القرآن من اختصام المختصمين فى كفالة مريم ، وأيهم أحق بها ، ثم التجاؤهم فى هذا الخلاف إلى أن يقترعوا عليها ، وذلك بإلقاء أقلامهم فى الماء ، فأيهم ثبت قلمه كفلها ، وقد أصابت القرعة زكريا ، فـكفلها زكريا ، كما أخبر القران الـكريم بهذا .. فهذا كلّه لم يكن عند أهل الـكتاب المعاصرين للنبيّ شىء منه ، ولم يكن فيما بين أيديهم من كتب الله حديث عنه .

وفى هذه الأخبار التى يتلقاها محمد من السماء ، على غير سابق علم بها ، وفى مجيئها على تمامها وصحتها ، غير محرفة ، ولا مبتورة ، كما هو الحال فيما بقى بين أيدى أهل الـكتاب منها — فى هذه الأخبار دلالة قاطعة على أن مايتلقاه محمد من أخبار ، هو من مصدر عالٍ ، لايرجع فيه إلى بشر ، ولايستند فيه إلى علم بشر ، وإلا كان لزاماً عليه ألا يخرج عن محتوى مايرد إليه من علم العالِين !

الآيتان : (٤٥ ، ٤٦)

« إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ » (٤٦)

التفسير : متعلق الظرف « إذ » هو قوله تعالى : « وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ

إِذْ يَخْتَصِمُونَ » أى لم تكن يامحمد شاهداً لأمر مريم ، وماوقع فيه من خصام فى الولد الذى جاءت به من غير أب ، إذ جاء هذا الولد بنفخة من روح الله ، وبكلمة منه .

وقوله تعالى : « اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ » هو الاسم الذى اختاره الله لهذا المولود « المسيح عيسى بن مريم » !

فالمسيح صفة هذا المولود ، وقد ورد كلمة مسيح فى كثير من المواضع فى التوراة ، وترجمها اليهود الذين كتبوا الترجمة اليونانية السبعينية للتوراة (حوالى ٣٨ ق . م) باللفظ اليونانى الذى معناه الشخص الذى مُسح بالزيت المقدس ، وهو زيت الزيتون .. وكلمة مسيح فى العبرية تنطق هكذا : (مَحْسِيح) .

و « عيسى » هو اسمه .

و « ابن مريم » هو صفة تكشف عن نسبه إلى من وَلَده ، وهى أمّه ، على حين يُنسب الأبناء إلى آبائهم ، وإذا كان ولا أب له ، فإن نسبته إلى أمّه أمر لازم ، لابد منه .

وقوله تعالى : « وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » الوجاهة هنا الرفعة وعلوّ الشأن .. أما فى الدنيا ، فيكاد المسيح — عليه السلام — يكون واحداً من أفراد يُعَدُّون على أصابع اليد ، ملأ الدنيا ذكرهم ، وعَمَرت قلوبُ الناس بحبّهم والولاء لهم ..

وأما الآخرة فعند الله وفاء هذا الوعد الكريم الذى وعده به . « وجيهاً فى الدنيا والآخرة ، ومن المقربين » .

قوله تعالى : « وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً »

كلام المسيح فى المهـــد

ذَكَرَ القرآن الكريم ، فى أكثر من موضع ، أن المسيح — عليه السلام — تكلم فى المهد ، وذلك ليكون آية على طهر أمه وعفافها ، وبراءة عِرضها من أن يعلق به شىء مما تلوكه الألسنة ، وتوسوس به الظنون ، فى حال كحال مولود يولد من غير زواج معترف به شرعاً ، أو عُرفاً !

ففى البشارة الأولى التى تلقتها مريم من السماء ، يكشف لها الوحى ، عن وجه هذا الغلام ، الذى ستلده العذراء هذا الميلاد العجيب ، الذى لم تعهده فى الناس ، ولم تعلمه فى واحدة من بنات جنسها ، وفى هذا يقول الله تعالى : « إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ » (٤٥ ـ ٤٦ : آل عمران) .

والصفة البارزة التى لهذا الوليد هنا ، هى نطقه وهو فى المهد ، وحديثه إلى الناس حديثا واضحا مفهوما .. أما وَجاهته فى الدنيا والآخرة ، فهو أمر معنوى ، لا ينكشف للناس انكشاف الكلام فى المهد ، ولا يقع منهم موقع هذا الكلام الذى يثير العجب والدهش ، ولا يدع لأحد سبيلاً إلى الإنكار أو المكابرة

ولكن هنا سؤال هو : ماوجه الإخبار عن كلام المسيح كهلاً ، إلى جانب الإخبار عن كلامه فى المهد .. مع أن كلامه كهلاً أمر مفروغ منه ، والإخبار به نافلة غير مطلوبة فى ظاهر الأمر ؟

أكثرُ أقوال المفسرين لتعليل هذا ، أنه إخبار عن رجعة المسيح — فى آخر الزمان — وذلك أنه مات فى سنّ الكهولة ، وأنه سيعود إلى الدنيا مرة أخرى

فى سنّ الكهولة . . وهذا تعليل ـ إن صح ـ فإنه يقوم على اعتبار أن رجعة المسيح أمر سيقع ، وأنه لا وجه لهذا التعليل إذا كانت تلك الرجعة مشكوكاً فيها ، أو مقطوعاً بعدم وقوعها .

وإذا كان من رأينا أن رجعة السيد المسيح من الأمور غير المحققة ، وأن الشك فى وقوعها ـ فى رأينا ـ يغلب أى احتمال ينبنى على روايات وآثار تقول بها ـ إذا كان هذا هو رأينا ، فإننا نرى لتعليل هذا الأمر ـ وهو كلام المسيح كهلاً ـ وجهاً آخر .

فنقول — والله أعلم — : إنه لمّا كان النطق فى المهد أمراً واقعاً على غير المألوف ، خارجاً عن طبيعة البشر ، فقد يقع فى حساب الناس وتقديرهم أن هذا الوليد الذى تكلم فى المهد ،سيسلك فى الحياة مسلكاً غير مسلكهم، ويسير فى طريق غير طريقهم ، وأنه وقد بدأ حياته متكلماً يوم مولده ، فغير مستبعد أن يكون كلاماً بعد أن يكبر ويشب واقعاً على صورة أخرى مفارقة لكلامه فى المهد . . فالطفل يبدأ الكلام بأصوات أشبه بأصوات الحيوان . . ثم تستبين تلك الأصوات شيئاً شيئاً ، حتى تصبح لغة واضحة ، ذات دلالة محدودة مفهومة .. وقياساً على هذا . . قد يقع فى التقدير أن كلام المسيح سيتدرج كما يتدرج كلام الطفل . . وأنه وقد بدأ بالكلام واضحاً فصيحًا من أول يوم ، فإنه فى تدرجه بعد هذا سينتهى إلى صورة أخرى من الكلام ، يكون الفرق بين أولها وآخرها ، كالفرق بين أصوات الطفل ، وبين كلامه فى الكهولة والشباب !

هذه بعض المفاهيم التى يمكن أن تقع فى الأفهام وتدور فى الخواطر ، عن هذا الحدث العظيم .. وهذا مايدفعه قوله تعالى : « ويكلّم الناس فى المهد وكهلا » . . حيث تقرّر الآية أن كلام عيسى فى المهد وكلامه فى الكهولة على

سواء ، لا اختلاف بينهما ، وأن صلة التفاهم لا تنقطع بينه وبين الناس فى مراحل حياته،وأنه إذا كلّمهم فى مولده بلغة سليمة مفهومة ، فإنه سيكلمهم بهذه اللغة أيضاً فى أدوار حياته . . وبهذا تعلم مريم من أول الأمر أن وليدها الذى سيتكلم فى المهد ، لايخرج به ذلك عن طبيعة البشر ، ولا يجعل منه مولودًا شاذاً ، تشقى به أمه ، وتعانى من شذوذه هذا ، ما تعانى الأمهات من مواليدهن الذين يجيئون على غير مألوف الحياة .

وقد يكون لمعترض أن يلقانا بهذا السؤال : لم نَصّ القرآن على دور الكهولة وحده ، دون أدوار الحياة الأخرى . . من صِباً وشباب وشيخوخة ؟ .

والجواب على هذا ، هو : أن دَوْر الكهولة هو الدور الذى يبلغ فيه الإنسان تمام نضجه الجسدى والعقلى . . فإذا كان كلام المسيح فى المهد وفى الكهولة على حال واحدة ، كان ذلك هو المعيار الذى تنضبط عليه لُغته ، وطريقة حديثه إلى الناس ، فى جميع أدوار حياته .

وندع هذا ، لنصل ما انقطع من حديثنا عن كلام المسيح فى المهد ــ فنقول :

إن مريم ــ عليها السلام ــ إذ تلقت هذه البشرى من رسول ربها ، قد لَفَتَها منها أمران : أن يكون لها ولد من غير أن يمسسها بشر . . ثم أن يكون هذا المولود على صفات خاصة . . أهمها أنه يتكلم فى المهد ، كلاماً سليماً واضحاً ، كما يتكلم الراشدون من الناس .

ولعلّ مريم لم تلتفت كثيراً إلى ما لهذا الوليد من صفات ، إذ كان شُغْلها الشاغل إذاك ، هو أن تلد مولوداً من غير زوج يتصل بها .

ولهذا كان عجبها ودَهَشُها ، فى هذا الاستفهام الإنكارى الذى ذكره القرآن على لسانها : « أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » ؟ . . فهذه هى مشكلتها ، وهذا هو موضع عجبها ، ودهشها فى تلك الحال . .

ثم إنه حين تم لها ما أراد الله ، وجاءها المخاض ، ووجدت نفسها أمام الأمر الواقع ، وأنها فى وجه فضيحة لا دفع لها ـ كان عزاؤها الوحيد فى تلك الحال هو ما كان قد أبلغها إياه رسولُ ربّها ، بأن وليدها سيتكلم فى المهد ، وسينطق بالشهادة التى تدفع قالة السوء عنها .. وفى هذا يقول الله تعالى : « فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ وَأَوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوَالِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا * وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * »

(٢٧ — ٣٣ : مريم)

ففى هذا الموقف المتأزّم جاءت المعجزة ، لتواجه القوم ، ولتُخرس تلك الألسنة المتطاولة ، ولتأخذ على المتقوّلين فيه وفى أمّه كل سبيل .. فهذا الوليد الذى وُلد لغير أب ، قد نَطَق فى المهد وتكلّم فى حال لا يتكلم فيها طفل غيره .. فمولده من غير أب ، وكلامه فى المهد ، على حدٍّ سواء ، فى الغرابة والاستنكار .. وأنه إذا كان لأحدٍ أن ينكر هذه المعجزة القاهرة ، وهى معجزة كلام الوليد فى المهد ، فلينكر ميلاد هذا الوليد غير أب ! ! .

وكلام السيد المسيح هنا صريح واضح ، على شاكلة ما يتكلم به قومه ، وباللغة التى يتعاملون بها ، وقد فهموا عنه ما قال ، ولم يكن ما نطق به محتاجاً إلى تأويل أو تخمين .

وقد ذكر القرآن الكريم مرةً ثالثة كلام المسيح فى المهد ، فى معرض

الامتنان على المسيح نفسه ، بما كان من نعم الله عليه ، وألطافه به . . حيث يقول سبحانه وتعالى : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » .

(١١٠ : المائدة)

ويلاحظ هنا أيضاً كلامُ المسيح فى المهد وكلامه كهلاً ، وذلك ليذكُر المسيح ـ وهو المخاطَب بهذا من ربّ العالمين ـ أن كلامه فى المهد كان على صورة هذا الكلام الذى يتكلم به فى كهولته . . فيه العقل والمنطق والحكمة ، وليس أصواتاً كأصوات الأطفال ، ولا لغواً كلغو الصبيان ! .

والسؤال هنا . . هو : هل كان كلام المسيح فى المهد حَدَثاً وقع فى موقف الدفاع عن التهمة التى رُمِيتْ بها أمه من قومها . . ثم أمسك المسيح بعدها عن الكلام ، ليأخذ الحياة على مألوف المواليد من الناس ، وليدرج فى مدارج الطفولة خطوة خطوة . . أم أنه استمر متكلّماً مُبيناً إلى آخر أيامه ؟ .

ونقول : إن كلام المسيح فى المهد هو معجزة متحدّية ، مثل معجزاته فى إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص .

والشأن فى تلك المعجزات المادية أن تظهر فى الحال الداعية لها ، ثم تختفى ، فلا يرى الناس لها وجهاً إلى آخر الأبد .

ومن الحكمة فى هذا ألا تعيش المعجزة المادية طويلاً فى حياة الناس ، حتى لا يألفوها ، هذا الإلف الذى يذهب ببهائها وجلالها .

ثم إن المعجزة المادية القاهرة امتحان وابتلاء ، وما كان هذا شأنه فإن من الحكمة أن يُلِمّ بالناس إلماماً ، وألا يقيم إقامة دائمة ، تلح على الناس فيه

الآيات المنطلقة منه ، إلحاحًا ملازمًا ، وبهذا يتمايز الناس ويتفاضلون فى الإفادة من الفرصة العابرة ، المتاحة لهم . .

والقرآن الكريم – وإن قطع بأن المسيح تكلم فى المهد ، فإنه لم يذكر شيئًا عن صمته أو كلامه ، بعد هذه الواقعة التى دافع فيها عن شرف مولده ، وطُهر أمه وعفافها .. لأن ذلك لا يقدّم ولا يؤخر فى هذا الموقف .

ولكنا – مع ذلك ، ومع احترامنا لصمت القرآن فى هذا الأمر – نستطيع أن نقول : إن المسيح لم يكن كلامه فى المهد ، إلا تلك الكلمات التى نطق بها ، فى مواجهة الاتهام المصوّب إلى أمه من قومها ، وأنه بهذه الكلمات الواضحة المحدودةَ ، قد أرى القومَ معجزة منه ، تناظر المعجزة التى وُلد بها ، والتى ينكرونها على أمه ! ثم عاد بعد هذه الكلمات إلى الطفولة فى صمتها ، وفى نطقها . . كما سيتضح ذلك فى حديثنا عن الأناجيل وإغفالها لذكر هذا الحدث العظيم ، من حياة المسيح !

الأناجيل وحديث المسيح فى مهده :

والذى يدعو إلى العجب حقًا ، هو أن الأناجيل الأربعة التى يَدين بها المسيحيون اليوم ، لم تُشر أية إشارة من بعيد أو قريب إلى كلام المسيح فى المهد ، ولم تذكر دفاعَه المفحِم عن أمّه ، فى وجه تلك التهمة التى انعقد دخانها عليها ، يوم جاءت به تحمله إلى قومها . .

ونسأل أولاً :

لماذا ذكر القرآن هذا الحدث الذى لم يكن عند أهل الكتاب – من أتباع المسيح – المعاصرين للنبىّ علمٌ به ، أو كان لهم به علم ولكن لم يجرءوا على ذكره ؟ لماذا يذكر القرآن هذا عن المسيح ، ويعطى أتباع المسيح معجزة للمسيح ، هم ينكرونها ؟

ونقول : إن القرآن الكريم إذ يقف هذا الموقف ، وإذ يَجْبَه إجماع

أتباع المسيح على إنكار هذه الواقعة ـ لَيَعلمُ عن يقين أنه يُواجه بهذه الحقيقة عَالمًا متربصًا به، متلهفًا إلى اصطياد المعاثر والمزالق له ، فكان من المتوقع ـ والأمر كذلك ـ أنه إذا جاء يحدّث أهل الكتاب عن أمر هو فى أيديهم ، ومن خاصة أمورهم ـ كان حديثُه معهم جاريًا مع ما يعرفون منه ، وما يروون عنه ، فإن كان اختلاف فى شيء ، ففى ترتيب الأحداث وتلوينها ، فإن زاد الخلاف شيئًا ، ففى الأحداث العارضة،التى لا تدخل فى الصميم من ذاتية هذا الأمر .

أمّا إذا كان الحديث عن أمر له شأنه وخطره فى بناء العقيدة ، ثم كان مما يقيم لأصحاب تلك العقيدة حجة دامغة ودليلاً قاطعاً لمقولاتهم التى ينكرها عليهم ـ فإن ذلك هو أعجب العجب . . حيث يجىء القرآن إلى هذه الدعوى التى ينكرها على أتباع المسيح ، فى تأليههم له ـ يجىء فيضع بين يدى أصحابها حجة أقوى من حجتهم لها ، ودليلاً أوضح من دليلهم عليها . . إن ذلك لعجب عجيب ! !

ذلك أن أتباع المسيح يتخذون من معجزات المسيح الخارقة ـ كإحياء الموتى ، وإبراء ذوى العاهات والزّمنَى ـ يتخذون من ذلك دليلاً على ألوهيته . ولو كانوا يرون سبيلاً إلى القول بأنه تكلم فى المهد لحَرَصوا على إظهار تلك المعجزة ، وإضافتها إلى ماله من معجزات ، ليقوّى هذا من قولتهم فيه ، وتأليههم له ! . . فكيف يقدّم القرآن لخصومه فى تلك الدعوى التى يدّعونها ، والتى ينكرها عليهم ـ كيف يقدّم لهم مستنداً جديداً ، يؤيد هذه الدعوى عندهم ، ويؤكد هذا الزعم لديهم ؟

ونقول : إن القرآن الكريم لا يلتفت إلى شىء من هذا ، ولا يجعل له شأناً فى حسابه مع ما يدعيه المدعون . . وإنما الذى يلتفت إليه ، ويحسب له

حساباً ، هو الحق ، والحق وحده .. سواء وافق هذا الحق واقع الناس، وجرى مع معارفهم ومعتقداتهم ، أم جاء على طريق غير طريقهم ، وبعلمٍ غير علمهم !

وهذا شاهد من شهود القرآن الكريم ، بأنه ليس من عَمَل بشر ، ولا مِن تدبير إنسان ، وإلا كان عليه أن يتجنب هذا الصدام الصريح مع الواقع ، الذى لا يعلم ما وراءه إلا علام الغيوب .. وإلا كان عليه أيضاً — لو أنه من عمل بشر — أن يُخفى مابين يديه من حجج يستند إليها خصومه، ويتخذون منها سلاحاً يحاربونه به ، فى المعركة الدائرة بينه وبينهم .

وما كان لغير الحق السماوى أن يقف هذا الموقف ، إزاء أمر يشتهيه أهله وهم به جاهلون ، ويتمنّونه وهم منه وَجِلون .. خوفاً من البَهْت والتكذيب .

لهذا ، فإن القرآن الكريم ، إذ يقول ما يقول فى عيسى وأمه مما تنكره اليهود ، وتقول بخلافه فيهما ، وإذ يقول ما يقول فى عيسى ، وفى كلامه فى المهد مما ينكره النصارى ، ولا يجدون عليه شاهداً مما فى أيديهم من أناجيل — إن القرآن ، إذ يقول هذا ، وذاك ، إنما يقول الحق الذى غُمَّ على الناس أمره ، وَعُمِّيَت عليهم سبله ، ثم لاعليه إذا هم صدقوه وآمنوا به ، أو كذبوه وأعرضوا عنه .. فإن الحق الذى نزل به، سيظل هكذا قائماً على الدهر ، يتحدى المكابرين والمعاندين ، ويواجه أبصار المتشككين والمنحرفين ، « فمن أبصر فلنفسه ومن عَمِىَ فعليها » (١٠٤ الأنعام) ..

« وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَآءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ »

(٢٩ : الكهف)

والعاقبة دائماً للحق ، فإنه وإن غامت عليه سحب الضلال ، وانعقدت فى سمائه ظلمات الجهل — فإنها أمور عارضة ، لاتلبث أن تزول ، وإن طال مُقامها ..

لماذا لم تذكر الأناجيل كلام المسيح فى المهد ؟

وإذا تركنا جانباً ، النظرَ فيما وقع فى الأناجيل من تحريف وتبديل،وقلنا إنها والقرآن على سواء فى صحتها وسلامتها ـ كان ظاهر الحال يشهد بأن كفّتها هى الراجحة فى هذه القضية ، وأن الكلمة كلمتها فيما تقول فيها ، وأن عدم ذكرها لكلام المسيح فى المهد يقطع بأن المسيح لم يتكلم فى المهد ! إذ لو كان قد تكلم فى المهد لما كان هناك من سبب يدعو كتّاب الأناجيل إلى إغفال هذه الحادثة،التى تُعلى من شأن المسيح ، وترفع قدره ، وتكاد تَخْرُج به عن حدود البشر،وترفعه إلى مقام الملأ الأعلى — الأمر الذى يقوّى من دعوى أتباعه ، بأنه هو الله أو ابن الله ! .. بل وأكثر من هذا ، فإن عدم ذكرها لهذا الأمر العظيم لدليل على أنها كانت تلتزم جانب الحق فى كل ما تقول فى المسيح ، وأنها لم تقل فيه قولاً لم يكن له ، أو منه ! !

ولكن إذا أعدنا النظر فى هذه المسألة على ضوء الظروف والملابسات التى كُتبت فيها الأناجيل، والتى تبدو واضحة لأدنى نظرة يُنظر بها إليها — إذ فعلنا ذلك ، رأينا أنه ليس ببعيد أن ينخرم من الأناجيل هذا الخبر ، وأن يُسقطه الذين كتبوها ، من حسابهم ، لأمرٍ قدروه ولحساب حسبوه !

ويمكن أن يعلل لذلك بعلل كثيرة .. منها :

أولا : أن الأناجيل قد كُتبت فى وقت كان اليهود يشنّعون فيه على المسيح ، ويلاحقون أتباعه ، ويأخذونهم بالبأساء والضراء حيث وجدوهم .

ثانيا : قدّر كتاب الأناجيل أن الجوّ الذى يحيط بهم مشحون بالأكاذيب التى يُطلقها اليهود فى جنون ، حول المسيح وأمه . ويبهتون كل ما كان له من معجزات،ويدخلونها فى باب الشعوذة والدجل..فليس معقولا والأمر كذلك .

أن يفتح كتاب الأناجيل جبهة جديدة للحرب بينهم وبين اليهود، وأن يُلقوا إلى النار المشبوبة وَقودا جديدا، يزيدها اشتعالاً، ويزيد اليهود سفاهة وتطاولاً!

ثالثاً: لنا أن نجمل فى اعتبارنا أن كلام المسيح فى المهد، لم يكن حدثاً قائماً يعيش فى الناس، وإنما كان لحظة عابرة — كما قلنا من قبل — أريد به أن يطفىء ثورة ثائرة على أمه.. وأنه إذا كانت تلك المعجزة قد أحدثت هزة عميقة، ودوياً عاليا — فإن صمت المسيح بعدها إلى أن جاوز دور الطفولة، قد أطفأ جذوتها، وجعلها تتوه خلال تلك الأحداث المذهلة التى دارت حول المسيح، فى كل خطوة كان يخطوها، وسط صَخَب اليهود وجلبتهم.

رابعا: الذين شهدوا كلام المسيح فى المهد لم يكونوا يجاوزون بضعة من الناس، هم القرابة القريبة من أمّه، الذين استقبلوها وهى تحمل وليدها، فأنكروها وأنكروا ما تحمل!! ومثل هذا العدد، وإن وَجَدوا فى كلام المسيح ما يمسك ألسنتهم عن قول السوء فى العذراء البتول — لايمكن أن يقف لهذه الأعداد الكثيرة التى تعيش خارج هذه الدائرة المحدودة، وتخفت صوتها، الذى إن بدأ خافتاً، متهامساً، متقطعاً، فإنه سيعلو ويعلو، ويصير صراخاً، وعُواء يملأ أرجاء اليهودية، حين يواجه المسيح اليهودَ بدعوته، ويواجهونه هم بالإنكار والتكذيب، ثم المطاردة، والمحاكمة!!

والصورة التى تبدو لنا من هذا الموقف.. هى هكذا:

عِدّةٌ من الناس.. قد يكونون عشرة، أو ما دون العَشَرة أو أكثر، هم رهط مريم الأقربون، قد رأوا الوليد، وسمعوه يتكلم، ويدفع عن أمه العار الذى واجهوها به.. فلما صمتوا حين تكلّم، صَمَت هو إلى أن فارق طور الطفولة..

ثم هناك أعداد لاحصر لها من الناس، ترامى إلى سمعها هذا الخبر العجيب، فجاءت تطلب له الشاهد من فم هذا الطفل الذى نطق، فلم تجد إلا صمتاً، ولم

تشهد فيه إلا ملامح الطفولة ومخايلها .. فرجموا بين مصدِّق ومكذب ، وبين متشكك ومتهم ! !

ثم يمضى الزمن بهؤلاء وأولئك جميعاً .. ويتقلب هؤلاء وهؤلاء ، بين الشك واليقين ، والتكذيب والاتهام .

أما أصحاب اليقين ، الذين عاينوا المعجزة — وهم قلة — فتذهب بهم الأيام واحداً واحداً ، حتى إذا بلغ المسيح أَشُدَّه ، وطلع على الناس بمعجزاته ، لم يكن منهم فى الحياة إلا بضعة أفراد ، أو مادونهم .

وأما المتشكّكون والمترددون ، فقد أنسام الزمن هذا الأمر ، وما عَاِق بنفوسهم منه .. من شك أو تردد .

فلما أن كان وقت كتابة الأناجيل ، كانت تلك الحادثة — حادثة كلام المسيح فى المهد ، قد ضاعت فى طوفان الأحداث التى اتصلت بحياة المسيح ، والتى انتهت بهذا الحدث العظيم . فى قضية صلبه ، وقيامه من الأموات.. ثم فى مطاردة تلاميذه وأتباعه ، والتنكيل بهم . حيث وقعت عليهم عين ، أو وقعت عليهم يد !

لقد كانت حادثة كلام المسيح فى المهد ، عند كتابة الأناجيل ، شيئاً باهتاً ، أشبه بأضغاث الأحلام ، لم يُمسك الناسُ منها إلا بذكريات غامضة مضطربة ، فكان إعلانها وإذاعتها فى هذا الوقت مما يقوّى جبهة أولئك الذين يُجدّفون على المسيح ، ويرمونه وأمّه بالمنكرات والأباطيل والمفتريات !

هذا ، وليست حادثة كلام المسيح فى المهد ، هى وحدها التى أغفلت الأناجيل ذكرها ، من متعلقات المسيح وأخباره ، بل لقد أغفلت الأناجيل — عن تدبير وتقدير — كثيراً مما كان للسيد المسيح .. تقِيَّةً وخوفاً ، تحت ضغط الظروف القاسية التى كتبت فيها الأناجيل .

فمثلا : « ميلاد المسيح من عذراء » .

هذا الحدث ، لايقلّ شأناً وإثارة ، وتحدياً عن كلام المسيح فى المهد !

ومع هذا ، فإن إنجيلى « مرقس » و « يوحنا » لم يشيرا أية إشارة إلى هذا الميلاد .. والقديس « بولس » مؤسس المسيحية،وداعيتها الأول ، لم يتحدث عن هذا الميلاد ، ولم يشر إليه فى رسائله ، ولم يتخذ منه آية يغزو بها القلوب ، لدعوته التى كان يدعو بها،ويجمع لها كل القوى المادية والمعنوية ، لتأخذ طريقها إلى الناس !

ثم إن إنجيلى « متى و « لوقا » اللذين تحدثا عن هذا الميلاد العذرى ، لم يذكرا ذلك إلا ذِكراً عابراً ، وفى غير التفات إليه ، أو احتفاء به ، بل إنهما إذ يقولان بميلاد المسيح من عذراء ، يعودان فيُرجعان نسب المسيح إلى داود عن طريق « يوسف » الأب المسمّى للمسيح ، وكأنما أرادا بذلك أن يسدّا هذه الفجوة ، بنسبة المسيح إلى يوسف ، زوج أمّه !

فإذا وقع فى تقديرنا أنه كان من الممكن إلغاء إنجيل « متى و « لوقا » اللذين ذكرا ميلاد المسيح من عذراء . كما ألغيت عشرات الأناجيل غيرهما ، ثم أصبح اعتماد المسيحية على إنجيلى « مرقس » و « يوحنا » — لو وقع هذا — وكان من الممكن أن يقع — لما كان فى المسيحية أية إشارة إلى هذا الميلاد ، ولذهب من تاريخ المسيح ، كما ذهب كثير غيره من أقواله ، وأعماله .

وحادثة مجىء المسيح إلى مصر ، مع أمه ، وزوج أمّه ..

هذه الحادثة ، لاتقلّ خطراً ، عن كلام المسيح فى المهد ، وعن ميلاده من عذراء ، إذ كانت عن إرهاصات مزلزلة ، لما سيكون لهذا الوليد من شأن .

ومع هذا فإن إنجيلاً واحداً من الأناجيل الأربعة المعتمدة هو الذى ذكرها ، ذلك هو إنجيل متى ، الذى يروى هذه الحادثة على هذا النحو :

« ملاك الربّ » ، ظهر ليوسف (زوج مريم) فى حلم ، قائلا : خذ الصبى وأمّه واهرب إلى مصر ، وكن هناك ، حتى أقول لك ، لأن « هيرودس » (ملك اليهودية) مزمع أن يطلب الصبىّ ليهلكه ، فقام وأخذ الصبىّ وأمه ليلا وانصرف إلى مصر ، وكان هناك إلى وفاة « هيرودس » (متى : ٢ : ١٣–١٥) وهذا الخبر لم تذكره الأناجيل الثلاثة ، ولم تشر إليه أية إشارة !

فكيف كان الحال ، لو أُلغى إنجيل متى كما أُلغيت عشرات الأناجيل ، وكُتب عليها أن تختفى إلى الأبد ؟

وننتهى من هذا إلى القول بأن ماذكره القرآن من كلام المسيح فى «المهد» هو الحق الذى لاشك فيه ، وأن خلوّ الأناجيل من ذكر هذا الحدَث ، لايجعل لها حجة على القرآن فى هذا المقام ، خاصة وقد أغفل معظمها أحداثاً تتعلق بالمسيح ، ولا تقل شأناً عما ذكره القرآن عن كلامه فى المهد !

إن القرآن قد أخبر بأن المسيح تكلم فى المهد ، وهذا الخبر ، هو معجزة متحدّية ، إذ ينكره من هم أشد الناس حرصاً على وقوعه ، ليكون لهم منه حجة تقوّى معتقدهم فى ألوهيته المسيح ، وفى خروجه عن طبيعة البشر !

إن ذلك عند المؤمنين بالقرآن معجزة متحدية ، وهو عند غير المؤمنين ، دعوى ينقضها الدليل والبرهان ، أو فرية يردّدها أصحاب الأهواء والبدع !

فهذه منازل ثلاث ، فى القول بأن المسيح تكلم فى المهد .

والناس على منازلهم تلك .. إلى أن يأتى أمر الله ، فيكشف وجه الحق ، ويومئذ تَبيَضّ وجوه ، وتسودّ وجوه !!

بقيت كلمة لابد منها ..

وهى أنه قد يقع لفهم بعض الناس من قولنا إن فى الأناجيل اختلافاً ،

وتعارضاً ، وكتماناً لبعض الحقائق — قد يُفهم من هذا أننا ننتقص من قَدْر الحواريين ، ونسيء الظن بهم وبأماناتهم فيما نقلوا عن المسيح .. إذ أن الأناجيل الأربعة ، يُنسب ثلاثة منها إلى : متى ، ومرقس ، ويوحنا ، وثلاثتهم من الحواريين ..

ومعاذ الله أن نشكّ فى أمانة الحواريين ، عليهم السلام ، إنهم أجلّ من أن يكذبوا ، أو يخونوا الأمانة ، إذ كان الله سبحانه هو الذى اختارهم للمسيح أعواناً وأنصاراً ، كما يصرح بذلك القرآن الكريم ، فى قوله تعالى :

« وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ » (١١١ : المائدة)

والذى يمكن أن يقال فيما وقع فى الأناجيل من اختلاف ، وما جاء فيها من مقولات يقف العقل إزاءها موقف الشك أو الإنكار — هو أن الأناجيل إما أن تكون قد كتبت بأيدى هؤلاء الحواريين المعروفين ، ثم دخل عليها ماليس منها ، مما هو موضع خلاف ، أو شك ، أو إنكار ، وذلك عن طريق الناقلين والمترجمين ..

وإما أن تكون قد كُتبت بغير أيدى أصحابها ، ثم أضيفت إليهم ، وحسبت عليهم ، لتكتسب ثقةً وذيوعاً .. وهنا يتسع المجال لوقوع ذلك الاختلاف بين الأناجيل ، وما تحمل فى ثناياها من تلك المقولات المختلفة المتضاربة !

الآيات : (٤٧ — ٥١)

« قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧)

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » (٥١)

التفسير : عجبت مريم لهذا الأمر العجيب ، الذى تحدثها الملائكة به من عند ربها .. أن تلد مولوداً من غير أن تتصل بزوج ! وكيف ؟ وماذا تقول للناس ؟ ومن يسمع لها أو يصدق قولها ؟ وأنىَّ لها القوة التى تحتمل بها لذعات الألسنة ، وغمزات العيون ، وهمسات الشفاه ؟ إنها تجربة فريدة فى عالمها ، لم تكن لامرأة قبلها ، فكيف لها باحتمالها ، واحتمال تبعاتها ؟

وفى وداعة العابدة المتبتلة ، ولطف العذراء وحيائها .. تسأل ربها : « رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ » ويجيبها رسول ربها : « كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » .. لا حدود لقدرته ، ولا ضوابط من نواميس الطبيعة التى نعلمها ، بالتى تحول بين قدرة الله وبين أن تأتى بما لا نحسب ولا نقدر !

وفى قوله تعالى هنا « اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ » وقوله فى إجابة زكريا : « اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » مراعاة تامة للمقام هنا وهناك .

ففى أمر مريم عملية خَلْقٍ كاملة . فناسبها قوله تعالى :« اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ »

أما فى قصة زكريا فهى على خلاف هذا .. مولود من رجل وامرأة ، وإن كان كلٌّ من الرجل والمرأة غير أهل لأن يولَد له فناسبه أن يعبر عنه بالفعل « اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » والخلق والفعل وإن كانا من باب واحد ، فإن هناك فرقاً دقيقاً بينهما ، وهذا الفرق الدقيق له وزنه وله اعتباره فى بناء الأسلوب البلاغي الرفيع ، الذى لايوجد على كماله وتمامه إلا فى القرآن الكريم .

فى قوله تعالى : « وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ » ما يسأل عنه وهو : الكتاب والحكمة .. ماهما ؟ لقد مَنّ الله على عيسى بأن علمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل .. والتوراة والإنجيل معروف أمرهما ، إذ كانت التوراة كتاب موسى وشريعته ، وبالكتاب وبالشريعة دان عيسى ، ثم كان له كتابه وهو الإنجيل . . يبشر به وبكتاب موسى وشريعته . . فما الكتاب والحكمة اللذان تعلمها من الله قبل أن يتعلم التوراة والإنجيل ؟

فى القرآن الكريم جاء ذكر الكتاب مقترناً بالحكمة فى كثير من المواضع ، مثل قوله تعالى : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » (١٦٤ : آل عمران) وقوله سبحانه : « رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ » (١٢٩ : البقرة)

وقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّين لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » (٨١ : آل عمران) وقوله سبحانه : « فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً » (٥٤ : النساء) وقوله تعالى : « وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ » (١١٢ : النساء)

وقد جاءت كلمة الحكمة مفردة فى قوله تعالى : « يُؤْتِ الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » (٢٦٩ : البقرة) وفى قوله سبحانه عن داود عليه السلام : « وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ » (٢٠: ص)

والحكمة هى إصابة مواقع الحق فى القول والعمل ، فهى بهذا ضرب من الهداية والتوفيق ، يرزقهما الله من يشاء من عباده .

والكتاب المقترنة به الحكمة هنا يسبق الحكمة ، أى أن الحكمة ثمرة من ثمراته ، إذ كان طريق الوصول إلى الكتاب هو معرفة القراءة والكتابة ، حتى يمكن الإفادة مما كتب الكاتبون ودرس الدارسون . . وقد تعلّم المسيح القراءة والكتابة ، وقرأ ما كُتب من كتب ، وفتح الله بصيرته وأنار قلبه بالعلم والحكمة ، قبل أن يقيمه قيّماً على شريعة التوراة والإنجيل .

قوله تعالى : « وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى ويجعله رسولاً إلى بنى إسرائيل . . فالمسيح أحد الرسل الذين أرسلهم الله إلى بنى إسرائيل ، ورسالته خاصة بهم ، مكملة لرسالة موسى عليه السلام فيهم ، كما جاء ذلك على لسان المسيح ، فيما روت الأناجيل عنه . .

ففى إنجيل « متى » : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيدا ، وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى ياسيد يا ابن داود ، ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين ، اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : لم أُرسَل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (متى : الإصحاح الخامس عشر) .

وفى متى أيضاً يوصى المسيح تلاميذه ، وقد بعث بهم ليبشروا ، قائلا : « إلى طريق أمم لاتمضوا ، ولا مدينة للسّامريين لاتدخلوا ، بل اذهبوا بالحرىّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة » (متى : الإصحاح العاشر) .

قوله تعالى : « وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » أي يتحدث إلى بنى إسرائيل ويخبرهم بما أرسله الله به إليهم » ويقول لهم : أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ، تشهد لى بأنى رسول من عنده ، وتلك الآية هى ميلاده على الصورة الفريدة ، إذ ولد من عذراء لم يمسسها بشر . وإذ كان ميلاده وظهوره فى بنى إسرائيل آية ، فإن تلك الآية تتولد منها آيات ومعجزات . ومن تلك الآيات ماذكره القرآن على لسانه : « أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ » فمادة الطين التى منها تخلقت الكائنات الحية من إنسان وحيوان ـ هى التى ينشىء منها نماذج لكائنات حية من الطير ، ثم ينفخ فيها فإذا هى فى عالم الطير ترفّ بأجنحتها، وتسبح فى السماء ، شأنها فى ذلك شأن بنات جنسها من هذا العالم .

ونسأل : لِم لم تكن معجزته أن يصوّر من الطين إنساناً ، فينفخ فيه فيكون إنساناً من الناس ، فإن الذى يبعث الحياة فى الطين بنفخة منه ، لا يُعجزه أن يكون الإنسانُ أحدَ مخلوقاته ، كما يفعل ذلك فى عالم الطير ؟ وإنه لو فعل ذلك لكان أظهر لآيته ، وأبلغ فى معجزته وإعجازه ؟

ولكن لو وقع هذا لكان فتنةً للناس . . إذ كيف يعيش مثل هذا الإنسان فى الناس ؟ وكيف تطيب له الحياة بينهم ؟ وبأية صلة يتصل بهم ولا نسب له فيهم ؟ ثم ما شأنه بعد أن تتحقق المعجزة فيه ؟ أيظل هكذا معجزة متحركة بين الناس يدورون معه حيث دار ، ويتحركون معه حيث يتحرك ؟ إنها الفتنة الممسكة بالناس إذن ؟

إن شأن المعجزات المادية أن تكون بنتَ ساعتها ، ثم تختفى فلا يرى الناس لها وجهاً بعد هذا . . إنها أشبه بإشارة ضوئية ، تلمع ثم تختفى ليكون للناس نظر فيها ، وتقدير لها ، وليخلف عليها نظرهم وتقديرهم ، وبهذا

يكون البلاء والامتحان .. ولو أن تلك المعجزات المحسوسة ظلت هكذا قائمة تحت بصر الناس لما كان هناك مكان للابتلاء ، ولما كان لأحد فضل على أحد فى الإيمان بها ، أو الشك فيها ، أو الإنكار لها ، ولاستقام أمرهم فيها على طريق واحد . . هو طريق الإيمان والتسليم ، وعندها لا يكون للإنسان اختيار ، ولا يكون إيمانه محسوباً له ، إذ كان عن قهر ، تحت ضغط هذه المعجزة القاهرة ، التى تأخذ عليه كل سبيل إلى الفرار والزيغ !

وانظر فى هذا الطائر ، الذى كان تحت أعين الناس صورةً من الطين ، ثم أصبح بتلك النفخة طائراً ينطلق فى سُبُحات الجوّ .. ثم لايلبث حتى يتوارى عن الأنظار ، كما يلمع البرق ثم يختفى ! .. هذا معجزة ، ولكنها تحمل فى ثناياها امتحانا وابتلاء ، فيؤمن بها من يؤمن ، ويشك فيها من يشك ، وينكرها ويكفر بها من ينكر ويكفر . .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا » (٨٩ : يونس) فهكذا تكون المعجزات ، لمحةٌ خاطفة ، وإشارة عابرة . . فيها نظر لناظر ، وعبرة لمعتبر .

ومن معجزات المسيح التى يلْقى بها بنى إسرائيل ، ماعرضه عليهم فى قول الله سبحانه على لسانه : « وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ » .

والأكمه من وُلد أعمى ، وهذا النوع من العمَي ليس للطب قديماً وحديثاً بَصَر به ، ولا عمل فيه ، بل هو العجز المطلق حِيالَه ..ومن هنا كان شفاؤه لا يتم إلا بمعجزة متحدية !

والبَرص مرض خبيث يصيب الجلد، فيذهب بلونه ، ويأكل أديمه ، كما تأكل

الأَرَضَة لحاء الشجر .. وشأنه شأن الكَمَه ، لاعلاج له ، ولا شفاء منه .. إلا بمعجزة متحدية !

فكان من معجزات السيد المسيح إبراء الكَمَه والبرص ، وإحياء الموتى ! وتلك معجزات قاهرة متحدّية ، تقف أمامها قوى البشر عاجزة مستخزية .

ومن معجزاته التي أجراها الله على يديه أنه يخبر عما غاب من شئون الناس ، فيخبرهم بما أكلوا في يومهم أو أمسهم ، وما ادخروا في بيوتهم من مال ومتاع .

ولكنها مع ذلك معجزات ، يمكن أن يكون فيها للسفهاء قول ، وللممارين والمجادلين مماحكات وتعليلات .

ولما جاء المسيح إلى بنى إسرائيل بتلك المعجزات ، ليفتح قلوبهم إلى الله ، وإلى مايدعوهم إليه من هدًى وإيمان ، جاءهم مصدقاً بالتوراة ، وداعياً بما فيها . وهذا أدعى إلى أن يستجيبوا له ، ويؤمنوا به ، إذ لم يأتهم بجديد ، وإنما الجديد في رسالته ، أن يقيمهم على التوراة التي خرجوا عنها ، وتأولوا أحكامها تأويلا فاسداً : « وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ » .

وأكثر من هذا ، فإن المسيح جاء رحمة من رحمات الله بهم .. جاء ليرفع عنهم بعض تلك الأحكام التأديبية التي أخذهم الله بها ، عقاباً لهم ونكالاً ، بما حرم عليهم من طيباتٍ كانت أُحِلتْ لهم ، كما يقول تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » (١٦٠ : النساء) .

فكان من رسالة المسيح إليهم أن يخفف عنهم بعض هذه الأحكام : « وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ »

وقوله تعالى « وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ » الآية هنا هى المعجزة التى

وُلد بها عيسى ، وجاء إلى هذا العالم بها .. فميلاده على الأسلوب الذى ولد به هو آية من آيات الله ، يراها أهل زمانه قائمة بينهم ، فَيضِلُّ بها كثيرون ، ويهتدى بها كثيرون . . فهو إنما جاء إلى بنى إسرائيل وولد فيهم بآية من آيات الله .

وقد ضلّ بها بنو إسرائيل إلا قليلا منهم .. فشنعوا على المسيح وأمّه ، ونسبوا البتول إلى الفاحشة ، ونسبوا المسيح إلى غير أمه ، وجعلوه ابناً غير شرعى ليوسف النجار !

قوله تعالى : « فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ » أى اخشوا الله فيما تقولون من بهتان فىّ وفى والدتى ، وأطيعونِ فيما أدعوكم إليه من أمر الله .

قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » هو التعقيب الجامع على ماجرى على يد للمسيح من معجزات . . إنى لست إلا عبداً من عباد الله ، فأقرّوا لله بالعبودية ، كما أقررت له بالعبودية ، واعبدوه كما أعبده . . « هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ » من لم يستقم عليه فقد ضل وهلك ، ومن استقام عليه اهتدى ونجا . . من كذب بتلك الآيات فهو فى الهالكين ، ومن صدّق بها ثم بالغ فيها ، فجعل من المسيح إلهاً فهو من الهالكين !

الآيتان : (٥٢ — ٥٣)

« فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِيَ إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (٥٣)

التفسير : قوله تعالى : « فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ » . أى فلمّا

استبان له من عنادهم ولجاجهم ، ومكرهم بآيات الله ومعجزاته ، أنهم لن ينتفعوا بتلك الآيات ، ولن يجدوا فيها طريقاً يهديهم إلى الحق — لمّا تبين له ذلك من بنى إسرائيل ولمسه لمساً واقعياً ، نفض يده منهم ، واعتز لهم بمن آمن به ، وأخلص الإيمان فى سره وعلنه .. فنادى فى القوم « مَنْ أَنْصَارِىٓ إِلَى اللهِ » فى الاتجاه إليه ، بنيّة صادقة وقلب سليم ؟ فأجابه الحواريون ، وهم تلاميذ المسيح وخُلصاؤه الأولون ، الذين سكنوا إليه ، وتركوا كل مافى أيديهم من أهـل ومال : « قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » وكانت عدتهم اثنى عشر حوارياً ، بعدد أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر .

قوله تعـالى : « رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » هذا القول يمكن أن يكون لـكل من يستمع آيات الله ، وما أنزل على رسوله من كلماته ، فيرى فيها نور الحق ، ويستروح منها رَوْحَ اليقين ، فيؤمن بالله وبرسوله بالغيب ، من غير أن يرى الرسول ، أو يستمع إليه ، ويقول مع المؤمنين : « رَبَّنَآ آمَنَّا بِمَآ أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » أى اجعلنا فى عداد الذين شهدوا الرسول وآمنوا به ، وهذا هو الوجه الأقرب إلى منطق الآية الـكريمة . . كما يمكن أن يكون تتمة لمقول القول الذى نطق به الحواريون ، إجابةً لعيسى عليه السلام .

الآيتان : (٥٤ ـ ٥٥)

« وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ

ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٥٥)

التفسير : قوله تعالى : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ » المكر الذى مكره اليهود هو مابيّتوه من أمر المسيح ، وتدبيرهم التّهم لمحاكمته ، وصلبه ، وإقامة شهود الزور عليه ، بأنه مشعوذ ، ومفترٍ على الله ، ومدّعٍ أنه المبعوث ملكا على اليهود . . وقد انتهى أمره معهم إلى أن قدموه المحاكمة ، وشهدوا عليه زورًا أمام الحاكم الرومانى « بيلاطس » الذى كان حاكمًا عليهم ، فحكم عليه — حسب شريعتهم — بالصّلْب .

والصلب لا يُحكم به فى شريعة اليهود إلا على من جدّف على الله ، وكفر به ، وبهذا يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله ، ومن الدخول فى ملكوته ! والصلب هو العقاب الدنيوى المعجّل — عند اليهود — لمن كفر بالله ، وهو رمز على تلك اللعنة التى حلّت بهذا الكافر بالله . . وفى التوراة : « ملعون من عُلّق على خشبة » (تثنية : ٢١) أى صلب .

فالصلب فى حقيقته تجريم دينىّ لمن يُحكم عليه به ، ولعنة تصحب المصلوب إلى العالم الأخروى ، وتأخذ عليه السبيل إلى ملكوت الله !

ذلك هو مكر اليهود بالمسيح .

كانوا فى شك من أمره . . إذ يرون معجزاته القاهرة تملأ عليهم الزمان والمكان اللذين يحتويانهما . . ولكنهما كانوا — من جهة أخرى — ينتظرون مسيحاً مخلّصاً لهم — حسب تأويلهم لشريعتهم — وكان مسيحهم الذى ينتظرونه على صورة — فى وجدانهم — غير صورة المسيح عيسى ، الذى جاءهم . . فمسيحهم الذى ينتظرونه هو ملك يخلصهم من الحكم الأجنبى ، ويعيد

إليهم مملكة سليمان ومجده . . والمسيح عيسى بن مريم لم يجئهم إلا بمملكة سماوية ، وهذه المملكة لا يدخلونها إلا إذا خرجوا مما فى أيديهم من هذه الدنيا ، من مال وأهل وولد ! فما أبعد البَوْن بين مسيحهم الذى يؤملون ، وهذ المسيح الذى يكذّبون ! !

من أجل هذا كانت صدمتهم قاسية حين التقوا بالمسيح ، وغلبت عليهم شِقوتهم فأنكروه ، وأنكروا ما جاء به ، ورأوا فى المعجزات التى حملها بين يديه شعوذة وسحراً .

وأرادوا أن يقطعوا الشك باليقين فى موقفهم المتردد من المسيح .

فليدخلوا إذن فى تجربة مع المسيح .

فليصلبوه إذن ، وليكن هذا الصلب هو فيصل الحكم فيما بينهم وبينه .

إنه يدّعى أنه المسيح ، والمسيح الحقيقى لا يُصلب ولا يقع تحت اللعنة !

وتمضى الأيام بهم ، فيزداد عنادهم وإصرارهم كلما زاد شكهم وقوى حَدْسهم فى أنهم لم يصلبوا المسيح ، وإنما صلبوا شخصاً يشبهه . .

ويظل هذا الخاطر يُزعج اليهود ، ويُبيتهم فى هم وقلق .. حتى يجىء القرآن الكريم ، واليهود أعرف الناس به وبصدقه ، فيكشف لهم عن وجه الحق سافراً ويقطع الشك باليقين . . فيقول الحق جلّ وعلاَ : « وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً * بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٥٧، ١٥٨ : النساء) .

وهنا يتجلى لليهود سوء ما مكروا : « وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

لقد دبّروا هذا التدبير السيء ، فأبطل الله تدبيرهم، وردّ كيدهم فى نحورهم ، وإذا هم وقد أرادوا أن يخرجوا المسيح من ملكوت الله ، قد أخرجهم الله من ملكوته ، وصبّ عليهم لعنته، وحمّلهم دم نبىّ لم يقتلوه ، وقد خيل إليهم أنهم قتلوه ! (١)

وفى قوله تعالى : « إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » يتعلق الظرف « إذ » بقوله تعالى فى الآية قبلها : « والله خير الماكرين » أى مكر الله وتدبيره هو خير من مكرهم وتدبيرهم ثم علل لذلك وبينه بقوله :

« إذ قال الله ياعيسى ... الآية » .

فقد أوحى الله سبحانه إلى عيسى عليه السلام بما بيّت الله القوم ، ووعده سبحانه بأنهم لن ينالوا منه الذى أرادوا فيه ، إذ أنه سبحانه سيوفّيه أجله المقدور له ، غير منقوص منه شىء ، وأن موته بيد الله لا بأيديهم ، وسيرفع الله منزلته عنده ، ويجعله من عباده المقربين إليه ، ويطهره من اليهود فلا يُصلب ، ولا تمسه اللعنة ، التى أرادوا أن يُلبسوه إياها بصلبه !

وقوله تعالى : « وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »

---

(١) سوف نعرض هذه القضية قضية صلب المسيح عند تفسير الآيتين ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء ـ ومن أراد دراسة هذه القضية من جميع جوانبها فلينظر فى كتابنا « المسيح فى القرآن » .

أى أن المؤمنين من أتباع المسيح هم فوق الكافرين إلى يوم القيامة .. وهذا حكم عام فيما بين المؤمنين والكافرين .. فحيث كان مؤمنون وكافرون، فالمؤمنون فوق الكافرين أبداً .. فلا يتساوى المؤمن والكافر فى المركز الاجتماعى فى الدنيا ، حيث لا يأكل المؤمن طعام الكافر ، ولا يتزوج منه ، ولا يزوّجه .

فالكافرون فى منزلة دون منزلة المؤمنين أبداً ، وإن تساووا فى الآدمية والإنسانية ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » (١٤١ : النساء) .

وقوله سبحانه : « ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » .

بيان لحكم الله فى الآخرة بين المؤمنين والكافرين ، بعد أن بين الله هؤلاء وهؤلاء فيما اختلفوا فيه من الحق .. فالمؤمنون هم أهل الحق ، ولهم بحكم الله ، والكافرون أصحاب الباطل وعليهم بحكم الله ..

وفى الآية وعيد للكافرين ونذير بالعذاب الذى ينتظرهم ، وقد حملته الآية الكريمة تلميحاً لا تصريحاً ، ولكنه تلميح يشير بأكثر من إشارة إلى الآيات الكثيرة التى حملت إلى الكافرين أهوال العذاب الذى توعدهم الله به .

الآيتان : (٥٦ — ٥٧)

« فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » (٥٧)

التفسير : فى هاتين الآيتين بيانٌ لما تضمنه قوله تعالى فى الآية السابقة عليهما :
« ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ »
وفى هذا الفصل ينكشف الكافرون ، ويُعرف المؤمنون ، ويفرّق بينهما فى الموقف . . كل جماعة فى جهة . . ثم يكون الجزاء لكل من الفريقين حسب عمله . . فأما الذين كفروا فلهم عذاب شديد ، ليس له من الله دافع ، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيُوَفّوْن أجرهم كاملاً ، وتتلقاهم الملائكة تزفهم إلى جنات النعيم .

وفى قوله تعالى : « فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » مايسأل عنه ، وهو : كيف يعذبون عذاباً شديداً فى الدنيا ، وهم الآن فى الآخرة وفى موقف الحساب ؟

والجواب عن هذا ، هو أن هذا الوعيد من الله سبحانه وتعالى وعيد قديمٌ ، ولكنه يتجدد بتجدد الأزمان والأحداث ، فيقع العلم به للمنذَرين فى الوقت الذى يُنذرون به ، لا يوم القيامة والحساب . .

وفى قوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين » مايسأل عنه أيضاً . . إذ كيف يتناسب هذا ، بعد قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ » ؟

والجواب عن هذا ، هو أن المؤمنين قد بُشّروا به فى قوله تعالى : « فيوفيهم أجورهم » وأنهم قد اطمأنوا إلى هذا الوعد الكريم ، ونَعِموا به ، وإن نعيمهم ليتضاعف حين ينظرون إلى أصحاب النّار وما يلاقُون فيها من عذاب الهُون ، فيسبّحون بحمد الله إذ نجاهم من هذا البلاء ، وغمرهم بفضله ونعمه ـ إن المؤمنين وهم فى تلك الحال ليسألون عن عذاب أهل العذاب ،

وما الذى أوردهم هذا المورد الوبيل ، فيقال لهم : « إن الله لايحب الظالمين » أى أن هؤلاء الذين يتقلبون فى النار ، إنما هم من الذين ظلموا أنفسهم ، بأن حجبوها عن الإيمان ، وسبحوا بها فى ظلمات الكفر والضلال ، فهم إذن ظالمون . « وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » . ولن ينال رضا الله ، وينعم بنعيم جناته إلاّ من رضى عنه وأحبّه !

ومما يُسأل عنه فى هاتين الآيتين : كيف جاء الوعيد للذين كفروا فى صيغة المتكلم فى قوله تعالى : « فأعذّبهم » على حين جاء الوعد للذين آمنوا فى صيغة الغائب فى قوله سبحانه : « فيوفيهم أجورهم » .

والجواب ، هو أن الذين كفروا لم يؤمنوا بالله ، بل ولم يعترفوا بوجوده ، ومن هنا فإنهم لايعرفونه ، ولا يتصورون له وجوداً . . فكان من المناسب لتلك الحال أن يُسمعهم الله صوته ، وأن يُواجههم بالجريمة التى اقترفتها أيديهم ، ويلقاهم بالعذاب الذى هم أهلٌ له .. وهذا أبلغ فى إلفات الكافرين إلى ماهم فيه من غفلة وضلال ، إذ يرون عذاب الله عِياناً ، فى هذا النذير الذى ينذرهم الله مواجهة به ، « وبدالهم من الله مالم يكونوا يحتسبون » (٤٧ : الزمر)

أما المؤمنون فشأنهم مع الله على غيرهذا .. إن الله معهم دائماً يملأ قلوبهم ، ويَعمُر حياتهم ، ويرون قدرته وحكمته فى كل ماتتصل به حواسهم ، أويتصوره خيالهم .. ومن ثَم فإن مابينهم وبين الله من معرفة لايحتاج إلى إعلان .. إنهم آمنوا بالله عن غيب ، وصدّقوا ماجاءهم به الرّسل من عند الله ، فكان من المناسب لحالهم تلك أن يخاطَبوا من الله بصيغة الغيبة .. تلك الغيبة التى هى حضور جَلىٌّ فى قلوبهم ، وظهور باد فى كل ما أبدع الله وصوّر !

آية : (٥٨)

« ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَالذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ » (٥٨)

التفسير : قوله تعالى : « ذلك » إشارة إلى ماتقدم مما ذكر الله سبحانه من أخبار المسيح ، وموقف اليهود منه ، ومكرهم ، ومكر الله بهم .. وما يلقى الكافرون بالله وبرسله من عذاب ونكال ، وما يُجزى به المؤمنون بالله من رِضًى ورضوان ..

وقوله تعالى : « نتلوه عليك » أى ذلك الذى ذكرناه لك هو متلوٌّ عليك من آيات الله ومن الذكر الحكيم ، أى القرآن الذى هو مجمع آيات الله المتلوّة عليك .

والمعنى أن مايتلى عليك هو آيات من آيات الله المسطورة فى القرآن الكريم ، الذى ينزل عليك آية آية ، أو آياتٍ آياتٍ ، فيها عظة وذكرى ، وعبرةٌ وحكمة .

آية : (٥٩)

« إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٥٩)

التفسير : كَثُر الخلاف فى المسيح عليه السلام ، لأن ميلاده كان على صورة فريدة ، لم يُولد بها أحد من قبله .. وكان الناس فى هذا الميلاد شِيعًا وفِرَقًا ، كل شيعة تقول فيه قولاً ، وكل فرقة تذهب فيه مذهباً !

أما اليهود ، فقد ارتضوا الجريمة مركباً ، فقتلوا أنفسهم ، وقتلوا الحق معهم .. وقالوا فى المسيح إنه وُلد كما يولد الناس ، من ذكر وأنثى .. وإن كان ميلاده على فراش الإثم والفاحشة .. لأنه ابن زنا !

وأما أتباع المسيح ، فقد قَصُرت مداركهم عن إدراك قدرة الله ، فلم تحتمل عقولهم تلك الحقيقة ، وهى أن الله قادر على كل شىء ، يخلق مايشاء ، مما يشاء ، وكيف يشاء! فقالوا : إن المسيح هو الله تجسد بشراً فى جسد عذراء .. وإذن فهو ميلاد صورىّ ، لأنه لم يولد إلا اللهُ نفسُه ، الذى كان موجوداً بكماله الإلٰهى قبل هذا الميلاد ! وإذن فلا مسيح ، وإنما هو الله تسمّى باسم بشرى ، كما لبس صورة بشرية .. وإذن فهى عملية أشبه بعملية الحلول التى آمن بها كثير من قدماء المصريين ، والبراهمة ، وغيرهم من الأمم . . فكما كان يحلّ الله فى ثور ، أو تمساح ، أو شجرة ، أو رجل .. حلّ فى جسد طفل ، وخرج وليداً من بطن امرأة .

وأما المسلمون ، فقد جاءهم القرآن بالخبر اليقين عن المسيح .. إنه خَلْق من خلق الله ، وإنه إنسان من الناس ، ولد بنفخة من روح الله ، كما ولد هذا الوجود كله بفيض من فيض الله !

وأقرب مَثَل لهذا : آدم — عليه السلام ـ إنه خلق من غير أب أو أم . . خلق من تراب هامد ، لا أثر للحياة فيه .. وعيسى — عليه السلام — خلق مولوداً من كائن حىّ ، هى أمه ، فأيهما أشدُّ غرابة فى الخلق ؟ االذى خُلق من تراب هامد ، أم الذى تخلّق من جسد حىّ ؟

وفى قوله تعالى : « ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » مايُسأل عنه .. وهو : كيف يقول الله للشىء كن ، ثم لايكون واقعاً فى الحال ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : « فيكون » التى تدل على المستقبل المتراخى ، ولو كان ما أمر الله به

واقعاً فى الحال ، لـكانت صياغة الآية على غير هذا ، ولـكانت تلك الصياغة مثلا : « ثم قال له كن فـكان » . . فـكيف يكون هذا ؟ وهل أمام قدرة القادر العظيم حواجز وحوائل ، تحول بين القدرة وبين إمضاء ما قدرت ، على الفور ، وفى الحال ؟

والجواب على هذا .. هو أنَّ قول الله للشىء « كن » لا يقتضى وقوع هذا الشىء فى الحال ، إذ قد يكون الأمر موقوتاً بوقت ، أو متعلقاً بأسباب ، لابد أن يقترن حدوثه بها ، وهذه الأسباب لا متعلَّق لها بقدرة الله ، وإنما متعلَّقُها بالشىء ذاته ، الذى دعته القدرة إلى الظهور ، والذى قضت حكمة الله ألا يظهر إلا بعد أن يستـكمل أسبابه المقترنة به .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٨٢ : يس) .

فمثلا مماسبق علم الله به ، واقتضته إرادته إيجادُ ، شىء ما ، وليـكن هذا الإنسانَ أو ذاك . .

إن أمر الله قد صَدَر من قديم لهذا الإنسان أن يكون ، على صورة كذا ، وهيئة كذا ، وأن تحمل به أمه فى يوم كذا ، وأن يولد فى يوم كذا . . وهكذا . .

بل وأكثر من هذا .. فإنه قبـل ذلك بالآف السنين ، بل وآلاف الآلاف منها .. تنقّل هذا الإنسان فى أصلاب الآباء وترائب الأمهات إلى أن التقى أبوه بأمه ، فى الزمن المحدد واليوم الموعود ! . . وهكذا الشأن فى كل موجود . . إنه تنقل فى موجودات سبقته ، وتقلّب فى أحوال وأطوار حتى صار إلى ماصار إليه .

وفى خلق آدم ، وفى قول الله سبحانه وتعالى فيه : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » . مايكشف عن وجه واضح من وجوه الإعجاز القرآنى ، وذلك الإعجاز الذى يطالع الناس فى كل آية من آياته ، الراصدة لأحداث الحياة ، وتطور العقل البشرى ، المتحدية للإنسانية فى كل جيل من أجيالها ، وفى كل وجه من وجوهها .

وانظر فى وجه هذه المعجزة ، على ضوء ما كشف العلم الحديث ، من علم الأحياء ، ونظرية النشوء والارتقاء — فإنك ترى عجباً من العجب . فى نظم القرآن الكريم ، ومايحمل هذا النظم من أسرار وغيوب .

إن آدم — ونعنى به الإنسان — لم يخلق من ترابٍ خلقاً مباشراً ، بمعنى أن الله سبحانه قبض قبضة من تراب ، فقال لها كونى آدم — أى إنسانا — فكانت .. ولو شاء الله سبحانه هذا لكان كما شاء وأراد .. ولكنه ـ سبحانه ـ خلق آدم خلقاً متطوراً ، كما يخلق الشجرة العظيمة — مثلاً — من بذرة ، وكما يخلق الرجل المكتمل من نطفة !

لقد تنقّل آدم ـ ونقول الإنسان ـ فى أطوار كثيرة لا حصر لها ، كما يقول سبحانه : « مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا » (١٤ : نوح » وكما يقول سبحانه فى هذه السورة : « وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا » (١٧ : نوح) .

فآدم الذى هو أول إنسان ظهر على هذه الأرض — قد كان ترابًا .. ثم تخلّق من هذا التراب أولُ جرثومة للحياة ، هى أدنى مراتب النبات ، فى عالم الطحالب.. ثم تدرجت الأحياء فى هذا العالم النباتى إلى مداها ، فكان منها النخل الذى هو قمة هذا العالم النباتى ، ثم بدأت جرثومة العالم الحيوانى فى الإميبيا

والمحّار ، والإسفنج . . وذلك فى أدنى مراتب هذا العالم الذى نما صعداً حتى بلغ مداه فى فصائل القردة ، التى بدأت تُطِل من وجهها صورة باهتة للإنسان « آدم » ثم أخذت هذه الصورة تتضح قليلاً قليلاً ، وتنضج فى بوتقة الزمن على مهل . . حتى كان اليوم الذى أطل منه وجه « آدم » ، ممثلاً فى إنسان الغاب . وكان هذا الآدم هو باكورة ثمار هذه الشجرة التى امتدت جذورها فى أعماق الأرض !

واقرأ الآية الكريمة مرة أخرى : « كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ . . ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ . . فَيَكُونُ » .

وقِسْ أبعاد الزمن فى ذبذبات تلك الكلمة المعجزة . . « فيكون ».. فإنه لو انكشف لك من العلم هذا المقياس الذى تُقاس به ذبذبات الكلمات ـ لاهتديتَ إلى ذلك الزمن الذى تم فيه خلق آدم ، وتنقله من طور إلى طور . . من التراب .. إلى النبات .. إلى الحيوان .. إلى الإنسان ، ولوَضعتَ يدك على العدد الصحيح من ملايين السنين التى قطعها « آدم » فى رحلته الطويلة عبر الزمن ، حتى كان هذا « الآدم » ! !

إن « آدم » ليس غريباً عن هذا العالم الأرضىّ الذى يعيش فيه ، والذى استولى عليه بسلطان العقل . . فهو ثمرة من ثمراته . . إنه من تراب هذه الأرض .

واقرأ مع هذا قول الله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ » (٤ : البلد) وقولَه سبحانه : « وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِى عَلَى أَرْبَعٍ . . يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » (٤٥ : النور) وقف عند قوله

تعالى : « فمنهم . . ومنهم . . ومنهم » إنهم هم آدم ، وأبناء آدم ، ينتقلون فى أصلاب هذه الـكائنات وأرحامها ، فى ملايين السنين .

الآية : (٦٠)

« اَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ » (٦٠)

التفسير : قوله تعالى : الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ » أى هو الحقُّ مِنْ رَبِّكَ ، ذلك الذى حَدَّثَكَ بهمن أمر عيسى — عليه السلام — وأنه خَلْقٌ من خلق الله ، وعَبْدٌ من عباده ، إنه كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه . . فليس هو ابن زنا — كما يتخرص اليهود — وليس هو الإله ولا ابن الإله — كما يزعم النصارى ، وإنما هو مَن حدَّثك الله به ،في كلماته التى أنزلها عليك . . وهى الحق ، نزل من عالم الحق . . فلا مِرْية فيه ، ولاجدالَ معه .

والامتراء : هو الشك :

وفى هذه الآية تثبيت للنبى فى أمر المسيح ، وفى حقيقته . . حيث لا التفات إلى أية مقولة أخرى تقال فيه ، بعد قول الحق الذى قاله الله رب العالمين.

الآية : (٦١)

« فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » (٦١)

التفسير : لقد عاشت أجيال النصارى نحو سبعة قرون قبل مبعث النبى الـكريم ، وهم على هذا المعتقد فى المسيح — عليه السلام — وأنه هو الله ، تجسد فى بطن عذراء !

وإنه لمن العسير أن يتخلّصوا من هذا المعتقد الذى دانوا به ، وأقاموا له بناء ضخما من المنطق العاطفى ، الذى امتزج بتفكيرهم ، واختلط بمشاعرهم . . وهيهات — والأمر كذلك — أن يستمعوا إلى قولٍ يخالف ماقالوا ، وأن يتصوّروا المسيح على غير الصورة التى انطبعت فى كيانهم .

وإذن ، فالحديث إليهم بمنطق العقل لايجدى شيئاً ، وإقامة البراهين والحجج بين أيديهم لتفنيد مازعموا ، سيلقونها ببراهين وحجج ، وإنه لا مُحصّلَ لهذا إلّا المماحكة والجدل ، واتساع شقة الخلاف والخصام .

وإذ كان الأمر كذلك ، فلا جدال مع أتباع المسيح فيما يقولون فيه . . فإن جاءوا إلى النبىّ الكريم يجادلونه ويحاجّونه ، فلا يلقاهم النبى بجدال وحِجاج ، إذ خرج الأمر فيه عن العقل ومنطقه ، عند أتباعه ، وصار إلى الوجدان والعاطفة . . فليكن مقطع الحق فى هذا الموقف ، أن يُصار فيه إلى الأسلوب العملىّ الملموس الذى يجابه الحواس ، ويؤثر آثاره فيها ، بحيث يعلق الأثر بمن وقع عليه ، ويجد مذاقه . . الحلو أو المرّ ، فى نفسه .

وجاء وفد من نصارى نجران ، بعد أن أداروا الأمر فيما بينهم ، وأعدوا له العدة — جاءوا يحاجّون النبىّ فى « المسيح » بما عندهم من مقولات فيه ، وهم يريدون أن يُسقطوا ماتلقّى النبىّ من كلمات الله فى المسيح وفى أمّه ، وبذلك تَسقط دعوى النبىّ كلها بأنه رسول من عند الله ، وأن مابين يديه من قرآن هو من عند الله .

وأخذ النبىّ — كما أمره الله — الطريقَ عليهم ، فدعاهم إلى أن يدخلوا معه فى تجربة عملية ، هى أبلغ من كل قول ، وأقوى من كل حجة . .

« تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا

وأنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ »

ولقد خرج النبي الكريم بنفسه ، وبابنته فاطمة ، وولديها الحسن والحسين ، وبنسائه جميعاً . . وطلب إلى هذا الوفد أن يلقوه بأنفسهم ، وبأبنائهم وبنسائهم ، وأن يبتهلوا جميعاً — هو ومن معه ، وهم ومن معهم — إلى الله : أن يجعلَ لعنته على الكاذب من الفريقين ، فيا يقول عن عيسى من مقولات !

وتدبّر الوفد الأمرَ فيا بينهم ، وأداروه على جميع وجوهه ، ونظروا إلى أنفسهم،وإلى أبنائهم ونسائهم، فرأوا أن الأمر قد صار إلى الجدّ ، وأنهم مبتلَوْن فى أنفسهم وأهليهم ، وهنا أعادوا النظر فيا بين أيديهم من أمر المسيح ، فرأوا أن حجتهم واهية ، وأن يقينَهم الذى استيقنوه منه ، مشوب بشك يكاد يغلب هذا اليقين ، وبدا لهم أن مصرعهم وشيك هم وأهليهم إن هم باهلوا النبى ، وأن دعوتهم على أنفسهم باللعنة إن أخطأتهم ، فلن تخطئهم دعوة النبى ، التى لا ترد . . فتركوا ماجاءوا له ، وعادوا من حيث أتوا ، وفى قلب كلٍّ منهم وَسواس، وفى كيانه صراع عاصف ، بين الحق الذى رآه ، والباطل الذى يعيش فيه.

الآيتان : (٦٢ ، ٦٣)

« إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » (٦٣)

التفسير : إن الذى يقصّه القرآن الكريم من أحداث ومواقف، هو القصص الحق ، لأنه منزل من الحق سبحانه وتعالى ..ومن الحق الذى تحدث به القرآن: أنه لا إلٰه إلاّ الله وحده لاشريك له، وأن القول بأن مع الله آلهة أخرى ، أو أن

لله ولداً ، أو زوجاً ـ هو كذب مبين ، وبهتان عظيم ..وإن من صفات الله إلى جانب تفرده بالألوهية ، تفرده كذلك بالعزة والحكمة . . وإن عزته ليست عزة جبرية وتسلط ، وإنما هى عزة قائمة بالحكمة والعدل .

هذا هو إيمان المؤمنين بالله ، وذلك هو وصفهم له . . فإن آمن به أهل الكتاب على تلك الصفة ، فقد اهتدوا ورشدوا ، وإن تولوْا فقد ضلوا وتعِسوا .

وقوله تعالى : « فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ » وعيد لأولئك الذين أبوْا أن يستمعوا إلى قولة الحق ، وأن يستجيبوا لما يدعوهم الرسول إليه من الحق .. فوقوعهم تحت عِلم الله يكشف مستورَهم ، ويفضح أعمالهم ، ويسجل جرائمهم التى سيجزوْن عليها .. ثم إن وصفهم بالمفسدين حكم بالإدانة عليهم ، وبأنهم — بعد كفرهم — قد أصبحوا فاسدين ومفسدين ، ومن كانت تلك صفته فالنار أولى به ، وبئس المصير .

الآية : (٦٤)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » (٦٤)

التفسير : هذه دعوة عادلة إلى أهل الكتاب ..يدعوهم فيها رسول الله، إلى كلمة يجتمع عليها المسلمون وأهل الكتاب ، تلك الكلمة هى: « أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » فالتوحيد الخالص لله ، توحيداً مصفًّى من كل ضلالات الشرك وأوهامه ـ هو مضمون تلك الكلمة ومحتواها .

وقوله تعالى : « وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ » هو تعريض بأتباع المسيح الذين اتخذوا المسيح — وهو بعض الناس — اتخذوه إلها من دون الله .. فالمسيح هو إنسان من الناس ، فكيف يتخذ الناس بعضهم أربابا وآلهة ؟ إنه مهما بلغ تقديرنا وإعزازنا لبعض الناس منا ، فإن ذلك لايخرج بهم عن دائرة الإنسانية ، ولا يخرج بنظرنا إليهم عن الحدود البشرية ، وإن وضعناهم على الذروة منها .

وقوله تعالى : « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ » إلفاتٌ للمسلمين إلى مابين أيديهم من حقّ ، فى تلك الكلمة التى دعوا أهل الكتاب إليها .. فإن أباها أهل الكتاب ، وأعطوها ظهورهم ، فإن على المسلمين أن يؤذّنوا بها فى أسماع العالمين ، وأن يملئوا أفواههم وقلوبهم بها ، وأن يقولوها صريحة مدوية ، بمحضر من هؤلاء الذين صمّوا آذانهم عنها ، وأمسكوا ألسنتهم عن النطق بها .. وإشهاد أهل الكتاب على إيمان المؤمنين ، هو شهادة عليهم ، وحجة قائمة على موقفهم العنادىّ من دعوة الحق .

الآيتان : (٦٥ ، ٦٦)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » (٦٦)

التفسير : ينكر الله سبحانه وتعالى على أهل الكتاب — من اليهود والنصارى — دعواهم فى إبراهيم عليه السلام ، إذ تدّعى اليهود أنه على دين اليهودية ، وأن اليهود على دينه ، كما يدّعى النصارى أنه كان على النصرانية ،

وأنهم على دين إبراهيم! وقد كثر جدلهم وحجاجهم فى هذا.. فكان أن أنكر الله على الفريقين دعواهم.. «لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ» فكيف يدين إبراهيم بالتوراة والإنجيل وقد سبقهما بزمن طويل؟ وليست التوراة إحالةً على دين إبراهيم، حتى يكون ماعليه اليهود هو دين إبراهيم، وإنما جاءت التوراة بشريعة خاصة لليهود، وإن كانت الشرائع كلها مستمدة من مصدر واحد.. ولكن لكل دين شريعة خاصة بالجماعة المدعوة إلى هذا الدين، قال الله تعالى: «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً» (٤٨: المائدة).

وكذلك الشأن فى الإنجيل، إذ ليس فيه شريعة، وإنما شريعة أتباع الإنجيل هى التوراة!

وفى قوله تعالى: «أفلا تعقلون» تعريض بأهل الكتاب، وبغلبة التعصب الذى أعمى بصائرهم عن النظر فى البديهيات، فضلا عن المشكلات.

وقوله تعالى: «هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ» هو استدعاء لموقف أهل الكتاب وفيما يجادلون فيه، مما فى أيديهم من التوراة والإنجيل عن المسيح، وأمه، ومولده ومعجزاته، وصلبه.. فهذا الموقف على علاّته، وما فيه، من مقولات باطلة، هو أصح من موقفهم الجدلىّ فى إبراهيم عليه السلام، وفى يهوديته ونصرانيته، إذ كان الموقف الأول يستند إلى شىء.. أى شىء، على حين أن الموقف الآخر لا يستند إلا على خَوَاء!!

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» إفحام لهؤلاء الذين يتقوّلون بغير علم، وإخراس لألسنتهم التى تجادل بالزور والبهتان.. فليس لهم مع قول الله قول، وليس لهم مع علمه علم.. فالله يعلم علماً مطلقاً محيطاً بكل شىء.. وهم لا يعلمون من علم الله شيئاً!

الآية : (٦٧)

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » (٦٧)

التفسير : هذا هو إبراهيم — عليه السلام — وذلك هو دينه . .

« مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ »

وقوله تعالى : « وَلَـكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِمًا » تعريض بما عليه أهل الكتاب — اليهود والنصارى — من انحراف عن الدين القويم ، الدّين الذى جاء به أنبياء الله إلى عباد الله !

والحنيف هو المتعبد لله ، الراكع الساجد لعزته وجلاله ، المائل عن طرق الهوى والضلال .. والمسلم ، هو من أسلم وجهه لله ، وأقامه عليه وحده ، دون أن يلتفت إلى سواه .

واليهود والنصارى ، لم يُسلموا وجههم لإله واحدٍ ، قائم على هذا الوجود ، متفرد به .. إذ جعل اليهود إلههم إلهاً فرديًّا ، هو ربّهم ، وقائد جنودهم ، وقائم على تدبير شئونهم .. هم وحدهم .. أما الناس جميعاً غيرهم ، فلهم إلههم أو آلهتهم ..! ولا شأن لهذا الإله أو تلك الآلهة باليهود ، كما لا شأن لليهود بها .. هكذا يعتقدون ..

أما النصارى فإلههم هو ثلاثة : أب ، وابن ، وروح قدس .. تجتمع وتتفرق .. فإذا اجتمعت كانت إلهاً واحداً ، وإذا تفرقت كان كل منها إلهاً كاملاً ..

وهذا وذاك ، على غير الحق ، وعلى غير ما يدين به إبراهيم ، الذى ينسبون دينهم إليه .. لأن ذلك شرك ، والله تعالى يقول فى إبراهيم : « وَمَا كَانَ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ » فكيف ينتسب إليه المشركون ؟ وكيف تصحّ تلك النسبة ، أو تستقيم على وجه ؟

الآية : ٦٨)

« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ » (٦٨)

بعد أن أبطل الله سبحانه دعوى اليهود والنصارى بنسبتهم إلى إبراهيم ، الذى يدينون بغير ما كان يدين به ، من توحيد الله ، توحيداً خالصاً مطلقاً ـ بيّن الله سبحانه ـ مَن هم أولى الناس بإبراهيم وبالانتساب إليه ،وبوصل دينهم بدينه .. وإن أولى الناس بتلك النسبة لهو النبى صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا .. إذ كان دين محمد هو الإسلام لله ، والإقرار بوحدانيته ، وكذلك إيمان المؤمنين بمحمد .. فكل من كان على إيمانٍ بالله كهذا الإيمان فهو أحقُّ الناس بإبراهيم ، وأقربهم نسباً إليه .

وفى قوله تعالى :« وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِين » مع ما فيه من فضل سابغ على المؤمنين بولاية الله لهم ، وضمّهم إلى جناب رحمته ، فيه زجر لأهل الكتاب وتشنيع عليهم ، وطرد لهم من ولاية الله لهم ، ومن قبولهم فى المقبولين من عباده المؤمنين : « اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (٢٥٧ : البقرة) .

الآية : (٦٩)

« وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (٦٩)

التفسير : الشرّ يعمل دائماً على أن يتحكك بالخير ، وأن يدير وجهه إليه ، ليرصد كل حركاته وسكناته ، وذلك ليطمئن على وجوده القائم على الباطل ، وحتى يطفىء تلك الشعاعات المضيئة المسلطة عليه من الحق ، والتى تهدده بفضح موقفه وسوء مصيره .

وهكذا أهل الباطل والضلال دائماً ، فى كل أمة ، ومن كل جيل ، يهاجمون الحق فى كل سانحة تسنح لهم ، ويدبّرون له العدوان حيث وجدوا إلى ذلك سبيلاً .. لأنهم يستشعرون أنهم مهددون بالضياع ، وأن تلك الخيوط الواهية التى تشدّهم إلى الباطل ، وتقيمهم على الضلال ، هى فى معرض الانحلال والتفكك ، لأدنى لمسة تلمسها بها يد الحق ! فهم بهذه المحاولات التى يتهجمون بها على مواطن الحق إنما يريدون أن يدفعوا خطراً — متوهّما أو متحققاً — يطلّ عليهم من آفاق الحق ومواطنه .

وقد كشف الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم كثيراً من مكايد أهل الكتاب ، وما يدبرون للمسلمين من شر ، وما يبيّتون من عدوان .

والسلاح الأول الذى يعتمد عليه أهل الكتاب — وخاصة اليهود — فى المعركة التى يدبّرونها مع الإسلام ، هو التشكيك فى رسالة الرسول ، وفى الكتاب الذى نزل عليه .. ذلك أنهم لو كسبوا المعركة فى هذه الميدان ، لأغناهم

ذلك عن لقاء الإسلام والمسلمين فى أى ميدان آخر .. حيث لا يكون إسلام ولا مسلمون ، متى قام الدليل على بطلان دعوة « محمد » وبطلان ما نزل عليه من عند الله .

ذلك هو تقدير بعض أهل الكتاب ، وهو فى ذاته تقدير سليم لو أنه صادف النبيَّ والكتابَ الذى نزل عليه ، كما توهموا وقدروا .. ولكن ، فى كل مرة ساق فيها أهل الكتاب كيداً إلى النبى وإلى القرآن ، رجمتهم صواعق الحق ، فولوا مدبرين ، يجرّون ثوب الخزى والخسران .

وفى قوله تعالى : « وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ » ما يكشف عن بعض هذه النوايا الخبيثة ، التى تنطوى عليها بعض النفوس الضالة من أهل الكتاب .. إنهم يريدون أن يفسدوا على المسلمين دينهم،وأن يقيموهم منه على الشك ، بما يتأوّلون لهم من متشابه القرآن ، ومايصدرون لهم من شبهات ، يحيكونها من خيوط البهتان والضلال . فبهذا إنما هم يُضلوّن أنفسهم ، إذ اتخذوا الضلال مركباً ، والزور طريقاً ، والجدل سلاحاً ، فى تلك المعركة التى اشتبكوا فيها مع الإسلام والمسلمين . . إنهم قد خسروا أنفسهم من أول الطريق ، إذ كانوا على ضلال وفى ضلال .. فإن كسبوا المعركة واستطاعوا أن يُضلوا غيرهم ، فحسبهم من الغنيمة أنهم خسروا معها أنفسهم مرتين .. مرة قبل المعركة ومرة بعدها !

وقوله تعالى : « وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ » قد قَصَرَ الضلال عليهم وحدهم فى سعيهم الذى سعَوْه لإضلال المؤمنين .. وهذا يدعونا إلى أن نسأل : كيف يُقصَر الضلال عليهم وحدهم ، مع أنه من الممكن أن يكونوا قد أضلّوا غيرهم، بما فعلوا حين احتكاكهم بضعاف الإيمان، ممن أسلموا ولمّا يدخل الإيمان فى قلوبهم ، من الأعراب وغيرهم .. فكيف هذا ؟

والجواب على هذا ، هو أن هؤلاء الضالين من أهل الكتاب ، إذ يسعوْن إلى إضلال غيرهم الذين استقام طريقهم على المدى — هؤلاء إنما يُضلون أنفسهم ، أى يغرقونها فى الضلال ، وأما هؤلاء الذين أغواهم هؤلاء الضالون ، وأركبوهم معهم مركب الضلال ، فإنهم عبء جديد يثقل هؤلاء الضلاّل ، ويُغلِظ جريمتهم ، ويضاعف إثمهم . ! فالواقع — والأمر كذلك — أنهم لم يُضِلوْا إلا أنفسهم ، فيما سَعَوْا فيه ، من إضلال غيرهم ، وأنهم حَمَلوا فوق ظهورهم أوزار هؤلاء الذين أضلوهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » (٢٤ ، ٢٥ : النحل) .

الآيتان : (٧٠ — ٧١)

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » (٧١)

التفسير : بعد أن كشفت الآية السابقة عن بعض النوايا السيئة التى يعيش فيها فريق من أهل الكتاب ، الذين يتربصون بالمؤمنين ، ليضلوهم ، وليفسدوا عليهم دينهم الذى ارتضوْا — بعد هذا التفت ـ سبحانه ـ إلى هؤلاء الضّالين المضلّين من أهل الكتاب ، وخاطب فيهم أهل الكتاب جميعا ، إذ كان هؤلاء هم علماؤهم وأهل الكلمة فيهم .. فقال سبحانه :

« يا أَهْلَ الْكِتَابِ » أى يامن مَنَّ الله عليهم بكتابٍ من عنده ،

فيه رحمة وهدًى ونورٌ ، فكفروا هذه النعمة ، وعَمَوْا عن هذا الهدى والنور الذين يشعّان منها :

« لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ » أى وأنتم تشهدون ما فى آيات الله من عبر وعظات ، وما فيها من دلائل على قدرة الله ، وحكمته ، وعلمه .. إنها تنطق بالحق لووجدت من يسمع ، وإنها لتشعّ بالنور لو وجدت من يبصر . .

« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » وندائهم مرة أخرى ونسبتهم إلى الكتاب توكيد لهذه التذكرة ، إن كانوا ممن يتذكرون . .

وفى قوله تعالى : « لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » عرضٌ لبعض أفاعيلهم وفضح لِمَاهم فيه من ضلال .. إنّهم يَلْبِسُونَ الحق بالباطل ، أى يغطّون وجه الحق ، ويسترونه بدخان الباطل والضلال ، فيشتبه على الناس وجه الحق ، وتتفرق بهم السبل إليه .. وإنهم ليكتمون الحقَّ الذى يعرفونه من أمر محمد والقرآن الذى نزل عليه ، وليس ذلك الكتمان عن جَهْلٍ ، وإلا لكان لهم مايُعذَرون به ، ولكن كتمانهم هذا عن علمٍ ومعرفة ، وتلك هى مصيبة المتكبرين ، وآفة الحاسدين ، الحاقدين . « وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » ؟

الآية : (٧٢)

« وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ . . »

التفسير : من مكر بعض الطوائف من أهل الكتاب ، وكيدهم للإسلام والمسلمين ، تلك التجربة التي أرادوا أن يفسدوا بها على المسلمين دينهم ، وأن يُدخلوا الشك عليهم من جهته ، وهذه الطائفة هي من جماعة اليهود ، الذين يكيدون للإسلام ويتربصون به .

وانظر كيف سوّلت لهم أنفسهم ، وإلى أين قادهم الحقد ودفع بهم الحسد ؟

لقد ائتمروا فيما بينهم ، وتخيروا جماعات منهم يدسونهم فى الإسلام ، ويُدخلونهم مع المسلمين ، على حساب أنهم دخلوا فى الإسلام ، وصاروا من المسلمين . .

هذه هى المرحلة الأولى من مراحل التجربة ..

وإذا دخلت هذه الجماعة فى الإسلام ، وحُسبت فى المسلمين ، فإن لها أن تحدّث عن الإسلام ، وأن تقول قولتها فيه ، وفيما وجدت منه !

وماذا لو أنّها قالت فى الإسلام قولة السوء ؟ وماذا لورمت الإسلام بكل نقيصة ومَعيبة ؟

أليست لساناً من ألسنة المسلمين ؟ وأليس ماتقوله عن علم وتجربة ؟ ومن ذاق عرف ، كما يقولون ؟ إن ذلك من شأنه أن يُحدث اضطراباً وحلحلة فى المجتمع الإسلامى ، وأن يثير شكوكاً فى قلوب الضعفاء والجهلة ، وعند من لم ترسخ أقدامهم بعدُ على طريق الإسلام .

ذلك ماقدره أصحاب هذه « اللُّعبة » لتجربتهم الصبيانية تلك ..

وقد جاء أمرهم على غير ماقدروا ودبّروا ! فبدلاً من أن يثيروا البلبلة والاضطراب فى محيط الإسلام والمسلمين ، وقع الاضطراب والبلبلة فى جماعتهم هم ، وإذا كثير من هؤلاء الذين أرسلوهم ليكونوا كلاب صيد فى حِمَى الإسلام ،

صادم الإسلام ، وعَلِقُوا فى حباله .. فما أن عاش بعضهم فى الإسلام ساعات حتى استولت عليه رُوح الإسلام ، وطردت من كيانه نوازع الزيغ والضلال ، فدخل فى الإسلام عن يقين ، بعد أن كان قد غَشِيَ حماه للكيد والإفساد .. ومن غلبت عليه شقوته من كلاب الصيد هذه ، فلم يدخل الإسلام ولم يعتقده ، عاد إلى جماعته مُثْخَناً بالجراح ، فلم يصبح مسلماً ، ولم يَعُد كافراً . ، بل تحوّل إلى منافقٍ ، يتردد أمره بين الإيمان والكفر . . !

من أجل هذا كان مِن وَصَاة تلك الجماعة المتآمرة ، لمن ترسلهم من كلاب الصيد هذه — كانت وصاتهم لهم : « وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ » يحذّرونهم من أن يلْقُوا أسماعهم إلى المسلمين ، وأن يفتحوا قلوبهم إلى مايحدّثونهم به من الإسلام ، وإلا ساءت العاقبة ، وفسد التدبير !

وقد شاء الله أن تَسِيء العاقبة ، عاقبة تلك الجماعة المتآمرة ، وأن يفسد تدبيرها . ويسوء مصيرها . فتعلو كلمة الإسلام ، ويموت الشانئون والكائدون ، غيظاً وكمداً !

الآيتان : (٧٣ — ٧٤)

« . . . قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَى هُدَى ٱللهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » (٧٤)

التفسير : فى قوله تعالى : « قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَى هُدَى ٱللهِ » ردّ على أولئك الذين اعتقدوا أنهم على الحق ، وهم الضالون المضلون . ولم يقع فى تصورهم أن

يكون لله سبحانه وتعالى فضل على غيرهم ، أو أن يؤتِىَ — سبحانه — أحدًا غيرهم كتاباً ، كما أتاهم كتاباً ، فمكروا به وحرّفوه .

لهذا أمر الله نبيّه — عليه السلام — أن يبطل هذا التصور الفاسد الذى تصوروه ، وأن يقول لهم كلمة الحق التى ألقاها الله إليه : « إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » أى إن الهدى هو مِلك لله ، لامِلكَ لأحد معه فيه ، وأنه نعمة من نعمه ، ورزق من أرزاقه ، يضعه حيث يشاء ، ويهدى به من يشاء ، وأنه ليس محبوساً على اليهود وحدهم ، مقصوراً عليهم ، لاينال منه أحد غيرهم . .

وفى قوله تعالى : «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ » ما يكشف عن ظن اليهود بأنفسهم ، وأنهم فوق العالمين ، وأن الله هو ربّهم وحدهم ، وأن رحمته ونعمته لا تنزلان إلا عليهم ، وهم لهذا ينكرون كل نعمة تصيب غيرهم ، وكل فضل يناله سواهم . كما يقول الله سبحانه وتعالى عنهم « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ »(١٠٩ البقرة) ويقول سبحانه فيهم: « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » (٥٤ : النساء)

المصدر المؤول من أن وما بعدها فى قوله تعالى : « أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » هو معمولٌ للام التعليل المتعلق بفعل محذوف قبله ، تقديره : فلا تقتلوا أنفسكم حسداً لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ركبتم الضلال وعَميتم عن الحق ، وفقدتم عقولكم فأهلكتم أنفسكم ؟

وقوله تعالى : « أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ » معطوف على قوله تعالى « أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » .

والمعنى: أَلِأنْ أُوتِىَ المسلمون كتاباً من عند الله فاهتدوا، كما أوتيتم أنتم كتاباً من عند الله فلم تنتفعوا به، وقامت الحجة به عليكم، ولِأن أصبح للمسلمين الحجة عليكم بهذا الكتاب الذى فى أيديهم، والذى يحدّث عنه كتابكم الذى فى أيديكم — ألهذا وذاك جحدتم الحق، وتنكرتم له، وحرّفتم كتابكم ليلتقى مافيه مع أهوائكم، وليطفىء داء الحسد المتقد فى صدوركم؟

ولقد مكر اليهود بأنفسهم، وأفسدوا الكتاب الذى فى أيديهم، والذى يحدّث عن محمد، ويبشر به وبكتابه الذى أنزله الله عليه، حتى لايكون للمسلمين حجة عليهم يلزمونهم بها، وما تنطق به التوراة من تصديق بمحمد وبكتاب الله الذى معه.. وفى هذا يقول الله تعالى عنهم: « أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٧٥ — ٧٦ البقرة) ذلك أن اليهود كانوا يعلمون مافى التوراة عن « محمد » وعن رسالته، وأنهم قد استقبلوا محمداً من أول الأمر بالتكذيب، وبادءوه بالعداوة والبغضاء، فلم يكن لهم — والشأن كذلك — إلاّ يمضوا فى الشوط إلى نهايته، بل وأن يمعنوا فى التكذيب، وأن يتطاولوا فى العداوة والبغضاء.. وكان من أسلحتهم فى تلك الحرب أن يطمسوا مافى التوراة من الحق الذى تتحدث به عن « محمد » ورسالته.

وقوله تعالى: « قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » هو ردٌّ آخر على اليهود الذين أرادوا أن يحتجزوا فضل الله، وأن يجعلوه خالصاً لهم.. شحًّا وحسداً أن يصيبَ أحدٌ خيراً غيرهم.. « والله واسع عليم » يسع فضله النّاس جميعا، دون أن ينقص من فضل الله شىء.. ولكن

اليهود يرون الله وكأنه أحد أغنيائهم ، وأنه بقدر ماينفق ، يكون النقص فيما بين يديه من مال ، ولو استمر فى الإنفاق لنفد ما بين يديه . . وفيهم يقول الله تعالى : « قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا » (١٠٠ : الإسراء) .

وللإنسان أن يذهب مذهب التقتير ، لأنه إنسان ، ملكه محدود وإن بلغ مابلغ من كثرة واتساع ، وتعالى الله علواً كبيراً أن يُنظر إليه وإلى فضله هذا النظر الذى يجعله والناس على سواء

وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن هذا الخلق اللئيم المندسّ فى طبيعة اليهود ، وهو الحسد القاتل ، الذى يأكل صدورهم ، إذا نال أحد من الناس خيراً . . يقول الله تعالى : « « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ[1] يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ[2] وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » (٥١ — ٥٢ — ٥٣ : النساء) . . إنها كزازة نفس ، وسوء خلق ، وفساد ضمير ، وأنانية قاتلة ، وشحّ لئيم .

وقوله تعالى : « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »

رد ثالث على اليهود بأن فضل يقع حيث يشاء ، وينزل حيث أراد الله أن ينزل : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وفضل الله عظيم ، ورحمته واسعة « فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » (٧٨ : النساء)

---

(١) وهم اليهود .

(٢) أى الضلال والبهتان .

الآية : (٧٥)

« وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٧٥)

التفسير : الأحكام التى جاء بها القرآن فى شأن اليهود ، والتى كشف بها مافى نفوسهم من ضلال ، وما فى قلوبهم من حسد وبغضاء للناس عامة، ولأهل الإيمان خاصة — هذه الأحكام وإن شملت غالبية اليهود ، ودمغت أحبارهم وعلماءهم وأصحاب الكلمة فيهم ، إلا أنها ليست على إطلاقها ، فليس هناك شر محض ، ولا خير خالص ، فمهما استشرى الشر فإن فيه لُمعاً من الخير لا تكاد تُرى ، ومهما صفا الخير فإن فيه غشاوات من الشر لا تكاد تبين !

واليهود وإن كانوا الشرّ كله ، من الرأس إلى القدم — ففيهم الضالون ، وفيهم المؤمنون.. كما يقول الله تعالى: « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » (١١٠ : آل عمران) .

وفى هذا المدخل الضيق إلى الإحسان والإيمان ما يسمح لأىّ من هذه الجماعة الضالة أن ينجو بنفسه ، وأن يتحول إلى تلك القلة القليلة من المحسنين المؤمنين فيهم ..

وفى قوله تعالى : « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ » استثناء من الحكم العام الذى حكم به الله على اليهود . . وهذا باب رحمة لمن أراد الله له التوفيق والهداية منهم .

ففى تلك الجماعة الضالة المعربدة أفراد قليلون يخافون الله وَيرْعَوْن الأمانة التى فى أيديهم ، سواء أكانت من الله أم من الناس ، فلم يخونوا أمانة الله ، ولم يكتموا مافى أيديهم من التوراة عن النبىّ « محمد » ورسالته ، ولم يخونوا الناس فى الأمانات التى أؤتمنوا عليها ، وإن كانت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ..

وهؤلاء النفر القليل هم الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى فى قوله سبحانه « مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » :

(١١٣ — ١١٤ : آل عمران)

أما أكثر هذه الجماعة فهى على الضلال والعمى ، وفى العداوة والبغضاء والحسد للناس جميعاً ، ولأهل الإيمان بخاصة .. فهذه الكثرة لاترعىأمانة الله ، ولا تحفظ أمانة الناس .. أما حسابهم مع الله فقائم على أنهم أبناؤه وأحباؤه ، لهم أن يفعلوا معه ما يشاءون ويشاء لهم الهوى ، دون أن ينالهم بشىء من عقابه وعذابه .. وأما حسابهم مع الناس ، فالناس فى نظرهم وتقديرهم فى درجة دون درجتهم ، وبينهم وبين الناس حجاز فى الفضائل وفى التكوين الجسدى والخلقى والروحى ، كهذا الحجاز الذى بين الناس وفصائل القردة والحيوانات القريبة الشبه بالإنسان .

فالناس — فى تقدير اليهود — قطيع من الحيوان ، وإن لهم — بهذا التقدير — أن يستغلّوا هذا القطيع الآدمى ، كما يستغلّون الحيوان، وألا يرتبطوا معه بروابط العقود والوثائق ، وإن ارتبطوا فلهم أن يتحلّلوا منها ما وسعهم

الحول والحيلة « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » أي لا حرج علينا، ولا حائل من خلق أو دين يحول بيننا وبين أن نستغلّ الأميين، بشتى الصور ومختلف الأساليب! والأميون هم غير اليهود، وهم العرب خاصة، إذ كانوا ولا كتاب لهم .. وقد منّ الله على هؤلاء الأميين — أى العرب — إذ بعث فيهم رسولاً منهم، فقال تعالى « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (١٦٤ : آل عمران).

قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » تكذيب لادعائهم بأن ليس عليهم حرج، فيما نقضوا من عهود، أو ضيّعوا من حقوق فيما بينهم وبين غيرهم، فقد أقاموا هذه الدعوى على أساس من دينهم وشريعتهم، إذ كانوا أهل دين وأصحاب شريعة، وليس فى دينهم الذى أنزله الله على أنبيائهم ولا فى الشريعة التى حملها هذا الدين — إباحة للبغى والعدوان، ولا دعوة للسلب والنهب والسرقة، ولا تفرقة بين الناس والناس فى الحقوق والواجبات! وإنما بدل اليهود فى التوراة وغيّروا، ودسوا فيها من الأحكام والشرائع ما يغذّى غرورهم الزائف، ويرضى شعورهم المريض، نحو الإنسانية كلها، وأهل الأديان خاصة.

الآية : (٧٦)

« بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ » (٧٦)

التفسير : قوله تعالى : « بلى » هو لفظ يُجاب به على سؤال فى معرض النفى ، فيجعل المنفىّ واقعاً مثبتاً .

وعلى هذا فإنّ قبل لفظة « بلى » سؤال منفى ، وهذه اللفظة وما بعدها جواب عن هذا السؤال .

والسؤال محذوف .. وتقديره : ألم يكن هؤلاء الذين إذا ائتمنوا على قنطار أدوه .. ألم يكونوا من جماعة اليهود ، تلك الجماعة الضالة التى حكم الله عليها باللعنة والطرد .. ؟

والجواب : بلى .. إنهم منهم ، ولكن لكلٍّ حسابه وجزاؤه .. فمن أوفى بعهده فيهم ، واتقى الله فى الأمانة التى أؤتمن عليها ، فلن يأخذه الله بجناية قومه ، بل هو ممن أحبهم الله ورضى عنهم « فإن الله يحب المتقين » فكيف لا يتقبل عملهم؟ وكيف يجعلهم والمجرمين على سواء؟ « أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ؟ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ » (٣٥ — ٣٦ : القلم)

الآية : (٧٧)

« إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (٧٧)

التفسير : بعد أن عزَل الله سبحانه المتقين من أهل الكتاب ، وضمّهم إلى أهل رحمته ومرضاته ـ كشف سبحانه وتعالى عن المصير السيء الذى ينتظر الجماعة الباغية الضالة من اليهود ، وهم الكثرة الغالبة فيهم.. فوصفهم الله سبحانه وصفاً كاشفاً ، ودمغهم بجرائمهم الشنيعة ، التى يحملونها على ظهورهم إلى يوم

الحساب . . فقال تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » .. فهم قد نقضوا عهد الله ، وما عاهدهم عليه فى قوله سبحانه :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ »

وقد كذب أهل الكتاب هؤلاء على الله ، وبدلوا آياته ، وأنطقوا كتابه بما أملته أهواؤهم ، وحلفوا على هذا البهتان ، وأكدوا هذا الزور بأيمان بالغة .

وهم بهذا الإثم الذى ارتكبوه قد باعوا آخرتهم، لقاء قليل من حطام الدنيا . فإذا كانت الآخرة جىء بهم إليها وليس لهم نصيب من نعيمها ، وإنما لهم ما ينتظرهم من نكال وعذاب .. « أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ » والخلاق الحظ والنصيب « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ » فهم مطرودون من رحمة الله ، مُبْعدون من مواطن رضاه ومغفرته . . لا يكلمهم الله ، حين يكلم عباده الذين رضى عنهم ، لأنهم ليسوا أهلاً لأن يسمعوا كلام رب العالمين ، إذ أصموا آذانهم عن سماع كلماته التى حملها إليهم رسله الكرام.. ولا ينظر إليهم ، نظر رحمة ومودة .. لأنهم أغمضوا أعينهم عن النظر فى آيات الله وتدبر ما فيها من هدًى ونور .. ولا يزكيهم — أى ولا يطهرهم من الآثام التى حملوها معهم ، ولا ينالهم بمغفرته ورحمته ، كما يتجاوز لأهل مودته عن سيئاتهم . « وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فتلك هى عقبى الذين كذبوا على الله ، وبدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار .

الآية : (٧٨)

« وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ

ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (٧٨)

التفسير : هذه الآية تكشف عن فريق آخر من أهل الكتاب ، من جماعة اليهود ، بعد أن كشفت الآيات السابقة عن جماعة من أهل العلم فيهم ، يتّجرون بما عندهم من علم ، ويبيعونه لمن يشترى.. أما هذا الفريق فهم. « يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ » أى يتلون آيات الكتاب تلاوة تلوكها ألسنتهم ، وتلتوى بها شفاههم ، فلا تخرج الكلمات إلا متآكلة متكسرة ، يختلط بعضها ببعض ، لايدرى أحد ما مدلولها ، ولا يهتدى أحد إلى وجه الحقّ فيها . . فهى أقرب إلى الرمز منها إلى الكلام.. «ويقولون هى من عند الله وما هى من عند الله . . ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » أنه الكذب .. أى أن كذبهم هذا على علم ، وهو شرّ ما عرف من الكذب ، وأبغض ما ظهر للناس من وجوهه .

الآيتان : (٧٩ ، ٨٠)

« مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » (٨٠)

التفسير : فى هاتين الآيتين يكشف الله سبحانه عن تلك المفارقات البعيدة بين دعوات الأنبياء ، وبين ما يُدخله أتباعهم على تلك الدعوات من افتراء وبهتان.

فالنبيّ — وإن كان بشراً من البشر ، وإنساناً من الناس — هو ممن اصطفاه الله ، وتخيره من بين الناس ، ليقوم بالسفارة بين الله وبين وعباده .

والله سبحانه وتعالى ، إنما يتخير سفراءه من صفوة خلقه ، ثم يكملهم ويجمّلهم بما يفيض عليهم من نفحات رحمته ، وغيوث بركاته ، فإذا هم بعد هذا الأدب الربانيّ أكمل الناس كمالا ، وأصدقهم قولاً ، وأبعدهم عن مواطن الشبه والريب ، .. بل هم الكمال كله ، والصدق جميعه ، والفضيلة فى تمامها وكمالها ..

فإذا جاء أتباع رسول من رسل الله ، وبأيديهم كتاب يضاف إليه هذا الرسول ، وعلى ألسنتهم كلمات يحسبونها عليه ، ثم كان فى هذا الكتاب ما يُنقص من جلاله وكماله ، وكان فى تلك الكلمات ما يحمل لله ما لا ينبغى لذلك الجلال والكمال — فآفة ذلك هم الأتباع ، الذين غيروا فى الكتاب وبدّلوا ، وتقوّلوا على الرسول ، ونسبوا إليه ما نسبوا ، زوراً وبهتاناً ، ليجدوا لما تقوّلوا وزيّفوا طريقاً إلى الآذان ، حين ينسبونه إلى الرسول ، ويضيفونه إلى ما تلقوا من كلماته التى هى كلمات الله .

وهذا الموقف يظهر على تمامه ، فيما كان بين المسيح وأتباعه . . فقد جاء المسيح — عليه السلام — إلى الناس مرسلا من عند الله ، برسالةٍ قائمة على سَنَن الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه ، كما ينقل ذلك عنه أتباعه فى كلمات صريحة واضحة إذ يقول : « ما جئت لأنقض الناموس والأنبياء بل لأكمّل » .

ومع هذا الذى يقوله السيد المسيح ، وينقله عنه أتباعه ، ويؤمنون به — فإنهم يلتقون بالسيد المسيح فى آخر المطاف ، فإذا هو الله رب العالمين ، تجسد فى كائن بشرى ، وعاش ما عاش بين الناس، ثم قدّم نفسه قُرباناً ليفتدى البشرية ويخلّصها من الخطيئة التى هى ميراث الناس جميعاً من أبيهم آدم .. فكان أن عمل المسيح على إثارة ثائرِة اليهود عليه ، ليصلبوه ، وليؤدّى بهذا الصلب الفداء

المطلوب لخلاص البشر .. وقد تم له ما أراد، وقُدّم إلى الصلب ، وصُلب !!
هكذا يقول أتباع المسيح عن المسيح وفيه ! وهى مقولات تنقضها كلمات المسيح نفسه فى الإنجيل أو الأناجيل التى فى يد أتباعه ، كما ينقضها تاريخ الرسل والأنبياء السابقين له ، ونبى الإسلام الذى جاء من بعده، وينقضها قبل ذلك كله، وبعد ذلك كله ، المنطقُ السليم ، والعقل المطلق من قيد الهوى ، المتحرر من عبودية التقليد والمحاكاة .

وفى قوله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ » ... وفى ذكر « بَشَرٍ » بدل « نبىّ » ما يشير إلى أن النبىّ بشر من البشر ، وأنه إذا جاز على البشر الكذب والافتراء على الله وعلى الناس ، فإن النبى — وهو بشر — لا يكون منه أبداً الكذب والافتراء على الله أو على الناس .. وإلا كان ذلك اتهاماً لله ، ورمياً لعلمه بالقصور ، ولقدرته بالعجز ، ولحكمته بالنقص ، حيث اصطفى واختار من يحمل رسالته ، ويودّى أمانته ، ثم لم يكن من هذا المصطفى المختار إلا أن زيف الرسالة وخان الأمانة .. وبدلاً من أن يكون داعياً لله ، هادياً إليه ، تحول إلى داعية لنفسه، قائداً الناس إلى الهلاك والضلال .. وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .. وإنه لن يرضى أسوأ الحكام وأجهل الأمراء أن يُنسب إليه مثل هذا العجز وسوء التقدير فى اختيار أعوانه وسفرائه . فكيف بأحكم الحاكمين .. الله رب العالمين ؟

وفى الآية حذف دل عليه سياق الكلام .. وتقديره : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة » ليدعو الناس إلى الله ، وإلى الإقرار بوحدانيته .. « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ »

وقوله تعالى : « وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » أى ولكنه يدعوكم إلى أن تكونوا ربانيين أى مؤمنين بالله ، دعاةً إلى الله ، إذ كنتم علماء ، وللناس

على العلماء حقٌّ هو أن يعلموهم ما عَلِموا .

والالتفات هنا من الغيبة إلى الحضور ، هو إمساك بخناق علماء أهل الكتاب ، وهم متلبسون بهذا الضلال الذى هم فيه ، يَطعَمونَ منه ويُطعمون أتباعهم من هذا الزاد الفاسد ، الذى يهلك من يتناوله ويتزوّد منه .

وقوله تعالى : « وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاٰئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا » معطوف على قوله تعالى : « ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ » . . ويكون معنى القول هنا الأمر ، أو يكون معنى الأمر فى قوله تعالى : « وَلاَ يَأْمُرَكُمْ » القولُ . . أى ولا يقول لكم أن اتخذوا الملائكة والنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا .

وفى قوله تعالى : « أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » ما يسأل عنه .. وهو : هل كانوا مسلمين قبل أن يجيئهم الرسول ويدعوهم إلى ما دعاهم إليه ؟ وإذا كان كذلك فما داعية إرساله إليهم ؟

والجواب على هذا ، هو أن أتباع المسيح الذين التقوا به ، وآمنوا بدعوته ، كانوا على هدًى وبصيرة من أمر تلك الرسالة الكريمة التى حملها عيسى عليه السلام ، وهم بهذا كانوا مؤمنين ، مسلمين ، بل كان منهم الحواريون الذين أوحى الله إليهم !

فهذه هى دعوة عيسى ، وتلك هى رسالته ، وهؤلاء هم أتباعه الذين آمنوا به وحُقّ لهم الانتساب إليه ، وإلى المسلمين !

ومع الأيام ، وانتقال الشريعة اليهودية المسيحية إلى مواطن غير موطنها دخل عليها كثير من الحذف والإضافة ، والتأويل ، والتخريج ، حتى أصبح لها وجهان .. وجه بدأت به ، ووجه آخر انتهت إليه ، وبين الوجهين من الخلاف ما بين الأبيض والأسود من خلاف . وتضادّ .

بدأت المسيحية بالمسيح رسولًا وانتهت به إلهًا يدعو إلى عبادته وعبادة أمه .. كما يقول الله تعالى « وإذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ » (١١٦ : المائدة) .

بدأت المسيحية إسلامًا يدين بها المسلمون ، وانتهت إلحادًا يدين بها من يعبدون المسيح ، ويؤلهون أم المسيح !

وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : « أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . أى أيدعوكم المسيح أيها الذين آمنوا به إلهًا ، إلى الكفر بالله ، بعد أن دعا آباءكم الأولين إلى الإيمان به فكانوا من عباده المسلمين ؟ أيدعوكم إلى هذا الذى تدّعون ؟ ذلك محال !

إن دعوة المسيح هى تلك الدعوة التى دعا إليها آباءكم الأولين ، فآمنوا وأسلموا عليها ، فكيف تكون تلك الدعوة نفسها هى التى بين أيديكم ، والتى تدعوكم إلى الإيمان به إلهًا من دون الله ؟ ما تأويل هذا وما منطقه ؟

إنه لا تأويل لهذا إلا أن تحريفًا دخل على دعوة المسيح فغيّر وجهها ، وقلب حقيقتها ، وإنه لا منطق لهذا إلا أن يكون هناك مسيحيان : مسيح عرفه المسيحيون الأولون .. المؤمنون المسلمون ، ومسيح عرفتموه أنتم وعبدتموه من دون الله ! وأمّا وليس إلا مسيحٌ واحد ، فالكلمة الآن لكم ، لتقيموا لهذا التناقض وجهًا ، ولتجعلوا له منطقًا ، إن كان للجمع بين المتناقضين وجه أو منطق ! ! .

الآيتان : (٨١ - ٨٢)

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٨٢)

التفسير : النبيّون صلوات الله عليهم قائمون على أمر واحد ، هو الدعوة إلى الله ، وكشف معالم الطريق للناس إليه ، ودعوة الناس بدعوة الحق والخير كما أمر الله .

ومن ثَمّ كانت الجامعة بينهم ، وكان النسب والقرابة ! إذ كانوا جميعًا يعملون فى ميدان واحد ، وغاية واحدة .. ونجاح الدعوة لأىّ منهم هو نجاح ضمنى لهم جميعًا ، وهو انتصار فى موقع من مواقع الحق الذى يجاهدون فى سبيله .

وقوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ » هو توكيد لهذه الجامعة التى تجمع بين النبيين ، وتوثيق للأمر الذى شدُّوا أيديهم عليه وعلى الجهاد فى سبيله .

فلقد أخذ الله العهد على النبيين واحداً واحداً ، فيما ندبهم له ، وفيما دعاهم إليه ، وهو أن تتوحد فى مجال الجهاد رايتهم ، وألا ينسخ بعضهم بعضًا ، أو ينعزل بعضهم عن بعض .. فإذا قام نبىّ منهم يدعو إلى الله ، ثم جاء نبىّ آخر يدعو بتلك الدعوة ، كان على كل منهما أن يصدّق الآخر ، ويؤمن به ، وينصره فيما يدعو إليه ، لأن نصرة هذا النبىّ نصرة له ، ونصرة لرسالتيهما معًا .

وليس هذا شأن الأنبياء وحدهم ، فى إيمان بعضهم ببعض ، وتصديق بعضهم بعضاً ، ونصرة بعضهم لبعض .. بل هو شأن أتباع الأنبياء جميعًا ..

إذ هم المؤمنون بالله ، وكتبه ورسله ، فكل دعوة نبىّ هى دعوة جميع الأنبياء وأتباع الأنبياء ، ومعاداة أى نبى وأتباع أى نبىّ هى محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين : « إنما المؤمنون إخوة » وأتباع الأنبياء ، المؤمنون برسالات الأنبياء ، هم جميعًا إخوة ، يجمعهم التوحيد بالله ، والعبودية لله !

وفى قوله تعالى : « لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » اللام موطئة للقسم الذى تضمنه العهد والميثاق الذى واثق الله به النبيين وعاهدهم عليه ، والتقدير « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ » لَئِنْ آتيتكم النبوة وما معها من كتاب وحكمة « ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ » .

وقوله تعالى : « مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ » وصف للرسول الذى يجب الإيمان به ونصرته ، وهو أن يكون ما معه من كتاب ، وما يدعو إليه من دين ، قائمًا على السَنَنِ الذى دعا إليه أنبياء الله ورسله ، من الإيمان بالله الواحد الأحد ، المنزه عن الشريك والولد ، فمن دعا إلى غير هذه الدعوة فليس نبيًا وليس رسولاً ، فما أكثر أدعياء النبوة ، ومدّعى الرسالة .

قوله تعالى : « قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذٰلِكُمْ إِصْرِى » الإصر العهد الموثّق . وفى استحضار النبيّين ، وأخذ الإقرار من أفواههم ، وإشهادهم عليه ، ثم شهادة الله على ما شهدوا عليه . . كل هذا يدل على ما لهذا الأمر الذى عاهدهم الله عليه من شأن وخطر عظيمين : « قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ » . . وكفى بالله شهيداً .

وقوله تعالى « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » توكيد لهذا العهد ، وتجريم لمن نقضه ، وَوَقَفَ من أنبياء الله ورسله موقف المشاق المنابذ . .

وفى الآية الكريمة تعريض بأهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، الذين نقضوا عهد الله ، هذا الذى أخذه على أنبيائهم وعلى أتباع أنبيائهم ، فكذّبوا بمحمد وبهتوه ، وكتموا ما فى أيديهم من كتاب الله الذى لو استقاموا على ما فيه لكانوا أول المصدقين بمحمد ، والمؤمنين به ، إذ كانت التوراة تشهد لمحمد ولرسالته ، وتبشّر به ، كما يقول الله تعالى فى أهل الكتاب ، وموقفهم من الرسول الكريم « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (١٤٦: البقرة) ويقول سبحانه أيضاً : « وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٨٩ : البقرة) .

وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب هؤلاء الذين يكذبون رسل الله ويبهتونهم ، بالفسق . . والفسق ــ فى اللغة ــ هو الخروج من حال إلى حال ، ومن شأن إلى شأن ، ثم كثر استعماله فى الخروج من خير إلى شر . . وأهل الكتاب هؤلاء كانوا على الإيمان قبل أن يُمتحنوا بالدعوة التى حملها إليهم رسول الله ، فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدى القوم الفاسقين .

الآية : (٨٣)

« أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ » (٨٣)

التفسير : تُنكر هذه الآية على أهل الكتاب الذين كفروا بمحمد ،

وجحدوا ما عندهم من حقٍّ فيه ـ تنكر عليهم هذا الموقف الذى لا ينبغى لعاقل أن يقفه ، لأنه يُورِد بذلك الموقف ، موارد الهلاك . . فأى دين غير دين الله يبغون ؟ وماذا ينكرون من أمر محمدٍ وقد جاءهم بالحقّ الذى كان معهم مثله من كتاب الله الذى فى أيديهم ؟ وهل جاءهم محمد بغير ما جاء به الأنبياء من قبله من دعوةٍ إلى توحيد الله ، والإيمان به إلهاً واحداً ، قيُّوماً ، له ملك السموات والأرض ؟ إن ذلك هو الحق الذى قام عليه الوجود ، وهو الدين الذى دان به لله كل مخلوق ، فى ملكوت السموات والأرض . فكيف يَفْسُق أهل الكتاب هؤلاء ، ويخرجون عن هذا الموكب الذى انتظم الوجودَ كلّه ، فى أرضه وسمائه ، وفى أحيائه وجماداته ؟

وفى قوله تعالى : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » الإسْلامُ هنا الانقياد والخضوع . . وكل ما فى هذا الوجود منقاد لله ، خاضع له ، إن لم يكن عن ولاء ورضًى ، فهو عن قهرٍ وسلطان ! وماذا تملك المخلوقات من أمرها ؟ وهل غير الاستسلام والخضوع ؟ إنها جميعاً فى يد القدرة القادرة المتصرفة وحدها من غير معترض أو معقب ! فمن لم ينقد اختياراً انقاد اضطراراً ، والله سبحانه وتعالى يقول « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا » (٩٣ : مريم) ويقول سبحانه : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ » (٣٣ : الرحمن) . . فهل لهؤلاء المحادّين لله ، الكافرين به ، ملجأ غير الله ؟ وهل لهم أن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيبهم من ضُرٍّ وأذى ؟ « قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١٦٨ : آل عمران)

(الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥)

« قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (٨٥)

التفسير : بعد أن كشفت الآيات السابقة موقف أهل الكتاب من رسل الله ، وإيمانهم ببعضٍ وكفرهم ببعض ، ونقضهم فى هذا ما عاهد اللهُ عليه أنبياءهم من الإيمان بكل رسول ، ونصرته ـ بعد أن كشفت الآيات السابقة هذا ، أمر الله نبيّه بأن يجهر بالحقّ الذى فسَق عنه أهل الكتاب ، وأن يقيم إيمانه على الدين الذى ارتضاه الله له ، وللمؤمنين جميعاً . . وهو الإيمان بالله ، وما أُنزل عليه من كتاب ربه ، وما أنزل على الأنبياء قبله . . إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما تلقى موسى وعيسى من آيات ربهما وكتبه ، وما تلقى النبيون جميعاً من ربهم ، لا تفرقة فى هذا بين أحد منهم ، فكلهم رسل كرام من رسل الله ، سفراء بررة ، بين الله وبين عباد الله !

وفى قوله تعالى هنا : « قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنْزِلَ عَلَيْنَا » وفى قوله سبحانه فى سورة البقرة : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا » (١٣٦) تفرقة بين النبىّ وأتباع النبىّ فى التلقّى عن الله سبحانه وتعالى ، فالنبى هو الذى تلقى الكتاب عن الله ، وأتباعه هم الذين تلقوْا الكتاب عن النبى ، ولهذا كان خطاب النبي : « قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وما أُنزل علينا » وكان خطاب أتباعه : « قولوا آمنا بالله وما أُنْزِل إِلَيْنا » . و « علينا » فيها الدنوّ والمباشرة ، بخلاف « إليناً » وما فيها من بعد ومجاوزة .

وفى قوله تعالى : « وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط » وقوله : « وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم » ـ ما يُسأل عنه . . وهو : لماذا كان الوصف المصاحب لما تلقّاه النبيون : محمد وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، هو « النزول » ،على حين كان الوصف المصاحب لما تلقّاه موسى وعيسى هو « الإتيان » هكذا : « وما أوتى موسى وعيسى » ؟

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ هو أن ما تلقاه النبيّ عليه الصلاة والسلام ، وما تلقاه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام ـ كان وحيًا من الله ، على لسان مَلَك من ملائكته ، هو جبريل عليه السلام ، فكان وصف هذا التلقى « بالنزول » هو الوصف المناسب لتلك الحال ، أما ما تلقاه موسى وعيسى عليهما السلام ، فكان تلقياً مباشراً من الله سبحانه وتعالى . . وفى موسى يقول الله تعالى : « وكلَّم الله موسى تكليما » (١٦٤ : النساء) أما عيسى عليه السلام ، فقد أيده الله بروح القدس ، لذى هو نفخة من روح الحق ، فكان اتصاله بالله اتصالاً مباشراً بهذا الروح الذى يملأ كيانه ! وفى عيسى يقول الله سبحانه : « وآتينا عيسى بن مريمَ البينات وأيدناه بروح الْقُدُس » (٨٧ : البقرة) وروح القدس ، هو جبريل ، أو روح من عند الله . . تلازمه ، وتنطق بلسانه . . !

قوله تعالى : « ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقْبَلَ منه » . . الإسلام هو دين الله الذى شرعه لعباده ، والذى جاء به الأنبياء والمرسلون جميعاً ، ودعَوْا الناس إليه ، فمن آمن منهم بما جاء به الرسل ـ من غير تحريف ولا تبديل ـ فهو مسلم من المسلمين . .

فإبراهيم عليه السلام . . يسأل الله أن يوفقه وأهله وذريته إلى دين الإسلام ،

فيقول كما ذكر القرآن ذلك على لسانه : « رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْن لكَ ومن ذريتنا أمَّةً مسلمةً لك » (١٢٨ البقرة) وفيه يقول الله تعالى : « إذ قال له ربُّه أَسْلِمْ قال أسلمت لربِّ العالمين » (١٣١ : البقرة) . . وفيه يقول سبحانه : « ما كان إبراهيم يهوديًّا ولا نَصْرَانيًا ولـكنْ كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » (٦٧ : آل عمران) وإبراهيم هو أبو الأنبياء ، وعلى دينه ـ وهو الإسلام ـ كان جميع الأنبياء من بعده !

وعلى هذا ، فليس المراد « بالإسلام » هو الشريعة الإسلامية التى جاء بها محمدٌ عليه الصلاة والسلام ، خاصة ، إذ ليست هذه الشريعة بِدعاً من الشرائع السماوية التى سبقتها ، بل هى وما قبلها من الشرائع ـ من يهودية ونصرانية وغيرهما ـ على سواء . . فجميعها شريعة الله ، وكلهـا « الإسلام » الذى هو الدين عند الله ، ولا دين غيره .

والخلاف الذى بين الإسلام ، وبين اليهودية والنصرانية ليس اختلافاً ناشئاً عن حقيقة هاتين الديانتين ، وإنما جاء الخلاف نتيجة لمـا حدث فيهما من تبديل وتحريف ، ولو أنهما سَلِما من هذا التحريف والتبديل لالتقيا مع الإسلام . ولـكان أتباعهما من المسلمين . .

الآيات : (٨٦ — ٨٩)

« كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٨٩)

التفسير : قوله تعالى : « كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ » .

الاستفهام هنا ليس على حقيقته ، وإنما هو استنكار واستبعاد لمن يطمع من هؤلاء الضالين أن يلبس ثوب المهتدين ، وأن يرجو العون والتوفيق من الله ، بعد أن أعطى اللهَ ظهره ، وكفر به وبآياته المضيئة بين يديه !

وهؤلاء الضالون هم الذين كفروا من أهل الكتاب ـ وخاصة اليهود ـ الذين كفروا بعد إيمانهم . . فقد كانوا قبل بعثة محمد يؤمنون بأن نبياً عربياً سيبعث كما قال الله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ » (١٥٧ : الأعراف) .. ثم جاءهم النبي المنتظر ، ورأوا فيه وبين يديه دلائل الحق التى تشهد له أنه رسول الله ، ووافقت صفته عندهم ما تحدثت به كتب الله التى بين أيديهم عنه . . ومع هذ أبوْا إلا عنادًا وكفراً . . فأنكروا كلمات الله ، وجحدوا الحق الذى تحدثهم به ، وبهذا تحولوا من الإيمان إلى الكفر . . كما يقول الله تعالى : « كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » . . وكما يقول سبحانه « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ » (٨٩ : البقرة) .

والواو فى قوله تعالى : « وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ » وفى قوله : « وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ » يمكن أن تكون للعطف على قوله تعالى : « كَفَرُوا » وهذا يعنى أنهم جمعوا المتناقضات التى لا تستقيم على عقل عاقل . . إذ جمعوا الكفر مع ما شهدوا من الحق الذى يطالعهم من وجه الرسول ، ومع ما بين

يديه من آيات بينات . . وهذا أمرٌ لا يـكون إلا ممن سَفِهَ نفسه ، وركب رأسه ، وتعلق بأذيال شيطانه !

كما يمكن أن تـكون هذه الواو للحال ، بمعنى أنهم كفروا فى تلك الحال التى يشهدون فيها دلائل النبوة ، ويرون آياتها . . فهم والحال كذلك فى أمر مختلفٍ . . الـكفر عن علم وعمد !

وفى قوله تعالى : « وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ما يكشف عن حقيقة الاستفهام الإنـكارى الذى بدأت به الآية ، وهو : « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم » . . فهؤلاء القوم قد اتخذوا الظلم مركباً ، فاعتدوا اعتداء منكراً على الحقّ الذى بين أيديهم ، حتى لقد اجترءوا على إفساد الـكتاب السماوى الذى يؤمنون به ، ويعيشون فيه . . « وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » فـكيف يهدى الله هؤلاء القوم الظالمين ، الذين يشهدون الحق ، ويستيقنونه ، ثم يكفرون به ؟ إنهم ليسوا أهلاً لخير أبداً .

وكلمة « القوم » هنا تعنى أن هذا الظلم الذى ركبه هؤلاء السفهاء هو ظلم جَماعى ، تواطأ عليه القوم جميعاً ، ولم يقم فيهم رجل رشيد ينكر عليهم هذا المنـكر ، فـكان ظلماً غليظاً ، وداء قاتلاً ، لا يرجى له شفاء أبداً . . إنه أشبه بالوباء الذى ينزل بجماعة من الجماعات ، فيأتى عليها بين يوم وليلة .

ولهذا كانت العقوبة الواردة على هؤلاء الظالمين عقوبة عامة قاصمة : « أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاٰئِـكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . . إنهم بمعزل من رحمة الله . . تحيط بهم لعنة الله ولعنة ملائـكته ، ولعنة الناس أجمعين : المؤمنين منهم وغير المؤمنين . . أما المؤمنون فلأنهم من حزب الله ، يحاربون من حارب الله ، ويلعنون من يلعنه الله . . وأما غير المؤمنين فإنهم على خلافٍ مع هؤلاء القوم الظالمين . . لهم ظلم غير ظلمهم ، ودين غير دينهم . .

فهم على عداوة ـ ظاهرة أو خفية ـ معهم . . ثم إنهم هم أنفسهم يتبرأ بعضهم من بعض ، ويكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضاً ، وذلك حين تقع بهم الواقعة ، ويرون سوء المصير الذى هم صائرون إليه . . هكذا شأن جماعات الضالين والمفسدين ، يجمعهم الضلال والفساد إلى حين . . ثم يفرّق بينهم الضلال والفساد يوم يقوم الناس لرب العالمين . . وفى هذا يقول الله تعالى : « الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ » (٦٧ : الزخرف) ويقول سبحانه : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » (٢٥ : العنكبوت) .

والضمير فى قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا » يعود إلى اللعنة ، أى هم خالدون فى هذه اللعنة الواقعة عليهم من الله والملائكة والناس ، لا تزايلهم أبداً . .

وقوله تعالى : « وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ » إشارة إلى أن هذه اللعنة واقعة عليهم فى هذه الدنيا ، كما هى واقعة عليهم يوم القيامة . . إنهم يَلْقَوْن جزاء هذا الظلم الغليظ معجلاً ومؤجلاً معاً .

والاستثناء فى قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » هو وارد على هذا الحكم الواقع على أولئك الظلمة وما رماهم الله به من لعنةٍ عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الآخرة . . بمعنى أن من تاب من هؤلاء الملعونين ، ورجع إلى الله من قريب ، وأصلح ما أفسد من دينه فإن مغفرة الله تَسَعُهُ ، ورحمة الله تعالى تناله ، وترتفع عنه تلك اللعنة التى أحاطت به ، وينزل منازل المؤمنين ، الذين رضى الله عنهم ، وتقبّل عنهم أحسن ما عملوا . .

وفى هذا ما يفتح لهؤلاء المذنبين باب الرجاء فى رحمة الله ، وينصب لهم معالم النجاة ، إن هم أرادوا النجاة والخلاص .

الآية : (٩٠)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ »(٩٠)

التفسير : هذه الآية مكملة لما قبلها . .

فبعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى المصير المشئوم الذى سيقع على هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب .. الذين كفروا بعد إيمانهم ، وبعد أن شهدوا أن الرسول الذى ظهر فيهم هو رسول رب العالمين ، يحمل آيات الهدى والنور من ربه . . وبعد أن ألبسهم الله ثوب اللعنة ، ثم فتح باب الرحمة لمن نَزَع منهم عن غيّه وضلاله ، وفاء إلى الحق ، ورجع إلى الله تائباً ، مصلحاً ما أفسد من دينه وفى دينه ـ بعد هذا بيّن الله موقف المتعنتين من هؤلاء الضالين الظالمين ، الذين دعاهم الله تعالى إلى جناب رحمته ومغفرته ، فأَبَوْا أن يستجيبوا ، ولم يزدهم هذا الدعاء الكريم ، من رب كريم ، إلا إصراراً وعناداً ، وإغراقاً فى الإثم ، واستغراقاً فى الضلال ـ فهؤلاء لن تُقبل توبتهم ، ولن يلقاهم الله برحمته ومغفرته . . « وأُولٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ » .

والسؤال هنا :

أهناك من يتوب ، ويمدّ يده إلى الله بالصفح والمغفرة ... ثم يُرَدّ ، ولا صَفْحَ ولا مغفرة ؟

والجواب ، أن الله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى التوبة ، ويفتح لهم باب

القبول والصفح ، فيقول سبحانه : « إن الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين » (٢٢٢ : البقرة) ويقول جل شأنه : «وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٣١ : النور) ثم يقول سبحانه : « وهو الذى يقبَلُ التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلمُ ما تفعلون » (٧٥ : الشورى) .

فكيف لا يقبل الله توبة من جاء إليه ملبيًّا نداءه ، باسطاً إليه يده بالتوبة والإنابة ؟

والآية هنا تقول « إن الذين كفروا بعدَ إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تُقْبل توبتُهم وأولئك هم الضّالون »

فهؤلاء الذين كفروا هم الذين أشارت إليهم الآية السابقة فى قوله تعالى : « كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقّ »

إنهم ـ والأمر كذلك ـ ليسوا مجرد كافرين ، وُلدوا فى الكفر ، ونشأوا على الكفر ، وإنما هم كفروا بعد إيمان ، وضلّوا بعد هدى . . وليس هذا وحسب ، بل إنهم تعمّدوا الخروج من الإيمان ، وأطفئوا بأيديهم وبأفواههم النور الذى كان معهم . . وإنهم ليعرفون أنهم على ضلال ، ولكن الحسد الذى يأ كل قلوبهم جعلهم يُلقون بأيديهم إلى التهلكة عن عمد وإصرار .

وإن إنساناً يستبدّ به العناد إلى هذا الحدّ ، ويتسلط عليه الهوى إلى هذا المدى الذى يشوّه به معالم وجوده بيده ـ إن إنساناً كهذا الإنسان لن يرجع إلى الله أبداً ، ولن تزيده الأيام إلا عمًى وضلالاً . . فقد استشرى به الداء ، وهيهات أن يكون له دواء : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليمٌ بما كانوا يكذبون » (١٠ : البقرة) . .

وفى قوله تعالى : « ثم ازدادوا كفراً » ما يكشف عن معدن هؤلاء

القوم ، وأنهم كلما امتد الزمن بهم كلما ازدادوا عتوًّا وكفرًا . . ومن كان هذا شأنه فإنه لا يرجى له صلاح ولن تـكون منه إلى الله رجعة .

وفى قوله تعالى : « لن تُقْبَل توبتهم » تيئيس لهم من التوبة التى إن أعلنوها بألسنتهم فى حالٍ ما، أنـكروها بقلوبهم ، وشهد على إنـكارهم سوء أعمالهم . .

وفى قوله تعالى : « لن تُقبل توبتهم » وجه آخر، هو أنهم ـ والله أعلم ـ قد لبسوا من الـكفر غير ما يلبسه الـكافرون . . إذا كانوا على الإيمان ، نخلعوه ، وارتدوا الـكفر الذى لن يزايلهم أبداً ، فإذا تاب تائبهم . . وهو على تلك الحال ـ فلن تقبل توبته ، بمعنى أنه لن تُمضَى له هذه التوبة إلى آخر عمره ، بل إنه راجع لا محالة إلى ما كان عليه من الـكفر الغليظ الذى تلبّس به . . وبهذا تـكون توبته تلك كلا توبة . . فقوله تعالى : « لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » أى لن تُقبل قبولا مثمراً ، ينتهى بصاحبه إلى الهدى والإيمان . . إذ كانت التوبة غير خالصة لله وللحق !

وقوله تعالى : « وأولئك هم الضالون » الإشارة هنا إلى هؤلاء القوم الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفراً ، ثم لم يكن الله ليقبل توبتهم . . « وأولئك هم الضالون » أى الذين استغرقهم الضلال ، واشتمل عليهم . . فلا مخرج لهم منه إلى هدًى .

آية : (٩١)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » (٩١)

التفسير: هذا الحكم وإن كان عاماً يلحق الكافرين الذين ماتوا وهم على كفرهم، إلا أنه يتجه اتجاهاً مباشراً إلى اليهود، الذين أبعدهم الرحمٰن من رحمته، وتركهم مع كفرهم وضلالهم، وأغلق فى وجههم باب التوبة والقبول، وذلك لأنهم كفروا بعد إيمان، وضلّوا بعد علم، ثم اجترءوا على الله، فحرَّفوا كلماته، وبدّلوا آياته..

وإنهم وقد أيأسهم الله من الرجوع إليه، سيَمْضون على ما هم فيه من كفر، وسيموتون كافرين..

ومن كان على تلك الصفة، فالويل له من عذاب يوم عظيم!

وفى قوله تعالى: «فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً» أمور منها:

أولا: أن المال الذى هو دِين اليهود، والذى من أجله استرخصوا الدِّين، واستخفوا بآيات الله، ليحتفظوا بمراكزهم الاجتماعية فى مجتمعهم الفاسد ـ هذا المال الذى هم تاركوه وراءهم لن يدفع عنهم شيئاً من العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة..

ثانيا: التعبير بالذهب عن المال، سواء كان ذهباً أو فضة، أو ضِياعاً أو دوراً وقصوراً ودوابَّ ـ لأن الذهب هو المقياس الذى تعرف به قيمة كل مال، وهو الذى به ينال كل مال مَطلب.

ثالثا: فى قوله تعالى: «أحدهم» ما يشعر بالاستخفاف بهذا المال، وبقلّة جدواه فى هذا الموقف، وأنه لو كان لأحدهم ملء الأرض ذهباً ما نفعه! فكيف وهو لا يملك من هذا المال ما يملأ حفرته من الذهب؟ فإن بلغ فى الغنى أقصى مدّى فلن يملك مصرًا من الأمصار! وأين هذا الذهب الذى يملأ هذا المصر الذى ملكه؟

رابعاً : فى قوله تعالى : « ولو افتدى به » ما يكشف عن بعض البلاء النازل بهذا الذى كفر بالله ، فى هذا اليوم ، وأنه لو كان له ملء الأرض ذهباً لسمحت به نفسه فى غير تردد أو مساومة ، ليدفع هذا البلاء ، ويَخْلُص بجلده . . وانظر كيف يسمح يهودى بهذا الذهب كلّه ، ولا تنازعه نفسه إلى أن يحتجز بعضاً ، ويترك بعضاً ؟ ولقد كان مستعداً فى حياته الدنيا أن يبيع نفسه ، لمن يشتريها ـ وقد باعها فعلا ـ لقاء حفنة من تراب هذا الذهب . فكيف يُلقى بهذا الذهب كله من يده ؟ إنه العذاب الأليم الذى يجعله يذهل عن كل شىء حتى المال ، وحتى الذهب .

الآية : (٩٢)

« لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » (٩٢) .

التفسير : فى الآية السابقة أهُدِرت قيمة الذهب ، فكان لا ثمن له فى يد من يملكه ، ولو كان ملء الأرض ! إذ ماذا ينفع المال فى هذا اليوم ، الذى لا بيعَ فيه ولا شراء ؟

ومن هنا لم يكن لهذا المال الذى قدمه الكافر فديةً له ، وهو مال كثير ، يملأ وجه الأرض كلها ـ لم يكن له أى أثر فى رفع شر أو جلب خير ! . . إنه مال مزهود فيه ، لا تلتفت إليه عين ، ولا تمتد إليه يد ، فهو والتراب سواء !

وفى هذه الآية يبين الله تعالى أن المال الذى يبذل ، وللأنظار مطمح فيه ، وللقلوب عُلْقَةٌ به ، وللنفوس هوًى إليه ـ هو المال الذى يُدْفع به الشر ، ويُجلب به الخير .

وإذ كان ذلك كذلك ، فإن المال المبذول فى سبيل الله لا يبلغ بصاحبه منزلة الأبرار المقبولين عند الله ، حتى يكون هذا المال أحبَّ شىء عنده وآثره . إذ هنا يكون صاحب المال قد جاهد نفسه ، وغلب هواه ، وقهر دواعى الأثَرة عنده ، حتى نزل عن هذا الشىء المحبوب عنده ، وأنفقه فى وجوه الخير ، طمعاً فى مرضاة الله ، وابتغاء رضوانه . . وبهذا ينال ثواب المجاهدين ، ويعطى أجر العاملين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ »

(٦٩ : العنكبوت)

* * *

الآيتان : (٩٣ — ٩٥)

«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٩٥)

التفسير : عَبِثَ اليهود بآيات الله ، وحرّفوا وبدّلوا فى كلماته ، وأداروا دينهم على الوجه الذى يغذّى نزعاتهم ، ويشبع أهواءهم ، فأحلُّوا وحرّموا ، غير ما أحلّ الله ، وغير ما حرم ، وقد فضحهم القرآن الكريم فى أكثر من آية من آياته ، فقال تعالى : «مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ ، وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلٰكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً» (٤٦ : النساء)

ولم يقف بهم الأمر فى تحريف كلمات الله وتبديلها عند حدّ ، فتقوّلوا على أنبيائهم ، ورموْهم بالكبائر والمنكرات ، وجحدوا رسالة محمد وما حدّثت به التوراة عنه ، ثم تجاوزوا هذا إلى ما يتصل بشئونهم الخاصة التى رسمتها لهم شريعة موسى . . من القصاص فى القتلى ، وحدود المحرمات ، وما حرّم الله عليهم من طيبات كانت حِلاًّ لهم من قبل أن تُنزّل التوراة ، نكالاً لهم ، جزاء كفرهم بآيات الله !

وفى كل هذا كانت تنزل آيات القرآن الكريم فاضحةً لهم ، ناشرة على الناس ضلالهم وافتراءهم على الله ، وعدوانهم على حدوده .

فحين نزل فيهم قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا (١٦٠ : النساء) وقوله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » (١٤٦ ، ١٤٧ : الأنعام) ـ حين نزل فيهم هذا القرآن الذى يتهمهم بالبغى والعدوان ، وأنهم عوقبوا ببغيهم وعدوانهم هذا العقاب الذى حرّم الله به عليهم ما كان حِلاًّ لأسلافهم من قبل أن تنزل التوراة ـ حين قال فيهم القرآن هذا جعلوا يُبدون العجب والدَّهَشَ ، ويقول قائلهم : ما هذا القول الذى يحدِّث به محمد عنا ؟ وكيف تبلغ به الجرأة على الحق أن يغيّر ويبدّل فى شريعتنا ؟

وقد رَدَّ القرآن عليهم قبل أن ينطقوا بهذا الذى نطقوا به ، ورصدَ لهم الجواب الذى يفحمهم ويخزيهم ، قبل أن يتساءلوا ويعجبوا ، فى خبث صبيانى مفضوح ، فدعا الله تعالى نبيّه أن يلقاهم بهذا الردّ إن هم كذبوه فيما يتهمهم به القرآن من كذب على الله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » فمع سعة رحمة الله وشمولها ، فإنها لا تنال هؤلاء المجرمين الذين رماهم الله ببأسه ونقمته ، فحرم عليهم طيباتِ ما أحلّ . . وقد فضحهم الله فى قوله سبحانه : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ

أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ . . هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ . . لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ . إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ »
(١١٦ : النحل)

وفى قوله تعالى : « كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ » إشارة إلى أن الأصل فى الطعام أن يكون مطلَق الحلّ ، يتناول منه الإنسان ما ترضاه نفسه ، وتطيب به . . إن ذلك شأن من شئون الناس . . فما استساغته النفوس وقبلته ، فهو حِلّ مباح لها ، وما عافته واستقذرته لم يكن لأحد أن يحملها على تناوله .

فهذه أنواع الحيوان ، وأجناس الطير .. لكل نوع طعام ، ولكل جنس ما يغتذى به ، ويقيم حياته عليه ، إذ يعيش بعضها على النبات ، وبعضها على الحبوب ، وبعضها على الثمار ، كما تعيش أصناف منها على اللحم ، وأصناف أخرى على العشب ! فإذا عُرِض على الحيوان آكل العشب بعضُ قطع اللحم لم يمدّ فمه إليها ، والعكس بالعكس . . وهكذا كل صنف وكل نوع ، يسعى وراء الطعام الذى ساغته نفسه وقبلته طبيعته !

والإنسان شأنه شأن الحيوان فى هذا . . له أن يأكل مما تنبت الأرض ، وما تحمل على ظهرها من حيوان ، ما دام المأكول مستساغاً عنده ، مقبولاً لديه ! وطبيعى ألا يستسيغ الإنسان كل شىء أو يقبل كل شىء .. فقبِل كثيراً ، ورفض كثيراً ، وهو حرٌّ فى القبول وفى الرفض .

ذلك شأن الإنسان ، وهكذا ينبغى أن يكون شأنه . . الأمر متروك له ، فيما يَتخيّر من طعامه ، وشرابه !

ولكنّ العناية الإلٰهية كانت ولا تزال دائماً أبداً تمدّ الإنسان بنصحها ،

وإرشادها، حتى يستقيم على الطريق القويم. فأرسل الله رسله يحملون إلى الناس الهُدى والرشاد، ويؤذّنون فيهم بكلمات الله، وما فيها من وعدٍ ووعيد، إذ كان الإنسان أهلاً لأن يخاطب من قِبَل الله، وأن تُحمل إليه كلمات الله، وما فيها من نور وهدًى!

فكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإباحة الحلال وحظر الحرام، مما بينته للناس شريعة السماء، وأمرت بالوقوف عند حدوده!

وفى الطعام والشراب جاءت الشريعة السماوية بالإباحة المطلقة لكل ما هو طيب، كما يقول الله تعالى «يأيها الذين آمنوا كُلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون» (١٧٢ : البقرة) ويقول سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحلّ الله لكم ولا تعتدوا» (٨٧ : المائدة).

وقد يكون من العجب أن تحرّم الشريعة السماوية على الناس بعض ما يشتهون، أو بعض ما يجدون له مساغاً بوجه من الوجوه!

ويقوم هذا العجب حين ننظر إلى الإنسان نظرتنا إلى الحيوان، ونقيسه عليه، ونسوّى بينهما فى القياس، وعندئذ يجوز لقائلنا أن يقول: إذا كان الحيوان قد أُطلق له الأمر فى اختيار طعامه وشرابه، والاستدلال بغريزته على ما يصلح له وما لا يصلح، أفلا يُطلق للإنسان الأمر فى اختيار طعامه وشرابه، والتمييز بعقله وخبرته بين النافع منها والضار؟ أليس من باب أولى أن يكون الإنسان سيدَ نفسه، وصاحب أمره فى هذا الأمر الذى يتهدّى إليه الحيوان بطبيعته؟

ولكن يُردّ على هذا، بأن الإنسان أكرمُ على الله من الحيوان، بما حباه من عقل، وما جعل له بهذا العقل من سلطان الخلافة على هذه

الأرض . . ولهذا تولّى الله سبحانه هدايته ، وخاطبه ـ كما قلنا ـ على لسان رسله بكلماته وآياته . .

وقد جاءت آيات الله إلى الإنسان لتحرر إرادته من الهوى المتسلط عليه ، وتُجلِي عن عقله غيوم الجهل والضلال التى تخيم عليه بين الحين والحين . .

وكما جاءت آيات الله لتحرر إرادة الإنسان ، وتصحح وجدانه ، وتنير عقله ، جاءت أيضاً إلى الجانب المادىّ منه ، لتغذّى جسمه بالغذاء الطيب ، ولتحول بينه وبين أن يَطعم الخبيث ، حتى يسلم له كيانه كله ، جسدًا ، وعقلاً ، وقلباً ، وروحاً !

ومن هنا كان ما فرضته الشريعة السماوية من تحريم الخبيث من الأطعمة على المؤمنين ـ استعلاء بالإنسان ، واستكمالاً للكمال المنشود له ، بل والمطلوب منه .

وهذا ما فعلته الشريعة الإسلامية مع أتباعها فيما حرمت عليهم من مطاعم ، فيقول الله تعالى : « حُرِّمت عَليكم الميتةُ والدّمُ ولحم الخنزير وما أهلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنطيحة وَما أكل السَّبُعُ إلاَّ ما ذَكَّيتُمْ وما ذُبحَ على النصب وأن تستقسموا بالأزلام . . ذلكم فِسْقٌ . . . » وهى جميعها مطاعم تأباها النّفوس الطيبة ، وتعافها الطبائع السليمة ، بل إن بعض الحيوانات آكلة اللحوم تأبى أن تأكل الميتة ، ولو هلكت جوعاً .. كالأسد مثلاً ، فإنه لا يقرب الميتة أبداً !

فالميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، والحيوانات التى تموت غير ميتة طبيعية، كالمنخنقة والموقوذة ، والمتردية ، والنطيحة ، وما أكل السبع منها . . كل هذه مطاعم لا تقبلها نفس طيبة ، ولا تسوغها طبائع سليمة .

وهناك مطاعم حرّمها الإسلام لا لذاتها ، ولكن لما أحاط بها من جوّ كريه ، يفسدها ، ويفسد طعمها على آكليها ، كتلك التى تذبح قرباناً للأوثان ، ومثلها جميع مطاعم الوثنيين . . حيث تفوح منها ريح الشرك بالله ، والكفر به . . فهى والحال كذلك طعام ملوّث بالشرك بالله ، فمن طعمها طعم الشرك معها .

وكالخمر التى حرمتها الشريعة الإسلامية ، إنها شراب مشوب بداء يغتال العقل ، وتذهب به حُميّا خُمارها وسكرها . . وعندئذ ينزل الإنسان عن إنسانيته التى يحرص الإسلام على أن يستبقيها فى كيان المخلوق الذى كرمه الله . . ومن أجل هذا كان تحريمها . .

فهذه المحرمات من المطعومات والمشروبات ، هى حماية للإنسان من أن ينزل عن إنسانيته ، واستعلاء به ، واستكمال للكمال المنشود له .

وكما يكون تحريم بعض الأطعمة والأشربة لطفاً من ألطاف الله بالإنسان ، والاستعلاء به على الخبائث ـ يكون التحريم فى حال أخرى ، ضرباً من الهوان والإذلال للإنسان ، وابتلاء وإعناتاً له ، حين يُدْفع عن الطيب ، ويُذَادُ عن الشهىّ ، نكالاً له بما كسب من ظلم ، وما جنى من بغى . . فكان هذا العقاب له ، من واردات الظلم والبغى ، وإن لم يكن ظلماً ولا بغياً ، ولكن هكذا يُجزَى الظالمون البغاة . . « ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » (١٤٦ : الأنعام)

فقد كانت المطاعم كلّها حِلاًّ لبنى إسرائيل ، لم يحرّم عليهم شىء منها إلا ما تعافه النفس ، وتزهد فيه . . ومع هذا فإنه كان إذا ورد واردهم على الميتة أو الدم أو لحم الخنزير ، أو الخمر ، فإنه لا إثم عليه فيه ، حيث لم يكن هناك حدٌّ شرعىّ ، يفرق بين طعام وطعام .

ومع أن هذا الإطلاق يَرْفع الحرج عنهم فى أن يطعموا أى طعـام يريدون ـ فإنه يحمل فى طياته الوقوف بهم عند مستوًى من الإنسانية ، دون هذا المستوى الـكريم ، الذى ندبت له الشريعة الإسلامية أتباعها ، فحرمت عليهم ما حرمت من مطاعم ، ولم تجعل ذلك إلى أتباعها ، يطعمون منها ماشاءوا متى شاءوا ، بل حرمت عليهم بعض الأطعمة تحريماً قاطعاً ، وأثَّمت من ينال منها إلا عند الاضطرار ، ودون مجاوزة حد الاضطرار .

لم تُحرِّم الشريعة على بنى إسرائيل شيئاً مما يطعمون إلاَّ ما حرم إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ على نفسه من أطعمة استقذرها ، وعافتها نفسه ، فجعل ذلك حراماً ملزِماً نفسه إياه !

فلما جاء موسى عليه السلام ، إلى بنى إسرائيل ، وطلع عليهم بآيات الله ، وملأ الحياة عليهم بالمعجزات . . ثم لم يكن منهم إلاّ العناد ، والإغراق فى الضلال ، وللـكر بآيات الله ـ فـكان أن أخذهم الله بالبأساء والضراء ، وضرب عليهم التّيه فى الصحراء ، وابتلاهم بتحريم العمل فى يوم السبت ، فلم يطيقوا ، وعملوا فى هذا اليوم ، فرماهم الله باللعنة ، وجعل منهم القردة والخنازير ! ثم ابتلاهم الله بما حرّم عليهم من طيبات الطعام ، التى ذكرها الله سبحانه فى القرآن الـكريم ، والتى جاءهم بها موسى فى التوراة ، وبيّن الله فيها أنها نقمة وابتلاء ، وبلاء ! كما يقول الله تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » (١٤٦ : الأنعام) .

ونقرأ الآية الـكريمة ، التى تحدِّث اليهود بما فى التوراة التى فى أيديهم ، عن تلك المطاعم التى حرمها الله عليهم ، نـكالاً وابتلاء . .

« كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ . . قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

ففى التوراة مِثلُ ما فى القرآن من هذا الأمر . . ولكن القوم يكابرون ، وينكرون أن يكون فى التوراة شىء من هذا الذى يحدثهم به القرآن .

ويمضى القرآن دون أن يلتفت إليهم . . إنه الصدق المطلق الذى يجدونه بين أيديهم ، وإن أنكروه بألسنتهم ، فهو يتحدث إليهم بصوت صارخ من التوراة : أن كذبتم وافتريتم .. فألجموا ألسنتكم ، ودَعوا هذا الافتراء الذى أنتم فيه . .

« فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هُمُ الظالمون » ! .

ولكن هيهات أن يكفّ القوم عن الكذب والافتراء . . وتلك بلية أخرى ، وداء يضاف إلى أدواء . ولا يقف القرآن ليسجل عليهم ما يثرثرون به ، من كذب وافتراء ، بعد كذب وافتراء ، بل يمضى فى طريقه ، يؤذّن بالحق ، ويدعو إليه من شاء أن يكون من أهله . .

« قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » . .

. . فإن ما ينطق به القرآن هو كلمات الله ، التى هى الصدق المطلق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وفى قوله تعالى : « فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » تعريض باليهود ، وبأنهم ليسوا على ملة إبراهيم التى يدّعون — زوراً وبهتاناً — أنهم عليها ، فإن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً ، وهؤلاء ليسوا بالحنفاء ولا بالمسلمين ، ولكنهم كفروا وأشركوا ، وضلوا ضلالاً بعيداً .

الآيتان : (٩٦ ، ٩٧)

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ » (٩٧)

التفسير : فى هاتين الآيتين الكريمتين ما يكشف عن الأسس القويمة التى قام عليها دين الله ، بَدْءا وخِتاما ، فكان هو الإسلام فى مبدئه وختامه ..

فأولاً : إبراهيم عليه السلام ـ هو أبو الأنبياء ، ومن ذريته ، وعلى دينه ، داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهرون ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وإلياس ، وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ، ولوطا ، ومحمد .. عليهم صلوات الله وسلامه . .

وثانياً : البيت الحرام الذى بمكة هو أول بيت وضع للناس ، فى هذه الأرض ، ليكون مصدر الخير والبركة ، ومَعْلَمَ الهُدى والنور للناس أجمعين .

ثالثاً : هذا البيت الحرام ، كان مُصلّى إبراهيم ومقامه ، ساقته العناية الإلٰهية إليه ، ليجدّد معالمه ، ويرفع قواعده ، ويُعِدّه لاستقبال الرسالة التى بدأها ، حين يَتمّ تمامُها ، وتبلغ غايتها على يد آخر المرسَلين من أبنائه ، وهو محمد عليه الصلاة والسلام .

وهذا البيت الذى اتخذه إبراهيم مصلًّى له ، هو بيت الله ، وهو أول بيت على هذه الأرض اتصل فيه الإنسان بربّه ، منذ طفولة الإنسانية الأولى .. فلما اصطفى الله إبراهيم لرسالته ، دعاه إلى تجديد معالمه ، ورفع قواعده ، ولم يكن

إبراهيم هو الذى أنشأه وأقامه . . فهو أقدم من إبراهيم بأزمان بعيدة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (١٢٥ البقرة) . .

ففى قوله تعالى : « وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ » إشارة إلى أنه كان بيتاً لله قبل أن يعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التى عبدها العابدون فيه . . ثم يقول الله تعالى : « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ . . » (١٢٧ : البقرة) .

وفى هذا إشارة أخرى إلى أن البيت كان قائماً على قواعد ، وأنها كانت إلى عهد إبراهيم وإسماعيل قد تهدمت . . فكان عمل إبراهيم وإسماعيل فيها هو إقامتها على أصولها التى كانت عليها .

رابعاً : فى اشتراك إسماعيل مع أبيه إبراهيم فى إقامة هذا البيت ، وتطهيره من الأوثان . . إعداد ــ كما قلنا ــ للرسالة المحمدية ، التى ستكون ميراثاً خالصاً له من أبويه الكريمين : إبراهيم وإسماعيل .

من هذا يبدو أن الرسالة الإسلامية المحمّدية كانت هى الفلك الذى تدور فيه رسالات الأنبياء والمرسلين ، وأنها الجامعة التى تجتمع إليها جميع الرسالات ، وتلتقى عندها ، كما أنها كانت هى المنبع الذى فاضت منه عيونها ، والكوكب الذى استمدت منه شعاعاتها . . فالرسالة الإسلامية المحمدية هى المبدأ والختام ، بدأت كما يبدو الهلال ، يكبر ليلة بعد ليلة ، حتى يتم تمامه ويصير بدراً ، ففى كل نبوّة ، وبين يدى كل نبى ، قَبْسة من أقباس الإسلام ، وضوءة من أضوائه ، حتى جاء صاحب الرسالة الإسلامية ، محمد ابن عبد الله ، فوضعها الله بين يديه ، على أتم تمامها ، وأكمل كمالها .

وقوله تعالى : « مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ » حالان لنائب الفاعل للفعل « وُضِعَ » أى وُضع البيتُ مباركاً وَهُدًى للعالمين .

وقوله تعالى : « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ » بيان للبركة التى شملت هذا البيت ، وللهدى الذى يفيض على الناس منه . . وتلك الآيات كثيرة . . منها أنه كان أقدم بَنية لله على هذه الأرض ، ومع ذلك ظل محتفظاً بوجوده ، لم تذهب به الأحداث ، ولم يأت عليه الزمن كما أتى على آثار الأولين ، وعفّى على كل مَعْلَم من معالمها . . أما هذا البيت فهو أقدم مَعْلَمٍ على هذه الأرض ، ومع ذلك فهو لا يزداد مع الأزمان إلا وضوحاً ورسوخاً . . حتى فى عهود الضلال والوثنية . . كان له فى قلوب الوثنيين وفى عقولهم من الإجلال والتقديس ما له فى قلوب المؤمنين وعقولهم ؛ من إجلال وإكبار وتقديس !

ومن الآيات القائمة فيه ، أنه كان ولا يزال أبداً حرمًا آمناً ، يجد عنده من يلوذ به من إنسان وحيوان وطير ، الأمنَ والسلامة ، فلا تمتد إليه يد بأذى ولا يناله أحدٌ بمكروه ، توقيرًا لهذا البيت ، وتكريماً لمقامه الكريم . . حتى إن أشدّ الناس فتكا ، وأقساهم قلباً ، وأكثرهم إضرارًا بالناس وأذًى ، لا يجد فى نفسه القدرة على انتهاك حرمة هذا الحرم . . بل إنه سرعان ما يستولى عليه شعور الأمن والسلام ، وإذا هو أمن وسلام ، مع المؤمنين السالمين ، فى جوار الحرم الأمين .

ومن الآيات البينات فى هذا البيت أنه لا يزال أبداً مَهوَى الأفئدة ، ومجتمع الحجيج من مختلف الأمصار والأجناس والألسنة ، حتى إذا صارت إليه هذه الألوان المختلفة من الناس ، أحالها لوناً واحداً ، وأوردها مشرباً واحداً ، وجمعها على أمر واحد ! .

وقوله تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ » هو خبر يراد به الأمر ،

أى أن الله سبحانه ، قد فرض على الناس أن يحجوا إلى هـذا البيت ، وأن يذكروا الله فيه ، لينالوا حظهم المقسوم لهم من نفحاته ، وبركاته .

وكلمة « الناس » هنا تعنى النّاسَ جميعاً ، لا تخصّ أمة من الأمم ، ولا تنحصر فى شعب من الشعوب ، إنها دعوة الله إلى كل النّاس ، أسودهم وأحمرهم ، وأبيضهم ، على السواء .. إنهم عباد الله ، والبيت بيت الله .

وفى قوله تعالى : « مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » قيد وارد على الأمر العام، المطلق بالحج ، فلا بد لنفاذ هذا الأمر ، من الاستطاعة ، فإذا فقد الإنسان الاستطاعة فلا حجّ عليه !

والاستطاعة هنا استطاعة عامة ، تشمل القدرة المالية ، والقدرة الجسدية ، كما تشمل أمن الطريق ، وكما تشمل قبل ذلك كلّه ، الإيمانَ بالله . . فغيرَ المؤمن بالله ، لا يتجه إلى بيته ، ولا يسعى إليه . . فهو فى حكم غير المستطيع ، إذ قام الكفر حجازاً بينه وبينُ هذا البيت .

وفى قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » إشارة إلى أن الكافر صادٌّ عن بيت الله ، لا يستجيب لهذا الأمر الذى دعا الله فيه الناس جميعًا ، أن يحجوا إلى بيته . . فكأنه جنس آخر غير جنس الناس المدعوين إلى بيت الله !

الآيتان : (٩٨ — ٩٩)

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٩٩) .

التفسير : دعا الله النّاس إلى أن يحجّوا إلى بيته ، ولـكن الذين كفروا بالله محجوزون بكفرهم عن إجابة هذا النداء . . فالله غنىٌّ عن العالمين !

وأهل الـكتاب — وخاصة اليهود — من الذين كفروا بآيات الله ، فلم يدخلوا فى هذه الدعوة ، ولم يستجيبوا لها ، وقد أمر الله النبىّ الـكريم أن يلقاهم بهذا السؤال الذى ينكر عليهم هذا الموقف الذى وقفوه من الدعوة الإسلامية وآياتها البينات ، خاصة وأنهم أهل الـكتاب ، تلتقى دعوته مع دعوة الإسلام ، لو أنهم آمنوا بما فى كتابهم ، ولم يحرّفوا الـكلم عن مواضعه . . « يَآ أَهْلَ الْـكِتَابِ لِمَ تَـكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ؟ » .

وفى قوله تعالى : « وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ » تهديد لهم ، ووعيد بسوء المصير ، جزاء أعمالهم المنكرة ، وكفرهم العنادىّ . . وذلك كلّه واقع فى علم الله ، الذى لا تخفى عليه خافية . .

ولو وقف أهل الـكتاب بكفرهم عند حدّ ، وقصّرُوا هذا الـكفر على ذات أنفسهم ، لـكانت مصيبتهم مصيبة ، ولـكنهم تجاوزوا هذا الموقف القاتل ، إلى إضلال غيرهم ، وإلى التشويش على المؤمنين ، وإفساد دينهم عليهم ، إذ يصدّون المؤمنين عن سبيل الله ، بما يُلْقُون إليهم من أباطيل ، وما يسوقون إليهم من فِتن . . إنهم لا يريدون لأحدٍ أن يستقيم على سبيل الله ، لأنهم يعلمون أنهم على طريق الضلال ، وأنهم هالـكون ، وإنه لعزيز عليهم أن يَسْلم الناس . . وإذن فليضلّ الناس كما ضلوا ، وليهلك الناس كما هلـكوا . . وذلك شأن المفسدين ، إخوان الشياطين ، يغُوون الناس ، ويزينون لهم سبل الفساد ، ليـكون معهم من يصاب بما أصيبوا به ، وفى ذلك عزاء لهم ، وإنه لبلاء إلى بلاء ! . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْـكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَـكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (٦٩ : آل عمران)

ويقول سبحانه : «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . . » (٨٩ : النساء)

الآيتان : (١٠٠ ـ ١٠١)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١٠١)

التفسير : بعد أن كشف الله — سبحانه — أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب ، وما يبيّتون للمؤمنين من مكايد وفتن ، ليفسدوا عليهم دينهم ـ دعا الله المؤمنين إلى أن يأخذوا حذرهم من هؤلاء الضالين المضلّين من أهل الكتاب : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ » . . والفريق المعنيّ هنا من أهل الكتاب ، هم العلماء منهم ، والذين يحسنون وسائل التضليل والخداع ، بما لهم من علم ، وفى قوله تعالى : « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ » ، تنبيه للمؤمنين وتحذير لهم ، وتسفيه لمن تسوّل له نفسه منهم أن يستجيب لدعوة هؤلاء الضالّين ، ويعطيهم منه أذنا واعية . . إذ كيف ينفذ هذا الضلال إلى قلب مؤمن ، وهو يستمع إلى آيات الله تتلى عليه ، ويرى بعينيه رسولَ الله قائما على رسالة السّماء ، يتلقى آياتها ، ويفيض على الناس منها ؟ كيف ـ والأمر كذلك ـ يتحول عاقل من الناس من النور إلى الظلام ، ومن الهدى إلى الضلال ؟ إن ذلك لن يكون إلا من أحمق ، أو سفيه ، أو مجنون !

وفى قوله تعالى : « وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » توجيه إلى الطريق الذى ينبغى أن يستقيم عليه العاقل ، ويلتزمه ، وهو الإيمان بالله ، والاعتصام به من وسوسة الضالين ، وكيد المبطلين ، فذلك هو الذى يعصم المؤمن من الزلل ، ويحميه من الضلال ، وفى هذا نجاته وسلامته .

الآيتان : (١٠٢ — ١٠٣)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » (١٠٣) .

التفسير : بعد أن حذّر الله ـ سبحانه ـ المؤمنين ، فى الآيتين السابقتين (١٠٠ ، ١٠١) من أن يأمنوا جانب تلك الجماعة المنحرفة من أهل الكتاب ، التى تدبّر لهم الشر ، وتحيك لهم الضلال ، لتفسد عليهم دينهم ، ولتفتنهم فيه — بعد هذا توجّه سبحانه بهذا النداء الكريم إلى المؤمنين فى خاصة أنفسهم ، ليحذرهم من العدو الخفى ، بعد أن حذّرهم من العدو الظاهر .

وهذا العدو الخفى ، هو النفس ، ونزَعاتها ، وأهواؤها ، تلك الأهواء والنزعات التى إن تسلطت على الإنسان أفسدته وأهلكته ، وكانت أشدّ وبالاً عليه من أعدى أعدائه الذين يراهم رأى العين !

وفى هذا النداء الكريم ، يدعو الله المؤمنين أن يتقوه حق تقْواه ، وأن يأتمروا بما أمرهم الله به ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً !

وقد فسّر بعض المفسّرين تقوى الله حق تقاته ، بالتقوى التى تتناسب مع جلال الله ، وكماله ، وعظمته . . وهذا مقام لا يستطيعه بشر من البشر ، ولا خلق من خلق الله .

ولهذا رأى هؤلاء المفسرون أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتُمْ » (١٦ : التغابن)

والواقع أنه لا تعارض بين الآيتين ، وإذن فلا تناسخ بينهما !

ذلك أن معنى قوله تعالى « اتقوا الله حق تقاته » الاجتهاد فى عبادته ، وفى طاعته ، على قدر ما تسع نفسُ الإنسان وتحتمل ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلاَّ وُسْعَها » (٢٣٣ : البقرة) . وهو ما تشير إليه الآية الكريمة : « فاتقوا الله ما استطعتم » . . فالتقوى على قدر الاستطاعة هى التقوى حقّ التقوى ، وهى المناسبة لقدر الإنسان وحظّه من الكمال المقدور له . . وعلى هذا ، فالناس على منازلهم من تقوى الله ، كل حسب وثاقة إيمانه وقوة عزيمته ، لا على حسب ما لله من كمال وجلال ، فذلك مالا يبلغه إنسان . أما ما ينبغى لله من قَدر وكمال فلن يبلغ أحد ذرة منه !

وحسب الإنسان لكى يكون من عباد الله ، أن يؤمن بالله أولاً ، وأن يجتهد فى عبادته وطاعته ما استطاع ، وإن فاته شىء من التقوى والعبادة ـ وهذا مالابد أن يكون ـ فلن يفوته سلامة معتقده فى الله ، وإخلاصه فى الإيمان بوحدانيته ، ثم الموت على هذا المعتقد ـ فإن فاته ذلك فقد حبط عمله ، وضلّ سعيه ، وأورد نفسه موارد الهالكين .

وبعد أن ثبت الله قلوب المؤمنين على الإيمان ، دعاهم دعوة أخرى ، وهى أن يكونوا جبهة واحدة فى وجه الأعداء المتربصين بهم . . فقد عرف المسلمون آثار الفرقة فيما كانوا عليه هم وآباؤهم فى الجاهلية ، من عداوة وبغضاء ، ومن خلاف وشقاق ، الأمر الذى ملأ قلوبهم خوفاً ، وغمَرَ ديارهم فقراً وحزناً ! .

« واعتصموا بحبل الله جميعاً وَلَا تفرّقوا واذكروا نعمةَ الله عليكُمْ إذ كُنْتُم أعْدَاء فألف بين قلوبكم فأصبحتُم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . . »

هكذا كان المؤمنون، ثم هكذا أصبحوا . . كانوا أعداء فألّفَ الله بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً . وكانوا عبَدة أوثان وأصنام، وفى شرك وضلال يَهْوِيَان بالمشركين الضالين إلى مهاوى السعير . . وكان هؤلاء الذين أدركهم الإسلام من مشركى الجاهلية على حافة الهاوية ، فأنقذهم الله ، إذ دخلوا فى الإسلام ، وكانوا من المسلمين !

فليذكر المسلمون هذا الذى كانوا فيه . . فإن لم يذكروه فى أنفسهم ذكروه فى آبائهم وأجدادهم . . ثم ليذكروا هذه النعمة السابغة التى أضفاها الله عليهم بالإسلام ، ثم ليحفظوا هذه النعمة ، وليحرصوا عليها ، وليحرسوها من الآفات التى تطلع عليها من آفاق شتى . . وبهذا يسلم لهم دينهم ، وتسلم لهم أنفسهم .

الآيات : (١٠٤ — ١٠٧)

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (١٠٧)

التفسير : علماء أهل الكتاب هم الذين أفسدوا على الناس دينهم ، فغيروا ، وبدلوا ، وحرفوا . . وهذه خيانة لله ، وخيانة للعلم ، إذ كان العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم المؤتمنون على دعوة السماء ، بعد الرسل ، يعلّمون الجاهلين ، ويهدون الضالين ، ويقيمون المنحرفين ، فإذا تحول العلماء أنفسهم إلى أدوات هدم وتدمير فى المجتمع ، كانت للمصيبة قاصمة مهلكة !

من أجل هذا ، كانت دعوة الله سبحانه وتعالى إلى الأمة الإسلامية ، أن تنتدب منها أمةً ، أى جماعةً ، يتولوْن قيادة الناس، وهدايتهم إلى سبل الرشاد .. فيأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر . . وبهذا يقومون فى المجتمع مقام الأطباء ، الذين يرصدن الآفات والأمراض التى تعرض للناس ، فيعملون على دفعها ، والقضاء عليها . . ويمكن أن يكون قوله تعالى : « ولتكُن منكُم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر » دعوةً للأمة الإسلامية كلها أن تكون على تلك الصفة . . أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر . ويكون معنى « مِنْ » فى « منكم » للبيان لا للتبعيض ، وهذا ما يناسب قول الله تعالى بعد هذه الآية : « كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله . » (١١٠ : آل عمران)

وسواء أكان الأمر موجهاً إلى الأمة الإسلامية كلها ، أو إلى جماعة العلماء المتخيَّرة فيها ، فإنّ معطيات هذا الأمر واحدة ، حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة فيها ، وهى جماعة العلماء العاملين بعلمهم ، الداعين إلى الخير ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم .

وإذ يأمر الله تعالى الجماعةَ الإسلامية بهذا، فإنه يحذّرها من أن تذهب مذاهب

الجماعات المنحرفة من أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا ، ولم يقم من بينهم راشدون ، يقومون فى وجه تلك الانحرافات ، وهذه الاختلافات ، فكان أن ضلّوا جميعاً ، وهلكوا جميعاً ! ! وهكذا شأن الجماعات التى تفقد القيادة الرشيدة .. لا يستقيم لها طريق ، ولا تستقر لها حال . . إنها أشبه بالغنم ليس لها راع يوردها موارد العشب والماء ، ويدفع عنها عادية الذئاب والسباع . .

وقوله تعالى : « يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه » الظرف هنا متعلق بقوله تعالى : وأولئك لهم عذاب أليم . . أى أنهم يعذبون عذاباً أليماً فى هذا اليوم ، يوم الحساب والجزاء . . يوم تبيض وجوه وتسودُّ وجوه . .

وابيضاض الوجوه واسوِدادها ، كناية عن البهجة والنعيم الذى يعلو وجوه المؤمنين ، والخزى والسوء الذى يحيط بالكافرين ، فى ذلك اليوم العظيم .

وفى قوله تعالى : « فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » بيان لما أُجمل فى قوله تعالى : « يوم تبيضُّ وجوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » .

ولم يجىء هذا التفصيل مرتباً على حسب ما جاء فى المجمل قبله ، إذ كان الترتيب يقضى بأن يُبدأ بالذين ابيضت وجوههم ، حيث بُدىء بهم أولاً .

والذى جاء عليه النظم القرآنى ، هو البيان المبين ، الذى هو سِمَة الإعجاز من كلام رب العالمين ، فَقُدِّم أولاً الذين ابيضت وجوههم وهم المؤمنون ، لأن ذلك كان تعقيباً على ذكر الأمة الإسلامية ، وما ينبغى لها أن تصون نفسها عنه ، مما وقع فيه أهل الكتاب من فرقة وخلاف ، كان لعلمائهم فيه الدور الأول . ثم ذكر إزاء هذه الصورة صورة أهل الكتاب ، وما يكون عليهم حالهم يوم القيامة : « يوم تبيض وجوه » المؤمنين « وتَسْوَدُّ وجوه الكافرين من أهل الكتاب ! . . وفى هذا ما فيه من تطمينٍ للأمة الإسلامية ، وترسيخ لأقدامها على الإيمان ، والوحدة والألفة .

فإذا جاء تفصيل هذا الإجمال ، ووقع تأويله ، وسيق الناس إلى الحساب والجزاء قُدِّم أولئك الكافرون ، ليقفوا موقف المذنبين المحاكمة ، ولم يُمْهلوا ، وذلك إشعار لفظاعة جرمهم ، وشناعة ذنبهم ، الذى يقتضى تعجيلَ الجزاء السيىء الذى ينتظرهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لعنةَ اللهِ والملائكةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهمُ الْعَذَابُ وَلاَهمْ يُنْظَرُونَ » (٨٧ ، ٨٨ : آل عمران) .

وفى التعجيل بعرض هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب ما يُدخل الطمأنينة على المؤمنين ، الذين ينتظرون دَوْرهم فى ساحة الحكم . . فهذا الحكم الذى يُقْضَى به على هؤلاء الكافرين فيه براءة ضمنية لغيرهم من المؤمنين ، ولكنها براءة مشوبة بالخوف ، محفوفة بالخشية . . فإذا جاء بعدها هذا الرضوان الذى يَفتح لهم أبوابَ الجنات ، وما يلقَوْنَ فيها من نعيم ـ زادهم ذلك نعيمًا إلى نعيم ، ورضوانًا إلى رضوان . .

« فأما الذين اسودّت وجوههم أكفرتم بَعْدَ إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأمّا الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

وانظر كيف كانت مساءلة الكافرين ، وكيف كان خزيهم وعِيُّهم عن ردّ الجواب « أَ كَفَرْتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ ؟ » . . ثم انظر كيف كان الجواب على هذا السؤال : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »

وفى قوله تعالى : « أكفرتم بعد إيمانكم » إشارة إلى أن هؤلاء الكافرين هم أهل الكتاب الذين تحولوا من الإيمان إلى الكفر ، وهم الذين أشار إليهم الله سبحانه وتعالى فى قوله تعالى: « إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا بَعْدَ إيمَانِهمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتهُمْ وَأُولَئِكَهُمُ الضَّالونَ » (٩١ : آل عمران)

وفى قوله تعالى : « فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ » إشارة ثانية إلى هؤلاء الكافرين من أهل الكتاب الذين كذّبوا بمحمد ، وكفروا بآيات الله التى بين أيديهم ، فيما تحدّث به عنه .

والمعنى : فذوقوا العذاب بسبب هذا الذى كنتم تكفرون به ، وهو « محمد » وما تحدثكم به التوراة عنه .

ثم انظر بعد هذا ، وفى الجانب الآخر من الصورة ، تجد المؤمنين وقد انتقلوا من هذا الموقف ، موقف المحاكمة ، فى لحظة خاطفة ، دون أن يُسألوا .. فإذا هم فى رحمة الله هم فيها خالدون . . « وأما الذين ابيضّتْ وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » .

الآيتان : (١٠٨ ، ١٠٩)

« تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » (١٠٩)

التفسير : يبين الله سبحانه لنبيه الكريم فى هاتين الآيتين الكريمتين لطفه به وبعباده ، وأنه سبحانه يخاطبه بلسان الحق ، وينزّل عليه آياته بالحق ، ليهتدى بها الضالون ، ويعلم منها الجاهلون ، وبذلك لا يكون للنّاس على الله حجة بعد هذا البلاغ المبين ، ولا يكون لقائل منهم أن يقول ما حكاه الله عنهم فى قوله تعالى : « رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٤٧ : القصص) . فإذا أخذ الله بعد ذلك مذنباً بذنبه كان ذلك هو الحكم الذى ينبغى أن يُدين به العاقل نفسَه . . « وما الله يريدُ ظلماً للعالمين » لأنه لو شاء سبحانه أن يعذب الناس جميعاً ــ محسنهم ومسيئهم ــ لما كان لأحد

أن يُجاحّ الله فى هذا ، أو يدفع عن نفسه ما يريد الله به . . ولكنّ رحمة الله سبحانه بعباده ، اقتضت أن يرسل إليهم رسلَه ، يحملون إليهم آياته واضحة بيّنة ، تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم « فمن أبصر فلنفسه ، ومن عَمِىَ فعليها » (١٠٤ : الأنعام)

وقوله تعالى : « ولله مافى السّموات ومافى الأرض وإلى الله تُرْجَعُ الأمور » هو بيان لما لله على النّاس من سلطان ، وأنه يحكم فيهم ولا معقب لحكمه ، وأنه آخذ بنواصيهم جميعاً ، فإليه مرجعهم ، وبين يديه حسابهم : « إن إلينا إيابهم ثم إن عَلَينا حسابهم » (٢٥ ـ ٢٦ : الغاشية) .

[مبحث : الخير . . فى خير أمة أخرجت للناس]

الآية : (١١٠)

« كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » (١١٠)

التفسير : مما يَكْبِتُ الضّالين من أهل الكتاب ـ وخاصةً اليهود ـ أن يَرَوْا نعمةً من نعم الله تَلبس أهل الإسلام ، وخاصة إذا كانت تلك النعمة بين أطواء آية من آيات الله ، المنزلة على رسول الله ، لأنهم يعلمون أن ذلك حقّ لا ريب فيه ، وأن تلك النعمة إن لم تكن قد أتت فهى آتية لا ريب فيها ، وهذا مما يضاعف حسرتهم ، ويملأُ قلوبهم غيظاً وكمداً . .

وإذ تلقّى المسلمون قوله تعالى : « كنتم خيرَ أمةٍ أخرجت للناس » بالتهليل والتكبير ، وبالثناء المستطاب على الله أنّ مَنّ عليهم بهذا الفضل ، فرفع قدرهم بين الأمم ، وأعلى شأنهم فى العالَمين ـ فإن أهل الكتاب ـ

وخاصة اليهود ـ قد صُعِقوا لهذه الآية ، ودارت رءوسهم بها ، وزُلزلت أقدامهم منها ، وأيقنوا أنهم لن يَلحقوا بالمسلمين ، ولن يقوموا لهم أبدَ الدهر !

وفى قوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للنّاس » وفى التعبير بلفظ الماضى « كنتم » ما يشير إلى أن هذا الحكم الذى حكم به الله على هذه الأمة، بأنها خير أمة أخرجت للناس ـ ليس محدوداً بزمن من أزمانها ، ولا مخصوصاً بحال من أحوالها ..وإنما هو حكم عام مطلق ، يشمل الأمة الإسلامية كلها ، فى كل أزمانها ، وفى جميع أحوالها ، من عهد النبوة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . إنه حكم للأمة الإسلامية فى ماضيها وحاضرها ، ومستقبلها . وإن تلقته فى أول وجودها، وفى ساعة مولدها . . « كنتم خَيْرَ أمةٍ أخرجَت للناس » ! هذا هو حكم الله فيما أحاط به علمه ، وفيما قدّره لكل أمةٍ من أجلٍ ، ومن رزق ! .

وفى قوله تعالى : « أُخرِجَتْ » تنويه آخر بشأن هذه الأمة ، وأنها هى المولود الكامل ، الذى تمخضت عنه الإنسانية كلها . . ولن تلد مثله أبد الدهر ! .

وفى قوله سبحانه : « أُخرِجَتْ الناسِ » تنويه ثالث بتلك الأمة ، فإنها لم تَخْرج من الناس ، ولكنها « أُخْرِجَتْ للناس » وكأنها بهذا من معدن غير معدن الناس ، ومن عالم غير عالم الناس ، جاءتهم هكذا من عالم الغيب ، وأخرجت لهم من حيث لا يتوقعون . . من صحراء مجدبة قفر ، ومن مجتمع أمّى غارق فى الجهالة !، فقادت ركب الإنسانية،وحررتها من قيود العبودية والظلم .

هذا هو مكاننا ـ أمةَ الإسلام ـ الذى نَدَبنَا الله له ، وأحلّنا فيه ، وأقامنا عليه . .

وإنه لن يزحزحنا عن هذا المقام زمان ، ولن يحتله مكاننا أحد . .

وإننا ـ أمةَ الإسلام ـ على أى حال كنّا ، وفى أسوأ وجود لنا ـ خيرُ أمة أُخرجت للناس ! .

وإن ميزاننا مهما خَفّ فى هذه الحياة فهو أثقل من ميزان أية أمة ، وإن بدا فى ظاهرها أنها أقوى قوة ، أو أكثر مالاً ، وأعزّ نفراً ! .

ذلك ما ينبغى أن نؤمن به إيماناً راسخاً كإيماننا بالله . . وإلا كنا مكذبين بآياته ، منكرين ، أو منتكرين لكتابه !

إننا ـ أمةَ الإسلام ـ أشبه بالذهب ، بين المعادن الأخرى . . قيمته دائماً فيه ، حتى ولو علا بريقَه التراب ، وغبّر وجهَه دخانُ الزمن . . إنه الذهب على أى حال .

فليكن ذلك شعورنا بأنفسنا ، وإيماننا بمكانتنا فى هذه الحياة . . ثم ليكن منّا ما يقابل هذا الشعور ، وذلك الإيمان ، من جِدّ ، ومن تحصيل لكل معانى الإنسانية الكريمة ، ومُثُلها الرفيعة ، فذلك هو الذى يحقق كل معانى الخيرية فينا ، ويعرض للناس وللحياة أكمل الكمال منّا . .

ومع هذا ، فإنه لن يَنْزع عنا هذا الفضلَ الذى فَضَل الله به على هذه الأمة ما يُلمّ بنا من ضعف أو يعرض لنَا من فتور ، أو يقع فى محيطنا من انحراف . . فتلك كلها عوارض لا تمسّ الصميم منا ، ولا تنقض حكمَ الله لنا . . فنحن ـ على أية حالٍ نكون عليها ـ « خيرُ أمة أخرجت للناس » .

ولسنا بهذا ندعى ما يدّعيه اليهود لأنفسهم من أنهم «شعب الله المختار». فنحن شىء ، واليهود شىء .

نحن تلقّينا كرامةَ الله وفضله . . واليهود رُموا بغضب الله ولعنته ! !

ذلك أن الله سبحانه ، أفاض على اليهود من أفضاله ، ومنحهم من نعمه ما لم يمنحه أحداً من العالمين . . امتحاناً وابتلاء . فلما مكروا بآيات الله ، وعصوْا رسله ، وقتلوا من قتلوا من أنبيائه ، وأعنتوا من أعنتوا منهم ـ أخذهم الله بالبأساء والضرَّاء ، وساق إليهم نقمه ، وشملهم بسخطه ، وصبَّ عليهم لعنته ـ وفى هذا يقول الله تعالى فيهم : « فبما نقضهم ميثاقَهم لعنّاهم وجعلنا قلوبَهم قاسيةً يحرفُون الكلِمَ عن مواضعه ونَسُوا حظّاً مما ذُكرّوا بهِ (١٣ : المائدة) .

أما نحن ـ أمة الإسلام ـ فقد فَضَل علينا بهذا الفضل ، وجعله حُكماً قائماً فينا أبداً : « كنتم خير أمةٍ أخرجَت للنَّاسِ » ولن ينُقض أبداً هذا الحكم الذى حملته كلمات الله .

وقوله تعالى : « تأمرون بالمعروف و تَنْهوْن عن المنكر و تُؤمنون بالله » بيان للصفات التى استحق بها المسلمون أن يكونوا «خيرَ أمة أخرجت للناس»

فمن رسالة هذه الأمة ألا تحتجز الخير لنفسها ، ولا تستأثر به حين يقع ليدها ، بل تجعل منه نصيباً تبرّ به الإنسانية كلها ، وتُشْرِك الناسِ جميعاً معها ، فيه .

ذلك شأنها فى كل خير تصيبه . . فإذا أصاب المسلمُ مالاً ، جعل فيه للفقراء والمساكين نَصيباً ، وآتى منه ذوى القربى واليتامى ، وأنفق منه فى سبيل الله،وفى إعلاء كلمة الحقِّ . . وإذا أصاب هدًى من الله، وعرف طريقاً إلى الحق ، لم يجد لذلك مساغاً إلا إذا وجّه الناس إليه ، ودَلّهم عليه ،ولو احتمل فى سبيل ذلك الضرّ والأذى ، وعرض نفسه للتلف والهلاك ، شأن الطبيب

الذى يرى وباء يفتك بالناس ، ويذروهم كما تذرو الرياحُ الهشيم . . إنه ـ والحال كذلك ـ ينسى نفسه ، ويدخل فى معركة مع هذا الوباء ، غير حاسب حساباً لما قد يقع له من سوء ، ولو كان فى ذلك ذَهاب نفسه !

هكذا هو موقف الأمة الإسلامية من الخير الذى ساقه الله إليها ، على يد الرسول الكريم ، مما تلقّى من بركات السماء ، ورحماتها . . « تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر » كما جاءكم رسول الله يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر . . وفى هذا يقول الله تعالى « هو الذى بَعَثَ فى الأميين رسولاً مِنهم يتلو عليهم آياته » .

وفى قوله تعالى : « تأمرون بالمعروف وتنهوْن عن المنكر وتؤمنون بالله » قُدِّم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله ، الذى هو مقدّم على كل عمل طيب ، حيث لا يطيب العمل ، ولا يُقبل ، إلا مع الإيمان . . فكيف يؤخر الإيمان هنا ، عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

والجواب عن هذا من وجهين :

أولاً : أن الله سبحانه وتعالى إذ وصف هذه الأمة هذا الوصف الكريم ، وحكم لها هذا الحكمَ القاطع اللازم ، لم يصفها هذا الوصف ولم يعطها هذا الحكم إلا وهى على الإيمان ، مجتمعةً هى عليه ومشتملا هو عليها . . فهى ليست مطلَق أمة ، وإنما هى أمة مسلمة ، تلك الأمة التى كانت استجابةً من الله لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إذ يقولان كما حكاه القرآن عنهما : « رَبنا واجعلنا مسلمْين لك ومن ذُرِّيتنا أمةً مسلمةً لك » (١٣٨ : البقرة) .

ثانياً : ذِكر الإيمان باللهِ هنا لم تكن داعيتُه وصفَ هذه الأمة بأنها مؤمنة بالله — إذ كان إيمانها بالله ، معروفاً مقدرًا من قبل ، وإنما داعيةُ

ذكره فى القرآن أنه إيمانٌ على صفةٍ غير ما عليه إيمان المؤمنين من أهل الكتاب !.

والإيمان بالله الذى عليه الأمة الإسلامية ، هو إيمانٌ بَرِئٌ من كل شائبة من شوائب الشرك ، وَخَلَصَ من كل نزغة من نزغات الشك . . إنه إيمان مصفًّى، يَرَى فيه المؤمن وجه الحق واضحاً مشرقاً ، إذ لا يتكلف له المؤمن جهدًا فى الوصول إليه ، ولا تنقطع أنفاسه فى الدوران حوله ، لأنه قريب ، قريب ، يراه العامة والفلاسفة على السواء . . إنه : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير » ذلكم الله ربّ العالمين ، وهو ما يقوم به وعليه إيمان المسلمين . . بلا فلسفه ، ولا كهنة ، ولا أحبار ، ولا رهبان . . إيمان يطمئن إليه قلب الرّاعى بين غنمه ، والزارع وراء محراثه ، كما يطمئن إليه قلب العالم فى معمله ، والفيلسوف فى محراب فلسفته ! إيمانُ بديهة . . لا تـكدّ ذهناً ، ولا تشتت خاطراً ، ولا تزعج وجداناً .

وليس كذلك إيمان المؤمنين من أهل الكتاب . . إنه إيمان مرهق معقّد ، مُركَّب على قضايا من المقولات الفلسفية والمنطقية ، المبنية على معطيات مما وراء الطبيعة ، التى تدور بها رءوس العامة ، وتضطرب لها عقول العلماء . . فإذا آمن مؤمنهم باللهِ كان بينه وبين الله حجب كثيفة من هذه المقولات ، التى لا يستطيع أن يرى الله من خلالها إلاّ محاطاً بضباب كثير من الشك والارتياب ! !

فإيمان المسلمين بالله ، إيمان . . وإيمان أهل الكتاب بالله إيمان . . وبين الإيمانين بُعد بعيد ، وبَوْن شاسع . . ومن هنا كان ذِكر إيمان المسلمين فى هذا المقام تنويهاً بهذا الإيمان ، وعزْلاً له عن إيمان المؤمنين من أهل الكتاب ،

ذلك الإيمان المشوب غير الخالص من العلل والآفات ، ولهذا جاء قوله تعالى :
« ولو آمَنَ أهْلُ الكتاب لكانَ خَيْرًا لهم » جاء بعد « قوله تعالى : وتؤمنون بالله » داعياً أهل الكتاب أن يؤمنوا إيماناً مصححاً مجدداً ، كإيمان المسلمين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَإِنْ آمَنُوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هم فى شقاق » .

وقد كشف القرآن الكريم عن حقيقة الإيمان الذى عليه أهل الكتاب . . فقال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ » (١٣ : البقرة) أى أنهم إذا دُعوا إلى الإيمان بالله إيماناً بعيداً عن المماحكات والسفسطات ، وعن الألغاز والطلاسم ، التى تُعمّى على الناس السبيل إلى الطريق المستقيم ــ إذا دعوا أن آمنوا كما آمن الناس ، إيمانا سمحاً سهلاً واضحاً ــ أبوْا وقالوا أنؤمن كما آمن السفهاء من الجهلة والعامّة ؟ وقالوا فى أنفسهم : كيف يهتدى أحد إلى الله من هذا الطريق القريب ؟ إنّ الله بعيد بَعيد ، متستر فى حجب جلاله وبهائه ، فلا تناله الأبصار ، ولا تدركه العقول ، وإنه لا بد ــ والأمر كذلك ــ من دراسات وفلسفات ، وبحوث مضنية مرهقة ، حتى يمسك الدارسون ، والفلاسفة والباحثون بأذيال هذه الحقيقة الكبرى ! هكذا زُيِّن لهم سوء عملهم فرأوه حسنًا .

وقال تعالى أيضًا مشيرًا إلى أهل الكتاب وإلى إيمانهم : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ » (٨ : البقرة) إنه إيمان مشوب بالشك ، ومختلط بالضلال . . فلا يعدّ ، ولا يحسب فى الإيمان الصحيح بحال أبدًا .

وفى قوله تعالى : « مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ » إشارة إلى أن قِلةً قليلةً من هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب قام إيمانُهم على التسليم ،

ولم يقم على الوساوس والهواجس ، والضرب فى متاهاتٍ لا يهتدى السالك فيها إلى سواء السبيل أبدًا .. أما الكثرة الكثيرة من أهل الكتاب فهم كما قال الله : « وأكثرهم الفاسقون » أى هم مؤمنون ولكنهم فى الوقت نفسه « فاسقون » أى خارجون على الإيمان .

الآيتان : (١١١ — ١١٢)

« لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ ٱللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَآءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنْبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » (١١٢) .

التفسير : إنهم هم اليهودُ .. وإنَّ آيات الله لتكشف المستور من أمرهم ، وتفضح المتوقع من خِزْيهم فى خط مسيرتهم مع المسلمين فى الحياة .

إنهم يكيدون دائمًا للإسلام والمسلمين ، لأن داء الحسد الذى يغلى فى صدورهم لا يسكن أبداً .

وكيف يسكن وهم يعلمون عن يقين أن المسلمين قد ظفروا من الكتاب الذى فى أيديهم بخير الدنيا والآخرة .. وأن هذا الكتاب كان ينبغى أن يكون لهم ، كما كانت كتب الله من قبل كلها فيهم ؟ وأما وقد سبقهم العرب إلى هذا الكتاب فليفسدوه عليهم ، وليعزلوا المسلمين عنه !

وفى قوله تعالى مخاطباً المسلمين : « لن يَضُرُّوكم إلَّا أذًى » .

أولا : إلفات المسلمين أن يأخذوا حِذرهم من اليهود ، الذين لا يكفّون أبداً

عن السعى فى تدبير الكيد للمسلمين ، وتوجيه الضُرّ إليهم ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ثانياً : تطمين المسلمين — حالاً ومستقبلاً — مما يدبر اليهود لهم من كيد خبيث،ومكر خسيس ، وأن غاية مايبلغه اليهود من كل مايكيدون ومايمكرون ، لايتجاوز « الأذى » الذى مهما بلغ لايبلغ حدّ الخطر والتلف .. وسيظل المسلمون — رغم كل شىء — على الصحة والسلامة أبداً ، وإن أصابهم الضُرُّ ومسّهم الأذى ، فإن كيانهم سيظل سليما معافًى ، لاينال منه هذا الضرّ ، ولا يؤثر فيه هذا الأذى .

هذا فى معركة الكيد ، والدسّ ، التى هى الميدان الذى يحسن فيه اليهود العمل .. فإذا انتقل اليهود إلى ميدان آخر ، وهو ميدان القتال ، واشتبكوا مع المسلمين فى حرب ، فإنّهم لايلقوْن إلا الخزْى والخذلان .. « يولّوكم الأدبارَ ثم لايُنْصَرون » .. هذا حكم الله فيما يقع بينهم وبين المسلمين من قتال .. النصر دائماً للمسلمين ، والهزيمة دائماً لليهود .. وإنه لابد من وقفة هنا ..

فإن وجه الأحداث المطل علينا فى هذه الآية ، قد يطالع منه بعض الناس شيئاً آخر غير الذى تطالعنا الآية الكريمة به ، والذى نتأولها نحن عليه .

يشتبك المسلمون مع اليهود اليوم فى معركة (يونيه ١٩٦٧ ـ محرم ١٣٨٧) قد جمع لها اليهود كل كيدهم ومكرهم ، وجلبوا لها كل ما استطاعوا من عتاد، وحشدوا فيها كل من على شاكلتهم فى العداوة للإسلام ، والكراهية للمسلمين .. وقد أخذوا جيوش المسلمين على غِرّةٍ ، فكان لهم من هذا نصرٌ معجّل ، تخلى فيه المسلمون عن مواقع كثيرة من أوطانهم ، فى سيناء ، وسوريا ، والأردن ..

وتوقف القتال .. استعداداً لمعركة قادمة فاصلة ..

ونكتب هذا ، ونحن فى شهر (أكتوبر ١٩٦٧ ـ رجب ١٣٨٧)

وما زال الموقف جامداً فى الظاهر .. ولـكنه يتحرك فى خفاء لالتحام قريب !

ولا ندرى متى يكون هذا اليوم الذى نلتحم فيه مع اليهود .. ولـكن الذى نؤمن به ولانشك فيه ، هو ماوعدنا الله به ، من النصر على اليهود دائماً .. « وإن يقاتلوكم يُوَلوكم الأدبار ثم لايُنْصَرون » .. فالنصر آتٍ لاريب فيه ، وإنه لنصر يُلبس اليهودَ ثوباً جديداً من أثواب الذلة التى ضربهم الله بها !

وقد يبدو لبعض الناظرين إلى هذا الحدث ، من خـلال المدافع ، وبين دخانه وضبابه — أن يتأول الآية الـكريمة ، وأن يرفع حكمها العام المطلق ، ويرتفع به إلى الماضى البعيد ، وإلى ماكان بين اليهود والنبىّ من قتال ، أخزى الله فيه اليهود ، وكبَتَهم ، وأنزلهم من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فاستسلموا للهزيمة ، ونزلوا على حكم النبىّ فيهم ، فقتل مَن قتل ، وسبى من سبى ، وأجْلى من أجْلَى .. حتى إذا كانت خـلافة عمر بن الخطاب لم يكن اليهود إلا جماعات متفرقة فى الجزيرة العربية ، لاتملك غير الـكيد والدس ، ولاتعيش إلا على الـكذب والنفاق ، فأجلاهم عن الجزيرة العربية جميعاً ! !

قد يبدو لبعض المتأولين أن يتأول الآية الـكريمة على هذا الوجه ، ويقف بها عند حدود الزمن الذى نزلت فيه ، ويجعل أسبابَ نزولها مقيداً بهـذا الوقت .. وذلك ليحمى كلام الله من المجازفات التى تنجم عن تعميم هذا الحـكم الذى تحمله ، والذى قد لاتجىء الأيام بتصديقه ، خاصة وأن محـامل الآية الـكريمة تقبل هذا الوجه من التأويل ولا تردّه !

فمالنا إذن لانقبل هذا التأويل ؟ ولم نغامر تلك المغامرة الخطرة بآية من آيات الله ، ونحملها مالا تحتمل ، لنتخذ منها أملاً يدفىء صدورنا ، ويطمئنُ قلوبنا ، ويخفف آلام جراحنا التى نعانيها من هذا الحَدَث الذى نعيش فيه ، فى مرارة ، وألم ، وقلق ؟

أوَمِنْ أجل هذا تبلغ بنا الجرأة على كتاب الله ، فنبيعه بهذا الثمن البخس ؟ وماذا تركنا لليهود إذن ؟ وماذا يحول بيننا وبين أن نتعرض لما تعرضوا له من سخط الله وقد اشتروا بآياته ثمناً قليلاً ؟ . « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلاً فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون » (٧٩ : البقرة) .

وإنه ليس ثمة فرق بعد أن يفترى مفترٍ على الله ، آية .. فيقول : هذا من عند الله ، وبين أن يَحْمِلَ آية من آيات الله على هواه ، فيغير وجهها ، ويحرّم حلالَها ، ويحلّل حرامها ! والله سبحانه وتعالى يقول متوعداً اليهود : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكُمُ الكذبَ هذا حلالٌ وهذا حرامٌ لتفتروا على الله الكذبَ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يُفلحون (*) مَتَاعٌ قليلٌ ولهم عذابٌ أليمٌ » (١١٦ - ١١٧ : النحل) .

أفمِن أجل هذا المتاع القليل الذى نجد فيه من ريح الآية الكريمة أنساً لوحشتنا ، وأملاً فى محنتنا .. أفمن أجل هذا ، نَرِد هذا المورد ، ونجازف تلك المجازفة المهلكة ؟

وكلاَّ ، فإنا أحرص على أنفسنا من أن تُلمّ بما يعرّضها لموقع من مواقع سخط الله ، خاصة ونحن نسعى بين يدى كتابه الكريم ، ابتغاء مرضاته ، وطلباً للمزيد من إحسانه وفضله !

أفنرجع إذن عن هذا الذى ذهبنا إليه ، فى حمل الآية الكريمة على عمومها ، من أن النصر الذى وعد الله به المسلمين على اليهود هو وعد دائم مستمر ، غير موقوت بوقت ، أو موقوف على واقعة بعينها — أفنرجع إذن ونعود بالسلامة والعافية .. من قريب ؟

وكلاَّ .. مرة أخرى ..

فإنا مطمئنون إلى فهمنا للآية الكريمة ، واثقون من مُعطَياتها التى لاتتخلف أبداً ..

بل وأكثر من هذا .. إننا ندعو إلى أن يفهمها المسلمون جميعاً هذا الفهم الذى فهمناها عليه ، وأن ينتظروا تأويلها فى الأيام المقبلة كما ننتظره .. فإن أخلفهم من الآية هذا الوعد ، وإن وجدوا لهذا الإخلاف غَمزةً فى دينهم ، أو حرجاً منه فى صدورهم ، أو خلخلة له فى قلوبهم ـ فالحَكَم الله بينى وبينهم !

ولن يُخْزِينا الله أبداً .. ولن يخلفنا وعده االذى وعد !

وكيف ؟

والله سبحانه وتعالى يقول فى اليهود ، بعد هذه الآية الكريمة ، مؤكداً وعده الذى وعدنا . .

«ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة أينَما ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ من اللهِ وحَبْلٍ من الناس» .

فهذا الحكم عام شامل غير محصور بمكان ، أو مقيد بزمان !

« ضُربت عليهم الذِّلّة » والتعبير بضرب الذلة عليهم فيه إحكام لهذا الحكم الواقع بهم ، وأن الذِّلّة التى رماهم الله بها ، ذلة متمكنة ، مختلطة بوجوهم ، كما يختلط لون الجلد بالجلد . . لا يتغير ولا يتبّدل أبداً !

وفى قوله تعالى : « أينما ثُقِفوا » حكم قاطع بمصاحبة الذلة لهم ، أينما وُجدوا ، وأينما كانوا ، فى كل موطن ، وفى كل زمن ! هكذا هم فى ذلة وهوان ، أبدَ الدَّهرِ . . ذِلة فى أنفسهم ، وذلة بأيدى من يذلّونهم من عباد الله المسلطين عليهم . فإن نجَوْا من هذه الذلة التى يسوقها الناس إليهم ، لم يخرجوا من تلك الذلة المستولية على طبيعتهم !

وقوله تعالى : « إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس » . . الحبل العهد والعقد . . والمعنى : ضربت عليهم الذلة أبدًا ، إلاَّ أن يدخلوا مع المسلمين

فى عهد الله ، وذمة المسلمين، فيكونوا بذلك من أهل الذِّمة ، وتفرض عليهم الجزية ، فيعطونها عن يدٍ وهم صاغرون . . وهنا يرفع عنهم المسلمون الأذى والذلة التى أخذوهم بها . ولكن مع هذا لا يَتَخَلَّى عنهم روح الذلة المتسلط عليهم من داخل أنفسهم ، لأن ذلك طبيعة فيهم ، ولعنة من لعنات الله صبّها عليهم . .

وقوله تعالى : « وباءوا بغضب من الله وضُربت عليهم المسكنة » بيان للحال التى يكونون عليها ، بعد أن يدخلوا فى ذمة المسلمين بعهد الله وعهد المسلمين. فهم وإن رُفعت عنهم يد المسلمين بعد هذا العهد الذى دخلوا به فى ذمتهم ، وإن رجعوا وقد أمنوا بطش المسلمين بهم بعد هذا العقد ، فإنهم يرجعون ومعهم غضب الله الذى رماهم به ، ومعهم المسكنة التى فرضها عليهم وابتلاهم بها .. وهكذا يعيش اليهود أبداً فى كل زمان ومكان فى ذلة وفى مسكنة ، ذلة ومسكنة تلبسهم ظاهراً وباطناً.. إن سلم لهم ظاهرهم فى حال ، فلن يسلم لهم باطنهم فى أى حال .. إنها لعنة الله « ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً » .

وفى قوله تعالى : « ذلك بأنهم كانوا يكفرونَ بآياتِ اللهِ ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلِكَ بما عَصَوْا وكانوا يَعْتَدون » تعليل لهذا العقاب الأليم الذى أخذهم الله به ، والذى أجراه فيهم مجرى الدم فى عروقهم ، فكان ميراثاً خبيثاً ، ينتقل فى الخَلَف بعد الخَلَف إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين !

من هذا كله نستطيع أن نقرر فى إيمان وثيق ، ثقتنا فى صدق الكتاب الذى فى أيدينا ، وفى صدق كل كلمة ، وكل حرف ، من كلمات رب العالمين ، وحروفها ــ أن ما بيننا وبين اليهود سينتهى بما حكم الله به عليهم ، وهو أنهم « لا يُنْصَرون » وأن الذلة والمسكنة مضروبة عليهم إلى يوم الدين ، وأن

هذه الصحوة التى تبدو على ظاهرهم فى هذه الأيام ليست إلا صحوة الموت ، يَرْتَدون بعدها ثوباً جديداً من أثواب الذلة والمسكنة ، وذلك بلاء إلى بلاء ، وعذاب فوق عذاب . . فإنه ليس أشق على نفس المكروب من أن تهبّ عليه نسمة من نسمات العافية ، ثم تعصف به بعدها عاصفة عاتية ، وتلقى به بعيداً إلى أسوأ مما كان ، ثم يتنفس نفس الحياة . . ثم تضربه موجة عاتية من موجات البلاء . . وهكذا يتردد بين الحياة والموت . . فلا يجد الحياة ، ولا يستريح بالموت . . وذلك هو العذاب الذى يعذّب الله به أصحاب النار . .

« كلّما نَضِجَتْ جلودُهم بدلناهُم جلودًا غيرَها ليذوقوا الْعـذاب » (٥٦ : النساء) .

فهذا الذى تعيش فيه إسرائيل اليوم هو فترةُ مَا بين استبدال جلد بجلد ، وذلة بذلة . . ليذوقوا العذاب ، وليطعَموه ألواناً فى الدنيا . . ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون !

وبعد ، فإننا على موعد ، مع نصر الله ، ولن يُخلف الله وعده . . « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » ويومئذ يعلم الذين لا يعلمون ، أن دين الله حق ، وأن رسول الله حق ، وأن ما نزل على الرسول حَقٌ . . ويومها يتجلّى وجه الإسلام مشرقاً ، وتطلع شمسه غير محجبة بضباب أو سحابٍ ، فتعمُر بالإسلام القلوب ، وتشرق بنوره الآفاق « والله مُتِمُّ نُورِه ولو كره الكافرون » (٨ : الصف) وهكذا يصنع الله للإسلام ، فيجعل له من الضيق فرجاً ، ومن البلاء عافية ، ومن الشر خيراً ونعمة !

الآيات : (١١٣ — ١١٥)

« لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ الليل

وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤)
وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » (١١٥)

التفسير : ذكر القرآن الكريم « أهل الكتاب » فى كثير من المواقف ، وأدانهم فى كثير منها ، وكشف موقفهم من رسالة الإسلام ، ومن رسول الإسلام ، هذا الموقف العنادىّ القائم على الكيد ، والتربص !

وإذ كان أهل الكتاب ، هم اليهود والنصارى ، فقد فرق القرآن بين الفريقين ، إذ كان موقفهم من الإسلام والمسلمين مختلفاً . .

كان اليهود فى وجه عداوة ظاهرة وخفية لدعوة الإسلام ولرسول الإسلام ، كما كانوا على كلمة سواء فى الكيد لها والمكر بها . . على حين كان النصارى على درجات متفاوتة فى موقفهم من تلك الدعوة .. تلقاها بعضهم فآمن بها ، ودخل فيها ، وصار من أهلها . . وتلقاها بعض آخر متوقفاً مترفقاً ، ومباعداً مقارباً . . أما أكثرهم عنادًا وأشدهم مجافاة ، فقد أنكر الدعوة ، ونأى بنفسه عنها . . لا ينالها بسوء ، ولا تناله هى بخير !

ولهذا جاء قوله تعالى : « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (٨٢ ـ ٨٣ المائدة) . .
جاء قول الله هنا محددا موقف كلٍّ من الفريقين من الإسلام .

فاليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وهم والمشركون على سواء فى هذه العداوة ، مع أنهم أهل كتاب ، يلتقى كتابهم ونبيهم مع كتاب الإسلام ونبيّ المسلمين ، بنسب قريب ، قريب .

والنصارى ـ لأنهم أهل كتاب ـ هم أقرب الناس مودةً للذين آمنوا ، إذ خلت نفوسهم من الحقد والحسد للناس ، ولأنهم لا يرون احتجاز الخير السماوى عليهم وحدهم ، حيث سمحت النصرانية لأن يدخل فيها الناسُ جميعاً من جميع الأجناس والشعوب ، على حين احتجزت اليهودية ما نزل من خير سماوى على اليهود . . لا يسمحون لأحد من غير اليهود أن يدين بدينهم أو أن يصبح فى المؤمنين به .

وفى قوله تعالى : « ليسوا سواء » . . تفرقة بين هاتين الفرقتين من أهل الكتاب . . اليهود والنصارى ، وأنهم ليسوا على وضع واحد فى موقفهم من الإسلام والمسلمين .

وإذا كانت الآية الكريمة قد فرقت بين الفرقتين ، فإنها لم تحدد أى الفرقتين من أهل الكتاب هو المتّجه إليه الحكم فى قوله تعالى : « من أهْلِ الكتابِ أمةٌ قائمةٌ يتْلُون آياتِ الله آناء اللّيلِ وهم يَسْجُدون يؤمنون باللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ ويأمُرون بالْمعرُوفِ وينهوْن عن المنكر وأولئك من الصالحين. وما يَفْعَلوا من خَيْر فلن يكفروه والله عليمٌ بالْمُتَّقِين » .

وفى إطلاق الحكم هكذا بحيث يدخل فيه الفريقان معاً ، حكمة ، نتبين منها :

أولاً : أنّ فى كلا الفريقين من أهل الكتاب — اليهود والنصارى — جماعات قائمة على الحق ، مؤمنة بالله وباليوم الآخر ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . .

ثانياً : كثرة كثيرة من النصارى يتجه إليهم هذا الحكم . . وقلة قليلة جداً من اليهود يدخلون فى هذا الحكم أيضاً . . كما يعلم ذلك من حال الفريقين الذى كشفه القرآن فى الموقف الذى أشارت إليه الآيات التى ذكرناها من سورة المائدة .

ثالثاً : من صِدْق القرآن ، ودقة أحكامه ، أنه لم يجعل الحكم مطلقاً فى النصارى ، ولم يُخرج منه اليهود جميعاً بلا استثناء .. إذ لاتخلو فرقة من الفرقتين من أخيار وأشرار ، وإن غلب الأخيار فى النصارى ، وغلب الأشرار فى اليهود . . بمعنى أنه ليس كل النصارى على إطلاقهم يقفون من الإسلام هذا الموقف المترفّق المسالم ، وليس كل اليهود ـ بلا استثناء فردٍ أو عدةِ أفراد ـ يكيدون للإسلام هذا الكيد ، ويمكرون به هذا المكر الذى يعيش فيه اليهود مع الدعوة الإسلامية .

وفى قوله تعالى : « ويأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر » وصف كاشف للنصارى ، إذ كان دينهم يدعوهم إلى التبشير به وإذاعته فى الناس ، وليس كذلك اليهود ، وما يفهمون من دينهم — كما أشرنا إلى ذلك فى أكثر من موضع .

وقوله تعالى : « وما يَفْعَلوا من خيرٍ فلن يُكفروه » تتمة لهذا الحكم الذى حكم به الله لهم ، وهو أنهم إذ عُدُّوا فى المؤمنين بالله فإن كل عمل خير يعملونه يتقبله الله ، ويجزيهم عليه ، وليس كذلك أعمال المشركين .. إن الشرك أحبطها ، وحَرَم أهلها ثمرة قبولها عند الله . . « إنما يتقبَّل الله من المتقين » (٢٧ : المائدة) ومِلاك التقوى ، الإيمان بالله وباليوم الآخر .

الآيتان : (١١٦ - ١١٧)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » (١١٨)

التفسير : الحكم الواقع على الذين كفروا هنا عام ،يشمل الكافرين جميعاً، وإن كان يتجه أولَ ما يتجه إلى الكافرين من أهل الكتاب ، الذين تحدثت عنهم الآيات السابقة ، لأنهم كفروا مع مافى أيديهم من هدًى ، وطرحوا ما معهم من إيمان : بخلاف الكافرين أصلاً .. وإن كان الكفر هو الكفر ، إلا أن بعضه أشدّ من بعض سوءاً ، وأبغض وجْها .

فهؤلاء الكافرون من أهل الكتاب ، ومن غير أهل الكتاب ، سيلقون جزاء كفرهم يوم القيامة ، حيث يُلقَوْن فى نار جهنم خالدين فيها أبداً ، وحيث لايدفع عنهم هذا العذاب ما كان لهم فى الدنيا من مال وولَدٍ ، وإن ملأ وجه الأرض كثرةً وعدداً !

أما هذه الأعمال التى عملوها فى هذه الدنيا ، واحتسبوها فيما هو للخير ، فلن يجدوا لها أثراً يوم القيامة . . إن كفرهم بالله قد أحبطها ، وأبطل آثارها .. فهى أشبه بزَرع تعب فيه زارعوه ، وبذلوا له مابذلوا من جهد ، وفيما هم فى انتظار جَنَى ثمرِه ، جاءته ريح عاصف فأتت عليه ، وأصارته هشيما ، لاينتفع بشىء منه .

وقوله تعالى : « ريح فيها صِرٌّ » أى ريح تحمل فى كيانها قوى التدمير

والإتلاف . . والصرّ هو البرد الشديد الذى يبلغ من شدته أن يحرق الزرع كما تحرق النار .

وفى قوله تعالى : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم » ، إشارة إلى أن الظلم يحيط بأهله فى الدنيا وفى الآخرة جميعاً . . وأن للظالمين عند الله عقاباً معجلاً ، وآخر مؤجلاً ، ليكون فى ذلك عبرة ماثلة للناس ، يرون فيها نقم الله لمن حادّ الله وحاربه !

الآيات : (١١٨ — ١٢٠)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » (١٢٠)

التفسير : فى هذه الآيات يحذّر الله المؤمنين أن يأمنوا جانب هؤلاء الذين يكيدون لهم ولدينهم ، ويبيّتون السوء للرسالة الإسلامية ، ويصدون الناس عنها .

والبطانة هم الذين يدنيهم الإنسان منه ، ويتخذهم موضع سرّه ، فيطلعهم على مايخفيه ويبطنه عن غيرهم .

وقوله تعالى : « لاتتخذوا بطانةً من دونكم » أى لاتركنوا إلى أحدٍ من غير دينكم ، ولاتقاربوه هذه المقاربة التى يمكن أن يطلع منها على مواطن الضعف فيكم ، فيكيد لكم .

وفى قوله تعالى : « لايألونكم خبالاً » إشارة إلى السبب الداعى إلى الحذر من مخالطة هؤلاء الذين يعادون الإسلام ويكيدون له . . إنهم يَجْهَدون كل جَهدهم فى النيل من المسلمين . لايقصّرون فى أمر فيه نكاية بالمسلمين ، وخبال لهم ، وإضعاف لشأنهم .

وفى قوله تعالى : « ودّوا ماعنِتُّم » إشارة ثانية إلى مافى قلوب هؤلاء القوم من كراهية المسلمين . . يتمنون لهم ما يعنتهم ويثقل كاهلهم من هموم وآلام .

وفى قوله تعالى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفى صدورهم أكبر » بيان شارح لتلك الأسباب التى تجعل المسلمين على حذر من هؤلاء القوم ، وأمارة دالة على حقيقة تلك الأسباب . . فعلى ألسنة القوم ومن أفواههم تتساقط الكلمات المسمومة ، التى يصوبونها فى خبث ودهاء إلى الإسلام والمسلمين ، وليس هذا الذى يتساقط من أفواههم إلا شيئا قليلاً مما تنطوى عليه قلوبهم من حسد وغيظ ، وما تفيض به مشاعرهم من عداوة وبغضاء .

وفى قوله تعالى : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم » يضبط الله سبحانه وتعالى أولئك المسلمين الذين ظلوا على ولائهم وصداقتهم لهؤلاء الأعداء، ويقدمهم للمسلمين متلبسين بفعلتهم تلك المنكرة ، ويريهم بأعينهم مدى الغبن الذى

أصابهم من تلك الصحبة .. إنهم يحبون من لا يحبهم ، بل ومن يُبَيِّت لهم الشر ، ويدبر العدوان !

وقوله تعالى : « وتؤمنون بالكتاب كله » إشارة ثانية إلى تلك الصحبة غير المتكافئة ، فالمسلمون الذين يوادّون هؤلاء القوم ، يؤمنون بالكتاب كله ، أى بكتب الله المنزلة على رسله ، وهى فى مجموعها كتاب واحد ، هو كتاب الله - وهؤلاء القوم لا يوادّون المؤمنين ، ولا يؤمنون إلا بالكتاب الذى فى أيديهم ، ويكفرون بجميع الكتب السماوية ، ومنها القرآن .

وقوله : « وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عَضّوا عليكم الأنامل مِنَ الغيظ » سبب ثالث للمباعدة التى ينبغى أن تكون بين المسلمين وبين هذه الجماعة . . إنها تعيش مع المسلمين على نفاق . . يعطونهم بألسنتهم ماليس فى قلوبهم . . يظهرون لهم أنهم على دينهم ، وأنهم على وفاقٍ معهم . . فإذا خلا بعضهم إلى بعض لبسوا الثوب الذى أخفوْه فى طيات نفاقهم ومَلَقهم ، وأخذوا يدبّرون المكايد والمعاثر للإسلام وللمسلمين .

وفى قوله تعالى : « قلْ موتُوا بغيظكم » مايملأ قلوب هذه الجماعة المنافقة اللئيمة كمداً وحسرة . . إنها لن تنال من الإسلام والمسلمين منالاً ، كما أن فى هذا تطمينا للمؤمنين ، بهذه البشرى السماوية التى كتب الله بها النصر للإسلام وأهله ، والخزى والسوء على أعدائه ومناوئيه .

وفى قوله تعالى : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تُصِبْكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضرّكم كيدهم شيئاً » إرهاص بما سيصيب المسلمين فى جهادهم فى سبيل الله ، من نصر وهزيمة . . وأنهم فى حال انتصارهم على أعدائهم تفيض نفوس هذه الجماعة المنافقة حسرةً وألما ، وفى حال هزيمتهم تطير قلوبهم فرحاً وطرباً . .

وفى التعبير عن الإصابة بالخير بلفظ المسّ ، والتعبير عن الإصابة بالشر بلفظ الإصابة ، مايكشف عن مَدَى السقوط والتدنّى من مشارف الإنسانية العالية إلى الحضيض والوحل !

فالمسّ بالخير ، مجرّد المسّ ، وهو الشيء القليل يصيب المسلمين ، يفزَع له اليهود ويضطربون ، وتغلى مراجل نفوسهم غيظًا وكمداً . . فكيف لو أصاب المسلمون من الخير شيئاً كثيراً مما وعدهم الله به ؟ إن ذلك مما يَذهب بنفوس القوم مذاهب التّلف !

وإصابة المسلمين بالشر ، ينزل بهم ، ويعمّهم بالبأساء والضراء . . ينظر إليه هؤلاء القوم نظراً يملأ نفوسهم بهجة ، ويغمر قلوبهم رضًى . . ولو كانوا على شيء من الإنسانية والمروءة لخفّوا لنجدة المكروبين ، وبادروا إلى إغاثة المصابين ، فإن لم يكن هذا ولاذاك فلا أقل من نظرة عطف وإشفاق ، أو حسرة وألم ، فإن لم يكن هذا ولاهذا أيضًا فليكن موقف جمود وخمود . . أما أن يجد الإنسان فى هذا الموقف مشاعر تتحرك فرحًا وبهجة ، وتتنادى شماتة وغبطة ، فذلك هو الذى لا يُعرف فى إنسان غير إنسان اليهود !

الخير القليل .. القليل جداً ، يمسّ المسلمين مسًّا ، يحسدونهم عليه ، وتختنق صدورهم به ، حتى لتقتلهم الحسرة ويميتهم الكمد !

والشر يصيب المسلمين إصابات قاتلة ، ويرميهم بالمهلكات .. يجد فيه هؤلاء القوم سعادة ورضى ، ولذة وسروراً .

ألاَ ما أخسّ الإنسان وأحقره ، حين يتعرّى من مشاعر الإنسانية ، وتشتمل عليه طباعُ حيّةٍ خبيثة ، أو نفس شيطان رجيم ! بل ما أخسّ الإنسان وأحقره ، حين يعيش فى مسلاخ إنسان من هؤلاء الناس !

والموقف الحكيم الذى ينبغى أن يقفه المسلمون إزاء هذه الجماعة ، هو ألا يشغلوا أنفسهم بها ، ففى ذلك تعويق لهم ، وتفويت لخير كثير كان يمكن أن يحصلوا عليه بهذا الجهد الذى يبذلونه فى شغل أنفسهم بها ..

وخير من هذا وأكثر عائدة على المسلمين هو أن ينظروا إلى أنفسهم ، وأن يقيموها على ما أمرهم الله ، فذلك هو الذى يحصل لهم الصبر والتقوى ، وهى القوة التى لاتُغلب أبداً .. من ظفر بهما فقد ظفر بنصر الله وتأييده .. أما هؤلاء المنافقون فأمرهم إلى الله .. « إن الله بما يعملون محيط » .

هذا ، ولم تشر الآيات إلى تلك الجماعة التى كشفت عن مساوئها وحذرت المسلمين أن يوادّوهم ويأمنوا جانبهم.. ذلك أن هذه الصفات هى علامات مميزة ، وسمات معينة لجماعة معروفة من الناس ، هم اليهود ، لايشاركهم غيرهم فى هذه الصفات .. ومن هنا كان فى ذِكرِها غنى عن ذكرهم ، كما فيه تشهير بهم ، وتشنيع عليهم ، بوضعهم هذا الموضع ، الذى إذا ذكرت فيه سيئة علقت بهم ، وأشارت إليهم .

الآيتان : (١٢١ ، ١٢٢)

« وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١٢٢)

التفسير : القتال الذى تشير إليه الآية هو القتال الذى حدث فى معركة أحد ، وقد أصيب فيها المؤمنون بعدد غير قليل من الشهداء والجرحى ، كما ستشير الآيات التالية إلى هذا الحدث ، وما وقع فيه .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ، هى أن اليهود الذين يكيدون للإسلام ويتربصون به ، قد وجدوا فيما أصاب المسلمين يومَ « أحد » مقالا يقولونه فيهم وفى أمداد السماء التى أمدهم الله بها يوم بدر ، والتى عدّها اليهود مزاعم وأباطيل .. فلما كان ما أصيب به المسلمون فى يوم أحد ، أظهر اليهود الشماتة ، وأخذوا يُلْقون إلى أسماع المنافقين ومن فى قلوبهم مرض بالشكوك والريب فى أمر محمد ودعوته ..

وهذا ماحدّث القرآن الكريم عنه فى الآية (١٢٠) قبل هذه الآية : « إن تمسسكُمْ حسنةٌ تَسُؤْهم وَإنْ تُصِبْكم سيئةٌ يفرحوا بها .. » ..

وقوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوئُ المؤمنين مقاعد للقتال » تذكير للنبىّ والمسلمين بغزوة أحد ، وما كان فيها من أحداث ، حيث أصيب المسلمون ، وابتلوا فى أنفسهم ، وكان فى هذا ما أشمت اليهود والمنافقين ، وأطلق ألسنتهم بقالة السوء فى الإسلام ، ونبى الإسلام ، وهو ماحدّث عنه قوله تعالى : « وإن تصبْكم سيئة يفرحوا بها » .

وفى غزوة أحد خرج النبى من أهله غدوةً ، أى مبكراً ، ليلاقَى قريشاً وجموعها التى أقبلت حتى أشرفت على المدينة ، عند جبل « أحد » .. وهناك بوّأ النبيّ المؤمنين مقاعد للقتال ، ووضع كل جماعة فى مكانها من المعركة .

وفى قوله تعالى : « والله سميع عليم » تذكير للمسلمين ، وتحذير لغيرهم من المشركين والمنافقين ، من قدرة الله على كشف مافى الصدور ، حتى لتصير الخواطر كأنها أصوات تُسمع ، أو كأنها مسطورات تُرى وتقرأ .. فلا تخفى على الله خافية ، مما يدور فى الصدور من خير أو شر .

وقوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » هو من أنباء ما فى الصدور التى كشف عنها علم الله .

ففى جيش المسلمين وقع فى بعض النفوس شىء من التردد والخوف، وكاد ذلك يكون واقعاً يدفع صاحبه إلى الفرار من المعركة قبل وقوعها.

وفى قوله تعالى: « والله وليّهما » بيان لرحمة الله ولطفه بهاتين الطائفتين من المؤمنين، إذ ربط على قلوبهم، وجَلَى عنهم خواطر الشك والريب، وثبّت أقدامهم على طريق الجهاد، فسَلِم لهم دينهم، وكان للمسلمين منهم قوة وعوناً فى مواجهة العدو.

والهمّ بالشىء تحديث النفس به، ومراودة صاحبها عليه، دون أن يتخذ مظهراً عمليّا.

ولم يذكر القرآن الكريم اسم هاتين الجماعتين اللتين همّتا هذا الهمّ السىء. لأن رحمة الله تداركتهما، فلم يقع منهما ما يسوء، وكان من تمام رحمة الله ولطفه بهما أن ستر عليهما هذا الهمّ الذى همّتا به!

ثم انظر فى قوله تعالى: « والله وليهما » وكيف ترى أن ولاية الله لهما قد ألقت عليهما سِتْراً من بهاء وجلال، فكانا من أولياء الله وأنصار الله. « الله ولى الذين آمنوا يُخرجُهم من الظلمات إلى النور » (٢٥٧: البقرة) فهل مع لطف اللطيف ورحمة الرحيم يبقى على الإنسان ذنب أوحوب؟ وكلا، ثم كلا!

وكعادة المفسّرين، فى مثل هذه الأمور التى يذكر فيها القرآن الأحداث مطلقة، من غير تحديد أزمانها أو أمكنتها، أو أشخاصها، حيث لا تؤثر الأزمان ولا الأمكنة ولا الأشخاص فى العبر والعظات المستخلصة من الحدث ـ نراهم يَجهدون الجَهد كله فى البحث عن متعلقات الحدث، من زمان ومكان وأشخاص، يجلبونها من كل واد، ويلتقطونها من كل فم، ثم يُلقونها بين يدى الحدث جثثاً هامدة، مستجدية مستخزية!

وهنا ذكر المفسرون مقولات كثيرة فى هاتين الطائفتين ، ولو أُخذ بتلك المقولات جميعها لشملت المسلمين كلهم ، من مهاجرين وأنصار !

ونحن نحترم صمت القرآن هنا ، ولا نقول من هما هاتان الطائفتان ـ لأنا لا ندرى على وجه اليقين من هما ، ولو دريناً لم نرَ داعية للقول ـ وحسبنا أن نعلم من هذا الحدث أموراً .. منها .

أولا : أن المؤمن لا يخلو فى حال من أن تطرقه وساوس سوء ، أو تدور فى نفسه نزعات شر .

وثانياً : أن صدق الإيمان ، وإخلاص النية يصلان الإنسان بربه ، فيجد من أمداد لطفه ورحمته ، ما يأخذ بيده إذا عثر ، ويشد من عزمه إذا ضعف ، وفى هذا يقول الله فى يوسف ـ عليه السلام ـ وقد جاءته أمداد السماء ، فصرفت عنه السوء الذى كاد يُلِمّ به : « ولقد همّت به وهمّ بها لولا أنَ رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ كذلك لنصرف عنه السُّوء والْفَحْشاء إنَّه من عبادنا المخلَصين » (٢٤ : يوسف) .

ثالثاً : أن ما يهمّ به المؤمن من سوء ، وما تحدثه به نفسه من وساوس الشر ، لا يؤاخذ عليه ، حتى يتحول هذا الهمّ وتلك الوساس إلى عمل ، يؤثر أثره فى الناس ، وفى الحياة .

على أن الاستسلام لهواجس الشر ، والاستماع الطويل لوساوس السوء ، قد يُمكّن لها فى كيان الإنسان ، ويعطى لها سلطاناً عليه ، بحيث تصبح يوماً فإذا هى مالكة زمام الإنسان ، موجهة له . .

وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يخلى نفسه من تلك الوساوس ، فإنه يستطيع أن يصرفها عنه كلما طرقته ، وألا يعطيها شيئاً من قلبه أوعقله ، بل يشغلهما بما هو أجدى وأولى .

الآيات : (١٢٣ — ١٢٦)

« وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١٢٦)

التفسير : بعد أن استحضرت الآيتان (١٢١ ، ١٢٢) المقدمات الأولى لمعركة أحد ، إذ غدا النبيّ خارجاً منزله إلى حيث يلقى العدو ، الذى وقف عند مشارف المدينة ، يفكر فى دخولها ولقاء المسلمين فيها ، أو محاصرتهم داخلها إلى أن يخرجوا للقائه . . ولكن رأى النبي وأصحابه كان قد انتهى ـ بعد مشاورات كثيرة كادت تؤدى إلى فرقة وانقسام فى صفوف المسلمين ـ انتهى إلى لقاء العدو ـ خارج المدينة عند « أُحد » .

نقول ـ بعد أن استحضرت الآيتان السابقتان ، هذه المقدمات الأولى للمعركة ، جاءت آيات القرآن الكريم بعد هذا مباشرة ، تحدّث المسلمين بمعركة بدر التى كانوا قد خاضوها منذ عام ، مع هذا العدو الذى جاء إليهم بعدد عديد ، وعتاد كثير ، على حين كانوا هم فى أعداد قليلة ، وعدة هزيلة ، ولكن الله أيدهم بنصره ، وكيب الهزيمة والخزى والخذلان على عدوهم .

وفى إثارة هذه الأحداث من معركة بدر فى خواطر المسلمين ، وهم على

مشارف معركة جديدة توشك أن تبدأ بينهم وبين هذا العدو ، الذى عرفوه ، وذاقوا طعم النصر عليه ، ورأوا رأى العين أمداد السماء لهم يومئذ — فى إثارة هذه الأحداث ، فى هذه اللحظة الحاسمة ، مايطمئن الخواطر المضطربة ، ومايقطع على المسلمين هذا الجدل المحتدم بينهم — فى لقاء العدو ، داخل المدينة أوخارجها . ذلك ليعرفوا أن مكان لقاء العدو ليس هو العامل الأول فى المعركة ، وليس العدد ولا العتاد هو كل شىء فى كسب النصر ، وإنما السلاح العامل أولاً وقبل كلِّ شىء فى بلوغ النصر ، هو الإيمان بالله ، وتوجيه القلوب إليه ، وإخلاص النية فى الجهاد فى سبيله ، فذلك هو الذى يجعل ميزان المؤمن يرجُح عشرة من غير المؤمنين فى ميدان الحرب .

وليس ذلك بالذى يُعفى المؤمنين من النظر فى إعداد العدة للقاء العدو ، واتخاذ الحيطة والحذر منه ، وسدّ المنافذ والثغرات التى ينفذ منها إليهم ، فهذا كلّه وكثير غيرهُ ، هو من عُدد النصر وأسلحته ، التى يجد منها المؤمن قوة ، إلى قوة إيمانه وتوكله على الله .

وقوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببَدرٍ وأنتم أذِلَّةٌ » صورة قوية نابضة بالحياة ، تجمع فى كلماتها القليلة تلك ، كل مشاهد المعركة ، وتستحضر كل أشخاصها ، ومشخصاتها ، من بدئها إلى خاتمتها .

وأول مايذكر المسلمون عن هذا اليوم ، وأهمّ مايجدونه فى خواطرهم منه ، أنهم انتصروا نصراً حاسماً ، من حيث كان لا يرجَى لمثلهم نصر فى هذه الموقعة ، لقلة عددهم ، وضآلة عدَّتهم ، مع كثرة عدوّهم ، وقوة عُدده !

وهنا أمرٌ لايدع لأحدٍ شكًّا حتى عند من لايؤمنون بالله ، هو أن يداً قوية غير منظورة لأحد ، هى التى أدارت تلك المعركة ، وقلبت أوضاعها ، وبدلت موازينها !

والذلّة التى وصف القرآن بها المسلمين هنا ليست ذِلّة نفسيَّة ، ولاضعفاً قلبياً ، وإنما هى ذِلّةُ حاجة وعَوَز ، وقلةٍ فى المال والرجال ، بحيث يخفّ ميزان أصحابها فى أعين الناس ، حين ينظرون إلى ظاهرهم هذا . .

فوصْف المؤمنين بالذلّة هنا ، إنما هو وصف للحال الظاهر منهم للناس .. أما فى حقيقة أنفسهم ، فهم من إيمانهم بالله ، وثقتهم فيه ، وتوكلهم عليهم واستعلائهم على حاجات الجسد ، ومتاع الحياة — هم فى عِزّة عزيزة ، تستخف بكل قوى المادة وعتوّها .

وقوله تعالى : « فاتقوا الله لعلّكم تشكرون » تعقيب على هذه النعمة التى أنعم الله بها على النبىّ وأصحابه ، يوم بدر ، فمكّن لهم من رقاب أعدائهم، ومنحهم النصر عليهم ، ذلك النصر الذى لم يتوقعه أحد ..

فحُقّ على المؤمنين أن يزداد إيمانهم بالله ، وإقبالهم عليه ، حتى يبلغ بهم هذا الإيمان وذلك الإقبال منازل المتقين ، وعن هذه التقوى يكون الشكران لله على ما أنعم عليهم . . بل إن هذه التقوى فى صميمها هى شكران لله أعظم الشكران وأكمله ، فما شكر الله ، ولاحمده ، ولاعرف فضله وقدره من لم يتقه حق تقواه ، فيأتى ما استطاع من أوامره ، ويجتنب مااستطاع من نواهيه. فإنه بغير التقوى تكون العبادات والطاعات مجرّد مظاهر جوفاء ، لاثمرة لها ، ولاجزاء عليها . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنما يتقبل الله من المتقين » (٢٧ : المائدة) .

وقوله سبحانه : « إذ تقول للمؤمنينَ ألن يكفيكم أن يُمِدَّكم ربُّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنْزَلِين » هو عَرْض وتذكير لما كان فى يوم بدرمن أمداد السماء للمسلمين ، حين بشرهم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — بأن الله يمدّهم بثلاثة آلاف من الملائكة منزَلين من عالمهم العلوىّ ، ليشاركوا فى

معركة الحق ، ولينصروا أنصار الله ، المجاهدين فى سبيله .

وقوله تعالى : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فَوْرِهِم هذا يُمدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين » هو تأكيد لهذا الوعد الكريم من الله تعالى الذى تحقق يوم بدر بهذا المدد السماوى ، والذى شهد المسلمون آياتِه يوم بدر .. ثم هو عرض لوعد آخر معلّق على مايكون عند المؤمنين من صبر وتقوى ، فإن كان منهم هذا لم يكن المدد السماوى ثلاثة آلاف مَلَكٍ وحسب ، بل إن الله سبحانه وتعالى سيمدهم بخمسة آلاف فى هذه المعركة التى توشك أن تنشب بينهم وبين المشركين ، فى أحد .

والملائكة المسوّمون : هم المعلَّمُون ، أى لهم شارات يُعرفون بها .

وهنا سؤال :

ماهذا المدد السماوىّ ؟ وما هى صورته ؟ وكيف يكون عمله فى المعركة ؟ وهل يكون على هيئة الرجال ، أو الفرسان ..أو بين الرجال والفرسان ؟ أم ماذا ؟

والجواب على هذا من وجوه :

أولاً : أنه يجب التصديق تصديقاً مطلقاً بما أخبر به القرآن ، وأن الملائكة قد كانوا بالأعداد التى ذكرها لله ، وأنهم كانوا جنداً مع جنود الله فى تلك المعركة .

ثانياً : أن هذا المدد السماوىّ كان روحاً من عند الله ، لبِست المؤمنين ، وأحاطت بهم ، فكانت قوة راسخة فى قلوبهم ، ودروعاً حصينة على صدورهم ، وسيوفاً قاطعة فى أيديهم ! وما كان لهذه القوى أن تظهر عياناً للناس ، وإلا كانت فتنة لهم .. ولكن يجد المؤمنون أثرها فى أنفسهم ، كما يجد المشركون مسّها الرعب لقلوبهم !

ثالثاً : تجسيد هذه القوى السماوية للمسلمين فى الخبر الذى أُخبروا به ، وتحديد أعدادها ، هو لتطمين قلوب المؤمنين ، وتثبيت أقدامهم .

رابعاً : أن هذه القوى السماوية لو جُسِّدت لكانت رجالاً وفرساناً ، ولو عُدَّت لكان حسابها فى الرجال والفرسان بثلاثة آلاف من المقاتلين .

خامساً : فى قوله تعالى : « وما جعله الله إلا بُشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به » إشارة إلى أن هذا التجسيد ، وتحديد العدد لتلك القوى السماوية التى تعمل معهم ، إنما هو لتطمين قلوبهم ، وليكون لهم من فرحة هذه البشرى قوة يرون منها خاتمة هذه المعركة قبل بدئها ، وأنهم هم المنتصرون .

سادساً : كانت أعداد المسلمين يوم بدر نحو ثلاثمئة ، وكان حساب المسلم فى قتاله للمشركين يومئذ بعشرة منهم كما يقول الله تعالى : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مئتين وإنْ يكن مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون » (٦٥ : الأنفال) ..

فالمسلمون الذين قاتلوا يوم بدر وإن كانوا ثلاثمائة ، هم فى قوتهم ، وفى حسابهم فى المقاتلين ثلاثة آلاف . . !

وعلى هذا ، فإن لنا أن نفهم أن هذه الثلاثة آلاف التى كانت مدداً من السماء يوم بدر ، قد كانت قوىً سماويةً ، وأرواحاً علوية لبست المسلمين ، فإذا كلُّ رجل منهم عشرة رجال ! بل عشرة أرواح علوية سماوية ، بل عشرة ملائكة . . « وما يَعْلَمُ جنُودَ ربِّك إلاّ هُوَ وَمَا هِيَ إلا ذِكرى للبشر » (٣١ : المدثر) .

هذا ، وقد جاء فى سورة الأنفال فى غزوة بدر قوله تعالى: « إذ تستغيثونَ ربَّكم فاستجابَ لكم أنى مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُرْدِفين * وما جَعَله الله

إلا بُشرى ولتطمئن به قلوبكم وماالنصر إلا من عِندِ الله إن الله عزيز حكيمٌ »
(٩ — ١٠ : الأنفال) .

وهنا نجد المدد السماوىّ ألفاً من الملائكة لا ثلاثة آلاف ، ولكن فى قوله تعالى : « بألفٍ من الملائكة مردِفين » وفى وصف الملائكة بالمردِفين — مايشعر بأن وراءهم أمداداً أخرى ، تجىء مرادفةً لهم ، وفى أعقابهم ، ويؤيد هذا قراءة السُّدِّى : « أنى ممدّكم بآلافٍ من الملائكة مردفين » .

كذلك يجىء التعقيب على هذا المدد السماوى ، بأنه لم يكن إلا بُشرى المؤمنين وتطميناً لقلوبهم ، كما جاء ذلك فى آية آل عمران ، التى نحن بين يديها الآن !

وقوله تعالى : وماجعله الله إلا بشرى لكم » وقوله فى سورة الأنفال : «وما جعله الله إلا بشرى » بزيادة « لكم » هناك ، لاختلاف المقامين .. حيث أن الخطاب فى آية الأنفال كان والمسلمون يواجهون الحدث مواجهة واقعية ، ويتلقون بشريات السماء وهم مشتبكون مع العدو ، فلا حاجة إلى تعيينهم بقوله سبحانه « لكم » على خلاف ماجاء فى آية آل عمران ، إذ كان نزولها والمسلمون مقدمون على حرب المشركين ، فى أحد ، فجاءت هذه الآية مع أخواتها لتذكرهم بفضل الله عليهم فى يوم بدر ، فكان التعيين بقوله «لكم» هنا لازماً . إذ كان كثير من المسلمين الذين يشهدون أحداً اليوم لم يشهدوا بدراً بالأمس !

كذلك ماجاء فى قوله تعالى فى آل عمران : « ولتطمئن قلوبكم به » وفى الأنفال : « ولتطمئن به قلوبكم » فلاختلاف المقامين اختلف الأداء للمعنى المراد .. فالمسلمون الذين خوطبوا فى سورة الأنفال كانوا فى مواجهة المعركة فى بدر ، وقلوبهم مضطربة واجفة تنظر إلى مايطلع عليها من فضل الله ورحمته ،

فقدم مابشّروا به من أمداد السماء ، وهو المشار إليه بالضمير فى « به » على القلوب لأنه هو المطلوب لها .. أما فى آية آل عمران ، فهو تذكير بهذا الحدث ، فجاء ذكره على الأسلوب الذى يقتضيه النظم المعتاد فى لغة العرب .. الفعل ، فالفاعل ، فالمتعلقات : « ولتطمئن قلوبكم به » .

ويشبه هذا ماجاء فى قوله تعالى هنا فى آل عمران : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » وما جاء فى سورة الأنفال : « وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم » .

وأحسبك لايخفى عليك الحال الداعى لاختلاف الأداء اللفظى فى الآيتين .. ولكن لا بأس من أن نشير إليه ، كما أشرنا إلى سابقيْه من قبل !

ففى آية الأنفال تقرير وتوكيد لعزة الله وحكمته : « إن الله عزيز حكيم » .. وهذا التقرير والتوكيد لازمان فى هذا الموقف ، الذى كان يقفه المسلمون فى قِلّتهم ، وضآلة شأنهم إزاء الجيش القوى الزاحف عليهم ، فإذا جاءتهم البشرى بنصر الله ، محمولة بما وعدهم على لسان نبيّه ، ثم أُتبعت هذه البشرى بالتذكير بعزة الله وحكمته فى هذا الأسلوب المؤكد « إن الله عزيز حكيم » كان لذلك وقعه فى القلوب وأثره فى النفوس !

أما فى آية آل عمران ، فالشأن مختلف .. إنها حديث عن أمر وقع ، رأى منه المسلمون رأى العين كيف كانت عزة الله وكيف كانت حكمته .. فيكفى هنا أن يُذكر الله وعزته وحكمته .. « العزيز الحكيم » دون توكيد ، إذ كان يعيش المسلمون مع الحدث الواقع ، الذى هو أثر من آثار عزة الله وحكمته .

وطبيعى أن مثل هذه الفروق الدقيقة فى الصور اللفظية التى تعرض لموضوع واحد ، فيقع فى النظم تقديم وتأخير ، أو زيادة وحذف — لايُلتفت إليها ، ولا يقام لها وزن فى معايير البلاغة ، إلا أن يكون ذلك فى نظم القرآن الكريم ،

حيث كل شيء بحساب وتقدير ، ولـكل حرف وزنه ، الذى يرجُح موازين الدنيا جميعاً .. وذلك وجه مشرق من وجوه الإعجاز القرآنى .. « تنزيل من عزيز حكيم » .. فسبحان من هذا كلامه .

الآيات : (١٢٧ — ١٢٩)

« لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (١٢٩) .

التفسير : قوله تعالى : « ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين » هو تعليل لما جاء فى ختام الآية السابقة على هذه الآية ، وهو قوله تعالى : « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » حيث اقتضت عزّة الله وحكمته أن ينصر المؤمنين فى معركة بدر ، هذا النصر الذى كان مِنحة من الله كتبها بأيدى المؤمنين ، ولولا فضل العزيز الحكيم لما نال المسلمون مانالوا من أعدائهم .. ولـكن قضى الله بذلك « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » أى ليقضى على جانب من الذين كفروا بالقتل ، وبذلك ينهدّ ركن من هذا البناء الأسود ، الذى يصدّ عباد الله عن دين الله ..

« أو يكبتهم » أى يملأ قلوبهم حسرة وألمًا ، وذلك حين ينقلب الأحياء من جيش البغى هذا ، بالهزيمة ، وبما خلّفوا وراءهم فى ميدان المعركة من جثث وأشلاء ، لأبطالهم ، وفلذات أكبادهم ..

فهذا الجيش الآثم الباغى : فريقان : فريق حَصَدته سيوف المسلمين فى

المعركة ، وفريق فرّ مُثخَناً بالجراح ، محملا بخزى الهزيمة وعارها مثْقَلا بالحزن والألم ، لِمَا فقد من أهل وأحباب .

وتغلى مراجل الضغينة والحقد فى رءوس المشركين ، وتتحول مكة كلها إلى ذئاب عاوية ، تتردد فى بيوتها ، وفى أنديتها ، وطرقاتها أصداء هذا العواء المسعور ، تسبّ وتتوعد ، « محمداً » ومن اجتمع إليه من مهاجرين وأنصار .. ثم هاهى ذى تجىء إليه محملةً بحقدها ، مشحونة ببغضائها ، لتلقاه فى يوم كيوم بدر ، تراق فيه الدماء ، وتتناثر الأشلاء ، ويتقطع فيه مابقى بينه وبين قومه من أواصر الرحم والقرابة . . فما أمرّ هذا وما أقساه ! !

ويأسى النبىّ الكريم لهذا ويحزن ، وكان يودّ ألا يبلغ الأمر بينه وبين أهله إلى هذا الحدّ ، وهوالذى جاءهم بالهدى والرحمة ، ودعاهم إلى البر والتقوى . ولكن القوم أبوْا إلاّ إعناتاً له ، وخلافاً عليه ، وإمعاناً فى توجيه الأذى والضرّ إليه وإلى من اتبعه ، حتى لقد حملوه على أن يهاجر من موطنه ، ليخلص بدينه ، وليجد له طريقاً غير هذا الطريق المسدود !

فكان قول الله تعالى : « ليس لك من الأمرشىء » عزاء للنبىّ ، وتخفيفاً لما وجد فى نفسه من تلك الحال التى وقعت بينه وبين أهله وذوى قرابته .. كما كان فيه إلفات لهؤلاء المشركين إلى الجهة التى نالتهم بهذا السوء الذى حلّ بهم ، جزاء كفرهم وعنادهم ، وأنها جهة لاتنال .. إنها يد الله القوى العزيز ، لايد محمد ، ولا أصحاب محمد ، وفى هذا تيئيس لهم من أن يأخذوا بثأرهم الذى احتسبوه على محمد وأصحاب محمد ، فما كان لمحمد وأصحابه من هذا الأمر شىء !

وقوله تعالى : « أو يتوب عليهم أو يعذّبهم » فتح لصفحة جديدة ،ولحساب جديد مع هؤلاء المشركين ، بعد وقعة بدر .. فهم بين أمرين : إما أن يرجع راجعهم إلى الله ويستجيب لدعوة الحق الذى يُدْعى إليه،فيجد المغفرة والرحمة ،

وإما أن يزداد إثمه إثماً ، فيمضى فى طريق العناد والكفر ، والمحادَّة لله ولرسوله ، فيلقى الجزاء الذى هو أهله ، ولاجزاء له غير العذاب الأليم .. « فإنهم ظالمون » .

فما محمد إلا رسولٌ ، يبلّغ ما أُنزل إليه من ربّه .. والله سبحانه هو الذى يُرجع إليه الأمر كلّه ، له مافى السموات والأرض ، لايملك أحد معه شيئاً .. « يغفر لمن يشاء ويُعذب من يشاء » لامعقب لحكمه ولا ناقض لأمره !

وفى قوله تعالى تعقيباً على هذا الحكم : « والله غفورٌ رحيم » ما يكشف فضل الله على عباده ، ورحمته بهم ، وأنها رحمة عامة شاملة ، تنال الخلق جميعاً ، حتى أولئك العصاة المتمردين ، وحتى وهم يتقلبون فى العذاب الأليم ! فهو عذاب فيه رحمة لهم ، وتطهير لما تلطخوا به من أدران الإثم والشرك !

الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٦

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) »

التفسير : هذه الآيات والآيتان اللتان بعـــدها ، تجىء هكذا بين تلك الأحداث التى يعرضها القرآن عن الصراع الدائر بين المسلمين والمشركين ، فى معارك بدر وأحد ..

والحديث عن الربا هنا ، يبدو وكأنه شىء غريب فى هذا الجوّ ، الذى لانُسمع فيه إلا قعقعة السلاح ، ولا يُرى فيه إلا الدماء والأشلاء !

فما شأن الرّبا هنا ؟ وما داعيته فى هذا المقام ؟

عرفنا فى وقوفنا بين يدى آيات الرّبا فى سورة البقرة ، أن الربا كبيرة الكَبائر ، وأنه لفداحة جُرمه لم يُدخله الإسلام فى دائرة الجرائم التى يُطهِّر مقترفوها بإقامة الحدّ عليهم فيها ..

ولهذا فإن الذى يبدو لنا — والله أعلم — من وضع الرّبا هنا ، وسط المعارك الدائرة بين الإسلام والكفر ، أنه خطر كهذا الخطر الذى يتهدد المسلمين من الشرك والمشركين ، وأنه إذا كان المسلمون مشتبكين فى معركة ضارية مع المشركين ، ليقتلعوا بذور الشرك والضلال من المجتمع الإنسانى ، فإن ذلك ينبغى ألا يشغلهم عن معركة أخرى يجب أن يشتبكوا فيها مع عدوّ لا يقل خطراً فى إفساد الكيان الإنسانى ، وتدمير معالم الإنسانية فى الإنسان — عن الشرك .. ألَا ، وهو الربا !

وخطاب المؤمنين فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافاً مضاعفة » يتضمن أمرين :

أولهما : نهى المسلمين مقارفة هذا الإثم ، والعمل على محاربته فى أنفسهم ، حتى يُجلوه عنها ، كما أجلوْا الشرك من قبل منها .

وثانيهما : محاربة هذا الإثم ، وجهاده حيث أطَلّ برأسه فى أى مكانٍ تناله

أيديهم ، وتصل إليه قوتهم ، كما يحاربون الشرك ويجاهدونه . . فإنه — أى الربا — ربيب الشرك ، وثمرته البكر فى شجرته الخبيثة ! فحيث كان شرك ، كان ظلم ، والربا هو أشأم وجوه الظلم . . وعلى هذا ، فإنه كما لا يجتمع إيمان وشرك فى قلب مؤمن ، كذلك لا يجتمع إيمان وربا فى حياة المؤمن ! وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بقى من الرّبا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... (٢٧٨ — ٢٢٩ : البقرة) . .

فانظر إلى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » وما فيها من تشكيك فى إيمان المؤمنين ، ونزع تلك الصفة عنهم ، والتى خوطبوا بها فى أول الآية ، فى قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا . . » وذلك إذا لم ينزعوا عن الرّبا ، ويخلّصوا أنفسهم منه . ثم انظر بعد هذا فى قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » تجد أنها حرب معلنة من الله ورسوله . . فيا للهول ، ويا للبلاء !!

وعلى من ؟

على المؤمنين الذين آمنوا بالله ولكن بقى معهم الربا !

إنهم إذن والمشركون سواء !

يحاربهم الله ورسوله . . ويجاهدهم المؤمنون كما يجاهدون المشركين .

فالمعركة مع الربا والمرابين معركة فى صميمها مع الشرك والمشركين !

ولهذا فقد أضيف الربا هنا إلى الشرك ، ودخل فى حسابه . . وبهذا صارت معركته وجهاده جزءاً من معركة الشرك ، وجهاد المشركين .

وفى قوله تعالى : « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » قد يبدو أن النهى فى تحريم الربا ، وفى درجه مع الشرك فى قرن واحد — إنما هو الربا الفاحش ،

الذى يتضاعف فيه رأس المال بمضاعفة المدة التى يبقى فيها المال فى يد المقترض بالربا ، ويكون — بمفهوم المخالفة — أن هذا النهى لا يَرِد على الربا إذا لم يكن على تلك الصورة الفاحشة !

ولكن — مع قليل من النظر فى وجه الآية الكريمة — نجد أن قوله تعالى «أضعافاً مضاعفة» وإن يكن حالا من أحوال الربا ، مقيداً للربا فى عمومه وإطلاقه .. إلا أن هذا الحال يكاد يكون الحال الشامل لجميع أحوال الربا ، الذى كان معروفاً شائعاً فى هذا الوقت ، وهو ربا النسيئة ، الذى يتضاعف فيه رأس المال على امتداد الزمن ..

وإذن فهذا الوصف بالأضعاف المضاعفة للربا هو تقرير لحقيقة الربا، وكشف لوجهه الكريه ، الذى يغتال أموال الناس على تلك الصورة البشعة التى لم تكن تتخلف أبداً عن المعاملات الربوية يومئذ !

ويكون معنى الآية : نهى المؤمنين عن أكل الربا ، الذى يأكل بدوره أموال الناس ، حتى ينتفخ ويتورم ، ويصبح أضعاف ما كان عليه ، بتلك الأورام الخبيثة التى التصقت به . . فهو زاد تخمر وتعفن ، تصدّ عنه النفوس الطيبة ، ولو هلكت .. لأن فى تناوله الهلاك المحقق .

وقوله تعالى : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » تأكيد لاجتناب الربا ، وتحذير من أكله .. لأن آكله لا يفلح أبداً .. لأنه لم يكن على تقوى من الله ومن حُرم التقوى والخشية من الله فقد حُرم الفلاح ، وفى قوله تعالى: «واتقوا النّار التى أعدت للكافرين » ما يكشف عن جريمة الربا ، وأنها باب من أبواب الكفر ، ومدخل من مداخله — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — فالنار

المعدّة للكافرين ، هى معدة أيضاً لآكلى الربا .. فمن لم يتق الله وينتهى عما نهى الله عنه من أكل الربا فهو مع الكافرين فى نار جهنم ، يلقى ما يلقى الكافرون ، من عذاب ونكال .. وهذا يلتقى مع قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين » (٢٧٨ : البقرة) فمن لم يتق الله ، ويتجنب الربا فليس بالمؤمن ، ولا هو فى المؤمنين !

وقوله تعالى « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » التفات إلى المؤمنين ، ودعوة لهم إلى الطاعة العامة لله ورسوله ، بعد أن أطاعوه فى ترك الربا . .

وفى قوله تعالى « لعلكُمْ تُرحَمُون » تذكير لهم بالرحمة التى يجب أن تملأ قلوبهم عطفاً وبِرًّا بالنّاس ، فلا يغتالوا أموالهم بالرّبا ، ولا يأكلوها ظلماً وعدواناً ، فإنهم إن رحموا الناس ، رحمهم ربّ الناس ، وفى الأثر : « الراحمون يرحمهم الرحمن » .

قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربِّكم وجَنّةٍ عرضُها السّمواتُ والأرضُ أُعِدّت للمتّقِينَ الّذين ينفِقون فى السرّاء والضراء والكاظمينَ الغيظَ والعافين عن الناسِ والله يُحب المحسنين » . إثارة وإغراء بالمبادرة إلى طلب للمغفرة من الله ، باجتناب المحرمات ، وعلى رأسها الكفر والربا .. فمن بادر بالتوبة ، ورجع إلى الله من قريب ، مستغفرا ربه ، وجدَ ربًّا غفوراً رحيماً يفتح له مع خزائن رحمته أبواب جنته وما فيها من نعيم مقيم .

وهذه الجنة التى وُعِد بها المتقون تَسع النّاس ، وأضعاف أضعاف الناس .. عرضها السموات والأرض . . يجد فيها المؤمنون والتائبون ـ مهما كثر عددهم ـ مكاناً فسيحاً ، لا حدّ له ، حيث يسرحون ويمرحون ما شاءوا . .

فَلْيخرَس إذن أولئك المتنطعون والمتزمّتون ، الذين يُضيّقون من رحمة ،

أو يَضِيقُون بها ، حتى لكأنهم يَرَوْن أن ما يبسطه الله من رحمة ورضوان لِعباده إنما هو مقتطع مما يُمنّون أنفسهم به عند الله . . وأنه كلما كثرت أعداد المقبولين عند الله ، والداخلين فى رحمته ـ تحيّف ذلك من نصيبهم ، وأخذ الكثير من حظهم . . وهذا ـ لا شك ـ سوء ظن بالله ، وعدوان على مشيئته ، شأنهم فى هذا شأن بنى إسرائيل ، الذين أكل الحسد قلوبهم أن ينال أحد من من الله خيراً غيرهم ، كما قال تعالى فيهم : « أم يحسدون الناسَ على ما آتاهم الله من فضله » (٥٤ : النساء) وكما قال فيهم أيضاً : « قلْ لو أنتمْ تملِكون خَزَائِنَ رحمةِ ربىٍّ إذَنْ لأمْسَكْتُمْ خَشيةَ الإنفاق » (١٠٠ : الإسراء) .

وقوله تعالى : « الذين ينفقون فى السرّاء والضرّاء » صفة من صفات المتقِين . . فمن شأن التقوى أن تقيم فى كيان الإنسان عواطف الرحمة والإحسان ، فلا يمسك صاحبها خيراً لنفسه خاصة ، بل إن كل ما فى يده هو له وللناس . . فهو ينفق منه فى كل حال . . فى يسره وعسره ، فى سرّائه وضَرّائه ، وفى سرّاء الناسِ وضرائهم ، لا يمنع فضله عن طالبه أبداً !

وقوله تعالى : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » بيان للصفات المكملة للتقوى ، المجمِّلة للمتقين ، فمن اتقى اللهَ ، كان رحيما بالناس ، حَدِباً عليهم ، يلقى إساءتهم بالصفح والمغفرة ، فلا يصل إليهم منه أذى ، بيد أو لسان . .

والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس ، هم وإن كانوا فى المتقين المحسنين ، إلا أنهما درجتان فى الإحسان والتقوى . . فالكظم درجة ، والعفو درجة أعلى من تلك الدرجة . . فالذى تلقّى الإساءة وهو قادر على مقابلتها بمثلها ثم أمسك عن الردّ ، وكظم فى نفسه ما أثارته الإساءة فى مشاعره من غيظ ونقمة ، هو على درجة من التقوى والإحسان . . أما إذا ذهب إلى أكثر من

هذا، فسح ما بصدره من غيظ ونقمة . وأظهر العفو والمغفرة ، فهو على حظ أكبر من الإحسان والتقوى . . وأرفع من هذا درجةً ، وأعلى مقاماً فى التقوى والإحسان، مَن دفع السيئة ، لا بكظم الغيظ المتولد منها ، ولا بالعفو عن المسىء ، بل دَفَعها بالإحسان إليه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « والذينَ صبروا ابتغاء وجه ربِّهم وأقاموا الصَّلاَةَ وأنفقوا مِمّا رزقناهم سِرًّا وعلانيةً ويدرءون بالحسنةِ السيئةَ أولئك لهم عُقْبىَ الدار » (٢٢ : الرعد) .

ويقول سبحانه أيضاً : « أولئك يُؤْتونه أجْرَهُمْ مرَّتَيْن بِمَا صَبَروا ويَدْرءونَ بالحسنة السيئة ومما رزقناهم يُنفِقونَ » (٥٤ : القصص) .

ودفع السيئةَ بالحسنة إنما هو من باب الإنفاق ، ولـكنه إنفاق من أطيب وأعزّ ما يملك الناس : إنه إنفاق من سعة صدر ، ومن كرم خلق ، مما لا يُرْزَقه إلا أهل الصبر والتقوى . . وفى هذا يقول الحق جلّ وعلاَ : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفعْ بالتى هىَ أحْسَنُ فإذا الذى بينك وبينه عَداوة كأنه ولىٌّ حميم * وما يَلقّاها إلاّ الذين صَبَروا وما يُلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم » . (٣٤ : ٣٥ السجدة) .

فيما يُروى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه . . أن جارية له كانت تقوم على وضوئه وفى يدها إبريق ، فسقط الإبريق من يدها وانـكسر . . ونظر إليها الإمام ـ كرم الله وجهه ـ فقالت : « والـكاظمين الغيظ » فقال : كظمت غيظى . . ثم قالت : « والعافين عن الناس » فقال : « ولقد عفوت عنك » قالت : « والله يحب المحسنين » فقال : « أنت حرة لوجه الله » ! !

قوله تعالى : « والذين إذا فعلوا فَاحِشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا اللهَ فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوبَ إلا الله ولم يصِروا على ما فعلوا وهم يعلمون » .

الفاحشة : المنـكر الغليظ من العمل والقول . . وأكثر ما تـكون

فى الأعمال السيئة . . وظلم النفس : يقع على كل مكروه ينالها من قِبلَ صاحِبها فيما يمسّ خاصة الإنسان من أذًى ، أو يتجاوزه إلى غيره من الناس . . . فالزنا ، فاحشة ، والكفر ظلم ! وكلٌّ من الأمرين ظلم وفاحشة معاً . .

فهذا الصنف من الناس إذا أصاب فاحشة أو ارتكب إثماً ، ذكر الله ، وذكر عظمة الله وجلالَه ، وعلمَه به ، وفضله عليه ، وذكر لقاء ربّه ، ومحاسبته بين يديه . . فرجع إلى الله من قريب ، تائباً مستغفراً ــ هذا الصنف من الناس معدود فى المتقين من عباد الله ، إذ غسل الحوْبة بالتوبة ، وبعُد عن اللهِ ثم عاد إليه ، واقترب منه .

وفى قوله تعالى : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » إغراء للعصاة والمذنبين ، بالتوبة والقبول إذا هم مدّوا أيديهم إليه ، وطلبوا الصفح والمغفرة منه !

وقوله تعالى : « ولم يُصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون » إشارة إلى ماتصحّ عليه توبة التائبين ، وهو أنّهم إذا فعلوا المعصية لم يصرّوا على معاودتها ، بل أخذتهم خشية الله ، واستولى عليهم الندم .. وأقبلوا على الله تائبين مستغفرين . . وقوله تعالى : « وهم يعلمون » يُفسح العذرَ للذين يأتون الفاحشة عن جهل ، أو خطأ ، كمن يشرب خمراً وهو يظنها غير الخمر .

وقوله تعالى « أولئك جزاؤهم مغفرةٌ من ربّهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين » الإشارة هنا إلى جميع من ذُكروا فى قوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم . . إلى قوله سبحانه : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » فهؤلاء الذين جاء ذكرهم فى هذه الآيات الثلاث ، هم من المتقين ، وهم من الذين يتلقّون هذا الجزاء الحسن من الله . . جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . .

وفى قوله تعالى : « ونعمَ أجرُ العاملين » مدح وتمجيد لهذا الجزاء العظيم ،

الذى ناله هؤلاء الذين أنعم الله عليهم ، فاتقوه ، وأنفقوا فى السَّرَّاء والضراء ، وكظموا الغيظ وعَفَوْا عن الناس . . ومثلهم أولئك الذين إذا فعلوا فاحشة ، أو واقعوا المعصية ذكروا جلال الله وعظمته ، فرجعوا إليه من قريب ، باسطين يد التوبة والمغفرة . .

فالجزاء الذى ناله هؤلاء المحسنون المتقون ، شىء عظيم رائع . . وهل شىء أعظم من الجنة وأروع ؟ . . ثم إن هذا الجزاء ـ وإن يكن فضلا من الله وإحسانا ـ هو عن إحسان كان من هؤلاء العاملين ، وعن عمل من هؤلاء المحسنين : أجراه الله على أيديهم ، ووفقهم إليه . .

وفى هذا يقول الحق سبحانه : « إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون . أولئك أصحاب الجنةِ خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون » (١٣ — ١٤ : الأحقاف) .

الآيات : (١٣٧ ـ ١٤١)

« قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ » (١٤١)

التفسير : كانت موقعة بدر ، ثم موقعة أُحد بعدها ، تجربتين مثيرين فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، وفى كشف معالم الطريق الذى يسير فيه المسلمون

تُجاه تلك القوى المتربصة بهم ، وبالدّين الذى آمنو به .

بدأت دعوة الإسلام هامسة ، متخافتة . تمشى على خفوت وخشية بين ظلام الشرك ، ووسط معاقل المشركين . . فلما أخذ صوتها يعلو ويبلغ الأسماع. أجلب عليها المشركون بجبروتهم وعتوّهم يلاحقون الجماعة القليلة المستضعفة ، حتى كادت تختنق الدعوة فى مهدها ، لولا أن ثبت الله أقدام المؤمنين ، وربط على قلوبهم ، فصبروا على ما أوذوا ، وخرجوا عن أموالهم وديارهم وأهليهم ، فارّين بدينهم فى وجوه الأرض . . حتى كانت هجرة النبى الكريم إلى المدينة . فتحدّد بذلك خط سير الدعوة ، كما تحدد الأفق الذى ستشرق منه شمسها ، وتنتشر أضواؤها .

وفى المدينة قامت الحمائر الأولى لدولة الإسلام . . فكان المهاجرون والأنصار الكتيبةَ الأولى التى أمسكت راية الحق لتلقَى بها الشرك كلّه ، والكفر كلّه ، والنفاق كلّه .

وفى موقعة بدر كان أول صدام بين الإسلام ، والكفر .. الإسلام كله ، والشرك كلّه .. ولو أن هذه المعركة انتهت بالقضاء على هذه الجماعة القليلة المسلمة ، لما قامت للإسلام بعدها قائمة ، ولما كان إسلام ولا مسلمون بعدها .. ولكن الله بالغ أمره .

فلقد قضت إرادته سبحانه أن تغلب تلك الفئةُ القليلة دولةَ الشرك ، وأن تنالها بيد قوية قاهرة ، فتقتل وتأسر ، كما تشاء !

وتشهد الدنيا كلها من تلك المعركة « معجزة ، قاهرة متحدية ، وأن الإسلام ليس أمراً من أمور هذه الدنيا التى يقتتل الناس عليها ، وإنما هو نور من نور الله ، لاتطفئه الأفواه ، ولا تحجبه الأيدى ، وأنه بالغٌ الذى الذى

أراد الله أن يبلغه : « هوَ الذى أرسل رسوله بالهُدَي ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون » (٩ : الصف) . . (يريدون أن يُطفئوا نور اللهِ بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (٣٢ : التوبة)

وتفعل المعجزة فعلها فيمن شهد المعركة ، وفيمن سمع أخبارها من المسلمين ، والمشركين ، والكافرين.. فكثير من المشركين والكافرين ،الذين شهدوا المعركة ، أو سمعوا أخبارها ،قد دارت رءوسهم بها ، وأخذوا يراجعون حسابهم مع الإسلام ، ويحددون موقفهم من النبيّ ، وفى كل يوم يزداد العقلاء قرباً من الإسلام ، على حين يزداد الحمقى والسفهاء، حمقاً وسفاهة وبعداً ! !

أما المسلمون فقد امتلأت قلوبهم طمأنينة بالدين الذى آمنوا به ، وبالنبيّ الذى استجابوا له ، واتبعوا سبيله . . ثم نظر ناظرهم إلى آفاق بعيدة ، فرأى يدَ الإسلام تنال ما تشاء . وتبلغ ما تريد فى كل أفق تتجه إليه . . لا يمتنع عليها شيء ، ولا يحول دونها حائل . . إنها تقاتل تحت راية الله ، وتضرب أعداءها بيد الله . . فمن يقف لها ، أو يردّ ضربتها ؟ ألم تشارك ملائكة السماء فى القتال مع المسلمين ؟ وهل تُهزم جبهة تقاتل معها الملائكة ، ولو كانت عدد أصابع اليد أو اليدين ؟

لقد كان هذا الشعور مستولياً على المسلمين ، بعد أن فرغوا من معركة بدر، وبعد أن عادوا وقد امتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى ، وبعد أن ملئوا أرض المعركة من أعدائهم ، جثثاً وأشلاء ! !

ولكن . ما هكذا تدبير الله وتقديره فيما بين الناس ، وفيما بين الحق والباطل !!

إنه لابد من بذل وتضحية ، ومن معاناة وابتلاء !

وإلا فأين المحقون وأين المبطلون ؟ وأين إحسان المحسنين وإفساد المفسدين ؟

وأين ما أعطى صاحب الحق من نفسه وماله ، للحق الذى فى يده ؟ وكيف تكون إثابة المحسن وجزاء العامل ، إن لم يكن عمل وإحسان ؟

إن العدل الإلٰهى يقضى بأن يجازَى المحسن ، ويعاقب المسىء . . !

وفى مجال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر ، يمتاز المحقّون من المبطلين ، وينعزل الأخيار عن الأشرار . .

وإذا كانت معركة بدر قد دارت على تلك الصورة الفريدة بين المعارك ، ليثبّت الله بها الراية التى ركزها الإسلام ، فإن ما يستقبل المسلمون بعد ذلك من معارك لن يكون على تلك الصورة التى شهدوها يوم بدر ، وأن عليهم أن يُبلوا بلاءهم مع عدوّهم ، وأن يستعينوا عليه بالصبر والتقوى . فذلك هو السلاح الذى وضعه الله فى أيديهم ، والذى إن حاربوا به عدوّهم كتب الله لهم النصر ، وإن قلّ عددهم ، وتضاعفت أعداد قوى الشرّ المتصدية لهم ! !

هكذا ينبغى أن يعرف المسلمون ما يجب أن يكون عليهم أمرهم ، وهم مقدمون على لقاء العدو ، الذى جاءهم بكل غيظه وحَنَقه ، ليثأر للهزيمة التى لقيها فى معركة بدر ! !

* * *

وها هم أولاء المسلمون يتأهبون للقاء المشركين، الذين جمعوا جموعهم، يريدون أن يقتحموا بها المدينة ، ويدمروها على من فيها من المهاجرين والأنصار !

ويستشير النبى أصحابه . . ويكثر القول ، ويختلف الرأى ، ثم يعلو الصوت القائل بلقاء العدو خارج المدينة ، ويرى النبى الكريم أن يستجيب للأغلبية ، وإن كان يرى خلاف ذلك ، فيلبس لباس الحرب ، ويضع لَأمَتَه على رأسه ، ويُؤْذِن أصحابه بأنه خارج معهم إلى لقاء المشركين . .

وهنا يستشعر المسلمون الندم ، ويرون أنّهم على أمر لم يكن يريده النبىّ . . فأقبلوا عليه يسألونه أن يكون عند رأيه الذى رآه . . فأبى عليهم ذلك ، وقال : « ما ينبغى لنبىّ إذا لبس لَأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل » .. وذلك أنه أقام أمره على عزيمة ، وبهذه العزيمة لبس لَبوس الحرب . . وما كان له أن يرجع بعد ما عزم . . فإن هذا الرجوع يعنى انحلال العزيمة ، إذ ليس ثمّة ما يمنع بعد هذا أن يعزم عزما آخر ، ويعود فليبس عدّة الحرب . . وهكذا تستولى عليه حال من التردد بين الإقدام والإحجام . . وليس بعد هذا اجتماع لعزيمة ، أو استقامة على رأى .. وفى هذا مافيه من ضياع وخذلان ، لأى أمر ، وفى كل عمل ، يدخل عليه التردد من أى باب !

ولهذا كان أمر الله لنبيّه الكريم : « وشاورهم فى الأمر فإذا عزمتَ فتوكل على الله » (١٥٩ : آل عمران) قاطعاً الطريق إلى التردد بعدالعزيمة ، التى تجىء عن مناصحة ومشاورة !

نقول : خرج النبىّ بأصحابه للقاء العدوّ ، ومع المسلمين هذا الشعور الذى وقع فى نفوسهم من حملهم النبىّ على هذا الخروج ـ الشعور بالندم والحسرة ـ الأمر الذى لو صحبهم إلى المعركة لأفسد عليهم موقفهم من عدوهم ، ولاغتال الكثير من عزمهم وقوّتهم !

وهنا يتلقّى الرسول الكريم من ربّه ، مايذهب بمرارة هذا الأسى الذى وجده ، ووجده معه أصحابه ، فى مجلس الشورى ، وما انتهى إليه .

فجاء قوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلّة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول للمؤمنين ألَنْ يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنزلين * » .

ـ جاء قوله تعالى فى هذه الآيات . ليذكّر النبى والمسلمين بما كان لله عليهم

من فضل ، فى هذا النّصر العظيم ، الذى امتلأت به أيديهم يوم بدر .. وفى هذه الصورة التى ترتفع للمسلمين من معركة بدر ، تهبّ عليهم ريح الطمأنينة ، وتدخل على قلوبهم السكينة والأمن ، فيلقوْن عدوّهم بعزم جميع ، وإرادة مصممة على النصر ، واثقة من عون الله وتأييده .

وفى تلك الحال التى تمتد فيها أبصار المسلمين إلى معركة بدر ، وتتعلق عيونهم بالمشاهد الواردة عليهم من ذكرياتها ـ تمتلئ أسماعهم بما يتلو عليهم الرسول الكريم ، مما يتلقى من آيات ربه : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين » .. ويستشعر المسلمون من كلمات الله هذه أنهم من الله على حال غير الحال التى كانوا عليها يوم بدر .. إذ قد جاء وعد الله بإمدادهم بالملائكة يوم بدر غيرَ مشروط بشرط ، بل هو وعد مطلَق ، لابد من تحقيقه .. وقد تحقق .

أمّا هذا الوعد الكريم الذى يتلقوْنه من الله فى هذا اليوم ـ يوم أحد ـ فهو مشروط بشرطين : أن يصبروا ، وأن يتقوا .. وتحقيق هذين الشرطين ، شرطٌ لتحقيق ما وُعدُوا به من النصر .

إذن فهم مطالبون بشىء جديد ، من الصبر والتقوى ، غير ما كانوا عليه يوم بدر ، وغير ماهم عليه اليوم ، من صبر وتقوى ..

وإنهم لو أعطوْا المطلوب من الصبر والتقوى ، لوجدوا فى أنفسهم من رُوح الله ، قوةً تعدل خمسة آلاف من تلك القوى التى ساندتهم ، وقاتلت معهم يوم بدر !

ثم يستمع المسلمون بعد هذا إلى قوله تعالى : « وما جَعَلَه اللهُ إلاّ بشرَى لكم ولتطمئنّ قُلُوبكم به وما النّصْرُ إلاّ مِن عند الله العزيز الحكيم » فيستشعرون أن تلك الأمداد العلويّة ، لاتجىء إليهم من بعيد ، وإنما هى شرارات

من الإيمان والصبر، تنطلق من داخل أنفسهم، فتشتعل بنور الله، فإذا هى قوّى يبلغ بها الإنسان فى ميدان القتال، مالا يبلغ خمسة من الرجال، لا يملكون تلك القوى فى هذا الميدان!

وهنا يلتفت المسلمون إلى أنفسهم التفاتا قويّا، يفتشون عن مواطن القوة والضعف فى إيمانهم وصبرهم، حتى يكونوا على الشرط الذى اشترطه الله عليهم، ليمدّهم بالقوة، وليمكّن لهم من عدوهم.

وتجىء آيات القرآن الكريم، لتلتقى مع هذا الشعور، الذى يفتش فيه المسلمون عن أنفسهم، ولتكون فى مجال البصر وهم يرتادون مواقع الخير الذى يُدنيهم من التقوى، ويمكن لهم من الصبر.. وإذا فى الآيات التى يتلوها الرسول عليهم بعد أن تلقاها من ربّه لساعته ـ إذا فى هذه الآيات الدواء والشفاء، إذ يقول الله تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ»

فعلى ضوء هذه الآيات الكريمة، يعرض المسلم نفسه، ويطّلع على ماتكون

قد انطوت عليه مما نهى الله ، مما لم يكن يراه ، وهو فى زحمة الأحداث المتلاحقة، التى كانت تمرّ بالمسلمين فى تلك الفترة الحرجة من حياة الإسلام - فيعمل على تنقيتها ، والخلاص منها .. وقد أشرنا من قبل إلى مافى هذه الآيات الكريمة من معانى الإحسان ، وماتحمل من دواء عتيد لسِقام النفوس ، ومرضى القلوب !

ثم يجىء قوله تعالى بعد ذلك :

« قَدْ خَلَتْ من قبلكم سُنَنٌ فَسِيرُوا فى الأرضِ فانظروا كيف كان عاقبة المُكذِّبين » فيذكر المسلمون من الآية الكريمة أن لله سبحانه وتعالى سُنناً فى خلقه ، لن تتخلف أبداً ، وأن من هذه السنن وتلك الأحكام والقوانين التى أخذ الله بها النّاس، ماتضمّنه قوله سبحانه «وأن لَيْسَ للإنسانِ إلاّ ماسَعَى * وأن سَعْيَه سَوْفَ يُرَى * ثمّ يُجْزَاه الجزاء الأوفى » (٣٩ - ٤١ : النجم) .. وماجاء به قولُه سبحانه : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » (٧ - ٨ الزلزلة) .

وبهذا يرى المسلمون أنهم مطالبون بأن يعملوا وأن يحسنوا ما وسعهم العمل ، وما أمكنهم الإحسان ، وأن يَلْقَوْا عدوّهم بالصّبر وتوطين النفس على الجهاد والتضحية والبذل فى سبيل الله ، وأن يَشْرُوا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله .. وهنا يأذن الله لهم بالنصر ، ويُريهم فى عدوّهم مايحبّون ، وإلاّ فقد رَضُوا لأنفسهم بالهزيمة ، التى اكتسبوها بالقعود عن البذل والتضحية .

وينظر المسلمون فى سنن الله التى خلت فى عباده ، وما لهذه السنن من آثار فى تقدير مصائر الأمم والأفراد على السواء ، وإذا الّذين كذّبوا بآيات الله ، وآذوا رسل الله ، قد أخذهم الله أخْذَ عزيز مقتدر .. قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين .. هؤلاء جميعاً هم ممن كذبوا

الرُّسَلَ ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وأوردهم موارد الهلاك فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار . . وفى هذا يقول الله تعالى : « فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرْسَلْنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحةُ ومنهم من خَسَفْنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفُسَهم يظلمون » (٤٠ : العنكبوت) . . فهذا هو مصيرُ الذين كفروا بآيات الله وكذّبوا رُسله ، وإلى مثل هذا المصير يصير أولئك الذين كذّبوا رسول الله وآذوْه ، ووقفوا منه ومن دعوته هذا الموقف العِنادىّ المغرِق فى العناد والضلال . .

وفى هذا تطمين للمسلمين ، وتثبيت لأقدامهم ، وأنهم على طريق النصر ، إذا هم صبروا واتقوا ، وأن أعداءهم إلى البوار والهلاك إن أصرّوا على ماهم عليه من شرك وضلال . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إنّا لننصرُ رسلَنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » (٥١ : غافر) . . ويقول سبحانه : « كتبَ اللهُ لأغلِبَنَّ أنا وَرُسُلِي إنَّ الله قوىّ عزيز » (٣١: المجادلة)

ثم تمتلئ أسماع المسلمين وقلوبهم بعد هذا بقوله تعالى : « هذا بيانٌ للناسِ وهدًى وموعظةٌ للمتقين » . . فيرجعون إلى هذا البيان الذى استقبلتهم به تلك الآيات ، وهم على مشارف المعركة والالتحام بعدوّهم ، ويرتلون هذا البيان مرة بعد مرة ، فيخلُص إليهم منه فى كل مرة مايزيد إيمانهم إيماناً ويقينهم يقيناً ، وإذا هم يَمضُون إلى المعركة فى ثقةٍ وطمأنينة ، وفى إصرارٍ على كسب المعركة وبلوغ النصر !

وتدور المعركة ، وتهبّ ريح النصر على المسلمين ، وفى لحظة خاطفة يروْن أنهم كسبوا المعركة ، فألقى كثير منهم السلاح ، وأقبل على الغنائم ينتزعها من بين يدى العدو قبل أن يفرّ بها !

ولكن سَرْعان ماتتبدل الأمور ، وتسكن ريح النصر ، ويقع المسلمون لِيَدِ

أعدائهم،فيقتلون منهم نحو سبعين قتيلا .. وينكشف الرسول،إذ تتناثر الكتيبة التي حوله ، بين قتيل،وجريح ، ومهزوم .. ويثبت الرسول الكريم مع فئة قليلة من أصحابه ، ويَخلُص إليه من سهام العدوّ أذًى كثير ، حتى لتشجّ رأسه ، وتنكسر ثنيّته ، وينادى منادى المشركين : أن محمدًا قتل ! ! وهنا يستبدّ الهول والفزع بالمسلمين ، وتكاد تنتهى المعركة بالهزيمة القاصمة ، لولا أن نادى منادى الرسول : أن رسول الله هنا فى المعركة ، يقاتل المشركين .. فتثوب إلى المسلمين ألبابُهم الشاردة ، ويجتمعون إلى رسول الله ، ويصمدون معه فى ردّ عدوان المعتدين ..

وتكتفى قريش بما نالت ، وتقف بالمعركة عند هذا الحدّ ، خوفًا من أن تدور الدائرة عليها ، لو أنها مضت بالحرب إلى آخر الشوط !

ويعود النبيّ وأصحابه من المعركة ، وقد أُصيبوا فى أنفسهم ، وفى أصحابهم .. وفى القلوب حزن وأسى ، وفى النفوس ضيق واختناق ، ويهبّ على المدينة إعصار محموم ، يلفّ الناس فى جوّ كئيب ، ملفف بالسواد ، لايرى فيه الرائى موقع قدميه !

وأين بدر ويومُها ؟ وأين الوجه الذى استقبلت به المدينة أصحاب بدر ، من هذا الوجه الذى تستقبل به أصحاب أحد ؟

وتدور فى الرءوس ، وعلى الشفاه ، خواطر ، وهمسات ، وغمغمات ، تكاد لكثرتها أن تكون هديراً كهدير البحر المائج ، أو عواء كعواء الريح العاصف ! وتعلو أصوات المنافقين والكافرين ، فتقرع أسماع المسلمين ، بالتجديف على الإسلام ، والتكذيب لرسول الله ، والسخرية بالملائكة التى قيل إنها قاتلت مع المسلمين يوم بدر ! فأين ربّ محمد ؟ وأين الملائكة التى يقول إن ربّه يُمدّه بها ؟ لقد قُتل أصحابه ، وكاد أن يقتل هو .. فما لِربّه لايدفع عنه

وعن أصحابه ما أصابهم ؟ وما للملائكة لا تخفّ لنجدته ؟ أم تُرى هل تفرُّ الملائكة كما يفرّ الناس ؟ وهل تُهزم كما يهزم المحاربون ؟ وكم من الملائكة مِن قتيل وجريح على أرض المعركة ؟ .. إن ذلك ليس إلاَّ ضلالاً فى ضَلال، وغروراً فى غرور .. لقد « غرّ هؤلاء دينُهم » (٤٩ : الأنفال) فأوردهم موارد الهلاك وسوء المصير ! !

هكذا كان المشركون والمنافقون يرددون تلك المقولات المنكرة ، ويُلْقون بها — فى شماتة وسخرية — إلى أسماع المسلمين ، فتزيد من آلام جراحهم ، وتُثقل من هموم أنفسهم !

والمسلمون فى صمت ووجوم ، يمسكون أنفسهم على هموم ، ويطوون صدورهم على حسرات وغمرات .. لايدرون مايقولون ، ولا مايفعلون ! !

تلك هى بعض المشاهد التى يمكن أن يرصدها الراصد لهذا اليوم ، فيما كان يجرى فى المدينة ، وما يدور فى محيط الجماعات التى تأوى إليها ، من مسلمين ، ومنافقين ، ومشركين .. إنها مشاهد أرضية ، تسبح صورها وخيالها فى غبار المعركة ودخانها ، الذى انعقد فوق المدينة ، وخيّم فى سمائها لأيام وأيام !

ويتطلع الرسول والمؤمنون إلى السّماء ، يرقبون ماذا يجىء من جهتها عن هذا الحدث العظيم .. وماذا كان حسابهم عند الله فيما كان منهم ، ولِمَا أخذوا أو تركوا فى هذا اليوم ؟

وتقول السماء كلماتها ، وتتنزل آيات الله بالحق ، يقشع ظلام الباطل ، ويفضح ضلال المبطلين ، وتُتْلَىَ كلمات الله فتلتئم بها جراحات المؤمنين ، ، وتمتلىء بها قلوبهم سكينة ورضى ، وإيمانا : اوفى هذه الآيات المنزّلة ، عزاء ورحمة وشفاء :

الآيات : (١٣٩ ـ ١٤٣)

« وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩)
إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا
بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ (١٤١)
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ
الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ
رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » (١٤٣)

التفسير : ولا تحتاج هذه الآيات الكريمة إلى شرح أو بيان ، لمن يعيش هذه المعركة بمشاعره ، ويشارك فيها بوجدانه ، ويزن فيها الأحداث بالميزان الذى أقامه الله بين عباده ، وأجرى أمورهم عليه !

فأولا : لقد اختلف أمر المسلمين فى هذه المعركة .. قبل أن يخرجوا إليها .. وهذا الخلاف — أيًّا كان — هو عامل ضعف ، وداعية فتور ووهن .. وكان من أولَى وصايا الإسلام للمسلمين ، أن يحذروا هذا الداء ، وأن يجتنبوه فى كل ما يأخذون وما يدعون من أمور : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحكم » (٤٦ : الأنفال) .

وثانياً : لم يقُم أمر المسلمين جميعاً فى هذه المعركة على ما وصّاهم الله به ، ولفتهم إليه ، قبل أن يدخلوا المعركة ، وذلك فى قوله تعالى : « بلى إن تَصْبِروا وتتقوا ويأتوكُمْ من فَوْرِهِم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلافٍ من الملائكة مسوّمين »(١٢٥ : آل عمران) .فثبتت قلة وصَبَرت .. وتواكلت كثرة منهم، فانهزمت وولت

وثالثاً : أضاف كثير من المسلمين يومئذ معركة أحد إلى معركة بدر ، وحسبوها بحسابها.. فما أن رأوا ريح النصر تهبّ عليهم، وتكاد تُسْلِمُ أعداءهم لأيديهم ، حتىّ أعفَوْا أنفسهم من مئونة القتال ، وتركوا المعركة للملائكة تتمها كما بدأتها ! !

وذلك تقدير فيه كثير من البعد عن الطريق الذى أقامهم الله عليه فى تلك المعركة ، وهو أن يكسبوها بأيديهم ، وبصبرهم وتقواهم .

وإنه لو جرَت الأمور على هذا التقدير الذى قدّروه ، لما كان بلاء ولا اختبار .. ومن ثَمّ فلا ثوابَ ولا جزاء .. إذ بم يثابون ؟ وعلى أى شىء يُجْزَوْنَ ؟ وما فضل المجاهدين على القاعدين ؟ بل مافضل المؤمنين على الكافرين ؟ « أم حسبتُمْ أن تَدْخُلوا الجنّة ولمّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدون منكم ويعلم الصابرين » ؟

إن بلاء المؤمنين وجهادَهم ، هو الذى يكشف عن إيمانهم ، ويعطى الدليل العملى لهم وللنّاس ، أنهم مؤمنون حقًّا ، وأنهم أدوْا حقّ هذا الإيمان ، بلاء وجهادًا .

وفى قوله تعالى : « ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين » لا يتعلق علم اللهِ بجهادهم وصبرهم . فعلمُ الله واقع على ما كان منهم وما سيكون قبل أن يكون ، ولكن المراد بالعلم هنا ، علم المعلوم فى حال وقوعه ، أى علمه على الصفة التى وقع عليها .. وهذا وإن كان واقعاً فى علم الله ، إلا أنه علم غيب لِما سيقع ، والمراد بالعلم هنا علم الشهادة لِمَا وقع .

والذى تضمنته هذه الآيات الكريمة ، تعقيباً على هذا الحدث — هو عزاء جميل من الله سبحانه وتعالى للنبىّ وللمؤمنين ..

ففي قوله تعالى : « ولا تَهِنُوا وَلا تحزنوا وأنتم الأعلوْن » نفحة من الله ، تنزل على النبيّ وعلى المؤمنين معه ، بما يهوّن عليهم كل مصاب ، ويجلو عن صدورهم كل همٍّ وحزن !

وهل مع قول العزيز الرحيم : « ولا تهنوا ولا تحزنوا » يكون ما يوهن ويُضعف ، أو يَبْقَى ما يسوء ويُحزن ؟

وسبحانك ربى ! ما أوسع رحمتك ، وما أعظم فضلك ، وما أكثر برّك بالمؤمنين ، ورعايتك للمجاهدين !! تبتليهم فى أموالهم وأنفسهم ، لتضاعف لهم الأجر ، وتُعظم لهم المثوبة ، ثم تعود بفضلك ورحمتك فتعافيهم مما ابتليتهم به ، وتملأ قلوبهم سكينة ورضًى ومسرةً ، بما تسوق إليهم من رحمات وبُشْرَيَات !

وفى قوله تعالى : « وأنتمُ الأعلوْن » حُكم من لدن حكيم عليم ، حَكم به المؤمنين أن يكونوا دائماً فى المنزلة العليا فى هذه الحياة .. لهم العزة والغلب على أعدائهم أبداً ، مِصداقاً لقوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » (١٤١ : النساء)

وفى قوله تعالى : « إن كنتم مؤمنين » تثبيت للمؤمنين على الإيمان . . وأنهم إذا ثبتوا على إيمانهم ، وأعطوا هذا الإيمان حقّه من الصبر والتقوى ، فإنهم لن يَهِنوا ولن يحزنوا أبداً ، وأنهم الأعلوْن أبداً . .

وقوله تعالى : « إن يمسسكم قرحٌ فقد مسَّ القومَ قرْحٌ مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس » هو عزاء آخر للمؤمنين لِما أصيبوا به فى أنفسهم ، ولِما أصيبوا به فى أهليهم .. وأنهم إن يكونوا قد أصيبوا اليوم بما يؤلم ويوجع ، فقد أصابوا هم أعداءهم بما يؤلم ويوجع ! ثم ليعلم المؤمنون من هذا أن طريقهم فى مسيرتهم مع الإسلام ليست كلها يوماً واحداً كيوم بدر ، بل إنهم سيَغلبُون

و يُغلبون ، ويَقتلون و يُقتلون ، ويصيبون ويُصابون .. وهكذا الدنيا .. وتلك سنّة الحياة فيها .. لاتدوم على وجه واحد ، بل هى وجوه متقلبة متغيرة ! تُقبل وتدبر ، وتُضحك وتُبكى ..

وذلك هو الذى يعطى الحياة حيوية ، وهو الذى يغرى الناس بالسعى والعمل ، لينتقلوا من حال إلى حال ، ومن وضع إلى وضع .. ولو أُخذ الناس بوضع ثابت مستقر — ولو كان ذلك فى أحسن حال ، وأمكن وضع — لَماتَتْ فى أنفسهم نوازع التطلعات إلى المستقبل ، ولخمدت فيهم جذوة الحماس للكفاح والنضال .

وقوله تعالى : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » بيان لحكمة الله من هذا الابتلاء . . ففى هذا الابتلاء ، وتحت وطأة القتال ، ينكشف إيمان المؤمنين ، ويُعرف ما عندهم من صدقٍ وبلاء .. فيكتب لهم ما كان فى علم الله ، وما وقع منهم ، وهو أنهم مؤمنون مجاهدون !

وفى قوله تعالى :«ويتّخذ منكم شهداء » إشارة إلىأن جماعة المؤمنين الذين كانوا مع النبىّ فى أحد ـ كانوا جميعاً على درجة عالية من الإيمان، وأنّ أنزلهم درجة فى هذا الإيمان كان مؤهلاً لأن يكون فى عداد الشهداء ، ولهذا جاء قوله تعالى : «ويتخذ منكم شهداء » خطاباً لهم جميعاً ، وكان نسق النظم أن يجىء هكذا : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء » ، ولكنّ هذا يعزل بعضَ المجاهدين عن أن يكونوا فى المؤمنين ، الصالحين لأن يتخذ الله منهم شهداء . .

وفى قوله تعالى : « ويتخذ » إشارة كريمة إلى هذا المقام الكريم الذى يرتفع إليه الشهداء ، وأنهم خيار المؤمنين ، والمصطفيْن منهم ، ولهذا اتّخذهم الله شهداء .. إذ الاتّخاذ أخذ عن اختبار واختيار ..

وفى قوله تعالى : « والله لا يحب الظالمين » تحريض المسلمين على قتال المشركين ، واحتمال المكروه فى سبيل إضعافهم أو القضاء عليهم، لأنهم ظالمون لأنفسهم ، بصرفها عن الهدى إلى الضلال ، وظالمون للإنسانية إذ هم قوى شريرة عاملة على طمس معالم الهدى وصد الناس عن الخير .. « والله لا يحب الظالمين » ومن لا يحبه الله فهو عدو لله ، يجب على أولياء الله أن يعادوه ، ويخلصوه من الذى فى يديه ، يرمى به نفسه ، ويصيب به الناس .

وقوله تعالى : « وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » أى من تمام حكمة هذا الابتلاء فيما بين المؤمنين والكافرين أن يمحص الله المؤمنين بهذا الابتلاء ، وينقيهم من دخائل الضعف والوهن ، بملاقاة الشدائد والصبر عليها ، كما أن فى هذا الابتلاء إضعافاً لشوكة الكافرين وتوهيناً لقوى البغى والعدوان ، المتربصة بالإيمان وبالمؤمنين .

وقوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » بيان آخر للحكمة من هذا الابتلاء الذى ابتلى الله به المؤمنين ، فى قتال الكافرين ، وهو أن هذا الابتلاء هو الذى يكشف عن إيمان المؤمنين ، وصبرهم على المكروه ، واحتمالهم الأذى فى سبيل الله ، وذلك هو الذى يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل لكل مكانه عند الله . . فالجنة للمجاهدين الصابرين .. والنار للمشركين المعاندين .

وقوله تعالى : « ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » .

هو عتاب رقيق للمؤمنين الذين شهدوا القتال فى أحد ، ثم تحوّل بعضهم عن موقف الموت ، إلى حيث السلامة وجمع الغنائم ، بعد أن لاحت بوارق النصر للمؤمنين : كما أن كثيراً منهم ترك القتال بعد أن بانت الهزيمة فى جانب المسلمين . .

فلقد كان كثير من المسلمين الذين شهدوا أحداً ، ولم يكونوا قد شهدوا بدراً — كانوا يأسفون على أن فاتهم حظُّهم من الجهاد فى معركة بدر، وتعرضهم للاستشهاد فى سبيل الله .. فخرجوا إلى أحد على نية الاستشهاد .. فلمّا كان من هؤلاء وهؤلاء ، ما كان فى أحد ، من إقبال على الغنائم ، أو فرار من المعركة — كان هذا العتاب الرقيق من الله سبحانه وتعالى لهم ، ليذكّرهم بأنهم قالوا ولم يفعلوا ، وهذا موقف لا يرضاه الله لهم ، إذ يقول سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبرُ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » (٢ ـ ٣ :الصف)

وفى قوله تعالى : « فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » تأسيف وتنديم ، لأولئك الذين فاتهم الاستشهاد فى « أحد » وأنهم قد ضنوا بأنفسهم عن هذا المقام الكريم ، حتى لقد اكتفوا بأن يروا الموت فى غيرهم وهم ينظرون إليه من بعيد !

الآيتان : (١٤٤ ـ ١٤٥)

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّاكِرِينَ » (١٤٥)

التفسير : حين مال المشركون على المسلمين يوم أحد ، وأخذوهم بسيوفهم وسهامهم ، وسقط شهداؤهم الذين كانوا إلى جوار رسول الله ـ تنادى المشركون أن محمداً قتل ! !

وكان لهذا الخبر الكاذب وقعه على المسلمين، فاضطربت لذلك صفوفهم، ووقع كثير منهم تحت وطأة الحزن والكمد، فهام على وجهه يطلب الفِرار من وجه هذا الهول الصاعق .. إذ كانوا — وهم يعلمون أن محمداً ميت وأنهم ميتون — غير مستعدّين، نفسياً، وهم فى معمعة المعركة، ووجودهم كله مستغرق فيها ـ كانوا غير مستعدين أن يتلقوا هذه الصدمة المزلزلة، وأن يصدقوها، وإن كانت حقًّا، لا يمترون فيه ولا يشكّون!

فكان عتاب الله لهم على ما كان منهم فى هذا الموقف، عتاباً رقيقاً، يحمل فى طياته الرحمة والمغفرة . . فما لقيهم الله بالعتاب إلا بعد أن ردّهم إلى الحق الذى عرفوه وآمنوا به، وإن كان قد غاب عنهم، أو ذُهلوا عنه فى هذا الموقف الرهيب!

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . . وما الرُّسل إلا ناس من الناس، وبشر من البشر . . يموتون كما يموت سائر الناس، وقد مات الرسل جميعاً، ولا بد أن يموت محمّد .

« أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » . .

فكيف إذا مات محمد أو قتل تتحولون عن مواقفكم، وتنقلبون على أعقابكم تاركين ما دعاكم إليه، وأقامكم عليه من الجهاد فى سبيل الله؟ إن ذلك غير مستقيم مع منطق أبدًا!!

« ومن ينقلبْ على عقبيه فلن يَضُرَّ اللهَ شيئاً » فهذا حكم الله . . إن من ينقلب على عقبيه فيكفر بالله بعد إيمانه، أو ينكص عن الجهاد بعد موت النبى، فلن يضر الله شيئاً . . إن الله غنى عن العالمين .

والعدول بالخطاب من الحضور إلى الغيبة، وصرفه عن الماضى إلى المستقبل ـ فيه ما فيه من لطف الله، ورحمته وإحسانه، بل ورضاه عن المسلمين الذين شهدوا أحداً، وشمولهم جميعًا بهذا الصفح الجميل، والرضوان العظيم . .

وفى قوله تعالى : « وسيجزى الله الشاكرين » لطف فوق هذا للطف ، ورحمة فوق هذه الرحمة ، وإحسان فوق هذا الإحسان ! !

فالمسلمون الذين شهدوا أُحداً ، قد تلقوا ألطاف الله هذه ، بالشكر العظيم ، وهم إذ يشكرون الله على رحمته بهم وفضله عليهم مجزيّون جزاء الشاكرين . «فالشاكرون» هنا ـ وإن صح إطلاقها على كل شاكر ـ متجهة أولاً وقبل كلّ شيء إلى هؤلاء الذين انتظمهم جيش رسول الله ، فى معركة أحد !

ثم كان قوله تعالى : « وما كان لنفسٍ أن تموتَ إلا بِإذْنِ اللهِ كِتابًا مُؤَجَّلًا » عزاءً جميلاً للمسلمين ، وتسرية عنهم لما أصيبوا به فى أُحد . فهؤلاء الذين استُشْهِدوا فى سبيل الله قد ظفروا بالشهادة ، دون أن ينقص ذلك من أجلهم ساعة واحدة . . فما تموت نفس على أى وجه من وجوه الموت ، دون أن تستوفىَ أجَلَها المقدور لها « لِكلِّ أجَلٍ كتابٌ » (٣٨ : الرعد) . . « لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إذَا جاَءَ أَجَلُهمْ فلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُون » (٤٩ : النحل) فمن أراد ثواب الدنيا واستيفاء حظه منها ، ففرّ بنفسه عن مواطن الابتلاء ، فله ما أراد ، دون أن يزيد ذلك من عمره شيئاً .. ومن أراد ثواب الآخرة ، مجاهداً فى سبيل الله ، يستقبل الموت ولا يستدبره ، فله ما أراد ، ولن ينقص ذلك من أجله شيئاً ! !

وفى قوله تعالى : « وسنجزى الشاكرين » إشارة إلى المؤمنين الذين عرفوا هذه الحقيقة واستيقنوها ، فشكروا الله على ما أقامهم به على طريق الجهاد ، ونَظَمَهم فى صفوف الشهداء ، ووفاهم أجرَهم ، دون أن يستقضيهم ذلك ساعةً واحدة من آجالهم التى حرص عليها غيرهم ، ممن نكص عن الجهاد ، وارتدّ على عقبه ، فراراً من الموت ، الذى هو طالبه حين يستوفى أجلَه .

الآيات : (١٤٦ ـ ١٤٨)

« وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » (١٤٨)

التفسير : فى الآيات السابقة كان من الله ، هذا العِتَابُ الرفيق ، الذى يحمل الإعتابَ والرضا ، ويسوق الإحسان والرحمة ، ويبعث فى صدور المسلمين دفء الأمل بالنصر للإسلام ، والإعزاز للمسلمين ، فيجدون فى هذا كلّه العزاء الجميل لما أصابهم من جراح ، فى أجسامهم ، ولِما وقع فى نفوسهم من مرارة الهزيمة ، وعلوّ يد الكافرين عليهم فى هذه المعركة ، معركة أحد . .

وهنا ، فى قوله تعالى « وكأيّن من نبيٍّ قاتَلَ ربّيون كثير » صورة أخرى من صور العزاء والتّسرية عن المسلمين ، بما تحمل إليهم كلمات الله من مواقف الإيمان والصّبر ، للمؤمنين فى الأمم التى خلت ، ممن صدّق الرسل وجاهد فى سبيل الله .

والربِّيون : جمع رِبِّىّ ، وهو من آمن بالله ، وأضاف نفسه إلى ربّه ، متوكلاً عليه ، مستقيما على صراطه .

فكثير من هؤلاء المؤمنين من أتباع الرسل ، كانوا مع الأنبياء مجاهدين فى سبيل الله ، لم يَهِنُوا ولم يضعفُوا ، مهما نزل بهم من شدائد أو وقع عليهم

من بلاء . وهؤلاء هم ممّن يحبّهم الله و يُوسِع لهم فى منازل رضوانه ورحمته : « والله يحب الصابرين »

وفى قوله تعالى : « وما كان قَوْلَهم إلاَّ أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافَنَا فى أمْرِنا وثبّت أقدامَنا وانصرنا على القوم الكافرين » إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه موقف المجاهدين الصابرين ، حين يكربُهم الكربُ ، ويشتدّ بهم البلاء . . لا يذكرون غير الله ، ولا يلتفتون إلا إليه ، طالبين عفوه ومغفرته ، وتثبيتَ أقدامهم فى موطن الجهاد ، حتى لا تَنزِع بهم نفوسُهم إلى أن يولوا الأدبار ، وأن يطلبوا السلامة والنجاة .

وفى طلبهم أن يغفر الله لهم ذنوبهم ، وإسرافَهم فى أمرهم ـ أى خروجهم عن سواء السبيل فى بعض أحوالهم — فى طلبهم هذا ، وفى جعله مفتتح دعائهم، اعتراف ضمنىّ بأن شيئاً ما دخل على إيمانهم ، فأدخل الوهن والضعف عليهم — وإن لم يهنوا ولم يضعفوا — وباعد بينهم وبين النصر المرجوّ على عدوهم .. فهم فى هذا الدعاء يضرعون إلى الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يتجاوز عن سيئاتهم، فإذا استجاب الله لهم ذلك ، طهُرت نفوسهم ، واستقامت طريقهم إلى الله ، واشتد قربهم منه ، وكان لهم أن يطلبوا إلى الله أن يثبت أقدامهم ، وأن يمسك بهم على هذا الطريق الذى استقاموا عليه ..

وهذه الحال التى تنكشف عن موقف المؤمنين من أتباع الرسل تُلقِى على المؤمنين الذين شهدوا أحداً ظلالاً من الاتهام ، واللّوم ، والعتاب ، لما وقع فى نفوس بعضهم ، وما جرى على ألسنة بعض آخر .. من وساوس الشك والريبة .. فقال قائل : « أنّىٰ هذا ؟ » (١٦٥ : آل عمران) وقال آخرون : « لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا ها هنا » (١٥٤ : آل عمران) .. لقد نظر هؤلاء وأولئك إلى غير ما كان ينبغى أن ينظروا إليه .. لقد نظروا إلى غيرهم ، وألقوا باللائمة

عليه .. ولم ينظروا إلى أنفسهم ليبحثوا عما وقع فيها من خَلَل، كما كان يفعل المؤمنين قبلهم من أتباع الرسل ، حين تنزل بهم الشدائد ، وتتوالى عليهم المحن.

وفى قوله تعالى : « فآتاهم ثوابَ الدنيا وحسنَ ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » مشهد كريم ، يُعرض على أنظار المسلمين ، لمن آمن بالله واستقام على طريقة ، حتى إذا استشعر أن يد الله قد تراخت عنه ، اتّهم نفسه ، وأيقن أن خللاً وقع فى صلته بالله ، فبادر فأصلحه ، وصالح الله ،فوجد العفو والمغفرة ، ثم أصاب النصر والظفر . .

وهؤلاء المؤمنون الذين جاهدوا مع رسل الله ، وكان شأنهم عند اشتداد المحن ، وقسوة البلاء ، العودةَ إلى الله بإصلاح أنفسهم — هؤلاء قد أعزّهم الله فى الدنيا ، فكتب لهم النصر على عدوهم ، وأجزل لهم المثوبة والرضوان فى الآخرة ، لما كان منهم من صبر على البلاء ، وثبات فى وجه الموت .

الآيات : (١٤٩ ـ ١٥٠ ـ ١٥١)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (١٤٩) بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ » (١٥١)

التفسير : وفى هذه الآيات يُرِى اللهُ المؤمنين موقفهم من الكافرين ، فيحذّرهم من أن يستمعوا إلى ما يتخرّصون به ، وما يُلقون إلى أسماع الناس من تعليقات خبيثة على معركة أحد ، وما أصاب المسلمين فيها . . فإن الاستماع إلى هذه المقولات ، والاطمئنان إلى قائليها يُوهن إيمانَ المؤمنين ، ويفسد عليهم

أمرهم ، فلا يَلقَوْن إلا الخذلان والخسران !

ثم إذا استجاب المسلمون إلى ما دعاهم الله إليه من تجنب الكافرين والحذر منهم .. لفتهم الله سبحانه إليه ، ودعاهم إلى الاعتصام به ، والاعتزاز بالاعتماد عليه والثقة فى نصره : « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » .

وفى قوله تعالى : « بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » دعوة من الله إلى المؤمنين أن يلوذوا به ، فإنه سبحانه لم يؤاخذهم بما كسبوا ، ولم يبعدهم عن حظيرة محبّته ورضوانه ، فهو مولاهم ، وهو الذى يثبّت أقدامهم ، ويمنحهم النصر على عدوهم « والله خير الناصرين » .

أما هؤلاء المشركون ، الذين خُيل إليهم أنهم كسبوا المعركة، وفرغوا من أمر الإسلام والمسلمين — فإن لهم يوماً تتنكس فيه راية الشرك إلى الأبد ، فيذلّ المشركون فى هذه الدنيا ، والنار مثوًى لهم يوم يقوم الناس لرب العالمين ..

فهؤلاء المشركون ، سيملأ الله قلوبهم رعباً ، بما حملوا من شرك ، وبما عبدوا من ضلالات .. إذ أن الشرك يقتل فى صاحبه كل معانى الإنسانية ، ويقيمه فى هذه الدنيا مقاماً قلقاً مضطرباً ، لايجد ما يستند إليه عند الشدائد والمحن .

وما ظنّك بإنسان — إذا كرَبه الكَرْبُ ، ونزلت به النوازل — فزع الى حَجرٍ يعبده ؟ أو إلى حيوان يسجد بين يديه ؟

وأين هذا ممن يمدّ يدَه إلى مالك الملك ، ويفزع إلى من بيده ملكوت السموات والأرض ؟

وشتّان بين هذا وذاك .. فالمشرك يدعو من لايملك ضَرًّا ولا نفعاً ،

ويهتف بمن لا يستجيب له إلى يوم القيامة .. أما المؤمن فيدعو ربّ الأرباب ، ومدبرّ الأكوان ، والآخذ بناصية كل كائن ، والقائم على كل موجود .

الآية : (١٥٢)

« وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ » (١٥٢)

التفسير : فى أولى الآيات التى استفتح الله بها ذِكْرَ تلك المعركة — معركة أحد — جاء قوله تعالى : « بلى إن تصبروا وتتقوا وَيأتوكُمْ من فورهم هذا يُمْدِدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » .. وكان هذا وعداً من الله المؤمنين بالمدد العلوىّ، الذى يحمل معه النصر لهم . وقد جاء هذا الوعد مشروطاً وأنه لن يحققه الله لهم إلا إذا وَفّوا بهذا الشرط، وهو أن يصبروا ويتقوا ..

وقد صبر المسلمون فى أول القتال ، وأعطوا أنفسهم كلها للمعركة .. فصدقهم الله وعده ، وأراهم بشائر النصر .. فإنه منذ الساعات الأولى من القتال استولى المسلمون على زمام المعركة ، وبدأت طلائع بدر تطل عليهم ، فقتلوا مقتلة عظيمة فى المشركين ، وأدخلوا فى صفوفهم الخلل والاضطراب ، حتى همّوا بالهزيمة والفرار ، وأخلوْا أيديهم مما معهم من متاع .. وإذ ذاك امتدت أبصار كثير من المسلمين إلى هذا المتاع الذى تخلّى عنه أهله ، وكان الأولى بهم أن يلتفتوا إلى رءوس المشركين أولا ، فيزيلوها عن مكانها ، فهذا هو الأمر الذى ندبهم الله له ، وانتظموا فى سبيل المجاهدين من أجله !!

وإذن فقد تخلّى المسلمون عن الشرط الذى اشترطه الله عليهم ليمنحهم نصره .. فكان أن تخلّى عنهم النصر، واستقبلتهم الهزيمة .. ! !

وفى قوله تعالى : « إذ تحسّونَهم بإذنه » إشارة إلى مافعل المسلمون بالمشركين أولَ الأمر ، وأنهم حصدوهم حصداً .. فالحسُّ معناه : القتل الذّريع الكثير ..

وقوله تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعَصَيتم من بعدما أراكم ماتحبّون » يشير إلى ما كان من جماعة الرُّماة التى جعلها الرسول الكريم من وراء جيش المسلمين ، تحمى ظهورهم من أن يأخذهم كمين من العدو على غرّة ، وقد وصّى النبىّ هؤلاء الرماة أن يلزموا أماكنهم ، وألا يتحولوا عنها بحال أبداً ، سَواء انتصر المسلمون أو انهزموا .

ولكن الذى كان من الرماة غيرَ هذا .. فإنهم ما كادوا يرون الهزيمة فى المشركين ، ويرون الأسلاب والغنائم وقد تخلّى عنها أصحابها ، حتى قال قائل منهم : ماموقفنا هنا ، وقد ولّى المشركون وانهزموا ؟ وقال آخرون : إن الرسول لم يُلزمنا أن نكون حيث نحن إلا لنحمى ظهر المسلمين من العدو .. فأين هذا العدوّ ؟ وقال رئيس الجماعة ، وهو عبد الله بن جبير : « ياقوم . . الزموا أماكنكم كما أمرنا رسول الله ، ولا تتحولوا عنها .. » فأبى عليه كثيرون ، وتركوه فى نفر من أصحابه .. وماهى إلا لحظات حتى رأى خالد بن الوليد ، ـ وكان على فرسان المشركين ـ رأى موقف الرماة يكاد يكون خِلواً فاستدار إليهم بمن معه من فرسان ، فاستقبله عبد الله بن جبير ، ومن معه ، مقاتلين ، حتى استُشهدوا جميعاً ، رحمهم الله .

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « حتى إذا فشلتم وتنازعتمْ فى الأمر وعَصَيتُم من بعد ما أراكم ماتحبّون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريدُ الآخرة » .

وفى قوله تعالى : « ثُمَّ صَرفكم عَنْهُم ليبتليكم » إشارة إلى أن تحوّل المعركة من جانب المسلمين إلى المشركين كان عن حكمة أرادها الله ، وهى أن يبتلىَ المؤمنين بهذا البلاء ، وأن يضعهم أمام تجربة يواجهون فيها الشدائد والمحن ، ليروْا ماعندهم من صبر واحتمال ، وليسدّوا الخلل الذى يجدونه فى أنفسهم ، استعداداً للمعارك المقبلة بينهم وبين المشركين .

وفى قوله تعالى : « ولقد عفا عنكم » إشارة أخرى إلى أن ما كان من المسلمين من تحول عن القتال ، وانصراف إلى الغنائم ، وإن كان مما كسبته أيديهم — قد عفا الله عنه ، وتجاوز عن مقترفيه ، لأنهم كانوا مقهورين تحت إرادة غالبة لله ، فى هذا الذى كان منهم ، ليكون لهم فيه درس نافع فى لقاء المشركين بعد هذا . . وفى توكيد فعل العفو باللام الموطئة للقسم ، وبحرف التحقيق قد — « ولقد » — إظهار لسعة رحمة الله ، وتمام فضله على عباده ، المجاهدين فى سبيله « والله ذو فضلٍ على المؤمنين » يغفر لهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويعيدهم إليه إذا بَعُدَت الطريق بهم عنه .

الآيتان : (١٥٣ ـ ١٥٤)

« إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ

ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ
مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ » (١٥٤)

التفسير : فى قوله تعالى: «إذ تُصْعِدون ولا تَلْوُون على أحد» تذكير للمسلمين عما كان منهم فى هذه المعركة ـ معركة أحد ـ وغمزة عتاب لهم على أن فرّوا صاعدين الجبل ، لا يلوون على أحد ، أى غير ملتفتين إلى مَن وراءهم .. وإن وراءهم إخوانا لهم صمدوا للمشركين ، واستقبلوا الموت راضين .. بل وراءهم ، نبيّهم يواجه العدوّ وحده فى بضعة رجال من أصحابه .. فكيف يفرّون ؟ ثم إذا كانت منهم فرّة أفلا كانت منهم لفتة إلى النبىّ وقد أحاط العدوّ به ؟ ثم ألا كانت منهم كَرّة إلى العدوّ ، يدفعون يده الضاغطة على رسول الله ومن معه ؟ وهل شىء أحبّ إلى المسلم وأعزّ عنده من النبىّ .. ولو كانت نفسه التى بين جنبيه ؟ إن ذلك خيانة للنفس ذاتها ، وتضييع لها ، بسلبها هذا الشرف العظيم ، شرف الدفاع عن رسول الله ، والموت فى موطن الدفاع عنه !

وفى قوله تعالى : « والرسولُ يَدْعوكم فِى أُخراكم » مواجهة صريحة للمسلمين الذين فرّوا صاعدين فى الجبل ، وأنهم أمعنوا فى الفرار ، وبعدوا عن ميدان المعركة .. حتى لا يكاد صوت الرسول يبلغ مؤخرتهم وهو يهتف بهم : إلىَّ عباد الله ! !

وقوله تعالى : « فَأَثابَكُمْ غمًّا بغمٍّ لِكيلا تأسَوْا عَلَى ما فاتكم ولا ما أصابكم » .

الإثابة من الثواب ، وهو الجزاء على عمل الإحسان بالإحسان !

وفى التعبير بالإثابة عن الغمّ بالغمّ ، إثارة لمشاعر الندم عند هؤلاء المسلمين

الذين فرّوا ، لِمَا فاتهم من الثواب العظيم الذى كان لهم أن يحصلوا عليه فى هذا الموطن ، لو أنهم صبروا ، وثبتوا .

و نعم إنهم أثيبوا . . ولـكن لا يكادون يمدون أيديهم إلى هذا الثواب حتى يجدوه غمًّا ! !

فأى ثواب هذا ؟ إن ذلك هو مايمكن أن يُجازَوْا عليه إن كان لهم أنهم يطلبوا مثوبة على ما كان منهم ! !

والغم الذى جُوزوا عليه بغم . . هو ما كان فى فرارهم الذى رآه النبىّ فاغتمّ له ..

وأما الغم الذى كان جزاء لهم .. فهو ماوقع فى نفوسهم من حسرة وألم ، حين انـكشف لهم موقفهم ، وعاينوا الآثار السيئة التى نجمت عن فَعلتهم تلك ، والتى نفذ منها المشركون إلى المسلمين ، وأوقعوا الهزيمة بهم .

وهذه الحسرة التى ملأت قلوبهم ، وذلك الألم الذى استولى على كيانهم ، قد غطّيا على كلّ ما أصيبوا به فى هذا الموطن .. فلم يبالوا بعد هذا بالغنائم التى أفلتت من أيديهم ، ولم يهتمّوا لمـا أُصيبوا به فى أنفسهم ، وفى إخوانهم ، بعد أن استجابوا الرسول ، وأقبلوا إليه ، يقاتلون معه ، ويتلقون عنه ، سهام المشركين ، وسيوفهم .

ولقد كان هذا الغمّ الذّى وجدوه فى أنفسهم حاجزاً تتحطم عنده كل واردات الهمّ والحزن لما فاتهم ، ولما أصابهم .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « لـكيلا تأسَوْا على مافاتـكم ولا ما أصابكم » .. وفى هذا رحمة بهم ، وفضل من الله عليهم .. بل هو ثواب فى مقـام العقاب ، وجزاء حسن فى معرض الحساب والمؤاخذة !

وهكذا يَلْقَى الله عبادَه وأولياءه فى كل موطن . . يلقاهم بالخير دائماً ، وبالفضل والإحسان فى كل متَّجه ، حتى ولو كانوا على غير مايحبّ الله منهم . . فإنه إذ ًاك يعاقبهم ، ولكنه عقاب كلّه رحمة ، وكلّه خير ، إذ يعالج هموماً ، ويدفع آلاماً .

وأكثر من هذا . .

فإن هذا الغمّ الذى « أثاب » الله به أولئك المؤمنين يومئذٍ ، لم يكن إلا دواءً ، وفى الدواء مرارة . . شأن كل دواء . .

ومع هذا ، فإن رحمة الله بهم لم تدعْ هذه المرارة تسكن فى نفوسهم ، وتستقر فى كيانهم . . فما هى إلا أن يفعل الدواء فعله فى تسكين الداء ، وفى الذهاب به ، حتى تجيء رحمة الله فتنتزع تلك المرارة وتذهب بها . . وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« ثم أَنزلَ عليكم من بعد الغمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشى طائفةً مِنْكم » فقد ألقى الله على المسلمين وهم فى ذروة المعركة خَفْقَةً من نُعاسٍ ، مرّت بهم مرور النسمة العليلة ، فملأت قلوبهم سكينة وأمناً ، ومسحت على أجسامهم بيد السلامة والعافية ! !

وعجبٌ أن يطوف النعاسُ بجفن المحارب ، والرّماح تنوشه ، والسّهام والسيوف تتعاوره . . ولكنه القلب حين يستخفّ بالموت ، والإيمان حين يرتفع بالإنسان فوق هذا التراب الذى تدبّ فوقه قدماه ، فإذا هو محلّق فى السماء ، يعلو فوق كل خطر ، ويسمو فوق كل شِدّة ! !

والطائفة التى تشير إليها الآية الكريمة ، والتى أفرغ الله فى قلوبها هذا الأمن ، وساق إليها تلك الخفقة من النعاس ، هى الطائفة التى ثبتت مع النبىّ ،

سواء من كان منها الذى ثبت طوال المعركة كلها ، أو من انهزم أو فرّ ، ثم عاد إلى مكانه من القتال . .

وهناك طائفة أخرى ، ممن كانوا مع المسلمين أول الأمر ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، فإنهم حين أوشك القتال أن يلتحم بين المسلمين وبين المشركين ، انحاز بهم صاحبهم جانباً ، متذرّعين بتلك الكلمة المنافقة ، التى حكاها القرآن الكريم عنهم . فى قوله تعالى : « لو نَعْلَمُ قِتَالا لاتبعناكم » (١٦٦ : آل عمران) وهم يعلمون يقيناً أن القتال وشيك بين المسلمين وبين المشركين . ولكنهم لكى يجدوا لأنفسهم عذراً فى النكوص على أعقابهم قالوا تلك القولة الكاذبة التى حكاها القرآن عنهم . .

هذه الطائفة لم يكن لها من هذا الأمن الذى سكبه الله فى قلوب المؤمنين ، نصيب ، وهى التى أشار الله سبحانه وتعالى إليها بقوله :

« وطَائفةٌ قد أهَمّتهمْ أنفسُهم يظنُون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمرَ كلّه لله يُخفون فى أنفسِهم مالا يبدونَ لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىءٌ ما قُتلنا هاهنا » .

فهذه الطائفة ، طائفة ابن سلول ، قد أهمتهم أنفسهم ، ولم يكن همُّهم الإسلام ، ولا الدفاع عنه . . بل طلبوا السلامة لأنفسهم أولاً ، فتجنبوا المعركة ، ووقفوا بعيداً ينتظرون من تدور الدائرة عليه ، من الفئتين المقاتلتين .

وفى قوله تعالى : « يظنُّون باللهِ غيرَ الحقِّ ظنّ الجاهلية » اتهام لهؤلاء الذين أهمّتهم أنفسهم ، ومواجهة لهم بالجرم الذى ارتكبوه . . إنهم يظنون بالله ظنّ السَّوْءِ ، فيكذّبون بما وعدهم الله به ، وينظرون إلى الله تلك النظرة الباردة التى كانوا ينظرون بها إلى آلهتهم من الأصنام التى كانوا يعبدونها ، فيجعلون حساب الله عندهم كحساب هذه الأصنام ، حتى لكأن الإسلام لم

يغيّر من حالهم فى جاهليتهم شيئاً . .

وفى قوله تعالى : « يقولون هل لنا من الأمر من شىء » كشفٌ لبعض ظنونهم السيئة بالله . . فهم يسألون فى استبعاد واتهام · « هل لنا من الأمر شىء ؟ » . . والأمر الذى يسألون أو يتساءلون عنه هو أمر النصر والغَلب الذى وعد الله به النبىّ والمؤمنين . . وقد أمر الله الرسول أن يجيبهم بقوله تعالى :« قل إن الأمر كلّه لله » . . فلو كانوا مؤمنين بالله حقًّا لما سألوا هذا السؤال ، ولعلموا أن كل شىء بيد الله ، ولِيد الله . . ولـكَان عليهم أن يستقيموا على مادعاهم الله إليه من الجهاد ، معتصمين بالصبر والتقوى . . ثم ليستقبلوا مايكون بعد ذلك من نصر أو هزيمة ، فإن كان النصر ، حمدوا الله وشـكروا له ، وإن كانت الهزيمة أسلموا أمرهم لله ، وصبروا على ما أصابهم . . وقالوا قولةَ المؤمنين عند لقاء الأمور على وجوهها المختلفة : « كلٌّ من عند الله » (٧٨ : النساء)

وقوله تعالى : « يقولون فى أنفسهم مالايبدون لك » يكشف للنبىّ عن دخيلة هؤلاء الضعاف الإيمان ، وأنهم يقولون فى أنفسهم ، أى فيما بين المرء ونفسه ،أو فيما بين بعضهم وبعض ـ يقولون شيئاً غير هذا الذى واجهوا به النبى والمسلمين فى قولهم : « هل لنا من الأمر شىء ؟ » فهذا السؤال على مافيه خبث ، وضعف إيمان ، يمـكن أن يُقبل منهم ، ويُحمل على الجهل وسوء الظن بالله . .

ولـكن الذى يدور فى أنفسهم ، ويجرى فيما بينهم ، هو اتهام صريح لله ، وتجديف عليه ، يكاد يكون رِدَّةً عن الإسلام . . وهذا مافضحه الله منهم وأعلنه على العالمين ، فى قوله سبحانه :

« يقولون لو كان من الأمر شىءٌ ماقُتلنا هَا هُنا » .

إنهم — هنا — يقولونها صريحة ، بأن ماوعدهم الله لم يكن إلا غروراً .

وأنه لو كان هذا الوعد حقًّا ، لما كانت هذه الدائرة التى دارت على المسلمين ، وذهبت بكثير من النفوس .

وفى قولهم : « ماقُتلنا هاهنا » بإضافة القتل إليهم ، مع أنهم لم يقتلوا ، بل ولم يقاتلوا — فى هذا القول مايكشف عن مدى إيمانهم بهذا القول المنكر ، وأنه هو القول الذى كان ينبغى أن يكون لسان حال المسلمين جميعاً ، حسب تصورهم وتقديرهم .

وقد رَدّ الله عليهم بقوله : « قلْ لو كُنتمْ فى بيوتِكم لَبرَزَ الذين كُتِبَ عليهم الْقَتلُ إلى مضاجعهم » أى أن هذا القتل الذى وقع فى المسلمين لم يكن يعصمهم منه عاصم ، فما هو إلا أجل قد انقضى ، وموت أنهى هذا الأجل عند انقضائه ، على الصورة التى قضى الله أن ينتهىَ به عليها . .

فهؤلاء الذين استُشهدوا فى أحد ، قد كتب الله عليهم أن يُقتلوا فى هذا الوقت ، وفى هذا المكان ، وأن يُكرَموا بالشهادة . . وليس فى الوجود قوة تمنع قضاء الله أن ينفذ على الوجه الذى أراده ، وقضى به . .

وقوله تعالى : « وليبتَلِىَ الله مافى صُدوركم وليمحص مافى قلوبكم » معطوف على مفهوم من قوله تعالى : « لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كُتبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم » .. أى لو لزمتم بيوتكم ، وأصررتم على التزامها ، لدعا قضاء الله الذى قضاه على هؤلاء الذين قُتلوا ، أن يخرجوا إلى حيث التقوا بالعدوّ ، وإلى حيث دارت المعركة ، وسقط القتلى ، فذلك أمر قضى الله به فيمن أراد قتله ، وليبتلى مافى قلوبكم أيها المجدّفون على الله ، من ضعف ، وليخرج مافى صدوركم من نفاق . . فلولا هذه المحنة وما كان فيها ، لَمّا ظهر ضعف إيمانكم ، ولَما استعان نفاقكم للمؤمنين . . وهذا بعض حكمة الابتلاء الذى يبتلى الله به المؤمنين ، فيما فرضه عليهم من جهاد الكافرين والمنافقين !

وفى قوله تعالى . « والله عليم بذات الصدور » بيان لسعة علم الله ، ونفوذه إلى كل خفىّ . . فعلم ـ سبحانه ـ لا يقف عند ظواهر الأشياء ، ولكنه ينفذ إلى كل ذرة من ذراتها ، وإلى كل دقيقة من دقائقها .

وذات الشيء : حقيقته . وكنهه ، وما اشتمل عليه من أسرار وخفايا ، وذات الصدور ، حقيقتها ، وما تلبّس بها من خفايا وأسرار . . فالصدور وما تُكِنّ ، والضمائر وما تُجنّ ، يعلم منها الله مالا يعلم صاحبها . . فسبحانه، سبحانه ، وسع كل شيء علماً ! !

الآيات : (١٥٥ ـ ١٥٨)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٥٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ » (١٥٨)

التفسير : هنا يلتفت الله سبحانه إلى المؤمنين ، بعد أن كشف لهم عن موقف المنافقين ، الذين يعيشون معهم بهذا الثوب الرقيق الذى يلبسونه من نسيج الإسلام !

وفى هذه اللفتة يُرى اللهُ المسلمين جماعةً منهم ضَعُفوا عند لقاء العدو ، فتحول بعضهم عن مكانه إلى حيث السَّلب والغنائم ، وانهزم بعضهم وفرّ

مصمّداً فى الجبل . . فهؤلاء جميعاً كانوا موضع لوم وعتبٍ بين جماعة المسلمين الذين ثبتوا للعدو ، وصمدوا لضرباته . . وقد كثر القول فيهم ، وتضاربت الآراء فى إيمانهم ! وتلك حالٌ جديرٌ بها أن تمزّق وحدة المسلمين، وأن تفُتّ فى عضدهم ، بل وأن تذهب ببعض نفوسهم همّاً وكمداً .

وتجىء رحمة الله ، فتَهَبُ هؤلاء الملومين عفواً ومغفرةً . وتنقلهم من هذه العزلة الباردة القاتلة ، إلى حيث دفء الطمأنينة ، ورَوْح السلامة والعافية . . وهذا مايشير إليه قوله سبحانه : « إن الذين تَوَلَّوْا منكم يومَ التقىَ الجمعان إنما استَزَلَّهُمُ الشيطانُ ببعض ما كسَبُوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » .

فهؤلاء الذين تولوا يوم القتال، إنما كان ذلك منهم لِماَ مكّنوا للشيطان من أنفسهم ، ببعض ما كسبوا من سيئاتٍ !

وهذا يعنى أن المؤمن الحريصَ على إيمانه ، الحارسَ له من نزعات الهوى ، هو فى حِصْن حصين من أن ينفذ الشيطان إليه ، ويوسوس له ، ويستولى على زمام أمره . . ، إن المعاصى التى يرتكبها المؤمن ، هى قذائف مدمرة ، تدك حصون إيمانه ، فيجد الشيطان طريقه إليه ، ثم يرميه الرمية القاتلة .

وفى قوله تعالى : « ولقد عفا الله عنهم » إعلان كريم ، من رب كريم ، بالصلح الجميل ، والمغفرة الواسعة ، التى تصحح إيمان المؤمن، وتعيد بناءه أقوى قوة ، وأشدّ صلابة !

وفى قوله سبحانه : « إن الله غفور حليم » إعلان آخر عن سعة رحمة الله ومغفرته ، وأنها تسع العصاة كما تسع الطائعين . . فحلمه يستدعى مغفرته أن تغفر للمذنبين ، ولا تأخذهم بما اقترفوا ، حتى يُعذَروا بهذا الصفح وتلك المغفرة، مرة ، ومرات . .

ونجد فيما كان من رحمة الله ومغفرته لهؤلاء الذين استزلّهم الشيطان —

نجد فى هذا ، كيف كان علم الله بما فى الإنسان من ضعف ، وأنه فى معرض الخطأ والزلل ، وذلك مما يقيم له عذره عند الله ، فيمنحه عفوه ومغفرته ، فإن هفا هفوة ، أو زلّ زلة ، أقال الله عثرته ، وأنهضه من كبوته ، وأعاده إلى حظيرة الإسلام ، ولو تركه لشرد وضلّ ، وهلك . .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كَفَروا وقالوا لإخوانِهِمْ إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » .

دعوة للمؤمنين أن يتجنبوا وساوس الكافرين الذين لا يؤمنون بقضاء الله ، ولا يستسلمون لقَدَره . . فإذا مات لهم ميت أو قتل لهم قتيل ، وهو يجاهد فى سبيل الله ـ قالوا هذا القول المنكر ، الذى حكاه القرآن عنهم : « لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا » . . وهذا ضلال فى الرأى ، وكفر بالله ، ودفع لقضائه . . فقد مات من مات وقتل من قتل ، حين استوفى كل أجله . . وهذا الضلال فى الرأى ، إنما هو ـ فوق أنه كفر بالله ـ هو مبعث حسرة وندم ، تمتلىء بهما قلوب الكافرين كمداً وألماً أن ذهب إخوانهم فى هذا الوجه ، فكان ذلك سبب موتهم أو قتلهم ، ولو أقاموا معهم ما ماتوا وما قتلوا : « ليجعل الله ذلك حسرةً فى قلوبهم » ولو أنهم عقلوا وآمنوا ، لعلموا أن الموت والحياة بيد الله ، ليس لأحد شأن أو تدبير فيهما : « واللهُ يُحْيِي ويُمِيتُ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » قد أحاط علمه بكل شىء ، ونفذ حكمه فى كل شىء ! وهذا من شأنه أن يدعُو الإنسان إلى التسليم والرضا بالشر والخير ، والضرّ والنفع .

والسؤال هنا : كيف يكون منهم قولٌ لأولئك الذين قُتلوا أو ماتوا ؟ وكيف يَسْمُون بإخوانهم ، وهؤلاء كافرون وأولئك مؤمنون ؟

وللإجابة عن الشقّ الثانى من السؤال يتكلف النحاة القولَ بأن اللام فى « لإخوانهم » بمعنى « عن » والتقدير على هذا : أنهم قالوا عن إخوانهم الذين قتلوا أو ماتوا هذا القول : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » وبهذا التخريج أخذ المفسرون .

ونحن لا نقبل أن تَخضع كلمات الله لمثل هذا التمحّك الذى يمكن أن يُحمل عليه كل كلام . .

وننظر فنجد القرآن الكريم يُعيد هذا القول مرة أخرى ، على لسان هؤلاء القوم . . فيقول تعالى : « الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا » (٦٨ : آل عمران) فالتزام القرآن لِلاَم التعدية بعد القول فى الموضعين، فيه دلالة على إجراء القول على حقيقته ، وهو أن يتعدى إلى مفعوله باللام ، تقول : قلت له ، وقال لى .

وعلى هذا تكون « اللام » فى قوله تعالى : « الذين قالوا لإخوانهم » ـ فى الموضعين ـ هى لام التعدية ، وأنهم فعلاً قالوا لإخوانهم وتحدّثوا إليهم ! !

ولكن كيف هذا ؟ وهؤلاء أحياء وأولئك أموات ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هؤلاء المنافقين أو الكافرين ، حين لم يؤمنوا بالله ، ولم يستسلموا لحكمه ، ويرضوْا بقضائه ـ قد تلقوْا مصرع من مات منهم فى ميدان القتال ، أو فى طريقه إليه ، قد تلقوْه جَزِعين مذهولين ، كأنهم يستقبلون أمراً لم يكن فى حسابهم أن يقع ، لأنهم ينكرون الموت الذى يكون فى غير البيت ، أو على غير فراش المرض ، ويعدّون مثل هذا الموت خيانةً لهم ممن مات منهم به ، فتشتد حسرتهم ، ويتضاعف ألمهم ، ويخرج بهم ذلك إلى شىء من الهلوسة والخَبَل ، فيندبون موتاهم هؤلاء ، وينادونهم من

قريب نداءآت منكرة محمومة : ألم أقل لك يا فلان لا تذهب إلى القتال ؟ إنك لو أطعتنى لما أصابك سوء . . ألم أحذرك يا فلان عاقبة الأمر الذى انطلقت إليه ؟ إنك لو استمعت إلى نصحى لمَا قطعت حبل حياتك وأنت فى ريعان الصّبا ، وفَتاء الشباب ؟؟

وهكذا يظلون أياماً وليالى ينادون ، ويناجون ، ويندبون موتاهم ، ويستحضرونهم فى تصوراتهم المريضة ، ويرَوْنهم فى مصارعهم تنهشهم السباع وتتخطفهم الطير ، فيزداد حزنهم ، وتشتد حسرتهم : « ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » !

أما الجواب عن الشق الثانى من السؤال ، وهو : كيف يسمّون إخوانهم ، وهؤلاء كافرون وأولئك مؤمنون ـ فنقول ـ والله أعلم :

أولا : أن هؤلاء الكافرين كانوا فى جماعة المؤمنين أولا ، فلما كانت وقعة أحد ، ورأوا ما رأوا مما أصاب المسلمين ، ساء ظنّهم بالله الذى آمنوا به ، ثم بلغ بهم سوء الظن إلى الارتداد عن الإسلام — فتسميتهم إخوانا لهؤلاء المؤمنين تذكير لهم بالدين الذى كانوا عليه ، ودعوة مجدّدة من الله إليهم ليدخلوا فيه ، بعد أن خرجوا منه .

وثانياً : فى هذه التسمية للكافرين بأنهم إخوان لأولئك المؤمنين الذين قُتلوا فى سبيل الله — فضحٌ لهم ، ومواجهة صريحة بالحكم الذى حكم الله به عليهم وهو أنهم كافرون ، وفى هذا مايجعلهم يتعرفون إلى أنفسهم ، ويروْن الهاوية التى سقطوا فيها ، وهم يقولون هذه المقولات المنكرة — وأنهم إذا كان عند أحدهم شك فى أن هذه المقولات التى يقولها لا تدخل به إلى مداخل الكفر ، فليعلم أنه يخدع نفسه ، ويضلّلها . . فما هو بعد هذا من المؤمنين . . فإما أن يتوب ويرجع إلى الله ، وإما أن يمضى فى طريقه ، مع ضلاله وكفره . .

وانظر فى قوله تعالى : «يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزًّى لَوْ كانوا عِنْدنَا ما ماتوا وما قتلوا» .

تجدْ أن الله سبحانه ، قد حكم عليهم أولاً بأنهم كافرون ، ثم أكَّد كفرهم هذا بأنهم كانوا إخواناً لأولئك المؤمنين . . وأنهم منذ قالوا هذا القول ليسوا من الإيمان ولا المؤمنين فى شىء .

وقوله تعالى :

« ولئن قتلتم فى سبيل الله أو مُتُّمْ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون » التفات إلى المؤمنين الذين سيُقتلون أو سيموتون فى سبيل الله ، وأنهم سيلقون مغفرة من الله ورحمة ، وأن هذا الذى يلقونه من مغفرة ورحمة خير مما يجمع هؤلاء الكافرون من مال ومتاع . .

قوله تعالى :

« ولئن مِتُّمْ أو قتلتم لَإلَى الله تُحشرون » . . هو خطاب عام للناس جميعاً . . مؤمنين وكافرين ــ من قتل منهم ومن مات بغير قتل ــ بأنهم سيحشرون إلى الله ، ويقفون بين يديه للحساب ، وسيوفَّى كلٌّ منهم حسابَه عند الله . . إن خيراً فخير ، وإن شراً فشرّ . .

الآية : (١٥٩)

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ ٱللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَا ٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللهِ إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ » (١٥٩)

التفسير : هذه لفتة خاصة من الله سبحانه إلى رسوله الكريم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد أودع قلب نبيّه الرّحمة بالمؤمنين ، ليكون فيهم الأبَ الودود الرحيم ، يَرْعى أبناءه ، ويسدّد خُطاهم ، ويتقبل من محسنهم ، ويعفو عن مسيئهم . . هكذا النبيّ فى مجتمع المسلمين . . إنه أب لهذه الأسرة الكبيرة ، يسعها قلبُه الكبير ، بعطفه ، وحلمه ، ومودته . .

« لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رءوفٌ رحيم » . . على هذا الخلق الكريم صنعه الله وطبعه ، وبهذه الرحمة أرسله رحمةً وهدى للعالمين .

« فبما رحمة من الله » الباء هنا للسببية ، أى بسبب ما أودع الله فيك من رحمة ، كان منك هذا اللّين ، وذلك العطف على المؤمنين . .

« ولو كنت فظًّا غليظ القلب لا نفضّوا من حولك » وفى هذا كشف للطبيعة البشرية ، وأن الناس إنما يألفون من يتألفهم ، ويحسن إليهم ، ويلقاهم بالصفح الجميل..وعلى غير هذا من كان حادّ الطبع،شرس الخلق ، غليظ القلب ، لا يقيلُ عثرة ، ولا يغفر زلة . . إنه لن يجد من الناس إلاّ المقت والنفور . .

وأنه إذا صح لإنسان — وهو غير صحيح — أن يسوِّى حسابه مع الناس على هذا الوجه ، القائم على الغلظة والشدة ، والمنتهى به إلى القطيعة والعزلة — فإنه لا يصح أبداً ، ولا يستقيم بحال ، لمن كان بمكان الرياسة والقيادة لأية جماعة من الجماعات ، كثر عددهم أو قلّ . . فإن الخيط الذى يمسك به كيان الجماعة ويشدّها إليه ، هو ما يفيض عليها من قلبه ، من رحمة ، وحَدْب ، ولين ، ولطف ، وإلاّ تقطعت بينه وبينها الأسباب ، ولو كانوا أبناءه وخاصة أهله !

وفى قوله تعالى :

« فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاورهم فى الأمر » بيان لبعض الأسس التى يقوم عليها منهج التربية ، التى يأخذ بها النبىّ جماعة المؤمنين . .

وأول هذه الأسس : العفوُ عن المسىء . . وفى هذا ما يفتح منافذ قلبه ويصفيه من دواعى الحسرة والألم ، وينزع منه وساوس السوء والشر . .

وثانى هذه الأسس : الاستغفار لهذا المسىء ، وطلب الرحمة والمغفرة له من الله . . وهذا إحسان بعد إحسان . . يزيد قلبَه صفاء ، ونفسه إشراقا ، وولاء .

فإذا استوت جماعة المسلمين على تلك الصورة الكريمة ، فلم يكن فيها مذموم أو مطرود ، ولم ينتظم فى عقدها النظيم معطوب أو مقهور — كانت جميعها قلباً واحداً ، ومشاعر واحدة ، تتحرّى خير الجماعة ، وتنشد أمنها وسلامتها ، وهنا يجىء ثالث الأسس فى مكانه الصحيح : «وشاورهم فى الأمر» فتُعطِى المشورة ثمرتَها الطيبة ، التى هى خلاصة ما فى القلوب من خير ، ومنخول ما فى العقول من رأى . . وهنا يتضح الأمر المنظور إليه ، ولم يبق إلا انعقاد العزم عليه ، وإمضائه على الوجه المرسوم . . وهذا ما أمر الله به فى قوله تعالى : فإذا عزمتَ فتوكلْ على الله إن اللهَ يحبُّ المتوكلين » الذين يعتمدون عليه ، ويفوضون أمرهم إليه ، بعد أن يعطوا هذا الأمر كل ما عندهم من رأى وعزم .

الآية : (١٦٠)

« إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ » (١٦٠)

التفسير : هذا تعقيب على قوله تعالى فى الآية السابقة : « إن الله يحب المتوكلين » ، فالذين يفوّضون أمرهم إلى الله ، ويشدُّون عزائمهم إليه ، ويعلّقون آمالهم به ، هم الذين يحبّهم الله ويتولاهم ، لأنهم أحبّوا الله وانتظموا فى مجتمع أوليائه . . وإنهم إذ يلوذون بحمى الله فإنما يستمسكون بالعروة الوثقى ، ويعتصمون بأقوى معتصَم ، وهم بهذا فى ضمان النصر ، وعلى طريقه ، ولن يغلبهم أحد . . فإن تخلوا عن الله ، ووكلوا أمرهم إلى حَوْلهم وحيلتهم ، فقد آذنوا الله أن يتخلّى عنهم ، وأن يدعهم إلى أنفسهم ، وهذا خذلان مبين ، ومن خذله الله فلا ناصر له . .

وفى قوله تعالى . « وعلى الله فليتوكل المؤمنين » إشارة مشرقة يرى منها المؤمنون طريقهم فى كل أمورهم ، وهى طريق التوكل عليه . « ومن يَتَوَكَّلْ على الله فهو حَسْبُهُ » (٣ : الطلاق) .

الآية : (١٦١)

« وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ » (١٦١)

التفسير : الغَلّ : أخذ الشىء خفية . . يقال : غلّ الشىءَ إغلالاً : إذا أخذه خلسة ، ويقال : أغلّ الجازر إذا سرق من اللحم شيئاً مع الجلد ، والغِلّ : الحقد الكامن فى الصدور ، والغلّ : الخيانة ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « من بعثناه على عمل فغَلّ شيئاً جاء يوم القيامة يحمله على عنقه » . . وقوله صلى الله عليه وسلم : « هدايا الولاة غلُول » .

والذى عليه المفسرون فى هذه الآية أنها نزلت فى قطيفة حمراء اختفت من الغنائم يوم بدر ، فقال بعض المنافقين لعل النبىّ أخذها !

وقيل إنها نزلت فى أحداث أحد ، حيث ترك جماعة الرماة مكانهم الذى أقامهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ، وذلك حين رأوا الهزيمة فى المشركين ، وقد امتدت أيدى بعض المسلمين إلى ما تركوا من متاع وسلاح ، فقال الرماة : لعلّ رسول الله لا يقسم الغنائم بيننا كما فعل فى غنائم بدر ، ويقول كما قال يومها : « من أخذ شيئاً فهو له » فيذهب إخواننا بالغنائم ، وليس لنا منها شىء .. فتركوا مكانهم ، واندفعوا نحو الغنائم ، يأخذون نصيبهم منها ، فكان الذى كان !

والرأى الأول بعيد .. إذا كان قد مضى عام على معركة بدر ، ولو كان لقولة المشركين يومئذ أثر لما تُركت هذه الفِرية تعيش فى الناس عاماً دون أن ينزل قرآن فى تفنيدها ، وتكذيب مفتريها .

والخبر الثانى ضعيف ، ووجه ضعفه أن المسلمين كانوا يعلمون فى أحد حُكمَ الله فيما يقع لأيديهم من مغانم ، حيث كانت سورة الأنفال قد نزلت فى أعقاب بدر ، وفيها قوله تعالى : « واعلموا أنّما غنمتم من شَىْء فأن لله خُمُسَهُ وللرسول ولذى القُرْبَى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. » (٤١ : الأنفال) ..

والرأى عندنا ـ والله أعلم ـ أن الغِلّ هذا من الحقد ، واشتمال النفس على البغضاء للناس .. وهذا ما لا يكون من نبىّ أبداً ، إذ كانت مهمة الأنبياء نزعَ ما فى الصدور من عداوات وأحقاد ، وغسلَ ما فى النفوس مما تنطوى عليه بغضاء وضغينة .. إنهم أساة الإنسانية من هذا الداء — داء الحقد الدفين — الذى إن شاع فى جماعة أكلها كما تأكل النار الحطب ، أو فشا فى أمة قضى عليها ، وحصدها ، كما يحصد الوباء النفوس !

والمناسبة هنا قريبة ، والموقف داعٍ إلى إلفات النبيّ الكريم إلى هذا الداء ، وتحذيره منه .

ففي أحداث أُحد ، وفى أعقابها ، فرغ النّاس من المعركة ، وشُغلوا بالحديث عنها ، والتعليق على مواقف الناس منها . . !

وفى المسلمين من خالف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتخلّف عن القتال فى معركة أُحد .

وفى المسلمين من تحوّل عن موقفه الذى أمره الرسول بالوقوف عنده ، سواء كان للمسلمين النصر ، أو كانت عليهم الهزيمة !

وفى المسلمين من قاتل ، وأبلى فى القتال . . ثم حين استشعر الهزيمةَ انهزم ، وأعطى العدوّ ظهره . .

وفى جوانب المعركة ، وعلى حواشيها . . كلام يدور ، تحرّكه أفواه المنافقين ، وتلتوى به ألسنتهم ، وتتغامز معه عيونهم . .

هذا ، والنبيّ الكريم يسمع ، ويرى كلّ هذا ، ويسوؤه أن يكون فى أصحابه هذا الذى يسمعه ويراه . . فيحزن لذلك ويأسى .

وقد صفح الله عن المؤمنين وعفا عنهم ، وشملهم جميعاً برحمته وغفرانه . . وكان على النبيّ أيضاً أن يصفح ويغفر . . فجاء أمر الله سبحانه وتعالى ، يدعوه إلى الصفح ويغريه به ، بعد أن يُرى النبيَّ الصورة الكريمة التى له عنده الله ، والتى ينبغى أن يكون عليها ، وأن يحتفظ بها على هذا الوضع العلوىّ الوضىء . . « فبما رحمةٍ من الله لِنتَ لهم ولو كنتَ فظًّا غليظَ القلب لا نفضّوا من حَوْلِكَ فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم وشاورهمْ فى الأمْر » . . .

ولقد عفا الرسول عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى كل أمر ذى بال يعرض له .

ولكن النبىّ — وهو بشَر — قد تطلع عليه صور من أحداث أحد ، فتحرك أشجاناً ، وتثير أسى . .

فجاء قوله تعالى : « وما كان لنبىّ أن يَغُلّ وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غلّ يوم القيامة » — ليشنّع على الحقد ، وليستبعد وقوعه من أى نبيّ من أنبياء الله ، وليجعله جَرماً من أغلظ الجرائم ، حتى ليلتزم صاحبَه ، ويصحبه إلى يوم القيامة ، كما التزمه وصحبه فى صدره ، وبين جنبيه !

وما أروع هذا العطف الإلهى الذى يُفاض على النبىّ الكريم ، وهو فى مقام التأديب ، والتحذير من أن يحمل قلبُه غلّا ، وحقداً . . فلا يواجهه المولى سبحانه وتعالى بهذا الخطاب ، ولا يلقاه به وحدَه — لطفاً وكرماً — بل يتجه الأمر إلى الأنبياء جميعاً . . «وما كان لنبىّ أن يَغلّ » فما أعظم هذا المقام ، وما أكرم تلك المنزلة ، التى نزلها محمدٌ من منازل الرضوان والإحسان عند ربّه .

الآية : (١٦٢)

« أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (١٦٢)

التفسير : هنا مقابلة بين من استجاب لله ، وانقاد لما يرضيه ، فرجع مزوّداً برحمة الله ورضوانه ، وبين من مكر بالله ، وكفر بآياته ، فانقلب مُوقَرًا بسخط الله وغضبه . .

وبين الطرفين المتقابلين بُعد بعيد ، واختلاف شديد . .

فالطرف الأول يمثله الرسول ومن كان معه من المؤمنين . .

والطرف الآخر يمثله عبد الله بن أبيّ بن سلول ومن اتبع سبيله من المنافقين . .
والطرف الأول مِن رِضَى اللهِ ، فى رحمة ومغفرة فى الدنيا ، وإلى جنات ونعيم فى الآخرة .

والطرف الآخر ، مِن سَخَطَ الله وغضبه فى غيظ وكمد فى الدنيا ، وإلى جهنم وعذاب السعير فى الآخرة . .

وفى قوله تعالى : « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسَخَطٍ من الله » إشارة إلى أن الله سبحانه وتعالى قد تقبل من النبيّ ما كان منه من استجابته لأمر ربّه ، وتلبيته ما دعاه إليه ، من الصفح الجميل عن أصحاب الهفوات من أصحابه ، وإخلاء نفسه من كل عوارض الغيظ أو الكظم مما كان منهم . . وفى هذا اتباع لما يرضى الله ، ويزيد فى مرضاته ، وهو ما عُبرّ عنه هنا بالرضوان .

الآية : (١٦٣)

« هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » (١٦٣)

التفسير : إنه لا يستوى من اتبع رضوان الله ومن باء بسخطه . . فهم درجات ومنازل عند الله . .

فالذين اتبعوا رضوان الله فى رحمة ونعيم . . وهم فى تلك الرحمة ، وهذا النعيم درجات ، بعضها فوق بعض .

والذين مكروا بالله وباءوا بسخطه فى بلاء ، وهمّ وجحيم ، وهم فى هذا البلاء وذلك الجحيم ، درجات ، بعضها دون بعض .

الآية : (١٦٤)

لَقَدْ مَنَّ ٱللهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » (١٦٤)

التفسير : فى هذه الآية الكريمة ما يزكّى الرأى الذى ذهبنا إليه فى تفسير قوله تعالى : « وما كان لنبىّ أن يَغلّ » وهو أن الغُلّ من الحقد ، لا من الغلول بمعنى الخيانة . .

فنى هذه الآية :

أولاً : تذكير النبىّ الكريم بأنه رحمة أرسلها الله للناس،ومِنّة منّ الله بها عليهم ، بما يتلو عليهم من آيات الله ، وبما يفتح لهم من طاقات النور ، وبما يفيض عليهم من مواطر الهدى ، فيطهرهم من أرجاس الكفر والضلال ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويفتح قلوبهم المظلمة إلى حيث مطالع الهدى والنور ، ويوقظ عقولهم النائمة الغافية لتتصل بهذا الكون وتطالع فى صفحات الوجود وعلى قسمات الموجودات ، بعضَ ماأبدعت قدرة الخالق العظيم ، وما وسع علمه .

وهنا يرى الرسول ـ مع عظم المسئولية التى يحملها ـ مدى الخير الذى يسوقه الله على يديه إلى الناس ، الذين هو منهم وهم منه ، فيحمله ذلك على أن يبالغ فى تحرِّى الدقة البالغة فى ألا يشوبَ هذه النعمة العظيمة كدر ، أو يعلق

بها أذى ، حتى تصل إلى مكانها من الناس صافية ، مشرقة ، طيبة . .
وهذا ما يجعل الرسول الكريم مستعداً لتحمّل الأذى فى سبيل رسالته ، متجاوزاً عن كل ما يعرض له فى طريقه ، من حماقات الحمقى وسفاهات السفهاء ، فإذا دُعِى من ربّه إلى أن يكظم غيظه ، ويعفو الناس ، ويَلين لهم ، ويستغفر المسيئين منهم ، وَجَدَتْ تلك الدعوة الكريمة من قلب الرسول مكاناً ، ووجد منها الرسول الكريم ما تهفو إليه نفسه ، ويناجيه به وجدانه . .

وثانياً : فى الآية الكريمة أيضاً ، يرى المؤمنون ما آتاهم الله من فضله ، وما أوسع لهم فى برّه وكرمه ، إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ، يعرفون وجهه ، ويأنسون إليه ، ويتلقّون من بين يديه ما يتلقى هو من ربّه من نفحات ورحمات ، يسوقها إليهم ، فيعيدهم خلقاً جديداً ، فإذاهم ناسٌ غير الناس ، وقوم غير القوم .. قد أشرقت قلوبهم بنور الحق ،واستنارت عقولهم بأضواء المعرفة . .
« وَإِنْ كانوا من قبلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِين » . . وتلك نعم من الله سابغة ، وأفضال غامرة ، ينبغى أن يذكروها ، ويؤدوا شكرها ، إيماناً بالله ، وجهاداً فى سبيل الله ، وطاعة وولاء لرسول الله ، الذى حمل إليهم هذا الخير ، وغرسه فى مغارسه ، ورَوَاه من خفقات قلبه ، ومسارب وجدانه .

الآيات : (١٦٥ — ١٦٨)

« أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاَ تَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ

بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١٦٨)

التفسير : هـذه مواجهة أخرى للمؤمنين الذين شهدوا أحداً ، ورأوا ما أصيبوا به فى أنفسهم وفى إخوانهم هناك ، ثم ما وقع فى نفوسهم من وساوس وظنون ، كلّما خَبَت جذوتها ، وبردت نارها ، نفخ فيها المنافقون ، والكافرون ، فازداد ضرامها ، وتسعّرت نارها . .

وفى هـذه المواجهة يجد المؤمنون عتاباً رقيقاً من الله ، وعوْداً باللائمة عليهم فيما وقع لهم . . كما يجدون فيما بين العتاب واللوم عزاء وتسريةً .

فإذا كان المسلمون قد أصيبوا يوم أحد ، فقد كان لهم فى عدوهم الذى رماهم بما أصيبوا به ، نكاية وجراحات فى يوم بدر ضِعف ما أصابهم به فى يوم أحد . . « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

وإذن فلا يصح للمسلمين أن يقفوا بنظرهم عند ما أصيبوا به ، دون أن يمتد هذا النظر إلى ما كان لهم فى عدوّهم ، وهنا يستقيم النظر على الواقع كله ، فيرون أنهم أرجح كِفّةً ، وأربح صفقة . . وإذن فما ينبغى لهم أن يعجبوا ، وأن ينكروا هذا الذى حدث لهم ، ويقولوا : « أنّى هـذا ؟ » تلك القولة التى يكادون يُهلكون بها أنفسهم وما اشتملت عليه من إيمان .

ثم إنه إذا صح للمسلمين أن يعجبوا ويستنكروا هذا الحدَث ، فليكن ذلك مقصوراً على ذات أنفسهم وحدها ، بمعزل عن الدّين الذى آمنوا به وأضيفوا إليه !

فإنه إذا كان ثمة خلل فى جماعة المسلمين مكّن لعدوّهم أن ينال منهم ما نال ،

فذلك الخلل إنما هو فى ذات أنفسهم ، لا فى الدين الذى يجاهدون فى سبيله : « قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ » أى بما أحدثتم فى هذا اليوم من أمور ، عزلت كثيراً منكم عن موقف الجهاد ، وباعدت بينهم وبين الله !

لقد تغيّرتم أنتم أيها المسلمون ، وتغيّر ما بأنفسكم ، فغيّر الله مكانكم من النصر الذى كان دانياً لكم ، قريباً من أيديكم .

أمّا الله ـ سبحانه وتعالى ـ فحاشا أن يتغيّر أو يتبدّل ، فترونه قويًّا عزيزاً يوم بدر ، ولا ترونه على تلك الصفة يوم أحد . . ذلك مما يُنَزّه الله عنه : « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير » قدرة مطلقة دائمة ، لا تحُول ولا تزول أبدًا .

وقوله تعالى :

« وَمَا أَصَابَكُم يومَ الْتَقَى الجمعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ » .

هو عزاء ومواساة للمسلمين ، لما أصابهم فى تلك المعركة . . وأن يد المشركين ما كانت لتعلوهم إلا بإذن الله ، ولأمور قدّرها الله وأرادها .

وقوله سبحانه :

« وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِين »

هو كشف لبعض ما أراد الله من هذا المصاب الذى وقع فى المسلمين . . فهو امتحان وبلاء لهم ، ليعرفوا ما فى أنفسهم من إيمان وصبرٍ ، وليتعاملوا مع الله على قدر ما انكشف من إيمانهم وصبرهم . .

وقوله تعالى :

« وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهم تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَاتَّبَعْنَاكُمْ » .

هو وجه آخر من وجوه الحكمة التى تنكشف من وراء هذا الذى حدث فى أحد ، وهو أن تنكشف وجوه المنافقين للمؤمنين ، فيأخذوا حِذرهم

منهم ، ويعزلوهم عنهم ، فإنهم ـ حيث كانوا ـ مرض خبيث ، يغتال قُوَى الجماعة التى يندس فيها ، ويختلط بها .

وقولة المنافقين هنا ، والتى حكاها القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « لو نعلمُ قتالاً لاتبعناكُمْ » قولة منافقة خبيثة ، تحمل وجوهاً من الكيد والتوهين لقوى المسلمين ، وهم فى مواجهة العدو .

فقد تُحمَل هذه القولة على أن هذه الجماعة المنافقة لا تعلم أن قتالاً سيكون بين المسلمين والمشركين ، وأن قريشاً ، إنما جاءت لتعرض قوتها ، ولتُلقى فى قلوب المسلمين الرعب منها ، حتى لا يَعْترضوا تجارتَها فى طريقها إلى الشام .. ثم تنصرف بلا قتال ..

وقد تحمل هذه القولة أيضاً ـ وهو الوجه الواضح منها ـ على أن ما بين المسلمين وبين قريش لن يكون حرباً بالمعنى المفهوم .. لأن الحرب بهذا المعنى تكون بين قوتين متكافئتين ، الأمر الذى لا يراه المنافقون بين المسلمين وبين قريش .. فالمسلمون ـ كما يرى المنافقون ـ فى عدد قليل وضعف ظاهر ، وقريش فى جموع كثيرة ، وأعداد وفيرة ، وسلاح وعتاد يملأ السهل والوعر .. فكيف يكون بين هؤلاء وأولئك حرب ؟ إنها ليست إلا ضربة واحدة بيد قريش حتى ينتهى كل شىء . فكيف نُدعَى إلى حرب ولا حرب ؟ إنها عملية انتحار أقرب منها إلى الحرب .. هكذا يقول المنافقون ..

وقوله تعالى :

« هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان » ..

إدانةٌ لهم ، وحكم عليهم ، بهذه الكلمة المنافقة ، التى باعدت بينهم وبين الإيمان الذى يَنتسبون أنفسهم إليه ، والتى خطت بهم خطوات سريعة إلى الكفر ، فكادوا يكونون كفراً خالصاً ..

وفى قوله تعالى :

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » ما يفضح نفاقهم ، ويكشف حقيقة أمرهم . . إنهم لا يريدون أن يكونوا فى المجاهدين ، ولا يودّون للمسلمين نصراً ، ولا يرْجون للدِّين انتصاراً . . وإنما هم يعذِرون لأنفسهم بهذه الكلمات المنافقة ليعيشوا بها فى المؤمنين ولا ينقطعوا بها عن الكافرين والمشركين .

وقوله تعالى :

« الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قُتلوا قُلْ فادْرَءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين »

هو عرض لمقولة أخرى من مقولاتهم المنكرة ، وقد ذكرها الله عنهم من قبل فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عنْدَنَا ما ماتوا وما قتلوا » (١٥٦ : آل عمران) كما ذكرها القرآن فى قوله تعالى : « وطائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظَنَّ الجاهلية يقولون هل لنا من الأمْرِ من شىء قل إن الأمر كله لله يُخفُون فى أنفسهم مالا يُبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا » (١٥٤ : آل عمران) .

وقد شرحنا ما أرانا الله فى هاتين الآيتين فى موضعيهما . .

الآيات : (١٦٩ – ١٧٠ – ١٧١ – ١٧٢)

« وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ

لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠)
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١)
الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا
مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣)
فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ
ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » (١٧٥)

التفسير : قوله تعالى :

« ولا تحسَبَن الذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عند ربِّهم يُرْزقون » .. هو تطمين للمؤمنين ، وكبْت وحسرة للكافرين والمنافقين . .

فهؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله ، قد استوفَوْا آجالهم فى الدنيا ، ولم يذهب القتل بساعة من أعمارهم ، فما قُتل منهم قتيل إلا بعد أن انتهى أجله المقدور له عند الله . .

ثم إن هؤلاء القتلى « شهداء » أى حضور ، لم يغيبوا ، ولم يصيروا إلى عالم الفناء والعدم ، وإنما هم أحياء حياة باقية خالدة ، لا يذوقون فيها الموت . . وهذا هو الذى يصير إليه كل من يموت من الناس . من مؤمنين وكافرين . . وهذا هو الذى يؤمن به المؤمنون بالله ، فلا يروْن فى الموتِ خاتمةَ الإنسان وانتهاء دوْره فى الوجود ، وإنما يرون الموت رحلة من عالم إلى عالم ، ونُقلة من

دار إلى دار . . من دار الفناء والزوال إلى دار البقاء والخلود ، ومن عالم التكليف والابتلاء ، إلى عالم الحساب والجزاء . .

ومن أجل هذا يستخفّ المؤمنون بالموت ، ولا يكبر عليهم خطبه ، لأنهم ينظرون إلى الحياة الخالدة بعده ، ويعملون لها ، ليسعدوا فيها ، وليفعموا بنعيمها المعدّ لعباده الله الصالحين .

أما غير المؤمنين بالله ، فإنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، ولا يعتقدون أن وراء الحياة الدنيا حياة ، وأنهم إذا ماتوا صاروا إلى تراب وعدم . . ولهذا يشتد حرصهم على الحياة ، ويَعظُم جزعهم من الموت ، إذ كان العدم ـ كما يتصورن ـ هو الذى ينتظرهم بعده . . فتتضاعف حسرتهم على من مات منهم ، ويشتد حزنهم عليه ، لأنهم ـ حسب معتقدهم ـ لا يلتقون به أبداً ! !

هذه هى الحقيقة . . الأموات جميعاً ، ليسوا بأموات على الحقيقة ، وإنما هم أحياء فى العالم الآخر . .

ولكن القرآن الكريم لم يكشف هذه الحقيقة كلها ، ولم يُظهر منها إلا ما يملأ قلوب الكافرين والمنافقين حسرة وألماً ، وإلاّ ما يبعث فى قلوب المؤمنين العزاء والرضا ، إذ ينظر هؤلاء وأولئك جميعاً إلى قوله تعالى : « ولا تحسبَنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ، بل أحياء عند ربهم يُرزَقون » فيجدون هؤلاء القتلى أحياء فى العالم العلوى ، يُرزقون من نعيمه ، ويَطعمون من طيباته : « فَرِحينَ بما آتاهم اللهُ من فضله » .

فهؤلاء القتلى الذين ينظر إليهم المشركون والمنافقون نظر شماتة وتشفّ ، على حين ينظر إليهم إخوانهم وأحبابهم نظرة حزن وأسى لهذه الميتة التى ماتوا عليها — هؤلاء القتلى قد أشرفوا على الدنيا من عليائهم ، ينعمون بما آتاهم الله

من فضله — وإنه لفضل عميم ، يملأ القلوب بهجة ومسرة . . فيحزن لذلك المشركون والمنافقون ، ويتعزّى به ، ويستبشر المؤمنون .

قوله تعالى :

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا به من خَلْفِهم ألاّ خَوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون » .

بيان لكمال هذا النعيم الذين ينعم به هؤلاء الشهداء ، وأنهم ليسوا مجرد أحياء حياة باهتة ، بل هم فى حياة قوية كاملة ، بحيث تشمل عالمهم العلوىّ الذى نقلوا إليه ، وعالمهم الأرضى الذى انتقلوا منه . . فهم فى هذا العالم العلوىّ . إذ ينظرون إلى أنفسهم فيجدون أنهم فى فضل من الله ونعمة ، وأنهم إنما نالوا هذا الفضل وتلك النعمة بجهادهم فى سبيل الله ، وباستشهادهم فى هذه السبيل — يعودون فينظرون إلى إخوانهم المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم بعد ، وأنهم على طريق الجهاد والاستشهاد ، فيستبشرون لذلك ، وتتضاعف فرحتهم إذ سيلقَى إخوانُهم هذا الجزاء الذى جُوزوا هم به ، وينعمون بهذا النعيم الذى هم فيه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« يستبشرون بنعمة من الله وفضلٍ وأن الله لايضيعُ أجْرَ المؤمنين » . . فكما وفّى الله هؤلاء الذين استُشهدوا فى سبيل الله ، سيوفّى الذين لم يستشهدوا بعدُ أجرَهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجرَ المؤمنين ، ولا يَبْخَس ثوابَ المجاهدين .

وقوله سبحانه :

« الذين استجابوا لِله والرسول من بَعْدِ ما أصابهم القَرْحُ لِلّذِين أحسنوا منهم واتقوا أجْر عظيم » .

المراد بهؤلاء الذين الذين استجابوا لله ورسوله ، هم المسلمون الذين خرجوا مع النبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — بعد عودتهم من أحد ، وقد بلغ النبىّ أن

قريشاً بعد انصرافها من أحد ، ندمت على أنها أنهت القتال من قبل أن تستأصل المسلمين ، وقد أمكنتها الفرصة فيهم ، فبَدَالها أن تعود فتدخل عليهم المدينة وتبيدهم جميعاً . . وهنا أمر النبي أصحابه أن يخرجوا للقاء العدو ، دون أن يكون فيهم أحدٌ ممن لم يشهد معهم القتال . . فخرج المسلمون الذين شهدوا أحد ، جميعاً ، وهم مُثخنُون بالجراح ، لا يكاد أحدهم يمسك نفسه . . فلما علمت قريش أن النبيّ خرج فى أصحابه ظنوا أن النبيّ يطلبهم ، ليأخذ للمسلمين بقتلاهم فى أحد . . فرجعوا إلى مكة ، ورجع النبيّ وأصحابه إلى المدينة ، دون أن يقع قتال .

فهؤلاء الذين هم استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح . وقد عدّهم الله جميعاً فى الشهداء ، من استُشهد منهم فيما بعد من ولم يُستشهد ، لأنهم كانوا فى مواجهة القتل المحقق . .

وقوله تعالى : « للذين أحسنوا منهم واتقوا أجرٌ عظيم » هو شرط لنيل درجة الاستشهاد ، إذ لا بد أن يستمسك هؤلاء المؤمنون بما هم عليه يومئذ من إحسان وتقوى ، أمّا من انحلّ عزمه ، وفتر إيمانه بعد ذلك ، فليس أهلاً لأن ينال هذه الدرجة العليا ، وذلك الأجر العظيم .

وفى هذا تحذير للمسلمين الذين ذكرهم الله ، ومجّد عملهم ، وأعلى منزلتهم — من أن يستنيموا فى ظل هذا الوعد الكريم ، دون أن يعملوا ليكونوا أهلاً له ، وليظلوا محتفظين بهذه المنزلة التى أنزلهم الله أياها ، فليتقوا وليحسنوا ، وليزدادوا إحساناً وتقوى ، فعند الله منازل كثيرة المتقين المحسنين .

وقوله تعالى : « الذين قال لهمُ الناسُ إنّ النّاس قدْ جَمعُوا لكُمْ فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم » .

هو بيان لهؤلاء الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرحُ ، ولموقفهم يومئذٍ من عدوهم .. فقد ترامت إليهم الأنباء التى أرجف بها المرجفون فيهم ، من المشركين والمنافقين ، ليزيدوا فى آلامهم ، وليُدخلوا اليأس عليهم .

ولكن ما إن دعاهم الرسول إلى ملاقاة العدو ، حتى خفّوا مسرعين ، متحاملين على أنفسهم ، غير ملتفين إلى جراحهم التى تتفجر دماً . .

وقيل إن المراد بالذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ، هم المؤمنون الذين استجابوا للنبى ، وخرجوا معه للقاء قريش فى بدر الثانية .

وذلك أن أبا سفيان كان قد أنذر النبىّ والمسلمين بعد معركة أحد بأنه سيلقاهم فى مثل هذا اليوم ، فى بدر . . ذلك أنه فى نشوة هذا النصر الذى ناله كان يرى أن أحداً لم تثأر الثأر الذى يَنْشده ، لما أصاب قريشاً فى بدر ، فأراد أن يعيد معركة بدر من جديد ، ليطلع عليها فى قريش بصورة غير الصورة التى وجدتهم عليها يومئذ .

وكان أبو سفيان حين جاء الموعدُ الذى واعد النبىّ ، على غير استعداد لملاقاة النبى والمسلمين فى بدر ، إذ كان العام عام جدب . . فأظهر أنه يستعدّ للحرب ، ويجمع لها ، وبعث إلى النبىّ من يُلْقى إليه ـ كذباً ـ أن قريشاً تجمع له أعداداً لا قِبل له بها . .

أما النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقد دعا أصحابَه إليه ، وندبهم للقاء القوم على الموعد الذى تواعدوا له . . فاستجاب له أصحابه ، وتقاعس المنافقون ، وأرجفوا بالناس ، وأذاعوا الفزع فى المسلمين ، وقالوا فيما قالوا لهم : إن قريشاً قد فعلت بكم فى أحد ما فعلت وأنتم فى كنف دوركم وبين أهليكم ، فكيف يكون حالكم معها وأنتم تلقونها فى بدر ؟ وأين المفرّ إذا انتصرت عليكم ؟ . . فنزل قوله تعالى : « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون

إن كنتم مؤمنين » فسكَنتْ لذلك أفئدة المؤمنين واطمأنت ، وسار النبي بأصحابه حتى نزل بدراً . . وخرج أبو سفيان فيمن اجتمع له ، فلما علم أن النبيّ ينتظره بالمسلمين فى بدر ، قَفَل راجعاً . .

وانتظر النبيّ هناك بالمسلمين أياماً ، حتى انفضّت السوق التى كانت تقام هناك كل عام ، وباع المسلمون واشتروْا ، وعادوا سالمين غانمين ، وفى هذا يقول الله تعالى : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضلٍ عظيم » .

وفى قوله : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » نجد فى التعبير عن المرجفين بهذا القول ، والمهوّلين له ، بكلمة « الناس » تحقيراً لهم ، وبألاّ صفة لهم فى الناس إلاّ أنهم على صورة الآدميين ، وأنهم والمشركين من قريش على مستوى واحد من الكفر والشرك ، إذ عبّر عنهم القرآن بلفظ « الناس » أيضاً . . « إن النَّاس قد جمعوا لكم » . .

وفى قوله تعالى : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » إشارة عامة تشمل هؤلاء الناس ، الذين أذاعوا هذا القول وأرجفوا به ، فقالوا : « إن النَّاسَ قد جمعوا لكم » كما تشمل المشركين من قريش ، وهم : الناس الذين جُمعوا لاستئصال المسلمين .

فهؤلاء وهؤلاء حزب واحد . . هو حزب الشيطان ، أوهم الشيطان ذاته ، فى إضلاله وإغوائه : « إنما ذلكم الشيطان » .

والضمير فى « أوليائه » يعود إلى الشيطان ، وأولياؤه هم المنافقون ، الذين يتولاهم الشيطان ، ويتخذ منهم أعواناً على الشر والفساد . . وهو الذى خوفهم الجهادَ فى سبيل الله ، وأراهم الموت فى صورة بشعة مخيفة ، فانعزلوا عن المسلمين ، ونكصوا على أعقابهم . .

ويجوز أن يكون المفعول به التخويفُ هم جماعة المؤمنين ، ويكون حينئذ المفعول به الثانى محذوفاً ، وتقديره : « إنما ذلـكم الشيطان يخوفـكم أولياءه » .. بمعنى أن هذه الأصوات المتنادية بأن الناس قد جمعو لكم ، هى من فعل الشيطان على ألسنة المنافقين وغيرهم ، وهو يريد بهذا أن يخوّفـكم أولياءه الـكفارَ والمشركين ، ولهذا جاء قوله تعالى : « فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » ردًّا على كيد الشيطان ، وإفساداً لتدبيره السىء . . ولهذا لم يقع هذا القول من نفوس المسلمين موقعاً ، بل تلقوْه بالعزم والتصميم ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » .

الآيات : (١٧٦ ، ١٧٨)

« وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْـكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَـلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْـكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ » (١٧٨)

التفسير : قوله تعالى :

« ولايحزنك الذين يُسارِعُون فى الـكفر » عزاء ومواساة للنبى الـكريم ، لما كان يجدفى نفسه من الحزن والألم ، حين يَرَى بعضَ من دخلوا فى الإيمان ، وحُسِبوا فى المؤمنين ، وظُنّ بهم أن خرجوا من ظلام الـكفر وضلال الجاهلية إلى نور الإيمان وهدى الإسلام ـ فإذا بهم وقد عادوا إلى المنحدر ، وأزلهم الشيطان عن هذا المقام الـكريم . .

والرسول الكريم يعلم أن ليس عليه إلا البلاغ ، ولكنّ حرصَه على هداية الناس ، ورغبتَه الشديدة فى استنقاذهم من الضلال فى الدنيا ، والنار فى الآخرة ، يجعله يفرض على نفسه أن يبالغ فى النصح لقومه ، وتعهدهم بتوجيهه وإرشاده ، كما يتعهد الأب صغاره . . ولهذا كان صلوات الله وسلامه عليه ، يأسى أشد الأسَى ، إذ يرى هذا العناد الذى يملأ الرءوس من قومه ، ويمسكهم على شفير الهاوية ، التى تهوى بهم إلى عذاب السعير . . ولهذا أيضا كانت كلمات الله تتنزل عليه حينا بعد حين ، تدعوه إلى الرفق بنفسه ، وألا يحمله حبُّه للخير الذى يريد غرسه فى قلوب الناس إلى ماهو فيه همٍّ وحسرة وقلق . . « إنَّك لاتهدى من أحببتَ ولكنّ الله يهدى من يشاء » (٥٦ : القصص) (فلا تَذْهبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ » (٨ : فاطر) .

فهؤلاء الذين يسارعون فى الكفر هم الخاسرون ، قد ألقوا بأيديهم إلى التهلكة ، ولن يضرُّوا الله شيئاً .

وفى التعبير بالظرف « فى » فى قوله تعالى : « يسارعون فى الكفر » بدلاً من « يسارعون إلى الكفر » مايشير إلى أنهم قد دخلوا فى حوزة الكفر فعلاً ، حتى لقد صار الكفر ظرفاً يحتويهم ويشتمل عليهم ، وهم يتحركون فى داخله ، ليبلغوا الغاية فى الكفر والضلال .

وفى قوله تعالى : « إنهم لن يضرُّوا الله شيئاً » تهوين لشأنهم وأنه لم يكن لينتفع بهم المسلمون لو كانوا معهم ، لما فى قلوبهم من مرض ، ومافى كيانهم من فساد ، كما أنهم وقد تحوّلوا إلى الجبهة المعادية للمسلمين فإنّهم لن يكون لهم أثر فى مسيرة الدعوة الإسلامية ، وفى انطلاقها إلى المدى الذى أراده الله لها ، والخسران فى هذه الصفقة واقع عليهم وحدهم . . « ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (٣٣ : المائدة) .

وقوله تعالى :

« يريد الله ألاّ يَجْعَلَ لهم حظًّا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » فى نسبة الإرادة إلى الله هنا إغاظة لهم ، بسلب إرادتهم ، وسوقهم سوقاً إلى الكفر الذى هم أهلٌ له ؛ وأنه لامصير لهم إلا هذا المصير المشئوم . .

فتعطيل إرادتهم هنا يحرمهم هذا السلطان الذى يجده المرء فى نفسه ، ويعتزّ به ، حتى وهو يركب مراكب الهلاك . . إذ أنه هنا يجد كلمة « أنا حرّ » التى يجد فيها وجوده ، ويردّ بها على من ينصح أو يلوم . .

وهؤلاء الذين دخلوا فى الكفر ، دخلوه وكأنهم مكرَهون ، بلا إرادة ، ولا حرية ، ولا اختيار .. إنهم ليسوا آدميين،حتى تكون لهم إرادة ، وتكون لهم حرية واختيار .

وفى قوله تعالى : « يريد الله » وفى تعليق الفعل بالمستقبل ، وقد أراده الله ووقع فعلاً ـ فى هذا مايقيمهم أبداً بهذا الوضع الذى هم ، بلا إرادة ولااختيار ، لأن إرادةً فوق إرادتهم قائمة عليهم أبداً . . فليس لهم ـ والأمر كذلك ـ أن ينتظروا يوماً تعود إليهم فيه حريتهم وإرادتهم ، أو أن يكونوا يوماً فى وضع الإنسان الحر المريد !

قوله تعالى :

« إنّ الّذين اشْتَرَوُا الكُفْرَ بالإيمَان لَن يَضُرُّوا الله شيئاً ولهم عذاب أليم » تأكيدٌ لضآلة شأن هؤلاء الذين باعوا أنفسهم للشيطان ، واستحبّوا العمى على الهدى . . وقد توعّدهم الله ـ سبحانه ـ فى الآية السابقة بالعذاب العظيم ، وتوعدهم فى هذه الآية بالعذاب الأليم ، كما توعدهم فى الآية التالية بالعذاب المهين ، فجمع لهم أشنع صور العذاب .. العذاب العظيم . . الأليم . .

المهين .. العظيم فى صورته ، الأليم فى آثاره الحسيّة ، المهين فى آلامه النفسيه ..

وقوله تعالى :

« ولا يحسبَنَّ الذين كفروا أنّما نُمْلِي لهم خيرٌ لأنفُسِهم إنما نُملِي لهم ليزدادُوا إثما ولهم عذاب مهين » .

فيه تكدير لهؤلاء الكافرين ، وقطع لتلك اللذات التى يجدونها فيما بين أيديهم من مالٍ وبنين . وأن هذا الذى هم فيه إنما هو أشبه بما يقدّم للحيوان من طعام ، كى يكبر ، ويكثر لحمه ، ثم يذبح ! ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « والذين كفروا يتمتّعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ والنارُ مثوًى لهم » (١٢ ، محمد) .

فالله سبحانه إنما يملى لأعدائه من الكافرين ، والمشركين ، والمنافقين ، ويمدهم بنعمة وأفضاله ، ليقيم الحجه عليهم ، ولتُحسب عليهم هذه النعم ، التى كان من حقها أن يشكروا للمنعِم بها ، فاتخذوها أدوات لحرب الله ، وحربِ أولياء الله ، فكانت عليهم بلاءاً ووبالاً .. « أيَحسَبونَ أنما نمدهم به من مالٍ وبنين * نسارعُ لهم فى الخيرات ؟ بل لا يشعرون » (٥٥ — ٥٦ : المؤمنون) .

هذا ، والعرض الذى يُعرض فيه الكافرون، وتكشف فيه أحوالهم ،إنما يُراد به أولاً وقبل كل شىء، العبرةُ والعظة للمؤمنين ، وتنفيرُهم من هذه الصورة المنكرة التى يرون الكافرين عليها .. وفى هذا ما يثبتُ إيمانهم ، ويقوِّى صلتهم بالله ، ويزيد فى حمدهم له ، أن هداهم إلى الإيمان ، وسلك بهم مسالك المؤمنين ..

أما الكافرون فقد يستمع مستمعهم إلى آيات الله تلك ، التى تعرض الكفر وأهله فى هذا العرض المخيف ، ويرى منه المصير الذى ينتظره ، فيرجع إلى نفسه ، ويعدل عن موقفه ، ويصالح ربّه بالإيمان به ، والموالاة لأوليائه . .

الآية : (١٧٩)

« مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (١٧٩)

التفسير : قضت حكمة الله أن يجعل هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار للناس ، يذوق فيها بعضُهم بأس بعض ، وفى هذا الاحتكاك الواقع بينهم ، تظهر أحوالهم وتنكشف أمورهم ، وتُعرف معادنهم ، ولولا ذلك لكانوا شيئاً واحداً . . لا مؤمنَ ولا كافر ، ولا طيبَ ولا خبيث ، ولا محسن ولا مسيء

وقوله تعالى : « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حتى يميز الخبيث من الطيب » هو من مقتضيات هذه الحكمة التى كان من آثارها هذا الاحتكاك الذى يدور بين المسلمين والكافرين ، والذى ابتُلِيَ فيه المؤمنون بما أصيبوا فى أنفسهم وأهليهم . . فليس الإسلام هو كلمة يقولها الإنسان ليكون مسلماً ، وإنما هو كلمة وراءها عمل ، ووراء العمل تبعات كثيرة ، وأعباء ثقال ، ولولا ذلك لكان مدخل الإيمان سهلاً ، لا ثمن له ، يستوى فيه من يعمل ومن لا يعمل .. بل إنه لا يجد أحدٌ مايدفعه إلى العمل وبذل الجهد ، إذ كان الأمر على تلك الصفة .

وفى قوله تعالى : « عَلَى مَآ أَنْتُمْ عليه » التفاتٌ للمؤمنين واستحضار لهم ، ليكونوا فى مواجهة هذا الحكم ، وليؤخذ إقرارهم به ، وما عليه المؤمنون هو العافية التى كانوا فيها قبل أن يُبْتَلوا بلقاء الكافرين وجهادهم .

وقوله تعالى : « حتى يميز الله الخبيثَ من الطيب » أى حتى يقع هذا الصدام بين المؤمنين والكافرين ، وحتى تنكشف أحوالهم ، ويُعرف الصابرون وغير الصابرين ، ومن كان إيمانهم بالله خالصاً صادقاً ، ومن كان إيمانهم على نفاق ودَخل . . وعِلم الله سبحانه ـ علم شاملٌ ، محيط بما وقع وما لم يقع ، فى جميع صوره وأحواله . . وعلمه هذا ، الذى يميز به الخبيث من الطيب ليس علماً مستحدثاً ، وإنما هو علم قديم يندرج تحته هذا الحال الذى يكون عليه المؤمنون وهم فى هذا الامتحان الذى يؤدونه بين يدى الله . .

وعلى هذا ينبغى أن يفسَّر ويفهم ما ورد فى القرآن من علم الله الذى يبدو وكأنه معلق بوقوع الأحداث .. مثل قوله تعالى : « وما أصابكم يوم التقى الجمعانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وليَعْلَمَ المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا » (٦٥ ـ ٦٦ : آل عمران) ومثل قوله سبحانه : « أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ » (١٤٢ : آل عمران) . . ونحو هذا . .

فعلم الله محيط بكل شىء . وكل ماهو فى علم واقع تحت هذا العلم ، فى جميع أحواله المتلبس بها . . فالله سبحانه يعلم أزلاً أن هذا الإنسان ـ مثلاً ـ سيولد من أبوين ، هما فلان وفلان . . فى بلد كذا ، فى زمن كذا . . وقبل أن يولد هذا الإنسان هو فى علم الله ، وبعد أن ولد هو فى علم الله . . ولكن علم الله به قبل أن تحمل به أمه ، وقبل أن يولد فى المكان والزمان الواقعين فى علم الله ـ يكون المعلوم فيه على صور خاصة وصفات خاصة ، فإذا ولد ، كان المعلوم فى علم الله على صورة غير الصورة السابقة ، وعلى صفات غير تلك الصفات التى

كان عليها قبل أن يولد ! . . وهكذا تتغير ذوات المعلومات وصفاتها ، وعلم الله محيط بها فى جميع أشكالها وأحوالها ، فلا يتغيّر ولا يتبدّل .

قوله تعالى :

« وما كان الله ليطلعَكُمْ على الغيب »

معطوف على قوله تعالى : « ما كان الله ليذَرَ المؤمنين على ما أنتمْ عليه » .. والربط بين الحكمين لازم ، لأن عدم اطلاع المؤمنين على الغيب ، وما أراد الله لهم وكتب عليهم ، يقْتَضِى أن يُؤْمروا وأن يُنهَوْا وأن يُدْعَوْا إلى الامتحان والابتلاء والجهاد فى سبيل الله . .

ولو كان الغيب مكشوفاً للناس لما كان ثمّة داعية إلى أمر أو نهى ، فكلٌّ يعرف مصيره الذى هو صائر إليه .. ولو عرف الناس مصائرهم مقدماً ، وانكشف لهم مستقبلهم خطوةً خطوةً ، لَمَا احتملت طبيعتهم البشرية هذا الموقف الذى يرى فيه الإنسان وجوده كله من مبدئه إلى نهايته ، ولكانت فتنةٌ فى الأرض وفساد كبير . .

ففى حَجْب المستقبل عنّا رحمة بنَا ، وإحسان إلينا ، واستدعاء لوجودنا كلّه لمواجهة المجهول ، ومحاولة كشفه واستخراج ما فى أطوائه ، من خير وشر ، وحلو ومرّ . . فهو على أى حال ثمرة مجهود ، وحصاد معركة ! !

وانظر . . لو أن إنساناً ما عرف عن يقين من سجّل القدر أنه فى يوم كذا ، فى ساعة كذا ، ستصدمه سيارة تقضى عليه ، أو تشبّ فيه نار فتلتهمه ، أو أن أحد أبنائه سيحدث له حادث أليم . . ماذا تكون حالة هذا الإنسان ، منذ أن يطلع على هذا الغيب إلى أن يقع ؟ هل يهنؤه طعام ، أو يسوغ له شراب ، أو يهدأ له قلب أو يستريح له بال ؟ إنه فى همّ دائم ، وكرب كارب ، وعذاب أليم ؟ !

وأكثر من هذا .. لو أن هذا الإنسان اطلع الغيب فرأى ـ وهو الفقير المعدم ـ أنه بعد كذا من السنين سَيَنال الغنى الواسع والثراء العريض ، وأنه سيشبع من جوع ، ويكتسى من عرى ، وينال ما يشتهى من مُتَع الدنيا ، بعد هذا الحرمان الطويل .. ماذا تراه فى يومه هذا ، وهو ينتظر ذلك اليوم الموعود ؟ إنه يعيش تلك السنين الفاصلة بينه وبين هـذا اليوم ، فى عذاب ، دونه كل عذاب .. إنه يعدّ الأيام لحظة لحظة ، ويدفع مسيرة، الزمن بكل ما فى كيانه من قوّى ظاهرة وباطنه .. والزمن قائم فى وجهه ، جاثم على صدره ، كأنه جبال الدنيا كلها مجتمعة عليه .. إنه يودّ أن ينام نومة أهل الـكهف فلا يستيقظ إلا على يومه الموعود .. ولـكن أنّى له ذلك ، وهو مشدود إلى الحياة ، مقيد بقيود الزمن الثقيلة العاتية ؟

من رحمة الله علينا إذن كان هذا الذى صنعه الله بنا ، فحجب عنّا ما أراده لنا ، وما قضاه علينا ، فنعمل بإرادة ، ونمضى بعزم ، ونعيش مع أمل ..

فقوله تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَـكُمْ عَلَى الْغَيْبِ » دعوة للمؤمنين إلى العمل حسب ما يأمرهم الله به ، وبين تلك الأوامر الجهادُ فى سبيل الله ، والثبات فى وجه العدوّ ، والعمل على انتزاع النصر منه .. ذلك هو المطلوب من المؤمنين فى مثل هذا الموقف .. أما ما يؤول إليه الأمر ، وما يُسفر عنه القتال ، فذلك علمه عند الله .. وعلى المؤمنين أن يرضوْا بما يقع ، أيًّا كان ، بعد أن امتثلوا أمر الله ، وأعطوه كل جهدهم .

يقول جعفر الصادق رضى الله عنه لزرارة : « يا زرارة .. أُعطيك جملةً فى القضاء والقدر ؟ قال : نعم ، جُعِلت فداك ، قال : « إذا كان يومُ القيامة وجَمع الله الخلائق ، سألهم عما عهد إليهم ، ولم يسألهم عما قَضَى عليهم » .. وهذه كلمة فيها مقطع القول فى القضاء والقدر ، وعلى من يحتجون بالقضاء والقدر .. إنهم مطالبون بما كُلّفوا به ، وغير مطالبين بما قدّره الله عليهم ..

وقوله تعالى :

« ولكنَّ الله يجتبي من رسله من يشاء »

استدراك فيه معنى الاستثناء من الحكم الذى تضمنه قوله تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » . . إذ أن رسل الله الذين يصطفيهم الله لحمل رسالاته إلى عباده ، هم ممن أظهرهم الله على بعض ما فى الغيب ، وأطلعهم على لمحاتٍ منه ، ليروا على ضوئها طريقهم الذين يقودون فيه عباد الله إلى الهدى والخير . . وهذا ما يُشير إليه قوله تعالى : « عالِمُ الغيبِ فَلاَ يُظهِرُ على غيبِه أحداً إلا مَنِ ارتضى من رسولٍ فإنَّه يَسْلُكُ من بَيْنِ يَدَيْهِ خَلْفِهِ رصَدًا » (٢٦ ـ ٢٧ : الجن)

ومن جهة أخرى . . فإن الرّسول ـ وإن لم يطلع على شىء من الغيب . فإنه أشبه بمن اطلع على الغيب فيما يتعلق بالدعوة التى يحملها ، والرسالة التى يقوم بتبليغها . . إنها دعوة خير ، ورسالة نور وهدى . . وإن السعادة فى الدنيا والآخرة لمن استجاب لدعوته وعمل بها ، وإن النّصر والتأييد من الله لمن آمن بالله وجاهد فى سبيله . . هذه حقائق لا تقبل الشك ، ووعود محققة كأنها واقعة وإن لم تكن قد وقعت ، فهى فى مضمونها من أبناء الغيب ، يراها رسل الله والمؤمنون بالله ، رأى العين ، ويستيقنونها يقين الواقع فى أيديهم . .

ففى قوله تعالى : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ » (٢١ : المجادلة)

وفى قوله : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِين » (٤٧ : الروم)

وفى قوله سبحانه : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » (٥١ : غافر)

وفى قوله سبحانه : (أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ » (١٢٤ : آل عمران) .

وفى قوله جل شأنه : « قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ » (١٥ : التوبة)

فى هذه الآيات وكثير غيرها يرى رسول الله ويرى المؤمنون معه واقع هذه الوعود ماثلاً بين أيديهم ، وكأنهم قد اطلعوا الغيب وعاينوا ما سيكون قبل أن يكون !

لما نزل قوله تعالى « سيهزم الجمع ويُوَلونَ الدُّبر » (٤٥ : القمر) استيقن المسلمون أن جمع الكافرين سيهزم بأيديهم وسيولّى الدبر . . هذا ما لم يكن يشكّ فيه مؤمن ، حتى لكأنه يراه رأى العين ، ولكن الرؤية لم تكن كاملة ، حيث لم ينكشف للمسلمين هذا اليوم الذى سيتحقق فيه هذا الوعد الذى وعدهم الله إياه . . فلما كان يوم بدر انكشف ما كان مستوراً ، ورأى المسلمون الجمعَ المنهزم ، وفى هذا كان يقول عمر بن الخطاب : « ما كنت أدرى أى جمع هذا الذى سيهزم حتى رأيتُ جمعَ قريش يوم بدر ، وهم منهزمون يولّون الأدبار » .

وقوله تعالى : « فآمِنوا بالله ورُسُله وإن تؤمِنُوا وتتّقُوا فلكم أجرٌ عظيم » دعوة يستجيب لها كل ذى عقل ووعى ، حيث كانت تلك الدعوة من عند الله ، وكان حاملوها رسلاً من عند الله ، وكانت مضامينها حقًّا مطلقاً ، ووعودها واقعاً محققاً ، لأنها من أبناء الغيب وقد أطلَعَ اللهُ عليها رسله والمؤمنين به ، فيما حملت آياته إليهم من أمر ونهى ، ومن خَبَر او وعد !

وليس الإيمان وحده مجرداً من العمل هو الذى يعطى الثمرة المرجوة من الإيمان .. إذ لابد من أن يصحب الإيمانَ عمل يدعو إليه الإيمان ، ويرسم حدوده ، وثمرة هذا العمل هى التقوى ، التى يحقق بها المؤمن حقيقة الإيمان .. وبهذا يُدرج فى سلك المؤمنين ، ويحظى من الله بالجزاء الأوفى ، والأجر العظيم .

الآية : (١٨٠)

« وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُم سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (١٨٠)

التفسير : الجهاد فى سبيل الله امتحانٌ وابتلاء ، فيه تضحية وبذل .. تضحية بالنفس ، إذا دعت دواعيها ، وبذل للمال حين يطلب المال !

وقد أَعطَى المجاهدون الصادقون مايطلب الجهادُ من نفسٍ ومال، على حين ضنّ أناسٌ بأرواحهم ، أن يبيعوها لله فى سبيل الله ، وبخلو بأموالهم أن يقرضوها اللهَ فى سبيل الله.. ثم مع هذا منّتهم أنفسهم أن يكونوا فى المؤمنين ، ثم أطالوا حبل الأمانىّ فظنوا أنهم فى عداد المتقين المجاهدين .. والله سبحانه وتعالى يقول : « لن تنالوا البرَّ حتّى تنفِقوا مِمّا تُحِبون » (٩٢ : آل عمران) .

وفى هذه الآية يكشف الله سبحانه عن هذه الأمانىّ الخادعة ، التى يعيش فيها أولئك الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله، من قوة أو مال ، فلا ينفقون منها فى وجوه الحقّ الداعية لها .. وإنّهم لهم الخاسرون فى هذا الموقف الذى اتخذوه حيالَ الحقوق الواجبة عليهم ، فى أموالهم وأنفسهم .. حياة قصيرة فى

هذه الدنيا ، لأجل محدود ، ومتاع قليل بهذا المال الذى استبقوه لاستيفاء حظوظهم من الشهوات واللذات . . ثم ماهى إلا لمحة كلمح البصر ، وإذا هم فى موقف الحساب والجزاء . . وإذاهم وأنفسهم التى ضنّوا بها ، وأموالهم التى أمسكوا عن الإنفاق منها ، خصمان يقتتلان ، وإذا هذا المال يتحول إلى أداة عذاب ونكال ، يطوّق أعناقهم بأطواق ثقال ، ثِقْلَ ماجمعوا وكنزوا : « سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة » .

الآيتان : (١٨١ - ١٨٢)

« لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » (١٨٢)

التفسير : فى معرض البخل بالمال والحرص عليه ، يمثّل اليهود أسوأ صورة ، وأقبح مَثَل لما يبلغه إنسان فى هذا الباب . .

فالمال عند اليهود - كل يهودى - هو كل شىء ، فاليهودى إذا سلم ماله فلا عليه إذا تلف كل شىء ، وضاع منه أى شىء . . من دين أو خلق .

لهذا ، جاءت الآية الكريمة - بعد أن كشفت الآية السابقة عن جريمة البخل ، والعقوبة التى أعدها الله لمرتكبيها - جاءت لتكشف عن درجة من البخل لم يعرفها الناس إلا فى هذا الصنف المحسوب من الناس . . إنهم لم يجمعوا المال من وجوه الحرام والسحت وحسب ، ولم يضنوا عن الإنفاق منه فى سبيل الحق والخير وحسب ، بل بلغ بهم السَّفه والفُجر إلى تحدِّى الله به ، وإعلان الحرب الوقاح عليه ، فكانت قولتهم الآثمة تلك ، التى حكاها القرآن

عنهم : « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » ـ كانت تلك القولة المنكرة لسان حالهم، فى كل مشهد يشهدونه المسلمين وهم يُدْعون للبذل الإنفاق فى سبيل الله، وينادون فى الناس بقول الله سبحانه : « من ذا الذى يُقْرِضُ الله قرضاً حسناً فيُضَاعفَهُ له أضعافاً كثيرةً والله يقبضُ ويبْسُطُ وإليه تُرْجَعُون » . (٢٤٥ : البقرة) . . ولا يقع إلى آذان اليهود من كلمات الله تلك إلا « القرض» الذى يعرفونه، ويتعاملون به رِباً فاحشاً، يغتال أموال الناس، ويمتصّ ثمرة جهدهم .. والقرض لا يكون إلا من غنيّ إلى فقير، وإذ كان الله يطلب قرضاً فهو فقيرٌ، وإذ كان اليهود هم أقدر الناس على الإقراض الربوىّ فهم أغنياء . . هكذا منطق المال عند اليهود . . حتى مع الله .

وقوله تعالى : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » وعيد لليهود، ونذيرٌ بالعذاب الشديد لهم .. إذ كان ما قالوه تجديفاً على الله، ومحاربةً له . . والله سبحانه وتعالى قد سمع هذا القول المنكر منهم .. والمراد أنه سبحانه وتعالى قد علم ما قالوا . . والتعبير عن العلم بالسّمع أبلغ وأقوى فى حسابنا وتقديرنا نحن . . أما علم الله وسمع الله، وما لله من صفات، فهى جميعاً على الكمال المطلق الذى لا يقبل زيادة أو نقصاً .

وقوله سبحانه : « سنكتب ما قالوا وقتْلَهُمُ الأنبياء بغير حق » . هو مبالغة فى تغليظ هذا الجرم وتهويله، فقد كتبه الله عليهم ووثّقه، كما يكتبون هم ما يستدينه الدائنون منهم ويوثّقونه، فلا سبيل إلى الضياع أو الإنكار . .

ولم يسجّل سبحانه عليهم هذا القول الشنيع وحده، بل قَرَنه إلى جرم آخر لا يقلّ عنه شناعة وإثماً، وهو قتلهم الأنبياء بغير حقٍّ، وهنا تبدو قولتهم المنكرة تلك موازيةً لقتل الأنبياء بغير حق، ومعادلةً لها فى جرمها وإثمها .

وهنا سؤال :

إن هؤلاء اليهود الذين يخاطبهم القرآن الكريم لم يقتلوا الأنبياء ، ولكنّ القَتَلة هم آباؤهم .. فكيف يُكتَب القتل عليهم ، ويضاف إلى جرائمهم التى أجرموها ؟ .

والجواب على هذا ـ والله أعلم ـ أن اليهود طبيعة واحدة ، لا يختلف خَلَفهم عن سلفهم فى شىء مما هم عليه من عنادٍ ، وكفر بآيات الله ، ومكر بآلائه ونعمه .. فهؤلاء الأبناء الذين يخاطبهم القرآن الكريم ، هم اليهود الذين خاطبهم داود ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، ويحيى ، وعيسى ، وغيرهم من أنبياء الله ورسله ، وفيهم كل ما فى آبائهم من عناد وكفر ، وأنه لو جاءهم نبىّ لهمّوا بقتله ، ولو أمكنتهم الفرصة فيه لقتلوه . .

فإضافة هذا الجرم إليهم ـ وهو قتل الأنبياء ـ هو إضافة لهم إلى آبائهم القَتَلة ، فما مات هؤلاء الآباء ، ولا انقطعت من الأرض جرثومة الشرّ التى كانت فيهم ، بموتهم ، بل هم أحياء فى هؤلاء الأبناء ، بكل ما عرف عنهم من سوء وفساد .

وقوله وتعالى : « ونقولُ ذوقوا عذاب الحريق » هو الجزاء المقابل لقولهم « إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » . فهم قالوا « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » ونحن ـ أى الله ـ « نقول ذوقوا عذاب الحريق » فهو قول يقابل قولاً . . وشتان بين قول الله وقولهم .. هم قالوا زوراً وبهتاناً ، والله يقول حقًّا وعدلاً .. هم قالوا أصواتاً ضائعة فى الهواء ، والله يقول ناراً تلظّى ، وعذاباً سعيراً ، يأخذهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم .

وقوله تعالى : « ذلك بما قَدّمت أيديكُمْ » ردٌّ عليهم ، وردْع لهم إن هم أنكروا هذا العذاب الذى يساق إليهم ، أو استفظعوه . . فهذا العذاب

قد صنعوه هم بأنفسهم لأنفسهم. . إنه صنعة أيديهم ، فكيف ينكرونه ، أو يردّونه ؟ .

وفى قوله تعالى : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » يجىء التعبير بظلام ، فى صيغة المبالغة هذه ، للتشنيع عليهم ، والتعريض بظلمهم الذى جاوز الحدود ، فى أكلهم أموال الناس بالباطل ، وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء ، فهم ـ والأمر كذلك ـ ليسوا ظلمة وحسب ، بل هم ظالمون لعباد الله ولأنفسهم ، ولو جازاهم الله حسب ما يعاملون به الناس من ظلم غليظ لضاعف عقابهم ، ولظلمهم كما يظلمون الناس ، فكال لهم الكيل بأضعافه، ولكن الله لا يظلم الناس ، وإنما يجزيهم السيئة بالسيئة ، أو يعفو عنها إن شاء ، ويجزيهم الحسنة بعشرة أمثالها ، ويضاعف ذلك لمن يشاء ! .

الآية : (١٨٣)

« الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » (١٨٣)

التفسير : الذين قالوا إن الله عَهِد إلينا ألاّ نؤمنَ لرسول حتى يأتينا بقربان تأكلهُ النار، هم اليهود ، الذين تحدث القرآن عنهم فى الآيات السابقة ، وأنهم هم « الذينَ قالوا إن الله فقيرٌ ونحن أغنياء » .

« فالذين» هنا ، هم « الذين » هم هناك . ، وقد سمع الله قولهم هذا، وذاك ، وسجّله عليهم ليحاسبهم به ، ويجزيهم عليه .

وقولهم هُنا،هو افتراء من افتراءاتهم ، يدفعون به دعوة النبىّ لهم إلى الإيمان

به ، والتصديق برسالته ، على الصفة التي يجدونها فى التوراة عنه . . فهم ينكرون هذا الذى فى التوراة ، ويجيئون بمفتريات من عندهم ، ويلقوْن النبيّ الكريم بقولهم : « إن الله عهد إلينا ألاّ نُؤْمِنَ لرسولٍ حتى يأتينا بقربان تأكله النار » أى إن آية النبيّ التي يريدون أن يعرضها عليهم ــ كدليل على صدقه ــ هو أن يقدِّم لله قرباناً ، كبقرة ، أو شاة ، أو نحوها ، ثم يدعوهم إلى أن يشهدوا آية لله فى هذا القربان ، وأن ناراً من السَّماء ستنزل وتأكل هذا القربان ، وهم يشهدون . . فإذا جاءهم النبيّ على تلك الصفة آمنوا به ، وصدقوه . وإذ كان ماجاء به « محمد » هو على غير تلك الصفة ، فهو ليس بنبيّ ، أو ليس ــ على الأقل ــ هو النبيّ وُعِدوا به . .

وقد جنّب الله النبيّ الكريم أن يلقى هؤلاء القوم بالمِرَاء والجدل ، وأن يَرُدّ فِريتهم هذه التى افتروها على الله ، وأن يدخل معهم فى أخذٍ وردّ ، فذلك طريق يحبّ أن يسلكه اليهودُ مع النبيّ ، ويودّون أن يستجيب للسير معهم فيه ، حيث ينتهى الطريق ، ولا محصَّلَ له إلاّ ضياع الوقت فى المهاترات والسفسطات . الأمر الذى يريد الله أن يجنّبه النبيّ ، ليسلك بدعوته الطريقَ القويم إلى مَن يتقبل الخير ، ويعطى أذنه وقلبه لدعوة الحق ، وكلمة الحق . .

لقد نأى الله بالنبيّ الكريم عن هذا الطريق ، ودعاه إلى أن يلقَى اليهودَ بما يقطع حجتهم ؛ ويخرس ألسنتهم . .

فهم يريدون نبيًّا يأتيهم بقربان تأكله النَّار ، ليصدقوه ويؤمنوا به . .

وقد جاءهم أنبياء الله بالآيات البينات ، كإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وكفَرْق البحر بالعصا ، وتفجير الماء من الحجر الصّلد بها . . فهل آمنوا بهؤلاء الأنبياء واستجابوا لهم ؟ وأكثر من هذا . . فقد جاءهم أنبياء بهذا

المقترح الذى اقترحوه على النبىّ ، وتحدّوه به .. جاءهم من كان يقدّم لله قربانا فتأكله النار . . فهل آمنوا به وصدّقوه ؟

وكلاّ ، فإنه لم يكن منهم إيمان وتصديق . . بل كان التكذيب والكفران ، بل والعدوان . فقتلوا من أنبياء الله من جاءوهم بالآيات التى اقترحوها على النبىّ ، وبأكثر منها قوة ووضوحا فى مجابهة الحسّ .

ولو جاءهم النبىّ بهذا الذى طلبوه . . فهل يصدقونه ويؤمنون به ؟ ؟ ذلك مالا يكون . فقد كذّبوا رسلَ الله ، وقد جاءوهم بهذه الآيات التى كانت مما اقترحوه على الرسل ، وتحدّوهم به . . ولكنه التعلل ، والتهرب من مواجهة الحق ، بهذا المِراء الطفولىّ . . والله سبحانه وتعالى يقول فيهم :

« إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * » (٩٦ - ٩٧ : يونس) ويقول سبحانه : « وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا ، وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ » (١٤٦ : الأعراف)

الآية : (١٨٤)

« فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » (١٨٤)

التفسير : فى هذه الآية الكريمة عزاء كريم من ربّ كريم ، لنبىّ كريم .. فهذا شأن أصحاب الرسالات وحَمَلة الهدى . مع السفهاء ، أصحاب الطبائع النكدة ، والضمائر الفاسدة .. لايلقون منهم إلا التطاول الأحمق ، والسّفه اللئيم . .

وخاصة هذا الصنف من الناس (اليهود) الذين انتظم تاريخهم الأسود ، سلسلةً مترابطة الحلقات من مواقف الفساد والشر ، فى مواجهة كل خير ! فإنه ليست أمة من الأمم بعث الله إليها مثل مابعث فى بنى إسرائيل ، من أنبياء ومرسلين ، وليس رسول من الرسل حمل إلى قومه ماحمل رسل بنى إسرائيل إليهم من آياتٍ تُنطق البكم ، وتسمع الصمّ . . فلم ينتفعوا بتلك الآيات ، ولم يجدوا فيها شفاء لدائهم الخبيث .

وليست كثرة هذه الرسل ، ولا توارد هؤلاء الأنبياء ، ولا إشراق هذه الآيات التى يحملونها بين أيديهم ، إلى هؤلاء القوم ـ ليست هذه كلها إلاّ لأن الداء الذى يكمن فيهم ، والمرض المتمكن من عقولهم وقلوبهم ، قد استشرى حتى أصبح وباء ، فكانت نجدة السماء لهم بهؤلاء الأطباء الأساة ، يطلعون عليهم من كل أفق ، ويغادونهم ويراوحونهم فى كل وقت . . ولكن الداء لا يزداد على الزمن إلا استيلاء عليهم ، وفتكًا بهم . . « فى قُلوبهم مرض فزادهم اللهُ مرضاً ولهم عذاب أليم مما كانوا يكذبون » (١٠ : البقرة) .

« والبيّنات » هى الآيات التى جاءهم بها عيسى عليه السلام ، والتى يشير إليها الله سبحانه وتعالى بقوله : « وآتينا عيسى بن مريم البيّناتِ » (٧٧ : البقرة) « والزُّبُر » جمع زبور ، وهو القطعة من الشىء . . و « الزّبور » هنا ما أُعطى داود عليه السلام من كلمات الله ، التى هى بعض من كتاب الله ، الذى نزل على الرُّسل ، كلٌّ حسب حظه منه ، ثم جاء القرآن الكريم ، جامعاً للكتاب كلّه ، وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً المؤمنين فى مواجهة الذين كفروا من أهل الكتاب : « هَآ أَنتُمْ أُولَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ » (١١٩ : آل عمران) وهو القرآن وما سبقه من كتب .

والكتاب المنير هنا . هو القرآن الكريم . . وفيه إشارة إلى موقف

اليهود منه، وأنهم كذّبوا بالأنبياء الذين جاءوهم بالبينات ـ أى عيسى ـ وبالزبر ـ أى مجموعات الأنبياء الذين حمل كل منهم بعض كلمات الله إليهم، وبالكتاب المنير، وهو القرآن الذى جاء به «محمد» صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

الآية : (١٨٥)

« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ » (١٨٥)

التفسير : وهذه الآية الكريمة تحمل أيضاً عزاء كريماً إلى النبىّ الكريم، بما تهوّن عليه من أمر الدنيا، وما يَلْقَى فى تبليغ رسالة ربّه، من عناد وعَنَتْ، ومَا يُعرض له نفسه وأصحابه المجاهدين معه من جَهد وبلاء، فى ملاقاة الموت، والاستشهاد فى سبيل الله..

فهذا كلّه هيّن فى لقاء الجزاء الحسن، الذى أعدّه الله لرسوله وللمؤمنين، من رِضًى ونعيم..

أما أمر الموت، فهو حكم واقع على كل حىّ، ونازل بكل نفس.. « كل نفس ذائقة الموت » وإذا كان ذلك هو الشأن، فالحرص على الحياة، والفرار من مواقف الحق والخير، طلباً للأمن والسلامة ـ أمر لا يكتب الخلود لأحد، فضلاً عن أنه لا يمدّ له لحظة واحدة فى أجله المقدور له.

وأما الذى ينبغى الحرص عليه، والبذل من أجله، فهو الآخرة، التى هى دار البقاء والخلود.. وإذا كان هذا شأنها وذلك وزنها وقدرها، فإن العقل يقضى بطلب العمل لها، والسلامة فيها.. « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ».

الآية : (١٨٦)

« لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ » (١٨٦)

التفسير : وإذ كانت الحياة الدنيا إلى زوال ، وكان متاعها لعباً ولهواً وغُروراً ، وإذ كان متجه العقلاء فيها إلى دارٍ خيرٍ منها ، وإلى متاع أكرمَ وأهنأ من متاعها ــ وهى الدار الآخرة ــ إذ كان ذلك كذلك ، فإن للدار الآخرة عملاً ، وللجزاء الحسن فيها ثمناً . . إنها ليست أمانىّ يتمنّاها النّاس ، ولكنها جَهْدٌ ، وبلاء ، ومعاناة ، فإذا أرادها المريدون وطلبها الطالبون ، فليعملوا لها ، وليؤدّوا الثمن المطلوب للحصول على نعيمها ، ورضوان الله فيها !

وقد أرادها المؤمنون ، وطلبوا ما عند الله للمؤمنين فيها . . وإذن فليعملوا لها ، وليؤدّوا مطلوبها منهم !

إنه ابتلاء فى الأموال والأنفس . . الأموال ، يبذلونها فى سبيل الله ، والأنفس ، يبيعونها ابتغاء مرضاة الله . .

وإنه تعرّضٌ للأذى فى المشاعر والعواطف ، بسماع الكلمات المنافقة ، والأكاذيب الملفقة ، من الذين كفروا ونافقوا من أهل الكتاب ، ومن الذين أشركوا وضلوا من قريش وأحلافها . .

إنه أذى مادىٌّ فى الأموال وفى الأنفس ، وأذًى روحىّ فى الشعور والوجدان . . أذى يشتمل على المؤمن كلّه ، فى مادياته ومعنوياته جميعاً .

ونَعم . . هو أذًى بالغ ، وألم شديد ، وامتحان قاسٍ مرير !

ولكنّ الجزء الحسن أعظم وأشمل ، وإنه لأكثر قدراً ، وأثقل وزناً . . في جانب الإحسان والرضوان . .

والصبر والتقوى ، هما الزاد العتيد الذى يتزود به المؤمنون لاجتياز هذا الامتحان القاسى ، واحتمال آلامه وشدائده . . «وإن تصبروا وتتقوا فإنَ ذلك من عزم الأمور » . . فإن الأمر جدٌّ ليس بالهزل .

الآية : (١٨٧)

« وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ » (١٨٧)

التفسير : الذين أُوتوا الكتاب هنا ، هم اليهود . .

وهؤلاء اليهود كان جديراً بهم أن يكونوا فى عِدَاد المؤمنين ، بما فى أيديهم من كلمات الله ، الداعية إلى الحق ، الهادية إلى صراطٍ مستقيم . .

ولكنهم لم يصبروا ولم يتّقوا . . الأمر الذى لا يستمسك بدونه إيمان ، ولا يبقى بغيره المؤمن فى المؤمنين !

لقد نقضوا الميثاق الذى واثقهم الله به ، بأن يبيّنوا للنّاس ما فى الكتاب الذى معهم من حق وخير ، وألا يكتموا من هذا الحقّ والخير شيئاً . .

وليتهم إذ أمسكوا هذا الذى معهم من حق وخير ، ومنعوه النّاس ، وحجبوه عنهم ـ ليتهم وقفوا عند هذا ، فكان لهم فى أنفسهم منه خير .

ولكنهم أفسدوا هذا الخير على أنفسهم وعلى الناس ، فغيّروا وبدلوا ، وقلبوا وجه الحق باطلاً ، وأحالوا عَذْبَه ملحاً أجاجاً ، فضلّوا وأضلوا . .

إنهم - والأمر كذلك - أشبه بمن كان فى صحراء ، لا شىء فيها من ماء أو طعام ، وفى يديه شىء من ماء وطعام ، ومعه رفقة مسافرة ، لا شىء معها ، وكان فى هذا ما يبلغ به وبها الغاية إلى حيث الماء والطعام ، لو أنّه أظهره لها ، وأشاعه فيها . . ولكن كَزَازة طبعه ، وشحّ نفسه ، وخبث طويته - كل أولئك سوّل له أن يُخفى هذا الزاد بل ، وأن يفسده ، حتى لا ينتفع به أحدٌ . . فهلك ، وأهلك الرفقة المسافرة معه !

هكذا كان شأن اليهود مع كتاب الله الذى فى أيديهم . . كتموا الحق الذى فيه ، وأفسدوا الخير الذى ينطوى عليه ، وقالوا للكافرين والمشركين الكذبَ على رسول الله ، وعلى الكتاب الذى بين يديه ، لقاء عَرَضٍ زائل يعيشون فيه ، ودنيا فانية يمسكون بها . . فهلكوا وأهلكوا ، وضَلّوا وأضَلّوا . .

وفيهم يقول الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » (٥١ - ٥٢ : النساء)

الآية : (١٨٨)

« وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (١٨٨)

التفسير: هذه الآية أيضاً تعريض باليهود، وفضح لمساويهم، ووعيد بالخزى وسوء المصير لهم.

فقد ذُكر فى الآيات السابقة قولُهم: « إن الله فقير ونحن أغنياء » وأنهم بهذا يمسكون المال، ويحادّون الله به..

وهنا ـ فى هذه الآية ـ يُعرَضون فى معرض الفَرِحين بما أَتوْا، وهذا الذى أَتَوْه، ليس مما يُحمد ويقبَل، حتى يفرحوا به.. ولكن الذى فعلوه هو المنكر كلّه، وهو الشرّ كلّه.. إنهم إنما فعلوا الافتراء على الله، ونقض الميثاق الذى واثقهم به، أن يبينوا للناس مامعهم من كلمات الله، وما فيها من هدًى ونور، ولم يقفوا عند هذا الحدّ من البخل والشح، فبدّلوا فى كلمات الله وغيروا، لتستجيب لمطالبهم الخسيسة، ودواعيهم الخبيثة..

هذا هو الذى فعلوه، وفرحوا به، وحسبوا أنهم بهذه المنكرات التى أفسدوا بها دينهم وأضلوا بها غيرهم ـ قد استطاعوا أن يفسدوا على « محمد » دعوته، وأن يُغْرُوا المشركين به، ويصرفوهم عنه! « وإن يهلكون إلا أنفسَهم وما يشعرون » (٢٦: الأنعام)

ولم يقف أمرهم عند هذا المنكر، من تحريفهم لكلمات الله، بل لقد لبسوا النفاق، وظهروا به فى الناس، يُظهرون لهم المودة والحب، ويضمرون العداوة والبغضاء، ويرجون لهم النصر بألسنتهم، ويتمنون لهم الهزيمة من قلوبهم.. إنهم يريدون أن ينالوا الحمد والثناء، بما لم يفعلوا مما يستحق الحمد، ويستوجب الثناء.. إنها مجرد كلمات معسولة خادعة، إن انطوت على شىء، فإنما تنطوى على الشر والسوء والفساد..

وقوله تعالى « فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب » هو بدلٌ من قوله سبحانه: « لا تحسَبن الذين يفرحون بما أتوا... » وإعادة الفعل « تحسبن » هنا

لتوكيد الحكم الواقع عليهم وتقريره، وإلصاقه بهم، بعد أن طال الفصل بالمفعول الأول ومتعلقاته، بين الفعل حسب ومفعوله الثانى، حيث كان مقتضى النظم أن يجىء هكذا: « ولا تحسبَنَّ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا بمفازة من العذاب » .. فالذين يفرحون هو المفعول الأول، وبمفازة من العذاب هو المفعول الثانى ..

ولكن النظم القرآنى وحده هو الذى يحقّق المعنى الذى أشرنا إليه من قبل، وهو توكيد الحكم الواقع على اليهود وتقريره وإلصاقه بهم .. « فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب » الأمر الذى لا تجده متمكنا على تلك الصورة فى النظم الذى تمثلناه وطرحناه بين يدى النظم القرآنى.

وفى قوله تعالى: « ولهم عذاب أليم » توكيد للحكم الذى أشار إليه قوله تعالى: « فلا تحسبنّهم بمفازة من العذاب » .. إذ أن الفعل حسب فيه معنى الظَنِّ، الذى يقع من جهة من ينظر إلى اليهود، فيرى أنهم أصحاب دين وأهل كتاب، وأنهم فى الوقت نفسه منحرفون فى دينهم وكتابهم، وهم من أجل هذا أقرب إلى العطب منهم إلى السلامة، وأدنى إلى النار منهم إلى الجنة .. هذا هو الحكم الذى يقع فى ظن من يراهم ويطلع على أحولهم، وهو ظنٌّ أقرب إلى اليقين .. ولكنّه مع هذا حكم غير قاطع، إذ لا يملك هذا الحكم القاطع فى مصائر الناس إلا مالك الملك، وصاحب الأمر .. الله ربّ العالمين .. وقد جاء حكم الله فيهم، لتصدُق ظنون الناس بهم .. « ولهم عذاب أليم » وليس العذاب وحده هو المصير الذى يصيرون إليه، ولكنه العذاب الأليم ..

الآيات: (١٨٩ — ١٩٥)

« وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩)

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (١٩٤) فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ » (١٩٥)

التفسير: فى الآيات السابقة التى بدأت بالحديث عن أحد، والأحداث التى جرت فيها، وما تكشّف فى تلك الأحداث من وجوه المنافقين، وصبر المؤمنين، وكيد الكافرين ـ فى هذه الآيات طال وقوف المسلمين فى دخان هذه المعركة.. وفى التطلع إلى جوه شهدائهم الذين مثّلت بهم قريش بعد قتلهم، تشفّيا وانتقاما لقتلاهم فى « بدر »، كما طال الوقوف أيضا فى مواجهة الكافرين والمشركين والمنافقين، الذين عرضهم القرآن الكريم وفضحهم..

وفى هذا الجوّ كانت تهبّ من الله نفحة رحمة وعزاء المسلمين، فتلقاهم بين الفينة والفينة، وهم فى هذه المسيرة الطويلة مع أحد وأحداثها ـ فتهدأ أنفسهم

وتطييب خواطرهم، وتتجه قلوبهم، وتَشْخَص أبصارهم إلى الله، بالحمد والشكران، لمـاَ منّ الله عليهم به من الإيمان، وهداهم إليه، ولـكن سَرْعان ما تنقلهم الآيات القرآنية إلى المعركة وجوِّها، فتهتز مشاعرهم تلك المتجهةُ إلى الله، ثم يعودون إليها بعد أن تلقاهم آية رحمة وعزاء.. وهكذا تظل أنظار المسلمين تتقلب بين الأرض والسماء.. بين معركة أُحد وأرضها، وبين رحمة الله ورضوانه..

فـكان من تمام رحمة الله بالمسلمين، ورضوانه عليهم، أن ختم هذا الموقف، وأنهى تلك الأحداث، بهذه الآيات التى تتيح للمسلمين لقاء خالصاً مع الله، فى آفاق سماوية عالية، بعيدة عن تراب هذه الأرض ودخانها..

ولقاء هنا مع الله، والنفوس مهتاجة، والقلوب مضطربة، من شأنه أن يُحدث أثراً مضاعفاً فى الاتصال بالله، وملء القلب، والنفس، ولاءً وخشيةً لجلاله وعظمته.. وبهذا يزداد المؤمنون إيماناً بالله، ويقيناً بحكمته، ورضى بحكمه، وولاء لأمره ونهيه..

وفى هذه الآيات الـكريمة يتحقق هذا اللقاء، الذى يَخلُص منه إلى نفوس المسلمين وقلوبهم ما أراد الله بهم من خير، أشرنا إلى بعضه، الذى هو قليل من كثير!!.

ففى قوله تعالى:

« ولله ما فى السموات والأرض والله على كل شىء قديرٌ » مواجهة مشرقة بين المسلمين، وبين ملـكوت السموات والأرض.. هذا الملـكوت الذى هو بعضُ ما خلق الله، وإشارة إلى بعضٍ مما أبدع وصور!.

وفى هذه المواجهة المطلقة، تنطلق مشاعر المؤمنين، وتتفتح قلوبهم وعقولهم، لترتوى من موارد هذا الملـكوت الرحيب، وتنْعَب من رحيقه العذب الـكريم!.

وفى قوله تعالى . «إن فى خَلْق السموات والأرض واختلاف الليل والنهارِ لآيات الأُولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خَلْق السمواتِ والأرضِ ربنا ما خلقتَ هذا باطِلاً سبحانك فقِنا عذابَ النّار» ـ نداء رفيق، ينبعث من الأفق الأعلى، ليقود المؤمنين الذين شخصت قلوبهم وعقولهم إلى ما لله فى السموات والأرض، لترتاد مواقع الحق والخير، فتجد فى هذا النداء الرفيق هادياً يهديها، ورفيقاً يؤنسها، ويكشف لها معالم الطريق . . فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، آياتٌ مبصرة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد .. وإنه لكى يكون للعقل أثره وثمرته فى هذا المجال، ينبغى أن ينصرف بكل وجوده إلى هذا الملكوت، وأن يعيش فيه وله . فذلك هو الذى يفتح له مغالق الخير فيه، ويُطلعه على مطالع الحق منه .. وهذا ما يتفق لأولئك «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض» حيث يكون ذكر الله، واستحضار عظمته وجلاله . هو دأبهم، وحيث يكون النظر فى ملكوت السموات والأرض، ومطالعة آيات الخالق، واستجلاء روائع حكمته، هو شغلهم . . فى قيامهم وقعودهم، وفى حركتهم وسكونهم، وفى كل لمحة أو نظرة، وفى كل غَدْوة أو رَوْحَة . . حيث هم أبداً فى مُلْك الله، وحيثما كانوا أو اتجهوا فهم بين يدى ملكوت الله . . وعندئذ يطلع عليهم من آفاق الوجود هذا اللحن الموسيقى الشجىّ الذى يردّده كل موجود . «رَبنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً . .» فيتناغمون معه، بنبضات قلوبهم، وزغردة أرواحهم «ربنا ما خَلَقْتَ هذا باطلاً . . «سبحانك» ما أعظم عظمتك، وما أقدر قدرتك، وما أحكم حكمتك، وما أسعد من ينعم بنعيمك، وما أهنأ من يحظى برضاك «فقِنا عذابَ النار» حتى لا تنزعج قلوبنا عن موارد ملكوتك ولا تطيش ألبابنا من النظر فى آيات قدرتك، وروائع حكمتك!

* * *

وإنه حين يشهد المؤمنون ما يشهدون من جلال ملك الله ، وكمال قدرته ، وسعة علمه ، وروعة حكمته ، يتمنّون على الله أن يقيمهم على هذا المورد ، لا يتحولون عنه أبداً ، فهذا هو النعيم الخالد ، الذى ينعم به المؤمنون فى الدنيا والآخرة .

وجهنم أهلها ، الذين يُحْرَمون هذا النعيم ، ويلقون بدله عذاباً ونكالاً وشقاء . . وهذا خاطر إذا خطر بقلوب المؤمنين أزعجهم وأكربهم ، وزحزح عنهم هذه اللحظات المسعدة التى يعيشون فيها مع الله ، ويهنئُون بالنظر فيها إلى ملكوته . . وهنا يتجسد لهم هذا المشهد الكئيب ، الذى ينتظم أهل النار فى النار ، فيناجُون الله ، ويطلبون غوثه : « رَبَّنَآ إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » فإنه ليس خزىٌ بعد هذا الخزى ، ولا خِذلانٌ فوق هذا الخِذلان . . حيث موارد النعيم دانية ، ومنازل الرضوان مفتّحة ، ثم هم يُذادون عن هذا النعيم ، وذلك الرضوان ، ثم يساقون إلى جهنّم وعذاب السعير .

وفى قلوب واجفة ، وأنفاس مبهورة مختنقة ، يفرّ المؤمنون من هذه المواجهة لجهنم وأهلها ، إلى حيث يلقون الله برحمته ورضوانه : « رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا . . رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ » . . فهذا كل ما بين أيديهم أن يقدموه بين يدى رحمة الله ومغفرته ، لينالوا الخلاص من هذا الهول الذى يطبق على المنافقين والكافرين ، وليكونوا فى أصحاب الجنّةِ التى وُعد المتقون . . إنهم حين سمعوا منادِىَ الله ينادى بالإيمان ويدعوهم إليه ، استجابوا لله ، وآمنوا به ، وبرسوله . . وهم بهذا الإيمان يطمعون فى رحمته ، ويرجون أن تُغفر ذنوبهم ، وأن تكفّر عنهم سيئاتهم ، وأن يموتوا حين يموتون

على البر والتقوى ، وأن يُحشروا مع الأبرار والأتقياء . . فهم على وعدٍ من الله ، وُعدوا به على لسان رسله : « من عمل صالحاً من ذكر أو أُنثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ولنجزينَّهُمْ أجرهم بأحسنِ ما كانوا يعملون » (٩٧ : النحل) . . وهم يُحْيُون أنفسهم وينعشونها بالحديث عن هذا الموعد الكريم : « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ . . إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادِ » . . ومعاذ الله . . إن الله لا يخلف وعده . . « فَاسْتَجَابَ لَهُم رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ »

وفى قوله تعالى : « بعضكم من بعض » إشارة صريحة إلى أن المرأة والرجل على سواء عند الله ، فى الجزاء ، ثواباً أو عقاباً ، وأنها ليست فى منزلة دون منزلة الرجل ، بل هما على درجة واحدة من الأهلية واحتمال التّبعة ، وحمل الأمانة . . وكيف لا يكون هذا وهما — المرأة والرجل — من خَلْقٍ واحد . . فالمرأة تلد الذكر والأنثى . . والرجل يولد له الذكر والأنثى . . والذكر وَلَد الأنثى ، والأنثى بنت الرجل . . فكيف يكون لأحدهما فضل على الآخر قائماً على أصل الخلقة ؟ فإن كان ثمة فضل فهو فيما يتفاضل فيه الناس ، بالعمل فى مجال الخير والإحسان .

وفى قوله تعالى : « ثواباً من عند الله » إشارة إلى أن هذا الجزاء الذى يُجْزَوْنه ، هو فضل عليهم من الله سبحانه وتعالى ، إذ هداهم إلى الإيمان ، ووفقهم للعمل الصالح ، الذى أنزلهم منازل الرضا والقبول عند الله .

الآيتان : (١٩٦ — ١٩٧)

« لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » (١٩٧)

التفسير : فى هذه المناجاة التى كانت تَسْبَح فيها أرواح المؤمنين فى رحاب الله ، وترفُّ بها على مشارف الملأ الأعلى ، يُؤْذَن فيهم بالعودة إلى عالمهم الذى يعيشون فيه ، العالم الأرضى ، إذ كان لا بُدَّ من العودة بعد هذه الرحلة المسعدة فى عالم الروح ، والحق ، والنور ، لأن الحياة تدعوهم إليها ، ليكونوا مع النَّاس ، وليعيشوا فى الناس !

ومع ما معهم من زاد طيب تَزَوّدوا به فى تلك الرحلة المسعدة ، فإن ما على الأرض من مفاسد وشرور ، وما فى النَّاس من مُفْسِدين وأشرار ، جديرٌ به أن يغتال هذا الزاد الطيب ، وأن يحرم أصحابه منه إذا لم يحذروا .

ولهذا فقد تَلَقَّاهم الله سبحانه وتعالى بتلك اللفتة الكريمة — تلقاهم وهم يهبطون إلى هذا العالم الأرضى ، ليأخذوا حِذْرهم من العدوّ الراصد لهم بما فى يديه من مفاتن ومفاسد ، وليظلوا هكذا محتفظين بما وقع لأيديهم من خير ، فى تطوافهم بالعالم العلوى ، وسَبْحهم فيه . .

وكان قوله تعالى مخاطباً نبيّه الكريم : « لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » هو اليد القوية الرّحيمة ، التى تمسك على المؤمنين إيمانهم ، وتثبت على طريق الحق والخير خَطوهم ، فلا يغريهم ما يغدو فيه الكافرون وما يروحون ، من متاع الحياة وزخرفها ، وما يحصّلون فيها من مالٍ ، وما يقع لأيديهم من جاهٍ وسلطان ، فذلك كله « مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ » .

وفى خطاب النبىّ الكريم بهذا النهى ومواجهته بالتحذير مما فيه . . ما يُلْقَى إلى المؤمنين أن يكونوا على حذر دائم ، وإشفاق متصل . . إذ كان النبىّ الكريم ، وهو ما هو فى صلته بربه وخشيته منه ، وفى رعاية الله له ، وعصمته من الزلل ـ يُوَاجَه بهذا التحذير ، ويُلْفَت إلى مراقبة نفسه ، وحراستها ، فإن غير النبىّ من المؤمنين أولى بأن يَحْذَر ويخشى العدوّ المتربص به ، إن أراد النجاة والسلامة .

الآية : (١٩٨)

« لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ ٱللهِ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » (١٩٨)

التفسير : انظر إلى ألطاف الله ورحمته بالمؤمنين . .

فإن الله سبحانه وتعالى إذ يواجههم بهذا التحذير الذى لو انفرد بهم وحده لأقام نظرهم على طريق الخوف والمراقبة أبداً ، إن هم أرادوا الوفاء به ، أو كان فى استطاعتهم أن يفُوا به ! ـ إن الله سبحانه إذ يواجههم بهذا التحذير من جهة ، يلقاهم من جهة أخرى بما يشرح صدورهم ، ويدفئ قلوبهم بالأمل والرجاء ، فى حياة طيبة ونعيم مقيم . .

وبهذا تتوازن النظرتان : نظرتهم إلى العدوّ المتربص بهم ، الذى يدعوهم إلى التفلت من طريق الحق ومجانبته ، إلى طريق الضلال والغواية ـ ثم نظرتهم إلى ربّهم ، وما يدعوهم إليه من رضوانه ، ونعيم جناته . . وهنا يكون لهم بين النظرتين موقف ، وإلى أى الطريقين منزع !

« لـكِن الذين اتقوا ربّهم لهم جنَاتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نُزُلاً من عند الله وما عند الله خيرٌ للأبرار » .

فمن محصّل النظرتين، يجد المؤمنون أن ما يدعوهم إليه ربهم هو الخير ، وأن ما أعد الله لهم هو الجدير بأن يُحرصَ عليه ، ويعمل العاملون له ، وأن ما يسوس لهم به الشيطان ، هو الضلال المهلك ، والخسران المبين .

الآية : (١٩٩)

« وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ » (١٩٩)

التفسير : دعوة الحق والخير ، دعوة تقوم على الفلاح والرشد ، تستجيب لها النفوس الطيبة ، وتتفتح لها القلوب السليمة ، وتتقبلها العقول المتحررة من تلقِّيات الغُواة والمفسدين . وإذ كان ذلك شأنها ، فإنها ميراث الإنسانية كلهـا ، وحظ مشاع فى الأمم والشعوب جميعاً .

ودعوة الإسلام دعوة خالصة للحق والخير ، استقبلتها النفوس الطيبة ، وتداعت إليها القلوب السليمة ، وعَلقت بها العُقول المتحررة ، وسَرْعَان ما كثر جند الله حولها ، وتزاحم عباد الله على مواردها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

ولـكن فى حسدٍ قاتل ، وفى عداوة عمياء ، وقف اليهود من هذه الدعوة موقف الخِصام والـكيد . . فبَهتُوا رسول الله وكذَّبوه ، وافتروْا على الله ، فبدلوا وغيّروا فى آياته التى بين أيديهم من كتب الله . .

ومع هذا ، فإن قلّة قليلة منهم ، وكثير غيرهم من النصارى قد خرجوا

عن موكب هذا الركب الضالّ ، فآمنوا بالله ، وصدّقوا رسوله ، كما كانوا مؤمنين بالله من قبل ، ومصدقين برسل الله الذين دَعوْهم إلى الإيمان .

وفى إيمان هؤلاء الذين آمنوا من أهل الكتاب ، ما يؤنس الذين آمنوا من المشركين ، ويجىء إليهم بشاهد جديد على صحة دينهم وسلامته ، إن كان فيهم من يحتاج إلى هذه الشهادة أو يلتفّت إليها ، بعد أن شهد ما شهد من آيات الكتاب المبين ، ومعجزات كلماته .

ثم إن فى هذا الإيمان تسفيهاً لمن وقف من الإسلام هذا الموقف المعادِى له من أهل الكتاب ، إذ كان فيهم تلك الطلائع الراشدة التى عرفت الحق فيه ، ووجدت الخير معه ، فآمنت واهتدت ، على حين ظلوا هم فى ضلالهم يعمهون .

وفى قوله تعالى : « وما أنزل إليهم وما أنزل إليكم » إشارة إلى الصلة الوثيقة التى تجمع بين رسالات الرسل ودعوات الأنبياء ، وأنها كلها على طريق الحق ، والخير .

وفى قوله سبحانه : « لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً » تعريض بعلماء اليهود وأحبارهم ، وما افتروا على الله ، وغيروا وبدلوا فى آياته ، لِقاء ثمن قليل ، ومتاع زهيد !

الآية : (٢٠٠)

« يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٢٠٠)

التفسير : بهذه الآية الكريمة تختم سورة « آل عمران » التى كان أبرز ألوانها هذا اللون المصبوغ بدم المجاهدين فى سبيل الله ، فى أولَى معارك الإسلام، وعلى امتداد الطريق الذى ساروا فيه ، من أول يومهم معه ، إلى يوم أُحد ! !

فالمسلمون كانوا إلى يوم أحد فى مواجهة عواصفَ عاتية ، تهبّ عليهم من كل جهة ، وتطلع عليهم من كل أفق .

كانوا فى مكة قِلّةً مُستضعفين ، أخذتهم قريش بالبأساء والضرّاء ، ففرّوا بدينهم وانخلعوا عن ديارهم وأهليهم فى غربة موحشة ، لا يؤنسهم فيها غير دينهم ، ولا يملأ عليهم حياتهم إلا آيات الله يرتلونها ، ويسعدون بما تُفيض عليهم من رحمة ورضوان.. وكانوا فى المدينة أعداداً قليلة ، تتربص بهم قريش ، وتُعدّ العدة للقضاء عليهم ، على حين يمكر بهم اليهود ويؤلّبون الناس على حربهم .

ثم إذا كان يومُ بدر استروح المسلمون ريح النّصر ، وتنفسوا أنفاس الرضا . . فلما جاءت موقعة أحد ألقت على المسلمين هموماً ثقالاً ، وأطمعت فيهم أعداءهم ، فأظهروا لهم ما كانوا يخفون من عداوة ، وما كانوا يبيتون من عدوان . .

وقد رأينا كيف كانت رحمة الله بالمسلمين ومواساته لهم ، فيما نزل من آياتٍ ، بَعْدَ أحداثِ أحدٍ .

والصبر هو زاد المؤمنين وعتادهم فى مسيرتهم إلى الله ، وبلوغ مرضاته . . وبغير الصبر ، وتوطين النفس على ما تكره ، لا يستقيم خطو الإنسان أبداً على طريق الحق والخير ، إذ كان ذلك الطريق دائماً ، موحشاً ، تعترض مسالكه الحواجزُ والمزالق والعثرات !

لهذا كانت تلك الآية الكريمة دعوة خالصة للصبر ، تغرى المسلمين به ، وتحرضهم عليه ، وتفتح لهم طريق النجاح والفلاح بيده !

« يأيها الذين آمنوا . . اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فالصبر ، والمصابرة ، والمرابطة ، وتقوى الله ، هُنَّ اللائى يمكّنَّ للمؤمن من أن يضع قدميه على طريق النجاح والفلاح ، وأن يقطع هذا الطريق إلى غايته ، فيظفر برضا الله ، ويفوز برضوانه .

والصبر ، هو القوة التى يلقى بها المرء المكاره والشدائد ، فيحتملها فى إصرار وعزم ، وفى غير وهن أو ضعف . . فذلك هو الصبر الذى يدعو إليه الإسلام ، ويزكيّه ، كما تدعو إليه رسالات السماء ، وحكمة الحكماء . . وفى هذا يقول لقمان لابنه فيما يقول القرآن الكريم عنه : « واصبِرْ على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . » (١٧ : لقمان)

والمصابرة ، هى التجربة الحيّة للصبر ، والمِحكّ الذى يظهر به معدن الصبر عند الصابرين . . فليس الصبر درجة واحدة . . بل هو ـ شأنه شأن كل فضيلة ـ درجات متفاوتة ، تختلف حظوظ الناس منه ، كلٌّ حسب وثاقة إيمانه ، وقوة عزيمته .

وفى المصابرة مغالبة ومصاولة ، بين الإنسان وبين الشدائد والمحن ، التى يريد قهرها والغلَبَ عليها ، سواء كانت تلك الشدائد والمحن ممّا يعتمل فى نفسه من أهواء ونزعات ، أو مما تسوق إليه الحياة من بلاء وامتحان !

والمرابطة هى الثمرة المباركة من ثمار الصبر والمصابرة . . فإذا صبر الإنسان على المكروه ، ثم صابَرَ هذا المكروه على ثِقَله وامتداد الزمن به ، فلم يضعف ولم يضجر ، أسلمه ذلك إلى « المرابطة » التى يَذِلّ فيها المكروه ويصبح شيئاً مألوفاً . . وهكذا تتحول المكاره مع الصبر والمصابرة إلى أشياء أقرب إلى نفس الإنسان ، وأشكل بطبيعته ، وهكذا يصبح معتادا لها ، مرتبطاً بها . . وبهذا يحصل على الثمرة الكبرى ، وهى التقوى ، التى لا تكون إلا بقهر شهوات النفس وأهوائها ، وذلك هو الفلاح المبين والفوز العظيم .

* * *

سورة النساء

نزولهـــا : نزلت بالمدينة ، فهى مدنية ، بلا خلاف بين العلماء .

عدد آياتها : مائة وخمس وسبعون آية .

عدد كلماتها : ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون

عدد حروفها : ستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً

أسمـاؤها : المشهور أنها سورة النساء ، وتسمى : سورة النساء الكبرى وتسمى سورة الطلاق : النساء الصغرى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية الأولى

« يَآ أَيُّهَا النَّـاسُ اتَّقُوا رَبَّـكُمُ الَّذِى خَلَقَـكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْـكُمْ رَقِيبًا » (١)

التفسير : تحمل سورة النساء كثيراً من الأحكام التى تنظِّم العلاقات بين أفراد المجتمع الإنسانى . . بين الرجال والنساء ، وبين اليتامى والأوصياء ، وبين الورثة والمورِّث ، كما تضمنت حدوداً وأحكاماً فى شأن الزواج ، والمهر ، وقَوامة الرجل على المرأة ، والجهاد فى سبيل الله .. إلى كثيرغير هذا ، مما ضُمت عليه السورة الـكريمة . .

والمجتمع الذى لاتتماسك فيه روابط الأخوة الإنسانية ، ولا تسرى فى كيانه مشاعر الرحمة والمودة التى تنتظم أفراده ، هومجتمع هزيل العود ، متداعى البناء ، لا يثبت لأقلّ هِزّة تمرّ به ، أويقوم فى وجه أية عاصفة تهبّ عليه ! .

ولهذا كان هذا النداء الكريم الذي بدأت به السورة الكريمة دعوتَها إلى الناس جميعاً ـ جامعاً تلك المشاعر التي تربط الإنسان بالإنسان، وتضمه إليه، وتؤاخى بينه وبينه . .

« يا أيها النّاس » النّاس جميعاً من كلّ جنس ومن كلّ قومٍ .

« اتّقوا ربّكم » فإن تقوى الله، ومراقبته، وملءَ القلب خشية له، والولاء لجلاله وعظمته ـ هي مِلاك الأمر كله، فى إقامة الإنسان على طريق الحق والخير، وفى الوصول به إلى درجات عالية، فى منازل الكمال البشرى، المتاح للإنسان أن يصل إليه عالم البشر .

« الذى خلقكم من نفسٍ واحدة » على تلك الصورة الكريمة التى تتجلّى فيها قدرة الله، وحكمته ورحمته.. فالإنسانية كلها ماظهر منها وما سيظهر، هى ثمرة بذرة واحدة، أنبتها الله بحكمته، ونفخ فيها من روحه، فأعطت هذا الثمر الكثير، المختلف الألوان، المتعدد الطعوم، المبثوث فى كل أفق .

« وخلق مِنها زَوجها » أى وخلق من هذه النفس، ومن مادتها وطبيعتها زوجاً لهذه النفس، مقابلاً لها، ومكملا لوجودها .

والقصة التى تقول إن « حواء » خُلقت من ضلعُ آدم، هى من واردات الأساطير، وقد أخذ بها معظم المفسّرين، وفهموا هذه الآية الكريمة عليها .

والآية الكريمة لاتُمين على هذا الفهم، ولاتُسانده .. وإنا إذ ننظر فى قوله تعالى : « وَخَلَق منها زوجها » لنجد الضمير فى « منها » الذى يشير إلى النفس الواحدة، لا يقصدها باعتبارها كائناً بشرياً هو « آدم » وإنما يشير إليها باعتبارها مادّة مهيأة لخلق البشر، ومن هذه المادة كان خلق آدم، ومن هذه المادة أيضاً كان خلق زوجه، التى يكتمل بها وجوده، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ـ فى آية أخرى ـ « وخلقناكم أزواجاً » (٨ : النبأ) . . وليس هذا فى خلق الإنسان وحده، بل هو التدبير الذى قدّره الله لخلق الكائنات الحية كلها، من حيوان

ونبات . . ومن يدرى فربّما كان ذلك فى عالم الجماد أيضاً ، وفى هذا يقول الحق جلّ وعلاء: «ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون» (٤٩ : الذاريات» ويقول سبحانه : « والأرضَ مددناها وألقينا فيها رواسىَ وأنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج » (٧ : ق) . فهل كان خَلْق هذه الموجودات على تلك الصورة التى خُلق عليها آدم « وحواء » كما تحدّث الأساطير عنها ؟ الذكر أولاً ، ثم كان من ضلع الذكر خَلق الأنثى ؟ . . ذلك ما لا مفهوم له فى علم ، ولا معقول له فى عقل ! إن آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن الذكر والأنثى لا تفرق بينهما فى أصل الخِلقة ، بل تجعلهما طبيعة واحدة ، كان منها الذكر والأنثى ، وهذا ما فهمنا عليه قوله تعالى : «فاستجاب لهم ربُّهم أنى لا أُضيع عمل عاملٍ منكم من ذَكَرٍ أو أُنثى بعضُكم من بعض » (١٩٥ : آل عمران) وهذا ما نفهم عليه قوله تعالى: «أيحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدًى* ألم يكُ نُطْفةً من مَنِيّ يُمنَى* ثمّ كانَ عَلَقةً فخلَقَ فسوَّى فجَعَلَ منه الزّوجين الذكرَ والأنثى» (٣٦ ـ ٣٩ : القيامة) ففى قوله تعالى : « فجعَلَ منه الزوجين الذكر والأنثى » إشارة صريحة إلى أن الإنسان يحمل فى كيانه طبيعة الذكر والأنثى ، أى المادة المخلّق منها الذكر والأنثى ، ففى الذكر ، ذكر وأنثى وفى الأنثى أنثى وذكر .. وذلك ما يقرره العلم الحديث ، ويزكّيه القرآن العظيم .

ولو أردنا أن نأخذ بهذه الأسطورة ونقول فى خلق آدم وحواء بما تقول به الأساطير لكان علينا أن نرتفع بخلق آدم إلى بذرة الحياة الأولى للأحياء .. فى « الإميبيا » حيث يقوم التوالد والتكاثر فيها على الانقسام فى الجرثومة الواحدة ! فهل إلى هذه الجرثومة الإيميبية تمتد أنظار المفسّرين الذين قالوا ان حواء وآدم خُلِقا من جرثومة واحدة كانت آدم أولاً ثم انقسمت على نفسها فكانت آدم وحواء ثانياً ؟ إن يكن ذلك فلا بأس به عندنا ، وهو الذى

نقول به ، وهو أن آدم وَليد دورة طويلة فى سلسلة التطور ، وأنّ أول سلسلة للحياة التى تطور منها كانت « الإيميبيا » التى تتوالد بالانقسام ! .

« وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » أى من هذين المخلوقين ، الزوجين : الذكر والأنثى ، تكاثر الناسُ وانتشروا ، فكانوا هذه الأمم وتلك الشعوب بقدرة القادر العظيم ، وصنعة العليم الحكيم .

فهؤلاء هم الناس الذين دعاهم الله سبحانه وتعالى أن يتّقوه . . أن يتّقوا ربّهم ، الذى أنشأهم وربّاهم وصنعهم بقدرته ، فى أطوار درجت بهم من عالم التراب والنبات ، إلى عالم النطف . . ثم إلى الإنسان المسوّى فى أحسن تقويم .

وكلمة « ربّهم » هُنا تفيد معنى الرعاية والتربية التى يكون الإنسان أحوجَ ما يكون إليها وهو فى دور الخَلْق والتكوين . .

« واتقوا الله الذين تَسَاءلون به والأرحامَ » . . وهذا نداء آخر من قِبَل الحق ، يدعو به عباده إلى التّقوى ، بعد أن ناداهم بها « ربّهم » وهم عالم الخَلْق والتكوين . . إنهم هنا بشر سَوِىٌّ ، يعقل ويفهم ، ويدرك . . يعقل أنه لم يولد هكذا إنساناً مكتملَ الخلق مرة واحدة ، بل تنقّل فى أطوار عديدة ، تحت رعاية رحيمة ، وبيد حكيمة . . ويفهم أنّه لم يخلق نفسه ، كما أن أبويه لم يخلقا نفسيهما ، وأن هذا الخلق الخالق عظيم فوق عالم البشر . . ويدرك بعد هذا وذاك أن هذا الخالق هو الذى تنتسب إلى صنعته المخلوقات جميعاً ، وأنه الإله المستحق للألوهية المنفرد بها ، كما أنه الربّ المختصّ بالربوبية ، المحمود وحده عليها . .

ومن أجل هذا كانت تقوى الله ، وخشيته ، والولاء له ، أمراً لازماً ، منوطاً فى عنق الإنسان ، لربّه وإلهه . وهذا نداء الحق جلَّ وعلاَ يذكّره بهذا الواجب ،ويدعوه إليه ، فإن قصّرَ أو كفر بهذا الحق ، فقد خاَب وخَسر !

وفى قوله : « الذى تَسَاءلون به » إيقاظ لهذا الشعور الذى يسكن كيان « الإنسان » كلّ إنسان ، فيهيج فيه دواعى التطلع إلى الله والبحث عنه ، والمساءلة به ، فيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين الناس ، ففى كل إنسان داعٍ يدعوه إلى البحث عن الله ، والمساءلة عن ذاته وصفاته .

فالبحث عن الله ، والسؤال عنه ، والمساءلة به ، أمرٌ شَغل الإنسانَ ــ كل إنسان ــ منذ كانت الإنسانية ، ومنذ فتحت عينها على هذا الوجود ، وأدارت بصرها فيه ، وقلّبت وجهها بين السماء والأرض ، وفيما بين السماء والأرض .

فالله ــ سبحانه ــ يملأ على الإنسان وجوده كله ، ويطرق حواسه كلّها ، ويخالط مشاعره ومدركاته جميعها ، فيما بثّ الله فى هذا الوجود ، من روائع صنعته ، وآيات خَلقه ، الأمر الذى لا يكون معه إنسان من الناس قادراً على الذّهول عنه ، أو التفلّت منه ، وحبس الحواس ، والمشاعر ، والمدارك ، عن الاشتغال به ، فلينظر المرء أىّ إنسان هو؟ إن أراد أن يكون فى الناس ، أو أن يكون من الناس .

« والأرحامَ » . . قرىء قوله تعالى : « والأرحامَ » بالنّصب عطفاً على قوله تعالى « واتقوا الله » بمعنى اتقوا الله والأرحامَ . .

وتقوى الأرحام هى من تقوى الله ، فكما أن لله حقوقاً ، ينبغى رعايتُها والحرص عليها ، فكذلك الأرحام ــ وهم الأقارب ، ومنهم الأبوان ــ لهم حقوق يجب رعايتها والحرص عليها ، إذ كان لها شأن فى تربية الإنسان ورعايته . .

فهذا الواجب الذى يؤديه الإنسان لذوى رحمه ، هو وفاء لحقوق لهم عليه ، وأداء لدين أقرضوه إياه ، وقد آن أوان استقضائه منه ، حين قَدَر وعجزوا ، وملك ولم يملكوا .

وفى الجمع بين اتقاء حقوق الله ، وحقوق ذوى الأرحام لفتات . . منها :

أولاً : التنويه بشأن الصِّلة التى تصل الإنسان بأصوله وفروعه ، وأنها صلة يجب أن تقوم على التَّوادّ والتراحم ، وأنّ فى رعايتها مرضَاةً لِلّهِ ، واستكمالاً لتقواه .

ثانياً : الإلفات إلى حقوق الله ، وأنها حقوق عظيمة ، لا يستطيع الإنسان الوفاءَ ببعضها ، وأن الغفلة عنها ، أو التفريط فيها عدوان على الله ، وكفران به وبنعمه ، وأنه إذا كان فرضاً لازماً على الإنسان أن يَبَرَّ أبويه ، ويرعى ذوى رحمه ، بدواعى الانتساب إليهم ، فإن حبّه لله ، ورعايته لحقوقه ، بالتزام تقواه ـ أوجبُ وألزم ، إذ كان نسبه إلى خالقه وربّه وإلٰهه هو النسب الحق الأصيل ، وما سواه تبع وإضافى .

كذلك قرىء قوله تعالى : « والأرحامِ » بالجرِّ ، عطفاً على الضمير فى « به » فى قوله تعالى : « واتقوا الله الذى تسَاءلُون به والأرحامِ » بمعنى واتقوا الله الذى تساءلون به وبالأرحام ، أى الذى هو ملء خواطركم وأفكاركم ، كما هو شأنكم مع أهليكم وذوى أرحامكم . فالإنسان أكثر مايدور على لسانه ، ويجرى فى خاطره ، هم أهله وقرابته ، وربما شغل الإنسان بأهله عن الله ، وهذا ما نبّه الله سبحانه وتعالى إليه وحذّر منه فى قوله سبحانه : « قُلْ إن كانَ آباؤُكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشونَ كسادها ومسَاكِنُ ترْضَوْنَها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيلِهِ فتربَّصُوا حتى يأتى اللهَ بأمره واللهُ لا يهدى القوم الفاسقين » (٢٤ : التوبة) ويقول تعالى : « فَإذا قضيتم مناسِكَكُمْ فاذكروا اللهَ كذكرِكُمْ آباءكُمْ أو أشدَّ ذِكرا » (٢٠٠ : البقرة) . . ومع هذا فإن

والقراءتان ـ بالنصب والجرّ ـ يكملان بعضهما ـ ويكشفان عن وجه من وجوه الإعجاز القرآنى ، ويأخذان على الناس السبيل إلى الانحراف عن سواء السبيل ، فى الجمع بين تقوى الله ، وبرّ ذوى الأرحام . . فمن الناس من يلتفت بوجوده كلّه إلى الله ، ويذهل عن حقّ أهله وذوى قرابته ، ومن الناس من تشغله أمور أهله وذوى قرابته فيجور على حقّ الله عنده . والطريق القويم هو أن يَرْعَى الأمرين معاً ، فلله حقوق يجب أن يؤديها ، وللأهل حقوق ينبغى أن يرعاها ، وهو ملوم إن قصّر فى حق على حساب الحق الآخر .

الآية : (٢)

« وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا » (٢)

التفسير : التطبيق العملى للتقوى بشقّيها ـ تقوى الله ، وتقوى ذوى الأرحام ـ يكون أكثر ما يكون ظهوراً فى رعاية حقوق الضعفاء من ذى الأرحام ، وهم اليتامى ، حيث يكون اليتم غالباً فى كفالة أحد أقاربه .

ولهذا كان أول اختبار عملىّ للتقوى التى دعا الله إليها فى مطلع السورة هو الدعوة إلى رعاية حقوق اليتامى ، واتقاء الله فيهم ، وفى أموالهم التى هى أمانة فى أيدى الأوصياء ، كما أنهم هم أنفسهم أمانة فى ذمة هؤلاء الأوصياء . . فلا تبرأ ذمة الوصىّ حتى يؤدّى تلك الأمانة على وجهها الذى أمر الله أن تؤدّى عليه . .

وقد خصّ الأمر الإلهى المالَ بالذكر ، لأن أكثر ما تطمح إليه نفوس الأوصياء وتطمع فيه ، هو المال ، وما سواه فهو تبع له . .

فلو أن الوصىّ عفّ عن مال اليتيم ، وراقب الله فيه ، وبذل له من الجهد والرأى ما يبذل لماله هو ـ لو أنه فعل ذلك لا استقام أمره كلّه مع اليتيم ، فبذل له من الحبّ والعطف ، ماينعش نفسه ، ويطيّب خاطره ، ويعدّل سلوكه .. والعكس صحيح ، فإنه حين تمتد عين الوصىّ إلى مال اليتيم بالخيانة والغَدَر ، فإنه لا يتحرج أبداً بعد هذا من أن يسوق البُغْض والكراهية لهذا اليتيم ، وأن يسومه الخسف والهوان ، وأن يُرْخِي له الحبل فى طريق الضلال والفساد ، حتى يُخلِيَ له الطريق لأكل ماله الذى استباح أكله ، واستمرأه .

وفى قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم » أمر قاطع بأداء أموال اليتامى إليهم سليمةً كاملة ، سواء كان اليتيم لا يزال صغيراً تحت كفالة الوصىّ ، أو بلغ رشده واستحق أن يتولىّ أمر نفسه .

وعلى هذا ، فليذكر الوصىّ دائماً أن مال اليتيم هو مال اليتيم ، وأنه أمانة فى يده ، مطالب بأن يحاسب نفسه عليها فى كل يوم ، وأن يدفعها إلى اليتيم عند أى طلب .. وهذا ما يجعله فى مراجعة ومحاسبة مع نفسه أبداً ، غير منتظر هذا اليوم البعيد ، الذى قد يمتد إلى سنين ، حين يبلغ اليتيم رشده ، ويحين وقت الحساب ! .

« ولا تَتَبدّلوا الخبيث بالطيّب » .

نَهىٌ بعدَ أمر .. وفى هذا النهى ، وبالامتثال له ، يتحقق الأمر ، ويجىء الوفاء به على وجه مَرْضىَ سليم . .

والخبيث ، هو أكل مال اليتيم ، وتضييعُ حقوقه ، وإفساد مصالحه أو تفويتها ، إهمالاً وتقصيراً . . عن عمد أو غير عمد .

والطيب ، هو رعاية مال اليتيم ، وحسن القيام عليه ، وتحرّى أعدل الوجوه لإنمائه وتثميره .

وتبدّل الخبيث بالطيّب ، أن يسلك الوصىّ بمال اليتيم مسالك التضييع والإهمال ، والاغتيال . . فيكون بذلك قد ترك الطيب الذى أمره الله به ، وأخذ الخبيث الذى دعته نفسه إليه ، ومال به هواه نحوه .

« وَلَا تَأْكُلُوا أموالهم إلى أموالِكُم » .

هو بيان لبعض المداخل التى يتبدل الأوصياء فيها الخبيث بالطيب ، فى شأن اليتامى الذين فى أيديهم ، وذلك بأن يُضيفوا أموال اليتامى إلى أموالهم ، ويحسبوا أنها من بعض ما يملكون ، دون أن يكون فى تقديرهم أن مال اليتيم لليتيم وحده ، وأنهم أمناء عليه ، حرّاس له .

« إنه كان حُوباً كبيراً » .

الحُوب الذنب والإثم . . والضمير فى « إنه » يعود إلى التصرف المعيب الذى يتصرفه الأوصياء فى أموال اليتامى ، وإضافتها إلى أموالهم .. وذلك جَوْر غاشم ، وعدوان مبين .

الآية : (٣)

« وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا » (٣)

التفسير : الذى ينظر فى الآية الكريمة نظرة مجرّدةً ، تقطعها عن سابقها ولاحقها من الآيات ، لا ينكشف له وجهها ، ولا يستقيم له معناها . . ومن هنا كان اضطراب كثير من المفسّرين حِيالَها ، وتخبطهم فى التوفيق بين شرطها وجوابها .

فالشرط المشروط هنا وهو الخوف من ظلم اليتامى ، أو بمعنى آخر طلب العدل والتماس الإحسان فى اليتامى ـ هذا الشرط معلقٌ تحقيقه بنكاح ما طاب للأوصياء من النساء . .

والأمر فى ظاهره ، على النقيض من هذا الحكم الذى يجمع بين الشرط والجزاء . . فالعدل فى اليتامى لايقوم أبداً على نكاح ما طاب للأوصياء من النساء مثنى وثلاث ورباع ، ، إذا أُخذ على إطلاقه ، بل إن ذلك ربما كان داعية إلى العدوان على اليتيم، والجور على ماله ،وفاءً لمطالب الزواج والأولاد الكثيرين ، الذين يثمرهم هذا الزواج المتعدد .

ولكن وصل الآية بما قبلها وما بعدها من آيات،يجعلها بمكانها الصحيح من الصورة العامة التى ترسمها مجموعةالآيات الأولى ، من السورة ، تلك الصورة التى تدعو إلى تقوى الله فى محارمه ، وتقواه فى ذوى الأرحام عامة ، وفىالأيتام منهم خاصة . .

وقد دعت الآية السابقة على هذه الآية — دعت الأوصياء على اليتامى أن يُؤتوهم أموالهم ، وأن يؤدوها إليهم كاملة ، لاتفريط فيها ، ولا عدوان عليها .

ثم يجىء بعد هذا قوله تعالى :

« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ـ يجىء قول الله هذا ، تأسيساً على ما أمر به فى الآية السابقة ، وتقريراً له . .

فقوله تعالى : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا .. الآية » هو خطاب لمن استجاب لقوله سبحانه : « وآتوا اليتامى أموالهم » أو لمن ترجى منه الاستجابة لهذا الأمر ، أو هو خطاب للمؤمنين جميعاً ، وإلزام لهم أن

يستجيبوا له ، إن كانوا مؤمنين حقاً ، لأنه أصل من أصول الإيمان ، ودعامة من دعائمه .

وإذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان من شأن المؤمنين أن يستجيبوا لهذا الأمر وأن يحققوه ، فإن هناك أمراً آخر يلحق بهذا الأمر ، إذا هم فعلوه ، عظُم أجرهم ، واستقام على التقوى طريقهم ، وهذا الأمر هو العدول عن زواج اليتيمات ، إلى زواج غيرهن من النساء . . فذلك أبْعَدُ للشُّبَهِ، وأقطع لنوازع الطمع فى ما لهِنّ .

وعلى هذا يكون المعنى هكذا . .

أمّا وقد خفتم أيها الأوصياء على اليتامى ، أن تأكلوا أموالهم بالباطل ، تريدون بهذا مرضاة الله ، وتبتغون رضوانه — فإن من تمام هذا الأمر أن تخافوا ظلم اليتيمات فى أنفسهن ، بعد أن خفتم ظلمهن فى ما لهن . . فإن كنتم على خوف من ظلمهن وتريدون أن تجنبوا أنفسكم هذا الموقف ، فدعوهن لشأنهن ولا تتزوجوهنّ وهنّ فى أيديكم ، لا يملكون من أمرهن شيئاً ، وإن لكم فى غيرهن من النساء ما تشاءون . . مثنى وثلاث ورباع ، ففى هذه التوسعة لكم فى زواج أكثر من واحدة نعمة من نعم الله عليكم ، ومن شكر هذه النعمة ألاّ تطمح أعينكم إلى اليتيمات ، وما فى الزواج بهن من حرج .

وفى قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء » ما يشير إلى أن اليتيمات المرغوب عن زواج الأوصياء منهن ، هن الصغيرات اللاتى لا يصلحن للزواج ، ولهذا كان الأمر الإرشادى بالزواج : مِن «ما طاب لكم من النساء» أى البالغات ، الصالحات للزواج ، اللائى تشتهيهن النفس .

وفى قوله تعالى : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدةً » دعوة إلى العدل بين

الزوجات ، والتسوية بينهن فى الحقوق والواجبات ، وفى هذا ضمان لسلامة الأسرة واستقرارها ، ورفع كثير من أسباب الخلاف بينها .

وإذا كانت التسوية بين الزوجات تسوية مطلقة ، والعدل بينهن عدلا كاملا — أمراً غير ممكن ، وإن أمكن فى حال فلن يمكن فى جميع الأحوال — إذا كان ذلك كذلك ، فقد أشار الإسلام إلى الدواء الناجع لسلامة الإنسان فى دينه ، فلا يظلم ، وسلامته فى نفسه ، فلا يقع بين مهاب العواصف من الشقاق والخلاف — هذا الدواء هو الاقتصار على زوجة واحدة والاكتفاء بها : «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وفى قوله تعالى : « أو ما ملكت أيمانكم » إشارة إلى دواء آخر يتداوى به من يرغب فى التزوج بأكثر من زوجة ! فهناك «الإماء» وهن ما ملك المرء من الجوارى ، فله أن يتمتع بما شاء منهن .

وفى قوله سبحانه : « ذلك أدنى ألاّ تعولوا » بيان للحكمة من الاقتصار على زوجة واحدة ، أو التسرى بالإماء .

والعوْل : الميل ، يقال عال الميزان عوْلا ، أى مال .

والعوْل : الزيادة ، وتُحمَل الزيادة هنا على الزيادة فى الظلم ، أو الزيادة فى كثرة الأولاد والنفقات ..

وعلى هذا يمكن أن يحمل العول هنا على هذه المعانى كلها ..الزيادة فى الظلم ، والزيادة فى العيال والنفقة ، ثم الحاجة والفقر !

وقد يسأل سائل : أليس فى التسرى بالإماء كثرةٌ فى العيال ، وكثرة فى النفقة ؟ فكيف تكون الدعوى إلى التسرى بهن ، ثم يكون التعليل لذلك ما عُلل به وهو عدم العول ؟

والجواب على هذا ، هو أن التسرِّى بما ملكت اليمين ، لايزيد فى أعباء الحيـاة على مَن تسرَّى بما ملكت يمينه منهن ، إذ كنَّ فى كفالته ، قبل التسرى وبعده ..

وقد أجيب عن كثرة العيال ، بأن الإنسان لايحرص على طلب الولد من أَمَته ، ولا يتحرّج فى العزل عنها ، برضاها أو بغير رضاها .

ولابد هنا من كلمة حول تعدد الزوجات ، وإباحة الإسلام له ، ومقولات الذين يرجمون الإسلام بمفترياتهم عليه ، فى شأن هذا التعدد .

تعدد الزوجات : ضوابطه ، وحكمته

إن الذين يَشْغَبون على الإسلام ، ويشوشون عليه . . يقولون فيما يقولون عن هذا التعدد : لماذا يُباح للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأة ، وأن يجمع بين أكثر من واحدة إلى أربع ، ولا يباح للمرأة أن تتزوج أكثر من رجل ، وأن تجمع بين أكثر من رجل إلى أربعة ؟ أليس هذا هو العدل والمساواة .. إن كان عدل ومساواة ؟

ونقول : إنه لـكى ننظر إلى هذه المسألة ، نظراً صحيحاً مستقيما ، ينبغى أن ننظر إليها من جانبيها معاً .. جانب المرأة وجانب الرجل ، كلٌّ على حِدَة ، ثم كلٌّ فى مقابل الآخر :

ففى جانب المرأة نجد :

أولا : أن الطبيعة قد جعلت مواليدها من الإناث أكثر من الذكور ، سواء ذلك فى عالم الإنسان ، أو الحيوان والطير .. وحتى فى النبات .

وقد يكون هذا التدبير المتصل بأصل الحياة ، لـكى تتـكاثر المواليد ، وتعمر هذه الأرض ، إذ كانت الإناث هى الوعاء الحامل للمواليد ، وعلى قدر هذه الأوعية وكثرتها يكون النسل وكثرته .

ثانياً : هذه الحروب — وهى سنّة من سنن الحياة البشرية — تذهب بكثير من الرجال ، الأمر الذى إذا أضيف إلى سابقه قلّت به نسبة الرجال إلى النساء ، إلى درجة بالغة الخطر ، إن لم يكن هناك عامل آخر ، يوازن هذا العامل ويقلل من خطره .

ونسأل : إذ لم يكن هناك عامل معدِّل لهذا التفاوت البعيد ، فى النسبة بين أعداد النساء وأعداد الرجال — فأين يذهب هذا العدد العديد من النساء ، اللائى لامقابل لهن من الرجال ؟

جواب واحد لاغير لهذا السؤال : هو أن يَمُتْنَ عانساتٍ إذا تعفّفن — وقليل ماهن ، أو يحيَيْن حياةً بهيمية ، مباحاتٍ لكل رجل ، إذا استجبن لغريزتهن — وما أكثرهن !

أفهذا ؟ أو أن تسكن المرأة إلى رجل مع أخرى غيرها أو أخريات ، متحصنةً فى بيت الزوجية ، مستظلة تحت جناح رجل يحميها ، ويَغار عليها ، ويُخرس قالة السوء فيها ؟

ثم لنسأل :

وهل مع هذه الإباحة المطلقة ، وجد الرجال فُرَص الحياة وظروفها ، مؤاتية لهم ، فسكن الواحد منهم إلى أكثر من واحدة ؟

إن الواقع يشهد بأن أفراداً قلة — يُعدّون فى حكم الشاذ — هم الذين استعملوا حق الإباحة هذا .. أما الغالبية العظمى من الرجال فقد رغبوا عن هذا المباح ، واكتفوا بامرأة واحدة ، قطعوا الحياة معها .. بل وما أكثر الذين تُتوفى زوجاتهم ثم لا يتزوجون بعدهن ، وفيهم بقية شباب وصحة !

إن التعدد — الذى أباحه الإسلام — لم يكن على سبيل الإلزام ، وإنما

كان باباً من أبواب الرحمة ، تفيدُ منه المرأة — غالبا — أكثر مما يستفيد منه الرجل ، حين لاتجد المرأة طريقاً تسكن فيه إلى رجل ، إلاّ مع أخرى أو أخريات ، يشاركنها الحياة الزوجية معه . . فهى فى هذه الحياة — على مابها — خير من حياتها بلا رَجل !

ثم نسأل أيضاً :

أهناك ـ فى هذه الإباحة ـ مايرغم المرأة على أن تشارك غيرَها فى الزوج ، أو يشاركها غيرُها فيه ؟

إن المرأة الأولى أن تطلب الطلاق إذا تضررت من المرأة الثانية ، كما أن للمرأة التى يُراد لها أن تكون ثانيةً ـ لها أن ترفض الزواج من هذا الزوج . . وهكذا فى الثالثة والرابعة !

ثم إن لأىّ امرأة أن تشترط عند الزواج أن تكون العصمة بيدها . . الأمر الذى يفتح لها الطريق إلى الخلاص من الزواج إذا تضررت منه !

وندع المرأة . . وننظر فى جانب الرجل ، فنجد :

أولا أن الرجل يحتفظ بقوته وحيويته مدة أطول من المرأة ، التى تسبقه إلى الوهن والضعف ، بما تعانى من الحمل ، والولادة ، والرضاع ، والتربية .

وفى هذه الحال ، قد يرى بعض الرجال أن يمسكوا بالزوجة — على مابها — وأن يُحْصِنُوا أنفسهم ، ويحفظوا دينهم ومروءتهم بزوجة أخرى .

وثانياً : قد تُصاب المرأة بمرض يعجزها عن الوفاء بحاجة الزوج والقيام على شئون البيت ، وهنا تبدو الحاجة إلى امرأة أخرى ، تؤدى الوظيفة التى عجزت عنها صاحبتها ، وعندئذ يكون من الإعنات والحرج معاً أن يُحجر على الرجل ، فلا يجد سبيلاً إلى الخروج من هذا الوضع الأليم !

وفى إباحة الزواج للرجل بامرأة أخرى ، مايقيح له فى تلك الحال أن يفكر تفكيراً هادئاً عاقلا ، وأن يتخيّر لنفسه أى الأمرين أصلح له . . الزواج بامرأة أخرى أو الصبر على ماهو فيه ؟ وكثيراً ما يكون الأمر الأخير هو الرأى الراجح ، الذى يميل إليه ، ويأخذ به فى أغلب الأحوال ، رعايةً للعشرة الزوجية ، ووفاء لحقّ مابين الزوجين ، من ألفة ومودة . . وذلك حين يكون للرجل — بسبب هذه الإباحة — فضلٌ ، يتعزّى به ، ويترضّى إنسانيته، بما كان منه من إيثار وتضحية ! !

بقى أن ننظر إلى هذا الموقف من جانب آخر ، وهو أن يُغلق فى وجه الرجل باب الخلاص من هذا الضيق ، الذى يعيش فيه تحت سلطان الإلزام والقهر ، دون أن يكون للاختيار ، والشعور بمعانى التضحية والإيثار ، مكان هنا ، إزاءَ هذا الإلزام القاهر ، الذى يُحكم عليه فيه بأن يعيش مع امرأة مريضة ، عاجزة ، أو عقيم لاتلد !

ونسأل : كيف تكون حياة الرجل فى هذا السجن الرهيب المخيف ؟ بل كيف تكون حياة المرأة نفسها مع هذا الرجل ، الذى يراها فى تلك الحال حكما أبدياً عليه بالشقاء والبلاء ؟ إن المرأة فى هذه الحال تكون أشقى من الرجل ، إذ تجد نفسها أنها لعنة مفروضة على الرجل ، وأنه لوكان لها الخيار فى إفساح الطريق له لما ترددت فى حلّ الرباط الذى يربطها به ، ولطالبته بذلك قبل أن يطالبها هو به !

ثم انظر ماذا يكون من العواطف الإنسانية ، التى يوقظها هذا الشعور الذى يسيطر على الزوجين فى ظل التشريع الإسلامى الذى أباح لهما الانفصال ، فى تلك الحال ، كما أباح للرجل أن يتزوج بأخرى ، يضمها إلى زوجه الأولى . . إن كلاًّ منهما يجد أنه فى سَعَةٍ من أمره ، وأنه يملك وجوده وإرادته ، كما أنه

يحتفظ بمروءته وشخصيته . . فالرجل إذا احتفظ بامرأته فى حالها تلك ، ولم يتزوج عليها ، أرضى جوانب كثيرة من عواطفه ، تعوّضه كثيراً مما يلقى من ضيق وضرر معها . . والمرأة تشعر بأنها غير مفروضة عليه ، وأنه أمسك بها بمحض اختياره ، وآثر ألا يضارّها بأخرى حسب إرادته وتقديره . . وأن الجانب الإنسانى فيهما هو الذى يمسك برباط الحياة الزوجية بينهما . .

وإذن ، فهذا التعدّد الذى يشنّع به أعداء الإسلام على الإسلام ، وينادُون به على الملأ أنه من الموروثات البهيمية التى ورثها الإنسان عن الحيوان — هذا التعدد هو دواء لأدواء كثيرة ، فى محيط المرأة خاصة .. فى أغلب الأحيان ، كما أنه شفاء لبعض العلل التى تصاب بها الحياة الزوجية فى بعض الأحيان !

وهذا الدواء الذى يقدّمه الإسلام هنا ليس مفروضاً فرضاً لازماً على كل إنسان ، وفى كل حال ، بل إنه — شأنه شأن كل دواء — محكوم بحكم الحاجة ، وبحسب الحالة .

فمن خرج به عن هذا الحكم — حكم الدواء عند الحاجة — فقد ظلم نفسه ، وجاوز حدود الله ، وليس على الإسلام ، ولا على شريعة الإسلام شىء من عدوانه وظلمه .

الآية : (٤)

« وَآتُوا ٱلنِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَىْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا » (٤)

التفسير : الصَّدُقات : جمع صَدُقة ، وهى المهر . . لأنها من مادة الصِّدق الذى يُلزم به المرء نفسه ، وينطق به عن اطمئنان ورضًى.. والمهر يقدمه الرجل

للمرأة عن رضًى وطيب نفس . . ومنها الصَّدَقة التى يبذلها الإنسان فى مجال الإحسان من غير إلزام .

والصدُقة بضمّ الدال ، والصَّدَقَة بفتحها .

وفى استعمال الأولى فى المهر ، والثانية فى التصدّق إعجاز من إعجاز القرآن! فالصدُقة ـ بالضم ـ أثقل نطقا من الصَّدقة بالفتح .

وكذلك هما على هذا الشأن ، فى مجال التطبيق العملى لهما . .

فالمهر ثقيل فى قدْره ، ومادته ، قد يتكلف له المرء كثيراً من الجهد حتى يحصل عليه ، وقد يقتطع لهَ قدراً كبيراً من ماله ، الذى هو بعض نفسه . . ومن هنا كان ثقله على النفس ، ثم كان ثقله على اللسان !

وليس كذلك الصَّدَقة ، فإن محملها خفيف ، يؤديها الإنسان عن سعة ، ويجود بها من فضل ماله ، فلا يكاد يحسّ بها . . « ما على المحسنين من سبيل » . فقد تكون الصدقة بشقّ تمرة ، كا فى الحديث الشريف : « تصدَّقوا ولو بشقٍّ تمرة » وقد تكون بالكلمة الطيبة ، كما فى الحديث أيضاً : « الكلمة الطيبة صدقة » .

والجامعة بين الصدُقة (المهر) والصَّدَقة (الإحسان) أن كلاًّ منهما من باب البرِّ والخير ، وأنهما من موارد مرضاة الله ورضا الناس .

وقوله تعالى : (نحلةً) أى فرضاً وشريعة .

ولأن للرجال على النساء درجة ، فقد أوجب الله على الرجال أن يقدّموا بين يدى المرأة عند طلب الزواج منها مهراً ، تهيىء به نفسها ، وتصلح به من شأنها قبل أن تجتمع إليه ، وفى هذا مايشعرها بمكانة الرجل منها . وأنه هو الذى سيحمل الجانب المادىّ عنها ، فى السعى للرزق والنفقة ، وهذا مايشير إليه

قوله تعالى : « الرّجال قوّامون على النّساء بما فضَّل الله بعضَهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (٣٤ : النساء) .

والمهر حقّ للزوجة ، يجب أن يؤديه الرجل إليها ، فإن هو صار إلى يدها ثم طابت له نفسها عن شيء منه ، فذلك فضل منها ، وليس على الرجل من بأس فى أن يقبله ، ويتصرف فيه كما يتصرف فيما يملك .

وأقل المهر أىّ مال يُدخل الفرحة على المرأة وقد يُجزى عن المال العملُ ، كما زوّج شعيب ابنته من موسى ، بالخدمة عنده سنوات معدودات .

ولاحدّ لأكثره ، حسب يسار الرجل وقدرته . . إنه باب من أبواب الإحسان ، ومسلك من مسالك الخير ، وليس ثَمة حرجٌ فى أن يبلغ المهر من الكثرة ما يبلغ، ما دام له فى مال الرجل سعة ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهُنّ قنطاراً » (٢٠ : النساء) .

والمكروه فى المهر أن يكون عن مماكسة ومساومة بين الرجل ، وزوجه ، أو بينه وبين أهلها أو يكون فيه إرهاق للرجل بما لا يحتمله ماله ، ولا يتسع له كسبه.
ذلك أن « المهر » ليس إلا مدخلا إلى علاقة إنسانية ، وطريقاً إلى رابطة نفسية ، ومن أجل هذا يجب أن يكون النظر إليه من وراء هذه العلاقة وتلك الرابطة . !

وفيما قصّ الله سبحانه وتعالى من تلك الصورة الكريمة التى زوّج بها نبىّ الله « شعيب » نبىَّ الله « موسَى » ابنته — فى هذا ما يكشف عن أدب عالٍ ، وحكمة رائعة ، ينبغى أن تكون فيها الأسوة فى هذا المقام . . يقول الله تعالى على لسان « شعيب » مخاطباً « موسى » :
« إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ

حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » ويجيبه موسى بقوله : « ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيل »

(٢٧ ـ ٢٨ القصص)

وهكذا يُقضى الأمر بينهما . . فلا مساومة ولا مماكسة ! !

الآية : (٥)

« وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (٥)

التفسير : هذا نهى يتوازن مع الأمر السابق فى قوله تعالى : «وآتوا اليتامى أموالهم » . . ولكلٍّ من الأمر والنهى موضعه ، وكلاهما يحقق مصلحة عامة ، ويؤدى حقًّا ، ويبطل باطلا .

وقد أشرنا من قبل إلى ما يحققه قوله تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم » .

وهنا ينهى الله سبحانه وتعالى عن أن ندع أموال السفهاء فى أيدى السفهاء، إذ كان ذلك مدعاةً لإفسادهم أولاً ، وتضييع مصالحهم ثانياً ، ورسم مُثل سيئة للعبث بالمال وإهدار المنافع المنوطة به فى المجتمع ، ثالثاً .

لذلك ألزم الله سبحانه وتعالى المجتمع أن يتصدّى لهذه الظاهرة ، وأن يقف لها فى يقظة وحزم ، فلا يدع لأيدى السفهاء ما فى أيديهم من أموال يفسدونها ، ويفسدون بها فى الأرض . .

وفى قوله تعالى : « أموالكم » بإسناد المال إلى غير أهله ، وهم أولو الأمر

فى المجتمع — فى هذا ما يعطى المال وصفاً غير الوصف الذى يكون له وهو فى حوزة الأيدى التى تعبث به ، وتستخف بشأنه .

فالمال — فى حقيقته — أداة من أدوات النفع ، الخاص ، والعام معاً ..

هو قوة فى يد صاحبه ، يدفع به عن نفسه قسوة الحاجة ، ولذعة الحرمان ، ومطية يمتطيها إلى غايات كثيرة ، يجنى منها الخير لنفسه ، ولأهله .

ثم هو — أى المال — حركة عاملة فى المجتمع ، تصبّ فيها جهود أصحاب المال ، وتتلاقى على طريقها وجوههم التى يقصدون إليها فى تثمير المال وتنميته !

وفى صيانة هذه القوة من عوامل الوهْن والضعف ، وفى تنظيم هذه الحركة وإقامتها على طريق مستقيم ـ فى هذا صيانة للفرد ، وحياطة له من أن تضطرب حياته وتتعثر خطواته ، وفى هذا أيضاً ، صيانة للمجتمع ، وحياطة لمواطن القوة منه ، والحياة فيه .

فالمال فى يدِ مَن لايحسن التصرف فيه ، ولا يَرْعَى قدره وحرمته ، هو فى تلك الحال فى يد غير أمينة عليه ، وغير مستأهلة له .. ومن حق المجتمع أن ينزع هذا الحق منه ، ويضعه فى يد أمينة ، تحافظ عليه وترعاه لحساب السفيه حتى يرشد ، أو يموت ، فيكون لورثته من بعده .

وفى قوله تعالى : « ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا » إشارة إلى ما للمال من شأن فى الإسلام ، وإلى النظرة التى ينظر بها إليه ، وأنه قِوام الحياة ، ومِلاك عمرانها ، ومبعث سلامة المجتمع وقوته !

فالذين يتحدثون باسم الإسلام ، مهوّنين من شأن المال ، أو مستصغرين خطره ، أو مستخفّين به وبأهله ، إنما يفترون على الإسلام ، وينطقون عنه زوراً وبهتاناً .

وقوله تعالى : « وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » هو دعوة إلى مَن بيده مال السفيه ، أن يرزقه منه ، ويقضى مطالبه ، من سكن وطعام وكسوة ، وغير ذلك مما يضمن له حياة مستقرة ، فى حدود ما يتسع له ما له ، إذ أصبح ولا مالَ بين يديه .. فالعدل يقضى بأنه إذا حُرم التصرف فيما يملك ، ألا يحرم الانتفاع مما يملك !

وفى قوله تعالى : « وارزقوهم فيها » ما يشير إلى أن يكون الإنفاق عليهم من صميم مالهم ، لا من حواشيه ، بمعنى أن ينفق عليهم بالقدر الذى يسمح به مالهم ويتسع له ..

فكلمة « فيها » ظرف يحتوى المال كله ، ويشتمل عليه . . ومن هذا المال كله يكون الإنفاق على السفيه .. ولهذا عَدَل القرآن عن التعبير بكلمة « منها » بدل « فيها » التى جاء عليها النظم القرآنى .. إذ أن « من » تفيد التبعيض بخلاف « فى » التى تفيد الإحاطة والشمول .

وقوله تعالى : « وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » أدب سماوىّ ، يُوصى به الله سبحانه الأوصياء الذين يقومون على أموال السفهاء ، أن يَلْطُفوا بهم ،ويوادّوهم ، ويَلْقَوْهم بالكلمة الطيبة ، التى تطيب خواطرهم ، وتنزع من صدورهم مرارة الألم الذى وجدوه فى انتزاع ما فى أيديهم من مال . .

فالذى أُخذ به هؤلاء السفهاء من انتزاع أموالهم من أيديهم ، هو عدوان عليهم ، اقتضته المصلحة بهم ، وبالمجتمع .. وإنه لكى يطبّ الإسلام لهذا الداء ، وحتى لا يعالج الداء بالداء ، دعا إلى هذا الأدب الرفيع العالى ، الذى تطيب به نفوس هؤلاء المرضى ، وتُسَلّ به السخائم من قلوبهم ، وذلك طب سماوى تتم به تلك العملية الجراحية فى مشاعر الإنسان ووجدانه . دون ألم !

الآية : (٦)

« وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا » (٦)

التفسير : فى آية سابقة حذّر الله سبحانه وتعالى من أكل مال اليتامى ، أو التهاون فيه ، أو التضييع له ، وفى هذه الآية : يدعو سبحانه القوَمَة على اليتامى ، من أولياء وأوصياء أن يضعوهم دائماً تحت التجربة والاختبار ، لسياسة أموالهم ، وتدبيرها بأنفسهم ، وذلك بأن يشركوهم معهم فى بعض التصرفات، ويطلعوهم على طرق الأخذ والعطاء بين الناس ، «حتى إذا بلغوا النكاح » أى العمر الذى يصلحون فيه للزواج ، وهو سن النضج والبلوغ ، واستبان رشدهم ، وصلاحيتهم للاستقلال بالتصرف فى أموالهم ـ دفعوها إليهم كاملة ، وأشهدوا على ذلك أهل الثقة والأمانة .

وفى قوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا » تحذير للأولياء والأوصياء على اليتامى ، من أن ينزع بهم الطمع فى مال اليتيم إلى استغلاله والمبادرة باجتناء ثمرته لهم ، قبل أن يخرج من أيديهم إلى أصحابه اليتامى، عند رشدهم .

وقوله تعالى : « ومن كان غنياً فليستعفف» دعوة للأغنياء من الأوصياء ، أن يؤدوا هذا العمل حِسبةً لله ، ليؤجَرُوا عليه ، وألا يضيعوا هذا الأجر نظير مالٍ هم فى غِنى عنه ، إذ كان الله قد آتاهم من فضله مايغنيهم عن غيرهم .

وليس هذا الأمر للأغنياء على سبيل الوجوب ، بل هو للاستحباب والندب .. ولهذا جاء التعبير عنه بقوله تعالى : « فليستعففْ » ولو كان للإلزام والوجوب لـكان النظم هـكذا : « فليعفّ » .. لأن فى الاستعفاف تردّد ومعاودة للفعل بعد الترك ، والترك بعد الفعل . . وهكذا .

الآيتان : (٧ ـ ٨)

« لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَى وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا » (٨)

التفسير : هنا يجىء ذكر الميراث ، وأحكامه ، بعد ذكر اليتامى ، ومالَهم على الأوصياء ــ الذين هم من أقارب المورِّث غالبا ــ من حقوق ..

فاليُتم لايكون إلا بعد موت الوالدين ، وخاصة الأب ، وكذلك الميراث ، لاتقوم أحكامه إلا بعد موت المورّث .

وفى قوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون . . الآية) حكم عام مُجمل للميراث ، وستجىء الآيات بعد ذلك بأحكامه مفصلة مخصِّصة .

وقوله تعالى : « وإذا حَضَر القسْمة أولوا القُرْبَى واليتاَمى والمساكينُ فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً » هو تدبير حكيم ، من لدن عليم خبير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . .

فهذا مال ساقه القَدَر ــ على غير انتظار ــ لجماعة من قرابة المتوفَّى ،

وهاهم أولاء يقتسمون هذا الميراث فيما بينهم ، ويذهب كل واحد منهم بنصيبه منه . . !

هذا جانب من الصورة التى تبدو للعين بعد موت المورّث ، وعند تقسيم تركته ، وهو الجانب البارز الواضح منها . .

ولكن هناك جانب آخر لتلك الصورة ، لاتراه إلا البصائر النافذة ، ولا تشعر به إلا القلوب المتفتحة !

ويضمّ هذا الجانب من الصورة أشتاتاً من الناس .. الأقارب الذين لانصيب لهم فى الميراث ، واليتامى الفقراء ، والمساكين .. وهؤلاء جميعاً تحدّق عيونهم فى هذا الميراث ، وتتلمظ شفاههم به ، ويسيل لعابهم إليه .. فإذا انتهى الموقف ، وانفضّ الجمع ، وذهب كل وارث بنصيبه ، دون أن ينال هؤلاء الواقفون على الجانب الآخر شيئاً من هذا الميراث ، امتلأت نفوسهم غيظاً ، واحترقت أكبادهم حسدًا ، وهذا من شأنه أن يثير العداوة والبغضاء فى الجماعة ، ويُوقِعَ الشرّ بينها .

والإسلام حريص على أن يسدّ هذه الثغرات ، التى تهبّ منها على المجتمع ريح الفتنة ، وعواصف الفرقة !

وقد جاء هنا بتدبيره الحكيم ، فأعطى كل ذى حقّ حقّه ، وأقام موازين العدل والإحسان بين الناس ، وجمعهم جميعاً على المودة والرحمة .

ومن تدبير الإسلام فى هذا أن جعل لهؤلاء الذين يحضرون قسمة الميراث من الأقارب غير الورثة ، ومن اليتامى الفقراء ، والمساكين — جعل لهم نصيباً من هذا الميراث .. تطيب به خواطرهم ، وتسد به مفاقرهم ، دون أن يكون فى ذلك مايضير الورثة ، أو يجور على حقهم فى مال مورثهم .

فهذا المال الذى يبذلونه لمن حضر القسمة من هؤلاء المذكورين فى الآية ، هو شىء قليل ، متروك تقديره للورثة أنفسهم ، ولداعى الخير عندهم ، خاصة فى هذا المشهد الذى يذكرهم بالموت ، وما وراء الموت .. الأمر الذى من شأنه أن تلين له القلوب القاسية ، وتسخو فيه الأيدى الشحيحة !

وانظر إلى تدبير الله ، وإلى تقديره فى هذا الأمر ..

(فأولا) الشرط الذى يستحق به هؤلاء المذكورون فى الآية — شيئاً من التركة ، هو أن يكونوا بمحضر من قسمة التركة ، سواء أكان هذا الحضور واقعاً أو حكماً ، بمعنى أن يكونوا فى مجلس القسمة ، أو على علم به ، لقربهم منه ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة .. »

(وثانياً) القدرُ المطلوب لهؤلاء المذكورين من مال المتوفَّى هو متروك لتقدير الورثة ، وماتفيض به مشاعر الخير فى نفوسهم .. وهذا مايشير إليه قوله سبحانه : « فارزقوهم منه » فهذا الرزق الذى يرزَقونه هو من بعض هذا المال ومن حواشيه لامن صميمه ، حتى لايتأذّى الورثة بالعدوان الجائر على نصيبهم ، وهذا على خلاف ماجاء فى الدعوة إلى الإنفاق على « السفهاء » من مالهم الذى فى أيدى الأوصياء ، حيث قال تعالى : « فارزقوهم فيه واكسوهم » .

وفى قوله تعالى : « وقولوا لهم قولا معروفاً » دعوة إلى الإحسان بالقول ، بعد الإحسان بالعمل .. فالكلمة الطيبة هنا تسدّ النقص الذى قد يستشعر به من يُصيبهم شىء من هذا المال الذى بما يراه بعضهم قليلا إلى جانب ماذهب به الورثة من الميراث .

وبهذا ، وذاك تطيب النفوس ، وتنقشع سحب العداوة ، ودخان الأحقاد، بين جماعة تربطها روابط القرابة والإخاء !

الآيتان : (٩ ـ ١٠)

« وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » (١٠)

التفسير : وفى محضر الموت ، وبمشهدٍ من الاستبداد بمال الميت ، الذى جمعه ، واجتهد فى جمعه ، ثم صار إلى يد غيره ، وربما إلى يد من كان يُبغض أو يعادى من ورثته ـ يتمثل للحريصين على جمع المال من كل وجه ،والمترصدين له بكل سبيل ، غير متحرجين ولا متأثمين ـ يتمثل لهم مصير هذا المال الذى ركبوا له هذه الطرق ، وجنوا به تلك المآثم ، فيخفّ وزنه عندهم ، ويقلّ حرصهم عليه ، وإلقاء أنفسهم إلى التهلكة من أجله . . وهنا تُصغِى الآذان للنصح ، وتتفتح القلوب للعظة فيما يتصل بالمال ، والتعفف فى كسبه وجمعه ! .

ولا يدع القرآن هذه الفرصة تمرّ ، دون أن ينتهزها ، ليبلغ من القلوب الغاية التى يريدها ، لحفظ حقوق اليتامى ، وصيانة أموالهم ، وحراستها من طمع الطامعين ، وخيانة الخائنين . .

لهذا جاء قوله تعالى : « وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ » ـ جاء مذكراً الأحياء بهذا الذى هم صائرون إليه هم وأموالهم ، عارضاً عليهم فى هذا الموقف مايهزّ مشاعرهم ، ويثير أشجانهم . .

إنهم سيموتون كما مات هذا الميت الذى تقاسموا تركته ، أو تقاسمها ورثته وهم يشهدون . .

وإنهم سيتركون من بعدهم أطفالهم ، الذين سينضمون إلى موكب الأيتام ،

كما ترك هذا الميت أطفاله ، وانضموا إلى جماعة الأيتام ، ممن مات آباؤهم قبله .

فليرعوا حق الله إذن ، وليخشوه فى هؤلاء اليتامى الذين فى أيديهم ، وليصونوهم ويصونوا أموالهم ، وليعاملوهم كما يرجون أن يعامَل أبناؤهم من بعدهم .

وإنه ليس هناك من صورة مثل هذه الصورة ، التى يعرضها القرآن هنا ، فى إثارة العواطف ، وفى استجلاء العبرة والعظة ، حيث يتمثل منها للحى خاتمة مطافه فى هذه الحياة ، ومصير هذا المال الذى جمعه ، والذى يكاد يذهب بدينه ومروءته جميعاً . .

وفى قوله تعالى : « فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً » نداء سماوى كريم ، يلتقى مع تلك المشاعر التى حركتها الصورة التى يتمثلها من يقرأ الآية الكريمة وينظر فيما يَطْلعُ عليه منها ، من مشاهد الموت ، وما بعد الموت .

والقول السديد ، الذى تدعو إليه الآية ، هو القول الذى يحمل النصح ، والتوجيه ، والتسديد ، لليتامى ، وإعدادهم إعداداً صالحاً للحياة .. تماماً كما يفعل الأب مع أبنائه ، وإلا فهو قول غير سديد ، وخيانة للأمانة التى اؤتمن الأوصياء عليها ..

وقوله تعالى : « إنَّ الذين يأكلون أموالَ اليتامَى ظلماً إنّما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلوْن سعيرًا » تحذير بعد نصح ، وتهديد بعد عظة .. فمن لم يفتح عينه على هذا الخطر ، ويتجنب الهاوية التى بين يديه ، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه . .

إن مال اليتيم هو « نار » تحرق كل من يمدّ إليه يدًا خائنة ، أو يدُسُّه فى بطن شَرِهَة ، فمن أكل منه احترق به فى الدنيا ، وصَلِيَ به عذاب جهنم فى الآخرة .

الآية : (١١)

«يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا» (١١)

التفسير : فى هذه الآية والآية التى بعدها بيان، لأحكام الميراث ، التى أجملتها الآية (٧) من هذه السورة .

والوصية التى يوصِى بها الله ـ سبحانه ـ فى ميراث الأبناء ، هى على سبيل الوجوب الإلزامْ ، وإنما جاءت بلفظ « الإيصاء » لأنها تتعلق بأمر يقع بعد الموت ، وهو الميراث ، فهى وَصية من اللهِ ، ينبغى نفاذها فى تركة المتوفّى ، كما يجب نفاذ وصية الموصِى بعد موته !

ويؤكد وجوب هذه الوصية قوله تعالى فى خاتمة الآية : « فريضة من الله » .

وقوله تعالى : « للذكر مثلُ حظ الانثيين » بيان لنصيب كل من الولد والبنت فى تركة والدهما المتوفّى . . فللذكر ضعف الأنثى ، أو مثل نصيب الأنثيين .

وقوله تعالى : « فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ماترك » أى إن كان المتوفّى لم يُعقب ذكراً ، وكانت ذريته إناثاً ، فإن كنّ اثنتين فأكثر، فلهما أو لهن الثلثان « وإن كانت واحدة فلها النصف » .

وقوله تعالى : « ولأبويه لكل واحد منهما السُّدس مّما ترك إن كان له ولد » أى ويوصيكم الله أن تفرضوا لأبوى المتوفَّى ، لكل واحد منهما السُّدُس من التركة ، وذلك « إن كان له ولدٌ » ذكرًا كان أو أنثى ..

« فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه ، فلأمه الثلث » أى إن لم يكن للمتوفَّى فرع كابن أو بنت ، أو ابن ابن ، « وورثه أبواه » أى انحصر الميراث فيهما « فلأمه الثلث » وللأب الباقى وهو الثلثان .

« فإن كان له إخوة » إثنان فأكثر .. أشقاء ، أو لأب .. ذكوراً أو إناثاً ، « فلأمه السُّدس » أى أن نصيبها مع وجود الإخوة ينتقل من «الثلث» إلى « السّدس » ، وهذا الانتقال لصالح الأب ، لأن الأخوة لايأخذون مع وجود الأب شيئاً .. وإنما هم يؤثّرون على نصيب الأم فقط ، ويحجبونها حجب نقصـان . .

والعلة فى هذا أن الأب هو الذى من شأنه أن يرعى إخوة المتوفّى ، الذين هم أبناء هذا الأب ، فانتقل ما كان يمكن أن يكون لهم إلى أبيهم .

وذلك كلّه من بعد أن ينفذ فى مال المتوفىّ ما أوصى به ، وأن يؤدّى ماعليه من دين ، ولو استغرق الدين ، كل ماترك .

وأداء الدّين مقدّم على كل شىء ، يتصل بتركة المتوفىّ ، من وصية ، أو ميراث .

هذا ، ويلاحظ أن النظم القرآنى قد التزم تقديم الوصية على الدّين فى الآيات التى تضمنت أحكام المواريث ، فكان يختم الحكم هكذا : « من بعد وصية .. أو دين) .

ولابد لهذا التقديم الملتزَم من حكمة ، فتقديم أمرحقّه التأخير ، والتزام هذا التقديم فى كل مرة — أمر لا يكون إلا عن قصد وتدبير .

ويرى « الزمخشرى » أن تقديم الوصية على الدّيْن هنا للإلفات إليها ، والتحريض على إنفاذها ، دون تهاون أو تفريط .

ذلك أن « الوصية » تبرع وإحسان بدون عِوض ، وإذ كانت على تلك الصفة فربما رآها الورثة بعين الاستخفاف ، فلم يُمضوها كما أرادها الموصِى ، أو لم يُمضوها أصلا .. أما الدّين فهو حق للدائن ، إن سكت عنه الورثة لم يسكت عنه صاحبه .

فإذا قدمت الوصية على الدين كان ذلك غير مفوّت على الدين مكانته ، فى حين أن هذا التقديم يقوى من شأن الوصية ، ويلحقها بالدّيْن فى القوة والإلزام .

الآية : (١٢)

« وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْدَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْدَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ واحد مِنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْدَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ » (١٢)

فى هذه الآية تتمة أحكام المواريث ، التى بينتها الآية السابقة .. فللزوج نصف ماتترك زوجته إذا لم يكن لها ولد ـ ذكراً أو أنثى ـ منه أو من غيره .. فإن كان لها ولد فله الربع ، أما الزوجة فلها ربع ما ترك زوجها ، إذا لم يكن له ولد ، ذكراً أو أنثى ، منها أو من غيرها ، فإن كان له ولد فلها الثمن . . وذلك

كلّه من بعد أن تنفذ الوصية ، ويُقضى الدين ، إن كانت هناك وصية من المتوفىّ ،أو كان عليه دين .

وقد تضمنت الآية حكما آخر غير حكم الزوجين فى التوارث بينهما ، وهو حكم « الـكلالة » وذلك ما يشير إليه قوله تعالى :

« وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ » .

وقد اخْتُلف فى « الـكلالة .. » فى معناها أولا ، وفى متجهها ثانياً .

فقد رأى بعضهم أنها من الـكلال ، وهو الضعف إعياءً وتعباً . . وقالوا إن صلة الورثة بالمورِّث هنا صلة واهية ضعيفة . . ومن هنا حملوا « الـكلالة » على من مات ولم يترك وراءه أباً أو ولداً ، أو أخوة .

ورأى بعضهم أنها من الـكَلّ وهو الحِمل والعبء ، وقالوا إن الورثة هنا عبء على التركة ، وأنهم أشبه بالفضوليين عليها ، إذ كانوا ولا معتبر لهم فى الميراث إلا إذا لم يكن وراء الميت أحد من أصوله أو فروعه ، أو فروع أصوله، وفروع فروعه وذلك أمر نادر الحدوث .

وعلى حسب اختلاف الآراء فى مفهوم « الـكلالة » اختلفت الآراء كذلك فى موصوفها ، وهل هو المتوفّى ، أو الورثة ، أو المال المورَّث !

وعلى أىّ فقد اتفق الفقهاء على أن « الـكلالة » فى الميراث تقع فى الحال التى يتوفّى فيها المرء — ذكراً أو أنثى — من غير أن يترك وراءه أحداً من فروعه أو أصوله أو فروع فروعه ، أو فروع أصوله .

وهنا يكون لذوى الأرحام نصيب مفروض فى تركة المتوفى ، بعد أن كان لهم نصيب مندوب ، غير محسوب ، فيما يُرزقونه إذا حضروا القسمة .

وقوله تعالى : « وله أخ أو أخت » المراد بالأخ أو الأخت هنا الأخوة

لأم ، وهم من ذوى الأرحام ، الذين لانصيب لهم فى الميراث مع وجود أحد من فروع المتوفى أو أصوله ، أو فروع أصوله .

وقوله سبحانه : « فلـكل واحد منهما السدس » هو بيان للنصيب المفروض للأخ أو الأخت ، من الأم ، لـكل واحد منهما السدس ، لافرق فى ذلك بين الذكر والأنثى ، إذ هما فى الموقف ليسا ذكراً أو أنثى ، وإنما هما إنسانان يُراد بهما البر والإحسان ، ولا فرق فى هذا بين ذكر وأنثى ... وهذا يعنى أن مكان الأخوة لأم فى كيان الأسرة ، وفى دعم بنائها الأُسَرِىّ لا معول عليه ، بل ولا حساب له ، لأنهما فى أسرة المتوفى كلالة ـ رجلا أو امرأة ـ أشبه بالغرباء منهما بالأقرباء !

وقوله تعالى : « فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » أى أن الأخوة لأم لايرثون فى « الـكلالة » أكثر من ثلث التركة أيًّا كان عددهم .. للذكر مثل حظ الأنثى .

وفى الوقوف بنصيب الأخوة لأم عند حد الثلث ، لا يتجاوزونه مهما كان عددهم ـ فى هذا ما يسند الرأى الذى ذهبنا إليه من قبل ، من أن الميراث المفروض للأخوة لأم هنا لايعدو أن يكون ضرباً من البر والصدقة ، وأنه خرج من ثلث التركة لا يتجاوزها ، شأنه فى هذا شأن الوصية ، التى لاتتعدى ثلث التركة بحال .

وقوله تعالى : « غير مُضار » هو حال من الضمير فى « يُوصَى » الذى يعود على المتوفّى .

وهذا الحال قيد يقيَّد به ما ترك الميت وراءه من وصية أو دين .. بمعنى ألا يكون المتوفى كلالة قد نظر إلى نفسه قبيل وفاته ، فرأى أنه لا وارث له من فروعه وأصوله ، وعندئذ حدثته نفسه أن يحدث فى تركته حدثاً يفسد

به على إخوته لأمه نصيبهم المفروض لهم ، كأن يوصى ولا رغبة له فى الوصية ولكن ليدخل الضيم على نصيب هؤلاء الأخوة ، وكأن يصطنع على التركة ديناً لغير دائن ، لهذا الغرض نفسه . .

وهذا ما نبه الله سبحانه وتعالى إليه الميت قبل أن يموت ، ثم أكد سبحانه وتعالى هذا التنبيه بقوله « وصيةً من الله » أى هذا فرض فرضه الله للأخوة لأم ، وجعله حقاً لهم . . فهم — والأمر كذلك — لم يجيئوا إلى هذا الميراث متطفلين . بل هم أصحاب حق فرضه الله لهم ، كما فرض لغيرهم من الورثة ما فرض . .

ثم أكّد سبحانه وتعالى هذا الأمر مرة أخرى بقوله : « والله عليم حليم » أنه سبحانه وتعالى « عَلِيم » بما يعمل الظالمون « حليم » لا يعجّل لهم العقاب ، ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار .

الآيتان : (١٣ — ١٤)

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ العظيمُ (١٣) ومن يَعْصِ اللهَ ورَسُولَهُ ويتعَدَّ حُدودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عذابٌ مُهِينٌ (١٤) . » .

التفسير : قوله تعالى : « تلك حدود الله » إشارة إلى كل مابيّن الله سبحانه وتعالى من أحكام وماشرع من حدود ، فى صيانة أموال اليتامى ، وتسليمها إليهم سليمة ، لم تقع فيها خيانة ، أو يقع عليها اعتداء ، وفى التعفف عن زواج اليتيمات ، تجنباً للظلم المحتمل وقوعه عليهن ، وفى المواريث وأحكامها

ومالكل وارث من نصيب..« تلك حدود الله » وهذه أحكامه، أوجب على عباده أن يلتزموها، وأن يقفوا عندها لايتجاوزونها . .« ومن يطع اللهورسوله يُدْخِلْه جنَاتٍ تجرِى من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » .

فهذا الجزاء الحسن ، قد أعدّه الله سبحانه لمن أطاعه وأطاع رسوله ، الذى حمل إليه ما أمر الله به ، ومانهى عنه . .

إنه جنّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار ، فيها مالاعين رأت ولاأذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وإنه الخلود فى هذه الجنات والعيش الدائم فى نعيمها . . وذلك هو الفوز العظيم ، الذى لا يقاس إليه شىء مما يعده أهل الدنيا فوزاً ، فيما يقع لأيديهم من مال ومتاع ، ولو كان حلالاً خالصاً .. فكيف إذا كان مشوباً بالحرام ، أو كان هو الحرام كل الحرام ؟

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ » . . هو كشف عن الوجه البغيض المقابل لهذا الوجه الطيب الكريم . . إنه وجه أولئك الذين لايخشون الله ، ولا يخافون عقابه ، فلا يمتثلون أوامره ، ولا يعملون بما يدعوهم الله ورسوله إليه . . وإنها للنار التى أعدت للكافرين ، وإنه للخلود فى عذابها وهوانها . . وذلك هو الخزى المبين !

وهنا ما ينبغى أن ننظر فيه ، ونتأمله :

فلقد جاء الخطاب من قِبل الحق جلّ وعَلاَ لمن يطيعون الله ورسوله فى صيغة المفرد ، حتى إذا دخل الجنة ، انتقل الخطاب من المفرد إلى الجمع . . هكذا : « ومن يُطِع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار . . خالدين فيها .. » فما وجه هذا ؟ وما سره ؟

ونقول ــ والله أعلم ــ :

إن إفراد الخطاب فى هذه المراحل : « يطع الله ورسوله .. يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » فيه مواجهة صريحة كاملة ، تضع الإنسان وحده فى مواجهة هذا الخطاب الإلهى ، فيلتفت إليه بكيانه كله ، حيث لا يقع فى شعوره ــ والحال كذلك ــ أن هذا الخطاب العلوى متجه إلى غيره ! وهذا من شأنه أن يجعل الإنسان فى وضع يحسن فيه التلقى عن الله ، والانتفاع بما تلقى .. وذلك ما يقيمه على طاعة الله ، ويصل به إلى مرضاته ، ثم إلى الجنة التى أعدت للمتقين ..

وليس الشأن كذلك إذا دخل الجنة .. إنه هنا فى حال ينعم فيها بنعيم الله ، ويأنس بألطافه ..

ومن تمام نعيم الله هنا ، ومزيد ألطافه ، أن يجد الإنسان نفسه بين لِداتٍ وإخوانٍ ، يشاركهم هذا النعيم ، وتلك الألطاف ، وأن ينظر هـذا النعيم وتلك الألطاف التى تغمر كيانه ، قد تجسدت على وجوه إخوانه ، فأصبحت بِشراً ، وحبوراً ، فيزداد لذلك بِشره وحبوره ..

وماذا يأخذ الإنسان أو يعطى ، وهو منفرد وحده فى هذه الجنات ؟ إن هذا النعيم الطيب كله فيها ، والملائـكة والحور الذين يُشرقون فيها كما تشرق الشموس ــ إن كل هذا لا يعرف المرء قدره ، ولا يتذوق طعومه ، على أكمل وجه وأتمه ، إلا إذا كان له إخوان من جنسه ، يألفهم ويألفونه ، ويأخذ معهم ويعطى .. من كئوس هذا النعيم ..

و ذا الشعور الجماعى فى الإنسان قد عرف الله سبحانه وتعالى حاجته إليه ، فأسعفه بها ، وجعلها من بعض ألطافه على عباده فى جناته .. فجعل أهل الجنة فى حياة جماعية ، يتلاقون ، ويتعارفون ويتبـادلون الطيّب من الحديث ،

والكريم الهنىء من النعيم .. فيقول سبحانه فى أصحاب الجنة : « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣ : الطور) ويقول جل شأنه : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » (٤٧ : الحجر) ويقول سبحانه : « إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ * هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ » (٥٥ ، ٥٦ : يس) .

وعن هذا الشعور كان قول أبى العلاء المعرّى :

ولو أنِّى حُبِيتُ الخلدَ فردًا لَمَا أَحْبَبْتُ فِى الُخلدِ انفرَادًا

وانظر إلى أصحاب النار ، كيف كان الخطاب من الله ــ سبحانه وتعالى ــ مفرداً ، قبل النار وبعدها . خارجها وداخلها .. حيث يقول جل شأنه :

« ومن يعص الله وَرسوله وَيتعدّ حدوَده يُدْخِلْه ناراً خالداً فيها وَله عذابٌ مهين » .

إن الإنسان هنا يواجَه وحده بهذا الوعيد من رب العالمين ، حتى لكأنه هو الوحيد الذى انفرد من بين الناس بالشرود عن طريق الحق ، والعصيان لله ورسوله .. ثم هاهوذا يلقى مصيره المشئوم وحده « نارا خالدا فيها » حتى لكأن جهنم قد خصصت له ، وحتى لكأن عذابها مقصور عليه .

وفى هذا مافيه من مضاعفة العذاب ، النفسى ، فوق العذاب الحسّى !

إن المشاركة فى البلاء تخفف من شدته ، وتكسِرُ من حدته ، حيث يتأسَّى المصاب بغيره من المصابين ، ويجد فى مصاب غيره عزاء لمصابه ..

وفى هذا تقول الخنساء فى رثاء أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسِى

وارجع إلى الآيتين الكريمتين الآن ، ورتلهما ترتيلا ، مستصحباً معك

هذا المعنى الذى أشرت إليه فيهما ، فإنك واجد إلى هذا المعنى معانىَ كثيرة ، أكثر شفافية وصفاء !

« تِلْكَ حُدُودُ اللهِ . . وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ * »

الآيتان : (١٥ — ١٦)

« وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً (١٥) وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا » (١٦)

التفسير : يُجمع المفسرون على أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية الثانية من سورة النور .. وهى قوله تعالى : « الزانيةُ والزّانى فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة » وأن حدّ الزنا كان فى أول الإسلام — كما يقولون — هو الإمساك للمرأة الزّانية وحبسها فى البيت ، على حين أن الرجل يعنّف ويؤنّب باللسان ، أو ينال بالأيدى أو النعال ، حسب تقدير ولىّ الأمر !

ونحن — على رأينا بألا نسخ فى القرآن — نرى أن هاتين الآيتين محكمتين وأنهما تنشئان أحكاماً لمن يأتون الفاحشة — من الرجال والنساء — غير ماتضمنته آية النور من حكم الزانية والزانى .

فالآية الأولى هنا : « وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ

فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً » إن هذه الآية خاصة بالنساء ، إذ كان النص فيها صريحاً بهن ، وذلك بالإشارة إليهن باسم الاشارة المؤنث : « اللاتى » وبإضافتهن إلى الرجال : « من نسائكم » وبالحديث عنهن بضمير النسوة ... « ... شهدوا عليهن » .. « فأمسكوهن » ... « يتوفاهنّ » .. « لهنّ » .. وهذا مايقطع بأن الآية هنا خاصة بالنساء !

أما الآية الثانية فهى خاصة بالرجال إذ كانت الإشارة فيها إلى المذكر « اللذان » والضمير فى « يأتيانها » وكذلك الضمير فى « منكم » .. هذا كله نصٌّ صريح فى أن المشار اليهما هما من جنس الرجال ، الذين يوجّه إليهم الخطاب فى الآية . . .

واضح إذن أن الآية الأولى فى شأن النساء ، كما أن الآية الثانية فى شأن الرجال .. وهذا ما يكاد يُجمع عليه المفسرون . إذ لاخلاف بينهم فى هـذا ، ولـكنهم فرقوا بين العقوبة التى تؤخذ بها المرأة الزانية ، والعقوبة التى تجرى على الرجل إذا زنا ! الأمر الذى لم يقع فى آية « النور » التى جاءت فسوّت بين الرجل والمرأة فى هذه الجريمة ، وفى العقوبة المفروضة على كل منهما .

وإذ كان كذلك فإن لنا أن نتوقف عند هذه المفارقة بين الناسخ والمنسوخ ، فى أمر يوزن بميزانين بالنسبة للرجل والمرأة ، ثم يعاد هذا الأمر فيوزن بميزان واحد ، تتعادل فيه كـفة الرجل والمرأة على السواء ! .. ففى آية النور جاء حكم الزانى والزانية مائة جلدة لـكل منهما ، أما فى هاتين الآيتين : فقد كان للنساء حكم ، وللرجال حكم ، فى العقوبة المفروضة على الزانى من الرجال ، أو الزانية من النساء . .

فإذا كان هناك وجه يمـكن أن تُحمل عليه الآيتان ، بحيث ترتفع هذه

المفارقة التي تقوم بينهما وبين آية النور ، وبحيث تكون بينهما تلك العلاقة التي بين المنسوخ والناسخ له،إذا كان هناك وجه لرفع هذه المفارقة ، أفلا نلتمسه، ونذهب إليه ، ونأخذ به ؟ فكيف وهناك أكثر من وجه ؟

فأولا : « الزنا » فى صورته العامة الشائعة ، التي يتعامل أهل العربية بها فى لسان اللغة ، وفى لسان الشريعة ، هو تلك الجريمة التي تقع بين الرجل والمرأة على غير فراش الزوجية . .

وقد جاءت آية « النور » صريحة فى حكم هذه الجريمة ، فقال تعالى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » (٢ : النور)

(وثانياً) : هناك جريمتان هما من قبيل « الزنا » ولكنهما ليستا بالزنا المعروف فى لسان اللغة ، أو لسان الشرع . . ولهذا فقد كان لكل منهما اسم خاص به ، فى اللغة وفى الشرع أيضاً ، وهما : السّحاق ، واللّواط . .

و « السحاق » عملية جنسية ، بين المرأة والمرأة .

و « اللواط » عملية جنسية ، بين الرجل والرجل .

و « والزنا » عملية جنسية ، بين الرجل والمرأة .

وفى هذه الصور الثلاث تكتمل العملية « الجنسية » فى أصلها ، وفيما يتفرع عنها .

(وثالثاً) : إذا قيل إن الآيتين السابقتين متعلقان بأحكام « الزنا » الأصلى الذى يكون بين المرأة والرجل ، وأن ذلك كان فى بدء الإسلام ، ثم نسختها بآية « النور » ــ إذا قيل ذلك ، كان معناه أن كل ما ورد فى القرآن الكريم

متعلقاً بالزنا جاء خاصًّا بهذا الزنا الصريح، دون أن يكون فيه شيء عن الجريمتين الأخريين : اللواط ، والسحاق !

وهذا أمر ما كان للقرآن أن يتركه ، بحجة أنه عمل شاذ ، خارج على مألوف الفطرة . . لأن الشريعة الإسلامية ما جاءت إلا لعلاج الشذوذ الإنسانى عن الفطرة السليمة ، وإلا لتحيد به عن شروده وانحرافه عنها .. وهذا يعنى أنه لابد — لكمال التشريع — من أن يشرّع القرآن لهاتين الجريمتين ، ويفرض عقوبة مناسبة لهما .

(ورابعاً) : أن الآيتين السابقتين صريحتان، فى أن الأولى منهما فى شأن النساء ، وأن الآية الثانية فى شأن الرجال ، خاصة .

وليس بين النساء والنساء إلا « السحاق » ، كما أنه ليس بين الرجال إلاّ « اللواط » .

وعلى هذا ، فإننا — إذ خالفنا ما كاد ينعقد إجماع الفقهاء والمفسرين — نرى أن قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم . . . الآية » هو لبيان الحكم فى جريمة « السحاق » التى تكون بين المرأة والمرأة .. وأن هذا الحكم هو ما بينه الله سبحانه وتعالى فى قوله : « فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفّاهُن الموتُ ، أو يجعل الله لهن سبيلا » أى يؤذَيْنَ بالحبس فى البيوت ، بعد أن تثبت عليهن الجريمة بشهادة أربعةٍ من الرجال ، دون النساء ، كما يتبيّن ذلك فى قوله تعالى : « فأشهدوا عليهن أربعة منكم » أى أربعة منكم أيها الرجال .

وأما قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ... الآية » فهو خاص بجريمة اللواط ، بين الرجل والرجل .. والحكم هنا هو أخذهما بالأذى، الجسدى، أو النفسى ، وذلك بعد أن يشهد عليهما أربع شهود ، على نحو ما فى «السحاق»

وإذ أخذنا بهذا الرأى ، فإن علينا أن نكشف عن بعض وجوه خافية فيه ..

فأولاً : هذه التفرقة فى العقوبة بين « السحاق » و « اللواط » .. لماذا لم يُسَوّ بينهما ؟ ولماذا يكونُ للنساء حكم ، وللرجال حكم .. مع أنهما أُخذوا جميعاً بحكم واحد فى الزنا ؟

والجواب على هذا .. هو أن كلاًّ من السحاق واللواط وإن كانا من باب الزنا ، إلا أن لكل منهما مورداً غير مورد صاحبه ، فكان من الحكمة ـ وقد إختلف المورد ـ أن يختلف الحكم .

فالمرأة وهى مغرس الرجل ، ومنبت النسل ، قد تستطيب هذا المنكر فيحملها ذلك على أن تزهد فى الرجل ، وعلى ألا تسكن إليه فى بيت، وأن تتحمل أثقال الحمل ، والولادة ، وتبعة الرضاع والتربية ، وهذا من شأنه — إذا شاع وكثر — أن يحوّل النساء إلى رجال ، وأن ينقطع النسل ، وألا يعمر بيت ، أو تقوم أسرة ..

ولهذا كانت عقوبة المرأة على هذه الجريمة أن تحبس فى البيت ، الذى كان من شأنه أن يَعْمُرَ بها ، وأن تقيم فيه دعائم أسرة ، لو أنها اتصلت بالرجل اتصالاً شرعياً بالزواج .

وقد يعترضنا هنا سؤال . . وهو : هل حبس المرأة فى البيت يمنع وقوع هذه الجريمة منها ؟ والجواب : نعم ، فإن فُرصَتَها فى البيت ، مع الوجوه التى تعرفها لاتتيح لها ما يتيحه الانطلاق إلى هنا وإلى هناك خارج البيت ، حيث تلتقى من النساء من لاترى حرجاً ، ولا استحياء من أن ترتكب هذا المنكر معها ، الأمر الذى لاتجده فى البيت الذى تعيش فيه مع أهلها ، من أخوات ، أو زوجات زوج ، أو أب ، أو أخ.. فالحبس فى البيت لمرتكبة هذا المنكر ،

هو أنجح علاج يصرفها عن هذه العادة ، بقطع وسائلها إليها .

أما الرجل والرجل ، فإن عقوبتهما من جنس فعلتهما ، لما فيها من تحقيرٍ لهما وإذلالٍ لرجولتهما ، ومروءتهما ، وذلك بأخذهما بالأذى المادى ، أو النفسى .

(وثانيا) كان حديث القرآن عن النساء بصيغة « الجمع » . . « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم » وكان حديثه عن الرجال بصيغة المثنى.. «واللذان يأتيانها منكم » فما وراء هذه التفرقة ؟ ولم كان الجمع فى النساء ، وكانت التثنية فى الرجال ؟ ولِمَ لم يكن الأمر على عكس هذا ؟

والجواب : أن المرأة والمرأة فى جريمة « السحاق » فى وضع متساوٍ ،لافرق فيه بين امرأة وامرأة ، حين تلتقى المرأتان على هذا المنكر ، فساغ لهذا أن يكون الحديث عن هذه الجريمة حديثاً شاملاً لجميع مرتكبات هذا المنكر ، بلا تفرقة بينهن .. فالمرأة على حال واحدة مع أية امرأة تلتقى بها فى هذه الفَعلة .

وليس الأمر على هذا الوجه فى « اللواط » بين الرجل والرجل . . فرجلٌ فى وضع وآخر فى وضع .. أحد الرجلين فاعل ، والآخر مفعول به . . وفرق بين الفاعل والمفعول . . ولكن بالرجلين تتم هذه الفَعلة المنكرة ، ومن ثَمّ كان الإثم ، وكان العقاب على هذا الإثم قَسْماً مشتركاً بينهما ، كما كان استحضار رجلين لازماً كى يمكن تصوّر هذه الجريمة ، إذ لا يمكن تصور هذه الجريمة إلا مع وجود رجلين .. ذكر وذكر .

(وثالثاً) فى قوله تعالى :« حتى يتوفاهنّ الموتُ أو يجعل الله لهن سبيلاً ».. يُسأل عن السبيل الذى جعله الله أو يجعله لأولئك المذنبات اللاتى قُضِى عليهن بالحبس فى البيوت .. ما هى تلك السبيل ؟ وهل جعل الله لهن فيها مخرجاً ؟

الذين قالوا بالنسخ فى الآيتين ، وهم جمهور الفقهاء والمفسرين ـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل — يقولون إن السبيل التى جعلها الله لهن هى الخروج بهن من

هذا الحكم الذى قضى عليهن بالإمساك في البيوت ، وذلك بنسخ هذا الحكم وإحالته إلى الحكم الذى تضمنته آية «النور» وهو قوله تعالى : «الزانية والزانى فاجلدوا كلّ واحدٍ منهن مائة جلدة ... الآية » .. ويروُون لهذا حديثاً عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه — صلوات الله وسلامه عليه — حين تلقى آية « النور » من ربه ، وزايله ما غَشِيَه من الوحى ، قال لمن حضره من أصحابه : « خذوا عنى ، خذوا عنى .. قد جَعَل الله لَهُنَّ سبيلاً .. البِكْرُ بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » .

والسؤال هنا : هل من السبيل التى تنتظر منها هؤلاء المكروبات باباً من أبواب الطمع فى رحمة الله أن يُنقلن من الحبس إلى الرجم أو الجلد ؟

إن فى قوله تعالى : « أو يجعلَ الله لَهن سبيلاً » يداً عُلْوية رحيمة تمتدّ إليها أيدى أولئك البائسات الشقيّات ، فى أمل يدفىء الصدور ، ويُثلج العيون ! فكيف يُخْلِفُهن هذا الوعد الكريم من ربّ كريم ؟ وحاش لله أن يخلف وعده .

ولا نقول فى الحديث المروى أكثر من هذا .

وأما الذين لا يقولون بالنسخ لهاتين الآيتين ـ ونحن منهم ـ فيقولون : إن السبيل التى جعلها الله لهؤلاء المذنبات ، هى أن يفتح الله لهن باباً للخروج من هذا السجن ، على يد من يتزوج بهن .. فالزواج هنا ينتقل بهن إلى بيت الزوجية الذى يَعشنَ فيه عيشة غيرهن من المتزوجات ، حيث يسقط عنهنّ هذا الحكم الذى وقع عليهن .

وهذه الرحمة التى يمسح الله بها دموع هؤلاء المذنبات من عباده ، ويردّ بها إليهن اعتبارهن ، بعد الذى نالهن من عذاب جسدى ، ونفسى — هذه الرحمة هى فى مقابل تلك الرحمة التى أفاضها الله على قرنائهنّ من الرجال ، الذين اقترفوا

جريمة اللواط .. فقد جاء بعد قوله تعالى : « واللذان يأتيانها منكم فآذوهما » ـ جاء قوله سبحانه : « فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إنَّ الله كان توابًا رحيما » فهذا الأمر بالإعراض عن أهل « اللواط » بعد أن يتوبا ويصلحا ، وهذه السبيل التى جعلها الله لمرتكبات « السحاق » إن صلح حالهن ورغب الأزواج فيهن ـ هذا وتلك ، هما رحمة من رحمة الله ، ولطف من ألطافه ، يَصْحَبُ المقدور ، ويخفف البلاء ، ويهوّنه .. « ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ » فسبحانه وسع كل شىء رحمة وعلماً ، يجرح ويأسو ، ويحكم ويعفو .. آمنت به لآ إله غيره ، ولا ربّ ســـواه .

ومما يؤيد ماذهبنا إليه فى فهم هاتين الآيتين ، وحملهما على هذا الوجه الذى فهمناهما عليه ، ماجاء بعدهما من قوله تعالى : « إنما التوبةُ على الله للذين يعملون السُّوء بجهالةٍ ثم يتوبون من قريب » فذِكر التوبة هنا ، وأثرها فى محو السيئات ، هو توكيد لقوله تعالى : « فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما » أى إن اللذيْن يأتيان الفاحشة « اللواط » من الرجال لهما مدخل إلى التوبة التى بها يتطهران من هذا الإثم ، أما الزِّنا فلا يطهر منه مقترفه إلا بإقامة الحدّ عليه ، كما فعل « ماعز » حين ارتكب هذا المنكر ، فجاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقال : « طهّرنى » يارسول الله .. وما زال يقول طهرنى يارسول الله ، والرسول الكريم يراجعه ، حتى شهد على نفسه أربع شهادات . فأمر الرسول — صلى الله عليه وسلم ـ بإقامة الحدّ عليه ، ورجمه ، وكذلك كان الأمر مع المرأة الغامدية .

الآيتان : (١٧ ـ ١٨)

« إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً » (١٧)

« وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٨)

رأينا فى الآيتين السابقتين كيف عادت رحمة الله فمسحت دمعة البائسين من أهل المنكرات ، من الرجال والنساء ، بعد أن تابوا وأصلحوا ..

وهنا فى هاتين الآيتين بيان للتوبة التى يقبلها الله من عباده المذنبين ، والتى يَلْقَى بها ذنوبهم بالصفح والمغفرة ..

فيقول سبحانه . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السُّوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » .

والمراد بالجهالة هنا مايركب الإنسانَ من حُمْق ، وطيش ، ونزق .. وهو فى مواجهة المنكر ، وليس المراد بالجهالة عدم العلم بالمنكر الذى يرتكبه . . فهذا معفوٌّ عنه ، ومحسوب من باب الخطأ .

والمراد بالتوبة من قريب ، أن يرجع المذنب إلى نفسه باللائمة والندم ، وأن ينكر عليها هذا المنكر الذى وقع فيه ، وألا يستمرئه ، فإذا وقف الإنسان من نفسه هذا الموقف كانت له إلى الله رجعة من قريب .. فإن مثل هذا الشعور يزعج الإنسان عن هذا المورد الوبيل الذى يَرِدُه ، ويَلْوى زمامه عنه .. إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غدٍ .. وهذا ماحَمِدَه الله سبحانه وتعالى لأصحاب تلك النفوس التى يقلقها الإثم ، ويزعجها المنكر إذا هى ألَمّتْ بمنكر ، أو واقعت ذنباً ، فكان من حمده سبحانه لتلك النفس وتكريمه لها أن أقسم بها ، فقال سبحانه : « لآ أقسم بيوم القيامة ولاأقسم بالنّفس اللّوامه » (١ـ٢ : القيامة).. وقال سبحانه : « والذين إذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله

فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوبَ إلاَّ الله ولم يُصِرُّوا على مافعلوا وهم يعلمون» (١٣٥ : آل عمران) فالعلم هنا مقابل للجهالة فى قوله تعالى : «يعملون السوء بجهالة» ، أى أنهم لم يصرُّوا على مافعلوا من منكر وهم يعلمون أن هذا المنكر يَجنى عليهم ويحبط أعمالهم ، وإنما هم مغَطًّى على بصرهم ، لِماَ لَبِسهم حالَ غشيانهم المنكر من خِفَّةٍ وطيش ، فلما استبان لهم وجه المنكر ، وعرفوا عاقبة أمرهم معه ، أنكروه ، وبرئوا إلى الله منه .

وقد مَدَح الله هؤلاء ، الذين ينكرون المنكر حتى بعد أن يواقعوه .. فقال تعالى : «والذينَ يُؤْتون ما آتَوا وقلوبهم وَجِلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفْسًا إلا وسعها» .

وفى قوله تعالى : «وليست التوبة لِلّذين يعملون السيئاتِ حتى إذا حضرهم أحدَهم الموتُ قال إنى تبتُ الآن ولا الذين يموتون وهم كفار» ردٌّ وردع لأولئك الذين يستخفّون بمحارم الله ، فيهجمون عليها فى غير تحرج ولا تأثم ، وَيبيتون معها ، ويصبحون عليها ، دون أن يكون لهم مع أنفسهم حساب أو مراجعة .. وهكذا يقطعون العمر ، فى صحبة الفواحش ، ظاهرها وباطنها ، حتى إذا بلغوا آخر الشوط من الحياة ، وأطلّ عليهم الموت ، فزعوا وكربوا ، وألقوا بهذا الزاد الخبيث من أيديهم ، وقالوا : تُبنا إلى الله ، وندمنا على مافعلنا من ركوب هذه المنكرات !

إنها توبة لم تجىء من قلب مطمئن ، وعقل مدرك ، يحاسِب ويراجع ، ويأخذ ويدع ، ولكنها توبة اليائس الذى لايجد أمامه طريقاً غير هذا الطريق .. إنه لم يتُبْ وهو فى خِيَرةٍ من أمرِه .. فيمسك المنكر أو يدعه ، ويقيم على المعصية أو يهجرها .. وإنما هو إذ يتوب فى ساعة الموت، أشبه بالمكره على تلك التوبة ، إذ لا وجه أمامه للنجاة غير هذا الوجه.. وقد فعلها فرعون من

قبل حين أدركه الغرق ، فردّه الله سبحانه ، ولم يقبل منه صرْفاً ولا عدلاً : « حتَّى إذَا أدْرَكَهُ الْغَرقُ قَالَ آمنتُ أنَّه لا إلَهَ إلاّ الذِي آمنتْ به بنو إسْرائيل وأنَا مِن المسلمين * الآن وقد عَصَيْتَ قبْلُ وكنتَ من المفسِدين * (٩٠ - ٩١ . يونس) .

إن إيمان فرعون هنا لم يكن عن اختيار بين الإيمان والكفر .. بل كان لابدّ له من أن يؤمن حتى ينجو من الغرق ، إن الكفر بالله هو الذى أورده هذا المورد ، وإن الإيمان بالله الذى كفر به من قبل هو الذى يردّه عن هذا المورد ويدفعه عنه .. هكذا فكر وقدّر ! !

وشبيه بهؤلاء الذين لايرجعون إلى الله ، ولا يذكرونه إلا عند حشرجة الموت ، أولئك الذين يُغرقون أنفسهم فى الآثام مادامت تواتيهم الظروف ، وتسعفهم الأحوال ، حتى إذا سُدّت فى وجوههم منافذ الطريق إلى مقارفة الإثم ، بسبب أو بأكثر من سبب ، تعففوا وتابوا .. وتلك توبة العاجز المقهور ، ورجعة المهزوم المغلوب على أمره . لايخالطها شيء من الندم ، ولايقوم عليها سلطان من إرادة ومغالبة .. إنها توبة غير مقبولة .

الآيات : (١٩ - ٢١)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ

بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٢٠) وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٢١)

التفسير: فى مقام التوبة، والتقديم على الذنوب والآثام، والرَّغَب إلى الله، والهرب من المآثم — فى هذا المقام يُذَكِّر الله سبحانه وتعالى بالنساء وما لهن من حقوق، وما فى اهتضام هذه الحقوق والعدوان عليها من إثم يفسد على المؤمنين إيمانهم، ويعرضهم لنقمة الله، وعذاب الله.

فمن ذلك، الالتواء فى معاشرة النساء، وأخذهنّ بالضرّ والأذى، للوصول من وراء ذلك إلى عَرَض من أعراض الدنيا، بحملهن على شراء الخلاص لأنفسهن بما يريده الأزواج منهن من ثمن.

فقد تكون المرأة غير ذات حُظْوة عند الرجل، وقد يكون الرجل كارهاً لها وهى كارهة له، ومع هذا فهو يمسكها، ولا يسرّحها بإحسان، كما أمر الله سبحانه وتعالى: « فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريح بإحسان » (٢٢٩ : البقرة).. وهذا الإمساك للمرأة والمضارّة لها إنما يبغى الرجل من ورائهما أن تموت وهى فى عصمته، حتى إذا ماتت ورثها. وهذا مانهى الله عنه، وعدّه عدواناً على المرأة إذ يقول سبحانه: « لايحلّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً ».. وقد ينتظر الرجل من وراء هذا الإمساك بالمرأة على كره، أن تخالعه المرأة على مافى يدها من مهر كان أمهرها إياه، ولا تزال نفسه متطلعة إليه.. وهذا ماينهى الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: « ولا تَعْضلوهُنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ».. والعضل الإمساك على الضرّ والأذى.

وقوله تعالى « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » هو استثناء من الإمساك الذى هو من بعض مفاهيم العَضْل، فى هذه الحالة، وهى أن تأتى المرأة بفاحشة قامت عليها بيّنة — يجوز أن يمسك الرجل المرأة، تأديباً لها، فهذا الإمساك وإن

كان عدوانا على المرأة ، هو عدوان لردّ عدوان ، وهو ما أجازه الله سبحانه وتعالى فى قوله : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (١٩٤ : البقرة) ثم هو — أى العدوان هنا — إمضاء لأمر الله تعالى فى اللائى يأتين الفاحشة من النساء .

وذلك فى قوله تعالى : « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فإن شَهِدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموتُ أو يجعل الله لهن سبيلا » .

وفى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » دعوة إلى ماينبغى أن تكون عليه حياة المرأة مع الرجل ، وهو أن تعاشَر بالمعروف ، وأن تعامل بالإحسان ، حتى وهى مأخوذة بجريرتها التى قضت عليها بالإمساك فى البيت .

وفى قوله تعالى : « فإن كرهتموهن فعسَى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ الله فيه خيراً كثيراً » وصية كريمة من الله ، بالإحسان إلى المرأة ، أيًّا كانت نظرة الرجل إليها ، وموقعها من قلبه .. فقد لايجد فى عشرته معها ، والسكن إليها ، مايشرح صدره ، فيحمله ذلك على الضجر بها ، والتبرم منها ، فيسىء عشرتها ، ويرميها بالأذى ، حتى يحملها على أن تترضاه من مالها ليطلقها .. وهنا يلقاه قوله تعالى : « فعسَى أن تكرهوا شيئاً ويجعلَ اللهُ فيه خيراً كثيراً » .. فيتقبل هذا المكروه ، ويصبر عليه ، ثم ينجلى الموقف عن غير ما كان يحسب ويقدر ، وإذا المرأة التى كان يكرهها قد علقت بقلبه ، وملأت حياته أنساً ومسرّة .. فإنه ما أكثر أن تجىء الأمور على غير حسابنا وتقديرنا . فما نحسبه خيراً قد يجىء من ورائه الشرّ ، وما نراه مكروهاً قد يجىء بما نحبُّ ونرضى !

وفى هذه الوصاة الكريمة ، تنفير من الطلاق ، وتحذير من المبادرة إلى هوى النفس ، الذى يدعو إلى الطلاق ، على حساب أنه الخير ، وقد يكون الشرّ كلّه كامناً وراءه .

وقوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوجٍ مكان زوجٍ وآتيتم إحداهُنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » .

هو استكمال « للوَصاة التى أوصى الله بها الرجال بالنساء .. ألا يرثوهن كرهاً أو يعضلوهن ، وأن يعاشروهن بالمعروف ، وأن يصبروا على مايشعرون به من ضيق أو أذى منهن ، فقد يكون من وراء ذلك خير كثير ..

ثم إنه إذا لم يكن بدٌّ من الفرقة والطلاق ، فليكن كما أمر الله : « تسريح بإحسان » فلا يعمل الرجل على أن يستردَّ مما أعطاها من مهر شيئاً ، وألا يحمِلها حملا على أن تخلص من بين يديه ، وأن تفتدى نفسها من عشرته بالمال .. وليقف عند أمر الله سبحانه : « وآتيتم إحداهُنَّ قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا » إن ذلك عدوان عليها ، وسلب لحق وقع فى يدها .. « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » فذلك ماينكره الله ، ويجزى عليه جزاء الآثمين .. والبهتان : هو العدوان ، وتبرير هذا العدوان بطلاء زائف من التمويه والخداع .

وفى قوله تعالى : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأَخَذْنَ منكم ميثاقاً غليظاً » إنكار بعد إنكار لأن تمتد يدٌ إلى هذا الذى فى يد المرأة ، التى أصبحت هى ومالها أمانة فى يد الزوج .. فكيف يخون الرجل أمانة من عاشره ، واختلط به ، وأصبح فى حالٍ ما ، بعضا منه ؟ وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « أفضى بعضكم إلى بعض » . والإفضاء إلى الشيء الوصول إليه ، والتغلغل فى صميمه .

والميثاق الغليظ : هو العهد القوىّ المؤكد ، وهو ما أخذه الله على الرجال للنساء فى قوله تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » .. وقد وضع الله هذا الميثاق الغليظ المؤكد فى يد المرأة . ليكون لها أن تقاضىَ الرجل به عند الله ! وفى هذا تغليظ لهذا الميثاق الغليظ !

الآية : (٢٢)

« وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا » (٢٢)

التفسير : بعد أن بين الله سبحانه وتعالى ماينبغى أن تقوم عليه الحياة بين الرجل والمرأة من توادّ وتعاطف وتراحم ، وأن تصفو من الكيد ، وتبرأ من الدّخَل وتبييت السوء ، حتى تتآلف تلك الخلية الأولى فى الجسد الاجتماعى ، وتتلاحم ، وتصبح قوة عاملة فى الحياة لخيرها ، ولخير المجتمع كله ..

بعد هذا البيان الكاشف للحياة الزوجية ، وللأسس السليمة التى ينبغى أن تقوم عليها ــ جاء بيان سماوى آخر يقيم الحدود بين ما يَحلّ وما يحرم على الرجال من النساء ، حتى إذا رغب الرجل فى الزواج من امرأة تخيرها من بين من أحل الله له منهن !

وقد يبدو ــ فى ظاهر الأمر ــ أن الترتيب الطبيعى كان يقضى بأن يجىء البيان الخاص بالحِلّ والحرمة أولاً ، ثم يجىء بعد ذلك ما يوصَى به فى المعاشرة بين الزوجين ، بعد أن يصبحا زوجين . هكذا يبدو الأمر فى ظاهره !

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يرفع نظرنا فوق هذا المستوى الذى ننظر منه إلى الأمور ونزنها به .

فليست مشكلة الحياة الزوجية فى التعرف على من تحلّ ومن تحرم من النساء لمن يرغب فى الزواج ، فذلك أمر لايحتاج إلى أكثر من إشارة ، تخطّ خطاً فاصلاً بين الحلال والحرام .. بل إن الأمر لأهون من هذا .. فالحلال بينّ والحرام بينّ ، والمشكلة كلها فى التزام الحلال ، وتجنب الحرام ..

ومشكلة الحياة الزوجية ليست الزواج ، ولكن فيما بعد الزواج ، وفى القُدرة على الوفاء بالحقوق والواجبات فيها !

من أجل هذا ، كان هذا الإلفات الكريم من الله أولاً إلى ما بعد الزواج، إذ هو مِلاك الأمر كله ، وعليه تبنى الحياة الزوجية ، ويُجنى منها الثمر الطيب المرجو فيها .

وإذن فليكن فى حساب الرجل أولاً إعدادُ نفسه إعداداً كاملاً لحمل هذه الأمانة العظيمة التى سيحملها ، وليُرَوّضْ نفسه مقدّماً على الصبر والاحتمال ، والتنازل عن كثير من حياته الخاصة ، ليصل بما يقتطع من تلك الحياة حياة جديدة ، تقوم بينه وبين شخص آخر ، جاء يشاركه حياته ، وينازعه وجوده الذاتى الفرديّ .

أما ما بعد ذلك — وهو الزواج — فأمره هين . . فالنساء كثيرات وله فيما أحلّ الله له منهن مالا حصر له .. فليختر منهن من يشاء ، ولكن الحذرَ الحذرَ كله ، والمحظور المحظور جميعَه ، فيما بعد الزواج !

وقوله تعالى : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » بيان لأول ما يحرم على الإنسان التزوج بهن من النساء . . وهى امرأة الأب . . إذ هى بمنزلة الأم ، ثم هى من جهة أخرى بمكان الأب من الاحترام والتوقير . . فكيف تقبل نفس كريمة أن تكون امرأة الأب — وهذا شأنها — زوجاً يباشرها ، وتكون يده فوق يدها ؟ أو حتى تكون يده مع يدها ؟

وفى التعبير القرآنى عن زوجات الآباء بكلمة « ما » التى تدل على الإبهام والتنكير — ما يشير إلى أن هؤلاء الزوجات ينبغى أن يكنّ فى نظر الأبناء ، وفى شعورهم شيئاً مبهماً غامضاً ، لاتتملاه العين ، ولا تتفحصه ، ولا تقيم له حساباً فيما يقام من حساب بين الرجل والمرأة ! إنهن — بالنسبة للأبناء — شىء محجب وراء سُتُر كثيفة من التحرج والتأثم ، فلا يكاد يقع فى تصور الأبناء صورة سوية لهنّ كصور النساء اللاتى يريدون الزواج بهن !

وقوله تعالى : « إلا ما قد سلف » استثناء وارد على ما وقع فى الجاهلية من

رجال دخلوا فى الإسلام ، ووقعوا فى هذا المنكر .. فإنه لا إثم عليهم الآن بعد أن صححوا وضعهم ، وأخذوا بما جاء الإسلام به .

وفى قوله تعالى : « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » تشنيع غليظ على هذا المنكر ، وإلقاء بكل ما فى الفاحشة والمقت وسوء العاقبة من ثِقل وبلاء على من يقارف هذا المنكر ، ويركب ذلك الضلال السفيه !

الآية : (٢٣)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا » (٢٣)

التفسير : فى هذه الآية بيانُ الأصناف من المحرمات على الرجال التزوج بهن ، بعد أن بينت الآية التى قبلها حرمةَ التزوج ممن تزوج بهن الآباء .. وبيان المحرمات هنا على الوجه الآتى :

١ — « حرمت عليكم أمهاتكم » .. أى أم الرجل ، وأصولها .

٢ — « وبناتكم » .. أى بنت الرجل ، وفروعها .

٣ — « وأخواتكم » أى الأخت ؛ سواء أكانت شقيقة ، أم لأب ، أم لأم .

٤ — « وعماتكم » والعمة أخت الأب .

٥ — « وخالاتكم » والخالة هى أخت الأم .

٦ — « وبنات الأخ » أى ويحرم على الرجل بنات أخيه سواء أكان شقيقا ، أم لأب ، أم لأم وكذلك فروعهن .

٧ — « وبنات الأخت » سواء أكانت أختاً شقيقة أم لأب ، أم لأم ، وكذلك فروعهن .

٨ — « وأمهاتكم اللاّتى أرْضَعْنَكُمْ » أى وتحرم على الرجل المرأة التى أرضعته ، فهى بالنسبة له أم ، لها حرمة أمه التى ولدته ، وكذلك لأصولها وفروعها ، كما لأصول أمه وفروعها .. وفى الحديث الشريف : « يحرم من الرضاع مايحرم بالنسب » .

٩ — « وأخواتكم من الرضاعة » فكل من أرضعتهم المرأة هم أخوة ، ولولم تكن قد ولدتهم .. ويحرم عليهم التزوج من بعض ، حرمة الأخوة من الميلاد .

١٠ — « وأمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ » أى أم الزوجة .. سواء أكان معقوداً على ابنتها ولم يُدخَل بها أم مدخولا بها .. فلها حينئذ حرمة الأم ، على من تزوج ابنتها ، تحرم عليه حرمة مؤبدة .

١١ — « وربائبكم اللاّتى فى حجوركم من نسائكم اللاّتِى دخلتم بهنّ فإن لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم » والربيبة : الصغيرة المربّاة فى بيت الرجل المتزوج بأمها .. ويراد بها هنا مطلق بنات الزوجة .. فإنهن يحرمن على زوج الأم ، سواء تربّين فى بيت الزوج أم نشأن بعيداً عنه .. وذلك بشرط أن تكون الأم مدخولاً بها ، أما العقد عليها فلا يحرّم زواج بناتها ممن عقد عليها ثم طلقها ولم يدخل بها ..

والتعبير عن بنات الزوجة بالربائب ، لأنهن على صلة مع أمهن ، وهى فى بيت زوجها .. إذ أن من شأن البنات ألا ينقطعن عن أمهن ، ولو كنّ فى بيت غير بيت أبيهن .. ومن هنا كان التعبير عنهن بالربائب اللائى فى الحجور ، حتى ينظر

إليهن الرجل نظرته إلى بناته الصغيرات ، فلا تمتد عينه إلى النظر إليهن نظر شهوة .

١٢ — « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » وهن زوجات الأبناء الحقيقيين للرجل ، لا الأبناء بالتبنيّ .. فهؤلاء الأبناء بالتبنيّ لا يحرم على مثل هذا الأب زواج من تزوج بهن أبناؤه بالتبنيّ بعد طلاقهن وانقضاء عدتهن .

وقد كان العرب فى الجاهلية ، يُلْحقون الابن المتبنَّى بالإبن من الصلب فى هذا ، فلما جاء الإسلام فرق بين الحالين فى قوله تعالى : « ومَا جَعَلَ أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكُمْ بأفواهِكُمْ واللهُ يقُولُ الحقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيل * ادْعُوهمْ لآبائهمْ هو أقْسَط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكمْ فى الدين ومواليكم .. » (٤ ـ ٥ : الأحزاب) .

وبهذا وضع الإسلام حدًّا لفوضى الأنساب التى كانت شائعة فى الجاهلية ، حيث يخلط الرجل من يتبنّى من أبناء الغير بأبنائه ، ليكتسب بهم كثرة وقوة !

١٣ — « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ماقد سَلَفَ إن الله كان غفوراً رحيما » فلا يحل للرجل أن يجمع بين الأختين فى عصمته ، وله أن يتزوج الثانية بعد أن تنقطع علاقته بالأولى ، بالطلاق أو الوفاة . .

وذلك صيانة للعلاقة بين الأختين أن تفسدها الحياة الزوجية التى تجمعهما تحت سقف واحد ، وليد رجل واحد ، فتكون المرأة ضرّة أختها ، كما يحدث بين زوجتى الرجل أو زوجاته ، المتباعدات نسباً وقرابة .

ولهذا ، فقد ألحق النبيّ الكريم بتحريم الجمع بين الأختين ، الجمعَ بين البنت وعمتها ، والبنت وخالتها ، فى قوله صلى الله عليه وسلم : « لاتُنكح البنت على عمتها أو خالتها فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

وقد عفا الله عما سَلَف فى الجاهلية من الجمع بين هذه المحارم ، قبل أن يجىء أمر الله بتحريم هذا الجمع .. « إن الله كان غفوراً رحيما » ..

* * *

تم الكتاب الثانى ويليه الكتاب الثالث إن شاء الله ، ويبدأ بصفحة : ٧٣٧

عبد الكريم الخطيب

التفسير القرآني للقرآن

الكتاب الثالث

الجزءان : الخامس والسادس

من مباحث هذا الكتاب

- زواج المتعة .. والرأى فيه
- الصلاة ... وشارب الخمر
- القرآن .. والمسيح المصلوب
- الوسيلة .. والرأى فى التوسل بالأولياء

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى

الآية : (٢٤)

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤)

التفسير : فى هذه الآية بيان لآخر المحرمات من النساء ، وهُنّ ستة عشر صنفاً ، منهن خمسة عشر فى الآيتين السابقتين ، وصنف واحد فى هذه الآية .. وهو : المحصَنات من النساء .. والمحصنات هن اللاتى تحصنّ بالزّواج ، وصرْن فى عصمة الغير ، أو تحصنّ فى بيوتهن ، وملكن أنفسهن ، ولم يتزوجن بعدُ .. فهؤلاء هنّ فى حِصْن يحرم على الرجل دخوله عليهن ، إلا عن الطريق الشرعى بالزواج منهن ، بعد أن تزول الحواجز التى كانت تحول بين الرجل وبين حلّهن له .

فإذا طلقت المرأة ، المحصنة ، أو مات عنها زوجها وانقضت عدتها المقدرة فى الطلاق أو فى الموت أحلّ لها مَن كان من غير محارمها أن يخطبها إلى نفسه ، وأن يمهرها ، ويتزوج بها ، إذا رضيت أو رضى أهلها به زوجاً .

وكذلك المرأة غير المتزوجة ، هى محرمة على الرجل الذى أحلّ له الزواج منها ، حتى يخطبها لنفسه ، وترضى به أو يرضى به أهلها زوجاً ، ثم يمهرها ، ويعقد عليها ، عقداً صحيحاً مستوفياً شروطه .

فهؤلاء المحصنات من النساء محرمات حرمة موقوتة بحواجز قائمة ، فإذا زالت تلك الحواجز حلّ الزواج بهن ..

ولهذا جيء بهذا الصنف من المحرمات فى آخر المحرمات ، ملحقاً بصنف آخر حرّم حرمة مؤقتة ، وهو الزواج من الأختين .. فإن الزواج بالثانية منهما محرم حرمة مؤقتة إلى أن تَبِينَ الأولى بطلاق أو موت ، وتنقضى عدّتها .

وقوله تعالى : « إلاّ ما مَلَكَتْ أيمانُكم » هو استثناء وارد على حرمة المحصنات من النساء ، فإن هؤلاء المحصنات محرّمات ما دُمْن فى حراسة الحصانة القائمة عليهن ، ولكن هناك حالة ترفع هذه الحراسة عن المرأة ، وتُجردها من الحصانة التى كانت لها ، وهى أن تقع أسيرة حرب ، فتصبح ملكا لآسرها ، وبهذه الملكية لا يكون لزوجها ، ولا لنفسها ولا لأهلها سلطان يدفع يد مالكها عنها ، فله أن ينكحها بعد أن يستبرىء رحمها بالعدّة إن كانت مزوجة ، وإلا فهى حلّ له من أول ساعة تقع فيها ليده .. وملك اليمين من النساء كما يكون بالغنيمة فى الحرب ، يكون بالشراء بالمال ، أو الهبة ونحو هذا .

وقوله تعالى : « كتابَ اللهِ عليكم » هو إغراء بالحفاظ على هذه الحدود والتزامها ، كما بينها الله وجعلها عهداً وميثاقاً بينه وبين المؤمنين به .. بمعنى احفظوا وارعوْا ما كتب الله لكم وافترض عليكم من أحكام الزواج .

قوله تعالى :

« وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » .

هو إطلاق للقيد الوارد على المحرمات من النساء ..فما وراء هذا القيد الذى ضمّ ستة عشر صنفاً من النساء ، فهنّ مما أحلّ الله للرجال التزوج بهن ، بشرط أن يطلب الرجل الزواج ممن يريدها ، وأن يأخذ الرضا منها أو من وليّها ، وأن يُمهرَها من ماله المهر المطلوب لها ..

وفى قوله تعالى : « محصِنين غيرَ مسافحين » تنبيه إلى أن يُبتغَى بهذا المال

الذى يَسُوقه الرجل إلى المرأة ، الإحصانُ والتعفف بالزواج ،لا مجرد الوصول إلى المرأة وقضاء الوطر منها ، فذلك مال أنفق فى حرام ، واستبيح به مالاً يحلّ ، وأوقع صاحبه فى محظور ، هو السفاح والزنا .. وكان من حق هذا المال، وهو نعمة من نعم الله ، أن يصان عن أن يكون مطية لعصيان الله ومحاربته ، وألاّ يُعدل به عن الحلال بالإحصان ، إلى مواقعة الحرام وارتكاب هذا المنكر الغليظ ، وهو الزنا ..

قوله تعالى : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » .

هو أمر إلزامىّ بالمهر الواجب تقديمه من الرجل إلى المرأة التى يرغب فى الزواج بها .. فهو فريضة من الله ، فرضها فى مال الزوج للمرأة .. ولم يقف به الإسلام عن حد معينّ ، بل تركه ، حسب يسار الرجل وإعساره .. إلا أنه على أى حال لابد من أن يكون شيئاً معتبراً عند كل من الزوج والزوجة ، له قدره وأثره عندهما معاً ، وله قيمته فى الحياة .

وفى قوله تعالى : « وَلاَ جُناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » دعوة إلى المياسرة بين الزوجين فى المهر ، فللمرأة بعد أن يعطيها الرجل المهر المناسب لها ، أن تنزل عنه أو عن بعضه له ، وللرجل بعد أن يعطى المهر المطلوب منه ، أن يزيد فيما أعطى ، وفى هذا وذاك تبادل لعواطف المودة والمعروف بين الزوجين ، الأمر الذى ينتظم به شمل الأسرة ، وتقوم عليه سعادتها .

والاستمتاع المطلوب إيتاء الأجر عنه هنا ، هو ما يحققه الزواج للرجل من سكَن نفسى ، وأنس روحى ، وقرّة عين بالبنين والبنات ، إلى ما يجد من إشباع لغريزته الجسدية ، مع العفة والتصوّن . .

« وما » فى قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن » . . اسم موصول ،

لغير العاقل ، معدول به عن « مَنْ » التي يقع في حيزها العقلاء ، وهن النساء المرغوب في الزواج منهن .

وفي اختيار النظم القرآني لهذا الأسلوب إعجاز من إعجازه .. فإن مافي كلمة «ما» من التجهيل والتفخيم ، ما يُلقي إلى شعور الرجال إحساساً بعظم الأمانة ، التي سيحملونها بهذا الزواج الذي هم مقدمون عليه ، وبأنه نعمة عظيمة من نعم الله ،لمن يعرف كيف يكشف أسرارها ، ويتعرف على مواقع الخير فيها ..

فالمرأة عالم رحيب ، أشبه بالبحر ، تكمن في أعماقه اللآلىء والدرر ، كما تضطرب في كيانه الحيتان والأخطبوطات .. والصيد في هذا البحر يحتاج إلى مهارة وكياسة ، وإلا وقع المحذور وساءت العاقبة ..

هذا وقد حمل كثير من المفسرين قولَه تعالى : « فما استمتعتم به منهن » على نكاح « المتعة » وأن قوله تعالى : « فآتوهن أُجورَهُنَّ » هو إشارة إلى الثمن الذي يقدمه الرجل للمرأة في مقابل الاستمتاع بها !

والآية الكريمة في منطوقها لاتعطى هذا المفهوم ، الذي فوق أنه — في وضعه هذا — عنصر دخيل على القضية التي أمسك القرآن الكريم بجميع أطرافها هنا ، وهي قضية « الزواج » وما أحل الله وما حرّم على الرجال من النساء — فوق هذا فإن هذا المفهوم يناقض قوله تعالى « فريضة » الذي هو وصف ملازم للمهر الذي أشار إليه سبحانه بقوله : « فآتوهنَّ أجورهن فريضة » .. كما أنه يناقض قوله تعالى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » (٧ : المؤمنون) والمرأة المتمتع بها ليست زوجة ، لأنها لاتحسب في الأربع المباح للرجل الإمساك بهن ، ولا ترث المتمتعَ بها ولا يرثها ، كما أنها ليست مِلكَ يمين لمن يتمتع بها ..

وقد وقع خلاف كبير فى زواج المتعة بين أهل السنّة الذين يقولون بتحريمه، والشيعة الذين يبيحونه، ويتعاملون به.. وهذا عرض موجز لتلك القضية، وآراء المختلفين فيها.

زواج المتعـــة . . والرأى فيه

تعلّق إخواننا الشيعة فى حلّ زواج المتعة بقوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجُورَهن» وقد أوّل علماؤهم قوله تعالى «فما استمتعتم به منهن» بالمتعة، وهو أن يتمتع الرجل بالمرأة إلى أجل مسمّى، وقالوا فى مدلولها الشرعى: «إنها (أى المتعة) عبارة عن عقد مخصوص، لرابطة زوجية إلى أجل مسمّى وبمهر معلوم، ويشترط فى العقد: الإيجاب والقبول، ويبطل عند عدم ذكر المهر والأجل..

يقول «الطبرسى» — وهو من كبار علماء الشيعة الإمامية، فى تفسيره المعروف «مجمع البيان» عند تفسير قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورَهن فريضة» — يقول: قيل إن المراد به نكاح المتعة، وهو النكاح المنعقد بمهر معيّن إلى أجل معلوم، عن ابن عباس، والسُّدىّ، وابن سعيد، وجماعة من التابعين.. وهو مذهب أصحابنا الإمامية، وهو الواضح.. لأن لفظ الاستمتاع والتمتع، وإن كان فى الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ، فقد صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد المعيّن، لاسيما إذا أضيف إلى النساء، وعلى هذا يكون معناه: «فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمّى متعة فآتوهن أجورهن».

والشيعة إذ يذهبون هذا المذهب فى تأويل الآية الكريمة إنّما يجدون معهم إجماعاً يكاد يكون تامًّا من المفسرين جميعاً — سنّة، ومعتزلة، وشيعة — فى تأويل الآية على هذا الوجه.. ولم نجد من المفسرين من حمل الآية على محملٍ آخر غير

هذا ، إلا النسفى فى تفسيره ، إذ يقول فى الآية : « فما استمتعتم به منهن . » إنها لاتدل على حِلّ المتعة ، والقول بأنها نزلت فيها ، وتفسير البعض لها بذلك ، غلط ، وهو غير مقبول ، لأن نظم القرآن الكريم يأباه ، حيث بيّن ـ سبحانه ـ أولاً المحرمات ، ثم قال عزّ شأنه ؛ « وأحِلّ لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم » وفيه شرط بحسب المعنى ، فيبطل تحليل الفرج وإعارته ، وبهما قال الشيعة .

« ثم قال جل وعلا : « محصنين غير مسافحين » وفيه إشارة عن كون القصد لامجرّد قضاء الشهوة ،[1] وحبّ استفراغ المنىّ ، وعليه تبطل المتعة بهذا القيد ، لأن مقصودَ المتمتع ليس إلاّ ذاك ، دون التأهل والاستيلاد وحماية النسب ، كما أن كلمة الاستمتاع تدل على الوطء والدخول ، وليس بمعنى المتعة التى يقول بها الشيعة . . » .

وعلى هذا ، فالخلاف بين الشيعة والسنة ليس فى أصل المتعة وحلّها ، فهم متفقون جميعاً على أنها كانت موجودة فى عهد النبىّ ، ولكن الخلاف يجىء بعد هذا ، فيذهب أهل السنة إلى أنها نسخت ، على حين لايقول الشيعة بهذا النسخ ، ويردّون كل خبر ورد فى هذا الشأن .

وأهل السنة إذ يقولون بنسخ نكاح المتعة إنما يستندون فى هذا إلى أحاديث تروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، عند من يقول بنسخ القرآن بالسنة المتواترة ، ومنهم يقول إنها منسوخة بالقرآن .. كما سنرى ..

فالقائلون بالنسخ بالقرآن ، يذكرون هنا أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : « والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم (٥ — ٧ : المؤمنون) . وفى هذا يقول الفخر الرازى : « وهذه المرأة — أى فى زواج المتعة — لاشك أنها ليست مملوكة ، ولا زوجة ، ويدل عليه أنها

(١) قوله : « لا مجرد قضاء الشهوة » هو خبر المصدر « كون » .

لو كانت زوجة لحصل التوارث بينهما لقوله تعالى : « ولكم نصف ماترك أزواجكم » وبالاتفاق لاتوارث بينهما (وثانيا) لثَبَتَ النسب لقوله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » وبالاتفاق لايثبت (وثالثاً) ولَوَجبت العدّة عليها ، لقوله تعالى : « والذين يُتوفّون منكم ويذرون أزواجاً يتربّصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً » . .

وقد ردّ الشيعة على هذا ، بأن الآية التى قيل إنها ناسخة، هى سابقة فى نزولها للآية التى قيل إنها منسوخة ، لأن الآية الأولى فى سورة « المؤمنون » وهى مكية ، وآية المتعة فى سورة « النساء » وهي مدنية . . ولا يتقدم الناسخ على المنسوخ ..

وأما ما استند إليه أهل السنة من الأحاديث التى وردت فى تحريم المتعة فهو كثير ، من ذلك ماجاء فى موطأ مالك، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه: « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن متعة النساء يوم خيبر ، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسيّة » . ويرْوِى ابن حزم فى كتابه « الناسخ والمنسوخ » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنى كنتُ أحللتُ هذه المتعة ، وإن الله ورسوله قد حرماها ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » .

وفى قول الرسول الكريم : « إنى كنت أحللت هذه المتعة » إشارة صريحة إلى أن حلّ هذه المتعة كان بالسنة لا بالقرآن ، وأن النبى — صلى الله عليه وسلم — أباح المتعة — وحياً من ربه — لظرف خاص ، ثم حرّمها — وحياً من ربّه أيضاً — بعد زوال هذا الظرف .. فقد رَوى البخارى ، ومسلم ، عن ابن مسعود ، قال : « كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا نساء ، فقلنا ألاّ نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ، ثم قرأ علينا : « يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم

ولا تعتدوا إن لايحبّ المعتدين » .. ونكاح المرأة بالثوب أى تقديمه لها ، إن كان الرجل لايملك غيره .

وفى صحيح الترمذى : عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إنما كانت المتعة فى أول الاسلام .. كان الرجل يقدم البلدة ليس له بها معرفة ، فيتزوج المرأة بقدر مايرى أن يقيم ، فتحفظ له متاعه ، وتصلح له شأنه حتى نزلت (الآية) : « إلا على أزواجهم أو ماملـكت أيمانُهم » .. قال ، قال ابن عباس : « فكل زواج سواهما حرام » .

وهذا يعنى أن آية « المؤمنون » هذه نَسَخت ما كان أبيح بالسنّة فى أول الإسلام ، ولم تنسخ آيةَ النساء التى قيل إنها نسخت بآية « المؤمنون » والتى اعترض الشيعة على القول بنسخها ، لأنها متأخرة نزولا عن آية « المؤمنون » ولا يُنسخ المتأخر بالمتقدم .

وذكر الفخر الرازى فى تفسيره ، أن الناس لما ذكروا الأشعار فى فُتْيا ابن عباس فى المتعة ، قال ابن عباس : قاتلهم الله ، إنى ما أفتيت بإباحتهـا على الإطلاق ، لـكنى قلت إنها تحلّ للمضطر ، كما تحل الميتة والدم ، ولحم الخنزير » .

وفى صحيح مسلم ، عن إياس بن سَلَمَة عن أبيه قال : رخّص لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ أوطاس فى المتعة ثلاثاً ، ثم نهى عنها » (وعام أوطاس ، هو عام الفتح ، وأوطاس وادٍ بديار هوازن) .

وهذا الحديث يؤيد مارواه ابن ماجة فى سننه عن ابن عمر ، عن عمر — رضى الله عنهما — أن عمر خطب الناس ، فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذِن لنا فى المتعة ثلاثاً ثم حرمها ، والله لا أعلم أحداً يتمتع وهو محصَن إلا رجمته بالحجارة ، إلاّ أن يأتينى بأربعة يشهدون أن رسول الله أحلّها بعد إذ حرمها » .

والشيعة يعارضون هذه الأحاديث بأحاديث أخرى تثبت جواز نكاح المتعة ، والعملَ به في عهد الرسول ، وفي خلافة أبي بكر ، وأن عمر بن الخطاب — الخليفة الثاني — هو الذي أبطله في الشطر الثاني من خلافته ..

فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عمران بن الحصين ، قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله ، ففعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي في عهده) ولم ينزل قرآن يحرّمها وينهى عنها حتى مات صلى الله عليه وسلم، قال رجل برأيه ما شاء » يريد بالرجل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي نضرة قال : كنت عند جابر بن عبد الله ، فأتاه آتٍ ، فقال : ابنُ عباس وابن الزبير اختلفا في المتعتين [1] فقال جابر : فعلناهما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نهانا عنهما عمر فلم نَعُدْ لهما » .

وروى ابن رشد في كتابه « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » — عن ابن عباس أنه قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من الله ، رحم بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولولا نَهْيُ عمر عنها ما اضطر إلى الزنا إلا شقيّ » .

والشيعة إذ تأخذ بهذه الأحاديث التي تضيف إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه — أنه هو الذي أبطل نكاح المتعة ، وأن ذلك كان عن رأيٍ رآه ، واجتهاد اجتهده . فهمَ والأمر كذلك — غير محجوجين بما صنعه عمر ، مادام في أيديهم كتاب الله الذي أباح المتعة حسب تأويلهم لقوله تعالى: « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » وما صح من إجماع المسلمين على أنها كانت جائزة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة أبي بكر ، وبعض خلافة عمر ،

(١) يريد متعة الحج بالعمرة ، ومتعة النكاح .

ثم ما يظاهر ذلك من أحاديث ثبت عندهم صحتها ، ولم تثبت عندهم الأحاديث التي قيل إنها حرمتها ..

[الآية الكريمة ومفهومها]

وقد رأينا تعارض الأحاديث التي جاءت في المتعة ، والذي ذكرناه منها قليل إلى الكثير الذي أجمعت عليه كتب الأحاديث والتفسير .

والذي نريد الجواب عليه هو : هل جاء القرآن الكريم بإباحة المتعة حقاً ؟ وهل الآية الكريمة التي قيل إنها مستَنَدُ هذه الإباحة ، هي نصٌّ في هذا الحكم الذي أخذوه منها ، والذي يُجمع عليه المفسرون ، على اختلاف مذاهبهم ؟ ثم كيف يكون هذا ، ثم يجيء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فينقض حكما من أحكام الله ، ويبطل آية من آيات كتابه ؟ وكيف قَبِل المسلمون هذا منه وأقروه عليه ؟ ندع هذا الآن .. ونجيب على الآية الكريمة : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » وما فُهم منها من أنها نص في حل المتعة ؟ .

وننظر في الآية الكريمة التي جاء فيها هذا المقطع : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتابَ الله عليكم وأُحِلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصِنين غيرَ مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما » ..

ننظر فنجد :

أولا : أن هذه الآية هي خاتمة الآيتين اللتين قبلها ، والتي ذُكر فيهما تحريم أصنافٍ من النساء ، لا يحلّ التزوج بهن ، وفي هذه الآية تتمة لهذه الأصناف ، حيث ذُكر فيها صنف واحد منهن ، وهن المحصنات من النساء ، أي المتزوجات .

ثانيا : بعد هذه القيود التى فرضها الله سبحانه على المحرمات من النساء ، ورد حكمان :

الحكم الأول : ما كان من النساء فى مِلك الإنسان من الإماء ، فإنهن لا عصمة لهن فى أعراضهن لمن ملك ذواتهن .. وكان الأصل أن يُعَدْن فى المحصنات ، إذ لم يقع عليهن زواج ، بإيجاب وقبول ، ومهر وشاهدين ، كما هو الشأن فى عقد الزواج مع الحرائر ، ولكن لما كانت تلك حالهن ، وهذا وضعهن فى الحياة ، فقد جاء الاستثناء هنا ، ليقرر هذا الواقع الذى يَعِشْنَ فيه مع من ملكوا رقابهن ، وفى هذا يقول الله تعالى : « والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم » .

والحكم الثانى : هو إطلاق الإباحة — التى هى الأصل — فى التزوج بين الرجل والمرأة ، وذلك بعد تجنب أولئك المحرمات اللاتى ورد ذكرهنّ وفى هذا يقول سبحانه :

« وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين » والابتغاء هو طلب الزواج من أى امرأة غير اللاتى سبق ذكرهن . . والابتغاء لا يكون بالرغبة مجردة ، ولكن بالرغبة ومعها المال الذى يصلح مهراً للمرأة المراد التزوج منها ، والذى يهيىء لها بعد الزواج حياة صالحة تجد فيها السكن والاستقرار هى وما تثمر الزوجية من ذرية .. وبهذا المال الذى هو رزق من رزق الله ينبغى أن تُطاب المرأة التى أحل التزوج بها ، وأن يصان عن أن يكون أداة لطلب المتعة من المرأة ، على غير ما شرع الله فى الزواج . .

وثالثاً : يجىء بعد هذا قول الله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة إن الله كان عليما حكيما » .

فالضمير فى « به » يعود إلى المال المشار إليه فى قوله تعالى : « أن تبتغوا بأموالكم » ، والضمير فى « منهن » يعود إلى من أحل من النساء ، وهن المشار إليهن فى قوله تعالى : « وأحِلّ لكم ماوراء ذلكم » ويكون معنى الاستمتاع هنا ، طلب الزوجة ، أى ومن طلبتم بهذا المال الذى فى أيديكم من هؤلاء النساء فآتوهن مهورهن ، فريضةً فرضها الله عليكم ، ولا حرج عليكم فى أن تتياسروا فيما بينكم ، بعد أداء هذا الحق ، فيكون للمرأة أن تنزل عن شىء من هذا المهر ، الذى صار حقاً لها فى يدها ، ويكون للرجل أن يزيد فى المهر بعد أن أعطى الحق الذى عليه ..

فالقضية هنا قضية الزواج فى صميمها ، قد جاءت آيات الله لتكشف حلالها وحرامها، وتحدّد حدودها ، وتُلزم الرجال بأول شىء وأهم شىء مطلوب منهم فيها وهو المهر، بعد أن تتجه رغبة الرجل إلى الزواج من المرأة التى أحلّ الله له الزواج منها ، والتى ليست واحدة من أولئك المحرمات.. فليس بمعقول أبداً أن يدخل على هذه القضية ، قضيةُ المتعة ، التى هى فى حقيقتها أكثر من قضية الزواج تعقيداً ، وأشدّ عُسْراً ، وأخطر أثرا ـ بالإشارة إليها تلك الإشارة الخفية ، لو صحّ أنّ الإشارة كانت إليها ، ولمَاَ عرضها هذا العرض الخاطف، بل لجعلها قضية بذاتها ، ولرسم حدودها ، وبيّن معالمها ، وموقفَ كل من الرجل والمرأة فيها . .

وانظر كيف كان موقف الشريعة من التزوج بالإماء ، وهنّ ما هنّ فى الحياة الاجتماعية التى كانت لهنّ .

يقول الله تعالى بعد هذا مباشرة : « ومن لم يستطع منكم طوْلاً أن ينكح المحصناتِ المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورَهن بالمعروف محصَناتٍ غيرَ مُسافحاتٍ ولا متخذاتِ أخدان فإذا أُحْصِنّ فإن أتين بفاحشة

فعليهن نصفُ ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خَشِىَ العَنَتَ منكم وأن تصبروا خير لـكم والله غفور رحيم » .

ففى الزواج من الإماء أمور :

أولها : أن الزواج بهن لايُصار إليه إلا عند قلّة المال .. على خلاف زواج المتعة ، الذى لا يمنع منه كثرة المال ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، إذ لا يقصر المحلّون لزواج المتعة إباحتَه على المعسرين، بل هو ـ فى الواقع ـ للأغنياء قبل الفقراء .

وثانيها : أنها تتزوج كزواج الحرة ، أى زواجاً مطلقاً زمنُه ، غير محدود ـ وذلك على خلاف المتعة التى لا تصح ـ كما يقول القائلون بها إلا إذا نُصّ فيها على زمن معين : ساعة ، أو يوماً ، أو شهراً ، أو سنة ، أو سنين ! .

وثالثها : أن الأمَة تُحصَن بالزواج ، وتؤخذ بأحكامه ، من طلاق ، وعدّة ، وإقامة حدّ ، عند ثبوت الزنا : « فإن أحصِنّ فإن أتين بفاحشةٍ فعليهن نصف ما على المحصنَاتِ من العذاب » .. وهذا يعنى أنها ذات كيان شخصى ، واعتبار إنسانى ، بما أضفاه عليها الزواج من مكانة فى المجتمع .. على خلاف المتعة ، فإنها لم تُشرِّع لها الشريعة شيئاً ، لا فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسوله ، وإنما كل ما تعلق بها من أحكام ، هو من عمل القائلين بها ، ومن تقديرهم لها .

ورابعها : أن الزواج بالإماء ـ وإن أباحته الشريعة ـ هو أشبه بالمحظور ، لايُصار إليه إلا عند العجز عن زواج الحرائر ، وإلاّ عند الحاجة التى يَخشى معها المسلم الخطرَ على دينه .. « ذلك لمن خشى العنتَ منكم وأن تصبروا خيرٌ لـكم » .

هذا هو الوجه الذى يُطلّ علينا من « الإماء » ، ونحن ننظر إليهن كزوجاتٍ .

فَمَا الوجه الذى تبرز لنا به « الحرائر » ، ونحن نرمى بأبصارنا إليهن وهن فى معرض « المتعة » ؟ .

الحق أن زواج المتعة ـ على الرغم مما رسَم له أصحابه من حدود ، حين قالوا بالعدّة بعد انتهاء الأجل ، وحين سمّوا الجُعْل الذى يجعله المتمتع المرأة ، مهراً ، وعلى ما قرروه من نسبة الوَلَد إلى من عَلِقت به المرأة منه ـ على الرغم من كل هذا ، فإنه يَنزل بالمرأة إلى أدنى درجات الإنسانية ، ولا يجعل منها عند المتمتع بها أكثر من أجيرة ، تبيع عرضها لمن يدفع الثمن الذى يرضيها .

وما ظنك بامرأة لا تسكن إلى بيت، ولا يكون لها عند الرجل أكثر من هذا القدر من المال الذى جعله لها نظير المتعة ، فلا يلزمه لها طعام ولا كساء ولا سكن ، وإنما كل الذى لها عند الرجل ـ على شريعة المتعاملين بها ـ هو المال الذى يتفق هو وهى عليه ، مقابل تمتعه بها .. فأى امرأة هذه ؟ وأى رابطة إنسانية بينها وبين الرجل ؟ وأين ما يجده الرجل فى المرأة من سَكَنٍ، ومخالطة روحية ونفسية، قبل المخالطة الجسدية ؟ والله سبحانه وتعالى يذكّر عباده بتلك النعمة الجليلة التى يجدها الرجل فى المرأة ، إذ يقول : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .. فأين السَّكن وأين المودة ؟ وأين الرحمة فى زواج المتعة ؟ وأين ما تجده المرأة فى رجل المتعة من قَوامةٍ عليها ، والله سبحانه وتعالى يقول : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » وكم تعاشر المرأة التى تعيش فى حياة المتعة من رجال ؟ وكم تلتقى بوجوه من المتمتعين بها ؟ عشرات ومئات !

فهل يجد الرجل فى مثل هذه المرأة شيئاً من العاطفة الإنسانية التى بين المرأة والرجل ؟ وهل يجد إلا صورة من لحم ودم ، أو بقية صورة من لحم ودم ؟

وأين الحرمة القائمة على صيانة الأنساب وعدم اختلاطها ؟ وهل لهذه العدة التى قررها أصحاب المتعة حرمةٌ فى نفس امرأة المتعة التى تعيش مع الرجل ساعة أو ماهو أقل من ساعة ؟ ذلك محال .

ثم أين البيت الذى يقوم على زواج المتعة ؟ وأين الأسرة التى يضمها هذا البيت ويحتويها ؟

يقول العاملون بالزواج المتعى : إنه مع إباحة المتعة عندهم ، فإن البيوت قائمة ، والأسر عامرة .. ولم يَحُلْ زواج المتعة بيننا وبين الزواج الدائم الذى شرعته الشريعة الإسلامية ..

ونقول : هذا شاهد على أن زواج المتعة غير معتبر عند أصحابه ، وأنه إذا أشبع شهوة الجسد ، وأرضى مطالبه ، فإنه لم يَعُدْ منه شىء على جانب القلب والروح ، بل إنه ربّما زاد القلب ظمأ ، والروح تطلعاً إلى « المرأة » التى تسكن إلى الرجل ويسكن إليها ..

ونسأل : أكان التسرّى ، وامتلاء الدور بالإماء والجوارى — قبل إلغاء الرق — أكان مُغنياً عن « الزواج » وداعياً إلى الزهد فيه والعزوف عنه ؟

إن هذا من ذاك .. سواء بسواء .

فإذا ذهبنا نسأل عن الحلال والحرام ، وسألنا عن قوله تعالى : « وليستعفف الذين لايجدون نكاحاً حتى يُغنيَهم الله من فضله » لم نجد لهذه الآية المحكمة مكاناً بين المسلمين مع القول بإباحة المتعة .. فإنه مع المتعة لامجال للتعفف حتى يجد الرجال المال الذى يمكنهم من الزواج ، إذ كان فى استطاعة أى رجل أن يحصل على المرأة بالمتعة ، ولو برغيف ، أو مادون الرغيف — كما يقرر ذلك المشرعون للمتعة — بل إن الأمر لأهون من هذا ، إذا اتفقت المرأة والرجل على المتعة ولو بتمرة يلتقطها الرجل من الأرض !

إن الحياة الزوجية بمعناها الذى تقرر فى الشريعة الإسلامية ، هى فطرة فى الإنسان ، وما جاءت الشرائع لتقررها ، وإنما كل ماجاءت به الشرائع هو

تنظيمها، وتوضيح معالمها، وحمايتها من الأمراض الوافدة عليها، والبِدَع الملتصقة بها.. بل إن في كثير من أجناس الحيوان والطير مايعقد صلته على حياة دائمة متصلة بين الذكر والأنثى، حتى لايفرقهما إلا الموت، وحتى ليموت أحدهما أسًى وحسرة بعد موت رفيقه، وشريك حياته، فلا تهنؤه حياة من بعده!

وبعد..

فهل كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — هو الذى عارض شريعة الله وحرم ما أحلّ الله من متعة؟

ولا نجد ردًّا على هذا أبلغ مما ذكره الفخر الرازى فى تفسيره!

يقول الرازى: «ذكر — أى عمر — هذا الكلام (أى ماقاله فى تحريم المتعة) فى خطبة، فى مجمع الصحابة، وما أنكر عليه أحد.. فالحال هنا لايخلو. إمّا أن يقال إنهم كانوا عالمين بحرمة المتعة فسكتوا، أو كانوا عالمين بأنها مباحة، ولكنهم سكتوا على سبيل المداهنة، أو ماعرفوا بإباحتها ولا حرمتها فسكتوا لكونهم متوقفين فى ذلك.. والأول — وهو علمهم بحرمة المتعة وسكوتهم — هو المطلوب، والثانى — وهو علمهم بإباحة المتعة وسكوتهم عن عمر — يوجب تكفير عمر، وتكفير الصحابة، لأن من علم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حكم بإباحة المتعة، ثم قال: إنها محرمة محظورة، من غير نسخ، فهو كافر بالله، ومن صدقه عليه، مع علمه بكونه مخطئًا كافرًا، كان كافرًا أيضًا، وهذا يقتضى تكفير الأمة. وهو على ضدّ قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»..

والثالث: وهو أنهم ما كانوا عالمين بكون المتعة مباحة أو محظورة، فلهذا سكتوا، فهذا أيضًا باطل، لأن المتعة بتقدير كونها مباحة تكون كالنكاح. واحتياج الناس إلى معرفة الحال فى كل واحد منهما، عامةٌ فى حق الكل،

ومثل هذا يمتنع أن يبقى خفياً ، بل يجب أن يشتهر العلم به ، فكما أن الكل كانوا عالمين بأن النكاح مباح ، وأن إباحته غير منسوخة ، وجب أن يكون الحال فى المتعة كذلك ..

ولما بطل هذان القسمان — الثانى والثالث — ثبت أن الصحابة إنما سكتوا عن الإنكار على عمر لأنهم كانوا عالمين أن المتعة صارت منسوخة فى الإسلام » ..

وننتهى من هذا إلى حقيقتين ، ينبغى أن نقررهما فى هذا المقام :

أولاهما : أن القرآن الكريم لم يجرِ فيه ذكر بإباحة المتعة ، وأن الآية الكريمة ، التى يستشهدون بها لهذا ، وهى قوله تعالى : « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن » إنما هى لتقرير حكم من أحكام الزواج الشرعى الدائم ، وهذا الحكم ، هو المهر الواجب لصحة عقد هذا الزواج .

وثانيتهما : أن إباحة المتعة كانت مما أباحه الرسول الكريم — بإذن ربه — فى حال خاصة ، حيث كان المجاهدون من المسلمين فى حال غربة ، ولم يكونوا قد اصطحبوا نساءهم معهم ، فخافوا الفتنة على أنفسهم ، حتى أن بعضهم طلب الإذن لهم بالخصاء ، كما أشرنا إلى ذلك فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، وهو قوله : كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس لنا نساء ، فقلنا: ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ، ثم رخص لنا أن ننكح المرأة بالثوب ثم قرأ علينا : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . .

وفى هذا الحديث :

أولا : أن المسلمين لم يكونوا إلى تلك الواقعة قد أُذِنوا بشىء فى المتعة .

وثانياً : أن النبى صلى الله عليه وسلم هو الذى رخّص لهم ، وأنه لم يتلُ عليهم

الآية التى قيل إنها نزلت فى المتعة ، بل تلا عليهم ، تلك الآية الكريمة التى تدعوهم إلى الإبقاء على العضو الذى يصل الرجل بالمرأة ، وألا يَحرِموا أنفسهم التمتع بالنساء ، وهن من الطيبات التى أحل الله لهم أن يتمتعوا بها . . فلو كانت للمتعة آية ، لذكرها الرسول الكريم ، ولأوضح للمسلمين مفهومها إن كانت فى حاجة إلى توضيح ، وإلا لسكت الرسول حتى يأتيه أمر ربه بآية ، أو وحى غير قرآنى .. فجاءه الوحى غير القرآنى ، الذى أباح فيه الرسول للمسلمين المتعة فى تلك الحال ، التى هى خروج على أصل التحريم لنكاح المتعة ، بحكم الاضطرار فهى كما قال ابن عباس فيما روى عنه . « إنها تحل للمضطر ، كما تحل الميتة والدم ولحم الخنزير » .

ومما يستشهد به لإباحة المتعة عن طريق السنة قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى كنت أحللت هذه المتعة ألا وإن الله ورسوله قد حرّماها ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » فقول الرسول الكريم : إنى كنت أحللت هذه المتعة » صريح فى أن هذا كان من السنة ومن عمل الرسول ، وليس مما جاء به القرآن الكريم .. وفى قوله صلوات الله عليه « هذه المتعة » وفى الإشارة إليها على هذا الوجه ، ما ينبىء عن سقوطها و تقذّرها .. ويؤيد هذا ، الحديثُ المروىّ عن رسول الله : « يا أيها الناس إنى أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألاَ وإن الله قد حرمها إلى يوم القيامة ، فمن كان عنده منهن فليخلّ سبيلها ، ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » فقد أشار الرسول إلى نساء المتعة بقوله : « هذه النساء » ولم يقل هؤلاء النساء لصَغار شأنهن ، وأنهن فى حكم شىء واحد ... وفى قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كان عنده منهن » ولم يقل من كان عنده امرأة أو أكثر منهن ، وذلك للإشارة إلى أن أنهن أشياء .. مجرد أشياء .. وفى قوله « منهن » إشارة ثالثة إلى أنهن صنف له وضع خاص فى المجتمع ، وهو وضع مَشين ، يُكنى عنه ، ولا يُصرّح به .

وعلى هذا فإن المتعة أبيحت بالسنّة فى حال خاصة ، فى ظرف اضطرارى ، وأنها قد حرمت بالسنة بعد زوال هذا الظرف ، وإن إباحتها كانت لأناس مخصوصين لا يجوز أن يلحق بهم غيرهم إلى يوم القيامة ، وأن عمر بن الخطاب إنما كان موقفه منها هو توكيد هذا التحريم ، وقطع الطريق على أولئك الذين أرادوا أن يجعلوا تلك الخصوصية التى كانت لهؤلاء الذين أباح لهم النبىّ المتعة ـ منسحبة إلى غيرهم إذا دعت داعيتها ، وهى الاضطرار ، بالانقطاع عن الأهل ، فى جهاد أو سفر أو نحوهما . .

أخرج مسلم فى صحيحه ، عن أبى نضرة قال : كان ابن عباس يأمر بالمتعة ، وكان ابن الزبير ينهى عنها ، فذكرت ذلك لجابر (بن عبد الله) ، فقال : على يدى دار هذا الحديث ، تمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى فى حياته) فلما قام عمر (أى ولى الخلافة) قال : « إن الله كان يحل لرسوله ما شاء بما شاء ، فأتموّا الحجّ والعمرة ، وأبتّوا (أى اقطعوا) نكاح هذه النساء ، فلن أوتَى برجل نكح امرأة إلى أجل إلا رجمته بالحجارة » أى حكم عليه حكم الزانى المحصَن ، حيث كان الذين يقعون تحت هذا الحكم هم من المحصنين الذين استطاعوا أن يتزوجوا بامرأة أو أكثر ، ثم كانت المتعة عندهم مطلباً آخر ، من مطالب المتعة ، ولهذا اعتبرها « عمر » زناً صريحاً . . وقول عمر : إن الله كان يحلّ لرسوله ما شاء بما شاء ، هو صريح فى أن ذلك كان من خصوصيات الرسول ، وأن إذنه فى حال خاصة ، ولشخص أو أشخاص معينين ، بما يأذن به ، لا ينسحب إلى غيرهم ، كما هو مقرر فى الشريعة باتفاق .

وبعد :

فإن الكلام فى نكاح « المتعة » كثير ، وهو — على أى حال — باب شرّ سدّه المسلمون ، وأجمع أهل السنة جميعاً على تحريمه ، وإن كان لبعض الشيعة متعلّق به ، وحجة عليه ، لِمَا ثبت من أن الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — كان قد أباحه فى ظرف خاص فى إحدى الغزوات التى طالت غربة المجاهدين فيها .. ثم ثبت عند أهل السنة أن الرسول حرّمه ، بعد أن زالت الحال الداعية له ... فهو أشبه بالميتة التى يباح للإنسان التناول منها عند الاضطرار ، وخوف الموت جوعاً ! .

فلو أن نكاح المتعة كان مباحاً على إطلاقه لفسد نظام المجتمع ، ولانحلّت روابط الأسرة ، ولَما رغب الرجال عنه إلى الزواج واحتمال تبعاته ! بل ولَمَا كان من الإسلام تلك العناية البالغة ، التى أولاها لقضية الزواج ، التى تكاد تكون أبرز وأهم قضية عرض لها التشريع الإسلامى ، فوضع الحدود الواضحة المفصلة للزواج ، والطلاق ، والعدة ، والرضاع ، والميراث ، وعرضها عرضاً كاشفاً ، فى معارض مختلفة من النظم ، حتى تتأكد وتتقرر .

إن الطبيعة البشرية السليمة تعاف هذا المورد ، وتأبى أن تقيم حياتَها عليه .. بل إن الحياة الجاهلية لم تعرف نكاح المتعة ، ولم تعترف به ، وإن عرفت الزنا ، وأطلقته ، وغَشِيَ موردَه الرجال والنساء ، جهرة .. إلاّ أنهم — مع هذا — كانوا يضعون « الزنا » بهذا الموضع الخسيس الذى هو له ، ويعزلون النساء اللائى يحترفن هذا المنكر عن مجتمع الحرائر ، ويفرضون عليهن أن يُقمن على بيوتهن رايات ، حتى يعرفنَ بها .

إن نكاح المتعة هو الزنا متستراً بظلال الحلال ، وهو أشبه بالنفاق الذى يخفى وجهَ صاحبه وراء كلمة الإيمان ، يقولها المنافق بفمه ، ولا يقيمها فى قلبه ..

والزّنا الصُّراح خير من هذا الزّنا المتخذِ اسمَ المتعة مجازاً له ... إذ كان

الزانى يزنى وهو يعلم يقيناً أنه يأتى فاحشة ، ويواقع منكراً .. ومثل هذا قد تكون له توبة إلى الله ، واحتجاز عن هذه الفاحشة .. وليس كذلك من يزنى تحت اسم « المتعة » لأنه يحلّ هذا الحرام ، ويستبيح تلك الفاحشة ، بهذا المدخل الذى يدخل به إليها ، ويرفع عن صدره الضيق والأذى ، الذى كان يجده لو أتى ما أتى من غير أن يستصحب معه هذه الكلمة المنافقة .. كلمة « المتعة » !!

الآية : (٢٥)

« وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٢٥)

التفسير : قوله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولاً » .

الطول : البلوغ إلى الشيء ، والتمكن منه .. يقال : طال الشيء يطوله ، إذا قَدَر عليه . والمراد به هو القدرة على التزوج من الحرائر المحصنات ، وطولُ اليد لمهرهن ، والنفقة عليهن .

فلقد أباح الله سبحانه لمن قصرت يده عن التزوج من الحرائر ، وخشى على نفسه الوقوع فى المعصية ، وغشيان المنكر — أن يتزوج من الإماء ، حيث مهرهن قليل ، ونفقتهن يسيرة ، بالنسبة للحرّة .. وذلك بعد إذن أهلهن ، ومالكى رقابهن .

وفى قوله تعالى : « فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ » لمسة رقيقة رفيقة ، من لمسات السماء ، لتعطف القلوب على هؤلاء الفتيات ، ولتفتح عليهن باب الأمل والرجاء ، فى حياة كريمة ، يجدنها فى آفاق الحياة الزوجية ، ويخرجن بها عن دائرة العبودية ، والامتهان ! .

فالأمَةُ حين تتحول إلى زوجة لرجل حرّ ، تصبح فى ضمان رجل يرعاها ، ويتعهد شؤونها ، ويقوم على أمرها ، بعد أن كانت هَمَلاً مطلقاً ، لا يُنظر إليها إلا كما ينظر إلى متاع أو حيوان !

وانظر إلى رحمة الله ، وإلى تدبيره سبحانه ، فى مواساة الإماء ، وتحرير رقابهن .

فأولاً : ما وُصف به الإماء هنا ، من أنهن فتيات ، دون وصفهن بالإماء .. ثم إضافتهن إلى المجتمع الإسلامى ، المخاطَب بهذا الخطاب من رب العزة .. « فتياتكم » .. فهنّ بهذا الوصف من أبناء هذا المجتمع ، ومن فتياته ، ولسن من عالم غريب عنه .

وثانياً : يأتى وصفهن بالمؤمنات ، فى مقابل وصف الحرائر المحصنات بهذا الوصف .. « فمن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » فهؤلاء وأولئك جميعاً — حرائر وإماء — على منزلة واحدة عند الله ، فى التعرف إليه ، والإيمان به . . وفى هذا المقام يكون التفاضل بين إنسان وإنسان .. فربما تبلغ الأمة بإيمانها منزلة رفيعة عند الله ، تتقطع دونها أعناق كثير من الحرائر المؤمنات . . ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك كاشفاً عن هذه الحقيقة ، ومنوهاً عنها : « والله أَعْلَمُ بإيمانِكُمْ » وبهذا الإيمان يفضُل بعضكم بعضاً ، دون حساب للوضع الاجتماعى للحرّة أو الأمة . . ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك : « بعضكم من بعض » مؤكداً لهذه الحقيقة ، وأن الإيمان بالله ، والعمل بمقتضى هذا الإيمان هو الذى يحدّد درجات

الناس عند الله ، ويرفع منازلهم ، إذ لا حرّ ولا عبد عند الله ، الذى خلق الناس جميعاً من نفس واحدة ، وولد بعضهم من بعض .

وثالثاً : فى قوله تعالى : « فانكحوهن بإذن أهلهن » وفى إضافة الإماء إلى ما لكى رقابهن وإلى من يجتمعن إليه من أقاربه ـ فى هذا ما يرفع الرقيق عن تلك المنزلة الدنيا التى ينزلها فى المجتمع ، إلى منزلة الأهل والولد « أهلهن » .

ورابعاً : ما يشير إليه قوله تعالى : « وآتوهُنّ أجورَهُنّ » من أن الأمَة كالحرّة فى أنها تستحقّ المهر عند الزواج ، وأن هذا المهر من شأنه أن يكون لها ، ولكن الوضع الاجتماعى جعلها هى وما تملك ملكاً لمالكها .. وهذا الوضع يبدو قلقاً مضطرباً أمام قوله تعالى : « فآتوهُنّ أجورهن » الأمر الذى يُحرج مالكها عن أن يتناول حقاً هو لها .. وأمّا وقد أذن الله له أن يتناوله — مع هذا الحرج — فإن الطريق مفتوح لردّ الحق إلى أهله فى مستقبل الأيام !

وخامساً : وأكثر من هذا كله ، فى صنيع الإسلام للرقيق ، وفى العمل على فك رقبته — ما أباحه للأحرار من التزوج بالإماء ..

فهذه الإباحة تفتح باباً واسعاً لتحرير الإماء ، وتخليصهن من الرق.. وذلك أن الرجل إذا تزوج بالأمة ، بعد إذن مالكها ، تصبح من حرماته التى يغار عليها ، ويعمل جاهداً على صونها ودفع أية شائبة تحوم حولها ..

والأمة المتزوجة ليست خالصة لهد من تزوج بها .. فما زالت رقبتها ملكا لغيره ، له أن يبيعها لغير من تزوج بها ، بما تعلق بها من حق الزوج فيها ..

وهذا وضعٌ يشين الزوج ، ويسوؤه فى زوجه ، ويجرح كرامته ، وخاصة إذا ولدت له هذه الزوجة ، أوحظيت عنده بالمحبة .. ولا سبيل لإصلاح هذا الوضع ، وإعطاء الزوج حقه كاملاً فى زوجته إلا أن يعتقها من هذا الرق ، فيعمل كل ما وسعه العمل للحصول على المال الذى يشتريها به من مالكها ..

حتى إذا صارت إلى يده أطلقها ، وحرّر رقبتها !

ثم إن فى قوله تعالى : « مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلاَ مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ » - إثارةً لشعور الرجل الذى تزوج بالأمة ، أن يحصنها وأن يبعدها عن التبذل والامتهان ، اللذين يغلبان على حياة الإماء . .

فالزوجة الأمَة ، ليست هى الآن أمة فى الحياة الزوجية ، وإنما هى زوجة ، لها عند الرجل الحرّ ماللزوجة الحرة عند زوجها . . فإذا كان بعض الذين يتزوجون بالإماء يستخفّون بحرمتهنّ ، ولا يجدون كبيرَ حرج فى أن يظللن على حياتهن قبل الزواج من التبذل والامتهان — فإن فيما لفتهم الله سبحانه وتعالى إليه فى قوله جل شأنه : « محصناتٍ غير مسافحاتٍ ولا متخذات أخدانٍ » - مايوقظ فى نفوسهم نخوة الرجال ، وغيْرة الأحرار ، وبسط أيديهم على أولئك الزوجات ، الأمر الذى لا يستقيم إلا إذا تحررت الزوجات من الرّق وخلصت لأيديهم !

هذا هو بعض تدبير الإسلام لمحاربة الرقّ ، وتخليص هذه الآفة الإنسانية من جسم المجتمع البشرى . . وللإسلام أكثر من تدبير لمحاربة هذه الآفة ، وسنعرض لذلك فى بحث خاص ، إن شاء الله .

وقوله تعالى : « فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ » . بيان لحكم الأمَة إذا أُحصنت بالزواج ، ثم ثبت عليها الزّنا ، وهو يقضى بأن يكون حدّها نصف حد المحصنة الحرّة !

والمحصنة الحرّة إذا زَنَتْ كان حدّها الرّجم ، فهل يمكن أن يكون حدّ الأمة نصفَ هذا الحد ، وهو الرّجم ؟ والرّجم مراد به الموت رجماً بالحجارة ، فكيف يقام نصف هذا الحدّ على الأمة ؟ وهل تُرجم نصفَ رجم ، وتموت نصفَ موت ؟ ذلك غير متصوّر !

والذى أُخِذ به هنا، واستقرّ عليه العمل إجماعاً، هو أن تُجلد الأمَة خمسين جلدة، إذ كانت الحرّة غير المحصنة تجلد مائة جلدة!

وهناك أمران يمكن أن يُنظر إليهما، للأخذ بهذا الحكم، والاستناد عليهما، والاستئناس بهما فى قبوله..

وأول الأمرين: أن حدّ الزنا فى القرآن الكريم هو مائة جلدة للحرّة، لا فرق فى هذا بين محصنة، وغير محصنة.. أما الحكم برجم المحصنة فقد ثبت بالسنة المطهرة.

وإذا كانت السنة المطهرة قد جاءت بعقوبة الرجم للمحصنة الحرة، ولم تتعرض للمحصنة الأمة، فيبقى الحكم القرآنى مسلطاً على الأمة بإطلاقه، أى بالجلد، وبنصف المائة التى هى حد المحصنة.

وثانى الأمرين: أن فى قوله تعالى: «فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب» إشارة إلى أن النص العامل فى عقوبة الأمة هو النص القرآنى فى قوله تعالى: «الزانية والزانى فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهدْ عذابهما طائفة من المؤمنين» فإن كلمة «العذاب» فى حدّ الأمة، وكلمة «عذابهما» فى حدّ الحرّين، الزانيين، تجعلان العقوبة هنا من نوع العقوبة هناك، وأنها جلد لا رجم، فيه عذاب، لا موت!

وأما الحكمة فى أخذ الأمة بنصف عقوبة الحرّة فى جريمة الزّنا، تلك الجريمة التى لا تختلف آثارها باختلاف الأشخاص، ووصفهم الاجتماعى — فإن الإسلام نظر إلى تلك الجريمة هنا من أفق آخر، غير الأفق الذى نظر منه إليها فى حال تجريمها، وتأثيمها.. فالزّنا هو الزّنا، والسرقة هى السّرقة، ولكن هناك ظروف مخففة للجريمة، كالإكراه، والاضطرار، ونحوهما.. والأمة واقعة تحت

ظروف كثيرة ، تجعلها تتعرض لارتكاب هذه الخطيئة أكثر من الحرة .. فهى (أولاً) كانت قبل الزواج والإحصان مطلقة ، تمارس هذه الجريمة دون تحرّج أو تأثّم ، بل إن كثيراً من مالكى رقابهن كانوا يدفعونهنّ دفعاً إلى هذا المنكر ، ويكرهونهنّ عليه ، لما يحصلن عليه من مال يعود آخر الأمر إلى السيد المالك . .

ولهذا جاء أمر الله : « وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ » ـ جاء أمر الله هنا ناهياً عن الإكراه وحده .. وهذا لا يُلزم الأمة أن تتعفف إذا هى لم تُرد التعفف ..

وهذا الوضع الذى كان للأمة قبل الزواج من التبذل والامتهان ، يصطحبها إلى ما بعد الزواج ، ويجعلها بمعرض الزلل ، وفى مواجهة الخطيئة ، بما كان لها من أصحاب وأخدان .. الأمر الذى من شأنه أن يكون عاملاً مخففاً للجريمة المقترفة منها فى هذا المجال .. أى بعد الزواج

ومن جهة أخرى فإن يد الزوج على الأمة يد غير مطلقة ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه إذا كان الزوج قد ملك المنفعة ، فإن سيدها لا زال يملك الرقبة .. وهو بهذا الوضع فى الجانب الأقوى بالنسبة للأمة ، ولسلطانه عليها .. وهذا من شأنه أن يُرخِى يد الرجل عنها ، وأن يقبلها على علاتها ـ الأمر الذى من شأنه أن يقيم للأمة المحصَنة عاملاً آخر للتخفيف فى العقوبة الواردة على الزنا ..

وقوله تعالى : « ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ » إشارة إلى أن التزوج من الإماء لا يُصار إليه إلا عند الضرورة ، وتوقع الرجل عدم القدرة على مغالبة شهوته . .

فالعَنَتُ والإعنات : الإرهاق والضيق من أمر لاتتسع النفس لاحتماله ، ولا تقدر العزيمة على الإمساك به .

فمن خشى من الرجال غير المحصنين ، الذين لا يجدون فى أيديهم من المال ماينالون به التزوج من الحرائر — من خشى منهم العَنَت وعدم احتمال التعفف ، فإنه لا بأس من أن يتزوج من الإماء ، بعد رضا ما لكهن ، وإيتاء المهر المطلوب لهن ، مع مراقبتهن والعمل على صيانتهن من التبذل والاتصال بأخدانهنّ ، حتى لا تَشيع الفاحشة فى المجتمع .

وفى قوله تعالى : « وأن تصبروا خيرٌ لكم » دعوة إلى الصبر واحتمال بعض العَنَت فى العزوبية ، وترجيح جانب الإمساك عن التزوج بالإماء ، على التزوج بهنّ ، لِما يُثرن فى الحياة الزوجية ، التى ينبغى أن تظللها العفة ، ويحرسها التصون والشرف — من غبار الريبة ، ودخان التبذل ، وريح الفاحشة !

وفى قوله تعالى : « والله غفور رحيم » إماءة من طرف خفى إلى تجنب التزوج بالإماء ، والصبر على العزوبية ، وإن لقى منها صاحبها العنت فى الحفاظ على دينه ومروءته ، وإن جرّه ذلك الموقف إلى أن يُلِمّ ببعض اللمم ، بحيث لايدنو من الفاحشة ، ولا يحوّم حولها .. فإن لم يأمن ذلك فالزواج بالإماء خيرٌ ، إذ يدفع شرًّا بما هو أهون منه شراً . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ * » (٣١ — ٣٢ : النجم)

ذلك ، والقرآن الكريم إنما يخاطب هنا إنسانا مؤمناً ، حريصاً على دينه ، متحرّياً النصحَ لنفسه ، فى الحفاظ عليها مما يغضب ربه ، ويفسد عليه دينه . . وليس الخطاب لإنسان يمكر بآيات الله ، ويريد أن يتخذ من رحمة الله ولطفه بعباده ،

طريقاً إلى تزيين الحرام ، وإلباسه زىّ الحلال المباح ، فذلك تمويه على النفس ، وخداع لها . . وإن الحلال بيّن والحرام بيّن . . وإن إغماض العين عن الحرام ، وأخذه مأخذ الحلال ، لن يغير من صفته ، ولن يقيم للإنسان عذرا عند الله ، بل إن ذلك نفاق مع الله ، ونفاق مع النفس ، وهو أشد من الكفر . . ضلالا ، وبلاء . .

إن دين المرء أمانة بينه وبين ربه . . ليس لأحد سلطان عليه فى حفظ هذه الأمانة أو تضييعها ، فله أن يحفظ أو يضيّع ، وحسابه بعد ذلك على الله ، وهو خير الحاسبين . .

الآيات : (٢٦ ـ ٢٨)

« يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ ضَعِيفاً » (٢٨)

التفسير : فى هذه الآيات الثلاث التى جاءت تعقيباً على تلك الأحكام التى شرعها الله للمسلمين ، ووضع بها الحدود لِمَا حرّم وأحلّ من النساء ، ولما أباح من التزوج بالإماء لمن عجز عن التزوج بالحرائر ، وخشى العنت — فى هذه الآيات الثلاث يكشف الله سبحانه وتعالى عن رحمته بالناس ، فيما شرع لهم ، وفضلِه عليهم فيما أباح لهم من طيباتٍ ، وفى هذا وذاك خيرُ الناس وسعادتُهم ، إذا هم استقاموا على شرع الله ، ووقفوا عند حدوده .

وقد صُدّرت الآيات الثلاث بقوله سبحانه : « يريد الله » ، وفى ذلك ما يلفت النظر ، ويدعو إلى التوقف والتأمل ..

فإرادة الله سبحانه وتعالى ، نافذة ، لامردّ لها ،ولا معوق لنفاذها وإمضائها على الوجه الذى أراده . .

« إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٨٢ : يس)

وقد تعلقت بإرادة الله هنا أمور ، تضمنتها الآيات الثلاث هى :

أولا : بيان الأحكام ، ووضع الحدود للمسلمين بين الحلال والحرام : « يريد الله ليبين لكم » .

ثانيا : أخذ المسلمين بالسنن التى أخذ الله بها الأمم من قبلهم ، يبيّنها الله لهم ويهديهم إليها : « ويهديكم سنن الذين من قبلكم » .

ثالثا : التوبة على المسلمين ، مما ارتكبوا من آثام وخطايا . . « ويتوب عليكم » .

رابعاً : التوبة التى يريدها الله للمسلمين ، يعارضها من جانب آخر ، المفسدون وأصحاب الأهواء ، إذ يريدون لهم الميل عن الصراط المستقيم الذى دعاهم الله إليه ، وانحرافهم انحرافاً حادًّا عنه . « ويريدُ الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما »

خامسا : التخفيف عن المسلمين فيما أخذهم الله به من أحكام ، حيث أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى الإنسان من ضعف ، وما فى كيانه من قوًى تنزع به إلى التخفف من أوامر الله ، والتحلل من نواهيه .. « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » .

والسؤال هنا : ماذا عن هذه المتعلقات التى تعلقت بإرادة الله ؟ وهل هى ماضية نافذة ؟ .

وهل لو كانت قد مضت ونفذت ، أكان فى المسلمين المخاطبين بكلمات الله هذه ، منحرف أو ضال ؟

وكيف وهذه أحكام الله بيّنة، وحدوده واضحة؟ وكيف وإرادته متجهة إلى هدايتهم والتوبة عليهم؟

والذى نحبّ أن نَفهم عليه إرادة الله سبحانه وتعالى هنا، وفى غيرها من المواضع المشابهة ـ هو «الطلب» غير الملزم، حتى يكون للإنسان مجالٌ للاختيار بين الاستجابة للطلب، أو التأبّى عليه، وبهذا يشعر الإنسان بوجوده الذاتى، وبالمسئولية الملقاة عليه .. وعلى هذا يكون حسابه وجزاؤه، بالخير خيراً، وبالشر شراً .. وذلك فى كل أمر للإنسان فيه إرادة وعمل .. أما حين لا يكون لما يريده الله متعلّق بعمل العبد، فهى إرادة مطلقة نافذة ..

فالإرادة فى قوله سبحانه: «يريد الله لِيُبَيّن لكم ويهديكم سننَ الذين من قبلكم» .. إرادة خالصة لله، لا متعلّق للعباد بها، لأنها تتعلق بشرع الله الذى يشرعه للمسلمين، كما شرعه لعباده من قبل على يد أنبيائه ورسله .. وعلى هذا فهى إرادة نافذة .. لأنه لا متعلّق للعباد بشرع الأحكام، وإقامة حدودها.

أما الإرادة فى قوله تعالى: «وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا» فهى إرادة طلبٍ، ودعوةٍ، متجهة إلى العباد، ولهم أن يستجيبوا لهذا الطلب وأن يلبّوا تلك الدعوة، أو يتوقفوا.

فالله سبحانه، قد دعا عباده إلى التوبة، فى آيات كثيرة .. فقال تعالى: «وتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (٣١: النور) وقال سبحانه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (٨: التحريم).

فمطلوب من العباد أن يتقدموا إلى الله بالتوبة، فإذا تابوا تاب الله

عليهم . . كما يقول سبحانه : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » (٢٥ : الشورى) ويقول جل شأنه : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى » (٨٢ : طه) .

وفى الإنسان نوازع تنزع به إلى الهوى ، وتدفعه إلى الخروج على الطريق المستقيم ، الذى دعاه الله إليه .. وفى محيط الإنسان شياطينُ من الإنس والجن ، توحى إليه بالشر ، وتوسوس له بالسوء ، فيلتقى ذلك مع أهوائه ونوازعه ، وهنا يقع الصراع بين ما فى قلبه من إيمان وتقوى ، وبين هذه القوى المسلطة على إيمانه وتقواه .. فيكسب المعركة أو يخسرها ، حسب بلائه فيها ، وبذله لها. وبهذا يكون النصر محسوباً له ، على حين تكون الهزيمة محمولة عليه .. وفى هذا يتفاوت الناس ، ويختلفون منازل ودرجات عند الله ، كلٌّ حسب عمله وبلائه .

وأمّا إرادة التخفيف عن المسلمين ، فيما أخذهم الله به من أحكام ، فهى من حكمة الله ، ورحمته ، ليس لأحد أن ينازع الله فى حكمته ، أو يمسك عن عباده مواطر رحمته . . لأنه لا متعلق لأحد بهذه الإرادة ، ولا مطلوب فيها لأحد . . إنها خالصة من الله ، لعباد الله .

فالإرادة الإلهية ، تكون تارة بمعنى الطلب ، وهو أن يطلب الله سبحانه وتعالى من عباده أمراً ، يدعوهم إلى تلبيته ، والاستجابة له ، لما فيه من خيرهم ، وإسعادهم . . وهذا الطلب من الله ، لا إلزام فيه ، ولا قهرَ معه . . « وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ » (٢٩ : الكهف) .

وتارة تكون الإرادة الإلهية بمعنى القضاء والحكم ، وتلك إرادة نافذة لا تردّ . . « سُبْحَانَهُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٣٥ : مريم) . . « يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ » (٣٢ : التوبة) .

هذا ، وينبغى أن نذكر هنا ، ونحن ننظر فى صفات الله وأفعاله أنها صفات وأفعال تغاير مغايرة مطلقة كل مايقع فى تصوراتنا لها . . إنها ذات الله ، وكما لا يمكن تصور ذات الله كذلك لا يمكن تصور صفاته وأفعاله !

وأما ما جاء فى القرآن من صفات الله ، من سمع ، وبصر ، وإرادة ، وعلم ، وقوة ، وعزة ، وغيرها ، وما ورد من أفعاله ، كالخلق ، والرزق ، والإحياء ، والإماتة ، والتكلّم ، وغيرها ـ فكل ذلك محمول على طبيعة مدركاتنا وتصوراتنا ، وعلى مدى ما تبلغ من إدراك وتصوّر . . وإذا كان لا بد أن يكون للإله الذى نعبده مفهوم عندنا ـ كان لا بُدَّ أن يكون له عندنا متصوَّر لذاته وصفاته وأفعاله . . ولكن أى متصور نتصوره فالله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله على خلافه . . فنحن نتصور الله سميعاً ، بصيراً ، عالماً ، حكيما ، قديراً . . ولكن لا بجوارح ، ولا بأجهزة يعمل كل جهاز منها فى محيطه . . ونتصور الله سبحانه وتعالى ، يخلق ، ويرزق ، ويتكلم ، ويحيي ، ويميت ، ولكن لا يمكن تصوّر كنه هذه العمليات التى تتم بها أفعاله تلك ، ولا الوجوه التى تكون عليها ، ولو وقع ذلك وأمكن ، لكان الله محدوداً يمكن ضبط صورة لذاته وصفاته وأفعاله ، وتعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

الآيتان : (٢٩ ـ ٣٠)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » (٣٠)

التفسير : هذه دعوة من الله إلى عباده ، ومطلوب من مطلوباته إليهم ، بل قلْ إرادة يريدها الله منهم . . وتلك الإرادة ، هى ألا يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل ! .

وإذ كان « المال » هو مُبْتَغَى الناس ، ورغيبتهم ، فيه يتنافسون ، وله يعملون ويكدحون، ومن أجله،وفى سبيله تتصادم رغباتهم ، ويقع الشرّ والعدوان بينهم ، فيبغى بعضهم على بعض ، ويغمط بعضهم حقّ بعض ، فى صور وأشكال مختلفة .. من السرقة والاغتصاب ، والاحتيال ، والغش والخداع ، والاحتكار ، إلى غير ذلك مما هو واقع فى معترك الحياة بين الناس ـ إذ كان ذلك كذلك فقد كثرت وصايا الإسلام إلى الناس فى « المال » وفى رسم الحدود التى تُمسك به فى دائرة النفع العام والخاص ، ليؤدى وظيفته كنعمة من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على عباده . .

ولم تقف نظرة الإسلام إلى المال عند أفق واحد . . بل امتدت نظرته إليه فشملت جميع الآفاق التى يكون للمال مكان فيها . . فى كسب المال وفى إنفاقه . . فى يد من يملك ومن لا يملك . . فى الميراث والورثة . . فى ملك اليتامى والسفهاء، وفى يد الأولياء والأوصياء عليهم . . إلى غير ذلك من الوجوه التى يُرَى فيها المال واقعاً فى يد فرد أو جماعة .

وفى قوله تعالى : « لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » إشارة إلى أن المال مائدة ممدودة من الله سبحانه لعباده ، يأكلون منها ، وأن لكل إنسان حظّه من هذا المال ، وأن من وقع إلى يده قدر منه على حين خلت أيدى الجماعة التى حوله ، أو قصُرت عن أن تنال شيئاً منه ، كان واجباً عليه أن يعطى مما فى يده لمن حوله ، إذ من غير المستساغ أن يأكل والناس المشتركون معه على المائدة ، لا يأكلون . .

وفى كلمة « أموالكم » المضافة إلى المؤمنين جميعاً ، وكلمة « بينكم » ـ الظرف المكانىّ الجامع لهم جميعاً ـ فى هذا ما يشير إلى وَحدة الملكية للمال ، ووحدة الاجتماع فى المكان . . وفى هذا وذاك ما يجعل الوحدة الشعورية بالتكافل بين هذه الجماعة ، أمراً واجباً ، إن لم تقض به شريعة السماء ، ولم يدع إليه دين الله ، قضت به المروءة ، ودعت إليه ! .

وهذا هو البرّ الذى دعا إليه القرآن . . فقال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » (٩٢ : آل عمران) . . وقال سبحانه : « لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ » (١٧٧ : البقرة)

ومن تدبير القرآن الكريم فى هذا ، أنه لم يجعل هذه المائدة المشاعة بين الناس قائمة على قانون مادىّ قهرى ، إذ لا سبيل إلى قانون يحمى بنصوصه ومواده ، العدوانَ والبغى ، وتسلطَ الأقوياء على الضعفاء ، وإلا كان عليه أن يقيم وازعاً من سلطانه على رأس كل إنسان . . يمسك بيده ، ويدفع بغيه وعدوانه ، وذلك أمر محال ، وإنما جعل الإسلام ذلك إلى مشاعر الجماعة ووجدانها ، بما أيقظ فيها من نوازع الخير ، ودوافع الإحسان ، وبما غذّاها به من فضله وإحسانه ، وبما وعدها من حسن المثوبة ، وعظيم الجزاء ، فى الدنيا ، وفى الآخرة جميعاً . . « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وهو خير الرَّازِقِين » . « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِى أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ » (٣٩ : الروم) . . فتلك المشاعر الحيّة ، وهذه الوجدانات المتفتحة لرحمة الله ، الراغبة فى حسن

الجزاء عنده ، هى الحارس الذى لا يغفل ، وهى الوازع الذى يقوم حجازاً بين ظلم الناس للناس ، وبغى الناس على الناس .

وقوله تعالى : « إلاّ أنْ تـكونَ تجارةً عن تَراضٍ منكم » هو استثناء متصل ، وليس استثناء منفصلاً كما ذهب إلى ذلك الزمخشرى ، وأكثر المفسِّرين . .

فالتجارة : هى من تلك المائدة الممدودة بين الناس « أموالـكم » ، بل هى الوجه الواضح من هذه المائدة ، إذ كانت أكثر الأموال دائرة فى فَلَكَ التجارة ، متداولة بين أيدى الناس عن طريقها . .

وفى عمليات التجارة ، ربح وخسارة .

وفى جانب الربح قد يحصل كثير من الناس على أموالٍ طائلة . . !

وهذه الأموال التى ربحها الرابحون هى خسارة قد خسرها آخرون !

والصورة فى جانب الرّبح تبدو وكأنها أكلٌ لأموال الناس بالباطل ، ذلك الأكل الذى ورد صدر الآية الـكريمة بالنهى عنه !

فهل هذا المال ـ مال الربح فى التجارة أيّاً كان من الـكثرة ـ هل هو داخل فى هذا المال المنهى عن أكله بالباطل ؟ وهل يتناوله الحـكم الواقع عليه ؟

هذا ما استثناه الله تعـالى فى قوله : « إلاّ أَنْ تَـكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْـكُمْ » .

فهذا المـال ليس من الباطل فى شىء . . هو مال حلال ، إذ جاء عن عملياتٍ بيع وشراء ، لا قهر فيها ، ولا تدليس أو غشّ ، بين البائعين والمشترين .

وفى قوله تعالى : « وَلاَ تَقْتُلُوٓا أَنْفُسَـكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ بِـكُمْ رَحِيمًا » دعوة إلى صيانة الأنفس وحفظها ، بعد الدعوة إلى صيانة الأموال وحفظها . .

وقدمت الدعوة إلى صيانة المال على الدعوة إلى صيانة الأنفس ، لأن المال هو قِوام الحياة للأنفس ، ولا حياة لها بغيره ، فكانت صيانته مقدمةً على صيانتها !

ويقع قتل النفس على صور كثيرة .

فقد يقتل الإنسان نفسه بنفسه . .

وذلك بأن يعرضها للتهلكة عن عمدٍ فى غير إحقاق حق أو إبطال باطل .

أو بأن يصرفها عن الإيمان إلى الكفر . ويحارب الله ورسوله والمؤمنين .

أو بأن يعتدى على حرمات الغير ، ويستبيح أموالهم ويأكلها بالباطل ، أو يستبيح دماءهم ، ويزهق أرواحهم بغير حق .

فكل هذه من بعض الوجوه التى يقتل بها الإنسان نفسه .

وقد توعّد الله سبحانه من يرتكب هذا الفعل المنكر بالعذاب الأليم فى قوله سبحانه : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا » فما جزاء هذا العدوان وذلك الظلم ؛ إلا هذا العقاب الأليم ، فإن من لا يرحم نفسه ، ولا يرحم الناس ، لاتناله رحمة الله ، الذى أطمعنا فى رحمته ، وبسط لنا يده بها . . « إنَّ اللهَ كان بكم رحيما » .

الآية : (٣١)

« إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا » (٣١)

التفسير : هذا تعقيب على مطلوبات الله من عباده ، وما دعاهم إليه أو نهاهم عنه فى الآيات السابقة ، فى شأن اليتامى ، والنساء ، وفى حفظ الأموال والدماء .

وفى هذا التعقيب رحمة واسعة من رحمات الله بالناس ، وفضل كبير من أفضاله على عباده . . ففى النّاس ضعف يعلمه الله الذى خَلَقهم ، وقليـل منهم أولئك الذين يستقيم خطوهم على طريق الله استقامة كاملة ، لايضطرب فيها خَطْوُه ، أو تَزِل فيها قدمه !

ولو يأخذ الله النّاس على كلّ انحرافة ينحرفونها ، أو زلة يزلّونها ؛ لمَا نجا منهم أحدٌ ، ولا دَخَل عبد الله مداخل الإحسان والرضوان .. إنسان .

وقد جاء هذا التعقيب الـكريم ، من ربّ كريم ، ليفتح لعباده أبواب إحسانه ورضوانه ، فيدخلوا فى سعة من رحمته ورضوانه ، إذاهم اجتنبوا الـكبائر ، وعصموا أنفسهم منها ، وخافوا الله فيها ..

والـكبائر أولها الـكفر بالله ، والشرك به .

ثم يتبع ذلك أعمال الجوارح ، كالقتل ، والزنا ، وشرب الخمر .

فإذا تجنب العبد هذه الـكبائر ، ثم كانت منه زلة أو سَقطة فيما وراءها ، كانت رحمةالله قريبة منه ، تمحو ما ارتـكب من صغائر ، بما اجتنب من كبائر !

وهـذا ما يشير إليه قوله تعالى بعد ذلك : « نُـكَفِّرْ عَنْـكُمْ سَيِّئَاتِـكُمْ وَنُدْخِلْـكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً » . . وهـذا ما أشار إليه سبحانه فى قوله : « وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِـعُ الْمَغْفِرَةِ » (٣٢ : النجم)

فما أوسع رحمة الله وما أعظم فضله .

الآية : (٣٢)

« وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَـكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا

اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا » (٣٢)

التفسير : فى الآية قبل السابقة ، دعا الله سبحانه وتعالى إلى صيانة الأموال ، وإلى قتل الأهواء ، التى تنزع بالنّاس إلى أكل أموال بعضهم بعضاً بالباطل .

وإذ كان المال — كما أشرنا إلى ذلك من قبل — هو القوة المحركة ، للناس ، كما أنه هو القوة الدافعة إلى عدوان بعضهم على بعض ، فإن الإسلام قد أولى المالَ عناية خاصة ، وحرسه وحرس الناس ، من دواعى الفساد التى تدبّ إليه وإليهم ، فينقلب هو إلى نقمة بعد أن كان نعمة ، ويتحول الناس إلى وحوش ضاربة ، بعد أن كانوا بشرًا سويا ، أرادهم الله لعمران الحياة ، وخلافته على هذه الأرض .

وفى هذه الآية وجه آخر من الوجوه التى يكشفها الإسلام المال ، ويكشف منه الداء الذى لو لم يتنبه الناس إليه ، لأفسد حياتهم ، واغتال أمنهم واستقرارهم .

وهذا الوجه هو تفاوت الناس فيما يقع لأيديهم من مال ، هذا التفاوت الذى قد تبعد مسافاته من بين يملك القناطير منه ، ومن لا يملك شيئاً .. فيكون فى الناس الغنىّ الواسع الغنى ، الذى يكاد يموت كِظّة وتخمة ، والفقير الذى يوشك أن يموت جوعاً ومَسْغَبة .

ولاشك أن هذا وضع من شأنه أن يثير فى النفوس — نفوس الفقراء والمحرومين — مشاعر الحسرة والألم ، ونوازع الضغينة والحسد ، على أولئك الذين يملكون ولا يُعطون ، ويموتون تُخَمَة ويضنون بلقيمات تمسك رمق أولئك الذين يموتون جوعاً — الأمر الذى إذا استشرى فى الجماعة ، وتسلط على

تفكيرها وشعورها، أثار فيها عواصف الفرقة، التي قد تصل إلى التناحر والقتال!

وقد جاء الإسلام إلى الأغنياء بوصاياه التي تجعل من أموالهم التي فى أيديهم حقوقاً لإخوانهم الفقراء، إن قصّروا عن الوفاء بها كانوا بمعرض من نقمته وبلائه فى الدنيا، وعذابه الأليم لهم فى الآخرة .. وكان من نقم الله عليهم فى الدنيا أن يسلط عليهم الفقراء، فيفسدوا حياتهم، ولا يقيموهم فيها على جناح أمن وطمأنينة!

ثم جاء الإسلام من جهة أخرى إلى الفقراء، فكانت وصاته لهم ألاّ ينفَسُوا على الأغنياء ما فى أيديهم، وألا يحسدوهم على هذا الذى نالوه من حظوظ الدنيا، وأن يروّضوا أنفسهم على الصبر على ما قسم الله لهم، بعد أن يعملوا فى كل وجه متاح لهم من وجوه العمل، وأن يأخذا بما دعا الله عباده إليه من السعىّ والجدّ لتحصيل الرزق: «هو الذى جَعَلَ لَكمُ الأرض ذَلولاً فامْشُوا فى مناَكِبها وكلوا من رزقه» (١٥ الملك).

فإذا أخذ الأغنياء بما وصّاهم الله به من رعاية حقوق الفقراء، وأخذ الفقراء، بما دعاهم الله إليه من غض أبصارهم عما فى أيدى غيرهم، مما لم تنله أيدهم - إذا أخذ هؤلاء وهؤلاء بما وصاهم الله به، التقوْا جميعاً لقاء الأخوة، لقاء المودة والحبّ، وصلح أمرهم جميعاً، فلا يذهب الغنىّ بغناه، ولا يستبدّ به، ولا ينطوى الفقير مع فقره، ويموت به! هذا هو الوجه الذى نفهم عليه قوله تعالى: «ولا تتمنوْا ما فضل الله به بعضكم على بعض». وإن كان للآية وجوه أخرى كثيرة بعيدة عن جوّ الآية، قد فهمها عليه أكثر المفسرين.

وفى قوله تعالى: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ» ما يكمل الصورة التى فهمنا عليها صدر الآية. . فى قول الله:

« للرّجال نصيبٌ مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » هذا ، دعوةٌ إلى الكسب ، وإلى السعى الجادّ فى وجوه الرزق . دعوة للرجال وللنساء معاً . .

فالعمل ، والعمل وحده ، هو وسيلة الرزق الطبيعية ، ومن لا يعمل ، فقد تمنّى على الله الأمانى ، وفرض على الناس أن يعملوا ، وهو متدثر بثوب الكسل والخمول ، لينال من ثمرة عملهم ، ويعيش من عرق جبينهم ، وهذا عدوان على المجتمع ، كما هو عدوان على نفسه وظلم لها ، إذ رضى أن يكون عالةً على الناس ، وكائناً غريباً يعيش فيهم ، كما تعيش الحشرات . . وفى ذلك إهدار لآدميته ، وتضييع لكرامته !!

وليس أبرّ بالإنسانية ، وأرعى لكرامتها ، من دعوة الإسلام تلك ، إلى العمل والكسب ، حتى المرأة ، لم يعفها الإسلام من العمل إذا لم يكن من ورائها زوج ، أو ولد ، أو أخ .. يقوم بمطالبها ، ويسد حاجتها . .

وفى قوله تعالى : « واسألوا الله من فضله » تأكيد للدعوة إلى العمل ، والسعى فى طلب الرزق ، والأخذ بأسبابه من وجوهه المشروعة ، فإذا كان ذلك ، كان للإنسان أن يسأل الله العون والتوفيق ، فما الرزق الذى يُرْزقه العاملون إلاّ من فضل الله .. أما أن ينصرف الإنسان عن العمل ، ولا يأخذ بأسباب الرزق ، ثم يدعو الله أن يرزقه ، فقد ضلّ الطريق إلى الله ، وقطع بينه وبين ربّه الأسباب .

ولمحة مشرقة نلمحها فى قوله تعالى : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » وهذه اللمحة تكشف لنا عما فى كلمة « نصيب » من معطيات ، تملأ القلب جلالاً وروعة .

فقد جاءت كلمة « نصيب » مخالفة لما نتوقع فى هذا المقام . . حيث يأخذ الإنسان كلّ ما كسب ، لا نصيباً مما كسب ، إذ أنه كسبه كله ليده . .

فكيف تجىء كلمة « نصيب » هنا ؟ وما حكمة مجيئها ؟

والجواب ، وهو بعض ما نستلهمه منها .. هو :

أولاً : أنه إذا كان العامل يأخذه ليده كل ثمرة عمله ، فذلك هو حقّه .. ولكن إذا صار هذا الحق ملكا له ، فإن ملكيته له غير خالصة ، إذ أن فى هذه الثمرة ، أو فى هذا المال حقوقاً للغير .. لذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين وابن السبيل .. ثم قبل هذا كلّه حق الله ، وهو الزكاة !

فما يكسبه المرء من عمله ليس خالصاً له ، وإنما له نصيب فيه ، كما لله ولعباد الله نصيب فيه أيضاً ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ » (٢٤ ـ ٢٥ : المعارج)

وهذا ما ينبغى أن يقع فى شعور صاحب المال ، وأن يتصرف فى ماله بمقتضى هذا الشعور .. وإلا كان معتدياً على حقّ الله ، وحق عباد الله ..

وثانياً : أنه إذا أدى صاحب المال حق الله وحق الفقراء والمساكين فى ماله ، كان له الحق فى أن ينفرد بنصيبه هو ، وأن ينال به ما أحل الله من طيبات ..

وهذا شعور ينبغى أن يستشعره الفقراء حيالَ الأغنياء ، الذين يؤدون ما فى أموالهم من حقوق ، وعلى هذا ، يجب ألا ينظر الفقراء إلى الأغنياء ، وما ينالون من نعم الله ، نظرة حسدٍ ، أو حَنَق .. وإلا كانوا ظالمين معتدين !! فإن من حق العامل أن يذوق ثمرة عمله ، وألا يحولَ بينه وبينها من لا ثمرة لهم ، ممن لا يعملون ، والله سبحانه يقول : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » . وما العلم إلا ثمرة من ثمار العمل .

ذلك هو حكم الله فى عباده ، يأخذهم به فى الدنيا ، وينزلهم عليه فى الآخرة !.

الآية : (٣٣)

« وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا » (٣٣)

التفسير : بيّن الله سبحانه وتعالى فى الآية السابقة : « للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيبٌ مما اكتسبن » ـ ما للعامل من حق فى أن يجنى ثمرة عمله ، وأن ينعم بنصيبه منها ، بعد أن يؤدى ما لله وما للعباد عليها من حقوق ، وذلك ليستحثّ الذين لا يعملون على العمل ، وعلى ألاّ ينظروا إلى ما فى يد العاملين من ثمرات أعمالهم .

ولم يقف القرآن الكريم عند هذا ، من إقرار حق العامل فى ثمرة عمله ، بل جعل لقرابة هذا العامل ، وذوى رَحِمِه ، متعلّقاً بهذه الثمرة ، يرثونها بعد موته .. فهم أولى الناس به ، وهو أحرص الناس على نفعهم ، وسوْق الخير إليهم . .

ولهذا جاء قوله تعالى فى هذه الآية : « ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون »مقرراً هذا الحق للورثة فى قريبهم الذى ترك خيراً من بعده .

والمعنى : ولكل من الرجال والنساء الذين أشار إليهم سبحانه وتعالى بقوله: «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن » . . لكل من هؤلاء الرجال والنساء جعلنا لهم موالى ـــ أى ورثة ـــ يرثونهم ، فيما خلّفوا وراءهم من مال ومتاع ، وهذا ما أشار إليه سبحانه فى آيات المواريث أول هذه السورة : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً » .

والمولى يُطلق على معان كثيرة ، منها : القريب ، والناصر ، والمعين ، والسيد ،

والعبد .. والمراد به هنا أقارب المرء وعَصَبته الذين يرثونه .

وقوله تعالى : « والذين عَقَدت أيمانكم» إشارة إلى من تربطهم بالمرء رابطة غير رابطة القرابة والدم ، ممن يتبناهم الإنسان ، أو يدخلهم فى حياته مدخل الأهل والأقارب ، إذ شدّ يمينه بهم ، واحتسبهم بعضاً منه فى خيره وشرّه — هؤلاء قد يرون أن لهم حقًّا فيما ترك المورِّث ، الذى كانوا منه ، وكان منهم ، وقد جاء صدر الآية الكريمة قاصراً ماترك المورِّث على قرابته ، وهم مواليه : « ولكل جعلنا موالِىَ مما ترك الوالدان والأقربون » — وفى هذا مايصدم مشاعرهم ، ويفجعهم فى آمالهم ، التى كانوا يعيشون بها مع هذا الذى عُقِدت أيمانهم معه .

ولهذا جاء قوله تعالى : « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » وما نصيبهم وقد ذهب الورثة بالميراث كلّه ؟

وإنهم لابد أن يكون لهم نصيب فيما ترك صاحبهم .. وتقدير هذا النصيب متروك للورثة ، يؤدونه لهم ، على أى وجه ، وعلى أية صورة !

ليكن مالاً يطيبون به خاطرهم ..

أو ليكن مودّة ، وحبًّا ، ومخالطة ..

أو ليكن مناصرة ، ومعاونة فى الشدائد ..

أو غير ذلك مما كان الميت يعاشرهم عليه ويؤثرهم به ..

ولهذا جاء قوله تعالى : « فآتوهم نصيبهم » خطاباً للموالى ، الذى ورثوا مال مورثهم، بأن يعطوا هؤلاء الذين أضافهم مورِّثهم إليه ــ شيئاً مما كان يعود عليهم به هذا المورث ، من مال ، أو مودة ، أو نحو هذا ..

ولنا فى هذا المقام أن نستحضر قوله تعالى : « وإذا حضر القسمة أولوا

القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً (٨ : النساء)، ففى هذا تطييب لتلك النفوس التى حضرت القسمة .. وهؤلاء الذين خالطهم المورث واختلط بهم، هم ممن حضروا القسمة، فإن لم يحسبوا فى حساب الورثة، فليكونوا فى حساب ذوى القربى ممن لاميراث لهم.

هذا ما أجمع عليه المفسرون فى تفسير قوله تعالى: « والذين عقدت أيمانكم » ولكن الفهم الذى أستريح إليه، هو أن المراد بالذين عقدت أيمانكم، هم الأزواج والزوجات، إذ كان لهم نصيب مفروض فى الميراث، مثل مافرض لموالى الإنسان وعصبته، ولكن كلمة « الموالى » لم تشملهن، فكان قوله تعالى « والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم » بياناً لحق الزوجين فى ميراث كل منهما لصاحبه .. وليس هناك عقد يمين أوثق من العقد الذى عقده الله بين الزوجين ..

الآيتان: (٣٤ ـ ٣٥)

« الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا » (٣٥)

التفسير: كما فضل الله الناس بعضهم على بعض، لحكمة أرادها وتقدير

قدّره ، كذلك فضل الله الرجال على النساء .. إذ كانوا فرعى شجرة الإنسانية .. فرع الذكورة ، وفرع الأنوثة . .

وهذا الفضل لا يعطى للرجال حقّ التسلط والقهر للنساء .. فهما معاً يكملان الكائن الإنسانى الصالح للحياة ، وواحد منهما لاحياة له ، ولا بقاء ، فى هذه الدنيا .. فكل منهما يناظر الآخر ويكمله .. وهذا لا يمنع من أن يكون أحدهما أولاً ، والآخر ثانياً ، كما كان أحدهما ذكراً والآخر أنثى .. ولو كانا على درجة واحدة ، لكانا كائناً واحداً . . ذكراً ، أو أنثى ! وهذا — كما قلنا — مالا تقوم عليه حياة الكائنات الحية ، ومنها — بل ومن أولها — الإنسان !

وليس يعيب المرأةَ أو يُزرى من قدرها أن تكون العدد الثانى فى العددين : واحد ، وواحد ، ليكون مجموعهما اثنين ، كما يقول سبحانه وتعالى : « وخلقناكمْ أزواجاً » (٨ : النبأ) .

فقَوّامة الرجل على المرأة فى قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء » هى قوامة وظيفية ، يقتضيها نظام الحياة ، الذى جمع بينهما ، ولولم يكن للرجل حقّ القوامة ، للزم أن يكون للمرأة هذا الحق .. إذ أنه لابد أن يكون أحدهما أولاً والآخر ثانياً ..

وقوله تعالى : « بما فضّل الله بعضهم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم » يكشف عن المزايا التى من أجلها كان الرجل قوّاماً على المرأة ، ولم تكن المرأة قوّامة على الرجل ..

فقد خصّ الله الرجل بمزايا تجعله أقدر على قيادة الركب الذى ينتظمه والمرأةَ معاً ، وينتظم معهما مايثمران من بنين وبنات .

وهذه المزايا التى أعطت الرجلَ حقّ القوامة على المرأة — لم تقررها الشريعة إلا بعد أن نضجت فى بوتقة التجربة الإنسانية ، على مدى الحياة التى

اجتمع فيها الرجل والمرأة ، منذ كان الناس ، وكان الرجال والنساء ! وماقررته الشريعة ليس إلا اعترافاً بواقع ، وتصويراً لأمر مشهود ، وليس إنشاء لوضع جديد بين الرجل والمرأة .

فالرجل أقوى من المرأة عموماً ، وأقدر على السعى فى وجوه الحياة ، وكفالة حاجات المرأة والأولاد ..

وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « وبما أنفقوا من أموالهم » فالرجل – فى أى زمان ومكان — مطالب عرفاً ووضعاً وشرعاً بالإنفاق على زوجه وولده . .

فإذا أخلَت المرأة للرجل مكان القوامة ، وأسلمته زمامها ، فما ذلك إلا لأن يد الرجل أقوى على الإمساك بهذا الزمام ، وأقدر على الوفاء بما تقتضيه تلك القوامة من أعباء !

وكما أن بين الرجال والنساء درجة فى التفاضل ، كذلك بين النساء درجة أو درجات فى الفضل ، فليس كل النساء على سواء ، فى الُخلق وحسن العشرة .

« فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله » .

فهذا هو الوجه الطيب المشرق من النساء .. صالحات ، قانتات ، حافظات للغيب بما حفظ الله .. وهذا مايشير إليه النبى الكريم فى قوله : « خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » .

وهناك الوجه الآخر من النساء .. مكفهرّ .. غائم ، يرمى بالرعد والبرق .

ومثل هذا الجوّ المضطرب ، يفسد حياة الرجل ، وحياة الأسرة كلها معه .

ومن حكمة الحكيم العليم ألاّ يعجل بالعقوبة حتى يأخذ صاحبَها بالنصح ، وبالوعد ، وبالوعيد ، فإن ارعوى الغاوىء عن غيّه ، ورجع الضالّ عن ضلاله ، فلنفسه ابتغى الخير ، وليده جمع ماجمع منه .

ولهذا دعا الله سبحانه وتعالى الرجال الذين يُبْتَلَوْن بالمرأة المعوجّة ، ألا يَفْجَأوا بالخلاص منها ، فقد يكون داؤها عارضاً ، وقد يكون فى بعض الدواء ما يذهب بدائها . .

« واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن . . » . . إنها مراحل ثلاث ، يقطعها الرجل مع المرأة التى لا يتّسق خطوها مع خطوه ، ولا ينتظم شأنها مع شأنه . .

العِظَة أولاً ، وإسداء النصح ، بالكلمة اللينة . . وقد تقبل المرأة هذا الدواء ، ويكون فيه شفاؤها ، وإصلاح أمرها . . وهذا علاج نفسىّ .

ثم تجىء المرحلة الثانية لمن لم تنفعها الموعظة ، ولم تؤثّر فيها الكلمة الطيبة . . وهى الهجر فى المضاجع ! .

وهذا عقاب بدنى ونفسى معاً . .

فإذا كان فى ذلك شفاؤها من دائها ، عاد إليها الزوج بصفحه ومودته ورحمته . .

وإلا كانت المرحلة الثالثة . . وهى الضرب ! وهو عقاب بدنى خالص . . وينبغى أن يكون هذا الضرب أولاً وأخيراً تحت شعور التأديب والإصلاح ، كما يؤدّب الأب صغاره . . فإن مال إلى التشفّى والانتقام كان عدواناً « والله لا يحب المعتدين » .

وفى قوله تعالى : « فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً » رسم للطريق القويم لهذه المرحلة ، وضبط لحدودها . .

وفى قوله سبحانه : « إن الله كان عليًّا كبيراً » تذكير للرجال بما لله من سلطان ، فى علوّه وكبريائه ، وأنهم إذا بسطوا أيديهم بالبغى ومجاوزة الحدّ ، كانت يد الله مبسوطة عليهم بالعقاب والانتقام !

وفى قوله تعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا » . . هو بيان للمرحلة الرابعة ، التى يقطعها الزوج مع الزوجة المستعصية على العلاج .

وذلك أنه إذا انتهت المراحل الثلاث ، دون أن ينصلح أمر المرأة ، أصبح الأمر بين الزوجين مؤذِنًا بالفراق ، الذى يحسم ما نشأ بينهما من اختلاف وفرقة . .

ويجىء التدبير السماوى قبل عملية البتر هذه ، فيستدعى اثنين من أهل الخير ، أحدهما من قِبَل الزوجة ، والآخر من جهة الزوج ، ليكون لهما نظر وراء نظر كل من المرأة والرجل ، وليدرسا أسباب الخلاف بينهما ، وليتعرفا على موطن الداء لهذا الخلاف . . وقد يريان الداء ، ويجدان له الدواء . . وبهذا يُعدل عن عملية البتر هذه ، ويعود للحياة الزوجية صفاؤها وإشراقها . . وإلا كان البتر هو الدواء لهذا الداء . .

وفى قوله تعالى : « إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما » إيقاظ لمشاعر الخير والإحسان فى الحكَمين ، ليكونا رسولى سلام ، فى هذه السفارة التى ندبهما الله سبحانه وتعالى لها . . فإنهما إن ابتغيا الخير ، وأرادا الإصلاح ، كان لهما من الله عون وتوفيق ، فيلتقيان على ما يصلح أمر الزوجين ويمسك عليهما ذلك الرباط الوثيق الذى وثقه الله بينهما .

وانظر فى رعاية الله سبحانه وتعالى لرباط الزوجية ، وتقديره لها . . وكيف جاءت الشريعة الإسلامية بأكثر من دواء ، لما يدبّ بين الزوجين من خلاف . . حتى فى الأحوال التى يستفحل فيها الداء ، ويكون اليأس أقرب من الأمل فى شفائه !

وانظر كيف يقع « الطلاق » بعد هذه المرحلة الطويلة ، من احتمال الداء

واستنفاد كل وسائل العلاج .. إنه لم يقع إلا حين لم يكن من وقوعه بدّ ، وإلا حين كانت الحياة الزوجية بعد هذا نقمة وبلاء ، على الرجل والمرأة معاً .

فالذين يحسمون الحياة الزوجية ويقطعون حبلها ، لأول بادرة ، وبكلمة واحدة .. لم يلتزموا شرع الله ، ولم يأخذوا به .. بل هم معتدون آثمون .

والذين يأخذون على الإسلام هذه الظواهر المريضة التي يرونها فيما يقع من صور الطلاق ، على هذا الوجه الجافى للشرع .. ظَلَمَة مفترون !

الآيات : (٣٦ ـ ٣٩)

« وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦) الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا » (٣٩)

التفسير : الآيات السابقة كانت حديثاً إلى الناس ، فيما يتصل بذات أنفسهم ، من شئون المال ، والزواج ، وما يقع بين الناس من ظلم وعدوان ، حين تتعارض مصالحهم ، وتختلف آراؤهم ، وأرزاقهم .. فيكون فيهم الغنىّ والفقير ، ومن يملك الكثير مما يتجاوز حدود حاجته ، ومن يملك القليل الذى لايشبع جوْعته ..

وإذ لَفَتَ الله النّاس فى تلك الآيات إلى الطريق القويم ، الذى ينبغى أن يلتزموه ، ويقيموا خطوَهم عليه ، حتى لايقع بينهم صدام ، ينتهى إلى تقطيع الأرحام ، وسفك الدماء — فكان من تدبير الحكيم العليم ، أن يدعوهم إليه ، وأن يستحثهم إلى عبادته وطاعته . حتى تمتلىء قلوبهم إيمانا به ، وخشية له ، وتوقيراً لأوامره ونواهيه ، وبهذا يكون لِما وصّاهم به سبحانه من البر بأنفسهم ، والعدل فيما بينهم ، والتراحم بين أغنيائهم وفقرائهم ، وأقويائهم وضعفائهم — يكون لهذا مكانه من قلوبهم ، وأثره فى تصرفاتهم ، وفى سلامة نوازعهم ، واستقامة سلوكهم .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » .

فإذا أخذ العبد نفسه بطاعة الله ؛ ووجه إليه وجهه خالصاً ، قانتاً ، خاشعاً ، غير ملتفت إلى سواه ، ولا ناظر إلى غيره — وجد لخشية الله سطوة تملك عليه أهواءه ، ولجلاله خشية يستحى معها أن يصرف وجهه عن الله ، ويُسْلم يده لنزواته ونزعاته .. وبهذا يجد لوصايا الله مكاناً متمكناً من نفسه ، يعصمه من أن ينحرف ، أو يزلّ .

والدعوة إلى عبادة الله دعوةٌ عامة ، تتوجه إلى عباده جميعاً ، . فهم جميعاً مدعُوّون إلى رحابه ، ليتالوا رضاه ، وينعموا برحمته.. وليس لأحد أن يحجز أحداً عن الله ، أو يصدّه عن سبيله ، بحجّة أن دعوة الله قاصرة عليه ، أو على قومه ، وبنى جنسه .. فذلك عدوان على الله ، وكفرٌ به ، فوق أنه عدوان على الناس ومصادرة لحق مشروع لهم ..

فالطريق إلى الله مفتوح لكل إنسان ، يفتح قلبه لله ، ويوجه وجهه إليه .. وأنه إذا كان لأحد أن يحول بين إنسان وبين غاياته التى يتغيّاها فى الحياة ، أو أن يسلبه شيئاً مَلَكه واستحوذ عليه ، فليس فى مستطاع أحد أن يحول بين

الإنسان وربّه ، أو أن يمدّ يده إلى الإيمان الذى سكن قلبه فينتزعه منه ، فذلك لاسلطان لأحد عليه ، وإنما أمر ذلك كله إلى الإنسان نفسه ، وإلى مافى قلبه من إيمان .. إن شاء أمسك هذا الإيمان ، وإن شاء أرسله !

فإذا آمن الإنسان بالله ، وتعبّد لله .. كان عبداً ربّانياً ، يجيب دعوته ، ويمتثل أمره ..

وفى قوله تعالى : « وبالوالدين إحسانًا » أمر من أمر الله ، ووصاة من وصاياه ، بل هو الأمر الأول ، والوَصاة الأولى ، بعد الأمر بالإيمان به ، والوصاة بعبادته وطاعته .. فالإحسان إلى الوالدين حقّ من حقوقهما على المولودِين ، إذ كان لهما أثر فى وجود الأبناء ، وفى البلوغ بهم مبلغ الحياة .

وقوله سبحانه : « وبذى القربى واليتامى والمساكين والجارِ ذى القربى والجار الجُنُب والصّاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم » .

يبين به الله سبحانه أصحابَ الحقوق الواجبة على الإنسان نحوهم ، إمّا لصلة قرابة تجمعهم إليه ، وتجعلهم بعضاً منه ، أو تجعله بعضاً منهم .. وإما لصلة إنسانية عامة ، تلك الصلة التى تقوم على أساس أن الفرد عضو فى الجسد الاجتماعى كلّه ، وأن كل عضو سليم فى هذا الجسد من واجبه أن يحمل بعض أعباء الأعضاء المريضة فيه ، شأن الجسد حين تضعف فيه حاسة ، أو تعجز عن العمل ، فتتولى أقرب الحواس إليها ، وأشكَلها بها ، أداء وظيفتِها بوجه أو بآخر حتى يستقيم للجسد أمره ..

فذوو القربى .. هم من الإنسان وهو منهم .. ولهم على الإنسان أكثر من حق .. حق القرابة ، وحق الإنسانية .

واليتامى والمساكين .. أعضاء ضعيفة فى الجسد الاجتماعى .. ولهم على الإنسان حق ، هو حقّ بعض الجسد على بعض .

والجار ذو القربى ، له حق القرابة ، وحق الجوار ، وحق الإنسان على الإنسان .

والجار الجنب له حقان : حق الجوار ، وحق الإنسانية ..

والصاحب بالجنب ، هو الصديق المرافق ، الذى يجده الإنسان إلى جنبه فى شدته ورخائه .. وهذا له حق الصداقة مع حق الإنسانية .

وابن السبيل .. هو المسافر الذى يقطع الطريق بغير مركب أو زاد .. وسُمّى ابنَ السبيل ، وأضيف إليه ، لأنه لا أهل له ، ولا رفيق ، غير الطريق الذى ركبه فى سفره . . فهو غريب ، ضعيف .. له حق الضعيف على القوى ، وحق الإنسان على الإنسان !

وما ملكت أيمانكم .. وهم الأرقاء ، الذين ملك غيرُهم وجودَهم كله ، فهم أضعف الضعفاء .. وحقهم على أصحابهم أولا ، ثم حقهم على المجتمع كله ثانيا ..

فهؤلاء جميعاً هم أصحاب حقوق على الإنسانية كلها .. يتقاضونها أولاً ممن هم أقرب إليهم ، وأولى بهم ، من أهلٍ ، وأقاربَ ، وجيران ، وأصحاب ، وسادة .

فكل إنسان فى المجتمع الإنسانى مدعوٌّ — فى شريعة الإسلام — إلى أداء حقوق لمجتمعه ، يبدأ فيها بأبويه ، ثم بذوى قرابته ، ثم باليتامى والمساكين ، ثم بالجيران من ذوى قرابته ، ثم بالجيران ممن لا قرابة لهم ، ثم الأصدقاء ، ثم أبناء السبيل ، ثم الأرقاء .. فإن فضل عنده فضل من عطاء ، فليضعه حيث يشاء ، فيما ينفع الناس ويعينهم .

وفى قوله تعالى : « إن الله لا يحبّ من كان مختالا فخورا » تعقيب على

هذه الدعوة إلى البر والإحسان ، والتواصل بين الناس . .

وفى هذا التعقيب إشارة إلى أنه لايتقبل هذه الدعوةَ الكريمة ، ولا يفِى بها إلاّ من استشعر قلبُه الأخوة ، فوصل نفسه بالناس ، واختلط بهم ، وتحسس مواقع الآلام ، ومواطن العلل فيهم .. وذلك لا يكون إلا من إنسان آمن بأنه ابن هذه الإنسانية ، وأن الناس جميعاً شركاء له فى هذا النسب ..

أما من عزل نفسه عن الناس ، وغرَّه بذاته الغَرور ، وملكه العُجب ، واستبدّ به الكِبر ، بما آتاه الله، من مال ، أو صحة ، أو علم ، فرأى أنه من عالَم غير عالم الناس ، ومن طينة غير طينتهم — فإنه لايأخذ منهم ولا يعطى ، ولا يمدّ إلى أحد يداً ، ولا يقبل أن يمد إليه أحدٌ يداً .. إن المسافة بينهم وبينه بعيدة .. إنهم أرض وهو سماء . وأين الأرض وأين السماء ؟

ولهذا كان قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا » كاشفاً عن هذا الصنف المتعالى المتغطرس من الناس ، ذلك الصنف الذى لو وجد إنسانا تتعلق حياته على قطرة ماء لَمَا التفت إليه ، ولما مد يده نحوه بتلك القطرة ، ولو كانت الأنهار تجرى من تحته !

وفى هذا التعقيب إشارة إلى اليهود ، إذ هم الذين عَزَلوا أنفسهم عن المجتمع الإنسانى ، وعدّوا أنفسهم خَلْقا آخر غير خلق الناس — ونسبوا أنفسهم إلى الله نسبة لايشاركهم فيها غيرهم ، فقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وسمّوْا شعبهم شعبَ الله المختار !

وفى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » مَا يكشف عن تلك الإشارة التى ضُمّت عليها كلمات الله فى قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا » . .

فهؤلاء المختالون الفخورون ، الذين يبغضهم الله ، هم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل .

فقد بخل اليهود بما عندهم من علم الكتاب ، وضنّوا به ، فلم يَقُمْ منهم داعية يدعو إلى دين الله ، ويبشر به بين العباد ، مِن غير اليهود .. فكتموا دينَ الله ، وبخلوا به ، مع أنه يزداد على الإنفاق والإعطاء نوراً إلى نور ، وألقا إلى ألَق !

بل وأكثر من هذا ، فإنهم تواصَوْا بالبخل، ودعا بعضهم بعضاً إليه . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (٧٦ : البقرة) .

وكما بخلوا بما عندهم من علم الكتاب ، بخلوا بما فى أيديهم من مال ، بل إن بخلهم بالمال كان مضرب المثل فى الدنيا كلها ، إذ لا يُعرف شعب من الشعوب استبدّ به هذا الداء مثل اليهود . .

وفى قوله تعالى : « يكتمون ما آتاهم الله من فضله » إشارة صريحة بعد تلك الإشارتين المضمرتين إلى اليهود ، وما بخلوا به .. فقد كتموا ما أتاهم الله من فضله من كتابٍ ، فيه هدى ورحمة للعالمين . . ولم يقفوا عند هذا ، بل كتموا الدلائل والبشريات التى عرفوها فى كتابهم هذا ، عن النبى محمد ، وقد كانت تلك الدلائل وهذه البشريات مصباحا يضىء لهم الطريق إلى الدّين الجديد ، قبل أن تلوح شعاعات فجره الوليد . . ولكنهم آثروا أن يمسكوا هذه الدلائل بين أيديهم ، وأن يكتموا النّاس أمرها ، وأن يترصّدوا مطلع النبيّ الجديد ، ليسبقوا إليه ، ويستحوزوا عليه ، ويستخلصوه لهم من دون الناس .. فكان أن حرمهم الله هذا الخير ، وأورد الناس جميعا موارده .. غيرَ اليهود ! !

وهكذا كان الجزاء عدلا وِفاقاً . مكروا فمكر الله بهم ، وأرادوا حرمان الناس ، فحرمهم الله .

وفى قوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين عَذاباً مهيناً » خطاب عام بالجزاء الذى سيلقاه كل كافر ، وهو العذاب المهين ، وأول من يقع عليه هذا الجزاء هم اليهود ، الذين كفروا بمحمد وبما فى يده من كتاب الله الذى فى أيديهم خَبَرُهُ .. فهم المواجَهون بهذا الخطاب ، الذى يتناولهم أولاً ، ويمتد إلى غيرهم من الكافرين ثانياً ..

وقوله تعالى : « والذين ينفقون أموالهم رئاَء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً » .. هو عطف على قوله تعالى: « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » .. فهذا الصنف من الناس كصنف اليهود الذين غضب الله عليهم وأعدّ لهم عذاباً مهيناً .

فإذا كان اليهود قد بخلوا أثَرَةً وشحّاً ، فهؤلاء أنفقوا مباهاة ورياء .

وإذا كان اليهود كفروا بالله واليوم الآخر عن علم ، فهؤلاء كفروا بالله واليوم الآخر عن كِبر وحمق ..

وهؤلاء وأولئك قد استقادوا للشيطان ووضعوا أيديهم فى يده ، وصحبوه إلى حيث يريد ، ولن يريد لهم الشيطان إلا الضلال ، ولن يوقعهم إلا فى الهلاك .

وقوله تعالى : « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » هو استنكار لموقفهم الذى وقفوه من الهدى والخير ، ودعوة مجدّدة لهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق مما رزقهم الله .. فالله من ورائهم محيط ، يحصى عليهم أعمالهم من خير أو شر ، ويجزيهم على الخير خيراً وزيادة ، وبالشر شراً ، ويعفو عن كثير .

الآيات: (٤٠ ـ ٤٢)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » (٤٢)

التفسير : هذا حكم الله بين عباده ، لا يظلمهم مثقال ذرة ، بل يوفّون حسابهم عليها ، فإن كانت سيئة حوسبوا بقدرها ، وإن كانت حسنة جوزوا بأضعافها . . فهذا من فضل الله ورحمته بعباده ، السيئة سيئة، والحسنة حسناتٌ . . عشرة أو عشرات ، أو مئات . . والله يضاعف لمن يشاء : « ويؤتِ من لدنه أجراً عظيما » .

وفى قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » عرضٌ ليوم القيامة ، وما يَلْقى الناس فيه، جزاء ما عملوا من خير أو شر .

والشهيد : هو الشاهد الذى تُطلب شهادته فى أمر هو عليم به .

والأنبياء هم شهداء على أقوامهم ، فيما كان منهم من قبول أو إعراض .

والنبى الكريم هو شهيد على أمته .. يؤدى الشهادة فيهم بين يدى الله ، ثم يكون حكم الله فيهم ، بمقتضى ما شهد به النبىّ ، والذى لا يشهد إلا بالحق الذى يعلمه الله .

وفى هذا اليوم ، الذى يُدعى فيه الشهداء ، وتُسمع فيه شهادتهم .. يُجزى

الـكافرون ، ويُبلسون ، بما قدمت أيديهم ، ويودّون لو كانوا ترابا فى التراب .. ولـكن لا مفر لهم ، وقد أحاطت بهم خطيئاتهم ، وجاءت شهادة الرسل مسجلة عليهم آثامهم ، ثم استنطقهم الله فنطقوا ، وشهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ..

الآية : (٤٣)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا » (٤٣)

[الصلاة وشارب الخمر]

يكاد يُجمع المفسرون والفقهاء ، على أن قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » من المنسوخ ، وأن بقية الآية محكم لم ينسخ !

ونحن على رأينا من أنه ليس فى القرآن نسخ ، وأن كلّ آية متلوّة فيه ، عاملةٌ غير معطلة ..

ولـكن ماذا يقول القائلون بالنسخ فى آية متماسكة النظم ، متلاحمة البناء كهذه الآية : يُنسخ بعضها ، ويبقى بعضها من غير نسخ ؟

ثم ماذا يقولون فى فعل مسلط على أمرين بحكم واحدٍ ، ثم يَسقط أحد

الأمرين ويبقى الآخر ؟ فأية قوة خارقة تدخل على هذا الفعل، فتفلت من سلطانه أحد الأمرين وتستبقى الآخر .. ؟

استمع إلى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. ولا جنبا إلا عابرى سبيل » .

فإن النهى عن مقاربة الصلاة تَسَلَّط على حالينْ ، حال السكر ، وحال الجَنَابة .. وقد نُصب قولُه تعالى : « ولا جنباً » بالعطف على قوله سبحانه : « وأنتم سكارى » الذى هو جملة حالية فى محل نصب .

فكيف يُنسخ النهى عن مقاربة الصلاة حال السكر ، ولا ينسخ النهى عن مقاربتها حال الجنابة ، والفعل مسلط عليهما معاً ؟

وندع هذا ، ففيه مجال للقول والجدل . .

ونسأل : هل إذا أُمر المسلمون بأمر إلٰهى ، استجابوا له ، واستقاموا عليه والتزموه ؟ ..

المفروض هو هذا ، والمطلوب هو هذا أيضاً . .

ولكن المفروض شىء ، والواقع شىء . . والمطلوب شىء ، والوفاء به شىء آخر ..

إن من شأن الناس ألا يكونوا على حال واحدة أبداً .. ففيهم المطيع ، وفيهم العاصى ، ومنهم المستقيم ، وكثير منهم المعوجّ .. « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » (٢ : التغابن) . .

« وما أكثرُ الناس ولو حَرَصْتَ بمؤمنين » (١٠٣ : يوسف) .

هكذا هم الناس .. بل هكذا هو الإنسان .. يستقيم وينحرف ، ويطيع ويعصى . ومن أجل هذا قام شرع الله ، وقامت حدود الله ، وكان الثواب ، وكان العقاب !

فالمسلمون إذا نُهوا عن الخمر ، مثلاً ، كان واجباً عليهم أن يمتثلوا أمرَ الله ، وأن ينتهوا عما نُهُوا عنه .. ولكن الواجب - كما قلنا - شيء ، والوفاء به شيء آخر ..

وقد شرب كثير من المسلمين الخمر ، حتى فى الصدر الأول للإسلام ، وفى عهد الخلافة الراشدة .. وقصة أبى مِحْجَن الثقفى المجاهد فى جيش سعد بن أبى وقاص معروفة .. فقد ضُبط متلبساً بشربها ، وأقام عليه سعد الحدّ أكثر من مرة .. ثم حبسه ، ووضع القيد فى رجله .. ثم التحم المسلمون مع الروم فى معركة كاد يُهزم فيها المسلمون ، وعند ما رأى أبو محجن من محبسه أن الدائرة ستدور على المسلمين ، احتال حتى خرج من محبسه وفك من قيوده ، وركب فرس سعد ، وقاتل قتالاً مستبسلاً عرفه له كل من شهد المعركة ، وإن لم يعرف شخصه .. وانتهت الموقعة بانتصار المسلمين ، كما انتهت بانتهاء أبى محجن عن شرب الخمر !!

والأمر لا يحتاج فى هذا إلى شواهد .. فإن هذا المنكر — أى الخمر — لم يعتزله المسلمون جميعاً ، بل كان منهم فى كل عصر ، وفى كل بلد ، من يشرب الخمر وتأخذه سَكْرَتها ، ويغشاه خُمارها ، حتى لا يكاد يفيق !

ونَعَمْ ، الخمر كبيرة ، بل وكبيرة الكبائر .. آثمٌ من يُلِمّ بها ، أو يعاقرها ! هذا حكم لا خلاف فيه بين المسلمين ..

ولكن ما حكم من يشرب الخمر من المسلمين ، ثم يريد أن يؤدّىَ « الصلاة » ؟ أتحرم عليه الصلاة ، ويُحال بينه وبينها !

إن القول بنسخ الآية — أو صدر الآية — لا يسقط عنه فريضة الصلاة، ولا يحول بينه وبينها .

فالآية الناسخة لهذه الآية هى قوله تعالى : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * » (٩٠ ـ ٩١ : المائدة) ـ هذا النسخ للآية السابقة ـ إذا أُخذ به ـ لا يحول بين المسلم الذى شرب الخمر وبين أن يؤدى الصلاة .

فالخمر جريمة ، والصلاة قربة لله . . تلك سيئة ، وهذه حسنة ، ولا يمنع اقتراف السيئات من فعل الحسنات ، والله سبحانه وتعالى يقول : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ » (١١٤ : هود) .

وكيف يُحال بين المسلم العاصى ، وبين أن يفعل القُربات ، التى تكفّر سيئاته ، وتصحح إيمانه ؟

وكيف بالصلاة ، وهى عماد الإسلام وملاك أمره ؟

وأنّى للمسلم العاصى أن يدخل مداخل الطاعة ، ويُحسب فى الطائعين ، بغير الصلاة ، التى يقول الله سبحانه وتعالى فيها : « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » (٤٥ : العنكبوت) ؟

وإذ ننظر فى قوله سبحانه : « وأقم الصلاة .. إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » نجد أنه دعوة عامة للمسلمين جميعاً أن يقيموا الصلاة . وأن حظ المسيئين منها أكثر من حظ المحسنين .. إذ كان المحسنون بإحسانهم ، على الصحة

والسلامة ، لا تزيدهم الصلاة إلا إيماناً على إيمان ، وهدى إلى هدى . . أما المسيئون .. فهم مرضى .. أصحاب آفات وعلل ، ومرتكبو فواحش وآثام .. فهم أشد الناس حاجةً إلى الدواء الذى يذهب بدائهم هذا ، ويطهرهم من الآثام التى أحاطت بهم .. وليس غيرُ الصلاة ، مَطْهرةً للآثام ، مَغْفَرَةً للذنوب ، مدعاةً إلى الاستقامة والتقوى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

إن الآية الناسخة إذن لا تنهى المسلم العاصى عن إتيان الصلاة ، إذا كان مبتلًى بشرب الخمر ..

ولكن كيف يؤدّى الصلاةَ وهو معاقر الخمر ، مصاب بُخمارها لا يدرى ما يقول ؟

هنا يأتى قوله تعالى : « لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى حتى تعلموا ما تقولون » وهنا تُعطِى الآيةُ حكمَها فى هذه الحال.. وبهذا تكون عاملةً غير منسوخة ، فإن القول بنسخها ــ حكما لا تلاوةً ــ يدعو إلى القول بأن شارب الخمر لا يصلى أبداً ، سواء أكان يدرى ما يقول ، أم لا يدرى . . وهذا مالا يقول به أحد !

ونسأل :

ما داعية القول بنسخ هذه الآية ؟ وما الحكمة فى ضرب بعض القرآن ببعض ؟ خاصة إذا كانت الآية تعطى حكما مطلوبا ، لا نجده فى الآية التى يقال إنها ناسخة لها ؟

إذن فإن ذلك القول بالنسخ هنا لا مفهوم له أبداً .. بل إنه ليبدو لنا أشبه بالقتل العمد لنفس حرم الله قتلها ! !

فالمسلم . . الذى يتأثم بشرب الخمر .. منهى عن إتيان الصلاة حتى يفيق إفاقة تامة من السكر ، ليعلم ما يقول ، ولينتفع بهذا الموقف الذى يقفه بين يدى الله .

وهذا الانتقال السريع من الإثم إلى الطاعة ، والانخلاع من متابعة الشيطان إلى ملاقاة الله — هذا الانتقال من شأنه أن يحدث فى النفس هِزّة مزلزلة ، وأن يثير فى كيان الإنسان انقلاباً عاصفاً ، حين يرى تلك المفارقة العجيبة البعيدة بين الموقفين اللذين وقفهما ، والذى لايبعد أحدهما عن الآخر غير خطوة .. إنه فى هذا الموقف — أكثر من غيره — يدرك فرق مابين الضلال والهدى ، والظلام والنور ، ومتابعة الشيطان ، ولقاء وجه الرحمٰن . .

إن هذا الموقف جدير به أن يحمل الإنسان ـ فى قوة ـ على مخالفة هواه ، والرجوع إلى الله ، رجوعاً لايلتفت بعده إلى وراء أبداً ! !

قوله تعالى : « وَلاَ جُنُباً إِلاَّ عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا » هو عطف على قوله سبحانه : « وأنتم سكارَى حتى تعلموا ماتقولون » وهما — أى للتعاطفان — واقعان تحت حكم النهى فى قوله تعالى « « لاتقربوا الصلاة . . »

فكما لايقرب شارب الخمر الصلاةَ حتى يُفيق ويعلم مايقول ، كذلك لايقرب الجنب الصلاةَ حتى يتطهر بالاغتسال . . ! أى لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون ، ولا تقربوها وأنتم جنب حتى تغتسلوا .

إن شأن الصلاة عظيم ، وأمرها جليل ، وإذ كان هذا شأنها وذلك أمرها ، فإنه يجب ألا يدخل حِماها ، ولا يتلبّس بها إلاّ من كان أهلاً لأن يلقْاها ، ويأنس بها ، ويتجاوب معها ، ويستشعر جلال الله على سنا أضوائها . . والمخمور غير أهل لهذا اللقاء .. حتى يُفيق ويتخلص خُماره ، ويعود إليه عازب عقله ويستردّ إنسانيتّه التى افتقدها مع سكرته — والجنب غير أهل هذا اللقاء أيضاً .. حتى يغتسل ويتطهر ، وينزع عنه بهذا الاغتسال ما تلبّس به من مشاعر الحيوانية ، ليعود إنساناً ، كما كان من قبل أن يتلبس بما تلبس به !

والجنب ، والجنابة : كناية عن مباشرة النساء .

وقوله تعالى : « إلا عابرى سبيل » هو استثناء من الحكم الوارد على الجنب بألا يقرب الصّلاة حتى يغتسل .. فإن كان عابرَ سبيل ، لا يجد ماء .. فله حكمٌ غير هذا الحكم ، ستشير إليه الآية فيما بعد .

قوله تعالى : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَ مَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » .

هذا استثناء من حكم عام ، وهو الوضوء للصلاة قبل الدخول فى الصلاة .. والمستثنون من هذا الحكم هم أصحاب معاذير : اقتضت رحمة الله بهم التخفيفَ عنهم ، وأخذَهم بحكم خاص ، غير هذا الحكم العام الذى يجرى على من لاعذر لهم ..

وأصحاب المعاذير هنا هم :

١ — من كان مريضاً .. أى المريض الذى يُعجزه مرضه عن استعمال الماء .

٢ — أو من كان على سفر .. سواء أكان السفر طويلا أم قصيراً ، مادام قد بَعُدَ عن أهله وبلده .

٣ — من انتقض وضوؤه ، بخروج شىء من أحد السبيلين .. ولو كان صحيحاً سليما — إذا لم يجد الماء ، أو وجده وأضرّ به استعماله ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط » .. والغائط هو المكان المنخفض ، وهو كناية عن قضاء الحاجة ، حيث تُقضى فى مكان لايقع تحت أعين الناس .

٤ — من كان جُنباً .. ولو كان سليما معافًى لايضره استعمال الماء ، ولكنه لا يجده .

فهؤلاء .. إذا لم يجدوا الماء أو وجدوه وأضرّ بهم استعماله ، كان التيمم بديلاً لهم من الماء ، فى أداء الصلاة ..

فالمريض ، الذى يمنعه مرضه من استعمال الماء ، له التيمم مع وجود الماء ، وكذلك شأن المسافر ، إذا كان معه من الماء مالا يفيض عن حاجته فى طعامه وشرابه . .

والتيمم معناه القصد ، والاتجاه ، والصعيد ما ارتفع من الأرض ، وصعد .

والمراد بقوله تعالى : « فتيمموا صعيداً طيباً » اختيار مكان طاهر من الأرض ، ليُمسح منه على الوجه واليدين ، قبل الدخول فى الصلاة . .

والإشارة إلى الصعيد ، لمظِنة أنه بمنأى من الخبَثَ والقذر ، حيث يعلو عن استعمال الناس ، والتلوث بالقذارات . .

فليس المراد مجرّد العلوّ لاختيار المكان الذى يُمسح منه ، وإنما القصد أن يكون طيباً طاهراً ، ولهذا جاء قوله تعالى : « صعيداً طيباً » قيداً للصفة التى يكون عليها هذا الصعيد ، وهو أن يكون طيباً ، إذ قد يكون صعيداً ، ولكنه ملوث بالخبث والقذر .

وهنا أمر نحبّ أن نشير إليه ، وهو مافى قوله تعالى : « وإن كنتم جنبًا فاطهروا » حيث أطلق الجنابة ، ولم يقيدها . إن كانت عن حلال أو حرام !

وهذا يعنى أن « الزانى » جُنُب ، وأنه حين يريد الصلاة ينبغى أن يتطهر بالاغتسال ، أو التيمم ، حسب الحكم الذى يقتضيه حاله ، شأنه فى ذلك شأن « الجنب » الذى واقع زوجه !

أما جريمة « الزنا » التى اقترفها ، فلها حكمها الخاص بها .. ولا متعلق لها بفريضة الصلاة المفروضة عليه .

نقول هذا ، لنشير به إلى ماسبق أن قررناه فى شأن شارب الخمر ، الذى إذا أراد أن يؤدى فريضة الصلاة ، فإن له أن يؤديها ، ولكن بعد أن . يفُيق من

شُكره ويعلم مايقول .. تمامًا ، كما يغتسل « الزانى » ويتطهر من الجنابة قبل الدخول فى الصلاة .

وفى قوله تعالى : « إن الله كان عفوًّا غفورا » نجد دعوة كريمة ، من رب كريم ، عفوّ غفور ، يدعو هؤلاء المذنبين إليه .. من شاربى خمر ، أو زُناة ، ليدخلوا فى رحابه ، وليرفعوا وجوههم إليه وليُخبتوا له ، ساجدين راكعين .. عسى الله أن يتوب عليهم ، ويغفر لهم .. إن الله كان عفواً غفورا » ..

وما أوسع رحمةَ الله ، وما أعظم فضلَه ، إذ بسط يده بالعفو وبالمغفرة ، قبل أن يسعى إليها الساعون ، ويطلبها العصاة المذنبون .

هذا ، ونودّ أن نلتقى بالآية الكريمة لقاء خاصًّا ، نستشفّ منه بعض أسرارها التى تلوّح بها من بعيد ، ليكون فيها تبصرة وذكرى لأولى الألباب !

ففى قوله تعالى :

« وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » ـ ما يُسأل عنه ، وهو هذا القيد الوارد على إباحة التيمم ، عند عدم وجود الماء — هل هو منسحب إلى جميع أصحاب هذه الأعذار .. وهم المرضى ، ومن كان على سفر ، ومن جاء من الغائط ، ومن لامس النساء ؟

وكلاً .. فإن المريض سواء وجد الماء أو لم يجده ، قد رُخّص له فى التيمم ، وقام مرضه فى دفع الحرج عنه مقام عدم وجود الماء .. وإلا لما كان لذكره هنا وجه .. فإن عدم وجود الماء هو عذر للصحيح أيضا ، فلا وضوء عليه للصلاة ، بل يُجزيه التيمم ، الذى هو طهارة له ، والتى هى شرط للدخول فى الصلاة ..

وسؤال آخر ، وهو : أَيُلحق المسافر فى الحكم بالمريض ، فيباح له التيمم ،

سواء وجد الماء أم لم يجده ، أم أنه يُلحق بمن ذُكر بعده ، وهو من جاء من الغائط أو لامَس النساء .. حيث لا يباح لهما التيمم إلا عند فِقدان الماء ؟ هنا يطالعنا وجه من وجوه الإعجاز القرآنى ، نلمحه فى ترتيب أصحاب هذه الأعذار المبيحة للتيمم ، حيث بدأ بالأقوى عذراً ، فمن دونه ، وهكذا ..

فالمريض .. صاحب عذر واضح فى إباحة التيمم له ، بحيث لا ينتقض هذا العذر بوجود الماء .

أما المسافر .. فهو على حال دون المريض ، ولكنه شبيه بالمريض فى بعض ما يحيط به من أحوال .. فهو ضعيف لانقطاعه عن أهله ، ولسوء تغذيته ، ولمكابدته مشاق السفر .. فهو — والحال كذلك — فى حكم المريض ، وإن لم يكن مريضاً ، ولهذا جاء تالياً للمريض فى ترتيبه بين أصحاب الأعذار ..

وعلى هذا ، فإن له أن يأخذ بحكم المريض ، فينتفع برخصة التيمم ، مع وجود الماء ، وهذا هو سرّ ذكره بين أصحاب الأعذار ، ليكون السفر عذراً له ، كما يكون فِقدان الماء عذرًا لغير المسافر .. كمن جاء من الغائط أو لامس النساء .

هذا ، ولا نستطيع أن نرفع أبصارَنا عن هذه الآية الكريمة دون أن نملأ العين من هذا النظم العجيب الذى جاءت عليه ، وهى تقرر أحكاما ، وتُصدر تشريعا .. الأمر الذى لا يُلتفت معه كثيراً إلى الصياغة البلاغية ، التى كثيراً ما تجور على التحديد والتقنين المطلوبيْن لتقرير الأحكام .. ولكنه القرآن الكريم ، وكلام ربّ العالمين ، يجمع الحسن كلّه ، ويستوفى الكمال جميعه .

والذى شدّ أبصارنا وبصائرنا من نظم هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى : « أو جاء أحد منكم من الغائط » فقد جاء هذا المقطع من الآية الكريمة مخالفا لنسق النظم الذى جاءت عليه الآية ، فيما سبقه ، أو لحقه منها .

فالآية تخاطب المؤمنين فى صيغة الجمع .. « وإن كنتم مرضى أو على سفر

أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً . . »

وينفرد هذا المقطع : « أو جاء أحدٌ منكم من الغائط » بأنه حديث عن الغائب المفرد .. ولو جاء على نسق النظم فى الآية كلها لجاء هكذا : « أو جئتم من الغائط » .

فما سرّ هذا ؟

وأكاد أنصرف عن بيان هذا السرّ ، الذى يكاد لا يكون سرًّا ، بعد أن يواجه المقطع المعدول عنه ، والذى كان من المتوقع أن يحلّ محلّه .. هكذا :

« أو جاء أحدٌ منكم من الغائط » .. « أو جئتم من الغائط » .

ولكن لابأس من أن نكشف هذا السرّ بعد أن انكشف ، إذ لاتزال وراءه أسرار كثيرة لم تنكشف لنا ، ولعلها تنكشف لمن يطلبها ويُمعن النظر فيها ..

فى قوله تعالى : « أو جاء أحدٌ » تنكير وإخفاء وستر لهذا الذى جاء من الغائطِ ، بعد أن كان عُرياناً ، يباشر عملاً يحبّ أن يستره ولا يطلع أحد عليه .

ثم هو من جهة أخرى احترام لحياء المخاطبين ، حتى لكأنهم لايفعلون هذا الفعل الذى هو ضرورة ملزِمة لكل حىّ .. والذى هو عمل يأتيه كلّ إنسان .. ولكنه أدب الحديث ، الذى يؤدّبنا الله سبحانه وتعالى به ، ويطلعنا من كلماته على مالم تعرف الحياة فى أعلى مستوياتها من أدب كهذا الأدب السماوى الكريم !

الآيات : (٤٤ ـ ٤٦)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ

وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ
وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا (٤٥) مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ
مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ
وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا
لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (٤٦)

التفسير : الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود . والمراد بالنصيب من الكتاب ، بعضه ، أى بعض التوراة ، التى جاءهم بها موسى عليه السلام .

فكيف يكون اليهود قد أوتوا نصيباً من الكتاب مع أن الكتاب كله بين أيديهم ؟ والله سبحانه وتعالى يقول فيهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم (٢٠ : الأنعام) ، (١٤٦ : البقرة) ؟

ويقول سبحانه : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به (١٢١ : البقرة) .

كيف يكون هذا ؟

والجواب :

أولاً : أن الكتاب — وهو التوراة — الذى بين أيدى اليهود ، قد حُرّف وبُدّل ، بما أحدثوا فيه من منكرات ، وبما ألقوا إليه من أهوائهم ومختلقاتهم .. فالذى بقى فى أيديهم من التوراة ، هو بعض التوراة ، لا التوراة كما أُنزلت عليهم .

وثانياً : أن مابقى فى أيديهم من التوراة لم يستقيموا عليه ، فما صادف من أحكامها هوًى فى أنفسهم أخذوا به ، وما كان على غير مايحبّون تأوّلوا له ،

وحرفوه عن وجهه إلى الوجه الذى يريدون .. وقد نعى الله ذلك عليهم بقوله سبحانه : « أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » (٨٥ : البقرة) .

فالذى يمسك به اليهود من التوراة هو بعض التوراة ، لا التوراة .. وفى التعبير بلفظ « أوتوا نصيباً من الكتاب » بدلا من « آتيناهم الكتاب » إبعاد لهم عن هذا المقام الكريم ، مقام الخطاب من الله رب العالمين ، لأنهم — وقد فعلوا مافعلوا من منكرات — ليسوا أهلا لأن يُوجّه إليهم خطاب من الله رب العالمين .. فوُجّه إليهم الخطابُ مجهولَ الجهة التى تخاطبهم ، حتى لكأنهم فى مواجهة الوجود كلّه ، يَطّلع عليهم من كل أفق منه مَن يستنكر ماهم فيه من ضلال ، ويحقق موقفهم من رسل الله وكتبه .. « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ » . فكأنّ ألسنة الخلق كلّها تتنادى مشيرةً إلى هذا الضلال والسّفه الذى يركب هؤلاء الحمقَى السفهاء من الناس ، إذ يشترون الضلالة بالهدى ، والباطل بالحق ، والشر بالخير .. « أَلم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دارَ البَوار » (٢٨ : إبراهيم)

وفى قوله تعالى : « ويريدون أن تضلوا السبيل » خطاب المسلمين ، بعد أن كان الخطاب موجهاً إلى النبىّ الكريم ، وفى هذا ، تكريم للنبىّ — صلوات الله وسلامه عليه — ورفع لمقامه الكريم ، من أن يكون لهؤلاء الضالين ، ومفترياتهم ، أثر فى سلامة دينه ، وصحة معتقده ، ووثاقة إيمانه بربّه ، وإن كان فى ذلك مايُخشى منه على المسلمين ، فى التشويش عليهم ، والوسوسة بالباطل لهم .

قوله تعالى : « وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا » ـ فضحٌ لليهود ، ولِما فى قلوبهم من بغضةٍ وشنآن للمسلمين ، وأنهم هم العدوّ ، الذين يكيدون لدين الله ، ولرسول الله ، وللمؤمنين بالله . . وفيهم يقول الله سبحانه : « وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ .. هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ .. قَاتَلَهُمُ اللَّهُ .. أَنَّى يُؤْفَكُونَ » (٤ : المنافقون) . . وفيهم يقول سبحانه أيضاً : « لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا » (٨٢ : المائدة) .

وفى قوله تعالى : « وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا » حمايةٌ ربّانية وحراسة رحمانية للمؤمنين ، مما يكيد لهم اليهود ، وما يدبّرون من سوء . . فالله سبحانه وتعالى ، هو ولىّ المؤمنين ، يدفع عنهم هذا الكيد ، ويفسده .. «وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيراً » وإن الله سبحانه ليتولّى المؤمنين وينصرهم ، إذا هم أخذوا حذرهم ، وتنبهوا إلى عدوّهم ، وتحصنوا من كيده ومكره ، بإيمانهم بالله ، واحترازهم من عدوّهم : « هم العدوُّ فاحذرهم . . !

وقوله تعالى : « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا .. لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ » يكشف عن تلبيسات اليهود ، وموارد نفاقهم . . إنهم ينافقون بالكلمة وبالعمل معاً ، تلتوى ألسنتهم بالكلمات فتزيلها عن معانيها التى لها ، وتعبث أيديهم بالعمل فتموّهه وتزيفه ، وتجعل ظاهره غير باطنه ، كما يُطلَى المعدن الخسيس بسراب خادع من معدن كريم .

يقولون للنبىّ بأفواههم : « سمعنا » ويقولون بقلوبهم : « وعصينا » ،

ويقولون « اسمعْ » بصوت مسموع ، ويُتبعون ذلك بصوت خافت : « غيرَ مسمع » يدعون على النبيّ بالصمم .. ويقولون : « راعِنَا » أى انظر إلينا .. يقولونها فى تخابث تضطرب به ألسنتهم فتخرج الكلمة مشوّهة ، عليها شبهة الضلال الذى يجده السامع لكلمة « راعناً » بالتنوين ، صفةً من الرعونة والطيش . .وهكذا يلقوْن النبى والمسلمين بتلك الكلمات المنافقة ، التى تلبس أثواباً من الزيف والخداع !

« ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقومَ » ! خيراً يصيبونه فى أنفسهم ، إذ يستقيم بهم على طريق الخير ، ويهديهم إلى سواء السبيل . . ولكن طبيعة القوم لا تعطى غير هذا الباطل ، ولا تنضح إلا بهذا الزّيف المنكر من القول .. إذ « لعنهم الله بكفرهم » .. « ومن يلعن الله فلن تجدَ له نصيراً » يستنقذه من هذا الضلال الذى يتخبط فيه ، ويُلقى به فى لجج الهلاك ، وسوء المصير . .

وفى قوله تعالى : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » .. ما يفضح هذا الإيمان الذى هم عليه .. فهم أهل كتاب .. ومن شأن أهل الكتاب أن يكونوا مؤمنين .. وهم مؤمنون ، ولكن إيمانهم مشوب بالضلال ، متلبّس بالكفر ، فهم مؤمنون وكافرون ، ولا يجتمع الإيمان والكفر إلا فى قلب منافق ..

فالنفاق هو الوصف الذى هو أوْلَى بهم ، وهم أحقّ به .. ولهذا كان النفاق والمنافقون ، من الصفات والسمات التى غلبت عليهم ، فيما تحدث به القرآن عن هذا الحق اللئيم وأهله ..

وفى القرآن الكريم يوصف اليهود بأنهم كافرون . . هكذا ، وصفاً مطلقاً . . كما يقول سبحانه : « لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ » (١ : البينة) وكما يقول سبحانه :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ »
(٦ : البيّنة)

وفى القرآن الكريم آيات تصف اليهود بأنهم مؤمنون ، ولكنّ هذا الوصف يُقَيّد دائماً بأنه إيمان سطحى ، لا يمسك من بالإيمان إلا بظاهره ، كما يقول سبحانه فى هذه الآية : « فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً » . . وكما يقول سبحانه : « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إلاَّ قَلِيلاً » (١٥٥ : النساء).

فهم كافرون كفراً قاطعاً ، وهم مؤمنون إيماناً ظاهراً . . وذلك هو النفاق فى أسوأ صورة وأبشعها.

الآيتان : (٤٧ ـ ٤٨)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٤٧) إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً » (٤٨)

التفسير : بعد أن فضح الله اليهود ، الذين أوتو الكتاب، فكروا بآيات الله ، بما حرّفوا وبدّلوا فيه ـــ دعاهم الله إلى ترك ما هم فيه من ضلال وزيغ .. وأن يؤمنوا بالله وبالكتاب الذى فى أيديهم إيماناً خالصاً ، فإنهم إن فعلوا ذلك

لم يكن بينهم وبين الإيمان بالكتاب الذى نزله الله على « محمد » حجاز يفصل بينهم وبين الإيمان بهذا الكتاب .. لأنه من عند الله ، كما أن كتابهم من عند الله ، وهو مصدق لما معهم فيما جاء به من شرائع وأحكام ..

فإذا آمنوا بكتابهم ، ولم يؤمنوا بالكتاب الذى نَزَل على محمد ، فهم غير مؤمنين ، لأن الكتابين فى حكم كتاب واحدٍ .. والإيمان بأحد الكتابين والكفر بالآخر ينقض هذا الإيمان .. وقد أنكر الله عليهم دعوى الإيمان التى يدّعونها ، حين يقولون ، إنهم على كتابهم الذى فى أيديهم .. فقال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فما جزاء من يفعلُ ذلك منكم إلا خزىٌ فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يُرَدُّون إلى أشد العذاب » . (٨٥ : البقرة) .

وقال سبحانه وتعالى فيهم أيضًا : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً * أُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » (١٥٠ ـ ١٥١ : النساء)

وفيهم يقول سبحانه وتعالى أيضاً : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » .

(٩١ : البقرة)

وفى قوله تعالى : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ » وعيد لليهود ، ونذير راصدٌ لهم باللعنة من عند الله ، إن لم يؤمنوا بمحمد ، وبما أنزل الله عليه .

وهذه اللعنة حين تقع عليهم ، فإنها لا تُبقى على شىء من آدميتهم .. بل إنها ستقلب كيانهم البشرى ، وتحيلهم خلقاً آخر ، يكون مُثْلَةً ، بين المخلوقات ، فإذا كان كل مخلوق له وجه وظهر ، فهؤلاء سيكون وجههم وظهرهم سواء !

وانظر إلى إنسان استدارت رأسه ، فكان الوجه من خلف ، والقفا من أمام !! كيف تبدو صورته ؟ وكيف يستقيم حاله ؟ وكيف يمشى إذا أراد المشى؟ وكيف يأكل إذا أراد الأكل ؟ بل كيف ينام إذا أراد أن ينام ؟ ما أشق مثل هذا الكائن الذى تخالفت أعضاؤه ، وتضاربت جوارحه !

وهذه العقوبة هى الجزاء الوِفاق لما ارتكبوا من جرائم وآثام . إنهم أعطوا الناس وجهاً ، وعاشوا فيما بينهم وبين أنفسهم بوجه .. والوجه الذى تعاملوا به مع الناس هو هذا الوجه الظاهر الذى يراهم الناس عليه ، أما الوجه الآخر ، فقد أخفوا أمره عن الناس ، وحجبوه عن أن يواجهوهم به ـ فكان أن توعدهم الله بكشف هذا الوجه المنافق ، وفضحه للناس ، فلا يبقى لهم إلا هذا الوجه الذى جعلوه وراءهم ، فى هذا الوضع المقلوب !

هذا هو الجزاء الذى ينتظرهم ، إن لم يستقيموا على طريق الحق ، ويؤمنوا كما آمن الناس ، إيماناً خالصاً من النفاق !

فإن لم يكن فى هذا الجزاء ما يردعهم ، ويردّ إليهم شارد عقولهم .. فهناك جزاء آخر أقسى وأشد .. وإنه لجزاء يعرفونه فى آبائهم وأجدادهم ، الذين اعتدوْا فى السبت ، فمسخهم الله ، وجعلهم قردة فى أجساد بشر ! أو بشراً فى طباع قردة ! وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٦٥ : البقرة) .

وقوله تعالى : « أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ » هو نذير بالعقوبة الثانية ، بعد النذير بالعقوبة الأولى .

وما أصاب أصحاب السبت معروف لهم !

فماذا ينتظرون بعد هذا ؟

أيظنون أن الله مخلفٌ وَعِيدَه لهم . . لأنهم — كما زعموا — أبناء الله وأحباؤه ؟ وكيف وقد وقع هذا العقاب بآبائهم ، وأخذهم الله به ؟

أم يظنون أن الله إذا أراد أمراً بهم ، وساق شراً إليهم ـ أهناك من يدفع ما أراده الله بهم ؟

فلينتظروا ، وسوف يرون ما الله فاعل بهم . . « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً »

وفى قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » .

ـ ما يُسأل عنه .. وهو : هل أهل الكتاب هؤلاء مشركون ، حتى تجىء هذه الآية فى سياق الحديث عنهم ، وفضح نفاقهم ؟

إنهم ـ كما وصفهم ، القرآن فى كثير من آياته — كافرون ، ومنافقون ، ومؤمنون . . يجمعون بين الإيمان والكفر . .

أما الشرك فهو الصفة الغالبة التى أطلقها القرآن على كفار قريش ، الذين لم ينكروا وجود الله ، ولكنهم عبدوا أصناماً لهم من دون الله ، وقالوا : « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » (٣ : لزمر)

ومع هذا ، فإن بين الكافرين من أهل الكتاب ، والمشركين من العرب صلة جامعة ، هى الخروج عن سواء السبيل ، والتنكب عن طريق الحق !

وإذ جرى ذِكر الكافرين المنافقين من أهل الكتاب ، وما توعدهم

الله به إن لم يؤمنوا ، إيمانًا كاملاً — حَسُن أن يجرى ذكر قرنائهم من مشركى العرب ، وأن يلتقى بعضهم ببعض ، ويواجه بعضهم بعضاً ، بهذه الوجوه المنكرة وما بأيديهم من آثام .. وفى ذلك ما فيه من إثارة الذعر والفزع ، فيما يرى كل واحد من الفريقين فى وجه صاحبه ، من وبال ونكال .. إنها حال أشبه بتلك الحال التى يثيرها اجتماع المجرمين ـ على اختلاف جرائمهم — فى ساحة العدل والقصاص ، من صور الإيلام ، والأسى ، والفزع ، التى تشتمل على أصحاب هذا الموقف جميعاً !

والشرك عدوان على الله ، وإنزال بقدره ، حين يُسوّى بينه وبين المعبودين ، من جماد ، وحيوان ، وإنسان ! ولهذا كان الشرك أعظم من الكفر ، إذ الكافر ـ مع إنكاره لله ـ حين يتعرف على الله لا يراه على تلك الصورة التى يراه عليها المشرك ، ولا ينزل بقدره إلى هذا المستوى المهين ! « إن الشرك لظلم عظيم » .

فالشرك كبيرة الكبائر ، لا يغفر الله لمرتكبها ، ولا يدخله مدخل عباده ، الداخلين فى رحمته ومغفرته . « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيماً » .. (٤٨ : النساء)« إنه مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ »(٧٢ : المائدة)

الآيتان : (٤٩ ـ ٥٠)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُبِينًا » (٥٠)

عادت الآيات مرة أخرى ، لتفضح اليهود ، فضيحة بعد فضيحة ، فما أكثر مآثمهم ، وما أوسع دائرة مخازيهم ..

وهنا جريمة أخرى من جرائمهم .. إنهم غارقون فى الضلال إلى أذقانهم ، ومع هذا فإنهم يرون فى أنفسهم أنهم أولى الناس بالله ، وأقربهم إليه ، وأحقهم بفضله ورحمته ، فقالوا فيما كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .. وقالوا : « لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات » .

لقد زكّوا أنفسهم بغير حق ؛ ورفعوا منزلتهم إلى مكان ليسوا أهلاً له .

وهذا تألٌّ على الله ، وافتراء عليه .. وإنه ليس لأحد أن يتخيرّ عند الله المكان الذى يُمليه عليه هواه .. فذلك أمرٌ إلى الله وحده ، يُنزل عباده منازلهم ، حسب علمه بهم ، وبما هم أهلٌ له .. دون أن يظلم أحداً شيئاً ..

وقوله تعالى : « انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً » شَجْبٌ لمدّعَيات هؤلاء القوم ، وتكذيب لمفترياتهم ، وفضح لهم على رؤوس الأشهاد ، ودعوة للناس جميعاً أن ينظروا إليهم وهم فى هذا الثوب الكاذب المفضوح ! !

الآيات : (٥١ ـ ٥٢ ـ ٥٣ ـ ٥٤ ـ ٥٥ ـ ٥٦ ـ ٥٧)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ

ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا (٥٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً (٥٦) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلًا » (٥٧)

التفسير: فضيحة أخرى من فضائح اليهود ، ومخزاة إلى ما عُرف من مخازيهم ، التي يرى منها الناس ما يثير العجب والدَّهش ، وما يحمل على السخط عليهم ، واللعنة لهم ..

إنهم وهم أهل كتاب ، إن يكن قد فاتهم الخير الكثير الذى كان فى هذا الكتاب ، فإن بين أيديهم أثارة منه ، تجعلهم أقربَ إلى المؤمنين ، وأعرف بما جاء به محمد من عند ربّه ، وأنه إذا أنكره المشركون وكذبوا به ، لم يكن لليهود — أهلِ الكتاب — أن يقفوا هذا الموقف الأثيم منه !

والعجب هنا ، أن اليهود لم يقفوا عند هذا الحدّ من الضلال ، والعناد ، والمكابرة فى وجه الحق ، بل انحدروا إلى حضيض السفاهات والضلالات ، فآمنوا بالجبت والطاغوت ، واتبعوا ما تُمليه عليهم أهواؤهم من أباطيل وخرافات . .

والجبت : هو الهوى الذى يفيض من عقل مظلم ووجدانٍ سقيم . .

والطاغوت : هو الهوى الذى يمليه ذكاء خبيث ، وشيطان مريد ..

فالقوم عَبَدة هذا الهوى ، الجامع بين تلك الأخلاط . من البلادة والذكاء،

البلادة الحيوانية ، والذكاء الشيطانى .. فهم حيوانات بهيمية ، يعيش فيها شيطان رجيم ..

وفى قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَآءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً » إشارة إلى فَعلة من أفعالهم اللئيمة ، وجريمة من جرائمهم المنكرة .. ذلك أنهم يرون فى الكافرين أنهم أهدى سبيلاً من المؤمنين .. ولهذا كانوا حِلْفاً مع مشركى قريش على النبىّ وأصحابه ! .. وهكذا يقتل الحسد من نفوسهم كل واردة من واردات الخير ، حين .. يُعمى أبصارهم ، ويطمس على قلوبهم ، فيرون الحق باطلا ، والباطل حقًّا .. « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » (٤١ : المائدة)

وفى عطف القول ومقوله ، على إيمانهم بالجبت والطاغوت ، تغليظ لهذا القول الذى قالوه ، وتجريم له ، وجعله هو وعبادة الجبت والطاغوت على درجة سواء ، من الكفر والضلال !

وفى إسناد القول للذين كفروا ، ثم الإشارة بمقول القول إليهم — ما يُسأل عنه :

إذ كيف يقولون للذين كفروا ، ثم يشيرون إلى هؤلاء الذين كفروا بمقول القول هذا ، وهم يخاطبونهم ، ويتجهون بالقول إليهم ؟ إن الذى يقتضيه النظم أن يكون مقول القول للكافرين .. هكذا : أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ! فكيف هذا ؟

والجواب — والله أعلم — أن اليهود — لم يتجهوا بهذا القول إلى جميع الكافرين .. وإنما كانت مقولتهم تلك لرءوس الكافرين ، وأصحاب الرأى فيهم ، ثم كانت الإشارة إلى الكافرين فى عمومهم .

وفى هذا مافيه من مبالغة فى كفر القوم ، وضلالهم ، حتى إنهم لا يرون

المؤمنين فى درجة تسمح بالمفاضلة بينهم وبين كبار الكافرين وسادتهم ، وإنما الذى يمكن أن يُسمح به فى المفاضلة بين المؤمنين والمشركين ، هو هذا المستوى الذى عليه عامة الكافرين ، لا خاصتهم . .

فاليهود إذ يتحدثون إلى رءوس الكافرين لايقولون لهم أنتم أهدى سبيلا من المؤمنين ، بل يشيرون إلى عامة الكافرين ، خارج هذه المجموعة ، ويقولون لهم : « هؤلاء » أى جماعتكم جميعاً .. « أهدى من الذين آمنوا سبيلا » أما أنتم ، فشتان مابينكم وبينهم !

وإذ استباح القوم الزور ، واستمرءوا الحياة معه .. فهيهات أن يقف بهم عند حدّ !

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا » . هو إشارة لليهود الذين شهدوا تلك الشهادة الباطلة ، ونطقوا بها زوراً وبهتاناً ، وهو فى مقابل مقولة اليهود عن الكافرين : « هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » حيث أشاروا إلى الكافرين ، وحكموا لهم بهذا الحكم المبنىّ على الزور والبهتان .. فأشار الله إليهم ، بهذا الحكم القائم على العدل والردع ، لهذا الجرم الذى اقترفوه ، وهذا الضلال الذى غرقوا فيه ، وأغرقوا غيرهم معه . . « أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا » .

واللعنة دائماً حيث كانت ، فهى لليهود ، وعلى اليهود .. !

وقوله تعالى : « أم لهم نصيب من الملك فإذن لا يؤتون الناس نقيرا » هو إعلان عن هذا الطبع اللئيم الذى يغلب على اليهود ، وهذا الداء الخبيث الذى يغتال كل معالم الإنسانية فيهم ..

فالشحّ هو الطبع الغالب عليهم ، لاتندّ من أيديهم ذرةُ خير لأحد ، لما انطوت عليه نفوسهم من كراهية للناس جميعاً .. حيث يجدون الراحة والرضا

فيما ينزل بالناس من كوارث ومحن ، فكيف يكون منهم عمل يخفف عن الناس ألماً ، أو يسوق إليهم عافية ؟

إنهم لو كان إلى أيديهم شيء من رحمة الله وفضله ، لحرموا الناس أن ينالوا ذرة من هذه الرحمة وذلك الفضل !

والنقير هو النقرة فى ظهر النواة .. وهو شيء غاية فى الصغر والضآلة ، ومثله الفتيل والقطمير .

وقوله تعالى : «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» هو إعلان عن ذلك الداء الذى يولّده الشحّ الذى طُبع عليه القوم ، وهو داء الحسد .. فالقوم تتّقد فى قلوبهم نار الحسد والكمد ، إذا رأوا نعمة من نعم الله تصيب عبدًا من عباد الله ! فهم يتحرقون غيظاً وكمداً أن ساق الله إلى « محمد » هذا الفضل العظيم ، ووضع فى يده تلك النعمة السابغة ، حين اصطفاه لرسالته ، وأنزل عليه كتابه الكريم .

فما لهم ـ قاتلهم الله ـ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، وقد وسّع الله عليهم وآتاهم من فضله ، وأنزل عليهم من نعمه ، ما لو استقاموا عليه ، وانتفعوا به لسعدوا ، وأسعدوا الناس معهم ؟ « فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » فمن آل إبراهيم كان أنبياء بنى إسرائيل : إسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، وداود ، وسليمان ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

فما أكثر الخير الذى ساقه الله إليهم على يد أنبيائه ورسله ، ولكن القوم استقبلوا هذا الخير بالجحود والكفران : « فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه » وقليل منهم أولئك الذين آمنوا ، وكثير منهم أولئك الذين كفروا وجحدوا . . « وكفى بجهنم سعيرا » فهى الجزاء العادل لمن مكر بآيات الله ، وبدل نعمة الله كفراً .

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيماً ».

ففى جهنم التى هى مثوى هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ألوان من العذاب لا تنتهى . . « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » ليعيشوا هكذا فى عذاب دائم . .

والجلد هو حاسة الإحساس فى الإنسان ، ولذا كان العذاب الأخروىّ واقعاً عليه ، وكانت النار التى تتصل به أشبه بثوب من النار ذاتها ، كلما بلى هذا الثوب ، تجدّد لأصحاب النار ثوب آخر مكانه !

وفى مقابل هذا العذاب الذى يصلاه الكافرون ، تقوم الجنّة التى ينعم فيها المؤمنون ، بما أعد الله لهم ، من نعيم مقيم ، لا ينفد أبداً . .

وفى مواجهة أصحاب الجحيم لأهل النعيم وما يلقون من كرامة وتكريم ، وفى اطلاع أهل النعيم على أهوال الجحيم ، وما يلقى المعذبون فى نار جهنم ، من نكال وبلاء ـ فى هذا ما يضاعف لأهل النار ما هم فيه من محن وأهوال ! كما يضاعف لأهل الجنة ما هم فيه من نعيم ورضوان .

الآيتان : (٥٨ ـ ٥٩)

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » (٥٩)

التفسير : الأمانات التى يأمر الله سبحانه وتعالى بأدائها إلى أهلها، كثيرة ، متنوعة ، وأهلها كثيرون مختلفون !

فهناك أمانة عامة حملها أبناء آدم جميعاً ، هى أمانة التكليف ، التى أبت عوالم السماء والأرض أن تحملها ، وأشفقت من حملها ، والقدرة على الوفاء بها..

وأمانة التكليف هذه ، هى التى أفردت الإنسان عن سائر المخلوقات ، بالعقل ، الذى به أصبح الإنسان سيد نفسه ، بما له من قوى التفكير ، والتقدير ، والإرادة .. فإن شاء تقدم ، وإن شاء تأخر، حسب ما يرى ويقدّر !

ولهذا كان عالم الناس مجموعة عوالم ، بعدد أفراد الناس ، فرداً ، فرداً . . فكل إنسان عالَم وحده ، فى تفكيره ، وتقديره ، وعواطفه ، ومنازعه ، وسلوكه ، حتى لايكاد يتساوى إنسان وإنسان بحال أبداً.. على خلاف الكائنات الأخرى ، علويّها وسفليّها . . كل عالم منها ينتظم جميع أفراده ، التى لا يختلف فيها واحد عن آخر ، حتى لكأنها عدد مكرر من أعداد الحساب !

وهذا التفرد الذى كان للإنسان ، هو طموح جامحٌ ، منته به نفسه الغَرور ، فارتفع إلى المستوى الرفيع الذى إن زلّت به قدمه فيه ، سقط من علو شاهق ، وهوى إلى أسفل سافلين . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ »

(٤ ـ ٥ ـ ٦ : التين)

فالإنسان إذ حمل هذه الأمانة ـ أمانة التكليف ـ أصبح سيّد الكائنات كلها ، لا سيّد فوقه إلا الله سبحانه وتعالى ، فهو بهذا الخلق القويم الكريم ظِلُّ الله فى هذا الوجود ، تتخايل فيه لمحات من علم الله ، وقدرته ، وإرادته ، وكثير من صفاته ، سبحانه وتعالى علوّا كبيراً عن الشبيه والمثيل !

وعلى هذا يمكن أن يُفهم ما تُحدّث به التوارة عن الله تعالى : « وقالَ الله : نعمل الإنسان على صورتنا ، كشبهنا . . فخلق الله الإنسان على صورته . . على صورة الله خلقه ، ذكراً وأنثى خلقهم الله . »(١)

وإذ حمل الإنسان هذه الأمانة ، وتحدّى الموجودات كلها ، التى أشفقت من حملها ، فإنّ من البر بنفسه ، والكرامة لإنسانيته ، أن يرتفع إلى هذا المستوى الكريم ، وأن يرعَى هذه الأمانة حق رعايتها ، وأن يؤديها إلى أهلها ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وذلكَ بالتعرف على الله والإيمان به أولاً ، ثم الاستقامة على طريق الحق والخير على ما شرعه الله ورسمه .

وأداء هذه الأمانة على وجهها ، هو ضمان وثيق لأداء الأمانات كلها ، لأن كل أمانة بعد هذا هى بعضٌ من تلك الأمانة الكبرى ، وأثر من آثارها . . فما بين الناس والناس من أمانات ماديّة ، وعقود ، وعهود . . هو مما يندرج تحت هذه الأمانة وينضوى إليها . .

وقوله تعالى : « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ » هو استنجازٌ لأداء بعض الأمانة التى حملها النـاس . . وهى الحكم بالعدل بين الناس . . لأن العدل صفة من صفات الله ، وفى الإنسان لمحة من هذه الصفة . . وفى خروجه عن العدل ، خيانة للأمانة التى حملها ، وجناية على نفسه ، وردّة لها إلى أسفل سافلين .

وقوله تعالى : « إن الله نعمّا يعظكم به » تحريض قويٌ على امتثال هذا الأمر الكريم ، وتلك الموعظة الحسنة ، لأنها دعوة من الله إلى خير ، ولا يدعو الله إلا إلى الخير ولا يأمر إلا بالخير . .

---

(١) التوراة : سفر التكوين ـ الإصحاح الأول .

« ونِعِمّا » هى فِعلُ مدح ، أصله « نعم » و « ما » التى هى نكرة بمعنى شىء ، ليفيد هذا التنكير التعميمَ والشمول .. فكل ما يعظنا به الله ، ويدعونا إليه هو خير ، وخير مطلق .

وقوله تعالى : « يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ » هو استنجاز آخر لأداء بعض ما يتعلق بالأمانة الكبرى التى حملها الإنسان ، وهو طاعة الله والرسول ، وأولى الأمر .. فالانقياد لله هو المظهر العملىّ الواضح لأداء هذه الأمانة ، وغير هذا الانقياد هو التضييع للأمانة ، والعدوان عليها ..

والانقياد لله يتبعه الانقياد لرسول الله .. إذ كان هو السفير بين الله وبين عباده ، وهو الحامل لكلمة الله إليهم ، والمؤذّن بها فيهم .. فلا انقياد لله لمن لا ينقاد لرسول الله ..

وأولو الأمر .. هم من يلون أمر الإنسان ، ويقومون على رعاية مصالحه ، من آباء ، وقادة ، وحكام .. وغيرهم ، ممن لهم على الإنسان سلطان أدبى أو مادىّ .

والانقياد لأولى الأمر ليس انقياداً مطلقاً ، بل هو انقياد محكوم بحدود العدل ، والخير ، والإحسان ..

ولهذا كانت طاعة الوالدين ــ وهما فى المقام الأول من أولى الأمر ــ قائمة على سَنَن المعروف ، فإن دَعَوا إلى منكر ، فلا طاعة لهما ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى الدُّنْيَا مَعْرُوفاً » (١٥ : لقمان) .

فالولاية إذا لم تكن ولاية راشدة حكيمة ، مستقيمة مع العدل والإحسان

كان لمن تحت ولايتها أن يراجعوها ، وأن ينصحوا لها ، وأن يعملوا على تبصرتها بالطريق القويم ، الذى فيه خير الجماعة كلها . .

فإن كان خلاف بين أولى الأمر ، وبين مَن فى ولايتهم ، ولم يلتقوا عنده على كلمة سواء . . كان الحكم بينهم فى هذا ، كتابُ الله وسنّة رسول الله ، فذلك هو الميزان العدل ، الذى توزن به الأمور ، وما يُقضَى به هنا كان هو الحق والخير ، وكان التزامه أمراً واجباً . . مَن أباه ، وخرج عليه ، كان متعدياً حدود الله ، آثماً ظالماً . . تجرى عليه أحكام الآثمين الظالمين . .

وفى قوله تعالى : « فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ما يشير إلى احتمالات النزاع المتوقعة بين أولى الأمر ومَن فى ولايتهم ، وأن ذلك أمر غير مستبعد ، بين الناس والناس . .

فإذا وقع نزاع فى أمرٍ ما ، كان ردّه إلى حكم الله ورسوله أمراً واجباً على المؤمنين ، وكان الله سبحانه وتعالى هو وليّهم جميعاً ، وكانت شريعته لهم ، هى الدستور الواجب اتباعه ، والاحتكام إليه فيما يقع بينهم من خلاف . . فمن كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ، استقام على شرع الله ، ووقف عند حدوده ، وخضع لحكمه .

وفى قوله تعالى : « ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً » إشارة إلى أن الرجوع عند الخلاف إلى ما قضى به كتاب الله وسنة رسوله ، هو الطريق المأمون ، الذى يُسلم المختلفين إلى يد الوفاق والسلام ، حيث كان احتكامهم إلى أحكم الحاكمين ، الذى يحكم بين عباده بالحق ، فلا مَيْلَ مع هوًى ، ولا محاباة لكبير

أو عظيم ، لأن الخلق خلقه ، والناس عبيده ، لا تفاضلَ بينهم عنده إلا بالتقوى !

الآيات : (٦٠ - ٦١ - ٦٢ - ٦٣)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » (٦٣)

التفسير : ما تكاد الآيات القرآنية الكريمة ترفع يدها الآخذة بمخانق اليهود ، وما يكاد اليهود يلتقطون أنفاسهم اللاهثة من تلك المطاردة العنيفة التى تلهب فيها آيات الكتاب الكريم ظهورهم بسياط ملتهبة من الفضيحة والخزى — ما كان ذلك يحدث حتى تعود إليهم الآيات الكريمة مرة أخرى ، فتعيد معهم سيرتها الأولى ، حتى تتقطع أنفاسهم . . إنها تلقاهم بعذاب أشبه بعذاب الآخرة ، الذى يتبدل فيه المعذّبون جلودهم بجلود غيرها ، كلما نضجت . . كما يقول الله تعالى : « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ » .

وهنا فى هذه الآيات ، يفضح الله اليهود ونفاقهم ، إذ يجيئون إلى النبى فى صورة المؤمنين به ، كما أنهم مؤمنون بما فى أيديهم من الكتب السماوية . . ثم هم مع هذا لا يرضون بالاحتكام إلى القرآن أو التوراة والإنجيل ، وإنما يحتكمون إلى ما عندهم من ضلالات ومفتريات . . « يتحاكمون إلى الطاغوت » وهو مجمع الباطل والضلال . . « وقد أمروا أن يكفروا به » إذ لا يجتمع إيمان بالله وبكتبه ، مع الاطمئنان إلى الطاغوت والولاء له . . !

إن هؤلاء المنافقين إنما يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . . وإنه إذا كانت أفواههم تردد كلمات الإيمان بالله ، والولاء لرسوله ، فإن قلوبهم منطوية على إيمان غير هذا الإيمان ، وسرائرهم منعقدة على ولاء غير هذا الولاء . . إيمان بالجبت ، وولاء للطاغوت : « وإذا قيل لهم تعالَوْا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدّون عنك صدوداً » حيث يتصادم ظاهرهم مع باطنهم ، ويغلب نفاقهم على إيمانهم ، فيفرون من بين يدى هذه الدعوة التى يُدْعَوْن فيها إلى الاحتكام إلى ما أنزل الله ، وإلى ما يقضى به الرسول .

وقوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا » تنديد لهؤلاء المنافقين بما يجرّ عليهم النفاق من شر وشؤم . وأن عاقبة هذا الالتواء الذى تجرى عليه حياتهم إنما هو الخزى والخزلان . . وأنهم حين يحيق بهم مكرهم السيء ،واحتكامهم إلى غير كتاب الله ورسول الله ، يفزعون إلى الرسول بوجوه وَقاح لا حياء فيها ، ويحلفون ـ كذباً ـ ما أردنا فيما فعلنا من الاحتكام إلى غيرك إلاّ معالجة الأمر على الوجه الذى نبغى به حسم الخلاف ، والصلح بين المتخاصمين ! وهذا عذر غير مقبول منهم ، لأنهم لم يأخذوا طريقهم الذى سلكوه عن اجتهادٍ ، وإنما كان عن خلافٍ متعمَّد للرسول ، ومنابذة له .

وقوله تعالى : « أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ » إشارة فاضحة لهؤلاء المنافقين ، ممسكة بهم وهم متلبسون بنفاقهم . . وهذه الإشارة تكاد تكون يداً آخذة بناصية كل منافق من هؤلاء المنافقين ، يجد كل منافق مستها ، ويستشعر اشتمالها على وجوده .

وقوله تعالى : « فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ » دعوة للنبي الكريم بالإغضاء عنهم ، وترك مماراتهم والجدل معهم . . وذلك هو سبيل النبيّ فى موقفه من أهل الجدل والمراء ، فى كل حالٍ يلتقى فيها مع أصحاب النفوس المريضة ، والطبائع السقيمة ، حيث ينصح له الله سبحانه بقوله : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » (١٩٩ : الأعراف) .

وقوله تعالى : « وَعِظْهُم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً » استيفاء لرسالة الرسول ، واستكمال لكمالها .. حيث لا تترك هؤلاء المرضى الذين يأبَوْن أن يستطبّوا لدائهم ، وأن يتناولوا ما يقدم لهم من دواء ، بل إن واجب الرسالة أن تبالغ فى النصح لهم ، وألا يحجزها هذا الضلال الذى يتخبطون فيه عن أن تسمعهم كلمات الله ، وأن تشقّ طريقها إليهم من خلال هذا الضباب الكثيف المنعقد على بصائرهم ، وبهذا تقوم الحجة عليهم ، وتنقطع أسباب معاذيرهم . . « لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ » (٤٢ : الأنفال)

وفى هذا ما فيه من رحمة الله ، وما تحمل رسالة الإسلام من خير عميم للناس ، تسوقه إليهم من كل وجه ، وتلقاهم به فى كل سبيل ، حتى ولو كانوا على طريق الضالين ، المعاندين . . إنها رحمة الله ، تتلمس طريقها إلى كل قلب ، وترسل شعاعها إلى كل إنسان . . « فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » (١٠٤ : الأنعام) .

الآيتان : (٦٤ ـ ٦٥)

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (٦٥)

التفسير : وإذ يُغضى الرسول عن مهاترات المهاترين ، ونفاق المنافقين ، وإذ يمدّ إليهم يده بالهدى والنور ، فإن ذلك هو مَبلغُ جَهْده ، وغاية رسالته ، ولا عليه أن يقيم الكافرون على كفرهم ، ويعيش المنافقون مع نفاقهم : « ما على الرسول إلا البلاغ » (٩٩ : المائدة) .

والله سبحانه وتعالى قد ندب الرسول ليبلغ رسالة ربّه ، فإذا بلّغها فقد أدّى رسالته ، وكان على الناس أن يستمعوا له ، ويؤمنوا بما جاءهم به . . ولكن أكثر الناس لا يلقون هذه الدعوة الراشدة الكريمة إلاّ بالعناد والالتواء . .

وقوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا » التفات إلى هؤلاء المعاندين ، الذين ركبوا مركب الضلال ، ليكون لهم رجعة إلى الله ، ولينتهوا عما هم فيه قبل أن يهلكوا ، إنهم إن راجعوا أنفسهم ، وأقبلوا على الله ، واستغفروه ، واستجابوا لرسوله ، لوجدوا ربّاً غفوراً ، يتقبل توبتهم ، ويقبلهم فيمن قبل من عباده المؤمنين . فما أوسع رحمة الله بعباده ، وما أعظم فضله عليهم . .

يدعوهم إليه وهم شاردون ، ويمدّ إليهم يده وهم معرضون . . « إن الإنسان لظلوم كفار » (٣٤ : إبراهيم)

وقوله تعالى : « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

هو بيان للإيمان الذى يُقبَل من هؤلاء الضالين الذين يريدون العودة إلى الله ، فإنهم لا يُحْسَبُون فى المؤمنين ، حتى ينزلوا على حكم الله ، فيما يكون بينهم من خلاف ، فذلك هو الدستور الذى لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستقيم عليه ، ويتقبل حكمه فيه ، بقلب مطمئن ، ونفسٍ راضية ، ولو كان ذلك مخالفاً لهواه ، مفوّتا لمصلحة خاصة له . . أما أن يأخذ من حكم الله ما يرضيه ، ويدع ما لا يستجيب لهواه ، ويلتقى مع رغباته ، فذلك هو النفاق مع الله ، ومع الرسول !

إن الإيمان هو التسليم المطلق لأحكام الله ، والولاء المطلق لرسوله ، وما يقضى به . . وبغير هذا لا يكون إيمان ، ولا يُعتدّ بدعوى من يدعيه ! وفى إضافة النبى الكريم إلى الله فى قوله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون » تشريف للنبى ، واستدعاء له إلى الحضرة العلية ليشهد هذا القَسَم العظيم ، وليكون شاهداً على هؤلاء الضالين المنافقين . . و « لا » النافية فى قوله تعالى : « لا يؤمنون » هى توكيد للنفى السابق للقسم فى قوله سبحانه : « فلا وربك » . . وقد فصل القسم بينهما .

الآيات : (٦٦ - ٦٧ - ٦٨)

« وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا

لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا (٦٦) وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا » (٦٨)

التفسير: السمة الواضحة فى الشريعة الإسلامية أنها قائمة على السماحة واليسر، ليس فيها ما يُعنت أو يرهق، وليس فيما شرع الله فيها ما يراد به العقاب والتنكيل، كما فعل الله باليهود وغيرهم ممن حادّوا الله ورسله.. كما يقول الله تعالى فيهم: « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » (١٦٠: النساء).. فقد حرّم الله عليهم ما كان قد أحلّ لهم من الطيبات، وابتلاهم بهذا البلاء، ليقيمهم أبداً على خطيئة، حيث لا صبر لهم على الحرمان مما أحلّ الله لعباده من طيبات.. حرمها عليهم.

وأكثر من هذا، فإنهم ـ أى اليهود ـ حين اتخذوا العجل إلهاً من دون الله، بعد أن نجّاهم الله من فرعون، وفرَق بهم البحر، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ـ حين فعلوا ذلك أمرهم الله بأن يقتلوا أنفسهم بأنفسهم، فليس غير إراقة دمائهم شىء يقبله الله منهم، إن أرادوا التكفير عن خطيئتهم، والرجوع إلى ربهم. وفى هذا يقول الله تعالى: « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ » (٥٤: البقرة)

وفى قوله تعالى: « وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ » إشارة إلى ما فى شريعة الإسلام من يُسر، وأن ما شرعه الله فيها، وهو مما تتقبله النفوس، وتتجاوب معه! وأن هذه الشريعة لم تحمل إلى الناس ما حملت الشرائع قبلها من الأحكام الشاقة الرادعة.

فليذكر أتباع هذه الشريعة فضلَ الله عليهم ، إذ عافاهم مما ابتلى به الأمم من قبلهم ، وليستقيموا على شريعة الإسلام ، وليتقبلوا أحكامها برضًى وحمد . .
وأنهم إذا ضَعُفُوا عن حمل هذه التكاليف السمحة السهلة ، وتفلتوا منها ، أو ضاقوا بها — فكيف كان يكون شأنهم لو أن الله أمرهم — فيما أمرهم به — أن يقتلوا أنفسهم أو يخرجوا من ديارهم ؟ إن قلة قليلة منهم هى التى كانت تستجيب لهذا الأمر ، وتتقبله ، أما أكثرهم فلا يمتثلونه ، ولا يأخذون به !

وقد جمع القرآن بين قتل النفس والخروج من الديار ، لأن إلْفَ الإنسان للدار التى يسكنها ، وللوطن الذى يعيش أشبه بإلف الروح للجسد ، والقتل تفرقه بين الروح والجسد ، وكذلك الخروج من الوطن،تفرقة بين الإنسان الساكن الحىّ، الذى يشبه الروح ،وبين الوطن والدار،وهما أشبه بالجسد لهذا الإنسان .

قوله تعالى : « وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا » إلفاتٌ إلى ما تدعوهم إليه الشريعة الإسلامية مما لا مشقة فيه ، ولا عَنَتَ معه ، وأنه إذا ووزن بما حملت بعض الشرائع السابقة من أحكام مرهقة معنتة ، لوُجد رحمة راحمة ، ونعمة سابغة . . .

فلو أن هؤلاء المعاندين الضالين امتثلوا أوامر الله ، وفعلوا ما وُعظوا به لكان فى ذلك خيرهم وسعادتهم ، لأنه يقيم طريقهم على الحق والإحسان ، ويثمر لهم أطيب الثمر فى الدنيا والآخرة جميعاً .

ولو أنهم تقبلوا شرع الله ، واستقاموا عليه ، لوجدوا له رَوْحاً فى أنفسهم، وتجاوباً مع مشاعرهم ، وكانوا كلما مضت الأيام بهم وهم على شريعة الله ازدادوا إيماناً بها ، وتثبتاً من خيرها وفضلها . .

ولو أنهم فعلوا هذا ، وعاشوا به ، واطمأنوا إليه ، لأثابهم الله ثواباً عظيما ،

وأدخلهم مُدْخلاً كريماً ، ولأمسك بهم على طريق الحق ، وعصمهم من الزيغ والضلال . .

الآيتان : (٦٩ – ٧٠)

« وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيماً » (٧٠)

التفسير : تجىء الدعوة إلى طاعة الله ورسوله ، هنا ، بعد هذا العرض الكاشف لضلال الضالّين ، ونفاق المنافقين ، وبعد تلك الموازنة بين الشريعة الإسلامية ويسرها ، وما تحمل إلى الناس من خير ورحمة ، وبين الشرائع السابقة وما كانت تحمل إلى الناس من نكال ، وبلاء ، جزاء كفرهم ومكرهم بآيات الله . .

وفى هذا العرض تصحو المشاعر الطيبة فى الإنسان ، لتلتقى بتلك الدعوة الكريمة ، التى يوجهها الله إلى عباده ، أن يستجيبوا لله وللرسول ، وأن يمتثلوا أوامر الله ، وأن يحتكموا إلى كتاب الله ، وإلى رسول الله.. فإن هم فعلوا ذلك كانوا فى عِداد الصالحين ، الذين رضى الله عنهم ، وأجزل المثوبة لهم . . من النبيّين ، والصدّيقين، والشهداء والصالحين .. ففى هذا المنزل الكريم ينزل ذلك الذى يطيع الله ورسوله ، ومع هؤلاء النفر الكرام من عباد الله المقربين المكرمين ينعم بما ينعمون ، ويسعد بما يسعدون : « وحَسُن أولئك رفيقاً » . فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، الذين رضى عنهم ، وسلك بهم مسالك الهدى والإيمان . وكفى بالله عليما بعباده ، وما هم أهل له ، من جنة

أو نار ، حيث يُوَفّوْنَ أجورهم يوم القيامة : « فمن زُحزِحَ عن النار وأُدخل الجنّة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الاّ متاعُ الغرور » .

الآية : (٧١ - ٧٢ - ٧٣)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » (٧٣)

التفسير : من أقوى دِعامات الإيمان ، الجهادُ فى سبيل الله ، إذ كان أكثرَ التكاليف مشقة على النفس ، وأنهكها للبدن والمال !

ومن هنا كانت منزلة الجهاد فى الإسلام ، ومقام المجاهدين عند الله ، كما كان الجهاد مطلباً أولَ للمؤمنين ، الذين صَدَقوا الله ما عاهدوه عليه .

ومن هنا أيضاً كانت عناية الله بالمجاهدين ، ورسم معالم الطريق لهم ، وحراستهم من أن يغرّر بهم ، أو يُبَيَّتُوا . . فكانت وصاة الله سبحانه وتعالى للمجاهدين دستوراً متكاملاً ، لمعاناة الحرب ، والتهيؤ لها ، والحذر من المكيدة ، والأخذ بها . .

فمن ذلك ، الإعداد للحرب ، والأخذ بوسائل القوة والغلب ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » (٦٠ : الأنفال)

ومن ذلك أيضاً ، الحذر من مباغتة العدوّ عند انتهاز الغفلة من المؤمنين . .

وفى هذا يقول سبحانه : « وَإِذَا كُنتَ فِيهِم فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ . . » (١٠٢ : النساء)

ومن ذلك أيضاً الثبات فى المعركة ، ومساندة المجاهدين بعضهم بعضاً ، حتى لكأنهم جسد واحد ، وكلهم أعضاء فى هذا الجسد ، فلا يطلب أحدهم السلامة لنفسه ، كما لا يطلب السلامة لعضو من أعضائه بتعريض الجسد كله للتلف . . وفى هذا يقول سبحانه : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ » (٤ : الصف) ويقول جل شأنه : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » (١٥ : الأنفال)

وهنا فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » لفتة من لفتات السماء للمجاهدين أن يأخذوا حذرهم من عدوهم ، فيكونوا دائماً على تأهب واستعداد ، فهى دعوة عامة إلى الحيطة والحذر ، واليقظة الدائمة لملاقاة العدوّ بالقوة الرادعة ، واليد المتمكنة الباطشة .

وقوله : « فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » هو مظهر من مظاهر الحذر ، حيث يتخير المجاهدون الأسلوب المناسب للقاء عدوّهم ، فتارة يلقونه جماعة جماعة ، وطوراً يلقونه بقوتهم جميعاً ، حسب تقديرهم لقوة العدوّ ، وللأسلوب الذى تمليه الحكمة ، ويقتضيه النظر . ، ويستدعيه الموقف .

والثُّبات : جمع ثُبَة وهى الجماعة ، والعصبة من الفرسان .

والنَّفْر ، والنَّفرة : التحرك للقتال ، والفراغ له .

وفى قوله تعالى : « وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ » إشارة فاضحة لجبن الجبناء ، ونفاق المنافقين ، من الذين يحشرون أنفسهم فى زمرة المجاهدين ، ويضافون إليهم . .

فهناك أفراد يغلبهم الحرص على أنفسهم ، كما يغلب عليهم الطمع فيما يقع لأيدى المجاهدين من غنائم . .

فإذا جاء النفير إلى الجهاد ، تلبثوا ، وتعللوا بالعلل والمعاذير ، حتى يفوتهم الركب المجاهد ، وهم لايزالون فى موقف من يتأهب للقتال ، ويتجهز للّحاق بالمجاهدين . . ثم لايزالون على هذا الموقف حتى تنتهى المعركة ، وينفضّ سوقها . .

وهنا ينكشف أمر هؤلاء الجبناء ، ويفتضح نفاقهم حتى مع أنفسهم . .

فإذا كانت الهزيمة فى المجاهدين ، أظهروا الفرحة ، وحمِدوا لأنفسهم هذا الموقف المتخاذل الذى كان منهم ، وقال قائلهم : « قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيداً » . . لقد نجا بنفسه ، وسلم من التلف ، ومادرى أنه من الخاسرين ، حيث فاته ثواب الشهداء ، وأجر المجاهدين . .

وإن كانت الغلبة للمجاهدين ، نظر إلى مافى أيديهم من أسلاب ومغانم ، فامتلأت نفسه حسرة وأسىً وندماً ، وتمنّى أن لو كان فى هذا الركب الظافر الغانم ، وقال ونفسه تتقطع كمداً وحسرة : « ياليتنى كنتُ معهم فأفوزَ فوزًا عظيماً » .

وفى قوله تعالى : « كأن لم تكن بينكم وبينه مودّة » تنديد بهذه الخسّة

وذلك الجبن ، الذى قطع أواصر الأخوّة والتناصر بينه وبين أصحابه .. فما على هذا الأسلوب الخسيس تقوم الصحبة بين الجماعة ، التى من شأنها أن تتقاسم السرّاء والضرّاء ، وأن تذوق الحلو والمرّ .. أمّا أن تقف لتتحيّن الفرصة لتشارك فى السّراء ، ولا تشارك فى الضراء ، فذلك هو اللؤم الدنىء الذى تترفع عنه أدنى الحيوانات ، التى إذا هاجمها عدوّ ، لقيته يداً واحدة ، وقوة مجتمعة !

الآية : (٧٤)

« فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » (٧٤)

التفسير : ذلك هو القتال فى سبيل الله ، لا يخفّ إليه ، ولا يندرج به فى جماعة المجاهدين ، إلا من وطّن نفسه على احتمال تبِعاته ، وقدّر الموت قبل أن يقدر الحياة ، وشَرَى الحياة الدنيا بالآخرة .. فذلك هو الذى يحتسب له أجر المجاهدين عند الله ، إن سلم ، أو عطب ، لأنه بايع الله ، ووفّى بما عاهد الله عليه ووقع أجره على الله ، وهو نيّة الجهاد ، وعلى طريق المجاهدين ، وإن لم يلتحم فى معركة ، أو يشارك فى قتال . . إن ذلك المجاهد هو الذى يُدعى للجهاد ، ويُقبل فى صفوف المجاهدين.. أما أولئك المترددون ، الذين يأخذون الجانب الهيّن اللّين من كل أمر ، فلا مكان لهم فى هذا المقام الكريم ، الذى هو مقام الرجال ! !

قوله تعالى : « وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » بيان كاشف لموقف المجاهد ، ومكانته عند الله . فهو فى إحدى منزلتين : إما أن يُقتل ، فيحسب فى عداد الشهداء ، وإما أن يَغلب

وينتصر ، ويغنم .. وهو فى كلا الأمرين محمود عند الله ، له أجر الشهداء ومنزلة المستشهدين . .

وفى قوله تعالى : « فيُقتلْ أو يغلب » إشارة إلى أن المجاهدين فى سبيل لهم العاقبة والنصر أبداً .. وأن الذين استُشهدوا قد كتبوا بدمائهم الزكية الطاهرة وثيقة النصر للجبهة المقاتلين فيها .. فالمجاهدون إما شهداء ، وإما منتصرون . .

ومعنى هذا ألا يتحول المجاهدون عن الجهاد ، وألا يتركوا المعركة إلاّ ومعهم النصر الذى وعدهم الله ، وجعله جزاء معجلاً لهم ..

ولهذا جاءت القسمة هكذا : « فيقتلْ أو يغلبْ » ولم تجىء كما يقضى به ظاهر الأمر .. « فيُقْتَل » أو يسلم !

الآية : (٧٥)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا » (٧٥)

التفسير : وماذا يقعد بالمؤمنين عن الجهاد ، ويصرف وجوههم عنه ، وبين أيديهم أسبابه قائمة ، ودواعيه مجتمعة ؟

فهؤلاء البغاة الطغاة يتسلطون على المستضعفين ، من الرجال والنساء والولدان ، الذين لا يستطيعون دفع العدوان ، ولا يقدرون على الإفلات من هذا العذاب المسلط عليهم ، وليس لهم إلا الضراعة إلى الله والتّجأ إليه أن يخلصهم من هذا البلاء ، وأن يسوق إليهم من رحمته جُندًا من جنده ، وعباداً من عباده ، ينتصرون لهم ، ويدفعون يد العدوان عنهم !

إن المروءة ـ قبل الدّين — تقضى بأن يخفّ أهل النجدة والنخوة ، إلى استنقاذ هؤلاء المستضعفين ، الذين تسلطت عليهم الذئاب ، وعلقت بهم شباك الضّالين الظالمين . .

فكيف إذا كان هؤلاء الضعاف المستضعفون ، إنما يلقون مايلقون من عَنَت وإرهاق ، لأنهم آمنوا بالله ، واستجابوا لرسول الله ؟

إن كل مسلم مطالب — ديانة ومروءة — أن يجاهد لخلاصهم ، وأن يستشهد فى سبيل الحق الذى استمسكوا به ، وأُوذُوا بسببه ، فهم — والأمر كذلك — فى الجبهة المقاتلة مع المؤمنين ، ولِزامٌ على كل مؤمن أن يدفع الضرّ عنهم ، وأن يردّ يد البغى المتسلطة عليهم ..

وفى قوله تعالى : « واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً » إشارة مضيئة ، تكشف عن جماعة المجاهدين الذين ندبهم الله لاستنقاذ هؤلاء المستضعفين .. إن هؤلاء المجاهدين هم جند الله الذين بعثهم من لدنه ، ليكونوا أولياء ونصراء لهؤلاء الضعفاء.. إنهم استجابة لدعوة هؤلاء المظلومين، حين وجهوا وجوههم إلى الله ضارعين قائلين: « ربنا أَخْرِجْنَا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًّا واجعل لنا من لدنك نصيراً » .

الآية : (٧٦)

« ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » (٧٦)

التفسير : وإذ ندب الله سبحانه من عباده من يتولّون الدفاع عن المستضعفين، ويجاهدون فى سبيل الله من أجل خلاصهم من يد البغى والعدوان ، وإذ استجاب

المجاهدون لما ندبهم الله له — فإنهم بهذا قد حققوا معنى الإيمان الذى رضوا به ، واتخذوه ديناً .. فالمؤمن — إن صحّ إيمانه — كان دائماً أبداً فى جبهة الحق ، ينتصر له ، ويقاتل فى سبيله : « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله » .. لأنهم أعطوا ولاءهم كلّه لله .

وليس كذلك سبيل الكافرين .. إنهم أولياء الباطل ، وأتباع الضلال .. ولذلك فهم يقاتلون — حين يقاتلون — لحساب الباطل ، وتحت راية الطاغوت . .

والطاغوت .. هو مجمع كل شر ، ومُلتقَى كل فساد .. إنه الشيطان ، كما فسّرته الآية فى قوله تعالى : « فقاتلوا أولياء الشيطان » ..

وفى قوله تعالى : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً » تثبيت لأقدام المجاهدين فى سبيل الله ، وتطمين لقلوبهم ، وتلويح لهم ببشائر النصر على عدوّهم .. لأنهم على الحق ، وفى سبيل الحق يقاتلون ، والعدو على طريق الباطل ، وتحت راية الباطل يقاتل .. والله سبحانه هو الحقُّ ، وهو مع الحق ، وجند الحق ، فالنصر لا يتخلف أبداً عمن يقاتلون فى سبيل الله .. « ألا إن حِزْبَ الله هم الغالبون » (٢٢ : الحديد) .

الآية : (٧٧)

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً » (٧٧)

التفسير : قبل أن يكتب الله القتال على المؤمنين ـ جهاداً فى سبيل الله ، وحمايةً لدعوة الحق التى فى أيديهم ـ كانت تكاليف الإسلام محدودة ، ليس فيها ما يشق على النفس ، إذ لم تكن دعوة الله لهم تتجاوز اجتناب المحرمات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، كما يقول تعالى : « كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » . .

وإنه حين كتب الله القتال على المؤمنين ، استقبله المؤمنون الذين صَدَق إيمانهم بصدور منشرحة ، ونفوس راضية ، وعدّوا ذلك نعمة من نعم الله بهم ، وفضلاً من أفضاله عليهم ، إذ أتاح لهم فرصةً مسعدة للعمل على مرضاته ، والفوز بمنزلة المجاهدين ، والشهداء عنده . .

أما الذين فى قلوبهم ضعف أو مرض . . فقد فزِعوا لهذا الأمر ، وطلع عليهم من جهته شبح الموت يمدّ يديه الرهيبتين لانتزاع أرواحهم ! إن حرصهم على الحياة ، وحبَّهم للدنيا ، قد مثّلَ لهم الموت شيئاً مَهُولا فظيعاً ، لأنه يقطعهم عن الحياة التى تعلّقوا بها ، وسكروا من خمرها . . ورأوا فيما فرض الله عليهم من قتال أمراً لا يُطاق ، فقالوا ـ وكأنهم ينكرون على الله أن يكلفهم ما كلفهم به ـ : « رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ؟ » .

إنهم يهربون من حمل تلك المسئولية ، ويدافعون الأيام بالتسويف . . إنهم يتمنّون على الله أن يؤخر هذا الأمر ـ أمر القتال ـ إلى غد . . وذلك الغد لن يلتقوا به أبداً . . إنه كلما جاء حسبوه يومهم ، وانتظروا ما بعده غداً لهم . . وهكذا . . لا يلتقون بالغد أبداً ، ولهذا جاء قوله تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا » ناعيًا عليهم هذا التعلّق الشديد بالحياة الدنيا ، والحرصَ القوىّ على متاعها . . ولو أنهم

عقلوا لعرفوا أن متاع هذه الحياة الدنيا قليل، وإلى زوال، وأن الآخرة خير وأبقى، فمن ربح الدنيا وخسر الآخرة فذلك هو الخسران المبين، ومن خسر الدنيا وربح الآخرة، فذلك هو الفوز العظيم.

وفي قوله تعالى « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » تعجب واستنكار معًا، من هؤلاء الذين وقفوا هذا الموقف المتخاذل من الدعوة إلى القتال.. إنهم - وتلك حالهم - مثار للعجب والتعجب، وفيهم عبرة لمن يعتبر!

وقد ذكر الله سبحانه هذا الموقف المتخاذل، من بعض النفوس المريضة، وشنّع عليه، وأخذ باللائمة أهله.. فقال تعالى: « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » (٢٠: محمد).

الآيات: (٧٨ - ٧٩ - ٨٠)

« أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » (٧٩) مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا » (٨٠)

التفسير : هؤلاء الذين يفزعون من الموت ، ويخشون التعرض له فى مواقف الجهاد فى سبيل الله ـ ماذا يعصمهم من الموت ؟ وإلى أين تمضى بهم الحياة ؟ أليس الموت هو خاتمة المطاف لكل حىّ وإن طال أجله وامتدّ عمره ؟ إذن فالموت الذى يهرب منهم هؤلاء الجبناء هو ملاقيهم يوماً ، أينما كانوا . . ولو كانوا فى بروج مشيدة . . فهم إن لم يموتوا بضربة سيف أو طعنة رمح فى ميدان القتال ، ماتوا حتف أنوفهم وهم فى بيوتهم وبين أهليهم . . فإن فرّوا من الموت ، فإنما يفرّون إلى الموت ! !

وقوله تعالى : « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ » هو تنديد لهؤلاء الجبناء الفارّينَ من وجه الموت ، وفضح لموقفهم المنحرف من الرسول . « و إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله » . . وتلك قولة حق « وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك » وتلك رمية باطل وضلال ، فما فيما جاءهم به الرسول ودعاهم إليه ، إلاّ الخير الخالص ، لو أنهم استقاموا على الطريق الذى أقامهم عليه .

وقوله تعالى : « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » هو الردّ المفحم على تلك التهمة الظالمة التى توجّه بها هؤلاء السفهاء إلى النبىّ . . إنه لا يملك شيئاً ، الأمر كله بيد الله . . فما أصابهم من خير أو شرّ فذلك بقدر مقدور قدّره الله ، وأجراه على عباده . . وما كان لأحد أن يغيّر أو يبدل شيئاً مما قضى الله به !

وقوله تعالى : « فَمَا لِهَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً » تسفيه لتلك العقول الضالة التى يعيش بها هؤلاء المنحرفون الضالون . . إنهم لا يكادون يفقهون حديثاً . . ولو كان لهم شىء من فقه الحديث ، لكان لهم فيما جاءهم به النبى من كلمات الله ، تبصرةٌ وهدى ، ولكن أنّى للعُمْى أن يبصروا ، وللصم أن يسمعوا ؟ « إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

وقوله تعالى : « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ » هو استكمال للصورة التى يتحدّد بها موقف الإنسان من الكسب ، ومدى مسئوليته فيما يعمل من خير أو شر ، ومن حَسَن أو قبيح . .

فقد بيّن الله فى قوله سبحانه : « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » أن كل شىء يقع فى هذا الوجود هو بتقديره ، وعن علمه ، وبإرادته . . « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » (٥٩ : الأنعام) .

وهذا ــ على إطلاقه ــ يعنى أن الإنسان لا كسب له ، وإنما هو وما يقع منه من أعمال ، ليس إلا مَظهراً لإرادة الله ، وإعلاناً لما قضت به مشيئته !

وهذا يعنى أيضاً أن الإنسان غير مسئول عن غيّه أو رشاده ، وكفره ، أو إيمانه ، إذ لا إرادة له ، مع تلك الإرادة الإلهية الغالبة ، ولا مشيئة مع تلك المشيئة العلوية القاهرة !

ولكن واقع الإنسان ينبىء عن أنه ذو إرادة ، وذو مشيئة ، وأنه يريد ، ويشاء . . وأنه يقف بين طريقى الخير والشر ، فيريد هذا الطريق أو ذاك ، حسب تقديره ، ويرتضى الكفر أو الإيمان ، حسب مشيئته . . ليس هناك قوة ظاهرة تحمله على أى الأمرين ، وإنما ذلك إلى إرادته ومشيئته .

وإذن فهناك معادلتان يُراد التوفيق بينهما :

معادلة تقول : الخير والشر جميعاً من عند الله . . « قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ » . . والمعادلة الأخرى تقول : الخير من عند الله ، والشر من عمل الإنسان . . « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك »

والحق أنه مع النظر والتأمل نجد أنه ليس هناك معادلتان ، بل هما معادلة

واحدة ، وأن قوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » هى نفس ما تضمنه قوله تعالى : « قلْ كلٌّ من الله » وأنه إذا كان الله تعالى قد أضاف الخير إلى نفسه ، وأضاف الشرّ إلى الإنسان ، فما ذلك إلا إعمالاً لإرادة الإنسان ، وإيقاظاً لوجوده ، وإلا فإن الأمر كله لله ، وليس للإنسان منه شىء ، وأن على الإنسان فى مواجهته للحياة ، أن يستقلّ بإرادته ، وألا يضيفها إلى الله .. فإن حصّل بتلك الإرادة خيراً حمد الله عليه ، وشكر له أن وفقه وهداه ، وإن حصّلَ شرًّا نظر إلى نفسه ، فألقى باللائمة عليها ، وصحح موقفه الذى أورده موارد الشر .. وذلك على الأقل — وإن لم يزحزح الإنسان عما أراد الله له — يجعل الشرّ أمراً بغيضاً حتى عند أهله الذين ساقهم قَدرهُم إليه .. وذلك أضعف الإيمان فى مواجهة الشرّ ..

وبهذا يستقيم للإنسانية فى مجموعها رأى فى الخير وفى الشر ، فتحتفى بالخير وترضى عنه ، وتبغض الشر وتنفر منه .. وبهذا يتوازن ميزان الحياة .. فيكون فيها الخير والشر ، والأخيار والأشرار .. الأمر الذى لا تكون الحياة حياة إلا بهما ، ولا يكون الناس ناساً إلاّ معهما جميعاً !!

وإذا استقام فى الإنسانية أن الخير طيّب محبوب ، وأن الشرّ خبيث مكره ، فإنه مطلوب من الإنسان — كل إنسان — أن يسعى جاهداً إلى تحصيل الخير والاستزادة منه ، وأن ينفر جاهداً من الشرّ والتخفف منه .. وألا يستولى عليه فى حاليه هذين أى شعور بأنه مهما جَدَّ وجهد فلن يبلغ من جدّه واجتهاده إلا ما قدّره الله له .. ، وكتبه عليه .. فذلك — وإن يكن الحقّ كلّ الحق — أمر غير مكشوف له ، وأن عليه أن يعمل للخير ، وأن يجدّ فى تحصيله ، وأن يدع المصير الذى هو صائر إليه ، لتقدير الله وحكمه .. « ألا إلى الله تصير الأمور ».

وقوله تعالى : « وأرسلناك للناس رسولاً » تحديد لمهمة الرسول ، وأنه

ليس مسئولاً عن ضلال الضالّين ، وعناد المعاندين ، إنْ عليه إلا البلاغ . . « وكفى بالله شهيداً » يشهد بما كان من الرسول من تبليغ رسالة ربه ، فمن قَبِلها ، فقد نجا وسعد ، ومن أعرض عنها ، فقد هلك وشقى . .

إن دعوة الرسول ليست لحسابه ، وإنما هى لله ، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى ، فما على الرسول شيء من تولّيه ، وإنما حسابه على الله !

الآيات : (٨١ ـ ٨٣)

« وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٨١) أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيرًا (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً » (٨٣)

التفسير : هؤلاء الذين يقفون هذا الموقف المتخاذل ، من التكاليف التى تقتضيهم بذلاً وتضحية ، هم منافقون قولاً ، كما هم منافقون عملاً .. ذلك أنهم إذا كانوا يُظهرون فى وقت النفير للجهاد ، أنهم ماضون مع المجاهدين ، وأنهم يهيئون أنفسهم للجهاد ويُعِدّون العدة له ، ثم ينكشف الأمر عن أنهم كانوا يدافعون الأيام بالتسويف والماطلة ، حتى تنتهى المعركة ، ويعود المجاهدون ! ـ فإذا كان ذلك شأنهم فى العمل ، فكذلك كان أمرهم فى القول . . إذا سمعوا دعوةً إلى الجهاد قالوا : « طاعةٌ » ، وأظهروا للرسول الاستجابة

والامتثال ، لما يدعوا إليه .. فإذا زايلوا مجلس الرسول ، وخلَوْا إلى أنفسهم « بيّتَ طائفة منهم غير الذى تقول » وأنكروا على أنفسهم هذا القول الذى قالوه من قبل ، وأقاموا أمرهم على خلافه . . فلا استجابة ولا طاعة .. ولكن عصيان ومخالفة . .

وفى قوله تعالى : « ويقولون طاعة » ازدراء لهؤلاء القوم ، وتحقير لهم ، وذلك بالحديث عنهم بضمير الغائب ، لأنهم ليسوا أهلاً لأن يَشْرُفوا بخطاب ربّ العالمين .. ثم كان الحديث عنهم بالضمير المبهم ، دون ذكرهم والكشف عن ذواتهم ، امتهانا لهم ، واستخفافا بشأنهم ، حتى لكأنهم أهون من أن يُتعرف عليهم ، وأضأل من أن تظهر لهم ذاتية مميزة لهم ..

وفى قوله تعالى : « فإذا برزوا من عندك » إشارة أخرى إلى ضمور ذواتهم ، وضئولة شأنهم .. وأنهم فى مجلس الرسول ، وبين أهل هذا المجلس ، شخوص ضامرة ، وشخصيات باهتة ، يندسون بين الناس ، فى حذر ، وفى خِفية ، حتى لا تأخذهم العيون ، ولا تفضح مستورهم النظرات . . هكذا شأن المنافقين ، يعيشون دائما وراء ستار من الحذر ، والتلصص ، ولا يغشون المجالس إلاّ فى حرص شديد على ألا تأخذهم العيون ، ولا ترتفع إليهم الأبصار ..

وفى التعبير بقوله تعالى : « برزوا من عندك » تصوير معجز لحال هؤلاء المنافقين ، الذين كانوا فى مجلس الرسول أشباحا لا تكاد تُرى ، حتى إذا خرجوا من مجلس الرسول ، تطاولت أعناقهم ، وشمخَت أنوفهم ، وانتفضت أجسامهم ، فإذا هم أشبه بالطواويس خيلاء وإعجابا ! يستعرضون الناس ، ويعرضون على أنظارهم هذا الوجه الجديد منهم ، وكأنهم بذلك يستوفون

حظهم من بروز الشخصية ، ذلك الحظ الذى فاتهم ، وهم يلبسون الوجه الآخر ، وجه الضمور والانزواء ، الذى يعيشون به أكثرَ مما يعيشون ..

وقوله تعالى : « والله يكتب ما يبيتون » تهديد لجماعة المنافقين ، ووعيد لهم بالحساب العسير والعذاب الأليم ، إذ سجل الله عليهم كل ما عملوا من سوء ، وهو سبحانه الذى سيتولى حسابهم ، ومجازاتهم ..

قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » إلفات لجماعات المنافقين والضالين إلى مافاتهم من خير عظيم ، حين لم يقفوا عند آيات الله ، ولم يتدبّروها ، ويصححوا موقفهم منها ، وذلك بالنظر فيها ، نظرا يرتاد مواقع الخير ، وينشد مطالع الهدى ..

إنهم لوفعلوا ذلك ، وأخلوْا أنفسهم من تلك المشاعر الخبيثة المستولية عليهم ، لرأوا وجه الحق سافرا فى آيات الله وكلماته ، ولأخذوا طريقهم إلى الله مستقيما ، فآمنوا بالله ، وبرسوله ، وبهذا الكتاب الذى أنزل على رسوله ..

فإن نظرة مخلصة إلى كتاب الله ، تصل العقول به ، وتفتح القلوب له ، لما فى كل آية وكل كلمة منه ، من أمارات مشرقة ، تحدّث بأن هذا الكلام هو كلام الله ، وأن هذا الكتاب هو كتاب الله ! ! وأقرب تلك الأمارات وأظهرها أن هذا الكتاب قائم على أسلوب واحد ، ومنهج واحد ، ومستوًى واحد .. وذلك أنه على امتداده ، وسَعَته ، وتشعّب الموضوعات التى تناولها ، والقضايا التى عرضها ، والأحكام التى أصدرها ــ هو فى ذلك كلّه على درجة واحدة من البلاغة والبيان ، وعلى كلمة سواء فيما يأمر به وينهى عنه .. ولو كان هذا القرآن من عند غير الله ، لاختلف أسلوبه ، وتناقضت أحكامه ، وتضاربت قضاياه .. شأن كل عمل بَشَرىّ ، لايسلم أبدًا من مواطن القوة والضعف فيه ..

قوله تعالى : « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ »

هو جانب من جوانب الصورة التى عرض الله فيها هؤلاء المنافقين ، وإنهم لأصحاب ثرثرة ولغو ، كلما وقعت لآذانهم كلمة طاروا بها ، وألقوا بها إلى كل أذن ، دون أن يتبينوا مايسمعون ، أو يعرفوا وجهه .. إن اللغو وتقليب وجوه الكلام هو تجارتهم الرابحة ، وبضاعتهم الرائجة .. لايتكلفون له جهدا ، ولا يخشون من ورائه سوءا .. فما هو إلا أحاديثُ تُروى ، وأخبار تتناقل ، لايدرى أحد مصدرها ، ولا يعرف من هو صاحبها .. وعلى هذا الغذاء الخبيث يعيش المنافقون ، ومن هذا الجوّ المغبّر يتنفسون . .

فهم يثرثرون بكل مايسمعون من خير أو شر : « إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » أى نطقوا به ، وصحبوه معهم إلى كل مكان .. فليس يرضيهم أن يذيعوا هذه الأحاديث فى الناس ، وإنما هم وراء هذه الأحاديث المذاعة يدفعونها بين أيديهم ، ويشهدون آثارها فى الناس . . وهذا مايشير إليه النظم فى قوله تعالى « أذاعوا به » وهو غير مايراد بالفعل « أذاعوه » الذى يضيف إليهم إذاعة الأحاديث وتنقلها بعد أن يدفعوا بها الدفعة الأولى .. أما قوله تعالى : « أذاعوا به » فإنه يجعلهم يدورون مع هذه الأحاديث حيثما دارت .

وقوله تعالى : « ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » هو توبيخ لهم على هذه الخفّة وذلك الطيش اللذين يحملانهم على هذا الجرى اللاهث بكل كلمة يسمعونها ، أو وراء كل كلمة أو شائعة ، تُقال هنا أو هناك .. إنهم لو عقلوا ، أو كانوا على بصيرة من أمرهم ، لراجعوا أنفسهم عند كل خبر يُلقى إليهم ، وعند كل شائعة تَرِد على أسماعهم ، فإن التبس عليهم شىء ، أو اختلط عليهم أمر ، ردّوه إلى الرسول، فكشف لهم وجه الحق منه ، ووقف بهم على موارده الصحيحة ، وأراهم الطريق القويم الذى يلقوْنه فيه .. فإن لم يكن لهم إلى الرسول سبيل ، كان فى أولى الأمر منهم ، وفى

القادة والراشدين بينهم ، من يضبط موارد هذه الأخبار ومصادرها ، ويعزل غثّها عن ثمينها ، وباطلها عن حقها — إنهم لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم وأقوم ، ولأراحوا أنفسهم وأراحوا الناس من هذا الهرْج والمرْج ، الذى يثيرونه فيهم بهذه الأخبار المشوشة المضطربة !

وهذا لاشك دستور قويم لاستقرار المجتمع ، وضمان أمنه وسلامته ، من كلمات السوء التى تندس إليه من أفواهٍ ثرثارة ، ، ترمى بالكلام بلا حساب ولا تقدير ..

إن الكلمة ليست مجرد لفظة يلفظها الإنسان من فمه ، ولكنها أشباح متنقلة فى الناس .. تتجسد ، وتتشكل ، وتظهر فى صور مختلفة ، من تصورات الناس وأعمالهم ، وخاصة فى أوقات الشدائد والأزمات التى تمر بالمجتمع ، حيث الهيَاج والقلق والاضطراب ، الذى يغشى الناس ، ويطلع عليهم فى يقظتهم ونومهم على السواء .

وقوله تعالى : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً » تنبيه للمسلمين إلى الخطر الذى يتهددهم من وراء هذه الوسوسات التى تندسّ إليهم ، من مفتريات الأحاديث وأباطيلها ، وأن ذلك جميعه من واردات الشيطان ، الذى يسوّل لتلك النفوس المريضة باللغو ، ويغريها بالثرثرة ، ويركب بها مركب السوء ، فتذيع فى الناس ، البلبلة والاضطراب ، وتفتح لهم أبواب الفتنة والضلال . .

ولولا فضل الله وما يحرس به المؤمنين من عظاته ، وتنبيهاته لهم ، وتحذيرهم من المزالق والعثرات ، لضلّوا وغوَوا ، إلا قليلا منهم ، ممن استعصم بعقله ، واحتكم إلى رأيه ، واستصفى لنفسه المورد الطيب الذى يرده . .

فهؤلاء القليلون هم الأمناء على أنفسهم ، وهم أوتاد المجتمع ، والحراس على فطرة الإنسان وكرامته . .

الآية : (٨٤)

« فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا » (٨٤)

التفسير : وإنه ليس بعد هذا التنديد بالمنافقين ، والمرجفين بالناس ، وتحذير المؤمنين منهم ، وإجلاء هذا الدخان المنعقد فى سماء المجتمع من شائعات السوء — إلا أن يأخذ النبي طريقه الذى هو سائر فيه ، بعد تلك الوقفة ، التى نظّم فيها صفوفه ، وعزل عنها هذا المرض المندسّ بينها ، من المنافقين والمثبطين . .

« فقاتلْ فى سبيل الله لا تكلفُ إلاَّ نفسَك » فهذا هو طريق النبيّ . . القتال فى سبيل الله ، والاتجاه إليه بكل قوته ، والعمل فيه جَهْدَ طاقته . . ولا عليه أن يتخاذل المتخاذلون ، ويُبطِّىء المبطّئون . . إنه لا يكلّف إلا ما يملك، وهو لا يملك إلاّ نفسَه .

وقوله تعالى : « وحرّض المؤمنين على القتال » هو استدعاء سماوىّ للمؤمنين الذين صَدَقُوا إيمانهم أن يكونوا مع النبيّ ، وأن يأخذوا طريقه الذى أخذه . . وفى هذا مافيه من تكريم لهم ، ورفع لقدرهم .

وقوله سبحانه : « عسَى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا » هو رجاء يتعلق به النبيّ والمجاهدون معه . . فالنبيّ والمؤمنون الذين يجاهدون معه

على رجاء من عون الله لهم ، ونصرهم على أعدائهم . . وأن هؤلاء الأعداء إن كانوا أولى قوة وأولى بأس شديد ، فالنبىّ والمسلمون يشدّون رجاءهم إلى قوة فوق هذه القوة ، وإلى بأس أعظم من هذا الباس . . قوة الله ، وبأس الله . . « والله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً » .

الآية : (٨٥)

« مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً » (٨٥)

التفسير : فى الآيات السابقة كان الحديث عن الجماعة الإسلامية ، وعن أعراض النفاق التى تظهر فى بعضٍ منها ، ممن دخلوا فى الإسلام ، واتخذوه جُنَّةً لهم ، وقد كشف الله مواقف هؤلاء المنافقين ، ورصد حركاتهم ، وأرى النبىّ والمسلمين ما كانوا يخفونه فيما بينهم .

وفى هذه الآية يلتقى المؤمنون والمنافقون فى موقف الحساب ، حيث يواجه بعضهم بعضاً ، وحيث يذهب كلٌ منهم بما استحق من جزاء .

وقوله تعالى : « من يشفَعْ شفاعةً حسنةً يكن له نصيبٌ منها » هو عرض لفريق المؤمنين ، الذين سيسوّى حسابهم على حسب ما عملوا من خير ، وما قدموا من إحسانٍ .

والتعبير عن العمل « بالشفاعة » هنا للدلالة على أنه عمل من نوع خاص ، عمل يتصل بالإنسان وبما يقع بينه وبين غيره من الناس ، من تصرفات ، حسنة أو سيئة . . فلا يدخل فى هذا العمل ما كان خاصاً بذات الإنسان ، وما يأخذ به

نفسه من طاعات وعبادات ، مُحسناً أو مُقصراً ، أو بما بينه وبين الله من مُعتَقَد ، صالحاً أو فاسداً . .

فالشفع فى اللغة : الزوج من كل شىء ، وفى كل شىء . . وهو يقابل الوِتر الذى هو الفرد . .

والشفاعة الحسنة ، هى الإحسان إلى الغير ، بالقول أو بالعمل . .

والشفاعة السيئة : هى الإساءة إلى الغير بالقول أو بالعمل . .

وصاحب الشفاعة الحسنة له « نصيب منها » أى أنه حين يَبذل من نفسه للغير ، ما يبذل من خير وإحسان ، فإنه له نصيبا من هذا الخير وذلك الإحسان . . فهو وإن يكن ما بذله قد خرج من سلطانه ، وصار إلى غيره ، فإنه سيعود إليه شىء منه ، بصورة ما ، من صور الخير والإحسان .. فقد يلقاه صاحبه الذى أحسن إليه بإحسانٍ كإحسانه ، وإن اختلف شكلا وقدْراً . . فإن حُرم المحسن العِوض ممن أحسن إليه لم يحرم لذّة الإحسان ، التى تُشيع فى نفسه الرضا ، وفى قلبه الفرحة . . فإن حرم هذه اللذة — وهيهات — فإنه لن يحرم أبداً ثواب الله الذى أعدّه للمحسنين ، إذ يقول سبحانه : « وَلَا نضيعُ أجر المحسنين » (٥٦ : يوسف) .

من يفعل الخير لا يَعدمْ جَوَازِيَهُ لا يذْهبُ العُرْفُ بين اللهِ والنّاس

كذلك صاحب الشفاعة السيئة ، له « كِفلٌ مِنها » أى نصيب يعود إليه مما عمل من سوء . . يجىء إليه ممن أساء إليهم ، أو من نَخْسةِ ضميره ، فى حال من أحوال صحوه ويقظته . . فإن لم يكن لضميره صحوة أو يقظة — وهيهات — فهناك القصاص العادل ، يأخذه الله به ، يوم الفصل بين العباد . .

وقد فرّق القرآن بين عائد الشفاعة الحسنة ، وعائد الشفاعة السيئة . . فسمّى

عائد الشفاعة الحسنة « نصيباً » وسمى عائد الشفاعة السيئة « كِفلا » .

فما السرّ فى هذا ؟

نقول — والله أعلم — إن عائد الشفاعة الحسنة هو خير وبركة ، يصيب صاحبها ، وأنه إذ يقدّمها إحسانا وبرًّا ، فإن له من هذا البرّ والإحسان نصيباً .

وكذلك صاحب الشفاعة السيئة ، إنه إذ يقدم الشرّ والسوء ، سيجنى من ثمر ما زرع شرًّا وسوءا !

والتعبير عن عائد الخير بالنصيب هو التعبير المطلوب لغةً وواقعاً ، لأن النصيب هنا ، فى اللغة : الحظ والقدْر المتاح للإنسان من أى شىء ، خيراً ، كان أو شراً .

وقد عَدَل القرآن عن استعمال كلمة « النصيب » فى عائد الشفاعة السيئة هنا ، إلى كلمة « كِفل » التى تأتى بمعنى الضامن ، والكفيل ، الذى يضمن المَدِين الغارم ، ويكفل الوفاء بالدَّين ، إذا عجز المدين عنه .

فالشفاعة السيئة دين ثقيل ، يستنفد كل مايملك صاحب هذه الشفاعة من خير ، وهو والحال كذلك فى حاجة إلى ضامن أو كفيل .. ولا ضامن أو كفيل يجرؤ على كفالة هذا المفلس وضمانته . . وإذ كان لابد من ضامن أو كفيل ، فكافله وضامنه ، هو عائد هذا الشر الذى غرس . فإذا طولب بقضاء دينه وهو مفلس عاجز عن قضائه ، أُخذ هذا العائد وفاء لبعض ماعليه ، وإذا هو شر إلى شرٍّ ، وبلاء إلى بلاء ! !

الآية : (٨٦ ـ ٨٧)

« وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦) اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً » (٨٧)

التفسير : التحيّة التى يتبادلها الناس فيما بينهم ، هى مفتاح يفتح مغالق القلوب فيهم ، وأشعة دافئة تذيب الثلج وتدفع الضباب الذى بينهم . . ولهذا كانت عُرْفاً ملتزَماً فى مختلف الأمم ، والشعوب ، على مدى الأزمان . .

وهى فى الإسلام ، خير يتهاداه الناس ، وبرّ يلقى به بعضهم بعضاً . . مَن قبض يده عن بذله ، أو كفّها عن أخذه ، فقد فاته حظه من هذا الخير ، وحُرم نصيبه من هذا البرّ . .

وقد أخذ الإسلام المسلمين بهذا الأدب الإنسانى ، وجعله شعيرة من شعائر الإسلام ، وأوجب على من بَدَأه أحد بتحية ، أن يتقبلها بقبول حسن ، وأن يردّها بتحية مثلها ، أو خير منها . . إذ كان الذى بدأ بالتحية ، قد بدأ بفضل وإحسان ، ورد التحية بمثلها قضاء لقرض حسنٍ ، فلا حمد لمن أدّى ما اقترض . . والحق يقتضيه أن يشكر لمقرضه ، ويثنى عليه . . ومن حق البادئ بالتحية أن يُردّ عليه بأحسن مما بدأ به . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسانُ » . . ومقابلة الإحسان بالإحسان ليست جزاء له ، وإنما هى وفاء له ، والجزاء يكون بمقابلة الإحسان بما هو أحسن من هذا الإحسان . .

والتحية الطيبة بين المسلمين هى من الشفاعة الحسنة التى أشارت إليها الآية السابقة . . وهى وجه من وجوه تلك الشفاعة . .

وتحية الإسلام ، هى كلمة : « السّلام » مشتقةً من الإسلام ، يَلْقَى بها

الإنسان أخاه قائلا : « السلام عليكم » فيلقاه أخوه بها قائلا : « وعليكم السلام ورحمة الله » . . وفى هذا الجوّ الذى تتردد فى جنباته كلمات السلام ، تفيء النفوس إلى السّلم ، وتهفو إلى العافية ، وتستروح روح المودة والإخاء . .

وإذ يأخذ المسلمون أنفسهم بهذا الأدب الإسلامى ، وإذ تشيع بينهم هذه الكلمة الطيبة الرائعة ، وإذ ينطق بها من نطق عن وعى ويقظة ، وإذ يتلقاها من تلقّى عن إدراك وفهم ، فإنك لن تجد فى مجتمع يتخذ هذه الكلمة شعاراً ودِثاراً ـ قلباً يحمل بِغضةً ، أو صدراً ينطوى على عداوة ، وإنه لاشئ إلا المودة والحب والسلام . .

وإذا كان الإسلام قد آثر كلمة « السّلام » لما يشعّ منها من المعانى الكريمة الطيبة ، التى تقتل جراثيم العداوة والبِغضة ، فإنه ـ مع هذا ـ يتقبل أية تحية طيبة يتبادلها الناس ، ويتوسمون فيها سمات الخير والإحسان . . ولهذا جاء قوله تعالى : «وإذا حُيّيتمْ بتحيةٍ فحيّوا بأحسن منها أو ردّوها » غيرَ مقيدٍ التحيةَ بقيد مخصوص ، ولا واقف بها على صورة خاصة ، ليتيح للناس من التحايا مايغذى عواطف الأخوة والمودة بينهم ، سواء أكانت تلك التحية لفظةً ملفوظة ، أو حركة معبّرة ، أو إشارة دالة ، أو إماءة موحية . . إذ لايعنى الإسلام من هذا إلا الأثرَ المترتب عليه ، ولايعنيه شىء مّما يظهر فيه من صور وأشكال . وإن كانت كلمة السلام هى تحية الإسلام ، وشارة المسلمين .

وقوله تعالى : « إن الله كان على كل شىء حسيباً » إشارة إلى أن هذه التحية حق من الحقوق الواجب بذلها ، كما أنها حق من الحقوق الواجب أداؤها إلى أصحابها . . وأداؤها يكون بقبولها ، وردّها بأحسن منها ! وأن الله سبحانه حسيب على كل شىء . . يضبطه ، ويجازى عليه !

ومع أن التحية مجرد كلمات قليلة متبادلة بين الناس والناس ، لا يتكلف لها

الناس جهداً، ولا ينفقون فى سبيلها مالاً إلاّ أن كثيراً من الناس يضنّون بها، ويمسكون ألسنتهم عنها، ولا يمدّونها معاملة كريمة يتعاملون مع الناس بها، أخذاً أو إعطاء!! وذلك لا يكون إلا عن نفسٍ مريضةٍ، وطبع لئيم.. إذ أنه ليس فى باب الإحسان مثل التحيّة، فى خفّة محملها، وقلة مئونتها، مع كثرة محصولها، وطيب ثمرها... وليس فى الناس أخسر صفقة، وأنكد حظًّا ممن لا يحصّل هذا الخير الكثير، الذى يجىء إليه صفواً عفواً.. من غير ثمن!!

وقوله تعالى: «الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً» هو تعقيب على تلك الدعوة الكريمة التى دعا الله المسلمين إليها، وهى تبادل الإحسان والمعروف بينهم، ولو بالكلمة الطيبة، وهى التحية..

وفى هذا التعقيب، يتجلّى الله سبحانه وتعالى متفرداً بألوهيته، لا يملك أحد مع الله شىء.. وهو بهذا التفرد قائم على عباده، يجمعهم إليه يوم القيامة، ليجزى كل نفسٍ بما كسبت.. ذلك أمر لا شك فيه، قد أخبرنا الله به فى كتبه، وعلى لسان أنبيائه.. «ومن أصدق من الله حديثاً»..

الآية: (٨٨)

«فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا» (٨٨)

التفسير: النفاق أخبث نبتة وأشأمها، تنبت فى كيان المجتمع، وتغتال أية رقعة من أرضه..

والمنافقون هم أخبث داء وأقتله ، إذا تسلّطوا على مجتمع ، وأوجدوا لأنفسهم مكانا فيه . .

ولقد ابتُلى المسلمون — شأنهم شأن كل مجتمع — بالنفاق وبالمنافقين ، الذين كانوا عدواً خفياً ، يظاهر العدوّ الظاهر، الذى يلقاه المسلمون فى ميدان القتال !

وإذا كانت سيوف المسلمين قد عرفت طريقها إلى رقاب المشركين والكافرين ، وأخذت بحقّها منهم ، فإن أمر المسلمين مع المنافقين كان على خلاف .. حيث يظهر فيهم المنافق بأكثر من وجه ، فلا يدرون على أى وجه يتعاملون معه ، ولا على أى وجه يأخذونه . . فهو مسلم فى ظاهره . . مشرك ، أو كافر ، فى باطنه . . !

وإذا أتيح للمسلمين أن يروا من المنافق هذا الظاهر الذى يعيش فيه معهم ، فمن لهم بأن يروا منه هذا الباطن الذى لا يعلمه إلا علام الغيوب ؟

وهنا موطن الحدْس ، والتأويل ، ومكمن الخطر والحرج ! !

وفى عهد النبوة كشف الله سبحانه للنبي والمسلمين عن كثير من المنافقين ، وفضح لهم باطنهم ، وعرضهم على الملأ عرضاً فاضحاً ، بأعيانهم ، وأسمائهم . . فلم يكن أمرهم بعد هذا خافياً على أحد . . ولكن مع هذا ظل بعض المسلمين متردداً فى كثير منهم ، لِما يبدو على ظاهرهم من سراب خادع ، من الصلاح الزائف ، والتقوى ، الكاذبة . .

فجاء قوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين » ؟ قاضياً على هذا التردد ، قاطعاً كل شك . . فلا ينبغى بعد هذا أن يكون المؤمنون على رأيين فى المنافقين ، وإنما هو رأى واحد لا خلاف عليه . . وهو أن هؤلاء المنافقين ، منافقون ،

قولاً واحداً ، وأن على المسلمين جميعاً أن يعاملوهم معاملة المشركين والكافرين ، وأن يحذروهم حَذَر المنافقين والمشركين . .

وقوله تعالى : « فما لكم فى المنافقين فئتين » هو استفهام إنكارى ، أن يكون المسلمون فريقين فى أمر المنافقين ، فريقاً يحذرهم ويتخذهم عدوا ، وفريقا آخر يقف منهم موقف التردد والترقب ، تمحيصاً لما فى قلوبهم ، واختباراً لما فى صدورهم . . وذلك ما ينكره الله سبحانه على هذا الفريق ، الذى وقف من هؤلاء المنافقين هذا الموقف المتردد . .

وقوله تعالى : « والله أركسهم بما كسبوا » هو توكيدٌ قاطع لِما حكم الله به هو على هؤلاء المنافقين ، وأنهم أهل ضلال وفساد ، لايُرجى لهم صلاحٌ أبداً . . فقد أقامهم الله على هذا النفاق ، ودمغهم به ، بسبب ما كان منهم من مكرٍ بآياتِ الله ، والتواء على صراطه المستقيم ، وتلاعب بشرعه القويم !

وقوله تعالى : « أتريدون أن تهدوا من أضَلَّ اللهُ » استفهام إنكارى أيضاً ، على تلك الفئة من المسلمين التى لا تزال تحت تأثير هذا الخداع الذى يَلُوح لهم من قِبَل المنافقين ، ويتوقعون من جهتهم الخير والصلاح . . وكلاّ ، فقد أضلّهم الله . . فهل فى الناس من هو قادر على أن يهدى من أضله الله ؟ « ومن يُضلِل الله فلن تجد له سبيلا » . . فإنه لا سبيل له غير هذا السبيل الذى سلكه ، سبيل النفاق ، الذى سيمضى فيه إلى غايته ، التى تنتهى به إلى جهنم وبئس المهاد .

الآيتان : (٨٩ ـ ٩٠)

« وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلاَ تَتَّخِذُوا

مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (٨٩) إِلاَّ الَّذِينَ
يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ
أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ
فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ
فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ
أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا
فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا
مُبِينًا » (٩١)

التفسير : يعيش المنافق فى صحبة شعور مزعج ، وهو أنه يحمل جريمة ، يحاول إخفاءها عن الناس ، ولكن عيون الناس تتبعه حيث كان ، تبحث عن هذا الشيء الذى يخفيه ، ويبالغ هو فى ألا يراه أحد .. هكذا هو أبداً مع هذا الشعور المتسلط عليه . .

وقد يكون الناس فى غفلة عنه ، وفى غير التفات إليه ، ولا مراقبة له ، ومع هذا فإن الجريمة التى يحملها معه ، لا تدع له سبيلا إلى الاطمئنان والهدوء ، بل تراه دائماً على حذر ، يرصد الناس ، ويسترق النظر إليهم ، بل يكاد يسألهم : عمّ يبحثون ؟ وماذا يريدون ؟ وما هى الجريمة ؟ ومن المجرم ؟ . . وفيه يصدق المثل الذى يقول : « يكاد المُريب يقول : خذونى » !

إن المنافق أشبه بمجرم فى قفص الاتهام . . والمجتمع الذى يعيش فيه هو الذى يحاكمه ، ويحاصره ، ويأخذ عليه كل سبيل للإفلات من تلك النظرات المتهمة له ، الفاضحة لجرمه .

ومن هنا يقوم فى كيان المنافق شعور آخر ، يواجه به شعور الخوف والقلق الذى يستولى عليه ، من إحساسه بمراقبة الناس له ، واطلاعهم على خبيئة أمره ، وفضحهم لخفىّ نفاقه — هذا الشعور الآخر ، هو الرغبة فى أن يرى الناس جميعاً من حوله ، صورةً منه .. فلا يُلقون أنظارهم إليه ، ولا يلتفت هو إليهم ، ولا يحاول أن يستر فعلته عنهم ، إذ كانوا جميعاً على شاكلته . . فإن المجرم بين المجرمين ، لا يستحى أن يكشف عن جرائمه ، بل وربما بالغ فيها ، ليرى أصحابه منه أنه عريق فى الإجرام ، يستأهل مكان الصدارة فى المجرمين !

ومن هنا كان المنافقون يسعون دائما إلى إفساد المؤمنين وإغوائهم ، وتزيين النفاق لهم ، وتحبيب الكفر إليهم ، ليكونوا معهم فى هذا البلاء ، وليقتسموا المحنة التى يعيشون بين المجتمع فيها !

وفى قوله تعالى: «ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء» ـ ما يكشف عن هذا الشعور الذى يحرك المنافقين إلى إفساد المؤمنين ، ليؤنسوا وحشتهم ، وليفكوا قيدهم الذى يمسك بهم فى محيط محدود لا يتجاوزونه ! حتى إذا امتلأت الأرض نفاقاً ، كان لهم أن يسرحوا ويمرحوا كيف يشاءون ، وأن يُظهروا ما ستره النفاق منهم ، من كفر وإلحاد . . ولهذا جاء التعبير القرآنى : « ودّوا لو تكفرون كما كفروا » بديلاً مما يقضى به الظاهر وهو : « ودوا لو تنافقون كما نافقوا» ، لأن النفاق يستر وراءه الكفر . . فجاء التعبير القرآنى فاضحاً هذا الكفر المستتر وراء النفاق . . .

وقوله تعالى : « فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله » هو

تحذير من الله للمؤمنين أن يُوالوا هؤلاء المنافقين ، وأن يأمنوا جانبهم ، ماداموا فى موقفهم الذى اتخذوه من المؤمنين .. فإن تحوّلوا عن هذا الموقف ، وانحازوا إلى جماعة المؤمنين ، وخالطوهم ، وأخذوا مأخذهم فى الحياة ، واستقاموا على طريقهم،وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله ـ إنهم فعلوا ذلك كان لهم ما للمؤمنين ، وعليهم ما عليهم ، وكان على المؤمنين ضمّهم إليهم ، وجمعهم معهم . . فإن أبوْا إلا أن يظلوا فى هذا الموقع المنحرف بين المؤمنين والكافرين ، وجب على المؤمنين أن يعاملوهم معاملة العدوّ الراصد .. إذا وقعوا لأيديهم فى معركة كان جزاؤهم القتل ، وإن لم تصل إليهم يد المؤمنين بالقتل ، كان على المؤمنين أن يتجنبوهم ، وأن يحذروهم ، فلا يقبلوا منهم قولاً ، ولو جاء فى صورة النصح ، ولا يستنصروا بهم فى حربٍ ، ولو أحاط بهم العدوّ . .

وقوله تعالى « إلاّ الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق » هو استثناء من تلك المقاطعة التى أوجبها الإسلام على المسلمين فى مواجهة المنافقين . . فإنه إذا انحاز هؤلاء المنافقون إلى جماعة ـ غير مؤمنة ـ بينها وبين المؤمنين ميثاق ، بالموادعة والمسالمة ـ لم يكن للمؤمنين أن يمدّوا أيديهم بأذى إلى هؤلاء المنافقين ، لأنهم صاروا فى ذمة تلك الجماعة التى وادعها المسلمون وسالموها ! وفى العدوان عليهم عدوان على تلك الجماعة ، ونقض الميثاق الذى عقده المسلمون معهم ، ووجب عليهم الوفاء به !

وقوله تعالى : « أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم » هو عطف على المستثنى السابق .. يبيّن حكم جماعة أخرى من المنافقين جاءوا إلى المسلمين يطلبون الموادعة والمسالمة ، وهم مقيمون حيث هم فى قومهم الذين لم يدخلوا فى الإسلام .. فهؤلاء المنافقون ، قد كفّوا أيديهم عن المسلمين طلبوا الأمان منهم ، وانحازوا جانباً .. لا يقاتلون المسلمين مع قومهم ،

ولا يقاتلون قومهم مع المسلمين .. فهم — والأمر كذلك — فتنة نائمة ، وشر ساكن .. ومن مصلحة المسلمين ـ وهم فى وجه عداوة وحرب ـ ألاّ يحركوا هذا الشرّ ، وألا يوقظوا تلك الفتنة ..

وقوله تعالى : « ولوشاء الله لسلّطهم عليكم فلَقَاتلوُكم » يبيّن الحكمة من موادعة هؤلاء المنافقين ومسالمتهم .. إذ كان من المتوقع أن يكونوا حَرْباً على المسلمين مع قومهم ، وأمّا وقد كفّوا أيديهم واعتزلوا الحرب ، فلم يكونوا هنا أو هناك ، فإن موادعتهم كسب للمسلمين، وإضعاف لقوة عدوّهم ، وفتح ثغرة فى صفوفهم .. ربما كانت مدخلاً يدخل منه كثيرون ، ممن يعتزلون حرب المسلمين ويكفون أيديهم عنهم ..

وقوله تعالى : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألْقَوْا إليكم السَّلَمَ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً » هو تنبيه للمسلمين إلى أخذ الحذر والحيطة من هؤلاء المنافقين ، الذين قد يغلب عليهم طبعهم ، فلا يمسكون بالعهد الذى عاهدوا المسلمين عليه ، والذين ربما لو رأوا كفة قومهم هى الراجحة مالوا إليهم ، وقاتلوا معهم ، غير ملتفتين إلى عهد أو ميثاق .. ومن هنا كان على المسلمين أن يقيموا عهدهم معهم على هذا المفهوم ، وأنه عهد غير مطلق ، وإنما يوثقه أو ينقضه ما يكشف عنه واقع الحال من هؤلاء المنافقين ، فإن استقاموا استقام لهم المسلمون ، وإن نكثوا فلا عهد لهم عند المسلمين ولا ذمّة ..

وقوله تعالى : ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم و يأمنوا قومَهم كلّما رُدّوا إلى الفتنة أركسوا فيها » بيان لما تكشف عنه التجربة من أمر هؤلاء المنافقين ، وأن جماعة منهم ، ركبها النفاق ، وغلب عليها حكمه ، فلم تكن موادعتها للمسلمين إلا ضرباً من ضروب النفاق ، تريد به أن تضمن السلامة والعافية ، وأنه إذا انتصر المسلمون على قومهم ، كانوا هم بمأمن مما يجرى على

قومهم من حكم الإسلام فيهم ، من قتل ، وسبى ، ومغنم .. وإذا انتصر قومهم، كان لهم من صلتهم بهم وقرابتهم لهم ، مايدفع عنهم بأسهم ، وضرهم ..

فهذه الجماعة من المنافقين إن لم تتحرر من نفاقها ، وإن لم تُقم أمرها على وجه واحد مع المسلمين ، كان على المسلمين أن يأخذوهم بما يأخذون به أعداءهم ، لأنهم مخادعون ، مضللون ، يتخذون من خداعهم وتضليلهم جُنّة يدفعون بها مايتوقع من المسلمين من نصر ، وما وراء هذا النصر من بأساء وضراء تحيط بهم !

الآية : (٩٢)

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » (٩٢)

التفسير : الدماء ، والأموال ، والأعراض ، من الحرمات التى قامت رسالة الإسلام على حمايتها من كل عدوان ، وحياطتها من كل بغى .. إذ كانت مِلاكَ أمر الإنسان كله ، وقوام وجوده ، وضمان حياته ..

فلا حياة لإنسان مهدر الدم ، مستباح المال ، مهتوك العرض ..

وكيف يحيا مَن حياته فى يد غيره ؟ وكيف يعيش مَن ماله ليد السلب

والنهب والاغتصاب ؟ وكيف يصحّ من تعرّض عرضه للبغى والعدوان ؟

وماذا يبقى للإنسان إن أريق دمه ، وأزهقت روحه ؟

وماذا يبقى من الإنسان إن سُلب ماله ، أو هتك عرضه ؟

لهذا جاءت شريعة السماء ، وقامت قوانين الأرض ، لتحمى هذه الحرمات ، وتصونها ، وتأخذ من الإنسان ماتشاء أن تأخذ ، لتحتفظ له بتلك المقدسات ، وتحمى له هذه الحرمات ، التى إن تهدمت تهدم الإنسان ، وانهار المجتمع ، وتحوّل إلى عالم الحيوان ، تحكمه شريعة الغاب ، وتتحكم فيه غريزة الوحوش . .

ودم الإنسان — أى إنسان — فى الإسلام ، كريم عزيز ، لا تُستباح قطرة منه بغير حق ، ولا تزهق روح بغير قصاص ..

ودم المؤمن أعز وأكرم عند الله من كل دم عزيز كريم ، لأن المؤمن أقرب إلى الله ، وأدخل فى حماه ، ممن كفر بالله أو أشرك به !

وقوله تعالى : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ » استبعاد لقتل المؤمن ، واستنكار للعدوان عليه ، من مؤمن مثله ، يأخذ مأخذه فى الولاء لله ، وفى الإيمان به ، والاعتصام بحبله !

فإذا عَمَد المؤمن إلى قتل مؤمن ، فإنه — مع عدوانه على الأخوّة الإنسانية — قد اعتدى على ولىّ من أولياء الله ، واستباح دم جندى من جنوده !

أمّا أن يقتل مؤمن مُؤمناً خطأ ، فذلك مما تجاوز الله عنه ، إذ كان أمرًا لم يُؤامِرْ المؤمنُ نفسَه عليه ، ولم يستدع إرادته له..

ومع هذا ، فإن دم مؤمن قد أريق ، وروحَ مؤمن قد أزهقت ! ولن يضيع

هذا الدم هدرًا ، ولن تذهب تلك الروح هباء ! !

« ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبةٍ مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهله . . إلاَّ أن يصّدَّقوا » .

فهـذا هو الرأبُ للصدع الذى حدث ، والقصاص للدم الذى أريق بغير قصد !

إن لهذا الدم وليّيْن : الله سبحانه وتعالى ، وأهل القتيل . .

فالله سبحانه ، ولىّ تلك النفس المؤمنة . .

وأهل القتيل هم أولياء هذا الدم المراق ..

وحقّ الله على القاتل أن يحيي هذه النفس الميتة . . !

وإذ كان ذلك أمرًا غير مستطاع من القاتل ، فإنه يُحال إلى أمرٍ مستطاع ، وهو أن يحرّر رقبة مؤمنة ، وأن يحيي نفساً أماتتها العبودية ، وأزهق روحها الاستعباد !

وفى هذا حياة نفس مؤمنةٍ بنفس مؤمنةٍ .. وكأنّ القتيل قد عاد فى شخص هذا الإنسان المستعبَد ، الذى ولد ميلاداً جديدًا ، بعتقه وتحرير رقبته !

وأولياء دم القتيل من أهله ، لايرضيهم إلا أن يُقتل هذا القاتل ، أو يَغرَم من ماله ماهو أشبه فى الغُرم بقتله !

وإذ كان القاتل لم تتجه نيته إلى القتل ، ولم يحمله على القتل حقد أو ضغينة ، فقد كان من الحكمة والعدل ألا يقتل بيد النقمة والضغينة .. وليكن فى الدية التى يقدّمها لولىّ الدم عزاء عن مصيبةٍ جاءت قضاء وقدراً . .

وقوله تعالى : « إلاَّ أن يصدّقوا » دعوة كريمة من ربّ كريم ، إلى أولياء الدم أن يعفوا ويصفحوا ، وأن يتصدقوا بهذا الحق الذى لهم فى مال

القاتل على القاتل ..وحسبه ماوقع فى نفسه من ألم وحسرة ، لِما جنت يده الخطيئة عليه ، بقتل نفس مؤمنة لم يرد بها شرًّا ، ولم يضمر لها سوءًا .

وقوله تعالى : « فإن كان من قوم عدولكم وهو مؤمن فتحرير رقبةٍ مؤمنة » أى أن جَبْر دم القتيل المؤمن بيد الخطأ ، هو تحرير رقبة مؤمنة ، ولا دية لأولياء الدم ، لأنهم فى حرب مع المؤمنين ، وفى أخذ هذا المال من المسلمين تقوية لأعدائهم وإضعاف للمؤمنين .. وحسب المؤمنين أن فقدوا عضواً منهم بهذا القتيل المؤمن ، فلا يُجمع عليهم بين قتله ، وتوجيه ديته إلى الجبهة المحاربة للمؤمنين ..

وقوله تعالى : « وإن كان من قومٍ بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلّمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة » ذلك أن الوفاء بالعهد الذى بين المؤمنين ، ومن عقدوا العهد معهم ، أمر أوجبه الإسلام على المسلمين ، ولم يحلّهم منه لأى سبب، حتى ولو كان العهد مع من لم يدخلوا فى دين الله !

ولهذا قُدم تقديم الدّية هنا على تحرير الرقبة ، لأن العهد فى ذمة المسلمين جميعاً ، لا تبرأ ذمتهم إلا بالوفاء به ، إن لم يسعه مال القاتل خرج من بيت مال المسلمين .. أما تحرير الرقبة ، فهو فى ذمة القاتل وحده ، له فيه فسحة من الوقت ونَظِرة إلى ميسرة !

وقوله تعالى : « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » أى فإن كان القاتل معسراً ، لا يستطيع أن يحرر رقبة ، أو يقدم دية ، فليصم شهرين متتابعين ، حتى يغسل من نفسه مشاعر الحسرة والألم لهذا الدم المسفوك !

وقوله تعالى : « توبةً من الله وكان الله عليماً حكيماً » أى أن صيام هذين الشهرين لأجل التوبة المتنزلة على القاتل من الله ، والرحمة به ، من أن يقتل نفسه أسفاً وندماً .. إذ علم الله أنه لم يعمد إلى القتل ، فاقتضت حكمته تعالى، أن يرحم هذا القاتل ، ويجعل له من همه فرجاً ، ومن ضيقه مخرجاً ..

وهنا نسأل :

ماذا عن قوله تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » (٥ : الأحزاب).

ـ هذا القول الذى يرفع اللوم والمؤاخذة عن الأفعال التى تقع من الإنسان عن غير قصد وعمد ؟

ثم ماذا عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رُفع عن أمّتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .. وقد جاء مقرراً هذا المعنى الذى تضمنته الآية الكريمة ، ومؤكداً له ؟

ما تأويل هذا ؟ مع ما أوجبه الله سبحانه وتعالى على القاتل خطأ ، من تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلّمة إلى أهل القتيل.. فإن لم يجد ما يحرر به رقبة ، ويقدّم به دية، فصيام شهرين متتابعين ؟ أليس فى هذا مؤاخذة وقصاصاً ؟ فكيف التوفيق بين هذين الحكمين ، اللذين يدفع أحدهما المؤاخذة عن فعل الخطأ ، بينما يوجّه الآخر المؤاخذة إليه ؟

والجواب على هذا — والله أعلم — هو أن هناك رُوحاً أُزهقت ، ونفساً قُتلت ، وأن من شأن هذا الحدث أن يثير هَياجاً فى المشاعر ، واضطراباً فى العواطف ، وألماً فى النفوس .. يبدأ ذلك من خاصة أهل القتيل ، من آباء ، وأبناء ، وإخوة ، وأعمام ، وأبناء أعمام .. ثم يمتد إلى أصهار القتيل، وإلى ذوى قرابته من بعيد ، وإلى أصدقائه ، وأحبائه ثم إلى المجتمع الذى يعيش فيه ، ويتبادل المنافع مع أفراده !

إن حادث القتل من أبشع الحوادث التى تقع فى محيط الحياة الإنسانية .. والقتل الخطأ ، وإن كان يخفف من وقع المصيبة على أهلها ، إلا أن ما يبقى منه مع ذلك ، هو همٌّ ثقيل ، وبلاء عظيم ..

وهل يُعيد القتل الخطأ لأهل القتيل صاحبهم إلى الحياة ؟ وهل يرى أهله في قتيلهم هذا، غيرَ ما يرونه فيه لو أنه قُتل عن عمد وقصد ؟ كلا .. فهو في كلا الحالين جثة هامدة بين أيديهم .. كان إلى لحظات قليلة مضت ملء أسماعهم وأبصارهم .. وهو الآن في عالم الأموات، وهو عما قليل صائر إلى حيث يوضع في حفرة، ثم يُهال عليه التراب ..

والنظرة المختلفة هنا، هي التي ينظر بها أهل القتيل إلى القاتل، لا إلى القتيل، الذي لا يختلف نظرهم فيه على أي حال .. فالقاتل خطأً ليس في وجه عداوة ونقمة من أهل القتيل، كالقاتل عن عمد وقصد .. ولكنه مع ذلك بغيض إلى نفوسهم، ينظرون إليه بعيون ملؤها الضيق والألم، إن لم يكن ملؤها الشنآن والنقمة ..

بهذه النظرة الفاحصة الحكيمة الشاملة، نظر القرآن إلى هذا الحدث المروّع، نظرة جمعت كل أطرافه، وأمسكت بجميع موارده ومصادره، ونفذت إلى ما يعتمل في المشاعر، وما يضطرب في الصدور منه، ثم جاءت إلى كل أولئك بما يصلح أمرهم، ويقيمهم على نهج قاصد، وطريق سواء !

فأهل القتيل، لابد لهم من مواساة وعزاء في هذا المصاب .. وعزاؤهم ومواساتهم هو في أن يترضّاهم القاتل، ويعتذر إليهم بهذه الدّية التي يقدمها لهم، ويُريهم منها أنه ملوم يستحق المؤاخذة — وإن كانت حقيقة الأمر ألاّ لوم عليه ولا مؤاخذة — إذ كان منطق النفوس المهتاجة في تلك الحال غير منطقها المعتاد، في الظروف الطبيعية ..

فهذه الدّية — في حقيقتها — رمز لسلامة نية القاتل .. ولهذا التفت القرآن الكريم إلى أولياء القتيل، فدعاهم في رفق إلى التصدّق بهذه الدية على القاتل نفسه .. رحمة به، وتجاوزاً عن فَعلة جاءت على غير إرادته .

هذا هو الطرف الأول والمهمّ فى هذه الواقعة .. وقد أرضاه حكم الإسلام، وطيّب خاطره ، وقدم له جميل العزاء ، وكرم المواساة .. وهم أولياء القتيل .

أما الطرف الثانى ، وهو القاتل .. فإنه — وقد قتل نفساً مؤمنة ، بغير حق — يكاد يختنق ضيقاً ، ويحترق حسرة وألماً .. يؤرّقه هذا الدّم الذى أراقه ، وتفزّعه هذه الروح التى أزهقها ، والتى تصيح به : لم فعلت بى هذا ؟ وأى جناية جنيتها عليك حتى تفعل بى ما فعلت ؟ .. وهكذا يعيش القاتل مع ضمير مؤرّق ، ونفس معذبة ، ووساوس مزعجة، لاتدع له سبيلاً إلى السكن والقرار !

وهنا يجىء التشريع الإسلامى إلى هذا القاتل ، بما فيه العزاء لمصابه ، والمواساة فى مصيبته !

لقد قتل نفساً مؤمنة خطأ ، فليُحْيِ نفساً مؤمنة — عمداً !! وبهذا تنقشع من نفسه تلك الغيوم السود المتراكمة ، من مشاعر الحرج والإثم ..!

ومن جهة أخرى ، فإن هذا القاتل يرى أهل القتيل وقد جنى عليهم بما جنى ، وأن فى قلوبهم بُغضاً له ، وفى عيونهم ازورارًا عنه — وهذا بلاء إلى البلاء الذى يجده بمعزل عن أهل القتيل ، وذلك فى مواجهة النفس التى قتلها ، وفى جنايته عليها ..

وإنه لكى يذهب ببعض ما فى نفوس أهل القتيل عليه من موجدة وبغضه — كانت الدية التى أوجبتها الشريعة عليه ، والتى عرفنا شأنها وأثرها عند أولياء الدم !

ومن هذا يتضح :

أن ما فُرض على القاتل من تحرير رقبة ، وتقديم دية ، كان لحسابه هو ، ولعلاج ما أصابه من فَعلته ، فى حياته الروحية والمادية معاً .. وأنه بهذا الذى

قدّمه، قد تقاضى به الثمن عاجلاً .. فوجد السكينة والأمن مع نفسه المضطربة، كما وجد السلام، والوئام مع المجتمع، ومع أولياء الدم بوجه خاص ..

فواقع الأمر — كما ترى — هو أن القتل الخطأ فى ذاته معفوٌّ عنه، وأن القاتل لم يُؤخذ بجرمه، وأن ماوقع عليه من غُرم كان أشبه بعملية غَسْلٍ لهذا الدم البرىء الذى أراقه، والذى أصابه من رشاشه ما لطّخ يده وثيابه !!

وكان من تمام العلاج لهذا الأمر، أن القاتل إذا لم يجد مايحرر به رقبة مؤمنة، وما يدفع به الدّية إلى أهل القتيل — كان عليه صيام شهرين متتابعين . .

وحكمة الشهرين، وحكمة اتصال الصوم فيهما . . أن تلك المدة — مدة الشهرين — التى يفرض فيها القاتل على نفسه هذا الحرمان، هى بمثابة عقاب له، يأخذ به نفسه .. وفى هذا العقاب ما يخفّف من ألوان تلك الصورة القاتمة التى تحوم فوقه، من خيالات القتيل، وأشباحه .. ثم إن فى اتصال هذا الموقف، دون أن يدخل عليه شىء من التغيير، إحكاماً للتمكين لشعور جديد يقوم مكان هذا الشعور المستولى على القاتل، والمزعج له ..

ولو تُرك القاتل وشأنه بعد أن أدّى هذا المفروض عليه لاستراحت نفسه، وهدأ باله، وسكن وَسواسه .. ومع هذا فقد أراد الله أن يعود بفضله عليه، وأن يذهب بكل مابقى فى نفسه من أثرٍ لهذه التجربة القاسية التى مرّ بها .. فجاء قوله تعالى : « توبةً من الله » ليعفّى على كل أثر لهذه المأساة، ويعيد إلى هذا الإنسان وجوده، على ما كان عليه من صحة وسلامة . .

الآية : (٩٣)

« وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » (٩٣)

التفسير : هذا هو حكم قاتل المؤمن عمداً . .

لا يُقبل منه تحرير رقبة مؤمنة ، ولا دية مسلّمة إلى أهل القتيل ، ولا صيام شهرين متتابعين . .

إنه فَعلته تلك أكبر من أن يكون فى هذه الدنيا مايقوم لها ، ويسوّى حسابها.

وليس غير العذاب ، والخلود فى هذا العذاب ، مصحوباً بغضب الله ولعنته ـ ليس غير هذا جزاء وفاقاً لهذا الجُرم العظيم . .

وعلى قدر ما كانت رحمة الله وعفوه عن القاتل خطأً ، بقدر ما كانت نقمة الله ، وغضبه ، ولعنته ، على القاتل عمدًا !

ولهذا كان إهلاك هذه النفس المجرمة ، والقصاص منها فى الدنيا ، هو الحكم الذى يُؤخذ به قاتل النفس المؤمنة عمداً ، وإنه لا وجه لاستبقائه فى هذه الحياة ، ولا داعية لاستصلاحه ، فقد وقع عليه غضب الله ولعنته ، منذ أول قطرة دم سفكها من دم هذا المؤمن البرىء . . « ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرًا » (٥٢ : النساء)

الآية : (٩٤)

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (٩٤)

التفسير : الضرب فى سبيل الله ، هو السعى إلى الجهاد ، بقوة وعزم ، والضرب فى الأرض ، السعى فى وجوهها المختلفة ابتغاء الرزق

وقوله تعالى : « يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا » هو دعوة للمؤمنين ، الذين خرجوا من ديارهم يبتغون المثوبة والرضوان من الله ـ دعوة لهم أن يتبيّنوا طريقهم ، وأن يتثّبتوا من كل ما يأتون وما يذرون ، حتى يتجنبوا الزلل والعِثار ، وهم فى طريقهم إلى الله .. فإن لم يفعلوا ، فقد تنحرف أقدامهم عن جادّة الطريق ، ويعودون بالإثم من حيث يرجُون الثواب .

وأكثر ما ينبغى الالتفات إليه هنا هو الدماء ، حتى لا تُسفك قطرة منها بغير حق . . وقد بينت الآيات السابقة ما للدماء من حرمة عند الله ، وما لمستبيحها من جزاء أليم فى الدنيا والآخرة . .

وهنا ـ فى هذه الآية ـ دعوة للمؤمنين ، المجاهدين فى سبيل ، أن يتحرّوا مواقع سيوفهم ، فلا تقع إلا حيث ينبغى لها أن تقع ، ولا تريق دماً إلا ما استحق أن يراق . . وفى هذا يقول الله تعالى :

« وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا » .

ففى مواطن الحرب ـ والنفوس مهتاجة ، والأعصاب متوترة ـ تقع هنا وهناك رميات طائشة ، تأخذ البرىء بذنب المسىء . . كما قد يستتر بعض الناس بثوب الخديعة ، حين يرى الموت دانياً منه ، فى ضربة سيف أو طعنة رمح ، فيدفع ذلك بإظهار الإيمان ، وبكلمة لا إله إلا الله ، يقولها بفمه . . أو يلقى بتحيّة الإسلام إلى المسلمين ، ليريَهم أنه منهم . .

فهذه وأمثالها صور تقع فى مواطن الحرب ، وهى فى ظاهرها تقيم لصاحبها حرمة يعصم بها دمه من سيوف المسلمين ، أما الباطن فلا يعلمه إلا علاّم الغيوب . .

ومن أجل هذا ، كان على المسلمين ألا يتسرعوا فى الحكم على باطن هؤلاء الذين يُظهرون الإسلام ، ويحملون بعض شاراته.. فقد يكون باطنهم كظاهرهم ، وقتلهم فى تلك الحال جرم عظيم ، لأنه قتلُ نفسٍ مؤمنة . . أما إن كان باطنهم على خلاف ظاهرهم ـ وهذا مالا يعلمه إلا الله ـ فإن على المسلمين أن يقبلوا هذا الظاهر ، وأن يعاملوا أصحابه عليه ، وأن يَكِلُوا باطنهم إلى الله . .

ومن يدرى ؟

فقد ينصلح أمر كثير من هؤلاء الذين وجدوا فى الإسلام — على نفاقهم معه — يداً رحيمة .. دفعت عنهم الموت الذى كاد يختطفهم ! إذ لا يمكن أن ينجلى هذا الموقف دون أن يراجع كثير منهم نفسه ، ويصحح موقفه من الإسلام . . وفى هذا استنقاذ لهم من الهلاك ، وانتفاع بقوة جديدة ، تضاف إلى الإسلام ، وتعمل من أجله . .

وفى قوله تعالى :

« تبتغون عَرَض الحياة الدنيا » تبغيض للمسلمين من التسرّع فى الحكم على من جاءهم فى زىّ المسلمين وعلى سَمْتهم ـ بأنه ليس مسلماً ، وبهذا يُستباح دمه وماله .. وكأنه لأجل المال ـ وهو عرض زائل ـ قد كان هذا الحكم الذى حُكم به على هذا الإنسان ، وكأن دمه الذى أريق كان من أجل الحصول على ما معه من سلاح أو مال !

وقوله تعالى :

« كذلك كنتم من قبل فمَنّ الله عليكم » هو تذكير للمؤمنين بنعمة الله عليهم ، إذ أخرجهم من منطقة الظلّ التى كانت تلقى على إسلامهم شيئاً من الشُّبَه ، حتى ليختلط أمرهم على المسلمين ، فلا يتحقق أحد من إيمانهم ، وذلك حين كانوا مستضعَفين فى مكة ، لم يستطيعوا أن يجهروا بإسلامهم ، ولم يقدِروا

أن يهاجرون بدينهم ـ وهاهم أولاء الآن قد صاروا إلى جماعة المسلمين ، وظهر وجههم واضحا فى الإسلام . فليذكروا هذا الذى هم فيه الآن ، وما كانوا فيه من قبل ، وليجعلوا فى حسابهم لهؤلاء الذين يَلْقَوْنهم فى مواطن الكفر بشارات الإسلام ، وبلسان المسلمين — أنهم كانوا فى حال مثل حالهم . . وفى هذا ما يغيّر نظرتهم إليهم ، ويُوسع لهم فى باب التسامح والقبول . .

وقوله تعالى :

« فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً » دعوة أخرى ، مؤكّدة للتثبت من أمر هؤلاء الذين لم يتضح أمرهم من الإسلام وضوحاً كاملاً ، وأن على المؤمنين أن يحذروا أن يصيبوا قوماً بجهالة ، فتكون عاقبتهم الحسرة والندامة . . والله سبحانه وتعالى مطلع على الدوافع الخفية التى تدفع إلى التسرع فى هذا المقام ، وأهمها هو الرغبة فى مال القتيل وسَلَبه . . فإذا عزل المسلم هذا الشعور عن نفسه عزلاً تامًّا ، كان فى ذلك وقاية له من أن يأخذ هذا الإنسان ، ويستبيح دمَه ، إلا إذا قامت بين يديه الدلائل القوية على أنه ليس من الإسلام فى شىء أبداً .

الآيتان : (٩٥ ـ ٩٦)

« لاَ يَسْتَوِى ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَى وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً » (٩٦)

التفسير . وإذ ذُكر القتل والقتال ، فقد استدعى ذلك ذكرَ الجهاد فى سبيل

الله ، إذ كان أكثر مايكون القتل وإراقة الدماء فى هذا الوطن ، حيث يصطدم الحق بالباطل ، ويلتقى المسلمون والكافرون بسيوفهم !

والجهاد أكرم الطرق إلى الله ، وأوسعها إلى مرضاته ورحماته . .

ومنازل المسلمين تختلف باختلاف حظوظهم من البذل والتضحية فى هذا الوطن . . موطن الجهاد فى سبيل الله . .

فهناك مجاهدون بأموالهم وأنفسهم .

وهناك قاعدون لم يجاهدوا بأموالهم أو أنفسهم .

وهناك — بين هؤلاء وأولئك — مؤمنون لهم أعذار تَحُول بينهم وبين الجهاد بالمال أو بالنفس .. بأن كانوا فقراء ، أوكانوا ذوى عاهاتٍ ، تحجزهم عن حمل السيف ، ولقاء العدو . .

وفى قوله تعالى : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم » بيان لما بين المجاهدين فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وبين الذين لم يجاهدون بأموالهم وأنفسهم من ذوى الأعذار ـ من تفاوت فى الفضل والمنزلة عند الله . .

فهؤلاء الذين أعطاهم الله المال ، وعافاهم فى أنفسهم ، فلم يفقدوا جارحة من جوارحهم العاملة ، ولم يصابوا بمرض مقعد ـ هؤلاء إذا أدوْا حقّ الله فى هذه النعم التى أنعم بها عليهم فى المال وفى النفس ، فبذلوا المال فى سبيل الله ، وقدموا أنفسهم للاستشهاد فى سبيل الله ـ فقد استحقوا جزاء المحسنين، واستوفوْه كاملاً !

أما هؤلاء الذين لم يكن لهم مال ينفقونه فى سبيل الله ، أو قدرة بدنية على الجهاد بأنفسهم فى سبيل الله ، فهم — وإن كانوا ولا لومَ عليهم ،

ولا مؤاخذة — لم يكسبوا ما كسبه المجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، وبهذا سبقهم هؤلاء المجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، فى ميدان الفضل والإحسان ، وكانوا أعلى درجةً عند الله منهم .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى :

« فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » .

فهؤلاء ، وأولئك ، قد وعدهم الله الحسنى ، وإن كان المجاهدون بأموالهم وأنفسهم أعلى درجةً منهم فى مقام الإحسان ، الذى هو حظ مقسوم بين المسلمين الذين آمنوا بالله ، وأدوا لله ما أمرهم به ، جَهْدَ طاقتهم ، وما وسعت أنفسهم .

أما الذين آمنوا ، ولم يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وبين أيديهم المال ، ومعهم الصحة والعافية ، ولكنهم آثروا السلامة والدّعة ، وبخلوا بما آتاهم الله من فضله — هؤلاء قد بَخَسُوا دينهم حقّه ، ونزلوا عن درجات المؤمنين ، على حين ارتفع المجاهدون بأموالهم وأنفسهم درجات .. وبهذا كان البوْن بين الفريقين شاسعاً ، والمدى بعيداً .. وهذا ماتضمنه قوله سبحانه .

« وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيماً * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيما » .. فهذا الأجر العظيم الذى فضّل الله به المجاهدين على القاعدين ، هو درجات كثيرة فى مقام الإحسان ، ومغفرة من الله ورحمة ، تشتمل هؤلاء المجاهدين ، وتبدل سيئاتهم حسنات : « أولئك الذين نتقبّل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة » .

ولنا مع هذه الآية الكريمة وقفة لابد منها :

فقد أجمع المفسِّرون ، والفقهاء ، وأصحاب الحديث ، على أن متنزّل هذه الآية الكريمة ، لم يكن على هذه الصورة ، أوّلَ مانزلت . . !

يقولون : إن الآية نزلت أولاً هكذا :

« لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاًّ وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما * درجاتٍ منه ومغفرةً ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً » .

والذى يتلو الآية الكريمة على هذا الوجه ، يجد أنّ بين أولها وآخرها تناقضاً لايمكن رفعه بأى تأويل . .

فى أولها : « فضّل الله المجاهدين على القاعدين درجة . . »

وفى آخرها : « وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما . . درجات منه ومغفرة ورحمة . . » .

فكيف يستقيم هذا مع ذاك ؟ وكيف يكون فَضْلُ المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم يكون فَضْلُ المجاهدين على القاعدين درجاتٍ ومغفرةً ورحمة . . ؟

كيف يقع حكمان مختلفان على أمرٍ واحد ، فى حال واحدة ؟

فإذا تُليت الآية الكريمة على ماهى عليه . . هكذا : « لايستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجةً وكلاًّ وعدالله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما * درجاتٍ منه ومغفرة ورحمةً » — إذا تليت الآية على ماهى عليه ، كان لها هذا المفهوم الواضح الذى فهمناها عليه ،

وكان الحكمان المختلفان واقعين على فريقين من المتخلفين عن الجهاد : الفريق الأول الذى تخلّف بعذر ، ولم ينفق لعذر ، والفريق الآخر الذي تخلّف عن الجهاد لا لعذر ، ولم ينفق فى سبيل الله لا لضيق ذات يد .. بل إيثاراً للسلامة ، وبخلاً بالمال ، وضناً به فى هذا الوجه الكريم . .

فقوله تعالى : « غير أولى الضرر » ركن متين من أركان هذا البناء العظيم الذى للآية الكريمة ، وأن هذا البناء لا يقوم أبداً بغير هذا الركن . .

ونسأل : لم جاءت الآية الكريمة أولا دون ذكرٍ لقوله تعالى : « غير أولى الضرر » ثم جاء بعد ذلك قوله تعالى : « غير أولى الضرر » ملحقاً بالآية ، آخذاً مكانه بين نظمها الذى قامت عليه أولَ أمرها ؟ لم هذا ؟ بل كيف هذا ؟

والجواب الذى يقدمه المفسرون ، والفقهاء والمحدّثون . . هو :

أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، حين تلقى الآية الكريمة ، دعا من كتّاب الوحى من يكتبها ، وكان عبد الله بن أم مكتوم — وهو أعمى — ممن حضر مجلس رسول الله ، هذا ، فسأل رسولَ الله عن موقفه هو وأمثاله ممن لا سبيل لهم إلى الجهاد فى سبيل الله !

قالوا : فما إن سأل عبد الله بن أم مكتوم هذا السؤال ، حتى أخذ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ما يأخذه من الوحى ، فلما سُرّىَ عنه ، قال لكاتب وحيه : اكتب : « غيرُ أولى الضرر » . : فكتبها كاتب الوحى ، فى موضعها من الآية ، كما تلقاها الرسول الكريم وحياً من ربّه ! !

إنها قصة . . تنقصها الحبكة . . ! !

ولو استقام للآية وجه على هذا النظم الذى خلا من قوله تعالى : « غيرُ

أولى الضرر » كان من المستساغ ـ مع شيء غير قليل من الضيق والحرج ـ قبولُ هذه الرواية ، أو الروايات . .

أمّا ولا يستقيم للآية الكريمة مفهوم بغير قوله تعالى : « غير أولى الضرر » فإنه لا حرج من رفض هذه الرواية أو الروايات رفضاً باتاً ، دون التفات إلى تلك الروايات فى جملتها وتفصيلها . . إذ كانت قداسة القرآن الكريم فوق كل اعتبار ، وفوق كل مقام ! !

ولعلّ اهتمام القوم بالبحث عن أسباب النزول ، والتعرّف عليها ، واعتبارها عِلْما من علوم القرآن — لعل ذلك هو الذى فتح الطريق إلى مثل هذا القول فى الآية الكريمة . . والله أعلم .

آية : (٩٧ ـ ٩٩)

« إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) »

التفسير : فى هذه الآيات دعوة مشدّدة إلى محاربة الظلم والبغى والعدوان ، بأسلوب غير أسلوب القوة ، ولقاء العدوان بالعدوان ، والشر بالشر ، حين يكون الإنسان فى وجه قوة عاتية متسلطة ، ولا قدرة له على دفعها . .

إن كرامةَ الإنسان تفرض عليه أن يدفع عن وجوده الضيم والذل ، بكل ما يملك من وسائلَ مادية وغير مادية ، وإلا فقد باع إنسانيّته بثمن بخس ، ودرج نفسه فى قائمة الخسيس من الحيوان .

ولن يقيم على ضيم يُراد به إلا الأذلاَّن : عيْرُ الحىِّ والوتَدُ
هذا على الخسف مربوطٌ بِرُمَّتِه وذا يُشَجُّ فلا يَرثِى له أحدْ

وحين لا يجد الإنسان بين يديه القوة التى يدفع بها يد الظلم المسلَّطة عليه ، كان إمساك نفسه على هذا المرعى الخبيث وعدم التحول عنه ، إقراراً بقبول الظلم ، ونزولا على حكم الظالمين .

لهذا أوجب الإسلام على المسلم أن يحرك فى نفسه كل قواه ، لإنكار هذا الظلم ، والتصدّى له : « أُذِنَ للذين يقاَتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقديرٌ » . فحيث أمكنت المسلمُ القوةَ التى يدفع بها يد الظلم والبغى، وجب عليه أن يستعمل حقه ، فى الدفاع عن نفسه ، وصيانة كرامته وإنسانيته . .

وسلاح آخر ، وضعه الإسلام فى يد المسلم حين تخلو يده من سلاح القوة ، وهو الهجرة من ديار الظالمين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يجد الإنسان وجودَه وإنسانيته . . وبهذا يستنقذ نفسه ، ويفوّت على الظالمين إشباعَ شهوة الظلم والتسلط ، فيه ، وفى غيره من المستضعفين ، حيث فُتح لهم الطريق إلى الخلاص مما هم فيه من بلاء ، بالهجرة والفرار من وجه الظالمين !

وفى هذا الحديث الذى يدور بين الملائكة ، وبين أولئك المستضعَفين الذى أبَوْا أن يتحولوا عن موطن الظلم — إيثاراً لديارهم وأهليهم على كرامتهم وإنسانيتهم ، ومعتقدهم — فى هذا الحديث مساءلة لهؤلاء الذين استُضعفوا فقبلوا هذا الاستضعاف ورضوا به ، واتهام لهم بتلك الجناية التى جنوْها على أنفسهم ،

وأذلُّوا بها آدميتهم، ومحاكمة تنتهى بهم إلى عذاب السعير فى الآخرة، حيث ضاع إيمانهم فيما ضاع من آدميتهم، تحت سياط الظلم والعسف!

وهذا يعنى أن المؤمن لا يصبر أبداً على الظلم، ولا يقبله، وأنه إن قبله، وصبر عليه، لم يكن فى المؤمنين.. لأن المؤمن عزيز بالله، كريم على الله.. وطاعِم الظلم ومستسيغه لا عزّة له ولا كرامة!

فمن وجد القدرة على الهجرة والفرار من وجه الظلم والبغى، ولم يهاجر فهو آثم عند الله.. لأنه فى معرض الفتنة فى دينه، وهيهات أن يسلم له دين، وهو فى هذا الوطن، الذى تنطلق منه شرارات البغى، فتحرق مادياته ومعنوياته جميعاً..

وليست الهجرة هنا مقصورة على زمن معين، أو مكان معين.. بل الهجرة مفتوحة فى كل زمان، وإلى كل مكان، يجد فيه المؤمن متنفَّساً لمشاعره، ومُنطَلَقاً للسانه، ووجوها لسعيه!

وقوله تعالى: «إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولاَ يهتدون سبيلًا» استثناء وارد على الحكم العام الذى حَكَم به الله تعالى على المستضعفين الذين سكنوا إلى الظالمين، ولم يهاجروا.. فهؤلاء المستضعفون من الرجال والنساء، والولدان، لا حيلة لهم ولا قدرة معهم على الهجرة، فهم معذورون إذا لم يهاجروا، وقد أعفاهم الله من هذا العقاب الذى أخذ به القادرين على الهجرة، وقعدوا عنها.

وقوله تعالى: «فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» تحريض لهؤلاء المستضعفين أن يكونوا على نيّة الهجرة دائماً، وأن يعملوا لها، وأن يرصدوا أسباب القدرة عليها، فإن أمكنتهم الهجرة هاجروا.. وإلا فإن الله كان

غفوراً رحيما ، يغفر لهم ما يكون منهم من ضعف يمسّ عقيدتهم ، رحمةً بهم من رب رحيم .

الآية : (٩٧)

« وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا » (٩٧)

التفسير : الجهاد فى سبيل الله نية وعمل ، أو عزيمة وسلوك .. فمن صحّت نيته على الجهاد فى سبيل الله ، فقد قطع نصف الطريق إلى الله ، فإذا تحركت هذه النية فى صورة إعدادٍ للجهاد ، ثم استقامةٍ على طريق الجهاد ، فقد قطع النصف الآخر ، واستوفَى أجر المجاهدين كاملاً .. سواء بلغ ميدان القتال ، أو أدركه الموت قبل أن يبلغه .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كثيراً وَسَعَة .. »

بيان لِما فى طريق المجاهدين من أحوال تعرض للمجاهد ، وأنه طريق غير قائم على وجه واحد .. ففيه ضيق ، وفيه سعة ، وفيه بلاء وفيه عافية .. وأن على المجاهد أن يوطّن نفسه على هذا وذاك ، وأن يحتمل البأساء والضراء ، كما يجنى الغنائم والأسلاب ، وينال الأجر والثواب ..

والمُرَاغَم : كناية عن الشدة والضرّ ، لأنه مشتق من الرّغام ، وهو التراب .. والتراب يُكنى به عن الفقر والحاجة ، كما يقال فى الفقير المعدم : « يده والتراب » كما يُكنى به عن الذّلة والخضوع ، فيقال : « أرغم الله أنف فلان » أى جعله فى الرغام ، و« فعل فلان هذا الأمر وأنفه فى ارغام » أى مكرَهاً ذليلا .

وفى قوله تعالى : « وقع أجره على الله » إشارة إلى أن هذا الأجر — أجر المجاهد — لا يفوته أبداً ، ولا يخطئه أبداً ، لأنه أجر مضاف إلى الله ، بالوعد الذى وعده سبحانه المجاهدين ، ولن يخلف الله وعده !

الآية : (٩٨)

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً » (٩٨)

التفسير : الضرب فى الأرض هو السعى فيها بعزم وقوة ، سواء أكان للجهاد فى سبيل الله ، أم للسعى فى طلب الرزق .

والمراد بالضرب فى الأرض هنا هو الجهاد فى سبيل الله ، حيث قيّد القصرَ من الصلاة . بالخوف من العدوّ ؛ « إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا . . »

وقد أذِن الله للمجاهدين فى سبيل الله من الرخَصِ ما لم يأذن به لغير المجاهدين . . إذ كان الجهاد عبءا لا يحتمل المجاهد فوقه كثيراً من الأعباء ، والأضعف ، وعجز ، عن أداء المطلوب منه فى هذا المطن ، الذى يقف فيه المجاهد مواجها للموت ، فى غير خوف أو مبالاة . .

ولهذا جاء قوله تعالى :

« وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » . . جاء قوله تعالى هنا مبيحاً للمجاهدين فى سبيل الله أن يقصُروا من الصَّلاة ، إذا رأوا أنهم

فى وجه عدوّ يتربص بهم غفلة ، أو يترقب فيهم خالًا ، ليضرب ضربته ، وليبلغ مأربه !

والقصر من الصلاة هنا غير القصر فى الصلاة الذى أباحه الله فى السفر عامة ، سواء أكان للسعى فى الرزق ، أو للجهاد فى سبيل الله . .

القصر من الصلاة هنا هو التخفيف منها ، حسب الحال التى يكون عليها المجاهدون من عدوهم ، بحيث لا تسقط الصلاة أبداً فى أى حال كان فيها المجاهدون مع عدوّهم . . فقد تكون بإشارة أو إيماءة ، وقد تكون وقوفاً من غير ركوع أو سجود ، وقد تكون على ظهر فرس أو نحوه . . والأمر فى هذا كله متروك لتقدير المجاهد ، وموقفه من العدوّ ! .

وفى النظم القرآنى فى قوله تعالى : « أن تقصروا من الصلاة » بدلاً من أن تقصر والصلاة ، ما يشير إلى قصر أجزاء غير محدودة من الصلاة . . تبدأ من أدائها كاملة فى صورتها التى تؤدى عليها فى قصر صلاة السفر ، إلى الإيماءة والإشارة . . فإن لفظ « مِن » هنا يفيد التبعيض ، كما يفيد الابتداء .

وقوله تعالى : « إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا » تنبيه للمؤمنين إلى الخطر الذى يواجههم من أعدائهم ، وأن عليهم أن يأخذوا حذرهم منهم ، فهم العدوّ الذى لا تخفى عداوته . .

الآية : (٩٩)

« وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ

عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » (٩٩) .

التفسير : يبين الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية حكم الصلاة مع النبىّ فى ميدان القتال . . وإنها لصلاةٌ مرَاعًى فيها الحذر والحيطة من مباغتة العدوّ ، وانتهاز الفرصة فى المسلمين ، وهم بين يدى الله فى الصّلاة . . فتلك فرصة للعدوّ، لا يدعها تمر ، خاصة إذا ألقى المسلمون أسلحتهم ، وفرغوا للصلاة ، يؤدونها كاملة ، بركوعها وسجودها ، وعدد ركعاتها . .

وإذا علم المشركون أن المسلمين يؤدون صلاتهم فى الحرب كما يؤدونها فى السلم ، فإنهم سيرصدون الوقت الملائم للهجوم عليهم ، وهم فى تلك الحال التى أخلوْا فيها أنفسهم من الحرب ، واتجهوا لله بقلوبهم وأجسامهم !

لهذا شرع الله للنبىّ أن يصلّى بالمسلمين على هذا الوجه الذى بيّنته الآية الكريمة ، وهو أن يقيم النبىّ الصلاة ، وأن تجىء طائفة من المؤمنين لتصلى مع النبى ، ومعها أسلحتها ، وتبقى طائفة أخرى ترصد العدوّ ، وتتلقى صدمته الأولى إن هو حاول الهجوم ، وعندها تكون الجماعة التى تصلى مع النبىّ قد وضعت يدها على سلاحها وخفّت لنجدة إخوانهم المشتبكين فى الحرب ، وبهذا لا يأخذ العدو فرصته !

فإذا صلّت الجماعة الأولى الركعة الأولى من الصلاة ؛ سلّمت ومضت ، لتأخذ مكان الجماعة التى لم تصلّ ، ثم لتأت هذه الجماعة وتأخذ مكانها فى الصلاة خلفه

النبيّ ، آخذةً حِذرها وأسلحتها ، وليصلّوا الركعة الثانية ، التي بها يختم النبيّ بها صلاة السفر .

وقوله تعالى : « وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ » تنويه بشأن المؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ، حيث تشير كلمة « فيهم » إلى إحاطة المسلمين بالنبيّ ، والتفافهم حوله ، حتى كأنهم الظرف الزمانى والمكانىّ له ، وحتى كأن مشاعر النبيّ الكريم ونفحاته تملأ هذا الظرف ، زماناً ومكاناً ، بأضوائها ، وأنوارها . .

وقوله تعالى : « وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ » هو استثناء من الأمر الوارد فى قوله تعالى : « وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ » . . فهذا الأمر ليس على إطلاقه ، وليس على سبيل الوجوب ، وإنما هو للنصح والإرشاد ، وأن للمجاهدين أن يتحلّلوا منه ، وأن يضعوا أسلحتهم ، إذا كان بهم أذى من مطر ، أو كانوا فى حال ضعف . . فإن وضع الأسلحة فى تلك الحال فرصة لهم لتجديد نشاطهم وقوّتهم . . والأمر فى هذا كله متروك للحال التى عليها المجاهدون ، ولتقديرهم الموقف ، وأن لهم أن يأخذوا منه ما يرون ، وأن يدعوا ما يرون ، والمهمّ فى هذا كله أن يكونوا على حذر ، وأن يقدّروا الموقف بهذا الاعتبار ، وأنهم فى وجه عدوّ لا يتورع أن يبغتهم وهم بين يدى الله ، ولهذا جاء قوله تعالى : « وخذوا حِذركم » مختتما هذا التوجيه ، الذى يقوم أولاً وآخراً على أخذ الحيطة والحذر من هذا العدوّ الراصد المتربص !

وقوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً » تعزية المسلمين ، وتسلية لهم من هذه الأحوال التى يلبسونها من هذا العدوّ ، الذى لا يوقّر حرمات الله ، ولا يرعى للمسلمين حرمةً فيها ، بل إنه يتخذها ذريعة للنيل من المجاهدين ،

والتنكيل بهم . . فليحتمل المجاهدون هذا الموقف ، الذى يجمعون فيه بين أداء الصلاة ، والجهاد فى سبيل الله . . فإن الله قد أعدّ لهم الكرامة والرضوان ، على حين أعد لعدوّهم العذاب والهوان . .

هذا ، وللقائد الذى يقوم على أمر المسلمين فى الجهاد ما للنبىّ فى هذا الموقف ، حيث يصلى بالمسلمين الصلاة لله ، على هذا الوجه الذى شرعه للنبىّ صلوات الله وسلامه عليه .

الآية : (١٠٠)

« فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ إِنَّ ٱلصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » (١٠٠)

التفسير : فإذا أمن المجاهدون هجمة العدوّ عليهم ، وبعُدت يده عن أن تنالهم ، رجع المجاهدون إلى حالهم الأولى من إقامة الصلاة على وجهها ، وعلى إعطاء كل جوارحهم لله ، وذِكر الله .. فيذكرونه قائمين ، وعلى جنوبهم ، ذكراً متدبراً متفكراً ، فليس هناك شىء يشغلهم عن الله ، وعن التفكر والتدبّر فى ملكوت الله ، وملء قلوبهم خشية لجلاله ، وعظمته .

وقوله تعالى : « إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا » هو تنويه بشأن الصلاة ، وأنها فرض لازم ، لايتحلل منه المسلم بحالٍ أبداً .. فهى كتاب موقوت ، كتبه الله على المؤمنين ، أى فرضه ، وحدّد لكل صلاةٍ وقتها ، الذى هو الظرف الحاوى لكل صلاة ..

ومن هنا كان رأى بعض الفقهاء أن الصلاة إذا لم تصلّ فى وقتها ، لا يمكن

جبرها بإعادتها فى وقت آخر .. كالحج الذى لايؤدّى إلا فى وقت معلوم ، وكالصوم فى رمضان .. وأنه إذا كان للمفطر فى رمضان بعذر مشروع أن يجبر الأيام التى أفطرها بصوم مثلها ، أو بإطعام مسكين ، على حسب ماهو مبين فى أحكام الصوم — فانه ليس للمصلّى مثل هذا الذى للصائم ، إذ كان للصائم المفطر عذر يقوم له ، على حين أنه ليس للمصلّى أى عذر يبيح له أن يدع الصلاة حتى يفوت وقتها ، فقد جعل الله الصلاة كتاباً موقوتا ، وقطع المعاذير فيها على كل ذى عذر ..

وعذرٌ واحد هو الذى تسقط فيه الصلاة ، وهو ماتكون عليه للرأة فى حال الحيض والنفاس،وهو عذرمسقط للصلاة عنها فى هذه المدة إسقاطاً كاملا ، فلا تعيد مافاتها من صلاة ! !

الآية : (١٠١)

« وَلاَ تَهِنُوا فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللهُ عَلِيماً حَكِيماً » (١٠١)

التفسير : وحيث لايزال المؤمنون هنا فى مواقع الجهاد ، فقد جاء قول الله تعالى : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم » دعوةً من الله ، تستحثّ عزائم المسلمين ، وتوقظ مشاعرهم للجهاد فى سبيل الله ، بعد أن طال وقوفهم فى هذا المقام ، وما واجهوا فيه من شدائد وأهوال .. وابتغاء القوم : هو طلبهم ، ولقاؤهم فى ميدان القتال .. والوهن الضعف ، أى ولا تضعفوا ولاتفتروا فى طلب العدو الذى يطلبكم للقتال .

ونعم .. إن أعباء الجهاد ثقيلة ، ولكنها على نفس المؤمن أخفّ وأهون مما هى على غير المؤمنين . .

فالكافرون يجدون من أهوال الحرب ، وشدائدها مايجد المؤمنون ، ولكن المؤمنين يستعذبون هذا المورد ، الذى يفتح لهم طريق الرحمة ، ويُنزلهم عند الله منازل الرضوان .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

« إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجُون من اللهِ مالا يَرْجونَ » .

فالمؤمنون فى قتالهم العدو يقاتلون وهم على شعورٍ بأنهم إن كُتب لهم النصر رجعوا بالسلامة والغنيمة ، وإن كتب لهم الاستشهاد ظفروا بما عند الله للشهداء من رضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .. إنها إحدى الُحسنيين للمجاهدين : النصر أو الاستشهاد .. وليس للعدو إلاّ واحدة منهما .. وهى النصر ، أو الموت على الكفر !

وقد يقال : إن الكافرين يقاتلون ومعهم هذا الشعور بأنهم على الحقّ ، وأنهم إنما ينتصرون لمبدأ ، وأنهم إذا فاتهم النصر لم يفتهم الموت فى سبيل المبدأ !

والجواب على هذا ، هو أن الخطاب هنا للمسلمين ، وأنهم على يقين من أمرهم وأمر عدوّهم ، وأنه يكفى هنا أن يدرك المؤمنون هذه الحقيقة وأن يستحضروها ، وأن يقاتلوا عدوّهم عليها ، ولا عليهم مايعتقده عدوهم فيهم أوفى نفسه ! وإن أى حال يكون عليها العدوّ لن تبلغ الحال التى يكونون هم عليها ، من وَثاقة الإيمان بالله ، والثقة فيما عنده لهم عن حسن الجزاء ، وعظيم الثواب !

الآيتان : (١٠٢ ـ ١٠٣)

« إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا » (١٠٢) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا » (١٠٣)

التفسير : قوله تعالى : « إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ لتحكم بينَ الناس بما أراكَ الله » هو بلاغ مبين لما بين يدى النبيّ من آيات الله ، وما فيها من حق ، وأن هذا الحق الذى بين يديه ، هو رحمةٌ وهدًى للناس ، وما كان هذا شأنُه فلا يكون سبباً فى ضر أو أذى .. شأن الطبيب الذى يحمل إلى الأجسام الدواء ، يبغى سلامتها وعافيتها .. !

وفى الناس الظالمون ، الخائنون ، الذين يمدون أيديهم إلى الناس بالبغى والعدوان ، ثم إذا جىء بهم إلى ساحة القصاص رَمَوْا بما فى أيديهم من ظلم وبغى على غيرهم من الأبرياء ، وجاءوا إلى ذلك بالزور والبهتان ، وبشهود الزور والبهتان ..

وموقف النبيّ الكريم مع هؤلاء المبطلين ، هو أن يحكم فيهم بما أراه الله ، وبما فى يديه من كتاب الله ، وأن يستمع إلى طرفى الخصومة ، دون أن يكون خصيماً ، أى معادياً لأىٍّ من الطرفين ، حتى ولو استبانت خيانة الخائن ، وظهر بهتانه .. إنه — مهما كان جرمه — لا يؤخذ بغير الجزاء الراصد لجريمته ، عندما تثبت إدانته .. فلا يقف منه القاضى موقف العداء ، الذى قد يميل به إلى الجور على هذا المتهم ، وتجاوزِ الحدّ فى العقاب الذى يستحقه !

وانظر كيف تدبير الإسلام فى حمايته للإنسان ، ودفع الظلم عنه ، حتى وهو الظالم الأثيم .. ذلك أن الظلم لا يُدفع بالظلم ، وإنما الذى يدفعه هو تحقيق العدل ، وأخذ الظالم بظلمه ، دون مجاوزة حدود الله فيه ..

وإذ كان الظالم المفترِى على الله وعلى الناس الكذبَ — فى وجه البغضة والكراهية من الناس ، وخاصة عند مَن يقومون على العدل ، ورفع الظالم ، الامر الذى قد يحمل ولىّ الأمر على التنكيل به ، والمبادرة إلى إلقاء ثقل التهمة كلها عليه ، دون مراعاة للظروف المخففة ، التى لو نظر فيها ولىّ الأمر نظرة لاتحمل العداوة والشنآن ، فربما كان ذلك مما يمسك به عن الجور ومجاوزة الحد ، — نقول : إذ كان الظالم الخائن لأمانة الله ورسوله والمؤمنين ، فى وجه هذه العداوة — فقد كان من تدبير الشريعة الإسلامية ، وحكمتها ، أن تحمى هذا المجرم من الجور ، وأن تأخذه بحكم الله فيه .. ولهذا جاء قوله تعالى للنبى الكريم: « إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَاكَ ٱللهُ وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً » — جاء هذا القول من ربّ العالمين ، لرسوله الكريم ،دستوراً فى القضاء بين الناس ، والفصل فى المنازعات التى تحدث بينهم.. وهو أمر يلتزم به ولىّ الأمر ، القائم على القضاء بين المتخاصمين — جانبَ الحيْدة المطلقة ، وأن يخلى نفسه من كل ما يندسّ إليها من مشاعر البغضة والعداوة للمذنب ، الذى ينتظر جزاء ذنبه .. وأنه إذا كان لولى الأمر أن يُنكر المنكر وأن يأخذ أهله بالقصاص ، فإنه ليس له أن يكون خصما المجرم ، المذنب ، وهو قاضيه ، والحاكم عليه .. إذ لايتفق أن يكون الإنسان خصما وحكما فى وقت معاً .. والشاعر العربى يقول :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى كيف الخصامُ وأنت الخصم والحكمُ ؟

إن ذلك لا يتفق أبداً ! حتى فى مقام النبوة ، وبين يدى النبىّ .. ! « ولا تكن للخائنين خصيما » فكيف بغير النبى من عباد الله ؟

وقوله تعالى : « وَاسْتَغْفِرِ ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيماً » . . هو دعوة إلى طلب المغفرة من الله ، لِما يكون قد طاف بالنفس من مشاعر العداوة

والشنآن لأهل السوء الذين أُخذوا بذنبهم ، وربما كان لذلك أثره فى الشدة عليهم ، وسدّ كل منافذ التسامح دونهم ، فيما كان يمكن أن يُحمل على التسامح !

وهذا الأدب السماوى للنبى الكريم تأديب لنا ، وتحذير من الجور فى القضاء ، وحراسة للنفس من الدوافع التى تدفع بها إلى الانحياز إلى جانب أحد المتخاصمين، وهو المعتدَى عليه ، والشدة المجاوزة للحدّ على المعتدى .

الآيات : (١٠٧ ـ ١٠٩)

« وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا » (١٠٩)

التفسير : فى الآيات السابقة كان التوجيه السماوى إلى النبىّ — ومن ورائه المسلمون جميعاً — ألاّ يكون خصيما وعدواً لمن تظهر خيانتهم، وينكشف جُرمهم ، فى مجلس الفصل فى الخصومات ، وفى هذه الآيات ، يجىء التوجيه السماوى متمما لتلك الصورة ، ضابطاً الوجهَ المقابل لها .. وهو ألا يقف من الخائنين وأولى التّهم موقفَ الدفاع ، الذى يجادل عنهم ويلتمس المعاذير لهم ..!

فإذا كان العدوان من ولىّ الأمر على الظالم الآثم أمراً تنكره الشريعة ، فتفرض حمايةً على الظالم المعتدى ، حتى لايجاوز بعقابه الحدّ المرصود لجريمته — فإن الميل مع الظالم الآثم ، والتماس المعاذير لجريمته ، ابتغاء التخفيف عنه ،

لا يقلّ فى نظر الشريعة نُكراً عن الأمر الأول ، لأن فى هذا عدواناً على حق الله ، وتعطيلا لحدوده !

وقوله تعالى :

« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ » هو تهديد ووعيد لهؤلاء الذين يدبرون السوء ، ويؤامرون أنفسهم وأصحابهم على المنكر ، فى خفاء ، وحذر ، بعيداً عن أعين الناس، حتى لا ينكشف أمرهم ، وينفضح حالهم ، ويفسد تدبيرهم ..

ولكن أين يذهب هؤلاء الذين أخفوا مكرهم السيء عن الناس ؟ إنهم إن استخفَوْا من الناس فلن يستخفوا من الله ،الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . . فهو ـ سبحانه ـ « يعلم خائنةَ الأعين وما تخفى الصدور » .. وهو سبحانه : « معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول » !

إنهم فى سَكرة يعمهون .. يحسبون أنهم — وقد استخفَوْا عن الناس — قد غاب أمرهم عن الله ، وأنهم وقد أفلتوا من يد الناس ــ لن تمسك بهم يد الله !

وكلاّ ، فإن عين الله لا تغفل ، وإن ما بيّتوه من سوء قد سجله الله عليهم ، وسيأخذهم به .. « وكان الله بما يعملون محيطاً » !.

وقوله تعالى : « هآ أَنْتُمْ هَؤُلآءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً » هو استدعاء لأولئك الذين يتولّوْن الظالمين ، ويمكنون لهم من إمضاء مكرهم السيء ، وتغطية ما ينكشف عنه ، وذلك بالدفاع عنهم ، وتبرير أعمالهم المنكرة ، والتماس التأويلات الكاذبة لها . .

فهؤلاء الذين يقومون وراء الظالمين هم شركاء لهم فى هذا الجُرْم .. وهم مدعوّون معهم إلى ساحة المحاكمة والقصاص بين يدى أحكم الحاكمين! وفى هذا الموقف تخرس ألسنة هؤلاء الأولياء المدافعين عن الظلم والظالمين .. ويتعرّى أولئك الظالمون من كل قوة تدفع عنهم سوء ما عملوا .

الآيات : (١١٠ ـ ١١٢)

« وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّما يَكْسِبُهُ عَلى نَفْسِهِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً » (١١٢)

التفسير : وإذ يحذّر الله الظالمين وأولياء الظالمين ، ويتوعدهم بالعقاب الراصد لهم يوم القيامة، فإنه سبحانه وتعالى لا يسدّ منافذ الخلاص على هؤلاء وأولئك ، بل يفتح لهم أبواب التوبة والإنابة ، ويدعوهم إلى الرجوع إليه من قريب ..فإنهم إن فعلوا ، وأخلَوْا أيديهم من الإثم ، وأنابوا إلى ربهم ، وجدوا القبول والرحمة ، من رب غفور رحيم .

وعمل السوء قد يتعدّى الإنسان إلى غيره ، ففيه ظلم للغير ، وظلم له .. كالسرقة ، والغش ، وشهادة الزور . فنى هذه الأمور السيئة ونحوها ظلم للغير ، وظلم للنفس ، بما جنى عليها صاحبها من هذه المنكرات ، التى تُبعد مرتكبها عن ربه ، وتعرضه لسخطه ،ونقمته ، وعذابه .

وقد يكون عمل السوء مقصوراً أثرُه على مرتكبه ، كالذى يشرب الخمر ،

أو يفطر فى رمضان لغير عذر .. فهذا العمل السيء وَاقع عليه وَحده ، وأثره لا يتعدّاه إلى غيره ..

ولهذا جاء قوله تعالى : « وَمن يعمل سوءا أوْ يظلم نفسه » جامعاً لأفعال السوء كلها ، ما كان منها متعديا أثرُه إلى الغير ، وَما كان مقصوراً على النفس وحدها .

وفى قوله تعالى : « ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » استحضار لجلال الله وعظمته ، وتلويح بغفرانه ورحمته ، حيث أنه سبحانه وتعالى يدعو المذنبين إليه ، وينتظر استجابتهم له ، وإقبالهم عليه ، فمن استجاب لله ، وسعى نحوه ، فطريقه إلى الله مفتوح ، لا تقوم دونه الحجب ، ولا يرده عنه الحجّاب . . بل « يجد الله » فى انتظاره ، مادًّا يده له بالقبول والمغفرة .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً » تحديد للمسئولية ، حيث لا يؤخذ أحد بجُرم غيره . . . « ولا تزر وازرة وزر أخرى » . . ولن يخشى البرىء أن يُلقى عليه جرم المجرم ، فإن أمر القضاء إلى عليم حكيم ، يعلم عمل كل عامل من خير أو شر ، فيجزى بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، كما يقضى بذلك عدله ، وحكمته .

وقوله تعالى : ومن يكسبْ خطيئةً أو إثماً ثم يرْم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً » تهديد ووعيد لأولئك الذين يكسبون الخطايا والآثام ، ثم يُلقون بها على الأبرياء ، ويحمّلونهم تبعاتها ، وذلك فى هذه الحياة الدنيا ، حيث لا يرى الناس منهم ما يرى الله ، فيجدون فى ذلك سبيلا إلى التخلص من جرائمهم .. وكلاّ ، فإن جُرمهم قد سجله الله عليهم ، وهو آخذهم به ، ومجازيهم عليه ، وهم إذا رموْا بهذا الجرم غيرهم فقد اكتسبوا جرماً آخر إلى جرمهم ،

إذ أصابوا بريئاً ، وجنَوْا على غير ذى ذنب ! وبهذا صار جرمهم « مبيناً » أى عظيماً ، ظاهراً لا يحتاج إلى من يكشف عنه .

والخطيئة : الوقوع فى المعصية .

والإثم : البغى ، والعدوان ، وهو الطريق إلى الوقوع فى الخطيئة .

والبهتان : هو الزور .

الآية : (١١٣)

« وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَآئِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَىْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً » (١١٣)

التفسير : المنافقون بما يزيّنون من الباطل ، وما يموهون من الحجج ، لضلالاتهم ، وما يلفقون من الأدلة لأباطيلهم — يفسدون على كثير من الناس وجه الحق ، ويختِلونهم عن طريق الهدى ، حين يخيلون إليهم الباطل حقاً ، والضلال هدًى . . وهم إذ يضلون الناس بهذا ، إنما يضلون أنفسهم ، ويوردونها موارد الهلاك ، إذ جنَوْا على أنفسهم ، أولاً ، بركوب الضلال ، ثم جنوا على غيرهم ، ثانياً ، باستدعائهم إلى ركوب هذا الضلال معهم ، وتزيينه لهم . .

وقد كان من فضل الله سبحانه وتعالى على النبىّ أن عصمه من كيد هؤلاء المنافقين ، ففضحهم ، وفضح أساليبهم ، وبهذا حرس الله النبىّ وحماه من هذا الكيد الذى كانوا يكيدون له !

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « ولولا فضلُ الله عليك ورحمته لهمّت طائفةٌ مِنْهم أن يضلوك » .

والطائفة ، هي الجماعة من هؤلاء المنافقين ، وهي تمثّل رءوس المنافقين ، وأصحاب الرأى والتدبير فيهم . .

وفى قوله تعالى : « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفةٌ منهم أن يضلوك » ما يشعر بأن هؤلاء المنافقين لم يَهمّوا بالسوء ، إذ كان فضل الله على النبي ورحمته به ، وحراسته له ، ممّا يحجز هؤلاء المنافقين عن أن يهمّوا ، فضلاً أن يبلغوا من النبي ما همّوا به ، وما حدثتهم به أنفسهم من شر وعدوان !

والواقع أنه كان من المنافقين همٌّ وعزم على ركوب هذا المنكر نحو النبي ، بل وقد خرج هذا الهمّ أحيانا إلى حيّز التنفيذ والعمل ، فجاء منهم من يقول للنبيّ فى غزوة الخندق : «إن بيوتنا عورة » ..وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا » (١٣ الأحزاب) وجاء منهم من يقول للنبيّ فى غزوة تبوك : « إئذنْ لى ولا تفتنِّى » (٤٩ : التوبة) وقد أذن النبي لمن استأذنه منهم ، فكان من الله هذا العتاب الرفيق للنبي الكريم : « عَفَا الله عنك لم أذِنتَ لَهُمْ حتى يتبيّن لَكَ الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » (٤٣ : التوبة)

فما تأويل هذا ؟

والجواب : هو أن هذا الهمّ الذى كان من المنافقين ، وما تبعه من تدبير وعمل ، لم يؤثّر أثَرَه فى النبيّ ، ولم يخرج به عن طريق الحق والعدل الذى أقامه الله عليه ، وأن ماجنى المنافقون من نفاقهم هذا كان حسرة ووبالاً عليهم فى الدنيا والآخرة ، إذ فضحهم الله على الملأ ، وفضح نفاقهم ، وعرضهم للأعين عراة يجلّلهم الخزى والعار ، وأنهم ودّوا لولم يهمّوا ولم يفعلوا . . فكان همّهم

هذا الذى همّوه ، وفعلهم ذلك الذى فعلوه ، جنايةً على أنفسهم .. أما النبىّ فلم يخلُص إليه من هذا الهمّ شىء !

وعلى هذا ، كان الهمّ الذى همّوه بالنبىّ كأنه لا شىء بالنسبة له ، إذا أفسده الله عليهم ، وردّه إلى صدورهم .. فكأنهم همّوا ولم يهمّوا ! !

وفى هذا ما يشير إلى علوّ مقام النبىّ الكريم ، وإلى قوة هذا الحصن الحصين الذى أقامه الله عليه فى وجه المنافقين ، بحيث لا يجرؤ أحد منهم أن تحدّثه نفسه ـ لو عرف مكانة هذا النبىّ ، ومكانه هو منه ـ أن يهجس فى نفسه ـ مجرد هاجس ـ بمحاولة إنزاله ولو قِيد شعرة من هذا المقام الكريم الذى رفعه الله إليه .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : «ومايضرونك من شىء» أىْ ، أىّ شىء من الضرر ، فيما يتصل بدينك ، أو مكانك من هذا الدِّين ! .

وفى قوله تعالى : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم » وفى عطف هذا الفعل على الفعل قبله : « وما يضرونك من شىء » .. فى هذا كبت للمنافقين ، وضربة قاصمة من ضربات الحسرة والكمد لهم .. فإنهم وقد أرادوا أن يفسدوا على النبىّ أمرَه ، قد أفسدوا أنفسهم ، ولم ينالوا من النبىّ شيئاً ، بل وأنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعلمه ما لم يكن يعلم ، حتى لكأن إنزال الكتاب والحكمة على النبىّ وتعليمه من الله ما لم يكن يعلم ، قد جاء فى أعقاب هذا المكر السيىء الذى مكروه بالنبىّ ـ زيادةً فى تكريم النبىّ ، ومضاعفة لفضل الله عليه ، وإمعاناً فى خزى المنافقين وكبتهم ، وملء قلوبهم حسرة وندماً ، من حيث أرادوا الشرّ بالنبى ، فكان أن أضعف الله فضله عليه ، وغمره بإحسانه . . وهذا ما تشير إليه خاتمة الآية : « وكان فضل الله عليك عظيما » . .

الآيتان : (١١٤ ـ ١١٥)

« لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا » (١١٥)

التفسير : أكثر مايجتمع عليه المنافقون هو الشرّ ، وأكثر مايتناجَوْن به ، هو السوء . .

والنجوة ، والمناجاة ، هى المسارّة بالحديث ، والتخافت به ، بعيداً عمن يسمع أو يرى .. وأصل « النجْوة » المكان المرتفع ، ينجو به الإنسان والحيوان ، ويعتصم فيه من أن تناله يد العدوّ .

وقوله تعالى : « إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ » هو استثناء للجانب الطيب من النجوى ، إذ ليس كلّ ما يسارّ به الناسُ بعضَهم بعضاً من حديث ، وما يحجزونه عن أسماع غيرهم وأبصارهم هو من قبيل الشرّ ، الذى يحرص الناس على كتمانه ، وإخفاء وجهه عن غيرهم . فقد يكون فى هذا الحديث الخفىّ ، مايراد به الخير والإحسان ، وقد يكون فى كشفه والمعالنة به تفويت للخير الذى ينطوى عليه ، وتضييع للإحسان المراد منه . . فمن اجتمع إلى غيره ، وتناجى معه فيما هو خير له وللناس . . كدعوة إلى صدقة ، أو توجيه إلى معروف ، أو إصلاح بين الناس —

فلا حرج عليه فى هذه النجوى ، متحدثًا أو مستمعاً . .

وإذ كانت « النجوى » غالباً ماتحمل على الرِّيَب والظنون بأهلها ، كان على الإنسان أن يحرس نفسه من أن يكون مَظِنّة تهمة أو ريبة ، وألا يدخل مداخلها إلا إذا كانت غايته منها تحصيل الخير له أو لغيره ، وألا يكون وراءه شر يدبّر للناس ، أو كيد يكاد لهم به . .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغَآءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا » .

الإشارة هنا بقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك » متوجهة إلى الأمر بالصدقة أو المعروف أو الإصلاح بين الناس . . أى ومن فعل ذلك فى مناجاته ، لا يريد به إلا وجه الله ، فله أجر عظيم عند الله ، وثواب كريم لما فعل .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »

الشقاق : المخالفة والمنابذة . .

وشقاق الرسول : مخالفة أمره ، والخروج عن طاعته . .

والذين تبيّن لهم الهدى هنا ، هم المنافقون ، الذين دخلوا فى الإسلام ، وعرفوا كثيراً من حقائقه ، ولكن غلبت عليهم شقوتهم ، فلم يستقيموا على طريق الحق ، بل اضطربوا وتخبطوا . .

فهؤلاء المنافقون أكثر ما تكون لقاءاتهم ومناجاتهم لتدبير الشرّ ، وتبييت السوء ، والعمل على مشاقّة الرسول ومخالفته ، واتخاذ سبيلٍ لهم غير سبيل المؤمنين ، وطريقهم . . وقد توعّد الله سبحانه وتعالى من يكون على تلك الحال بقوله : « نولّه ماتولّى ونصله جهنّم وساءت مصيراً » أى نقيمه على

هذا الوجه الذي اتخذه لنفسه ، مخالفاً به الطريق المستقيم ، طريق المؤمنين ، وتَدَعه لهواه الذي غَلَب عليه ، وساقه إلى هذا المساق .. وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى يخلى هذا المنافق لنفسه ، ويتركه فى ضلاله ، فلا يمدّ إليه يد العون والتوفيق . « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً » (١٠ : البقرة) .

الآيات : (١١٦ ـ ١٢١)

« إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا » (١٢١)

التفسير : الشرك بالله ، ضربٌ من ضروب الكفر به . .

فإذا كان الكفر جحوداً بالله ، وإنكاراً لوجوده ، فإن الشرك ضلال عن طريق الله ، ورؤية غير واضحة لجلال الله وعظمته ، الأمر الذى يجعل الإنسان ينظر إلى الله فى هذا المستوى الذى لا يرتفع فيه كثيراً عن بعض مخلوقاته .. وهذا إنكار ضمنى لوجود الله ، ذلك الوجود الحق ، الذى ينفرد فيه سبحانه بالربوبية المطلقة ، ويَدِين له فيه جميع المخلوقات بالعبودية والولاء . . « إنْ كلّ من فى السّموات والأرض إلاّ آتِى الرّحْمٰنِ عبداً » (٩٣ : مريم) .

والقرآن الكريم يتحدث عن المشركين باعتبار أنهم طائفة من طوائف الكافرين، وفرقة من فرقهم.. فالمشرك كافر، لا جدال.

فأهل مكة — قبل الإسلام — كانوا مشركين، يعرفون الله معرفة باهتة، ويرونه من خلال آلهتهم، وكأنه واحد منهم، أشبه بشيخ القبيلة فى قبيلته!! وقد سماهم القرآن الكريم كافرين، كما سماهم مشركين، وقوله تعالى: «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» (٦ : البقرة) من مُراده بعضُ مشركى مكة. كما أشرنا إلى ذلك فى تفسير هذه الآية.. ومثل ذلك قوله تعالى: «إذ يُوحى ربّك إلى الملائكة أنّى معكم فثبّتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناقِ واضربوا منهم كلّ بنان» (١٢ : الأنفال) فإن هذه الآية نزلت فى غزوة بدر، وفيما كان فيها من إمداد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالملائكة فى هذه المعركة.. وقد وُصف المشركون هنا بالكفر

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ». هو بيان لما قضى به سبحانه وتعالى فيمن يشرك به أو ينكر ألوهيته، وهو أنه سبحانه لا يغفر لمرتكب هذا الإثم إثمه، ولا يناله برحمته، إذ أن هذا المشرك أو المنكر، قد استخفّ بالله، فلم يولّ وجهه إليه، ولم يُخلص قلبه له، فكان جزاؤه أن يستخفّ به الله، ولا يقيم له يوم القيامة وزنا، كما يقول سبحانه وتعالى: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِى مِنْ دُونِى أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً * قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ

لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا * » (١٠٢ ـ ١٠٦ : الكهف).

وقوله تعالى : « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ » هو استدعاء من الله سبحانه وتعالى للعصاة والمذنبين من عباده الذين آمنوا به ، ليتعرضوا لواسع رحمته ، وعظيم فضله ، فإنهم وقد آمنوا به ، وأخلَوْا قلوبهم ومشاعرهم من كل معبود سواه ، فقد دخلوا فى محتوى هذا النداء الكريم ، الذى نادى الله به عباده المؤمنين فى قوله سبحانه « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ » (٥٣ ـ ٥٤ : الزمر).

فما كان من الذنوب دون الشرك والكفر ، فهو فى ساحة رحمة الله ، وفى معرض غفرانه .

وليس فى قوله تعالى : « لمن يشاء » قيداً يحدّ من رحمة الله ، أو يحجز من غفرانه ، ولكن المراد به وضع الرحمة والمغفرة تحت مشيئة الله ، يضعهما حيث يشاء ، ويَفْضُل بهما على من يشاء ، فضلاً وكرماً ، وليس لأحد أن يتألّى على الله ، أو أن يُلزمه شيئاً من هذا العطاء المتفضّل به . . وبهذا تعظم المِنّةُ ، ويتضاعف الإحسان ، إذ كان ذلك من غير مقابل ، ودون استيفاء لجزاء على عمل ، فصاحب العمل له جزاء عمله ، كما يقول سبحانه : « نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيعُ أجرَ المحسنين » (٥٦ : يوسف) فرحمة الله واقعة حيث يشاء لمن يشاء . . أما المحسن ، فقد كتب الله على نفسه أن يوفيَه أجره ، بل ويوفيه هذا الأجر أضعافاً مضاعفةً ، كما يقول سبحانه : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » .

وقوله تعالى: « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيدًا » كشفٌ للطريق المهلك الذى ركبه المشرك بشركه ، وأنه قد بَعُدَ عن طريق النجاة والسلامة ، ولن يزيده المضىّ فيه إلا إمعاناً فى الضلال ، وبعداً عن طريق الحق، وشروداً عن مظانّ النجاة !

وقوله تعالى:

« إن يدعونَ من دونِهِ إلا إناثاً وإن يدعونَ إلا شيطاناً مريدا » .

الضمير فى قوله تعالى : « من دونه » يعود إلى الله سبحانه وتعالى ، و « إنْ » بمعنى حرف النفى « ما » أى مايدعو هؤلاء المشركون من المعبودين الذين يعبدونهم من دون الله ، إلاّ إناثاً .

والشيطان المريد . هو إبليس الذى تمرّد على الله ، وجَرُؤَ على عصيانه والخروج عن طاعته . .

والمعنى : أن هؤلاء الذين أشركوا بالله ، وعبدوا من عبدوا من دونه ، لم يكن تقديرهم لهؤلاء المعبودين ، إلا عن نظر سقيم، وقلب مريض ، وعقل سفيه. فما هؤلاء المعبودون الذين اتخذهم المشركون أرباباً لهم من دون الله — إلا أحدُ شيئين : أولهما : إناث .. أى معبودات من المصنوعات ، يعملونها بأيديهم ، فى صورة أوثان وأصنام ، ثم يزينونها بالملابس والحلىّ ، كما تتزين النساء !

وعبادة مثل هذه المصنوعات سَفَه ليس وراءه سَفَه ، وضلال ليس بعده ضلال .. لأنها (أولا) أشياء ميتة ، لاتسمع ، ولا تبصر ، ولا تملك من أمر وجودها شيئاً .. فكيف يُراد منها الخيرُ لغيرها ، أو يرجى منها العون لمن يقوم على أمرها ، ويحفظ وجودها .. ولأنها (ثانياً) لم تتّخذْ من صور الأشياء الجانبَ القوى منها ، وهو جانب الذكورة ، بل أضفى عليها صانعوها مظهر الأنوثة ، فزادها ذلك ضعفاً إلى ضعفها ..

وفى الكشف عن هذا الجانب الضعيف من هذه الأوثان والأصنام ، وعرضها لنظر عابديها فى هذه الصورة — صورة الإناث — إمعانٌ فى تسفيه هؤلاء السفهاء الذين عبدوها ، وتخاضعوا بين يديها .. إذ كيف يستقيم هذا مع تفكيرهم ، وما أخذوا به أنفسهم من امتهان الأنثى ، ونظرتهم إليها تلك النظرة المنكرة المتكرهة ؟

وكيف يكون موقفهم مع الأنثى هذا الموقف الذى ذكره القرآن الكريم عنهم فى قوله تعالى : « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ؟ » (٥٨ ـ ٥٩ : النحل)

— كيف يكون هذا موقفهم من الإناث وهنّ خَلْق سوىٌّ ، وفلذة من فلذات أكبادهم ، ثم يكون هذا شأنهم مع تلك الصور التى يتخذونها من الحجر ، والخشب ، والمعدن ، ويُلبسونها زىّ الإناث ، ويغرقونها بالحلى والزينة ؟

أهذا مما يستقيم مع منطق ، أو يصح فى عقل ؟

هذه صورة من الصورتين ، اللتين يعبدهما المشركون من دون الله ! .. وهى صورة حسيّة ، يتعامل معها المشركون بحواسّهم ومشاعرهم ..

أما الصورة الأخرى ، فهى « الشيطان المريد » .. وهو وإن كان شيئاً غير محسوس ، فإنّه يتمثل فى الأهواء المتسلطة على النفس ، وفى تلك الوسوسات الضالّة التى تزيّن للإنسان الشرّ ، وتغريه بالضلال !

وليست تلك المعبودات ، التى يعبدها المشركون بالله ، ويتخذون لها تلك الصور والأشكال إلاّ إملاء من وساوس الشيطان لهم ، وإلا مظهراً من مظاهر إغرائه وإغوائه ..

فهؤلاء الذين يعبدون الأوثان من دون الله ، هم عابدون للشيطان أيضاً .. فما هذه الصور المعبودة إلاَّ بنات وسْوَساته فى صدورهم ، ونفثاته فى تفكيرهم ..

وقوله تعالى : « لَعَنه الله » صفة لهذا الشيطان المريد ، الذى اتخذه هؤلاء المشركون وليّاً من دون الله .. وفى هذا ضلال إلى ضلال ، وسفه إلى سفه .. إذ أنهم أعطوا ولاءهم لمن كان عدوّاً لله ، واقعاً تحت لعنته .. فهم — والأمر كذلك — أعداء لله ، واقعون تحت لعنته .

وقوله سبحانه : « وقال لأتخذَنّ من عبادك نصيباً مفروضاً » عرض فاضح لهذا الشيطان المتمرد على الله ، المأخوذ بلعنة الله .

وفى عطف قوله تعالى : « وقال لأتخِذنّ من عبادك نصيباً مفروضاً » على قوله سبحانه : « لعنة الله » مايشير إلى أن هذا القول الآثم من هذا الشيطان المريد هو لعنة أخرى من لعنات الله عليه ، لما فيه من تحدّ لله ، ومحاربة له فى عباده !

وفى قوله تعالى : « من عبادك » إشارة أخرى إلى تمرد هذا الشيطان المريد ، وإمعانه فى محادّة الله ومحاربته .. إذ كيف تسوّل له نفسه أن يدخل حَمى الله ، وأن يفسد عباد الله ، الذين خلقهم بيده ، وأضافهم إلى ذاته ؟

ومن جهة أخرى ، فإن هؤلاء الذين خلقهم الله بيده ، وأضافهم إلى ذاته ، هم الذين كانوا حرباً على الله فى جبهة الشيطان ، فتفلتوا من هذا الحِمى الكريم ، الذى أقامهم الله فيه .. ومدوا أيديهم إلى هذا الشيطان المريد ، وأعطوه الفرصة فيهم ، ليفسد عليهم هذه الفطرة السليمة التى أودعها الله كيانَهم ، وليضلّ عقولهم عن هذا الطريق الذى أراه الله لهم ، غيرَ ملتفتين إلى تلك الوصاة التى وصّاهم الله بها ، فى شأن هذا العدوّ الراصد لهم ، والمتربص بهم ، حيث كان قول الله لهم : « إن الشيطان لكم عدوٌّ فاتخذوه عدوّاً إنما يدعو

حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

وفى هذا الموضع الذى وضع الله الإنسان فيه ، تكريم لهذا الإنسان ، وإشعار له بأنه أهلٌ لأن يحرس نفسه من هذه الآفة المتسلطة عليه ، وأن يحتفظ بتلك الهبات العظيمة التى منحها الله إياه ، تلك الهبات التى لو التفت إليها ، وأحسن استخدامها ، والقيام عليها ، لكانت قوة حارسة له من الشيطان وخداعه ، ولكان له منها حمًى لاتناله وساوسه ومُغوياته.. ولكن غفل كثير من الناس عن هذا العدوّ ، بل وسالمه وأسلم زمامه له ، فكان ضياعه وهلاكه جزاء وفاقاً له .

وفى قوله تعالى : « نصيباً مفروضاً » إشارة إلى أن هؤلاء الذين أوقعهم الشيطان فى حبَالَته ، واصطادهم فى شباكه ، هم مَنْ أراد الله لهم أن يكونوا فى أصحاب النار ، كما يقول سبحانه وتعالى : « فريقٌ فى الجنة وفريق فى السعير » (٧ : الشورى) وكما يقول جلّ شأنه : « وتمّت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجِنّةِ والناسِ أجمعين » (١١٩ : هود) .. وكما يقول الرسول الكريم فيما يُروى عن على بن أبى طالب ، قال « كنّا فى جنازة فى بقيع الفرقد ، فأتى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقعد ومعه مِخصرة ، فنكّس رأسه وجعل ينكت بمِخصرته ، فقال : « مامنكم من نفس منفوسة إلا وقد كُتب مكانها من الجنة أو النار ، وإلاّ قد كتبت شقية أو سعيدة » فقال له رجل : يارسول الله : أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل ؟ فمن كان منّا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان منامن أهل الشقاء فسيصير إلى عمل أهل الشقاء ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اعملوا فكل مُيسّر .. أما أهل السعادة فميسرون لعمل أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فميسّرون لعمل أهل الشقاوة.. ثم قرأ : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى » .

ووصْفُ النصيب بأنه نصيب مفروض يكشف عن أنه قَدْر محدّد ، أى أن أولياء الشيطان هؤلاء ، هم فريق محصور بعدده وصفته ، لايزيد ولا ينقص ، كما أن أولياء الله ، هم فريق آخر مقابل لهذا الفريق ، معروف بعدده وصفته .. ومجموع الفريقين هم الناس جميعاً .. الشقىّ منهم والسعيد ، وأصحاب النار وأصحاب الجنة .. أولياء الشيطان ، وأولياء الرحمن !

وقوله تعالى : « وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ » هو بيان لقولة الشيطان : « لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا » فهذا النصيب المفروض هم الذين سيتخذهم الشيطان أولياء له ، وسيتعاطى معهم كئوس المودة والصفاء ، وهى كئوس تدور برءوس شاربيها ، وتفسد عليهم عقولهم ، وتحوّلهم دُمًى فى يد الشيطان ، يعبث بها كيف يشاء .. ولهذا كان واثقاً من أنه قادر على نفاذ أمره وإمضاء مشيئته فيهم .. ولهذا جاء أمره إليهم جازماً مؤكداً :

« ولأضِلّنّهم » أى يلقى بهم فى مهاوى الضلال ، والظلام .. بعيداً عن الهدى والنور !

« ولأمَنّيَنّهم » أى يمدّ لهم فى حبال الأمانى والغرور ، بما يزيّن لهم من الشرور والآثام .. وبما يخيّل لهم من الأوهام والأباطيل .. فيرون الشر خيراً ، والقبيح حَسَنًا ، والبعيد قريبًا .

« وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ » وذلك شىء من السَّخَف والضلال ، الذى زينه لهم الشيطان وأغواهم به ، وهو أنهم كانوا إذا ولدت الناقة خمسة بطون ، وكان آخرها ذكراً احتفوْا بها وأكرموها ، وكان مظهرُ ذلك أن يقطعوا أذنيها أو يشقّوها « فَلَيبتّكنّ آذان الأنعام » ثم يرسلونها

فلا يُركب ظهرها ، ولا يُحمل عليه شيء ! ! أفليس ذلك هو غاية السفه ، ومنتهى الضلال ؟ .

« وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ » وذلك بتقطيع آذان الأنعام هذه ، ونحو هذا من المراسم التي تصوّرها لهم الأوهام والأباطيل .

وقوله تعالى : « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » عرض للصورة الشنعاء التي ينتهى إليها أمر هؤلاء الذين استذلهم الشيطان ، واستبدّ بهم . فليس بعد خسرانهم خسران ، ولا وراء ضياعهم ضياع .

وقوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » هو كشف لهذا المحصول الذى يجنيه أتباع الشيطان . . إنها ليست إلا أمانىّ باطلة ، وسراباً خادعاً . « أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً » فتلك هى عاقبة الظالمين الغاوين . . مصيرهم جهنم وساءت مصيراً ، لا متحوّل لهم عنها ، ولا إفلات لهم منها .

وهنا سؤال ، أو أسئلة ، عن هذه التفرقة بين الناس ، إذ كانوا فريقين : سعداء وأشقياء . أولياء الله وأولياء الشيطان . . « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » ؟

فلم هذه التفرقة بين الناس ، وهم جميعاً عباد الله وصنعة يده ؟

وما فضل هؤلاء الذين كُتبت لهم الجنة ، وما جناية هؤلاء الذين كُتبوا فى أصحاب النار .. هكذا قدراً مقدوراً ، وقضاء لازماً من الأزل ؟

وما قيمة إحسان المحسن وإساءة المسىء ، إذا كان قد تحدد المصير المحتوم لكل إنسان ؟

هذه خواطر تتوارد على الإنسان، وهو يستمع إلى حكم الله هذا فى عباده..

وإذا كان من تمام إيمان المؤمن أن يتلقى أوامر الله وأحكامه بالتسليم . وأن يتقبلها بالرضا والحمد — فإنه من غير المستطاع أن يمنع المؤمن مثل هذه الخواطر من أن تطوف بعقله حيناً بعد حين ، وأن تتصاعد منها أدخنة وغيوم ، قد تنحسر سريعاً ، أو تتلبث وتتسكع قليلاً أو كثيراً . . بل إنه — والأمر كذلك — لمن الخير أنه يواجه الإنسان هذه الخواطر ، وأن يقلّبها بين يديه، حتى يعرف مصادرها ومواردها ، فإنها كثيراً ما تكون مداخل لخداع الشيطان وضلالاته .

وهذا ما سنعرض له فى بحث خاص . . إن شاء الله .

الآيات : (١٢٢ ـ ١٢٣ ـ ١٢٤)

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً (١٢٢) لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِىِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » (١٢٤)

التفسير : الفريق الآخر المقابل لأولياء الشيطان ، هم المؤمنون ، أولياء الله ، الذين أعطوا هذه الولاية حقها ، فامتثلوا أوامر ربهم ، واجتنبوا نواهيه . .

وإذا كان أولياء الشيطان مأواهم جهنم ، فإن أولياء الله مأواهم الجنة ، خالدين فيها أبداً . .

فذلك وعد الله لهم ، فيما أخبرهم به من كلماته على لسان رسله .. « ومن أصدق من الله قيلاً » — أى قولاً — وحاش لله أن يُخلف وعده ، فإن خُلف الوعد لا يكون إلا عن عجز وضعف ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وقوله تعالى : « ليس بأمانيّكم ولا أمانىّ أهل الكتاب » ردٌّ على أولئك الذين يتمنّون على الله الأمانىّ ، دون عملٍ . . !

والأمانىّ التى لا ترتبط بعمل ، ولا تتجه إلى هدف ، هى أباطيل وأضاليل وأوهام وأضغاث أحلام ، لا يمسك منها صاحبها إلا سراباً ، ولا يجنى منها إلا حسرة وندماً على ما كان من تفريط وتقصير . .

وإذن فليس الإيمان مجردَ كلمة يتلفظ بها الإنسان ، ليدخل بها فى جماعة المؤمنين ، وليتخذ منها زِيًّا يندسّ به بينهم ، وينال ما ينالون ، ويطعم بما يطعمون ، مما أعد الله لهم من رضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم . . هكذا من غير أن يكون منه عمل صالح !

بل الإيمان فى حقيقته ، قول وعمل ، معتقد وسلوك . . فمن لم يحقق الإيمانَ علَى هذا الوجه فليس مؤمناً ، وليس له أن ينال شيئاً مما أعد الله للمؤمنين . . ولهذا جاء قوله تعالى : « من يَعْمَلْ سوءًا يُجْزَ به ولا يجدْ له من دون الله وليًّا ولا نصيراً » ليقرر هذا المضمون الذى احتواه قوله سبحانه « ليس بأمانيكم وَلاَ أمانىّ أهل الكتاب » فى جانب الذين يتمنون الأمانى الباطلة ، فلا يكون منهم عمل صالح . . فهؤلاء سيجزون سوء ما عملوا ، وليس لهم من يدفع عنهم أخذَ الله لهم . .

وقوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً » هو تقرير لمصير الجانب الآخر ، المقابل لأولياء الشيطان ، وهو جانب أولياء الله ، الذين لم يفتنهم الشيطان ، ولم يغرقهم فى الأمانىّ الباطلة . . فهؤلاء آمنوا وعملوا الصالحات ، أى أنهم آمنوا بالله ، ثم حوّلوا هذا الإيمان إلى سلوك وعمل ، ففرسوا فى مغارس

الخير ومهّدوا ما غرسوا ، وحرسوه من الآفات ، فكان لهم من الله هذا الجزاء الحسن : « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » .

وفى تقديم دخولهم الجنة هنا على استيفاء حقهم كاملاً ـ فى هذا تطمين لقلوب المؤمنين ، وأنهم سيدخلون الجنة على أى حال ، فضلًا وكرماً من الله عليهم . . أما مناقشتهم الحساب ، فإنه لكى يَرَوْا ما عملوا من خير ، وكيف نمّاه الله لهم ، وأجزل لهم الثواب عليه . .

والنقير : النّقْرة تكون فى ظهر النّواة ، ومنها ينبت أصل النخلة !

وفى قوله تعالى : « من ذكر أو أنثى » تسوية بين الرجل والمرأة فى التكاليف الشرعية ، وفى الجزاء .

وفى قوله تعالى : « وهو مؤمن » قيد لازم لقبول العمل الصالح والجزاء الحسن عليه ، فإنه بغير الإيمان لا يزكو عمل عند الله ، ولا يُقبل . .

الآيتان : (١٢٥ ـ ١٢٦)

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً (١٢٦)

التفسير : « أسلم وجهه لله » : أى وجّه وجهه إلى الله ، دون التفاتٍ إلى معبود سواه . .

فالإيمان الحق ، هو الذى يقوم على إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبوديّة ، والبراءة من الشركاء الذين يتخذهم المشركون أولياء من دون الله .

والاستفهام فى قوله تعالى : « ومن أحسن ديناً » لا يراد به حقيقته ،

وإنما المراد به هو استبعاد أن يكون أحدٌ أحسنَ ديناً من هذا الذى أسلم وجهه لله وهو محسن .

والاستفهام هنا أبلغ فى تقرير هذا الحكم ، من أن يجىء هكذا فى صورة الخبر المباشر ، كأن يقال مثلا : لا أحدَ أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن .

ذلك أن الاستفهام يقتضى اختباراً عملياً لهذا الحكم ، بمعنى أنه حين يَرِد هذا الاستفهام على السامع ، يتلفت هنا وهناك باحثاً عن الجواب على هذا الاستفهام ، طالباً من هو أحسن ديناً من دين هذا الذى أسلم وجهه لله . . ولكن هيهات أن يجد المطلوب ، وبذلك يتقرر عنده الحكم بأنه لا أحد أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقوله تعالى : « وهو محسن » جملة حالية يراد بها قيد الإيمان بالعمل ، بل والعمل الحسن . . إذ ليس الإيمان ـ كما قلنا ـ مجرد تصور حقيقى للألوهية ، وإيمانٌ بالله على هذا التصور لا يُعدُّ إيماناً، وإنما الإيمان معتقد وعمل ، وولاء لله ، وسلوك بمقتضى هذا الولاء .

وفى قوله تعالى . « واتّبع ملة إبراهيم حنيفاً » ، عطف على الجملة الحالية السابقة ، وقيد آخر للإيمان ، الذى وُصف بأنه أحسن دين وأكمل إيمان .. إذ لا يتحقق هذا الوصف إلا بشرطين :

أولهما : أن يصحبه عمل ، وعمل حسن ، بمقتضى توجيهات الشريعة وآدابها . .

وثانيهما : أن يكون متابعة لدين إبراهيم عليه السلام ، إذ كان إبراهيم أباً لأتباع الديانات الثلاث ، المتجه إليها هـذا الخطاب ، وهى اليهودية ، والنصرانية ، والإسلام . .

« والملّة » هى الدّين .

«والحنيف» المائل عن طرق الضلال إلى الهدى . . وهذا يعنى أن المجتمع الذى كان فيه إبراهيم عليه السلام — كان مجتمعاً ضالاً منحرفاً ، وأنه وحده — وقليل معه من ذريته — هو الذى مال عن هذا الاتجاه العام ، الذى كان يتجه إليه قومه ، وأبناء مجتمعه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن إبراهيمَ كَانَ أمّةً قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين » (١٢٠ : النحل) .

قوله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » جملة استئنافية ، تقرر ما لإبراهيم عندَ الله من منزلة ، تلك المنزلة التى تجعل اتّباعَ ملّته ، وموالاته ، مما يرضى الله عنه ، ويحمده .

والخليل هو الصاحب الذى يسدّ خَلَل صاحبه ، ويكمل وجوده ، أو يتخلّل مشاعره ، ويخلص إلى مواطن سرّه . .

واتخاذ الله — سبحانه — إبراهيمَ خليلا ، يرادُ به [illegible] الخلّة ، وهى إضفاء الإحسان ، والرحمة ، من جانب الله تعالى على إبراهيم ، وهذا لطف من الله ، وتكريم لهذا النبى الكريم ، وتلك منزلة عليا من منازل القرب من الله . . لا تكاد تدانيها منزلة .

وقوله تعالى : « وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا » استعراض لعظمة الله وسعة ملكه ، ومقدار سلطانه ، الذى يشمل كل شىء ، وينفذ إلى كل شىء !

ومن كان هذا شأنه ، وتلك صفته ، فإن من السفه والضلال أن يولّى الإنسان وجهه إلى غيره ، أو يعبد معبوداً سواه . .

وإذا استقام فى تفكير الإنسان أن يرى الله على هذا الوجه ، وأراد أن

يتخذ سبيله إلى الله . . فهناك ملّة ، إبراهيم ، فليستقم عليها ، وليؤمن بالله إيمان إبراهيم ، ذلك الإيمان المبرأ من كل شرك ، المجانب لكل ضلال .

الآيات : (١٢٧ — ١٣٠)

« وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ فِي يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ٱللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا (١٢٧) وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٢٩) وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا » (١٣٠)

التفسير : الاستفتاء هو طلب الفُتيا فى أمر خفى على المستفتِى ، يريد التعرف عليه .

وكثيراً ما كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبون الرأىَ من النبىّ ، فيما يعرض لهم من أمور ، وفيما يقع من أحداث.. إذ كان النبىّ صلى الله عليه وسلم هو حامل الشريعة إليهم ، والقائم عليها ، والشارح لها . .

وهنا فى هذه الآية ، يسأل المسلمون النبىّ فى أمور تتعلق بالنساء . . من زواج ، وطلاق ، ومُتعة ، ورضاع ، وغير ذلك مما يعنى الرجالَ من أمر النساء !

وقد أعطى الله سبحانه النبىّ الكريم الجوابَ عما يسألون عنه ، فقال تعالى : « قُل الله يفتيكم فيهن » أى أن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيتولى بيان ما تسألون عنه .

وقوله تعالى : « وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ » هو عطف على قوله تعالى : « قل الله يفتيكم فيهن » أى الله يفتيكم فى النساء ، ويفتيكم فيما « يُتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كُتب لهنّ وتَرْغبون أنْ تنكحوهن » .

ويكون معنى الإفتاء هنا ، هو الإشارة إلى أن مانزل عليهم من آيات الله فى شأن اليتامى ، ولم يمتثلوه امتثالاً كاملاً ، ولم يَرْعَوْا ما وصّاهم الله به فى شأنهن فى قوله تعالى : « وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا » وفى هذا إلفاتٌ لأولئك الذين لم يَرْعَوْا أمر الله فى شأن هؤلاء اليتيمات اللاتى هُنّ تحتَ أيديهم ، وهو فى الوقت نفسه توبيخ لهم إذ يستفتون النبىّ فى شأن النساء ، وبين أيديهم أمرٌ من أمر الله فى شأنهن ولم يعملوا به ، وكان الأولى بهم ألا يسألوا شيئا عن النساء إلا بعد أن يمتثلوا ما أُمروا به من قبل فى شأنهن !

وفى قوله تعالى : « يتامى النساء » إشارة إلى أن هؤلاء اليتيمات اللاتى

تحت أيدى الأوصياء عليهن ، هنّ من النساء اللاتى يستفتون النبىّ فيهن ، وصِغَرُهن لا يخرجهن عن أن يكنّ من النساء .

وقوله تعالى : « اللاَّتِى لاَ تُؤْتُونَهنّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنّ » هو مواجهة صريحة لأولئك الذين لا يزال الوضع السيىء لليتيمات عندهن كما كان من قبل أن يوصِىَ الله بهن بما أوصى فى أول سورة النساء ، وهو أنهم كانوا ينكحونهن من غير أن يؤدوا ما فرض الله لهن من مهر ، أو يمسكونهن عند الزواج إذا لم يكن لهم فيهن رغبة ، ليحتفظوا فى أيديهم بالمال الذى لهن ، وقد نهاهم الله سبحانه وتعالى عن هذا .

قوله تعالى : « والمستضعفين من الوالدان » عطف على قوله تعالى : « فى يتامى النساء » أى والله سبحانه وتعالى يفتيكم فى النساء ، وفيما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء وفى المستضعفين من الولدان » . . وقد أوصى الله تعالى باليتامى فى قوله سبحانه :

« وَلْيَخْشَ الذين لو تركوا من خلفهم ذُرِّيّةً ضِعافاً خافوا عليهم ، فليتّقوا الله وليقولوا قولاً سديداً * إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » (٩ ــ ١٠ : النساء) .

وإعادة الفتيا فى المستضعفين من الولدن ، وهم اليتامى ــ هو تذكير لهؤلاء الذين لم يمتثلوا بعدُ ، ما أمر الله فيهم من الرفق بهم ، والإحسان إليهم ، وحسن القيام عليهم . .

قوله تعالى : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » هو دعوة عامة جامعة لليتامى من بنين وبنات ، بعد أن ذكرهم الله تعالى ذكراً مفصلاً ــ حيث ذكر يتامى النساء ، ثم ذكر المستضعفين من الولدان ، وهؤلاء وأولئك جميعاً من اليتامى . .

قوله تعالى : « وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما » حثٌّ على فعل الخير ، والإحسان عامة ، وفى اليتامى خاصة . .

والله سبحانه وتعالى يعلم ما نفعل من خير أو شر ، ولكنه قَصَر العلم على الخير هنا ، تنبيها إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون فعله كله خيراً ، وأنه يجب أن يَعقِد قلبَه على فعل الخير ، وأن يفعله ما استطاع ، وأن يُخلِى قلبه من وساوس الشر ، وأن يتجنبه ما استطاع ! .

وفى التعبير عن علم الله تعالى بلفظ الماضى « كان » إشارة إلى أن علم الله لا يتعلق بوقوع الأفعال،وإنما هو علم قديم أزلىّ ، قد أحاط سبحانه بكل شيء علما..

قوله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » .

النشوز : النفور عن المألوف ، والنشْزُ من الأرض : الصلب . . والفُتيا هنا هى فى شأن من شئون النساء اللائى وعد الله سبحانه بالإفتاء فيهن . .

ومما يُسأل عنه من أمر النساء ، أن تجد المرأة فى زوجها من سوء العِشرة ما تخشى معه قطعَ الحياة الزوجية ، إذا لم يدخل عليها عنصر جديد يغذيها بشيء من المودة والإحسان .

والحياة الزوجية لا تستقيم أبداً ، ولا تؤتى ثمارها طيبة مباركة إلا إذا سَكَن كل من الزوجين إلى الآخر ، وامتزج به ، واختلط بمشاعره ، وتنفس معه أنفاس المودة والرحمة ، كما يقول سبحانه وتعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» (٢١ : الروم) .

وفى قوله تعالى : « وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً » إشارة إلى هذا العارض الذى يعرض للحياة الزوجية ، فيثير فيها مشاعر القلق

والاضطراب ، وذلك بأن تجد المرأة من زوجها نشوزاً ، أى تعالياً عنها ، حيث ينظر إليها نظرة باهتة غير عابىء بها ، لا نظرة الشريك إلى شريكه ، والصديق إلى صديقه . . أو تشعر بجفوة منه نحوها ، وبإعراض عنها وإهمال لها . .

وفى التعبير بالخوف عن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس التى تجدها المرأة فى زوجها ـ ما يكشف عما يقع فى نفس المرأة من إشفاقٍ على مستقبل حياتها الزوجية مع هذا الزوج الذى يحمل لها تلك المشاعر ، التى قد تنمو مع الأيام ، وتصبح داءاً لا دواء له إلا فَصْمَ العلاقة الزوجية بين الزوجين .

وفى قوله تعالى : « فلا جُناح عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً » إشارة إلى الدواء ، الذى يمكن أن يقدّم فى مثل هذه الحالة لهذا الصدْع الذى وقع بين الزوجين ، وذلك الدواء هو أن يُحْدِث الزوجان بينهما مصالحة ، وأن يعملا تسوية ، يلتقيان فيها على ما يحقق لكل منهما بعضَ ما يطلب من صاحبه . .

فقد يكون فى يد المرأة ما يمكن أن تترضّى به الزوجَ من مالٍ ، وإنه لا بأس فى هذه الحالة أن تقدم المرأة للزوج بعض ما كان يطمع فيه من مالها ، الذى ربما كان حرمانه منه سبباً فى إعراضه عنها . .

كما يمكن المرأةَ أن تنزل للزوج عن بعض حقوقها الزوجية . . كالتسوية فى القسمة بينها وبين بعض زوجاته اللائى يؤثرهن عليها بحبّه ومودته . . فترضى منه ببعض هذا الحق ! .

وقد يكون فى هذا الموقف الذى تقفه المرأة من زوجها ، ما يعطفه عليها ، ويقرّبه منها ، ويصلح ما بينه وبينها ، وبهذا تبقى العلاقة الزوجية موصولة بينهما ، وتظل المرأة فى حماية الزوج ورعايته . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « والصلح خيرٌ » . . أى أنه خير على أى حال لكلٍّ من المرأة والرجل . . إذ أبقيا به على رابطة مقدسة بينهما ، كان فى قطعها قطع لما أمر الله به أن يوصل .

وفى قوله تعالى : « فلا جناح عليهما » رفع لِمَظَنّة الحرج التى قد تـكون متصوَّرة فى هذا الموقف . . إذ أن المرأة تنزل للزوج عن بعض حقها ، أو تقدم إليه شيئاً من مالها ، تحت ظروف قاهرة . . لاعن رِضًى واختيار . . وفى هذا عدوان على المرأة ، وإكراه لها . .

ولـكن أباح الإسلام هذا ، ليدفع به عن المرأة ضرراً أكبر من هذا الضرر الذى يلحقها من التنازل عن بعض حقوقها الزوجية ، أو الغُرم فى بعض مالها . . وذلك لتحفظ حياتها الزوجية من أن تتصدع وتنهار ! فالشر الذى يُدفع به شرٌّ أعظم منه ، هو خير !

ومع هذا ، فإنه ليس من المفروض فرضاً لازماً على المرأة أن تقف هذا الموقف ، وإنما ذلك متروك لتقديرها ، ووزنها لأحوالها وظروفها . . فلها أن تطلب الطلاق من زوجها إذا كانت غير محتملة للضرر الواقع عليها من نشوزه أو إعراضه عنها . . ثم إن لها فى الوقت نفسه أن تصالح هذا الأمر بما تقدر عليه ، إذا هى رأت فى مصلحتها أن تبقى على زوجها ، وأن تشترى رضاه ومودته بالتنازل عن بعض حقوقها . .

وقوله تعالى : « وأُحْضِرَتِ الأنفسُ الشحَّ » أى أشهدت الأنفس الشحّ ، بمعنى أُرِيَتْهُ وعاينته فى هذا الموقف ، والشحّ هو البخل . .

والذى أرَى الأنفسَ الشحّ فى هذا الموقف ، هو مواجهتها لِذَاتها وهى تستقبل من الغير هجوماً عليها ، ومحاولة للانتقاص مما فى يدها .

ففى مثل تلك الحال تتحرك فى النفس دوافع حبّ الذات ، الذى من شأنه أن يُبرز غريزةَ الشحّ ، التى هى سلاح من أسلحة الدفاع عن الذات .

وجملة « وأُحضرت الأنفس الشحّ » جملة اعتراضية ، يراد بها التنبيه

إلى تلك الصفة الذميمة التي تطلّ برأسها في هذا الموقف ، الذي يواجه فيه كلٌّ من الزوج والزوجة صاحبه مواجهة صريحة .. مواجهة الغريم لغريمه في استقضاء حق له عليه .

ومن شأن هذا التنبيه أن يقيم في كيان كل من الزوجين ، وازعاً يَزَعُ هذا الوسواس ، الذي يدفع في صدر كل منهما بمشاعر الشحّ والحرص ، ومن شأن هذا الوازع — إذا استند إلى دين وخلق — أن ينهى هذا الموقف الحادّ بين الزوجين ، وأن يجمعهما على التسامح ، والصفح ، والوفاق . .

وقوله تعالى : « وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا » هو دعوة إلى الإحسان والتقوى في هذا الموقف ، الذي إن لم تتحرك فيه مشاعر الإحسان لتؤدى دورها في ظلّ من تقوى الله والعمل على مرضاته — لم يكن سبيل إلى إصلاح هذا الخلل ، ورأب ذلك الصدْع ، بل ربما زادته المواجهة بين الزوجين اتساعاً وعمقاً .

وانظر في هذا الاختلاف الذي وقع في فاصلة هذه الآية ، وفي فاصلة الآية التي قبلها ... فقد جاءت فاصلة هذه الآية : « فإن الله كان بما تعملون خبيراً » حيث أن مايُعمل هنا ، هو مما تمليه القلوب ، وتتناجى به الضمائر . . فهو — والأمر كذلك — محتاج إلى خبرة تطّلع على ما في القلوب ، وتكشف ما استقر في الضمائر ، وليس ذلك إلا لله الخبير العليم . .

أما فاصلة الآية التي سبقت هذه الآية ، فقد جاءت هكذا : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليما » حيث كان الحديث عن أفعال محسوسة ، يكفى في كشفها العلم بها على الصورة التي وقعت ، وذلك مما لا يغيب عن علم العليم الخبير ! .

قوله تعالى : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النّساء ولو حَرَصْتم فَلَا تميلوا كُلَّ الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً » .

فى هذه الآية أمور :

أولاً : ضياع أمانة « العدل » فى القسمة بين الزوجات ، التى حملها الزوج ، ودُعى من الله إلى الوفاء بها ، وهو — وإن يكن أمراً قد تجاوز الله سبحانه وتعالى عنه فى تلك الحال — هو تضييع لتلك الأمانة ، وعدوان عليها . .

وهذا أقل مافيه أنه يدعو الإنسانَ أن يفكر طويلاً قبل أن يدخل فى هذه التجربة ، ويعرّض نفسه لأن يكون فى عداد الظالمين المعتدين . . وهذا أقلّ مافيه أيضاً أن يُزهِّد الإنسانَ فى التزوج بأكثر من وحدة.

وثانياً : قوله تعالى : « ولو حرصتم » يقطع كل أمل عند من تحدثه نفسه بأنه ـ إذا جمع أكثر من امرأة فى عصمته ـ قادر على أن يحقق العدل بينهما . . فذلك أمر فوق مقدور البشر ، إذ كان الحكم فيه للقلب ، ولا سلطان للإنسان على قلبه . . ولهذا كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول متوجهاً إلى ربه فى قسمته وعدله بين نسائه : « هذا قَسْمِى فيما أملك ، فلا تَلُمْنِى فيما لا أملك وتملك » .

وثالثاً : من ابتُلى بهذه التجربة — تجربة الجمع بين أكثر من زوجة — فعليه أن يستشعر دائماً أن ميزان العدل الممسك به بين زوجاته لن يستقيم أبداً ، فهو قلق مضطرب ، يميل هنا مرة ، ويميل هناك مرة . . وهكذا . . والمطلوب منه فى تلك الحال أن يحفظ توازن هذا الميزان فى يده ، مع ميله واضطرابه ، وإلا شالت إحدى كفتيه فكانت فى السماء ، على حين هوت الأخرى فلصقت بالأرض . . وبهذا يفقد الميزان أثره وفاعليته . .

ورابعاً : قوله تعالى : « فتذروها كالمعلقة » .. الضمير هنا للمرأة التي جار عليها زوجها ، فلم يعطها من حقوق الزوجية شيئاً .. فهي زوج وليست زوجاً .. وإطلاقها في تلك الحال خير من إمساكها ..

وخامساً : قوله تعالى : «وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً» إيذان من الله سبحانه وتعالى بالتجاوز عن الاضطراب الذي يقع في ميزان العدل بين الزوجات إذا اتّقى الزوج ربّه في النساء اللائي في يده ، وأعطى كل واحدة منهن حقها قَدْرَ المستطاع .. وإلا فهو آثم ظالم ، لا تناله مغفرة الله ورحمته .

وقوله تعالى : «وإن يتفرّقا يغْنِ الله كلاًّ من سَعتِهِ وكان الله واسعاً حكيماً» هو دعوة إلى إطلاق سراح المرأة التي لا تنال حَظوةً عند زوجها ، ولا ينظر إليها نظرة الرجل إلى المرأة ، وما لها من حقوق مادية ومعنوية عنده .. فإطلاقها في تلك الحال خير لها من إمساكها ، الذي هو إيذاء لها ، وإهدار لوجودها ..

والمرأة التي يمسك بها الرجل ، وهي في هذا الوضع الجائر .. إمّا أن تكون ذات مال ، يريدها الرجل لمالها .. فليتركها ، وليُطلق سراحها .. والله سبحانه وتعالى يغنيه من فضله ، وأول هذا الغنى هو أن يحفظ كرامته ، ويحترم رجولته ، فلا يكون طعامه وشرابه من هذا المال الذي يسلبه من يد ضعيفة ، دون مقابل له .

وإما أن تكون فقيرة مستضعفة ، لا تجد من يكفلها ، فهي مقيمة على هذا الضيم ، لقاء لقمة عيش ، أو كسوة بدن .. فلْتخلّص نفسها من هذا القيد ، ولْتحرّرْ روحها ، وتصحح إنسانيتها ، فتلك هي الحياة ، ولا حياة مع الذلة والمسكنة ، ومع شبع البطن وجوع الروح ، وكسوة الجسد ، وعُرى الإنسانية !

والله سبحانه وتعالى هو الرزّاق ذو القوة المتين .. قد كفل لها رزقها ، كما كفل لكل كائن حيّ رزقه : « وكان الله واسعاً حكيما » ! فمن سعة فضله

يَقُوتُ الأحياء ، ومن بالغ حكمته أن يدعوَ الإنسانَ إلى السموّ بروحه ، والاستعلاء بذاته .. فذلك هو الإنسان .. أما ماوراء ذلك من ماديات الإنسان فهى تبع ، وليست أصلاً ، وهى ثانٍ وليست أولا .

الآيات : (١٣١ ـ ١٣٤)

« وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَنْ
كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعًا بَصِيرًا » (١٣٤)

التفسير : فى الآيات السابقة استعرض القرآن الكريم وجوهَ الناس : من مؤمنين ، ومنافقين ، وكافرين ، وأقام كل فريق منهم بالمكان الذى هو أهل له ، من قرب أو بعد من الله ، وما أعدّ له من ثواب أو عقاب .. وقد خُتمت هذه الآيات باستعراضٍ لقدرة الله سبحانه ، وسعة ملكه ، وبسطة نفوذه ، وذلك فى قوله تعالى : « ولله مافى السموّات وما فى الأرض وكان الله بكل شىء محيطاً » .. ثم تلا ذلك وقفة مع المؤمنين فيما يعنيهم من أمر دينهم ، وكان ذلك فى أمور تتصل بالنساء وعلاقة الرجال بهن ، وقد جاءهم من الله فى هذا البلاغُ المبين ..

وهنا فى هذه الآيات استدعاء للناس جميعاً ، من مؤمنين ، وكافرين ،

ومنافقين، ليشهدوا جلال الله وعظمته، فيما صوّر وخلق مما فى السموات والأرض، وكلها صنعة يده، وحوزة ملكه: «ولله مافى السموات ومافى الأرض»!

وفى تقديم الخبر على المبتدأ فى قوله تعالى: «ولله مافى السموات ومافى الأرض» مايفيد اختصاص الله سبحانه وتعالى وحده بالملكية لما فى السموات والأرض .. لايشاركه فى ذلك شريك ..

وفى قوله تعالى: «ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقُوا الله» بعد هذا الاستعراض لقدرة الله وسلطانه المتفرد على هذا الوجود — فى هذا جلاء لغشاوات الضلال التى انعقدت على كثير من البصائر فحجبت عنها الرؤية الواضحة لله. فلم تره إلا فى ضباب هذه الضلالات .. ربًّا مع أرباب، وإلهًا فى مجمع من الآلهة ..!

فإذا نظر الإنسان إلى مافى ملكوت السموات والأرض من آثار رحمة الله، وقدرته، وعلمه وحكمته، ثم استمع لدعوة الحق سبحانه وتعالى التى يدعو بها عباده إليه: «أن اتقوا الله» — كان خليقاً به، لو أمعن النظر، وأحسن التفكير — أن يستجيب لدعوة الله، وأن يؤمن به، ويتّقى حرماته .. فتلك هى الصلة السليمة التى ينبغى أن تقوم بين الإنسان وخالقه، وتلك هى الوَصاة التى يوصّى الله بها عباده، ويحملها إليهم رسله! «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله» .. والمراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا، هم اليهود والنصارى، حيث هم الذين التقوْا بالمسلمين من أهل الكتاب، وإن كان هناك كثيرون من المؤمنين أصحاب كتاب سماوى، غير اليهود والنصارى، ولكن ذهبوا وذهبت كتبهم، ولهذا كان ذِكر أهل الكتاب فى القرآن دائما، مقصوداً به اليهودُ والنصارى وحدهم.

قوله تعالى: «وإن تكفروا» هو مقابل لقوله سبحانه: «أنِ اتقوا

الله » .. فالمراد بتقوى الله هنا ، هو الإيمان به إيماناً صحيحاً ، غير مشوب بشرك أو ضلال .

وقوله تعالى : « فإنّ لله مافى السموات وما فى الأرض» إشارة إلى أن إيمان المؤمنين وشرك المشركين ، ونفاق المنافقين ، وكفر الكافرين ، كل ذلك لامتعلّق له بالله ، إذ لا يؤثر ذلك فى قدرة الله ، ولا يزيد أو ينقص من سلطانه شيئاً .. فهو المالك لكل شىء والقائم على كل شىء ..

ولهذا جاءت خاتمة الآية هكذا : « وكان اللهُ غنياً حميداً » أى أنه سبحانه فى غِنًى عن خلقه ، لا ينفعه إيمان المؤمنين ، ولا يضرّه كفر الكافرين ، وإنما يعود نفع الإيمان أولا وآخراً إلى صاحبه ، كما يعود ضرر الكفر أولا وآخراً إلى صاحبه .. والله سبحانه وتعالى يقول : « من كفَرَ فعليه كفره ومن عمِل صَالحاً فلأنفسهم يَمْهَدون » (٤٤ : الروم) أى فلأنفسهم يُصلحون الطريق الذين يصلهم بالله ، ويوصلهم إلى مرضاته ونعيم جنّاته .

والحميد ، هو المستأهل للحمد ، المستحق له من جميع مخلوقاته ، إذ أوجدهم من عدم ، وألبسهم نعمة الوجود ..

فالحمد لله ، هو تسبيحة المخلوقات جميعاً ، من آمن منهم بالله ومن لم يؤمن ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وإن من شىء إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » (٤٤ : الإسراء) .

وقد يقال : كيف يسبّح الكافر بحمد الله ، وهو ينكره ولا يعترف بوجوده ؟

والجواب على هذا ، أن الكافر إنما هو صنعة الله ، وهو يعيش فى ملك الله ويتقلب فى نِعَمه ، وأنه منقاد لمشيئة الله فى كل نَفَسٍ يتنفسه ، وفى كل

عمل يعمله ،ثم هو آخرَ أمره صائر إلى الله .. إنه لم يَخْلق نفسه ، ثم إنه لن يُميت نفسه .. بل الله سبحانه هو الذى أوجده ، وهو الذى يميته .. ثم هو الذى تولاّه منذ أوجده إلى أن أماته .. فهو وإن اشتمل باطنه على الكفر بالله ، وبفضله عليه ، فإن وجوده كلّه وما يحيط به هو صوت جَهْوَرىّ ، يؤذّن بحمد الله ، ويسبّح بآلائه ونعمائه .

قوله تعالى : « ولله مافى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا » تسبيحة أخرى من تسبيحات الحمد لله ، والإقرار بألوهيته ، والولاء له من مخلوقاته جميعاً ، وكفى به — سبحانه وتعالى — وكيلا ، يدبّر أمر هذه المخلوقات ، ويقيمها على ماتقضى به حكمته .

وقوله سبحانه : « إن يَشَأْ يذهبكم أيها النّاس ويأتِ بآخرين ، وكان الله على ذلك قديراً » هو تذكير بقدرة الله ، كما هو إشارة إلى ضآلة شأن الإنسان الذى يخيّل له من جهله وغروره أنه سيّد هذا الوجود ، ثم يمتد به حبل هذا الجهل والغرور ، فيحسب أنه هو الذى يخلق ، ويرزق ، وأنه ليس له خالق أو رازق !

وهذا سفه وضلال ، فلو شاء الله أن يردّ الناس إلى عدم ، كما أنشأهم من عدم ، لكان ذلك على الله يسيراً .. « إنما أمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » (٨٢ : يس) .

وفى قوله تعالى : « ويأت بآخرين » إثارة لغريزة حب البقاء فى الإنسان ، ودعوة له إلى التشبث بوجوده ، وفى ذلك مايحمله على اللّجأ إلى الله ، والولاء له ، والتعلق بذاته ، حتى لايقع تحت هذا الحكم الذى يكاد يذهب به مذهب الضياع والفناء .

وهؤلاء الآخرون .. على أية صفة يكونون ؟ أهم ناس كهؤلاء الناس ، أم مخلوقات من أجناس أخرى من غير جنسهم ؟

وإذا كان هؤلاء الآخرون هم صورة أخرى لهؤلاء الناس ، فما الحكمة من إذهاب هؤلاء والإتيان بأولئك ؟

والجواب — والله أعلم — هو أن يكون هؤلاء الآخرون من عالم الناس .. فهذا هو الذى يحرك مشاعر الغيرة فى هؤلاء الذين يُراد بهم التحول عن مكانهم ليشغله غيرهم من بنى جنسهم ، حيث لا تكون الغيرة والتنافس إلا بين أفراد الجنس ، وبين جماعاته .

ثم إن الناس ليسوا على حال واحدة — وإن كانوا جنساً واحداً — فمنهم المؤمنون ومنهم الكافرون ، وفيهم المهتدون وفيهم الضالون . .

وعلى هذا يمكن أن يكون الإذهاب للضالين الكافرين ، والإتيان للمؤمنين المهتدين ، أو لمن يغلب فيهم الإيمان والهدى على الكفر والضلال .

وقوله تعالى : « من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة » هو دعوة لأولئك الذين يقيمون وجودهم كله على هذه الحياة الدنيا ، فلا يلتفتون إلى أمر الآخرة ، ولا يعملون لها ، وبهذا يضيّقون على أنفسهم ، ويحجزونها فى هذه الدائرة المحدودة ، مع أنهم — لو عقلوا — لملئوا أيديهم من خير الدنيا والآخرة جميعاً .. إذ ليس بين الدنيا والآخرة تعارض وتنافر .. فالدنيا — فى حقيقتها — مزرعة للآخرة ، وإحسان العمل فى الدنيا ، وإقامته على وجه صحيح مثمر ، هو فى ذاته عمل للآخرة .

قوله تعالى : « وكان الله سميعاً بصيراً » أى أنه سبحانه وتعالى مطّلع على أعمال العباد ، يسمع ما يقولون ، ويبصر ما يعملون ، فما كان من أعمالهم وأقوالهم خالصاً للدنيا وحدها ، فقد استوفوا حظهم منه ، ولا نصيب لهم فى الآخرة . . وما كان منها للدنيا والآخرة معاً ، كان لهم منه نصيب فى الدنيا وفى الآخرة .. أما نصيب

الدنيا فقد استوفوه وهم فيها ، وأما ما كان للآخرة فهو مدّخر لهم عند الله يُجزون به يوم لقائه .

الآية : (١٣٥)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » (١٣٥)

التفسير : المؤمنون هم أُمناء الله بين الناس على دينه ، وهم ميزان العدل لشريعته ، فإذا اضطرب ميزان العدل فى أيديهم ، فقد خانوا دين الله ، واعتدوا على شريعته ، ولم يصبحوا — لذلك — أهلاً لأن يكونوا أولياء الله ، ولا أن يُحسبوا فى المؤمنين به .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » هو أمر ملزم للمؤمنين جميعاً .. فرداً فرداً ، وجماعة جماعة ، وأمة أمة . .

والقسط هو العدل . والقسطاس : الميزان ، وأَقسط القاضى : عدل ، وقسَطَ جار وظلم .. والقوّام : كثير القيام ، فى مبالغة واهتمام .

وفى قوله تعالى : « كونوا قوامين بالقسط » ما يشعر بأن حمل أمانة العدل ليس أمراً هيناً ، وإنما هو حمل ثقيل ، لايقوى عليه إلاّ من وثق إيمانه بالله ، وأخلى نفسه من نوازع الضعف المادية والمعنوية ، فلا يجعل لنفسه أو لمخلوق حساباً فى أداء هذه الأمانة وإقامة ميزانها مستقيما على ما أمر الله به ..

وكلمة « قوامين » غير كلمة « قائمين » .. لأنها تشعر بالشدّ والجذب

والمعاناة ، فى لفظها ، وفى معناها ، المستدلّ عليه من هذا اللفظ : « قوامين » !

والشهداء ، هم الشهود ، الذين يحضرون مجلس القضاء ، ويشهدون الفصل فى الخصومة ، ويُدْلُون بما شهدوه وأشهدوا عليه بين المتخاصمين . .

فميزان العدل لا يقيمه القاضى وحده ، وإنما يد الشهود ممسكة بهذا الميزان ، مشتركة مع القاضى فى إقامته معتدلاً أو مائلاً .. ولهذا كان أمر الله هنا بإقامة ميزان العدل ، متجهاً إلى القاضى ، وإلى الشهود معاً : « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » ..

وفى إضافة الشهادة إلى الله تكريم لها ، واحتفاء بها ، ورفع لقدرها ، إذ كانت محسوبةً على الله ، لأنها تقيم شرعه ، وتحق الحقّ الذى هو حرمة الله .

فالذى يؤدى الشهادة على وجهها إنما يؤديها لله ، وينصر بها حق الله ، والذى ينحرف بها ، ويشوّه وجهها ، إنما هو معتدٍ على الله ، خائن لأمانته .

قوله تعالى : « ولو على أنفسكم » أى ولو كانت الشهادة تُدين أنفسَكم ، وتُلحق الضرر بكم .. فحق الله عليكم أوجب من حق أنفسكم إن كنتم تؤمنون بالله ، وتؤثرون مرضاتِه !

وقوله سبحانه : « أو الوالدين والأقربين » معطوف على قوله تعالى : « ولو على أنفسكم » أى كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو كان فى ذلك إدانة لكم أو لوالديكم ، أو للأقربين منكم .

وقوله تعالى : « إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما » أى أدّوا الشهادة على وجهها ، وأقيموا ميزان العدل منها ، دون حيْف على الفقير لفقره وضعفه ، ودون عدوان على الغنى لصالح الفقير ودفع الضرر عنه . فالحق هو

الحق، وفى ساحته يتساوى الناس جميعاً، دون نظر إلى ما يتلبّس بهم من ظروف وأحوال ..

والضمير فى قوله تعالى « إن يكن » يرجع إلى المشهود له والمحكوم لصالحه من المتنازعيْن، ممن كان غناه أو فقره محل تقدير الشاهد، وانحراف شهادته، أو كان محل نظر القاضى وموضع عطفه .. والمعنى: إن يكن المشهود له أو المحكوم لصالحه غنياً أو فقيراً، فليس من شأنكم أيها الشهود ولا من حقكم أيها القضاة أن تُدخلوا هذا فى حسابكم، وأن تترضّوا عواطفكم على حساب الحق والعدل .. لأن الله سبحانه وتعالى هو أولى منكم بتقدير حال كل من الغنى والفقير، إذ لو شاء لأفقر الغنىّ وأغنى الفقير، أو شاء لأغناهما جميعاً أو لأفقرهما معاً ..

وقوله تعالى: « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » هو تحذير من تلك الأهواء والعواطف التى يجدها القاضى أو الشاهد، لذوى قرابته، وأصدقائه، أو لأصحاب الجاه والسلطان، أو لأهل الحاجة والضر .. فهذه العواطف من شأنها أن تنحرف بالشاهد عن أن يؤدىَ الشهادة على وجهها، كما أنها تمسك يد القاضى أن يقيم ميزان العدل فى مجالس القضاء، إن لم يَقُمْ عليها وازع من دين وخلق .

وقوله تعالى: « أن تعدلوا » فى تأويل مصدر، مجرور بلام التعليل، والتقدير: فلا تتبعوا الهوَى لتعدلوا، أى لإقامة العدل لا تتبعوا الهوى .

قوله تعالى: « وإن تَلْوُوا أو تُعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً » اللّىّ: الميل والانحراف، والمراد به تغيير وجه الشهادة، يقال: لوى فلان وجهه عن الشىء يلويه ليّاً إذا نظر إليه مُزْوَرّاً أو منحرفاً، ومنه قوله تعالى فى اليهود وفى تحريفهم الكلم عن مواضعه: «من الذين هادوا يحرفون الكَلِمَ عن مواضعه ويقولون سمعنا وأطعنا واسمع غيرَ مُسْمَعٍ وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً فى الدين» (٤٦: النساء)

وفى الآية الكريمة تحذير من الانحراف بالشهادة ، أو الإعراض عنها ، أو كتمانها ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا يأبَ الشهداء إذاما دُعوا » (٢٨٢ : البقرة) .

الآية : (١٣٦)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِىٓ أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا » (١٣٦)

التفسير : الإيمان . . كلٌّ لا يتجزأ . . وحقيقة كبرى تندرج تحتها حقائق . . فمن آمن ببعضٍ وكفر ببعض فليس مؤمناً ، وإلا لو كان مؤمناً حقاً بهذا الذى آمن به ، لأسلمه إيمانُه هذا ، إلى الإيمان بما لم يؤمن به من جزئيات الحقيقة الكبرى .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا » هو نداء لمن دخلوا فى الإيمان ، وحُسبوا فى المؤمنين . .

وإنه لكى يكونوا مؤمنين حقًّا ينبغى أن يكون إيمانهم قائما على الحقائق الآتية :

أولها : الإيمان بالله . . فهو ركيزة الإيمان ، ودعامته . .

وثانيها : الإيمان برسول الله ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وبالكتاب الذى بين يديه ، وهو القرآن .

وثالثها : الإيمان بالكتب السماوية المنزلة من قبل ، وبرسل الله جميعاً .

ورابعها : الإيمان بالملائكة ، وأنهم خلق من خلق الله ، وجند من جنده .

وخامسها : الإيمان باليوم الآخر . . أى بالبعث والجزاء والجنة والنار .. فمن آمن على هذا الإيمان ، فهو مؤمن حقًّا ، وعليه أن يعمل عمل المؤمنين ، وله أن يُجازى جزاء المحسنين .

ومن كفر ببعض تلك الحقائق وآمن ببعض ، فهو — كما قلنا — ليس من الإيمان فى شىء ، لأن ما يبنيه أولاً يهدمه ثانياً . . والله سبحانه وتعالى يقول : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * » (١٥٠ — ١٥١ : النساء)

الآيات : (١٣٧ ـ ١٣٩)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١٣٧) بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا » (١٣٩)

التفسير: النفاق أقتل داء يصيب المجتمع الإنسانى . . فإذا تفشّى هذا الداء الخبيث فى جماعة من الجماعات فسد وجُودها ، وضل سعيها ، وغشيتها أمواج الفتن ، واشتملت عليها عواصف العداوة والبغضاء !

وماذا يُرجى من جماعة تتعامل فيما بينها بالرياء والنفاق ، فيضيع فى محيطها المفهوم الحقيقى لِلّغة ، وتصبح الكلمات لديها عملة زائفة ، يتداولها الناس كما يتداولون الأشياء المسروقة ؟

وكيف الحياة لمجتمع يعيش على الختل والخداع ، ويغتَذِى من مادة الكذب والزور . .

فلا يثق أحد فى أحد ، ولا يأمن أحد أحداً ، ولا يفرق أحد بين ما هو حق أو باطل .. إن حياة النفاق تقتل فى الإنسان كل معانى الشرف والفضيلة ، وتُحِلّه من كل ارتباط مع مبدأ أو خلق . . فهو أنانىّ ، انتهازىّ . . يضحى بالناس جميعاً فى سبيل مصلحته وسلامته . .

من أجل هذا ، وكثير غيره مما ينضح به النفاق من شر وبلاء — حارب الإسلام النفاق والمنافقين ، وعمل على تطهير المجتمع الإسلامى وحمايته من هذا الداء الخبيث ، الذى هو شر ما يُبتلى به إنسان أو مجتمع .

وقد فَضَح القرآن الكريم المنافقين ، الذين اندسوا فى المجتمع الإسلامى ، فأغرى المسلمين بهم ، ليخرجوهم من بينهم ، وليتجنبوا الاتصال بهم ، والتعامل معهم . .

وفى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ، ثم ازدادوا كفراً . . »

— ما يكشف عن الأسلوب الذى يتّبعه المنافقون فى الحياة ، مع كل أمر ،

وفى كل موقف .. إنهم لا يستقيمون مع حال أبداً ، وإنما هم حُوَّلٌ قُلَّب ، حسب ما تمليه أهواؤهم ، وتدعوهم إليه مصلحتهم . . فتراهم يأخذون بالأمر غُدوَةً ، ثم يرفضونه عشيَّة ، ثم يعودون فيأخذون به . . ثم يُعرضون عنه . . وهكذا . . لأنهم لا يقيمون حكمهم على الأشياء لذاتها ، وما تحمل فى كيانها من خير أو شر ، وإنما يحكمون عليها حسب ما تمليه أهواؤهم ، وتقتضيه حاجاتهم العاجلة منها . .

وفى العقيدة ، التى من شأنها أن تقوم فى كيان الإنسان مقاماً راسخاً ، لا يتحول ، ولا يهتز ـ تراهم يتعاملون بها وكأنها سِلعة فى أيديهم ، لا معتقدٌ فى قلوبهم . . فيعرضونها للبيع ، ويضعونها فى يد من يدفع ثمناً أكثر . .

وانظر ما كان منهم مع دعوة الإسلام . .

كانوا كافرين ، فرأوا الناس يَرِدون شِرْعة الإيمان ، فآمنوا . .

ثم رأوا سانحة تسنح لهم وراء حدود الإيمان ، فتسللوا من بين صفوف المؤمنين ، وخلعوا رداء الإيمان . . فكفروا .

ثم لاح لهم فى مستقبل الإيمان مغنم يغنمونه . . فآمنوا .

ثم لما أن حَصَلوا على ما أرادوا ، ولمع لهم سراب وراء أفق الإيمان ، أقبلوا إليه ، وخلَّفوا الإيمان وراءهم . . فكفروا .

ثم . .

ثم ازدادوا كفراً . . إذ لم يُبْقِ هذا الجرىُ اللاهث فى ترددهم بين الإيمان والكفر ـ لم يُبق لهم بقيةً من جهد يعودون به إلى الإيمان مرة أخرى . .

وبهذا ينتهى أمرهم فى آخر المطاف بهم ، إلى الارتماء فى أحضان الكفر .. الذى

يموتون عليه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:

« لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديَهم سبيلا ».

فهذا تيئيس من مغفرة الله لهم، لأنهم لن يؤمنوا أبداً.. فهم بهذا واقعون تحت قوله تعالى: « إنّ الله لا يغفر أن يشرك به »!

ثم إنهم إذ لم ينالوا مغفرة الله، ولم يتعرضوا لها، متركون لشأنهم وما اختاروا، وقد اختاروا الضلال، واستحبّوا العمى، واتخذوا الشيطان وليّاً من دون الله. « وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا » (١١٩: النساء).. فهم بهذا واقعون تحت قول الله تعالى: « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون » (٢٥٧: البقرة).. إنهم أولياء الطاغوت.

هذا، وفى الآية الكريمة ما يكشف عن طبيعة الصراع بين الخير والشر، وأن داعى الشرّ فى الإنسان أكثر إلحاحاً من داعى الخير، إذ كان مع الشر قوّى خفيّة فى الإنسان تميل إليه، وتنتصر له، وهى أهواء النفس، ووساوس الشيطان.. فإذا لم ينتبه الإنسان إلى هذا الخطر الكامن فى كيانه، وإذا لم يُقم على أهوائه حارساً من عقله وإرادته، ووازعاً من دينه وخلقه، تسلّط الشر عليه، واستبدّ به، وملك أمره..

ولو أن هؤلاء الذين آمنوا ثم كفروا، ثم آمنوا ثم كفروا ـ لو أنهم وقفوا وقفة حازمة من أول الأمر فى وجه تلك الأهواء المسلطة عليهم، لمَا جرفهم هذا التيار الذى ألقى بهم فى غمرات الكفر والضلال، بحيث لا أمل لهم بعدَ هذا فى نجاة أو خلاص!

وقوله تعالى : « بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » هو كشف صريح لوجه هؤلاء الذين تردّدوا بين الإيمان والكفر . . فهم منافقون ، وليس للمنافقين إلا العذاب الأليم . .

وفى سوْق العذاب الأليم إلى المنافقين بين يدى من يبشرهم به ، ما يشير إلى شناعة موقف هؤلاء المنافقين وشؤم مصيرهم ، وأنه إذا كان لهم ما يبشرون به فى الآخرة فهو هذا العذاب الأليم ! فكيف ما يُساءون به من ألوان المساءات ، وهو شىء كثير شنيع . ؟

وقوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » هو صفة كاشفة لوجه من وجوه المنافقين ، ذلك الوجه الذى يلقون به الكافرين فى ولاء ومودة . . وهذا يعنى أنهم على عداوة للمؤمنين ، إذ أقاموا مع عدوّهم حِلفاً عليهم ، يتمثل فى هذا اللقاء الودىّ بينهم وبين الكافرين . . والله سبحانه وتعالى يقول : « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » (٢٢ : المجادلة) .

ولكن هكذا المنافق ، لا يمسكه مبدأ من خلق أو دين ، وإنما تحركه أهواؤه ، وتدفعه نزواته إلى الاتجاه الذى يتظنّى أن يجد فيه لقمة سائغة له !

وفى قوله تعالى : « أيبتغون عندهم العزة » ما يكشف عن الغاية التى يتغيّونها من تعلقهم بحبال الكافرين ، واستظلالهم بظلهم . . إنهم يريدون أن يستندوا إليهم ، ويحتموا بجبهتم ، إذ خيّل إليهم أن جانب الكافرين هو القوىّ ، بما فيهم من كثرة عدد ، ومن سعة غنًى ، على حين كان المسلمون فى قلة من الرجال والأموال .

والاستفهام هنا إنكارى تهديدى ، يكشف للمنافقين سوء تقديرهم ، وخسارة صفقتهم التى عقدوها مع الكافرين ..

« فإن العزة لله جميعاً » .. وإنّ أخسرَ الناس صفقة ، من أراد العزة فاتخذ غير الله طريقاً إليها ، وغير المؤمنين أولياء له فى طلبها .. إن العزة لله جميعاً ، وإن العزة لأولياء الله ، ولمن والى أولياء الله .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » (٨ : المنافقون).

الآية : (١٤٠)

« وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا » (١٤٠)

التفسير : للنفاق مداخل كثيرة إلى القلوب ، فهو يتدسّس إلى الإنسان فى خفاء ، ويتحسس مواطن الضعف منه فينفذ إليها ، حتى يتمكن منها ، وإذا المرء وقد عشش فيه النفاق ، ثم باض وأفرخ ، وإذا هو فى المنافقين ، لا يملك دفع هذا الداء الذى جثم على صدره .

لهذا كان الإسلام حريصاً على أن ينبه المسلمين إلى هذا الخطر ، ويحذّرهم من أن يُلِمّوا به ، أو يحوموا حوله ، حتى لاتصيبهم عَدْواه ، فيتعذر شفاؤهم منه . .

وفى طبّ الأجسام ، أنّ الوقاية خير من العلاج ، وهى فى طبّ الأرواح أوجب وألزم .

وقوله تعالى : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » ـ هو تنبيه المسلمين من داء النفاق أن ينفذ إليهم إذاهم جلسوا مجلسًا مع أعداء الله من المنافقين الكافرين ، ثم ذُكرت فى هذا المجلس آيات الله على لسان هؤلاء المنافقين الكافرين ، فى معرض الاستهزاء والسخرية ، ثم لم يكن من المسلمين إنكار لهذا المنكر ودفعٌ له باليد أو اللسان — وذلك بأن يكونوا فى حال ضعف لايقدرون معه على مواجهة هؤلاء المجتمعين على المنكر . !

والموقف الذى يجب أن يتخذه المؤمن فى تلك الحال هو أن يَخلُص بنفسه من هذا المجلس الآثم ، وألاّ يستمع لهذا المنكر الذى يدور فيه .. فإنه إن لم يفعل ، وسكت على مايسمع — وهو مغلوب على أمره — كان صمته هذا — ولو فى ظاهره — دليلاً على رضاه ، ومظاهرة لأهل المنكر على منكرهم ، وليس — والحال كذلك — من شفيع يشفع له بأنه ليس من أهل هذا المجلس ، يقتسم معهم الإثم الذى يدور بينهم ، ويحمل نصيبه منه ..

وفى قوله تعالى : « وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » إشارة إلى ما نزل قبلَ هذا من قرآن فى مثل هذا الموقف ، وهو قوله تعالى : « وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ » (٦٨ : الأنعام) .

فهذه الآية هى توكيد لهذا التنبيه الذى سبق نزولُ القرآن به من قبل، وتحذير جديد لأولئك الذين لم ينتهوا عمّا نُهُوا عنه ، والخطاب فى الآية موجّه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم، هو أمر ملزِم لأتباع النبىّ، إذ كان النبيّ إمامَهم وقدوتَهم .

وقوله تعالى : « يُـكفرُ بها ويُستهزأ بها » هو حال كاشفة للصفة التى تدور بها آيات الله على ألسنة الـكافرين والمنافقين .. وهى أنها تدور للسخرية والعبث.

وقوله تعالى : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره » هو نهي للمسلمين عن الجلوس في هذا المجلس القائم على تلك الصفة ، وليس نهياً عاما مطلقا على تجنب الجلوس مع المنافقين والـكافرين ، ففى ذلك إعنات المؤمنين ، فقد تستدعى أحوالهم أن يكونوا بحيث لامنصَرف لهم عن الحياة مع هذه الجماعة ، وتبادل المنافع معها !

على أن من السلامة لدين المؤمن أن يتجنب مجالس هؤلاء القوم ما استطاع، فإذا مسّت هذه المجالس دينه بما يسوء ، كان أمراً لازماً عليه أن يتحول عن هذه المجالس فى الحال ، ولا يخالط نفسه بها ، وإلاَّ حمل وزره من الإثم الذى يتعاطاه فيها أهل النفاق والـكفر . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إنـكم إذاً مثلُهمْ » أى لافرق بينـكم أيها المؤمنون وبين هؤلاء الأثمة ، الذين يهزءون بآيات الله ويسخرون منها ، إذا أنتم استمعتم إلى هذا المنـكر ولم تنـكروه ..

وفى قوله تعالى : « إن الله جامع الـكافرين والمنافقين فى جهنم جميعاً » تهديد ووعيد بهذا المصير المشئوم الذى ينتظر الـكافرين والمنافقين ، ومن يلوذ بالـكافرين والمنافقين ، ويركن إليهم ، ويستمع للزور الذى يدور بينهم .

الآية : (١٤١)

« الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » (١٤١)

التفسير : وجه آخر من وجوه النفاق .. وما أكثرها ..

فإنه حين يكون بين المؤمنين والكافرين قتال ، يأخذ المنافقون موقفاً بين هؤلاء وهؤلاء .. ولو استطاع الواحد منهم أن يقسم نفسه شطرين لفعل، فكان شطراً مع المؤمنين ، وشطراً مع الكافرين .. فإذا انتصر المؤمنون عدّ نفسه فيهم ، وأخذ نصيبه من الغنائم معهم .. وإذا كانت الدولة للكافرين حسب نفسه منهم ، وجنى من ثمرة النصر مايجنون ! ولكن ثوب النفاق يفضح أهله، حيث يُخيِّل للابسه أنه مستور ، ولكنه فى أعين الناس متجرد عار ، مكشوف السوأة .

وقوله تعالى : « الذين يتربصون بكم » إشارة كاشفة لموقف المنافقين ، وهو موقف التربص والانتظار لِمَا ينجلى عنه الموقف فيما يدور بين المؤمنين والكافرين من صراع .

وقوله تعالى : « فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ » هو فضح لهذا الوجه الوقاح الذى يستقبل به المنافقون المؤمنين بعد النصر والغلب .. فلقد كانوا فى المؤمنين بأجسادهم ، يمشون بها فى تثاقل وانحراف ، والحرب دائرة ، والقتال مُستَعر ، وهاهم أولاء يُضيفون أنفسهم إليهم .

وفى إضافة الفتح إلى الله ، تذكير للمؤمنين بأن ما كان لهم من نصر فهو من عند الله ، بتأييده للمؤمنين ، وإلقاء الرعب فى قلوب الكافرين .

وفى تسمية انتصار المؤمنين فتحاً إشارة إلى أن هذا النصر هو فتح لمغالق الخير ، وطرق الهدى .

وقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » كشف عن وجه آخر من وجوه المنافقين حين يلقون به الكافرين ، وقد كانت لهم جولة على المسلمين ..

يقولون لهم : « ألم نستحوذ عليكم » أى ألم نستولِ عليكم فى المعركة ونملك أمركم ؟ ولكنا تخاذلنا ، وأرخينا أيدينا عنكم ، فتخاذل المسلمون وانهزموا ؟ ولولا أننا لم نفعل ذلك لدارت الدائرة عليكم .. فنحن شركاؤكم فى هذا النصر الذى كان لكم ، بل الذى نحن صانعوه لكم !

والاستحواذ على الشيء ، وعلى الأمر : التمكن منه ، والتسلط عليه ..

وقوله تعالى : « فالله يحكم بينكم يوم القيامة » .. الضمير فى بينكم يعود إلى المؤمنين ، المخاطبين بهذه الآية ، وقد يكون مُرادًا به المؤمنون والكافرون والمنافقون ، والتقدير : فالله يحكم بينكم جميعاً .. أو يكون مقصوراً على المؤمنين وحدهم ، والتقدير : فالله يحكم بينكم وبينهم . ولم يُذكر المنافقون والكافرون هنا فى هذا المقام إشعاراً بأنهم ليسوا أهلاً لأن يكون لهم وزن فى هذا الشأن ، الذى هو شأن المؤمنين وحدهم ، وقضيتهم التى يراد لهم الفصل فيها ، لأنهم هم أصحاب هذا اليوم — يوم الفصل — حيث يجنون أطيب ما فيه من ثمرات !

وقوله تعالى : « وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً » هو وعد من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين — إذا صدق إيمانهم — ألا

تكون للكافرين يدٌ عليهم ، بل إن يَدَ المؤمنين هى العليا دائما ، ويد الكافرين السفلى أبداً . .

الآيتان : (١٤٢ - ١٤٣)

« إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » (١٤٣)

التفسير : جناية المنافقين على أنفسهم جناية فادحة ..إذ يعيشون بهذا الداء، ولا يجدون له فى أنفسهم ألمًا ، ولا يحسون له فى ضمائرهم وَخزًا ، ومن ثَمَّ كان داؤهم هذا داءً عصِيَّ الدواء ، إذ كيف يطلب الدواء من لا يعرف الداء ولا يجد له ألمًا ؟ ذلك أخبث داء وأقتل علّة .. حيث يأخذ هذا الداء من كيان صاحبه كل يوم بُضعة ، وتغتال هذه العلة من وجوده جانباً ، دون أن يحسّ أو يشعر حتى إذا جاء يوم استفاق فيه من سكرته ، وجد الداء مستوليا عليه ، ولا مكان للإنسان فيه ! .

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ »

إذ هم يحسبون أنهم بهذه الأثواب التنكرية التى يلبسونها فى أحوالهم المختلفة — قد خدعوا الله وخدعوا الناس . . وفى الحقيقة أنهم قد خدَعوا أنفسهم ، وَأضلّوها عن سواء السبيل، وَركبوا بها هذا المركب الذى يقذف بهم فى قرار الجحيم ..

وفى المنافقين يقول الله سبحانه : « يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ » (٩ : البقرة)

وخداع الله سبحانه للمنافقين هو أن يُفسد عليهم تدبيرهم ، وأن يردّ كيدهم إليهم ، وأن يُخليهم لأنفسهم ، ويأخذهم بجريرتهم . . « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىء إِلاَّ بِأَهْلِهِ » (٤٣ : فاطر)

وقوله تعالى : « وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى » هو مَثلٌ لمخادعتهم لله . . يقومون إلى الصلاة فى تَكرُّه وتخاذل ، لأنهم لا يُريدون الصلاة للصلاة ، ولا يؤدونها أداء لحق الله ، وشكراً لنعمائه ، وإنما هم يؤدونها حتى يدفعوا بهذا الأداء الآلىّ تهمة الكفر ، وحتى تكون أشبه بذرّ الرماد فى العيون . وهذا مابيّنه قوله تعالى : « يُرَاءون الناس » أى لا يذكرون الله إلا حيث يرون الناس ويراهم الناس . . فالمراءات ، رؤية متبادلة بين طرفين ، كل منهما يرى الآخر . . وهذا يعنى أن المنافقين لا يصلّون إلاّ حين يرون الناس ، وإلا حين يراهم الناس وهم فى الصلاة ، فإن كان فى الناس غفلة عنهم ، لفتوهم إليهم بحركة أو إشارة ، أو رفع صوت ، أو نحو هذا .

وقوله تعالى : « ولا يذكرون الله إلا قليلاً » إشارة إلى خلوّ أنفسهم من مشاعر الإيمان بالله واستحضار عظمته وجلاله . . !

والذكر القليل الذين يذكرون الله به ، هو ما يكون منهم حين تُلِمّ بهم الأحداث ، أو تكربهم الكروب ، فإذا انجلى عنهم هذا الذى نزل بهم ، عادوا إلى ما كانوا فيه من غفلة عن الله ، وذهول عن ذكره ، بما هم فيه من شغل بأنفسهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ

وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ » (٨ : الزمر) ..

وقوله تعالى : « مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ » هو بيان كاشف للحياة التي يحياها المنافقون ، وأنها حياة قلقة مضطربة ، لاتقوم على مبدأ ، ولا تستقيم على طريق . .

والذبذبة الاضطراب ، والتردد ، بين موقفين أو أكثر .. وكأنها مشتقة من الذَّبّ ، وهو الدفع والطرد ، ومنه سمّى الذباب ، لأنه يُطرد ، ثم يعود ، ثم يطرد ، ثم يعود ، وهكذا ..

وقوله تعالى : « وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا » هو تيئيس لهؤلاء المنافقين ، الذين تقلّبوا فى وجوه النفاق ، ففسد وجودهم كلّه ، ولم يعودوا صالحين للعودة إلى الطبيعة البشرية السليمة .. فلاسبيل لهم — والأمر كذلك — إلى الخلاص من هذا الداء الذى تمكن منهم !

ثم إن هذا الحكم هو تنبيه إلى هؤلاء الذين هم على شاطىء النفاق ، وفى أول الطريق إليه .. وأنهم إذا لم يلتفتوا إلى أنفسهم ، ويحذروا الخطر الذى هم بين يديه ، اشتمل عليهم واحتوى وجودهم ، ولحقوا بمن سبقهم من المنافقين !

وإضلال الله للمنافقين ، إنما كانت نسبته إلى الله ، لأنه أشبه بتصديق على حكم أصدروه هم على أنفسهم ، وصنعوا بأيديهم حيثياته وأدلّته .. « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (٣٣ : النحل) .

الآيات : (١٤٤ ـ ١٤٧)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن

دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٤٤)
إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)
إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ
مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦) مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ
بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا » (١٤٧)

التفسير: وإنه بعد أن كشف الله سبحانه وتعالى للمؤمنين هذه الوجوه المنكرة للمنافقين وأطلعهم على هذا المصير المشئوم الذى هم صائرون إليه .. فقد جاء سبحانه وتعالى إلى المؤمنين يحذرهم هؤلاء المنافقين، حتى لا يصيبهم ما أصابهم وسيصيبهم من ذلة وهوان فى الدنيا، وعذاب ونكال فى الآخرة.

وموالاة المنافقين، والميل إليهم، هو فى الواقع معاداة للمؤمنين ومجافاة لهم .. وهذا من شأنه أن يخالط المؤمنين الذين يوالون المنافقين بأهل النفاق، ويضيفهم إليهم، وهذا من شأنه أيضاً أن يعرضهم لما تعرض له المنافقون من سخط الله ونقمته، دون أن تكون لهم عند الله حجة، أو يقوم لهم بين يدى عذابه ونقمته عذر يعتذرون به!

وقوله تعالى: « إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا » هو كشف للمؤمنين عن هول هذا العذاب الذى يلاقيه المنافقون، وأنهم فى الدرك الأسفل من النار، ينزلون منها المنزل الدون، الذى بعده منزلة، الأئمة والكافرين!

وقوله تعالى: « إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » هو استثناء يُفتح به باب الأمل والرجاء فى النجاة من هذا المصير، لمن بقيت منه فى كيان المنافقين بقية من خير، يستطيع

بها أن يفتح له طاقة من نور يهتدى بها إلى طريق الله ، فيرجع إليه ، ويؤمن به ، ويُخلص دينه له ، فلا يرجع إلى ما كان فيه مرة أخرى .. فإنه إن فعل ؛ كان فى المؤمنين ، وكان له ما للمؤمنين من الأجر العظيم الذى وعدهم الله به : « وسوف يؤتِ الله المؤمنين أجرًا عظيماً » .

وقوله تعالى : « ما يفعَلُ اللهُ بعذابكمْ إن شكرتم وآمنتم » إشارة إلى ما للناس عند الله من واسع الرحمة وعظيم المغفرة ، وأنه سبحانه وتعالى ليس إلهاً متسلطاً جباراً يتشفىّ بعذاب عباده . . وكيف هذا وهم صنعة يده ، وزرع مشيئته ، وغَذِىّ فضله وإحسانه ؟

إنه ـ سبحانه ـ يدعو عباده إليه ، وييسر لهم سبل الاتصال به ، والقرب منه ، ولكن من غلبت عليه شقوته منهم — يأبى إلا أن يَشْرُد عن الله ، ثم يتمادى فى هذا الشرود ، فيحارب الله ، ويحارب أولياءه ، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل !

فإذا أُخذ هؤلاء الشاردون عن الله ، المحاربون له ، بذنوبهم ، وسِيقُوا إلى عذاب جهنم — فهل ذلك إلا لأنهم أساءوا فوقعوا تحت حكم المسيئين ؟ . . ولو أنهم أحسنوا لكان لهم جزاء المحسنين .. والله سبحانه وتعالى يقول :« ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » (٣١ : النجم)

وفى تقديم الشكر على الإيمان هنا .. « إن شكرتم وآمنتم » إشعار بأن الإيمان لا يقوم إلا على مشاعر الولاء لله ، ذلك الولاء الذى يتخلّق من النظر فى ملكوت السموات والأرض ، ومن التدبر فى آيات الله المبثوثة فى كل ذرة من ذرات الوجود .. وهنا يجد العبد نفسه وقد صار لساناً شاكراً لله مسبحاً بحمده.

فالشكر هو المدخل الذى يجد فيه الإنسان طريقه إلى الله ، والتعرف إليه .. ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى الله قائمة أولاً على النظر إلى هذا الوجود ،

وإلى ما فيه من موجودات ، ينتظمها نظام ، وتُمسك بها قدرة ، ويدبرها علم . ثم نسبة هذا الوجود وما اشتمل عليه ، إلى الصانع الذى صنعه ، فأبدع صنعته ، وأحكم وجوده .. وبهذا تتفتح الطرق إلى الله ، حيث يسلكها الإنسان ، متجها إلى الله فى خشوع وولاء ، وفى لَهَج بالحمد والثناء ..ومن هنا قام الشكر مقام الإيمان ، واعتُبر فى ذاته إيمانا كاملاً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن تكفروا فإن الله غنىٌّ عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يَرْضَهُ لكم » (٧ : الزمر) أى وإن تؤمنوا يرضه — أى يرضى الإيمان — لكم ، ويتقبله منكم .

قوله تعالى : « وكان الله شاكراً عليماً » .

وشكر الله ، هو رضاه عن الأعمال الصالحة التى يقدمها عباده له ، فيقبلها منهم ، ويحسن لهم المثوبة ، ويضاعف لهم الجزاء عليها .



الآيتان : (١٤٨ - ١٤٩)

«لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا (١٤٨) إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوٓءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» (١٤٩)

التفسير : ليس داء أقتل للمجتمعات ، ولا وباءٌ أفسد لكيانها ، وأفعل فى تقويض بنيانها — من الفاحشة ، تنجم فيها ، ثم تتردد أصداؤها فى آفاقها ، وتنطلق أشباحها بين ربوعها ، دون أن تجدَ فى الناس من يتصدّى لها ، ويقف فى وجهها ، ويدمدم على تلك الينابيع المعفنة التى تتدفق منها ..

فكلمة السوء تنطلق من فم سفيه ، ثم تجد المرعى الخصيب فى آذان تستقبلها وقلوب تتفتّح لها ، وأفواه ترددها — هذه الكلمة هى لعنة تلبس كل من أخذها، وتعامل بها ..

وفَعلة السوء .. هى كلمة السوء مجسّدة .. يلقاها الناس بعيونهم ، على حين يلقوْن الكلمة بآذانهم ..

والناس هم الذين يفُسحون لكلمات السوء ، وفَعَلات السوء مكاناً بينهم ، فتتوالد فيهم وتتكاثر ، وتصبح بعضَ وجودهم ، وقد تستولى يوماً على وجودهم كله .. ذلك حين يستقبلونها ، ولا ينكرون ولا يضربون على أيدى المتعاملين بها .

والناس — كذلك — هم الذين يئدون كلمات السوء فى مهدها ، ويخنقونها قبل أن تتنفس أنفاس الحياة فى أجوائهم .. إذا هم أنكروها ، وأنكروا أصحابها فيهم ، وأخذوهم بالأدب الذى يردعهم ويردّهم عما هم فيه من ضلال !

وفى أثر القدوة الحسنة ، والقدوة السيئة ، فى بناء المجتمع ، أو هدمه ، يذيع النبيّ الكريم هذا الهدى الربانى ، ليكون دستوراً يعيش فيه الناس ، وميزاناً يضبطون عليه معاجهم فى القول والعمل .. يقول الرسول الكريم : « من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » ..

وصدق رسول الله ، الذى حلاّه ربه بهذا الوصف الكريم : « ماضلّ صاحبكم وما غَوى وما ينطق عن الهوى » (٢ — ٣ : النجم) .

فكم كلمة سوء ، يُرمى بها — عن قصد أو غفلة — فإذا هى شرر متطاير ، بين يدى ريح عاصفة ، يعلق بأذيال حصيد هشيم ، ثم لا تلبث حتى تصير لهيباً يلتهم كل شىء ، ويأتى على كل شىء !

أتريد شاهداً لهذا ؟ إليك إذن هذه الكلمة :

« لا حكم إلا لله » .

إنها من الكلمات القليلة التى دارت فى الحياة دورة كانت أشبه بإعصار مجنون ، لفّ الناس تحت جناحه ، ثم ألقى بهم من حالق ، فإذا هم فى وجه فتنة عمياء ، أهلكت الحرث والنسل ..

وليس فى الكلمة علوّ فى البلاغة ، ولا بِدْعٌ فى الصياغة ، ولا طرافةٌ فى الأداء ، بل هى فى تركيبها أقرب إلى المألوف الدارج من الكلام ، منها إلى الطريف النادر !

ثم إنها من جهة أخرى — ليست من الكلمات التى تَخدِش الحياء ، أو تَمسّ الدين .. بل هى — فى ظاهرها — كلمة حق ، يمكن أن تكون على لسان العابدين المسبّحين !

ومع هذ ، فإن تلك الكلمة كانت أشأم كلمة وُلدت فى الإسلام ، وجرت على ألسنة المسلمين . !

والتاريخ المعروف لميلاد تلك الكلمة ، هو السنة السابعة والثلاثون من الهجرة ، حين تمّ التصالح بين علىّ ومعاوية على التحكيم ، بعد أن ذهبت الحرب بينهما فى صِفّين بألوف الأرواح من المسلمين ..

وقد تكون هذه الكلمة جرت على ألسنة كثيرة قبل هذا التاريخ ، ولكنها لم تكن تعيش طويلا ، أو تتحرك فى مجال أكثر من دائرة الشخص الذى نطق بها .

أما ظهورها فى هذه المرة ، وفى هذا الوقت الذى سُمعت فيه ، فقد كان — كما قلنا — ظهوراً مدوياً ، ملأ الأسماع ، وهزّ المشاعر ، وأثار البلبلة والاضطراب .. ثم الحرب والقتال !

والسرّ فى هذا ، هو أنها جاءت فى وقتها ، وظهرت فى الحال الداعية إليها ، فوقعت من كثير من النفوس موقع الغريق يتعلق بأى شىء يقع ليده ، ولو كان مخلب أسد ، أو ناب ثعبان !

هكذا الكلمات والعبارات ، تكبُر قيمتها ويعظم خطرها ، حين تكون الحاجة إليها داعية ، والنفوس لها طالبة ، دون نظر أو اعتبار لها فى ذاتها ، وفى حلاوة جَرْسها ، وبراعة تركيبها ، وغزارة معانيها ..

إن لقمة ، خشنة ، جافة ، تجىء على جوع ، هى أشهى وأغلى من ، مائدة جمعت ليّن الطعام وطيّبه ، تجىء على شبع وامتلاء !

وقد جاءت هذه الكلمة « لاحكم إلا الله » إلى نفوس حائرة ، فكانت دليلها ، وقلوب مضطربة ، فكانت أمْنَها وسَكَنَها .

كان هناك مئات وألوف من أصحاب « علىّ » كرم الله وجهه، حاربوا معه ابتغاء مرضاة الله، وهيئوا أنفسهم للاستشهاد فى سبيل الله، ولردّ الفئة الباغية إلى طريق الحق الذى شردت عنه.

ثم هاهم أولاء يرون دعوةً إلى وقف القتال، وإلى الاحتكام إلى كتاب الله! ففيم كان القتال إذن؟ وما ثمن هذه الأرواح التى ذهبت؟ وتلك الدماء الغزيرة التى أريقت؟

كان كثير من أصحاب علىّ فى حيرة من أمرهم فى هذا الموقف، لايدرون كيف يجدون الجواب على تلك الأسئلة المحيرة التى تدور فى صدورهم..

وقد خطبهم الإمام « على » وأرضى الكثير منهم بمنطقه وبلاغته، ولكن كثيراً منهم كان داء الحيرة عندهم أكبر من أن تذهب به بلاغة الإمام ومنطقه!

ولهذا، فإنه ما إن هتف الهاتف بهذه الكلمة العابرة الطائرة: (لا حُكمَ إلا لله)، حتى لَقِفتها الآذان، وتنادت بها الألسنة، وإذا هى راية يجتمع عليها جيش كان قد سقطت رايته، ووقع الاضطراب فى صفوفه!

لقد كانت هذه الكلمة هى « المبدأ » الذى اجتمع عليه الخوارج، وهى الراية التى قاتلوا تحتها، وهى السّمة التى كانت حِجازاً بينهم وبين الجماعة الإسلامية..

وأحسِب أنه لولا هذه الكلمة ما استمسك أمر الخوارج، ولا انتظم شملهم، ولا اجتمعت أشتاتهم المتفرقة.. بل لظلّوا هكذا أفراداً، كلّ فرد منهم يحمل همّه فى نفسه، ويعالج حيرته بالأسلوب الذى يتهيأ له.. ولكن هذه الكلمة كانت أشبه بشعلة من نار ارتفعت فى الصحراء، فى ليلة حالكة السواد، فاجتمع عليها كل ضال، وجاء إليها كل تائه..

إن الكلمة ليست مجرد صوت ينطلق من فم ، ثم يذوب صداه فى أمواج الأثير . . !

بل إن الكلمة رسول مبين إلى الناس ، يهتف بهم إلى العمل ، ويدعوهم إلى الوجه الذى يريدهم عليه . .

وما رسالات السماء ، وما دعوات الرسل .. إلا كلمات .. تحمل الخير والهدى ، فتثمر ماشاء الله أن تثمر من خير وهدى . .

والله سبحانه وتعالى يقول : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ * يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ » (٢٤ - ٢٧ : إبراهيم)

وفى قوله تعالى : « لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ » — أمور . . منها :

أولا : « لا يحب الله الجهر بالسوء من القول » .

مادلالة نفى حبّ الله سبحانه وتعالى للشىء ؟ أهو كراهة هذا الشىء أم تحريمه ؟

ظاهر نفى الحب — بمفهوم المخالفة — هو الكره ، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يكره الجهر بالسوء من القول

وكُره الشىء أقل درجة من تحريمه .. فقد يكره الإنسان الأمر ، ثم يريد

نفسه عليه ، فتقبله وهى غير مقبلة عليه ، وليس كذلك إذا كان شعوره نحو هذا الشيء هو شعورَ تحريم .. إنه لايقبل عليه إلا مكرهاً أو مضطراً !

والسوء من القول ، قد يبلغ مبلغ الفاحشة ، والله سبحانه وتعالى قد حَرَّمَ الفواحش ماظهر منها وما بطن .. إذ يقول سبحانه : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. » (٢٣ : الأعراف)

فكيف يجىء النهى عن الجهر بالسوء من القول فى صورة الكره له ، ووضعه موضع الشيء غير المحبوب ؟ والمتوقع أن يجىء النهىّ عنه ، فى صورة جازمة قاطعة .. فكيف هذا ؟ وما تأويله . .

والجواب : هو أن نفى حب الله عن الشيء ، يكفى فى تجريم هذا الشيء وتحريمه .. وقد حرّم الله سبحانه وتعالى المنكرات ، بأن سلب حبه لها ، ورضاه عنها .. فقال سبحانه وتعالى فى تحريم الفساد « واللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ » ٢٠٥ : البقرة) .

وقال سبحانه : (إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » (٥٨ : الأنفال) وقال : « إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » (٤٥ : الروم) وقال تعالى : « إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » (٤٠ : الشورى) .. فهذه المنكرات ، من الفساد ، والخيانة ، والكفر ، والظلم ، هى مما لا يحبها الله ، ولا يحبّ مرتكبها .

فَسَلْبُ حبِّ الله سبحانه للشيء ، ورضاه عنه ، يضعه موضع المنكر ، المعزول عن ألطاف الله ، وعن مواقع رضوانه . . وهذا يكفى فى تجنب هذا الشيء ، ومحاذرة التلبّس به ، واعتباره من المنكر المحرّم .

ومن جهة أخرى ، فإن القول نعمة من النعم الكبرى ، التى فضل الله بها

على الإنسان ، فهو أشبه بالهواء والمـاء ، لا يستغنى عنه فرد أو جماعة ، فى حال أبداً .. ومن شأن هذه النعمة العامة الشاملة أن تـكون مطلقة ، مباحة ، إطلاق الهواء والماء وإباحتهما ..

فلو أنه أقيم على هذه النعمة قيود محكمة ، وحواجز مصمتة ، لـكان فى ذلك ما يذهب بكثير من خير هذه النعمة ، ويكدّر مواردها الصافية أو يعطلها ..

لهذا ، كان من حكمة الحـكيم العليم ، أن يقيم على تلك النعمة العظمى ـ نعمة الـكلام ـ إشارةَ تنبيه ، تحذّر الناس وهم يَسْتَقُون من موارد القول ويتنفسون فى أجوائه ، أن يأخذوا حاجتهم ، وأن يمسكوا عما لا حاجة لهم به ، ولا خير لهم فيه ، وإلا كان الخطر ، والضرر .. فما أكثرَ الذين يموتون بالماء ، غَصَصاً أو غرقاً .. وما أكثر الذين يموتون بالهواء صَعَقاً أو خَنَقاً ..

وثانياً قوله تعالى : « الجهر بالسوء من القول »

لِمَ كان الـكُره واقعاً على الجهر بالسوء ؟ .. فهل السِرُّ بالسوء مباح ؟ وهل له حساب غير حساب الجهر .. ؟

والجواب على هذا ، هو أن الجْهر بالسوء من القول هو الذى له كيان ظاهر ، يؤثّر فى الناس ، ويتأثر به الناس .. ومن هنا كان خطره ، وكان الحظر المتسلّط عليه وحده دون السرّ به ..

فالسرّ بالسوء من القول ــ وإن كان شيئاً كريهاً قبيحاً ـ إلا أنه عورة مستورة ، يمسكها الإنسان ، على خوفٍ أو استحياء .. وهذا من شأنه أن يعزل شرّ هذا الشرّ عن الناس .. ثم إنه من جهة أخرى لا يقوم فى كيان الإنسان إلا مقاماً قلقاً مضطرباً ، وفى هذا ما يُؤْذِن بانصراف الإنسان عنه ، والتخلّص منه .. وليس كذلك شأن السوء حين يفلت من كيان الإنسان ، فيطلقه صريحاً

عُرياناً بين الناس .. حيث لا سبيل إلى إمساكه ودفع خطره بعد هذا . .

لهذا كان « الجهر بالسوء من القول » هو الداء الذى يُخشى خطره ، ومن ثَمّ كان التنبيه إليه ، والتحذير منه .

وثالثاً : قوله تعالى : « من القول » .

والسؤال هنا : لم كان التحذير موجهاً إلى خطر السوء . . « من القول » دون « السوء من الفعل » ؟ وهل المعالنة بالأفعال السيئة، والجهر بالفواحش أقل خطراً من المعالنة بكلمة السوء والجهر بها ؟

والجواب : أن السوء من القول أكثر دوراناً على الألسنة ، وأخف مئونة على الحَياء ، وأقل حرجا على الخُلق والدين .. هكذا .. يبدو الأمر الواقع ..

فالإنسان الذى لا يتحرج من كلمة السوء يقولها ، ولا يستحى من كلمة الفحش ينطق بها — هذا الإنسان ما أكثر ما يغلبه حياؤه ، وتمنعه مروءته أو دينه من يحوّل كلمة السوء إلى فعل ، ويجسدكلمة الفحش إلى عمل.. ثم يجاهر بهذا الفعل ، ويعالن بهذا السوء .

ومن هنا كان الحظر الذى فرضه الإسلام على الجهر بكلمة السوء هو حجرٌ ضمنى على فَعلة السوء ، وسدٌّ للذرائع إليها ..!

ورابعاً : قوله تعالى : « إلاّ من ظُلم » . .

هو رفعٌ لهذا الحظر المضروب على الجهر بالسوء . .

فالمظلوم مقهور مغلوب على أمره ، بهذا السلطان المتسلط عليه من ظالمه ..

وقد أَذن الله للمظلوم أن ينتصف من ظالمه بما يقدر عليه ، فى حدود العدل والإحسان .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وَلَمَنِ انتصر بَعْدَ ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » (٤١ : الشورى) . .

فإذا رأى المظلوم أن التشنيع على الظالم ، وكشف مساوئه للناس ؛ مما يعينه عليه ، ويأخذ له بحقه منه ــ فذلك له ، ولا حرج عليه فيه ، وقد أذن الله للمسلمين بالقتال ليدفعوا الظلم الذى كان يُساق إليهم ، إذ يقول سبحانه : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ »

وقد رُوى أن رجلاً أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن لى جاراً يؤذينى ، فقال له : « أَخْرِجْ متاعك فضعه على الطريق » ! فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكلّ من مرّ به قال : مالك ؟ قال : جارى يؤذينى .. فيقول : اللهم العنه ، اللهم أخْزِه . فقال الرجل ــ أى الجار ــ : ارجع إلى منزلك ، والله لا أوذيك أبدا » .

وخامساً : قوله تعالى : « وكان الله سميعاً بصيرا »

هو دعوة للمظلوم إلى التخفف من الجهر بالسوء من القول ، وإلى القصد فيه ، والوقوف به عند أضيق الحدود من الجهر .. فالله سبحانه وتعالى « سميع » أى قد سمع شكاة المظلوم ، وسينتصر له . . فلا حاجة إلى هذا الصراخ بهذا القول السيىء . لأنه ــ على أى حال ــ موسوم بسمة السوء ، ومن الخير تجنّبه ، أو القصد فيه ، إن لم يكن من المستطاع تجنبه .. وهو سبحانه وتعالى : « بصير » لا تخفى عليه خافية .. مما صرح به الإنسان أو أمسكه فى ضميره ، عالم بما فعله من سوء فرآه الناس ، أو غاب عنهم ..

وقوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » ــ تفرقة بين الخير والشر ــ وأن الخير هو الخير ، على أى وجه جاء عليه . . سرًّا أو جهراً ، أبداه فاعله أو أخفاه . .

« إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » (٢٧١ : البقرة).

وفى عطف قوله تعالى : « أو تعفو عن سوء » على ما قبله ، من فعل الخير — إشارة إلى أن العفو عن سيئات المسيئين هو من باب الخير ، يجزى الله عليه كما يجزى على الإحسان

وقوله تعالى : « فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا » هو دعوة إلى التسامح والعفو عمن أساء واعتدى . . فذلك هو الذى يُخمد نار الفتن ، ويقتلع جذور العداوة والشحناء بين الناس . . « وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » (٢٣٧ : البقرة) « وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » (٤٣ : الشورى)

فالله سبحانه وتعالى مع قدرته على أخذ المسيئين بإساءاتهم .. يعفو ، ويحلم ، ويغفر .. هذا وليس تسلط العفو والمغفرة فى قوله تعالى : « وكان الله عفوًّا قديراً » على العفو عن السوء فى قوله سبحانه : « أو تعفو عن سوء » — ليس فى هذا ما يحجز فعل الخير فى قوله سبحانه : « إن تبدو خيراً أو تخفوه » — عن نصيبه من عائد عفو الله وقدرته . . فإن عفوه سبحانه يعود إلى أهل الخير فيجاوز عن سيئاتهم ، ويغفر لهم من ذنوبهم ، جزاء ما فعلوا من خير فى سر أو جهر .. وقدرة الله لا يُعجزها شىء فهو — سبحانه — قادر على أن يبدل سيئاتِ المسيئين حسنات ، إذا هم أحسنوا ، وكانوا مؤمنين .

الآيتان : (١٥٠ — ١٥١)

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا » (١٥١)

التفسير : مناسبة هاتين الآيتين للآيتين اللتين قبلهما ، هو أن هذا الذى يدعو إليه الكافرون، من الكفر بالله ورسله، والتفرقة بين الله ورسله ، هو مما يدخل فى باب الجهر بالسوء من القول . . وأن قولهم . « نؤمن ببعض ونكفر ببعض » هو من المنكر من القول ، ومن شأن التحدّث به وإذاعته فى الناس أن يشيع الفتنة والفساد !

وفى تصدير الآية الكريمة بهذا الوصف للذين يقولون : « نؤمن ببعض ونكفر ببعض » ما يشير إلى أن الإيمان كلٌّ لا يتجزأ . . وأن الكفر ببعض رسل الله هو كفر برسل الله جميعاً ، وأن الكفر برسل الله هو كفر بالله . .

وإذن فإن إيمان هؤلاء الذين يؤمنون بالله ، مع كفرهم برسله أو ببعض رسله ، هو إيمان غير مقبول ، لأنه قائم على الشك فى الله ، إذ لو خلا من هذا الشك ، لانسحب إيمانهم بالله إلى إيمانهم برسل الله ، وكتب الله ، وبملائكة الله ،وبالبعث والجزاء والجنة والنار . . وكل ما أخبر به الرسل من غيبيّات .

وقوله تعالى : « ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا » هو إشارة إلى هذا الأسلوب المنافق من أساليب الإيمان . . حيث يأخذون من الإيمان شيئاً ، ومن الكفر شيئاً .

والأمر هنا : إنما هو حق أو باطل ، وإيمان أو كفر . . ولا ثالث بينهما . .

وقوله تعالى : أولئك هم الكافرون حقاً » هو حكم بكفر هؤلاء الذين يَلْبِسون الحق بالباطل ، ويجمعون بين الإيمان والكفر . . إنهم على الكفر الصُّراح ، ولو ستروا كفرهم بهذا الإيمان الزائف . .

وقوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » هو الجزاء الذى يُؤخذ به هؤلاء الكافرون المنافقون .. إنه العذاب المهين ، المعدّ لهم يوم الفصل والجزاء .

الآية : (١٥٢)

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢)

التفسير: وفى مقابل هذا العذاب المهين الذى يصلاه الكافرون المنافقون، يتقلّبُ المؤمنون ، الذين آمنو بالله إيماناً خالصاً ، فصدّقوا رسله ، وآمنوا بهم جميعاً ، ولم يفرقوا بين أحد منهم كما فعل هؤلاء المنافقون الكافرون ـ يتقلب هؤلاء المؤمنون فى رضوان الله ، ويلقون من رحمته ومغفرته ، ما يغسل أدرانهم ، ويمحو سيئاتهم ، ويفتح لهم أبواب الجنات ، يُلَقَّوْن فيها تحية وسروراً ..

الآيتان : (١٥٣ ـ ١٥٤)

« يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا (١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا

مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (١٥٤) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا » (١٥٥)

التفسير : ومما هو من قبيل الجهر بالسوء من القول ، تلك الأسئلة الخبيثة الفاجرة ، التي يسألها أهل الكتاب ـ والمراد بهم اليهود ـ ويُلقون بها بين يدى النبي الكريم ، فى تحدٍّ وقِحَاح !

وسؤالهم هنا ، هو أن ينزل النبي عليهم كتاباً من السَّماء . . يرونه رأى العين ، كما رأوا تلك المائدة التى أنزلها الله على عيسى عليه السلام ، حين اقترحوا عليه ذلك ، ولكنهم — مع هذا — لم يؤمنوا به ، ولم يصدقوا رسالته . .

ومن قبل كان اليهود يُلقون إلى مشركى مكة بمثل هذه المقترحات ، ليُعنتوا بها النبىّ ، وليقيموا لهم حجة عليه . . فكان من ذلك ما كشفه القرآن الكريم فى قوله تعالى .

« وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا * » (٩٠ — ٩٤ : الإسراء)

فلما التقى اليهود بالنبي فى المدينة ، وواجوه بكفرهم وعنادهم ، أعادوا هذا السؤال الذى كانوا قد صاغوه من قبل لمشركى مكة . .

وفى قوله تعالى : « فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً » هو ردٌّ مفحم على هؤلاء الكافرين المعاندين . . إنهم لم يسألوا ليَعلموا ، أو يؤمنوا ، ولكن ليشتفوا من داء اللَّجاج المتمكن فيهم . . ولو أنهم كانوا يؤمنون بآيات الله ، لآمنوا بما بين أيديهم من آيات مادية محسوسة ، تجبَهُ كل معاند ، وتُخزى كل متحدٍّ . . ولكنهم لا يريدون إلا اللجاج والعناد ، والتطاول والسَّفَه . .

فلقد سألوا موسى أكبر من هذا السؤال ، وأبعدوا فى الوقاحة والتحدى ، فقالوا أرنا الله جهرة ! ! وقد عاقبهم الله سبحانه على هذا العناد الفاجر . . فتجلّى لهم فى جلال جبروته ونقمته . . فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . . ولكن لم تكن هذه الضربة القاصمة لتُمسك بهم على طريق الاستقامة والهدى ، بل لجوّا فى غَيِّهم وضلالهم ، وعادوا سيرتهم الأولى فى الكفر والعناد . . فاتخذوا العجل إلهاً لهم يعبدونه من دون الله ، ولم تنفعهم الآيات المشرقة التى جاءهم بها موسى ، من ربّه . . إذ نجاهم من آل فرعون، وفرَق بهم البحر ، وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، وفجّر لهم من الصخر عيوناً ، حيث لا ماء ولا زرع ، فشربوا ، وزرعوا . . ولكنها القلوب القاسية ، والنفوس المريضة ، والطباع النكدة ، لا تُقبل على خير ولا تحتفظ بخير . . والله سبحانه وتعالى يقول : « وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا » (٥٨ : الأعراف) .

وفى توجيه الخطاب إلى جماعة اليهود عامة ، سواء منهم من سألوا موسى أن يُرِيَهم اللهَ جهرة ، ومن لم يسألوه ، ومن عبد العجل منهم ومن لم يعبده ــ فى هذا

ما يشير إلى أنهم جميعاً من طبيعة واحدة ، وعلى وجه واحد من وجوه الكفر والضلال ، وأن قديمهم وحديثهم سواء ، وأن الأبناء والآباء على طريق واحد ، هو طريق اللجاج فى الباطل ، والإغراق فى العناد . . وأن آباءهم الذين أعنتوا موسى ، وكفروا بآيات الله ومكروا بها ، لا يختلفون كثيرا عن هؤلاء الأبناء الذين التقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فعادوا سيرة آبائهم فى أنبياء الله ، مع هذا النبيّ الكريم ، يلقونه بالأسئلة الماكرة المتحدّية ، لا يبغون بها إلا العنت والضلال . .

وفى قوله تعالى : « فعفونا عن ذلك » أى تجاوزنا عن ذلك ، وأفسحنا لهم المُقام فى هذه الحياة ، لعلّهم يُصلحون ما أفسدوا ، ولتتظاهر الحجة عليهم ، فيما يأخذهم الله به من عقاب ، وفيما يصبّ عليهم من لعنات .

وفى قوله تعالى : « وآتينا موسى سلطاناً مبيناً » كبتٌ لهم ، وحسرات عليهم ، إذ فاتهم ما أرادوا بموسى من مكر ، وما دبّروا من كيد . . ثم هو كبت وحسرة لهؤلاء الذين يلقَوْن « محمداً » صلوات الله وسلامه عليه بمكرهم وكيدهم ، وأنهم هم الخاسرون ، ولن يصيبهم إلا ما أصاب آباءهم من نقمة وبلاء ، وما ينال محمداً إلا ما نال موسى من فضل وإحسان . .

قوله تعالى : « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقُلنا لهم ادخلوا البابَ سجّداً وقُلنا لهم لا تعدو فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا » .

هو بيان لِمَا أخذ الله سبحانه وتعالى على آبائهم من عهود ومواثيق ، وأنهم لم يرعوْا عهود الله ، ولم يحفظوا مواثيقه ، بل ضيّعوا ، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه .

فقد رفع الله فوقهم الطور ، أى جبل الطور ، وأقامه ظُلَّةً عليهم ليظلّهم ويُسكنّهم فى هذا التيه الذى غرقوا فيه أربعين سنة .. وفى هذا يقول الله تعالى: « وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ » (١٧١ : الأعراف) فلم يَثِقُوا فى هذا البناء الذى أقامه الله عليهم ، ودخلوا تحته دخول الخائفين ، حتى لكأن يد الله لا تقوى على الإمساك به ! !

ثم حين أخرجهم الله من التّيه ، وساقهم إلى العمران ، ووجههم إلى إحدى القرى ، دعاهم سبحانه إلى أن يدخلوا باب هذه القرية سجّداً ، شكراً لله على هذه النعمة ، وأن يقولوا وهم فى هذا السجود « حِطّة » أى غفرانا لذنوبنا . . فبدّلوا وغيروا ، ولم يحترموا كلمات الله ، ولم ينزلوا عند وَصاته لهم . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى . .

« وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَـٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » (٥٨ ـ ٥٩ : البقرة)

ثم ألزمهم الله سبحانه ألّا يَعْدوا فى السبت ، وألا يعملوا فيه عملا ، عقاباً لهم ونكالاً ، حيث خرجوا عن طاعة الله ، ونقضوا مواثيقه . . فاعتدوا فى السبت ، وباشروا فيه كل عمل . . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٦٥ : البقرة).

وانظر إلى هذا التكرار فى قوله تعالى : « قلنا لهم » . . إذ يقول

سبحانه : « وقلنا لهم ادخلوا الباب سُجّداً ، وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت » .

ففى هذا التكرار ما يؤذن بأن القوم بما هم ، عليه من جفاء طباع ، وقسوة قلوب ، وبلادة مشاعر ، وعَمَى بصيرة ، لا يخاطبون إلاّ بمناخس حادة ، لتوقظ هذه المشاعر الهامدة ، وتلك الطباع المتبلّدة . . تماماً كما تُنْخَس الدوابّ كلما وَنَت أو حَرَنت .

وقوله تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها فلا يؤمنون إلا قليلا » .

فى هذه الآية والآيات التى بعدها يحصى الله سبحانه وتعالى على اليهود ما ارتكبوا من خطايا ، وما اقترفوا من آثام ، حتى كان لهم من الله هذا العقاب الأليم الذى أخذهم به فى الدنيا ، وجعله ميراثاً يقتسمه أبناؤهم من بعدهم ، إذ كانت جرائمهم من الشناعة والهول بحيث لايستقلّ بحملها جيل أو عدة أجيال . . بل إنها لو قسمت عليهم فى أجيالهم السابقة واللاحقة لأحاطت بهم جميعاً ، ثم كان من فائضها ما يتسع لأمثالهم . .

فقد نقضوا مواثيق الله ، وكفروا بآياته . وقتلوا رسله .. عدواناً وبغياً ، حيث لا شبهة ولا مظنّة شبهة يُقتل بها رسول من رسل الله ، إذا قُتل غيرهم من الناس ، بحق أو بغير حق .. فما رسل الله إلاّ رحمة من رحمته ، وفضل من فضله ، ونعمة من نعمه .. فالذى يدفع الرحمة ، ويأبى الفضل ، ويكفر بالنعمة ، هو إنسان مبتلّى فى عقله ، مُتّهم فى إنسانيته ؛ فإذا تجاوز ذلك إلى أن يكون حرباً على الرحمة والفضل والنعمة ، فقل أى كائن هو . . ولكن لاتنسبه إلى عالم الإنسان أبداً !

على أن الأمر لا يحتاج إلى بحث أو نظر ، فقد حكم القوم على أنفسهم ، ونطقوا بما ينطق به فى شأنهم الوجود كله ، ويدينهم به . . وهذا ما أشار إليه

قوله تعالى : « وقولهم قلوبُنا غُلْف » أى مغلفة ، مغلقة ، لا ينفذ إليها شيء من الحق والخير .. وهم إنما يقولون هذا القول فى مجال الاستهزاء والسخرية ، كما يقول من يتعالم : إنى جاهل .. ! والمغرور بماله ، المدلّ بثروته : إنى فقير !

بل إن أمرهم لأكثر من هذا ، إذ ليس ما بقلوبهم مجرد غطاء يحجبها عن كل خير ، كما ادعوا على أنفسهم استهزاءً وتعاظما ، ولو كان ذلك هو الذى بهم لكان لدائهم طب ، ولعلتهم دواء ! ولكنّ الذى بهم هو شيء لو عقلوه لبكوْا كثيراً ، ولضحكوا قليلاً ، بل لكانت حياتهم كلها بكاءً موصولاً ، ودمعاً جارياً ، لِما رماهم الله به من داء قتل كل معانى الإنسانية فيهم .. فإذا هم ناس وليسوا ناساً ، أحياء وليسوا بالأحياء !

انظر إلى قلوب هؤلاء القوم .. فهل تجد ما بها ، هو حجاب كثيف مضروب عليها ؟ أو غلاف صفيق اشتمل عليها واحتواها ؟ وكلا ..

« بل طبع الله عليها » .

وإذن فداء هذه القلوب هو فى كيانها ذاتها ، وليس مادة غريبة غشيتها واحتوتها ، بل هو الختم المحكم الذى ختمه الله عليها ، فلا يَخرج مافيها من خَبَثَ ولا يدخل إليها ما فى الحياة من حق وخير .. إنها ستظل هكذا مغلقة على ما فيها .. أشبه بالبركة الراكدة المعفنة ، لا تزداد مع الأيام إلا ركوداً وعَفَناً ، ولا تلد مع الزمن إلا العفَن ، والوباء !

وقوله تعالى : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » هو وصف لمن أفلت منهم من تلك اللعنة ، استثناء من هذا الأصل الذى ينتسب إليه القوم جميعاً .. وهو عدد قليل ، لا يشفع لهذه الجماعة بالخروج من هذا الحكم المضروب عليها .

الآيات : (١٥٦ — ١٥٨)

« وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » (١٥٨)

التفسير : ومما أحصاه الله من شناعات هؤلاء القوم — اليهود — كفرُهم بالمسيح ، وتكذيبهم له ، وقولهم فيه وفى أمّه تلك الأقوال الشنيعة ، التى هى محض بهتان وزور ، فقد رمَوْا مريم البتول بالفحش ، واتهموها بالفاحشة ونسبوا ابنها إلى أنه ابن سِفاح ، جاء على غير رِشدة .

كذلك مما أحصاه الله عليهم من المآثم ، هذه الفعلة الشنيعة التى أصبحوا على إيمان بها ، فلم يتأثّموا ، ولم يندموا ، بل كان ذلك نغماً مسعداً ، ونشيداً مرقّها ، يرددونه صباحَ مساء ، ليغذّوا داء الانتقام والتشفّى الكامن فيهم .. « قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله » ! ! هكذا يملئون بها أفواههم ، ويضربون بها على آذانهم ! .. قتلنا المسيح .. عيسى بن مريم .. رسول الله ..

فلم يكفهم أنهم قتلوا نفساً ، بغياً وعدواناً .. كما كان ذلك معتقدهم ..

ولم يكفهم أن تكون هذه النفس نفس إنسان لم يقل كلمة سوء ، ولم يمدّ يده إلى أحد بسوء .. بل كان فمه مَشْرق نور وَمطلع حكمة .. وكانت يده ملاك برّ ورحمة .. تهدى الشفاء إلى كل مريض ، وتمسح بالعافية على كل ذى علة ..

لم يكفهم هذا .. بل راحوا يعلنون هذا النبأ السارّ المسعد ، يبشرون به فى آفاقهم ، ويرفعونه إلى الله دعوات وصلوات ، فى وقاحة واجتراء على الله .

ولم يكفهم هذا ، فعرضوا قتيلهم هذا العرض الطويل الممتد . . حتى لـكأنهم وقد مزّقوه أشلاء ، أو قتلوه . . مرة ، بعد مرة ، بعد أخرى . .

قتلنا . . ! . . يا للإثم العظيم !

المسيحَ . . . . ويا للهول المهول !

عيسى . . ويا لَلَعنةِ السماء لمن يقولها !

ابن مريم . . ويا لشؤم القوم الذين يردّدونها !

رسولَ الله . ويا لَسيفِ الله لمن يحارب رسلَ الله !

ومع هذا ، فإن القوم يهنؤهم الطعام والشراب . . بل إنهم ليأتدمون بهذا الدّم ، ويغمسون به كل لقمة يأكلونها !

وقولهم « المسيح » ليس اعترافاً منهم بأنه المسيح ، وإنما يقولون ذلك استهزاء به . . وكذلك قولهم : « رسول الله » فهم لم يعترفوا بالمسيح رسولاً ، ولم يقبلوه مسيحاً .

وقوله تعالى : « وما قتلوه وما صلبوه ولـكن شُبّه لهم » هو كبت لليهود ، وخزى لهم ، إذ يفجؤهم القرآن الـكريم بهذا الخبر ، ويقطع لهم عنه الشك باليقين . . ذلك أنه كان قد وقع فى نفوسهم شك فى أن الذى قتلوه وصلبوه ليس هو المسيح ، فإن هذا الشك قد أصبح يقيناً بهذا الذى جاءهم به القرآن الـكريم ، وهم يعلمون صدقه ، ويستيقنون أنه من عند الله ، وإن جحدوه استكباراً ، وعناداً . . وفى هذا يقول الله تعالى : « الذين آتيناهم الـكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليـكتمون الحق وهم يعلمون » (١٤٦: البقرة .) والضمير فى يعرفونه يعود إلى القرآن .

وقوله تعالى : « بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً » هو كبت وخزى

لليهود ، بهذا الفضل الذى فَضَل الله به على المسيح ، بعد كبتهم وخزيهم ، بإبطال كيدهم فيه ، وإفساد مكرهم به . .

لقد أرادوا موته وصلبه . . فلم تنله أيديهم ، ونجاه الله منهم ، بعد أن أخذهم بهذا الذنب العظيم ، الذى عقدوا نيّتهم عليه ، وشرعوا فى تنفيذه ، بل ونفذوه . . ولـكن لا فى المسيح كما قدروا ، بل فى شخص آخر شبّه لهم أنه المسيح . .

ولقد أرادوا بصلب المسيح أن يُوقِعوه تحت اللعنة ، التى قضت بها شريعة موسى ، والتى جاء فيها : « ملعون من عُلّق على خشبة » . . فما كان يقع تحت هذا الحـكم من اليهود إلا من جدّف على الله ، وكفر به . . فمن فعل هذا حكم عليه بالصلب ، ثم الطرد من ملـكوت الله !

لقد أراد اليهود هذا بالمسيح ، فرفعه الله إليه ، وأعلى منزلته عنده ، وأحلّه فى مقام كريم ، مع المصطفيْن من عباده .

وقوله تعالى : « وكان الله عزيزاً حكيما » هو تعقيب على تلك الأحكام التى أجراها سبحانه وتعالى ، والتى جاءت على غير ما أراد أهل الشر والسوء . . فبعزّته سبحانه أفسد كيد هؤلاء المضلّين المفسدين ، وبحكمته وضع الأمور فى مواضعها ، فجاءت على أتم صورة وأكملها . .

* * *

هذا ، ولما كانت قضية صلب المسيح . . من القضايا التى أثارت ولا تزال تثير كثيراً من الجدل والخلاف بين المسلمين والنصارى واليهود . . فقد رأينا أن نقف وقفة ، ننظر بها نظراً أرحب وأوسع ، فى هذه القضية ، وفى رأى القرآن فيها ، وفى مقولات المسيحيين واليهود عنها . .

* * *

القرآن والمسيح المصلوب

المسيح بين الألوهية والبشرية :

لم يلتفت القرآن الكريم إلى المسيح وإلى المعتقدات التى يعتقدها أولياؤه وأعداؤه إلاّ من جانب واحد ، هو شخصيته ، وتحديد هذه الشخصية على الوجه الذى يراه له ، وهو أنه إنسان بشر ، وليس إلها ولا ابن إله ، على الرغم من الأسلوب الفريد الذى ولد به !

فنى الوقت الذى نزل فيه القرآن كان قد مضى على ظهور المسيح نحو ستة قرون ، دارت فيها الأحداث التى صحبت حياته ، منذ دخوله فى هذا العالم ، إلى خروجه منه ـ دارت تلك الأحداث فيها دورات كثيرة ، والتقت بأنماط مختلفة لا حصر لها من المقول ، وكاد الأمر يستقر فى معتقد الناس ، فى المسيح وفى الأحداث التى اتصلت به !

فأتباعه كان قد انتهى بهم الرأى فيه إلى أنه « الله » ممثّلا أُقنومُ الإبن من الأقانيم الثلاثة التى جعلوها لله ، وهى : الأب ، والإبن ، وروح القدس.

وأعداؤه — اليهود — لم يتغير رأيهم فيه منذ وقع فى أنفسهم أنهم صلبوه بتهمة الشعوذة والتجديف على الله .

وكان على القرآن أن يكشف عن شخص المسيح ، وأن يضعه بالموضع الذى له فى حساب العقيدة .. أهو ابن الله ؟ أم هو إله مع الله ؟ أم هو الله وحده ؟ أم هو بشر .. رسول من الله ، إلى عباد الله ؟

وقد حرَص القرآن على أن يُجلّى عن شخصية المسيح ، وأن يدفع عنه كل شبهة تُلبِس على الناس أمره ، وتجعل له إلى الألوهية مدخلا من أية جهة ، وعلى أية صفة !

هذه هى قضية المسيح فى القرآن : أهو إله ؟ . . أم هو إنسان من الناس وخَلْق من خلق الله ؟ وإذ فصل القرآن فى هذه القضية فصلا قاطعا ، وأنزل المسيح من سماء الألوهية إلى أرض البشر — إذ فعل القرآن هذا لم يلتفت من أمر المسيح إلى شىء وراءه ، مما يجرى على البشر ، وينزل بهم من أحداث ، ويقع فى حياتهم من شئون . !

فإذا مات المسيح ـ على هذا الاعتبار ـ أو قُتل فليس ذلك بالأمر الذى يجعل له حسابا خاصا دون الحساب الذى يجرى على الناس ، حين يموتون أو يُقتلون .

وإذا صُلب المسيح ، فهو واحد من كثيرين ماتوا بتلك الميتة ، وكما مضى المصلوبون إلى ما هم صائرون إليه ، كذلك يمضى المسيح إلى مصيره !

وإذا كان هناك من شىء يُلتفت إليه فى هذا الأمر العارض ، فهو هذا الحق وذلك الضلال ، اللذان يركبان الناس فيغريانهم بالتطاول على تلك الأيدى الكريمة الممدودة إليهم بالخير ، والمبسوطة إليهم بالهدى ، وأن يطفئوا بأفواههم هذا النور المتوهج فى ظلام ليلهم البهيم ، وأن يمثّلوا بهذا الإنسان الطاهر البرىء !

إنه لا أكثر من الشعور بالحسرة والأسى ، تندلع نارها فى صدور الأخيار الأبرار من الناس ، حين يصابون فى مُثُلهم الفاضلة ، ويُفجعون فى أسوتهم الحسنة ، وحين يرون الشرّ يأكل منابت الخير ويفسد ثمارها !

إنها وقفة . . قد تطول أو تَقْصُر . . ثم تمضى الحياة ويمضى الناس معها فى هذا الصراع المتصل بين الحق والباطل والخير والشر ، وفى هذا التدافع الدائم بين المحقّين والمبطلين ، وبين الأخيار والأشرار !

المَسيح المصلوب :

فليس بمُستنكَر على الحياة إذن أن يُصلب المسيح ! وليس بِدعاً أن تمتد إليه يد البغى ، وأن تتمكن منه وتبلغ ماتريد فيه ! فما أكثر الأنبياء الذين أصابتهم أيدى البُغاة ، وسُلّطت عليهم قوى الشر والعدوان ، فذاقوا الموت فى أمرّ كئوسه ، وواجهوه فى أبشع صوره !

وما أكثر الصدّيقين والأبرار الذين وقعوا صَرْعَى فى ميادين الجهاد فى سبيل الله ، فمُزّقوا إرَباً إرَباً ، ومُثّل بهم أحياء وأمواتاً !

فليكن المسيح بن مريم رسولَ الله ، واحداً من هؤلاء ! فما أحدٌ من الناس قد أخذ على الله عهداً ألا يموت ، وما أحد من البشر تخـيّر لنفسه المِيتةَ التى يموت عليها !

وقد حَرَص القرآن على أن يُخْلِىَ شعور أتباعه المسلمين من كل خاطرة تخطر لهم أن « محمداً » رسولَ الله ، بمعزل عن هذا الحـكم ، الذى ينزل عليه الناس جميعاً ، ويَرِدون موارده .. فقال تعالى : « وما محمد إلاّ رسولٌ قد خَلَت من قَبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم (١٤٤ : آل عمران) إن الرسل يموتون أو يقتلون كما يموت الناس وكما يقتلون ، ومحمد رسول الله واحد من الرسل وإنسان من الناس . . . فليس بِدْعاً أن يموت أو يقتـل . . « قل ما كنت بِدعاً من الرسل وما أدرى مايفعل بى ولا بكم (٩ : الأحقاف) (إنك ميّت وإنهم ميتون (٣٠ : الزمر)

ومن أجل هذا لم يلتفت القرآن فى موقفه من أهل الـكتاب ، وفى تسويته لحساب المسيح عندهم — لم يلتفت إلى حادثة « الصلب » ولم يجعل منها قضية يناقشها معهم ، ويفصل فيها بحكمه بينهم !

وقد يبدو هذا الموقف الذى وقفه القرآن الكريم من أمر « الصلب » وإغفاله له ، تسليما به ، وبالمعتقد الذى قام عليه ، وهذا يعطى لأصحاب هذا المعتقد القائم على صلب المسيح حجةً على القرآن بأنه لم يواجههم مواجهة صريحة فى هذه القضية ، ولم يأخذ عليهم معتقدَهم فى أن المسيح قد صُلب !

ونقول ـ كما قلنا من قبل ـ إن القرآن لا يعنيه كثيراً أن يكشف حقيقة هذا الحَدَث ، وأن يقيم الناسَ على رأى فى أن المسيح صلب ، أو أنه لم يصلب ، فذلك الأمر على أى وجهيه وقع — لايقدم ولا يؤخر فى أصل القضية التى ينازع فيها القرآنَ ، أولئك الذين يعتقدون فى بنوّة المسيح لله ، أو ألوهيته !

فالمسيح إلهٌ ، أو ابن إلهٍ .. كما يقولون ويعتقدون .

والمسيح ليس إلهاً ولا إبن إله ، وإنما هو عبد من عباد الله ورسول من رسل الله .. كما ينطق الحق ، ويحدّث القرآن ! .. هذا هو أصل القضية ..

فإذا فَصل فيها القرآن على هذا الوجه الذى ارتضاه فى المسيح ، فقد فصل ضمنا فى هذه الجزئية العارضة من حياة المسيح ، وهى الصلب ، ومن ثَمّ يكون القول بصلب المسيح أو عدم صلبه سيان .. فهو إنسان من الناس وليس موته على أية ميتة كانت ، بالذى يُحْدِث له وضعاً جديداً فى الحياة ، أو بالذى ينشىء له فى النفوس مكاناً يقوم عليه دين وتستند إليه عقيدة .

إن القرآن إذ يواجه أتباع المسيح ، لم يرَ فى حديثه إليهم عن حادثة الصلب التى يؤمنون بها ويقيمون معتقدهم عليها — لم ير فى هذا الحديث جدوى ، لأن هذا الحديث لايعنى فى نظر الدعوة الإسلامية أكثر من أنه خبر من أخبار التاريخ ، لايتعلق بوقوعه أو عدم وقوعه شىء يتصل بالعقيدة فى ذات الله . . إنه مِثل الحديث عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، واختلاف الناس فى شأنهم وفيما يُرْوَى من أخبارهم .. فإذا قال القرآن فى مثل هذه الأخبار قولا

فهو امتحان للقرآن ذاتِه .. فى أنه متلَقّى من عند الله ، أو مستوحَى من الأساطير وتكهنات الكهان . !

فى حياة المسيح عليه السلام أكثر من حَدَث ، أثار تضارب الآراء فيه واختلاف الناس عليه ..

فأولا : ميلاده من عذراء :

كان هذا الميلاد مشكلة ضخمة .. إذ أن هذا الميلادَ غير طبيعى . وغيرُ جارٍ على مألوف الحياة .. وذلك مما يدير الرءوس نحوه ، ويلفت العقول إليه ، ويفتح للناس طرائق شتى ، للقول فيه والتقوّل عليه .

فاليهود مثلا ـ لم يعترفوا بهذا الميلاد ـ ولم يقبلوه .. بل اعتبروه ولادة غير شرعية ، جاءت على غير رِشْدَة .. من اتصال محرّم ، بين مريم ويوسف النجار ؛ الذى أضافوا نسبة المسيح إليه ، حيث كان يخدم مع مريم فى المعبد .

وبهذا وضعوا المسيح وأمّه هذا الوضع الذى يصمهما بالدنس .. والعار .

وثانياً : صلبه .. ووقوعه بهذا الصّلب تحت حكم الناموس الذى يقضى بلعن كل من عُلّق على خشبة ! حسبَ ماجاء فى التوراة .

وثالثاً : ألوهيته . . وخروجه بهذه الألوهية عن وجوده البشرى ، الذى رآه الناس عليه ، والقضاء على شخصيته وإفنائها .

فهذه ثلاث شُبَه أو تُهم تحوم حول شخص المسيح ، وتفسد الرأى فيه وتجعل منه شخصية أسطورية ، أكثر منها شخصية حقيقية ..

والقرآن الكريم هو وحده الذى تولّى الدفاع عن المسيح وكشف الشبه عن شخصه الكريم ، ووضعه بالمقام المحمود الجدير به كإنسان يأخذ مكان الذروة بين الناس . يقول الله تعالى :

« إنما المسيح عيسى بنُ مريم رسولُ الله وكلمتُه ألقاها إلى مريم وروح منه » (١٧١ : النساء) « إن هو إلاّ عبد أنعمنا عليه وجعلناه مَثَلاً لبنى إسرائيل (٥٩ : الزخرف) « ما المسيح بن مريم إلا رَسولٌ قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام » (٧٥ : المائدة) .

إن الأخذ بما يقول القرآن فى المسيح هو الذى يرفع هذه الشّبهة التى كانت ولا تزال داعية لسوء القالة فيه عند أعدائه اليهود ، أو باعثة للاضطراب والقلق النفسىّ والروحىّ والعقلى ، عند أتباعه . . إذ يروْنه إنساناً فى شخص إله ، أو إلهاً فى جسد إنسان !

* * *

كان المسيح قد تنبّأ لهذا الخلاف الذى يكون فى شأنه ، ولهذه المقولات التى قيلت أو تقال فيه . . وقد أشفق على نفسه منها ، إذ كان بعضها يطمئنه فى شرف مولده ، وفى طهارة أمه وعفافها ، على حين كان بعضها الآخر يسلخه من بشريته ويخرجه عن إنسانيته ، إلى صورة مختلطة ، تجمع الإله والإنسان فى ذات واحدة وفى جسد واحد ..

كان المسيح قد تنبأ لهذا ، وأشفق منه بل وتألم له !

ولكن الله طَمأنه وأذهب مخاوفه إذ أوحى إليه أن هناك من سيتولّى الدفاع عنه ، ورفع الشبهات التى ستدخل على الناس من أمره .. فى حال حياته ، وبعد أن فارق الحياة ..

يقول السيدالمسيح فيما رَوت الأناجيل على لسانه مخاطباً تلاميذه وحواريّيه: « ولكنى أقول لكم : الحق إنه خيرٌ لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لايأتيكم المُعزّى ولكن إن ذهبتُ أُرسله إليكم ، ومتى جاء ذلك ، يُبَكّت العالم على خطيّة ، وعلى برّ ، وَعَلَى دينونة .. أما على خطية ، فإنهم لايؤمنون بى ، وأما على برّ ، فإنى ذاهب إلى أبى ولا تَروننى ، أيضاً ، وأما على دينونة ، فلأن رئيس هذا العالم قد دِين !

« إن لى أموراً كثيرة أقولها لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن ، وأما متى جاء روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية ، ذاك يُمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويُخبركم ، كل ما للأب هو لى ، لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم . بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل أيضاً تروننى ، لأنى ذاهب إلى الأب (إنجيل يوحنا) .

يتحدث المسيح إلى أتباعه هنا عن شخص سيجىء بعده ، وقد ترك هو مقامه فيهم وفارق هذه الدنيا .

وصفات هذا الشخص كما يحدّدها السيد المسيح هى :

أولاً : أنه المُعزّى الذى يجىء مواسياً ومعزّياً فيما أصيب به المسيح فى شخصه ، وما رُمى به من تهم . . وكلمة المعزى هى إحدى المعانى التى فُسِّرت بها كلمة « بارقليت » اليونانية ، والتى فُسرت أيضاً بمعنى المحامى أو مستشار الدفاع .

ثانياً : إنه سيبكّت العالم على أمور ثلاثة :

١ — على خطيّة : هى أنهم لم يؤمنوا بالمسيح على الوجه الذى جاءهم عليه .

٢ — على برّ : وهو أنه ذاهب إلى الله لينزل المنزل الكريم الذى أعده له ، ولكن هم أنزلوه فى غير هذه المنزلة حيث رفعه أتباعه إلى مقام الإله ذاته ، على حين أنزله اليهود منازل الضالين .

٣ — على دينونة : وهى هذا الحكم الظالم الذى حكم به اليهود على المسيح ، وعلى الثوب الإلهى الذى ألبسه أتباعه إياه .

ثالثاً : أن هذا المعزّى سيرشد أتباع المسيح إلى الحقيقة كلها ، ومعنى هذا أن هناك أشياء لم يكشف عنها المسيح ، ومعنى هذا أيضاً أن هذه الأشياء هى مما جدّ بعد المسيح ، من أمور ، اختلط على الناس وجهُ الحق فيها .. وهذا هو موضوع القضية الذى سيكون من عمل محامى الدفاع عنه .

رابعاً : أن هذا المحامى لا يتكلم من عند نفسه ، بل بما قد سمع . . ومعنى هذا أنه إنما يأخذ دفاعه تلقِّياً من جهة غير جهته ، هى التى تلقنه المقولات والحجج التى يلقيها على الشبه المتلبسة بتلك القضية .

خامساً : أن هذا المحامى سيمجد المسيح .

سادساً : أن هذا التمجيد الذى يقدمه المحامى فى شأن المسيح ، ليس مديحاً تُستجلب به صفات لم يكن متصفاً بها ، وإنما هو تمجيد يكشف حقيقته للناس ، ويزيل ما علق بذاته من شبه وضلالات .

وهذا ما تنطق به كلمات الإنجيل على لسان السيد المسيح فى أوصاف المحامى أو المعزّى الذى سيجىء بعده ! ولكن أتباع السيد المسيح خرّجوا هذه الكلمات تخريجاً على غير هذا الوجه على ما سنرى :

يقول أحد علماء المسيحية وشرّاح أناجيلها :

« وقد بلغ الأمر بيسوع ، من حيث ثقته واقتناعه من مكانه الرئيسىّ فى قصد الله - بلغ به حدًّا جعله يأخذ على عاتقه أن يرسل شخصاً ليحلّ محله بعد صعوده إلى السماء ، ألاَ وهو الروح القدس ، وقد دعاه (المعزى) (باراكليت) وهى تسمية مشروعة ، ومعناها المحامى أو مستشار الدفاع .

« وبذلك يكون عمل « الروحِ القدس » الدفاعَ عن قضية يسوع أمام العالم ، وقال عنه يسوع « هو يشهد لى » (يوحنا ١٥ : ٢٦) ثم « ذاك يُمجّدنى لأنه يأخذ مِما لىَ ويخبركم (يوحنا ١٦ : ١٤)»[1] .

ومفهوم هذا القول أن الشخص الذى سيرسله المسيح هو «روح القدس».

(١) المسيحية الأصلية ص ٢٧ - ٢٨ .

وإذا علمنا أن معتقد المسيحية ، هو أن المسيح هو « الله » وأن « روح القدس » هو الله ، بمعنى أن كلاً منهما هو الله فى أقنوم من أقانيمه الثلاثة ، إذا علمنا ذلك كان عجباً أن يكون « المعزى » شخصاً وأن يكون هذا الشخص هو الله ، ثم أن يكون المسيح وهو الله هو الذى يرسل « روح القدس » وهو الله !!

الله يذهب فى صورة المسيح « الإبن » ، ويجىء فى صورة الله « روح القدس » ! ثم من جهة أخرى.. ما معنى أن المحامى - إذا كان هو روح القدس ، الذى هو الله ذاته — ما معنى أنه لا يتكلم من عند نفسه . . « بل يتكلم بما يكون قد سمع ، ويخبركم ؟ » .. أروح القدس أو الله ينتظر من يلقنه ما يقول ، ويأذن له به ؟ فيتكلم بما يكون قد سمع ؟

هذا من حيث الشكل — كما يقال فى لغة القضاء — أما من حيث الموضوع ، فإذ ننظر نجد :

أولا : أن «روح القدس» الذى يقال إن المسيحَ وعد بإرساله بعد أن يمضى ، لم يَرَ له أحد وجهاً ، لا من أتباع المسيح ولا من غيرهم .

ثانياً : أن روح القدس هذا ، وهو المحامى أو مستشار الدفاع ، لم يعرف له أحد موقفاً ، ولم يكن له قول مأثور فى شأن المسيح وفى تمجيده ..

فأين إذن هو روح القدس ؟ وأين أعماله أو أقواله التى واجه بها الناسَ لتمجيد المسيح ؟ ولسنا نجدَ جواباً لهذا إلا إذا نظرنا فى القرآن الكريم ووقفنا عندما جاء فيه من دفاع مشرق مفحم ، عن السيد المسيح .. هذا الدفاع المشرق المفحم ، هو تمجيد وتعزية للسيد المسيح ، لِما أصابه فى شخصه وفى شخص أمّه من ضُرٍّ وأذى !

* * *

جاءت بعثة « محمد » صلوات الله وسلامه عليه — وقد مضى على الدعوة

المسيحية نحو ستة قرون، وكان هذا الزمن الممتد كافياً لأن يُفسح للدعوة مجال الحركة فى الحياة، وأن يبلغ بها أقصى ما تبلغه فى عقول الناس وقلوبهم، من أولياء الدعوة وأعدائها على السواء .. إذ استنفد أعداؤها كل ما لديهم من مقولات يقولونها فى المسيح ودعوته.. كما استنفد أولياؤها كل ماعندهم من مقولات فى تصويرها، وتقرير حقائقها والاحتجاج لها..

ومن هذا الشدّ والجذب، والهجوم والدفاع، تشكّلت المسيح «قضية» من أشد ما عرف الناس من القضايا غموضاً وتعقيداً.. والمسيح هو «القضية» التى تنوشها رَمَيات المتنازعين فيه والمختلفين عليه.. من أعدائه وأوليائه جميعاً!

وهنا تبرز الحكمة فى الحاجة إلى، محام، أو مستشارٍ للدفاع، ليقول فى هذه القضية لا شيئاً من عند نفسه، بل بما يكون قد سمع، ويخبر به!

وليس ثمة شك فى أن هذا المحامى أو مستشار الدفاع أو المعزّى هو «محمد» عليه الصلاة والسلام.

فهو كما تنطق كلمات السيد المسيح:

أولا: هو المحامى الذى كان له دور معروف فى قضية المسيح وكان بمشهد وبمسمع من الناس جميعاً.

وثانياً: هو الذى دافع فى هذه القضية دفاعه المعروف عن شخص المسيح وعن أمه، وكان دفاعه هذا تمجيداً وعزاء لهما مما أصابهما من رميات وطعنات.

وثالثاً: لم يقل هذا المحامى كلمة من عند نفسه، بل كل ما قاله هو مما تلقاه وحياً من ربه، «لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلّم به».

ورابعاً: أن هذا الذى سمعه وحياً من ربه لم يحتفظ به لنفسه، بل أخبر به وبلغه للناس كما أمره ربه: «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن

لم تفعل فما بلغت رسالته » .. وَفى هذا يقول السيد المسيح« بل يتكلم بما يكون قد سمع ويخبركم » .

لقد كان « محمد » بما تَلَقىَّ من كلمات الله ، هو المحامى الذى ردّ للمسيح ولأمه اعتبارهما ، وهو الذى مجدهما ورفع قدرهما فى العالمين ، وكان فى ذلك العزاء الجميل لهما، والمواساة الكريمة لماأصابهما من بلاء عظيم ، وفىهذا يقول القرآنالكريم:

« يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » (٤٢ : آل عمران ويقول سبحانه : « وإذ جعلنا ابن مريم وأمه آيةً وآويناهما إلى ربوَةٍ ذات قرارٍ ومَعين » . . ويقول : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأُمّه صدّيقة » (٧٥ : النساء) .

وننظر فى كلمات المسيح مرة أخرى . .

ونقف من كلمات السيد المسيح عند هذه الكلمات .

١ — «إن فى إنطلاقى لخيراً لكم » .. فهذا الخير هو ما ينكشف لهم من أمر المسيح على لسان « المحامى » الذى يتولى الدفاع عن قضيته، ويعرضها لهم فى المعرض الذى يجلّي حقيقته ، ويكشف شخصه الكريم .

٢ — « فإنى أرسله إليكم » . وهذه القولة توحى بأن المسيح هو الذى يرسل هذا المحامى ، أو بمعنى آخر هو الذى يملك إرسال الرسل ، أو بمعنى ثالث هو الإله المتصرف فى هذا الوجود .

وهى مقولة إن حُملت على ظاهرها هذا كانت إقراراً من الله تعالى ـ الذى هو المسيح ـ بالعجز عن الدفاع عن نفسه فيقيم محاميا يتولى الدفاع عنه . . .

وعلى هذا ، فإن هذه القولة إما أن تكون قد حُرّفت ليستقيم عليها الفهم الذى وقع لأتباع المسيح من أنه هو الله ، وإما أن تحمل على غير ظاهرها

ويكون قول المسيح « إنى أرسله إليكم » محمولا على المجاز السببى ، إذ لمّا كان وجود المسيح مانعا من وجود المحامى الذى يتولى الدفاع فى قضيته ، إذ القضية لا تتشكل بصورتها الكاملة إلا بعد أن يذهب المسيح ، وتكثر المقولات فيه وفى صلبه وقيامته ، فإن ذهاب المسيح هو الذى يهيء للمحامى سبيلا إلى الظهور ، وبهذا يمكن القول بأن المسيح هو الذى أرسله ، بمعنى أنه كان سببا من أسباب إرساله !

٣ — فى قوله « ويخبركم بما يأتى » فيه إشارة إلى تلك المقولات التى ستقال فى المسيح بعد ذَهابه ، والتى ستُشكّل منها تلك القضية التى تولّى القرآن الكريم الكشفَ عن وجه الحق فيها .

٤ — قوله « يأخذ مما لى ويخبركم » إشارة إلى أن ما يقوله المحامى الذى يتولى الدفاع عن المسيح ليس شيئاً غريباً عن المسيح ، بل هو ممّا له أى مما اشتملت عليه ذاته ، سواء أكان ذلك عن مولده ، أو عن بشريّته كما نطق بذلك القرآن الكريم .

ثم لماذا أخبر القرآن عن الصلب ؟

إنه مجرد خبر .. لا أكثرَ ولا أقلَّ ! .

خبر يَبْهتُ اليهود ، ويَفجعهم ، ويملأ قلوبهم حسرة وكمداً ! .

إن اليهود على يقين من أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم ، الذى عرفوه وعرفهم وسمع منهم وسمعوا منه .

ولم يكن قتلهم له لأنه جدّف على الله كما ادّعوا عليه .. وإنما كان لأنه جاءهم بأنه « المسيح » الذى وُعدوا به ، وطال انتظارهم له ! .

والمسيح الذى رأوه فى شخص « عيسى » ليس هو المسيح الذى عاشوا فى أجيالهم يحلمون به ، ويتوقعون الخلاص على يديه ! .

كان اليهود يحلمون بالخلاص من هذه الفواجع والمآسى التى كانوا يتقلّبون على جمرها، بين الأسر والتشريد . .

ولقد كانت الضربات القاسية المدمرة تنزل بهم متلاحقة متعاقبة كما يتعاقب الليل والنهار . . فما يكادون يخلصون من محنة ،حتى تستقبلهم أكثر من محنة ـ ولهذا استبدّ بهم اليأس واستولى عليهم الجزع من توقعات الفواجع المباغتة وطلوع النوازل المهلكة . . فلم يكن لهم ـ والأمر كذلك ـ من أمل فى الخلاص ، إلا أن تتعلق آمالهم وأحلامهم بربّ الجنود « يهوه » .

وقد امتلأت أسفار التوراة بالرّؤى والأحلام والتنبؤات التى تُلقِى إليهم من عالم الأوهام بحبال النجاة ، فيمدّون أيديهم إليها ، وهم يضطربون فى هذا البحر اللجىّ المتلاطم الأمواج ، فلا يجدون إلا سراباً ، لا تمسك أيديهم بشىء منه .

وكانوا كلما تطاول بهم الزمن ـ وهم فيما هم فيه من بلاء وهوان ـ أفسحت لهم الأسفار فى الآمال ، ووسعت لهم فى آفاق المستقبل المشرق المسعد فأرتهم الخلاص القريب ، وأطلّت عليهم بوجه المخلّص مقبلا بين عشية وضحاها ! .

ولهذا باتوا يحلمون أحلاماً ملحّة بأن عهد الشر هذا الذى خَيّم على ربوعهم قد آن له أن يزول ، وأن عهداً جديداً سيشرق عليهم بصبحه ، وبهذا يُقضى على عهد الشر والألم ، إما بتدخل الله نفسه ، وإما بإرسال ابنه أو ممثله المسيح إلى الأرض .. أو لم ينْبِىء به أشعيا قبل ذلك العهد ـ أى عهد المسيح عيسى ـ بمائة عام، إذ يقول :« لأنه يولد لنا ولد ونُعْطَى ابنا وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيباً مشيراً إلهاً قديراً ، أباً أبدياً ، رئيس السلام ؟ »(التوراة : سفر أشعياء)

وكان كثير من اليهود يتفقون مع « أشعياء » فيما وُصف به المسيح من أنه ملك دنيوى يولد من بيت داود الملكى ، ومنهم من يسمونه باسم « ابن الإنسان » كأخنوخ ودانيال ويصورونه بأنه سينزل من السماء ! .

أما صاحب سفر الأمثال، وصاحب حكمة سليمان، فلعلهما قد تأثرا بأفكار أفلاطون أو بروح الأرض التى يقول بها الرواقيون ـ فقد تصوّراه الحكمة مجسّدة، التى هى أول شىء « قناها » الربّ، وهى الكلمة أو العقل ! ! .

ويكاد مؤلفو سفر الرؤيا كلهم يُجمعون على أن المسيح سينتصر انتصاراً سريعاً، ويتفقون جميعاً على أن المسيح سيُخضع الكفار آخر الأمر ويحرّر إسرائيل، يتّخذ إسرائيل عاصمة له، يضم إليه الناس جميعاً ليؤمنوا بيهوه والشريعة الموسوية . . ويسود بعد ذلك عصر طيب تسعد به الدنيا بأجمعها، فتكون الأرض كلها خِصبة، وتحمل كل حبّة قدر ما كانت تحمله ألف مرة، ويصير الخمر موفوراً، ويزول الفقر ويصبح الناس أصحّاء متمسكين بالفضيلة، وتسود العدالة والصداقة والسلام فى الأرض ! ! .

هذا هو بعض جوانب الصورة التى يتصورها اليهود عن المسيح والتى عاشوا الأزمان الطويلة يحلمون بها . . فلما التقوا بالمسيح فى شخص عيسى ابن مريم ـ كما قلنا ـ ولم يطلع عليهم بتأويل هذه الأحلام التى طال انتظارهم لها وتطلعهم إليها أنكروا وجه المسيح، وتنكروا له، وأبوا أن يفتحوا أعينهم على هذه الحقيقة، وآثروا أن يَظَلوا مغمِضين أعينهم على تلك الأحلام حتى يجىء « المسيح » الذى يقع على يديه تأويلها على الوجه الذى يتصورون ويتوقعونَ !

من أجل هذا عجّل اليهود بالقضاء على المسيح عيسى بن مريم وإجلائه من بينهم، لأنه ليس « المسيح » الذى ينتظرون، وما زالوا إلى اليوم على انتظارٍ لهذا المسيح . . وقد أشار المعرّى إلى هذا بقوله :

يا آل إسْرالَ . . هَل يُرجَى مسيحكمُ هيهات .. قد مَيّزَ الأشياء من خُلِبا !
قلتا أتانا ولم يُصلبْ، وقولكم ما جاء بعدُ، وقالت أمة صُلبَا

فإذا دخل القرآن فى أمر « الصلب » فإنما يدخل فيه من هذه الجهة التى تَطلع منها أحلام اليهود بالمسيح ، الذى ينتظرون الخلاص والحياة المستقرة الطيبة على يديه .

وقد جاءهم القرآن بما لم يكونوا يحتسبون ، فكشف لهم عن هذا الضّلال الذى عاشوا أزمانا متطاولة فيه ، ورفع لهم عن ستر الغيب ليروا أن « المسيح » الذى طال انتظارهم لهم وتعلقت آمالهم به ، هو « عيسى » بن مريم ! ! وألاّ «مسيح» يُرْجى لهم بعده ! وأنهم وقد فاتهم حظهم منه ، فقد أفلت من أيديهم الخيرُ الذى توقعوه وانتظروه . . .

أفلت إلى الأبد ! ولن يعود !

هذه واحدة !

وأخرى . . هى أنهم ارتكبوا بجهالاتهم وحماقاتهم وغرورهم أبشع جريمة ، إذ قتلوا بأيديهم أملاً عاشوا له وأضاعوا بأيديهم الشحيحة الممسكة ، خيرَهم المدخَّر لهم ، وبدّدوا — مع بخلهم القاتل — ثروة طائلة لا تنفد على الإنفاق أبداً .

وثالثة . . هى أنهم وقد حملوا دم المسيح دنيا ، وديانة ، فإنهم لم يقتلوا المسيح ، ولم يصلبوه !

إنها حسرة ، وحسرة ، وحسرات ، تملأ قلوب اليهود حزنا وكمداً حين يكشف لهم القرآن عن « المسيح » الذى حسبوا أنهم صلبوه !

هذا ، ولم يعرض القرآن لهذا الأمر إلا عَرَضا ، فى سياق الزّراية على اليهود ، وفضح طواياهم وما اشتملت عليه من سوء !

وفى هذا يقول القرآن الكريم : « فبما نَقْضِهِم ميثاقَهم وكفرهم بآيات الله

وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنَنّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيباتٍ أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ». (١٥٥-١٦٠:النساء)

هذه هى المرة الوحيدة التى ذَكر فيها القرآن حادثة الصلب ، وهو إنما يواجه بهذا اليهودَ ، لا أتباع المسيح الذين يؤمنون بالصلب ويقيمون معتقدهم الدينى عليه . .

وننظر فى هذه الآيات فنرى :

أولا : يَقْرِن القرآن مقولة اليهود بأنهم قتلوا المسيح — يقرنها بعملين من أعمال اليهود ، بحيث — تبدو هذه الفَعلة وإن لم تقع — ممكنةَ الوقوع منهم، وذلك :

(١) أن لهم تاريخا أسودَ مع أنبياء الله ورسله ، يؤذونهم بألسنتهم وبأيديهم ، وربما بلغ بهم الشر إلى جريمة القتل — « وقتلهم الأنبياء بغير حق » وقد قتلوا نبىّ الله يحيى « يوحنّا » المعمدان ، وذلك بمرأى من المسيح ومسمع ! !

(٢) ثم إنهم مع المسيح خاصة ، قد اتّصل أذاهم له ، وامتد عدوانهم عليه ، فتطاولوا على أمه البتول الطاهرة ، ورموها بالفاحشة « وقولهم على مريم بهتانا عظيما » .

فإذا ادّعوْا أو ادُّعِيَ عليهم أنهم قتلوا المسيح ، فتلك الدعوى أشبه بحالهم ، وأقرب إلى طبيعتهم .. إنها على الطريق الذى ساروا فيه مع أنبيائهم .. وكم قتلوا من أنبياء وأبرياء !

ثانيا : يسجل القرآن على اليهود اعترافَهم بألسنتهم بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله . . فهذا الاعتراف منهم يقضى عليهم بتبعة هذه الجريمة المنكرة . ! وليس يدفع عنهم وزرَها أن يكون الذى قتلوه شخصا آخر غير المسيح ، أو أن يكون المسيح قد دفع عن نفسه سلطان الموت، فقام من بين الأموات كما يعتقد أتباعه . . ذلك أن الجريمة وقعت على شخص عيسى بن مريم حسب اعتقادهم وتقديرهم ، وأنهم لم يتركوه حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، ولُفّ فى الكفن وأودع القبر .

فإذا وقع بعد هذا ما ليس فى تقديرهم ، فكان المصلوب شخصاً آخر غير عيسى ، أو كان عيسى لم يَمُت كما يموت الناس ، فذلك مالا دخل له بحال أبداً كعنصر من عناصر التخفيف لجنايتهم أو حمل وزرها عنهم !

ثالثاً : أخذ القرآن شهادتهم على أنفسهم بأنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، أخذها من أفواههم وجعل ذلك اعترافا منهم بالجريمة ، الأمر الذى لايحتاج إلى استدعاء شهود غيرهم ، بعد أن وَصَفُوا الشخص الذى قتلوه وصفا كاشفا . . فهذه ثلاث صفات يصفون بها الشخص الذى قتلوه . . فهو :

١ — المسيح . .

٢ — عيسى بن مريم . .

٣ — رسول الله . .

وظاهر حالهم تنبىء عن أنهم ينكرون على « عيسى بن مريم » أنه المسيح وأنه رسول الله . . فهم إنما قتلوا حين قتلوا ذلك الشخص الذى يُدعى « يسوع » والمعروف بعيسى بن مريم ! ولو عرفوا أنه « المسيح » لما قتلوه ، أو لو عرفوا أنه رسول الله لَمَا صلبوه !

ولكن القرآن ينفذ إلى الصميم من أعماقهم ، ويضبط الشوارد من عقولهم ، وإذا حصيلة هذا ، هو أنهم يعرفون أن عيسى بن مريم رسول الله ، وأنه المسيح ، ومع هذا فإنهم قتلوه وصلبوه !

ذلك أنهم — كما قلنا — كانوا ينتظرون مسيحاً يحقق لهم تلك الرؤَى — وهذه الأحلام التى انتظروا تأويلها على يد المسيح الموعود الذى حدثهم عنه أنبياؤهم ، وتنبأوا لهم بقرب مجيئه وبالخلاص المنتظر على يديه !

وإذ طلع عليهم « يسوع » بأنه المسيح أنكروا أن يكون هو المسيح ثم لا يكون بين يديه هذا الخلاص الذى انتظروه . . فليكن « يسوع » مسيحاً ولكنهم ليس مسيحهم . . وإلا فيا لِخيبة الآمال ويا لِطولِ الشقاء . !

ثم إنهم لكى يَقْضوا على هذا « الكابوس » المزعج الذى جاء فطرد أحلامهم المسعدة ، كان لابد من أن يقتلوا هذا المسيح ، وأن يعجّلوا بقتله وأن يمثلوا به ، شِفاء لما امتلأت به صدورهم من خيبة أمل وسوء مصير ، فكان أن صلبوا المسيح ، لا لأنه جدّف على الله ، بل لأنه قضى على أحلامهم ، وجاءهم باليأس القاتل . .

لما سمع يوحنا المَعْمَدَان وهو فى السجن بأعمال المسيح أرسل إليه اثنين من تلاميذه ليقولا له : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ « من ١١ : ٣ »

أما يوحنا فقد أيقن أنه هو المسيح . . وأما اليهود فقد أنكروا أنه هو مسيحهم الموعودون به ، لأن مسيحهم كما خيل إليهم يفتح لهم خزائن الأرض ويقيمهم منها مقام المالك المطلق فيها !

إنهم كانوا يستعجلون مجيء المسيح ، وهاهوذا يقول إنه قد جاء .. ولـكنهم لا يجدون عنده ما يتمنوْن ويشتهون . . ولهذا كانوا معه على حال من الحيْرة القاتلة ، والشك المؤرّق !

« كان عيد التجديد فى أورشليم.. وكان شتاء .. وكان يسوع يتمشّى فى الهيكل فى رواق سليمان فأحاط به اليهود وقالوا له : إلى متى تلعق أنفسنا ؟ إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً ! أجابهم يسوع : إنى قلت لـكم ولستم تؤمنون . . الأعمال التى أنا أعملها باسم أبى هى تشهد لى ، ولـكنكم ولستم تؤمنون ، لأنـكم لستم من خِرافى كما قلت لـكم : خِرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها فتتبعنى . (يوحنا ١٠ : ٢٢ ـ ٢٨)

مُصيبة اليهود مع دعوات الحق التى يدعوهم رسل الله إليها ، أنهم لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتعاملون معها بعواطفهم ووجدانهم ، وإنما ينظرون إلى هذه الدعوات من جانب عمليّ واقعى ، يقاس بمقياس المادة ، ويحسب بحسابها ، ويوزن بميزان النقد المعجّل المقبوض !

وليس بهذا المقياس تقاس الأمور العقائدية ، ولا بهذا الحساب تحسب مسائل الإيمان . . !

ذلك أن الإيمان بمعناه الصحيح إنمـا يقوم على أشواق ومواجد تولّدها العاطفة المنقدحة من الوجدان ! وبغير هذا لا يكون إيمان ، وإن كان ، فهو إيمان قائم على خَواء ، لا يلبث حتى يضمر ويموت !

إن الإيمان استجابة لدعوة من دعوات الفن الرفيع الجميل . . فإذا لم يكن المدعوّ إلى الإيمان على حظ من سلامة الوجدان ورهافة الحس ، لم تبلغ الدعوة موطن الإيمان منه !

وهؤلاء هم اليهود .. لقد شهدوا على أنفسهم بأنهم أصحاب طبيعة جفّت منها موارد العاطفة ، فقالوا ما أخذه القرآن من أفواههم: «قلوبنا غلف » أى لا تتأثر كثيراً لهذه المعجزات ، ولا تنبهر بتلك الآيات ، فكان ردّ الله عليهم وحكمه على قلوبهم « بل طبع الله عليها » وكانت نتيجة هذا التبلد الغبيّ أنهم لا يَخْطُون إلى الإيمان إلا خطواتٍ بطيئة متخاذلة .. « فلا يؤمنون إلا قليلا » أى إيمانا ضعيفاً متردداً ، قائماً على شفا جُرُف هارٍ من الريبة والشك !

ولهذا كان إيمانهم بالمسيح عيسى بن مريم إيمانا من هذا القَبيل ، إيمانا متلبساً بالكفر ، ويقيناً محوطاً بالشك !

وهكذا ظل حالهم معه حتى غلب الكفرُ إيمانَهم ، وقهر الشكُّ يقينَهم ، فجدّفوا عليه ، وحاكموه ، وأسلموه إلى الصلب !

إنهم كانوا يعرفون عن يسوع أنه المسيح وأنه رسول الله ، ولكن غَلَب عليهم طبعهم المشئوم فحجزهم عن الخير ، وقصّر بهم عن السعى إليه ، وما زال بهم حتى أراهم الصبح ليلا ، والحق باطلا ، فأنكروه على عَلم ، وجحدوه على معرفة .. «الذين آتيناهم الكتاب ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون » .. هكذا شأن اليهود دائماً مع آيات الله ومع رسل الله .

رابعاً : كشف القرآن الكريم لليهود عن تلك الواقعة التى خُيل إليهم أنهم طمسوا معالمها وعاشوا على زَيفها واطمأنوا إلى باطلها . .

ولقد خَيّل إليهم الوهم الذى أدخلوه على أنفسهم وألبسوه لباس الحقيقة أنهم قتلوا المسيح عيسى بن مريم ! . ووقر فى أنفسهم أنه لو كان هو المسيح المنتظر لما استطاعوا أن يصلوا إليه ، لأنه سماوى لا يخلص إليه أذى من الناس!.

فجاءهم القرآن ـ وهم يعرفون أنه الحق ـ جاءهم ليوقظهم من هذه النومة التى نَعموا بها ، وليزعجهم عن هذا المواطن الذى اطمأنوا إليه فى شأن المسيح :

فقال تعالى : « وما قتلوه ، وما صلبوه » .

هكذا يعلنهم القرآن بهذا الحكم القاطع الجازم ! .

يعلنهم دون أن يقيم له حيثيات ، أو يأتى له بأدلة وبراهين ! .

وحسب القرآن أن يقول قولا وأن يحكم حكما، فيقوم الوجود كله شاهداً له وبرهاناً عليه ، وهذا الحكم ـ كما قلنا ـ يقطع اليهود عن أحلامهم بالمسيح المنتظر، ويملأ قلوبهم حسرة وكمداً ، لأنهم تركوا الخير الذى كان بين أيديهم ، وتعلّقوا بأوهام وخيالات لا تقع أبداً . . وهذا بعض ما يشير إليه القرآن فى قوله تعالى :« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أُحلّت لهم ». فقد ظلموا أنفسهم وخسروا خسرانا مبيناً بتطاولهم على المسيح وبتكذيبهم له ، فكان أن حرمهم الله هذا الخير الطيب الذى مُدّ إليهم من يد كريمة طاهرة ، وكان أن أصبح هذا الخير محرّماً عليهم إلى الأبد، لا ينالون منه شيئاً ! .

« ولكن شُبّه لهم »

وهنا نقف أمام حقيقة تاريخية لا سبيل إلى إنكارها وهى أن هناك شخصاً صُلب تحت اسم « يسوع » بن مريم . .

فمن هو ذلك الشخص ؟ .

اليهود على زعم أنه هو « يسوع » بن مريم الذى كان يدّعى أنه المسيح ابن الله ، أو هو المسيح « الله » .

والقرآن يقول إن المسيح عيسى بن مريم هذا لم يُقتل ولم يصلب ؟ .

وإذ يقول القرآن هذا القول ، فهو إنما يقول الحق الذى لا لَبْس فيه ، ويبقى بعد ذلك أن تقوم الأدلة على نقض هذا القول . . ونقض هذا القول بالبرهان

القاطع حكم على القرآن كله بالبطلان ، وأنه ليس من عند الله ، وإنما هو من قول بَشَر ، يجيء بالصدق وبالكذب ، وينطق بالحق وبالباطل ! .

والقرآن وإن يكن قد واجه اليهود بهذا الحكم فإنه قد ألزم به أتباع المسيح ، وأدخلهم ضمنا فيه . .

وقد كشفنا من قبل عن العلة التى من أجلها لم يواجه القرآن أصحابَ المسيح بهذا الحكم ، الذى هو أصل معتقدهم الدينى ، وقلنا : إن صلب المسيح فى ذاته لا يقدم ولا يؤخر فى موضوع العقيدة متى عرفت حقيقة المسيح ، أهو إنسان من الناس وعبد من عباد الله أم هو الله أو ابن الله ؟ . . وهذا هو ما التفت القرآن إليه ، واهتمّ له ، وفَصَل فيه ! .

ونعود إلى حديثنا عن شخص المصلوب . . ومن هو ؟ .

شخص مصلوب .. هذا ما لا شك فيه بشهادة الأخبار التاريخية المتواترة ، وبشهادة القرآن نفسه إذ يقول « ولكن شُبِّه لهم » أى خيل إليهم أن المقتول المصلوب هو « المسيح » ! .

والأناجيل هى المصدر التاريخى الذى سجل حياة المسيح ، وروى الأحداث التى وقعت له ، ومنها حادثة الصلب التى كانت أبرز تلك الأحداث وأهمها .

وقد اختلفت الأناجيل فى رسم صورة الحادثة اختلافاً يقيم كثيراً من الشكوك والشبه حول شخصية « المصلوب » بحيث لا يرى المتأمل فى الصورة أنه على يقين من أن المصلوب هو المسيح بعينه ! .

وشواهد هذا كثيرة يراها من يطالع ما تحدّث به الأناجل ، فى هذه الواقعة .. ولا نرى بأساً من أن نجملها فيما يلى :

فأولا : الأناجيل الثلاثة ـ مرقس ومتى ولوقا ـ تُحدِّث بأن السيد المسيح وقد جاهره اليهود بالشرّ وتوعدوه بالقتل ، فزع إلى الله يناجيه ويبثّه ما به

وقد أعلن تلاميذه أنه قد لا يلقاهم . . وفيما هو فى تلك الحال تغيّرت هيأته وظهر له موسى وإيليا ! . وفى هذا تقول الأناجيل : «وفيما هو يصلّى على انفراد كان التلاميذ معه ، فسألهم قائلا : من تقول الجموع أنى أنا ؟ فأجابوا وقالوا : يوحنا المعمدان ! قال لهم : وأنتم من تقولون أنى أنا ؟ فأجاب بطرس وقال : مسيح الله ! فانتهرهم وأوصى ألا يقولوا ذلك لأحد . . إنه ينبغى أن ابن الإنسان يتألم كثيراً ويُرْفَض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة وفى اليوم الثالث يقوم ! .

« وقال للجميع : إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعنى . . .

« وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرسَ ويوحنا ويعقوب ، وصعد إلى جبل ليصلّى ، وفيما هو يصلّى صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضًّا لامعاً ، وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا اللذان ظهراً بمجدٍ وتكلما عن خروجه الذى كان عتيداً أن يكمله فى أورشليم وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع ، يا معلم : جيّدٌ أن تكون ها هنا فنصنع ثلاث مظال، لك واحدة ولموسى واحدة ولإيلياء واحدة وهو لا يعلم ما يقول وفيما هو يقول ذلك كانت سحابة تظلّلهم فخافوا ــ أى التلاميذ ــ عندما دخلوا السحابة ــ أى المسيح وصاحباه ــ وصار صوت من السحابة قائلاً : هذا هو ابنى الحبيب ، له اسمعو .

« ولما كان الصوت وُجد يسوع وحده . » لوقا (٩ : ١٨ — ٣٧) .

ونجد فى هذا الخبر أموراً تستلفت النظر :

فنها ، أن شعورا كان متسلطا على اليهود يومذاك بأن القديسيين والأنبياء يمكن أن يقوموا من الأموات ، وأن يَصِلوا من حياتهم ما انقطع بسبب الموت . . ولهذا كان معتقد كثير من اليهود أن المسيح هو يوحنا المعمدان قام من الأموات !

ومنها أيضا أن بطرس حين قال للمسيح : أنت مسيح الله ، انتهره ، وأوصى تلاميذه ألا يقولوا ذلك لأحد . . وعلل ذلك بأن ابن الإنسان — أى المسيح — ينبغى أن يتألم كثيرا ، وأن يُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ، وفى اليوم الثالث يقوم .

ولا ندرى — إذا كان المسيح هو المسيح — لماذا ينكر نفسه ؟ ولماذا لا يلقَى الناسَ على الصفة التى جاء بها ؟ إن ذلك هو أول ما ينبغى أن يتحدث به إلى الناس ، حتى يعرفوا شخص من يتعاملون معه ، والصفة التى له وإلا تقطعت بينه وبينهم الأسباب ، وكانت دواعى التناكر والتنابذ أشد وأقوى من دواعى التعارف والتآلف !

فكيف ينكر المسيح صفته ؟ وكيف للناس أن يعرفوه ، وهو يأبى إلا أن يستر حاله عنهم ، ويقيم بينهم وبينه حجبا وأستارا ، ويكلمهم من وراء حجاب ؟ فبأى وجه يلقاهم ؟ ومن هو ؟ وما صفته التى يخاطبهم بها ؟

ندع هذا .

وننظر فيما يتكشف من هذا الخبر من ملابسات تتصل بشخصية المسيح قبل حادثة الصلب . .

فها نحن أولاً نرى السيد المسيح يكشف لتلاميذه عن شخصيته ، وأنه المسيح . . مسيح الله . . !

وتراه يدعوهم إلى التمسك برسالته واحتمال الأذى فى سبيلها . . فهو مزمع أن يرحل ، ومن أراد أن يلحق به فى الملكوت الأعلى فلينكر نفسه ، وليحملْ صليبه كل يوم ويتبعه .

ثم نرى السيد المسيح كذلك وقد انفرد بثلاثة من خاصة تلاميذه : بطرس ، ويوحنا ، ويعقوب . . وصعد بهم إلى جبل ثم أخذ يصلى . . إنه هنا على موعد مع ربه . . ولقد تغيرت هيئته وصار لباسه مبيضًا لامعا ، وظهر له موسى ، وإيليا ، وأخذت تلاميذه سِنَة من النوم ، فلما استيقظوا رأوا هذا المشهد العجيب الرائع . . ثم رأوا المسيح وصاحبيه قد أظلتهم سحابة ، وصار صوت من السحابة يقول : هذا هو ابنى الحبيب له اسمعوا . . » .

ثم تعقّب الأناجيل على هذا الخبر بقولها « ولما كان الصوت ، وُجد يسوع وحده » !

ونقول : ألاَ يحق لنا أن نفترض — مجرد افتراض — أن المسيح قد صعد مع صاحبيه موسى وإيليا ؟ ثم ألا يقوّى هذا الافتراض أن يقوم إلى جانبه زعم آخر ، وهو أن موسى وإيليا إنما ظهرا ليسوع فى الوقت الذى قطع فيه الشوط إلى آخره من رسالته ، ليصحباه وليؤنساه فى طريقه إلى العالم العلوى ؟ .

ويعترضنا هنا قول الأناجيل « ولما كان الصوت وجد المسيح وحده » !

ونقول إنه كان لابد أن يوجد المسيح أو أن يُحتفظ له بهذا الوجود ! . . إنه لابد أن يملأ هذا الفراغ بأية صورة ! ! وإلا فكيف يكون موقف هؤلاء التلاميذ الثلاثة الذين صحبوه ، إذا هم عادوا بغيره ؟ ثم كيف يكون موقف تلاميذه وأتباعه إذا رآهم الناس ولم يروْا المسيح معهم ؟ أيقولون مثلا : إن

المسيح قد رُفع إلى السماء ؟ فمن يشهد لهم بهذا ؟ ومن يقبل هذا القول منهم ، ويصدّقه ؟

لقد أنكر اليهود على المسيح أنه المسيح، وأنكروا عليه أنه رسول من عند الله . . وها هم أولاء يتوعدونه ويُمدّون المدة للإيقاع به ، والقضاء عليه ، ثم ها هو ذا يختفى من الميدان . . أفيُقبل بعد هذا من أحد أن يقول إن المسيح قد رُفع إلى السماء ؟ إن هذا القول لأشد نُكراً عند اليهود من كل ماتحدّث به المسيح إليهم ، وكان داعية لثورتهم عليه ، وتربّصهم به ؟

لابدّ إذن أن يظل المسيح قائما فى الميدان !

وأين المسيح ؟ بل أين مَن يأخذ مكان المسيح ؟

تلك هى المشكلة !

ولا سبيل إلى حلّ هذه المشكلة إلا إذا تخففنا كثيرا من منطق العقل — خاصة وأن القضية كلها خارجة عن سلطان العقل — وإلا إذا سمحنا للخيال القصصى والأسطورى أن يقوم بدوره هنا لحلّ هذه المشكلة !

عندئذ يتغير وجه الصورة التى تمثلت لنا فى حادثة الصلب ، كما ترويها الأناجيل ، فنرى مثلا يهوذا الأسخريوطى ، وهو أحد الحواريّين الإثنى عشر الذين اختارهم المسيح وربّاهم على يديه ـ نراه وقد اتّجه إلى اليهود الذين كانوا يتربصون بالمسيح ، فيدخل عليهم الهيكل ويهتف بهم أن الفرصة قد سنحت لهم ليأخذوا المسيح ويفعلوا به ما يشاءون . وكان ذلك على علم من أصحابه الذين بعثوا به ، ليتمّ ما دبروه . وكان تدبير التلاميذ قد سبق هذا العمل ، فتخيّروا واحداً من أتباع المسيح فيه بعض مَشَابِه منه ، ليكون هو البديل عن المسيح ، ويتقبل المصير الذى كان اليهود مزمعين أن يصيروا بالمسيح إليه !

وكان من التدبير أيضاً أن تخيّر «يهوذا» الوقتَ الذى يُقبض فيه على «المسيح» المدَّعى، وهو الليل، كما كان من التدبير أيضاً أن يكون المكان بُستاناً، لا بيتاً ولا خلاء.. وفى هذا الزمان وذلك المكان تختلط أشباح الناس، بالأشجار والأغصان التى تتراقص وتضطرب فى ضوء الشموع والمشاعل والمصابيح، التى حملها القوم معهم، ليروا طريقهم فى هذا الليل البهيم!.

وقد كان! فجاء القوم وخرج إليهم «المسيح» البديل يسألهم: من تطلبون؟ فيقولون: يسوع! فيقول: ها أنذا!.

وفى هذا يقول يوحنّا: «وخرج ـ المسيح ـ مع تلاميذه عَبْر وادى قَدْرون حَيث كان بستان دخله هو وتلاميذه، وكان يهوذا مُسْلِمَه، يعرف الموضع، لأن يسوع اجتمع هناك كثيراً مع تلاميذه، فأخذ يهوذا الجند وخداماً من عند رؤساء الكهنة والفرِّيسيين وجاء إلى هناك بمشاعل ومصابيح وسلاح، فخرج يسوع وهو عالم بكل مايأتى عليه، وقال: من تطلبون؟ أجابوه: يسوع الناصرى. قال لهم يسوع: أنا هو!! وكان يهوذا مسلمه أيضاً واقفاً معهم، فلما قال لهم: إنى أنا هو، رجعوا إلى الوراء، وسقطوا على الأرض.. فسألهم أيضاً: من تطلبون؟ فقالوا: يسوع الناصرى!! أجاب يسوع: قد قلت لكم أنا هو..؟ (إنجيل يوحنا: ١٨: ١ ـ ٩).

إنهم كانوا بلا شك يعرفون شخص المسيح الذى تعلقت الأنظار به فى أكثر من موقف من مواقفه الرائعة المذهلة.. ولكنهم فى هذا الظلام أو فى هذا النّور المظلم، لم يكن فى مقدورهم أن يتبينوا شخوص الناس، وأن يتحققوا مِن ذواتهم.. ولهذا كان سؤال وكان جواب! وقد وضع القوم يدهم على هذا الذى دعاهم إليه وقال: إنه يسوع!.

ثم إنهم ما كانوا يضمون أيديهم عليه حتى أخذته الأيدى والأرجل، صفعًا ورَكلاً، حتى لتتغيّر لذلك هيأته، وتكاد تذهب كل معالم شخصيته!.

وفى صورة هذا المسيح « البديل » نستطيع أن نفسّر كثيراً من تلك المواقف الغامضة، التى كانت تبدو متأبّية على كل تفسير وتأويل ..

فهذا يهوذا الأسخريوطى الذى بدا لنا من قبل خائناً ساقط المروءة ، يبيع أستاذه ومعلمه بدراهم معدودة ، وهو الذى كان إلى يده بيت مال المسيح وأتباعه ـ هاهوذا يبدو لنا فى هذا التصور حواريًّا قائماً على العهد الذى بينه وبين المسيح ، محتفظاً بمكانه بين الإثنى عشر حوارياً الذين يقول المسيح عنهم مخاطباً ربه ـ كما تروى الأناجيل ـ « إن الذى أعطيتنى لم أفقد منهم أحدًا » ثم هاهوذا بطرس الذى تبع « المسيح » وأنكره ثلاث مرات لم يكتف بهذا بل سبّه ولعنه ـ وهو فى هذا الموقف أسوأ حالا من يهوذا ـ نراه هنا لم يكذب حين أنكر معرفته بهذا الرجل ، كما أنه لم يأت كبيرة حين سبّ ولعن ! لأنه لم يسب المسيح ولم يلعنه ، وإنما أنكر البديل ، وسبّه ولعنه ! ثم هذا الذى كنا نستغربه ، ونعجب له من صمت المسيح ومن عِيّه عن رَدّ الجواب .. أمام رئيس الكهنة (قيافا) وأمام الوالى بيلاطس .. ثم هذا العجز الظاهر وهذه ـ الشخصية الباهتة التى رآها فيه « هيرودس » .. ثم هذا الجزع وهذا الضعف وهذا الصراخ اليائس الذى كنّا نسمعه من المصلوب ، ونعجب له [1] كل هذا يبدو مقبولا يقوم على مألوف الحياة، وعلى مستوى الطبيعة البشرية ، على حين كان ـ يبـــدو غريباً ممعناً فى الغرابة أن يصدر من مسيح الله ، ومن أحد حوارييه وتلاميذه الذين وطّنوا أنفسهم على الموت فى سبيل الله !

فهل رأيتَ إلى هذا الفرض الذى افترضناه وكيف حلّ كثيراً من المشكلات وقضى على كثير من المتناقضات التى كانت تصادفنا فى قصّة صلب المسيح ، كما ترويها الأناجيل ؟ لقد استقرت أجزاء هذه الصورة وثبتت ملامحها ، بعد أن كانت تبدو مهزوزة مضطربة تجمع المتناقضات . ! ثم الا ترى

---

(١) تحدثت الأناجيل عن كل هذه الأحداث على هذا النحو الذى ذكرناه .

أن قبول هذا الفرض أولى من الأخذ بتلك الأخبار المتنافرة عن صلب المسيح ، واعتبار أن المسيح نفسه هو الذى صُلب ؟

ألاَ يُعْفينا هذا الفرضُ من كثير من المشكلات التى واجهها العقل ـ واضطرب فيها حين وجد نفسه بين يدى « الله » أو ابن الله .. مصلوباً معلقاً على خشبة ، يصرخ فى رعب وفزع واضطراب ؟

فإذا جاء بعد هذا شاهد يشهد بأن المسيح لم يُصلب ، ولم يقتل ، أفلاَ يلفتنا هذا الشاهد إليه ، وإلى كل كلمة يقولها فى هذه القضية ؟ ثم ألا تقوّى هذه الشهادة من الفرْض الذى افترضناه وتدنيه من الواقع وتدفع به إليه ؟

فكيف إذا كان هذا الشاهد منزّهاً عن الكذب ، لايشهد إلا بالحق ، ولا يقول غير الحق ؟ ثم كيف إذا كان الشاهد هو القرآن الكريم ، والقول هو قول رب العالمين ؟ .. وكيف إذا قال هذا الشاهد فى صلب المسيح : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم » ؟

هذا ، وقد حاول كثير من مفسرى القرآن الكريم من علماء المسلمين أن يقولوا بآرائهم فيما أجمله القرآن ولم يفصّله ويكشف عن وجهه . ! ومثل هذه المقولات إنما هى لحساب أصحابها ، وليس على القرآن شىء منها ، إذ لاتعدو أن تكون أنظاراً متجهة إلى آية من آيات الله .. قد تتهدّى إلى بعض أسرارها ، وقد تضلّ الطريق فلا تعرف شيئاً !

وللإمام الرازى قصب السبق فى هذا المجال ، فهو أكثر مفسرى القرآن تقليباً لوجوه الرأى ، وجلباً للآراء والأخبار من كل وادٍ ، شرحا لمجملات القرآن ، وإشاراته .. وفى قوله تعالى « ولكن شبه له » مَثَل لهذا المنهج فى تفسير القرآن :

يقول الرازى فى تفسيره لهذا المقطع من الآية الكريمة : « اختلفت مذاهب العلماء فى هذا الموضوع ، وذكروا طرقاً :

(الأول) قال كثير من المتكلمين : إن اليهود لمّا قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء ، فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه وشهدوا على الناس أنه المسيح !

(الثانى) أنه تعالى ألقى شَبَهه على إنسان آخر .. ثم فى هذا وجوه :

١ — دخل طيطاوس اليهودى المكانَ الذى فيه المسيح فلم يجده ، فألقى شَبَهه عليه ، فلما خرج ظُنّ أنه عيسى ، فأُخذ وصلب !

٢ — وَكّلوا بعيسى رجلا يحرسه ، فرفع عيسى إلى السماء وأَلقَى الله شبهه على ذلك الرقيب .. فقتلوه وهو يقول : لست بعيسى ! .

٣ — تطوّع أحد أصحابه ، فألقى الله شَبَهَ عيسى عليه ، فأُخرج وقتل ، ورُفع عيسى .

٤ — نافق أحدُ تابعيه ، ودلّهم على عيسى ليقتلوه ، فلما دخل اليهود لأخذه ألقى الله شبهه عليه ، فقُتل وصُلب !

« وهذه الوجوه متعارضة متدافعة ! والله أعلم بحقائق الأمور ! »

ثم يثير الرازى مناقشة حول هذه المقولات فيجرّحها جميعاً ، ولا يرتضى واحدة منها .. فيقول .

« فكيفما كان ، ففى إلقاء شَبَهه على الغير إشكالات :

(الإشكال الأول) : أنه إن جاز أن يقال إن الله يُلقى شَبَهَ إنسان على إنسان آخر ، فهذا يفتح باب السفسطة . وأيضاً يُفضى إلى القدح فى التواتر .. فَفَتْح هذا الباب ، أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية .

(الإشكال الثانى) أن الله أيده بروح القدس جبريل ، فهل عجز هنا عن تأييده ؟ وهو ـ المسيح ـ كان قادراً على إحياء الموتى .. فهل عجز عن حماية نفسه !؟

(الإشكال الثالث) أنه تعالى كان قادراً على تخليصه برفعه إلى السماء ، فما الفائدة فى إلقاء شبهه على غيره ؟ وهل فيه إلاّ إلقاء مسكينٍ فى القتل من غير فائدة إليه ؟

(الإشـكال الرابع) بإلقاء شَبَهه على غيره اعتقد اليهود أن هذا الغير هو عيسى ، مع أنه ما كان عيسى ، فهذا إلقاء لهم فى الجهل والتلبيس ، وهذا لا يليق بحكمة الله !

(الإشـكال الخامس) أن النصارى على كثرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، وشدة محبتهم للمسيح ، وغلوّهم فى أمره ، أخبروا أنهم شاهدوه مقتولا مصلوباً ، فلو أنـكرنا ذلك طعنّا فيما ثبت بالتواتر .. والطعن فى التواتر يوجب الطعن فى نبوة محمد وعيسى وسائر الأنبياء .

(الإشكال السادس) ألاَ يقدر المشبوه به أن يدافع عن نفسه أنّه ليس بعيسى ؟ والمتواترَ أنه ما فعل ، ولو ذُكر ذلك لاشتهر عند الخلق هذا المعنى ، فلما لم يوجد شىء من هذا علمنا أن الأمر ليس على ما ذكرتم ! » .

هذه هى الإشكالات التى أثارها « الرازى » على القول بأن المصلوب شخص آخر أُلقى شبه المسيح عليه .!

وقد عرضنا من قبل رأياً افترضناه فرضاً ، وهو أن الشخص المصلوب شخصية قدّمها أتباع المسيح ـ لا اليهود ـ لتُحاكم وتُقتل ، وذلك بعد أن رفع المسيح إلى السماء مع موسى وإيليا . وذلك لـكى يسدّوا هذا الفراغ الهائل الذى تركه المسيح !

وهذا الفرض لا يثير إلا إشكالا واحداً .. وهو أن اليهود قتلوا شخصاً هو المسيح بن مريم فى اعتقادهم ، على حين أن المقتول شخص آخر غيره ... وهذا — كما يقول الرازى — إلقاء لهم فى الجهل والتلبيس ، وهذا لا يليق بحكمة الله ! وقلنا إن ذلك كان عقوبة لليهود ، إذ حَمَلوا دم المسيح دون أن يقتلوه ! وفى ذلك ما فيه من الكبت والحسرة لهم !

وبعد ، فإن « قضية صلب المسيح » ينبغى أن يُعاد النظر فيها ، وأن تُحقّق تحقيقاً علمياً ، وأن تفنّد الحجج التى تؤيدها والتى تنكرها .. بل إن هذا هو الذى ينبغى أن يقوم له العلماء والدارسون على اختلاف عقائدهم منذ نزل القرآن الكريم وأعلن هذا النبأ العظيم : « وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم .. وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباعَ الظن وما قتلوه يقيناً .. بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما » .

ولو أن البحث فى قضية الصلب انتهى بالباحثين إلى تلك الحقيقة التى قرّرها القرآن — وهو لابد منتهٍ بهم إليها — لا التقت الديانات السماوية الثلاث على سواء ..

فأولا : كاد اليهود يقطعون الشك باليقين فى أمر مسيحهم المنتظر الذى يَعُدّون العُدة لاستقباله ، الأمر الذى يملأ صدورهم شعُوراً بالعزلة عن الناس والتعالى عن العالمين ، باعتبارهم شعب الله المختار ، ولنظروا إلى أنفسهم من جديد فرأوا أنهم قد فاتهم خير كثير كان يمكن أن يصل إليهم من هذا الميراث العظيم من تعاليم المسيح وأدبه ، وبهذا يلتقون بتلك التعاليم السمحة الكريمة التى تذهب بالكثير من أدوائهم وعللهم ، التى تنشر الشر والبلاء فى العالم كله .

وثانياً : كان أتباع المسيح يعيشون مع تعاليم المسيح على هذه الأرض ، ويغرسون مغارس الرحمة والحب والأخوة فى كل مكان ، فلا تظل عيونهم معلقة به فى ملكوته ،

بينما تخلو قلوبهم وتُصفر أيديهم من هذا الثمر الكريم الذى غرسته يداه فى هذه الأرض !

وثالثاً : كان المسلمون لايرون هذه الحواجز القائمة بينهم وبين أتباع المسيح فى دراسة الأناجيل والتأدّب بآدابها والانتفاع بتعاليمها .. فالمسلمون وإن كانوا على يقينٍ بأن المسيح لم يُصلب ولم يكن إلٰهاً ولا ابن إلٰه ، فإن اعتقاد أتباع المسيح بهذا كله يُدخل على المسلمين شعوراً خفياً بالحذر من مخالطة الأناجيل ، والتلقّى عنها ، لما فيها من هذه المقولات التى تخالف معتقدهم الدينى وتأخذ طريقاً غير طريقه !

ونسأل :

تُرى أتكشف الأيام عن جديد فى قضية الصلب والقيامة ؟ وهل تجىء الأيام بتأويل مانطق به القرآن الكريم فى هذه القضية ؟

ذلك ما لا نشك فيه .. إن لم يكن اليومَ فغداً !.

وأحسب أن كثيراً من إخواننا المسيحيين قد يَسُوؤهم أن يقع هذا وأن يقول قائلهم — كما يقال — وأين المسيحية التى ندين بها ، إذا لم يكن المسيح قد صُلب وقام من بين الأموات ؟ أمسيحية بغير المسيح مصلوباً ومُقاماً من بين الأموات ؟ ثم أمسيحية بغير الإلٰه يُصلب فى شخص المسيح ، لتكفير الخطايا وغفران الذنوب ؟

ونقول لأولئك الذين يجزعون من القول بأن المسيح لم يُصلب ، ولم يقم من بين الأموات، ولم يكن إلٰها ولا ابن إلٰه، وإنما كان عبداً من عباد الله ورسولا من رسل الله ، كما يقول هو عن نفسه ، وكما يصرح الإنجيل على لسانه بأنه نبىّ من أنبياء الله .. إذ جاء فى إنجيل لوقا : « فى ذلك اليوم تقدّم إليه بعض

الفرِّيسيين قائلين : اخرج واذهب من هنا ، لأن هيرودس – وكان حاكم منطقة الجليل – يريد أن يقتلك ، فقال لهم امضوا وقولوا لهذا الثعلب : ها أنا أُخرج شياطين وأَشفى اليوم وغدًا وفى اليومَ الثالث أُكمل ، بل ينبغى أن أسير اليوم وغدًا وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبىّ خارج أورشليم» (لوقا : ١٣: ٣١ – ٣٤) . . فالمسيح عند نفسه أنه نبىّ ، إذا كان هذا كلامه .. وهو عند أتباعه كذلك .. نبىّ إذا كان هذا مما تصوره كاتب الإنجيل ..

نعم – نقول لهؤلاء الذين يجزعون من القول بنفى صلب المسيح وألوهيته – لا عليكم .. فإنكم لو أقمتم نظركم على المسيح إنسانًا رسولا ، والتقيتم به على هذا الوجه وتعاملتم به على تلك الصفة ، لتضاعف هذا الخير الذى تركه المسيح وراءه ... فى كلماته المشرقة وآياته الوضيئة ، وكان لكم من هذا الزاد الطيب غذاء صالح تحيا به النفوس ، وتطهر به الأرواح وتعمُر القلوب .. بالحب والمودة والإخاء . . ولكان لكم فى المسيح الإنسان المثلُ الأعلى والقدوة الصالحة ، لما تنزع إليه النفوس من حق وخير وكمال فى عالم البشر . . لاتجده الحياة على تمامه وكماله إلا فى رسل الله وأنبيائه ، وفى الصفّ الأول منهم المسيح . . الإنسان . . ابن الإنسان !

الآية : (١٥٩)

« وَإِن مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا » (١٥٩)

التفسير : المعنى الحرفىّ لهذه الآية هو :

ما من أحدٍ من أهل الكتاب إلا ليؤمننّ بالمسيح قبل أن يموت المسيح ،

ثم يكون المسيح يوم القيامة شهيداً على أهل الكتاب هؤلاء. أى شاهداً عليهم بما كان منهم معه..

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى..

فما تأويل هذا ؟

وكيف يؤمن أهل الكتاب جميعاً بالمسيح، وقد أنكره اليهود، ومازالوا، وهم من أهل الكتاب ؟

ثم إن الأمر لأكثر من هذا.. فقد جاء الخبر مؤكَّداً، مستغرقاً جميع أهل الكتاب، فرداً فرداً..

وهذا يعنى أن الخبر على حقيقته، وأنه لا مجال فيه للمجاز.. وأنه حكم جازم قاطع بأن كل أحد من أهل الكتاب لايموت إلا وهو مؤمن بالمسيح !

فما تأويل هذا ؟

قيل إن المراد من إيمان أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ بالمسيح، هو تصحيح إيمانهم به ومعتقدهم فيه.. إذ كان اليهود قد نسبوه إلى أمّ زانية، واتهموه بالسحر والشعوذة والتجديف على الله، وحكموا عليه بالموت صلباً.. على حين أن النصارى رفعوه إلى مقام الألوهية، وجعلوه هو اللهَ سبحانه وتعالى، تجسّد فى عذراء، وبشّر بالإنجيل، ثم صُلب ـ مختارا ـ ليفتدى بدمه خطيئة آدم، وليطهّر البشر منها. ثم قام من بين الأموات بعد ثلاثة أيام.. !

وتصحيح إيمان هؤلاء وأولئك بالمسيح، هو رؤيته على الصورة التى هى له، وأنه عبد من عباد الله، وأنه وُلد من أمّ دون أب، كما ولد آدم من غير أب ولا أم، وأنه نبىّ اصطفاه الله لهداية الناس، والتبشير بالحق، والعدل، والسلام

فيهم ، وأنه لم يُصلب ولم يقتل ، ولم يقم من بين الموتى . . وأنه ليس إلٰهاً ولا ابنَ إلٰه . .

أما تصحيح هذا الإيمان ، فإنه يكون فى سكرة الموت ، حيث تشهد الروح قبل أن تفارق البدن شعاعَ الحق يكشف لها كل ما كانت عليه من ضلال . . وفى لحة خاطفة ، أشبه بلمحة البرق ترى الروح كلّ شىء ، وتعلم كل شىء . . ! ومن بين ما تعلمه فساد معتقدها أو سلامته ، وسوء مصيرها أو حُسنه !

وهذا الذى تشهده الروح فى هذه اللمحة من معالم الحق لا يغيّر من وضعها الذى كانت عليه .. فهذا إيمان كإيمان فرعون حين أدركه الغرق ، « حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلٰه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » (٩٠ : يونس) وقد ردّ الله إيمانَه ولم يقبله بقوله تعالى : « الآن وقد عصيتَ قبلُ وكنتَ من المفسدين » (٩١ : يونس) .

الآيتان : (١٦٠ ـ ١٦١)

« فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا » (١٦١)

التفسير : من العقوبات التى عجّلها الله سبحانه وتعالى لليهود فى هذه الدنيا، أن حرّم عليهم طيباتٍ كانت أُحلت لهم ، فلما مكروا بآيات الله أخذهم الله بذنوبهم ، فأعنتهم وأوقعهم فى الحرج ، كما أعنتوا هم رسله وأحرجوهم . .

فمن طيبات الطعام التى حرمها الله على اليهود ، ما جاء فى قوله تعالى :

«وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ» (١٤٦ : الأنعام)

وقوله تعالى : « فبظلم » أى بسبب ما كان من الذى هادوا من ظلم ..

وقوله تعالى : « وبصدهم عن سبيل الله كثيرا » هو سبب آخر لتلك العقوبة التى أخذوا بها ، وهى أنهم صدّوا عن سبيل الله وأعرضوا عنها ، كما صدّوا غيرهم عن سبيل الله ، وأضلوهم عنه .

وقوله تعالى : « وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ » هو بيان لبعض مآثم هؤلاء القوم ، التى كانت سبباً فى أن سلط الله عليه لعنته وأخذهم بهذا العقاب الأليم ..

فقد استحلّوا الرّبا ، وقد نهاهم الله عنه .. وقد بلغ من جرأتهم على الله أن حرّفوا التوراة ، وأقاموا نصوصها على الوجه الذى يرضونْ .. فجعلوا الربا محرماً إذا كان بين يهودى ويهودى ، ومباحاً حلالا إذا كان بين يهودى وأُمىّ ، أى غير يهودى .. وفى هذا تقول التوراة ، كما أرادوا لها أن تقول :« لا تقرض أخاك برباً فضةٍ ، أو ربا طعام ، أو ربا ش ء مما يُقرض بربا .. للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا !! » (تثنية ٢٣ : ١٩) .. أفهذا شرع الله بين عباده ؟ تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

وفى قوله تعالى : « وأخذهم الربا » ما يجعلنا نأنس إلى الرأى الذى رأيناه فى تفسير قوله تعالى : « الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ

الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » فقد قلنا إن المراد بآكلى الربا هنا هم المقترضون ، لا المقرِضون . .

ولهذا جاء قوله تعالى هنا : « وأخذهم الربا » مراداً به المقرِضون ، وأصحاب الأموال ، التى يتعاملون فيها بالربا ، ولم يجىء هكذا : « وأكلهم الربا » لأن اليهود يقرضون ولا يقترضون . .

وقوله تعالى : « وأكلهم أموال الناس بالباطل » هو أعمّ من الربا ، وهو كل مالٍ جاء من طريق غير مشروع ، كالسلب والسرقة ، وكالقمار ، والخداع ، والغش ، والرشوة ، ونحو هذا . .

واليهود يتزاحمون دائما على كل مورد من هذه الموارد ، حتى لا يكادون يدعون مكاناً لغيرهم من الناس !

قوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » . . هو نذير لليهود بالعذاب الأليم فى الآخرة ، بعد أن لبسوا البلاء المهين فى الدنيا . . وفى وصفهم بالكفر ، والاتجاه بالخطاب إليهم بهذا الوصف، هو لغلبة الكفر عليهم، كما يقول الله تعالى فيهم : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » (١١٠ : آل عمران) . . وفى قوله تعالى « منهم » استنقاذ لمن خَلَصَ بجلده من هذه الجماعة ، وخرج عن محيطها ، فآمن بالله ، وأخلص دينه لله !

الآية : (١٦٢)

« لٰكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا » (١٦٢)

التفسير: الراسخون فى العلم: هم أهل العلم القائم على النظر السليم، والفهم الذكىّ..

وهؤلاء الراسخون فى العلم من أحبار اليهود وعلمائهم - ليسوا على شاكلة قومهم من الكفر والعناد، وقساوة القلب.. بل هم إذ يرون الحق يعرفونه ويؤمنون به، وقد آمنوا بما فى أيديهم من كتاب، كما آمنوا بما نَزَل على محمد من كلام الله - فهم حيث وجدوا الحق، عرفوه، وانقادوا له، وأسلموا إليه زمامهم.. لا يَعْنِيهم على أىّ يد جاءهم، ولا من أى جهة طلع عليهم.. وهكذا حكم العقل السليم على أهله.. يقودهم إلى الحق، ويجمعهم عليه..

وقوله تعالى «والمؤمنون» هو عطف على قوله تعالى: «لكن الراسخونَ».. فهؤلاء الراسخون هم والمؤمنون سواء، إذ يلتقون جميعاً على الحق: «يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك».

وهؤلاء المؤمنون قد يكونون من مؤمنى اليهود، الذين آمنوا عن استجابةٍ لدعوة الحق، ولم يتّبعوا أهواء أهل الضلال فيهم، فظلوا متمسكين بالعقيدة السليمة التى جاء بها موسى.. فهم مؤمنون.. وهؤلاء لا يرون فى إيمانهم تعارضاً مع ما جاء به محمد صلوات الله وسلامه عليه، فهم والراسخون فى العلم سواء فى مواجهة الدعوة الإسلامية، إذ يرونها هى والحق الذى فى أيديهم على طريق واحد..

وقد يكون المراد بهؤلاء المؤمنين، المسلمون... فهم إذ آمنوا بمحمد مدعوون إلى الإيمان برسل الله جميعاً، وبالكتب السماوية التى نزلت على الأنبيـاء..

قوله تعالى: «والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة» هو استئناف لتقرير حكم جديد، لمن

آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ذلك ، الحكم هو أن الله سيؤتيهم أجراً عظيما ..

ومناسبة هذا الحكم لما قبله ، هو أنه لما ذكر الله سبحانه وتعالى الراسخين فى العلم والمؤمنين وأنهم يؤمنون بما أنزل على محمد ، وما أنزل من قبل ـ ناسب أن يُذكر لهؤلاء آمنوا ، أن وراء الإيمان عملاً ، وأن هذا العمل هو الذى يتمم الإيمان ، ويعطى الثمرة الطيبة التى له .. وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هما أبرز عملين من أعمال المؤمنين ، وأن الاستقامة عليهما سبب لمرضاة الله ، وللأجر العظيم عنده .

وفى عطف قوله تعالى : « والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر على قوله سبحانه : « والمقيمين الصلاة » مع الاختلاف فى الصورة الإعرابية بين المعطوف والمعطوف عليه ـ فى هذا ما يدعو إلى التوقف والنظر . .

فلِمَ لم يكن المتعاطفون نسقاً واحداً ، على أية صورة.. بالرفع مثلاً ، هكذا : « والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ؟

وقد كثُرت فى هذا آراء المفسرين والنحاة .. ولم نر فيما قاله هؤلاء وهؤلاء وجها نستريح له ، ونرضى به، ونطمئن إليه .. إذ كلها محاولات لتسوية هذا التخالف ، الذى يبدو وكأنه تناقض وخروج على أساليب العرب، ومألوف كلامهم .. وكأنهم ـ أى المفسرون والنحاة ـ يلتمسون المعاذير للقرآن ، لهذا الخلل الذى ظهر فيه هنا . !!

وللقرآن الكريم ، أن يكون متفقاً مع قواعد النحاة أو مخالفاً لها ، جارياً ما عُرف من أساليب العرب أو خارجاً عنها .. وعلى النحاة أن يصححوا نحوهم عليه ، وعلى الأساليب العربية أن تستقيم على ما طلع عليه بها القرآن من أساليب جديدة ، وأن تجعلها من مذخورها الذى تحرص عليه ، وتَثرى باقتنائه ، وتعتز به.

فلنتحررْ إذن من قواعد النحو ، وأساليب العرب ، حينما نستقبل جديداً من أساليب القرآن وإعجازه ، ولنلقَه بقلوبنا ، لقاءنا لمعجزة قاهرة متحدية . .

ونعم ، فإننا بين يدى كل آية من آيات الكتاب الكريم ، فى مواجهة معجزة متحدية ، لا تكشف لنا عن وجهها إلا بعد توقف ونظر . . ولكننا حين نكون بين يدى آية تطلع علينا بأسلوب غير مألوف من أساليب العربية ، وغير جارٍ على مقررات النحاة وقواعد النحو ـ فإننا نكون حينئذٍ فى مواجهة آية تكشف لنا عن وجهٍ من وجوه إعجازها ، وتدعونا إليها ، وتحمِلنا حملاً على النظر فى وجهها .

فهنا فى هذه الآية . . دعوة صريحة ، وإشارة مضيئة ، إلى كلّ من يلتقى بهذه الآية الكريمة أن يقف عندها ، وأن يدير النظر فيها ، وأن يسأل نفسه كل تلك الأسئلة التى سألها المفسرون والنحاة ، عند ما التقوا أو يلتقون بكلمة : « والمقيمين الصلاة » .

لماذا خالفت نسق ما قبلها ؟

ولماذا تُخالف نَسَقَ ما بعدها ؟

ولعلنا لا نقف طويلاً عند الإجابة عن السؤال الأول . . إذ نجد الجواب حاضراً قريباً ، وهو أنه ليس بين هذه الكلمة وما قبلها صلة عطف ، وأن « الواو » التى تسبقها ليست واو عطف ، وإنما هى للاستئناف . . إذ قد تمّ الكلام قبلها ، واستؤنف بها كلام جديد ، لتقرير حكم جديد . .

ويبقى بعد ذلك الجواب عن السؤال الثانى . . وهو الذى يحتاج إلى طول نظر ، وكثير تأمل !

وأقلّ ما تخرج من بعد هذا النظر الطويل ، وهذا التأمل الكثير هو :

(أولا) : قطع ما بعد الواو فى قوله تعالى : « والمقيمين الصلاة » عما قبلها . . إذ كان لِما قبلها شأن ، ولما بعدها شأن آخر . .

ولو لم يلقَنا هذا التخالف فى نظم الآية لما وقفنا عند تلك الكلمة ، ولربّما داخلَنا شعور ـ من حيث لا ندرى ـ أن الآية الكريمة نسقٌ واحد ، تنتهى إلى حكم واحد ، هو ماخُتمت به الآية فى قوله تعالى : « أولئك سنؤتيهم أجرًا عظيما » .

(وثانيا) ترديد كلمة « والمقيمين الصلاة » والدوران حولها ، والبحث عن الوجه الذى تنتظم فيه بما قبلها أو بعدها .. وفى هذا الترديد لتلك الكلمة ، والتحديق الطويل فيها ـ ما يربط الشعور بها ، ويشدّ العقل إليها ، ويشغل التفكير بها .. وذلك من شأنه أن يقيم الصلاة مقاما مكينا فى كيان المؤمنين ، الأمر الذى يجب أن يكون للصلاة ، إذ هى عمود الدّين ، وركنه الركين .. من أقامها فقد أقام الدين ، ومن ضيعها فقد ضيّع الدين ..

والسؤال هنا ..

ما الوجه النحوى الذى يستقيم عليه الرأى فى هذه الكلمة ؟ وهل هى منصوبة على الاختصاص .. أو معطوفة على معمول الباء فى قوله تعالى : « يؤمنون بما أنزل إليك » أى ويؤمنون بالمقيمين الصلاة .. رفعا لشأن الذين يقيمونها ، وأنهم مَعْلَمٌ من معالم الإيمان .. ؟

أما نحن فإنا لا نُورد هذا السؤال .. ولا نتصدّى للإجابة عليه .. وإنما نتقبل الأسلوب القرآنى ، دون أن نجد فيه علة تدعو إلى كشف ، أو غموضا يحتاج إلى بيان ! ! وغاية ما يمكن أن نقوله هو : أن هذا هو أسلوب القرآن .. وعلى النحو أن يصحح قواعده عليه ، وعلى البلاغة أن تضبط موازينها به !

الآيات : (١٦٣ ـ ١٦٥)

« إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَى نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِ

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (١٦٤) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » (١٦٥)

التفسير : ما حجّة هؤلاء الذين يفرّقون بين رسل الله ، ويقولون نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض ؟ ماحجتهم ؟ وما عذرهم ؟ ورسل الله جميعاً هم بعثة الهدى والرحمة المرسلة من الله إلى عباد الله . . لا يحملون فى أيديهم إلا الخير ، ولا يمدّونها بغير الهدى ! . . فكيف يقبل الناس على بعضهم ويعرضون عن بعض ؟ وكيف يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعض ؟

إن ذلك هو كفرٌ ، وإن الإيمان المتلبس به لا معتَبَر له . . لأنه إيمان قائم على التعصب والهوى ، لا على الحق والهدى . . ولو كان إيماناً صحيحاً لا استقام على كل طريق يقوم على الإيمان ويدعو إليه . .

وقوله تعالى : « إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيّين من بعده . » هو بيان لهذا المنزّل على « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه عليه الصلاة والسلام . . ليس بِدْعاً من الرسل . .

والأسباط ، هم أبناء يعقوب . . وعدتهم اثنا عشر ومنهم ، يوسف — عليه السلام — .

وفى قوله تعالى : « وآتينا داود زبوراً » — ما يُسأل عنه . . وهو : لمَ انفرد داود عليه السلام بقوله تعالى : « وآتينا داود زبورا » ؟ ولمَ لم يُدْرج

مع الأنبياء الذين أوحى الله إليهم ، وكان لهم ذِكر قبله ؟ .

والجواب على هذا ، هو أن « الزبور » لم يكن من كلمات الله الموحى بها ، وإنما كان إلهامات ومشاعر فاض بها قلب داود ، فى مقام الولاء والخشوع لله ، فكانت ترانيم جرت على لسانه ، يمجّد الله بها ، ويرفعها إليه فى صلوات خاشعةٍ ، أشبه بالمأثور من دعاء النبيّ صلوات الله وسلامه عليه ، فى مواقف صلواته لله ، وتسبيحه له . . ولهذا أضيفت إليه فسميت « مزامير داود » .

وقد نوّه الله سبحانه وتعالى ، بهذه التسابيح التى فاض بها قلب داود ، وأطلقتها مشاعره . وردّدها لسانه — لما فيها من صدقِ الإيمان ، وإخلاص الحبّ والولاء لله ، وجعلها سبحانه ، مما يتقرب بها إليه المؤمنون ، ويسبّحه بها المسبّحون !

وقوله تعالى : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا » إشارة إلى أن ماتلقى موسى من كلماتِ ربّه لم يكن عن وحيٍ ينقل إليه كلمات الله ، كما كان يفعل جبريل مع أنبياء الله ، وإنما كان تلقياً مباشراً من الله سبحانه : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً » وفى تأكيد هذا الخبر ما يدفع أى احتمال لمجازٍ ، بل إنّ هذا الذى تلقاه موسى من ربّه ، كان مما كلّمه الله به ، وكتبه له فى الألواح . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ » (١٤٥ : الأعراف) وكان ذلك فى أربعين ليلة هى التى انعزل فيها موسى عن قومه ، ليستقبل ما تلقاه من ربّه . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » (١٤٢ : الأعراف) .

وقوله تعالى : « رُسُلاً مُبَشِّرِين ومنذِرين » أى أرسلنا رسلاً إلى الناس ،

مبشرين ومنذرين ، يبشرونهم بمغفرة ورضوان إذا هم استجابوا لرسل الله ، وآمنوا بالله ، وينذرونهم بما يلقوْن من سخط الله وعذابه ، إذا هم كذّبوا رسلَ الله وكفروا بالله . .

وقوله سبحانه : « لئلا يكون للنّاسِ على الله حجةٌ بعد الرسل » هو إشارة إلى ألطاف الله ، ورحمته بعباده ، حيث لم يَدَعْهم إلى عقولهم ليتعرفوا إليه ، ويستقيموا على سبيله ، بل رفَدَ هذه العقول بذلك النور الهادى الذى حمله إليهم رسل الله ، لتكون رؤيتهم لآيات الله واضحة ، وطريقهم إليه مشرقاً . . فمن كفر بالله وحادَ عن طريقه ، فليس ذلك عن عِلّة ، إلا العنادَ ، واتباعَ الهوى ، والانقياد للشيطان . . فإذا أُخذ الكافر بكفره ، فذلك هو الحكم الذى حكم به الكافر على نفسه ، ورضيه لها . فلا عذر لمعتذر ، ولا حجة لكافر .

وقوله تعالى : « وكان الله عزيزاً حكيما » هو بيان للصفة الإلٰهية المتجلية على العباد فى هذا المقام . فهو سبحانه وتعالى عزيزٌ ، يخضع لعزته كل موجود .. ولو شاء لأخذ الناس بغير حجّة عليهم ، ولعذبهم من غير أن يبعث فيهم رسله مبشرين ومنذرين — إذ ليس لأحد أن يراجع الله ، ولا أن يعترض على مايريد . . ولكنه ـ سبحانه — مع هذه العزة المتمكنة الغالبة؛ « حكيم » لايفعل إلا ما تقضى به حكمته ، فى إشراقها وعدلها .

الآيات : (١٦٦ ـ ١٦٩)

« لَـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا

لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا » (١٦٩)

التفسير : قوله تعالى : « لكن الله يشهد بما أنزل إليك » هو رد على المكذبين برسول الله ، الذين يتهمونه — كذباً وبهتاناً — أنه يدّعى على الله هذا الكتاب الذى يقول فيه إنه من عند الله . .

وقد ردّ الله سبحانه وتعالى عليهم بتلك الشهادة القاطعة ، بأن هذا الكتاب هو من عند الله . . فهو كتاب الله ، وقد شهد الله سبحانه أنه كتابه ، وأنه هو الذى أنزله .

وإذ يكون الكتاب المكذَّب به ، هو الذى يحمل تلك الشهادة التى تشهد له بأنه من عند الله ، الأمر الذى لايجرؤ عليه أحدٌ ، يقف مثل هذا الموقف ، ويواجَه بمثل هذا الاتهام — فإن هذا فى ذاته دليل على أن الكتاب هو كتاب الله ، وأن الله هو الذى يشهد لكتابه ، ولو أن القرآن كان من عمل محمد ، لما كان من التدبير الحكيم أن يحمّل هذا القرآن شهادة تشهد له أنه من عند الله !! إذ من يصدق هذا ، أو يقبله ، ممن يدفعون الكتاب جملةً ، ويتهمون حامله إليهم بالكذب والافتراء ! ؟

ولكن حين يكون الكتاب هو كتابَ الله ، والرسول هو رسول الله ، فإنه مأمور بأن يبلغ ما يتلقى من ربّه ، وأن يحمل هذه الشهادة ويبلّغها ، غير عابىء بما يلقاه به المكذبون من تشنيع وشغب !

وهذا أبلغ دليل على أن الكتاب هو من عند الله ، وليس محمدٌ إلا رسولاً مبلِّغا له .

وقوله تعالى : « أنزله بعلمه » أى أنزل الله هذا الكتاب الذى أنزل إليك ، بعلمه وتقديره ، حيث تخيّر له الرّسولَ الذى هو أهلٌ لحمله وأداء الرسالة المشتمل عليها . .

وفى هذا يقول الله سبحانه : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » (١٢٤ : الأنعام) وقوله سبحانه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ » أى والملائكة يشهدون أن هذا الكتاب هو من عند الله ، وأنك الرسول المتخيّر. وشهادة الملائكة قائمة على الحق ، لأنهم لا يعرفون الكذب ، ولا يتعاملون به . . فهم إذا شهدوا على شىء كان حجةً على الناس أن يأخذوا بهذه الشهادة ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » (١٨ : آل عمران) أى والملائكة وأولوا العلم يشهدون بأن الله لا إله إلا هو قائماً بالقسط.

وقوله تعالى : « وكفى بالله شهيداً » هو دفع لشبهة مَن يقع فى وَهْمه أن شهادة الملائكة تزكية لشهادة الله وتقوية لها . . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وإنما شهادة الملائكة هى إقرار بالحق الذى يجب أن يشهد به الوجود كله ، وبخاصة أصحاب العقول ، وأولوا العلم !

وإذا كانت تلك هى شهادة الله سبحانه للقرآن الكريم ، وهى شهادة الملائكة أيضاً له . . فإن الذين لا يأخذون بهذه الشهادة ، ويظلّون على ماهم فيه من كفر وعناد ، لا يستقيم لهم طريق على الحق أبداً ، وأنهم إذ كفروا وظلموا أنفسهم بهذا الكفر ، فليس لهم فى رحمة الله نصيب : « لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديَهم طريقاً » .

وقوله تعالى : « إلا طريق جهنم » هو كشف عن هذا المصير الذى سيصير

إليه هؤلاء الذين كذّبوا بآيات الله ، ودفعوا شهادة الله ، وشهادة ملائكته.. فإن طريق الضلال الذى ركبوه هو مُنتهٍ بهم إلى جهنمّ ، التى سيصلون سعيرها ، « خالدين فيها أبدًا . . »

وقوله تعالى : « وكان ذلك على الله يسيراً » أى أن سَوْقَ هؤلاء الكافرين إلى عذاب جهنم ، وخلودهم فيها ، هو هيّن عند الله ، وأنّ أخذ هؤلاء الجبابرة العتاة ليس بالأمر الذى يقف دون قدرة الله ، كما يتصور الذين لايعرفون الله حق معرفته ، والذين يرون فى رؤسائهم وقادتهم ، أنهم فى مقام عزيز لايُنال .. وهذا هو بعض السرّ فى الإشارة إلى صنيع الله بهؤلاء الظلمة الكافرين ، الذين هم شىء عظيم فى أعين أتباعهم والمستضعفين لهم .. وإلا فإن كلّ شىء هيّن يسيرٌ على الله .. لايعجزه شىء ، ولا يقف لقدرته شىء !

(الآية : ١٧٠)

« يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » (١٧٠)

التفسير : بعد أن كشف الله سبحانه وتعالى عن هذا المصير المشئوم ، الذى سيصير إليه أولئك الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، ووقفوا من الرسول هذا الموقف العنادىّ الآثم ـ جاءت دعوة الله للناس جميعاً أن يلتقوا بهذا الرسول ، الذى جاءهم بالحق من ربهم ، وليؤمنوا به ، فإن آمنوا فقد كسبوا أنفسهم ، واختاروا الخير لها ، وإن كفروا ، فقد خسروا أنفسهم ، وأوردوها موارد الهلاك... ولن يضرّ كفرُهم إلا أنفسهم ، فالله غنىٌّ عن إيمان المؤمنين ،

وكفر الكافرين .. له مافى السماوات والأرض.. « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمٰنِ عَبْدًا » (٩٣ : مريم) . وقوله تعالى : « وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » أى يعلم المفسد من المصلح ، وما تخفى الصدور من نفاق وكفر ، وما تحمل القلوب من هدًى وإيمان . . وهو حكيم اقتضت حكمته أن يجزىَ كلّ عامل بما عمل . . من خير أو شر .

الآيات : (١٧١ ـ ١٧٣)

« يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَآ إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (١٧١) لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا » (١٧٣)

التفسير : الغلوّ : المبالغة فى الشىء ، ومجاوزة الحدّ به ، والخروج حدّ الاعتدال فيه .. سواء كان ذلك فى الدين ، أو فى غيره .

والاستنكاف : الاستكبار ، واستنكف أن يفعل كذا : أى أبى أن يفعله استكباراً .

وهاتان الآيتان تخاطبان أتباع المسيح من أهل الكتاب ، وتكشفان لهم عن موقفهم الخاطىء منه ، وفهمهم المغلوط له . .

وقوله تعالى : « يا أهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم » أى لا تميلوا بدينكم إلى جانب الغلوّ والمبالغة فى نظرتكم إلى الأشياء ، وتقديركم لها ، والمراد بهذا هو موقف أتباع المسيح منه ، وتأليههم له ، على حين أن اليهود قد غالوا من جانب آخر فنزلوا بالمسيح إلى درجة المشعوذين ، والمجدفين على الله ، والواقعين تحت لعنته !

وقوله سبحانه : « ولا تقولوا على الله إلا الحقّ » أى لاتقولوا فى الله ، وفيما ينبغى له من صفات الكمال ، إلا الحقّ . .

وإنه ليس من الحق فى شىء أن يَلْبس الله سبحانه وتعالى هذا الثوب البشرى الذى كان عليه المسيح ، وأن يولد من رحم امرأة ، ثم يساق قَسْرًا إلى الصلب ، ثم يُدفن مع الموتى !

« إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ » فهو (أولاً) رسول الله . . ورسول الله غير الله .

وهو (ثانياً) كلمة الله ألقاها إلى مريم . . وكلمة الله غير الله . . فكل شىء خلقه الله بكلمته « كن » فكان . . كما يقول سبحانه : « إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » (٤٠ : النحل)

وهو (ثالثاً) روح من عند الله . . ونفخة منه . . كالنفخة التى كان منها آدم ، وكالروح التى كان منها الملائكة .

ومن كان هذا شأنه فهو ليس إلهاً . . لأنه من صنعة إله . . إذ هو مضاف إلى الله . . رسول الله . . وكلمة الله . . وروح من الله .

وقوله تعالى : « فآمنوا بالله ورُسله » أى فآمنوا بالله إيمانا قائما على تنزيه الله أن يكون على صورة خَلْق من خلقه .. وآمنوا برسله ، ومنهم عيسى .. فالله هو الله ربّ العالمين ، وعيسى هو رسول رب العالمين .. فآمنوا بالله ، وآمنوا برسل الله . . !

قوله تعالى : « ولاتقولوا ثلاثة » هو تخطئة لهذه الكلمة الخاطئة التى يقولها مَن يرى الله ثلاثة آلهة : الآب ، والإبن ، وروح القدس..أو هو الأب ، والابن ، والأمّ ..

وقوله سبحانه : « انتهوا خيرًا لكم » هو توجيهٌ إلى قولة الحق ، وإلى طريق الحق ، بعد العدول عن قولة الزور ، وطريق الضلال ..

وقوله تعالى : « إنما الله إلٰه واحدٌ سبحانه أن يكون له ولدٌ » .

هذا هو الوصف الحق لله تعالى : « إلٰه واحدٌ » تنزّه أن يكون لَهُ ولدٌ ، لأنه سبحانه غنى عن العالمين « له مافى السموات وما فى الأرض » .. فما حاجته إلى الولد إذا احتاج الناس إلى الأولاد ؟

وقوله سبحانه : « وكفى بالله وكيلاً » إشارة إلى أن التوجه إلى الله وحده ، هو المعتصَم الذى ينبغى أن يعتصم به الإنسان .. فليس بعد قدرة الله قدرة ، ولا مع سلطان الله سلطان .. « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » (٣ : الطلاق) .

وقوله سبحانه : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لِله ولا الملائكة المقربون » هو بيان لما بين الله وبين عباده من حدود .. فالله هو الله ، والعباد هم العباد .. ولن يستنكف أى مخلوق من مخلوقات الله أن يَدين له بالعبودية والولاء .. لا المسيح ولا غير المسيح ..

وإذا كان المسيح هو روح من الله . فإنه قد تلبّس بالجسد .. أما الملائكة

فإنهم روح من الله لم يتلبس بجسد .. فهم ـ والحال كذلك ـ أولى من المسيح بأن ينازعوا الله فى ألوهيته .. ولكنهم هم خلق من خلق الله ، وعباد من عباده .. لايستكبرون عن عبادته !

فالقول بألوهية المسيح ـ من هذه الجهة ـ منقوض ، إذ كان الملائكة أعلى درجة منه ، وأبعد مدى فى هذا الباب الذى دخل منه المسيح إلهاً مع الله ، أو إلهاً من دون الله !

وقوله تعالى : « ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » أى ومن يستكبر عن عبادة الله ، ويتأبَّى أن يكون عبداً له ، فإنه سيحشر مع من يحشرهم الله يوم القيامة ، وسيلقى الجزاء المناسب له ! (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأمّا الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليماً ولا يجدون لهم من دون الله وليًّا ولا نصيراً » .

الآيات : (١٧٤ ـ ١٧٥)

« يٰأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (١٧٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيماً » (١٧٥)

التفسير: بعد أن كشف الله سبحانه وتعالى ما عليه أهل الكتاب من عمًى وضلال ، ومن غلوٍّ فى جانب ، وتقصير من جوانب أخرى ـ جاء هذا النداء الكريم ، من قِبَل الحق ، دعوةً عامة للناس جميعاً ، أن ينظروا فى أنفسهم ، وأن يَدَعوا هذا الضلال الذى هم فيه ، وأن يتلفتوا إلى هذا الرسول الكريم ، الذى هو برهان مبين ، وحجة مشرقة لايزيغ عنها إلاّ ضالّ ، ولا يجحد بها

الاهالك ، فإنها تحمل بين يديها هذا النور السماوى ، الذى فيه تبصرة لأولى الألباب ، وهدًى للمتقين !

ووصف الرسول الكريم بأنه برهان من عند الله ، لِما يحمل من الأمارات الدالة على أنه رسول رب العالمين ـ تحدثت به التوراة وتحدث به الإنجيل ، وعَرَف أهل الكتاب من اليهود والنصارى صفته ، فجاء على الوصف الذى يعرفونه .. ثم جحدوه وأنكروه .. فهو حجة قائمة عليهم ، ودينونة معلقة فى أعناقهم .

وقوله تعالى : « فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به .. » هو بيان للآثار المترتبة على هذه الدعوة الكريمة من ربّ كريم .. فمن استجاب لها ، وأقبل على الله مؤمناً ، مخلصاً له الإيمان به وحده ، فهو فى رحمته وفضله ، وهو على نور من ربّه وهدًى ، لا يضلّ ولا يزيغ .. ومن كان هذا شأنه ، وتلك سبيله ، فالجنة مأواه ، والنعيم نُزُله ..

ومن صدّ عن سبيل الله ، وحادّ الله ورسوله ، فهو بعيد من رحمة الله ، بعيد عن طريقه .. ومن كانت تلك صفته ، فالجحيم مستقرّه ، والنار مثواه !

وقد ذكر القرآن الكريم الجانب المثمر من تلك الدعوة الكريمة ، وعرض أهلَ الإيمان ، وما يلقوْن من فضل وإحسان .. تشويقاً للنفوس إلى هذا المتجه الكريم ، وبعثاً للهمم والعزائم إلى أخذ حظها من هذا الخير المبسوط .. فتلك هى سبيل العقلاء ، وهذا هو مُبتغَى الراشدين من عباد الله .

أما السبيل الآخر ـ سبيل الغواة والضالين ـ فلم يذكره القرآن هنا ، ولم يجعله وجهاً مقابلاً لتلك الصورة المشرقة ، إزراء به وبأهله ، وحَجْباً للعيون أن تصطدم بهذه الصورة الكريهة ، التى ينبغى أن ينصرف عنها كل عاقل ، وأن يتجنبها كل رشيد !

الآية : (١٧٦)

« يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَالَةِ إِنِ ٱمْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (١٧٦)

التفسير : هذه الآية مكملة لآيات المواريث التى وردت فى أوائل هذه السورة . وقد جاء فى هذه الآيات شىء عن توريث « الكلالة » ! وهو من لاعَصَبة له تتلقى ميراثه . . فقال تعالى : « وإن كان رجل يورث كلالةً أو امرأة وله أخٌ أو أخت فلكل واحدٍ منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث » !

والمراد بالأخوة هنا ، الأخوة لأم !

وفى هذه الآية التى نحن بين يديها ، بيان لموقف الأخت ، أو الأختين ، من أبى المورث وأمه ، أو من أبيه ..

فإن كان للمورِّث الكلالة . « أخت » فلها نصف ما ترك .. وإن كان له أختان أو أكثر فلهما أو لهن الثلثان ..

وفى قوله تعالى : « وهو يرثها كلّه إن لم يكن لها ولدٌ » أى انها إذ كانت لاولد لها ولا والد .. فالأخ فى تلك الحال هو عصبتها ، وهو يتلقى ميراثها بعد أن يأخذ الزوج ـ إن كان لها زوج ـ فرضه وهو النصف .

وقوله تعالى : « وإن كانوا إخوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظ الأنثيين »

أى فإن كان ورثة المرأة التى لا ولد لها ولا والد إخوة من رجال ، ونساء ، اقتسموا ميراثها بينهم ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك بعد الفرض المفروض للزوج ، إن كان لها زوج .

وواضح من هذا أن « الكلالة » فى الآية الكريمة لا تتناول هنا إلا الرجل فى صورة الأخ الشقيق أو لأب ـ حين يتوفى وليس له ولد أو والد .

أما المرأة فى صورة الأخت الشقيقة أو لأب ، فهى ليست كلالة ، لأن لها عاصب يرثها وهو الأخ ، وقد ذُكرت هنا استكمالا للصورة التى تقع بينها وَبين إخوتها ، حين تكون وارثة ، ثم حين تكون موروثة !

وقوله تعالى « يبين الله لكم أن تضلوا » هذا البيان الذى بينه الله لكم فى هذه الآية ، وفى غيرها من آيات القرآن الكريم ، هو إرشاد وهداية لكم من الضلال ، حين ترجعون إلى ما تقضون به إلى غير بيانٍ من الله !

وقوله سبحانه « والله بكل شىء عليم » هو بيان لسعة علم الله ، وأن ما يقضى به هو الحق ، وما بيّنه هو البيان الحق ، الذى ليس وراءه بيان ! فالتزموه ، واستقيموا عليه ، ليكون فى ذلك خيركم ورشدكم ، وصلاح أمركم !

سورة المائدة

نزولها : هى مدنيّة بالإجماع ، إلا قوله تعالى : « اليومَ أكملتُ لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلام دينا » فإنها نزلت يوم عَرَفة فى الموقف ، فى حجة الوداع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم راكب على ناقته « العضْباء » فسقطت الناقة على ركبتها من ثِقَل الوحى .

عدد آياتها : مائة وعشرون آية .. وقيل مائة واثنتان وعشرون آية . .

عدد كلماتها : ألفان وثمان مائة وأربع آيات .

عدد حروفها : أحد عشر ألفا وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الآية : (١)

« يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِٱلْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » (١)

التفسير : « أوفوا بالعقود » يقال : وفَى بالعقد ، وأوفَى به ، إذا أداه على الوجه الذى التزم به .

و « العقود » جمع عَقد ، وهى المواثيق التى تبرم بين طرفين ، على خلاف العهد الذى قد يكون من الإنسان ، بالعهد يقطعه على نفسه !

و « البهيمة » الحيوان من ذوات الأربع ، بَرِّيًّا أو بحريًّا .. وقيل هى كل ذى روح غير الإنسان ، حيث تُبهم عليها الأمور .

و « الأنعام » : البهائم التى يتألفها الإنسان ، وينتفع بها فى وجوه كثيرة بيّن الله بعضها فى قوله : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ » (٥ ـ ٦ ـ ٧ : النحل)

وبدْء السورة بهذه الآية الكريمة التى تدعو إلى الوفاء بالعقود هو مناسب للسورة التى قبلها « سورة النساء » ، لما تضمنته من أحكام اليتامى ، والمواريث ، والزّواج ، والتيمم ، والجهاد ، وغيرها ، وكلها عقود ومواثيق بين الله وبين عباده الذين آمنوا به .. ثم إن هذا البدء مناسب لما سيجىء بعد هذا ـ فى هذه السورة ـ من أحكام ، بدئت بتلك التى تتصل ببهيمة الأنعام ، وما أُحلّ من لحومها ..

وقوله تعالى : « أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم » هو بيان لحلّ الأنعام ، من بين البهائم .. ثم إن هذه الأنعام ليست كلها مما أُحلت لحومها . ولهذا جاء قوله تعالى : « إلاّ ما يُتلى عليكم » استثناء مقيِّداً لهذا الإطلاق الذى تضمنه قوله تعالى : « أحِلّت لكم بهيمة الأنعام » .

وقوله سبحانه : « غيرَ مُحِلِّى الصيد وأنتم حُرُم » هو قيد على هذا القيد وهو أن جميعَ الأنعام حرّم صيدها ، على الحاج وهو محرمٌ بالحج . ومن هذه الأنعام الظباء ، وبقر الوحش ، وغيرها مما يصاد للأكل ، كالأرانب ، والطيور ..

فالمحرم لايحلّ له صيد أى حيوان ، سواء للأكل أو لغيره ، وذلك

صيانة لنفسه من العدوان ، على إنسان أو حيوان ، فى تلك الحال التى دخل بها — مُحرِماً — إلى حمى الله ، ملتمساً العافية لنفسه .. ولن تكمل له هذه العافية فى نفسه ، حتى يكون هو نفسه سلاماً خالصاً مع الناس والحيوان السارح فى ملكوت الله !

وقوله سبحانه : « إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ » هو دفعٌ لكل اعتراض يقوم فى نفسٍ لم تأخذ حظها كاملاً من الإيمان . فالله ــ سبحانه ــ له الخلق والأمر .. يحكم لا معقب لحكمه . . « قَوْلُهُ الْحَقّ وَلَهُ الْمُلْكُ » (٧٣ : الأنعام) . فهذا هو حكم الله ، والله يحكم ما يريد .

الآية : (٢)

« يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَـٰٓئِرَ ٱللهِ وَلاَ ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلاَ ٱلْهَدْىَ وَلاَ ٱلْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنَّ ٱللهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ » (٢)

التفسير : وإذ ذكرت الآية السابقة المحرِم للحجّ ، وحُرْمةَ الصيد عليه ، وهو فى فترة الإحرام ، ناسب أن يذكر مع هذا ماينبغى على المحرِم أن يلتزمه من حدود الله ، والوفاء بالعقود والمواثيق التى أوجبها عليه إيمانُه بالله . .

وقوله تعالى : « لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْىَ

وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ . . »

هو بيان لهذه الحدود التي ينبغي للمحْرِم أن يلتزمها ، ويقف عندها . .
ومنها ألا يتحلل من شعائر الله . . والشعائر جمع شعيرة ، وهي ماجُعل شعاراً ، ومَعْلماً من معالم الحج ، من مواقف الحج ، ومرامى الجمار ، والمطاف ، والمسعى وكذلك ما كان منها فعلاً من أفعال الحج كالإحرام والطواف والسعى ، والوقوف بعرفة ، ورمى الجمار ، والحلْق ، والنحر . .

فهذه حدود يجب أن يلتزمها الحاجّ ، ويؤديها على وجهها ، ولا يغيّر من مكانها ، أو صفتها . . وإلا كان مُحِلاً لشعائر الله ، مخالفاً حكمه فيها . .

ومنها : الشهر الحرام ، ورعاية حرمته . .

ومنها الهَدْى ، وهو ما يُساق إلى البيت ، ويُهدى إليه من شاء ، أو بقر ، أو إبل . . تقرباً إلى الله . . فهذا الهدى له حرمته ، وعلى الحاج أن يرعَى له هذه الحرمة ، وألا يمدّ إليه يداً بأذى ، أو عدوان . . لأنه موجّه إلى الله ، ومساق إلى بيت الله ، والعدوان عليه عدوان على الله !

ومنها : القلائد : جمع قلادة ، وهي مايقلّد به الهدى ، كعلامة له ، تدل على أنه مُهدًى إلى الله . . وفى تحريم العدوان على قلادة الهدى ، مبالغة فى تأثيم العدوان على الهدى نفسه !

ومنها : الذين يَؤُمّون البيت الحرام ، ويقصدونه ، فهم ضيوف الله ، وعُمّار بيته ، والعدوان عليهم اجتراء على الله ، وعدوان على حماه ، ومَن هم فى حماه .

فهذه حرمات ، هى مواثيق موثّقة مع الله ، والعدوان عليها نقض لتلك المواثيق ، وتحلّل منها . . وليس لأحدٍ حرمة إذا تحلل من مواثيق الله ،

وعمل على نقضها . فلينتظر انتقام الله لحرماته !

وقوله تعالى : « وإذا حللتُمْ فاصطادوا » هو إطلاق لهذا القيد الذى قُيِّد به الحاج وهو فى إحرام الحج . . فإذا أتم الحجّ ، وتحلل من إحرامه أبيح له ما كان مباحاً من قبل ، وهو إطلاق يده فى صيد مايشاء من حيوان أو طير !

وقوله تعالى : « وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا » هو تذكير للمسلمين . . وهم فى تلك الحال التى راضوا فيها أنفسهم على التزام حدود الله والوفاء بمواثيقه — تذكير لهم بالاستقامة على هذا الطريق القويم الذى ساروا عليه ، وهو أن يلتزموا العدل مع من كان إليهم عدوان منهم . . فالتزام العدل هو ميثاق أخذه الله على المؤمنين ، يلتزمونه مع أوليائهم وأعدائهم جميعاً . .

وقوله تعالى « ولا يجرمنّكم » أى ولا يحملنكم على ارتكاب الجرم ، وهو الظلم . . والشنآن : البغض والعداوة . .

والمعنى : ولا يدعوكم مابينكم وبين غيركم من عداوة وبغضاء ، إذ صدوكم عن المسجد الحرام ، وحالوا بينكم وبينه — لا يدعوكم هذا إلى أن تركبوا ماركبوا من ظلم وعدوان ، بل خذوهم بالعدل ، وخذوا حقكم منهم دون ظلم أو بغى !

وقوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » أى العدل هو الذى ينبغى أن يكون سبيلكم مع هذا الذى حملكم بفعله على بغضكم له ، لأنكم بهذا إنما تقيمون ميزان الحق ، وتحفظون ميثاق الله معكم ، وذلك هو الذى يُدخلكم مداخل التقوى ، ويقيمكم مقام المتقين .

وقوله تعالى : « واتقوا الله إن الله شديد العقاب » هو تأكيد للاستقامة

على العدل الذى أمر الله به ، وتحذير من انتقامه ممن تعدّى حدوده ، ونقض مواثيقه .

الآية : (٣)

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣)

التفسير : هذه الآية هى بيان لما جاء فى قوله تعالى فى الآية الأولى : « أحلّت لكم بهيمةُ الأنعام إلاّ ما يُتلى عليكم » فهذا الذى يُتلى على المؤمنين فى هذه الآية ، هو البيان الشارح لهذا الاستثناء !

فهذه المحرمات هى استثناء من قوله تعالى : « أحلت لكم بهيمة الأنعام » وهى : الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير .

فالميتة مما تعافه النفوس ، حتى إن بعض الحيوانات لا تأكل الميتة ولو هلكت جوعاً ، كالأسد مثلاً .. وكذلك الدم الذى تستقذره النفوس الطيبة ، وكذلك الشأن فى لحم الخنزير ، الذى حرّمته الشرائع السماوية كلها ، للشبه الكبير الذى بينه وبين السباع ، والكلاب ! .

والتوراة التى هى شريعة اليهود - كما هى شريعة المسيحيين - تحرّم الخنزير ، وقد التزم اليهود بهذا التحريم ، وكذلك أتباع المسيح مدةَ حياته معهم ، وشطراً كبيراً من عهد الحواريين بعده . .

ولكن حين انتقلت الدعوة المسيحية إلى الوثنيين فى أوربا ، وكان لحم الخنزير من طعامهم ، واقتناؤه وتربيته مصدر ثروة لهم - أباح لهم المبشرون بدعوة المسيح أن يأكلوا لحم الخنزير ، حتى يقرّبوهم من دعوة المسيح ، ويجذبوهم إليها . .

ففى التوارة : « والخنزيرَ لا تأكل .. يشقّ الظلف لكنه لا يجترّ . . فهو نجس لكم » (تثنية ١٤ : ٨) .

فهذا حكم ملزِم لأتباع هذه الشريعة ، والتوراة هى شريعة اليهود والمسيحيين ، كما قلنا ، ولكن هكذا تلعب الأهواء حتى بشرائع السماء !!

ولا ندرى كيف يخالف المسيحيون نصًّا صريحاً من كتابهم المقدس ، يقرءونه ويتعبدون به ؟ ولا ندرى كيف يظَلّ هذا النصّ الصريح فى الكتاب المقدس قائماً بين أعينهم ، ثم يخالفونه عن عمد وإصرار ! .

وأكثر من هذا . . عملية الختان . . إنها شريعة التوارة ، حيث تقول : « قال الله لإبراهيم : هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينك وبين نسلك من بعدك : يُختن منكم كل ذكر ، فتُختنون فى لحم غُرْلتكم ، فيكون علامةَ عهدٍ بينى وبينكم . . . وأما الذكر الأغلف الذى لا يُختن فى لحم غُرْلته فقطع تلك النفس من شعبها . . إنه نكث عهدى » (تكوين ١٧ : ٩) .

ولقد خُتن المسيحُ نفسُه ، عملاً بتلك الشريعة ، ولكن حين انتقلت الدعوة المسيحية إلى الوثنيين من الرومان واليونان الذين لم يقبلوا الختان رُفع عنهم هذا الحكم ، كما رُفع عن المسيحيين جميعاً . .

يقول « لوقا » صاحب الإنجيل المعروف باسمه ، فى رسالة بعث بها الرسل المبشرون بالمسيحية إلى أهل أنطاكية وسورية وكيليكية ، الذين دخلوا فى المسيحية ، ثم رجعوا عنها ، حين قيل لهم إنكم لن تُقبلوا عند الله إذا لم تُختنوا ـ فى هذه الرسالة يقول لوقا : «قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال ، مقلقين أنفسكم ، وقائلين أن تختتنوا وتحفظوا الناموس ، الذين نحن لم نأمرهم ـ رأينا وقد صرنا بنفسٍ واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبنا برنابا بولس . . رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل ربنا المسيح ، فقد أرسلنا يهوذا وسيلاً[1] ، وهما يخبرانكم بنفس الأمور شِفاهاً ، لأنه قد رأى الروحُ القدس ، ونحن ، لا نضع عليكم ثقلا أكثر من هذه الأشياء الواجبة : أن تمتنعوا عن الذبح للأصنام ، وعن الدم ، والمخنوق والزنا » (أعمال الرسل ١٥ : ٢٤ ـ ٢٨) .

وهكذا سقط « الختان » من الشريعة المسيحية ، بل لقد أصبح الختان سُبَّة يعرّض بها دعاة المسيحية فى مواجهة المختونين ، ويقولون : إنهم غير مختونى القلوب ، وإن خُتنوا بالأجسام ! ! .

ومما حرمه الله تعالى على المسلمين : « ما أهِلَّ به لغير الله » أى ما ذكر عند ذبحه اسم غير اسم الله ، فهو ـ والحال كذلك ـ متلبس بالرجس ، مشوب بالخَبَث . . وما كان لمؤمن أن يُدخل إلى معدته رجساً أو خَبثاً ، كما لا يُدخل إلى معتقده شركاً أو كفراً . .

« والمنخنقة » وهى التى تموت خنقاً من الحيوان . . إنها فى حكم التى تموت حتف أنفها ، فى تعفف النفس الطيبة عنها . .

«والموقوذة» وهى التى ضربت ضرباً قضى عليها . . هى فى حكم الميتة كذلك

(١) يهوذا وسيلا هما الرجلان اللذان اختارهما الرسل لهذه المهمة .

« والمتردّية » وهى التى ماتت نتيجة سقوطها من علوّ ..

« والنطيحة » وهى التى ماتت بنطح حيوان آخر لها . .

« وما أكل السبع » أى ما وقع فريسة لحيوان مفترس . .

وقوله تعالى : « إلا ما ذَكَّيتم » أى هذه الحيوانات التى وقعت تحت هذه الأحداث من خنق ، أو وقذ ، أو تردّ ، أو نطح ، أو افتراس سبع — هذه الحيوانات محرم طعامها والأكل منها إذا هى ماتت قبل أن يلحقها من يُذَكّيها ، أى يطهرها بالذبح ، وهى حية بعد ، تجرى الحياة فى كيانها كله . . وإلا كان ذبحها غير مطهر لها ، وغير مبيح للأكل منها ..

قوله تعالى : « وما ذُبح على النصب » .

والنُّصب : الحجارة المنصوبة للذبح عليها تقرباً للأوثان ..

فالحيوانُ المذبوح هذه الذِّبحة قد تدنس لحمه بهذا الرجس ، فكان حراماً على المؤمن أن يَطعَم منه .

وقوله تعالى : « وأن تستقسموا بالأزلام » وهو بيان لنوع آخر مما حرم على المسلمين أكل لحمه من الحيوان . . وهو الحيوان الذى يُذبح ، ثم يقتسم لحمه بالأزلام ، وهى القِداح ، يقتسم بها الجماعة الحيوانَ المذبوح بينهم ، وهذا ضرب من ضروب الميسر ، وإذ حرم الله الميسر فقد حرّم مايثمره الميسر من ثمر خبيث . . وقد وصفه الله سبحانه بقوله : « ذلكم فسق » أى هذا العمل فى اقتسام لحم الحيوان ، فسق ، وخروج عن أمر الله ، وعدوان على حرماته .

قوله تعالى : « الْيَومَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً » .

يبدو هذا المقطع من الآية الكريمة ، وكأنه غريب عنها ، إذ هو معترض بين أولها وآخرها ، حيث يقول الله تعالى بعد هذا المقطع: « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم » : .

وبالنظر فى وجه الآية الكريمة يبدو التجانس واضحاً بين مقاطعها جميعاً ، بحيث تتلاحم معانيها ، كما تتناغم كلماتها ، فتؤلف صورة ، هى آية من آيات الله، ومعجزة من معجزات كتابه الكريم .

ففى قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ...» الآية .. تذكير المؤمنين بفضل الله عليهم فيما بيّن لهم من أمر دينهم ، وفيما شرع لهم من أحكام ، هى دستور لحياة كريمة طيبة ، ومنهج لتربية أمة أراد الله لها الكرامة والعزة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ..

فإذا ذكر المسلمون ذلك ، وهم يتلقون أحكام هذا الدستور ، ومادّة ذلك المنهج ، كان ذلك أشرح لصدورهم ، وأرضى لنفوسهم ، وأدعى إلى تمسكهم بدين الله ، واستقامتهم على شريعته ..

ومن تمام نعمة الله على المؤمنين أن يسوق إليهم هذه البُشريات ، وهو يزودهم بهذا الزاد الطيب من أحكام دينهم ، وأصول شريعتهم .. فقد أصبحوا بمأمن من الكفار والمشركين والمنافقين من أن يفسدوا عليهم دينهم ، وأن يَفتنوهم فيه ، إذ بلغ الإسلام غايته ، وأخذ مكانه من القلوب ، وانضوى إلى رايته من ينصره ويحمى حماه ، « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم » .. هكذا صار موقف الكافرين من الإسلام .. اليأسُ من أن يقفوا له،أو يصرفوا الناس عن طريقه . . وعلى هذا فليقف المسلمون للكافرين وقفة التحدّى والردع إن هم حاولوا أن ينالوا منهم نيلاً .. « فلا تخشوهم واخشون »

وفى قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى

ورضيت لكم الإسلام ديناً » هو نشيد النصر الأكبر ، والفتح المبين للمسلمين، بعد هذا الجهاد المضنى ، والبلاء العظيم ، الذى احتملوه فى مسيرتهم على طريق الدعوة الإسلامية ، منذ فجرها ، إلى استواء شمسها .. فقد كمل الدين ، وتمت النعمة ، ولبس المسلمون ثوب الإسلام الذى رضيه الله لهم ديناً . .

قال الإمام أبو بكر محمد بن الحسين الآجرىّ فى كتابه « الشريعة » : « إن الله عز وجل بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ليقروا بتوحيده، فيقولوا : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فكان من قال ، هذا مؤمناً من قلبه ناطقاً بلسانه ، أجْزَأه أى (كفاه) ومن مات على هذا ، فإلى الجنة .. فلما آمنوا بذلك وأخلصوا توحيدهم ، فرض عليهم الصلاة بمكّة ، فصدقوا بذلك ، وآمنوا ، وصلّوا .

« ثم فرض عليهم الهجرة ، فهاجروا وفارقوا الأهل والأوطان .

« ثم فرض عليهم بالمدينة الصيام ، فآمنوا ، وصدقوا، وصاموا شهر رمضان.

« ثم فرض عليهم الزكاة ، فآمنوا ، وصدقوا ، وأدوا ذلك كما أُمروا .

« ثم فرض عليهم الجهاد ، فجاهدوا البعيد والقريب ، وصبروا وصدّقوا .

« ثم فرض عليهم الحج فحجّوا وآمنوا به .

« فلما آمنوا بهذه الفرائض ، وعملوا بها تصديقاً بقلوبهم وقولا بألسنتهم ، وعملاً بجوارحهم ، قال الله عز وجل : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » ...

« فإن احتج محتج بالأحاديث التى رويت : « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » .. قيل له : إن هذا كان قبل نزول الفرائض» .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان المشركون والمسلمون يحجّون

جميعاً .. فلما نزلت « براءة» نفى المشركون عن البيت الحرام ، وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، وكان ذلك من تمام النعمة ـ لما كان ذلك ـ نزل قوله تعالى : « اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

وفى إضافة الدين إلى المسلمين « دينكم » وهو فى الحقيقة دين الله ـ إذ يقول سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » ـ فى هذا ما يشعر بأن الأمة التى اختارها الله تعالى لحمل هذا الدين ، وتبليغ رسالته ، هى أهل لحمل هذه الأمانة العظيمة ، كما أنها مستحقة لتكون فى هذا المقام الكريم التى تقوم فيه مقام الأنبياء والمرسلين فى القيام على دين الله ..

وقوله تعالى : « فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثمٍ فإن الله غفورٌ رحيم » هو رفع لهذا الحظر الذى ضربه الله سبحانه وتعالى على هذه المحرمات ، وذلك فى حال المخمصة والاضطرار ..

والمخمصة : هى الجوع المتّصل ، الذى قد يؤدى إلى التلف .. فإنّ حفظ النفس من التلف ، من الأمور التى جاءت الشرائع السماوية لتقريرها ، والوصاة بها . . والله سبحانه وتعالى يقول : « ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١٩٥ : البقرة) .

وقوله تعالى : « غير متجانف لإثم » أى غير مائل إلى إثم وراغب فيه .. والمراد بالإثم هنا ، هو عين هذه المحرمات ، لأن أكلها فى غير اضطرار هو إثم ، فعبّر عنها القرآن بالإثم تقبيحاً لها وتنفيراً منها .

والمعنى : أن من وقع فى مخمصة ، أى جوع شديد ، وخاف على نفسه أن يهلك جوعاً ، ولم يكن ثمة سبيل إلى طعام غير هذا الطعام الخبيث ، فليأخذ منه بقدر

مايحفظ عليه حياته ، وألا يُقبل عليه إقبال المشتهى له ، المستطيب لأكله ..

وفى قوله تعالى : « فإن الله غفور رحيم » إشارة مضيئة تكشف عن أن إباحة هذه المحرمات فى حال الاضطرار لاينفى عنها خَبثَها ، ولا يرفع الإثم المتلبس بها .. ولكن رحمة الله ومغفرته هما اللتان تمحوان عن المضطر خَبَثها ، وإثمها .. وفى هذا مافيه من صرف النفس عن هذه الخبائث ، وتجنبها ، ومحاذرة إلفها .. إذ كان إثمها يعلق بكل من يُدخل فى جوفه شيئاً منها ، مضطراً ، أو غير مضطر .. إلا أن المضطر يعود إليه الله سبحانه وتعالى برحمته ومغفرته ، فيغسل ماعلق به من دَرَن !

الآية : (٤)

« يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ » (٤)

التفسير : السائلون هنا هم المؤمنون .. والمراد بهم جماعات منهم ، قد سألوا النبىّ تلميحاً أو تصريحاً : « ماذا أحلّ لهم ؟ » وكأنه قد وقع فى نفوسهم من عرض هذه المحرمات فى صورة مفصّلة أن فى ذلك تضييقاً عليهم ، وأن ماحُرّم عليهم أكثر مما أحلّ لهم .. فجاء قوله تعالى عن هذا السؤال المسئول ، أو الذى سيسأل ـ جاء قوله تعالى : « قلْ أحلّ لكم الطيبات » جواباً شافياً لكل وَسواس ، كاشفاً لكل شبهة ، فى إيجاز معجز ، تخشع القلوب لجلاله ، وتخضع الأعناق لروعته ..

فما أحلّ اللهُ هو كل طيب ، وما حرّمه فهو كلّ خبيث ـ هذا هو مناط الحكم فى الحِلّ والحرمة . وهذا هو فيصل مابين الحلال والحرام .. فكل طيب هو حلٌّ مباح ، وكل خبيث ، هو حرام محظور .. فليست العبرة بكثرة هذا أو ذاك ، فى الكمّ والعدد ، وإنما العبرة بالكيف الذى عليه هذا وذاك .. فما اتصف بأنه طيب ، تقبله النفوس الطيبة ، وترضاه ، فهو حلال ، وما اتصف بأنه خبيث ، تعافه النفوس الطيبة ، وتنفر منه ، فهو حرام ..

والواقع يحدّث بأن الطيبات كثيرة لاحصر لها ، وأن الخبائث قليلة يمكن حصرها ، والإشارة إليها ، ولهذا أطلق الله الطيبات ، وجعلها شاملة عامة ، وقيد الخبائث ، وحصرها فى تلك الدائرة الضيقة ، وأباح كل ماوراءها .. والله سبحانه وتعالى يقول : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ » (٣٢ : الأعراف) ويقول سبحانه فيما حرّم من خبائث ومنكرات : « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (٣٣ : الأعراف) .

وقوله تعالى : « وما علمتم من الجوارح مُكَلِّبين تعلّمُونَهنّ مما علمكم اللهُ فَكُلُوا مِما أمسكن عَلَيكُمْ واذكروا اسم الله عليه » هو بيان لأمر تشوبه شُبهة الحرام ، وهو الصيد الذى يصادُ بالحيوانات التى يدرّبها أصحابها على الصّيد ، كالكلاب والنسور ونحوها . . !

والشبهة فيها ، هى أن حيوان الصيد قد يُدميها بنابه أومِخلبه ، أو منقاره ، وربما تموت قبل أن تصل إلى يد صاحب الحيوان الصائد لها ..

وقد جاء قوله تعالى هنا مبيحاً لهذا الأسلوب من الصيد ، ولكن قيدّه

بقيود، وهى أن يكون الحيوان المرسَل للصيد مُعَلَّماً، ومدرباً على صيد الحيوان، وحمله إلى صاحبه، دون أن يتسلط عليه بأنيابه أو مخالبه، لينال منه، كما ينال الحيوان المفترس من فريسته..

وفى قوله تعالى. « تعلمونهن » وقوله سبحانه: « مما أمسَكْنَ عليه » إشارة إلى أن هذه الحيوانات المدرّبة على الصيد هى من الحيوانات القابلة للتعليم والتدريب، والواعية لما تتلقى على يد مدربها من خطط الصيد، والمحافظة على مايصاد سليما، وحمله إلى صاحبه.. ولهذا خاطبها الله سبحانه وتعالى خطاب العقلاء بقوله « تعلمونهن » و « أمسكن عليكم » ولم يقل « تعلمونها » و « أمسكت » كما هو الشأن فى خطاب غير العاقل.. وذلك لأنها حين دُرّبت، واستجابت لما دُرّبت عليه كانت أهلاً لأن تتّسم بسمة أصحاب العقول.

وقوله تعالى: « واذكروا اسم الله عليه » أى اذكروا اسم الله على الصّيد الذى يُحمل إليكم من كلاب الصيد هذه، وذلك بذبحها وذكاتها وذكر اسم الله عليها بقولكم: « باسم الله.. الله أكبر »!

وكذلك ينبغى أن يذكر اسم الله على الصيد الذى يصاد بالسِّهام، وترسل الكلاب المعلّمة للإتيان به بعد أن يصيبه السهم، حيًّا أو ميتاً.. فذلك هو ذكاة له.

وفى قوله تعالى: « مكلِّبين » إشارة إلى أن الكلاب هى أصل الحيوانات المعلمة للصيد، وأقربها إلى تلقى التدريب والتعليم. ومن ثَمّ كان اسم كلب الصّيد جامعاً لكل حيوان أو طير يدرب على هذا العمل..

وقوله تعالى: « واتقوا الله إن الله سريع الحساب » تنبيه إلى أن تقوى الله، هى مِلاك الأمر فى الرقابة على تنفيذ أحكام الحلال والحرام، ووضع الحدود الفاصلة بين الطيب والخبيث، إذ كان ذلك أمانة بين العبد وربّه،

لارقيب عليه إلادينُه ، ولا وازع له إلاتقواه .. فمن خان الله ، واستحلّ محارمه فحسابه على الله ، وهو حساب لايفلت منه أحد : « إن الله سريع الحساب » .

الآية : (٥)

« ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ » (٥)

التفسير : فى قوله تعالى : « اليومَ أُحِلَّ لكم الطيبات » ـ مايسأل عنه .. وهو : ماهو هذا اليوم الذى أحلّت للمسلمين فيه الطيبات ؟ ولم كانت مظروفية هذا اليوم هى ابتداء هذا الحكم ؟ ثم ماذا كان شأن المسلمين قبل هذا اليوم .. ألم تكن قد أحلت لهم الطيبات ؟

والجواب : (أولا) أن هذا اليوم هو اليوم الذى تمت فيه أحكام الشريعة ، واستوفت غايتها ، وهو اليوم الذى نزل فيه قوله تعالى : « اليومَ أكملتُ لكمْ دِينَكم وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامُ ديناً » .

(وثانيا) ومنذ هذا اليوم الذى كَمُلت فيه أحكام الشريعة تمّ إحكام الحدود بين الحلال والحرام ، والطيب والخبيث .. فكانت مظروفية هذا اليوم هى الحجاز الفاصل فصلا تامًّا بين الحلال والحرام ، والطيب والخبيث .

(وثالثا) كان المسلمون قبل استكمال الشريعة متلبسين بكثير من العادات والأعمال التى كانت لهم فى الجاهلية .. وقد تعقبها الإسلام ، عادة عادةً ، وعملاً

عملاً ، فى مدى ثلاثة وعشرين عاما ، هى مدة البعثة النبوية ، حتى إذا كانت آخرُ آية نزلت من القرآن كانت الشريعة قد تمت ، وكان كل ما لا ترضاه الشريعة ولا تقبله من أتباعها ، قد بيّنت حكمها فيه . . وبهذا لم يكن لأحدٍ بعد هذا اليوم أن يُحل أو يحرّم غير ما أحلت الشريعة وغير ما حرمت !

وقوله تعالى : « اليومَ أحل لكم الطيبات » إشارة إلى أن كل ما أُحل للمسلمين هو الطيب الكريم ، وأن ما حرم عليهم هو الخبيث الكريه . . .

قوله تعالى : « وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لكُمْ وطعامكم حِلٌّ لهم » هو من الطيب الذى أبيح المسلمين تناوله من طعام ، وهو طعام أهل الكتاب . . وكذلك لا حرج على المسلمين من أن يُطعموا أهل الكتاب من طعامهم ! كذلك من الطيبات التى أباحها الله للمسلمين « المحصنات من المؤمنات » وهُنَّ اللائى تنعقد رابطة لزواج بهنَّ انعقاداً صحيحاً بألا تكون المرأة المؤمنة من المحارم ، ولاأن تكون فى عصمة الغير ، ولا فى عدتها منه ، ولا أن تكون مع وجود أربع زوجات غيرها . . والشأن فى المحصنات من المؤمنات ، المحصنات من الكتابيات . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » . . وقد أشرنا إلى هذا عند تفسير قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ولا تُنكِحُوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبدٌ مؤمِنٌ خَيْرٌ من مشرك ولو أعجبكم » (٢٢١ : البقرة) .

وقوله تعالى : « إذا آتيتموهُنَّ أجورهن » هو شرط فى زواج المحصنات من المؤمنات والكتابيات . . وهو إتيانهن مهورهن . .

وقوله تعالى : « مُحصِنين غير مسافحين ولا مُتّخذِى أخدَانٍ » هو حال بعد حال ، بعد حال ، كشرط لحلّ المرأة ، وإضافتها إلى الطيبات التى أحلها الله ، وذلك بأن يكون المراد بالاتصال بها الإحصان ، والحماية من الفساد ، لا أن يكون الاتصال بها لإشباع الشهوة ، والزنا بها ، لقاء أجرٍ معلوم ، أو اتخاذها خليلة ، لا زوجاً .. للمتعة ، مع التحلل من رابطة الزوجية .

قوله تعالى : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » بيان لأن الإيمان من أطيب الطيبات التى دعا الله عباده إليها . . فمن تحلل من الإيمان ، وكفر بالله فقد حُرم من كل طيب ، وطَعِمَ من كل خبيث . . لا يُقبل منه عمل ، « وهو فى الآخرة من الخاسرين » يلقىَ الله وقد صَفِرَتْ يداه من كل خير ، وأُثقل ظهره بكل سوء !

الآية : (٦)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » (٦)

التفسير : القيام للصلاة : اتجاه النية إلى أدائها ، والتعبير بلفظ القيام للدلالة على عظم قدر الصلاة ، ورفعة شأنها ، وأنها بحيث تستدعى حضور الوجود

الإنسانى كلّه ، وقيامه ظاهراً وباطناً للتوجه إليها ، ولقائها ، بكيانٍ جميع لا يتخلّف منه شيء عن الانتظام فى موكب الاحتفاء بهذه الفريضة الكريمة ..

وهذه بعض المشاعر التى يثيرها قوله تعالى : « إذا قمتم إلى الصلاة » عند من يستصحب معه هذه الدعوة الإلهية ، وهو يتهيأ للصلاة ، ويأخذ لها وسائلها ، الموصلة إليها ..

والوضوء إنما يكون بعد طهارة الجسد ، والثوب ، كالاغتسال من الجنابة ونحوها ..

وهو ـ أى الوضوء ـ كما بينه الله سبحانه فى هذه الآية .. « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » فهذان عضوان يجب غسلهما فى الوضوء .. الوجه واليدان إلى المرفقين .. والمرفق هو من منقطع الأظفار إلى آخر الزندا عند مفصل العضد .

وقوله تعالى : « وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » هو بيان لتتمة المفروض فى الوضوء .. وهو خاص بالرأس ، والرجلين ..

أما الرأس ، فالمفروض هو مسحه باليد ، بماء جديد ، أى بأن تغمس اليد فى ماء الوضوء ، ثم يمسح بها على الرأس .. وأىّ ما مسّ الرأسَ من اليد بالمسح فهو مُجزٍ ، سواء شمل المسح الرأس كلها ، أو معظمها ، أو بعضها ، قلّ أو كثر هذا البعض !

ذلك أن المسح فى ذاته لا أثر له فى نظافة الرأس ، فهو لا يعدو ـ والأمر كذلك ـ أن يكون إشارة إلى أن الرأس من الأعضاء المطلوب نظافتها ، والالتفات إليها فى هذا الشأن .. ولكن لرحمة الله بنا ، ويسر شريعته علينا ، كان الاكتفاء بتلك الإشارة ، دون الأمر بغسل الرأس عند كل وضوء ، ففى ذلك ما فيه من حرج وإعناتٍ .. وقد عافانا الله فى ديننا من كل أمر يُحرج أو يُعنت .

أما الرِّجلان .. فقد اختُلف فى قراءتهما ، ولهذا اختُلف فى الحكم الواقع عليهما .. إذ قرىء : « وامسحوا برؤسكم وأرْجُلَكمْ إلى الكعبين » بالنصب بعطف أرجلكم على « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم » كما قرىء بالجرّ ، بعطف أرجلكم على رءوسكم . التى هى أقرب معطوف إليها .

فالذين قرءوا « وأرجلَكم » بالنصب ، قالوا إن غسل الرجلين إلى الكعبين فرض ، شأنهما فى هذا شأن الوجه واليدين إلى المرافق . .

والذين قرءوا وأرجُلِكم « بالجرّ » . . قالوا : إن حكم الأرجل هنا هو حكم الرءوس ، وهو المسح . . أى فامسحوا برءوسكم وامسحوا بأرجلكم إلى الكعبين . ولكنّ هذا الحكم منسوخ بالسنّة ، لما رَوى البخارىّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، قال : « تخلّف النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فأدركنا وقد أرهقنا العصر — أى كاد يفلت منا وقته — فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجُلنا ، فنادى — أى رسول الله — بأعلى صوته : « ويلٌ للأعقاب من النار » مرتين ، أو ثلاثا .

ورُوِى هذا الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن طريق آخر ، قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة ، حتى إذا كُنا بماء بالطريق ، تعجّل قوم عند العصر ، فتوضئوا وهم عِجَال ، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسسها الماء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويلٌ للأعقاب من النار ، أسْبِغُوا الوضوء » .

يقول ابن حزم فى التعليق على هذا الخبر :

« فكان هذا الخبر زائداً على ما فى الآية . . . وناسخاً لما فيها . . ولما فى الآية (أى من أحكام) والأخذ بالزائد (أى ما جاءت به السنة هنا) واجب . . » .

أى أنه يؤخذ بما فى الآية ، وبما جاءت به السنة ، مكملاً لما زائدا عليها ، وهذا وذاك واجب فى الوضوء . . فكان غسل الرجلين (الذى هو زائد على المسح) واجباً . .

فابن « حزم » يأخذ الحكم بوجوب غسل الرجلين من هذا الخبر الذى يُروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويجعل هذا الخبر ناسخاً لحكم المسح الذى فَهِم الآية الكريمة عليه . وكان الأولى من هذا ، ألا يضع الآية تحت حكم النسخ ، بل أن يجعل هذا الخبر شارحاً لمعناها على الوجه الذى فهمها عليه أكثر المفسرين والفقهاء والنحاة ، وهو أن قوله تعالى : « وامسحوا برءوسكم » حكم مستقل ، معترض بين ما سبقه وما تقدمه ، وأن قوله سبحانه : « وأرجلَكم إلى الكعبين » معطوف على قوله سبحانه : « فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق » . . . وفى هذا صيانة للكتاب من تسليط خبر لم يبلغ حدّ التواتر فى نقض حكم من أحكام القرآن .

ثم ماذا لو نظرنا فى الآية الكريمة نظراً لا يخضعها لأحكام النحو ، ولا يقيمها على موازين قواعده ؟ وماذا لو أخذنا من الآية الكريمة لمحةً من لمحات إعجازها ، فقلنا إن فى هذا الوضع الذى اتخذه حكم « الرّجلين » فى الوضوء ما يَسمح بأن يعطى الرجلين حكما وسطاً ، يجمع بين المسح والغسل ؟ . . بمعنى أن يكون المسح عاماً شاملا من باطن وظاهر . . إلى الكعبين ، وأن يسيل الماء منهما حتى لكأنه الغسل ، وأن يكون الغسل شيئاً قريباً من المسح ، بلا تدليك ، ولا تخليل أصابع . . فهو مسح كالغَسل ، وغسل كالمسح . . وفى هذا ما يتفق مع يسر الشريعة ، وتخفيفها على العباد ، وخاصة فى الأحوال التى يشتد فيها البرد ، أو يقل فيها الماء . . وذلك مما يُدخل الطمأنينة فى شعور المتوضىء أنه أدّى الواجب إذا غسل رجليه هذا الغسل الخفيف ، وأنه يدخل

الصلاة وقد استوفى حقّ الدخول فيها . . ثم إنه ليس يعنى هذا أن يلتزم المتوضىء هذه الصورة فى غسل رجليه . . بل إن له أن يجرى عليهما الماء ماشاء ، وأن ينظفهما ما أراد وما استطاع ، إذ لا حرج عليه فى هذا ، وإنما الحرج فى ألا يُدفع عنه هذا الحرج إذا هو غسل رجليه وكأنه يمسحهما ، أو مسحهما وكأنه يغسلهما . . ذلك والله أعلم .

قوله تعالى : « وإن كنتم جُنباً فاطّهروا » هو إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه المسلم قبل الوضوء ، وهو أن يكون على طهارة من الجنابة . . بالاغتسال ، أو التيمم فى المرض أو السفر ، أو عند فقد الماء .

وفى قوله تعالى « فاطّهروا » إشارة إلى أن المطلوب هو التطهر . . ولم يحدّد اللفظ القرآنى أسلوب التطهر . . أهو بالاغتسال أو بالتيمم . . وذلك لأنه سبحانه قد خفف على عباده ، فلم يجعل التطهر بالاغتسال أمراً لازماً فى جميع الأحوال .. فالمريض ، والمسافر ، قد أبيح لهما التطهر من الجنابة بالتيمم ، وكذلك الصحيح المقيم إذا فقد الماء . . فإذا تيمم أحدهم طَهُر من الجنابة ، وإذا قام للصلاة وجب أن يتيمم للصلاة ، وهو على طهارته بتيمم الطهارة من الجنابة .

فانظر إلى هذا الإعجاز القرآنى فى قوله تعالى : « فَاطَّهَّرُوا » وإلى توافق هذا الأمر الإلٰهى مع قوله تعالى بعد هذا : « وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ » . . ولو كان اللفظ القرآنى : « فَاغْتَسِلُوا » بدل قوله تعالى : « فَاطَّهَّرُوا » لوقع تصادم بين هذا اللفظ وبين الحكم الوارد بعده فى هذه الآية ، والذى جاء مثله فى سورة النساء فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا

الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا » (٤٣ : النساء) . . وقد سبق أن شرحناه فى موضعه ! ولكن كيف يقع التصادم والتخالف فى كتاب منزل من رب العالمين ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا . . « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »

وفى قوله تعالى : « مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » ما يكشف عن جوانب كثيرة من رحمة الله بنا ، وفضله علينا ، وأنه أقامنا على شريعة ، لا حرج فيها ولا إعنات ، وأن كل ما جاءت به هو تصحيح لإنسانيتنا ، وتكريم لآدميتنا ، وحماية لنا من دواعى الفساد والعطب . . وفى هذا الذى يلبسنا من نعم الله وأفضاله ، ما يستوجب الحمد والشكر ، وذلك بأن نتلقى أحكام الله بالقبول والرضا ، وأن نأنس بالحياة معها ، والعيش فيها ، وأن نستوحش من البعد عنها ، أو التفريط فى الإمساك بها . .

الآية : (٧)

« وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » (٧)

التفسير : عطف هذه الآية على ما قبلها هو توكيد للشكر الواجب علينا

أن نعيش فيه مع الله الذى تحف بنا ألطافه ، وتشتمل علينا نعمه . . فنى كل نَفَس يتنفسه الإنسان نِعم ظاهرة تحدّث بها كل جارحة فيه . . فضلاً عن النعم التى تساق إليه من هذا الوجود الذى يتحرك فى رحابه ويتقلب بين أرضه وسمائه . .

قوله تعالى : « وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُمْ بِهِ » هو عطف على قوله تعالى : « نِعْمَةَ اللهِ » أى اذكروا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِى وَاثَقَكُم بِهِ . .

والميثاق الذى واثقنا الله به هو ما أشار إليه سبحانه فى قوله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا » (١٧٢ : الأعراف)

فهذا إقرار من الناس جميعاً ـ قبل أن يُخلقوا وقبل أن يكونوا أناساً ـ بالولاء لله ، والاعتراف بربوبيته . . وهو إقرار ضِمْن الإقرار العام للوجود كلّه بالانقياد لله ، والولاء له . .

وإذ يذكر الإنسان أنه كان على عهد مع الله وهو فى مضمر الغيب ، قبل أن يكون له وجود ، وقبل أن يستكمل وجوده ، ويصبح كائناً ، عاقلا رشيداً ـ إذ يذكر الإنسان هذا من أمر نفسه ، ويذكر ما ينبغى أن يكون موقفه من الله ، وهو الإنسان العاقل الرشيد ـ وجد من السفاهة والضلال أن يكون على غير هذا الطريق القويم الذى انتظم فيه مع الوجود كله يوم أن لم يكن شيئا . . فكيف يَسْفَه ويحمق ، ويشرد عن هذا الطريق ، ويتخذ لنفسه طرقا لا مَعْلَم فيها ، ولا أنيس له فى مجاهلها إلا من كان على شاكلته من التائهين والضالين وإخوان الشياطين ؟

هذا ، ويمكن أن يكون هذا الميثاق الذى واثق الله به الذين آمنوا هو ذلك الميثاق الذى بايع به المسلمون رسول الله إذ دخلوا فى الإسلام ، فقد كانت بيعتهم لرسول الله قائمة على : « السمع والطاعة فى المكره والمنشط » أى فى الضرّاء والسّراء . والعقد الذى وثّقه النبىّ صلى الله عليه وسلم مع المؤمنين ، هو عقد لله ، ومن ثمّ كانت إضافته إلى الله تعالى ، تكريماً للنبىّ ، وتوثيقاً بعد توثيق لهذا الميثاق العظيم . . « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » (١٠ : الفتح) . .

فكل من دخل الإسلام ، دخل بهذا الميثاق ، سواء شهده أو لم يشهده . . فلا إيمان بغير استجابة ، ولا استجابة بغير طاعة وامتثال .

الآية : (٨ - ١٠)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » (١٠)

التفسير : مما يدخل فى الميثاق الذى واثق الله به المؤمنين أن يكونوا « قوّامين بالله شهداء بالقسط » والقيام لله هو الانتصار لشريعته والرعاية لأحكامه . . سواء فى محيط الإنسان فى ذاته ، أو فى دائرة الجماعة الإسلامية كلها . . فحيثما كان لله أمر أو نهى فى شأن من الشئون أو موقف من المواقف

كان على الإنسان أن يستحضر له وجودَه كله ، وأن يلقاه بوجوده كلّه ، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « قوّامين لله » حيث يَحمل هذا الفعل معنيين ، يكمل أحدهما الآخر : القيام ، ثم المبالغة فى هذا القيام إلى أقصى حد يستطاع .

وهذه الدعوة بالقيام بأمر الله ونهيه ، والمبالغة فى هذا القيام ، هو أمر ملزم المؤمن فى ذاته ، كما هو ملزم للمؤمنين جميعاً . . الإنسان فيما هو له وعليه ، والجماعة كلها فيما هو لها أو عليها . . فليس يكفى لسلامة الإنسان أن يسلم فى نفسه ، وإنما أن تسلم الجماعة معه ، ففى سلامتها سلامة له ، وفى عطبها عطب ضمنى له !

وقد شرحنا هذه الآية عند وقوفنا بين يدى الآية الكريمة : « يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ » (١٣٥ : النساء) ويلاحظ أن صورة النظم قد اختلفت هنا عن صورتها هناك ، فقد سُلِّط كل من الفعلين على ماسلط عليه صاحبه : « كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط » . . « كونوا قوّامين بالقسط شهداء الله » وهذا يعنى أن القَوامة بالقسط هى قوامة لله ، وأن الشهادة لله هى شهادة بالقسط . . ذلك أن القسط هو العدل ، والعدل صفة من صفات الحق جلّ وعلاَ . . ومجموع الصورتين يعطينا صورة مؤكّدة للمأمور به فيهما ، هكذا :

كونى قوامين لله .. شهداء لله .

كونوا قوامين بالقسط . . شهداء بالقسط .

ولكنّ النظم القرآنى جاء بهما على هذا النمط الذى صانهما من هذا التكرار ، كما فوّت الجمع بين الله سبحانه وتعالى وبين صفته . وكلاهما نحن مدعوون إلى توقيره ، مأمورون بالاحتفاء به .

وبين يدى الدعوة إلى رعاية أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، والتزام حدود العدل والحق — تنتصب صورتان ، إحداهما لمن آمن واهتدى ، واستقام على طريق الله ، فأحل الحلال ، وحرّم الحرام ، والأخرى لمن كفر بالله ، واتبع هواه ، وركب طرق الغواية والضلال .. وفى الصورة الأولى يرى المؤمنون ما أعد الله لهم من واسع رحمته ، وعظيم فضله ، وفى الصورة الثانية يرى الكافرون ما أعد لهم من جهنم وقد فغرت فاها ، ومدت ألسنتها لتصطادهم من بعيد وقريب : « وعد الله الذين عملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم » .

الآية : (١١)

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ » (١١)

التفسير : الهمّ بالأمر .. هو العزم عليه ، دون تنفيذه لأمرٍ ما ، من داخل النفس أو خارجها .. « وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ » (٢٤ : يوسف) .

وبَسط فلان إلى فلان يده : مدّها إليه بالشر والأذى .. « لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتلك » (٢٨ : المائدة) .

وقد اختلف المفسّرون فى هؤلاء القوم الذين همّوا أن يبسطوا أيديهم إلى المؤمنين بالأذى فكف الله أيديهم عنهم ..

والصورة التى ترتسم لمن يقرأ الآية الكريمة ، مستعرضاً أحداث الإسلام

الأولى ، يرى أنها تشير إلى ما وقع فى غزوة الخندق ، المسماة غزوة الأحزاب كذلك ـ فقد جاءت قريش بجموعها ، وبجموع أحلافها، تريد أن تقتلع الدعوة الإسلامية من أصولها ، فعسكرت حول المدينة ، ووقفت أمام الخندق الذى أقامه الرسول والمسلمون حولها .. وكان من تدبير الله سبحانه أن أوقع الخلاف بين هؤلاء الأحلاف ، بعد أن طال بهم المقام فى مواجهة المدينة دون أن يصلوا إليها . . ثم أرسل الله عليهم ريحا عاصفة فى ليلة مظلمة باردة . . فأطفأت نارهم ، وقلبت قدورهم ، وهدمت خيامهم . . حتى إذا انكشف وجه الصباح كانوا هشيماً مبعثرا على كل طريق .. إلا الطريق إلى المدينة ، وهكذا كان فضل الله ، وكانت رحمته التى ينبغى أن تكون مما يذكره المسلمون من نعم الله ورحماته ! وفى هذا يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا * (٩ ـ ١٠ : الأحزاب) . . ويقول سبحانه : « وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا » (٢٥ : الأحزاب)

فهل نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ وفضل أكبر من هذا الفضل ؟ .

ومن عجب ألا أجدَ أحداً من المفسرين يقول بهذا الرأى .. فيما بين يدىّ من كتب التفسير !

وفى قوله تعالى : « واتقوا الله » وفى عطفه على قوله سبحانه « واذكروا نعمة الله عليكم » مايشير إلى أن المراد بذكر نعم الله ، ومراجعة أفضاله

على الإنسان ، ليس هو مجرد لذكر باللسان ، والتسبيح به ، وإنما الذى يحقق لهذا الذكر أثره هو أن يكون مبعثاً لخشية الله ، واستحضاراً لجلاله وعظمته ، وذلك مما يبعث إلى التقوى ، التى تقوم على مراقبة الله ، وحراسة جوارح الإنسان من معصيته .

الآية : (١٢)

« وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ ٱلزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ » (١٢)

التفسير : فى مواجهة النعم التى أنعم الله بها على المسلمين ، ودعاهم إلى تذكرها ، وملء مشاعرهم بها ، لتفتح قلوبهم بخشية الله ، وتملأها بتقواه ـ فى مواجهة هذا يذكر الله سبحانه ما كان له من نعم وأفضال على بنى إسرائيل ثم ما كان منهم من جحودها ، والتنكر لها ، واتخاذها ذرائع للإفساد والطغيان .. ثم ما كان من عقاب الله لهم ، وأخذهم بالبأساء والضراء ، ودمغهم باللعنة والغضب .. وتلك هى عاقبة من حادّ الله ، وكفر به ، ومكر بآياته ، وجحد أفضاله ونعمه ..

« وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا » .

فهذا الميثاق الذى أخذه الله على بنى إسرائيل قد حمله إليهم أنبياء الله ،

وعزّرهم النقباء الذين كان كل نقيب منهم على رأس جماعة من جماعاتهم ، حتى يكون ذلك أقرب إلى لقائهم معه ، واستجابتهم له ، لأنه منهم أشبه بالأب من أبنائه ، قرابةً ومودة .. وهؤلاء النقباء هم رسل الله إليهم ، ولهذا جاء قول الله عنهم . « وبعثنا » حيث يغلب مجيء هذا اللفظ فى بعث الرسل من عند الله إلى عباد الله ..

وقوله تعالى : « وَقَالَ اللهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ » ـ هو الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، ووثقه معهم .

فهو ـ سبحانه ـ معهم ، إن أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وآمنوا بما يُبعث إليهم من رسل الله ، وعزروهم ، أى نصروهم ، وبذلوا مما فى أيديهم فى وجوه الخير ، أى أقرضوا الله قرضاً حسناً ، بلا مَنّ ولا أذًى ، ولا ربا ..

إنهم إن فعلوا هذا كفّر الله عنهم سيئاتهم وأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .. وإن كفروا فقد ضلوا سواء السبيل ، وركبوا الطريق المؤدى بهم إلى جهنم .. وبئس المصير ..

فماذا كان من القوم مع هذا الميثاق العظيم ؟

ذلك مانجده فى قوله تعالى ، فى الآية التالية :

الآية : (١٣)

« فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ

ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ » (١٣)

التفسير : لقد نقض بنو إسرائيل الميثاق الذى أخذه الله عليهم ، فكفروا بآيات الله ، ومكروا بها وجحدوا نعمه وأفضاله ، وكذّبوا رسله ، وأخذوهم بالأذى الذى بلغ فى كثير من الأحيان حدّ القتل .

فبسبب هذا لعنهم الله .. وكفى بهذا العقاب عقاباً ونكالاً .. إنه الهلاك الأبدى ، والضياع لمعالم الإنسانية كلها ، والخسران فى الدنيا والآخرة .. « أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا » (٥٢ : النساء)

قوله تعالى : « وجعلنا قلوبهم قاسية » هو مسخٌ لهذه القلوب ، وقلب لطبيعتها ، وتحول بها من قلوب بشرية إلى قلوبٍ لاتمتّ إلى عالم البشر بصلة .. وهذا مايشير إليه اللفظ القرآنى : « وجعلنا » الذى يدلّ على خلق جديد لهذه القلوب ، وتصويرها فى صورة غير الصورة التى كانت .. ولهذا استباحت تلك القلوب كل منكر ، وتقبّلت كل خبيث ، دون أن تتأثم أو تتحرج ، حتى بلغ بها ذلك أن عبثت بكلمات الله ، وغيرت معالمها ، وبدّلت أوضاعها ، وخلطتها بأهوائها ونزعاتها . وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « يحرفون الكلِمَ عن مواضعه » .. وقد ضبط القرآن الكريم الجيل الذى عاصر نزولَه من أجيال اليهود ــ ضبطهم متلبسين بهذا المنكر الذى كان عليه آباؤهم مع كتاب الله الذى بين أيديهم .. فقد جرت على ألسنة هؤلاء الأبناء الذين عاصروا نزول القرآن، صور من صور التحريف والتبديل لكلمات الله ، فقال تعالى : « مِنَ

الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مُسْمع وراعنا ليّا بألسنتهم وطعناً فى الدين .. » (٤٦ : النساء) .

وهذا شاهد يشهد بلسان الواقع أن الأبناء والآباء على سواء ، فى قسوة القلوب ، وجرأتها على الله ، وتبديلها لكلماته !

قوله سبحانه : « ونسُوا حظًّا مِمّا ذُكّرُوا به » .. الضمير هنا راجع إلى آباء اليهود ، وأنهم لم يقفوا عند حدّ التحريف والتبديل لكلمات الله ، بل لم يعملوا بما ظل سليما من تحريفهم فى الكتاب الذى بين أيديهم .. ذلك أنه بعد أن استقرت التوراة على مافيها من تحريف ، وتداولتها الأيدى ، لم يكن من سبيل إلى إدخال تحريف عليها ـ فكان تحللهم من الأخذ بما لا يرضون من أحكام التوراة الباقية عندهم ، هو الطريق البديل لهم من التحريف ، لو كان ذلك التحريف مستطاعاً لهم .. فعملهم هذا هو تحريف بصورة أخرى ، بما يتأولون به النصوص ، ويخرّجونها عليه ، حسب ماتمليه أهواؤهم ..

وقوله تعالى : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم » هو خطاب للنبى الكريم ، وأنه يجد بين يديه من خيانات اليهود لأمانة الكلمة ، وشرف العهد مايصل حاضر اليهود بماضيهم ، وأنهم أبداً على خيانة لله ، ولرسول الله ، ولعباد الله !

وفى التعبير عن الخيانة بالخائنة مايكشف عن هذا الأسلوب الخبيث الذى يتخذه اليهود فى خياناتهم ، وأنه أسلوب قائم على المداهنة والنفاق .. حيث يُخرج اليهود خياناتهم فى خبث ودهاء ومواربة ، فلا يُلقون بها إلا حيث لاترصدهم العيون ، ولا تواجههم الوجوه !

وقوله تعالى : « إلا قليلا منهم » هو استثناء لجماعة قليلة من اليهود ، قد سلمت من هذا الداء الخبيث الذى اشتمل على القوم ، ولم يُبق على شىء منهم

إلا كما يبقى الحريق على بعض ما اشتمل عليه ، وكما يبقى البحر على بقايا سفينة غارقة !

وقوله تعالى : « فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين » هو توجيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل هذه الجماعة القليلة التى سلمت وأسلمت من اليهود ، وألا يأخذها بجريرة الكثرة الكثيرة منهم ! وألا ينظر إليها من خلال موقفها من النبي أولَ الدعوة ، فقد كان اليهود جميعاً على عداوة وحسد للنبي ..

الآية : (١٤)

« وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (١٤)

التفسير : قوله تعالى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به » ، هو معطوف على قوله سبحانه فى الآية (١٣) « ولقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل » .

وبين المعطوف والمعطوف عليه صلة : إذ كانت دعوة المسيح خاصة باليهود ، كما يقول المسيح عن نفسه فيما تروى عنه الأناجيل : « أنا لم أرسل إلاّ إلى خراف إسرائيل الضالة » ولهذا كان حواريوه كلهم من اليهود ، كما كانت معجزاته لليهود ، وفى اليهود ، حتى إنه ــ عليه السلام ــ أبى على المرأة الأممِيّة ــ أى من غير اليهود ــ أن يشفى ابنتها مما كانت تعانى من داء ، وقال لها تلك القولة التى روتها الأناجيل عنه : « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيداء ،

وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمني ياسيد يا ابن داود .. ابنتي مجنونة جداً، فلم يجبها بكلمة ، فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا ، فأجاب وقال : « لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (متى : ١٥) .

وفى قوله تعالى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظًّا مما ذكروا به » إشارة إلى أن هؤلاء النصارى الذين أخذ الله عليهم الميثاق كانوا من اليهود ، الذين اتبعوا المسيح.. والمعنى : « ومن اليهود الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم « فنسوا حظًّا مما ذكروا به » وفى هذا تشنيع على اليهود أيضاً ، إذ كانوا دائماً على هذا الخلق اللئيم فى المكر بآيات الله ، ونقض المواثيق التى واثقهم الله بها . . فهم فى ثوب النصرانية كما هم مسلاخ اليهودية ، وهم فى اتباعهم لعيسى كما هم فى أخذهم لشريعة موسى .. كفرٌ مع كفر ، وضلال إلى ضلال .

وفى قوله تعالى : « نَسُوا حَظًّا مما ذكروا به » إشارة إلى أن أتباع المسيح قد تأولوا دعوته على غير مدلولها الذى أقامهم عليه ، وعاش فيهم به . . فلم يكن فيهم إلهاً ولا ابن إله ، ولم يؤمن به الذين عاشوا معه على أنه إله أو ابن إله ، ولم يقل أصحاب الأناجيل الأربعة ـ وفيهم اثنان من الحواريين ـ أنه إله ولا ابن إله ، وإنما كانوا ـ كما تحدث الأناجيل ـ ينادونه : يامعلم ، ياسيد ، وأن أعظم صورة تصوروها له : أنه يوحنا المعمدان ، بُعث إليهم من جديد !

فنسيان حظهم مما ذُكروا به هو هذا التأويل الفاسد لما فى الأناجيل ، ولو أنهم استقاموا عليها لما وقع لأحدٍ من أتباعه أن المسيح إله ، أو ابن إله ! وقد عرضنا هذه القضية من قبل ، عند تفسير الآيات الأخيرة من سورة النساء .

قوله تعالى : « فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » هو بيان لثمرة هذا النسيان المتعمد ، وذلك التأويل الفاسد لكلمات المسيح وتعاليمه ، من

أتباعه من اليهود .. فقد أشاع اليهود من أتباع المسيح أنهم هم الذين وجّهوا دعوته تلك الوجهة فأخرجوها على هذه الصورة التى لبس المسيح فيها ثوب الألوهية، وقام فيها مقام الله .. ولعلنا نذكر هنا دور « بولس الرسول » وهو يهودى، ومن أتباع المسيح، وحامل لواء التبشير بالمسيحية خارج دائرة اليهود. فقد كان هو الذى أباح ما حرمته الشريعة من حِلّ لحم الخنزير، والتحلل من الختان، بل وحُرمته، دون أن يلتفت إلى أن المسيح نفسَه قد خُتن، حسب الناموس!

وثمرة هذا النسيان المتعمد هى هذا الخلاف الشديد بين أتباع المسيح .. ذلك الخلاف الذى لاتزيده الأيام إلا عمقاً واتساعاً، إذ أباح هذا التأويلُ الفاسد حرمةَ الأناجيل، وجعل لكل ذى نظر أن يتأول مايشاء، ويقول مايريد، بعد أن أُهدرت معانى الكلمات المقيدة بألفاظها، وأصبحت الألفاظ رموزاً وإشارات، وأحلاماً وأضغاث أحلام، يتأولها كل حسب رأيه واجتهاده، غير مقيد بقيد، ولا محتكم إلى لغة.

وهذه العداوة ليست عداوة ترجع إلى اجتهادٍ فى فهم النصّ، بقدر ماهى عداوة ترجع إلى تضارب الأهواء، واختلاف المنازع، ومن هنا لم تكن مجردَ عداوة بين علم وجهلٍ، بل كانت عداوة محملة بشحناتٍ ثقيلة من البغض والكراهية، لأنها عداوة بين هوًى وهوًى ومشرب ومشرب!

ثم إن هذه العداوة المحملة بأثقال البغضاء ليست عداوة موقوتة بوقت، ولا محدودة بزمن .. وإنما هى عداوة موصولة، متجددة، لاتنقطع أبدًا: « إلى يوم القيامة ».

قوله تعالى: « وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » أى سيعلمون يوم القيامة فسادَ هذا الذى صنعوه، وغيرّوا به وجه رسالة المسيح ودعوته ..

وفى لفظ « يصنعون » دلالة على أن أسلوبهم هذا الذى جَرَوا عليه مع

كلمات المسيح وتعاليمه ـ لاينقطع أبدًا ، وأن هذه الكلمات وتلك التعاليم ، ستلد كل يوم مواليد جديدة من التأويل والتخريج .. فما يكون حلالاً اليوم قد يصبح حراماً غداً ، وماهو حرام غداً يكون حلالاً بعد غد .. وهكذا ..

وصدق الله العظيم ، وصدقت كلماته وآياته ، المنزلة على النبي الكريم ، الصادق الأمين .

فلقد رأينا كيف كان للمجمع المقدس ، الذى انعقد فى « روما » فى هذه الأيام(١) أن يخرج على العالم المسيحى بهذا الرأى الذى يَجُبّه معتقداً عاشت فيه المسيحية ، واعتنقه المسيحيون قرابة ألفى عام — وهو أن اليهود قد صلبوا المسيح ، وحملوا تبعة دمه ، هم وأبناؤهم من بعدهم .. إذ قالوا حين قدموه للصلب ، كما روت الأناجيل « دمه علينا وعلى أبنائنا » فجاء المجمع المقدس يبرىء اليهود من دم المسيح ، ويقول : « إذا كان اليهود الأولون هم الذين صلبوا المسيح واحتملوا دمه . . فما ذنب أبنائهم من بعدهم ؟ » .

وهذه قضية لادخل للإسلام بها ، إذ ينكرها من أصلها . . ولكن الذى نريد أن نقوله هنا — لحساب العقل والمنطق — : ماهو الحكم الذى يحكم به المجمع المقدس على أتباعه الذين عاشوا خلال الألفى عام يتعبدون بلعن اليهود ، ويتقربون إلى المسيح بهذه اللعنات التى يسبّحون بها صباح مساء ؟ ثم على من تقع تبعة هذه الدماء الغزيرة التى أراقها أتباع المسيح فى مدى هذه الأزمان المتطاولة — من اليهود ، انتقاماً للمسيح ، وتشفياً ممن تطاولت أيديهم إلى إلههم المعبود ، حتى علقوه على خشبة الصليب وسقوه المرّ المُذاب ؟ ثم ألا يحقّ لليهود اليوم أن يطالبوا القائمين على أمر المسيحية بِدِيَات ملايين القتلى منهم ؟

(١) كان انعقاد هذا المجمع فى خريف عام ١٩٦٤ .

إن ذلك هو العدل الذى يستقيم مع منطق المجمع المقدس الذى أصدر هذا الحكم ،وأفتى بتلك الفتوى !

« وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » لا بما صنعوا ، وحسب . . فإنهم كل يوم يصنعون جديداً ، ويستولدون أحكاماً وشرائع .

(الآيتان : ١٥ ـ ١٦)

« يَاأَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ ٱلسَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » (١٦)

التفسير : « يا أهل الكتاب » هى دعوة عامة إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

« قد جاءكم رسولنا يبيّن لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » هو بيان لما يحمله الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — إلى أهل الكتاب من حق يصححون به ما أخفوا من أحكام الكتاب الذى فى أيديهم ، وما غيّروا وبدّلوا . . وأن كثيرا مما أخفوه وحرّفوه قد تجاوز القرآن الكريم عنه ، وترك الخوض معهم فيه ، حتى لا يدخل معهم فى طريق طويل من الخلاف والجدل ، وإنما كان الذى اهتم له القرآن الكريم ، ووقف عنده ، هو ما كان من الأصول العامة فى العقيدة ، وهو ما يتصل بالألوهية ، وعزلها عن كل ما دخل على مفهومها من ضلال وبهتان . . هذه هى قضية

الإسلام الأولى ، فإذا استقامت استقام كل شىء بعدها .

وقوله تعالى ، « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » هو وصف لهذا الكتاب الكريم ، وما يحمل إلى الناس من « نور » هو نور الحق ، الهدى من السماء ، لينير للناس سبلهم إلى الله ، وليبدّد الظلام الذى يحجبهم عن الرؤية الصحيحة للحق والهدى . .

ووصف الكتابُ بأنه نور ، ثم وصفه بأنه كتاب مبين ، هو غاية ما يمكن أن تكون عليه دعوة الحق فى جلالها ، ووضوحها ، وإشراق شمسها ، وأن من لا يرى الحق فى وجه هذه الدعوة ، ولا يتناوله منها ، هو أعمى أو مُتعامٍ ، ليس لدائه دواء ، « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ » (٨١ : النمل) .

وقوله سبحانه : « يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ » سبل السلام هى طرق الحق ، التى يأمن سالكها من كل عطب ، ويسلم من كل سوء . . وهى مفعول به لقوله تعالى : « يهدى » . و « من اتبع رضوانه » مفعول ثانٍ له . . والمعنى أن الله سبحانه يهدى بهذا الكتاب إلى سبل السلام من اتبع رضوان الله ، وابتغى مرضاته ، فجاء إليه مستشفياً من دائه ، مستطبًّا لعلته ، مستهدياً لبصره وبصيرته . . أما من أعرض مستكبراً ، ولوى وجهه جاحداً ، فهو وما اختار لنفسه : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » (١٧ : فصلت) .

قوله تعالى : « وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » . هو بيان لفضل الله ولطفه بعباده الذين يوجهون وجوههم إليه . . إذ كانت عناية الله إلى جوارهم ، تمسك بهم على الطريق ، وتسدد خطاهم إلى الغاية التى يجدون عندها الأمن والسلام .

وفى قوله تعالى : « قد جاءكم رسولنا » وفى إضافة الرسول إلى الله بضمير المتكلم ، تكريم للرسول الكريم ، وتمجيد له ، وتعظيم لشأنه ، ولشأن ما يحمل بين يديه من ربّه ، من هدى ونور .

الآية : (١٧)

« لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١٧)

التفسير : وإذا كان النصارى ـ من أهل الكتاب ـ لم يعرفوا الداء الذى يكمن فيهم ، وما يحمل إليهم القرآن من شفاء ـ فها هو ذا القرآن يضع يده على موضع الداء منهم . .

إن جَعْلهم اللهَ هو المسيحَ بن مريم ، هو أصل الداء . . فما كان لله أن يولد من رحم امرأة ، وأن تكون نسبته إليها . .

إن الإله الذى يتُصور على تلك الصورة ، هو إله هزيل ، لا تلده إلا عقول لا تعرف جلال الله وعظمته ، وقدرته . .

وأين المسيح الإله وقوته وقدرته ، أمام قوة الله وقدرته ؟

إن أراد الله أن يُهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . . فمن يقف لهذه الإرادة ، أو يردّ عليها ما أرادت ، أو بعض ما أرادت ؟

ألم تمُتْ أمّ المسيح ؟

وإذا كان فى المسيح شك أنه لم يمت بعدُ ، فهل من شك فى أنه سيموت ؟

لقد مات الأصل ، وهو أمه . فهل يبقى الفرع ، وهو المسيح ابنها ؟

وقوله تعالى : « يخلُق مايشاء » دفع لاعتراض قد يقيم شبهة عند من يرفعون المسيح عن مستوى البشرية إلى مرتبة الألوهية ، فإن ميلاده من غير أبٍ ـ هذا الميلاد الذى يثير فى النفس تساؤلات وتصورات ـ ليس الصورةَ الفريدة فيما خَلَقَ الله وأبدع من مخلوقات .. من ملائكة وجنّ وشياطين ، وكواكب . . فأى إنسان مهما عظُم هو ضئيل بالنسبة لأى مخلوق من تلك المخلوقات . . فإذا نظرنا إلى المسيح فى صورته ، وجدناه كائناً بشرياً ، فى خِلقته وفى سلوكه . . كان جنيناً ، ثم طفلا ، ثم صبياً ، ثم شاباً ، ثم رجلا .

وأكثر من هذا ، فإن أتباعه أماتوه صلباً ، ثم دفنوه بأيديهم فى التراب بعد أن حملوه على أيديهم جثة هامدة !

ثم لقد كان له ماللناس فى هذه الحياة .. يأكل ، ويشرب ، وينام، ويصحو ، ويبول ويغوط ، ويفرح ، ويحزن .. إلى غير ذلك مما يجرى على الناس !

فأىّ شىء يُخرج المسيح من الإنسانية إلى مقام الألوهية ؟ ألأنه ولد من غير أب ؟

إنه ليس أولَ من وُلد من غير أب ؟ إن الذى خَلَقَ الأب وخلق الأم لايعجزه أن يخلق خلقاً من غير أب ولا أم .. « يخلق مايشاء والله على كل شىء قدير » .

إن غرابة المخلوق فى ميلاده ، أو فى شكله ، ولونه ، وطوله ، وعرضه .. إن دلّت على شىء فإنما تدل على قدرة الخالق ، لا أن تكون مَزْلقاً إلى الكفر بالله ، والتعلق بالغريب العجيب مما صنعت يداه ! فإن ذلك هو الضلال والسّفه ، إذ كيف يتشابه الخالق والمخلوق ، ويختلط الصانع بالمصنوع ! ؟

الآية : (١٨)

«وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ» (١٨)

التفسير : مما يفسح لأهل الضلال فى ضلالهم ، ويمدّ لهم فى حبل الغواية ، أن يتمنوْا على الله الأمانىّ ، وأن يجدوا فى هذه الأمانى الباطلة ، تعلّة يتعللون بها ، وسرابا خادعا يجرون وراءه ..

ولقد قامت لكل من اليهود والنصارى دعوى على الله ، بأنهم أبناؤه وأحباؤه .

فاليهود يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه ..

والحق أنهم ما كانوا إلا أبناء لأهوائهم ، وإلا أحباء لشهواتهم .. أمّا الله الذين يدّعون عليه هذه الدعوى ، فهم أعداؤه وحرب عليه . .

إن اليهود قد بدلوا كلمات الله وحرفوها ، فآذوا رسله ، وقتلوا أنبياءه فكيف تستقيم مع هذا دعواهم بأنهم أبناؤه وأحباؤه؟

والنصارى قد ألبسوا الله هذا الثوب البشرىّ ، وداروا به فى الأرض دورة قاسية ، يتلقى بها اللطمات واللعنات ، ثم ينتهى به الأمر معلقا على خشبة بين لصّين !

وقد ردّ الله عليهم هذا الادعاء الكاذب ، وسلكهم جميعا ــ اليهود والنصارى ــ مسلكا واحدا ، إذ كان طريقهم على الضلال واحدا .. فقال

تعالى : « فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ » أى إن كنتم أبناء الله حقاً وأحباءه صدقاً ، فلم تغرقون فى الإثم ، وتموجون فى الخطيئة ، وتُلقَوْن فى النار ؟

إن أبناء الله وأحباءه ، لايخرجون عن طاعته ، ولا يمكرون بآياته !

وفى قوله تعالى : « يعذبكم بذنوبكم » مايقطع بأنهم معذبون ، ، وأن هذا العذاب إنما استحقوه بما كسبت أيديهم ، شأنهم فى هذا شأن كل من يكذب بالله ويخرج عن طاعته ! وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « بل أنتم بشر ممن خلق » فلا محاباة لأحدٍ عند الله ، ولا كرامة لإنسان عنده، إلا بالعمل الصالح .

وفى قوله تعالى : « يغفر لمن يشاء ويعذبُ من يشاء » إشارة إلى أن لله عبادًا أرادهم للجنة فعملوا لها ، واستحقوا مغفرته ورضوانه ، وعباداً أرادهم للنار فعملوا لها ، فوقعوا تحت نقمته وعذابه . .

يُروى عن عمر بن الخطاب وقد سئل عن قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عنها فقال : « إن الله عز وجل لمّا خلق آدم ، مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته ، فقال : خَلقتُ هؤلاء للجنة وبِعَمَل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح على ظهره واستخرج منه ذريته فقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » .

الآية : (١٩)

« يٰأَهْلَ ٱلْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ ٱلرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَاجَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (١٩)

التفسير: ومرةً أخرى يدعو الله سبحانه أهلَ الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ أن ينظروا في أنفسهم، وأن يتدبروا أمرهم في موقفهم من هذا الرسول الكريم، الذي جاءهم على فترة من الرسل ـ أي بعد زمن انقطعت فيه رسالة الرسل ـ وأن يلتقوا به، ويتعاملوا معه، ويصححوا معتقدهم في الله على ماجاء به، فتلك هي فرصتهم، إن اهتبلوها غنموا ونجوْا، وإن ضيعوها ضاعوا وهلكوا، ثم لم يكن لهم على الله حجة بعد هذا البلاغ المبين!

وفي قوله تعالى: «أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير» هو قطع لكل علّة يعتلّون بها، في ركوبهم الباطل، وخوضهم في الضّلال.. فليس لقائل منهم أن يقول: «ماجاءنا من بشير ولا نذير» أي رسول من عند الله، يكشف لنا معالم الطريق، ويرفع منارات الهدى.

وقوله سبحانه: «فقد جاءكم بشير ونذير» هو حجة الله عليهم، بما حمل إليهم هذا البشير النذير من حق وهدى.

وفي مواجهة أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى ـ بهذا الخطاب، من الله، دليل على عموم رسالة «محمد» صلوات الله وسلامه عليه، وأنه رسول إليهم كما هو رسول إلى الناس كافّة: «فقد جاءكم بشير ونذير» هو «محمد» عليه الصلاة والسلام، وهذا مايشير إليه أيضاً قوله تعالى: «ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فَلَن يُقْبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» (٨٥: آل عمران).

وفي قوله تعالى. «والله على كل شيء قدير» وعيد لأهل الكتاب إذاهم لم يستجيبوا لهذا النبيّ، ولم يصححوا معتقدهم على ماجاء به من عند الله، وأنهم إذا لم يفعلوا فلن يُفلتوا من عذاب الله، وأنهم لن يُعجزوا الله في الأرض، ولن يُعجزوه هَرَباً.

الآيات : (٢٠ ـ ٢٦)

« وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » (٢٦)

التفسير : هذا موقف من مواقف بنى إسرائيل العنادية مع أنبياء الله ، وحملة النور والخير إليهم ، وإن فى ذلك لعزاء وسلوى ، للنبىّ الكريم لِمَا استقبل به اليهودُ دعوتَه ، من كيد وتضليل .. إذ ليس هذا شأن اليهود مع النبىّ وحده ، بل هو شأنهم مع كل نبى من أنبيائهم ..

فهذا موسى عليه السلام ، الذى بعثه الله إليهم ، لينقذهم من الذلة والهوان ، وليطلق سراحهم من يد الأسر المضروب عليهم من فرعون ـ موسى عليه السلام ،

الذى أطلق بين أيديهم معجزات آمن بها كهنة مصر وسحرتها ، وفَلَق بهم البحر ، ونجاهم من فرعون ، وفجّر لهم من الصخر عيونا .. موسى وهذه بعض آياته ومعجزاته ، قد أعنتوه والتووْا عليه ، وخرجوا من يده فى أكثر من موقف ..

فها هو ذا يدعوهم إلى خير ساقه الله إليهم ، ويوجههم إلى دار أمن وقرار وعدهم الله بها ، وهو ـ عليه السلام ـ يقدم بين يدى دعوته استعراضاً لنعم الله عليهم ، ورحمته بهم .. « يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياءَ وَجعلكم ملوكاً وآتاكم مالمْ يؤتِ أحداً من العالمين » .. فقد جعل الله فيهم أنبياء وملوكاً ، وملوكاً أنبياء ، يجمعون بين سلطان الدنيا والدين ، كما كان ذلك لداود وسليمان عليهما السلام ، الأمر الذى لم يكن لأنبياء من قبل ، ولا لملوك فى الأرض .. فما هو إلا سلطان واحد .. نبوّة أو مُلك .. ولكن جمع الله لأنبياء بنى إسرائيل النبوة والملك معاً . .

وقوله تعالى : « وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين » أى من هذه النعم التى تحملها السماء إليهم فى صورة معجزات : كالمنّ والسلوى ، وكالجمع لأنبيائهم وملوكهم بين النبوة والملك ـ وهذا من شأنه يقوّى صلتهم بالله ، ويوثق إيمانهم به .. ولكن كانت هذه النعم أسلحة يحاربون بها الله ، ومعاول يهدمون بها معالم الحق ، ومنارات الهدى ! والله سبحانه وتعالى يقول : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » (٥١ فصلت) .

وقوله تعالى : «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم » هو دعوة موسى لهم ، إلى نعمة جديدة ، بعد تذكيرهم بما لله فيهم من نعم سابقة سابغة .. فهو

لم يدعُهم إلاّ إلى ما فيه خير عاجل لهم ، وهو أن يخرجوا من الصحراء ، وأن ينتقلوا من حياة الرعى والخيام ، إلى حياة المدينة ، والاستقرار ! ثم هو ـ عليه السلام ـ لم يدْعُهم إلا إلى أرض مقدسة ، تحفّها رحمات الله، وتبارك أرضها.. ثم هو ـ عليه السلام ـ لم يدعهم إلا ليمدّوا أيديهم إلى ما وعدهم الله به ، وكتبه لهم .. إنها ثمرة طيبة دانية القطوف ، لا يحتاج من يريد أن يطعم منها إلى أكثر من أن يمدّ يده إليها !

ومع هذا فقد أبى القوم أن يتقبلوا دعوة موسى ، وأن يصدّقوا وعد الله لهم ، بل غلب عليهم سوء طبعهم ، فخيّل إليهم أن فى الأمر شيئاً ، وأن وراء هذه الدعوة ما وراءها !

وموسى عليه السلام ، خبير بالقوم ، عليم بما ينطوى عليه كيانهم من خبث وفساد .. ولهذا لم يرسل الدعوة إليهم بدخول الأرض المقدسة مطلقةً ، بل أتبعها بهذا التحذير الذى كان لابد منه فى مواجهة قوم كهؤلاء القوم .. « ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين » إذ لا ينتظر من هذه الجماعةَ إلا أن تصطدم مع هذه الدعوة ، كما تصطدم الكُرة بجدار فترتدّ إلى وراء !

وفى التعبير بارتداد القوم على أدبارهم ، إشارة إلى أنهم إنما يرتدون إلى الوراء وعيونهم معلقة بالمتجه الذى تتجه إليه الدعوة ، وكأن هذا المتجه حيوان مفترس يتحفز للوثوب عليهم.. فهم يسيرون إلى الوراء ،على أقفيتهم ، وأبصارهم شاخصة إلى هذا الأمر المخيف الذى دعاهم إليه !

فهم ـ والحال كذلك ـ بين خطر يقع عليهم من تصوراتهم لهذا الأمر الذى يُدعون إليه ، وخطر يترصدهم ، وهم يتدافعون إلى الوراء نحو مجهول لا يرْون لهم منه مهرباً ..

وانظر كيف كانت سفاهة القوم مع موسى عليه السلام .. يدعوهم إلى خير ، فيكذّبونه ويمكرون به، ويتخابثون عليه .. ويناديهم متلطفاً مترفقاً، « ياقوم » « ياقوم » ويردّون عليه فى غلظة ، وجفاء ، واستعلاء : « ياموسى » .. « ياموسى » !! وقاحة ، وجبن ، ونذالة ..

« قالوا ياموسى : إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » .. هكذا كان ردهم على تلك الدعوة الكريمة المترفقة ، المحمّلة بالخير والأمن ..

إنهم ـ وذلك دأبهم أبداً ـ يأخذون دون أن يُعطوا، ويجنون مالم يزرعوا.. يأكلون ثمرة الزارعين ، ويسرقون جهد العاملين . فلا يريدون أن يدخلوا الأرض المقدسة إلا أن يُخليَها لهم أصحابها ، ويهتفوا بهم : أن أقبلوا .. ولو وقع هذا لوقع فى أنفسهم أن يطلبوا إلى موسى أن يهيىء لهم مراكبَ سماوية تقلّهم إلى حيث هم ذاهبون !! إنها طبائع أطفال ، وتعِلّات صبيان ، وأمانىّ جبناء .

ومع هذا الردّ الوقح ، فإن موسى لم يعتزلهم ، ولم ينهِ الموقف معهم على هذا اليأس القاطع منهم .. وفى هذا يقول الله تعالى :

« قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهمُ البابَ فإذا دخلتموه فإنكمُ غالبون . وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

وقد اختلف المفسرون فى هذين الرجلين ، وأكثروا من مذاهب القول فيهما ، وذهب بعضهم إلى الإدلاء باسميهما .. إلاّ أن الأمر الذى أجمع عليه المفسرون هو أن هذين الرجلين لم يكونا موسى وهرون !

والذى نقول به ونطمئن إليه ، هو أن هذين الرجلين ، هما موسى وهرون !! وشاهدنا على هذا ، ماتُوحى به الآيات الكريمة ، بل وتكاد تصرح به !

فأولاً : الردّ الذى ردّ به القوم على هذه الدعوة ، وهو ما جاء فى قوله تعالى : « قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » . . فلو أن هذين اللذين دَعَوَاهما بقولهما : « ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » ـ لو أنهما كانا غير موسى وهرون لما كان ردهم موجهاً إلى موسى . . بل كان يكفى أن يقولوا : « ان ندخلها أبداً ماداموا فيها » . .

وأمّا أنهم واجهوا موسى بهذا الردّ ، ولم يوجهوه إلى موسى وهرون معاً ، فلأن موسى كان هو رجلَ الموقف ، وهرون كان ظهيراً له . .

وثانيا : ما جاء فى قوله تعالى على لسان موسى : « قال ربّ إنى لا أملك إلاّ نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين » . . وهذا القول من موسى قاطع بأنه لم يكن فى القوم من استجاب له غير أخيه هرون . . وإذن فهو وهرون جبهة ، والقوم جميعهم جبهة أخرى . . ولو أنه كان هناك فى جبهة موسى وهرون غيرهما لما قال هذا القول : « لا أملك إلا نفسى وأخى » إذ هو يملك ـ غير نفسه وغير أخيه ـ هذين الرجلين اللذين قيل عنهما إنهما قالا هذا القول .

وثالثاً : فى قوله تعالى : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » ـ أكثر من إشارة :

فالذين يخافون هم القوم كلهم ، وبلا استثناء أحد . . والمعنى على هذا هو كهذا : قال رجلان من القوم الخائفين ، وهذان الرجلان قد أنعم الله عليهما فعافاهما من هذا الخوف : الذى لبس القوم واستولى عليهم . . وفى هذا تعبير للقوم ، واحتقار لهم ، وإزراء عليهم ، ووصمهم جميعا بهذا الداء الذى لا يزايلهم أبداً . . داء الجبن والخوف من كل شىء .

ثم إن فى قوله تعالى : « فإذا دخلتموه فإنكم غالبون » هو وعد مؤكد

بدخول القوم هذه الأرض المقدسة لو أنهم جرءوا واتجهوا إلى العدو ودخلوا عليه الباب .. وهذا الوعد لا يكون إلا عن عِلم سماوى .. الأمر الذى لم يكن لأحد من القوم أن يقول به ، غير موسى وهرون ، اللذين هما على صلة بالوحى الإلهى .

هذا ، وقد انتهى الأمر بين موسى وتلك الجماعة الشاردة ، إلى اليأس ، فكان أن اعتذر موسى إلى ربه بقوله : « رب إنى لا أملك إلاّ نفسى وأخى فافرق (أى احكم) بيننا وبين القوم الفاسقين » أي الذين فسقوا وخرجوا عن طاعة الله ، وامتثال أمره إليهم .. وقد قبل الله من موسى ما اعتذر به إليه ، واستجاب له ما دعاه به ، فحكم بينه وبين هؤلاء القوم الفاسقين .. فكان هذا حكم الله فيهم : « فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » .. إذ ضُرب عليهم التيه والضلال فى الصحراء أربعين سنة ، يضطربون فى هذا القبر المطبق عليهم ، لا يعرفون لهم وجهاً للخلاص منه .

ولعل الحكمة فى توقيت التيه بأربعين سنة ، هى أن يموت أبناء هذا الجيل الذى كان منه هذا العناد والضلال ، فلا يرى أحد منهم الأرض المقدسة ، ومن رآها منهم ممن امتد عمره ، فإنه يراها فى شيخوخة واهية ، فلا ينتفع بخيراتها ، ولا ينشىء له حياةً فيها . . إن هؤلاء الشيوخ الذين يدخلون الأرض المقدسة بعد هذا التيه هم أشبه بالأطفال وبمن لم يبلغوا الحلم من أبنائهم الذين شهدوا موقف آبائهم من موسى ودعوته إليهم . .

وهكذا يستدير الزمن بهذه الجماعة بعد تلك السنين الأربعين ، فإذا أطفالها رجال ، وإذا رجالها أطفال . . . !

الآيات : (٢٧ - ٢٩)

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ

أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلظَّالِمِينَ » (٢٩)

التفسير: مناسبة هذه الآيات لما قبلها ، هى أن الصورة التى عرضتها الآيات السابقة لبنى إسرائيل كانت صورة مُعتمة للإنسان ، فاضحة لمساوئه ومخازيه ، حين تَفسُد فطرته ، وتضيع معالم إنسانيته ، فيدفع بكلتا يديه الخيرَ المسوق إليه ، وينفخ بفمه فى شعلة النور المنصوبة لهدايته .. مُؤْثراً أن يظل هكذا فى الظلام والضلال .

ولأنّ الإنسانية ليست كلها على هذه الصورة الكئيبة المعتمة ، التى تتمثل فى بنى إسرائيل ، إذ أن فى الإنسانية خيراً كثيراً ، وفى الناس أخيار كما فى الناس أشرار وفجار ـ فكان من تمام العرض للإنسانية أن يُعرض جانبها الطيب كما عُرض جانبها الخبيث .

وقوله تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق » هو عرض للإنسانية كلها ، من جانبيها : الطيب والخبيث ، وعلى وجهيها : المشرق والمظلم . وفى مَثَلَيْها : الملائكى والشيطانى .

وذلك ، لكى تهتز هذه الصورة التى تتمثلها الخواطر للإنسانية المريضة ، وهى تنظر إلى الإنسان من خلال آيات الكتاب الكريم ، وما عَرَضت من ضلال هذه الجماعة وسفهها ـ ثم لتقوم مقام تلك الصورة صورة أخرى للإنسان حين يعلو بإنسانيته ، ويرتفع بوجوده عن تراب هذه الأرض ، وما اختلط به من ضباب ودخان ، حيث يَرَى وجه الحق سافراً مشرقاً ، فيأنس به ، ويحيا معه .

وقد اتفق المفسرون قولاً واحداً في ابني آدم هذين، على أنهما هما قابيل وهابيل، وأن آدم كان قد أمر ولديه هذين أن يتزوج كل منهما توأم أخيه ، وألا يتزوج الأخت التي وُلدت معه . . ثم يقولون : إن توأم قابيل كانت أجمل من توأم هابيل ، فأباها على أخيه ، وأصر على أن يمسكها لنفسه ، على حين أبى هابيل أن يعصَى أمر أبيه ، الذى هو وحيٌ سماوى .. ثم اتفقا على أن يحتكما إلى الله ، وذلك بأن يقدم كل منهما قرباناً إلى الله ، فمن قَبِل الله قربانه كان على الآخر أن ينزل على مشيئته !

وقدّم كل منهما قربانه .. فتقبل الله من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل .

ولكن قابيل لم يرض بحكم السماء ، وأصر على موقفه العنادىّ من أخيه ، ومن أمر أبيه ، ووَصاة ربه ..

وإنه لكى يخلو لقابيل الطريق ، ويبلغ مايريد ، هداه شيطان الهوى إلى أن يَقتُل أخاه ، وبذلك يقطع تلك اليـــد التى تنازعه المرأة التى يريدها .. ثم لا يكون ـ بهذا ـ قد خالف أمر ربّه أو وصاة أبيه .. فهكذا خُيّل إليه أنه بهذا يضع حكم الله وشرعه أمام أمرٍ واقع .وهكذا المفتونون وأصحاب الأهواء.. يتأولون فى شرع الله ، فيبدلون ويغيّرون ، حسب مايمليه عليهم الهوى، وتدعوهم إليه الشهوة ! .. هذا ماقاله المفسرون فى هذه الآيات ، معتمدين فى أكثر ماقالوا على مايحدّث به اليهود من أخبار الماضين .

ونحن نرى ـ والله أعلم ـ أن حصر مضمون هذا الخبر القرآنى ، فى هذا المحتوى الضيق المحدود ، يذهب بكثير من مُعطياته ، ويطلع بأضوائه من أفق محدود ، لاتطلع شمسه إلا على صاحبى هذه القصة ، فإن تجاوزهما إلى غيرهما ، فلا أكثر من امتداد ظلهما ، فى طوله أو قِصره !

والذى يُعطى هذه القصة ، بعضَ مالها من امتداد ، وبعض مافيها من حكمة ،

هو أن يكون الأخَوَان إنسانين من الناس . أى من بنى آدم .. وأن أحدهما مؤمن بالله ، مستقيم على طاعة أوامره واجتناب نواهيه ، وأن الآخر ، لا يرعى لله حرمة ، ولا يحفظ له عهدًا ..

وهذا واقع لا تنكره الحياة .. ففى كل مجتمع أخيار وأشرار ، وفى الإخوة : المؤمن والكافر ، والمطيع والعاصى . .

وبنو إسرائيل ، وإن كانوا من أبناء آدم ، فإن انحرافهم عن الحق ، وركوبهم طرق الضلال ، لا يعنى أنهم كلّ الإنسانية ، ولا أنهم فى مركز القيادة فى سفينة الحياة . . فما هم إلا وجه من وجوه الإنسانية ، وفى الإنسانية وجوه مشرقة ، تفيض خيراً وبراً ورحمة ، إذا هبّت من تلقاء بنى إسرائيل سمائم الشر ، وأعاصير الفتن .

والحسد هو العلّة المتمكنة القاتلة فى بنى إسرائيل . . لا يرون أحداً تلبسه نعمة من نعم الله ، حتى يطير صوابهم ، وتطيش أحلامهم ، فيضربون رءوسهم حتى تدمَى ، أسفاً وحزناً ، أن ينال أحدٌ غيرُهم خيراً . .

وما جرى بين ابنىْ آدم من هـذا الصراع الدامى ما هو إلا شرارة من شرارات الحسد ، اندلعت فى صدر أحد الأخوين ، ثم لم تلبث أن شبّ ضرامها . . فـكانت فتنة ، وكان دم ، وكانت خطيئة ، وكان هلاك ! .

ففى قوله تعالى : « إذ قربا قرباناً فتُقُبِّلَ من أحدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر » مشهد من مشاهد هذه القصة .

فهذان أخوان يقدّم كلٌّ منهما قُرْباناً إلى الله ، يريدان بهذا القربان أن ينالا رضى الله ، ومغفرته ، ورحمته . .

والقربان ما يتقرب به إلى الله من ذبائح ونحوها .

وكان أن تقبّل الله من أحدهما ولم يتقبل من الآخر . لِماَ يعلم ـ سبحانه ـ من أمر كل منهما ، وما هو أهلٌ له عنده . .

وهنا تتحرك الغيْرة ، وتتحول إلى حسد ، ويستغلظ الحسد فيكون عدوانا وانتقاماً . . وإذا الأخ يتوعد أخاه ، ثم تمتد إليه يد الإثم فتقتله ، ولا تعطفه عليه عاطفة الأخوة ، ولا لحمة الإنسانية ، ولا وداعة الأخ وبره بأخيه ، وحرصه على سلامته . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « قال لأقتلنّك قال إنما يتقبل الله من المتّقين » . . فهذا يتهدّد أخاه بالقتل ، وذلك يدعوه إلى الهُدى ، ويكشف له معالم الطريق إلى الله ، ليكون فى المقبولين عند الله مثله : « إنما يتقبل الله من المتقين » فاتق الله ، واستقم على طريقه ، يكن لك من الله ما كان لى ، فليس عند الله محاباة ، وإنما أكرَم الناس على الله ، أتقاهم لله . .

ولكن الحسد يغطى على عقل هذا الأخ ، ويَطمِس على بصيرته ، فلا يرى إلا النقمة من أخيه ، شفاء لدائه وسكناً لأوجاعه . . والأخ يلقاه ملاطفاً موادعاً : « لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسطٍ يدىَ إليك لأقتلك إنى أخاف الله ربّ العالمين » . . فهو ملازم للتقوى متمسك بها ، بعد أن عرف ثمرتها فى هذا المشهد الذى شهده بين يدى ربّه . . إنه على خوف من ربّه أن ينحرف عن طريق التقوى . أما هذا الأخ الحسود ، فلم يزده اللّين والنصح إلا عناداً وإلا جفاء . وإذ لم تصل الكلمات اللّينة الوادعة إلى قلب هذا الأخ الحسود ، فقد جاءه بقرعة يقرعه بها ، وينبهه إلى هذا الخطر الذى هو مقدم عليه ، والذى إن أصرّ على موقفه منه ، كان فى ذلك هلاكه وسوء مصيره . . فيقول له :

« إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين » ولو كان فى هذا الأخ الحسود بقية من عقل لفوّت على أخيه ما يريده له

من سوء العاقبة ، وخُسران المنقلب : « إنىّ أريد أن تبوء بإثمى وإثمك »
إذن فهذا القتل الذى يتهدد به أخاه ، هو مما يريده هذا الأخ ، لأنه يريد السلامة لنفسه أولاً ، ثم الهلاك لهذا الذى يريد أن يهلكه . ثانياً . . وليس الهلاك فى أن يُقتَل ، بل الهلاك فى أن يكون قاتلاً ! .

ومع هذا فإن الحسدّ قد غطّى على كل شىء منه ، فلم يرَ فى كلمات أخيه ، وفى تحديه له ، شيئاً يعدل به عن طريقه الذى ركبه من أول الأمر .. وكان أن قتل أخاه ، وأسال على الأرض دمه ! .

ومعنى يبوء بإثمه أى يرجع به ، حاملا له على كاهله ، والإثم : الذنب الغليظ ، المنكر . .

وفى قوله تعالى : « إنى أريدُ أن تبوء بإثمى وإثمك » ما يسأل عنه :

إن القتل هو إثم يقع على القاتل . . فكيف يبوء القاتل هنا بإثمين : إثمه ، وإثم قاتله ؟

والجواب ـ والله أعلم ـ أن هذه معركة بين طرفين . . فقد همّ أحدهما أن يقتل الآخر . . وكان من شأن هذا الآخر أن ينتقم لنفسه ، وأن يدفع القتل عنه ، إلى هذا الذى يريد قتله . .

وإذن فهنا قتيلان . . حكما ، وإن كان القتيل واحداً . . فعلاً . . فقد كان من المتوقع فى هذه المواجهة بين خصمين ، أن يقتل كل منهما الآخر ، ولكن الذى حدث هو أن أحدهما قد أخلَى نفسه من أول الأمر من أن يلوث يده بدم إنسان ، فضلا عن أن هذا الإنسان هو أخوه . . فلم يكن إلا يدٌ واحدة آثمة ، هى تلك التى امتدت إلى اقتراف هذا الذنب العظيم ، فكان عليها أن تحمل وزرها ، ووزر اليد الأخرى التى كان من المتوقع أن تشاركها الإثم الذى أقدمت هى عليه . .

يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار » قيل هذا القاتل .. فما شأن المقتول ؟ قال : « كان حريصاً على قتل صاحبه . . »

وهذا يعنى أن جريمة القتل التى تقع نتيجة للصراع بين اثنين ، هى جريمة مشتركة بينهما ، وإثمها واقع عليهما معاً .. يقتسمانه على السواء . . أما أن أحدهما كان البادىء المعتدِى ، والآخر المدافع الذى يدافع عن نفسه ، فذلك له حكم آخر غير جريمة القتل التى وقعت . . إذ لا شك أن البادىء بالعدوان ، عليه تبعة هذا الموقف العدوانىّ الظالم ، وعليه عقاب المعتدين الظالمين . . أما جريمة القتل فهى أشنع وأفدح من أن يحتملها إنسان ، ومن هنا كانت آثارها السيئة تفيض عن القاتل ، حتى لتمسّ البرىء المقتول .

الآيات : (٣٠ ـ ٣١)

« فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّادِمِينَ » (٣١)

التفسير : انتهى الموقف بين الأخوين إلى تلك النهاية السيئة ، فسمحت نفس الأخ ، واتسعت لقبول هذا المنكر الغليظ ، فقتل أخاه ، وأخذ أنفاسه ، ظلماً وعدواناً .. فكتب بيده وثيقة خسرانه ، وسطّر بهذا الدم البرىء المسفوك ، الحكم ـ بإدانته ، وسوء مصيره !

وقوله تعالى : « فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ

يُوَارِى سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْأَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ » .

يقول المفسرون لهذه الآية : إن الله بعث بين يدى قابيل غرابين ، اشتبكا فى صراع ، فقتل أحدهما الآخر ، ثم حفر له حفرة فواراه فيها ، فعجب قابيل لهذا ، ورجع على نفسه باللائمة أن عجز عن أن يفعل ما فعل الغراب إذ وارى جثة قتيله .. ومن هذا العمل الذى عمله الغراب أخذ قابيل بما دلّه عليه الغراب ، فحفر لهابيل حفرة ، وأودعه فيها !

وممكن أن يقع الأمر على هذه الصورة ، إذا جعلنا فى الحساب ما يقول به المفسرون من أن هذا كان أولَ قتيل من بنى آدم ، وأنه لم يكن مما علمه أبناء آدم كيف يفعلون بموتاهم أو قتلاهم . .

ولـكن لنا على هذا اعتراضات :

أولها : أننا لا نسلِّم بأن هذه الحادثة كانت أول حدث يقع بين ولدين لآدم . . إذ أن لنا فى آدم مفهوماً غير هذا المفهوم الذى يرى أن آدم كان سماوىّ المولد ، وأنه خُلِق ابتداء على صورة الإنسان هذه . . ولو سلّمنا بهذا فإنّا لا نسلم بأن هذا النزاع كان أولَ نزاع وقع فى الأرض ، وأنه كان بين ابنى آدم ، الأب الأول للإنسانية كلها . .

وثانيها : أننا إذا سلمنا بأن هذا القتيل كان أول قتيل فى الأرض ــ فكيف تكون عملية القتل وإزهاق الروح معلومة لابن آدم هذا ؟ وكيف يتوعد أخاه ويتهدده بقوله : « لأقتلنّك » ؟ كيف يقول هذا وهو لا يعرف القتل ، بل ولا يعرف الموت بعد ؟ ولو عرفه لعرف ــ تبعاً لهذا ــ الأسلوب الذى يُتخذ مع الموتَى أو القتلى ، بعد موتهم أو قتلهم ! !

وثالثها : أن الآية صريحة فى أن المبعوث هو غراب لا غرابان . . ولو كانا غرابين لذكرتهما الآية . .

ورابعها : أنه لو وقع بين الغرابين هذا الصراع الذى انتهى بقتل أحدهما لكان فى ذلك عزاءً لابن آدم القاتل ، إذ يرى فى هذا تبريراً لفعلته ، وإجازةً لجريمته . فضلاً عن أن الغِربان لا تواري موتاها أو قتلاها .

وخامسا : لو أن هذا الذى فعله ابن آدم كان أولَ فَعلَة وقعتِ من نوعها فى عالم البشر لَمَا كان عليه كبيرُ إثم منها . . لأنه فعل فعلاً لا يدرى ما هو ، وما عاقبته ، ولما كان مستحقا أن يوصف بما وصفه الله به ، وهو قوله تعالى : « فأصبح من الخاسرين » .

ولكن ما مفهوم هذه الآيات ؟ وما شأن الغراب هنا ؟ ولم هذا الندم الذى استشعره القاتل مما فعله الغراب ؟

أما مفهوم هذه الآيات — والله أعلم — فإنها ترفع لبنىَ إسرائيل مشهداً من مشاهد الآثام التى يأتونها من غير تحرج أو تأثم ، وأن مردّ هذه الآثام يرجع فى أكثره إلى الحسد ، الذي يملأ صدورهم نقمة على الناس ، ويبسط ألسنتهم وأيديهم بالسوء والأذى إلى كل من تلبسه نعمة من نعم الله . . وأنهم فى الإنسانية إنما يمثلون هذا الإنسان الظالم الآثم من ابنى آدم ، الذى حمله الحسد لأخيه على أن يُلقى بنفسه إلى التهلكة ، وأن يخسر الدنيا والآخرة جميعاً !

هذا هو المضمون الظاهر لهذه الآيات . .

أما الغراب ، فقد يكون غراباً حقيقياً ، أو كائنا سماوياً تمثل فى هذه الصورة . وعلى أىّ فهو مُلْهَم من الله تعالى بأن يفعل مافعل بين يدي ابن آدم هذا . .

لأن الله سبحانه وتعالى يقول : « فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض » فهو مبعوث من عند الله لهذا الأمر .

أما الندم الذى كان من هذا القاتل ، فهو مما أثاره مافعل الغراب . . هذا الحيوان الأعجم ، الذى أقبل على جثة القتيل ، يُلقى عليها التراب ، بما يحفر بقدميه حولها ، حتى لكأنه يريد أن يواريها عن الأنظار ، ويحميها من أن تنهشها السباع والطيور .

وهنا يتنبه هذا القاتل إلى وجوده ، وإلى شناعة الإثم الذى ارتكبه ، وأن هذا القتيل مظلوم ، حتى استدعى ظُلْمُه الحيوان الأعجم ، ليكون إلى جانبه ، حين تخلّى عنه أخوه ، وأبى عليه إلا أن يكون طعاماً للسباع والطير . . وهنا أيضاً يستشعر القاتل الندم ، ويقع ليقينه أنه قتل هذا القتيل عدواناً وظلماً . ولهذا وجد عاطفة الأخوّة تستيقظ فى نفسه ، تلك العاطفة التى كانت قد أماتها الحسد ، وذهب بكل أثر لها . . وذلك مايشير إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان هذا القاتل : « يا ويلتَىْ أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارىَ سوأة أخى » . . أخى . . هكذا يقولها بملء فيه ، ومن قلب يفيض حسرة وندماً !

« فأصبح من النادمين » أى أنه لم يكن يجد شيئاً من الندم ، قبل أن يرى مافعل الغراب ، ثم أصبح بعد ذلك من النادمين ، إذ رأى نفسه أضال من هذا الحيوان شأناً ، وأعمى بصيرة ، وأضلّ سبيلاً . . وهكذا الإنسان ، إذا غلبه الهوى ، وركبه الضلال ، كان أحط مرتبةٍ فى عالم الحيوان ، والله سبحانه وتعالى يقول : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم ردَدْناه أسفلَ سافلين * إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . » (٤ — ٦ التين) .

الآية : (٣٢)

« مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ » (٣٢)

التفسير : قوله تعالى : « من أجل ذلك » الإشارة هنا إلى محتوى هذه الحادثة كلّه ، وما تضمنته من تسلط الحسد على بعض النفوس ، ذلك الدّاء الذى يقطع أواصر المودة والأخوّة بين الناس ، ويُلاقى بينهم العداوة والبغضاء ، حتى يُهلك بعضهم بعضا ، ويذيق بعضُهم بأس بعض . . ثم هذه الجريمة الشنعاء ، التى ذهبت بحياة إنسان برىء ، لم يبسط لسانه أو يده بعدوان على أحد . . ثم إن القتل عدوان بيّن على الله سبحانه ، الذى بيده وحده الحياة والموت . . فإذا لم يكن الإنسان يملك من أمر الحياة شيئا ، فليس له أن يملك من أمر الموت شيئاً . .

ومن هنا كانت غَيْرة الله سبحانه وتعالى على تلك الحرمة المقدسة . . حرمة الحياة الإنسانية ، وقداسة الإنسان وكرامته على الله . .

وقوله تعالى : « من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيلَ أنه من قتل نفساً بغير نفسٍ أو فسادٍ فى الأرض فكأنما قتَلَ الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

أى بسبب حرمة الحياة الإنسانية وقداستها وكرامتها ، فرض الله على بنى إسرائيل هذا الفرض ، وأوجب عليهم هذا الحكم ، وهو أنه من قتل نفساً ،

عدوانًا وظلمًا ، أى من غير قصاص فى قتل ، أو سعى بفساد فى الأرض — فكأنما قتل الناس جميعًا ، « ومن أحياها » أى أحيا نفسًا إنسانية ، بأن كفّ يده عن العدوان عليها ، أو دفع عنها يداً معتدية عليها — فكأنه أحيا الناس جميعًا . . ذلك أن الإنسان يمثّل الإنسانية كلها . . إذ كان خَلْقُها جميعًا من نفسٍ واحدة ، كما يقول الله تعالى : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفسٍ واحدة » (١ : النساء) . . وفى كل إنسان هذه النفخة المقدسة التى كانت منها الإنسانية كلها ، فمن قتل إنسانًا ، فقد أخمد تلك الشعلة المقدسة التى هى أصل الحياة ، ومن أحياها ، أى تركها حيّة فلم يعرِض لها بسوء ، فكأنما أحيا الإنسانية كلها ، وترك شعلتها المقدسة متّقدة . .

وفى هذا الحكم الذى أوجبه الله سبحانه وتعالى على بنى إسرائيل ، تغليظ لجريمة القتل ، وتشنيع عليها ، وتهويل لها ، ووضع القاتل أو من تحدّثه نفسه بالقتل أمام تلك الجريمة المفزعة ، التى يرى فيها الإنسانيةَ كلها وهى جثث هامدة ، وأشلاء ممزقة بين يديه . . حتى أهله وأقرب الأقربين إليه من آباء وأبناء . . إنهم جميعًا من قتلاه . . بل إنه هو نفسه فيمن قَتَل بيده . . إذ كيف يحيا وحده فى هذا العالم الموحش ، وقد خلا من وجه الإنسان ؟

وفى هذا الموقف يطلّ علينا من بعيد هذا الشبح المخيف لابن آدم الذى قتل أخاه ، فاستولت عليه الوحشة القاتلة بعده ، وأصبح غريبًا فى هذا العالم ، لا يجد لحياته وجوداً على هذه الأرض ، حتى ليَذْهل عن كل شىء وتضيع من نفسه معالم المعرفة ، التى لا تتحرك ولا تعمل إلا فى مواجهة الإنسان للإنسان . . ولهذا كان الغراب أقدرَ على الحياة منه ، وأصلح للعمل فيها ، لأنه يعيش بين جنسه ، مع فطرته ، التى تستجيب لحياة الجماعة وتعمل معها .

والسؤال هنا : لم كان هذا الحكم واقعًا على بنى إسرائيل وحدهم ؟

والجواب — والله أعلم — هو أن شريعتهم أقدم الشرائع السماوية ، العاملة فى الحياة ، والتى أدركها الإسلام ، والتحم بها ، وبأتباعها . . ولا يمنع من هذا أن يكون هذا الحكم قد كان مفروضاً فى الشرائع السماوية السابقة على شريعة التوراة . .

ثم إنه من جهة أخرى — تأديب خاص لبنى إسرائيل ، وابتلاء لهم بهذا الحكم الذى يحمّل القاتل منهم دمَ الإنسانية كلها ، إذ كانوا أكثر الناس استخفافاً بدم الناس ، حتى دم الأنبياء والقديسين . . وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى فيهم : « وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولا تُخرجُون أنفسَكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تَشْهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسَكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تَظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » (٨٥ : البقرة) .

وفى قوله تعالى : « ولقد جاءتهم رُسُلنا بالبينات ثمّ إن كثيرا منهم بعدَ ذلك فى الأرض لمسرفون » . . إشارة إلى مافى بنى إسرائيل من بغى وعدوان ، وأنهم ـ وقد بعث الله إليهم رسله ، بالبينات والهدى ـ لم يستقيموا على طريق الحق ، ولم ينزعوا ما فى نفوسهم من حسد وبغى .

الآيتان : (٣٣ ـ ٣٤)

« إِنَّمَا جَزَآءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (٣٤)

التفسير : فى الآية السابقة جاء قوله تعالى « مَن قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً » وفى هذه الآية جاء قوله سبحانه : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا . . . » بياناً شارحاً لجزاء المفسدين الذين أباح الله دماءهم ، ورفع عن قاتلهم تبعة الإثم الواقع على من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض .

وفى الآية الكريمة إشارة إلى بنى إسرائيل ، وإلى أنهم هم الوجه البارز فى الإنسانية ، الذى تظهر فيه تلك المنكرات ظهوراً واضحاً ، حتى لتكاد تكون الأصل الذى يُقاس عليه كل منكر يظهر فى الناس .

فهم يحادّون الله ورسوله .. والمحادة هى العدوان على حدود الله ، والاستباحة لحرماته ..

وهم الذين يسعون فى الأرض فساداً ، بما يرتكبون من جرائم وآثام ، لما يحملون فى صدورهم من غلّ وحسدٍ . .

وقد رصد الله سبحانه هذا العقاب الرادع لتلك الجرائم المنكرة ، ليكون فيه تنكيل ، وبلاء ، وإهدار لآدميّة من يَهدِر آدميته ، حين يضيّع حقوق الله ، ويستخفّ بها ، ويهدر حقوق الناس ويغتالها ، ويستبيح دماءهم وأموالهم .

وفى قوله تعالى : « أو يُصلّبوا » إشارة أخرى إلى اليهود ، حيث أن هذا النوع من العقاب وهو الصلب ، كان شريعةً لهم ، يأخذون به من يحادّ الله ، ويكفر به .. وقد قدّموا المسيح بهذه التهمة ، وحكموا عليه بالموت صلباً .

وفى قوله تعالى : « أو يُنْفَوْا من الأرض » إشارة ثالثة تشير إلى اليهود ، وأنهم أولى الناس بهذه العقوبات ، وأكثرهم تعرضاً لها ..ولقد وقع عليهم هذا الحكم ، فأجلاهم الرسول ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ من المدينة ، ونفاهم من

الأرض .. إذ كانوا مصدر فتنة وقلق واضطراب المجتمع الإسلامى فى المدينة ، يفتنون الناس عن دينهم ، ويؤلفون مع المنافقين حلفاً لمحاربة الإسلام والكيد له ، ولقد كان منهم هذا الغدر اللئيم الذى جمع بينهم وبين مشركى قريش ، حين جاءوا إلى المدينة بجموعهم يريدون القضاء على المهاجرين والأنصار فى غزوة الخندق .. وفى هذا يقول الله تعالى : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار » (٣ : التغابن)

وقوله تعالى : « إلاّ الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم » هو استثناء من هذا الحكم الواقع على أصحاب تلك الجرائم المنكرة .. فمن تاب منهم ، ورجع عما هو عليه من منكر ، وذلك قبل أن تناله يد المسلمين ، وتمسك به متلبساً بجرمه ـ من تاب منهم قبل هذا فقد رفع الله عنه هذا الحكم ، وفتح له بتوبته ، الطريقَ إلى النجاة .. فليغفر لهم النبىّ والمسلمون ، وليلقوْهم بالصفح الجميل ، وليعلموا « أن الله غفور رحيم ».

الآية : (٣٥)

« يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوا إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِى سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (٣٥)

التفسير :

[الوسيلة .. والتوسل بأصحاب القبور]

وبين يدى هذه العقوبة الراصدة للذين يحادّون الله ورسوله ويسعوْن فى لأرض فساداً ، تجىء دعوة المؤمنين أن يثبتوا على ماهم عليه من إيمان وتقوى، وأن يعملوا ما وسعهم العمل على الاقتراب من الله ، بالعمل الصالح والجهاد فى

سبيله ، حتى يبتعدوا أكثر ما يمكن عن هذه المهالك ، التى تأخذ المفسدين بأنواع النكال والبلاء ..

والدعوة إلى السلامة والنجاة ، فى الحال التى يشهد الإنسان فيها مصارع الظالمين والبغاة ، هى دعوة مستجابة ، تتلقاها النفوس حَفِيَّةً بها، حريصة عليها .. حيث هى الحبل الممدود لنجاة من يمسك به ، فى هذه الريح العاصف ، التى تنزع الناس ، وتلقى بهم فى مهاوى الهلاك ..

والوسيلة : هى ما يُتوسل به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة التى تُرضى الله ، وتُدنى الإنسان من ربه .

فالوسيلة فى اللغة ، مايتوسل به إلى أى أمر ابتغاء تحقيقه ، وجمعها وسائل، ولكل أمرٍ وسائله وأدواته التى يتوسل بها إليه ، فمن أخطأته الوسائل ، لم يبلغ من أمره مايريد ..

وتقوى الله هى مطلوب كل مؤمن بالله ، ورغيبة كل طامع فى رضا الله ، ساعٍ إلى مرضاته ..

ولهذا فقد أمر الله تعالى الذين آمنوا ،بالتقوى ، فى قوله : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله » . فليس الإيمان ـ مجرد الإيمان ـ هو الذى يُطلب من المؤمن ، ليكون فى عباد الله المؤمنين ، وإنما الذى يحقق الإيمان ، ويُنضج ثمرته ، هو « التقوى » .

والتقوى هى اجتناب محارم الله ، وامتثال أوامره ، أو هى كما عرفها بعض العارفين : « ألاّ يراك الله حيث نهاك وألا يفتقدك حيث أمرك » .

والتقوى على تمامها مطلب صعب المنال ، غالى الثمن ، لايقدر على الوفاء به إلاّ من رزقه الله قوة الإيمان ، وثبات اليقين ، ووَثاقة العزم .. تلك هى بعض

الوسائل التى يتوسّل بها إلى التقوى ـ ولهذا جاء قوله تعالى : « وابتغوا إليه الوسيلة » معطوفاً على قوله تعالى : « اتقوا الله » ـ أى اتقوا الله بابتغاء الوسائل المؤديه إلى التقوى . .

وهنا مايسأل عنه : كيف جاء النظم القرآنى : « وابتغوا إليه الوسيلة » إذا كان المراد بالوسيلة ماتُحقق به التقوى .. إذ لو كان الأمر كذلك لجاء النظم القرآنى كهذا : « وابتغوا إليها الوسيلة .. » .. كيف هذا ؟

والجواب على هذا ، هو أن التقوى هى تقوى الله ، ووسائلها التى تتحقق بها هى وسائل موصلة إلى الله ، مُدنية من رضاه ومغفرته .. فليست التقوى .. والأمر كذلك ـ مقصودة لذاتها ، وإنما هى مُرادة لما هو أولى بالمؤمن أن يتعلق به ، ويعمل له ، وهو القرب من الله ، والنزول فى رحاب رضوانه .. فابتغاء وسائل التقوى هو فى الحقيقة ابتغاء للوسائل المؤدية إلى رضى الله ، ومن ثَمَّ كان عَوْد الضمير إلى الله سبحانه وتعالى ، لا إلى التقوى ، التى هى بدورها وسيلة إلى التقرب من الله !

وأمر آخر من أمر الوسيلة .. نريد أن نقف قليلا عنده ..

فقد ذهب كثير من العلماء ، وخاصة علماء الشيعة ، إلى أن المراد بالوسيلة هنا هو التوسل بآل البيت ـ رضوان الله عليهم ـ والاستغاثة بهم ، واللّجأ إليهم فى الملمّات . .

وعن هذا المنزع مايأخذ به بعض المسلمين أنفسَهم من التوسل بالأموات ، ممن يُعتقد فى صلاحهم ، واستقامة سلوكهم فى الحيـــاة ، فيلمّون بقبورهم وأضرحتهم ، طالبين قضاء حوائجهم التى قصُرت عنها أيديهم .

والذى يأباه الدّين هنا هو مايتخذه كثير من أولئك الذين يزورون قبور الصالحين وأضرحتهم ، من التمسح بهذه المواطن ، ومناجاة الراقدين فيها ، وطلب

الغوث منهم ، حتى ليكاد المسلم يَذْهل عن الله فى هذا الموقف ، وحتى لكأن هذا الإنسان الصالح هو الذى يتصرف فى هذا الكون.. إن شاء أعطى ، وإن أراد منع !

أمّا أمر زيارة قبور الصالحين، فهو إن تجردّ من هذه المشاعر،وخَلص من تلك التصورات ، ووقف به الزائر عند حدّ العبرة والعظة ، بذكر الموت الذى تذوقه كل نفس ، ويرد مورده كل إنسان ، فذلك مما لا بأس به ، إذ يكون الإنسان ـ وهو فى معرضٍ يذكّره بالموت ـ أمام صورةٍ طيبة ، لسيرة عبد من عباد الله الصالحين ، الذين أصبحوا ذِكراً طيباً على ألسنة العباد .. ولعلّ فى هذا مايدعوه إلى الأسوة ، والسَّير على طريق الصالحين .

ومع هذا ، فإن الضعف البشرى ، والجهل بما لله وما للعباد ، قد يحمل بعضَ الناس ممن يُلمّون بقبور الصالحين ، على ألا يذكروا شيئاً من هذا ، وألا يستحضروا الموت فى هذا الموقف ، إذ قد يتمثل لهم أن صاحب هذا« الضريح » لم يتحول بعد إلى تراب ضائع فى التراب ، وأنه بكيانه كله لايزال يَلْقى الناس ويلقوْنه ، ويأخذ ويعطى .. ومن هنا كان الأوْلى بمن لايعرف كيف يحمى نفسه من هذا المزالق ، ويحرسها من هذا الضلال ـ أن يتجنّب زيارة الأضرحة، ليدفع عن إيمانه عوارض الضعف ودواعى الشرك .

ولا بأس هنا من أن ننقل ماذكره « الشّوكانى » عند تفسيره لهذه الآية ، قال : « قدأكثر الناس من دعاء غير الله تعالى ، من الأولياء ، الأحياء منهم والأموات .. مثل ياسيدى فلان أغثنى .. وليس ذلك من التوسل المباح فى شىء ، واللائق بحال المؤمن عدم التفوّه بذلك ، وألاّ يحوم حول حماه ، وقد عدّه أناس من العلماء شِركا ، وإلاّ يكنه فهو قريب منه .. ولا أرى أحدًا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعوّ الحىّ الغائب ، أو الميت المغيَّب ، يعلم

الغيب ، أو يسمع النداء ، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى ، وإلا لما دعاه ، ولا فتح فاه ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم .

«فالحزم ، التجنب عن ذلك ، وعدم الطلب إلا من الله القوىّ الغنىّ الفعّال لما يريد .

ثم يقول : ومن وقف على سرّ ما رواه الطبرانى فى معجمه ، من أنه كان فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ منافق يؤذى المؤمنين ، فقال الصديق ـ أبو بكر رضى الله عنه ـ هيّا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فجاءوا إليه ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنه لا يُستغاث بى ، إنما يُستغاث بالله » . . من عرف سرّ ذلك لم يشك فى أن الاستغاثة بأصحاب القبور ـ الذين هم بين سعيد شَغَلَه نعيمه وتقلّبه فى الجنان عن الالتفات إلى ما فى هذا العالم ، وبين شقى ألهاه عذابه وحبْسه فى النيران عن إجابة مناديه ، والإصاخة إلى أهل ناديه ـ أمر يجب اجتنابه ، ولا يليق بأرباب العقول ارتكابه ، ولا يغرّنك أن المستغيث بمخلوق ، قد تُقضى حاجته ، وتنجح طَلِبتهُ ، فإن ذلك ابتلاء وفتنة من الله عزّ وجل ، وقد يتمثل الشيطان للمستغيث فى صورة الذى استغاث به ، فيظن أن ذلك كرامة ممن استغاث به .. هيهات هيهات ، وإنما هو شيطان مَن أضلّه وأغواه ، وزين له هواه ..» .

وهذا الذى يقوله الشوكانى هو الذى يجب أن يؤمن به كل مسلم ، فى نظرته إلى أصحاب القبور ، وإلى من يعدّه من الصالحين ، وذوى الكرامات فيهم . . إنهم جميعاً فى عالم وراء هذا العالم الذى نعيش فيه ، شُغلوا بما هم فيه من نعيم أو بلاء ، وإنهم لأشدّ حاجة إلينا منا إليهم ، بالدعاء لهم بالرحمة والمغفرة. .حيث أننا ـ أعنى الأحياء ـ فى دار عمل وابتلاء ، يتقبل الله منا أعمالنا ، ويحصيها علينا ، ويحاسبنا عليها ، وهم قد صاروا إلى عالم قد انقطع عنهم كل عمل فيه ، فلا يُضاف

إلى أعمالهم التى عملوها فى الدنيا شيئاً جديداً من كسب أيديهم فى عالمهم الأخروى . . فكيف والحال كذلك يكون لهم كسب يضاف إلى غيرهم ، من قضاء الحوائج ، وتفريج الكروب ؟ .

ولا شك أن كثيراً ممن يلمّون بمقابر من يعتقدون فى ولايتهم وصلاحهم ، تستولى عليهم فى تلك الحال مشاعر ، توحى إليهم بأنهم على مداناة وقُرب من الله ، وأن ما يدعون به مستجاب ، وأن وراءهم من أمداد الصالحين والأولياء ، ما يزكّى دعاءهم عند الله ، ويُنزله منازل القبول . .

وهذا ، وغيره من المشاعر المختلطة التى تستولى على الإنسان ، فى تلك الحال — من شأنه أن يبعث الراحة والطمأنينة فى الإنسان ، ويملّاه بالأمل والرجاء ، وهذا بدوره عامل نفسىّ له أثره الإيحائى الذاتى ، الذى تتغير به نفسية الإنسان ، وتتبدل مشاعره ، وفى ذلك شفاء له من كثير مما كان يكابده ويشقى به . .

والعلاج بالإيحاء أمر معروف مشهود ، وما يجده الذين يزورون أضرحة الأولياء والصالحين ، من رَوْح وراحة لا يعدو أن يكون ضرباً من الإيحاء النفسىّ ، سواء أكانت وارداته من خارج النفس أو داخلها . .

ولعلّ فى قوله تعالى : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم » ما يشير إلى شىء من هذا الذى يُعرف بالإيحاء النفسى . . فالإنسان تتغير حاله ، ويتبدّل سلوكه نحو شىء ما إذا تغيّرت مدركاته له ، ومشاعره نحوه . . وكذلك شأنه فى جميع أحواله ، حيث يقوم تعامله مع الأشياء على أساس من إدراكه لها ، ومشاعره نحوها ، فإذا تغيرت تلك المدركات تغيّرت تبعاً لذلك مواقفه منها ، وسلوكه معها . . وشأن الجماعات فى هذا ، هو شأن الأفراد سواء بسواء . .

على أن الذى نودّ أن ننبه إليه هنا ، هو ما يتطاير من شرر أو شرّ بين الذين

يلتقون على خلافٍ فى مجال التوسّل بالأنبياء ، والأولياء والصالحين . .
فهذا الشرر كثيراً ما يمتدّ إلى هؤلاء ، الذين اختلف المختلفون فى التوسل إليهم،
بين مغالٍ فى التوسل، وبين مبالغٍ فى تحريمه وفى تكفير من يتوسلون ! .

ففى الطرف المغالى فى التوسل يرمى دعاته وأنصاره بالقول جُزافاً ، يكيدون
به للطرف المقابل ، الذى ينازعهم فيه ، ويتهمهم بمرض قلوبهم ، وفساد دينهم ..
وإذا هم يبالغون ويبالغون فيما هم فيه ، حتى ليبلغ بهم ذلك إلى حد الشرك
الصُّراح بالله .

وفى الطرف الآخر ، الذى يحارب التوسل ويعاديه ، يجد المرء نفسه أنه فى
حرب حقيقية ، وأن عليه أن ينتصر فيها بأى ثمن ، وأن يضرب فى الجبهة المعادية
له بأى سلاح ، وإذا هو من حيث لا يدرى يضرب فى وجوه الأنبياء والأولياء
والصالحين أنفسهم ، ولا يسأل نفسه ماذا جنى هؤلاء الكرام من عباد الله
من جناية ، حتى يرميهم بما يرميهم به . . من استخفاف بهم ، وتطاول على
مقامهم الكريم . .

إن الدعوة بالرفق والحسنى فى هذا المقام ، أليق بالإنسان ، وأنجح لدعوته ،
وأسلم لدينه ، إن كان أمره فى هذا قائماً على النصح لله ولرسوله والمؤمنين ،
فلا خير فى داعٍ يدعو إلى الخير ، ثم يعود آخر المطاف بحصول وفير من
الوزر والإثم ! .

وأيّا كان الأمر ، فإن الذى ينبغى أن يكون فى يقين المسلم دائماً هو التوقير
والولاء لأنبياء الله ، وأوليائه ، والصالحين من عباده ، وألا يدخل شىء من الضيم
على ولائه وتوقيره لهم ، ما يجنيه عليهم غيرهم ، والله سبحانه وتعالى يقول :
« ولا تَزِرُ وازرة وِزرَ أخرى » وقد عبد النصارى المسيح بن مريم ، واتخذوه
إلٰها من دون الله ، ومع هذا فمقامه عند الله عظيم ، لم ينَلْه شىء مما جَنَى أتباعه

من ضلال وكفر . . وكذلك ينبغى أن يكون ولاؤنا له على قدر تلك المنزلة العظيمة التى جعلها الله له بين عباده المكرمين .

فإذا بالغ المبالغون منا ، وغلا المغالون فينا ، ونظروا إلى الأنبياء والأولياء والصالحين ، تلك النظرة التى يأخذها عليهم المقتصدون ، ويتهمهم بها فى دينهم المتهمون ــ فذلك كله ينبغى أن يكون بمعزل عن مقام هؤلاء المكرمين من عباد الله ، من رسله ، وأنبيائه ، وأوليائه . . والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

الآيتان : (٣٦ ــ ٣٧)

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ » (٣٧)

التفسير : وهذه لفتة أخرى للمؤمنين ، إذ يرون فيها أهل الكفر والنفاق والفساد وما أعدّ لهم من عذاب أليم فى الآخرة ، بعد أن رأوا ما حلّ بهم من نكال فى الدنيا . . فإذا أفلت منهم أحد من عقاب الدنيا ، لم يكن له من سبيل إلى الإفلات من عذاب الآخرة ، وأنه إذا دفع عن نفسه عذاب الدنيا بمال ، أو حيلة ، أو نحو هذا ، فإنه لا دافع لعذاب الله الراصد له فى الآخرة . .

وقوله تعالى : « لو أنهنّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثلَه معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبّل منهم » هو تيئيس للكافرين من أن يخلصوا

من عذاب الآخرة ، ولو كان لهم ما فى هذه الدنيا ، وما فى دنيا مثلها . .

وفى وصف العذاب بأنه « أليم » ثم وصفه بأنه « مقيمٌ » استكمال لصورة هذا العذاب ، وأنه يجمع بين الألم ، واستمرار هذا الألم ، الذى يقيمون فيه إقامة دائمة لا نهاية لها . .

الآيتان : (٣٨ ـ ٤٠)

« وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » (٤٠)

التفسير : وإذ جاء فى الآيات السابقة حكم الله فيمن يحادّون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، فقد كان من المناسب أن يَرِد بعد ذلك حكم السرقة ، وجزاء مقترفها ، إذ هى ضرب من ضروب الفساد فى الأرض .. ثم لأنها لم تبلغ من غِلَظ الجرم ما بلغت الجرائم السابقة ، فقد خرجت من هذا الحكم العام لتلك الجرائم ، وأفرد لها هذا الحكم الخاص بها ..

والمرأة والرجل سيّان فى الحدّ الواجب على السارق ، وهو قطع يده اليمنى ، من مِفصل الرسغ ، وذلك لأن اليمنى غالباً هى التى يستخدمها السارق فى السرقة ، فكان قطعها عقوبة له ، وكأنه فى نفس الوقت عقوبة لليد التى سرقت !

وشرط إقامة الحدّ فى السرقة ، أن يكون المسروق مالاً مقوّماً شرعاً .. فسرقة الخمر والخنزير لا قطع فيها ، وأن يكون هذا المال محروزاً فى حرزِ مالكه

وحفظه ، فسرقة المال المتروك من غير حِرز ، ولا حراسة .. لا قطعَ فيه ، ويشترط كذلك أن يكون المال ذا قيمة معتبرة .. وقد قدرها بعض الفقهاء بعشرة دراهم كما قدرها بعضهم بربع دينار .

هذا ، وليس ذلك التغليظ فى عقوبة السرقة قسوةً من الإسلام ، واستخفافاً بالإنسان ، واسترخاصاً لوجوده كما يقول ذلك ـ زوراً وبهتاناً ـ من يكيدون للإسلام ، ويبيّتون له مالا يرضى من القول .. وإنما ذلك العقاب هو الجزاء العادل الرحيم ، إزاء هذا الجرم الشنيع ، الذى يعدّه الإسلام من أشنع الجرائم ، إذ هو اعتداء على حرمة الإنسان ، فى أعزّ مايحرص عليه ، وهو المال .

ولا بأس من أن نُلفت أولئك الذين يتهمون الإسلام بالوحشية والحيوانية إلى ماجهلوه أو تجاهلوه من حكمة الإسلام ، وتقديره السليم العادل لجريمة السرقة ، ووزنها بالعدل والقسطاس .. بين السارق والمسروق منه ..

فأولا : السرقة اعتداء خفىّ على حرمة الإنسان ، واستباحة لماله الذى هو بمنزلة النفس عند صاحبه !

وإذا كانت المدنيّة الحديثة قد استخفّت بهذه الجريمة ، حتى استباحت سرقة الأمم والشعوب ، فإن الإسلام الذى يحترم الإنسان ـ من حيث هو إنسان ، ويرعى حرمته فى دمه ، وماله وعرضة ، كما يقول نبي الإسلام : « كل المسلم على المسلم حرام .. دمه ، وماله ، وعرضه » ـ فإن الإسلام لايستخفّ بهذه الجريمة ، بل يضعها موضعها بين الجرائم الغليظة ، ولا تأخذه رحمة فيمن لا يرحم الناس ، والله سبحانه وتعالى يقول : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرضُ ولـكن الله ذو فضل على العالمين » (٢٥٢ : البقرة) .

وهذا الحدّ الذى فرضه الإسلام لقطع يد السارق ، هو بعض ما يدفع الله به

الناس ، بعضهم بعض ، وهو بعضُ فضله على عباده .

وثانيا — ليس القطع فى السرقة فى مطلق السرقة ، أىّ سرقة ، بل لابد من توافر شروط تتم بها أركان هذه الجريمة الموجبة للقطع ، وهذه الأركان هى:

(١) أن يكون المسروق شيئاً ذا قيمة — أى له اعتبار فى حياة الناس الاقتصادية . . وكانت هذه القيمة تقدر فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم بربع دينار — أى ثلاثة دراهم — .

وهذا النصاب الموجب للقطع ، يُقدّر فى كل زمان ومكان بحسب قوته الشرائية بالنسبة لعصر النبوة . . والمعتبر فى هذا هو أنه مال له قيمته ، وله أثره ، سواء أكان نقداً أو ما يقوّم بالنقد .

(٢)أن تقع السرقة فى مال محروز ، أى أن السارق يسرقه من حِرْز ، فالمال الضائع ، والثمر الذى يكون على الشجر بلا حائط يحيط به ، والماشية التى لاراعى عندها ، ونحو هذا ، لايقام على السارق حد فيه ، ولكن يعزّر ويضاعف عليه الغرم .

(٣) ما أخذ بالفم من ثمر على شجر ، وأُكل ، ولم يُحمل منه شىء — لاقَطْع فيه ، ولاتعزير . ومن احتمل شيئاً غيرما أكل فعليه ضعْف ثمنه ، ويُضرب نكالاً له ، وزجراً لغيره .

(٤) السرقة فى أوقات المجاعات ليس فيها قطع .

(٥) هناك ظروف وأحوال يراها ولىّ الأمر ، ويقدّرها ، فى حال السارق ، وظروفه ، فيعزّره ولا يقطع يده ، حيث تلوح له أية شبهة يدفع بها الحدّ ، فقد رُوى عن أميّة المخزومى رضى الله عنه ، قال : « أُتى النبى صلى الله عليه وسلم بلصّ قد اعترف اعترافاً ، ولم يوجد معه متاع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما إخالك سرقت ؟ » قال « بلى » (أى سرقت) فأعاد عليه مرتين أو ثلاثا ، فأمر به فقطع ، وجىء به ، فقال له النبي الكريم : « استغفر الله وتب إليه » فقال : أستغفر الله وأتوب إلى الله . . فقال نبيّ الرحمة : « اللهم تُبْ عليه » ثلاثا . . أى قال النبيّ ذلك الدعاء ثلاث مرات .

(٥) يجوز لصاحب المال المسروق إذا ضَبَطَ السارق أن يعفو عنه قبل أن يصل الأمر إلى القضاء ، فقد رُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، قال لصفوان ابن أميّة وقد جاء ليشفع فيمن سَرَق رداءه — أى رداء صفوان — : « هلاَّ كان ذلك قبل أن تأتينى به ؟ » .

وقوله تعالى : « فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه » هو عزَاء لهؤلاء الذين اقترفوا جريمة السّرقة ، سواء أقيم عليهم الحدّ فيها ، أو أفلتوا من إقامة الحدّ . .

وليس عزَاء كهذا العزاء الذى يقدمه الله إليهم ، وقد أفسدوا إنسانيتهم بهذا الجرم الذى ارتكبوه ، لجاءهم هذا العزاء فى صورة دعوة كريمة من رب كريم ، يدعوهم فيها إلى جناب رحمته ومغفرته ، إذا هم أرادوا أن يلوذوا بهذا الجناب الكريم ، وأن يستظلوا به ، وذلك بأن يستشعروا الندم عن جرمهم ، وأن يَبْرءوا إلى الله منه بالتوبة والإنابة والاستغفار ، فإنهم إن فعلوا قَبِلَ الله توبتهم وغفر لهم ذنبهم : « ومن يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً » .

وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يُعَذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قديرٌ » هو إلفات للطائعين والعاصين جميعاً ، وأنهم كلهم فى قبضة الله ، يعذبُ من يشاء منهم جزاء ما ارتكب من إثم ، وقارف من ذنب ، ويغفر لمن يشاء ، فضلاً منه وكرماً . . فهو القادر على كل شىء ، والمالك لكل شىء !

وفى تقديم العذاب هنا على المغفرة — نظر .. إذ كانت رحمة الله تسبق غضبه وعذابه أبداً : ولكن إذ كان الموقف هنا موقف محاسبة المذنبين ، ثم مغفرة ورحمة لمن تاب ورجع إلى الله منهم — كان ذِكر العذاب مقدّماً على ذكر المغفرة بالنسبة لهم ، ولو تقدمت المغفرة على العذاب هنا لمـا كان لعقاب المذنبين — مع سبق الرحمة — مكان ، ولشملتهم الرحمة قبل أن يُؤخذوا بجرمهم ، ويقام الحدّ عليهم ، وإلا لسقطت الحدود ، واضطرب نظام المجتمع !

فـكان تقديم العقاب أخذاً لحق الله وحق العباد أولاً ، ثم تجىء مغفرة الله ورحمته ، فتمحو آثار هذا العقاب وتعفّى عليه ، لِمَن وجّه وجهه إلى الله ، وطلب الصفح والمغفرة .

وقُدّم السارق على السارقة . . لأن الرّجل أجرأ من المرأة على السرقة ، وأكثر تمرساً بها . . كما قُدّمت المرأة على الرجل فى جريمة الزنا ، فى قول الله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » — لأن هذه الجريمة لاتتم إلا بالرجل والمرأة معاً ، والمرأة هى صاحبة الموقف هنا ، وبيدها الأمر فيه ، لأن الرجل طالب وهى مطلوبة ، فإذا لم تعطه نفسها ، ولم تمكنه منها فاتَهُ مطلوبه ولم تقع الجريمة . .

الآية : (٤١)

« يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ

فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » (٤١)

التفسير : هذا عزاء وتسرية للرسول الكريم ، عن هذا الحزن الذى كان يقع فى نفسه من أولئك الذين يتخذون دين الله لعباً ولهواً ، يلبسه أحدهم كما يلبس الثوب ، يستر به جسده من لفح الزمهرير ، أو وهج الحرور ، فإذا أمن الحرّ أو البرد، طرحه ، وبدا للناس عاريا .

إن هؤلاء المتلاعبين بالدين لم يعرفوا حقيقة الإيمان ، ولم يعتقدوه عقيدة ، تستولى على قلوبهم ، وتختلط بمشاعرهم . . ومن هنا كان استخفافهم به ، وتحولهم عنه ، إذا أوذوا فى أموالهم أو فى أنفسهم ، أو إذا لاح لهم فى أفق آخر لمعة سراب لعرَضٍ زائل من عروض الدنيا .

ومثل هذا الإيمان لا وزن له ، والمؤمنون إيماناً كهذا الإيمان لا حساب لهم فى المؤمنين . . إن ضررهم أكثر من نفعهم ، وخروجهم من الإيمان خير من دخولهم فيه . .

وقوله تعالى : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » هو كما قلنا عزاء وتسرية للرسول ، كما أنه تهوين لشأن هؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام بكلمة ألقوها على أفواههم ، ثم خرجوا منه بكلمة قذفوا بها من أفواههم . . فخسارة الإسلام فيهم — إن بدت فى ظاهر الأمر خسارة — ليست فى حقيقتها إلا كسباً للإسلام وللمسلمين ، إذ قطعت هذه الأعضاء الفاسدة من جسد المجتمع الإسلامى ، وعزلت عنه هذا

الداء الخبيث الذى يندسّ فى كيانه ، ويعمل على إضعافه وإفساده .

وفى قوله تعالى : «ومن الذين هادوا» هو عطف على قوله تعالى : « من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم» . . فالذين يسارعون فى الكفر فريقان : فريق من غير اليهود . . من جُفاة الأعراب ، الذين وصفهم الله بقوله سبحانه : « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ...» (١٠١: التوبة» واليهود، وهم الذين أشار إليهم الله سبحانه وتعالى هنا بقوله : « ومن الذين هادوا » ومسارعة الذين هادوا إلى الكفر ، إما أن تكون بعد دخول بعضهم فى الإسلام ثم نفاقهم فيه ، أو أن تكون مسارعتهم بالكفر بما فى أيديهم من الكتاب ، إذ أنكروا ما فيه من آيات تحدّث عن الرسول الكريم ، وتبشر به ، وتدعو إلى مؤازرته والإيمان به . . فقد حملهم العناد على أن يكفروا بهذا الذى يحدثهم به كتابهم عن ، وعن الأمارات التى يجدونها دالة عليه فى كتابهم . . وكان ذلك إسراعاً منهم فى الكفر ، وخروجاً من الدين جملة .

وقوله تعالى : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » هو صفة لهؤلاء الذين يسارعون فى الكفر من الفريقين . .والأعراب ، وأشباههم من ضعاف الإيمان من غير اليهود ، يُلقون أسماعهم إلى الأكاذيب التى يذيعها المنافقون عن الإسلام والمسلمين ، وعامّة اليهود يعطون زمامهم لأهل العلم فيهم ، ويتحدثون إلى النبى وإلى المؤمنين بما يلقيه علماؤهم فى آذانهم ، دون أن يجرؤ هؤلاء العلماء على لقاء النبى ومواجهته بهذه الأكاذيب وتلك الأباطيل ، لأنهم يعلمون كذبها ، وأنهم مفضوحون إن واجهوا النبىّ بها .

وقوله سبحانه «يحرّفون الكلم من بعد مواضعه» هؤلاء هم العلماء من أحبار اليهود ، يحرّفون كلمات التوراة من بعد أن استقرت فى أماكنها ، ولم يكن ثمة

سبيلٌ إلى تبديلها . والتحريف هنا هو فى فساد التأويل والتخريج ، وكتمان بعضٍ ، وعَرْض بعض .

وقوله تعالى : « يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تُؤتَوْه فاحذروا » هو بيان لضرب من ضروب التحريف ، والفساد فى التأويل . إذ يقيم علماء اليهود عامتهم على رأى خاص محرّف ، ويقولون لهم إن قَبِلَه محمد منكم فاقبلوه منه ، ووافِقوه عليه ، وإن لم يقبله فاحذروا أن تأخذوا بما يدعوكم إليه ، مخالفاً لهذا الرأى الذى أنتم عليه .

وقوله سبحانه : « ومن يردِ الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً » هو تعقب فاضح لهذا الموقف اللئيم الذى يقفه علماء اليهود من دينهم الذى يدينون به ، فقد فُتنوا هم فيه وأفسدوا على أتباعهم دينهم، بهذه التأويلات الفاسدة المنكرة . . وإن هؤلاء الفاتنين والمفتونين معاً صائرون إلى هذا المصير المشئوم ، إذ كان موافقا لطبيعتهم ، مستجيباً لأهوائهم . . فأخلى الله بينهم وبين أهوائهم ، فلم يمد إليهم يد الهداية والتوفيق . . « وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى » (٨ ـ ٩ ـ ١٠ : الليل) . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : فى خاتمة هذه الآية : « أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وفى الإشارة إليهم بقوله تعالى : « أولئك » عرض كاشف لهم فى هذا الوضع السيىء ، مطرودين من رحمة الله ، واقعين تحت نقمته ، « لهم فى الدنيا خزى » ، حيث يشهد الناس كذبهم ، ونفاقهم ، « ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » . . فإن كان فى وجوههم صفاقة تحتمل هذا الخزى ، ولا تبتلّ بقطرة من عرق الخجل والحياء ، فى الدنيا ، فإن جلودهم ـ ولو كانت فى بلادة الحجر ،

أو صلابة الحديد ، فلن تدفع عنهم حريق جهنم أن ينفذ إلى ما وراءها من لحم وعظم ، وأن يجعلهم كتلاً من جمر ، وحمم .

الآية : (٤٢ ـ ٤٣)

« سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ » (٤٣)

التفسير : هاتان الآيتان تستكملان الصفات الذميمة التى دمغ الله بها اليهود ، وجعلها طبيعة قائمة فيهم ، ولم يذكرهم القرآن هنا ، بل جاء بالوصف الدال عليهم ، هكذا : « سماعون للكذب أكالون للسحت » فما أحد أكثر من اليهود كذباً ، ولا أجرأ منهم عليه . . وحسبهم أن يكذبوا على الله ، وأن يحرفوا كلماته ، وأن يقولوا على الله ما لم يقله الله .. وما أحدٌ آكلُ من اليهود للسّحت ، وهو الحرام الذى يُلبسونه وجه الحلال كذباً وافتراء وبغياً وعدوانا .

وقوله تعالى : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » .

قيل فى سبب نزول هذه الآية إنه وقعت فى اليهود جريمة زنا بين كبيرين من كبرائهم ، وكان حد الزنا فى الإسلام يومئذ هو ما جاء فى قوله تعالى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة » ولم يكن جاء بعد ما جاء

فى عمل الرسول من رجم المحصنة والمحصَن . . فأراد اليهود أن يُفيدوا من هذا الحكم الذى جاء فى الإسلام ، وأن يأخذوا صاحبيهما ـ الزانية والزانى ـ بالحدّ الذى شرعه الإسلام ، وهو الجلد ، وأن يحموا الزانية والزانى من الرجم ، لِمَا لهما من منزلة عندهم .

ولا شك أن هذا تلفيق فى الدين ، فإما أن يكونوا يهوداً على شريعة اليهود ، فيقيموا حكم التوراة ـ وهو الرجم هنا ـ على صاحبيهما ، مهما كانت منزلتهما ، وإما أن يكونوا مسلمين فيقام عليهما حكم الإسلام وهو الجلد . ولكن هكذا اليهود . . يأخذون من الأحكام الشرعية ما يُرضى هواءهم ، فإن لم يكن بالتحريف والتبديل ، كان بالتحول من شريعة إلى شريعة ، ومن دين إلى دين ، حسب الحال الداعية إليه .

وقد جاءوا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألونه الحكم فى هذين الزانيين ، فسألهم الرسول : ما حكم التوراة فيهما ؟ فقالوا : الجلد بِحَبْل مَطْلِىٍّ بالقار ، وعَرْض الزانيين على الناس ، يُطاف بهما وهما على حمارين ، فى وضع مقلوب . فقال لهما النبى صلى الله عليه وسلم : « كذبتم ، الحكم فى التوراة هو الرجم » فأنكروا . . ثم فضحهم الله ، فشهد شاهد من علمائهم : أنه الرجم . . فأمر الرسول بإمضاء حكم التوراة فيهما ، ورجمهما .

وقوله تعالى : « وكيف يُحَكِّمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله » استنكار لموقف اليهود ، وتحكيمهم النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر هو من شئون دينهم الذين هم عليه ـ وحكم التوراة واضح فى هذا الأمر . .

ثم كيف يحكمون النبىّ وهم لا يؤمنون به ، ولا يعترفون برسالته ، ولا بالكتاب الذى فى يده ؟ إن ذلك لم يكن لطلب حق ، ولا ابتغاء هدًى ، وإنما كان إشباعاً لأهواء ، وإرضاء لشهوات ، وتحللاً من حكم شرعى قائم

بهذا التأويل الفاسد الذى ذهبوا إليه ، بالانتقال ـ فى هذه الحالة ـ من دين إلى دين . .

وقوله تعالى : « ثم يتولّون من بعد ذلك وماأولئك بالمؤمنين » هو فضح لمـا عليه اليهود من ضلال ورياء فى الدين ـ إنهم لا يقبلون من النبىّ إلا ماوافق أهواءهم ، وهم ليسوا بالمؤمنين ، بما يأخذون أو يدَعون من شريعة النبى ، . . ثم إنهم ليسوا بالمؤمنين إطلاقاً ، لا بدين محمد ، ولا بالشريعة التى هم عليها . . وفى الإشارة إليهم بقوله تعالى : «وماأولئك بالمؤمنين » تشنيع عليهم ، واستدعاء لكل ذى نظرٍ أن يمسك بهم ، وهم على هذا الكفر الذى يعيش معهم .

الآية : (٤٤)

« إنّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » (٤٤)

التفسير : فى هذه الآية تعريض بأحبار اليهود وعلمائهم ، الذين عاصروا النبوة ، وكتموا ما معهم من التوراة وأحكامها . .

وقوله تعالى :« إنا أنزلنا التوراة فيها هُدًى ونور » هكذا أنزلنا التوراة ، تحمل شريعة الله ، وضيئة مشرقة بالهدى والحق . . وهكذا حكَمَ بها النبيون الذين جاءوا بعد موسى ، يأخذون بها ، ويبينون لليهود أحكام الشريعة فيها .

ووصف النبيين بالذين أسلموا إشارة إلى أنهم على دين الله ، الذى ارتضاه الله لعباده ، وهو الإسلام ، الذي كانت خاتمة دعوته ، وتمام رسالته ، الدعوةَ

الإسلامية ، ورسالة رسولها محمد بن عبد الله . . وفى هذا دعوة لليهود أن يلتقوا مع رسالة الإسلام ، وأن يؤمنوا كما آمن الناس ، وإلا فهم على غير دين الله ، إذا كان مامعهم من شرع لايلتقى من شريعة الإسلام ، فى الإيمان بالله ، وما شرع الله .

وقوله تعالى : « والربانيون والأحبارُ بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » هو عطف على قوله سبحانه « يحكم بها النبيون » أى ويحكم بها — أى بالتوراة — الربانيون والأحبار ، مشهدين بما تلقوا على يد الرسل والأنبياء من شريعة التوراة ، وكانوا هم أنفسهم شهوداً على ما تلقوا . . وفى هذا تحريض لأحبار اليهود وعلمائهم الذين عاصروا النبوة والذين جاءوا بعدهم أن يكونوا على ما كان عليه أنبياؤهم ، وحواريو هؤلاء الأنبياء ، من الحكم بما أنزل الله ، دون تحريف ، أو تبديل . . وإلا فهم ليسوا ربانيين ولا أحباراً .

وقوله سبحانه : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » توكيد للدعوة التى دُعى إليها هؤلاء الربانيون والأحبار ، وهو أن يرقبوا الله ويتقوه فيما فى أيديهم من كتاب الله ، وألا تغلبهم شهوة المال على الوفاء بعهد الله ، وأداء الأمانة التى اؤتمنوا عليها . . والميثاق هو الذى واثقهم الله عليه فى قوله تعالى : « وإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ » (١٨٧ : آل عمران) .

وقوله تعالى : « وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ » تهديد ووعيد لهؤلاء الرَّبَّانِيين والأحبار ، وحكم عليهم بالكفر الصريح ، إذاهم لم يحكموا بما أنزل الله ، ولم يَلْقَوْا الناس بما فى أيديهم من كتاب الله .

والربيون : جمع رِبِّىّ ، وهو العالم الزاهد ، المنقطع للعلم والعبادة .

والأحبار : جمع حَبر ، وهو العالم الفقيه ، المتمكن من تعاليم الشريعة .

الآية : (٤٥)

« وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (٤٥)

التفسير : قوله تعالى : « وكتبنا عليهم فيها » أى فرضنا عليهم فى التوراة أحكامَ القصاص ، على هذا الوجه الذى بيّنه الله فى قوله تعالى :

« أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ » .

فكل عدوان على الإنسان ، فى أية جارحة من جوارحه ، أو عضو من أعضائه ، جزاؤه عدوان مثله على المعتدَى . . إن قَتَل قُتل ، وإن فقأ عيناً فُقئت عينه ، وإن جَدَع أنفاً جُدع أنفه ، وإن صَلَم أذنا صُلمت أذنه ، وإن كسر سِنًّا كُسرت سنّه !

وقوله تعالى : « والجروح قصاص » هو عطف على قوله تعالى : « أن النفسَ بالنفس » والجروح هى ما دون تلف هذه الأعضاء التى بينتها الآية الكريمة ، مثل قطع إصبع ، أو كفّ ، أو قدم ، ونحو هذا .

وقوله تعالى : « فمن تصدّق به فهو كفارَة له » هو خطاب للمعتدَى عليه ،

أو وليّه فى القصاص ، وهو أن يتصدق بالعفو على من اعتدى عليه ، فهذا التصدق كفارة له ، وحطٌّ من سيئاته بقدر ما تصدق به ، والضمير فى « به » يعود إلى القصاص . . أى : ومن تصدق بالقصاص فلم يقتص من خَصمه فهو كفارة له .

وقوله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » هو تحذيرٌ ووعيد لمن غيّر أو بدّل فى أحكام الله ، فإن هذا عدوان على الله ، وظلم للنفس ، إذا أوقعها تحت غضب الله ونقمته ، بالعدوان على ما شرع من أحكام .

وقد وُصف الذين يحكمون بما أنزل بوصفين ، وُصفوا أولاً بأنهم « هم الكافرون» ، ووصفوا ثانياً بأنهم « هم الظالمون » . . فهم كافرون ظالمون . . قد جاوز كفرهم كل حدود الكفر ، فكان كفراً وظلماً معاً .

الآيتان : (٤٦ ـ ٤٧)

« وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (٤٧)

التفسير : التقفيه : المجىء من الخلف ، أو القفا ، ومعناه هنا : مجىء عيسى ، بعد هؤلاء الأنبياء الذين أشار إليهم الله سبحانه وتعالى بقوله :« يحكم بها النبيون الذين أسلموا » .

فقوله تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم » أى بعثنا بعد هؤلاء

الأنبياء عيسى بن مريم ، فجاء على آثارهم ، متبعاً خطوهم فى طريقهم الذى سلكوه ، من دعوة الناس إلى الحق والهدى . .

وقوله تعالى : « مصدّقاً لما بين يديه من التوراة » أى مؤيّداً لها ، بإيمانه بها ، وأخذه بشريعتها .

وقوله سبحانه : « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونورٌ » هو عطف على قوله تعالى « وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم » وقوله تعالى « فيه هدًى ونور » هو حال من الإنجيل ، تكشف عن مضمون هذا الكتاب الكريم ، وهو أنه يحمل الهدى والنور فى آياته وكلماته . .

وقوله تعالى . « ومصدقاً لما بين يديه من التوراة » هو حال أيضاً من الإنجيل ، يبين أن الإنجيل مصدِّق لما فى التوراة ، لأنه حقّ مثلها ، مُنزل من عند الله ، كما أنها منزلة من عند الله ، فالمسيح عليه السلام ، مصدق للتوراة بإيمانه بها قبل أن يكون معه كتاب من عند الله ، ثم لما تلقّى كتابه من الله سبحانه وتعالى ، جاء هذا الكتاب وهو « الإنجيل » مصدقا للتوراة ، مؤيداً لما جاء فيها .

قوله تعالى : « وهدًى وموعظةً للمتقين » بيان لهذا الهدى والنور الذي يحمله الإنجيل ، وأنه لا يُفيد منه ، ولا يهتدى به ، إلا المتقون الذين تَلَقّوْه بقلوب مطمئنة ، ونفوس سليمة ، لا تحرّف كلماته ، ولا تُبدِّل آياتِه . . إنه أشبه بالدواء المرصود لداء ما . . إذا تغيرت معالمه بعناصر غريبة دخلت عليه ، فسدت طبيعتُه ، ولم يُفد منه صاحب الداء ، بل ربما أصابه منه ضرر ، فكان داء إلى الداء !

وقوله تعالى : « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » هو دعوة إلى أتباع الإنجيل أن يأخذوا أنفسهم

بأحكامه وآدابه كما جاء بها ، ثم هو وعيد لهم إذا هم انحرفوا عن الأخذ بما أنزل الله فيه ، فتأوّلوه على غير وجهه ، أو حرّفوا الكلم عن مواضعه .. إنهم حينئذ يحكمون بغير ما أنزل الله .. « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » أى الخارجون على دين الله ، وما تلقى المسيح من ربه .. فلينظروا أى دين هم عليه بعد هذا الدين ؟ .. وقد وُصف الذين يحكمون بغير ما أنزل الله بثلاثة أوصاف .. الظالمون .. الكافرون .. الفاسقون .. فجمعوا الشر من جميع أطرافه.

الآية : (٤٨)

« وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنْزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ » (٤٨)

التفسير : بعد أن بيّن الله سبحانه وتعالى ، التوراة وما أنزل فيها من شريعة ، والإنجيل وما حمل من آيات الله ، وبعد أن دعا أصحاب التوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله فيهما ، وأن يقيموهما على ما نزّلا به من الحق والهدى ـ بعد ذلك ذكر الله ـ سبحانه ـ القرآنَ الكريم ، والنبىَّ الذى تلقاه من ربه .

فقال تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » .. وفى هذا أمور :

١ ـ توجيه الخطاب للنبىّ من الله سبحانه وتعالى ، وفى هذا تكريم للنبى الكريم ، وتشريف لمقامه العظيم ، وقربه من ربه جلّ وعلا ..

٢ — العدول عن ذكر القرآن ، وتسميته بالكتاب ، إشارة إلى أنه الأصل الذى ترجع إليه الكتب السماوية التى نزلت على الأنبياء من قبل ، والتى هى جميعها كتاب واحد .

٣ — فى وصف الكتاب بالحق - مع أن نزوله من عند الله ، يخلع عليه هذه الصفة من غير وصف -هو توكيد لما يحمل من الحق ، وصيانة لهذا الحق من أن يقع تحت تحريف أو تبديل ، إذ كان منزلا بيد الله . . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق » . . إنه غرس من غرس الله ، ولن يتعرض هذا الغرس الإلهى لأية آفة من الآفات التى تعرّض لها غيره . . وهذا ما يشير إليه قوله سبحانه : « إنّا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

وفى قوله تعالى : « مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » أمور أيضاً :

١ — أن هذا الكتاب مصدق لما بين يديه من الكتاب . . والكتاب الأول هو القرآن ، والكتاب الثانى هو جميع الكتب السابقة ، أى هو مُسْتَوْلٍ عليها ، ومشتمل على أصولها ، التى تنضبط عليه ، وترجع عند تأويلها إليه . .

وقوله تعالى : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » هو خطاب للنبى أن يحكم بين المحتكمين إليه من اليهود والنصارى ، بما أنزل الله ، وأن يكون القرآن الذى بين يديه هو عمدة الأحكام ، يُرجع إليه ، وتُضبط أحكام الكتب السابقة على أحكامه ، فما وافقه منها أُخذ به ، وما خالفه اعتبر محرفاً ومبدلا ، ليس من كتاب الله ، ولا من شريعة الله .

وقوله سبحانه : « ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق » هو تنبيه للنبىّ ألاّ يَمدَّ بصره إلى تحريفات أهل الكتاب ، وإلى الشرائع التى أحدثوها . . وحسبه ما بين يديه من الحق الذى يجده فى القرآن الكريم .

وقوله سبحانه : « لِكُلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجا » هو بيان للحكمة في تعدد الشرائع السماوية ، وتعدد الكتب التي جاءت بها ، والرسل الذين حملوها . . إذ كان لكل أمة زمانها ومكانها ، وللزمان والمكان ، أثره في الأمم ، وفي اختلاف مناهجها في الحياة ، وأساليبها في العمل . . فكان أن حمل رسل الله إلى كل أمة قَبساً من شريعة الله ، مقدوراً بقدرها ، محسوباً بحسابها ، وما يلائم طبيعتها ، وظروف زمانها ومكانها . . وهي جميعها (أي الشرائع) تستقي من شريعة واحدة ، وتورد أتباعها على مورد من مواردها . .

وفي قوله تعالى : « شِرْعة » ما يشير إلى أنها مقطع من مقاطع الشريعة العامة ، التي جاء بها القرآن الكريم ، وأن تلك الشرعة ما هي إلا مورد تَرِده الأمة على نهر الشريعة العامة ، فتستقي منه ، وتحمل بقدر ما تحتمل . .

وفي قوله تعالى : « ومنهاجاً » إشارة أخرى إلى اختلاف الأمم والشعوب ، وأنها لا يمكن أن ترد مورداً واحداً ، على الشريعة العامة ، وأن تُحشر حشراً على مورد واحد منها.. لاختلاف الطبيعة ، واللغة ، وغيرها مما يجعل لكل أمة وجهها الذي تظهر به في الحياة ، فاقتضت حكمة الحكيم العليم أن يقيم كل أمةٍ على موردٍ من شريعته .

وقوله تعالى : « ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدةً » أي لو أراد الله سبحانه أن يجعل الناس أمة واحدة ، تلتقي على مشاعر واحدة ، ولغة واحدة ، لفعل ، فما لمشيئته من معقّبٍ ، أو معترض ، ولكنه سبحانه حكيم عليم ، اقتضت حكمته ، وشاءت إرادته أن يجعل الناس أمماً وشعوباً ، كما جعلهم أفراداً ، وكما جعلهم ذكراً وأنثى . .

وقوله سبحانه : « ولكن ليبلوكم فيما آتاكم » أي ولكنه سبحانه وتعالى لم يجعلكم أمة واحدة ، كما لم يجعلكم كائنا واحداً ، ليكون لكل أمة حسابها ،

كما يكون لكل فرد حسابه ، وفى مجال العمل والخير والحق تتسابق الأمم ، كما يتسابق الأفراد .

وقوله تعالى : « فاستبقوا الخيرات » والاستباق : هو السبق والإدراك . . أى أدركوا الخيرات التى دُعيتم إليها فى كتب الله التى بين أيديكم وبادروا إلى تحصيلها ، قبل أن تُفلت منكم ، فلا يبقى فى أيديكم إلا الحسرة ، وإلا الندم ، وسوء العاقبة .

وقوله سبحانه : « إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » تحذير لهؤلاء المختلفين فى كتب الله ، المحرفين لها ، وأنهم سيرجعون إلى الله يوماً ، وسيحاسبون على ما كان منهم من عبث بالشرائع التى فى أيديهم ، وحملها على ما تشتهى أنفسهم .. فما جرى منها مع أهوائهم قبلوه ، وما لم يجر منها على مايشتهون ؛ حرفوه وبدّلوه ..ولهذه الأفعال المنكرة ، جزاؤها المرصود لأصحابها .

الآية : (٤٩)

« وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ » (٤٩)

التفسير : قوله تعالى : « وأن احكم بينهم بما أنزل الله » دعوة أخرى للنبى الكريم أن يلتزم فى حكمه بين أهل الكتاب ما أنزل الله إليه ، وألا يلتفت إلى ماتمليه أهواؤهم ، وما يسوقون إلى النبى من كيد ومكر ، ليَفتنوه ، ويفتنوا

المؤمنين معه . . « واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل إليك » وذلك بالأخذ ببعض الأحكام التى يقولون ـ كذبا ـ أن شريعة التوراة جاءت بها ، وهى جلد المحصن الزانى ، وليس الرجم كما جاءت به التوراة .

وقوله سبحانه : « فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يُصيبهم ببعض ذنوبهم » أى فإن حكمتَ بين هؤلاء اليهود بما أنزل الله إليك ، وأبوْا أن ينزلوا على هذا الحكم وأن يأخذوا به ، فإن عقاب الله راصدٌ لهم ، يأخذهم ببعض ما اكتسبوا . . ولو أخذهم بكل ما اكتسبوا لخسف بهم الأرض ، أو لأطبق عليهم السماء ، ولكنه سبحانه رحيم إذ يؤدّبهم بهذا العقاب ، الذى هو قليل من كثير ، مما كانوا أهلاً لأن ينزل بهم .

وقوله سبحانه : « وإن كثيراً من الناس لفاسقون » . . الناس هنا هم اليهود ، وعدم ذكرهم هو إبعاد لهم من هذا الشرف بأن يكونوا محل كلمة من كلمات الله ، حتى فى مقام الهوان والعذاب ، فما أشقى هؤلاء الأشقياء ، وما أبخس صفقتهم بين عباد الله ، وما أرذل منزلتهم بين الناس .

الآية : (٥٠)

« أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (٥٠)

التفسير : فى هذا الاستفهام إنكار على أهل الكتاب هذا الموقف الذى يقفونه من شرع الله ، وأنهم لا يأخذون منه إلا ما يستجيب لأهوائهم ، فهم ـ والحال كذلك ـ يريدون أن يتحللوا من كل شرع ، ويفلتوا من كل قانون ، شأن الحياة الجاهلية التى تحكمها الأهواء ، وتسيّرها النزعات الذاتية السائدة فيها ، حيث لا مرجع إلى شرع أو قانون .

وقوله تعالى : « ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » هو تسفيه لأهل الكتاب ، وفضح لجهلهم وضلالهم ، إذ يَعْدلون عن شرع الله ، ويَخْرجون عن حكمه ، إلى شريعة الجاهلية ، وأحكام السفاهة والضلال . . وذلك من حماقة عقولهم ، وسَفَه أحلامهم ، إذ أنه لا يعرف فَرقَ ما بين أحكام الله ، وأحكام غير الله ، إلا من أخْلَى قلبَه من نزعات الهوى ، وصفّى مشاعره من وساوس النفاق ، ونظر إلى الله بقلب سليم ، فعرفه حق معرفته ، وقَدَرَه حقّ قدره ، ورأى أن هُدى الله هو الهدى ، وأن من اتبع غير سبيله ضل وهلك ، ومن سلك سبيله رَشَد وسَعِد .

الآيتان : (٥١ — ٥٣)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ » (٥٣)

التفسير : الأولياء : جمع ولىّ ، والولى هو النصير ، والظهير ، والمعين . .

وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء » هو للنهى عن موالاة اليهود والنصارى ، وليس دعوةً إلى عداوة أو قطيعة ،

وإنما هو نهى عن مناصرتهم ومعاضدتهم ، والوقوف إلى جانبهم ، وهم على موقفهم من الإسلام ومحاربتهم له ، فذلك خيانة للمسلمين ، وعدوان على الإسلام .. إذ كيف يكونون هم حرْباً على الإسلام ، ثم يكون فى المسلمين مَن هو على ولاء لهم ، ومودة معهم ؟

وقوله تعالى : « بعضهم أولياء بعض » أى أن اليهود أولياء لليهود ، والنصارى أولياء للنصارى .*وهذا أوّلُ مافيه أن يجعل المسلمين أولياء للمسلمين ، فلا يكون ولاء المسلم ، ومناصرته ومناصحته ، لغير المسلمين ، فإذا لم يكن هذا الولاء ، وتلك المناصحة من المسلم للمسلمين فلا أقلّ من أن يقف عند هذا الحدّ السلبى ـ وهو موقف آثم ـ فلا يتحول إلى جبهة معـادية للإسلام وأهله ، فيـكون لها مسانداً مناصحاً .. إن ذلك ـ كما قلنا ـ نفاق ظاهر ، وكفر خفى !

وقوله تعالى: « ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين »هو بيان للوصف الذى يكون عليه من يجعل ولاءه لغير المسلمين من أهل الـكتاب المحادّين لله ورسوله ، المحاربين للإسلام والمسلمين ، وهو أنه من هؤلاء الظالمين ، المعتدين على حق دينه ، وحق أتباع دينه ، بخذلانهما ، ومناصرة أعدائهما . . والظلم هنا شبيه بالظلم فى قوله تعالى : « ومن لم يحـكم بمـا أنزل الله فأولئك هم الظالمون » . . لأن المسلم الذى يوالى أهل الـكتاب ، ويترك موالاة المؤمنين قد حـكم بغير ما أنزل الله واتبع ما يرضى هواه ، ويحقق نفعاً ذاتياً له ، على حساب دينه .

قوله سبحانه « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم » . .

« الذين فى قلوبهم مرض » هم المنافقون ، الذين سَتَروا نفاقهم بالدخول فى الإسلام ، والانضواء تحت لواء المسلمين ، ليتخذوا من الإسلام تجارة يتجرون بها فى سوق السحت والاختلاس . . وهذا لا يكون إلا من قلب مريض ، يستقبل كل ضلال ، دون أن يَغَصّ به ، أو يزوَرّ عنه . .

والمسارعة فيهم أى فى أهل الكتاب : الانغماس فيهم ، ولهذا جاء اللفظ القرآنى بتعدية الفعل سارع بحرف الجرّ « فى » ، بدلاً من تعديته بحرف الجر « إلى » الذى يتعدى به هذا الفعل غالباً . . كقوله تعالى : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » (١٣٣) آل عمران .

وفى تعدية الفعل بحرف الجر « فى » ما يكشف عن أن هؤلاء المنافقين ينغمسون فى أهل الكتاب ، ويدخلون فيهم دخولاً كاملاً ، حيث يحتويهم ظرف واحد ، إذ هم كيان واحد يألف بعضه بعضاً .

وفى قوله تعالى : « فترى الذين فى قلوبهم » تشهير بهؤلاء المنافقين ، وفضح لهم ، وأنهم وإن لبسوا كل أثواب التخفّى ، لا يلبث أمرهم أن ينفضح وينكشف ، وأنهم بمرأى من النبي والمؤمنين ، ولهذا جاء الفعل « ترى » وكأنه يشير إليهم ، ويحدّد موقفهم الذى هم فيه فى الجبهة الأخرى ، جبهة أهل الكتاب . . وهكذا المنافق دائماً ، إن لم يلتفت إليه أحدٌ ، دلّ هو الناسَ عليه ، بكثرة التفاته إليهم وحَذَره منهم ، وصدق المثل الذى يقول : « يكاد المُريب يقول خذونى ! »

وقوله تعالى : «يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » هو ترجمة لهذه التصوّرات المريضة ، التى يعيش فيها المنافقون . . فهم أبداً على خوف وقلق ، لا يسكنون إلى أمرٍ ، ولا يُقيمون على رأى ، بل تراهم وأعينهم تدور هنا وهناك ، يريدون أن يجمعوا بين الشىء ونقيضه ، حتى إذا فاتهم هذا لم يفتهم ذاك . . فهم مع المؤمنين ، يخشون أن تكون الكرّة لأهل الكتاب . . وهم مع أهل الكتاب يخشون أن تكون الدولة للمؤمنين . . ولهذا فهم يلبسون الإيمان ظاهراً ، ثم يوادّون أهل الكتاب باطناً . . وبهذا ــ كما تُصَوِّر لهم نفوسهم المريضة ــ يحمون أنفسهم من أىّ أذى يصيبهم من أية جبهة غَلَبت ، إذ سَرعان ما يتحولون إلى الجبهة الأخرى التى كانوا قد احتفظوا بمكان لهم فيها . .

فهؤلاء الذين يوادّون غير المؤمنين ، ويُلقون بأنفسهم فى أهل الكتاب ، ويوثقون صِلاتِهم بهم ، إنما يفعلون هذا ليكون لهم منه شفيع عند أهل الكتاب ، إذا كان لهم الغَلَب يوماً على المؤمنين ، فلا يُصيبهم من الدائرة ـ وهى الهزيمة وما يلحق أصحابها من أذى ـ ما يصيب المؤمنين ، إذا هم أصابتهم الدائرة التى يتوقعها المنافقون لهم .

وقوله تعالى : « فعَسى الله أن يأتى بالفتح أو أمرٍ من عنده فيصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين » هو وعيد للمنافقين بما يملأ قلوبهم حسرةً وندماً ، إذ جاء تدبيرهم وبالاً عليهم وخسراناً لهم ، حين قدّروا أن الدائرة ستدور على المؤمنين ، فأخلوا مكانهم من بينهم ، واتخذوا أهل الكتاب أولياءهم ـ ثم هو وعدٌ كريم من الله ، يجىء بتلك البشريات المسعدة للمؤمنين ، وبأنهم هم المنتصرون ، وأن الخزى والخذلان لأعدائهم ، ولمن انضوى إليهم من منافقين .. «فعسى الله أن يأتى بالفتح» الذى يمكّن للمؤمنين من أعدائهم ، وقد جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً فدالت دولة الشرك ، وذهبت ريح النفاق والمنافقين .

وقوله تعالى : « أو أمرٍ من عنده » أى تدبير من عند الله ، يجىء على غير انتظار ، وعلى غير عمل من المؤمنين ، كأن يوقع الشقاق والخلاف بين أحلاف السوء ومجتمع الضلال ، فيفضح بعضهم بعضاً ، ويخذل بعضهم بعضاً ، فإذا أولياء الأمس أعداء اليوم ، يبرأ بعضهم من بعض .

وحَمل هذا الوعد الكريم من الله للمؤمنين على يدى فعل الرجاء « عسى » إنما ليقيم المسلمين على رجاء وأمل فى رحمة الله بهم ، وفضله عليهم ، فتظل قلوبهم شاخصة إلى الله ، ذاكرة له ، ترقب غيوث رحمته ، وفواضل نعمه . . ولو جاء هذا الوعد الكريم قاطعاً منجزاً لما بعث فى القلوب المؤمنة تلك

المشاعر المتجددة ، ولما أمسك بها هذا الزمنَ الطويلَ ، متشوِّفة بأبصارها وقلوبها إلى غيوث رحمة الله ، ومواطر أفضاله ونِعَمه .

وقوله تعالى : « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين » هو عرض لتلك النهاية التى ينتهى إليها أمر هؤلاء المنافقين ، وما يؤول إليه عاقبة مكرهم وتدبيرهم . . إنه الندم والحسرة والخسران .

قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين قسموا بالله جَهْدَ إيمانهم إنهم لمعكم » . . هو عرض لهؤلاء المنافقين فى معرض آخر من معارض الخزى والفضيحة ، فبعد أن دعا الله سبحانه وتعالى كل ذى نظر أن ينظر إلى هؤلاء المنافقين ، ويشهد كيف يتهالكون على أهل الكتاب ، ويرتمون فى أحضانهم، خوفاً من أوهام متسلطة عليهم — بعد أن عرضهم الله سبحانه فى هذا المعرض الفاضح، وتوعدهم بالخزى والخسران، بنصر الله المؤمنين ، وبخذلان الكافرين والمنافقين — جاءت هذه الآية الكريمة ، تدعو المؤمنين إلى أن يديروا النظر مرة أخرى إلى هؤلاء المنافقين ، وأن يقلّبوا صفحات تاريخهم فى الإسلام ، ويتتبعوا مسيرتهم معه . . ثم ليصدروا حكمهم عليهم . . وهنا يكثر حديث المؤمنين عن هؤلاء المنافقين ، ويَلْقَى بعضُهم بعضاً بما اطلعوا عليه من نفاقهم ، فتكثر فيهم القالة ، ويكثر العجب والدهش من أمرهم ، وإذا الفضيحة تجلجل بصوتها فى كل أفق ، وتتحرك بأشباحها فى كل مكان .

وليس ما حكاه القرآن من مقولة المسلمين فيهم : « أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنّهم لمعكم » ليس هذا هو كل ما قيل فيهم . . وإنما هو مضمون ما قيل ، وصميم ما ينبغى أن يقال فى هؤلاء المنافقين . . إذ أنهم كانوا يحلفون بالله للمؤمنين جهدَ أيمانهم — أى بأغلظ أيمانهم وآكدها — إنهم لمع المؤمنين ، ولن يتخلَّوا عنهم فى حرب أو سَلْم . .

وهذا الحَلِفُ نفسه ، والمبالغة فيه هو الذى يكشف المستور من أمرهم ، ويعطى الدليل على أنّهم على غير الإسلام . . إذ أنهم لو كانوا مسلمين حقًّا لَمَا حلفوا وأكدّوا الحلف أنهم مؤمنون ، ومع المؤمنين . . فما دعاهم أحدٌ أن يحلفوا ، ولكنّ كائنَ النفاق الذى يعيش فى كيانهم هو الذى حملهم على أن يستروا كذبهم ونفاقهم بهذه الأيْمان المؤكدة ، حتى لايفتضح مافى قلوبهم . . وهكذا المجرم ، يحوم حول جريمته ، يريد أن يخفى معالمها حتى ولو لم تكن هناك معالم لها . . لأنه لخوفه يتصور أن كل ما كان فى مكان الجريمة من كائنات ، شاهدٌ عليه ، ينادى فى الناس بالإمساك به قبل أن يُفلت .

وقوله تعالى : « حبطت أعمالهم » أى فسد تدبيرهم ، وخاب ظنّهم ، وبطل سعيهم ، فكان ذلك خسران لهم أى خسران . . خسروا المؤمنين الذين أصبحوا فيهم وقد افتضح أمرهم لهم ، وخسروا أولياءهم من أهل الكتاب بعد أن أصابتهم الهزيمة ، وعَلَتْ راية الإسلام ، وعزّت كلمته . .

الآيات : (٥٤ ـ ٥٦)

« يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِ اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ » (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » (٥٦)

التفسير : بعد هذه المراقبة التى اطلع منها المسلمون على هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم ، وألقوْا بأنفسهم فى مجتمع اليهود وغيرهم ، ممن يكيدون

للإسلام ، ويبيّتون الشرّ المسلمين ، وبعد أن عاين المسلمون ما وقع أو ما سيقع للمنافقين من سوء حال وشر منقلب ، وخسران للدنيا والآخرة ـ بعد هذا كان على المسلمين أن يراقبوا أنفسهم، وأن يأخذوا حِذْرهم من أن يرِدُوا هذا المورد الآسن الآثم .. فجاء قوله تعالى : « يٰأَيُّها الذين آمنوا من يرتَدَّ منكم عن دينه » منبِّها لهم ومحذِّرا ، أن من يرتَدَّ منهم عن دينه كما ارتدّ هؤلاء المنافقون الذين عرفوا أمرهم ومصيرهم ، فستكون عاقبة المرتد منهم هى نفس عاقبة أولئك المنافقين : النّدم والحسرة والخزى والخسران المبين . .

والارتداد ، معناه الرجوع إلى وراء ، والعودة من المكان الذى كان قد تحرك منه المرتدّ إلى الأمام . . وهذا يعنى أنه يهدم ما بنى ، وينقض ما غزل ولا يفعل ذلك إلا سفيه أحمق !

وفى إضافة الدّين إلى المؤمن ، وبلفظ المفرد . هكذا : « عن دينه » ما يلفت المؤمن إلى هذا الدين الذى دخل فيه ، وأصبح من أهله ، وأنه دينه هو ، وثمرته عائدة عليه وحده ، وأنه الدّين الذى ينبغى أن يعيش فيه ، ويشتدّ حرصه عليه. إذ هو الدين الذى يدين به كل عاقل . . إنه دينه ، إن كان من أهل العقل والرشاد .

وقوله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبّهم ويحبونه أذلةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » هو معطوف على جواب الشرط ، وليس جوابًا للشرط ، وإن كانت الفاء الواقعة فى جواب الشرط تشير إلى هذا الجواب . .

ويكون معنى الآية هكذا : يأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسيلقى مالقى هؤلاء المنافقون الذين ارتدوا ، من نكال وبلاء وسوء مصير ، ثم إنّه لن يَضُرَّ الله شيئاً ، ولن يضير المسلمين فى شىء ، لأنه سيخلى مكانه ، الذى كان له

فى الإسلام ، ليأخذه من هو أولَى به منه ، وأكرم عند الله ، وأكثر نفعاً للمسلمين ، وأعظم غَنَاء فى الإسلام .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ... » الآية .

وهؤلاء القوم الذين سيأتى الله بهم ، ويدخلهم فى دينه ، قد وُصفوا بأوصاف أربعة :

أولاً : يحبهم الله ويحبونه . .

وحبّ الله لهم : دعوتهم إلى الإسلام ، وشرح صدورهم له ، وتثبيت أقدامهم فيه . . لأنه سبحانه وتعالى هو الذى أحبّهم ، وهو الذى اختارهم ودعاهم . . وهذا فضل عظيم ، ودرجة من الرضا ، لاينالها إلا من أكرمه الله ، واستضافه ، وخلع عليه حلل السعادة والرضوان . . جعلنا الله من أهل محبته ، وضيافته .

أما حبّهم هم لله ، فهو فى استجابة دعوته ، وامتثال أمره ، والولاء له ، ولرسوله والمؤمنين . .

ثانياً : « أذلةٍ على المؤمنين أعِزّةٍ على الكافرين » .

إجماع المفسّرين على أن هذا الوصف ، هو وصف لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا فى الإسلام ، فكانت تلك صفتهم ، وهذا سلوكهم فيه .. « أذلةٍ على المؤمنين » أى متخاضعين للمؤمنين ، لايلقونهم إلا باللّين والتواضع .. « أعزّةٍ على الكافرين » أى أشدّاء وأقوياء ، لايلقى منهم أهل الكفر إلا بلاءً فى القتال ، واستبسالاً فى الحرب . . أما فى السِّلم فهم جبال راسخة فى الإيمان . . لاينال أحدٌ منهم نيلاً فى دينه ، ولا يطمع أحدٌ من أعداء الإسلام فى موالاتهم أو فى تعاطفهم معه .

هذا هو إجماع المفسّرين فى فهم هذا المقطع من الآية ، ويشهدون لذلك بقوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ » (٢٩ : الفتح)

ومع هذا ، فإنى أستريح لفهمٍ آخر ، غير هذا الفهم . . أرى أنه يفتح لهذا المقطع آفاقاً أرحب من هذا الأفق الذى حصره المفسرون فيه ، وأطلعوه منه .

فأقول — والله أعلم — إن هذا الوصف هو وصف لهؤلاء القوم الذين سوف يدعوهم الله سبحانه وتعالى إليه ، وييسّر لهم الطريق إلى دينه .

وفى قوله تعالى « أذِلَّةٍ على المؤمنين أعِزَّةٍ على الكافرين » ـ نرى :

١ — أن هؤلاء القوم المدعوّين إلى ضيافة الله هم من الذين كانوا يستخفّ بهم المؤمنون ، ويحقّرونهم ، لأنهم كانوا على عداوةٍ ظاهرة للإسلام ، وعلى كيد عظيم المسلمين . . فهم — والحال كذلك — ميئوس من دخولهم فى الإسلام ، لا يطمع المسلمون فى أن يكونوا معهم فى يوم ما ، وعلى هذا ، فهم لا حساب لهم فى الإسلام عند المسلمين ، ثم هم فى الوقت نفسه « أعزةٍ على الكافرين » إذ كانوا سنداً قوياً لهم فى مواجهة الإسلام والمسلمين .

وحسبنا أن نذكر هنا خالدَ بن الوليد ، وعكرمة بن أبى سفيان ، وقد كانا هما اللذين كسبا معركة أحدٍ لقريش ، بعد أن كادت الدائرة تدور عليهم. ثم دخلا بعد ذلك فى الإسلام فكانا درعين حصينين للإسلام ، وقوةً من القوى التى استند عليها فى هزيمة الكفر ، وإعلاء كلمة الله . . كانا أذلة على المؤمنين أعزّةً على الكافرين . . هكذا كانا قبل أن يدخلا فى الإسلام .

٢ — أن فى هذا العرض لهؤلاء القوم الذين لم يكن أحد ينتظر منهم خيراً

للإسلام ، ثم إذا هم خير كثير له بعد أن دخلوا فيه ـ فى هذا ما يُغرى أولئك المسلمين الذين تتلجلج فى صدورهم دواعى النفاق ، أن يستمسكوا بمكانهم فى الإسلام ، وأن يرسّخوا أقدامهم فيه ، حتى لا يأخذ مكانهم أولئك القوم ، الذين ينظرون إليهم نظر اتهام وازدراء ، إذا كانوا حرباً على الإسلام والمسلمين . .

٣ — حين ينظر المنافقون إلى هذا المقطع من الآية الكريمة ـ على هذا الفهم ـ ويرون أن رؤوس الكافرين ، وأهل العزّة فيهم سيكونون يوماً فى جانب المسلمين ـ حين يرون هذا يفكرون أكثر من مرة قبل أن يلوذوا بحمى هؤلاء الأعزة الأقوياء ، ويرون أن من الخير لهم أن ينتظروهم على الطريق وهم متجهون إلى دين الله !

٤ — فى هذا الفهم تبدو هناك طريق مفتوحة دائما لمن يكيدون للإسلام ـ وهم غالباً أصحاب دولة وصولةٍ فى مجتمع الكفر والضلال — ينفذون منها إلى الإسلام ، ويعطون من قوتهم له ، ما أعطوه من قبل فى حربهِ ، وعداوته . . وفى عمر بن الخطاب شاهد مبين لهذا .

وهكذا ، يصبح من كان عدواً لله ولرسوله والمؤمنين ، وليًّا لله ، متابعاً لرسول الله ، مجاهداً فى سبيل الله ، على حين يتحول من كان — فى ظاهره — موالياً لله ، ولرسوله ، ولدينه ، عدواً الله ، ولرسوله ، وحرباً على دينه . .

فهناك طريقان : طريق . . يستقبل منه الإسلام ، أقواماً كانوا أعداءً له وحرباً عليه . . وطريق . . يتسلل منه جماعات من المسلمين ، إلى حيث الكفر والضلال . .

ثالثاً : « يجاهدون في سبيل الله » .

هذه صفة ثالثة من صفات أولئك الداخلين فى الإسلام ، المدعوين إلى

ضيافة الله فيه ، بعد أن طَرَد من ضيافته أولئك المنافقين ومَن فى قلوبهم مرض.

فهؤلاء المسلمون الجدد : « يجاهدون فى سبيل الله » ويدفعون عن الإسلام والمسلمين يَدَ البغى والعدوان ، ويعطون ولاءهم كله لدينهم الذى دعاهم الله إليه، وارتضاهم له . . لايضنّون عليه بأموالهم ولا بأرواحهم .

رابعاً : « ولا يخشَوْن لَوْمَة لائم » .

ومن صفاتهم أنهم فى إيمانهم ، وفى جهادهم فى سبيل الله ، لاينظرون إلى غير الله ، ولا يلتفتون إلاّ إلى نصرة دين الله ، لايَثنيهم عن ذلك لومُ لائم ، من قريب أو صديق ، ممن بقى على الكفر من أقاربهم وأصدقائهم . . إنهم باعوا كل شىء ، وتخلّو عن كل شىء ، إلا إيمانَهم بالله ، ونصرَتَهم لدين الله .

وفى قوله تعالى : « ذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاء والله واسعٌ عليم » إشارة إلى أن هذا الذى يجرى فى حياة الناس ، مِن تحول وتبدل ، فيتحول أهل الكفر والضلال إلى الهدى والإيمان ، هو من فضل الله ، الذى استنقَذ به أولئك الضالين الذين كانوا على شفا حفرة من النار . . وهذا الفضل هو بيد الله ، لايملك أحد منه شيئاً « يؤتيه من يشاء » ويصرفه عمن يشاء . . « والله واسعٌ » لايضيق فضله بأحد ، ولا تنفذ خزائنه بالإنفاق . . « عليم » بمن هم أهلٌ لهذا الفضل ، نخصّهم به ، واجتباهم له . . « يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

قوله تعالى : « إنما وليّكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصَّلاَةَ ويُؤتون الزكاة وهم راكعون » . . هو دعوة المؤمنين جميعاً ، مَن دخل فى الإسلام ، ومَن لم يدخل بعد ، أن تكون وَلايتهم ونصحهم لله ولرسوله وللمؤمنين . .

وفى قوله تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » هو صفة للمؤمنين الذين يطمئن إليهم المؤمن ، ويعطيهم ولاءه ونصحه ، ومحبته . وفى هذا تحذير للمؤمنين أن ينخدعوا لمن آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه . .

ومن آثار الإيمان بالقلب أن يقيم المؤمنُ الصلاةَ ، وأن يؤتىَ الزكاة . . يقيم الصلاة خاشعاً ، ويؤدى الزكاة راضياً ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وهم راكعون » أى خاشعون ، فى غير رياء ، أو استعلاء . . لأنهم فى صلاتهم وزكاتهم على عبادة لله ، وفى حضور بين يديه ، فينبغى أن يُعطوا هذا المقام حقّه من الخشوع لله ، والخضوع بين يديه ، حتى يكونوا فى معرض القبول من الله ، لصلاتهم وزكاتهم .

قوله تعالى : « ومن يتولَّ اللهَ ورسولَه والذين آمنوا فإن حزبَ الله هم الغالبون » بيان لما تثمره الموالاة لله ورسوله والمؤمنين ، فإن من يوالى الله يكون من حزب الله ، ومن كان فى حزبِ الله فهو من الفائزين ، لأنه فى ضمان الله ، وفى جنده الذين لا يُغلبُ أبداً . . « كتب الله لأغْلِبَنَّ أنا ورُسلِى إنَّ الله لقوىٌّ عزيزٌ » (٢١ : المجادلة) .

هذا ، وقد ذهب كثير من المفسِّرين إلى أن قوله تعالى : « الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » مرادٌ به « علىّ بن أبى طالب » كرّم الله وجهه . . ويروون لهذا أحاديث ، تفيد أن هذه الآية نزلت فى « علىّ » رضى الله عنه ، وأنّه تصدق على فقير سأله وهو راكعٌ فى الصلاة ، فنزع خاتماً كان فى يده ، وألقاه إليه ، وهو فى صلاته . . !

وفى هذا الخبر أمور . : منها :

أولاً : أن الخطاب عام ، بلفظ الجمع : « الذين آمنوا . . » والوقوف

بالآية عند صريح لفظها خير من التأويل والتخريج ، إذ لا يُعدل عن صريح اللفظ ، إلا إذا كان ما يُخفيه وراءه أولى مما يبديه ظاهره .

والعكس هنا صحيح ، إذ ظاهر الآية وصريح لفظها أولى من حمله على غير هذا المحمل ، كما سترى .

وثانياً : هذا السائل الذى يسأل مؤمناً قائماً بين يدى الله يؤدى الصلاة . . ألاَ ينتظر حتى يفرغ المصلّى من صلاته ؟ أهو غريق مشرف على الهلاك ، حتى يستنجد بمن هو قائم بين يدى الله ، عابداً خاشعاً ؟

ثالثا : الإمام « على » كرم الله وجهه ، وهو فى استغراقه فى صلاته بين يدى ربه . . أيقطع هذا الموقف ، وجلالَه ، وروعته ، ليتصدق على فقير ؟ وماذا لو انتظر حتى يفرغ من الصلاة ؟ أيموت هذا الفقير جوعاً ؟ إن ذلك كان يمكن أن يقع لو أن ناراً عَلِقت بهذا الإنسان الفقير ، وكادت تلتهمه ، ولا مُنقذَ له إلا على بن أبى طالب !

وعلى هذا فالآية الكريمة خطاب عام للمؤمنين جميعاً . . وإنما صَرَفها إلى هذا الوجه من التأويل ، ما جاء فيها من « الولاية » التى يَستخرج منها بعض الشيعة دليلاً على أحقّية علىّ بالخلافة ، وأن هذه الآية تؤيد حديثا يُروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أخذ بيد علىّ كرم الله وجهه ، ثم قال : « من كُنْتُ مولاه فعلىٌّ مولاه .. اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه . » !

والموالاة هنا معناها الحبّ ، والمودة ، لا الخلافة ، فمن أحبّ النبىّ صلى الله عليه وسلم وجب عليه — ديناً — أن يُحبّ آل بيته ، ومنهم علىّ كرم الله وجهه ، بل ووجب عليه ديناً أن يحبّ كل مؤمن . . « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » .

الآيتان : (٥٧ ـ ٥٨)

« يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ » (٥٨)

التفسير : دعوة أخرى من الله ـ سبحانه ـ إلى المؤمنين أن يجتنبوا هؤلاء المنافقين والكافرين ، الذين يهزءون بهم وبدينهم ، ويتخذون من أحاديثهم فى المجالس معرضاً للسخرية بالمسلمين والزراية بدينهم . . وهذا أقل ما فيه هو أن يغار المسلم على دينه ، وأنه إن لم يستطع قطْعَ هذه الألسنة التى تهزأ بدينه وتسخر منه ، فإن أضعفَ الإيمان فى هذا الموقف هو أن يتجنب هؤلاء الساخرين المستهزئين ، وأن ينظر إليهم نظرة العدوّ المتربص به ، فلا يأمن له ، ولا يركن إليه .

قوله تعالى : « واتقوا الله إن كنتم مؤمنين » إشارة إلى أن الغَيْرة على الدين ، والانتصار له ممن ينتهك حرمته ، هو من تقوى الله ، وأن موالاة أعداء الإسلام ، والكائدين له ، والمستهزئين به ، هو مما يُبعد عن التقوى ، ويَحجز المؤمن عن أن يكون من المتقين . . فإذا كان المؤمن مؤمناً حقًّا ، فليتق الله .. وأول مداخل التقوى إلى الله ، هو توقير الله ، وتوقير دينه ، والغيْرة على حرماته ، والدفاع عنها ، واعتبار كل عدوان عليها منكرا ، يدفعه بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان . . كما يقول ذلك النبىّ الكريم فى حديثه الشريف .

وقوله تعالى : « وإذا ناديتم إلى الصَّلاة اتخذوها هُزُوًا » هو استحضار لصورة من صور الهزء والسخرية التى يحـارَبُ بها الإسلام ، فى محيط الـكافرين ، والمنافقين ، ومن فى قلوبهم مرض . . وفى عرض هذه الصورة ما يثير مشاعر المسلمين ، ويُلفتهم إلى هذا العدوان الذى يرميهم به أعداؤهم ، وهم فى هذا الموقف العظيم ، بين يدى رب العالمين . . فإن كل مسلم ينتظم فى صفوف المسـلمين للصلاة يصيبه رشاش من هذا الأذى الذى يَرمى به أعداؤهم فى أعقاب المسلمين ، وهم ركّع وسجود . . ولن يطهّر هذا الأذى ، ويَذهبَ بهذا الرجس ، إلا بأن يأخذ المسلم بحقّه من هؤلاء الذين اعتدوا عليه ، وآذوهُ فى دينه !

وقوله تعالى : « ذٰلك بأنهم قوم لا يعقلون » هو تسفيه لهؤلاء الذين يحادّون الله ورسوله ، ويهزءون ممن يولّى وجهه إلى الله ، راكعاً وساجداً . . ولو عَقَلوا لعلموا أنهم بعملهم هذا ، يحاربون الله ويَصدُّون الناس عن أداء حقّه عليهم من الولاء لجلاله ، والشكران لنعمه . إنهم ظلموا أنفسهم ظلماً فوق ظلم . . ظلموها (أولاً) إذ لم يؤدّوا حق الله عليهم ، وظلموها (ثانياً) إذ يصدّون الناس عن عبادة الله ، بهذا الاستهزاء الذى يُلقونه إليهم وهم بين يدى الله .

الآيتان : (٥٩ ـ ٦٠)

« قُلْ يٰأَهْلَ الْـكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنْزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنَبِّئُـكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَـكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَآءِ السَّبِيلِ » (٦٠)

التفسير : قوله تعالى : « قُلْ يٰأَهْلَ الْكِتَابِ » هو نداء مطلق لأهل الكتاب ، وخاصة اليهود ، وليس المراد بهذا القول أن يلقاهم النبىّ به ، وأن يبلغهم إياه ، وإنما هو قول موجّه إلى النبىّ وإلى المؤمنين . تنكشف به حال أهل الكتاب ، وموقفهم المعادىّ من المؤمنين . . وليس يمنع من هذا أن يستمع اليهود إلى هذا القول ، وأن يعرفوا رأى القرآن فيهم ، إذ كانوا دائماً يتتبعون أخبار النبىّ وما ينزل عليه من كلمات ربّه ، ليبحثوا فيها عن شبهة ، يُضلّون بها المؤمنين ، ويَفتنونهم فى دينهم . .

وفى هذه الآية يرى المؤمنون أن هذا الموقف المعادىّ من أهل الكتاب الذى يقفونه منهم ، لا سبب له ، إلا إيمانُ المؤمنين بالله ، وما أُنزل عليهم من قرآن ، وما أنزل على النبيين قبلهم من كتب الله . . ذلك فى حين أن أكثر أهل الكتاب « فاسقون » أى خارجون على دين الله ، منكرين أو متنكرين لرسل الله وكتب الله . .

تلك إذن هى أسباب هذه الحرب الخبيثة التى يعلنها اليهود على المؤمنين . . إنها عداوة بين المؤمنين وغير المؤمنين ، بين من استجاب لله ورسله ، ومن حادّ الله ورسله .

وقوله تعالى : « قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ » الإشارة هنا إلى موقف أهل الكتاب هؤلاء ، ونقمتهم على المؤمنين ، لا لشىء إلا لأنهم مؤمنون . . وهذا موقف يورد صاحبه موارد البوار والهلاك ، وهذا هو المصير الذى سيصير إليه المعاندون من أهل الكتاب ، الذين وقفوا من النبىّ ومن دعوته إلى الإيمان بالله ، هذا الموقف . . ثم إذ يعرض القرآن اليهودَ المعاصرين للنبوة فى هذا المعرض ، ينتقل بهم فى لمحة خاطفة تردّهم إلى الماضى البعيد ، وتشرف بهم على آبائهم وأجدادهم ، الذين كان لهم موقف من رسل الله كهذا

الموقف الذى يقفونه هم من رسول الله ، ومن المكر بآيات الله ، فكان عقابهم أليماً شديداً ، إذ جعل الله منهم القردة والخنازير وَعَبَدَة الطاغوت ، بهذه اللعنة التى رماهم الله بها ، فمسخت آدميتهم ، ونسخت طبيعتهم ، فإذاهم قردة وخنازير فى صور آدمية ، يعبدون الطاغوت ، ويوالون الشيطان . . والأبناء يعرفون عن يقين خبر هذا البلاء الذى حلّ بآبائهم ، فكانوا مُثلةً فى الناس . فإذا كان هؤلاء الأبناء لم يُمسخوا بعدُ قردةً وخنازير وعبدة للطاغوت ، فإنهم على الطريق الذى يقودهم إلى هذا البلاء ، إذا هم ظلّوا على هذا الموقف من النبىّ ، ومن دعوته ، ولم يَفيئوا إلى السلامة والعافية ، بموادعة النبىّ أو متابعته على دينه .

وفى التعبير عن العقاب الأليم هنا بلفظ المثوبة ، التى يُعبّر بها فى مقام الجزاء الحسن ـ فى هذا ما يشير إلى أن هذا العقاب هو الجزاء الحسن الذى يحلّ باليهود ، إذا هو قيس بما وراءه من ألوان العقاب والنّكال ، الراصد لهم !

الآيات : (٦١ ـ ٦٣)

« وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ » (٦١) وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » (٦٣)

التفسير : النفاق هو الصفة الغالبة على اليهود ، فهو توأم الحسد الذى يملأ قلوبهم ضغينة وحقدًا على الناس . .

فهم إذا التقوا بالمؤمنين لأمرٍ ما بيّتوه فى صدورهم ، أظهروا الإيمان ،

حتى يطمئن إليهم المؤمنون ، ويأمنوا جانبهم . . وهم على الحقيقة ليسوا من الإيمان فى شىء . .

وفى قوله تعالى : « وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ » تغليظ لكفرهم ، وتجسيم له ، لكثافته ، وإطباقه عليهم ، حتى لكأنه يكاد يكون كائناً محسوساً ، يعيش معهم كما يعيش بعضهم مع بعض . . « وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ » . . إنه أشبه بالوليد تحمله أمه على صدرها ، حتى لكأنه قطعة منها ، تغدو به ، وتروح به ، لا تدعه بعيداً عنها لحظة واحدة . . وقد حسبوا أنهم أخفوْا هذا الكفر الذى يحملونه فى صدورهم ، ولكن الله أعلم بما يكتمون ، لا تخفى على الله منهم خافية .

قوله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت » أى أن كثيراً من هؤلاء اليهود ، يأتون المنكرات فى غير تحرّج أو تأثّم ، بل يفعلونها وكأنها قربات يتقربون بها إلى الله . . فهم يُلقون بالكلمات الكاذبة ،الآثمة وكأنّهم يرتّلون مِزماراً من مزامير داود ، وهم يعتدون على حرمات الله ، ويَستبيحون محارمه ، وكأنهم يتناولون طعاماً شهياً ، على جوع وحرمان ، وهم يأكلون أموال الناس بالباطل ، وكأنها مائدة عيسى المنزلة عليهم من السماء !

وهذا كله يكشف عن ضمائر ميتة ، ومشاعر متبلّدة ، لا تتأثّم من إثم ، ولا تعفّ عن محرّم .

وفى قوله تعالى : « لبئس ما كانوا يعملون » حكم يَدين أفعالهم تلك ، ويدمغها بالسوء ، الذى يُردِى أهلَه ، ويُهلك المتلبّسين به .

وقوله تعالى : « لولا ينهاهم الرّبانيون والأحبارُ عن قولهم الإثمَ وأكلهم السّحتَ » هو تشنيع على علماء اليهود ، وأهل الرأى فيهم ، وأنّهم لا ينكرون

هذا المنكر الذى يعيش فيه أتباعهم ، ويموج فيه عامتهم ، وهم الأعين المبصرة فيهم ، ولكنها أعين ترى الحق فتصدّ عنه ، وترى النور فتعشَى به .

وقوله تعالى : « لبئس ما كانوا يصنعون » هو توبيخ لهؤلاء العلماء ، ووعيد لهم ، إذ عرفوا الحق وكتموه ، ورأوا المنكر وسكتوا عنه أو أجازوه ..

ولهذا وصف الله عملهم هذا بأنه ليس مجردَ عمل ، بل هو صنعة ، أى عمل مع علم ، على حين وصف عمل أتباعهم بأنه « عمل » لأنه عمل لا يستند إلى علم ، وإنما مستنده أوهام وأباطيل . . « لبئس ما كانوا يعملون »

الآية : (٦٤)

« وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ » (٦٤)

التفسير : لم تقف جرائم اليهود عند حدّ التطاول على الأنبياء ، والاعتداء على أموال الناس وأكلها سُحتاً وعدواناً ، بل لقد تطاولوا على الله سبحانه وتعالى ، وتعاملوا معه كما يتعاملون مع النّاس ، فقالوا فيه سبحانه تلك القولة المنكرة : « يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » أى ممسكة ، بخيلة ، حتى لكأن غُلاًّ يمسكها ، وقيداً يقيّدها عن البذل والعَطاء ! .

إنهم لا يرضون بما فى أيديهم من هذا المال الكثير الذى سلبوه من الناس ، وجمعوه من كل وجه حرام . . بل هم يريدون أن تتحول الجبال ذهباً ، يكون لهم وحدهم ، لا ينال أحد غيرهم ذرةً منه . .

إنهم يريدون الله أن يكون مترضياً لأهوائهم، مستجيباً لهذا الجشع الذى لا يشبع أبداً .. فإن لم يفعل ذلك كان عندهم إلٰها بخيلاً ممسكاً، لا يستحق أن يُحمد أو يُعبد!.

وقد أخذهم الله سبحانه بهذه القولة العظيمة، فجعل عقابهم من جنس عملهم: «غُلّتْ أيديهم» .. فهذا هو حكم الله عليهم بما جدّفوا هم عليه به .. فجعل أيديهم شحيحة ممسكة، لا تنضح بخير أبداً، ولا تجود بمعروف أبداً .. يجمعون المال، ويشقوْن فى جمعه، ثم لا ينعمون بهذا المال، ولا ينالون منه ما ينال أصحاب المال من أموالهم من مُتع الحياة ونعيمها .. فهم هكذا أبداً .. كائنات مشتتة فى كل وجه من وجوه الأرض، تجمع المال، وترد موارد الهلاك فى سبيله، وأيدٍ شحيحة لا تنفق من هذا المال، ولا تنتفع به .. «كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون».

وليس هذا وحده هو حكم الله فيهم، وعقابه لهم، على تلك الكلمة الفاجرة، بل لقد رماهم الله بعقوبة أخرى، هى آلم وأنكى .. إذ صبّ عليهم لعنته: «ولُعنوا بما قالوا» .. فهم لعنة تمشى على الأرض، لا يراهم الناس إلا كانوا منهم فى وجه عداوة وبغضه، وإلاّ موضع بلاء وانتقام .. «ملعونين .. أينما ثُقِفُوا أخِذوا وقُتّلوا تقتيلا» (٦١: الأحزاب).

وقوله تعالى: «بل يَدَاه مبسوطتان ينفق كيف يشآء» .. تلك هى يد الله، عطَاؤها جزل، ومواهبها تفيض على الأرض والسماء .. له ملك السموات والأرض .. ينفق كيف يشاء، حسب ما يقضى علمه، وكما تقدّر حكمته.

وفى قوله سبحانه: «وليزيدنّ كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً» إشارة إلى أن هذا الذى نزل على «محمد» من هدًى ونور، هو مما بسطته يد الله لعباده من رزق، وإنه لرزق كريم، فيه الغنى كلّه، والسعادة كلها ..

وهؤلاء القوم مدعوون فيمن دُعوا . . إلى هذا الرزق الكريم ، وإلى هذا العطاء الجزل ، ولكنّهم لم يستقبلوا هذا الخير استقبال النعم ، بالحمد والشكر ، بل زادهم ذلك طغياناً إلى طغيان وكفراً إلى كفرٍ . . ولن يكون حالهم أحسن من هذا الحال ، لو بسط الله لهم فى الرزق ، من مالٍ وغيره .. إنهم لن يزدادوا به إلا طغياناً وكفراً . .فهذا شأنهم مع كل نعمة من نعم الله .

قوله تعالى . « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » هو لعنة من لعناتِ الله على هؤلاء القوم ، تقطع معهم مسيرتهم فى الحياة ، متنقلة بهم من جيل إلى جيل ، إلى أن تقوم الساعة . . فالعداوة قائمة بينهم ، يَطْعمون منها طعاماً خبيثاً ، يملأ كيانهم حقداً وبغضاً ، لايطمئن لهم قلب ، ولا يستريح لهم بال ، فهم فى حرب مستعرة فيما بينهم ، وهم فى حرب متصلة بينهم وبين الناس جميعاً . . يُبغضون الناس ، ويُبغضهم الناس ، وتلك هى اللعنة التى تأخذ الملعونين بالبأساء والضرّاء ، مع كل نَفَسٍ يتنفسونه ، من الميلاد إلى الممات . .

وفى قوله تعالى : « إلى يوم القيامة » تأبيد لهذه اللعنة التى لاتُرفع عن الملعونين أبداً ، حتى بعد موتهم .. فتصحبهم إلى قبورهم . وتُبعث معهم يوم يُبعثون .

قوم تعالى : « كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله » النار التى يوقدها اليهود هنا ، هى كيدهم لدين الله ، ولرسول الله .. كلّما نزلت آية من آيات القرآن الكريم ، نظروا فيها ، وتأوّلوها تأويلاً فاسداً ، وعرضوها على ماعندهم من مقولات باطلة مضلّةٍ ، ليفسدوا بها على الناس دينهم . . وفى كل مرة يفعل اليهود هذا تفضحهم آيات الله على الملأ ، فلا يرجعون إلا بالخزى وسوء المنقلب وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « أطفأها الله » أى أنه تعالى بما ينزل من آيات القرآن الكريم على النبى ، يبطل ما دبّر اليهود ، ويُتَبِّر ما كانوا يعملون ،

فإذا نارهم التى أوقدوها قد أصبحت رماداً ، لم يبق منها إلاّ ما اصطبغت به وجوههم وجلودهم ، من سوادِ دخانها ، وذَرُور شررها .

قوله تعالى : « ويسعوْن فى الأرض فساداً » العطف هنا هو على قوله تعالى: « ولعنوا بما قالوا .. » وعلى هذا يكون قوله تعالى « ويسعون فى الأرض فساداً » حكم من أحكام الله عليهم ، وأنه بعض معطيات اللعنة التى صبّها الله عليهم . . فهم أبداً مأخوذون بهذا الحكم ، لايتحولون عنه أبداً . . أى أن سعيهم فى الأرض فساداً هو طبيعة فيهم ، لايتحولون عنها أبداً .

قوله تعالى : « والله لايحبّ المفسدين » هو حكم على اليهود ، يتناولهم هم أولا ، ثم يمتدّ إلى كل مفسد غيرهم ثانياً ، فقد وصفهم الله سبحانه قبل ذلك بأنهم يسعوْن فى الأرض فساداً . . أى أنهم مفسدون ، ثم حكم سبحانه بأنه لا يحبّ المفسدين . . أى لايحبّ هؤلاء الذين وصُفوا بالفساد ، ولم يذكرهم الله تعالى بقوله والله « لايحبهم » ليقيم الوصف الملازم لهم ــ وهو الفساد ــ مقامهم ، فهم والفساد كائن واحد .

الآية : (٦٥ ــ ٦٦)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » (٦٦)

التفسير : العقوبات التى أخذ الله سبحانه وتعالى بها بنى إسرائيل لم تكن

إلا جزاء لما كسبت أيديهم من سوء ، وما اكتسبت ألسنتهم من إثم . . وإلا فهم خلق من خلق الله ، وعبادٌ من عبيده ، لم يَخُصّهم بهذه اللعنات التي مسخَتْ وجودهم وغيّرت خَلْقهم ، إلاَّ لِما كان منهم من محادّة الله ورسله ، ومكر بآياته وكتبه .

ولو أنهم آمنوا كما آمن المؤمنون ، واتقوا الله كما اتقى المتقون ، لكفّر الله عنهم سيئاتهم ، ولمسّهم برحمته ، وأفاض عليهم من رضوانه ، ولسلك بهم مسالك الحق والهدى . . ثم كان جزاؤهم في الآخرة أن ينعموا بجناته التي أعدّها للمؤمنين المتقين من عباده .

فهذا مشهد يراه « اليهود » وكان من حقهم — لو عملوا له — أن ينالوه ويسعدوا به . . ولكنهم — وقد نكصوا على أعقابهم — لن ينالوه أبداً ، ولن يأخذوا نصيبهم منه أبداً .

وقوله تعالى : « ولو أنّهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم » ـ هو إشارة إلى ما بين أيديهم من خيرٍ ضيّعوه ، وما معهم من نورٍ أطفئوه !

فهذه التوراة . . يقول الله فيها . . « إنا أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور » (٤٤ : المائدة)

وهذا الإنجيل . . يقول الله فيه . . « وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور » (٤٦ : المائدة) .

وهذا القرآن . . يقول الله فيه . . « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتقين » (٢ : البقرة) .

هذه الكتب المنزلة من عند الله ، تحمل الهدى والنور . . هي بين يدى

أهل الكتاب — وخاصة اليهود — فلو أنهم أقاموا هذه الكتب على وجهها وأخذوا عنها بعض ما فيها، واستقاموا على أمرها ونهيها، لا استقام طريقهم فى الحياة، ولملأ الله قلوبهم غِنًى ورضًى، ولوجدوا فيما أنزل الله من رزق. هو خير كثير، يسع الناس جميعاً، ويسعد به الناس جميعاً.

ولكنهم كفروا بآيات الله، واتبعوا أهواءهم، وجَرَوْا على ما تمليه عليهم أنفسهم من حقد وحسد، وشَرَهٍ، وتكالب على المال .. فكان الجرىُ اللاهثُ فى الحياة نصيبَهم، وكان الجوع النفسى، والجدب لوجدانى، خاتمةَ مطافهم وسعيهم.

إنهم لم يتوكلوا على الله، ولم يُعطوه أيديهم ليقودهم إلى الخير، ولو فعلوا لكفل لهم رزقاً حسناً، وحياةً طيبة، كما يقول الرسول الكريم: «لو توكلتم على الله حق التوكل لرزقكم كما يَرزق الطير، تغدو خِماصاً (أى جياعاً) وتروح بِطاناً (أى شبعى)».

وقوله سبحانه: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» .. الأمة: الجماعة، والاقتصاد: هو التوسط فى الأمر، وعدم المبالغة فى مجاوزة حدوده . .

والمعنى، أن من هؤلاء اليهود جماعة مقتصدة، أى معتدلة فى زيغها وانحرافها، لم تبالغ فى الزيغ والانحراف، ولم تبعد كثيراً عن طريق الحق . . أما كثرتهم ففى ضلال مبين، وكفر غليظ.

الآية: (٦٧)

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (٦٧)

التفسير : بعد أن عرض الله سبحانه وتعالى أهل الكتاب فى هذه المعارض المختلفة ، فى زيغهم وطغيانهم ، وفيما أُخذوا به من نقمة وبلاء ، وفى غفْلتهم عما بين أيديهم من حق وخيرٍ ، واتّباعهم لما فى نفوسهم من سَرَاب الأهواء والأباطيل ـ بعد هذا كان من الله ـ سبحانه ـ هذا النداء الكريم ، لنبيه الكريم : « يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » ـ فهو أمر مُلزم للرسول أن يؤذّن فى الناس بما يتلقّى من آيات ربّه . . « يٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » . . فتلك هى مناط رسالة الرسول ، وفحوى الحكمة من رسالته . . إنه وَصْلةٌ بين الله والنّاس ، وفى هذا يقول الله تعالى : « يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُم فَأَنْذِرْ » (١ : المدثر) ويقول سبحانه : « فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ » (٩٤ : الحجر)

وقوله تعالى : « وإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » هو تنبيه للرّسول ، وإلفاتٌ له إلى الأمر الذى دعاه الله إليه ، وأنه إن لم يَفْعَلْ فقد حبس هذا الخير المرسل من الله إلى عباده دون أن يصل إليهم . .

وانظر إلى قوله تعالى : « وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ » وقِفْ خاشعاً بين يدى هذا الأدب السماوى ، وأقصر الطرف عن النظر إلى جلال هذا الإنسان العظيم الذى يخلع الله عليه خلعاً وضيئة من فيوض رحمته ، وغيوث رضوانه ، فلا يلقاه ربّه إلا بهذا اللطف العظيم ، فى أمر لو وقع لكان داعيةً لِلوم ، أو الوعيد بالعقاب الشديد !

ولكنه ـ سبحانه ـ يرفع نبيّه الكريم ، عن موطن العتاب ، أو اللوم . . فيقول له ـ جل شأنه ـ « وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رسالته » ! ولم يقل سبحانه : « وَإِنْ لَمْ تَفْعَل فأنت ملوم ، أو مؤاخذ » . .

هكذا أدبُ السماء مع الأصفياء من عباد الله ، وهكذا ألطاف الله مع رسول الله .

ورسول الله خير من يَلْقَى هذا اللطف بما هو أهلٌ له من حمدٍ وشكر ، وسيّد من يقوم لهذه الإشارة بما تقتضيه من جِدّ وعزم . .

فما وهَن الرسول الكريم ، وما ضَعُف عن حمل الرسالة ، واحتمال ما تنوء به الجبال من أعبائها . . فلكم لقى من السفهاء ، والحمقى ، والطغاة ، من بغى وعدوان ؟ حتى لقد خرج مهاجرا من البلد الحرام ، الذى عاش فيه شبابَه ، وقضى فيه أيام صباه ، بين أهله وعشيرته ، وألقى بنفسه فى أحضان الغربة ، فراراً بالرسالة التى بين يديه أن يمسكها المشركون عن أن تبلغ غايتها ، وتملأ أسماع العالمين بهديها ، وتفتح مغالق القلوب بنورها .

وقوله تعالى : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » هو من تمام نعمة الله سبحانه وتعالى على نبيّه الكريم ، فهو ــ سبحانه ــ قد اصطفاه ليكون رسولا للعالمين ، حاملاً مُخْتَتَم رسالات السماء إلى الناس . . ثم لم يدعْه سبحانه ــ يحمل أعباء الرسالة ، ويلقى الضرّ والأذى فى سبيلها دون أن تكون أمداد سماوية تعينه ، وتحمل عنه بعض ما يحمل من أعباء ، وكلاّ . . فقد أمده الله بأمداد من الصبر واليقين ، والعزم ، وإذا هو ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يواجه قريشاً كلها بِصَلَفِها وكبرها ، وبجبروتها وعتوّها ، فلا يلين لها ، ولا يحفل بتهديدها ووعيدها . . ثم إذا هو ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يخوض غمرات الحرب ، ويتقدم صفوف الأبطال والفرسان ، ثم إذا هو ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ يلقى كيد اليهود ومكرهم ، ملاطفاً وموادعاً ، حتى إذا لجّوا فى الضلال ، وتمادوا فى الكيد والبغى ، صدمهم صدمة ألقت بهم خارج الجزيرة العربية كلها .

ومع هذا كله ، مما فضَل الله به على نبيّه الكريم ، من قوة الاحتمال ، وثبات الجَنَان ، ووثاقة العزم - يجىء هذا المدد العظيم ، من ربّ عظيم ، إلى نبي كريم ، تحمله كلمات الله إلى رسول الله : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » . فأى نعمة مع هذه النعمة ؟ وأى تكريم مع هذا التكريم ؟ فالله سبحانه وتعالى هو الذى يأخذ إلى جنابه الكريم ، عبدَه ورسولَه محمداً ، صلوات الله وسلامه عليه ، وإذا هو فى حِمَى ربّ العالمين ، لا يناله سوء من أحد ، ولا يصيبه أذًى من إنسان ! . .

« والله يعصمك من الناس » .. وإنه لو اجتمع الناس جميعاً لما نالوا من محمدٍ نيلاً .. هكذا كان وعد الله ، وهكذا استيقن رسول الله من وعد ربّه ..

ولاشك أن هذا من أنباء الغيب ، ومن تحدّيات القرآن للكافرين والملحدين والمنافقين . . فلو أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أصيب بأذى بعد هذه الآية الكريمة لكان ذلك دليلاً - أى دليل - على أن مايتقوله الكافرون والمنافقون على القرآن الكريم ، وأنه قول بشر ، وتلفيقات إنسان . .

وإذا علمنا أن هذه الآية فى سورة المائدة ، وأن هذه السورة كانت آخر سور القرآن نزولاً ، على أصح الأقوال ، أو أنها من آخر سور القرآن نزولا ، بلا خلاف - إذا علمنا هذا أدركنا السرّ فى تأخر هذا الوعد الكريم إلى أخْرَيات أيام الرسول ، وإلى مختتم رسالته ، وذلك حتى لاينكشف للرسول وهو قائم على طريق الدعوة ، أنه فى ضمان هذه الحراسة الربانية ، وفى ظِلّ تلك العصمة التى عصمه الله بها من الناس ، وذلك ليكون له بلاؤه ، وجهده ، وعزمه ، فى ملاقاة الشدائد ، واحتمال المحن ، مستقبِلاً كل مايمكن أن تتمخض عنه الأحداث ، ولو كان فى ذلك ذهاب نفسه ..

أمّا لو كانَ الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تلقّى هذا الوعد الكريم من ربّه من أول خطواته على طريق رسالته ، لَمَا كان له فضلٌ فى مكابدة الأهوال ، ومصادمة الشدائد ، والتعرض للأخطار ، ولا سوى فى هذا أَوْهَى الناس عزماً ، وأقلّهم صبراً ، وأجبنهم قلباً ، مع أقواهم عزماً ، وأكثرهم صبراً ، وأشجعهم قلباً .. إذ كان كلٌّ منهما يلقى الموت وهو فى أمانٍ وثيق من أنه لن يموت بيد إنسان .

وقد يسأل سائل هنا : إذا كان ماتلقّاه الرسول من قوله تعالى : « يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربّك .. الآية » ـ قد كان فى مختتم رسالة النبىّ ، فما محصّل هذا الأمر بالتبليغ ، وقد بلّغ الرسُول فعلاً ما أنزل إليه من ربّه ؟ ثم ما محصَّل هذه العصمة ، وقد استقرّ أمر الإسلام ، وانطفأت جذوة أصحاب الشوكة والبغى !

والجواب على هذا :

أولاً : أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذ يتلقى هذا الخبر المسعد من الله ، يراجع خط سيره على طريق دعوته ، من أول يوم دعاه الله فيه بقوله : « قم فأنذر » إلى هذا اليوم الذى كادت الدعوة تنتهى فيه إلى غايتها ـ فيرى أنه كان فى ضمان هذه الرعاية الكريمة من رب كريم ، وأن عناية الله لم تتخلّ عنه لحظة ، وأنه كان فى عصمة من الله من أن تناله يد بسوء ، يقطع عليه طريق دعوته ، ويُعجزه عن الوفاء بها .. فهاهوذا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد بلّغ رسالة ربّه ، وجاهد فى سبيلها ، حتى اجتمع الناس عليها ، ودخلوا فى دين الله أفواجاً .. وهذا كله من فضل الله عليه ، ورعايته له .

فى هذه المراجعة يرى الرسول مكانته عند ربّه ، ومنزلته فى المصطفَيْن

الأخيار من عباده .. فينشرح لذلك صدره ، وتنتعش روحه ، ويجد فى هذا جزاء طيباً يستقبله من عند الله ، وهو يوشك أن يحطّ رحاله بعد هذه الرحلة الطويلة المضنية .

ثانياً : أن انكشاف عواقب الأمور قبل أن تقع ، يقطع على الإنسان طريقه إلى العمل والكفاح ، ويُسلمه إلى استسلام أشبه باليأس ، انتظارا للمقدور الذى يسعى إليه ، كما ينتظر راكب القطار مجيئه فى موعده المحدد .

إن فى انتظار المجهول إيقاظاً للمشاعر ، وحفزاً للهمم ، وتشوّقاً إلى ماتكشف عنه الأيام .. فمن يعمل لغاية لايدرى ماعاقبة أمره فيها ، باذلاً جهده فى التمرس بالأسباب ، هو ممسك بوجوده كله ، ينتظر ثمرة عمله ، وغاية سعيه الموصلة لها .. إنه إن بلغ الغاية حمد وسعد ، وإن لم يبلغها فقد أعْذَرَ لنفسه ، ورضى عن مسعاه ، وإن لم يحصّل منه مايريد ..

فكيف بالرسول ، وقد حمل الرسالة ، وواجه بها النّاس جميعاً ، متحدِّياً عقائد فاسدة ، ومتصدياً لقلوب مريضة ، وعقول مظلمة ، وطبائع صلدة متحجرة ؟ كيف به وقد بلغ بصبره ، وجهاده ، وعزمه ، ما أراد الله لدعوته أن تبلغ ؟ إنها سعادة ورضى ، وحمد وشكر .. كل أولئك لوقسم فى الناس جميعاً لوسعهم واشتمل عليهم .

وفى قوله تعالى : « إن الله لايهدى القوم الكافرين » إشارة إلى تلك العصمة التى عصم الله بها النبى من الناس ، وأنه سبحانه لايهدى الكافرين إلى طريق الحق ، كما أنه سبحانه لايهديهم إلى الطريق الذى يَخْلُص منه إلى النبى أذًى على أيديهم .. فقد سدّ الله عليهم المنافذ التى يبلغون بها مايريدون به من أذًى .. « إن الله بَالِغُ أمرِهِ قد جَعَلَ الله لكلِّ شىء قدْرًا » (٣ : الطلاق) .

الآية : (٦٨)

« قُلْ يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ » (٦٨)

التفسير : صِلةُ هذه الآية بما قبلها ، هى أن الرسول الكريم ، وقد بلّغ رسالة ربّه ، وأدّاها إلى عباد الله فاستجاب لها الناس ، ودخلوا فى دين الله أفواجا .. وأن أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ مازالوا على موقفهم من تلك الدعوة ، لم يستجيبوا لها ـ فى جملتهم ـ ولم ينتفعوا بما حملت إليهم من إلفاتهم إلى الكتب التى بين أيديهم ، وتنبيههم إلى ما أدخلوه عليها من تحريف وتبديل ، وما كتموه من حق فيها ، وما تأوّلوه من أحكامها حسب أهوائهم ـ أمّا وذلك هو حال أهل الكتاب إلى هذا اليوم الأخير من أيام الدعوة الإسلامية ، فقد جاء أمر الله سبحانه إلى النبي الكريم يدعوهم دعوة أخيرة ، إلى أن يصححوا موقفهم من التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليهم من ربّهم على يد أنبيائهم ، من أسفار ضمّوها إلى التوراة ، وجعلوها جميعاً كتابهم المقدس . .

ذلك أنهم إذا لم يستجيبوا للنبىّ ، ولم ينتفعوا بما بين يديه من كتاب كريم ، فلا أقلّ من أن يستجيبوا لما فى أيديهم هم ، وأن يقيموه على وجهه الصحيح ، من غير تحريف ، أو تأويل هو أشد خطراً من التحريف ـ فإن لم يفعلوا فهم ليسوا على شىء من الدين .. إنهم ـ والحال كذلك ـ أسوأ حالاً ، وشرٌّ مكاناً ، من الكفار والمشركين ، إذ كانوا أهلَ كتاب فضيعوه ، وأصحابَ

دين فأفسدوه .. وعلى هذا فهم يحسبون أنهم أهلُ كتاب وأهل دين ، وماهم ـ فى الواقع ـ بأهل كتاب ، ولا بأصحاب دين .

وقوله تعالى : « وليزيدنَّ كثيراً منهم ما أُنْزِل إليكَ من ربّك طغياناً وكُفْرًا » هو حكم قاطع مؤكدَّ ، بأنهم لن يُصلِحوا ما أفسدوا ، ولن يستقيموا على التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربّهم ، وإلاّ لكانت لهم رجعةٌ إلى الدعوة الإسلامية ، والتصالح معها ومع النبىّ الذى حملها .. ولكن أمرهم على غير هذا .. إنهم لن يزدادوا بما يسمعون من آيات الله التى تنزل على « محمد » إلا كفراً ، وإلا عناداً وطغياناً ..

وقوله تعالى : « فلا تأس على القوم الكافرين » هو استخفاف بأمر أهل الكتاب ـ وصرف النظر عنهم ، وتركهم فى ضلالهم يَعْمهون ، ليلقوْا المصير السيىء الذى يلقاه المحادّون لله ، الكافرون به ، غير مأسوفٍ عليهم .. إذ كان ذلك من صنع أيديهم ، وما جَنَتْه عليهم أنفسهم ، وقد نُصِحوا فلم ينتصحوا ، وأنذرُوا فلم تُغْنِهم النُّذُر .. ومن كان هذا شأنه فلا يستحق أن يأسى (أى يحزن) عليه أحد .

الآية : (٦٩)

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » (٦٩)

التفسير : الصابئون : هم الذين عبدوا غير الله .. يقال صَبَأَ فلان أى مال. فالصائبون ، قد مالوا عن دعوة الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، واتبعوا أهواءهم ..

وفى قوله تعالى : « والصابئون » بالرفع . بعد قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا » ما يشعر باختلاف النسق فى النظم ، إذ عُطِف المرفوع على المنصوب . . وكان نسق النظم يقضى بأن يجىء هكذا : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى » . . كما تُقرر ذلك قواعد النحو ، ومقولات النحاة .

وهذا أمر قد وقف عنده المفسّرون ، وأكثروا وجوه القول فيه ، والتخريج له ، ليقيموا الآية الكريمة على أصول النحو وقواعده .

فقال قائل : إنه بعد أن طال الفصل بين إنّ وواو العطف فى « والصابئون » ضعف عمل إن فيما بعد الواو ، وصارت الواو أشبه بواو استئناف . . !!

وقال آخر : إن « الواو » واو استئناف فعلًا ، وذلك باعتبار أنها متأخرة على قوله تعالى : « والنصارى » . . أى أن المعنى هكذا : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ، والصابئون كذلك . !!

وهذه التخريجات ، وإن أرضت النحاة ، وسوّت حسابهم مع قواعد النحو ، إلا أنها تذهب بكثير من روعة النظم القرآنى ، وتُخفت كثيراً من أضواء إعجازه .

والذى نراه فى الآية الكريمة ، ونطمئن إليه ، هو أن « والصابئون » معطوفة على الذين آمنوا ، والذين هادوا ، كما أن لفظ « النصارى » معطوف عليها ، وأنها جميعاً واقعة تحت حكم إنّ المؤكدة للخبر ، الواقع على هؤلاء المذكورين جميعاً !

ولكن كيف هذا ؟ وعلى أى وجه كان ؟

نقرأ الآية الكريمة مرة أخرى ، فنرى أربعَ طوائفَ من الناس ، يقع عليها حكم واحد . .

أولاً : الذين آمنوا . .

ثانياً : والذين هادوا . .

ثالثاً : والذين صَبَئوا . .

رابعاً : والذين تنصّروا

ولا يظهر الإعراب فى أية لفظة من هذه الألفاظ الأربع إلا فى لفظة « الصابئون » . .

وقد ذكر القرآن الكريم الذين آمنوا والذين هادوا ، فى صيغة الموصول وصلته ، ولو ذكر « الذين صبئوا » بهذه الصيغة لوقع التكرار الذى يثير اضطراباً فى النظم ، الأمر الذى يترفع عنه كلام الله . .

ولهذا ، عَدَلَ النظم القرآنى عن الذين « صبئوا » إلى قوله تعالى : « والصابئون » . . و « ال » فى « والصابئون » يحتمل معنى الاسم الموصول ، « الذين » وصابئون خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم ، أى والذين هم « صابئون » ومثلها « والنصارى » أى وكذلك الذين هم نصارى . .

وقد كثُر استعمال « ال » بمعنى الاسم الموصول ، إذا اتصلت باسم مشتق ، وهذا الاستعمال عربى فصيح . . يقول ابن هشام صاحب « مُغنِي اللبيب » فى « ال » إنها تأتى على ثلاثة أوجه . . أحدها : أن تكون اسماً موصولاً ، بمعنى الذى وفروعه ، وهى الداخلة على أسماء الفاعلين والمفعولين » ومن هذا قوله تعالى : « الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ » فقد دخلت الفاء فى الخبر ، على تقدير : الذى يزنى والتى تزنى ، فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة . . فذلك الشأن فى خبر الاسم الموصول دائماً ، مثل

قوله تعالى : « واللاَّتى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ . . . وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُمَا » .

ومعنى الآية الكريمة : أن الذين آمنوا ، والذين اختلط إيمانهم بضلال أو فسق وهم الذين هادوا ، والذين هم شرك ظاهر وهم «الصابئون» و«النصارى» — هؤلاء جميعاً هم عباد الله ، وصنعة يده ، وأنهم مدعوون إلى الإيمان به ، والاستقامة على أوامره ونواهيه ، فمن استجاب منهم لله ، وآمن به وعمل صالحاً، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . .

فالإيمان بالله والعمل الصالح هو الذى يقرب الإنسان من ربه ، ويُدنيه من رحمته ، ويؤهله لجناته ، وليس شىء غير ذلك يُتوسل به إلى الله ، وإلى مرضاته .. من جاهٍ أو حسب أو سلطان . . « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (١٣ : الحجرات) .

الآيتان : (٧٠ – ٧١)

« لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ » (٧١)

التفسير : ذكر الله سبحانه فى الآية السابقة أن الناس جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، مدعوون إلى الإيمان بالله ، والعمل الصالح الذى يُرضى الله ، ويستقيم مع ما أمر به ونهى ، وأن من قَبِل ذلك فقد فاز برضوان الله .

ثم جاءت هذه الآية : « ولقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم

رسلا » ـ جاءت لتسجل على اليهود ، أنهم غير معذورين ، بخروجهم عن طاعة الله ، وبإفسادهم لدينه الذى فى أيديهم .. إذ أخذ الله عليهم ميثاقاً بعد خروجهم من مصر ، وأنقذهم من العذاب المهين الذى كانوا فيه ، وأراهم آياته عِياناً ، ففرق بهم البحر ، وأغرق آل فرعون .. وأنزل عليهم المنّ والسلوى ، ونتق الجبل فوقهم كأنه ظلة ، وظلل عليهم الغمام ، وأجرى لهم من صميم الحجر عيوناً ـ بين يدى هذه الآيات الناطقة أخذ الله العهد عليهم أن يؤمنوا به ، وأن يعملوا بأحكام التوراة ، بقلوب سليمة ، وعزائم وثيقة ، فإن القلوب لتخشع ، ولو كانت أقسى من الحجارة ، وهى فى مواجهة هذه الآيات البينات ، فتتقبل الخير وتستجيب له ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ * ثُمَّ بعثنا كم من بعد مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * » (٥٠ ـ ٥٧ : البقرة)

ثم يقول سبحانه : « وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ

مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » (٦٤ ـ ٦٥ : البقرة) .

لقد نقض بنو إسرائيل ميثاقهم مع الله ، الذى أخذه عليهم وهم على بساط هذه النعم الغامرة ، فكفروا وعبدوا العجل ، فعفا الله عنهم ، وأرسل إليهم رسله ، يجمعونهم من أشتات الطرق التى شرّدوا فيها .. فما تبدلت حالهم ، ولا تغير ما بنفوسهم ، فمكروا برحل الله ، وأخذوهم بالعَنَت والعذاب .. كلما جاءهم رسول بما لاتهوى أنفسهم كفروا به ، وبسطوا فيه ألسنتهم بقالة السوء ومدوا إليه أيديهم بالأذى .. فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون .

وقوله تعالى : « وحسبوا ألا تكون فتنة » إشارة إلى أنهم ـ وقد رأوا نعم الله تتظاهر عليهم ـ أنهم بمأمن من الفتن ، وأن لهم أن يفعلوا ما تشتهى أنفسهم ، وترتضى أهواؤهم ، ولم يعلموا أن هذه النعم هى إبتلاء من الله لهم ، وأنها ستكون نقمة عليهم إن لم يشكروا الله ويحمدوا له ، شأن من يتلقى نعم الله من عباده المتقين ، كما فعل سليمان مثلاً ، والذى يقول الله سبحانه على لسانه : « فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى ـ أأشكر أم أكفر » (٤٠ : النمل) .

ولكنهم عموا وصموا عن نعم الله ، فجعلوها أسلحة يحاربون الله ورسله بها ، ويسعون فى الأرض فساداً ..

ومع هذا فقد تاب الله عليهم ، وبسط لهم يد المغفرة ، فلم يزدهم ذلك إلا ضلالا وكفراً ثم عموا وصموا كثير « منهم » أى أن كثرتهم الغالبة لم ترجع إلى الله ، بل ظلت شاردة فى طرق الضلالة والغواية ،وقليل منهم هم الذين كانت لهم من إلى رجعة .. وهذه القلة منهم هم شهود عليهم بالضلال والعصيان ..

الآيات: (٧٢ ـ ٧٧)

«لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» (٧٧)

التفسير: وهؤلاء هم النصارى ـ بعد اليهود ـ قد كفروا بالله، إذ تصوروه فى هذه الصورة المجسدة، التى رأوا فيها عيسى عليه السلام، فجعلوه الله رب العالمين .. «لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ..»

وهى قولة منكرة، أملتها أهواء مضللة، وتأويلات نضحت بها مشاعر فاسدة.

أما المسيح عليه السلام فإنه لم يقل إلا ما قاله القرآن عنه: «يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النّار وما للظالمين من أنصار» فما جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه، إلا ليصحح معتقدات اليهود الفاسدة، وإلاّ ليقيمهم على شريعة التوراة التى أفسدوها، وبعدوا عنها ..

ومن عجبٍ أن الأناجيل الأربعة التي يدين بها المسيحيون ، ليست فيها لفظة واحدة يؤخذ منها أن المسيح إله أو ابن إله ! . وما عُرف المسيح بألوهية في حياته ، ولا عُرف أن أحداً من أتباعه ادّعى له هذه الدعوة ، ولا عَبَده كما يُعبد الإله .

ومن طوائف المسيحيين من جعل الإله ثلاثة آلهة : الأب والابن وروح القدس ، وهي في مجموعها إله واحد ، ولكن لكل من هؤلاء الثلاثة عمل واختصاص في داخل الإله الواحد .. وهذا كفرٌ بالله .. « لقد كفر الذينَ قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة » .. « ومامن إله إلاّ إله واحدٌ » ..

وقوله تعالى : « وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسّنّ الذين كفروا منهم عذابٌ أليم » هو وعيد القائلين بهذه القولة ، للمعتقدين بها ، العابدين الله عليها ، وليس المراد بقوله تعالى : « وإن لم ينتهوا عما يقولون » مجردَ الانتهاء عن القول والكفّ عنه ، وإنما لأن هذا القول هو تَرْجُمان العقيدة ، وعنوانها .. فإذا أمسكوا عن هذا القول ، تحوّلوا عن المعتقد القائم عليه ، وكان لهم قول غيره ، ومعتقد غير معتقدهم ..

وقوله تعالى : « أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم » هو نداء كريم ، من ربّ رحيم ، يدعو به هؤلاء الضّالين عنه ، ليتوبوا إليه ، وليستغفروا لذنبهم العظيم ، بتصورهم الإله هذا التصوّر الخاطىء .. فإذا عادوا إلى الله ، وعرفوه حقّ معرفته ، واستغفروا لذنبهم وجدوا ربّاً رحيماً غفوراً ، يقبل التائبين ، ويتجاوز عن سيئات المسيئين ..

قوله تعالى : « ما المسيح ابن مريم إلا رسولٌ قد خَلَت من قبله الرسل وأمّه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام » .. هو عرض للمسيح ، يكشف عن حقيقته ، وأنه رسول من رسل الله ، وأمّه خلق مما خَلَق الله ، وناس من الناس ، وأنهما يجوعان

كما يجوع الناس ، ويأكلان مما يأكل النّاس ، ويخضعان للضرورات التى يخضع لها الناس .. ومن كان هذا شأنه ، فكيف يكون إلٰها مع الله ؟ . كيف ومِن خلق الله مَن يستعلى على تلك الضرورات المتحكمة على المسيح وأمّه ، كالملائكة مثلاً ؟ فإنهم لايأكلون ، ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولايمرضون !

وقوله سبحانه : « انظر كيف نُبَيِّنُ لهم الآيات ثم انظر أنّى يؤفكون » تعجّب من موقف هؤلاء الذين يرون المسيح إلٰها أو ابن إله ، وأنهم مع هذه الآيات البينات ، التى تكشف لهم عن المسيح ، وتريهم مكانه عِيانا بين الناس ـ إنهم مع هذا لايزالون على ماهم عليه من إفك وافتراء على الله ، إذ يقولون فيه هذا القول الشنيع الآثم .

وقوله سبحانه : « قل أتعبدون من دونِ الله مالا يملك لكمْ ضَرًّا ولا نفعاً » هو تسفيه لعقول أولئك الذين يعبدون من دون الله أرباباً من حيوان أو جماد ، ثم يرجون عندها النفع والضرّ ، وهى فى قيد العجز ، لاتملك من أمر وجودها شيئاً ، فكيف يكون لها فى هذا الوجود سلطان على العباد ؟ ذلك هو الضلال البعيد ، والبلاء المبين ..

وقد اتخذ المسيحيون المسيح إلٰها ، وأضافوا إليه أنفسهم ، بل أضافوا إليه الوجود كلّه .. وما فكّروا أن « المسيح » عيسى بن مريم مخلوق عاجز ضعيف أمام قدرة الله وسلطان الله ..

لقد كان المسيح جنيناً فى أحشاء أمّه تسعة أشهر ، ثم وُلد طفلا ، ترضعه أمه وتغذوه ، وتحمله قبل أن تحمله رجلاه .

أفهذا يكون إلٰها يملك الضرّ والنفع ، ويدبرّ أمر السموات والأرض ؟ ذلك مالا يقبله عقل ، ولو كان به مسٌّ أو خَبَل ! .. إذ أن مسافة الخلف بين الإلٰه والإنسان أوسع من أن يملأها تصوّر ، أو يصل بين طرفيها خيال .

وفى تقديم الضرّ على النفع ، هو مما يجرى مع طبيعة الإنسان ، ويلتقى مع مطالبه ـ فدفع الضرّ مقدَّم عند الكائن الحىّ على جلب النفع .. إذ أن الكائن الحىّ يطلب السلام لنفسه أولاً ، كى يضمن وجوده وبقاءه ، ولا بقاء لحىّ مع وجود الخطر الذى يتهدّد حياته .. فإذا تمكن الكائن الحىّ من استخلاص نفسه من بين الأخطار التى تترصده ، وتريد القضاء عليه ، كان له بعد ذلك أن يطلب ماينفع فى إمساك حياته ، واستمرار وجوده ، مما يتصل بمعاشه ، من طعام ، ولباس ، وسكن ، وغير هذا ..

وقوله سبحانه : « والله هو السميع العليم » هو إلفاتٌ إلى ذات الله سبحانه وتعالى ، وإلى جلال الذات وعظمتها ، التى يختفى أمام بهائها وسلطانها كل ذى جاه وسلطان .. وأنه هو وحده ـ سبحانه ـ السميع العليم ، لاسمْعَ لأحد مع سمعه ، ولا علم لعالم مع علمه .. سبحانه وتعالى عما يشركون .

وقوله تعالى : « قل يٰأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ » المراد بأهل الكتاب هنا ـ هم النصارى ، والدعوة إليهم هى ألا يَغلو فى دينهم ، أى يبالغوا فى الصورة التى ارتسمَت لهم من المسيح ، فى ميلاده وفى المعجزات التى جاءت على يديه . . وأن هذه المبالغة قد أرتهم فى المسيح ما ليس له ، فما هو إلا إنسان ، وُلد كما يولد الناس ، من رحم امرأة ، رُبّى فى حجرها ، ورضع من ثديها .

وقوله تعالى : « غير الحق » هو قيد النّهى عن المغالاة ، إذ هى مبالغة فى طريق الضلال ، وغُلوٌّ فى متابعة الهوى . .

ويجوز أن يكون « غير الحق » مفعول به لقوله تعالى : « لاَ تَغْلُوا » بمعنى لا تتجاوزوا بدينكم حدود الحق ، بل التزموا هذه الحدود ، وقفوا

عندها ، فإن ما بعدها هو الضلال والكفر . « فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنّى تُصْرَفُون » . (٣٢ : يونس)

الآيات : (٧٨ ـ ٨١)

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » (٨١)

التفسير: الذين كفروا من بنى إسرائيل هم عامة بنى إسرائيل ومعظمهم ، ولم يجىء النصّ القرآنى عامًّا شاملًا بلعن بنى إسرائيل جميعاً حتى لا يَدْخل الذين سَلِمَ لهم دينهم منهم ، تحت هذا الحكم ، فيكون ذلك مدعاةً إلى سوء ظنّهم بأنفسهم . أولا ، وبالله .. ثانياً .

ومن جهة أخرى فإن النصّ القرآنى قد حمل ـ معه إلى جانب اللعنة التى رمى الله بها هؤلاء القوم ـ حمل وصفاً كاشفاً لهم ، وهو أنهم كفروا ، ولو جاء النظم القرآنى هكذا : « لُعِنَ بنو إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم » لدخل معهم فى هذه اللعنة الذين آمنوا منهم ، ثم لم يكن هذا الوصف بالكفر مصاحباً لتلك اللعنة صُبّتْ عليهم .

وقوله تعالى : « على لسان داود وعيسى بن مريم » أى أن الله وجّه حكمه باللعنة على الذين كفروا من بنى إسرائيل ، محمولاً على لسان داود وعيسى

ابن مريم . . فقد لعنهم الله سبحانه مرتين . . مرة على لسان « داود » ، ومرة على لسان « عيسى » عليهما السلام .

ولا نسأل ماذا كانت لعنة داود لهم ، ولا عن أى شىء كانت تلك اللعنة التى رماهم الله بها على لسان داود ، وكذلك الشأن فى اللعنة التى جاءتهم على لسان المسيح . . فقد غيّر القوم وبدّلوا فى زبور داود ، وفى إنجيل عيسى .

والذى علينا أن نؤمن به ، هو أن الله لعن اليهود هذه اللعنات على لسان هذين النبيين الكريمين .

قوله تعالى : « كانوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكرٍ فَعَلُوهُ » هو بيان لسبب آخر من أسباب اللعنة التى لعن الله بها بنى إسرائيل ، وهى أنهم مع عدوانهم عل حرمات الله ، وتطاولهم على أنبيائه بالتكذيب وبالقتل ، فإنه لم يكن فيهم من رشيد ينكر عليهم هذا المنكر ، ويردّهم عن هذا الضلال . . « كانوا لايتناهَوْن عن منكرٍ فعلوه » أى لا ينهى محسنُهم مسيئَهم ، ولا يأخذ عالمهم بيد جاهلهم ، فلا تناصح بينهم على معروف ، ولا تناهَى عن منكر .. وليس هذا شأن الجماعة السليمة ، المتنبهة لكل آفة تعرض لأى عضو من أعضائها .

فجماعة اليهود جماعة يعيش كل فرد فيها فى ذات نفسه ، لايعنيه إلا مايتصل به اتصالاً مباشراً ، ولا عليه أن يهلك الناس جميعاً .. وليس هذا شأن عامتهم وحسب ، بل هو شأن رؤسائهم وأصحاب السلطة الروحية فيهم ، وقد نَصّ الله عليهم ذلك بقوله : « لولا ينهاهم الربّانيون والأحبارُ قولهم الإثم وأكلهم السُّحت لبئس ما كانوا يصنعون » (٦٣ : المائدة) .

وقوله تعالى : « لبئسَ ما كانوا يَفْعَلُون » هو تجريم لأفعال اليهود جميعاً ، عامتهم وخاصتهم ، علماؤهم وجهلاؤهم .. أفعالهم كلها منكرة ، لاتتحرّى الحق ، ولاتستقيم عليه .

وقوله تعالى : « تَرى كثيراً منهم يتولونَ الذين كفروا » الضمير فى « منهم » يعود إلى علماء اليهود ، وخاصتهم ، وأنّهم يعطون ولاءهم ومودتهم للذين كفروا من مشركى العرب ، ومن كافرى اليهود أنفسهم ، ليظاهروهم على الدعوة الإسلامية ، وليقودوا جبهة الكفر المتصدّية لها .. وهذا منهم هو كفر فوق كفر ، وضلال فوق ضلال .. إذ لم يكفهم أنهم عرفوا الحق وكتموه ، بل أجلبوا عليه الأعداء ، وكانوا لهم فى حربه سندًا وظهيراً .. فاستحقوا لهذا سخط الله عليهم ، وأن يَصْلَوا النارَ التى أعدّها للعصاة المحادّين لله ورسوله .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى : « لبئس قدَّمت لهم أنفسهم أن سخِطَ الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » .. وقوله تعالى: « أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون » هو مصدر مؤول ، وهو المخصوص بالذم أى بئس شيئاً قدمتهُ لهم أنفسهم ، وأعدته ليوم الجزاء ، سخطُ الله ولعنته لهم فى الدنيا ، والعذابُ الشديد يوم القيامة فى جهنم خالدين فيها أبداً .

قوله تعالى : « ولو كانوا يؤمنون بالله والنبىّ ومآ أُنزل إليه ما اتخذوهم أولياءَ » هو بيان لهذا المرض الخبيث المستكنّ فى قلوب هؤلاء العلماء من بنى إسرآئيل ، وهو أنهم قد أعمى بصائرهم بالحسد ، فألقوا بأنفسهم إلى التهلكة ، وكفروا بالله ، إذ كفروا بالنبىّ وما أُنزل إليه من ربه ، وكان ما بأيديهم من دلائل تدل على نبوته ، وما عندهم من علمٍ به وبرسالته ـ جديراً بأن يجعلهم أسبقَ الناس إلى لقاء هذا النبىّ ، والإيمان به ، والوقوف من ورائه ، والجهاد تحت رايته . . ولكنهم تخلّوا عن مكانهم هذا ، الذى كان ينبغى أن يأخذوه مع النبى ، وانحازوا إلى جهة الكافرين والمنافقين .. حسداً وبغياً .

وفى قوله تعالى : « ولكنّ كثيراً منهم فاسقون » هو حكم على الكثرة

الثالثة من علماء اليهود بالفسق، والخروج عن الطريق القويم، طريق الحق والهدى، إلى طريق الغواية والضلال.. وإن قليلا منهم هو الذي سلم فلم يقع تحت طائلة هذا الحكم..

ولسائل أن يسأل: كيف يحكم على اليهود بالكفر، مع أنهم أهل كتاب، وأنهم يؤمنون بالله، وأن الإسلام قد وضعهم وضعا خاصا في أحكامه، فجعلهم أهل ذمة، وسمح لهم أن يعيشوا في المجتمع الإسلامي، وألا تُهدّم بيوت عبادتهم، وألا يحال بينهم وبين أن يؤدوا شعائر دينهم فيها.. كيف هذا؟!

والجواب من وجوه:

فأولا: هم كافرون ـ لا شك في هذا ـ لأنهم اجترءوا الله، فبدلوا كتاب الله الذي في أيديهم، وحرفوه، ثم ما بقي بأيديهم منه لم يستقيموا عليه، بل تأولوه تأويلا فاسدا، يجري مع أهوائهم وما يشتهون.. فهم ـ وإن لم ينكروا الله ـ قد حاربوا الله، واستخفّوا بكلماته، وجعلوها تبعا لأهوائهم، ولم يجعلوا أهواءهم تبعا لها..

والكافر بالله، والمنكر له، وإن غَلُظ جُرْمه.. وعظُم إثمه ـ هو أخفّ جرما، وأقل إثما، ممن عرف الله واستخف به، وأعلن الحرب عليه، فشوه وجه كلماته، وأراق دم أنبيائه..

وثانيا: هم كافرون ـ لا شك في هذا أيضا ـ لأنهم أنكروا نبوة النبي، وجحدوه، وكفروا بما أُنزل عليه، وهم يعلمون ـ بما في أيديهم من كتب الله ـ أنه رسول من عند الله، وأن الآيات التي بين يديه هي كلمات الله... وفي هذا يقول الله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا

جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين»

((٨٩ — ٩٠ البقرة))

فقد وصفهم الله سبحانه بالكفر أكثر من مرة.. «كفروا به».. «فلعنة الله على الكافرين».. «بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله».. «وللكافرين عذاب مهين».

فهذا بعض ما وصفهم الله به في هاتين الآيتين، وقد وصفهم الله سبحانه بالفسق، ووصمهم بالغضب بعد الغضب، وبعذاب الهون يوم القيامة»..

وثانيا: إن تصور اليهود لله هو تصور خاطئ، فاسد، إذ يرون الله هو إله اليهود وحدهم لا اتصال له مع غيرهم، ولا يعمل لأحد سواهم، ولا يشتغل إلا بهم وبمشكلاتهم.. فهو «رب الجنود» يقودهم في ميادين القتال، ويقاتل لهم وهم ينظرون، كما قالوا لموسى: «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» (٢٤ المائدة).

وهذا التصور خاطئ لله رب العالمين.. إنهم لا يرونه إلا أشبه بإنسان يملك قوى خارقة لا يملكونها، أشبه بآلهة الأساطير التي تولدت في خيال الوثنيين لتحقق لهم أحلاما قصرت أيديهم عن تحقيقها.. ولهذا، فقد طلبوا إلى موسى أن يريهم الله جهرة، أي عيانا، فقالوا كما حكاه القرآن عنهم: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» (٥٥ البقرة)..

فهذا هو إله اليهود الذي يؤمنون به.. إنه إلههم وحدهم.. أما هذا الوجود كله فإله، أو آلهة.. وذلك كفر، أو شرك، أو نفاق.. وقد وصف اليهود بهذه الصفات جميعا..

ورابعاً : جعل الإسلام أهلَ الكتاب أهل ذِمّةٍ ولم يأخذهم بما أخذ به غيرهم ممن لا كتاب لهم من المشركين والكافرين ، كالصائبين والمجوس ، ومشركى العرب وغيرهم ، لأنهم على شبهةٍ من دينٍ ، ولهذا لم يُقم عليهم حدّ القتل ، إذ كان من أصول الإسلام : « درء الحدود بالشبهات » . .

فهم - أى أهل الكتاب - كافرون ، ولكن كفرهم مشوبٌ بإيمانٍ باهت . . وهذا الإيمان على ما فيه ، لا يرفع عنهم الحكم - ديانةً - بأنهم كافرون ، ولكنه يرفع عنهم إقامة حدّ الكفر عليهم بقتلهم ، إذا وقعوا فى حوزة المسلمين وصاروا إلى أيديهم ، وأبوْا أن يدخلوا فى الإسلام . .

فهذا الكفر المشوب بالإيمان ، أو الإيمان المختلط بالكفر ، يعصم دماءهم ، وأموالهم ، ويجعلهم ذمة فى يد المسلمين . . وفى هذا يقول الله تعالى : « قَاتِلُوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرِّمون ما حرّم الله ورسولُه ولا يدينون دين الحقِّ من الذين أوتوا الكتابَ حتى يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صَاغرون » (٢٩ : التوبة) .. فهذه الجزية التى تؤخذ منهم ، وهذا الصَّغار الذى ينضح عليهم من الجزية التى يؤدونها - هو تعزير لهم على جناية الكفر الذى حالت دون إقامة الحدّ عليهم فيه ، شبهةُ الإيمان المختلط بكفرهم .

* * *

تم الكتاب الثالث ، ويليه الكتاب الرابع فى تفسير
الجزءين السابع والثامن . . إن شاء الله ؟ المؤلف

فهــرس

الموضوعات والمباحث التى عالجها هذا المجلد

للمؤلف :

● في العقيدة ●

- قضية الألوهية .. جزءان
- القضاء والقدر .
- المسيح في القرآن والتوراة والإنجيل .
- نشأة التصوف .
- التصوف والإسلام

● في الشريعة ●

- إعجاز القرآن .. جزءان
- التفسير القرآني للقرآن .. ستة عشر جزءا
- النبي محمد صلى الله عليه وسلم
- القصص القرآني
- السياسة المالية في الإسلام
- في طريق الإسلام
- من العقل الإسلامي
- الخلافة والإمامة
- الدعاء المستجاب

● في التراجم ●

- عمر بن الخطاب
- علي بن أبي طالب
- محمد بن عبد الوهاب (الدعوة الوهابية)

● في الأدب ●

الأدب الصوفي في مصر وتجديده